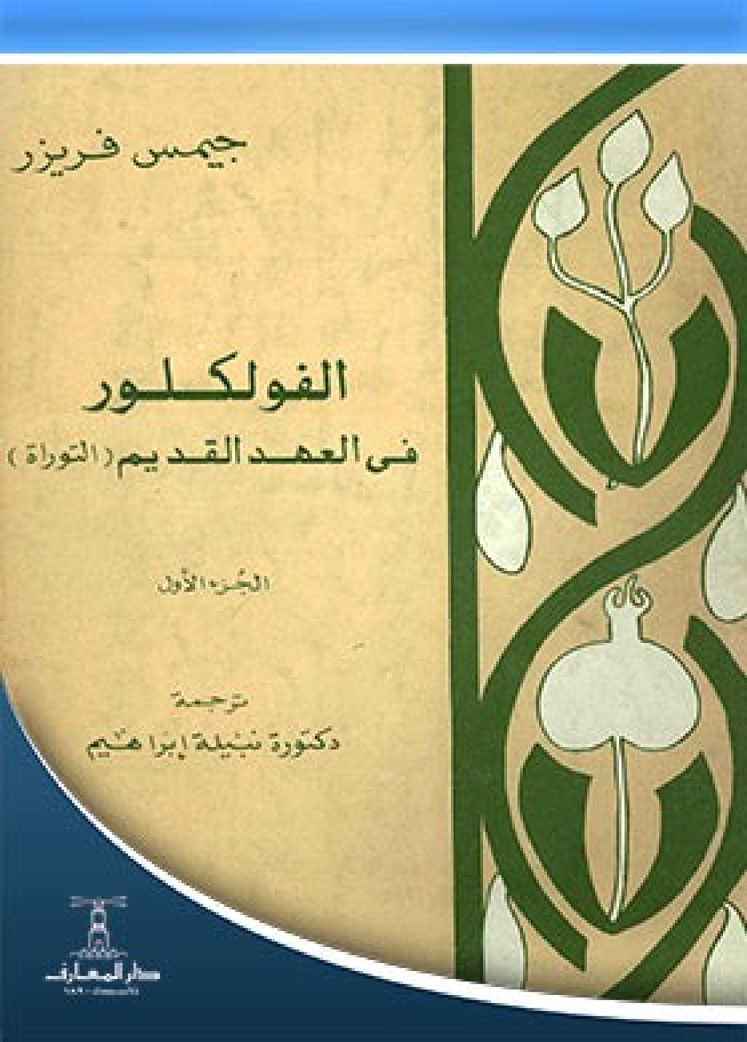

جيمس فريزر
الفولكلور
فى العهد القديم (التوراة)
الجزء الأول
ترجمة
دكتورة نبيلة إبراهيم
دار المعارف

چيمس فريزر

الفولكلور في العهد القديم (التوراة)

الجزء الأول

ترجمة: د. نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : سوسن احمد



الناشر : دار المعارف ـــ ١١١٩ كورنيش النيل ـــ القاهرة ـــ ج٠م٠ع

مقدمـــــة

يقول فريزر فى مقدمة الطبعة المختصرة لكتاب « الفولكلور فى العهد القـديم » التى قمنا بترجمتها : « وقد حاولت فى هذا الكتـاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبـا بعض معتقـدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية فى المراحـل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشـبه ما نجـده لدى القبائل البدائيـة التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجـاح فى هذه المحاولة ، فانه سـيكون من الممكن النظـر الى تاريخ بنى اسرائيـل فى ضوء أكثر صدقا وان يكن أقل رومانسـية ، بوصـفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشـعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شـعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسـودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخـاب طبيعى بطىء » • كما يقول فى خاتمة هذه المقدمة : « ولقد دفعنى الهـدف من دراستى هذه الى أن أنعـم فى النظر بصـفة أساسية فى الجـانب الأدنى من حياة العبريين القـدماء كما تتمثـل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته » ••

ولقد نجح فريزر الى حـد كبير فى تحقيق مأربه ، فكان يضـع يده على طقوس وعادات قديمة ترد بين ثنايا العهد القديم ، من المـكن أن يمر بها القارىء مر الكرام • دون أن يفكر فى مغزاها أو أصلها • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين(١)بصدد مقتل هابيل بيدأخيه قابيل: « فقال قابين للـرب ذنبى أعظم من أن يحتمل ، انك قد طردتنى اليوم عن وجـه الأرض ومن وجهـك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ،

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ ، ١٦ •

فيكون كل من وجدنى يقتلنى . فقال له الرب : لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه . وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » . وهنا يقف فريزر عند عبارة « وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » ويتساءل عن كنه هذه العلامة وعن سبب تعليم الرب لقابيل بها ؛ مستخدما فى ذلك المنهج المقارن الذى تمكن بواسطته من استجلاء مغزى هذا الفعل ، أعنى مقارنته بعادات مماثلة كانت أو لا تزال تعيش بين الشعوب البدائية التى تعيش مرحلة متخلفة من التطور الحضارى . ومثال ذلك أيضا ما ورد فى قصة آدم فى سفر التكوين [1] : « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد . فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها . فطرد الانسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . وهنا يتساءل المؤلف عما اذا كان الرب الرحيم الذى أسكن آدم وحواء وأنعم عليهما من كل الخيرات ، كان يخشى حقا أن يأكل الأبوان الأولان من ثمار شجرة الخلد فيصبحا خالدين مثله . وقد دفعه هذا التساؤل لأن يتعرض لفكرة الخلود عند الشعوب البدائية وعلاقتها بالحية التى أوقعت آدم وحواء فى الخطيئة كما هو مذكور فى التوراة . وقد استخلص الكاتب من ذلك كيف أن كاتب السفر قد خلط بين قصة الخلق الأصلية وبين المعتقدات والتصورات البدائية ، وكان نتيجة هذا الخلط أن نسبت قصة التكوين فى التوراة الى الرب صفات لا تليق بوحدانيته وألوهيته .

وبهذا استطاع فريزر من خلال القراءة المتفحصة للتوراة ، ومن خلال تخصصه العميق فى علم الأنثروبولوجيا : أن يحصى ما فى التوراة

---

(1) سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

من تقـــاليد وعادات وتصورات بدائية ، وأن يقـــوم بتحليلها وفحصها واستبيان كنهها عن طريق المنهج الأنثروبولوجى المقارن •

وربما حق لنـــا أن نتســـاءل بعـــد ذلك عن سبب احتفاظ الدين اليهودى بهذه الكثرة اللافتة من المعتقدات والطقوس القديمة • فالواقع أن الدين اليهودى هو أول الأديان الســـماوية • واذا كان الدين المسيحى قد جـــاء من بعده ثم الدين الاســـلامى ، فمن المفـــروض أن الدين الجـــديد لا يأتى لتغيير جـــوهر دين ســـماوى سبقه ، اللهم الا اذا كان الناس أنفســـهم قد غيروا هذا الجوهر ، وانما يأتى الدين الجـــديد لتأكيد الدين الذى سبقه من ناحية ، ولسن تشريعات جـــديدة أو توضيح وتفصـــيل بعض ما أوجزه الدين الســـابق من ناحية أخرى • ومعنى هذا أن الدين الســـماوى برىء مما تضمنته التـــوراة من معتقـــدات وتصورات بدائية ، وأن هذه المعتقدات والتصورات أقحمت على التوراة اقحـــاما • •

وااذا كان فريزر قد اســـتطاع أن يبرز ما فى التوراة من بقـــايا معتقدات وديانات قديمة ، ففى وسعنا الآن أن نشير الى مدى تأثـــير هذه المعتقدات والديانات على الدين الســـماوى وفقا لمفهومه الواسع ، أو بتعبير آخر فاننا نشير الى مدى ما ألحقته هذه المعتقدات والديانات بالدين السماوى من تشويه ••

ان الأديان الســـماوية تهدف أولا وقبل كل شىء الى القضـــاء على عبادة الأوثان بشتى مظاهرها ، كما أنهـــا تهدف الى السمو بمرتبة الأنبيـــاء وتقدير صـــفاتهم التى تســـمو فى مجملها فوق صفات البشر العاديين بوصفهم قادة لهم ونماذج بشرية يحتذى بهـــا • وهى تهدف كذلك الى تنزيه الخـــالق سبحانه عن كل الصفات الانســـانية • فاذا نظرنا الى التوراة فى ضوء ما أوضحه فريزر ، فاننا نجد أن الدين اليهودى

على هذا النحــو تكتنفه بعض مظــاهر عبــادة الأوثان ، فقد قدس أنبياؤهم بعض الأشجار وبصفة خاصــة شــجرة البلوط كما أشــار المؤلف الى ذلك ، وكمــا استشهدنا على ذلك بكثير من نصــوص التوراة فى المكان المناسب من الترجمــة . وكان يعقــوب قد رأى فى رؤيــاه حجرا انتصب فوقه ســلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه ، فلمــا استيقظ نصب الحجــر وصب فوقه الزيت وعــده مقدســا ، ومنذئذ أصبح الحجر مقدســا لدى العبريين القدماء . ولم يثق ابراهيم بعهد الرب فى أن أرض الميعــاد ستكون له ولقومه من بعــده ، الا بعد أن أدى الطقوس القديمة التى كان النــاس يتبعونها عندما يتعــاهد طرفان عــلى أمر من الأمــور ، فتذبح ذبيحة وتشــطر ثم يمر بين شطريها الطرفان المتعاهدان . « وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها . فقال أيهــا السيد الرب بمــاذا أعلم أنى أرثهــا . فقال له خــذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشــا ثلاثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوســط وجعــل شــق كل واحد مقــابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها ، ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على أبرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستبعدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة ، ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينهــا ... ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، واذا تنور دخــان ومصــباح نار يجــوز بين القطع . فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا ، لنســلك أعطى هــذه الأرض بين نهــر مصر الى النهــر الكبير نهر الفرات » [1] . ولعلنا نلاحظ فى هذه الأمثلة وغيرها أن اليهودى كان يســعى دائما لأن يكون بينه وبين الرب وســاطة حسية تعد من وجهة نظره مقدســة قداســة الرب ، فالبلوطــة مقدسة والحجر مقدس

---

(1) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

والذبيحة المشطورة التى يمر الرب بين شطريها فى شكل دخان مقدسة كذلك • وعلى هذا النحو تتمثل قوة شمشون فيما يستمده من آلاله من قوة ، بل كانت قوته مستكنة فى خصلات شعره التى لم تقص قط منذ نعومة أظفاره • فلما قصت خصلات شعره ، فقد شمشون قوته وخارت قواه ولم يعد بعد شمشون الجبار •

فاذا انتقلنا الى تصوير التوراة للأنبياء فاننا نقرأ عجبا • ويكفى أن تكون شخصية يعقوب على هذا النحو الذى صورته التوراة من الخداع والغش والحيلة والمكر حتى يمكننا أن نضع أيدينا على الصفات المستحبة عند الرجل اليهودى • فيعقوب فى التوراة رجل مادى ذكى لبق • وقد استطاع بهذه الصفات أن يخفى ما به من صفات لا انسانية مثل الخداع والغش والمكر • ولم تكتف التوراة بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادت فأكدت له هذه الصفات فى معاملته لخاله لابان • فقد كان يعقوب ينوى أن يسلب الجزء الأكبر من قطيع خاله لابان وأن يرحل به سرا مع بناته اللاتى كان قد تزوج بهن وخدم خاله مقابل ذلك عدة سنين نمى له فيها قطعانه وأغنامه • ولننظر الآن الى الحيلة التى عمد اليها يعقوب فى سبيل اتمام هذا الغرض كما تصورها التوراة• فقد اتفق يعقوب مع خاله أن يأخذ لنفسه كل الغنم المخطط والمرقط ويأخذ خاله الغنم الأسود • ووافق الخال على ذلك ، لأن الغنم المخطط والمرقط لم يكن كثيرا • « ثم أخذ يعقوب لنفسه قضبانا خضرا من لبنى ولوز ودلب ؛ وقشر فيها خطوطا بيضاء كاشطا عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب •• فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا وأفرز يعقوب الخرفان•• وجعل له قطعانا وحده ولم يجعلها مع غنم لابان • وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن وضع يعقوب القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان •• وحين استضعفت الغنم لم يضعها • فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب • فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير

وجوار وعبيد وجمال وحمير » • ثم جاء الى زوجتيه وقال لهما : « قد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى » • وبهذا « خدع يعقوب قلب لابان الآرامى اذ لم يخبره بأنه هارب »[1] ••

ولم يكن صموئيـــل أقل حيلة ومكرا من يعقــوب • فعنــدما ثار الشعب اليهودى ضد الحكم الكهنوتى ونادى بأن يحكمهم ملك دنيوى ، عين صموئيل الملك شاءول ملكا على بنى اسرائيل بتفويض من الرب كما تذكر التوراة • وقد وقع اختيار صموئيل على شاءول بصفة خاصة لأنه كان يود أن يكون الملك الجديد خاضعا لسطوته • وعلى الرغم مما كان يتمتع به شاءول من هيبة وجلال أكسباه حب الشعب اياه ، فانه كان فى الوقت نفسه يتميز بجانب ضعيف فى شخصيته أدراكه صموئيل كل الادراك قبل أن يقع اختياره عليه • ولكن عندما بدأ صموئيل يشعر بأن شاءول قد أخــذ يستقل عنه ، وأن الشعب أخــذ يتجمع من حــوله ، أسرع وبحث عن مناوىء له متمثلا فى داود • واستطاع داود أن يجمع من حوله زمرة من بنى اسرائيل ، وبذلك دب الخلاف بينه وبين شاءول • ولم يكن فى استطاعة شاءول فى هذه الحالة وهو الانسان المرهف الحس، أن يقود الجيش ضد الفلسطينيين • لما كان صموئيل قد مات فى ذلك الوقت ، فقد فزع شاءول الى قبره لعله يعينه فى مأزقه • واستطاعت ساحرة عين دور أن تستحضر له روح صــموئيل • فصرخ به شــبح صموئيل قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى • فقال شـــاءول ، قد ضاق بى الأمر جــدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع • فقال صموئيل ، ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك ، وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى • وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب »[2] •

---

(١) سفر التكوين ٣٠ : من ٢٧ الى ٤٣ •
(٢) سفر صموئيل الأول ٢٨ : ١٥ الى ١٨ •

والواقع أن من يقرأ سفر صموئيل لا يرى أن شاءول قد ارتكب اثما فى حق الرب أو فى حق صموئيل • فقد كان صموئيل قد أمره بمحاربة شعب العماليق وقال له : « ولا تقف عنهم بل اقتلهم رجلا وامرأة ، طفلا ورضيعا » • فامتثل شاءول لأوامره وقبض على أجاج ملك العماليق وأحضره الى صموئيل حيا • ولكن الشعب اليهودى استحل لنفسه ذبح بعض الغنائم مثل خيار الغنم والبقر • فلما تهدده صموئيل قائلا : « لماذا لم تسمع لصوت الرب بل ثرت على الغنيمة وعملت الشر فى عينى الرب » تحداه شاءول قائلا : « انى قد سمعت لصوت الرب وذهبت فى الطريق الذى أرسلنى فيها الرب وأتيت بأجاج ملك عماليق •• فأخذ الشعب من الغنيمة غنما وبقرا أوائل الحرام لأجل الذبح للرب الهك » • واذا كان صموئيل قد عين شاءول ملكا على الشعب اليهودى بتفويض من الرب كما يتضح من قوله : « اياى أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه اسرائيل » ، فانه عاد وعبر عن حقده عليه فى خاتمة تجربته معه فقال : « والرب ندم لأنه ملك شاءول على اسرائيل » [1] ••

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى طريقة تشخيص التوراة للرب ، فاننا نجد فى هذا التشخيص أثر المعتقدات والتصورات القديمة من ناحية ، كما نلاحظ من ناحية أخرى عدم مقدرة اليهودى على السمو بالخالق وتنزيهه عن الصفات البشرية • فقد ظهر الرب ليعقوب فى صورة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى لا ينفلت منه الا بعد أن يباركه ويبارك قومه ، وكأنه لم يكن ليحصل على بركة الرب الا على هذا النحو « • فبقى يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر • ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع فخذ يعقوب فى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر • فقال له لا أطلقك ان لم تباركنى • فقال له

---

(١) انظر سفر صموئيل الأول الاصحاح الخامس عشر والسادس عشر •

ما اسمك ؟ فقال يعقوب • فقال لا يدعى اسمك فيما بعـد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت • وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك » (١) ••

واذا كان الرب قد صور في التوراة على هيئة انسانية ، فلا عجب أنهـا خلعت عليه صـفات انسانية ، بل صفات غير محببة الى النفس البشرية • فقد طرد الرب آدم وحواء وفقا لقصـة التـوراة ، لا لمجرد مخالفتهما للمحظور الذى حذرهما منه الرب ، ولكن لأنهما سلباه صفة كان يود أن يستبقيها لنفسه دون البشر وهى معرفة الخير والشر • ومن ثم فقد أسرع الرب فى طردهما من الجنة قبل أن يتمكنا من أن يسلباه صفات الهية أخرى وبصـفة خاصة صفة الخلود ، وذلك اذا ما تهورا وأكلا من الشجرة الثانية المحرمة وهى شجرة الحياة • « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله من جنـة عدن ليعمل الأرض التى أخـد منها » • بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الانسان على شجرة الخلد خلسة ولذلك فقد جعل « لهيب سيف منقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (٢) ••

وربمـا كان هـذا المجـال مناسـبا لأن نقارن ما رواه القرآن بما روته التـوراة فيمـا يختص بالقصص الدينى الذى تعرض فريزر لبحثه فى هـذا الكتاب ، حتى نلقى بذلك مزيدا من الضـوء على مدى ما اعترض القصص الدينى فى التوراة من تحرير وتغيير ••

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجتك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هـذه الشجرة فتـكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

---

(١) سفر التكوين ٣٢ : من ٢٤ الى ٢٩ •
(٢) سفر التكوين ٣ : من ٢٢ الى ٢٤ •

بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين . » كما قال تعالى فى سورة طه : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبـــدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . » فهذه الآيات تقدم الخطوط الأساسية لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا فى الجنـــة الى أن أخرجا منها . فبعد أن خلق الله آدم وحواء أمرهما ألا يأكلا من شجرة ما فى الجنة ، فلما عصيا أمره أخرهما الله من الجنـــة وجعلهما يهبطان الى الأرض ليعيشا فيها هما ونسلهما من بعد حياة غير خالدة . فالمسألة هنا تتعلق بتحريم وعصيان لهذا التحريم ، أو هى بتعبير آخر اختبـــار لطبيعة الجنس البشرى ، تلك الطبيعة التى لازمت الانسان منـــذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وهى التى تتمثل فى ضعفه أمام قوة الاغراء المادى . واذا كان هذا هو هدف القصـــة ، فاننا نجـــد أن القرآن قد نحا الى التجريد الذى هو من أخص خصـــائص القرآن الـــكريم . ومن ثم فان القصة لم تصـــور لنا كيف استطاع الشـــيطان أن يقتحم عالم آدم فى الجنـــة ، كما أنها لم تصـــف الشـــجرة التى حرمت عليه . واذا كانت الشجرة قد وصفت بأنها شجرة الخلد على لسان الشيطان ، فانما كان هذا على سبيل اغراء الشيطان لآدم بالأكل منها .

ولما كانت قصة آدم فى القرآن قد عرضـــت على هـــذه الصـــورة التجريدية ، فقد كان من الطبيعى أن يخوض المفسرون فى تفصـــيلاتها ، وأن يتركوا العنان لخيالهم لكى يصوروا كيف خلق الله آدم، بل الطريقة التى أحضر بها الطين من الأرض ، وطبيعة الشجرة التى نهى الله آدم عن أكل ثمرها [1] ..

ومن المفسرين من يقف موقف الحذر ازاء هذه التفصـــيلات حيث ان القرآن لم يتعرض لها فى شىء . ومن ذلك ما ذكره الطبرى معلقا على

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج ١ من ص ١٥٣ الى ١٨١ (ط . دار المعارف) .

آراء المفسرين الذين خاضوا فى وصف الشجرة المحرمة ، فقال :
« ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده
دليلا على ذلك فى القرآن أو فى السنة الصحيحة . فأنى يأتى ذلك من
أتى ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل
كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها » (١) ..

ومن المعروف أن تفسير القرآن قد تعرض لتأثير ما سمى
بالاسرائيليات . واذا كانت قصة الخلق فى التوراة لقد ذكرت غواية
الحية لحواء ، فان هذا التصوير لم يكن بعيدا عن أذهان المسلمين الذين
حاولوا أن يوفقوا بينه وبين ما ذكره القرآن الكريم من غواية الشيطان
لآدم وحواء معا . ومن ثم فقد صور الخيال الشعبى الشيطان وقد دخل
فى جوف حية حتى يصل الى الجنة التى كان قد طرد منها من قبل .
واذا كانت التوراة قد لعنت الحية على لسان الرب عندما قال لها
« ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك
تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك » (٢) . فان هذه الصورة قد
انتقلت بدورها الى التفسير ، فصورت الحية قبل أن تحل بها اللعنة
بأنها كانت لها قوائم كقوائم الجمل . فلما حلت بها اللعنة ، فقدت
قوائمها وأصبحت ترحف على بطنها .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى قصة التوراة ، فاننا نفاجأ أول الأمر
بأن القصة تنحو الى تشخيص الرب على نحو انسانى . فهو يتمشى فى
الجنة فى المساء الرطب ، وهو ينادى آدم الذى اختبأ وراء الشجر ،
ولم يكن يعرف آنذاك أنه قد أكل من الشجرة المحرمة . ثم انه صنع
لآدم وحواء ثيابا من الجلد وألبسهما اياها بدلا من ورق الشجر الشحيح
الذى غطيا به عورتهما . وعلى هذا النحو تتعرض القصة لذكر تفاصيل
عن الشجرتين المحرمتين ، فتذكر أن احدى الشجرتين كانت شجرة

---

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٧٩ .
(٢) سفر التكوين ٣ : ١٤ .

معرفة الخير والشر وأن الشجرة الأخرى كانت شجرة الحيـــاة • فلما أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر وأصـــبحا ندا للاله ف المعرفة ، خشى أن يأكلا من شجرة الحياة فطردهما من الجنة ••

وبهذا تختلف قصة آدم وحواء ف كل من القرآن والتوراة اختلافا جوهريا •• ففضلا على اختلافهما فى طريقة العرض ، فانهما تختلفان فى المغزى والهدف • فاذا كان آدم قد أخرج من الجنة فى قصـــة القرآن ، فلأن سكناه ف الأرض كانت مقدرة له من قبـــل بدليـــل قوله تعـــالى للملائكة قبل خلقه آدم: « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل ف الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال انى أعلم مالا تعلمون » • فاذا كان عصـــيان آدم الله مقدرا له من قبل ، فان هدف القصة يتضح بعد ذلك وهو تأكيد النوازع الانسانية ، وابراز جوانب لضعف فيها التى جعلتها موضوعا لاغراء الشيطان على الدوام • أما قصة التوراة ، فقد أخرج الله آدم من الجنة غيظا منه وحنقا عليه ، لأنه أصبح نده فى المعرفة • وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد ••

فاذا انتقلنا الى قصة قابيل وهابيل ف كل من التوراة والقرآن ، فاننا نجد أن قصة التوراة قد أضافت تلك الاضافة التى حيرت مؤلف هـــذا الكتاب فأخذ يتســـاءل عن مغزاها الى أن ردها الى المعتقـــدات والعادات البدائية • فقد تضرع قابيل الى الرب بعد أن قتل أخاه وقال له : « انك قد طردتنى اليوم عن وجه الارض ومن وجهى أختفى وأكون تائها وهاربا ف الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » • ويبـــدو أن الرب قد حنا عليه رغم فعلته الشائنة فقال له : « لذلك كل من قتـــل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » [1] • وهنا نجد أنه على الرغم من أن قابيل قد قتـــل

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٣ الى ١٦ •

أخاه فقد أعلن الرب وفقا لنص التوراة ، أن من قتل قايين منه بسبعة أضعاف جريمته ...

أما قصة قابيل وهابيل فى القرآن فترد على النحو التالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين. انى أريد أن تبوأ باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » [1] . وهنا يؤكد الله سبحانه وتعالى تأصل الشر فى الجنس البشرى ، حيث ان قابيل القاتل سوف يترك من ورائه سلالته التى تنزع مثله الى الشر ، كما أنه أكد نهاية بنى الانسان عندما يموتون ويوارون فى التراب ..

والفرق جلى بين صورة يعقوب فى القرآن وصورته فى التوراة . فأين صورة الشيخ الجليل الذى أخذ يبكى على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه ، والذى كان يعلم بمكر بنيه ورد عليهم فى وقار قائلا : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » [2] ، من تلك الصورة الماكرة الخادعة التى رسمتها التوراة للنبى الجليل ! ..

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للاله والأنبياء على هذا النحو ،ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات الوثنية . فهل يرجع سبب هذا الى أن التوراة قد كتبها مؤلفون حوروا ما شاء لهم التحوير فى روايات دينهم ، وعبروا عن معتقدات اليهود

---

(١) سورة المائدة من آية ٢٦ الى ٣٠ .
(٢) سورة يوسف من الآية ١٨ .

وتصوراتهم بصفة عامة ؟ ولكن لماذا ظل اليهود مرتبطين بهذه المعتقدات البدائية على الرغم من نزول الدين السماوى على موسى ؟ ربما استطعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات المختلفة اذا استطعنا أن نغوص بعض الشىء فى فلسفة الأديان ..

وأول شىء ينبغى علينا أن نقرره بهذا الصدد ، هو أن العقيدة ضرورة روحانية تنبثق من ذات الانسان فى كل زمان ومكان ، سواء كانت العقيدة فى شكلها الأولى الساذج أو كانت فى صورتها المتطورة الراقية . وأساس العقيدة هو احساس الانسان بالارتباط بقوة أكبر منه لا يريد أن يتحرك الا من خلالها.فالانسان البدائى لم ير اذن فى الرعد والبرق والمطر والنور والظلمة آلهة لمجرد أنه كان يخاف من الرعد أو يرغب فى المطر الى غير ذلك ، وانما رأى فى هذه الظواهر آلهة تعبيرا عن احتياجه النفسى الى الارتباط بقوة علوية يتحرك ويرغب من خلالها . فالاله والانسان منذ قديم الزمن ليسا قوتين تقف كل منهما فى مقابل الأخرى ، بل هما بالأحرى متداخلتان . ذلك أن الانسان يجد نفسه مرتبطا بالاله وواقعا فى أسره ، وداخلا ضمن ملكوته . ولا عجب بعد ذلك أن نجد العقيدة تحتضن العناصر الآتية : الحب والادراك والمقدرة على تشخيص طبيعة الاله ،والارادة والتأثير . فبدون الحب تكون العقيدة عمياء ، وبدون الادراك تكون العقيدة باهتة ، وبدون المقدرة على تمثيل الخالق تكون العقيدة غير حقيقية وبدون الارادة والتأثير تكون العقيدة غير مثمرة [١] . ولا تخلو أكثر الاشكال الدينية سذاجة من ادراك للقوة فوق الطبيعية ومن الاحساس بالحب ازاءها ، ومن المقدرة على تشخيصها ، وأخيرا من العادات والطقوس التى تعبر عن ارادة الانسان والسعى الى التأثير فى هذه القوة الالهية ..

فاذا أصبح تصور القوى الالهية حيا فى نفس الانسان ، أصبح للظواهر الطبيعية والأحلام والموت الى غير ذلك مغزى دينى ، واكتسبت

(١) Othamar Spann : Religious Philosophie, p. 12 (Wien 1947).

مخاوفه ورغباته صفة روحانية . ويمكننا أن نتمثل موقف الانسان من القوى العليا وطريقة وصوله اليها اذا تصورنا شـكلا مخروطيا تقع فى قمته القوة العليا وفى أسفله يقف الانسان ، وبين القوة العليا والانسان يقف الوسيط الذى يتمثل فى الطبيعة بشتى مظاهرها . وهناك وسيلتان يصل بهما الانسان الى القوى العليا ، طريق مباشر دون وساطة وهو ما يسميه الفلاسفة طريق الأحوال الصوفية ، وطريق آخر غير مباشر يصطدم فيه الانسان بالوسيط الذى ربما كان عائقا فى سبيل وصول الانسان للالتحاق بالقوى العليا ، ويسمى طريق الأحوال السـحرية . وكلاالطريقين يخوضهما الانسان نتيجة وعيه بذاته. فالوعى بالذاتكما قال هيجل يعنى الوعى بذاتية الذات وموضوعيتها . فعندما تسعى الذات الى تشخيص الذات العليا ، فان هذا التشخيص يمثل الجانب الموضوعى من هذا الادراك (١) . والوعى بالذات يقود الى الأجواء غير المادية ، أى أنه يمثل تلك الحالةالتى ينغمس فيها الانسان فى الوجود الكلى. ولعل هذا يفسر لنا حرص الشعوب جميعا على رواية قصة الخلق ، وذلك أن قصة الخلق تعد تشخيصا لحاجة الانسان الى ارتباطه بالقوى العليا ، فهو اذن مرتبط بها منذ الأزل ، بمعنى أنها هى التى خلقته وهى التى حددت مصيره . أى أن الانسان والطبيعه معا يعدان فيضا من الله . على أن ادراك الانسان للقوى العليا لا ينبع من حاجته الى ارتبـاطه بالكل الكامل فحسب ، وانما ينبع كذلك من احساسه بعدم كمال ذاته وعدم كمال عالمه . فعن طريق مقارنة وجود الله العلى الكامل من خلال التجربة الصوفية ، بوجود الانسان المادى ، يتبع بالضرورة استبعاد كل ما يشعر به الانسان من نقص فى ذاته أو فى عالمه عن الخالق . ولهذا السبب فان الحالة الروحية تنبثق من نزوع الانسان الى التخلص من غربته عن عالم الخالق ، والى السعى نحو التمثل به ، وهو الأمرالذى يقوده الى تشكيل حياته بتقاليـد محددة وبسلوك ذى طابع روحانى ، أى أن الانسـان

---

(١) Op. cit., p. 38.

يخوض تجربة داخلية تسمو به فوق المدركات الحسـيـة أى فوق النطاق المادى المحـدود ..

على أن الانسان يخوض هذه التجربة بوصفها كلا اذا بدأ من أعلى الى أسفل ، وذلك نتيجة احساسه الفطرى بارتباطه بالقـوى العليا .. ويؤيد هذا قصـة ابراهيم عليه السلام عندما سعى من خـلال التجربة التأملية الى البحث عن الاله فى العالم الارضى ، بل فى العالم السماوى البعيد . فاصطدم بالكوكب أول الأمر فقال : « هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطـر السـماوات والأرض حنيفـا وما أنا من المشركين » [1] . فابراهيم عليه السلام كان يخوض تجربة صوفية بدأها من العالم العلوى وظل يبحث عن تشخيص للخالق حتى أقر بأنه أكبر من كل القوى الطبيعية المتدفقة منه ..

أما اذا بدأ الانسان تجربته الروحية من أسـفل الى أعلى ، فانه يسير فى الطريق غير المباشر الذى يصطدم فيه بالظواهر الطبيعية المتعددة التى يخلع عليها صفات سـحرية . وهو يظل يعيش فى هـذا العالم السحرى الذى يحول بينه وبين خوص التجربة التأملية التى يتصـل الانسان عن طريقها بالله اتصالا مباشرا . وفى هذا العالم السحرى تلعب الأرواح الخيرة والشريرة التى تعد فى الحقيقة تشخيصا لمخاوف الانسان ورغباته ــ نتيجة احساسه بارتباطه بقوى فوق الطبيعية ــ دورا كبيرا فى حياة مثل هذا الانسان . ولهذا فانه يخشى الاساءة الى ظواهر الطبيعة لأنها فى الوقت نفسه تعد اساءة القوى العليا . وهو يتجنب هذه الاساءة لأنه يخشى عقاب القوى الخفية المتربصة به ..

---

(١) سورة الانعام من آية ٧٦ الى ٧٩ .

فاذا حاولنا أن نتبين فى ضوء هذا الكلام ملامح الدين اليهودى كما يعرض فى التوراة ، فاننا نرى أن اليهودى لم يستطع أن يتصل بالله اتصالا مباشرا عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطنى • وانما وقف فى منتصف الطريق حيث الوسيط أو الوسائط التى يمكن أن تربطه بالقوى الالهية • وهذا يفسر سبب تعلقه بطقوس السحر وبكثير من العادات والتصورات القديمة التى استطاع فريزر أن يكشف عن الكثير منها • حقا ان كل شعب من شعوب العالم أيا كان نوع دينه السماوى ، احتفظ أو مازال يحتفظ ببعض المعتقدات القديمة التى ربما استطاع أن يكيفها ويغير صورتها بحيث يمكن أن تتلاءم مع دينه الجديد ، ولكن الدين السماوى فى حد ذاته اجتهد فى أن يخلص العقيدة الجديدة من الشوائب القديمة ومن التصورات الوثنية ومن تلك الوسائط المادية التى يمكن أن تكون عائقا بينه وبين الصعود فى مراتب من النور الباطنى الذى يصل به الى وجود الله وطبيعته ••

ولم يستطع اليهود ــ كما هو معروف عن تعلقهم الشديد بالمادة ــ أن ينسلخوا من هذه المادية وأن يسموا بدينهم ، أو على الأقل يحتفظوا بأصوله الروحية السامية • ومن ثم فقد ظلوا متعلقين بكل الوسائل المادية التى حجبتهم عن الرؤية الالهية الخالصة • ولا عجب بعد ذلك أن يلجأ شاءول لى ساحرة عين دور لكى تكشف له عن مصير شعبه فى الحرب بدلا من أن يفزع إلى الله ليعينه فيها • ولا عجب ألا يثق ابراهيم من عهد الرب الا بعد أن أدى الطقوس الوثنية القديمة التى كانت تتبع عند عقد عهد من العهود بين طرفين • ولا عجب أن شخص اليهودى الرب على هيئة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى يباركه • ولا عجب أن ترسبت فى دينه كثير من المظاهر البدائية على نحو ما أوضحه المؤلف فى كتابهم المقدس ••

❋ ❋ ❋

وبعد تلك الجولة فى عالم الأديان التى حاولنا من خلالها أن نتبين طبيعة الدين اليهودى ، نحاول الآن أن نلقى بعض الضوء على منهج فريزر فى هذا الكتاب ، وبوصفه باحثا أنثروبولوجيا بصفة عامة ••

لقد كان العالمان الأنثروبولوجيان : مالينوفسكى وفريزر متعاصرين • ومع أن كلا منهما كان له منهجه الخاص به فى البحث الانثروبولوجى الاجتماعى ، الا أن كلا منهما يعد عملاقا فى ميدانه ، فكلاهما كان يبحث وهو على وعى تام بما تتصف به الطبيعة البشرية من تعقيد ، وكلاهما كان يكتب بأسلوب حاذق موضوعى ؛ وان لم يصل أسلوب مالينوفسكى الى ما وصل اليه أسلوب فريزر من لباقة ودقة • وكلاهما أغرم بوصف المظهر الشعائرى للحياة • وقد كانت عملية تحليل المعتقدات بالنسبة لكليهما رحلة استكشاف للروح الانسانى • وكلاهما كان يبحث دائما عن القرائن للحقائق المدركة كما أن كليهما كان يتحرك من الحقائق الى النظرية ومن النظرية الى الحقائق ، وان كان فريزر أكثر استقصاء للظواهر فى أبحاثه من مالينوفسكى ••

ومع كل وجوه التشابه هذه بين الباحثين ، فان مالينوفسكى قدم للبحث مادة أكثر غنى ووفرة فى كتاباته الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) • وهو فضلا على هذا وضع نموذجا للعمل الميدانى ولتوثيق نظريته التى تتلخص فى تحقيق المنهج الوظيفى على أكمل وجه ، بحيث يحتذى به فى العصر الحديث • ولقد أشاد فريزر بمنهجه هذا فقال : « ان من أهم ما ميز منهج مالينوفسكى أنه كان يضع نصب عينيه الطبيعة الانسانية المعقدة بوصفها كلا • فلقد كان ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به لا فى المسطح المكانى الذى يعيش فيه ، ذلك أنه كان يتذكر على الدوام أن الانسان مخلوق تتحكم فيه العاطفة بقدر ما يتحكم فيه العقل • ومن ثم فقد كان كل همه أن يستكشف الجانب العاطفى بقدر ما يستكشف الأساس العقلى لسلوكه »[1] • فهل كان هذا الأساس المنهجى والنظرى ينقص فريزر فى أبحاثه ومن فقد أقر بأهميته ؟ ان ما كان ينقص منهج فريزر بحق هو توسيع ثم نطاق العمل الميدانى واستكشاف الروح الانسانى من جانبيه العقلانى والعاطفى وذلك

---

(١) Man and Culture : Edited by Raymond Firth, p. 71, London, 1960.

عن طريق الربط التام بين جميع ممارسات الانسان وسلوكه • أى أنه كان ينقصه ما وصف به مالينوفسكى من أنه ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به وليس فى المسطح الذى يعيش فيه • فكثيرا ما اعتمد فريزر فى دراساته على ما دونه المبشرون عن القبائل البدائية ، وكثيرا ما اعتمد فى أبحاثه على دراسات الباحثين بدلا من اعتماده على الاتصال المباشر بالناس عن طريق العمل الميدانى • ذلك أن منهجه كان يعتمد على جمع الحقائق جمعا مستقصيا وبشتى الطرق بقصد اثبات نظريته فى ظاهرة من الظواهر الانسانيه • ولهذا فقد أخفق فريزر فى أن يجد تفسيرا لبعض الظواهر الاعتقادية • ومثال هذا أنه قد تحدث بصدد بحثه عن تقديس بعض الأشجار ، عن عادة تعليق الخرق الملونة عليها • ومع استقصائه البالغ فى البحث بقصد تأكيد هذه الظاهرة ، الا أنه لم يقدم أى تفسير لمغزى تعليق الخرق على الأشجار بقصد التوسل الى روح الشجرة • وسبب هذا أنه لم يكن يهتم باستكناه مغزى الفعل بقدر ما كان يهتم بسرده ••

ومع كل هذا فلقد قدم فرزر للقارىء المتخصص مادة وافرة لا غنى عنها فى دراسة الحياة الانسانية • ولقد استطاع أن يثبت عن طريق دراساته المقارنة تلك التقاليد والمعتقدات التى تخلفت مع الانسان عبر التاريخ والتى ترجع فى أصولها الى الحياة البدائية الأولى • وبهذا استطاع أن يستكشف ما تخلف فى التوراة من معتقدات وعادات قديمة كانت لها أبلغ الأثر فيما اتسم به الدين اليهودى من جوانب ضعف : فضلا على أنها كشفت عن شخصية اليهودى الذى استغل الدين كل الاستغلال فى سبيل تحقيق أطماعه المادية ••

واذا كان فريزر قد تناول كل الموضوعات التى طرقها تناول العالم المدقق الذى ينقب فى موضوعية تامة عن خبايا الأمور بقصد استكشاف كنهها ، فاننا نرى أنه قد استخدم هذا المنهج فى غير ضرورة فى قصة موسى عليه السلام • فقد حاول فى هذا الفصل

أن يعزل القصـــة عن الحقـائق التاريخيـــة ، وأن يقرن بينهـا وبين ما يماثلها من قصص شعبى مروى • وقد اقتضت منا الأمانة العلميـــة أن نترجم هذا الفصل كما هو على مسئولية المؤلف ••

هذا وقد تطلبت منا الترجمة الكاملة التى تقـع فى مجلدين ، كل مجلد على حدة ، أن نذيلهـا بهوامش لتوضيح بعض الأمور التى لم يوضحها المؤلف فى كتابه هذا • كما أننا أشرنا الى مصدر آيات التوراة التى أغفل عمدا ذكر مكانها فى التوراة على سـبيل الاختصـار كمـا ذكر فى مقدمته • وكذلك استشهدنا فى بعض الأحيان بآيات لم يشر اليها المؤلف وذلك بقصـد القاء مزيد من الضـوء على ما تعرض له المؤلف فى دراسته من عادات وطقوس عند العبريين القـدماء •



حول المؤلف والكتاب

اذا كان فريزر يمثل حقبة فى الدراسات الأنثروبولوجية انقضت بموته عام ١٩٤١ [١] ؛ فان هذا يعنى أنه يمثل مدرسة فى الميدان الأنثروبولوجى تسير وفقا لمنهج محدد وتهدف الى تحقيق هدف بعينه • ولذا يتحتم علينا ، قبل أن نعرض لكتابه « الفولكلور فى العهد القديم » أن نتبين معالم هذه المدرسة بمنهجها وهدفها ، لنرى ما اذا كان فريزر قد استطاع بمؤلفه هذا أن يؤكد منهجه وهدفه • ولكننا قبل أن نفعل هذا ؛ يحق لنا أن نقدم القارىء صورة تقريبية لشخصية هذا العالم الانسانى الكبير ، ولعلاقاته بعلماء عصره بخاصة هؤلاء الذين كانوا يعملون فى ميدانه •

لقد كان فريزر يمثل أكثر من أى باحث من الباحثين المعاصرين له ، الاتجاه الانسانى الذى كان يستلهم الدراسات المقارنة فى سبيل فهم التراث الاغريقى واللاتينى والشرقى القديم • وربما ظل اسمه خاتمة العلماء الانسانيين الكلاسيكيين الكبار • ولقد كان واسع العلم متعدد الاتجاهات ، فقد درس علم الطبيعة وعلم الأحياء ؛ وبعض فروع أخرى من العلوم الطبيعية • وكان يقرأ هومير باللغة الاغريقية وأوفيد وفرجيل باللاتينية ، والكتاب المقدس بالآرامية • وفضلا عن ذلك فان أعماله الكبيرة المتعددة لم تمنعه من كتابة المقالات والشعر [٢] •

أما عن علاقة فريزر بعلماء عصره ، فاننا ندع العالم الأنثروبولوجى المرموق مالبنوفسكى ، يتحدث عن ذلك حيث أنه كان على علاقة وثيقة

---

(1) Manlinoski : A Scientific Theory of Culture : 1944 P. 179.

(2) Ibid : P. 179.

به زمنا طويلا ، وحيث أنه تعرض لنقد أعمـاله ونظرياته نقـد العالم الحصيف المنصف ، فذكر ما له وما عليه . يقول مالينوفسكى :

« لقد عرفت فريزر طيلة الوحـد والثلاثين عاما الأخـيرة من عمره . وفى خلال هذه السنوات الطـوال استطعت أن أتتبـع كثيرا من علاقاته الشخصية مع جماعة الأنثروبولوجيين ، كما حاولت أن أتفهم منهجه فى تنـاول المشـكلات والحقـائق ، وأن أدرس تطـور أفكاره ونظرياته ؛ فانتهيت الى أن فريزر كان مصدر الهـام كثير من المفكرين والكتاب المحـدثين فى الأنثروبولوجيا والعـلوم الاجتماعية والانسانية . ومع كل هذا فقد كان فريزر يعانى مشقة كبيرة فى مناقشـة موضـوع من الموضـوعات أو رأى من الآراء مع باحث من الباحثين ، اذ قلمـا نجح الانسان لـكبير فى أن يدير مناقشة على طريقة المدرس الذى يعطى ويأخذ . وكان من الضرورى لمحدثه أن يتريث معه حتى توانيـه لحظة الالهـام ، فيرتجل بضعة فقرات جميلة شبيهة بتلك التى نجدها فى كتاباته . وعلى الرغم من هذا العيب ؛ فقـد عرف عن فريزر اهتمامه البالغ بالحقـائق الجديدة لتى تسـفر عنها استكشافات الباحثين فى العمـل الميدانى ، كما عرف عنه مقدرته فى حث الباحثين الميدانيين عن طريق المراسـلة . ولقد كان لخطاباته التى أرسـلها الى فى أثنـاء رحلاتى فى غينيا الجديدة وميلانيزيا أكبر عون لى فى أبحاثى سـواء عن طريق اقتراحاته أو استفساراته أو تعليقاته .

ومن الطبيعى أن يكون فريزر بنـاء على افتقاره لروح الجـدل والمناقشـة ، محاضرا غير ناجح ، بل انه كان محاضرا غـير مكترث ، وكان يفضـل أن يقرأ محاضراته عن أن يتلوها ارتجالا ويناقشـها مع طلابه . ومعنى هذا أن فريزر لم يـكن معلمـا بالمعنى الضيق لهـذه الكلمة ، اذ لم يكن فى وسـعه أن يطور جـدله ويدافع عن نظـرياته عن طريق النقـاش . ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان معلما بالمعنى الواسـع لهذه الكلمة ورائدا من كبار رواد العـالم فى مجال البحث الأنثروبولوجى ، فقد كان فرويد يعتمـد عليه فى أبحـاثه عنـد

تطبيقه لنظرياته فى علم النفس التحليلى فى المجــال الأنثروبولوجى ٠ وكان له تأثيره الكبير على دور كليم ومدرسته التى كان من أعلامها فان جينيب وليفى بريل ، وهربرت ، وبوجليه ٠ كما أرسى البــاحثون الألمان من أمثال فونت ، وتور نفالد ، وبرويس وغــيرهم ، دعائم علمهم على أســاس نظريات فريزر وعلمــه الواســع فى الدراسات الأنثربولوجية
أســاس نظريات فريزر وعلمــه الواســع فى الدراسات الأنثربولوجية٠
وســواء اتفق البــاحثون الانجليز من أمثــال ويسترمارك وكرولى وجيلبرت مورى ، وجين هاريســون ، وسيدنى هارتلاند واندرو لانج ، معه فى نظرياته وآرائه أم لــم يتفقوا معــه ، فانهم بدون شــك قد استمدوا توجيهاتهم ومفاتيحهم فى البحث منه ٠ بل انه ترك أثرا بعيد المدى فى جماعة من المفكرين الرواد فى مجال لتاريخ والفلســفة وعلم النفس والأخلاق من أمثال أناتول فرانس وبرجسون وأرنولد توينبى ، وشبنجلر ٠ ويتضح هذا عندما كان هؤلاء يتعرضــون للموضــوعات الأنثروبولوجية الأساسية مثل « التابو » والطوطمية والسحر والزواج وأشكال الديانة البدائية وتطور النظم السياسية [1] ٠

وقد وهب فريزر ميزتين كبيرتين احداهمــا مقدرة الفنان عــلى خلق عالم خيــالى خاص به ، وثانيتها حصافة العــالم الصــادق فى التمييز بين ما هو وثيق الصلة بالموضــوع الرئيسى وما هو ثانوى ٠ وقد تولد عن الخصلة الأولى أسلوبه الساحرى ومقدرته على صــياغة الشــواهد الاثنوجرافية الجامدة فى شــكل قصصى دراسى ، كما يبدو هذا تماما فى كتابه « الفولكلور فى العهد القديم » ، كما تولد عنها مقدرته على خــلق الرؤى من البــلاد البعيدة والحضارات الغريبة ٠ أما الميزة العلمية الثانية ، فقد تولد عنها حسه التجريبى الذى قادة الى التجوال بين عالم المادة الاثنوجرافية لكى يستخلص منهــا الشواهد التى كثيرا ما كانت تؤدى الى بطلان نظرياته نفسها ، وان كانت تقدم لنا فى المكان

---

(1) Malinowiski : op. cit. pp. 182-184.

المناسب لها حقائق عن السحر والدين وعن الطوطمية ونظم الزواج ، وكل ذلك داخل الاطار الواقعى ، بما جعلها تنبض برغبات الناس ومعتقداتهم واهتماماتهم . وبهذا استطاع فريزر أن ينظم المعرفة الجافة المتراكمة فى شكل هندسى رائع من الشواهد ؛ محتضنا الكثير من الأفكار التى صاغها الباحثون من بعده فى شكل نظريات وقد كان من أهم ثمار هذا الجهد العلمى الرائع ، كتاب « الغصن الذهبى » الذى يحكى قصة الفكر والروح الانسانى الموغل فى القدم ، وكتاب « الطموطمية والزواج من الأباعد »وهو الكتاب التعليمى ثم كتاب « الفولكلور فى العهد القديم » الذى يعد أشبه بأسطورة أنثروبولوجية رائعة .

وبقدر ما كان فريزر يعيش فى عالم الخيال ؛ كان يعيش فى عالم الواقع الموضوعى . وقد استطاع أن يشكل نظرياته فى شكل طيع من الشواهد التى جمعها من جميع أنحاء العالم . وهذا يفسر لنا سر اهتمامه بحقائق العمل الميدانى وعدم اكتراثه بالنظريات الا فيما ندر . ذلك أنه كان يرغب دائما فى أن يضيف شيئا الى عالمه الحى ؛ عالم الوجود الانسانى الدرامى . وفيما عدا هذا كان يكره تشريح هذا العالم عن طريق النقد النظرى . وعندما غضب من اندرولانج لنقده الساخر من كتابه « الغصن الذهبى » لم يكن غضبه منه لتجريحه الشخصى فيما يقوله الباحثون ، بقدر ما كان بسبب تجريحه عالم أوريرس وفيربيوس وبالدور [1] .

مكانة فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية :

كان فريزر على رأس المدرسة التطورية التى ركزت اهتمامه على دراسة الجانب البدائى فى الجنس البشرى . وقد كان فريزر يبحث عن هذا الجانب البدائى فى التقاليد والعادات والممارسات

---

(1) Malinowiski : op. cit p. 185.

بصفة عامة كما كان يبحث عنه عند البدائيين ، بل ولدى الجنس البشرى فى كافة مستويات رقيه الحضارى • أما الوسيلة التى كان يستعين بها فى هذه الدراسة الواسعة فهى المنهج المقارن الذى يعتمد على جمع المادة من جميع أنحاء العالم ثم المقارنة بينها • وقد تطلب منه ارتباط المنهج المقارن بفكرة التطورة فى سبيل فهم الانسان بعض الفروض العامة التى تتلخص فى أن الناس يتشابهون أساسا فى الجوهر ، لأن الشعوب جميعا قد بدأت من مرحلة بدائية ، ومرت تدريجيا بمراحل مختلفة من التطور • ومن الممكن استكشاف المقياس العام لسلوكهم وأفكارهم عن طريق الاستقراء الذى يعتمد على النظرة الشاملة للمادة المجموعة • وعند ذلك يواجه الباحث ما يسمى بالبقايا المتخلفة ، وهى تلك البقايا المتبقية من المعتقدات والعادات التى عاشت مع الانسان فى عصوره البدائية . ثم ترسبت أو ترسب بعضها معه فى أطوار رقيه • وتعد عملية احصاء تلك البقايا المتخلفة من المعتقدات والعادات مفتاحا لفهم الاستمرار فى حدود التغير ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى الحلقة التى تصل بين المراحل التطورية المختلفة • فاذا غاص الباحث حتى أدنى المستويات الحضارية ، فانه يصل الى المستوى الهمجى الأدنى للأجناس البشرية ، أى أنه يصل الى أصل الطقوس الانسانية والعادات والأفكار • فالحضارة معقدة كل التعقيد فى حين أن الهمجية بسيطة نسبيا • كما أنها تعد بدون شك البؤرة التى نشأت عنها كل الحضارات عن طريق عملية التطور البطىء • ولهذا يتحتم على من يسعى الى فهم نتاج الحضارات المعقد أن يبدأ من العناصر البسيطة ، أى أن يبدأ بفهم حياة البدائيين وسلوكهم •

على أنه على الرغم من اهتمام فريزر البالغ بنظرية تطور الجنس البشرى عن الأصول البدائية ، وعلى الرغم من محاولاته العلمية فى ابراز تلك الأصول عند الأجناس البشرية ، فانه لم يطور قط أية نظرية كاملة لأسس هذا التطور • فنحن لا نجد فى أعماله أى تحديد

دقيق لتلك المفهومات التى رددها وهى : اصــول الجنس البشرى ، مراحل التطور ، البقايا المتخلفة • بل اننا لا نجد عنده أية محــاولة تهىء له مجــرد تصور عمليــة تطور الجنس البشرى أو تتيح لنا فرصة ادراك القوى الدافعة فى سبيل هذا التطور .

وقد أدرك فريزر كما أدرك غيره أن أســاس المعتقدات والعادات والتصــورات ينبــع من أنشــطة الانســان الروحيــة والعقلية وهى السحر والدين والعلم • وليست هذه الجوانب ، من وجهة نظر فريزر ، متداخلة فى حياة الانســان فى كل زمان ومكان بحيث يؤدى كل منهــا دورا حيويا فى حياته العملية والروحية ، ولكنها تعيش منفصــلة مــع النــاس ، بحيث يؤدى كل منهــا دورا مهمــا فى مراحــل الحضارة المختلفه ، فالســحر يسيطر على حياة الانســان البدائى الهمجى كما كان يحلو لفريزر أن يسميه ، ذلك لانه يعــد الوســيلة الوحيــدة التى يحــاول الانسان البــدائى عن طريقها اخضــاع ظــواهر الطبيعة لسيطرته • فلما أصبح الانســان بعــد ذلك أكثر ذكاء ، أصبح أكثر وعيا بقدرته وخضوعه فى الوقت نفسه للقوى العلوية التعسفية • ومن ثم فقد أخذ يسترضى تلك القوى عن طريق تأدية الشــعائر والطقوس . وفى النهــاية يصل الانسان الى مرحلة العلم ، وهى المرحلة التى يعيشها الانســان المتحضر اليوم • وهنــا يبدى فريزر تشــاؤمه ازاء مصير الانسان . ذلك أن العلم يعمل فى هدوء وبلا هوادة على تحطيم عالمنــا الذى يسبح فيه كوكبنا كذرة أو هباءة (١) •

ويرتكز السحر من وجهة نظر فريزر على أساسين : الأساس الأول هو ان الشبيه ينتج الشبيه ، والأساس الثانى هو ان الأشــياء التى كانت ذات مرة متصله ببعضها البعض ، يستمر تاثيرها فى بعضها الآخــر ، وان انقطعت الصلة الظاهرة بينهما • فهذان الأساسان يمثلان من وجهة نظر فريزر قوانين النظرة الســحريه عند الانسان البدائى • وعــلى

(1) Kardiner Brible : They Studied Man p. 89.

الرغم من ان الانسان البدائى لم يعبر عن هذه القوانين بالكلمات ، بل انه لم يدركها ادراكا مجردا ، الا أنه كان يعتقد بكل بساطة ان طقوسه السحريه تنظم له أحوال الطبيعة تنظيما مستقلا عن ارادته • وكلا الاساسين يندرجان تحت ما يسميه فريزر بسحر المشاركة ؛ لأن كليهما يفترض أن الأشياء تؤثر فى بعضها البعض وهى متباعدة عن طريق العلاقة السرية التى تصل بينهما بطريق ما •

ويمكننا ان نستدل بمثالين من كتاب الفولكلور فى العهد القديم يوضحان هذين الأساسين لمفهوم السحر عند البدائيين من وجهة نظر فريزر ، أما المثال الأول الذى يوضح نظرية : « الشبيه ينتج الشبيه » ، فهو يقع ضمن الأمثلة العديدة التى ساقها فريزر فى الفصل الأول من الباب الثانى ؛ وهو الفصل الذى يقع تحت عنوان « عهد ابراهيم » • وقد حاول فريزر فى هذا الفصل أن يستدل على أن الشعائر التى أداها ابراهيم لعقد عهد بينه وبين الرب ؛ شبيهة كل الشبه بالشعائر التى تؤديها الشعوب البدائية بقصد عقد بين طرفين ، فهم يذبحون ذبيحة ويشطرونها شطرين يمر بينهما الطرفان المتعاهدان فى الوقت الذى يتلو أحد الأفراد دعوات شريرة على من يحنث باليمين أو ينقض العهد ، وذلك بأن يكون مصيره كمصير الذبيحة المشطورة • فالبدائى بذلك يعتقد كل الاعتقاد أن شطر الذبيحة على هذا النحو ينتج عنه جزاء مشابه يحل بمن ينقض العهد أو يحنث باليمين •

وأما الأساس الثانى وهو استمرار تأثير الأشياء فى بعضها البعض رغم بعد الشقة بينهما ، فيتضح من خلال الأمثلة العديدة التى أتى بها فريزر فى فصل شمشون ودليلة وغيره من الفصول • ومثال ذلك أن البدائى يعتقد أنه فى وسعه أن يعزل روحه عن جسده ليحتفظ بها فى مكان آمن • فاذا حدث أن لحق ضرر بروحه ، فان هذا الضرر يصيبه فى الحال على الرغم من انفصال روحه عن جسده • ونحن نلاحظ أن كلا المثالين يجتمعان مرة أخرى تحت مفهوم سحر المشاركة • فمصير الذبيحة ينتقل الى الحانث باليمين عن طريق سحر

المشـــاركة ؛ وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الضرر من الروح الذى أصيب بأذى الى صاحبه •

واذا كان السحر وسيلة لاخضـــاع الظواهر الطبيعية لسـيطرة الانســـان ، فان الدين ، من وجهـــة نظر فريزر ، ليس ســوى عملية استرضاء القوى العليـــا التى تتحــكم فى مصير الانســـان والظواهر الطبيعية معا • ولقد حاول الانسان البدائى فى مرحلة حضارية أرقى من المرحلة السحرية ، أن يحـــدد لنفسه تلك المفهومات الكلية مثل القـــوة والحيـــاة والروح والاخصـــاب ، ولكنه عندما حـــاول ذلك ، خلط فى التمييز بين الخصائص الانســـانية وخصائص الطبيعة ؛ كمـــا أنه شعر بعجزه وعجز أدواته السحرية عن تفسير تلك الظواهر • ومن ثم فقـــد افترض العقل البدائى وجود آلهة أو سحرة علويين يعيشـــون فى عالم غير مرئى ، ومن الممكن التوسل اليهم والتضرع لهم ، ليسدوا النقص فى قدرات القوة الســـحرية •

وأما المرحلة الحضـــارية الثالثة وهى مرحلة العـــلم ، فهى تلك المرحلة التى يعيشها الأوروبى اليوم بعد أن تجـــاوز مرحلتى السحر والدين • وفريزر فى هـــذا لا يخفى تعصبه للجنس الأوروبى الذى يرى أنه قد فاق بتطوره العلمى ســـائر الأجناس الأخرى •

واذا نحن أمعنا النظر فى تحديد فريزر لهذه المفهومات ، فاننـــا نجـــد أن مذهبه التطورى قد فرض عليه هذا التقسيم التعسفى بـــين السحر والدين والعلم ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل عندما نتعرض للنقد الذى وجه لفريزر ازاء هـذا التقسيم • على أننا أشرنا آنفـــا الى أن فريزر لم يكن رجل نظريات ، ولم يكن يعد النظرية ، على حد تعبيره ، ســـوى مشجب يعلق عليه كل الحقائق التى يجمعها [1] • ولهذا فان فريزر يصبح رجلا عمليا بمجـــرد أن يفرغ من مناقشاته النظرية ،

---

(1) Kardiner, Brehle : They Studied Man : p. 91.

ويدخل فى مجال دراسة الشعوب . عند ذلك تتداخل عنده الظواهر المختلفة للحضارة الانسانية والاهتمامات البشرية ، كما أنه يصبح كاتبا ممتعا ومشوقا يستطيع بمقدرته على العرض والربط بين الظواهر المختلفة ، أن يتجول مع القارىء عبر صحراء استراليا وبين أحراش الأمازون وفى برارى آسيا ، ووسط طبيعة أفريقيا المتنوعة ، كما يجعله يعايش الشعوب المختلفة فى أفكارها ومعتقداتها وعاداتها ، وذلك عندما يلقى الضوء على الشواهد المتراكمة بنظرة ثاقبة فى الدوافع الانسانية . بل ان فريزر كثيرا ما كان يقترب من منهج التحليل النفسى للدوافع الشعورية واللاشعورية للسلوك البشرى ، وذلك على رغم مقته لعلم النفس التحليلى مقتا جعله يعزف عن قراءة كا ما كتبه فرويد بهذا الصدد . ويعد فريزر فى مقدرته على تفسير الدوافع الانسانية من خلال الأفعال والشعائر ، وفى تأكيده أن الفعل أكثر ضمانا للبحث من الأقوال ــ يعد من أصحاب المدرسة السلوكية بالمعنى الاجتماعى لهذه الكلمة . ذلك أنه ينزع على الدوام الى توثيق التفسيرات النفسية بأشكال من لسلوك الانسانى ، وأنه كان ينظر الى الحقائق الأنثروبولوجية بوصفها جزءا مكملا للحياة الانسانية بصفة عامة ، وذلك فى اطار الحضارة ، بل فى اطار الطبيعة التى يعيش فيها الانسان .

وعلى الرغم من الجهد العلمى المخلص الذى بذله فريزر فى دراساته التى ستظل تعيش بوصفها أعمالا رائدة ، مهما جد عليها من أبحاث فى مجال الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية ، وعلى الرغم من أنه فتح للباحثين من بعده آفاقا جديدة واسعة فى الابحاث الانسانية بصفة عامة ، فإن فريزر لم يسلم من النقد والتجريح من قبل الباحثين فى ميدانه ، فمنهم من ظلمه حقه ، وأنكر ما فى أبحاثه من أصالة وما لها من أثر بعيد فى الدراسات الانثروبولوجية الحديثة ، ومنهم من أسرف على النقيض من ذلك فى تمجيده ، بحيث جعله البطل الذى مهد عن طريق نظرياته الأصيلة ، طريق القيم العلمية الصائبة لمن بعده ، فى

الوقت الذى جعل هذا البعض مالينوفسكى نبيا مزيفا قاد الدراسات الأنثروبولوجية الى متاهات لا حدود لها [1] . وهناك نوع ثالث وعلى رأسهم مالينوفسكى الذى نقده نقد العالم الموضوعى الحصيف ، فذكر فضله على الدارسين من بعده ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، فى الوقت الذى تعرض لنقد نظرياته بخاصة نظريته السابق ذكرها فى السحر والدين والعلم . ويهمنا أن نسوق للقارىء هذا النقد حيث أنه يلقى مزيدا من الضوء على نظرية فريزر هذه التى تعد محور كثير من أعماله ان لم تعد محورها جميعا .

لقد كان مالينوفسكى رائد المدرسة الوظيفية كما كان فريزر رائد المدرسة التطورية . وهذا الاختلاف الجوهرى فى اتجاه كل منهما فى مجال البحث ، دفع كثيرا من الباحثين لأن يقرنوا بين العالمين ، هذا فضلا عن أن هذا الاختلاف يشير بادىء بدء الى تباين وجهتى نظرهما فى تناول المشكلات الاجتماعية المتعددة . وفيما يختص بنظرية السحر والدين والعلم ، فقد عاب مالينوفسكى على فريزر أنه لم يفرق بين هذه الأمور من حيث الدور النفسى والاجتماعى الذى لعبه كل منها فى الحياة الاجتماعية ، بل انه فرق بينها من حيث أنها تعد مراحل متعاقبة للسلوك البشرى وتفكيره . ولو أن فريزر فرق بين هذه الأمور الحيوية فى حياة الانسان لأدرك أنها تعيش معا بنسب متفاوتة فى كل زمان ومكان، وأن كلا منها لعب دورا أساسيا فى حياة الانسان البدائى بحيث أنها جميعا شكلت حياته على نحو ما . فالانسان فى كل الظروف يمتلك معرفة من نوع ما ترتكز على أساس تجريبى وهو يستخدمها منطقيا . فأبسط وسائله التكنولوجية وطريقة اشعاله النار وتكييفه لوسائل معيشته تتطلب منه معرفة من نوع ما عن المادة وطريقة تشكيلها واستعمالها . أى أن المعرفة ، بل المعرفة العلمية بحق هى رائد الانسان على الدوام فى علاقته بالمحيط الذى يعيش فيه . ولا يمكن أن

---

(1) Current Anthropology : 1966, p. 560.

توجــد حضارة من الحضارات أيا كان مستواها ، بدون هذه المعرفة • وويترتب على هذا أن الشخص الذى لديه الخبرة العلمية والمقدرة على السيطرة على الوسائل الفنية ، تكون له مكانة بارزة فى قومه •

والسحر بمعنى استخدام التعاويذ والطقوس فى سبيل الوصول الى نتيجة ذات تأثير فعال فى حياة الناس ، بعد عاملا مساعدا للعلم والخبرة التجريبية • فعندما تخون المعرفة العلمية الانسان البدائى ، فانه يتعامل مع الطقس والمرض على سبيل المثال تعاملا سحريا • فالدافع النفسى وراء ممارسة السحر اذن هو مقاومة المصير العثر وجلب المصير المخير • وكما أن المعرفة الشعبية لأحوال الجو والظواهر الطبيعية بصــفة عامة تعد من مستلزمات الزعيم ؛ فان خبرته فى عالم السحر تعد لازمة أخرى له • وهو يصبح زعيما فى هذه الحالة لا لأنه قادر على استخدام الوسائل السحرية فحسب ، بل لأنه يقــدم للجماعة ضمانا للخير ووسائل لتجنب الشر ، وهكذا يرى مالينوفسكى أننا اذا شئنا أن نعــدل مفهوم السحر عما اصطلح عليه فريزر ، فاننا نقول : ان الدافع النفسى للسحر ليس هو ترابط الأفكار التى ينجم عنها أن الشبيه ينتج الشبيه ، وأن العلاقة التى تقوم بين الأشياء تستمر بينها على بعد الشقة بين بعضها البعض ، وانما يتلخص هذا الدافع فى سعى الانسان وراء نتائج طيبة تعود بالخير على الجميع (١) •

وعلى هذا النحو يختلف ما لينوفسكى عن فريزر فى مفهوم الدين • فليس الدين مجرد استرضاء الانســان للقوى الالهية ، ولكنه احتجاج نفسى يرتبط بالقضايا الأساسية الوجود الانســانى • فاذا كان السحر يختص بمشكلات تفصيلية نوعية محددة وحســية ، فان الدين يختص بمشكلات كبرى مثل الموت والخلود • فهــو ببنيته الدوجماتية نظــام للاعتقاد الذى يحدد وضع الانسان بالنسة للوجود ، والانسان يحــل مشكلاته الأبدية عن طريق الإيمان بالخلود وعن طريق مصالحته للآلهة •

---

(1) Malinowski : «A scientific Theory of Culture, pp. 198-199.

ومن هنا يختلف العلم والسحر والدين عن بعضها البعض من حيث التفكير الذهنى والتنظيم الاجتماعى والظيفة • فالعلم يختص بالمعرفة والخبرة الفنية ، والسحر حشـــد من الطقوس والأفعال والتعاويذ التى تجلب المصير الخير للجماعة ، وأما الدين فيختص بالصلاة والشعائر وتقـــديم التضحيات التى تربط الانسان بالقوى الآلهيه وتعينـــه على اســـتكناه مصـــيره •

وهكذا نرى أن كلا من مالينوفســـكى الوظيفى وفريزر التطورى يمثلان الضدين من حيث أن الأول يهتم بصلة هـــذه الجوانب الروحية والفكرية بعضها ببعض ، فى حين أن الثانى يهتم بنشأتها بعيدا عن بعضها البعض • كما أن مالينوفســـكى لم ير ، كما رأى فريزر ، أن الاهتمام بالسحر يمثل نقصا فى عقلية الانسان البدائى حيث أنه يعيش فى مرحلة حضارية محددة وحيث أن كلا من السحر والدين والعلم يؤدى وظيفة بدرجات متفاوتة مع الانسان فى جميع مستوياته الحضارية •

وهناك فرق آخر جوهرى بين الباحثين ، وهو أن فريزر كان يعـــد الطقوس بديلة للأسطورة والعكس صحيح ، فاذا ما عثر على أســـطورة استطاع أن يحدس عن طريقها بالطقوس البديلة لها • أما مالينوفسكى فقد كان يرتبط كل الارتباط بالشواهد المرئية • حقا ان الأسطورة تعد ميثاقا للسلوك الجماعى : فالعمليات الحضاريية التى كرس جهـــده فى البحث عنها عن طريق العمل الميدانى الذى يرتكز على الفروض النظرية، تكون موضوعا لقوانين محددة • وهذه القوانين بدورها يهتدى اليهـــا الدارس عن طريق تحليله لوظيفة العناصر الأساسية من مجرد افتراضه لتطور المراحل الحضارية عن طريق تعقبه للمخلفات الأثرية والاعتقادية• فالباحث فى ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتحتم عليه اذن أن يحلل العناصر الحضارية ويربط بين بعضها البعض ربطا وثيقا حتى يتمكن من الاهتداء الى الدور الذى تلعبه هذه العناصر فى حياة الشعوب وفى بنيتها الحضارية • ومن ثم فان مالينوفسكى قد رحب ببعض نظريات فرويد فى علم النفس التحليلى بوصفها وســـيلة لفهم العـــلاقة الوظيفية بين

الفولكلور والتنظيم الاجتماعى ، ومثال ذلك نظرية فرويد فى الكبت نتيجة الدوافع الاجتماعية • وقد وجد مالينوفسكى أن هـذه النظرية تيسر للباحث تفسير بعض الرغبات المحددة والعقد اللتين تشير اليهما المادة الفولكلورية ويؤكدها التنظيم الاجتماعى • أى أنها تهىء للباحث فرصة اقتفاء أثر النماذج الغريزية والميـول العاطفية داخل نسـيج البنيـة الاجتماعية • وفى الوقت نفسه رفض مالينوفسكى استخدام عقدة أوديب فى تفسير البنية الاجتماعية للاسرة ؛ حيث أن الأسرة من وجهة نظره تكوين وظيفى يرتكز أولا وقبل كل شىء على بنية المجتمع وحضارته [٩] • أما فريزر فلم يكن فى الحقيقة يسـتعين بنظريات الباحثين ودراستهم الا فى حدود امدادهم اياه بالمادة الأنثروبولوجية المدونة أو المروية •

وعلى الرغم من الاختلاف البين بين منهج كل من فريزر ومالينوفسكى فى أبحاثهما ، وعلى الرغم من تباين النتائج العلمية التى توصل اليها كل منهما ؛ فان الجهد الذى بذله فريزر فى دراساته مازال وسوف يظل يلعب دورا أساسيا فى الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة•ولقد أقر مالينوفسكى بهذا الفضل أكثر من مرة ، فقال من بين ما قاله : « لم أكد استمر فى قراءاتى فى عمل فريزر العظيم « الغصن الذهبى » حتى وجدت نفسى منغمسا فى هذا العمل الرائع وواقعا فى أسره • بل اننى فرضت عـلى نفسى منذئذ خدمة الدراسـات الأنثروبولوجية » [١] • كما قال عنه ك • س ماثور : « حقا ان عظمة فريزر لا تتمثـل فى نظرياته ؛ ولكنها تتمثل فى غنى مادته وطريقة تحكمه فيها عبر مساحات شاسعة من كوكبنا وعبر عصـور طويلة ؛ كما تتمثـل فى مقـدرته على تصـنيف مادته وتفسيرها » [٢] •

ويهمنا الآن أن نتبين من خلال عرضنا لكتاب « الفولكلور فى العهد

---

(1) They Studied Man. p. 172.

(2) Current Anrhropology, 1966, p. 567.

القديم » [1] ودراســـة مادته ، كيف حقق فريزر من ناحية ، منهجـــه التطورى ، حيث أنه يصرح فى مقدمته بأن هذا هو هدفه من بحثه فيقول : « وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفــكرية والعلمية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من عادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر فى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صــدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشـــعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطيئة » •

ومن ناحية أخرى فاننا نود أن ندرس نظرية فريزر فى السحر والدين كما تتمثل فى هذه الدراسة •

الفولكلور فى العهــد القــديم :

ينقسم الكتاب بأجزائه الثلاثة الى أربعة أبواب كبيرة يندرج تحت كل منها عــدة فصول « وهذه الأبواب هى على التوالى : عصور الحياة الأولى ، عصر الآباء والشيوخ ، عصر الملوك والقضاة ، القانون • ويتفق هذا القسم مع تطور تاريخ بنى اسرائيل الذى يبدأ ، شأنهم أى شعب آخر ، بآدم عليه السلام • أى أن المؤلف يبدأ بأول قصة فى العهد القديم وهى قصــة الخلق •

---

(١) صدر الكتاب فى ثلاثة مجلدات كبيرة عام ١٩١٩ . وفى عام ١٩٢٢ اصدر المؤلف طبعة مختصرة له تكاد تحتوى على كل ابواب وفصول النسخة الاصلية المطولة . وليس هذا الكتاب سوى عمل واحد من اعمال فريزر العديدة التى ربما استغرق مجرد ذكرها بضع صفحات من هذا البحث .

أولا : عصور الحياة الأولى :

١ ــ قصـــة الخلق :

ملخص هذه القصة أن الرب ، وفقا لرواية الاصحاح الأول فى سفر التكوين شرع فى خلق كل الكائنات وفى نهاية الأمر خلق الرجل والمرأة من الطين ، أو انه وفقا لرواية الاصحاح الثانى من هذا السفر نفسه خلق الرجل ومن بعـــده سائر الكائنات وفى النهاية خلق المرأة من ضلع الرجل • ثم أسكن آدم وحواء فى جناته وكفل لهما فيها الحياة الرغدة ، وسمح لهما أن يأكلا الثمار فيما عدا ثمار شجرة المعرفة ، ثم جاءت الحية الى حواء وأسرت اليها بأن الرب انما حرم عليهما أن يأكلا من ثمار هذه الشجرة حتى لا يكونا عارفين بالخير والشر • وكان هذا الاغراء كفيلا بأن يجعل يد حواء تمتد الى ثمار الشجرة لتأكل منها وتقـــدم منهـــا لزوجها كذلك • ولم يكن الرب قد علم بما ارتكبه الأبوان الأولان من حماقة • وذات يوم عندما كان الرب يتمشى فى جناته وجـــد آدم وحواء مختبئين خجلا بعد أن انكشفت لهما عورتهما أثر أكلهما من الشـــجرة فنادى عليهما وأسرع فى طردهما من الجنة ، وذلك خوفا من أن يتهورا مرة أخرى ويأكلا من شجرة الحياة فيصبحا خالدين مثله •

وقد استلفت نظر فريزر فى هذه القصة مشكلات ثلاثة فتحت له باب المقارنة على مصراعيه بين هذه القصة وقصص الخلق التى رويت أو تزال تروى بين الشعوب البدائية • وهذه المشكلات هى : **أولا** : خلق الانسان الأول من الطين • **ثانيا** الدور الذى لعبته الحية فى صراع حواء **ثالثا** : حرمان الانسان من الخلود • أما عن العنصر الأول فتكاد تتفق حكايات جميع شعوب العالم على أن الانسان الأول قد شـــكل من طين : فمن ذلك ما حكى « عن سكان استراليا السود الذين يســـكنون ضـــواحى ملبورن أن « بندر ــ جل » الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينة الكبيرة ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح وأخـــذ

يسويه بسكينة حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان فصنع الأقدام أول الأمر ثم الأرجل فالجذع فالأذرع فالرأس . وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا . وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الكافور وصنع منها شعرا لصقه ى رأسى رجليه المصنوعين من الطين . ثم نظر اليهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنه وسرته . وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو » [1] .

وأما عن اقحام الحية نفسها فى حياة أول رجل وأمرأة خلقهما الرب ، فهو يرجع من وجهة نظر فريزر الى اعتقاد الانسان البدائى فى أن الحية كانت سببا فى حرمان الانسان الخلود بعد أن سلبت منه هذه المنحة الجليلة . وقد اعتقد الانسان البدائى فى هذا الاعتقاد لأنه رأى أن الحية تغير جلدها فى مواسم معينة ومن ثم فقد تصور أنها بذلك تجدد شبابها ولا تموت على الاطلاق . على أن الحية ليست هى الحيوان الماكر الوحيد الذى ربط بينه وبين الانسان البدائى وبين حرمانه الخلود ، فقد روت حكايات عديدة كيف أن القمر أرسل الأرنب أو الكلب أو السلحفاة لتبلغ الانسان أنه عندما يموت فسوف يحيا مرة أخرى تماما كما يحدث للقمر الذى يصبح محاقا ثم ما يلبث أن يولد هلالا مرة أخرى . ولكن هذه الحيوانات كانت دائما تغير من فحوى الرسالة وتبلغها خطأ للانسان . وبهذا كتب على الانسان الموت بسبب تبليغ هذه الحيوانات الرسالة الخاطئة اما عمدا أو غباء .

على أن حكاية التوراة لم تحك أن الانسان كان قد منح منحة الخلود ثم فقدها بسبب خداع الحية له . ولكن لما كان ذكر شجرة الخلود

(1) Folklore in the Old Testament, p. 4.

(الطبعة المختصرة) .

يعـــد غريبا عن الموضوع بخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مــع شجرة المعرفة ، فقـــد افترض المؤلف أن حكاية التوراة تعد رواية محرفة لرواية أخرى أصلية حكت عن شجرتين فى الجنة حرمتا على الانسان وهما شجرة الفناء وشجرة الحياة • وقد افترض المؤلف كذلك أن الرب الذى كان رحيما كل الرحمة بالانسان فأسكنه جناته وأنعم عليه من كل خير ، أمر الانسان ألا يأكل من شجرة الفناء وأن يأكل من شجرة الحيـــاة ثم جاءت الحية الماكرة التى شاءت أن تحرم الانسان من الخلود ، وأضلت الانسان حتى أكل من شجرة الفناء وبذلك حرم الخلود وأصـــبح من الفانين •

ـــ فاذا صححت الرواية على هذا النحو ، ولا بدلها من ذلك حتى يكون هناك تناسق بين مغزى الشجرتين المعنيتين من ناحية ، وحتى لا تنسب الى الرب صفة الأنانية التى نسبتها اليه التوراة عندما صورته حريصا على الاستئثار بالمعرفة والخلود لنفسه [1] ـــ فان الحكاية تكون شبيهة كل الشبه بحكايات البدائيين التى روت عن خلق الانسان من الطين وعن اكتسابه الخلود ثم حرمانه هـــذه المنحة نتيجة خـــداع حيـــوان من الحيوانات الماكرة له •

٢ ـــ **علامة قابيل** : وبعد أن هبط آدم وحواء الى الأرض أنجبـــا قابيل وهابيل • « وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا فى الأرض • وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم قابيل من أبكار غنمه ومن ســـمانها • فنظر الرب الى هابيل وقربانه ، ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر • فاغتاط قايين جدا وسقط وجهـــه •

---

(١) « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا الى الابد . فأخرجه الرب من جنة عدن يعمل الارض التى أخذ منها . فطرد الانسان واقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

فقال الرب لقايين : لماذا اغتظت ولمـــاذا سقط وجهك • ان أحسنت أفلا رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وأنت تسود عليها • وكلم قايين هابيل أخاه وحدث اد كانا فى الحقل أن قايين قام على أخيه وقتله • فقال الرب لقايين : أين هابيل أخوك • فقـــال لا أعلم ، أحارس لأخى • فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض ، فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون فى الأرض • فقال قايين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل ، أنك قد طردتنى اليوم من وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا من الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين عـــلامة لكى لا يقتله كل من وجـــده » [1] •

وعندما قرأ فريزر هذه القصة قراءة العالم الفاحص ، لاحظ مايلى : **أولا :** أنه على الرغم ، من أن قابيل قتل أخاه هابيل ، فان الرب حـــكم بأن من يقتل قابيل ينتقم منه سبعة أضعاف • **ثانيــا :** أنه يبـــدو أن الأرض كانت تعج بالناس بحيث أن قابيل كان يخشى من يتعقبه ويأخذ منه بالثأر ، والواقع أن الأرض ، وفقا للروايات الدينية ، لم يكن يعمرها آنذاك سوى آدم وأبنائه • **ثالثا :** استلفت نظر المؤلف بصـــفة خاصة قول « الرب : صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن ملعـــون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها • » ومن ثم فقد تساءل المؤلف عن علاقة الأرض بفعـــل الآثم ، بحيث أنه لو عاد وأفلحها ، فانها لن تقـــدم له ثمارها اليانعة • **رابعـــا :** ان الرب جعل لقابيل علامة ما لكى لا يقتله كل من وجـــده • وأمام هذه المشكلات التى أثارتها الحكاية وقف المؤلف يحل رموزها بأسلوبه المتدفق واستقصائه البالغ فى تقصى التراث الشعبى

---

(١) سفر التكوين ٤ : من ٢ : ١٥ •

البدائى . وقد بدأ تساؤله عن كنه هذه العلامة التى علم بها الرب قايين وسبب تعليمه اياه بها ، لأنه رأى أن فهم مغزى هذه العلامة يعد مفتاحا لفهم سائر النقاط التى أثارها .

لقد كانت الشعوب البدائية وشعوب الحضارات تنفى القاتل وتحرم عليه أن يطأ أرض بلده الا بعد القيام باجرات طقوس وشعائر محدده كما هو واضح فى قانون أتيكا ، وذلك خوفا من أن تصاب الأرض بالدنس أو على الأقل تصاب بالجدب . ويؤيد هذا قصة « أخاميون » الاغريقية . فقد ظل « ألخاميون » القاتل لأمه ، شريدا هائما على وجهه . وكان كلما وطئت قدمه أرضا لفظته هذه الأرض . حتى لجأ فى نهاية الأمر الى نبوءة دلفى يلتمس عندها العون . وأخبرته النبوءة أن الأرض الوحيدة التى لن تشقى بمأساته هى الأرض التى لم يكن البحر قد انحسر عنهما وقت ارتكابه جريمته . فاستمر ألخلميون فى تجواله حتى عثر على هذه الأرض . ولكنه ما كاد يطأها بقدمه حتى لفظته هذه الأرض كذلك . وهكذا ظل ألخاميون هائما على وجهه طوال حياته . وهنا يتساءل الكاتب عما اذا كانت العلامة التى علم بها قابيل اشارة الى اثمه حتى يتجنبه الناس خوفا من أن يصابوا بعدوى هذا الجرم ؟ ولكن اذا كان الأمر كذلك ، كما تشير الى ذلك معتقدات بعض الشعوب القديمة ، فان هذا يتناقض مع السبب الذى من أجله علم الرب قابيل ، اذ من الواضح من القصة التوراتية أن الرب علمه لكى لا يقتله كل من وجده . فاذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من البحث عن مغزى آخر لهذه العلامة . وهنا يتجول بنا المؤلف مرة أخرى مع الشعوب البدائية لعلنا نهتدى الى تفسير آخر لهذه العادة . ولا بد أن يكون التفسير فى هذه الحالة فى صالح القاتل ، حيث أن الرب نفسه قد أصدر حكما فى صالح قابيل القاتل . وقد انتهى فريزر من خلال المقارنات ، الى أن هذه العلامة لا بد أنه كان يقصد بها ابداء قابيل فى مظهر متنكر لشبح
العلامة لابد أنه كان يقصد بها ايذاء قابيل فى مظهر متنكر لشبح
يقول فى خاتمة بحثه : « ويمكننا أن نفترض على نحو هذا (أى على

نحو ما تفعل بعض القبائل البدائية) أن قابيل قد هدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض • ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة • مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به ؛ وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال وربما لونه بلون أبيض كما كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل الأرونتانيون ؛ وربما لون نصف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « المساى » والنانديون[1] •

ولم يشأ فريزر أن ينتهى من هذا الفصل قبل أن يبدى سخريته مما تضمنته التوراة من سخافات فقال . « ان تفسير علامة قابيل على هذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ؛ فان تفسير العلامة بأن الرب قد علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن هناك على وجه الأرض من يقتله ، حيث أن الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبنينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح انسان حى ؛ فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته . الأمر الذى لا يتلاءم مع صفات الرب العالم بكل شىء[2] ثم يقول مزهوا بمنهجه المقارن : « ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب »[3] ••

٣ ــ **الطوفان الكبير** : وقد روت كل شعوب العالم على وجه التقريب

---

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٤٥ •
(٢) نفس المرجع ص ٤٥ •
(٣) نفس المرجع ص ٤٥ •

قصصا عن الطوفان الكبير الذى أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحـــدا • وربما كانت أقـــدم قصة من هذا النوع ، تلك القصة البابلية التى وردت ضمن ألواح ملحمة جلجامش الشهيرة • ومن المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة كانت مستقلة بادىء الأمر ، ثم أدمجت ضـــمن حوادث الملحمة وتعد هذه القصة وغيرها من القصص التى روت عن حوادث انفيضانات ، صدى لحوادث طبيعية غمرت فيها الأنهار الأرض أو حدث صدع فى صخور كانت تعـــد بمثابة خزان طبيعى ، فتدفقت المياه أثر ذلك كما حـــدث عندما تدفقت مياه البحر الأسود فى البحـــر الابيض محطمة السدود الصخرية التى كانت تفصلهما تماما عن بعضها البعض ، كما يؤكد علماء الجيولوجيا • وبناء على ذلك فربما انتقلت قصة طوفان نوح التى وردت فى الكتب السماوية والتى ربما حدثت فى بلاد بابل ؛ حيث أن الحوادث الطبيعية من هذا النوع كانت مألوفة فى هذه المنطقة ، الى بلاد أخرى فحكت عنها ثم أطلقت على البطل الذى خاض هذا الطوفان اسما محليا • على أن هذا لا ينفى أن هناك قصصا أخرى نشأت مستقلة فى أنحاء أخرى من بلاد العالم وأن هذه القصص قد تأثرت بقصة الطوفان التى رواها المبشرون بشكل أو بآخر ، ذلك أن هذه القصص تكاد تتفق جميعـــا مع القصـــة الدينية فى عناصرها الأساسية وهى حدوث طوفان كبير أغرق الأرض ومن عليها فيما عـــدا رجلا واحدا أو رجلا وزوجته • ثانيا : نجاة هذا الشخص فى فلك أو على رمث بعد أن جمع معه صنوفا شتى من الطيور والحيوانات ومن الحبوب حتى يتمكن من تعمير الأرض بعد أن ينتهى الطوفان • ثالثا : محاولة هذا الشخص استكشاف أحوال الأرض بعد انتهاء الطوفان عن طريق اطلاق طير حمل اليه قطعة من طين الأرض اليابسة أو فرعا من فروع الشـــجر •

وعلى الرغم من أن فصل الطوفان الكبير قد استغرق حيزا كبيرا من كتاب فريزر ؛ اذ أنه يقع فيما بين ص ١٠٤ و ص ٣٦٠ من الجزء الأول

من الكتاب الأصلى ، الا أن هذا الفصل لا يدخل ، ومن وجهة نظرنا ، ضمن أبحاث الكتاب الأساسية التى تتركز حول دراسة أشكال العبادات وطقوس السحر دراسة مقارنة بين العبرين القدماء والشعوب البدائية • حقا ان فريزر ملتزم فى هـذا الفصل كذلك بمنهجه المقارن ، الا أنه يقارن فيه بين قصص مختلفة رويت فيما يبدو ازاء حوادث طبيعية معينـــة •

٤ ــ برج بابل : **من بين المسائل الشائكة التى تتصل بالبحث فى أصل** الجنس البشرى ، مسألة اللغة أو بالأخرى اللغات المختلفة التى تحدثت بها أجناس البشر منذ الأزل • فكيف تعددت هذه اللغات واختلفت كل الاختلاف بعد أن كان الجنس البشرى كلا واحدا يعيش فى بقعة واحدة من الأرض ؟ هذه المسألة جذبت بطبيعة الحال أنظار العبرين القــدماء وفسروها على النحو التالى :

كان الجنس البشرى بأسره يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة • ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة الشرق حتى وصلوا الى سهول شـــنعار الفسيحة : أو الى أرض بابل ، وهناك حطوا رحالهم وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن ألصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين • على أنهم لم يكتفــوا ببنــاء مدينة ، وانما رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم • والسبب الذى دفعهم لبناء هذا البرج هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى لا يتفرق الناس على وجه الأرض من ناحية أخرى ، ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء ســماء المساء البراقة • أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب • وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهــذا المعلم حتى يصل الى بيته • وقد كانت هذه الخطة سليمة لولا أنهم لم

يكونوا قد وضعوا فى حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم •فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية . هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعلون به فى سرعة فائقة • فساءه هذا المنظر وقال لهم : « هاهم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا فى عمله ؛ ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم »[1] ويبــدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه وهو الأمر الذى لم يفكر فيه الناس • ولذلك فقــد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها ، وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبــط الى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا »[2] وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم عــلى وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج • وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة لأن الرب قد بلبل فيــه لغات الناس جميعا • وقد روت القبائل الافريقية وقبائل المكسيك وبورما بل والاغريق القــدماء حــكايات شبيهة بتلك الحكاية ، وكان الغرض من بناء البرج اما قتل الاله الذى كان يســكن معهم فى الأرض ذات يوم ثم غضب من الناس وصعد الى ملكوته السماوى ؛ أو رؤية القمر على حقيقته • وقد كانت النتيجة واحدة فى كل هذه الحكايات وهى سقوط البرج وقتل الناس الذين حاولوا تسلقه وبلبلة ألسنة الناس جميعــا وتفرقهم فى بقاع الأرض • والى هنا ينتهى المجلد الأول من الترجمة ، أما المجلد الثانى فيشتمل على الجزأين التاليين :

أولا : عصر الشــيوخ والآباء :

١ ــ عهــد ابراهيم : يبدأ هذا العصر بأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام • وتحكى التوراة ان ابراهيــم خرج من أرض بابل الى أرض كنعان • وهنــاك ظهــر الرب وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور

---

(١) سفر التكوين ١١ : ٦ .
(٢) سفر التكوين ١١ : ٨ .

الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها • فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم انى أرثها • فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط ، وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه • وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها • ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات واذا رغبة مظلمة عظيمة واقعة عليه • فقال لابرام أعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة • ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها • وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة ••• ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع • فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا »[1] •

فهذه القصة تحكى عن ميثاق عقد بين ابراهيم والرب ومن ثم فقد سمى فريزر هذا الفصل « عهد ابراهيم » • ومن الواضح أن العهد قد تم بين ابراهيم والرب بعد أن أدى ابراهيم طقوسا معينة بناء على أمر الرب ، وهى القيام بذبح تلك الطيور التى ذكرها الرب وشطرها ثم وضع شطرى كل حيوان فى مقابل بعضهما بعضا • وعندما مر الرب بين هذه القطع كان هذا تأكيدا للعهد الذى قطعه الرب مع ابراهيم على أن تكون الأرض التى رحل اليها له ولنسله من بعده •

ومن الطبيعى أن تستلفت هذه الشعيرة التى أداها ابراهيم فى سبيل اتمام هذا العهد بينه وبين الرب ، نظر العلامة فريزر الذى قضى عمره فى دراسة شعائر البدائيين وطقوسهم ، فراح يقارنها بشعائر البدائيين لاستخلاص مغزاها وهدفها • وقد انتهى فريزر ، بعد استقصاء بالغ لتلك الشعيرة ، الى أنها تفسر من خلال نظريتين . النظرية الأولى هى نظرية الجزاء والنظرية الثانية هى نظرية التطهير أو الوفاء • أما النظرية

---

(١) تكوين ١٥ : ٧ الى ١٨ •

الأولى فتدعمها تلك العادة التى كانت تتبع فى جزيرة نياس عند عقد عهد بين طرفين أو عندما كان يقسم الطرفان على أمر ما • وفى هذه الحالة يجز الطرفان رقبة خنزير رضيع بينما يدعو كل طرف على نفسه بأن يصاب بمثل هذه القتلة اذا ما نقض العهد أو حنث باليمين •
وأما النظرية الثانية فيؤكدها ما يقوم به عرب موآب عندما ينتابهم القحط أو الوباء • عند ذاك يقف الشيخ وسط الخيمة ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » عندئذ تأخذ كل أسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة أو على عامودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء الأسرة جميعا بين شطرى الضحية اعتقادا منهم أن شطرى الضحية لهما القدرة السحرية على طرد شبح الوباء أو الكارثة • ومعنى هذا أن الناس ينظرون الى الكارثة أو الوباء بوصفه شخصا شريرا يشهر سيفه ويأتى على كل ما يقابله • فاذا اعترضت الضحية طريقه كالأسد الرابض نشب صراع مفزع بينهما ينتهى بقهر هذا الكائن الشرير بينما تظل الضحية المنتظرة مسيطرة • فالتفسير التطهيرى أو الوقائى يتلاءم مع هذا المثال ، فى حين ينتفى عنه التفسير الجزائى • اذ ليس من المعقول أن يتسبب قتل الشاة فى موت الناس الذين يمرون بين أجزائها • بل ان الناس يعتقدون ، على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر • وفى ضوء هذين التفسيرين حاول فريزر أن يفسر مغزى الشعيرة العبرية • وقد رأى أنه من الأوفق تفسيرها من خلال النظرية الوقائية عن أن نفسرها من خلال النظرية الجزائية • ولكنه فى الوقت نفسه أخذ يتساءل عن صلة هذه الشعيرة بفكرة التطهير أو الوقاء • وفى هذا يتبنى فريزر وجهة نظر روبرتسون سميث فيما سماه « بالسر المقدس » لهذه الشعيرة • ويفترض روبرتسون بناء على هذه النظرية أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ، يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم • أى أن هذا العهد ليس سوى شكل آخر لعادة تنتشر حتى اليوم على نطاق واسع تعرف بعهد الدم •

والمتعاهدون ، وفقا لهذه العادة يمزجون قدرا من دمائهم بعضا ببعض ، وبذلك ينشأ فيما بينهم نوع من القرابة العصبية الوثيقة • على أن فريزر المدقق لم يتبين نظرية روبرتسون سميث بطريقة عمياء ، وانما رأى أن تفسير الشعيرة العبرية ينبغى أن يجمع بين نظريتى الجزاء والوقاية معا • فشطر الذبيحة الى شطرين يرمز الى مصير الحانث بالعهد ؛ كما أن مرور المتعاهدين بين شطرى الذبيحة يفسر من خلال النظرية الوقائية أو نظرية السر المقدس • فكلتا النظريتين ، من وجهة نظره ، تكمل احداهما الأخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيرا متكاملا لهذه الشعيرة •

على أننا نرى أن الشعيرة العبرية لا يمكن أن تفسر الا من خلال نظرية السر المقدس على نحو ما شرحها روبرتسون سميث فيكون مغزها عندئذ هو عقد أواصر الرباط المقدس بين ابراهيم والرب أثر هذا الميثاق الذى عقده الرب معه • اذ ليس من المعقول أن تفسر الشعيرة أو بالأخرى يفسر جزء منها بالنظرية الجزائية التى يلقى الرب وفقا لها جزاء مشابها بمصير الضحية اذا ما حنث بالعهد الذى قطعه على ابراهيم •

٢ ــ ارث يعقوب أو نظام وراثه الأبن الأصغر :

ويستمر فريزر مع التوراه فى تعقب تاريخ بنى اسرائيل • ولكنه ترك اسحق جانبا ليفرغ لعرض حياه يعقوب الحافلة بالمغامرات التى لم تخل من معتقدات وطقوس بدائية ظلت عالقة بها •

وقد بدأ فريزر هذا الفصل بتصوير شخصية يعقوب كما تتمثل فى التوراه • ولا بد أن الكاتب اليهودى قد أبرز من خصال يعقوب ما هو محبب الى نفسه والى قومه • ذلك أن يعقوب فى التوراه يعد « مثالا للتاجر السامى اللين الحذق الوافر الحيلة الذى يحرص على الكسب وعلى أن يتمم صفقاته لا بالقوة بل بالحذق دون أن يتردد كثيرا

فى اختيار الوسائل التى يبز بها منافسيه ويتفوق عليهم »[٢٢] • ومن ثم فقد خلت شخصية يعقوب فى التوراة من كل من الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم • والورع التأملى الذى اتصف به اسحق • وقد عكف فريزر على حادثتين فى حياة يعقوب لم يتردد فيهما فى استخدام كل أساليب المكر والخداع فى سبيل الحصول على مكسب شخصى • ومن حسن الحظ أن هاتين الحادثتين الشائقتين اشتملتا على نماذج من الطقوس والمعتقدات البدائية التى عنى فريزر بابرازها من خلال حكايات التوراة • أما الحادثة الأولى فهى حادثة خداع يعقوب لأخيه الاكبر عيسى لكى يسلب منه حقه فى الارث وفى بركة أبيه ، وأما الحادثة الثانية فهى حادثة خداعه لخاله لابان بعد أن تزوج من ابنتيه ، وقضى معها زمنا طويلا • وبين الحادثتين هناك حوادث أخرى لم يتركها المؤلف عابرا ، وانما حاول كذلك أن يستخلص ما فيها من معتقدات وعادات بدائيــة •

وقد عمد يعقوب الى الحيلة التالية التى تحكيها التوراة فى سبيل خداع أخيه لقد جاء الى أبيه الكفيف اسحق مصطنعا ملمس أخيه عيسو ، بأن ارتدى جلد نعجة ، ومصطنعا صوته ، وادعى لأبيه أنه عيسو وأنه جاءه ليخلع عليه البركة • فباركه أبوه ، وبذلك سلب حق أخيه فى البركة • أما سائر حق عيسى فى الارث فقد اشتراه منه مقابل أكلة من الثريد عندما كان عيسو يعانى آلام الجوع • وهنا يتساءل فريزر عما اذا كان سلوك يعقوب على هذا النحو حقا بدافع خداع أخيه وأبيه ، أم أن عادة الابن الأصغر فى الارث كانت ما تزال تتبع فعلا فى هذا الوقت ثم تغيرت فيما بعد الى عادة حق الابن الأكبر فى الارث فى زمن كتابة سفر التكوين ، ومن ثم فقد فسر كاتب السفر خلع اسحق البركة على ابنه يعقوب على أنه من قبيل خداع يعقوب لأخيه وأبيه ؟

---

(٢٢) الفولكلور فى العهد القديم : ص ١٧٢ •

هذا هو موضوع هذا الفصل • ومن ثم فقد استطرد فريزر فى ذكر تفاصيل عادة حق ارث الابن الأصغر ، فساق الشواهد العديدة عليها • فقد كانت العادة المتبعة فى الأسر القديمة التى كانت تعيش فى ظل النظام الرعوى أو الزراعى المتنقل ، أن يهجر الأبن الأكبر أبويه بحثا عن حياة رعوية أو زراعية مستقلة ، كما كان اخوته يفعلون فعله عندما يكبرون بحيث لا يبقى فى بيت الوالدين سوى الأبن الأصغر الذى يكلف برعاية والديه وأخوته • ومن الطبيعى بعد ذلك أن يكون لهذا الأبن الأصغر حق ارث مسكن والديه كذلك أدوات البيت والأرض الى غير ذلك • ومما ساعد على ممارسة هذه العادة كثرة الأراضى وقلة السكان • فلما استقرت الأسر فيما بعد ولم يعد هناك مزيد من الأراضى الشاسعة ، انتقل هذا الحق الى الابن الأكبر • ولم تكن عادة حق ارث الابن الأصغر متبعة بين القبائل البدائية فحسب ، كما لاحظ ذلك فريزر ، وانما كانت نظاما منتشرا فى كثير من بقاع العالم ومنها انجلترا وفرنسا •

وحيث أن يعقوب كان من وجهة نظر فريزر ، صاحب الحق الشرعى فى ارث أبيه ، وهو الأمر الذى غفل عنه كاتب سفر التكوين ، حيث أن هذه العادة كانت قد تغيرت فى عصره ، فان ارتداء يعقوب جلد النعجة لم يكن بناء على ذلك ، بدافع اصطناع ملمس أخيه لخداع أبيه ، ومن ثم فانه ينبغى أن يفسر هذا التصرف تفسيرا مقنعا آخر • وقد توصل فريزر ، من خلال المنهج المقارن الى أن هذه العادة كانت تتبع فى مناسبات حيوية متعددة منها الميلاد والتبنى والمرض والختان • فاذا كانت مناسبة من هذه المناسبات ، بقرت نعجه ، ووضع المريض أو الصبى أو الطفل أو المريض بداخلها • وقد تتبع هذه العادة بشكل آخر وهو لف الصبى أو الطفل أو المريض بشرائح من جلد النعجة بعد ذبحها وتفسير هذه العادة هو أن الشخص الذى يوضع فى بطن النعجة أو يرتدى جلدها يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى

يكون بمثـابة الحاجز بينـه وبين ايذاء القـوى الشريرة المتربصـة به فى هـذه المناسبات بصفة خاصة ، ومن ثم فان القوى الشريرة توجه أذاها الى الحيوان بدلا من الشخص •

وأحيانا كانت هذه العادة تتبع فى مناسبة أخرى يطلق عليها الميلاد الجديد • وهذا الميلاد الجديد يكون فى حالة التبنى أو رفع شخص الى مرتبة أسمى من مرتبته الاجتماعية ، أو فى حالة ما اذا عاد شخص الى قومه بعد غيبة طويلة ، بحيث أنهم عدوه من الأموات • وفى هذه الحالة يوضـع الشخص فى تجويف نعجة ويصطنع صراخ الطفل وكأنه يولد من جـديد • وهكذا ينتهى فريزر من هـذا الفصـل بالنتيجة التالية فيقول : « فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها فاننا نذكر على سـبيل الافتراض أن حـكاية الخديعة التى ارتكبها يعقوب مع أبيه أسـحق تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجـديد من عنزة ، الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه أو يرغبون فى اتباعه عندمايفضل الأبن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيـه الأكبر الذى مازال على قيـد الحيـاة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جـديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم اما نتيجة حظه العثر أو بسبب سوء سلوكه • وربما بسط هـذا الاحتفال الغريب عند العبرين كما بسط عند الأكيكوير ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضـع قطـع من جلدها على الشـخص الذى يعتقـد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى • فاذا كان افتراضى هذا صحيحا ، فان كاتب قصـة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هـذه الشعيرة القـديمة ، وان كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه » [1] •

ثم رحل يعقوب الى حران موطن خاله لابان ، وذلك بناء على نصيحة أمه • أما السبب الذى يعزوه المصـدر اليهودى لذلك ، فهو خـوف

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٢٣ •

الأم على ابنها يعقوب من غضب اخيه عيسو . وأما المصـــدر الكهنوتى فيفسر ذلك بان الأم لم تشأ لابنها أن يتزوج من بنات الكنعانيين الذين كان العبريون يعدونهم كفرة فارســلته الى خاله ليتزوج من احـــدى بناته . ومهما يكن سبب رحيل يعقوب الى حران ، فانه اتخــذ طريقه الى هناك عبر الجبال والصخور والفيافى الشاسعة فلما جن عليه الليل وكان يسير فوق جبل ، استلقى على الأرض ووضـــع رأسه على صخرة وراح فى نوم عميق . فرأى فى رؤياه سلما منتصبا يصــل بين السماء والأرض والملائكة صاعدة هابطة عليه . ثم سمع صـــوت الرب يباركه ويعده بأن هــذه الأرض ستكون له ولأبنائه من بعــده . فلما استيقظ يعقوب مسح الحجر الذى اتخـــذه وسادة له وأطلق على المـكان اسم « بيت ايل » أى بيت الرب . ومنذئذ أصبح هذا الحجر مقدسا لدى العبريين القـــدماء . ويعلق فريزر على هــذه الحادثة بانها حـــكاية لفقها العبريون القدماء ليبرروا بها حلمهم القـــديم فى امتلاك هـــذه الأرض ليصبح وطنا قوميــا لهم . ذلك أن هــذا المـــكان بعينه كان الكنعانيون ، سكان البلاد الأصليون يعبدون آلهتهم عنده . ومهما يكن مصـــدر هــذه الحكاية فانها تخفى بين سطورها بقايا عبارات ومعتقدات قديمة . وهنا يسوق فريزر القرائن التى تشير الى اعتقاد بعض الشعوب فى أن لجوءهم الى بعض الأمكنة المقـــدسة ونومهم فى ساحتها ؛ يساعدهم على ظهور الآله لهم فى رؤياهم فيتسنى لهم عند ذاك أن يسألونها عما يعن لهم من أمور . أو يطلبون منهـــا الشفاء من مرضـــهم . كما كان الناس فى الزمن القـــديم يتصورون أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم . بل أن بعض الشعوب كان يضـــع سلما صغيرا فى القبور لكى يسهلوا على الأرواح عملية الصعود الى مأواها . ولم تكن فـــكرة عبادة الحجر الذى يسكنه الرب غريبة على الاسرائيليين القـــدماء . فقد اتهم النبى أشعياء الاسرائيليين الذين كانوا يعبـــدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل الميـــاه وهى تلك الصخور التى كانت تقع فى الأخاديد الجـــدباء ، ويصبون عليها الخمر ويقـــدمون لها النبات ،

انتهمهم بالوثنية • وعلى كل فان الاسرائيليين لم ينفردوا بعبادة الأحجار ، بل شاركهم فى ذلك كثير من الشعوب من بينهم العرب الجاهليين •

٣ ـ **العهد على ركام الأحجار** : ثم تستمر التوراة فى سرد قصة يعقوب ؛ فتحكى عن زواجه من ابنتى خاله لابان ، لبئة وراحيل • وفى مقابل ذلك مكث يعقوب عند خاله فترة من الزمن يرعى له قطعان ماشيته • وبعد فترة من الزمن ، راجع يعقوب مكسبه المادى عند خاله فلم يجده شيئا • فقرر ان يسلب مواشيه ، وأن يهرب مع زوجتيه وأولاده تحت جنح الليل الى بلاده • واحتال بعد ذلك على زوجتيه لاقناعهما على الهرب فوافقتا • وقبل الرحيل عمدت راحيل الى سرقة آلهة بيت أبيها خوفا من أن تنتقم تلك الالهة لأبيها من فعلتهم ، ثم أخفت تلك الآلهة تحت محفة جملها وجلست فوقها دون أن تخبر يعقوب بذلك ؛ ثم رحلت القافلة تحت جنح الليل منتهزا يعقوب فرصة غياب خاله فى سفر من الأسفار • فلما عاد الخال واكتشف ما حدث ؛ جمع رجاله وأسرع فى أثر القافلة حتى لحق بها ، وعند ذاك انهال على يعقوب تأنيبا وتعنيفا لا لأنه سرق أمواله وبناته فحسب ولكن لأنه سرق آلهة بيته التى تحرسه • فانكر يعقوب تلك التهمة بشدة وسمح لخاله أن يفتش الركب ، ففعل لابان ذلك ولكنه لم يعثر للآلهة على أثر • وفى تلك اللحظة استرد يعقوب أنفاسه ، ووجدها فرصة لأن يكيل الكيل لخاله أضعافا فانهال عليه تعنيفا ، وأخبره أنه لم يأخذ منه الا ما يستحقه نتيجة خدمته له تلك السنين الطويلة • ولما لم يجد لابان جدوى من مناقشته طلب منه الصلح وقلبه مفعم بالأسى لما حدث • وعند ذاك وقف يعقوب ولابان على حجر جمع عليه ركام أحجار صغيرة وأقسما على ألا يحنث أحدهما بعهد الصلح الذى قطعاه على نفسيهما • وبعد ذلك عاد لابان خاسرا الى بلاده ، فى حين استأنف يعقوب رحلته فائزا بنصيب الأسد •

فهذا مثال يبرزه فريزر من بين نصوص والتوراة ليدل به على نظريته فى سحر المشاركة . فالوقوف على الحجر وتلاوة القسم عليه ، يكسب القسم صلابة الحجر وقوته . ومما يؤكد هذا ما تتبعه بعض الشعوب من جعل العروس تقف على حجر قبل أن تطأ بيت زوجها قائلا : « لتطىء بقدميك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته وتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك » [1] .

٤ ـ **يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق** : ثم استمر فى سيره مع الركب حتى وصل الى مخاضة نهر اليبوق ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله عليهم . وعند ذاك أمر يعقوب القافلة أن تسبقه وبقى هو وحيدا عند شاطىء النهر . فلما ساد الكون السكون ولم يعد يسمع من بعيد سوى صوت ثغاء الغنم ، ظهر ليعقوب رجل أخذ يناضل معه يعقوب طوال الليل . ثم قال هذا الرجل ليعقوب : « أطلقنى لأنه قد طلع الفجر » . ولكن يعقوب تعلق بتلابيبه وقال له : لا أطلقك ان لم تباركنى » فلما سأل الرجل يعقوب عن اسمه وأخبره به أجابه قائلا : « لا يدعنى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » . ولم يطلق يعقوب سراح هذا الشخص الا بعد أن باركه . ثم سمى هذا المكان الذى تقابل فيه مع هذا الشخص « فنيئيل » ، أى وجه الرب . وقد فسر هو هذا الاسم بقوله . « لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » [2] .

ويعلق فريزر على هذه القصة قائلا : « والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا بها رائحة الوثنية . ولكننا اذا ربطنا هذه القصة من ناحية بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها ، واذا ربطناها من ناحية أخرى بالأساطير الشبيهة بها ،

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٣٧ .
(٢) التكوين ٣٢ : من ٢٦ الى ٣٢ .

فاننا نفترض بادىء بدء أن هذا الغـريم الغامض الذى تصـارع معه يعقوب هو روح النهـر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجـل انتزاع البركة منه » [1] ولعل هذا يفسر سبب تخلف يعقـوب عن السـير مع القافلة ، وبقاءه وحده فى الظـلام عند مخاضة النهر • وربما حسب يعقوب أن إله النهر يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة أو بين الأشجار ، حتى اذا ما مر الركب وسـاد الهدوء النهـر فيما عدا صـوت التيار الرتيب الهامس ، دفعـة الفضـول لأن يخرج من مخبئه ليسـتطلع أحـوال النهـر ويعرف سبب هذا الهـرج والمرج • وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصـل منـه على لبركة التى يسعى اليهـا •

وليس غريبا أن تفسر الحكاية على هـذا النحو ، حيث أن الشعوب جميعا كانت أو ما تزال تعتقد فى أن للمياه روحـا أو شيطانا أو الها ، وأنه لابد من استرضاء هذا الكائن قبل عبور المـاء حتى يكون عبورهم سـالما • ولقـد حاول كاتب القصـة أن يخفى هـذا الأثر الوثيق بأن جعل هذا الكائن هو رب يعقوب • ولكن الحـكاية رغم ذلك ما تزال تكشف فى وضـوح عن هذا المعتقد البدائى القديم •

٥ ــ **قـدح يوسف :** وفى ختام هـذا الباب الذى يتصـل بآباء بنى اسرائيل وشيوخهم ، يأتى فريزر على قصـة يوسف • والقصـة فى حد ذاتها لا تعنيه بطبيعة الحـال ، الا بمقدار ما تتضمنه هى كذلك من معتقدات بدائية • فعندما تقابل يوسف مع اخوته فى مصر بعـد غيبته الطـويلة عنهم ، أمر يوسف أحد خدامه أن يخفى قدحه فى جوال أخيه بنيامين • وما كاد الأخوة يتخـذون طريقهم آفلين الى بلادهم ، حتى أرسـل يوسف الخادم فى اثرهم يتهمهم بسرقة قدح يوسف •

---

(١) الفولكلور العهد القديم ص ٢٥٢ .

ثم فتش أجولتهم واستخرج القدح بطبيعة الحـــال من جوال بنيامين • فأخذهم جميعا وعاد بهم الى يوسف • وعنـــد ذاك قال لهم يوسف : « ما هذا الفعل الذى فعلتم ، ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاءل » [1] • ولما كانت كلمة يتفاءل تعنى التكهن كما هو واضح فى الترجمة الانجليزية المعتمدة للتوراة ، فقد وقف فريزر عند هذا النص وقفة ليستخلص منه اعتقادا من الاعتقادات الســـائدة ، وهو التنبؤ بالأمور الغيبية عـــن طريق التأمل فى قدح ممتلىء ماء أو به رواسب من القهوة أو الشـــاى ، وهذا الاعتقـــاد سائد بين الناس حتى اليوم ؛ وقد أشـــار فريزر الى عديد من الأمثلة التى تؤيد ذلك •

ثانيا : عصر القضاة والملوك :

١ ــ موسى فى اليم : **وينتهى عصر الشيوخ والآباء عند بنى اسرائيل** بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير التى تميزت بألوانهـــا الحيـــة وتصويرها الرائع ؛ رحـــلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطىء الفرات الى شـــواطىء نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبـــة من الزمن لفترة يســـدل فيها الســـتار على الفصـــل الأول من تاريخ بنى اسرائيل • وعندما ارتفع الســـتار مرة أخرى على المشهد نفسه ، كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمائة سنة نمت فى أثنائها أسرة الشيوخ وأصبحت أمة • من هنا تبدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأســـها يقف موسى بشخصيته القـــوية ، ذلك المشرع والقـــائد الكبير الذى قاد شعبه من مصر وســـار به عبر الصحراء المصرية وشرع لهم قوانينهم حتى توفى فى نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر لها أن يطأها بقدمه •

وقد تشكك فريزر فيمـــا اذا كانت قصـــة طرح موسى فى المـــاء بعد وضعه فى صندوق من القش ، وعثور ابنة فرعون على هذا الصندوق

---

(١) التكوين ٤٤ : ١٥ •

واحتضانها الطفل ورعايتها له ؛ تعتمد على أصل تاريخى أم أنها مجرد صورة أخرى لحكايات من هذا القبيل رويت عن مؤسس الممالك والدول بصفة خاصة ، من أمثال سرجون ملك بابل الذى عاش فى القرن الثالث ق • م ، وتراخان ملك جيلجيت التى تقع فى قلب جبال الهمالايا الثلجية ، وغير ذلك من الشخصيات الأسطورية • وقد افترض فريزر ، مقتفيا بعض آراء الباحثين أن هذه القصة وشبيهاتها تشتملان على بقايا اعتقاد قديم هو طرح الطفل فى الماء اثر ولادته لاثبات شرعية بنوة الطفل أو عدم شرعيته • فاذا طفا الطفل فانه يكون ابنا شرعيا والا فانه يكون ابن زنا •

٢ ــ شمشون ودليلة : ومن بين قضاة بنى اسرائيل المشهورين ، شمشون الجبار • وقصته مع دليلة معروفة بوصفها تراثا شعبيا روائيا • فقد كانت قوة شمشون تكمن فى خصلات شعره التى لم تحلق منذ نعومة أظفاره • ولما لم يكن يعلم بهذا السر سواه ، فقد بذل أعداؤه جهدا ضائعا فى سبيل القضاء عليه • ومن ثم فقد لجئوا الى جبيبته دليلة ورشوها بالمال حتى تكشف لهم عن مكمن قوته • واحتالت دليلة على شمشون حتى تتعرف منه عل هذا السر ، ولكن شمشون كان يخدعها فى كل مرة فيخبرها خطأ بمكمن قوته • وفى نهاية الأمر ضعف أمام قوة اغرائها والحاحها وأفشى لها السر ، وأفشته هى بدورها الى أعدائه • وفى الحال قيد شمشون الجبار وقصت خصلات شعره فخارت قواه وانتقم منه أعداؤه شر انتقام •

فهذه القصة تكشف عن اعتقاد شعبى قديم مؤداه أن قوة الانسان أو روحه تكمن فى جزء ما من جسمه أو فى أى شىء مادى خارج جسمه • فاذا استطاع شخص ما أن يهتدى الى معرفة مكمن هذه القوة أو الروح ، وأن يصيبها بضرر ، فان الضرر سرعان ما ينتقل الى الشخص المعنى فيصاب بأذى قد يفضى به الى الموت • وليست قصة شمشون ودليلة كما تروى على هذا النحو ، سوى رواية من

الروايات المتعـــددة التى تحـــكى عن هـــذا الموضوع وتتـــدرج تحت ما نسميه بالحكايات الخرافية • وقد قدم فريزر للقـــارىء نماذج وافرة من هذا النوع ليؤيد بها هذا الاعتقاد من ناحية ، ويربط بينهـــا وبين قصـــة شمشون ودليـــلة من حيث الشـــكل والمضـــمون من ناحيـــة أخـــرى •

٣ ــ **حزمة الحياة** : ثم صـــادف فريزر نصـــا آخـــر فى قصـــة داوود وأبيجال يشير الى اعتقـــاد آخر شديد الصلة بهذا الاعقاد • فقد ظل داود يهيم مع رجـــاله على وجهه فى البرارى « هربا من تعقب شاءول له ، حتى وصـــل الى أرض يملكها مزارع غنى يدعى نابال • فطلب داود منـــه أن يزوده بزاد وفير ، ولكنه أبى فلما تهـــدده داود أسرعت زوجة نابال الجميلة وتدعى أبيجال وقدمت لداود ما طلبه • ثم قالت له من بين عبـــارات الاطراء به : « وقد قام رجـــل ليطاردك ويطلب نفســـك • ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحيـــاة مع الرب الهـــك • وأما نفس أعـــدائك فليرم بها كما من وســـط كفـــة المقلاع » [1] ومغزى هـــذه العبارة هو أن أرواح الأحيـــاء يمكن أن ترتبط فى حزمة ضمانا لسلامتها • وأما فى حالة أرواح الأعـــداء فان الحزمة تحل وتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح • ويعلق فريزر على هذه بقوله : « ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هـــذه الفكرة ، حتى وان كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط فى ذهنـــه بعقيدة تتصـــل بنظرتهم الى الروح » [2] ومن الممكن ، وفقـــا لهـــذه العقيدة ، أن تربط أرواح القبيلة التى يشار اليهـــا بعصى أو بحجـــارة فى حزمة واحدة ، ثم تودع هذه الحزمة فى مكان آمن لا يصيبه سوء • وكلما ولد لهذه القبيلة طفل ، أضافوا عصاة أو حجرا لهذه الحـــزمة • ومما يؤيد هذا ، كما يقول فريزر : حزم « شارونجا » وهى عبـــارة

---

(١) سفر صموئيل الأول ٢٠ : ٢٩ .
(٢) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٨٥ .

عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة أرونتا وبعض القبائل الأخرى التى تسكن استراليا الوسطى ، بعناية كبيرة وسرية تامة فى كهوف وشقوق الصخور . وكل حجر من هذه الأحجار السحرية وكذلك كل عصاة ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان أم ميتا .

ثم استطرد فريزر من الحديث عن اعتقاد الشعوب فى امكان بقاء الروح فى أى صورة ما بعيدا عن الجسد ، الى الحديث عن اعتقادها فى تحضير الأرواح . وقد حارب أنبياء بنى اسرائيل المتأخرين هؤلاء المشعوذين الذين كانوا يقومون بتحضير الأرواح أو حبسها بقصد ايذائها ، وأودعوهم السجون . وكان من بين هؤلاء الذين حاربوهم الملك شاءول . ومع ذلك فعندما اعترت شاءول غمة بسبب عجزه عن محاربة الفلسطينيين ، أسرع الى ساحرة عين دور التى كانت قد أفلتت من العقاب ، وطلب منها أن تحضر له روح صموئيل النبى الذى كان قد توفى غاضبا عليه . فلما استحضرت له الساحرة روح صموئيل بعد أن طمأنها شاءول على حياتها ، خاطب شبح النبى الملك شاءول قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى » . فقال شاءول : « قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع [1] » . ولكن روح النبى لم تطمئنه ، بل انها على العكس أصرت على غضب الرب عليه .

٤ — **جريمة عد السكان :** وقد كان العبريون القدماء يعتقدون فى أن القيام بتعداد السكان يجلب عليهم الشر . فقد ورد بين حكايات سفرى صموئيل والأخبار أن يهوة أو ربما الشيطان قد أوحى الى الملك داوود بفكرة مشئومة هى أن يقوم بتعداد قومه . ومهما يكن

---

(١) سفر صموئيل الأول ٢٨ من ١٣ — ١٥ .

مصدر هذا الوحى على وجه التأكيد . لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل . فقد تناقص عددهم اثر ذلك مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون فيما بينهم . ونظر الناس الى هذه الطارئة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم . ويفسر هذا الاعتقاد بأن الأرواح الشريرة تظل متربصة بمن يملك عددا من الأغنام والماشية أو عددا من الأبناء ، فاذ علمت عددهم على وجه التحديد ، أصابتهم بأذى . ومن ثم فان من يضطر الى عد شىء يمتلكه ، فانه يراوغ فى العد على سبيل خداع الروح الشرير . وهذه الطريقة فى العد معروفة تماما لدينا حتى اليوم عندما يقول الناس فى العد : الله واحد . مالوش ثانى .. وهكذا .

عبادة شجر البلوط : وقد احتلت شجرة البلوط المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء . وما تزال هذه الشجرة تنمو بوفرة فى فلسطين كما يقول المؤلف . وكثيرا ما يرد ذكر شجرة البلوط بصفة خاصة فى التوراة . ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين ١٠ : ٦ : « واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض . » وكذلك ما ورد فى هذا السفر ١ : ١٨ « فنقل أبرام خيامه وأتى عند بلوطات ممرا التى فى حبون . بنى هناك مذبحا للرب . » وبالمثل ما ورد فى الاصحاح ١٨ : ٢٧ من هذا السفر : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفين لديه » .

ومازال الفلاحون فى فلسطين ، كما يقول فريزر ، ينظرون الى أشجار البلوط التى تنمو بوفرة ، فى جهات كثيرة فى فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية ، اذ أنهم يعتقدون أنها مأوى الجن والأرواح . ومع مرور الزمن ربط الأهالى بين عبادة هذه

الأشجار وعبادة الأولياء ، فكانوا يقيمون قبر الولى عند بلوطة خضراء وهناك يذبحون الضحية اليه ، ويتوسلون اليه أن يحقق لهم أمرا من الأمور • وهذا الربط بين الأشجار وضريح الولى يشير الى الاعتقاد فى أن روح الولى تسكن الشجرة • وبهذا يكون هذا الاعتقاد امتدادا للاعتقاد البدائى القديم فى أن للشجرة روحا تؤدى لها الطقوس المحددة فى مناسبات بعينها •

ومن عادة بعض الشعوب ان لم يكن من عادة شعوب العالم جمعاء ، أنه عندما تتعرض أسرة لوفاة فرد منها تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعددة حرية الفرد التى يتمتع بها فى حياته العادية • وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا كانت القيود التى تفرض عليهم أكثر تعنتا • وعلى الرغم من أن أسباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة فى الغالب لمن يضطر أن يخضع لها ، الا أن الشواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شبح الميت والرغبة فى الهروب من ترقياته غير المستحبة بصرف نظره عنهم اما عن طريق طرده أو اغرائه أو الى ارغامه على أن يذعن لمصيره ، ويكف عن مضايقة أهله وأصدقائه • وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة كما يتضح هذا من نصوص التوراة • وقد استطاع فريزر أن يضيف الى قائمة القيود التى تفرض سلوكا معينا على المكلومين عند العبريين ، قيدا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين كما يقول ، اذ لم يشيروا اليه فى كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ وأكدته العادات المتشابهة التى تتبعها الشعوب البدائية • فكلمة الأرملة باللغة العبرية تعنى الخرساء أو الصامتة • وقد دعاه هذا التحليل اللغوى الى التساؤل عن سبب ارتباط كلمة الأرملة بالصمت • وقد أجاب عن هذا التساؤل من خلال فحص تلك العادة البدائية التى تفرض على أقرباء الميت بعض القيود ومن بينها الصمت •

ومن بين القبـائل التى تراعى هـذه العـادة القبـائل الأفريقيـة وقبائل وسط استراليا وشمالها . فالأرملة فى هذه القبـائل يفرض عليه الصمت لمدة طويلة أو قصيرة ، ولا يسمح لها بالكلام الا بعـد تأدية الصمت : ومن بين القبائل التى تراعى هذه العـادة القبـائل الافريقية شـعائر محددة . والسبب فى هذا فيما يرى فريزر ، هو الخوف من أن ينجذب شبح الزوج الخطير اليهـا اذا ما سـمع صوتها ، فيتعرض لايذائها ما لم تؤد بعض الشعار المحددة .

وبهذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب الذى استطاع فيه المؤلف أن يبرز من بين روايات عصر القضـاة والملوك ، العـديد من التقـاليد المعتقـدات العبرية التى ترتكز فى أصـولها على تقاليـد ومعتقـدات بدائيـة .

—

ثالثا : القـانون : وبعـد ذلك يفرغ المؤلف لبحث الجزء الرابع والأخير من الكتاب وعنوانه « القانون » . ويميز النقـاد فى مجمـوعة القوانين المعقدة التى تكون الجزء الأكبر من أسـفار موسى الخمسـة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل . وهـذه المجموعـات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخهـا وطابعها ، وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتـاب العهد وقانون سـفر التثنية وقانون السـفر الكهنوتى . ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمسـة بما يسمى بكتاب العهد وهو الذى يتضمن سـفر الخروج من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرين آية ٣٣ ، وقد سمى هذا القـانون بالتشريع الأول وهو يتصل كل الاتصـال بسفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ١١ الى آية ٢٧ ، وهو ما يسـمى فى بعض الأحيان بكتاب العهـد الصغير . ويقول فريزر انه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبل تقنينها كانت تنتشر بوصفها نظمـا عادية ، ذلك أن القوانين لا تفرض فرضـا على المجتمع ، بل لابد أن تكون متلائمة مع عادات الناس ومعتقداتهم الى حد بعيد اذا قدر لها

أن تعيش . أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة ، فهى تلك التى يشتمل عليها سفر التثنية ، وهو السفر الذى دعا الى الاصلاح الدينى عن طريق ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها ، وتركيز عبادة يهوة الشعائرية فى معبد أورشليم وحده .

فاذا كانت القوانين ترتكز فى العادة على أصل قديم من التشريع الشعبى ، فان قارىء التوراة اذن لن يفاجأ اذا ما صادف بين نصوصه عادات وشعائر ترتكز على تشريعات وثنية قديمة . ومن ثم فان القارىء لن يفاجأ عندما يقرأ وصية من بين الوصايا العشر تنص على عدم طبخ الجدى فى لبن أمه ، وهى الوصية التى تقع فى سفر الخروج ٢٤ آية ا . وهنا تبرز مشكلة وهى أن الوصايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى تلك الوصايا التى نقرؤها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية . ففى الرواية الأولى تختفى القيم الأخلاقية كلية ، اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر المادية التى يطلبها الرب من عباده . ومثال ذلك (تحفظ عيد الفطير سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك ـ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح) . أما عن العلاقة بين الانسان والرب ، وبين الانسان والانسان ؛ فليس هناك شىء يذكر بهذا الصدد . وانما تختص بهذه العلاقات الانسانية الرواية الثانية للوصايا ، وهى التى تحض الانسان على البعد عما يغضب الرب والناس . وقد يدعو هذا الى افتراض قدم التشريع الأول عن الثانى ، ومع ذلك فمازال على القارىء أن يتساءل عن أهمية وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه . وأغلب الظن أن هذا التحريم كان موجها ضد بعض الشعائر السحرية أو الوثنية التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها . وأساس هذه الشعيرة أنها تقوم على سحر المشاركة ، ذلك أن طبخ الجدى فى

اللبن يؤدى الى الاضرار بسائر القطيع الذى يتأثر بذلك عن طريق المشاركة • ولما كان اللحم المطهر فى اللبن من الأكلات المحببة عند العبريين « فقد نص المشرع على تجنب هذا الفعل حتى لا تضار الماشية » • وليس هذا التشريع غريبا عن تشريعات القبائل البدائية التى تمنع غلى لبن الأبقار اثر ولادتها العجول حتى لا تصاب الأبقار بضرر ،ذلك أن هناك مشاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه •

٢ — ومن بين القوانين التى تشير كذلك الى اعتقاد قديم ، ذلك التشريع الذى نص عليه فى كتاب العهد على النحو التالى : « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، أما صاحب الثور فيكون بريئا • ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل » [1] •

٣ — وقد كان من عادة القبائل الهجمية تنفيذ قانون الأخذ بالثأر من الحيوان كما هو الحال مع الانسان بل ان هذا كان متبعا فى أوروبا فى العصور الوسطى بصور تدعو الى الضحك ، فقد كانت المحاكمات تنصب من أجل محاكمة الحيوانات التى تؤدى الزرع كالفئران مثلا • وكانت هذه الحيوانات تستدعى للمثول أمام هيئة القضاء ، ويعين لها مدافعون عنها • فاذا لم تحضر الفئران حكم عليها بالنفى أو الحرمان من رحمة الكنيسة الى غير ذلك من الأحكام التى لم تنفذ قط بطبيعة الحال •

٤ — ومن بين تلك التشريعات كذلك ، ذلك التشريع الذى سن

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ١٨ •

تعليق الأجـراس فى جبة الكاهن عنـد دخوله المعبـد ، والا أصيب بضرر قد يفضى به الى الموت • فقد نص القانون الكهنوتى على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصـف التالى : « وتصنع جبـة الرداء كلهـا من اسمانجونى ؛ وتكون فتحة رأسها فى وسـطها ويكون لفتحتها حاشـية حواليهـا صنعة الحائك كفتحـة الدرع يكون لهـا لا تشق ، وتصنع على أذيالهـا رمانات من اسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالهـا حواليهـا وجلاجل من ذهب بينهـا حواليها جلجل ذهب ورمانة عـلى أذيال الجبة حواليها • فتكون على هرون للخـدمة ليسـمع صـوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت » [1] •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى الأجراس المجلجلة التى يعلقها بين تطريز الثوب حتى يسـمع صـوت رنينها عنـد دخـوله المعبـد ، والا مات ؟ عندما قارن فريزر هذا الاعتقاد بالاعتقـاد السائد بـين الشـعوب البدائيـة والحضـارية فى أن صليل الأجـراس فى المناسبات التى تكون فيها الأرواح مهددة بمطـاردة الأشـباح الشريرة لها ، يعمـل على ابعاد هذه الأشباح ، رأى أن تفسـير هذا التشريع الذى يحتم على الكاهن ارتداء الأجراس ، لا يمـكن أن يفسر الا من خلال هذا المعتقد البدائى ؛ وهو أن الأرواح الشريرة تتربص بالكهنة عند دخولهم المعبد فتتعرض لايذائهم ما لم يعملوا على طردها بعيـدا عنهم • وليست عادة دق النواقيس فى الكنائس سـوى امتداد لهـذا المعتقد البدائى القـديم وان نسى السبب الأصلى فى استخدامها •

ولعلنا ندرك الآن بعد تلك الجـولة فى ثنايا كتاب « الفولكلور فى العهد القـديم » أن فريزر قد قدم لنا بحـق « أسطورة أنثروبولوجية رائعة » للشعب العبرى • وقد كان فى تقسيمه كتابه الى هذه الأبواب

---

(١) سفر الخروج ١٨ من ٣٢ الى ٣٥ •

الأربعة موفقا كل التوفيق ، حيث أنه تمكن بأسلوبه الشائق ومقدرته الفائقة على المقارنات من أن يبرز صنوفا من المعتقدات والتصورات العبرية فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم الدينى الطويل • واذا كان فريزر قد نجح بحق فى ارجاع تلك المعتقدات الى أصولها البدائية ، فهذا يعنى أنه نجح فى تحقيق هدفه الذى عبر عنه فى مقدمة كتابه عندما قال : « لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته » •

وفى خاتمة هذه الدراسة يمكننا أن نتساءل عما اذا كان فريزر قد تمكن من تطبيق نظريته فى السحر والدين من حيث أن السحر يعيش بين الشعوب فى مرحلة حضارية أدنى من الدين ، حتى اذا ما انتشر الدين واستقر فى النفوس انقضت المرحلة السحرية الى غير رجعة • فهل تنتمى تلك المعتقدات والتصورات والعادات التى عرضناها فى هذا البحث الى السحر أم الى الدين • أحسب لو أن فريزر سأل نفسه هذا السؤال لأدرك التناقض بين نظريته وأبحاثه ، وهو الأمر الذى أخذه الباحثون عليه وعدوه من نقاط الضعف فى أبحاثه الأنثروبولوجية • فلو أن مرحلة الدين تعد منفصلة تماما عن مرحلة السحر ، لما برزت تلك الطقوس السحرية بين سطور التوراة ، كتاب اليهود المقدس • ولعله يبدو الآن تفوق نظرية مالينوفسكى فى العلم والسحر والدين فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية على نظرية فريزر • ذلك أننا لو افترضنا وفقا لمالينوفسكى أن السحر والدين يعيشان جنبا الى جنب ؛ وأن كلا منهما يلعب دورا مستقلا فى حياة الشعوب ؛ لاستطعنا أن نميز بين ما ينتمى الى السحر وما ينتمى الى الدين فى التوراة • فعبادة الأماكن المقدسة وتقديم التضحيات للرب ينتمان فى وضوح الى الجانب الدينى الذى يسعى الانسان بدافعه

الى استرضاء الاله لحمـــاية كيانه ووجوده فى لحيـــاة • وأما ارتداء يعقوب لجلد النعجة ، ولجوء شاءول الى ســـاحرة عين دور وفـــرض الصمت على الأرملة أثر وفاة زوجهـــا ، وتقديم الضحية لآنه النهر ، الى غير ذلك من الطقوس والشعائر التى عرضها الكتاب ، فهى تنتمى جميعا الى الجانب الســـحرى الذى يقوم بوظيفة محاربة القـــوى الشريرة حتى يكون المصير الخير حليف الانســـان • واذا كنا نلاحظ أن الطقوس السحرية تغلب بحق الطقوس الدينية فى التوراة ، فان هذا ان دل على شىء فانما يدل على أن اليهـــودى لم يستطع نتيجـــة ارتباطه الشديد بالمادة ، أن يسمو بدينه الســـماوى الى طبيعته الروحـــانية التأملية ، ومن ثم فقد ظلت طقوس الســـحر البدائيـــة عالقة بنفســـه وانتشرت بدورها بقصـــد أو غير قصد بين سطور التوراة •

يونيو ١٩٨١

د• نبيلة ابراهيم
استاذة الادب الشعبى
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

مدخــل بقــلم المؤلف

(١)

نبهني بعض الباحثين الى أن عددا من القراء الذين لا يقــدرون على شراء الطبعة الأصلية من كتابي « الفولكلور في العهــد القــديم » ، الذي يقع في ثلاثة أجــزاء ضــخمة ، أو الذين لا يجــدون متسعا من الوقت لقراءة هذه الطبعة ، يرحبون بظهور طبعة مختصرة لهذا الكتاب . ولهــذا فقد قمت باعداد هــذا الموجز تقــديرا مني لهــذه الفكرة ، فحذفت بعض فصول الطبعة الأصلية نهائيا ، واختصرت سائرها . ولكي أفسح المجال للنص نفسه فقد حذفت ، بصــفة خاصة ، القدر الأكبر من الهــوامش التي تحتــوي على الشــواهد المقتبسة من أعمــال بعض الباحثين ، ولم أبق منها الا القليل ، وذلك في بعض الأحوال النــادرة التي كنت أرغب فيها في تقديم تفســير ما ، أو أرى من الضروري — في مجال الاستشهاد بنص من العهــد القديم — أن أبدي الأســباب التي دعتني الى أن أتبنى قراءة مخالفــة لتلك التي أخذت بهــا الترجمــة الانجليزية الرســمية أو المعتمــدة للعهــد القديم . أما القراء الذين يرغبون في التعرف على الأصول الخاصــة بأي موضــوع فعليهم أن يرجعوا الى الطبعة الأصلية التي تحتوي على كثير من الوثائق ..

ولقد لاحظ « رينان » أن التــاريخ البشري لا يقــدم للعقــل الفلسفي المشتغل بالبحث عن أصــول الأشياء ســوى ثلاث حقب ذات أهمية أساسية ، هي : تاريخ الاغريق ، وتاريخ بني اسرائيل ، وتاريخ روما . ويمكننا الآن — على سبيل المثال — أن نضيف الى هذه التواريخ الثــلاثة التي تعتمد جميعهــا على وثائق مكتوبة ، تاريخا رابعــا على الأقل ، هو تاريخ البشرية في العصور والبــلاد التي لم تكن تعــرف

الكتابة • فمنذ أن قدم رينـــان للعالم تاريخه الكبير عن بنى اسرائيـــل وعن المسيحية فى عصـــورها الأولى ، ازدادت معلوماتنا عن التـــاريخ البشرى اتساعا وغنى ، ســـواء عن طريق الكشـــوف الأثرية لعصور ما قبـــل التاريخ أو نتيجة لدراســـة الأجناس البدائية على نحـــو أكثر دقة ، تلك الأجناس التى تقدم الينا صـــورة دقيقة — على نحـــو أو آخـــر — لمراحل التطـــور الاجتمـــاعى المختلفة التى اجتازها قديمـــا أسـلاف الأجناس المتحضرة • وقد تضافرت هذه العلوم الحديثة نسبيا على كشف القناع الى حد ما ، ذلك القنـــاع الذى ظل مســـدلا حتى هذا الوقت على طفولة البشرية ، وأخذت تتيح لنا أن ننفذ بأبصارنا — ان جاز لنا هذا التعبير — خلال الحائط المصمت الذى ظل حتى زمن متأخر حجر عثرة فى طريق الباحثين عما وراء نطـــاق التراث الكلاسيكى ، وتكشف لنـــا آفاقا تبدو لا نهـــائية للفـــكر البشرى ونشـــاطه فى تلك الأحقاب المظلمة السحيقة التى انقضت بين ظهور الجنس البشرى على وجه الأرض ، وبلوغه حالة النضج الكامل فى اطـــار الحيـــاة الانسانية المتحضرة • ومن ثم ظهرت هذه الحماســـة التى صاحبت الدراســـات الفولكلورية ودراســـة الآثار القديمة فى الوقت الراهن ، فى نطـــاق دائرة الباحثين الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم • ويمكننا أن نقول : أنه من بين القوى التى تشـــكل وجهة نظرنا المستنيرة فى أيامنا هـــذه وتحور فيهـــا بدأت مناهج البحث الانســـانى هذه تؤثر فى حركة الفكر العـــامة تأثيرا ثانويا فقط بالقياس الى الحافز الذى تركته فى أذهاننا صـــور التقـــدم المثيرة التى أحرزتها العـــلوم الطبيعية • فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك لانســـانى من الصعب فصـــله عن محاولة معرفة أصولها ، تلك الأصول التى مازال علم الفولكلور وعـــلم الآثار القديمة يلقيـــان عليها مزيدا من الضوء ••

وقد حاولت فى هـــذا الكتاب أن أســـير على هدى الدراســـات الفولكلورية متعقبـــا بعض معتقـــدات الاسرائيليين القـــدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى

تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طرق عملية انتخاب طبيعى بطيئة ••

(٢)

توصلت الأبحاث الحديثة التى تدرس فجر التاريخ البشرى بشتى اتجاهاتها الى نتيجة مؤكدة الى حد بعيد ، مؤداها أن كل الأجناس المتحضرة قد تطورت ، فى زمن أو آخر ، من المرحلة الهمجية التى تشبه فى قليل أو كثير المرحلة التى لا تزال بعض الشعوب المتأخرة تعيشها اليوم • كما انتهت هذه الأبحاث الى أن هناك آثارا ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة فى الحياة والتفكير ما تزال ماثلة فى عادات الناس وتقاليدهم — حتى بعد أن كانوا قد كفوا منذ زمن طويل عن التفكير والسلوك الهمجيين • وهذه الآثار الباقية تدخل فى اختصاص علم الفولكلور الذى يمكن أن نعرفه ، بمعناه الواسع ، بأنه العلم الذى يستوعب مجموعة المعتقدات والعادات المأثورة لدى شعب من الشعوب ، مادام مرد هذه لمعتقدات والعادات الى السلوك الجمعى لعامة الناس ، وكانت بمنأى عما يكون لعظماء الرجال من تأثير فردى • وعلى الرغم مما كان العبريون القدماء قد أحرزوه من رقى فكرى وتطور دينى ، فليس هناك ما يدعو لافتراض أنهم قد شذوا عن هذا القانون العام ، اذ المحتمل أنهم أيضا قد مروا بمرحلة بربرية بل همجية • وهذا الاحتمال ، الذى يرتكز على ما بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى من تشابه ، تؤيده النظرة الفاحصة لأدبهم ، ذلك الأدب الذى يتضمن كثيرا من الاشارات الى معتقداتهم

وعاداتهم التى لا يمكن أن تفسر الا من خـــلال افتراض أنهـا مخلفات باقية من مستوى حضـــارى أشد انخفاضا بكثير • ومن ثم كان موضوع دراستى هذه هو أن أوضح وأفسر قدرا محدودا من تلك المعتقدات البالية التى تنتمى الى عصـــور بدائية ، والتى يحتفظ بها العهـد القديم كأنها حفريات • ولقد أتيحت لى الفرصـــة من قبل فى غير هـــذا الكتاب لأن أضع يدى على آثار بدائية أخـــرى يتضمنها العهد القـــديم ، لها نظائرها عند القبـــائل الهمجية ، مثـــل التضحية بالابن الأول ، وقانون دنس النســـاء ، ثم عادة تقـــديم ذبيحة الخطيئة [1] Scapegoat ولكن حيث اننى لا أود أن أكرر ما ســـبق أن ذكرته حـــول هذه الموضـــوعات ، فاننى أكتفى باحالة القارىء الذى يرغب فى البحث فيهـــا ، الى كتاباتى الأخـــرى • •

ووسيلتنا فى الكشف عما يتغلغل فى الحضـــارة من آثار بدائيـــة هو المنهج المقـــارن ، فهـــو يمكننا ، فيما يتصـــل بالعقل الانســـانى ، من أن نقتفى أثر تطـــور الانســـان فكريا وأخلاقيا ، بنفس الدرجـــة التى يمكننا بها ، فيما يتصـــل بجسم الانسان من أن نقتفى أثر تطوره جســـديا من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية • وباختصـــار فان هناك تشريحا مقارنا للعقل ، كما أن هناك تشريحا مقـــارنا للجسم • وتشريح العقـــل تبشر نتائجه البعيدة المدى بأنها لن تكون ، بالنســـبة لمستقبل

---

(١) راجع سفر اللاويين اصحاح ١٦ .

« يسميها بعضهم كبش الفداء وآخرون « تيس عزازيل » وهى تعنى فى علم الانثروبولوجيا ان شخصا او شيئا أو حيوانا يحمل خطايا الفرد أو المجتمع أو يحمل ما يبتلى به الفرد أو المجتمع من أمراض وكوارث ، ومن ثم فان هذا الشخص او الشىء او الحيوان يقدم ضحية الاله . ويرجع هذا الاصطلاح الى عادة عبرية قديمة ، اذ كان العبريون يقدمون كبشين ضحية للاله تكفيرا عن ذنوب الشعب أو الفرد . ثم دخل هذا الاصطلاح فيما بعد مجال علم النفس ومعناه أن يلوم شخص غيره عما يصاب به من خيبة فى أمر ما . فهو ينسب اليه التقصير لا الى نفسه . ومن ثم فهو يعد شكلا من اشكال الاسقاط . (المترجمة)

الانسانية ، أقل قيمة من نتائج تشريح الجسم ، لا من الناحية النظـرية فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك • وليس بدعـا أن نطبق المنهج المقارن على دراسة التراث العبرى القديم ، فقد اسـتخدم العـالم لفرنسى صموئيل بوشار القس هذا المنهج فى القرن الســابع عشر فى فرنســا استخداما ناجحا ، كمـا استخدمه فى انجلترا رجـل الدين العـالم « جـون اسبنسر » رئيس كليـة « جسـد المســيح » Corpus Christi بجامعة كمبودج • وقد قيل عن كتابه الذى ألفه حول قوانين الطقوس لدى العبريين القــدماء أنه أرسى دعائم الأديان المقــارن • أما فى عصرنا ، وبعــد قرنين من الزمــان ، فقــد استأنف أستاذى المبجل وصــديقى « وليم روبرتسون ســميث » فى كمبردج العمل الذى اضطلع به هذان العالمان الجليلان • ويرجع التقــدم الذى أحرزته هذه الدراسة فى حياته وبعد وفاته المبــكرة جـدا الى حـد بعيد ، الى أثره القوى الــذى ظفرت به هـذه الدراســة بفضـل عبقريته الخارقة وعلمه • وقد كان الأمل يحدونى أن أقتفى أثر هـؤلاء المتقدمين المرموقين فى هذا المجال من العـلم ، وأن أسـير به قدما بما يمكننى من أن أسـمح لنفسى بأن أسـميه تراث كمبردج فى الأديان المقارنة •

ومن المسـلمات الشـائعة أن الوصـول الى حل كامل لمشـكلة ما يتضمن حلا لمشـكلات أخرى كثيرة • ولكن لا ، فالقليل من العـلم بكل شىء لن يكون كافيا لأن يجيب ضمنا عن الأسئلة التى تثيرها أبسط أشـكال البحث • وبنـاء على ذلك ، فان فحص مسـألة فولكلورية ، بخاصـة فى المرحـلة الأولية الراهنة لهـذه الدراسـة ، من الطبيعى أن يفتح مجـالات للتساؤل تتشعب فى اتجاهات عدة • واننا لننسـاق بطريقة عفوية ــ فى أثناء تتبعنا لمجالات هـذا التسـاؤل ــ الى آفاق من البحث تزداد اتساعا على الدوام حتى لتختفى عن أنظارنا النقطة التى بدأنا منهـا • أو ــ بتعبير أدق ــ حتى لتبدو النقطة التى بدأنا منهـا فى بعدها الحقيقى مجرد ظاهرة ضمن عــدد كبير من الظواهر

المماثلة . وأن ما صادفته منــذ سنين طويلة عندما أخذت على عاتقى أن أبحث مسألة فولكلور ايطاليا القديمة ، يصــادفنى الآن وأنا أتهيأ لمناقشـــة مســائل بعينها فى فولكلور العبريين القــدماء . فقد حدث أن البحث فى أسطورة معينة أو عــادة أو قانون قد تشعب بى فى بعض الأحيــان ، حتى أوشك أن يصبح بحثا بل رســالة . ولكننى آمل ــ بعيــدا عمــا تضمنته أبحاثى من رأى متعجــل فى تراث الاسرائيليين وعاداتهم ــ أن تكون هذه الأبحاث بمثابة اســهام فى دراسة الفولكلور بصفة عامة . ان هذه الدراســة لاتزال فى مرحلة البداية والأرجح أن تظل نظرياتنا ، التى تتعلق بهذه الموضــوعات ، تجريبية ومؤقتة على مدى فترة متطاولة من الزمن ، وأن تكون مجرد أدراج تصــنف فيهــا الحقائق الكثيرة الى حين ، لا قوالب حديدية تســتقر فيها تلك الحقائق الى الأبــد . وفى هذه الأحوال يقــدم البــاحث المخلص فى مجــال الفولكلور فى الوقت الحاضر نتائج بحثه فى قــدر من التهيب والتحفظ اللذين يتلاءمان مع ما تتسم به المادة التى فى متناول يده من صــعوبة وحاجة الى التمحيص ..

وعلى هدى من هذا كنت أسير دائما . واذا كنت فى أى مكان من هذا البحث قد نسيت هذا التحذير الــذى أتجه به الى الآخــرين ، وعبرت عن نفسى فى صــورة تقريرية لا تؤيدها الأدلة ، فاننى أطلب من القارىء أن يصحح مثل هذه العبارات التقريرية جميعــا ، عن طريق اعلان هذا النوع من التشكك العام المخلص ..

وقد حاولت فى هذا لبحث ان أضــع فى الاعتبار النتــائج التى توصــل اليها أشهر النقــاد المحدثين فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها . ذلك أننى أعتقــد أن كثيرا من المتناقضات الجلية فى الكتاب المقدس ، لا يمكن أن تقبل تفســيرا منطقيا وتاريخيا معقولا الا فى ضــوء هذه النتائج . أما النصــوص التى اقتبستها فقد دونتها عادة بألفاظ « الترجمة الانجليزية المعتمدة للعهد القــديم » .

ومع اننى خاطرت بين الحين والآخر بأن أخالف الترجمة الانجليزية وأن أفضل عليها ترجمة أخرى ، أو أفضل عليها — فى مواضع قليلة للغاية — قراءة خاصة من قراءات العهد القديم ، فاننى أود أن أقول أننى اذا كنت قد قرأت العهد القديم كله باللغة العبرية قراءة فاحصة ؛ وبجانبى « الترجمة الانجليزية المنقحة » على الدوام ، فاننى شديد الاعجاب بلباقة المترجمين والمنقحين على السواء ؛ تلك اللباقة الفائقة فى اختيارهم لعباراتهم مع اخلاصهم البالغ لحرفية النص والتزامهم بروح النص الأصلى • ان « الترجمة الانجليزية المنقحة للعهد القديم » فى جمعها بين الدقة البالغة ووقار اللغة وجمالها ، لا يبزها بدون شك ؛ بوصفها نصا مترجما ، أى عمل أدبى آخر ، بل المحتمل أنه ليس هناك عمل أدبى آخر يقف معها على قدم المساواة ••

لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع الآثار الهمجية والخرافية ، تلك الآثار التى تنتشر فى صفحاته • واذا كنت قد صنعت هذا فليس معناه أننى أجهل الجانب الأعلى من العبقرية العبرية التى كشفت عن نفسها فى ديانة روحية وآثار خلقية سجلها العهد القديم الخالد ، أو أن أحط من قدرها ••

الباب الأول

عصر الحياة الأولى

الفصل الأول

خلق الإنسان

الذين يقرءون الكتاب المقدس قراءة فاحصة لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصارخ بين قصتى خلق الانسان ، اللتين تقعان فى كل من الاصحاحين : الأول والثانى من سفر التكوين . ففى الاصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق فى اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور ، بل كل الكائنات التى تعيش فى الماء أو الهواء ، وكيف أنه خلق فى اليوم السادس كل صنوف الحيوان التى تعيش على وجه الأرض ؛ وأخيرا خلق الانسان ؛ الذكر والأنثى كليهما ، على صورته . ومن هذه القصة نستنتج أن الانسان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما نتبين أن تقسيم الانسان الى ذكر وأنثى — وهو التقسيم الذى تختص به الانسانية ، قد تم على يدى الخالق نفسه ، وان لم يقدم الينا الكاتب أية معلومات تمكننا من التوفيق بين الخلق الثنائى للانسان ووحدة الخالق . فاذا تجاوزنا تلك المشكلة الدينية ؛ التى ربما شقت على الفهم الانسانى ؛ فاننا نتجه الى مسألة أخرى أبسط منها ، تتصل بالسق التاريخى للخلق ، ونتدبر العبارات التى تقول : ان الله خلق صنوف الحيوان الدنيا أول الأمر ، ثم أعقبها بخلق الانسان ، وأن الانسان قد انقسم الى ذكر وأنثى تم خلقهما فى آن واحد معا ، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الالهى . هذا ما نقرؤه فى الاصحاح الأول من سفر التكوين . فاذا نحن انتقلنا الى الاصحاح الثانى ، انتابتنا الحيرة على نحو ما ، عندما نفاجأ برواية تختلف تماما عن هذه الرواية

الخطــيرة ، بل انهــا لتتناقض معهــا كل التناقض ، اذ نفاجأ فيهــا بما يثير فينا الدهشـــة ، وهو أن الله خلق الانســـان أولا ، ثم خـــلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده • أما المرأة فقد خلقهــا بعد فراغــه من كل هذا ، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجـــل فى أثناء نومه ، كما لو كانت مجرد فكرة خطرت له فيما بعد ••

وواضح أن نظـــام خلق الكائنات من حيث قيمتهــا معكوس فى كلتا الحكايتين •

ففى الحكاية الأولى يبدأ الاله بعملية خلق الســمك ، ثم يمضى بعـــد ذلك فى خـــلق الطيور والوحوش حتى ينتهى الى خـــلق الرجل والمـــرأة • •

أما فى الحكاية الثانية فهو يبدأ بخلق الرجـــل ، ويمضى بعد هـــذا الى خلق الحيوانات الدنيا ، ثم يخلق فى النهـــاية المرأة ، التى تشـــير بوضـــوح الى أدنى أعمال الصنعة الالهية • وليس هنـــاك فى الحكاية الثانية أدنى اشـــارة الى أن كلا من الرجل والمرأة قد خلق على صورة الاله ، وانما تحكى لنا الحكاية ببســـاطة فتقول : « وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ أنفه نسمة حيـــاة فصـــار آدم نفســـا حية » [1] ••

وبعد ذلك أراد الله أن يخفف على الرجل وحشـــته ، اذ كان يتجول دون رفيق فى الجنة الجميلة التى كانت قد صنعت من أجـــله ؛ فخلق له الطيور والوحوش ، وقدمها اليه فيما يبـــدو لتسليته ، ولـــكى تؤنس وحشته • وعند ذاك نظر الرجل اليها وســـماها بأسمائها ، ولكنه كان لايزال غير راض عن رفقتها ؛ فخلق الله له فى النهـــاية ــ وكأنه كان قد يئس من أمره ــ المرأة من جزء من جسمه لا أهمية له ، وقدمهـــا اليه لكى تكون زوجا له •

---

(1) سفر التكوين ٢ : ٧ •

هذا التناقض البين بين القصتين يفسره ببساطة أن القصتين قد استمدها الكاتب من مصدرين مختلفين ومستقلين أصلا ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد ونقلهما معا ، دون أن يجهد نفسه فى أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما . فقصة الخلق فى الاصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتى الذى ألفه كتاب كهنوتيون فى أثناء السبى البابلى أو بعده . .

وأما قصة الخلق فى الاصحاح الثانى فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودى الذى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين ، أى أنه ألف — فيما يبدو — فى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . والاختلاف بيّن بيْن وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين ، فالكاتب المتأخر أو الكهنوتى يصور الاله فى صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الانسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها فى بساطة أن تكون فكانت . أما الكاتب المتقدم ، أو اليهودى ، فقد صور الاله فى صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما فعل الانسان ، وهو يشكل الانسان من الطين وفقا لنموذج معين ، ويزرع جنة ويسير فيها عندما يميل الجو الى البرودة ، ويطلب من الرجل والمرأة أن يظهرا من بين الأشجار التى كانا يختفيان وراءها ، ويصنع لهما أردية من الجلد ليرتدياها بدلا من الغلالات الهزيلة المصنوعة من أوراق التين التى اهتدى اليها أول أبوين لكى يخفيا بها عورتهما خجلا منها . فالبساطة الجميلة بل المرح ، فى القصة المتقدمة تتعارض مع الجدية البالغة فى القصة المتأخرة ، وان كنا لا نملك الا أن ندهش لذلك الطابع الحزين المتشائم الذى يستخفى وراء صور الحياة البهيجة فى عصر البراءة ، تلك الصورة التى رسمها لنا الفنان اليهودى الكبير . ولم يستطع هذا الفنان بعد كل هذا أن يخفى احتقاره الشديد للمرأة ، فتأخر خلقها ، فضلا على الطريقة الشاذة غير المشرفة التى خلقت بها — اذ شكلها الاله من جزء من جسم سيدها آدم ، بعد أن خلقت صنوف الحيوان بطريقة طبيعية لائقة — كل هذا يشير

اشـــارة كافية الى رأيه فى حقارة شـــأن المـــرأة • وترتيبا على هـــذا فان كرهه للمرأة ـــ كمـــا يمكن أن نسميه بحق ـــ يضفى على القصـــة لونا قاتمـــا ، وذلك حين يعزو الكاتب محنة الجنس البشرى وأحزانه الى سلوك الأم الأولى الذى يتســـم بالحماقة الساذجة ، والى شهوتها التى أطلقت لها العنان • •

ولا تتميز القصـــة المتقدمة عن أختها المتأخرة بأنها أكثر زخرفة منهـــا فحسب ، بل تتميز عنهـــا فضـــلا على هذا ، بغنى عناصرها الفولكلورية ، فلقـــد أبقت على ملامح واضحة من البســـاطة البدائية ، طمسها الكاتب الثانى فى حـــرص • وبنـــاء على هذا قـــد تقـــدم من العناصر ـــ فى مجـــال المقـــارنة بالحكايات البدائية الســـاذجة ، التى حاول الناس عن طريقها فى العصـــور والبـــلاد المختلفة أن يشرحـــوا اللغز الكبير لبداية الحياة على وجـــه الأرض أكثر مما تقـــدمه الحكاية الكهونية • وسوف أورد فى الصفحات التالية بعض هـــذه الحـــكايات البســـيطة ••

ويبدو أن المؤلف اليهودى قد تصـــور أن الاله قد شـــكل الرجل الأول من الطين على نحو ما يفعل صانع الفخـــار تماما ، أو كما يفعـــل الطفل حين يشـــكل دمية من الطين • فبعـــد أن عجن الاله الطين وسواه على الصـــورة المعلومـــة ، بث فيه الـــروح بأن نفخ فى فم التمثـــال ومنخريه ، بنفس الطريقة التى يروى عن النبى اليشع أنه أعـــاد بهـــا الحياة الى جسد الطفل الميت ابن الشـــونامية [1] ، وذلك بأن استلقى فوق الطفل ، ووضع عينيه على عينى الطفل ، وفمه على مه ، وذلك لكى يمنح الجســـد بطبيعة الحـــال بعض أنفاسه • وبعد ذلك عطس الطفل سبع مرات وفتح عينيه • على أن فكرة العبريين فى أن الجنس البشرى يرجع فى أصله الى التراب ـــ تتضح لنا على نحو طبيعى للغاية ، اذ أننا نجد أن كلمة « أدمة » فى لغتهم ، ومعناها الأرض ، هى الصيغة المؤنثة

---

(١) الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ٨ ـــ ٣٧ •

الكلمة آدم ، ومعناها الرجـــل • ويبدو من نصـــوص مختلفة فى الأدب البـــابلى أن البابليين كذلك كانوا يرون أن الانســـان قد خلق من طين • فهناك رواية اغريقية احتفظت بحكاية عن أصـــل الخليقة « لبيروسوس » الكاهن البابلى تقـــول : ان الاله « بل »[1] قطع رأسه ، وأن ســـائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب ، وخلقوا البشر من هذه لعجينة المخلوطة بالدم • ولهذا السبب ، كما يقول البابليون ، كان الرجال حكماء كل الحكمة ، لأن الطين الذى خلقوا منه كان مخلوطا بدم الاله • ويروى فى الأساطير الفرعونية أن « خنم »[2] أبا الآلهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه الذى كان يشـــكل عليه الفخار ••

وبالمثـــل يحـــكى فى الأسطورة الاغريقيـــة أن بروميثوس[3] • الحكيم قد خلق الانسان الأول من الطـــين عند بانوبيوس التى تقع فى فوكيس[4] • وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمن طويل على شـــكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ••

وقد تراءى لمســـافر يونانى كان يزور هذا المكان فى القرن الثانى الميلادى أن الصخرتين كانتا بلون الطين ، وأن رائحة اللحم البشرى كانت تفوح منهما قوية •

وقد قمت أنا كذلك بزيارة هذا المكان بعد ذلك بما يقرب من سبعة عشر قرنا ونصف قرن : فوجدته واديا مهجورا ، أو بالأحرى تجويفا يقع على الجانب الجنوبى من تل بانوبيوس ، فى أســـفل صف من الآثار المتهدمة وان كانت لاتزال تبدو فى شكل حوائط متماســـكة وقلاع تتـــو-

---

(١) بل هو الاسم البابلى للالة « بعل »

(٢) الاله المصرى القديم خنم الذى تصوره المصريون براس كبش واسمه مرتبط من حيث الاشتقاق اللغوى بالكلمة العربية « غنم »

(٣) هو خالق الجنس البشرى وبادىء الحضارة الانسانية وفقا للأسطورة لاغريقية وقد حكم عليه الاله زيوس بالنفى الى جبال القوقاز ؛ حيث أخذ نسر ينهش لحمه ، لانه كان قد سرق النار وأحضرها للبشر . ثم اطلق هرقل سراحه فيما بعد . (المترجمة)

(٤) اقليم كان يتوسط بلاد الاغريق فى الزمن القديم . (المترجمة)

صـــخور القمة الرمادية • لقـــد كان قائظا فى أواخر أيام الخـــريف ، هو اليوم الأول من شـــهر نوفمبر . وقد بدا الوادى جافا كل الجفاف بعد صيف طويل لم تســـقط فيـــه الأمطـــار فى بلاد اليونان • ولذلك لم تكن قطرات الميـــاه تتســـاقط على جانبيه المليئين بالأدغال ، ولكنى أبصرت فى قاع الوادى تربة مفتتة مائلة الى الاحمرار ، ربمـــا كانت مخلفات أثرية من الطين الذى خلق منـــه بروميثيوس أول أبوين على وجه الأرض • وقد كان المكان موحشا مهجورا ، اذ لم يكن هناك أثر لانسان أو لمسكن سوى صف من القلاع العفنة ، وشرفات تطـــل من فوق التل تحكى عن الحياة المصطخبة التى ولت منذ زمن طويل • فالمنظر كله ـــ شأن كثير من مناظر اليـــونان ـــ كان ملائما لأن يثير فى النفس احساسا بحياة الانسان القصيرة الصاخبة اذا هى قيست بدوام الطبيعية وهدوئها وأمنها الظاهرى على الأقـــل • وقـــد ازداد هـــذا الاحساس عمقا فى نفسى حينما خلدت الى الراحة فى قيظ ذلك اليوم على قمة التل فى ظل بعض أشجار البلوط الجميلة الدائمة الخضرة ؛ ونفذت ببصرى فى المنظر البعيد الغنى بذكريات الماضى ، فى حين كانت رائحة الزعتر البرى تفوح فى الأرجاء • وفى الجنـــوب كانت ذروة جبـــل هيليكون المنحوتة نحتا دقيقا تشرف على سلسلة التلال المنخفضـــة التى يتداخل بعضها فى بعض • أما فى الغرب فقد برزت كتلة جبل بارناسيوس الصخرية الهائلة ؛ وقد غطت أشجار الصنوبر منحدراته الوسطى ، كمـــا لو كانت ظلالا من السحب تكسوها النباتات المتسلقة ؛ وقد أشرقت على الوادى العميق الذى يتلائم جماله الرومانسى كل التلاؤم مع أفراح بروكنى وفيلوميلا [1] وأحزانهما ؛ وهمـــا الشخصيتان اللتـــان ربطت بينهمـــا الأسطورة الاغريقية وبين هذا المكان ••

---

(١) « فيلوميلا » هى ابنة الملك الاثينى « باندويون » وفقا للأسطورة الاغريقية . وقد سلبها « بيروس » زوج اختها « بروكنى » شرفها ثم انتزع لسانها حتى يظل حبه لها سرا خافيا . ولكن « بروكنى » انتقمت من «بيروس» بأن قتلت ابنه . واخذ « بيروس » بعد هذا يتعقب الأختين ، ولكن الآلهة حولت بروكنى الى بلبل كما حولت فيلوميلا الى طائر السنوتو وبذلك استطاعتا أن تهربا منـــه . (المترجمة)

أما فى الشمال عبر السهل الفسيح الذى ينحدر اليه تل بانوبيوس العارى ، فان العين تستقر على فجوة فى التلال يشق فيها نهر سيفيسسيس طريقه المتعرج وهو يتدفق أسفل أشجار الصفصاف الرمادية التى تقع فى سفح التلال الصخرية العارية ، حتى تختفى ميـــاهه العــكرة لا فى مستنقعات بحيرة كوبياك المتدة المنحيلة التى اختفت الآن ، ولكن فى كهف مظلم يقع داخل صخرة من الحجر الجيرى.وفى الشرق يتصل حطام شايرونيا ، حيث ولد بلوتارك ، بمنحدرات سلسلة الجبال العارية التى يكون تل بانوبيوس جزءا منها . هناك فى هــذا الســـهل قامت المعركة الفاصلة التى انتهت بخضوع الاغريق لمقدونيا ، وهناك أيضـــا اشتبك الشرق والغرب فى الأزمنة الغابرة فى معارك دامية ، انتهت بهزيمة جيوش ميثريداتس [1] الآسيوية على يد جيوش روما بقيادة سولا . لقد كان هذا المنظر الذى بدا أمام عنى فى أحـــد أيام الخريف الأول التى تثير روعتها النفس ، عندما كان الصيف المدبر ما زال ينسحب فى ادلال ، كما لو كان يشق عليه أن يترك للشتاء جبال اليونان الساحرة . وفى اليوم الثانى تغير المنظر ، اذ كان الصيف قد ولى . وأطل ضباب شهر نوفمبر الرمادى على التلال التى كانت حتى الأمس تتألق فى ضوء الشمس . وتحت ستائره الحزينة اكتسى سهل شايرونيا المنبسط اللهامد ،الذى يخو من الأشجار ، وتحيط به المنحدرات الموحشة من جانب ــ اكتسى بحزن رهيب يتفق مع المعركة التى فقدت فيها أمة حريتها .

اننا لا نستطيع أن نشك فى أن مثل هــذه الأفكار الساذجة عن أصل الانسان التى كانت مألوفة لدى الاغريق والعبريين والبابليين والمصريين القــدماء ، قـــد انتقلت الى الشـــعوب المتحضرة القـــديمة عن طريق

---

(١) « ميثريداتس » أو « ميثراداتس » ملك بونطوس . حكم فيما بين ١٣٢ الى ٦٣ ق.م. وقد سولت له اطماعه ان يستولى على آسيا الصغرى . ناشتبك مع الجيوش الرومية بقيادة « سولا » من سنة ٨٨ الى ٨٥ ق.م. وهزم « سولا » « ميثريداتس » واضطره الى اللجوء الى زوج ابنته فى ارمينيا . وظل الرومانيون يتعقبونه حتى قتل فى مملكته . (المترجمة)

أجدادهم الهمجيين أو المتبربرين • فمن المؤكد أن مثل هذه الحكايات رواها الهمجيون الذين يعيشون اليوم أو كانوا يعيشون بالأمس ، فقد حكى سكان استراليا السود الذين يقطنون ضواحى ملبورن ، أن بند - جل الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينه الكبير ، ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح ، وأخذ يسويه بسكينه حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان ، فصنع الأقــدام فى أول الأمر ، ثم الارجل فالجــذع فالأذرع فالرأس • وهكذا صــور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر ، وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخــذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الديكاليبتوس وصنع منها شعرا لصقه فى رأسه ورجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى وأعجب بعمله ، ورقص من حولهما مرة أخــرى تعبيرا عن سعادته • وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنفه وسرته • وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو •

ويحكى الماءوريون ، سكان نيوزيلاندة ، أن آلها معينا يسمى بأسماء مختلفة هى تو ، وتيكى ، وتانى ، أخــذ طينا أحمر من جانب النهر وعجنه بدمه ، وشــكله على صــورته ، بعينين ورجلين وذراعين وغير ذلك من الأعضــاء • بحيث أصــبحت الصــورة مطابقة للاله • وبعد أن أتقن صنع نموذجه ، بعث فيه الحياة بأن نفخ فى فمه ومنخره • وفى الحــال اكتسبت الدمية الطينية الحيــاة وعطست • ولقــد كان الرجل الذى صنعه « تيكى » آله المــاءوريين شــديد الشبه به الى درجة أن سماه « تيكى أهوا » أى شبيه تيكى ••

ومن الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى أن الاله « تاروا »، الاله الأكبر ، خلق أول زوجين • فهو بعد أن خلق العالم ، كما يقولون ، خلق الانسان من الطين الأحمر الذى كان الانسان يستخدمه كذلك فيما بعد طعاما له ، وذلك قبل أن يزرع الثمار التى صنع منها الخبز • ويحكى بعض سكان تاهيتى أن « تاروا » نادى الرجل باسمه ، فلما جاء اليه سلط عليه النوم • فلما استغرق فى نومه انتزع منه عظمة من عظــامه

(وتسمى العظمة فى لغتهم « ايفى ») ، وصنع منها امرأة قدمها الى الرجل ليتخذ منها زوجة له • ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية فيما بعد • وقد دونت هذه الرواية من أفواه أهالى تاهيتى فى السنين الأولى من وفود المبشرين اليهم • ويعلق المبشر « وليم اليس » على هذه القصة التى دونها بنفسه قائلا : « ان القصة تبدو لى مجرد سرد للحكاية الموسوية عن الخليقة ، تلك الحكاية التى سمعها الأهالى من الأوربيين • ولكننى لم أعول على هذه الرواية ؛ على الرغم من أن الأهالى ذكروا لى مرارا أنها حكاية مأثورة عرفوها قبل أن تطأ قدم أى أجنبى أرض بلادهم • كما قرر بعضهم أن المرأة كان اسمها ايفى Ivi • وهم ينطقون هذه الكلمة حسبما تكتب كلمة Eve أى « ايف » • وايفى Ivi كلمة أصلية فى لغتهم ، وهى لا تعنى العظمة فحسب ، بل تعنى كذلك الأرملة ، كما أنها تعنى ضحية الحرب • وعلى الرغم من تأكيد الأهالى لهذه المعانى ؛ فاننى أميل لأن أعتقد أن كلمة Evi أو Eve ، هى الجزء الأصلى الوحيد فى القصة ، وذلك فى نطاق علاقتها بالأم الاولى للجنس البشرى » • ومهما يكن من شىء فان هذه الحكاية المأثورة بعينها قد دونت فى مناطق أخرى من بولينيزيا الى جانب تدوينها فى تاهيتى • فأهالى فاكاؤمو أو جزيرة بادويش يقولون : ان الرجل الأول خلق من حجر ، وأنه قرر بعد مرور فترة من الزمن أن يخلق امرأة ، فجمع ترابا وشكله فى صورة امرأة ، ثم انتزع ضلعا من جنبه الأيسر وزج به فى تمثال المرأة ، فدبت فيها الحياة توا ، وأطلق عليها اسم « ايفى » أى الضلع ، واتخذ منها زوجة له ومنهما معا تناسل الجنس البشرى فيما بعد • وقد روى كذلك أن الماءوريين يعتقدون أن المرأة الأولى قد خلقت من ضلوع الرجل الأول • وانتشار هذه الحكاية على هذا النحو فى بولينيزيا يثير الشك فيما اذا كانت ، كما اعتقد « اليس » ، مجرد تكرار لحكاية الكتاب المقدس كما سمعها الأهالى عن الأوربيين أم لا •

وعلى كل فان قصة خلق أول امرأة من ضلع أول رجل تصادفنا فى

أماكن أخرى فى شكل روايات شديدة الشبه بحكاية الكتاب المقـدس ، الى درجة أننا لا يمكن أن نعدها مستقلة عنها • فالكارينيون سكان بورما يقولون : « ان الله خلق الرجل ، ولكن من أى شىء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق الرجل من التراب ، ثم أتم من بعده عملية خلق المرأة ، ولـكن من أى شىء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضـلاع الرجل وخلق المرأة » • ومرة أخرى نجـد التتار البيدليين سكان سيبيريا يروون حـكاية مأثورة ، مؤداها أن الله فى بادىء الأمر خلق الرجل الذى عاش وحـده على وجه الأرض • وأنه بينما كان الرجل ينام وحـده ذات مرة ، لمس الشيطان صدره ، فبرزت عظمة من بين ضـلوعه ، وحينما سـقطت على الأرض أخذت تنمو ، وصارت المرأة الأولى •

وهنا نلاحظ أن التتار قد عمقوا نغمة السخرية عنـد كاتب سـفر التكوين حينما جعلوا للشيطان يدا فى خلق أمنا الأولى • ولنعـد مرة أخرى الى أقاليم المحيط الهادى

ويروى سكان « جزر بيليو » [1] أن أخا وأخته صـنعا رجالا من طين عجن بدماء صنوف من الحيـوان ، وأن شخصيات هؤلاء الرجال الأولين ونسلهم تحددت وفقا لخصائص صنوف الحيـوان التى مزجت دماؤها بالطـين الأصـلى ، فالرجال الذين امتزج طينهم بدم الفيران أصبحوا لصوصا ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الثعابين اتصـفوا بالغدر ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الديوك اتصفوا بالشجاعة • ووفقا لأسطورة مالينيزية تروى فى جزيرة « موتا » احـدى « جزر البانك » [2] أن البطـل « كات » خلق الرجال من الطين ، وعلى وجه

---

(1) جزر « بالاو » أو « بيليو » وهى مجموعة جزر فى المحيط الباسفيكى وتبعد عن الفيليبين بحوالى ٥٥٠ ميلا .

(المترجمة)

(2) « جزر البانك » وهى مجموعة من الجزر الصغيرة ويبلغ عددها خمسا وتقع فى الجنوب الغربى من المحيط الباسفيكى . واهم هذه الجزر فانوا ولافا وموتا وجاوة . (المترجمة)

التحديد من الطين الأحمر ،الذى أخذه من شواطىء النهر التى تكثر فيها المستنقعات عند « فانوا لافا » • وقد صنع « كات » فى بادىء الأمر الرجال والخنازير متشابهين ، ولكن اخوته ثاروا ضده لهذا السبب، فضرب الخنازير وجعلها تسير على أربع ، فى حين جعل الرجل يسير على قدميه فحسب • أما المرأة الأولى فقد صنعها « كات » من غصن لدن ، فلما ابتسمت عرف أن الحياة قد دبت فيها • وقد أطلق أهالى « ماليكولا » احدى جزر الهبريد الجديدة [1] ، اسم « بوكور » على الخالق الكبير الذى خلق أول رجل وامرأة من الطين ••

ويروى سكان اقنيم نو ــ هو ــ روا ، الذى يقع فى جزر « كاى »[2] أن الاله الأعلى « دوادليرا » خلق أجدادهم من الطين ، بعد أن نفخ فى أجسادهم الطينية أنفاس الحياة • ووفقا للتورادجيين ، سكان « سيلبس الوسطى » [3] ، الذين يتحدثون اللغة البارئية ، أنه لم يكن هناك فى البداية أى كائن حى على وجه الأرض ، ثم قرر « اى لاى » ، اله العالم العلوى ، و « اى ندارا » الهة العالم السفلى ، أن يخلقا البشر ، فأسندا هذا العمل الى « اى كومبينجى » الذى صنع نموذجين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة من الحجر وفقا لأحد الآراء ، أو من الخشب وفقا لرأى آخر • بعد أن أتم « اى كومبينجى » عمله ، أوقف النموذجين على جانب الطريق الذى يوصل العالم العلوى بالعالم السفلى ، حتى يتسنى للأرواح العابرة أن ترى صنعه وتحكم عليه • وفى المساء اجتمعت الآلهة لتتداول الرأى حول خلق النموذجين ، واتفقوا على أن سمانة ساق كل من الرجل والمرأة ليست مستديرة استدارة كافية • وعندئذ صنع « اى كومبينجى » نموذجين آخرين وعرضهما

---

(١) مجموعة جزر تقع فى المحيط الهادى وسكانها الأصليون من الميلانيزيين . (المترجمة)

(٢) مجموعة جزر أندونيسية واكبرها جزيرة « توهو ــ شوت » . (المترجمة)

(٣) احدى الجزر الأندونيسية الكبرى . (المترجمة)

على الآلهة لتبدى رأيها فيهما ، فلاحظت الآلهة هذه المرة أن البطن فى كلا النموذجين منتفخة الى حد كبير ، ولهذا صنع « اى كومبينجى » للمرة الثالثة نموذجين رضيت عنهما الآلهة بعد أن أحدث تعديلات طفيفة من الناحية التشريحية ، وذلك بأن قام بنقل جزء من جسم الذكر الى المرأة • ولم يبق بعد ذلك سوى أن تدب الحياة فى النموذجين• وعندئذ صعد الاله « لاى » الى مسكنه فى المساء لكى يحضر النفس الأبدى لكل من الرجل والمرأة • ولكنه — فى أثناء هذا — ترك الريح ، اما نتيجة غفلة منه ، أو لأنه كان فى عجلة من أمره ، تهب على النموذجين ، حاملة معها الأنفاس والحياة اليهما ، فاستنشقهما النموذجان بدورهما • وهذا هو السبب فى أن نفس الانسان يعود الى الريح عندما يموت •

ويروى « الدياكيون » [1] ، الذين يسكنون « ساكاران » فى جزيرة بورنيو التابعة للاحتلال البريطانى ، ان أول رجل على وجه الأرض خلقه طائران كبيران • وقد حاول هذان الطائران أن يخلقا البشر من الشجر فى بادىء الأمر ، ولكن دون جدوى ، فنحتوا أشكالهم من الصخور ولكنها كانت خرساء • عندئذ شكلا رجلا من الطين ، ودفعا فى عروقه صمغ شجرة الكومبانج الأحمر ، ونادياه فرد عليهما ، فلما جرحاه تدفق الدم من جروحه • عندئذ أطلقا عليه اسم « تانا كومبوك » أى « الطين المشكل » • على أن بعض « الدياكيين » يرون حكاية أخرى مخالفة لهذه الحكاية ، فهم يعتقدون أن الها بعينه اسمه « سالا مباندیا » هو الذى قام بخلق البشر ، اذ أخذ يشكل الطين بمطرقته حتى سوى أجساد الأطفال الذين كان مقدرا لهم أن يولدوا فى الحياة • وعندما يسمع الدياكيون صوت حشرة عندهم تحدث صلصلة غريبة فى الليل فانهم يقولون : انه صوت مطرقة « سلامباندیا » وهو يقوم بعمله • ثم تستمر القصة فتحكى أن الآلهة أمرت « سلامبانديا » أن يصنع رجلا ، فصنعه من الحجر • ولكن التمثال

---

(١) هم سكان جزر الملايو الأصليون . وتعد « بورنيو » من أكبر جزر الملايو . (المترجمة)

كان أخرس ، ولذلك فقــد رفضته الآلهة كما رفضت التمثال الأول •
وفى المرة الثالثة صنع سلامباندیا رجلا من الطين كانت له القــدرة على الكلام ، فسرت به الآلهة وقالت له : « ان الرجل الذى صــنعته يبشر بالخير ، فلتجعل منه جدا للجنس البشرى ، وعليك أن تصــنع أشكالا مثله » • عنــدئذ بدأ « سلامبفانديا » فى صنع النماذج البشرية ــ وهو مازال يقوم بصنعها مستعينا بسندانه وآلاته ــ فى مناطق مجهــولة • فهو هناك يشــكل الطين فى شكل أطفال ، وكلما فرغ من صــنع أحدهم أحضره الى الآلهة ، فتوجه اليه الآلهة هذا السؤال : « ما الشىء الذى تود أن تمسك به وتستعمله ؟ » فاذا هو أجاب بقوله : « الســيف » نادت به الآلهة ذكرا ، أما اذا أجاب بقوله : « القطن ودولاب الغزل » ، نادت به أنثى • ومعنى هذا أن الأطفال قد ولدوا ذكورا أو اناثا وفقــا لرغبتهم ••

ويحفظ أهالى « نياس » ، وهى جزيرة تقــع فى الجنوب الغربى من سومطرة ، قصيدة طويلة تصــف قصــة الخلق ، وينشدونها عندما يرقصــون فى أثناء الاحتفال الجنــائزى لوفاة أحــد زعمائهم • وفى هــذه القصــيدة ــ المؤلفة على نظام المزدوجات مثل نظام الشــعر العبرى ، حيث يعيد جزؤها الثانى فــكرة الجزء الأول بعبارات أخرى مختلفة بعض الشىء ــ نقرأ أن الاله الأعلى « ليوزاهو » عندما كان يستحم فى نبع سماوى ، انعكست صورته فى مياهه الصافية كالمرآة ، فلما أبصر صورته فى المــاء ، أخــذ حفنة من التراب فى حجم البيضة وشكلها فى صورة تشبه صور الأجــداد ، تلك التى كان أهالى « نياس » يصنعونها • وحين فرغ من ذلك وضــع هــذا التمثال فى كفة ميزان ووزنه ، ثم وزن الريح كذلك ، ووضــعها بعد وزنها على شفتى التمثال الذى صنعه • عند ذلك تحدث التمثال على نحو ما يتحــدث الرجــل أو على نحو ما يتحــدث الطفل ، وأطلق عليه الاله اسم « سيهاى » • وعلى الرغم من أن « سيهاى » كان يشبه الاله فى شكله فانه لم يعقب ذرية • وقــد كانت الدنيا آنذاك مظلمة ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر

قد خلقا بعـــد ، فتدبر الاله الأمر وأرسل « سيهاى » الى الأرض ، ليعيش فى بيت شـــيد من أشجار السرخس • ولكن « سيهاى » توفى ظهر يوم ، قبـــل أن يرزقه الله بزوجة أو ولـــد ، ولكن شـــجرتين نبتتا من فمه ، وأينعتا وأزهرتا ، وهز الريح الزهر فتساقط على الأرض ، ومن هـــذا الزهر نشأت الأمراض • ثم نبتت من حنجرة « سيهاى » شجرة كان يستخلص منها الذهب ، كما نبتت من قلبه شـــجرة أخرى ينتسب اليها الرجال • وفضـــلا على ذلك فقد بزغت الشمس من عينيه اليمنى وبزغ القمر من عينه اليسرى • وفى هـــذه الأسطورة نلاحظ أن فـــكرة خلق الانسان فى صورة الاله تراءت للخالق بعد أن رأى صورته منعكسة على صفحة النبع الصافى •

وتحكى قبيلة « بيـــلا ــ آن » البدائية ، وهى قبيلة من قبـــائل « مندناو » ، احدى جزر الفيلبين ، قصـــة خلق الانسان الأول كما يلى : كان هناك فى بداية الحياة كائن بعينه يدعى « ميلو » ، وكان ضـــخما للغاية ، الى درجـــة لا يمكن مقارنته بشىء معلوم لدينا • وكان هـــذا الكائن أبيض اللون ، ذا أسنان ذهبيـــة ، وكان يجلس فوق السـحب فيشغل كل أجواز السماء • وحيث انه كان بطبعه نظيفا للغاية فقـــد كان دائم التدليل لنفسه حتى يحتفظ ببياض جلده نقيـــا • وكان يلقى بجانبه القشور التى يزيلها من جسمه ، حتى تجمعت منها كومة أزعجه منظرها ، فخلق منها الأرض لكى يتخلص منها • ولمـــا سر بعمله هذا قرر أن يصنع شكلين يشبهانه ولكن دونه حجما • وقد شكلهما مطابقين له كل المطابقة ، وذلك من القشور التى سبق له أن خلق منها الأرض • وقد كان هـــذان الشـــكلان أول مخلوقين بشريين • وبينما كان هذا الخالق يقوم بعمله ، فأتم صنع أحـــد النموذجين فيما عـــدا أنفه ، كما أتم صنع النموذج الثانى فيمـــا عـــدا أنفه وجزءا آخر منه ، جـــاءه « تاو دالوم تانا » وطلب منه أن يسمح له بأن يصـــنع أنفى الشكلين • وبعـــد جـــدل عنيف بينه وبين الخالق حول هـــذا الموضـــوع انتهى « تاو دالوم تانا » الى صنع الأنفين • ولكنه حينما شاء أن يركبهمـــا

على وجهى أول أبوين فانه وضعهما على نحو معكوس • ومرة أخرى دب الخلاف العنيف بين الخالق ومساعده حول تركيب الأنفين الى درجة أن الخالق نفسه نسى كلية أن يكمل الجزء الباقى من الشـكل الثانى ، وصـعد الى مكانه فوق السحاب ، تاركا نموذج الرجل الأول أو المرأة الأولى (فالقصـة لم تحـدد النوع) ناقصـا ، كما هبط « تاو دالوم تانا » الى عالمه السفلى • ثم أخـذت أمطار غريزة تهطل بعد ذلك ، الى درجة أن كاد يهلك أول مخلوقين بشريين ، لأن الميـاه أخـذت تتدفق على قمة رأسيهما متخللة أنفيهما المعـكوسين • ولحسن الحظ أبصر الخالق النموذجين فى هذا الموقف الحرج ، فخف لنجدتهما وخلع أنفيهما وأعادهما الى وضعها الطبيعى ••

وتحكى قبيلة « الباجوبوس » : وهى قبيلة وثنية تقطن جنـوب شرق « مينداناو » أن خالقا بعينـه يدعى « ديوانا » قد خلق فى بداية الحيـاة البحر والأرض وغرس أشـجارا مختلفة الأنواع ، ثم أخـذ حفنتين من تراب وشكلهما فى هيئة شكلين آدميين ، ثم بصـق عليهما فتحولا الى رجـل وامرأة • أما الرجل الشـيخ فسمى « توجلاى » ، وأما المرأة العجوز فسميت « توجليبنج » • ثم تزوجا ، وابتنى الرجل بيتـا عظيما وزرع أنواعا أنواعا متعـددة من الحبـوب التى كانت المرأة قـد قدمتها اليه •

وقد حكى « الكوميون » الذى يسكنون بقاعا من « أراكان » وتلال « وتشيتاجونج » فى الهنـد الشرقية ، حكوا للكابتن « لوين » الحكاية التالية عن خلق الانسان ، التى تقول : ان الله خلق العالم والأشـجار والحيوانات الزاحفة فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك شـكل رجلا واحـدا وامرأة واحـدة من الطين • على أن حيـة كانت تتسلل فى كل ليلة ، بعد أن يفرغ الاله من عمله ويخلد النـوم ، وتبتلع النموذجين اللذين صنعهما الاله • وتكرر حدوث هـذا مرتين أو ثلاثا ، حتى كاد الاله أن يفقـد صوابه ، اذ كان عليه أن يعمل طوال اليوم ، ولم يكن فى وسعه

أن يتم صـــنع النموذجين فى أقل من أثنتى عشرة ساعة • واذا هو لم يسترح بعـــد تعب النهار « فان حالته تســـوء » ـ على حـــد تعبير القصاص الكومى ـ ولهذا فقد كاد الاله أن يفقد صوابه كما ذكرت ، ولكنه فى نهاية الأمر استيقظ مبكرا ذات فصباح ، وشـــكل نموذجا لكلب وبث فيه الحيـــاة ، وعينـــه حارســـا على النموذجين الآدميين • فلما تســـللت الحية اليهما نبـــح الكلب فهربت الحيـــة فزعا • وهـــذا هو السبب فى أن الكلاب تأخذ فى النباح عندما يحتضر الانسان • على أن « الكوميين » يعتقدون أن الاله فى هـــذه الأيام يغط فى نوم عميق ، أو أن الحية صارت أشجع مما مضى ، وذلك لأن الناس يموتون على الرغم من نباح الكلاب • ولو لم ينم الاله لمـــا كان هنـــاك مرض أو موت ، فالحية لا تأتى وتنتزعنا إلاّ فى أثنـــاء الفترة التى ينـــام فيها الإله • وشبيه بهـــذه الحـــكاية حكاية يرويها الخاسيون « سكان أسام » • فهم يقولون : ان الله خلق الرجل فى بادىء الأمر ووضعه على الأرض ، وعندما عاد ليعيـــد النظر فيما صنعه يداه وجـــد أن الروح الشريرة قد حطمت الرجل ، فلما حـــدث هـــذا مرة أخرى خلق الاله الكلب أولا والرجل ثانيا ، فسهر الكلب على حراسة الرجل ، ومنع الروح الشريرة من أن تصيبه بأذى • وبهـــذا أبقى على عمل الاله •

وقد برزت هـــذه الحـــكاية نفســـها ملونة بمســـحة طفيفة من الميثولوجيا الهنـــدوكية عنـــد قبيلة « كوركوس » ، وهى قبيلة عريقة تقطن الأقاليم الوسطى فى الهند • وخلاصة هذه الحكاية أن « راوان » ، ملك « ســـيلان » الشيطان ، لاحظ أن سلســـلة جبـــال « فندهيان » و « ساتبورا » غير مأهولة ، فتضرع الى الاله الكبير « ماهاديو » أن يعمرها بالسكان • عنـــدئذ أرســـل « ماهاديو » ، الذى يعنـــون به « سيفا » ، غرابا لكى يبحث له عن كثيب الرمال ذى التربة الحمراء ، فعثر الطـــائر على هـــذا الكثيب بين جبال « بيتول » • عندئذ رحـــل الاله الى هـــذا المكان ، وأخـــذ حفنة من التربة الحمراء وصـــنع منها تمثالين لرجل ومرأة • ولم يكد الاله يفعل هـــذا حتى بزغ حصانان

ناريان من الأرض ، أرسلهما « اندرا » ، فأحالا التمثالين الى تراب • وعاود الاله المحاولة فى يومين متتاليين ، ولكن تماثيله كانت تتحطم بمجرد فراغه من عملها • وأخيرا صنع الاله تمثالا لكلب ونفث فيه أنفاس الحياة ؛ فاستطاع الكلب أن يبعد حصانى « اندرا » الناريين عن التمثالين • ومن ثم تمكن الاله من أن يصنع تمثالى الرجل والمرأة دون ازعاج ، ومنحهما الحياة وسماهما « مولا » و « مولاى » • وقد أصبح هذا الرجل وهذه المرأة الأبوين الأولين لقبيلة «كروكوس » •

ويروى عن قبيلة « موندا » ، وهى قبيلة بدائية قديمة فى « شوتانجبور » ، حكاية شبيهة بالحكاية السابقة مع بعض الاختلاف المثير ؛ تقول : ان اله الشمس الذى يدعى « سنجبونجا » قد شكل تمثالين من الطين : أحدهما فى صورة رجل ، والآخر فى صورة أمرأة ؛ ولكنه قبل أن يمنحهما الحياة داسهما الحصان بحوافره ، ناظرا بعين المستقبل الى ما يمكن أن يلقاه منهما من متاعب • وقد كان للحصان فى تلك الأيام أجنحة ، وكان فى وسعه أن يركض أسرع منه فى هذه الأيام • ولما رأى اله الشمس أن الحصان قد حطم تمثاليه خلق حشرة العنكبوت أولا ؛ ثم عاد فشكل تمثالين آخرين شبيهين بالتمثالين اللذين داسهما الحصان بحوافزه ، وأمر العنكبوت بأن يحرسهما ؛ فنسج العنكبوت خيوطه حول التمثالين بطريقة لم تمكن الحصان من أن يدوس التمثالين مرة أخرى بحوافزه • وبعد ذلك تمكن اله الشمس من أن ينفث الحياة فى التمثالين اللذين أصبحا أول بشرين على وجه الأرض ••

ويحكى « الشيريميون » فى روسيا ، وهم قوم من أصل فنلندى ، حكاية عن خلق الانسان تذكرنا بحوادث فى أساطير الهنود و «التوراديين» عن الخلق • فهم يرون أن الاله شكل جسم الانسان من الطين ؛ ثم صعد الى السماء ليحضر الروح الذى يحيى به الانسان ، بعد أن ترك الكلب يحرس التمثال فى غيابه • ولكنه ما أن تجاوز مكان التمثال ،

حتى اقترب الشيطان من التمثال وأثار ريحا باردا على الكلب ، واستطاع أن يرشوه برداء من الفرو كى يتنحى عن حراسة التمثال • وبعد ذلك بصــق الشيطان على التمثال فلوثه بطريقة غاية فى القذارة ، الى درجة أن الاله عنـدما أبصر ذلك ، لم يتمكن من تنظيفه ، ووجـد نفســه مضطرا لأن يقلب التمثال ظهرا لبطن • وهــذا هو السبب فى أن باطن الانسان قد أصبح قذرا كل القذارة • وفى ذات اليوم نفسه صـب الاله اللعنة على الكلب جزاء اهماله الذى استحق عليه العقاب •

فاذا انتقلنا الى أفريقيا فاننا نجــد أن أسطورة خلق الانسان من الطــين تنتشر بين قبــائل الشــلوك التى تســكن اقليــم النيــل الأبيض • وتفسر أساطيرهم بطريقة بارعة اختلاف ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة باختلاف ألوان الطين الذى خلقت منه • فيروى فى حكاياتهم أن الخالق « جووك » شــكل الناس جميعا من التراب • وأنه كان يتجــول فى أنحــاء العالم ، فى أثنــاء قيامه بعمله • ففى بلاد الأجناس البيضــاء عثر على تراب أو رمل أبيض نقى ، فشــكل منه الناس ذوى البشرة البيضاء •• ثم وفد على أرض مصر ، فشــكل من طمى النيل أناسا ذوى بشرة حمراء أو بنية •• وأخيرا وصــل الى أرض الشلوك ، ووجــد بها تربة ســوداء ، فشــكل منهـا النــاس ذوى البشرة السوداء •

وقد اتبع الاله « جووك » الطريقة الآتية فى تشــكيل النموذج الانسانى : كان يأخــذ حفنة من التراب ويقول لنفسه : سأشــكل نموذجا للانسان بشرط أن يكون قادرا على السير والجرى والخروج الى الحقول ، ولهــذا سأمنحه رجلين طويلتين كرجلى طائر « البشروش » فلما فرغ من صنع الرجلين قال لنفسه مرة أخرى : « ولا بد أن يكون هــذا الانسان قادرا على أن يزرع الذرة ، ولهذا فسأمنحه ذراعين : ذراعا تحمل الفأس ، وأخرى تنتزع العشب الضــار بالزرع » • ومن ثم صنع له ذراعين • ثم تدبر الأمر مرة ثالثة وقال : « ولا بد لهــذا

الانسان أن يرى النبات ، ولهـذا فسأمنحه عينين » . وركب له عينين فى وجهه . ثم قال بعد ذلك : « ولا بد أن يكون قادرا على أكل مالديه من ذرة ، ولهذا فسأمنحه فما » . ومنحه الفم . ثم تدبر الأمر وقال : « ولا بد أن يكون الرجل قادرا على الكلام والرقص والغناء والصراخ ولكى يستطيع أن يفعل كل هذا فهو فى حاجة الى لسان » . ثم ركب له لسانا . وأخيرا قال لنفسه : « ثم لابد أن يكون الانسان قادرا على سماع ضجيج الرقص ، وحديث العظماء من الرجال ، ولهـذا فهو فى حاجة الى أذنين » . ثم ركب له أذنين وبعث به على هـذا النحو انسانا كاملا الى الحيـاة . ويحـكى « الفانيون » الذين يسـكنون فى غرب أفريقيـا ، أن الله خلق الانسان فى بادىء الأمر على شـكل سحلية من الطين ، ثم وضعه فى حوض به ماء مدة سبعة أيام . وفى نهاية اليـوم السابع صاح به وقال له : « اصـعد من المـاء » . فبرز من المـاء شكل فى هيئة رجل لا فى هيئـة سحلية . وتعتقـد القبائل التى تسكن « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، وتتحدث لغة قبائل « ايوى » [1] ، ان الله مازال حتى اليوم يشـكل الناس من الطين ، فاذا تبقى قليـل من المـاء الذى يبلل به التراب ، سـكبه على الأرض ، وخلق منـه الأشرار والعصاة من الناس . فهو حينما يود أن يخلق انسانا صالحا ، فانه يشكله من طين جيـد ، أما عندما يود أن يخلق انسانا شريرا ، فانه يشكله من الطين الردىء . وقد شـكل الاله الرجل فى بداية الأمر ، وأوقفه على الأرض ، ثم شـكل المرأة من بعـده . فنظر الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر ، وشرعا يضحكان ، فبعث الاله بهما أثر ذلك الى الحيـاة .

وكذلك يروى « الاسكيمو » والهنود الذين يسـكنون فيما بين

---

(١) « ايوى » مجموعة من القبائل التى تنتمى الى الزنوج السودانيين وتقطن فى جنوب « تونجو » و « داهومى » . وهى تكون منذ عـام ١٩٥٧ العنصر السـائد فى جمهورية « تنجو » . (المترجمة)

ألاسكا وبراجواى فى أمريكا أسطورة خلق الانسان من الطين •
فالاسكيمو الذين يسكنون فى « بوينت بارو » فى ألاسكا يقولون انه
مضى زمن على الوجود لم يكن فيه رجل على وجه الأرض ، واستمر
الأمر كذلك الى أن جاء روح بعينه اسمه « آسى لو » فأقام فى « بوينت
بارو » ، وشكل رجلا من الطين ، ثم وضعه على الشاطىء ليجف
ثم نفخ فيه أنفاسه ومنحه الحياة • ويحكى قوم آخرون من اسكيمو
ألاسكا أن الغراب شكل أول أمرأة من الطين لكى تكون رفيقا لأول
رجل ، ثم ألصق فى مؤخر رأسها عشبا مائيا لكى يكون لها شعرا ،
ثم نشر جناحيه على التمثال الطينى فانتصبت امرأة شابة جميلة • وقد
حكى الهنود « الاكاجشميم » فى كاليفورنيا ان كائنا مهولا كان
يدعى « شينجشنيش » خلق الانسان من الطين الذى وجده
على شواطىء احدى البحيرات • وقد قام بخلق الرجل والمرأة من
الطين ، وعنهما تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم فى تلك البقاع •

وقد قامت شخصية غامضة تدعى « العارف بالأرض » بخلق أول
رجل وامرأة وذلك رفقا لرواية الهنود « المايدو » الذين يسكنون
كاليفورنيا وقد هبطت هذه الشخصية من السماء عن طريق حبل
مصنوع من الريش ، وكان جسمه يشرق كالشمس وان كان قد أخفى
وجهه فلم يره أحد قط • وفى عصر أحد الأيام أخذت هذه
الشخصية كمية من التراب الأحمر الداكن ومزجتها بالماء ، وصنعت
منها شكلين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة • وعندما عادت هذه
الشخصية الى مسكنها العلوى وضعت الرجل عند جانبها الأيمن ،
والمرأة عند جانبها الأيسر ، ورقدت بينهما ، وأخذ العرق يتصبب
منها طوال عصر هذا اليوم وفى أثناء الليل • وفى الصباح الباكر
أخذت المرأة تدغدغ جنبها ، ولكنها ظلت ساكنة ولم تستسلم للضحك •
ثم نهضت بعد قليل وغرست قطعة من الخشب مطلية بالقار فى الأرض ،
فاندلعت النار فى الحال • وقد كان الزوجان المخلوقان ناصعى البياض ،
وليس فى الناس اليوم من يماثلهما فى نصاعتهما • وكذلك كانت عيونهما

وردية وشعرهما أسود وأسنانهما براقة ، كما كانا غاية فى الوسامة • وقد قيل : ان « العارف بالأرض » لم يصنع لشكليه أياد ؛ لأنه لم يهتد الى الطريقة المثلى فى تشكيلهما •

ثم أبصر « الكويوت » ؛ أو ذئب انبرارى الذى يقوم بدور كبير فى أساطير الهنود الغربيين ؛ أبصر التمثالين فيما بعد ، ورأى ضرورة خلق أياد لهما مثل يديه • ولكن « العارف بالأرض » رد عليه قائلا : « لا ؛ بل ان أيديهما ستكون مثل يدى » • ومن ثم أكمل صنع الزوجين • فلما سأله « الكويوت » عن سبب صنعه الأيادى على هذا النحو أجاب : « حتى اذا طاردتهما الدببة استطاعا أن يتسلقا الأشجار » • وقد سمى أول رجل « كوكسو » ، كما سميت أول أمرأة « المرأة نجمة الصباح » •

ويروى الهنود « الديجونيو » أو — كما يسمون أنفسهم — « الكواكيبايس » وهم الهنود الذين يسكنون الركن الجنوبى الغربى الأقصى من ولاية كاليفورنيا ، يرون أسطورة يفسرون بها كيف خلق العالم والجنس البشرى على نحو ما هما عليه الآن • فهم يقولون انه لم يكن هناك فى بادىء الأمر تراب أو أرض صلبة ، أو أى شىء آخر سوى المياه الملحة التى كانت تملأ محيطا واحدا قديم العهد شاسعا • وقد كان يسكن تحت سطح الماء أخوان يدعى أكبرهما « تشايباكومات » ؛ وكان كلاهما يعيش بعينين مغمضتين ؛ لأنهما ان لم يفعلا ذلك أصابتهما المياه الملحة بالعمى • وبعد مرور وقت خرج الأخ الأكبر الى سطح المحيط فلم يستطع أن يبصر شيئا سوى الماء • ثم اتخذ الأخ الأصغر طريقه الى السطح كذلك ، ولكنه فتح عينيه فى غير حذر فى أثناء صعوده ؛ فأصيب بالعمى ؛ فلما وصل الى السطح لم يبصر شيئا • ومن ثم فقد هبط ثانيا الى قاع المحيط • ولما وجد الأخ الأكبر نفسه وحيدا على سطح الماء وشرع فى خلق تراب صالح للسكنى عليه من مهملات المحيط ؛ فخلق فى أول الأمر نملا أحمر صغيرا غطى

المياه بأجسامه الدقيقة حتى تحول سطح المياه الى جسم صلب •
وقد كان الكون حتى ذلك الوقت مظلما ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر قد خلقا بعد ، فلما خلق « تشاييباكومات » بعد ذلك طيورا معينة سوداء مفلطحة المناقير حدث أنها ضلت طريقها فى الظلام ولم تجد لها مستقرا • وبعد ذلك أخذ « تشاييباكومات » ثلاثة أنواع من الطين : أحمر وأصفر وأسود ، وصنع منها شيئا مستديرا مسطحا أمسكه فى يده وقذف به نحو السماء فالتصق بها ، وأخذ ينبعث منه ضوء خافت تكون منه القمر بعد ذلك • ولكن « تشاييباكومات » لم يقنع بهذا الضوء الخافت الذى ينبعث من هذا النجم الشاحب ، فأخذ مزيدا من الطين وشكله على هيئة قرص آخر مستدير ومسطح ، وقذف به نحو السماء ، فى الجانب الآخر منها ، فالتصق بها ، وأصبح هو الشمس التى تضىء الكون بأشعتها • وبعد ذلك أخذ « تشاييباكومات » قطعة من الطين ذات لون فاتح وشطرها شطرين ، وشكل منها الرجل • ثم أخذ ضلعا من الرجل وشكل منه المرأة التى أطلق عليها اسم « سينى أكساو » ، ومعناه المرأة الأولى • وكلمة « سينى » تعنى المرأة ، وكلمة « أكساو » تعنى الأولى • وقد تناسلت البشرية من هذين الشكلين اللذين شكلهما هذا الخالق من الطين ••

وعلى هذا النحو يعتقد الهنود « الهوبى » أو « الموكو » الذين يسكنون أريزونا أنه لم يكن فى بداية الحياة سوى الماء يعم كل البقاع ، وأن الهين — وربما كانتا الهتين — كلتاهما كانت تدعى « هوروينج وهتى » كانتا تعيشان فى بيتين يقعان فى المحيط ، أحدهما يقع فى الشرق والآخر فى الغرب • وقد استطاعت هاتان الالهتان بجهودهما أن تجعلا الأرض الصلبة تظهر وسط المياه • على أن الشمس لاحظت ، فى أثناء مرورها يوميا فوق الأرض الجديدة ، أنه ليس هناك كائن حى من أى نوع يعيش على هذه الأرض ، فلفتت نظر الالهتين الى هذا العيب الجوهرى • وبناء على ذلك اجتمعت الآلهتان للتشاور فى هذا الأمر ، واتخذت الالهة التى تسكن شرقا من

قوس قزح جسرا عبرت عليه الى اختها التى تسكن غربا • وبعد أن تشاورتا معا قررتا أن تخلقا طائرا صغيرا ، فشكلت الهة الشرق طائرا صغيرا للغاية ثم أخذتا معا تتلوان عليه التعاويذ ، فدبت الحياة فى الطائر على الأثر • وعند ذاك أطلقت الالهتان الطائر ليطوف فى أرجاء العالم ليرى ما اذا كان هناك على وجه الأرض أى كائن حى ، فلما عاد الطائر أخبرهما بأنه لم ير أثرا لأى كائن حى • وعند ذاك خلقت الالهتان بنفس الطريقة أنواعا مختلفة من الطيور ، وبعثتا بها الى الأرض لكى تعمرها • وفى نهاية الأمر استقر رأى الالهتين على أن تخلقا الانسان ، فأخذت الهة الشرق قطعة من الطين وشكلت المرأة أولا ثم الرجل بعد ذلك ، وبثت الالهتان الحياة فى الرجل والمرأة على نحو ما فعلتا مع الطيور والوحوش •

ويزعم الهنود « البيما » الذين يسكنون فى أريزونا أن الخالق أخذ قطعة من الطين فى يده ثم مزجها بعرق جسده وصنع من هذا المزيج كتلة من العجين ، ثم راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحياة ، وأخذت تتحرك ، وتحولت الى رجل وامرأة • وقد قال أحد كهنة الهنود « الناتشيز » الذين يسكنون « لويزيانا » ـ قال لـ « دوبراتز » « ان الاله عجن قطعة من الطين الذى يشبه ما يستعمله صانع الخزف فى صنع الأوانى الخزفية ، وشكل منه تمثالا صغيرا لرجل • وبعد أن تفحصه ووجد شكله لائقا نفخ فيه فدبت الحياة فى التمثال ، وأخذ الرجل يكبر ، كما أخذ يسير ويسلك مسلك البشر • ثم نظر هذا الرجل الى نفسه فوجد نفسه مصورا أحسن تصوير » • أما بالنسبة للطريقة التى خلقت بها المرأة فقد أقر الكاهن لـ « دوبراتز » صراحة بأنه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، فتراث قبيلته القديم لم يذكر شيئا عن الفرق بين الجنسين فى طريقة خلقهما • وهو يعتقد كذلك أن الرجل والمرأة قد خلقا بطريقة واحدة •

وقد روى « المتشواكان » وهم من سكان المكسيك أن الاله الكبير

« نوكاباشا » شــكل الرجل والمرأة فى بادىء الأمر من الطين ، ولكن عندما نزل الزوجان الى النهر ليستحما امتص الطين المـاء وتفتت • ولكى يتفادى الاله هــذا العيب فقد شكل التمثالين مرة أخرى من الرماد ، ولكن النتيجة لم تكن سارة فى هــذه المرة كذلك • وأخيرا فقــد قــام بتشكيلهما من المعــدن حتى يتجنب الاخفاق للمرة الثالثة • وقد كان عمله محمودا هــذه المرة ، اذ أنه أحــكم صنعهما بحيث لم تعد الميــاه تتسرب اليهما ، فلما نزلا الى المــاء لكى يستحما لم يتعرض جسماهما للتفتت • ومن هذين الزوجين تناسلت السلالات البشرية • وقد حــكى هنود « بيرو » لقس أسبانى من « كوزكو » أسطورة ، مؤداها أن الجنس البشرى عاد الى الظهور مرة أخرى فى « تياهوانكو » بعــد أن قضى الطوفان عليه جميعا ، فيما عــدا رجل وامرأة • فهناك فى « تياهوانكو » التى تبعــد حوالى سبعين فرسخا عن « كوزكو » بعث الخالق الناس والشعوب التى هلكت فى تلك البقاع بأن شــكل أفراد كل أمــة من الطين ، ولون رداء كل فرد باللون الذى يميزه عن أردية الأمم الأخرى • واذا كان الفرد ينتمى الى أمة كان أفرادها يسدلون شعورهم ، خلق له شعرا مسدلا ، وأما اذا كانت أمته تحلق شعورها ، فانه كان يخلقه بشعر قصير • كما أنه جعل كل أمة تتحــدث اللغة التى كانت تتحــدث بها ، وتغنى الأغانى التى كانت تتغنى بها ، ومنح كلا منها الحبــوب والأطعمة الخاصة بها • ولمــا فرغ الخالق من تشكيل شــخوص كل أمة ، وتلوين ملابسها ، بث الحيــاة فى هــذه الأشكال : الذكور منهــا والاناث ، وأمرهم أن يسيروا تحت الأرض ، ثم صــعدت كل أمة من المكان الذى أمرها الله أن تصــعد منه » • ويعتقــد الهنود « اللينجوا » الذين يسكنون « براجواى » أن الخالق كان فى شــكل خنفساء يسكن جحرا فى الأرض ، وأنه شــكل الرجل والمرأة من الطين الذى كان يطوح من مسكنه تحت الأرض •

وقد كان الزوجان ملتصقين فى بادىء الأمر « مثل التوأم السيامى » • وفى هــذه الصورة الشاذة بعث بهما الخالق الى العالم الأرضى ، حيث تنازعا ــ وهما على هــذه الصورة غير الملائمة ــ مع جنس من الكائنات

القوية التى كان الخالق قد خلقها من قبل • وعند ذاك توسل الزوجان الى الخالق الخنفساء أن يفصل أحدهما عن الآخر ، فاستجاب لمطلبهما ، ومنحهما القــدرة على التكاثر ، ومن ثم أصبحا الأبوين الأولين للجنس البشرى • أما الخالق الخنفساء فقد كف ، بعد أن خلق الكون ، عن أن يقوم بعــد ذلك بأى عمل ايجابى فيه ، كما لم يعد يهتم لشىء فيه • وتذكرنا هــذه الرواية بحــكاية أرستوفان الخيــالية فى « محاورات أفلاطون » تلك الحــكاية التى يحكى فيها أرستوفان عن الشكل الأصلى للجنس البشرى ، وكيف أن المرأة والرجــل قــد خلقا فى بداية الأمر ملتحمين فى شــكل واحــد مركب له رأسان وأربع أذرع وأربع أرجل ، حتى جــاء زيوس فشقهما من النصــف ، وفصــل الجنسين أحــدهما عن الآخر » •

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من الحكايات السالفة الذكر تتفق جميعا فى أن الطين الذى شــكل منه أول أبوين كان أحمر اللون ومن المحتمل أن اللون الأحمر يقصــد به تفسير لون الدم • وعلى الرغم من أن الكاتب اليهودى قد أغفل ، فى حــكايته فى سفر التكوين ، ذكر لون الطين الذى استخدمه الله فى خلق آدم ، فاننا نحدس ، ولعلنا لا نكون متعجلين فى حدسنا ، أن الطين الذى استخدم فى هــذه المناسبة كذلك كان لونه أحمر • فالكلمة العبرية التى تطلق على الرجل فى العموم هى « آدم » ، والكلمة التى تطلق على الأرض هى « أدمة » ، كما أن الكلمة التى تطلق على اللون الأحمر هى « أدوم » • وبذلك نصــل عن طريق التسلسل الطبيعى ، بل الضرورى ، للعقل ، الى أن الأبوين الأولين قــد خلقا من التراب الأحمر • فاذا ساورنا شــك فى هذا فربما كانت ملاحظة أن تربة فلسطين تميل حتى اليوم الى الحمرة الداكنة تبدد هذا الشك • « وهــذا يشير ــ وفقا لرأى الكتاب الذى لاحظ هــذه الملاحظة وعلق عليها فى انصاف ــ « الى العلاقة بين آدم والتربة التى خلق منهــا • وهــذا اللون يبدو بشــكل واضح عندما تقلب التربة ، اما عن طريق المحراث أو عن طريق الحفر » • فالشىء اللافت أن الطبيعة نفســها تحمل شواهد على الدقــة الأدبية فى الكتاب المقدس •

الفصل الثانى

سقوط آدم

١ ــ القصة فى سفر التكوين :

يصور الكاتب اليهودى عن طريق القاء قليل من الضوء ، ولكن بريشة فنان ماهر ، الحياة السعيدة التى عاشها الأبوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنا فيها . هناك نمت فى وفرة كل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها ، وهناك عاشت صنوف الحيوان فى وئام مع الانسان ومع بعضها بعضا ، وهناك لم يكن الرجل والمرأة يعرفان الخجل ، لأنهما لم يكونا يعرفان العيب ، فقد كان هذا عصر البراءة .

ولكن هذه الحياة السعيدة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما غشى الغمام ضوء الشمس . وينتقل الكاتب فجأة من قصة خلق حواء ، وتقديمها لآدم ، ليحكى لنا قصة سقوطهما الحزينة ، وفقدانهما للبراءة ، وطردهما من جنة عدن ، وما قدر لهما هما ونسلهما من بعد من العمل والحزن والموت . ففى وسط الجنة نمت شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ، التى حرم الرب على آدم أن يأكل من فاكهتها قائلا : « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » [(١)] ، ولكن الحية كانت ماكرة ، كما كانت المرأة ضعيفة ومن السهل أن يغرر بها . فذهبت الحية الى حواء وأغرتها أن تأكل من الثمار المشئومة ، وقدمت حواء بدورها الثمار لزوجها ، فأكلها كذلك .

---

(١) سفر التكوين ٢ : ١٧ .

وما كادا يتذوقان الثمـــار حتى تفتحت عيونهما على الحقيقـــة وأدركا أنهما عاريان ، فسترا عورتيهما ، وقد ملأهما الخزى والارتباك ، بغطاء من أوراق التين : وفى هــذه اللحظـــة ولى عصر البراءة الى غير رجعة •
وبعد أن خفت وقدة حر الظهيرة ، وانتشرت الظلال فى ربوع الجنـــة ، أخـــذ الرب يتمشى ، كما كانت عادته ، فى ساعة العصر الرطبة • وسمع الرجل والمرأة وقع خطواته ، وربما سمعا كذلك حفيف الأوراق وهى تتساقط تحت قدميه (اذا كان يمــكن لأوراق الشـــجر فى الجنـــة أن تتساقط) • فاختبأ بين الأشجار ، وقد ملأهما الخجـــل من أن يراهما عاريين • فصاح بهما الرب أن يخرجا من خلف الأشجار • ولمـــا علم من الزوجين الخجولين أنهما قد عصـــيا أمره وأكلا من شجرة المعرفة ثارت سورة غضبه ، ولعن الحيـــة ، وحــكم عليهما بأن تزحف على بطنها ، وأن تأكل التراب ، وأن تكون عدو الانســـان الى الأبد ، ولعن الأرض وقضى عليها أن تنبت الشوك والحسك ، ولعن المرأة وحكم عليها أن تلد أولادها فى ألم ، وأن تكون خاضعة لزوجها ، ولعن الرجل وقضى عليه أن يستخرج خبز يومه من الأرض بعرق جبينه ، وأن يعــود فى نهاية حياته الى التراب ، كما خلق من التراب • وخفت سورة غضـــب الرب بعد أن نطق بهـــذه اللعنات المتعددة • ومع ذلك فان الرب الغاضـــب ، بل الرءوف بحق ، أشفق على المذنبين الى حـــد ما ، وصـــنع لها رداءين من الجلد ، ليرتدياهما بدلا من الغلالات المصـــنوعة من ورق التين • أما آدم وحواء فقد انسحبا الى الوراء من خـــلال الأشجار فى رداءيهما الجديدين والخزى يشـــيع فى وجهيهما ، فى حين كانت الشمس تختفى شيئا فشيئا جهة الغرب ، والظلال تتراكم فى الجنـــة المفقودة •

ان كل حدث فى هــذه القصة يرتبط بشجرة معرفة الخير والشر ، فهى تقف مع الرجل والمرأة والحيـــة الناطقة ، فى بؤرة المأساة الكبيرة ، اذا أمكن لنا أن نقول هذا • على أننا أمعنـــا فى النظر ، فاننا نجـــد شجرة أخرى تقف مع شجرة المعرفة جنبا الى جنب وســـط الجنـــة ، وهـــذه الشجرة تلفت النظر للغاية ، لأنها ليست سوى شجرة الحياة

التى تكسب كل من يأكل من فاكهتها الخلــود • ومع ذلك فان هــذه الشجرة الرائعة لا تلعب أى دور فى قصــة الســقوط الحقيقية ، فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هــذه الثمار أى تحريم الهى ، على عكس ما حــدث مع شجرة المعرفة ، فان أحــدا من الأبوين لم يفــكر فى قيمة تناول شىء من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الأبد • ولكن يبدو أن شخوص المأساة الكبيرة وقد تركزت أبصارهم حول شجرة المعرفة ، لم يبصروا شــجرة الحيــاة ، بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التى تقف بامكانيتها غير المحــدودة مهملة وسط الجنة ، الا بعد أن قضى الأمر وانتهى كل شىء • وقــد خشى الرب بعــد أن أصــبح الانسان صنوه فى المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، أن يصبح كذلك خالدا مثله اذا ما أكل من شجرة الحيــاة ، ولذلك فقــد أسرع بطرده من الجنــة ، وعين فريقا من الملائكة الذين يحملون سيوفا لامعة لتحرس الشــجرة من كل من يقترب منها ، حتى لا يتسنى لأحــد أن يأكل من فاكهتها السحرية ، فيعيش الى الأبد ، ومن ثم فانه على حين تتركز أبصارنا ، طوال حركة المسرحية فى الجنة ، حــول شجرة المعرفة كل التركيز ، فان النظرة الأخيرة الى الجنــة السعيدة تطلعنا عنــدما يتغير المشهد فى النهاية ويخبو بهاء جنــة عدن الى الأبد ، ويتحــول نهارها الى نهار عادى ــ تطلعنا على شجرة الحيــاة وهى تقف بمفردها وقد أضاءها بصيص الضــوء المنبعث من سيوف الملائكة المشرعة •

ومن المسلم به بوجه عام ، فيما يبــدو ، أن حــكاية الشجرتين قــد اعتراها بعض الخلط ، وأن شجرة الحيــاة لم تلعب فى الحــكاية الأصــلية هــذا الدور المثير السلبى الصرف الذى لعبتــه فى هــذه الحكاية • ومن ثم فقــد اعتقــد البعض أنه كان هنــاك فى الأصــل حكايتان مختلفتان عن السقوط ، صورت فى احديهما شجرة المعرفة على حــدة ، كما صــورت فى الأخرى شجرة الحيــاة منفردة ، وان كاتبا مزج بين الحكايتين فى غير حــذق ، وجعل منهما حكاية واحــدة • وعلى

حين احتفظ باحداهما فى شــكلها الأصــلى على وجه التقريب ، اختصر الحكاية الثانية وشذبها حتى كادت تفقد معالمها • وربما كان الأمر كذلك كما يعتقــد هؤلاء ، ولكن ربما استطعنا أن نجــد حلا لهــذه المشكلة بطريقة أخرى •

فالهدف من حــكاية السقوط ، فيما يبــدو ، هو محاولة لتفسير فناء الانسان ولتقــديم السبب الذى من أجله أصبح الموت جزءا من حياتنا الدنيوى • حقا ان القصـــة لم تذكر أن الانسان قد خلق خالدا ، وأنه فقــد هــذا الخلود عن طريق عصيانه ، ولكن الحــكاية لم تذكر كذلك أنه خلق فانيا • بل انه حرى بنا أن نفهم من سياق الحكاية ، أن امكانية الخلود والفناء كانت متروكة له ، وكان عليه أن يختار أحــد الأمرين ، ذلك أن شجرة الحيــاة كانت فى متناول يده ، ولم تكن فاكهتها محرمة عليه ، وما كان عليه سوى أن يمد يده ويقطف ثمارها ، ويأكلها فيكتسب الخلود الى الأبد • بل انه من المفهوم ضمنا ، بعيــدا عن أن الانسان قد حرم عليه أكل ثمار هــذه الشجرة ، أن الخالق قد سمح له أن يأكل منها ، ان لم يكن قد شجعه على ذلك ، فلقد قال له صراحة : انه فى وسعه أن يأكل فى حرية من ثمار أية شجرة من أشجار الجنــة فيما عــدا شجرة معرفة الخير والشر • فمن الواضــح اذن أن الرب ، بغرســه شــجرة الخلود فى الجنــة ، وعــدم منعه آدم من يأكل من ثمارها ، كان يهــدف الى أن يجعــل للانســان الخيــار أو على الأقل يتيح له الفرصــة ، لأن يكون خالدا ، ولــكن الانســان ضــيع على نفسه هذه الفرصة حينما اختار أن يأكل من الشجرة الثانية التى حذره الله من أن يمسها ، والا استعجل فناءه • وهذا يؤكد أن الشجرة المحرمة كانت فى الحقيقة شجرة فنــاء لا شجرة معرفة ، وأن مجرد تنــاول فاكهتها المهلكة ، بغض النظر عن موضوع طاعة الأمر الالهى أو عصيانه ، كان كفيلا بأن يفضى بالانسان الى الموت • ويتمثل هــذا الاستدلال كل التمثل فى تحذير الرب لآدم عندما قال له أنك لن تأكل منها ، واليــوم الذى تأكل فيه من ثمارها شيئا ، سيكون مصيرك الموت المحتوم • وبناء

على ذلك ، يمكننا أن نفترض أن القصة الأصلية أشارت الى شجرتين : شجرة الحياة وشجرة الفناء ، وأنه كان للانسان الخيار فى أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا الى الأبد ، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصبح انسانا فانيا • وأن الرب ، رحمة بمخلوقه ، نصحه أن يأكل من شجرة الحياة وحذره من أن يأكل من شجرة الفناء ، ولكن الانسان ، عندما أضلته الحية ، أكل من الشجرة المحرمة ، وبذلك حرم عليه الخلود الذى كان ربه الرحيم قد رسمه له •

ومن شأن هذا الافتراض أنه يوجد — على الأقل — نوعاً من التوازن بين دور الشجرتين فى القصة ، وأن يكسب القصة بوصفها كلا الوضوح والبساطة والتماسك • كما أنه يقدم حلا لضرورة افتراض وجود قصتين أصليتين متميزتين مزج بينهما كاتب سقيم التفكير فأفسدهما • بل ان هذا الافتراض يرجحه أكثر من ذلك اعتبار آخر عمقا ، يصور السلوك الالهى فى صورة مقبولة ، فهو ينزهه كل التنزيه عما أثير عن حقده وحسده ، فضلا على الجبن وتعمد الأذى ، تلك الصفات الشائنة التى ظلت ، بتأثير قصة سفر التكوين — بقعة سوداء فى حق الصفات الالهية • ذلك أن الاله ، وفقا لهذه القصة ، قد نفس على الانسان امتلاكه للمعرفة والخلود معا ، ورغب فى أن يستبقى هذه الصفات الطيبة لنفسه وخشى أن يصبح الانسان مناوئا لخالقه ، اذا ما استحوذ على أحدهما أو كليهما ، الأمر الذى لم يكن من الممكن للرب أن يتقبله بحال من الأحوال • ومن ثم فقد حذر الانسان ، وفقا لهذه القصة ، أن يأكل من شجرة المعرفة ، ولما لم يكترث الانسان لهذا التحذير ، طرده الرب من الجنة وأوصد بابها دونه ، حتى يحول بينه وبين الشجرة الأخرى التى ان هو أكل من ثمارها أصبح خالدا • ان الدافع الذى تقدمه القصة دنىء ، كما أن السلوك الذى تنسبه للرب يستحق الازدراء • وفضلا على هذا فان كلا من هذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب ازاء الانسان فى بداية الأمر كما صورته القصة ، قد كان الرب بعيدا كل البعد عن

أن ينفس على الانسان شيئا ، بل انه بذل كل ما فى وسعه لكى يجعله سعيدا هانئا ، فخلق له جنــة رائعة الجمال لينعم بها وخلق له الطيور وصنوف الحيــوان ليأتنس بها ، كما خلق له المرأة لتكون زوجا له .

حقا ان التلاؤم بين عناصر مغزى القصــة من ناحــة ، وبينهــا وبين الصــفات الالهية من ناحية أخرى ، يكون أبعــد مدى اذا افترضنا أن الرب شاء أن يتوج عطفه على الانسان بمنحه الخلود ، وأن قصــده النبيل لم يحبطه سوى مكيدة الحيــة .

على أنه مازال علينا أن نواجه هــذا السؤال : لماذا دبرت الحية تلك المكيدة للانسان ؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشرى من المميزات الكبيرة التى كان الرب يعتزم أن يخلعها عليه ؟ فهــل كان تدخلها فى هــذا الأمر مجرد فضــول ؟ أم أنها كانت تكن هدفا أبعــد من هــذا ؟ كل هــذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى اجابة . فالحيــة لم تغنم شيئا من وراء تلك المكيدة ، بل انها كانت على عكس هــذا ، من الخاسرين ، اذ حلت عليها اللعنة الالهية ، وقضى عليها أن تزحف على بطنها وأن تعلق التراب . وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية ، بل ربما كانت تقوم بعمل لاهدف وراءه كما يبدو من ظاهر القصــة . ولكن اذا كانت القصــة تخبرنا بأنها كانت أشــد ميلا للخديعة من أى حيوان آخر ، فهل شاءت حقا أن تدل على حــكمتها بأن تطيــح بآمال الانسان دون تحقق لنفسها شيئا منها ؟ وربما ساورنا الشك فى أن الحية فى القصــة الأصــلية قد أثبتت لنفسها مكانا مرموقا بأن استولت على البركة التى حرمت منها الجنس البشرى ، اذ أنها فى الواقع أكلت هى نفسها من شجرة الحياة فاكتسبت الخلود ، فى الوقت الذى أغرت فيــه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء . ويبدو أننــا لسنا مغالين فى هــذا الفرض ، فنحن نقرأ فى حكايات بدائية ليست بالقليلة ، تحكى عن أصــل الموت ، وسأعرضها على القارىء وشيكا ، أن الحيات سعت فى تدبير حيلة لتسخر من الانسان أو لتلقى الروع فى قلبه ، حتى تحتفظ

لنفسها بالخلود الذى كان الانســان معنيــا به • فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيــات وبعض أنواع من الحيوان تجــدد شبابها وتحيا الى الأبد ، وذلك عن طريق تغييرها نجلدها مرة فى كل عام • ويبــدو أن الشعوب السامية قد عرفت هــذه العقيــدة كذلك ، فالحيــة ـ وفقا لرأى الكاتب الفينيقى القديم « سانشونياثون » ـ كانت أطول الحيوانات عمرا ، لأنها كانت تجــدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها • واذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحــة معمرة ، وأن سبب هــذا يرجع الى تغييرها جلدها ، فليس ببعيد أن جيرانهم وأقرابهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه • والشىء الذى لا جــدال فيه ، هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسور تجــدد شبابها عندما تغير ريشها • واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يعتقدون بالمثل أن الحيــة كذلك يتجــدد شبابها بتغير جلدها ؟ على أن فــكرة خــداع الحيــة للانسان ، وسلبها منه الخلود ، عن طريق استيلائها على عشب الخلود ، الذى كانت الآلهــة تقصــد الاحتفاظ به للجنس البشرى ــ تتمثل فى الواقــع فى ملحمة جلجامش التى تعــد معلما من المعالم الأدبية القــديمة لدى الجنس السامى ، أكثر قــدما من سفر التكوين •

ففى هــذه الملحمة نقرأ كيف أن أوتنابيشتيم الانسان المؤله ، أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة ســحرية على اعادة الشباب الى الانسان ، يطلق عليه اسم « الرجل الكهل يعود شــابا » ، وكيف أن جلجامش اهتدى الى هــذا النبــات ، وأصــابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذى ولى ، ثم كيف أن حيــة تسللت ، قبل أن يأكل جلجامش من هــذا العشب ، وسرقت النبات السحرى ، بينما كان جلجامش يستحم فى الميــاه الباردة فى أحــد الينابيع أو الغدران ، ثم كيف أن جلجامش ، بعد أن فقــد الأمــل فى اكتساب الخلود ، جلس وبكى • حقــا ان الملحمة لا تذكر صراحة أن الحيــة اكتسبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ، ولكن ربمــا كان حــذف هــذا مرده الى غموض النص وما فيه من عيب • واذا كان شاعر الملحمة قد ســكت

عن هـذا الموضوع ، فان الروايات الأخرى التى سأذكرها وشيكا مطابقة لهـذه القصـة ، تمكننا من أن نسد هـذه الثغرة على أساس احتمال معقول • وأكثر من هـذا فان هـذه الروايات تشير دون دليـل الى أن الحية فى الحكاية الأصلية التى أفسدها الكاتب اليهودى وشوهها، كانت رسولا من الله للانسان يحمل اليه نبأ الخلود السار ، ولكن هـذا المخلوق الماكر استغل الرسالة لصالح نوعه ولدمار البشر • أما منحة الكلام التى استغلتها الحيـة من أجل تحقيق غرضـها الخبيث فقـد زودها الاله بها لتـكون قادرة على تبليغ رسـالته الى الانسـان •

وباختصـار فاننا يمكننا أن ننتهى ، من خـلال الموازنة بين روايات هـذه الحكاية المختلفة ، المنتشرة بين الشعوب المختلفة ، الى أن حكاية سقوط الانسان الأصلية الحقيقية كانت تجرى على النحو التالى على وجه التقريب : ان الخالق الكريم ، بعد أن شكل الرجـل الأول والمرأة الأولى ، وأحياهما عن طريق عملية بسيطة بأن نفخ فى فميهما وأنفيهما — أسـكن الزوجين السعيدين فى جنـة أرضـية ، حيث عاشا متحررين من كل عنـاء ومشـقة ، يأكلان من ثمار هذه الجنـة السعيدة اليانعة ، ويستأنسان بالطيور والحيوانات وهى تمرح من حولهما فى اطمئنـان لا يتسرب اليه الخوف • ثم فـكر الرب فى أن يتوج سعادة الزوجين بأن يمنحهما نعمة الخلود الكبيرة • ولكنه قرر ، فى الوقت نفسه ، أن يكونا هما نفساهما حـكما على مصيرهما ، وذلك بأن ترك لهما حرية قبول أو رفض المنحة المقـدمة اليهما • ولهذا الغرض أنبت فى وسـط الجنة شجرتين عجيبتين تحمل كل منهما فاكهة من كل نوع ، وتجلب فاكهة احديهما الفناء لآكلها ، بينما تكسب ثمار الشجرة الثانية الخلود لمن يأكل منها • وبعد ذلك أرسـل الحيـة برسالة لكل من الرجل والمرأة لتقول لهما : لا تأكلا من شجرة الفنـاء ، ففى اليوم الذى تأكلان فيه من فاكهتها يكون مصيركما الموت المحتوم • على أن الحيـة التى كانت أكثر الحيوانات مكرا ، فكرت ، وهى فى طريقها الى الرجل والمرأة ، فى أن تغير فحوى الرسالة • فلما وصلت الى الجنـة السعيدة ، حيث

وجـدت حواء بمفردها ، قالت لها : « أن الله يقول : لا تأكلا من شجرة الحيـاة ، لأنه سيقضى عليكما بالموت المحتم فى اليوم الذى تأكلان فيه منها ؛ ولكن كلا من شجرة الفنـاء لتعيشا الى الأبد • وصدقتها المرأة الحمقاء وأكلت من الفاكهة المهلكة ، وأعطت منها لزوجها فأكل منهـا كذلك • أما الحيـة الماكرة فقـد أكلت من ثمار شجرة الخلود • ولهـذا السبب أصبح الانسان فانيا والحية خالدة الى الأبد ، اذ ان الحيـة تغير جلدها كل عام ، وبذلك يتجـدد شبابها • ولو أن الحيـة لم تشوه رسالة الخالق ، ولم تخـدع أمنا الأولى ، لمنحنا الخلود بدلا منها ، ذلك أننا كنا سنغير جلودنا فى كل عام كما تفعل الحية ، ومع تغيرها يتجدد شبابا على الدوام •

ومما يزيد من احتمال أن هـذه الرواية ، أو ما يشبهها ، كانت هى الصـيغة الأصـلية للحـكاية ، مقارنتها بالحـكايات التالية التى يمكننا أن نصنفها فى يسر تحت عنوانين رئيسيين هما « حـكاية الرسالة المحرفة » وحكاية « تغيير الجلد » •

٢ ـ حـكاية الرسـالة المحرفة :

تربط قبائل « الناماكوا » أو « الهوتنتوت » كما يصـنع غيرهم من الشعوب البدائية ، أطوار نمو القمر ونقصـانه بفـكرة الخلود • فما يبدو لهم من زيادة ونقصـان فى شـكل القمـر ، يفسر على أنه عملية حقيقية من التفكك واعـادة التكامل ، ومن الاضمحلال والنمو ، تحـدث بصـفة مستمرة • بل انهم يفسرون بزوغ القمر ومحـاقه بميلاده وموته • فهم يقولون ان القمر شاء ذات يوم أن يبلغ الانسـان نبأ خلوده ، وأخـذ الأرنب البرى على عاتقه أن يقوم بتبليغ هـذه الرسالة ، فوافق القمر وطلب اليه أن يقول للنـاس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحيـاة ، فانكم ستموتون وتعودون الى الحيـاة مـرة أخرى كذلك » • وبناء عليه ذهب الأرنب الى الناس وحرف الرسالة ،

اما نتيجة نسـيانه أو اضماره الشر للانسان ، وأبلغها اياهم على النحو التالى : « كما أننى أموت ولا أعود الى الحيـاة مرة أخرى ، فانكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحيـاة مرة أخرى » • ثم عاد الى القمر الذى طلب منه أن يعيـد عليه ما قاله للناس • فأخبره الأرنب بما أبلغه الناس • فلما سمع القمر منه الرسـالة المحرفة غضب كل الغضب الى درجة أنه رماه بعصـا شقت شفته • وهذا هو السـبب فى أن شـفة الأرنب لا تزال مشـقوقة حتى اليوم • ثم ولى الأرنب مسرعا عنـدما رماه القمر بالعصـا ، وهو ما زال يجرى بسرعة حتى هـذا اليوم • على أن بعض الناس يقولون : ان الأرنب خدش وجـه القمر قبل أن يهرب ؛ ولهـذا فان القمر مازال يحمل فى وجهه آثار هذا الخـدش الذى يمكن أن يراه كل فرد عندما يكون القمر بدرا فى ليلة صـافية • ولا تزال قبائل « الناماكوا » غاضبة على الأرنب حتى اليوم ؛ لأنه سلبهم الخلود • وقـد تعـود الرجال المسنون فى هـذه القبيلة أن يقولوا : « اننا ما زلنـا غاضبين من الأرنب ، لأنه حمل لنا هـذه الرسالة المشئومة ، ومن ثم فنحن لا نأكل لحمه » • ولهـذا فان الصبى اذا بلغ سن النضج ، واتخـذ مكانه بين الرجال ، فانه يمنع من أكل لحم الأرنب ، بل يمنع من استخدام نار سبق أن طهى عليها أرنب • فاذا خالف رجل هـذا المحظور فانه يبعد عن القرية ، كما يحـدث هذا فى كثير من الأحيـان ؛ اللهم الا اذا دفـع دية ، وعنـد ذاك تتقبله جماعته مرة أخرى •

—

وتحكى قبائل « البوشمان » حكاية شبيهة بهـذه الحـكاية مع اختلاف طفيف • ففى سـالف الأزمان ، وذلك وفقـا لروايتهم ، قال القمر للنـاس : « كمـا أننى أموت ثم أعود الى الحيـاة مرة أخرى ، فانه سيصيبكم ما يصـيبنى • فاذا متم ، فانكم لن تموتوا كلية ، بل سرعان ما تعودون للحيـاة مرة أخرى » • وسعد الجميع بهـذا النبأ السعيد ، سوى رجل واحـد لم يستطع أن يسكت عن الجهر بعـدم تصـديقه لهذا النبأ • فقـد حـدث أن توفيت أم هـذا الرجل فبكاها

بعويل وصراخ ، وما من شيء استطاع أن يقنعه بأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، عند ذاك دبت مشاجرة حامية بينه وبين القمر حول هـذا الموضوع المؤلم ، فقـد قال القمـر له : « ان أمك نائمـة ولم تمت » • فأجابه الرجل : « لا بل انها قد ماتت » • عنـد ذاك احتد بينهما الشجار حتى نفـذ صـبر القمر وضرب الرجل بقبضـة يده ضربة شجت فمه ، وصب عليه اللعنة قائلا : ان فمه سيظل مشجوجا على هـذا النحو وان تحول الى أرنب • ذلك لأنه سيمسخ حتما فى صورة أرنب • ولسوف يقفز بعيـدا عنا ثم يرتد الينا ، ولسـوف تعـدو الكلاب فى أثره ، حتى اذا أمسكت به مزقته شر ممزق ، ولسوف يفنى الى الأبد ، وكذلك سائر البشر • ذلك أنه أبى أن يصـدقنى عنـدما طلبت منه ألا يبـكى أمه لأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، ورد على قائلا : « لا ان أمى لن تحيـا مرة أخرى » • من أجل هـذا السبب فانه سوف يتحول كلية الى أرنب ، كما أن الناس سيفنون جميعا بسبب أنه عارضنى بتبجح عندما أخبرته أن النـاس سيصيبهم ما يصيبنى ، فيعودون للحيـاة بعد الموت » • وهـكذا عوقب هـذا الرجل عقابا عادلا جزاء شكه ، فلقـد مسخ فى صـورة أرنب ، وما زال ممسوخا فى شـكل أرنب حتى اليوم ، وان كان لا يزال محتفظا فى فخـذه بلحم انسانى • وهـذا هو السبب فى أن « البوشمان » ، عنـدما يذبحون أرنبا ، لا يأكلون هـذا الجزء ويرمونه جانبا ، لأنه لحم آدمى • ومازلوا يقولون : « لقد لعننا القمر بسبب الأرنب ، من ثم قضى علينا بالموت الذى لا رجعة فيه • ولولا ذلك لعـدنا للحيـاة بعد الموت • ولـكن ما حيلتنا فى هـذا ، وقد أنكر الرجل ما أخبـره به القمر وعارضـه معارضـة صريحة » • فالأرنب فى رواية البوشمان لم يكن رسـولا من الخالق الانسان ، ولكنه انسان شاك مسخ فى صـورة أرنب ، وقـد حـكم على الجنس البشرى كله بالفنـاء ، لأنه شك فيما بشره القمر به من خلود الانسان •

وتحكى قبيلة « ناندى » التى تسكن « أفريقيا الشرقية البريطانية »،

حكاية تعزو فيها ابتلاء الجنس البشرى بالموت الى افتقار كلب ما لروح الفكاهة : فقد كلف كلب بأن يحمل رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكنه لما لم يستقبل بالحفاوة التى تتلاءم مع مهابة الرسالة ، انتابته نوبة من الغضب وحكم على الانسان بهذا المصير الحزين الذى قدر له منذ ذلك اليوم •

وتجرى الحكاية على النحو التالى : ذات يوم جاء كلب الى القوم الأولين الذين كانوا يعيشون على وجه الأرض وقال لهم : « انكم سوف تموتون كما يموت القمر ، ولكنكم لن تعودوا الى الحياة كما يفعل القمر • اللهم الا اذا قدمتم لى قليلا من اللبن أشربه من وعائكم ، وقليلا من الجعة أرتشفها عن طريق عود من قشكم ، فان فعلتم هذا فسوف أساعدكم على أن تحملوا الى النهر يوم تموتون ، ثم تعودون الى الحياة فى اليوم الثالث من وفاتكم » • ولكن الناس سخروا من الكلب ، وقدموا اليه قدرا من اللبن ليشربه من وعاء يتبولون فيه ، فغضب الكلب لأنه ، لم يشرب من الوعاء الذى يشرب منه الانسان • وعلى الرغم من أنه شرب اللبن والجعة باشمئزاز من الوعاء الذى قدم اليه ، فانه رحل والغيظ يملأ صدره وهو يقول : « سوف يموت الناس جميعا الى الأبد ، ولن يعود الى الحياة على الدوام سوى القمر • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون موتة واحدة لا يعودون بعدها الى الحياة ، فى حين أن القمر يختفى ويعود الى الظهور بعد اختفائه بثلاثة أيام • ولو كان الناس قد قدموا وعاءهم للكلب ليشرب منه اللبن • وعودا من القش ليرتشف منه الجعة ، لعدنا الى الحياة بعد الموت بثلاثة أيام كما يفعل القمر • ولا تذكر هذه الحكاية شيئا عن حمل الكلب رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكننا نستدل استدلالا منطقيا من خلال اشارة الكلب الى القمر ، ومن خلال مقارنة هذه الرواية برواية « الهوتنتوت » الشبيهة بها ، على أن القمر هو الذى كلف الكلب بالقيام بهذه المهمة • ولكن هذا الحيوان الغافل لم يستغل هذه الفرصة فى أن يحتفظ لنفسه بمنحة لم يؤهل لها بحق ••

فى هــذه الحــكايات كلف رســول واحــد بحمل الرســالة ذات الشأن الخطير الى البشر • وقد أخفق الرســول فى تأدية رســالته ، إما بسبب اهماله أو بدافع مكره • على أن هنــاك بعض الحــكايات الأخرى التى تحكى عن سبب ابتلاء الانسان بالموت ، كلف فيها رسولان بحمل الرســالة • وسبب ابتلاء الانسان بالموت فى هــذه الحكايات هو تأخر الرســول فى تبليغ رسالة الخلود الى الانســان ، أو ســوء تصرفه • ومن بين هــذه الحكايات حــكاية تروى كذلك عن قبــائل « الهوتنتوت » وهى تجرى على النحو الآتى : أرسل القمر ذات مرة حشرة الى بنى الانسان وقال لها : « اذهبى الى الناس وقولى لهم : بما أننى أموت ثم أحيــا بعد الموت ، فإنكم كذلك ستموتون وتحيــون بعد الموت » • فذهبت الحشرة لتبلغ الرسالة • وبينما كانت ترحف فى الطريق ، اعترضــها أرنب برى ووقف بجانبها وســألها : « الى أين تسيرين ؟ » • فردت عليه قائلة : « لقــد أرسلنى القمر الى النــاس لكى أبلغهم أنه ، كما يموت القمر ويحيــا بعــد الموت ، كذلك هم سيموتون ويحيون بعد الموت » • عندئذ قال لهــا الأرنب : « حيث انك تعوزك الرشاقة فى الحركة ، دعينى أنا أذهب اليهم وأبلغهم الرسالة » • ثم جرى الأرنب وسارت الحشرة ترحف وراءه : ولمــا وصــل الى الناس غير من فحوى الرسالة التى أخــذ على عاتقه أن يبلغها الى الناس بطريق غير رسمى • فلقد قال لهم : « ان القمر أرسلنى اليكم لأبلغكم رسالته التى قال فيها : « كما أننى حينما أموت أفنى الى الأبد ، فأنتم كذلك ستموتون وتفنون الى الأبد » • ثم رجــع الأرنب الى القمــر وأعاد عليه ما قاله للناس • فغضب عليه القمر أشــد الغضــب وعنفه وقال له : « كيف تجرؤ على أن تقول للناس كلاما لم أنطق به ؟ » ثم أمسك بعصــا وهوى بها على أنف الأرنب فشجه • وهــذا هو السبب فى أن أنف الأرنب ما زال مشقوقا حتى اليوم •

وتحكى قبــائل « تاتى بوشمان » أو « ماســاروا » التى تســكن « محمية بتشوانالاند » وصحارى « كالاهارى » وبقــاعا فى جنــوب

روديسيا ، هذه الحكاية نفســها مــع تغيير طفيف • فهم يقولون : ان أجدادهم فى قديم الزمان حكوا الحــكاية التالية : لقد شـــاء القمــر أن أرسل رسالة الى الرعيل الأول من الناس يقول لهم فيها : انه كما مات وعاد الى الحياة مرة أخرى ، فهم كذلك سيموتون ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى • عند ذاك صاح القمــر بالسلحفاة وقال لها : « اذهبى الى هؤلاء النــاس وبلغيهم رسالتى • قولى لهم أنى أعيش بعد موتى فانهم كذلك سيعيشون بعد موتهم » • على أن السلحفاة كانت تسير سيرا بطيئا للغاية ، كما ظلت تردد رسالة القمر فى أثناء الطريق حتى لا تنســاها • ولكن القمر أقلقه بطء السلحفاة وضعف ذاكرتها فصــاح بالأرنب وقال له : انك تستطيع أن تجرى فى سرعة فاذهب الى الناس الذين يسكنون بعيــدا هناك وقل لهم : « كما أننى أحيا بعد موتى ، فهم كذلك سيحيون بعــد موتهم » وأسرع الأرنب ليبلغ الرسالة ؛ ولكنه سرعان ما نسى مضمونها • ومن ثم فقد بلغ الناس الرسالة على النحو التالى ، فقال لهم على لسان القمر : « كما أننى أموت ثم أحيا بعد ذلك ؛ فانكم حين تموتون فستموتون الى الأبد » •• وفى أثناء هــذا تذكرت السلحفاة الرســالة واستأنفت ســيرها وهى تقول لنفسها : « لن أنسى مضمون الرسالة بعد ذلك » • وفى النهــاية وصلت الى مكان تجمع الناس وأبلغتهم الرسالة الصحيحة • فلما ســمع الناس قولها غضبوا كل الغضب من الأرنب الذى كان يجلس على بعــد منهم يقرض الحشيش • فجرى أحد الرجــال ورفع حجرا ورماه به • فأصــاب الحجر الأرنب اصابة مباشرة ، وشج شفته العليا • ولا تزال شــفة الأرنب العليا مشجوبة حتى اليوم • وبهذا تنتهى الحكاية •

وكذلك يروى زنوج ســاحل الذهب حــكاية الرســولين هــذه • والرسولان فى روايتهم هما شــاة وعنزة • وفيما يلى صيغة الحكاية كما رواهــا مواطن زنجى لمبشر سويسرى فى « أكروبنج » :عندما خلقت السماء والأرض فى بداية الحياة ، لم يــكن على وجه الأرض بعــد أثر لانســان • ثم هطلت أمطــار غزيرة ، تدلت فى أعقابها سلسلة كبيرة من السماء وقد علق بها سبعة من الرجــال • لقد كان الاله قد خلق هــؤلاء

الرجال ، وجعلهم يهبطون الى الأرض عن طريق هذه السلسلة • وكانوا قد أحضروا معهم نارا طهوا عليها طعامهم • ولم يكد يمضى بعض الوقت على استقرار هؤلاء الرجال على وجه الأرض ، حتى أرسل الاله اليهم من السماء عنزة لتحمل اليهم الرسالة التالية : « ان هناك شيئا يسمى الموت ، وسوف يصاب به بعضكم يوما ما ، ولكن على الرغم من أنكم ستموتون ، فانكم لن تفنوا فناء كليا ، فلسوف ترجعون الى هنا فى السماء » • وذهبت العنزة تحمل الرسالة • وعندما اقتربت من بلاد هؤلاء الرجال ، تريثت عند أيكة حسبتها صالحة للأكل • فتلكأت عندها وأخذت تقرض الأشجار • ولما استبطأها الاله ، أرسل فى أثرها شاة لتبلغ الرسالة • فذهبت الشاة ولكنها لم تبلغ الرجال ما أمرها الاله به ، اذ أنها غيرت ارسالة وقالت لهم : « انكم اذا متم مرة ، فانكم ستفنون الى الأبد ، ولن تبعثوا فى أى مكان » ولم تكد تمضى الشاة حتى وصلت العنزة وقالت للرجال : « ان الاله يقول لكم انكم حقا ستموتون ولكن هذه الميتة لن تكون هى نهايتكم ، لأنكم سوف ترجعون الى » • عندئذ رد عليها الرجال قائلين : لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل هذا ، فما أخبرتنا به الشاة من قبل ، سوف نلتزم به » ••

والرسولان فى رواية أخرى لهذه الحكاية التى تروى عن قبيلة « أشانتى » ، هما أيضا شاة وعنزة • ويعزى تحريف رسالة الخلود الى هذه أو الى تلك • ويقول « الأشانتيون » : ان الناس عاشوا فى سعادة زمنا طويلا ، لأن الاله كان يقيم بينهم ويتحدث معهم وجها لوجه • ولكن هذه الأيام المباركة لم تدم طويلا • فقد حدث فى يوم مشئوم أن كان بعض النسوة يسحقن الحنطة بالمدق فى الهاون ، بينما كان الاله واقفا ينظر اليهن • ولسبب ما تضايقت النساء من وقوف الاله بجوارهن وطلبن منه أن يرحل بعيدا عنهن • ولما رفض ، ضربنه بالمدق ، فانتابت الاله نوبة م نالغضب الشديد واعتزل العالم الانسانى كلية ، ورحل الى عالم الآلهة • ومازال الناس يقولون حتى اليوم : « كم كنا نكون سعداء ولا هؤلاء النساء العجائز » •

وعلى الرغم مما حدث فقد كان الاله رحيما طيبا ، اذ أرسل من ملكوته البعيد رسالة الى الناس فى الأرض عن طريق عنزة يقول لهم فيها : « ان هناك شيئا يسمى الموت الذى يقضى على عدد منكم • ولكنكم لن تفنوا فناء كليا حتى عندما تموتون ، اذ أنكم تعودون الى فى السماء بعد ذلك » • وبهذا النبأ السعيد رحلت العنزة الى الناس • ولكنها قبل أن تصل الى بلدتهم ، أبصرت أيكة عى قارعة الطريق أعجبها منظرها فتوقفت لتأكل من ورقها • ولما نظر الاله من السماء ، وأبصر أن العنزة تتلكأ فى السير ، أرسل شاة لتبلغ الناس الرسالة نفسها على الفور • ولكن الشاة لم تبلغ الرسالة على نحو صحيح ، بل حرفتها تحريفا كليا وقالت لهم : ان الاله يبلغكم كلمته ، وهى أنكم ستموتون ، وفى هذا تكون نهايتكم » • أما العنزة فانها بعد أن انتهت من وجبتها ، أسرعت الى البلدة وأبلغت الناس الرسالة وقالت لهم : « ان الاله يرسل اليكم كلمته ويقول : حقا انكم ستموتون ، ولكن هذا لا يشكل نهايتكم ، لأنكم سترجعون اليه بعد الموت » • ولما سمع الناس كلام العنزة أجابوها قائلين : « لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل لك هذا ، ونحن نعتقد أن الرسالة التى حملتها الشاة الينا هى الرسالة الصحيحة » • وقد ابتلى الانسان بالموت منذ أن حدث سوء التفاهم المشئوم هذا • ويختلف الدور الذى لعبته كل من الشاة والعنزة فى رواية أخرى لهذه الحكاية تروى عن « الأشانتيين » • فالشاة هى التى حملت أولا رسالة الخلود من الاله الى الانسان • ولكن العنزة سبقتها وأبلغته نبأ موته بدلا من أن تبلغه بنبأ خلوده • وقد استقبل الناس ببراءتهم ، نبأ الموت بحماسه ، لأنهم ما كانوا يعرفون ما الموت ، وطبيعى أن الموت أخذ يفنيهم منذ ذلك الحين ••

واذا كانت الرسالة فى كل الحكايات السابقة ، قد أرسلها الاله للناس ، فان هناك حكايات أخرى رويت فى « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، تحكى أن الرسالة أرسلت من قبل الناس الى الاله • فقد أرسل الناس الى الاله ذات يوم كلبا ليخبره بأن الناس يودون أن

يعودوا الى الحيـاة بعد الموت • ومضى الكلب يحمل رسـالة الناس الى الاله • ولكنه شـعر بالجوع فى أثناء الطريق فدخل بيتا كان صـاحبه يغلى أعشـابا سـحرية ، فجلس الكلب وقال لنفسـه : « ان الرجـل يطهو طعاما وأود أن آكل منه » • وفى أثنـاء ذلك كانت الضفدعة قـد رحلت الى الاله لتخبره بأن النـاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخـرى بعد موتهم • ولم يكن هذا السـلوك من قبل الضفدعة سـوى مجـرد فضول ووقاحة ، اذ لم يكن أحـد قد طلب منهـا أن تبلغ الاله هذه الرسـالة ، ولكنها ذهبت على كل حـال • أما الكلب الذى كان يراقب فى أمـل الحساء وهو يغلى ، فقـد أبصر الضفدعة تجرى مسرعة أمام باب البيت • ولكنه قال لنفسـه ، سوف ألحق بها بعد ما أتناول شيئا من الطعام • ولكن الضفدعة سبقته وقالت للاله : « ان النـاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد ما يموتون » • ووصـل الكلب من بعدها مبـاشرة وقال للاله : « ان الناس يودون أن يعودوا الى الحيـاة مرة أخرى بعد ما يموتون » وكان من الطبيعى أن يشعر الاله بالحيرة ، ورد على الكلب قائلا : « اننى لا أفهم حقيقة هاتين الرسالتين ، فسأمتثل لطلبها لا لطلبك » • وهـذا هو السبب فى أن الناس لا يعـودون الى الحياة مرة أخرى بعـد الموت • ولو أن الضـفدعة اهتمت بشئونها الخاصة ، ولم تتدخل فى شـئون الناس لكان الأحياء يعودون بعـد الموت الى الحيـاة حتى يومنا هذا • على أن الضفادع تحيا مرة أخرى عندما ترعد السماء فى بداية الفصـل الممطر بعد أن تظـل ميتة طوال فصل الجفـاف الذى تهب فيـه الرياح « الهارماتانية » [1] • ومن ثم ، فانك قد تسـمع نقيق الضفدع فى المروج ، بينما تسـقط الأمطار ويدوى الرعد • وبنـاء على ذلك فنحن نرى أن الضـفدعة قد حرفت الرسـالة لصالحها • ولهذا اكتسبت الضفادع الخلود الذى حـرم منه الانسـان ••

---

(١) رياح قوية مترية تهب من الشمال الى الشرق على ساحل شمال غينيا • (المترجمة)

ونلاحظ أن سبب ابتلاء الانســـان بالموت فى هذه الحكايات يرجع الى خطأ فاضح أو الى خـــدعة ماكرة دبرها أحـــد الرســـولين • على أن الموت لم يتسبب ، وفقا لرواية أخـــرى للقصـــة تنتشر انتشـــارا واســـعا بين قبائل « البانتو » فى أفريقيا ، عن خطأ ارتكبه الرســـول ، بل عن تردد الاله نفســـه ، الذى انتهى الى أن يكون الانســـان خالدا ، ثم عـــدل عن رأيه وقرر أن يفنيه أو أن يتركه يفنى • ولســـوء حـــظ الانســـان أن الرســـول الذى كان يحمـــل رسالة الموت اليه وصـــل قبـــل الرسول الذى كان يحمـــل اليه رسالة الخـــلود • وقد قامت الحرباء فى هذا النوع من الحكايات ، بدور الرســـول الذى حمـــل نبأ الخلود ، كمـــا قامت السحلية بدور الرســـول الذى حمـــل رسالة الفنـــاء • فتحكى قبـــائل « الزولـــو » أن « أنكولونكولو » « الاله القديم » ، كلف الحـــرباء أول الأمر بأن تحمـــل رســـالة للنـــاس وقال لهـــا : « اذهبى الى النـــاس وأخبريهم بأنهم لن يقضى عليهم بالموت » • فمضت الحرباء ، ولكنها كانت تزحف فى بطء كما أنها تلكأت فى الطـــريق لتأكل ثمـــار التوت ذات اللون الأرجـــوانى من شجيرة « أوبو كويبيزافى » أو من شجرة التـــوت • ويقول بعض النـــاس أنها تسلقت شـــجرة لتستلقى فى دفء الشمس وابتلعت الذباب حتى ملأت جوفها به ثم استغرقت فى نوم عميق • وفى أثنـــاء ذلك راجع « الاله القديم القديم » نفسه فى هذا الأمر وأرســـل بسرعة البرق سحلية من بعد الحـــرباء لتبلغ الناس رســـالة تختلف كل الاختلاف عن الرسالة الأولى • فلقد قال لها : « عندما تصلين الى الناس قولى لهم : « أنه قد قضى عليكم بالموت » • فرحلت الســـحلية وسبقت الحرباء ، وأبلغت النـــاس هذه الرســـالة وكرت راجعة الى « الاله القديم القديم » • ثم وصـــلت الحرباء بعد ذلك الى النـــاس تحمـــل اليهم النبأ السار بخلودهم وقالت بصـــوت عال : « قد طلب منى أن أبلغكم أنـــكم لن تموتوا » • فرد عليها الناس قائلين : « لقد بلغتنا من قبلك رســـالة السحلية ، اذ قالت لنا : « انه قد قضى عليكم بالمـــوت السحلية » • ومنذ ذلك اليوم دارت على الناس دائرة الموت • ولهذا فان « الزولو »

يمقتون السحلية ويقتلونها حيثمـا يتيسر لهم ذلك • فهم يقولون : « انها الشىء المقيت نفســه الذى أسرع الى الناس أول الأمر وأخبرهم أنهم سـيموتون » • وبعضــهم يمقتون الحرباء ويبعــدونها عنهم أو يقتلونها ويقولون : « انها الشىء الحقير الذى تلكأ فى حمــل نبـأ الخلود الى الانســان • ولو أنها أبلغت النبأ فى حينه لخلدنا وخــلد أجدادنا ولما كان للمرض وجود عى وجه الأرض • ولكن تلكؤ الحرباء تسبب فى حرماننا من هذا كله » •

وتحكى قبائل أخرى من قبائل « البانتو » هذه الحكاية على هــذا النحو نفسه على وجــه التقريب • وهــذه القبــائل هى : البيتشوانا والباسوتو والبارونجا والنجونى كما يبدو أن قبيلة « واسانا » التى تســكن « افريقيا الشرقية البريطانية » تحكيها كذلك • ويحكيها بتغيير طفيف شعب « الهاوسا » الذى لا ينتمى الى قبائل البانتو • ولا تزال قبيلتا « بارونجا » و « نجونى » تكنان الضغينة للحرباء حتى اليوم ،

وهكذا نرى أن الاعتقاد فى أن الاله قد فكر ذات مرة فى أن يمنح الانسان الخلود دون أن تتحقق هذه الفكرة الطيبة نتيجة خطأ اتركبه الرسول الذى عهد اليه الاله بتبليغ البشارة للانسان ـ قد انتشر فى أفريقيــا انتشارا واسعا •

٣ ـ حــكاية تغير الجــلد :

يعتقد كثير من البدائيين أن بعض الحيوانات وبصفة خاصــة الثعابين ، يتجــدد شــبابها ولا تموت أبدا ، بفضــل مقدراتها على تغيير جلدها فى مواسم معينة • وهؤلاء يحكون بسبب تصورهم هذا ، حكايات تبين كيف اكتسبت هــذه الحيــوانات ، بناء على ذلك ، منحة الخــلود ، وكيف حرم الانسان منها •

مثال ذلك ما تحكيه قبيلتنا « وافيبا » و « وابندى » اللتان تسكنان فى « أفريقيا الشرقية » ، من أن الاله الذى يسمونه « ليزا » هبط ذات يوم الى الأرض وسأل الكائنات الحية جميعها قائلا : « من منكم يود

ألا يموت ؟ » ولسوء الحظ كان الناس نائمين ، وكذلك كل صنوف الحيوان ، فيما عدا الحية التى كانت مستيقظة آنذاك فردت هذه على سؤال الاله قائلة « أنا أرغب فى هذا » • ولهذا فان الانسان وكل صنوف الحيوان فيما عدا الحيات ، يموتون • أما الحية فلا تموت الا اذا قتلت ، فاذا لم تقتل فانها تغير جلدها ، وبذلك يتجدد شبابها كما تتجدد قوتها • وشبيه بهذه الرواية ما يحكيه «الدوسون» سكان « شمال بورينو البريطانية » ، فهم يقولون : ان الخالق — حينما فرغ من خلق كل شىء — سأل الكائنات الحية : « من منكم يستطيع أن يغير جلده ؟ • ان من يفعل هذا لن يموت أبدا » • ولم يطرق هذا السؤال سمع أحد من الكائنات الحية سوى الثعبان الذى أجاب على الفور : « أنا أستطيع أن أفعل هذا » • ولهذا السبب فان الثعابين حتى يومنا هذا ، لا تموت الا اذا قتلها الانسان • أما « الدوسون » فلم يسمعوا سؤال الاله ، ولو أنهم سمعوه لغيروا جلودهم كذلك ، ولأصبحوا خالدين •

وكذلك يحكى « التودجو تورادجا » سكان «سيليبس الوسطى » أن الاله استدعى الناس وصنوف الحيوان ذات يوم لكى يقرر معهم مصيرهم • ومن بين المصائر المختلفة التى قدمها الاله ما قاله لهم : « انكم ستغيرون جلدكم القديم » • ولسوء الحظ أن الجنس البشرى كانت تمثله فى هذه المناسبة المصيرية امرأة عجوز لم يمكنها تدهور قواها العقلية من الاستماع الى هذا الاقتراح المغرى ، فى حين سمعته الحيوانات التى تغير جلدها مثل الثعابين ، وحيوان الجمبرى الذى يعيش فى البحر • وطبيعى ان هؤلاء وافقوا على هذا الاقتراح • ومرة أخرى نجد أن أهالى جزيرة « فواتوم » ، وهى جزيرة تقع فى « أرخبيل بسمارك » يقولون : ان كائنا بعينه يدعى « كونوكونو ميانجى » طلب من غلامين أن يحضرا نارا ، ووعدهما أنهما لن يذوقا طعم الموت ، ان هما لبيا رغبته ، أما اذا لم يلبيا رغبته ، فان جسديهما سيفنيان ، ولن يبقى خالدا سوى ظليهما أو روحيهما • ولكن الغلامين لم يولياه

أذنا صاغية ، فصب عليهما اللعنة قائلا : « لقد كنت أعمل على أن يخلد الجنس البشرى بأسره ؛ أما الآن فسوف يفنى الى الأبد ، وان ظلت أرواحه خالدة . أما الضب « الونيكيفالوس » والسحلية « فارانوس انديكوس » ؛ والحية « اينجروس » فسوف تعيش الى الأبد ، لانها ستغير جلدها القديم على الدوام . « ولما سمع الغلامان هذا بكيا وندما أشد الندم على سلوكهما الأحمق فى عدم تلبية رغبة « كونوكونو ميانجى » واحضار النار له .

ويحكى « الأرواك » سكان غانا البريطانية أن الخالق هبط ذات يوم الى الأرض ليستطلع أحوال مخلوقه الانسان . ولكن الناس كانوا غاية فى الحمق ، الى درجة أنهم حاولوا أن يقتلوا الخالق . ولهذا فقد حرمهم الخالق الخلود ، ومنحه صنوف الحيوان التى تغير جلدها مثل الثعابين والسحالى والخنافس . وتحكى قبيلة « تاماناشير » ؛ وهى قبيلة هندية تسكن « أورينوكو » ، رواية مختلفة بعض الشىء عن الرواية السابقة . فهى تروى أن الخالق بعد أن مكث بعض الوقت بين الناس ، استقل قاربا ليعبر به الى الشاطىء الآخر من البحر المالح الشاسع الذى كان قد ركبه اليهم . ولم يكد يتجاوز الشاطىء حتى صاح بهم فى نغمة مختلفة وقال لهم : « انكم ستغيرون جلودكم » . وكان يعنى بهذا أن يقول لهم : « انكم ستجدون شبابكم كما تفعل الحيات والخنافس » . ولسوء الحظ أن كانت امرأة عجوز تستمع الى هذه الكلمات ، فصرخت فى نغمة ، ملؤها الشك ؛ ان لم تكن ملؤها السخرية ، وقالت « آه » . فتضايق الخالق كل الضيق ، وتغيرت نغمة صوته فى الحال وقال غاضبا : « انكم ستموتون » . وهذا هو سبب ابتلاء الناس بالموت .

ويحكى أهالى «نياس» ، وهى جزيرة تقع فى غرب «سومطرة» ؛أن كائنا بعينه أرسل من السماء الى الأرض التى كان قد تم خلقها ليضع عليها اللمسات الفنية الأخيرة . وقد كان ينبغى على هذا الكائن أن يكون صائما فى هذه الحالة. ولكنه لما لم يستطع أن يتحمل وخز الجوع ، فقد

آكل بعض الموز • وقد كان اختياره لهذا النوع من الطعام غير موفق ، اذ لو كان قد أكل من سرطان النهـــر ، لغير الناس جلودهم كما يفعل هذا الحيوان ، ولعاشوا الى الأبد نتيجة تجدد شبابهم على الدوام • ولكن حيث ان الكائن المعنى قد أكل ثمار الموز ، فقد ابتلى الانســـان بالموت نتيجة ذلك [1] • وتضيف رواية أخرى تروى عن أهالى جزيرة « نياس » كذلك ، أن « الحيات ، على العكس ، أكلت السرطان النهرى الذى يغير جلده ولا يموت وفقا لاعتقاد ســـكان « نياس » • ولهـــذا فان الحيات لا تموت كذلك ، بل تغير جلدها فحسب » ••

ويلاحظ أن خلود الحيـــات فى هذه الرواية الأخـــيرة يعزى الى أكلها سرطان النهر الذى يجدد شبابه كلما غير جلده ، وبذلك تعيش الى الأبد • وكذلك يعزى خلود السمك الصدفى الى السبب نفسه ، وذلك فى رواية « ساموائية » تحكى عن أصل الموت • ففيها يروى أن الآلهة عقدت مجلسا لتقرر مصير الانســـان • وأبدى أحدهم اقتراحا هو أن يغير الناس جلودهم كما يفعل السمك الصدفى وبذلك يتجـــدد شبابهم • ولكن الاله « بالسى » رأى ، على العكس ، أن يغير السمك الصدفى جلده فيتجـــدد شبابه على الدوام ، فى حين يحتفظ الانســـان بجلده حتى يهرم ويموت ، وبينما كانت المداولة تدور ، قبل أن ينعقـــد المجلس رسميا ، هطلت الأمطار لســـوء الحظ وعطلت مناقشة هـــذا الموضوع • وفى الوقت الذى أخذت الآلهة تجرى فيه لتبحث لهـــا عن مأوى من المطر ، ووفق على رأى « بالسى » بالاجمـــاع • ولهذا السبب فان السمك الصدفى ما زال يغـــير جلده حتى اليوم ، فى حين يعجـــز الانســـان عن فعل ذلك •

وهكذا يبدو لنا أن عددا غير قليل من الشعوب ، يعتقد أن هبـــة الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بســـيطة تتمثل فى تغيير

---

(١) من المعروف أن شجرة الموز الأم تنبت الى جانبها شجيرة قبل أن تموت . وقد أصبح الانسان مثل شجرة الموز بعد أن اكل منها هذا الكائن . فهو يترك أولادا من بعده وأما هو فيموت .   (المترجمة)

الجلد بانتظام فى فترات ثابتة ، كانت يوما ما فى متناول الجنس البشرى ، ولكنها تحولت عنه الى الكائنات الدنيئة ، نتيجة حدث غير سعيد ، فاكتسبتها نتيجة ذلك الحيات وسرطان النهر والسحالى والخنافس • على أن هناك شعوبا أخرى تعتقد أن الجنس البشرى كان يستحوذ بحق فى وقت ما على تلك الهبة التى لا تقدر بثمن ، ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز • « فالميلانيزيون » سكان « جزر البانك » ومثلهم سكان جزر « الهبريد الجديدة » يقولون : ان الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر على الاطلاق ، بل كان الناس يغيرون جلودهم حينما يهرمون ، كما تفعل الحيات وسرطان الماء ، وبذلك كانوا يستعيدون شبابهم • ثم حدث بعد مرور الوقت أن ذهبت امرأة عجوز الى النهر لتغير جلدها فى الماء • وهذه المرأة ، وفقا لما يقوله بعض هؤلاء السكان ، هى أم البطل الأسطورى « كات » ، فلما وصلت هذه المرأة الى النهر ، انتزعت جلدها القديم وألقت به فى الماء • ولكنها لاحظت ، أن جلدها اصطدم ، وهو يهبط الى قاع النهر ، بعصا • على أنها عادت بعد ذلك الى بيتها حيث كانت قد تركت ابنها • ولما أبصرها الابن رفض أن يعترف بها بوصفها أمه ، وصرخ فى وجهها قائلا : ان أمه كانت عجوزا ولا تمت لهذه المرأة الشابة الغريبة بصلة • فرجعت الأم الى النهر ، واستردت جلدها القديم ، لكى تطيب خاطر ابنها ، ولبسته • ومنذ ذلك اليوم كف الجنس البشرى عن أن يغير جلده ومن ثم أخذ يتعرض للموت •

ويحكى سكان « جزر شورتلاند » وبالمثل قبيلة « كاى » وهى قبيلة من « البابو » تسكن شمال شرق « غينيا الجديدة » ، حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن أصل الموت • فقبيلة « كاى » تحكى أن الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر ، ولكن الناس كانوا يغيرون جلودهم • فعندما كانت جلودهم القديمة ذات اللون البنى تتجعد وتصبح قبيحة الشكل ، كانوا ينزلون الى النهر ، ويخلعونها ، ويرتدون بدلا منها جلودا جديدة بيضاء تنطق بالشباب • وفى هذه

الايام كانت هناك جدة عجوز تعيش مع حفيدها . وفى يوم من الأيام ضاقت الجدة ذرعا بهرمها وذهبت لتستحم فى النهر ، وخلعت عنها جلدها الذابل ، وعادت الى القرية جديدة كل الجدة فى جلدها القشيب وبهذه الصورة المتغيرة صعدت السلم ودخلت البيت . وعندما أبصرها حفيدها على هذا النحو بكى وصرخ . وأبى أن يصدق أنها هى بعينها جدته . وفشلت كل محاولاتها معه فى تهدئته واقناعه بأنها جدته . وأخيرا عادت فى غضب الى النهر واصطادت جلدها القديم المجعد ولبسته ، ورجعت الى بيتها عجوزا شمطاء قبيحة الشكل . وسعد الولد برؤية جدته مرة أخرى ، ولكنها قالت له : « ان الجراد يغير جلده ، أما نحن البشر فسوف نموت من الآن فصاعدا » . وقد ابتلى البشر بالموت حقا منذئذ . ويحكى سكان « جزر أدميرالتى » هذه الحكاية بعينها مع تغيير طفيف . فهم يقولون انه كان فى سالف الزمان امرأة عجوز ضعيفة ، وكان لها ولدان خرجا ليصطادا ، بينما ذهبت هى لتستحم . وهناك فى الماء خلعت جلدها القديم وارتدت جلدا جديدا ، ورجعت الى بيتها شابة كما كانت منذ زمن طويل . فلما عاد ولداها من الصيد وأبصراها دهشا لمنظرها ، فقال أحدهما للآخر : « انها أمنا » فرد عليه الآخر قائلا : « ربما كانت أمنا ، ولكننى سأتخذها زوجة لى » . وسمعت الأم هذا الحديث مصادفة ، فسألتهما قائلة : « ماذا كنتما تقولان الآن ؟ » . فرد عليها الولدان قائلين : « اننا لم نقل شيئا سوى أنك أمنا » . فقالت الأم : « انكما تكذبان ، فلقد سمعت حديثكما . ولو أننى ملكت من الأمر شيئا لكنا نكبر فى السن — رجالا ونساء — ثم نغير جلودنا فنعود فتيانا وصبايا . ولكنكما شئتما أن تتبعا أهواءكما ، ولذلك فسوف نكبر ونهرم ثم نموت » . وعند ذاك عادت الأم الى الماء وأحضرت جلدها القديم وارتدته فارتدت امرأة عجوزا . ولذا فنحن سلالتها نكبر ونهرم . ولولا هذان الولدان المتهوران لما كانت هناك نهاية لأيامنا ، ولعشنا الى الأبد .

فاذا ابتعدنا عن « جزر البانك » . فاننا نجد أن قبيلة « توكولاوى »

وهى قبيلة جبلية تسكن « سيليبس الوسطى » تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة الى حد كبير • وتروى هذه الحكاية ــ وفقا لما ذكره المبشرون الهولنديون الذين اكتشفوها منتشرة على نطاق واسع ــ على النحو التالى : كانت للناس فى قديم الزمان المقدرة على تغيير جلودهم على نحوما تفعل الحيات وبراغيث البحر (الجمبرى) ، ومن ثم كانوا يستعيدون شبابهم دائما أبدا • وكانت بينهم امرأة عجوز تعيش مع حفيدها • وذهبت الجدة لتستحم ذات مرة ، وخلعت جلدها القديم ، وعلقته على شجرة ، وارتدت جلدا جديدا • ثم عادت الى بيتها وقد استعادت شبابها • ولكن حفيدها لم يستطع أن يتعرف عليها ، ومن ثم لم يكترث بمقدمها ، وأخذ يقول لها : « انك لست جدتى ، لأن جدتى كانت عجوزا وأنت امرأة شابة » • فعادت المرأة توا الى الماء واستعادت جلدها القديم وارتدته • ومنذ ذلك اليوم لم تعد للناس المقدرة على استعادة شبابهم ، ومن ثم صاروا يموتون •

وبينما يعتقد بعض الناس أن الجنس البشرى كان خالدا فى الأزمنة الأولى بفضل المقدرة التى اكتسبها على تغيير جلده بانتظام ، فان هناك آخرين يعزون هذه الخاصية الى تعاطف بين الانسان والقمر • فالانسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت الى غير نهاية ، مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله •

فالانسان وفقا لوجهة النظر هذه ، يموت بحق ، ولكنه سرعان ما يبعث فيما يبدو بوجه عام بعد موته بثلاثة أيام ، وهى المدة التى تفصل بين اختفاء القمر القديم وظهور القمر الجديد ، فقبيلة « منتراس » أو « مانتراس » الهمجية التى تعيش منعزلة فى أحراش شبه جزيرة الملايو ، تزعم أن الناس فى العصور الأولى لخلق العالم لم يذوقوا طعم الموت • بل كانوا يتضاءلون مع تضاؤل القمر ، ثم تعود أجسامهم الى وضعها الطبيعى مع اكتمال نموه • ولم يكن السكان يتحققون من تعدادهم الذى كان يتزايد تزايدا مخيفا • ولكن ابن

الرجل الأول لفت نظر أبيه الى هذا الأمر ، وسأله عما يجب فعله ازاء هذا التزايد المطرد . ورد الرجل ذو الروح البسيطة الطيبة قائلا : « دع الأمور تسير على ما هى عليه» .ولكن الابن الثانى الذى كان ينظر الى هذا الأمر نظـرة أكثر « مالتوسيانية »[1] من ذلك قال لأبيه : « بل لنترك الناس يموتون كما تموت شجرة الموز ، تاركة ذريتها تعيش من بعدها» . وعند ذاك طرح الأمر على اله العالم السفلى الذى تبنى رأى الابن الثانى . ومنذئذ لم يعد الناس يستعيدون شبابهم من جديد كما يفعل القمر ، بل أصبحوا يموتون كما تموت شجرة الموز .

ويرى أهالى « جزر كارولين » أن الناس لم يكونوا يعرفون الموت فى الأزمنة القديمة ، أو هم بالأحرى كانوا ينظرون اليه بوصـفه فترة نوم وجيزة . فالناس يموتون فى اليوم الذى يصبح فيه القمر محاقا ، ثم يعودون الى الحيـاة مرة أخرى مع ظهور القمـر الجديد ، وكأنهم يستيقظون بعد غفوة يستعيدون بعدها نشاطهم . على أن روحا شريرا دبر بعد ذلك مؤامرة لكى لا يستيقظ الناس قط عندما يغفون اغفـاءة الموت . وقد حكت قبيلة «ووتجوبالوك» وهى قبيلة تسكن جنوب شرق استراليا ، أنه عندما كانت الحيوانات جميعا فى هيئة رجال ونسـاء ، وكان بعضها يموت كان القمر يصيح بها قائلا : « هيا استيقظـوا » . وعند ذاك يعود النـاس الى الحياة مرة أخرى . على أنه حـدث ذات مرة أن قال رجل هرم : « بل ليمت الناس الى الابد » . ومنـذ ذلك الوقت لم يعد أحد الى الحياة بعد الموت ، فيما عدا القمر الذى يموت ويحيـا حتى يومنـا هذا . ويروى عن قبيلتى « أوننتماتجـيرا » . و « كايتش » وهما قبيلتان تسكنان وسط استراليا ، أنهم تعودوا أن يدفنوا موتاهم اما فى الأشـجار أو تحت الأرض ، وبعـد ثلاثة أيام يعود هؤلاء الموتى بانتظام الى الحياة . كما تحكى قبيلة «كايتش» عن

---

(١) نسبة الى « مالتوس » الذى عاش فيما بين (١٧٦٦ — ١٨٣٤م) . وهو صاحب النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وبأن النسل يجب ان يحدد . (المترجمة)

انقضاءهذه الأيام السعيدة ، فتقول : ان هذا حدث نتيجة خطأ ارتكبه رجل ينتسب الى « الكروان » الطـــوطم ؛ فقد أبصر هذا الرجل بعض الرجال الذين ينتسبون الى « الكنغر الصغير » الطوطم ، وهم يشرعون فى دفن رجل من جماعتهم • ولأمر ما استشاط الرجل الأول غضبا ، وركل الجسد فدفعه الى البحر • وكان من الطبيعى ألا يعــود هذا الرجل الى الحيــاة بعــد ذلك • وهذا هو السبب فى أن موتاهم لا يعودون الى الحياة بعد موتهم بثلاثة أيام كما تعودوا أن يفعلوا هذا من قبل •

وعلى الرغم من أن هذه الحــكاية التى تحكى عن أصــل الموت ، لا تذكر شيئا عن القمر ، فانه من المحتمل ، اذا ما قارنا هذه الحكاية بما سبق من حكايات،أن تكون الأيام الثلاثة التى تعود الميت أن يرقدخلالها فى القبر قبل أن يعود الى الحياة ، هى بعينهــا الأيام الثــلاثة التى « يختفى فيها القمر فى كهفه الشاغر عندها يصبح محاقا » • وبالمثــل ربط « الفيجيون »[1] بين احتمال خلود الانسان وأطوار نمو القمر ، وان لم يذكروا أن الانسان ظل يتمتع بالخلود بحق حقبة من الزمن • فهم يذكرون أن الهين من الآلهة القديمة ، وهما الاله « الفأر » والاله « القمر » تناقشا فى أمر نهاية الانسان على وجه التحديد • فقال الاله « القمر » : لندع مصير الانسان يكون مثل مصيرى ، فيختفى فترة ثم يعود الى الحياة مرة أخرى » • فرد عليه الاله «الفأر» قائلا : « بل ندعه يموت كما تموت الفئران » • وقد كان رأى الاله « الفأر » هو الفائز •

ويحكى « الأوبوتيون » سكان الكنغو كيف أن الانســان فاتته هبة الخلود ، فى حين حصل عليها القمر ، فيقــولون : ان الاله الذى يطلقون عليه اسم « ليبانزا » أرسل ذات يوم فى طلب سكان القمــر وسكان الأرض • فخف سكان القمر الى الاله ، ومن ثم فقد كافأهم الاله

---

(١) هم سكان جزر « فيجى » وهى مجموعة جزر فى المحيط الهادى . (المترجمة)

جزاء امتثالهم السريع لأمره ، فلقد قال للقمر : « انك لن تموت أبدا ، لأنك جئت الى توا عندما ناديتك ، ولن تموت فى كل شهر سوى يومين ، لم أقصد بهما الا راحتك ، ثم تعود بعدهما الى الحياة أكثر بهاء » . فلما مثل أهل الارض بعد ذلك أمام الاله « لبيانزا » تحدث اليهم فى غضب وقال : « أما أهـل الأرض ، فلأنكم لم تلبوا ندائى توا . فانـــكم ستموتون حتما ، ولن تعودوا الى الحياة مرة أخرى ، الا عندما تحدثون الى » .

ولا يربط « البأهناريون » ســكان شرق « كوشنصين »[1] بين خلود الانسان البدائى وأطوار نمو القمــر ، كمـا أنهم لا يعزونه الى تغيير الانسان لجلده ، بل يعــزونه الى قــدرة شجرة معينــة عــلى الشفاء . فهم يقولون : انه حينما كان الناس فى بداية الحياة يموتون ، كانوا يدفنون عند جذع شجرة تسمى « لونج بلو » ، ثم يبعثــون فى العادة بعد مضى وقت ، لا فى صورة أطفال بل فى صورة رجال ونســاء مكتملى النمو . وبذلك عمرت الأرض بالناس فى مدة وجيزة ، وكانوا جميعا يسكنون بلدة واحدة يشرف عليها الأبوان الأولان .

وقد أخذ عدد الناس يتزايد تزايدا بالغـا الى درجة أن ســحلية بعينها لم تكن تزحف على وجه الأرض دون أن تطأ قدم أى فرد ذيلها ، فتضايقت وقدمت لحفارى القبور نصيحة غادرة وقالت لهــم : « لماذا تدفنوا الموتى عند شجرة « لونج بلوو » ؟ ادفنوهم عند شجرة « لونج خونج » فلا يعودون الى الحياة مرة أخرى . أتركو هم يموتون ميتة واحدة وكفى » وعمل حفارو القبور بهذه النصيحة ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأموات الى الحياة مرة أخرى .

ونلاحظ فى هذه الحكاية الأخيرة ، كمـا هو الحــال فى كثير من

---

(١) هو اقليم دلتا نهر ميكونج الذى يقع فى جنوب فيتنام وينتمى هذا الاقليم اليوم الى كمبوديا . (المترجمة)

الحكايات الافريقيــة ، أن ســبب ابتــلاء الانســان بالموت يرجع الى السحلية . ويمكننا أن نحدس أن السبب فى نســبة هذا العمــل الذى يتسم بالغدر الى السحلية ، هو أن السحلية شأنها شــأن الثعبــان ، تغير جلدها فى أوقات معينة من الســنة ، الأمر الذى دعا الانســان البدائى الى أن يعتقد أن السحلية ، مثل الثعبان ، يتجدد شبابها بتغيير جلدها ، ومن ثم فهى تعيش الى الأبد . وعلى ذلك ، فربما كان الدافع وراء نشأة الأســاطير التى تحكى كيف أصبحت الحيــة أو الســحلية

الرسول الشرير الذى حمل رسالة الفناء للانسان ، يرجع الى فــكرة قديمة عن غيرة بعينها وتنافس بين النــاس والمخــــلوقات التى تغير جلدها،وبصفة خاصة الحيات والسحالى،بل ربما افترضنا أن أى حكاية نشأت حول هذا الموضــوع ، كانت تصــور الصراع بين الانســان والحيوان الذى ينازعه الحصول على الخلود ، وهو صراع تم النصر فيه ، سواء كان ذلك نتيجة خطأ أو بسبب تدبير مكيدة ، للحيــوانات التى أصبحت من بعده خالدة . أما الانسان فقد صبت عليــه لعنــة الابتلاء بالموت .

٤ ــ الحكاية التى جمعت بين الرسالة المحرفة وتغيير الجلد :

تجمع بعض الحكايات التى تحكى عن أصل الموت ، بين موضوع الرسالة المحرفه وموضوع تغيير الجلد . فان «الجالا» الذين يسكنون فى شرق أفريقيا يعزون فناء الانسان وخلود الحيات الى خطأ ارتكبه طائر معين ، أو نتيجة مكيدة منه ، خحرف لذلك رسالة الخلود التى عهد اليه بها الاله لكى يبلغها للانسان . والطائر الذى أخطأ هذا الخطــأ الذريع فى حق الانسان ، ذو لون أســود أو أزرق داكن ، وله بقعـــة بيضاء على كل من جناحيه ، كما أن له تاجا على رأسه . وهو يحط على رأس قمم الأشجار ويعول عويلا شبيها بثغــاء الشــاة ، ومن ثم فان « الجالا » سمونه « هولاواكا » أى « شاة الاله » وهم يفسرون مايبدو على هذا الطائر من حزن من خلال الحكاية التالية .فقد أرسل الاله هذا

الطائر ذات مرة الناس ليخبرهم أنه لا ينبغى لهم أن يموتوا ، وانما ينبغى أن يغيروا جلودهم عندما يبلغ بهم الكبر والوهن مبلغهما ، وبذلك يتجدد شبابهم . ولكى يضفى الاله على هذه الرسالة صفة الشرعية ، وضع فوق رأس هذا الطائر تاجا ليكون علامة على المهمة السامية التى كلفه الاله بها . وطار الطائر على الفور ليبلغ الانسان نبأ الخلود السعيد . على أنه لم يكن قد طار الى مسافة بعيدة عندما صادف حية تأكل جيفة . فنظر الطائر الى الجيفة بشهية بالغة وقال للحية : « اعطينى شيئا من لحم الجيفة ودمها وأنا أفشى لك برسالة الاله الى البشر » . فردت الحية عليه بجفاء وقالت له : « اننى لا أرغب فى سماع فحوى هذه الرسالة » . ثم استأنفت أكلها ، ولكن الطائر أخذ يلح عليهافى أن تستمع الى الرسالة حتى وافقت فى كل شىء من التردد . عند ذلك قال الطائر : « ان الرسالة كالآتى : اذا تقدم السن بالانسان فانه سيموت ، فى حين أنك عندما تهرمين فستغيرين جلدك وتجددين شبابك » . وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون بعد أن يبلغ بهم العمر مبلغه ، فى حين أن الحيات بتجدد شبابها على الدوام بتغيير جلدها . وقد عاقب الاله هذا الطائر المهمل أو الأحمق بسبب تحريفه البالغ للرسالة ، وذلك بأن ابتلاه بداء أبدى وبيل ما زال يعانىمنه حتى الآن . وهذا هو السبب فى أن الطائر يقف فوق قمم الأشجار ويعول هذا العويل . وبالمثل يحكى «الميلانيزيون» الذين يسكنون ساحل«شبهجزيرة الغزال » فى نوبريتين » أن « توكامبينا » الروح الطيب كان يحب الناس ويود أن يجعلهم خالدين . فاستدعى أخاه « توكورفوفو » وقال له : « اذهب الى الناس وافش لهم سر خلودهم . قل لهم أن يغيروا جلودهم مرة فى كل عام ، وبذلك يتحصنون ضد الموت ، لأن حياتهم ستجدد بذلك على الدوام وعليك أن تخبر الحيات أنها ستموت حتما من الآن فصاعدا » . على أن كورفوفو » لم يحسن أداء الرسالة ، فقد أمر الناس أن يموتوا ، وأفشى فى الوقت نفسه سر الخلود للحيات . ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنس البشر فانيا ، فى حين أصبحت الحيات تغير

جلدها مرة فى كل عام ، ولهـذا فانهـا تعيش الى الأبد • وتروى فى « أنام »•(١) حكايات عن أصل الموت شبيهة بالحكايات السابقة • فهناك يقول الأهالى : ان « نحبك هوانج » أرسل رسالة من السماء الى الناس يقول لهم فيها : انه يتحتم عليهم أن يغيروا جلودهم عندما يهرمون ، وأن يعيشوا بهذه الوسيلة الى الأبد ، أما الحيات فيتحتم عليها أن تفنى عندما تهرم • فلما هبط الرسول الى الأرض أبلغ الناس الرسالة صحيحة بحق • فلقد قال لهم : « ان الانسان سوف يغير جلده عندما يهرم ، أما الحيات فسوف تموت عندما تكبر ، وتوضع فى اللحد» والى هذا الحد سارت الأمور على خير ما رام • ولكن لسوء الحظ ، أنه كان هناك عدد من الثعابين الصغيرة يستمع لهذا القول • فلما علمت الثعابين أن اللعنة قد حلت ببنى جنسها تملكها الغضب وقالت للرسول : « أعد كلامك واعكس العبارة والا لدغناك » • فخاف الرسول وأعاد العبارة وغيرها على النحو التالى : « اذا كبرت الحيات فانها ستغير جلدها ، أما الانسان فسوف يموت عندما يكبر ويوضع فى اللحد » • وهذا هو السبب فى أن كل المخلوقات تفنى فيما عدا الحيات ، فانها تغير جلدها عندما تكبر ، ولهذا فهى تعيش الى الأبد •

خاتمة :

وهكذا نرى أن الفليسوف البدائى ــ قياسا على حكايات القمر أو حكايات الحيوان الذى يغير جلده ــ أشار الى أن كائنا طيبا قد وعد أبناء الجنس البشرى فى بداية الحياة بهبة القدرة على تجديد شبابهم على الدوام ، أو أنهم كانوا يتمتعون بهذه النعمة حقا • ولولا حدوث جريمة أو حادثة أو خيانة لظلوا يتمتعون بهذه النعمة حتى اليوم• أما الشعوب التى تربط فكرة خلود الجنس البشرى بتغيير الحيات أو السحالى أو الخنافس أو ما أشبه ذلك لجلودها فهى تنظر بطبيعة الحال الى هذه الحيوانات بوصفها منافسا بغيضا سلبهم الارث

---

(١) يعد هذا الاقليم اصل فيتنام . (المترجمة)

الذى شاء الاله ، أو شاءت الطبيعة أن تمنحنا اياه حقا • ومن ثم فان هذه الشعوب تحكى حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبرت مكيدة لكى تحرم الانسان من هذا الحق الذىلا يقدر بثمن • وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشارا كبيرا فى أنحاء العالم، وليس غريبا أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية • ويبدو أن قصة سقوط الانسان التى تروى فى الفصل الثالث من سفــر التكوين ؛ تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية ، فهى فى حاجة الى قليل من الاضافة حتى يكتمل تشابهها بمثيلاتها التى لا تزال القبائل البدائية تحكيها فى بقاع كثيرة من العالم • فالجزء المحذوف فى الحــكاية العبرية ، وربما كان الجزء الوحيد ؛ هو الذى يتمثل فى ســكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحيــاة ، وما نتج عن ذلك من حصــول هذا الحيوان الدنىء على الخلود • على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة فى الحكاية العبرية ، فالاتجاه العقلانى الذى يبدو فى ثنايا قصة الخلق العبرية ، ذلك الاتجاه الذى سلبها كثيرا من الملامح التى تزين الرواية البابلية المطابقة لها ، أو تشوها ؛ قد شــكل عقبة فى سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة الى الحية • وقد اســتبعد مؤلف القصة فى صيغتها الأخيرة عاقبة الاساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة ، هى حذف هذه الحادثة كليــة من القصــة العبرية • ومع ذلك فان هذه الفجوة الواسعة التى أحدثها الكاتب فى القصــة العبرية نتيجة تطفله ، لم تغب عن الدارســين الذين أخذوا يجيلون النظر ؛ فى غير جدوى ، فى الدور الذى كان يجب أن تلعبــه الحية فى القصة العبرية • واذا كان تفسيرى للقصة العبرية صحيحــا فاننى أدعه للمنهــج المقارن لكى يسد الفجــوات فى التراث الفنى القديم ، بعد أن مرت عليه آلاف السنين ولكى يحتفظ له ، على ما فيه من سذاجة بدائيــة ، بالألوان البربرية المرحة التى خففت من حدتهــا أو محتها يد الفنان العبرى الماهرة •

الفصل الثالث

علامة قابيـــل

نقرأ فى سفر التكوين أن « قابيل » لفظه مجتمعه عندما قتل أخاه هابيل وأصـــــبح بعد ذلك هائما شريدا على وجه الأرض • ولما كان يخشى من أن يقتله أى فرد يقابله ، احتج على الرب لمـــا آل اليه حظه العثر • وأشفق عليه الرب كل الاشفاق ، الى درجة أن « جعــل الرب لقابيل علامة لكى لا يقتله كل من وجده »[1] •

فما العلاقة التى ميز بهـــا الرب أول قاتل علـــى وجه الأرض ؟ أو ما الاشارة التى حددها له ؟

من المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتلة • وعلى الرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نأمل فى أن نحدد الشكل الحقيقى لهذه العــلامة أو الاشـــارة ، فان الموازنة بين العادات التى يتبعها القتلة فى بقاع أخرى من العالم ، ربما أعانتنا على تفهم ملامحها العامة على الأقل •

لقد رأى « روبرتسون سميث » أن تلك العــلامة التى نتســـاءل عنها ، كانت علامة القبيلة ، وهى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الاشـــارة الى أنه ينتمى الى جمـــاعة يمكن أن تثأر لقتـــله • ومن المؤكد أن مثـــل هذه العــلامة مألوفة بين الشعوب التى احتفظت بالنظام القبلى • ومثال ذلك ، هنـــاك شـــعار رئيسى تعرفه القبائل البدوية التى تعيش فى العصر الحاضر يتمثل فى

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ •

طريقة معينة فى تصفيف شعورهم . وفى كثير من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة فى افريقيا ، يكون شعار القبيلة وشما أو « شلخا » يحفر فى عضو من أعضاء الانسان.ومن المحتمل أن تكون وظيفة هذه الشعارات هى حماية الفرد الذى ينتمى الى قبيلة ما على نحو ما افترض « روبرتسون سميث » . على أنهينبغى لنا أن نتذكر ، من ناحية أخرى ، أن هذه الشعارات ، على العكس ، ربما زادت من خطورة موقف الفرد اذا ما كان فى بلد معاد لقبيلته ، ذلك لأنها تبرزه بوصفه شخصا معاديا لهم . على أننا اذا سلمنا بأن مهمة هذه الشعارات هى حماية حاملها ، فما زال هذا التفسير ، اذا ارتضيناه بالنسبة لعلامة « قابيل » لا يتلاءم مع موقف « قابيل تماما ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة . فاذا كانت العلامة من شأنها أن تحمى كل فرد من أفراد القبيلة ، سواء أكان قاتلا أم غير قاتل ، فان حوادث قصة قابيل فى مجموعها ، تنحو الى أن تبرز لنا أن علامة قابيل لم يكن يحملهاكلفرد من أفراد جماعة « قابيل ، وانما كانت خاصة بقابيل وحده . ومن ثم فنحن مضطرون لأن نبحث عن تفسير آخر من زاوية أخرى .

فنحن نخلص من حكاية « قابيل » نفسها الى أن قابيل كان معرضا لأخطار أخرى خلاف كونه معرضا لأن يقتله أى فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه . فلقد قال الرب : « ماذا فعلت . صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض . فالآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك . متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها . تائها وهاربا تكون فى الأرض »[1] ..

ومن هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل ، فقد لوث دم القتيل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها . ومن ثم كان الاعتقاد فى أن القاتل قد بث السم فى منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقدعرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر .

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٠ الى ١٢ .

ومن المسلم به ، بناء على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذى يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام • انه أصبح أشبه بالمبتلى بالطاعون ؛ ومحاطا بجو من السموم ، ومصابا بعــدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده • وفى هذه الحال يمكننا أن نفهم نظاما ما معينه فرضه قانون « أتيكا » ؛ فالقــاتل الذى نفى من « أتيكا » . واتهم فى أثناء غيابه بتهمة أخرى ، كان يسمح له بالعودة الى بلده لكى يدافع عن نفسه • ولكنه لا يسمح له بأن تطأ قدمه الأرض ، وانما عليه أن يدافع عن نفسه وهو على ظهر الســفينة • وحتى هذه السفينة لا يسمح لها بأن تلقى مرساها أو تنزل سلمها ، كما لا يسمح للقضاة بأن يتصلوا بالمذنب ، وانما عليهم أن يصدروا حكمهم جالسين عند الشاطىء أو واقفين عليه • ومن الواضح أن الغرض من هذا النظام هو وضع القاتل فى الحجر الصحى • حتى لا يصيب « أتيكا » بآفة ، اذا ما مست قدماه ترابها ، أو حتى اذا اتصل بها بطريق غير مبــاشر عن طريق مرساة السفينة أو سلمها • ومن أجل هذا السبب نفسه ؛ فان مثل هذا الرجل اذا ما كان عثر الحظ ، وقذف به البحر ، فى أثناء ابحــاره على شاطىء البلد الذى ارتكب فيه جرمه ؛ فانه ، وان كان يسمحله حقا أن ينصب خيمته على الشاطىء حتى تفد سفينة وتقله معها ؛ الا أنه كان يتحتم عليه أن يجلس على الشاطىء ويدلى قدميه فى الماء طوال الوقت . حى يبطل مفعول السم الذى يظن أنه غرســه بقــدميه فى التربة اذا ما مستها قدماه ، أو هو على الأقل يخفف بذلك من تأثيره •

ونظام الحجر الصحى الذى فرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، له ما يناظره عند أهالى جزيرة « دوبو » البدائيين ، وهى جزيرة تقع فى أقصى جنوب شرق « غينيا الجديدة » ، فهؤلاء مازالوا يفرضــون العزل على القتلة حتى اليوم • وقد كتب حول هذا الموضوع مبشر أقام فى هذه الجزيرة سبعة عشر عاما ، فقال : « ان الحرب يمكن أن تقــوم ضد أقرباء الزوجة • فاذا قتل شخص فى هذه الحرب ، فانه لا يجوز

أكل لحمه • فاذا قتل شخص أحد أقرباء زوجته ، يحرم عليه بعد ذلك أن يتناول طعاما أيا كان نوعه أو أية فاكهة من قرية زوجته • ولا يجوز لأحو أن يعد له الطعام سوى زوجته • فاذا خبت النار عندها وهى تطهو لزوجها الطعام ، لا يجوز لها أن تحضر شعلة من النار من أى بيت من بيوت قريتها • وعقوبة مخالفة هذا التحريم هو موت الزوج عن طريق تسميم دمه • ويكون التحريم أشد قسوة من ذلك ، اذا ما قتل الرجل أحد أقربائه •

فعندما قتل الزعيم « جاجانومور » أخاه (وهو وفقا لاصطلاحهم ابن خاله) لم يسمح له بالعودة الى قريته ، وكان عليه أن يشيد قرية يسكن فيها ، وأن يكون له وعاء خاص به من نبات القرع مطلى بالجير ، كما يكون له سكين فيها ، وأن يكون له سكين وزجاجة ماء وفنجان ، ومجموعة من أوعية الطبخ • كما عليه أن يحصل على شراب جوز الهند وعلى الفاكهة من مكان آخر غير قريته • وكان عليه أن يظل موقدا ناره أطول وقت ممكن ، فاذا ما انطفأت لا يمكنه أن يعيد ايقادها من نار أخرى ، بل عليه أن يحصل على شعلة النار عن طريق قدح الزند • فاذا خالف الزعيم هذه المحرمات ، فمن الممكن أن يبث دم أخيه القتيل السم فى دمه ، فيتورم جسمه ويموت ميتة رهيبة •

من خلال هذه الأمثلة نرى أن أهالى جزيرة « دوبو » يعتقدون أن دم القتيل يفعل السم فى جسم القاتل ، وذلك اذا ما جرؤ القاتل على أن تطأ قدمه قرية القتيل ، أوحتى ان اتصل بها بطريق غير مباشر • فعزله عن جماعته وقاية يحرص عليها لصالحه أكثر من حرصه عليهم لصالح الجماعة التى ينعزل عنها • ومن المحتمل أن النظام الذى يفرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، يمكن أن يفسر على هذا النحو • ومن المحتمل عى أى حال أن الناس كانوا يعتقدون فى وجود الخطر المتبادل ، وبتعبير آخر ، أنهم كانوا يعتقدون أن كلا من القاتل ومن

يتصل به معرض لأن يصاب بتسمم دمه الذى يحدث عن طريق العدوى • ومن المؤكد أن «الاكيكويو» الذين يسكنون «أفريقيا الشرقية البريطانية» يعتقدون فى أن القاتل يمكن أن يصيب غيره بعـــدوى ميكروب كريه • فهم يظنون أن القاتل اذا نام فى قرية وتنـــاول الطعـــام مع عائلة من العائلات فى كوخها ، فانه يصيب الشخص الذى تناول الطعـــام معــه بدنس (ثاهو) الأمر الذى يهدد العائلة بحدوث كارثة ، ما لم يتمكن الطبيب من ازالة الدنس فى حينه • فالجلد الذى ينام عليه القـــاتل يمتص ما ابتلى به من دنس ، ومن ثم فهو يعرض من ينام عليـــه بعد ذلك للاصابة بهذا الدنس ولهذا فان العائلة تستدعى الطبيب لكى يطهر الكوخ وسكانه •

وكذلك « يعد القاتل » عند المغاربة سكان مراكش « شخصا نجسا على نحو ما ، وهو يظل هكذا سائر سنى حياته • فالسم ينضـــج من تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يده ، يصـــاب بداء وبيل ، كما أن لحم الحيوان الذى يقوم بذبحه لا يعـــد صالحا للأكل ، وبالمثل يشارك فى أكله • فاذا وفد على مكان تحفر فيه بئر ، فان المياه تتســـرب فى باطن الأرض فى الحال • وقد أخبرنى أهالى منطقـــــة « الحياينة » فى بلاد المغرب ، أن القاتل لم يكن يسمح له أن يسير فى حقول الخضر ، أو يدخل حدائق الفاكهة ، أو أن تطأ قدمه مكان درس الحنطة أو يدخل مخزن الغلال أو أن يسير بين الخراف • والقـــاعدة المألوفة ، وان كانت لا تتبع بشكل عام ، الا يقوم القاتل بذبح ضحية عيد الأضحى بنفسه • وهناك تحريم مشـــابه بهـــذا تلتزم به بعض القبائل التى يتحدث أغلبها اللغة البربرية ، وهو تحريم يفرض على من يقتل كلبا ، اذ أن الكلب من وجهة نظرهم حيوانا نجسا ، وكل نقطة من الدم تخرج من جسم الكلب تعد نجسة ومأوى للجن •

على أن دم هابيل فى القصة التورانية ليس هو الشىء الوحيد الذى شخصه القاص • فاذا كان قد صور الدم يصرخ صراخا عاليا ، فقـــد صور الأرض فاغرة فاها لتستقبل دم الضحية • وفى ملحمة الاليـــاذة

شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ؛ اذ صور الأرض تشرب من دم أغاممنون القتيل • ولكن خلع الصفات الانسانية على الأرض يمتد خطوة أبعد من ذلك فى قصة سفر التكوين ؛ ذلك أن « الأرض أحلت اللعنــة بالقاتل » كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها، لأنه قدر له أن يصبح هائما شريدا على وجه الأرض • والمقصود بذلك فيما يبدو هو أن ارض ، وقد تلوثت بدم القتيل واســتاءت لجريمــة الدم ؛ أبت أن تتيح للحب الذى بذره المجرم أن ينمو ويحمــل ثمارا ؛ بل انها طردت القتيل من الارض الخصبة التى شب عليها من قبــل ، وأخرجته الى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعــام • وليست فكرة أن الأرض كائن حى يصـــارع ضد ما يرتكبــه ســكانها من اثم ويطردهم بازدراء من أحضانها ، غريبة فى العهــد القــديم • فنحن نقرأ فى ســفر الأحبار « أن الأرض تقذف ســكانها » اذا هم دنسوها كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيرا رهيبا من ألا يحافظوا على شريعة الرب وأحكامه : « فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم اياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم »[1] •

ويبدو أن الاغريق كانوا يصطنعون مثــل هذه الأفكار عن تلوث الأرض بدم القتل المسفوح ، أو بدم الأقرباء بصفة عامة ، فقد حكى فى تراثهم كيف أن « الخاميون » كان يطارده شــبح أمه « ايريفلى » التى قتلها ؛ فهام علــى وجهــه فى الأرض فى غير راحة ؛ حتى لاذ فى النهاية بنبوءة معبد « دلفى » • وهنــاك أخبرته الكاهنة أن « المكان الوحيد الذى لن يطارده فيه شبح أمه « ايريفيلى » ؛ هو أكثر الأماكن حداثة ؛ وهو المكان الذى عراه البحر من بعد أن ســفك دم أمه » • أو أن الكاهنة أخبرته وفقا لما ذكره « توســيديد » : « أنه لن يتخلص من فزعه الا اذا عثر على البلد الذى لم تكن قد أشرقت عليه الشمس عندما قتل أمه ، وكان مغمورا بالمياه حتى ذلك الحين ، فيســكنه ، لأن سائر بقاع الأرض قد تلوثت بجريمته » • فرحل « الخاميون » مقتفيا أثر الطريق الذى أخبرته به النبوءة حتى اكتشف عنــد منبــع نهــر

---

(1) انظر سفر الأحبار (اللاويين) ١٨ : ٢٨ •

« أشيليوس » جزر « ايخيناديان » الصغيرة العارية التى قيــل : ان النهر قد صنعها من الطين الذى جرفه من شواطئه بعد أن اقترب الآثم جريمتــه ، فاتخذ القاتل هذه الجزر مأوى له • ووفقــا لرواية أخرى للأسطورة ، استقر القاتل بعض الوقت فى وادى « بسوفيس » المرتفع الأجرد الذى يقع بين جبال أركاديا المهيبة • ولكن حتى هذه الجــزر رفضت أن تقدم خيراتها للقاتل ، ومن ثم اضطر أن يستأنف تجــواله المضنى كما فعل قابيل •

والاعتقاد فى أن الأرض ذات الوهية قوية ، يدنسها ويسىء اليهــا دم الانسان المسفوح ، ومن ثم يتحتم أن تقــدم لها التضحيات حتى تهدأ ، عقيدة تنتشر ، أو كانه تنتشر حتى زمن قريب بين بعض قبــائل « السنغال الأعلى » ، التى تكفر حتى عن الجراح التى انسـكب الدم منها ، دون أن يفضى هذا الانسكاب الى الموت • ففى اقليم « البوبو » يقدم القاتل شاتين وكلبا وديكا لزعيم القرية الذى يقدمها بدوره ضحية للأرض ، بأن يذبحها ويربطها فى خشــبة يثبتها فى الأرض • أما أسرة القتيل ، فلا يقدم لها شىء • وبعــد هذا يأخذ أهالى القــرية ومعهم الزعيم ، نصيبهم من الضحية ، ويستثنى من ذلك أسرة القاتل وأسرة المقتول • أما اذا حــدث شــجار بين بعض أفراد « لبوبو » ، وجرح بعضهم جراحا لم ينسكب منها الدم ، فانهم لا يقدمون ضحية عند ذاك • أما اذا انسكب الدم ، واستاءت الأرض لمرآة ، لزم تقديم الضحية لها حتى يهدأ غضبها ، فيقدم المذنب لزعيم القرية نعجة وألف محارة [1] • أما النعجة فيقدمها الزعيم ضحية للأرض ، وأما المحار فيوزعه على أكبر رجال القرية سنا ، كما يوزع عليهم لحم النعجة بعد أن يقدم للأرض • وأما أهل القتيل فيهملون كلية فى هذا الاحتفال ، ولا يقدم اليهم شىء ، وهو تصرف منطقى لأبعد حد ، فليس الغرض من هذه الطقوس تعويض أهل القتيل على حساب القاتل ، بل الغرض منه تهـدئة ســورة غضب

---

(١) صدفة صفراء كانت تستخدم كعملة وبخاصة فى افريقيا وآسيا .
(المترجمة)

الأرض ، تلك القوة الالهية الجبارة التى استاءت لمنظر الدم المسفوك • ومن ثم فان الطرف الذى لحقت به الاساءة ، لا يمنح شيئا فى هذه الظروف ، وانما يكفى أن تبتلع الأرض روح النعجة حتى يهدأ غضبها • فالأرض عند « البوبو » وغيرهم من الشعوب السوداء ينظر اليها بوصفها الهة عظيمة •

وتتشابه معتقدات قبيلة « ناونوما » وعاداتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن « السنغال الأعلى » ، مع معتقدات البوبو وذلك فيما يختص بدم القتيل المسفوح • فقد نفت القبيلة قاتلا لمدة ثلاث سنوات وألزمته بدفع دية كبيرة من القطيع والمحار ، لا لتقدم الى عائلة القتيل ، بل الى الأرض والالهة المحليين الذين استاءوا لمرأى الدم المسفوك • ويقوم الكاهن الذى يحمل لقب « سيد الأرض » بتقديم الثور أو الثيران ضحية للأرض الغضبى ، كما يقسم لحم الضحية والمحار معا على أكبر رجال القرية سنا ، ولا تنال أسرة القتيل من ذلك شيئا ، أو هى على أحسن تقدير تأخذ نصيبا مناسبا من اللحم والنقود • أما فى حالة المشاجرات التى لا يقتل فيها أحد ، بل يسيل فيها الدم فحسب ، فان المعتدى يدفع دية تتكون من ثور وشاة وعنزة وأربع دجاجات لتقدم ضحية للآلهة المحليين الذين غضبوا لرؤية الدم • ويقدم « سيد الأرض » الثور ضحية للأرض فى حضرة كبار رجال القرية كما تقدم الشاة ضحية للنهر ، والدجاج للصخور والغابة • وأما العنزة فيقدمها زعيم القرية ضحية لحيوانه المبارك (الفتيش) الذى ينتسب هو اليه • واذا لم تقدم كل هذه الدية ، فان الأهالى يعتقدون أن الآلهة ربما قتلت المذنب وجميع أفراد أسرته وهى فى سورة غضبها •

كل هذه الحقائق السابقة تشير الى احتمال أن العلاقة التى يميز بها القاتل لا يقصد بها أولا حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حماية

الآخرين الذين يصادفهم والا انتقلت اليهم عدوى الدنس اذا ما اتصلوا به ؛ فيحل بهم غضب الاله الذى استاء لفعلته ، أو يحل بهم غضب شبح القتيل الذى يطارده • أى أن العلامة ، باختصار ، ربما كانت اشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شأنها شأن الرداء الخاص الذى كان يتحتم على المجذوم فى بنى اسرائيل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره •

ومع ذلك ، فان هناك حقائق أخرى تنحو الى أن تبين أن العلامة التى يميز بها القاتل ، وكما يفهم هذا ضمنا من قصة هابيل ، كما يعنى بها صالح القاتل وحده • وأكثر من هذا فانها تشير الى أن الخطر الحقيقى الذى تحميه العلامة منه ليس هو غضب أقرباء ضحيته ، بل غضب شبح القتيل • وهنا يتراءى لنا أنه يجب علينا أن نغوص فى أعماق خرافات « أتيكا » كما سبق لنا أن تعرضنا لعادات « أثينا » • فأفلاطون يخبرنا أن شبح الرجل الذى قتل حديثا يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات • فالشبح عندما يثور لمقتل صاحبه ، يطوف فى الأماكن التى ألف أن يأوى اليها • ومن ثم كان من الضرورى للقاتل ، أن يغادر بلده طيلة عام ، حتى يهدأ غضب الشبح • ولا ينبغى له أن يعود اليه الا بعد أن تكون الضحيات قد قدمت ، وأقيمت احتفالات شعائر التطهير • فاذا صادف أن كان القتيل غريبا عن البلد الذى قتل فيه ، فعلى القاتل أن ينأى بنفسه عن بلد القتيل وبلده معا ، كما أن عليه أن يسير فى الطريق الذى يوصف له ، وهو فى طريقه الى منفاه ، اذ من الواضح أنه لا يسمح له أن يتجول فى البلد وشبح القتيل الغاضب فى أعقابه •

لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « أكيكويو » تعتقد أن القاتل مصاب بدنس (ثاهو) يمكن أن يصيب الآخرين عن طريق العدوى • ويتضح من خلال بعض الاحتفالات التى تقيمها هذه القبيلة بقصد التكفير عن

خطيئة القاتل ، أن هذا الدنس يرتبط بشبح القاتل • فشيوخ القـــرية يذبحون خنزيرا عند احدى أشجار التين المقدسة التى تلعب دورا كبيرا فى الطقوس الدينية عند هذه القبيلة • وهناك يقيمون وليمة من أجزاء الحيوان الكثيرة اللحم ، ويتركون الأجزاء الدسمة والأمعـــاء وبعض العظام لشبح القتيل الذى يعتقـــدون أنه يأتى الى هذا المكان فى تلك الليلة بعينها فى صورة قط متوحش ويفترس هذه الأجزاء • فاذا ســـد رمقه ، فانه يحجم عن أن يعود الى القـــرية ليضايق أهلهـــا • وجدير بالذكر أن قبيلة « كيكويو » لا تحتفل بشعائر تطهير دنس القـــاتل ؛ الا اذا قتل أحد أفراد عشيرته • ومن ثم فهى لا تقيم هذه الشـــعائر اذا هو قتل رجلا من عشيرة غير عشيرته أو قبيلة غير قبيلته •

ومن عادة قبيلة « باجيسو » التى تسكن جبل « الجـــون » الذى يقع فى « أفريقيا الشرقيـــة البريطانيـــة » ؛ أنه يتحتم على الرجل أن يغادر قريته ، اذا ما اتهم بالقتل وكان القتيـــل من نفس عشيرته ومن قريته ، وأن يبحث له عن مأوى فى مكان آخر • وهو مطالب بأن يصنع هذا كذلك وان استطاع أن يصالح أقرباء القتل •وعليه بعـــد ذلك أن يذبح نعجة ، ويلطخ صدره بمحتوى أمعائها ، ويرمى ما تبقى من ذلك على ســـطح بيت القتيل « لكى يهدىء من غضب الشـــبح » • ويؤدى المحارب فى قبيلته « باجيسو » هذه الشعائر اذا كان قد قتل رجلا فى احدى المعارك • ويحق لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ؛ أن الغـــرض من اقامة هذه الشعائر ، هو العمل على تهدئة غضب شـــبح القتيـــل • ويمكن للمحارب بعد ذلك أن يعـــود الى قريته ، ولكن بشرط ألا يقضى الليلة الأولى فى بيته ؛ بل يقضيها فى بيت أحد أصدقائه • وفى مســـاء تلك الليلة يذبح شاة أو نعجة ، ويضع محتويات أحشائها فى اناء ، بعد أن يلطخ بها رأسه وصـــدره وذراعيـــه • فاذا كان له أولاد ، فانهم يلطخون أنفسهم على نحوذلك • حتى اذا ما حصن المحـــارب نفســـه وأولاده على هذا النحو ، مضى الى بيته فى جرأة ، ولطخ جوانب بابه

بأمعاء الحيوان ، ورمى ما تبقى منها على السطح لكى يأكلها الشبح ، فيما يبدو ، لأنه يمر فوق هذا السطح ، ان لم يكن قد استقر فوقه . ولا يجوز للقاتل أن يلمس بيده الملوثة بدم القتيل الطعام مدة يوم كامل ، بل يوصل الطعام الى فمه عن طريق زوج من العصى أعد لهذا الغرض . وفى اليوم التالى تترك له الحرية فى أن يعود الى بيته وأن يستأنف حياته العادية . ولا تلزم زوجة القاتل بهذه القيود ، بل إنه يمكنها أن تشارك أسرة القتيل فى حدادها ، وأن تشترك فى مأتمه . فربما هدأ هذا الحزن المصطنع مشاعر شبح القتيل ، وأغراه بأن يترك زوجها وشأنه .

ويعزل القاتل فى قبيلة « نيلوتيك كافيروند» ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، عن أفراد قريته ، ويسكن فى كوخ مع امرأة عجوز تقوم على شئونه ، وتطهو له الطعام ، وتطعمه كذلك ، لأنه لا يجوز له أن يلمس الطعام بيده . وتستمر هذه العزلة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يأتى اليه رجل يكون هو نفسه متهما بالقتل ، أو سبق له أن قتل رجلا ، معركة حربية ، ويصطحبه الى نبع ويغسل له جسمه . ثم يذبح هذا الرجل نعجة ، ويطهو لحمها ويضع أربع قطع من اللحم على أربع عصى ، ثم يقدم قطع اللحم الأربع الى القاتل ليأكلها واحدة تلو الأخرى ، ثم يضع الرجل بعد ذلك أربع كرات معجونة من الثريد على العصى الأربع ، ويقدمها للقاتل لكى يأكلها كذلك . وفى النهاية يقطع جلد النعجة الى أشرطة ، ويلف شريطا منها حول رقبة القاتل وشريطا حول كل من معصميه ، وكل هذه الشعائر يؤديها الرجلان منفردين عند النهر . وبعد ذلك يكون القاتل حرا فى أن يعود الى بيته . وتقول القبيلة : ان شبح القتيل لا يذهب الى المكان الذى يرقد فيه الميت ، بل يظل يحلق فوق القاتل ، حتى ينتهى من تأدية هذه الشعائر .

ولا يخاف القاتل فى قبيلة « بولوكى » التى تعيش فى « أعالى الكنغو » ، من شبح من قتله ، اذا كان هذا القتيل ينتمى الى البلاد المجاورة لبلده ، وذلك لأن المساحة التى يستطيع أن يتجول فيها الشبح

« البولوكى » ، محدودة للغاية . على أن جريمة القــتل التى يمكن أن ترتكب فى هذه الحالة دون أدنى خوف انما تخلق موقفا أشد خطــورة اذا ارتكبت مع رجل من بلد القاتل نفسه ، فالقاتل يعــلم عند ذاك ان الشبح يتجول على مقربة منه ، ومن ثم فان الخوف من انتقامه يؤرقه. وليس هناك لسوء حظه طقوس تذهب عنه الفزع . ولكنه ، رغم غياب هذه الطقوس ، يعلن الحداد على ضحيته ، كما كان القتيل أخاه ، فهو يهمل زينته ، ويحلق رأسه ويصوم عن الطعام ، ويبكيه بدموع منسكبة كدموع التمساح ، ومن ثمفان علامات الحزن التى ينظر اليها الأوربى المخلص على أنها دليل على صدق الندم وتأنيب انضمير ، ليست سوى امارات حزن مزيفة يقصد بها خداع الشبح .

ومرة أخرى نجــد أن القاتل عند « الهنود الأوماها » الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، مطالب بأن يخضع لنظام صارم محددلمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، وذلك بعد أن يصفح عنه أهل القتيل ويبقوا على روحه . فعليه أن يسير حافى القدمين وألا يأكل طعاما ساخنا ، ولا يرفع صوته عند الكلام ، ولا ينظر حوله . وعليه أن يلف ثوبه حول جســمه وجعله ملتصقا برقبته ، ولا ينبغى له أن يتركه يتدلى أو يفتحه وان كان الجو حارا . ولا يجوز له أن يحرك ذراعيه جانبا ، بل يحتفظ بهمـــا ملتصقين الى جانبه . كما لا يجوز له أن يمشــط شعره ، ولا أن يتركه يتطاير فى الهواء . ولا يســمح لأحد أن يأكل معــه ، ولا يبقى معه فى الخيمة سوى واحد من أقربائه . فاذا خرجت قبيلته للصــيد ، تحتم عليه أن يضرب خيمته فى مكان سائر القوم بحوالى ربع ميل ، « لئــلا يثير شبح الميت ريحا تحدث اضرارا وتعطل الصيد » . وربما قدم لنا هذا السبب الذى يفسر ابعاد القاتل عن مخيم الجمــاعة التى تقــوم بالصيد ، المفتاح لفهم ما يفرض على القتلة عند الشعوب البدائيـــة من تعليمات محددة . فابعاد هؤلاء الناس عن المجتمع ليس بدافع النفور الأخلاقى من جرائمهم ، بل تفرضه الدوافع التحفظيــة التى تتلخص

ببساطة فى الخوف من الشبح الخطير الذى يعتقد فى أنه يقتفى أثر القاتل ويطارده •

ومن عادة « اليابيم » الذين يسكنون الســاحل الشمالى الشرقى من « نيو غينيا » أن يضع أقرباء القاتل علامة بالطباشير على جبــاه أقرباء القتيل ، وذلك اذا قبل أقرباء القتيــل دية الدم بدلا من الأخذ بالثأر • والغرض من هذه العلامة هو « تجنب مضايقات شبح القتيــل الذى قد يخطف خنازيرهم أو يخلع أسنانهم ، لأنهم فشلوا فى الأخذ بثأرهم » • فأقرباء القتيل هم الذين يعملون وفقا لهذه العادة ، وليس القاتل نفسه ولكن الهدف واحد على أية حال ، اذ من الطبيعى أن يحيل شبح القاتل غضبه الى أقربائه القساة الذين لم يثأروا للدم بالدم • ولكنه فى اللحظة التى ينقض عليهــم فيها ليخلع أســنانهم أو ليخطف خنازيرهم أو يقوم بأى عمل آخر يضايقهم ، يفاجأ برؤية العــلامات البيضاء مرسومة على جباههم السوداء أو البنية اللون • فهذه العلامة اذن هى بمثابة الايصــال الذى يثبت أن الدية قد دفعت كاملة ، وهى دليل على أن أقارب القتيل قد قبلوا تعويضا ماليا عن القتيــل وان لم يطلبوا تعويضا دمويا • وبهذا القدر اليسير من العــزاء يجب علــى الشبح أن يكون قانعا ، وأن يكفى أسرته أية مضايقات فى المستقبل • وربما رسمت العلامةنفسها بوضوح على جبهة القاتل لتثبت أنه دفع المبلغ المطلوب من النقود فورا أو دفع ما يساوى هذا المبلغ فوريا وفقا لما يصطلح عليه محليا ، جزاء فعلته • ومن ثم فان الشبح لا يطالبــه بشىء بعد ذلك • فهل كانت علامة قابيل من هذا القبيــل ؟ وهل كانت اثباتا على أنه دفع دية الدم ؟ وأنها بمثابة الايصال علــى أنه قد دفع الدية فورا ؟ ربمــا كان الأمر كذلك ، ولكنه لايزال هناك احتمــال آخر ينبغى أن يوضع موضع الاعتبار • من الواضح ــ بناء على النظــرية التى أشرت اليها من قبل ــ أن قابيل لم يكن ليميز بعلامة الا اذا كان قد قتل رجلا من قبيلته أو عشيرته ،حيث ان التعــويض لم يكن يدفع لأهل القتيل الا اذا كانوا من قبيلته أو عشيرته • على أن خوف النــاس

من شبح القتيل العدو ليس أقل من خوفهم من شبح القتيل الصديق • وما الوسيلة اذن لتهدئة غضب الشبح العدو ان لم يكن ذلك عن طريق دفع الدية لأقربائه ؟ • لقد كانت الشعوب تصطنع كثيرا من الوسـائل لحماية المحاربين من أشـباح الرجال الذين عجلـوا بهم الى الموت • ويبدو أنه كان من بين وسائل الحيطة أن يتنكر القاتل حتى لا يتعـرفه عليه الشبح • ووسيلة أخرى هى أن يحيل شكله الى صورة مفـزعة أو كريهـة تنفر الشـبح فلا تجعله يتحرش به • وربمـا فسرت هذه الوسيلة أو تلك العـادات الآتية التى اخترتهـا من بين عدد هائل من الأحوال المشابهه لما أشرت اليه •

فقبلة « با ـ ياكا » ، وهى احدى قبائل « البانتو » التى تسكن فى « ولاية الكنغو الحرة » ، » تعتقـد أن الرجل الذى قتـل فى احدى المعارك ، يرسل روحه لكى تأخذ بثأره من الرجل الذى قتله • غير أن القاتل قد يهرب من هذا الانتقام بأن يضع على رأسه ريشا أحمـر من ريش ذيل الببغاء ، وأن يصـبغ جبهتـه باللون الأحمر » • ويعتقـد « الثنجاويون » الذين يسكنون جنوب شرق افريقيا ، أن الرجل الذى قتل عدو له فى معركة معرض لخطر جسيم من قبل شبح ضحيته الذى يطارده ، وربما أصابه مس من الجنون • ولكى يقى القاتل نفسـه شر شبح القتيل ، يتحتم عليه أن يعيش فى عزلة فى عاصمة بلاده عدة أيام لا يذهب فى أثنائها الى زوجته ، ويرتدى الملابس القديمة ، ويستعمل ملاعق وأطباقا خاصـة به • وقد كانت من عادة « الثونجاويين » فى الازمنة السالفة ، أن يصنع القاتل فيما بين حاجبيه وشما وأن يضـع دواء فى مكان حفـر الوشـم ، فتبرز أثر ذلك نتوءات تجعله يبـدو كالجاموسة العابسة • « واذا قتل المحاربون « الباسوتو » [1] أعداء لهم ، وجب تطهير هؤلاء المحاربين • فيقوم زعيم القبيلة بغسلهم ويقدم

(١) قبيلة من اكبر قبائل « البانتو » فى جنـوب افريقيـا .
(المترجمة)

ثورا ضحية فى حضرة الجيش كله • كما أن المحاربين يدهنون أجسامهم بمرارة النور ، الأمر الذى يمنع شبح العدو من تعقبهم بعـــد ذلك » •

ومن عادة قبائل « البانتو » التى تســكن فى اقليم « كافيراندو » الذى يقع فى أفريقيا الشرقية البريطانية » ، أن الرجل اذا قتل عدوا له فى معركة ، فانه يحلق شعره عند عودته الى بيته كما يدلك له أصدقاؤه جسمه بدواء يتكون من روث البقر ، وذلك لكى يمنعوا روح الميت من مضايقته • أما عند قبائل « نيلوتيك » التى تسكن فى اقليم « كافيراندو » كذلك ، « فان المحارب يعزل عن قريته اذا هو قتل شخصا آخر فى احدى المعارك ، حيث يقيم فى كوخ حوالى أربعة أيام • وهناك تطهو له امرأة عجوز طعامه ، وتطعمه كما يطعم الطفل ، اذ أنه لا يسمح له بأن يلمس بيده أى نوع من الطعام • وفى اليوم الخامس ، يرافقه رجل ويذهب معه الى النهر ، فيغسل له جسمه ، ويذبح له نعجة بيضـــاء ويطهوها ويطعمه لحمها • أما جلد النعجة فيقطعه الى شرائح تلف حول معصمه وحول رأسه • ثم يعود القاتل الى منزله المؤقت ، ويبيت فيه تلك الليلة• وفى اليوم التالى يأخذه الرفيق الى النهر مرة أخرى ، ويغسل له جسمه ويقــدم له دجاجة بيضاء يذبحها القاتل بنفسه ، ويقوم الرفيق بطهيها له واطعامه لحمها • وعندئذ يعلن طهره ويسمح له أن يعود الى بيته • وقد يحــدث فى بعض الأحيان أن يصيب المحارب رجــلا بسهامه فى احــدى المعارك ، فيموت بعد وقت متأثرا بجراحه ، وعند ذاك ، يذهب أقرباء المصاب بعــد أن توافيه منيته ، الى المحارب ويحملون اليه نبأ وفاة المصـــاب ، وعندئذ يعزل المحارب فى الحال عن مجتمعه حتى يتم اجراء الطقوس السالف ذكرها • ويقول الناس : ان هــذه الطقوس من الضرورة بمكان ، لأنها تحرر المحارب من شبح قتيله الذى يظــل ملازما له ، ولا يفارقه الا بعــد تأدية هــذه الطقوس • فاذا رفض المحارب أن يؤديها فان الشبح يسأله : « لماذا لم تؤد الطقوس وتتركنى وشأنى ؟ » فاذا أصر المحارب على عدم الاذعان لطلب الشبح ، أمسك الشبح برقبته وخنقه •

لقد سبق أن رأينا أن القاتل عند قبائل « نيوليتيك » التى تسكن اقليم « كافيريندو » عليه أن يؤدى طقوسا مشابهة لهذه الطقوس من أجل الغرض نفسه ، وهو أن يخلص نفسه من شبح القتيل ، فان هو لم يفعل هـذا ، ظل شبح القتيل يطارده •

وهذا التشابه التام بين الطقوس فى هاتين الحالتين ، بالاضـافة الى دوافعها التى عبرت عنها القبائل صراحة ، يلقى الضوء على الهدف من طقوس التطهير التى يتحتم على القاتل أن يؤديها ، محاربا كان أم غير محارب ، ويتلخص هذا الهـدف ببسـاطة فى تخليص القاتل من شبح قتيله حتى يتجنب ما يمكن أن يصيبه الشبح به من أذى • وربما كان الغرض من لف شرائح جلد النعجة حول معصم القاتل ورأسـه ، هو اخفاء القاتل عن الشـبح • وعلى الرغم من أن النصـوص التى نستشهد بها لا تذكر شيئا عن شبح القتيل ، يمكننا أن ندعى ، ونحن مطمئنون لسلامة ادعائنـا ، أن الغرض من طقـوس التطهـير التى يؤديها المحاربون ، أو تؤدى لهم ، هو تهدئة الأرواح الغاضبة أو ابعادها عن قتلة أصحابها ، أو خداعها • فمن عادة « النجونيين » الذين يسكنون « افريقيا الوسطى البريطانية » أنه عندما يقترب الجيش المنتصر من القرية الملكية ، يقف عند شاطىء مجرى مائى ، ويطلى المحاربون الذين قتلوا أعداء لهم فى المعركة أجسامهم وأذرعهم بالجص • أما المحاربون الذين لم يكونوا هم البادئين بالقتل ، بل كانوا عونا لاخوانهم فى الاجهاز على أعدائهم فيطلون أذرعهم اليسرى فقط بالجص • وفى هذه الليلة ينام القاتلون فى حظيرة مكشوفة مع القطيع ، ولا يجرءون على الاقتراب من بيوتهم • وفى الصـباح الباكر ينزلون النهر ليزيلوا عن أجسامهم الجص • ثم يحضر الطبيب الساحر ويقـدم لهـم جرعة من الدواء السحرى ، ويطلى أجسامهم مرة أخرى بطبقة من الجص • وتتـكرر هذه العملية ستة أيام على التوالى حتى يتم تطهيرهم • وعند ذلك تحلق رءوسهم ويسمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، بعد التأكد من طهرهم من كل دنس • ومن عادة « الجالا » من سكان « بورانا » أنهم عنـدما

يعود المحاربون الى القرية ، تقوم النساء بغسل أجسام المنتصرين الذين قتلوا بعض أعدائهم بمزيج من الدهن والزبد ، كما تطلين وجوههم بطلاء أحمر وأبيض • أما المحاربون من « الماساى » فانهم عندما يقتلون بعض الهمجيين فى معركة ، يطلون النصف الأيمن من أجسامهم باللون الأحمر والنصف الأيسر باللون الأبيض • وبالمثل يفعل الرجل من قبيلة « ناندى » اذا قتل رجلا من قبيلة أخرى ، فهو يطلى أحد جانبى جسمه باللون الأحمر والجانب الآخر باللون الأبيض ، وهو يعد نجسا مدة أربعة أيام بعد قتله القتيل ، لا يسمح له فى أثنائها بالعودة الى بيته ، بل يتحتم عليه أن يشيد لنفسه مأوى بجانب النهر ، ويعيش فيه ، ولا يسمح له أن يختلط بزوجته أو بعشيقته ، ولا يأكل الا الثريد ولحم البقر والماعز • وفى مساء اليوم الرابع يتحتم عليه أن يزيل عن نفسه الدنس بتناول شراب قوى مسهل مستخرج من شجرة « السيجيتيت » ولبن الماعز الممزوج بدم ثور مخصى • واذا قتل رجل من قبيلة « واجوجو » التى تسكن « افريقيا الشرقية » عدوا له فى معركة ، فانه يرسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ، ودائرة سوداء حول عينه اليسرى •

ومن المألوف عند الهنود « الطومسونيين » الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن يطلى الرجال الذين يقتلون أعداءهم وجوههم باللون الأسود • فاذا أهملوا هذا الاجراء الاحتياطى ، أصابتهم أرواح القتلى ، ووفقا لاعتقاد هؤلاء الهنود ، بالعمى • وكان الفرد من الهنود « البيماويين » اذا قتل رجلا من أعدائه القدامى وهم « الاباتشيون » ، اتبع على نحو منتظم أسلوبا صارما فى العزلة والتطهير يدوم ستة عشر يوما • ولا يسمح له طيلة هذه الفترة أن يمس لحما أو ملحا ، أو أن ينظر الى نار متوهجة ، أو يتحدث مع أى كائن حى • كما كان يقيم وحده فى غابة ، حيث تقوم على رعايته امرأة عجوز ، فتحضر له حصته الزهيدة من الطعام • كذلك كان يغطى رأسه معظم الوقت بطبقة من الطين ، ولا يجوز له أن يلمسها بأصابعه •

وقد حـــدث أن قتلت عصابة من « الهنود التينيهيين » جماعة مستضعفة من الاسكيمو عند نهر « كوبر » ، وعند ذاك عــدت نفسها مصـــابة بالدنس ، وكان على أفرادها بنـــاء على ذلك ، أن يقوموا على أثر ذلك ببعض الالتزامات الغريبة لفترة ليست بالقصيرة ، فهؤلاء الذين قتلوا أعدائهم بأيديهم ، يمنعون كلية من أن يطهوا لأنفســـهم أو لغـــيرهم الطعام • وكذلك لم يكن يسمح لهم أن يشربوا أو يدخنوا الا من وعاء أو غليـــون يمتلكونه • وكذلك كان يحرم عليهم أكل اللحم المسلوق ، على حين كان يسمح لهم بأكل اللحم النيىء أو المشـــوى على النار أو المجفف فى الشمس • وكان عليهم فى كل وجبـــة قبـــل أن يأكلوا أول لقمة ، أن يطلوا وجوههم باللون الأحمر الوردى فيما بين الأنف والذقن • وبين الأذنين عبر الخـــدين •

وكان من عادة « الهنـــود التشينوكيين » الذين كانوا يســـكنون « أوريجون » و « واشـــنطون » أن يســـود القـــاتل وجهه بالفحم المعجون فى الشحم ، ويضع حول رأسه ورسغيه وركبتيه ومعصـــميه حلقات من لحاء شجر السدر ، وبعد خمسة أيام ، يغسل وجهـــه ليزيل الطلاء الأسود ويطليه مرة أخرى بطلاء أحمر • وفى أثناء هذه الأيام الخمسة لا يسمح له بأن يستغرق فى النوم ، بل له أن يرقد للراحة ، كما لا يسمح له بأن ينظر الى طفل أو الى أناس وهم يأكلون • وبعد أن تنتهى طقوس التطهير ، يعلق الحلقات التى كان يضعها حول رأسه على شجرة من المفروض أن تجف نتيجة لذلك فيما بعد •

ويعد قتل الهندى وقتل الحوت عملا رائعا عنـــد الاسكيمو الذين يسكنون « خليج لانجتون » ، فمن يقتل منهم أحـــد الهنود يوشم من الأنف حتى الأذن ، وأما من يقتل حوتا فيوشم من الفم حتى الأذنين • وكلا البطلين يمسك عن عمل مدة خمسة أيام كما يمتنع لمـــدة عام عن تناول أطعمة بعينها وبخاصة رأس الحيـــوان وأمعائه • وعنـــدما تعود جماعة من قبيلة «أرونتا » التى تسكن وسط استراليا من بعثة انتقامية

يكونون قد أجهزوا فيها على عدو لهم ، فانهم يخشون شبح القتيل ، لأنهم يعتقدون أنه يتعقبهم فى هيئة طائر صغير يصيح صياحا حزينا • ولهذا فانهم يسكتون بضـــعة أيام بعد عودتهم عن الحديث عن فعلتهم ، ويطلون كل جزء من جسمهم بمسحوق الفحم ، ويزينون أنوفهم وجباههم بفروع الشجر الخضراء • وفى نهاية الأمر يطلون أجسامهم ووجوههم بألوان براقة ، ويحل لهم بعد ذلك أن يتحدثوا فى حرية عن فعلتهم • وع ذلك فهم يستيقظون فى هدوء الليــل ويصغون الى شكوى الطــائر الذى يتوهمونه صوت ضحيتهم •

واذا قتل المحارب عند « الفيجيين » عدوا له فى المعركة ، تخلع عليه صـــفة القدسية ، أى يصبح محرما ، وعند ذاك يطلى الملك جسمه ، بالكركم من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ثم يبنى له كوخ ليقضى فيه الليالى الثلاث التالية لذلك • ولا يسمح له فى هــذه الليالى أن ينام مستلقيا بل ينام جالسا • كما لا يسمح له أن يغير رداءه أو يزيل الكركم عن جسمه ؛ أو يدخل بيتا فيه امرأة ، حتى تنقضى الليالى الثلاث •

وهناك عادة « فيجيانية » أخرى تشعر بأن هــذه النظم التى تتبعها قبيلة « فيجى » كان يقصـــد بها حماية المحارب الفيجيانى من شبح قتيله ، وان لم تؤكد ذلك • فعندما كان هؤلاء الهمجيون يقومون بدفن رجل حيا ، كما كانوا يفعلون هــذا كثيرا ، كانوا يحدثون ضجيجا فى هدوء الليل ؛ مستخدمين فى ذلك مزامير القصب والطبول المصـــنوعة من الأصـــداف البحرية ، الى غـــير ذلك من الوســـائل التى تحـــدث صخبا ، وذلك بقصد افزاع الشبح حتى لا يحاول العودة الى مسكنه القـــديم • كما أنهم يجردون هـــذا المســكن من معالمه ويغطونه بكل ما يمكن تغطيته به ، فيبدو على هذا النحو منفرا للغاية ، فلا يجتـــذب شبح صاحبه اليه • وقد تعود هنود أمريكا الشمالية كذلك أن يتجولوا فى القرية وهم يصرخون صرخات مزعجة ويضربون على الأثاث وحيطان الأكواخ وأسطحها لكى يطردوا شبح العدو الغاضب الذى عذبوه حتى

الموت • ولا تزال مثل هذه العادة تتبـــع فى بقاع كثـــيرة من « غينيا الجديدة » و « الأرخبيل البسماركى » •

وبناء على ذلك فربما كان القصـــد من تعليم قابيل بعـــلامة هو اظهاره للشبح بمظهر كاذب • أو ربما كان الغرض منها اظهاره فى صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعـــرف عيله شبح القـــاتل ، أو على الأقل يتجنبه • وقد سبق أن افترضت فى مكان آخر ، أن عادات الحـــداد فى العموم ، كانت فى الأصـــل وسيلة للتنكر تصطنع بقصـــد حماية أقرباء الميت الأحياء من شبحه الذى انفصـــل عنه حديثا بموته • وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أم غير صحيح ، فمن المؤكد أن الأحياء يظهرون فى بعض الأحيان بمظهر مخادع حتى يهربوا من مراقبة شـــبح الميت اياهم • ففى الأحيـــاء الغربية من « تيمور » ، وهى جزيرة كبيرة تقع فى « الأرخبيل الهندى » ، تقف زوجات الميت ، قبل أن يوضـــع زوجهن فى اللحـــد ، وتبكينه ، كما يتحتم أن تقف بجانبهن رفيقاتهن فى القرية « وقد أسدل الجميـــع شعورهن على وجوههن حتى لا يتعرف عليهن « نيتو » الميت ؛ أى شبحه » • وعندما يكون المريض عند « الهيريرو » الذين يسكنون « أفريقيا الجنوبية الغربية » فى ساعة الاحتضار ، فانه فى بعض الأحيان يسأل أحد الذين لا يحبهم ويقول لهم : « متى جئت الى هنا ؟ اننى لا أرغب فى رؤيتك فى هـــذا المكان ؟ » • وعنـــد ذلك يضغط على أصابع يد الرجل اليسرى بطريقة معينة بحيث يبرز طرف أصبع الابهام من بين أصابعه • وعنـــد ذلك يعرف هـــذا الرجل أن المحتضر قد قرر أن يأخذه معه بعيدا (أوكوتوايريرا) ، بعـــد موته ؛ أى أنه سوف يموت كذلك • على أن مثل هـــذا الرجل يمكنه ، فى كثير من الأحيان أن يتجنب خطر الموت الذى يهدده به الشخص المحتضر ، وذلك بأن يترك المكان الذى يرقد فيه المريض المحتضر فى سرعة ، ويبحث عن « أو نجانجا » ومعناه « الطبيب الساحر » : لكى يخلع عنه ملابســـه ويغسل له جسمه ويدهنه ويلبسه ملابس أخرى • وعند ذلك يهـــدأ خوفه من تهديد الشخص المحتضر اياه بالموت ، ويقول : « الآن لم يعد

شيخنا يعرفنى » (نامبانو تاتى كى نديى اى) ومن ثم فليس هنـاك أدنى سبب يجعله يخاف الموت بعد ذلك •

ويمكننا أن نفترض على نحو هـذا أن قابيل قد هـدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة ، معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بهـا على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض ، ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضـوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هـذه العلامة مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضـاء أو سوداء ، وربما مزج بين هـذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به • وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال ، وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل « الارونتانيون » ، وربما لون نصـف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « الساى » و « الناندبون » • واذا كان الرب قد قصر جهده الفنى على وجه قابيل ، فربما رسـم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ودائرة سوداء حول عينه اليسرى على نحو ما يفعل « الواجوجيون » • أو أنه زين وجهه فيما بين الأنف والذقن ، وما بين الفم والأذنين ، بظل خفيف من اللون القرمزى كما يفعل « الهنـود التينيهيون » أو ربما غطى رأسه بطبقة من الطين كما يفعـل « البيمايون » • أو أنه غطى جسمه كله بروث البقر كما يفعل « الكافريندبون » • أو ربما وشـمه فيما بين الأنف والأذنين كما يفعل « الاسكيمو » • أو أنه فعل كما يفعل « الثنجاويون » ، فوشمه فيما بين الحاجبين ، بحيث يبدو كالجاموسة العابسة • وربما استطاع هذا الحـداد الأول (كلمة قابيل «قايين » Cain معنـاها الحـداد Smith) أن يتجـول فى بقاع الأرض القاحلة ، مزينا بهـذه الألوان ، دون أن ينتابه أدنى خـوف من أن يتعرف عليه شبح أخيـه ويتعقبه •

ان تفسير علامة قابيل على هذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ؛ فان تفسير العلامة بأن الرب علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر ؛ فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن على وجه الأرض من يقتله ، حيث ان الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح القتيل وليس انسانا حيا ؛ فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم كلية مع صفات الرب العالم بكل شىء • ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب •

الفصل الرابع

الطـــوفان الكبـير

١ ـ مقـــدمة :

عنــدما دعانى « مجلس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا » لكى ألقى محاضرة « هكسلى » السنوية ، قبلت الدعوة شاكرا • وقد رأيت فى ذلك شرفا كبيرا لى ، أن أتصــل بشخص أكن له تقديرا عميقا بوصفه مفكرا وانسانا معا ، كما أتعاطف معه قلبيا فى موقفه ازاء مشــكلات الحيــاة الكبرى • ان أعمال هذا الرجل ستظل تحتفظ له بذكرى نضرة • ومن الملائم أن يكون علمنا بمثابة أكليل من الزهر يوضــع سنة بعــد أخرى على قبر أحــد الذين يحظون بأبلغ تقدير لنصرتهم هذا العلم •

وبينما كنت أجيل الفكر فى موضوع مناسب للمحاضرة ، تذكرت أن هكسلى فى أيامه الأخيرة ، كان قد كرس جزءا كبيرا من وقت فراغه الثمين فى فحص التراث الذى يتصــل بعصور الحيــاة الأولى كما هو مدون فى سفر التكوين • ومن ثم فقد فكرت فى أن أتخــذ من هــذا التراث موضوعا ملائما لمحاضرتى • وهــذا الموضــوع هو القصــة المألوفة عن الطوفان الكبير • وكان هكسلى نفسه قد ناقش هذه القصة فى مقال تثقيفى عام كتبه بكل ما عرف عن أسلوبه من سحر فى سلاسته ووضــوحه ، وقد كان هــدفه أن يبين أن هذه الحكاية التى ينظر اليها بوصفها سجلا لحادثة الطوفان الذى أغرق العالم كله ، وكل ما كان يعمره على وجه التقريب من انسان وحيــوان ، تتعارض مع مبادىء الجيولوجيا البسيطة ، ومن ثم ينبغى رفضــها ، على أساس أنهــا أســطورة • على أننى لن أحاول أن أدعم رأيه والنتيجة التى انتهى

اليها ، أو أن أرفضـــها ، لسبب بسيط هو أننى لست جيولوجيا • كما آننى أرى أن ابداء الرأى حول هــذا الموضوع يعد خارجا عن نطاق البحث • ومن ثم فقد تناولت هــذه القصـــة من زاوية آخرى ، أى بوصفها تراثا شعبيا • ومن المعروف منذ زمن طويل أن أساطير الطوفان الكبير الذى هلك فيه كل الناس على وجــه التقريب ، تنتشر انتشارا كبيرا فى جميع أنحاء العالم • وبناء على ذلك فقد حاولت أن أجمــع الروايات المختلفة لهــذه القصة ، وأن أقارن بينها ، لكى أرى ما تسفر عنه هذه المقارنة من نتائج • أى أن دراستى لهذه الروايات ، باختصار ، هى دراسة فى علم الفولكلور المقارن • وهــدفى من ذلك هو أن أستكشف نشأة هــذه الحكايا ت، وأن أتبين كيفيـــة انتشارها فى جميع أنحـــاء العالم ، ولم يعننى فى المقـــام الأول أن أتساءل عن صـــدقها أو كذبها ، وان كان لا ينبغى اهمال هذا السؤال عند البحث عن موضوع نشأتها • على أن تحديدنا لهذا الموضوع على هــذا النحو ليس بجــديد ، فكثيرا ما حاول الباحثون بحث هــذا الموضـــوع من زاوية التراث الشعبى بخاصة فى السنين الأخيرة • وقد استفــدت أيما استفادة • باقتفائى أثر هذه الأبحاث ، من أعمال الذين سبقونى فى هـــذا المجال ، بخاصة هؤلاء الذين ناقشوا هذا الموضوع بعلم واســع وكفاية ممتازة • وانى مدين بصـــفة خاصة للعالم الألمانى الجغرافى والأنثروبولوجى المرموق الدكتور الراحـــل « ريتشارد أندرى » الذى يعـــد بحثه فى التراث الشعبى حول قصة الطوفان ، شأنه شأن سائر كتاباته ، نموذجا للدرس الرصين والادراك الحصيف ، بالاضافة الى وضوح وايجاز بالغين •

واذا صرفنا النظر عن أهميـــة هــذه الأساطير فى حـــد ذاتها ، بوصفها سجلا للكارثة التى قضت دفعة واحـــدة على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فانها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشـــه الأنثروبولوجيون اليوم مناقشة جادة • وهـــذا السـؤال هو : كيف يمكننا أن نفسر وجوه التشابه الكثيرة القوية بين

معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها ، تلك الأجناس التى تسكن فى بقاع متفرقة متباعدة من أنحـاء العالم ؟ فهل يرجع هذا التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس بشرى الى جنس آخر ، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن طريق الاتصـال غير المباشر ؟ أم أن هـذه المأثورات والمعتقدات المتشابهة نشـأت مستقلة عند كثـير من الأجناس ، نتيجة تماثل الفكر البشرى فى ظروف فكرية متماثلة ؟ واذا كان لى أن أبدى رأيا فى هذا الموضوع الذى طال الجدل حوله ، فانني أقول توا ، ان هذا السؤال يبدو لى نوعا من العبث ، اذا ما وضع موضع الجـدل بين وجهات النظر الخاصة المتبادلة • فـكل التجارب وكل الاحتمالات ، بالقدر الذى أستطيع أن أحكم به فى هذا الموضوع ، تخدم النتيجة التى توصلنا اليها ، وهى أن كلتا الوجهتين قد عملت فى قوة وعلى نطاق واسع لايجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها • وبتعبير آخر نقول : ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من خلال عملية الانتقال البسيطة من شـعب لآخر ، وما يعترى هـذه المأثورات والمعتقدات من تغيير قليل أو كثير فى أثناء عملية الانتقال • وكذلك فان كثيرا من وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر بأنها قد نشأت مستقلة نتيجة لتماثل حركة التفكير فى العقل البشرى ، الذى يعد استجابة لظروف التطور المتماثلة • فاذا كان هذا قد حـدث حقا ، وأنا أميل لأن أرى فيـه الرأى الوحيـد المعقول والمحتمل ، فانه يتبع هـذا ، أنه عندما نتعرض لحالة خاصة من التشابه يمكن أن نقتفى أثرها فى عادات الأجناس المختلفة ومعتقداتها ، يكون من العبث أن نلجأ الى المبدأ العام ، سواء فى انتشارها أو فى نشوئها مستقلة ، اذ أن كل حالة ينبغى أن يحكم عليها فى حدودها الخاصة بعد أن تفحص الحقائق فحصا منصـفا ، وبعد أن نرجعها الى هذا الأساس أو الى ذاك ، وربما الى الأساسين معا ، حسبما يميل ميزان الشواهد الى هذا الجانب أو ذاك ، أو يقف فيما بنهما عندما تتوازن كفتاه •

ويؤكد الفحص الدقيق للروايات الخاصـة بحكاية الطوفان هذه

النتيجة العامة التى تسلم بمبدأى الانتشار والنشوء المستقل ، بوصفهما مبدأين صحيحين وسليمين ، وذلك فى نطاق حدود معينة . ذلك أنه من المؤكد أن أساطير الطوفان الكبير قد عثر عليها منتشرة بين شعوب مختلفة تعيش فى بقاع نائية على وجه الأرض . ويمكننا أن نستدل — وذلك فى حدود الاستدلال الممكن فى مثل هذه الأمور — على أن التشابه الذى لا يخطئه الباحث بين هذه الروايات ، يرجع من ناحية الى انتقالها المباشر من شعب الى آخر ، ومن ناحية أخرى الى تجارب مشابهة ، وأن تكن مستقلة تماما ، ونعنى بها تجارب الشعوب مع حوادث الفيضانات الكبيرة التى حدثت فى بقاع مختلفة من العالم . ومن ثم فان دراسة هذه الروايات الشعبية ، بصرف النظر عن النتائج التى ننتهى اليها فيما يتعلق بصدقها التاريخى ، ربما حققت غرضا نافعا ، اذا ما استطاعت أن تخفف من حدة النقاش الذى كان يحتدم حولها فى بعض الأحيان ، وذلك باقناع الجانبين المتطرفين المتعصبين لكلا الأساسين بأن الحقيقة لا تقع كلية فى هذا الجانب أو ذاك ،بل تقع فى مكان ما بينهما .

٢ — حكاية الطوفان الكبير البابلية :

تعد أسطورة الطوفان البابلية ، أو بالأحرى السومرية ، أقدم أساطير الطوفان المدونة فى الأدب . ذلك أننا نعلم أنه على الرغم من قدم الرواية البابلية ، فانها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين الذين استمد منهم سكان بابل الساميون ، فيما يبدو ، العناصر الأساسية لحضارتهم .

وقد تعرف الدارسون الغربيون على حكاية الطوفان الكبير البابلية التى عرفتها العصور القديمة ، حيث ان المؤرخ البابلى الأصل « بيروسوس » الذى كتب عن تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان قد دون هذه الحكاية . وقد كان « بيروسوس »

يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية • على أن هــذه المؤلفات لم تصــلنا كاملة ، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الاغريق المتأخرون• ولحسن الحظ أن هــذه المقتطفات تحتوى على حكاية الطوفان البابلية التى تجرى على النحو التالى :

لقد حدث الطوفان فى عهد الملك « اكسيسوثروس » ، الملك العاشر الذى حكم بابل • وقد ظهر الاله « كرونوس » لهذا الملك فى رؤياه ، وحذره من أن طوفانا سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعا ، وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ، وهو الشهر الثامن من السنة المقــدونية • ولهذا حثه الاله على أن يكتب تاريخ العالم منــذ بداية الخلق ، وأن يدفن ما يكتبه فى « سيبار » ، بلد الشمس ، حتى يظل فى مأمن من الطوفان ، كما طلب منه أن يبنى فلكا يأوى اليه هو وأقرباؤه وأصحابه وأن يختزن فيه زادا من اللحم والشراب ، كمــا يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع • فاذا ما فرغ من اعداد كل شيء ، كان عليه أن يبحر بفلكه • عنــد ذاك سأل الملك « اكسيسوثروس » الاله قائلا : « ولكن الى أين أبحــر بالفلك ؟ » فأجابه الاله : « الى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلى من أجل خير الناس »• فأطاع الملك أمر الاله ، وابتنى فلكا طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة • وبعد أن جمع كل ما يحتاج اليه ، اختزنه فى الفلك ، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه• وبعد أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنهــا فور ذلك ، أطلق « اكسيسوثروس » سراح بعض الطيــور • ولكن الطيور لم تجــد طعاما تأكله أو مكانا تستقر فوقه ، فعادت الى الفلك • وبعــد بضــعة أيام ، أطلق سراحها مرة أخرى ، فعادت هذه المرة الى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين • فلما أطلقها للمرة الثالثة طارت بعيدا ولم تعــد الى الفلك • عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، فرفع من الفلك بعض ألواحه الخشبية ، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطيء • عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل ، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة ، وسجد للأرض

وابتنى مذبحا • وبعد أن فرغ من تقـديم الضحية للآلهة ، اختفى هو ومن معه • فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا فى رفقته لم يرجعوا اليهم ، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه ، ولكنه لم يكن ليرى فى أى مكان • غير أنهم سمعوا صوتا يدوى فى الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة ، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكى يسـكن الى جوارها ، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف • ثم أمرهم الصوت أن يعودوا الى بابل ويستخرجوا الكتابات التى كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيمـا بينهم • وكذلك أخبرهم الصـوت أن الأرض التى يقفون عليها هى أرمينيا • وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة ، ورجعـوا راجلين الى بابل • أما الفلك الذى استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحا على هـذه الجبال حتى اليوم ، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه فى تعاويذهم • أما ركاب الفلك فقد عادوا الى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة فى « سيبار » ، وشيدوا مدنا كثيرة ، وأعادوا بنـاء الأمكان المقدسة وعمروا بابل بنسلهم •

ووفقا لما رواه «نيقولاوس الدمشقى» الذى كان معاصرا وصديقا « لأغسطس » و « وبيرودس العظيم» ، أن هناك فى « منياس » التى تقع فى أرمينيا جبلا ضخما يسمى جبل « باريس »، وهو الجبل الذى أوى اليه كثير من الناس ، كما تذكر حكاية الطوفان البابلية ، هربا من الطوفان ، وبذلك نجوا بحياتهم • وقد قيل كذلك : ان رجلا بعينه كان يبحر فى الفلك حتى رسا عند قمة هـذا الجبل • وقد ظل حطام الفلك مطروحا على الجبل زمنا طويلا • وربما كان هذا الرجل هو ذلك الذى ذكره موسى واضع شريعة اليهود • على أن الشك يساورنا فيما اذا كان « نيقولاوس الدمشقى » قد استقى هـذه الأخبار من التراث البابلى أو العبرى ، ولكن ذكر نيقولاوس لموسى على كل حال يشـير الى أن نيقولاوس كان يعرف حكاية سفر التكوين التى ربما تعلمها فى يسر من رفيقه « هيرودس » •

وقد ظل الباحثون الأوربيون قرونا طويلة لا يعرفون رواية أخرى للحكاية البابلية عن الطوفان الكبير الا تلك التى احتفظت بها مقتطعات « بيروسوس » التى كتبت باللغة اليونانية • وقد ظلت الحكاية البابلية معروفة على هذا النحو لدى العلماء حتى العصر الحديث ، الى أن اكتشفت طويلة ، فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات طويلة فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قامـــوا بعمليات الحفائر فى « نينوى » ، تلك الحفائر التى كانت من المعالم الرائعة فى القرن التاسع عشر ، والتى بدأت عصرا جديدا لدراسةالتاريخ القديم ، فى استكشاف بقايا هائلة من مكتبة الملك العظيم «آشوربانيبال» ،الذى حـــــكم من عام ٦٦٨ ق • م • حتى عام ٦٢٦ ق • م • فى آخر عصر الامبراطورية الآشورية الزاهر •

وفى خلال تلك الفترة بسط « آشوربانيبال » نفوذه حتى شواطىء النيل ، وزين عاصمته بأبهى العمارات ، وجمع فيها من البلاد النائيـــة والقريبة مجموعة كبيرة من الكتب فىالتاريخ والعلم واللغة والدين لكى تستنير عقول شعبه • أما كتب الآداب التى استمدت جزءا من مادتها من أصول بابلية ، فقد دونت بنقوش الكتابة المسمارية على ألواح من الطين الطرى ، وكانت تحرق فى الافران بعد تدوين الكتـــابة عليها ثم تودع فى مكتبة العاصمة • ويبدو أن المكتبة كانت مرتبة فى طابق علوى من القصر الذى حطمه الحريق فى حوادث النهب الأخيرة التى تعرضت لها المدينة فى آخر أيامهـــا • وكان نتيجـــة هذا أن تهشمت الألواح • ولا يزال كثير منها مشدوخا قد لفحته حرارة الخرائب المحترقة • وفى العصور المتأخرة نهب جامعو الآثار القديمة الذين كانوا معـــاصرين لـــ « ووسترز ويفل » ، والذين كانوا يبحثون ، لا عن العلم المدفونة ، بل عن كنوز الذهب ، نهبوا ما تبقى من آثار ثمينة فى حطـــام المدينة ، كما نهبها عمالهم الذين اشتركوا معهم فى تحطيم السـجلات الثمينـــة وتكسيرها • ثم هطلت الأمطار بعد ذلك فأكملت تحطيم هذه السجلات ، فقد كانت الأرض تمتص أمطار كل ربيع ، فتمتصها السجلات بدورها بما كانت تحتوى عليه من المـــواد الكيماوية التى كانت تتبلور فى شدوخ

الألواح وشقوقها • ومع تراكم هذه المواد المتبلورة تهشمت الألواح التى كانت محطمة من قبل وأصبحت قطعا متناثرة • ومـع ذلك فقـد استطاع « جورج سميث » الـذى كان يعمـل بالمتحف البريطـانى ، استطاع بالعمل المضمنى أن يجمع القطع المتنـاثرة الكثيرة بعضها الى بعض ، ويستعيد شكل ملحمة جلجامش التى ذاع صيتها حتى اليوم ، مكتوبة فى اثنى عشر نشيدا أو بالأحرى لوحا ، ومحتـوية على حكاية الطوفان الكبير فى لوحها الحادى عشر • وقد أعلن مسـتر « سميث » هذا الاكتشاف الهائل فى اجتماع « جمعية الآثار الانجيلية » الذى عقد فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٢ م •

لقد كان « سير هنرى رولينسون » بارعا فى فرضه أن الأناشـيد الاثنى عشر فى ملحمة جلجامش تشير الى الاثنى عشرة علامة التى تميز الدائرة الفلكية ، بحيث أن مجرى الملحمة يسير وفق دورة الشمس فى أثناء شهور السنة • وتتأكد هذه النظرية الى حد ما بالمكان الذىيشار اليه فى أسطورة الطوفان فى النشيد الحـادى عشر • وهذا النشـيد مخصص للاله « رومان » اله العواصف ، واسمه يعنى فيما يقال « شهر المطر الملعون »[1] ، لأن الشهر الحادى عشر من السنة البابلية يتفق مع دورة موسم الأمطار • وكيفما كان هذا الرأى ، فان حـكاية الطوفان على ما هى عليه . تعد حادثة فرعية أو اسـتطرادا يفتقـر الى الرابط العضوى بسائر أجزاء الملحمة • وتجرى هذه الحـكاية علـى النحـو التالى ••••

فقد جلجامش ، بطل الملحمة المسماة باسمه ، صديقه أنجـيدو عندما توفى وحزن لفقده حتى أسلمه الحزن الى المرض • ثم قرر آسفا لما حدث لصديقه وشغوفا بمعرفة ما سيحدث له فى المستقبل ، أنيبحث عن جده « أوتنابشتيم » ابن « أوبارا ــ توتو » الذى يسكن فى مكان

---

(١) رمان : معناه فى اللغتين البابلية والآشورية اله الرعد ، والكلمة هى التى تقابلها فى العربية « رنان » وفى ديانات الساميين الغربيين ، الكنعانيين خاصـة صار اسمه رمون أو بعل رمون • (وهـذا المعنى يبدو واضحا فى تلخيص المؤلف لملحمة جلجامس هذه ، ص ٥٢) •

بعيد ، ليسأله كيف يمكن للانسان الفانى أن يكون خالدا ، اذ كان يعرف يقينا أن « أوتنابشتيم » على علم بهذا السر ، حيث أن الآلهة قد رفعته الى مصافها وجعلته يسكن بعيدا فى مكان ما متمتعا بنعمة الخلود • وكان على جلجامش أن يتجشم القيام برحلة مضنية خطيرة حتى يصل اليه ، فمر بالجبل الذى يحرسه رجل وامرأة ، فى شكل ثعبان ، كما اخترق طريقا مظلما مفزعا لم تطأه قدم انسان فان من قبل • ثم عبر بحرا مترامى الأطراف ، كما عبر بحر الموت عن طريق جسر ضيق • وفى النهاية وجد نفسه فى حضرة « أوتنابشتيم » • ولكنه عندما طرح عليه سؤاله عن كيفية حصول الانسان على الخلود ، كانت اجابة جدة الكبير عن سؤاله غير مرضية ؛ فلقد أخبره هذا الانسان الحكيم أن الانسان لم يقدر له الخلود • ولما تعجب جلجامش من هذه الاجابة التى صدرت عن شخص كان هو نفسه انسانا فانيا ثم أصبح خالدا فيما بعد ، كان من الطبيعى لجلجامش أن يطلب من جده الجليل أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من النهاية المحتمة لكل انسان • ولكى يجيب « أوتنا بشتيم » عن ذلك ، أخذ يقص على جلجامش قصة الطوفان الكبير التى تجرى على النحو التالى :

تحدث « أوتنابشتيم » الى جلجامش وقال : « سأكشف لك ياجاجامش عن كل كلمة خبيئة ، وسأفشى لك غرض الآلهة من وراء منحها اياى الخلود : فأنت تعرف مدينة « شوريباك » ، تلك المدينة القديمة التى تقع على شاطىء الفرات • لقد حثت الآلهة التى كانت تسكن تلك المدينة ، كبار الآلهة على أن يرسلوا طوفانا الى الأرض • وقد كان مجمع الآلهة يضم « آنو » أبا الآلهة ، « وانليل » مستشارهم الحربى ، « ونينيب » رسولهم ، « وأنوجى » أميرهم ، كما كان يجلس معهم كذلك رب الحكمة « ايا» الذى ردد نداءهم الى كوخ البوص قائلا : « أيها الكوخ المصنوع من البوص ••أيها الكوخ المصنوع من البوص •• ويا أيها الحائط • يا أيها الحائط استمع الى واصغ الى أيها الحائط • ويا رجل «شوريباك» ، ابن « أوبارا ــ توتو » • أهدم بيتك

وابتن سفينة ، واهجر ممتلكاتك ، واستمع لندائى انقاذا لحياتك .. فقد استقر رأى الآلهة على أن تنقذ حياتك . فانج بنفسك وخذمعك فى السفينة كل نوع من أنواع الحبوب . أما عن السفينة التى ستبتنيها ، فينبغى أن تبنى بدقة محكمة ، بحيث يكون طولها وعرضها متناسقين ، لأنك ستبحر بها فى عرض المحيط . عند ذاك انتبهت الى الهى « ايا » وقلت له : ان الأمر يا الهى الذى أمرتنى به سأحترمه وأنفذه ، ولكن ماذا أقول للناس ولشيوخ قومى؟ ففتح «ايا» فاه وتحدث الى أنا العبد وقال : « اذا سألك قومك عن هذا الأمر فقل لهم : ان « انليل » يكرهنى ، ولذلك لن أبقى بينكم بعد اليوم ، ولن أدع رأسى يستقر على أرض « انليل » ، بل يتحتم على بعد اليوم أن أغوص فى قاع البحر وأسكن هناك مع الهى « ايا » . وأطاع «أوتنابشتيم » أوامر الإله «ايا» وأخذ يجمع الأخشاب وكل ما يحتاج اليه لبناء السفينة . وفى اليوم الخامس صنع هيكل السفينة فى شكل سفينة بضائع وبنى فى وسطها مسكنا بلغ ارتفاعه مائة وعشرين ذراعا ، وقسمه الى ستة طوابق ، فى كل طابق تسع حجرات ، ثم ربط بالسفينة مصارف للمياه وطلاها من الخرج بالقطران ومن الداخل بالقار . ثم أمر باحضار الزيت وذبح الثيران والخراف وملأ الدنان بنبيذ السمسم وزيته ونبيذ العنب . ثم أخذ الناس يشربون النبيذ كما لو كانوا يشربون من نهر . وأقام وليمة شبيهة بوليمة العام الجديد . وبعد أن جهز السفينة بكل شىء ، ملأها بكل ما لديه من ذهب وفضة ، وكل ما لديه من حبوب . ثم أدخل فيها أفراد أسرته وخدمه وكل ما معه من قطعان الماشية والوحوش وأصحاب الحرف . وأخذ «أوتنابشتيم» ينتظر الوقت المحدد الذى عينه اله الشمس « شمس » عندما قال لأوتنابشتيم : ان اله الظلام سيرسل الى الأرض مطرا غزيرا ، فاذا حان هذا الوقت ، فأدخل سفينتك وأوصد بابها » . وأخذ الوقت المحدد يقترب ، وفى المساء أرسل اله الظلام المطر الغزير . ولما هبت العاصفة عرفت أن البداية قد حانت ، ولكننى كنت خائفا من أن أنظر الى العاصفة . وعند ذاك دخلت الى السفينة وأوصدت بابها ، وسلمت القصر (العائم) بكل ما فيه الى

ربان لسفينة وبحارها « بوزور أمورى » • وعندما بزغ الفجر ظهرت فى الافق سحابة سوداء يدوى فى وسطها صوت الاله « رمان » وأمامه يسير الالهان « موجاتى » و « لوحال » • وكان الثلاثة يمرون كالملائكة فوق الجبال والأرض • ومزق « اراجال » سارية السفينة • ثم جاء « نينيب » وفجر العاصفة ، كما حمل « أنوناكى » • شعلات النار الملتهبة ، فأضاء الأرض ببريقها • ثم صعدت زوبعة « رمان » الى السماء وتحولت الأضواء جميعا الى ظلام » • لقد ظلت العاصفة تهب نهارا كاملا ، وارتفعت المياه حتى وصلت الى قمم الجبال ، « ولم يعد الرجل يبصر أخاه ، ولم يعد الرجال يعرف بعضهم بعضا • وانتاب الفزع الآلهة وهى قابعة فى سمائها ، فتراجعت وصعدت الى السماء « آنو » ، وربضت كما تربض الكلاب ، وجثمت الى جانب الحيطان • وصرخت « عشتروت » صراخ المرأة التى جاءها المخاض ، وأخذت ملكة الآلهة تعول بصوتها الجميل وتقول : اللعنة على ذلك اليوم الذى أمرت فيه مجتمع الآلهة أن يحل الشر بالشر •• ولكننى حين أمرت بدمارهم ، أردت أن يتم هذا عن طريق القتال • فأين هذا الذى قد أمرت به ؟ انهم يملأون البحر كبيض السمك » • وبكى آلهة « أنوناكى » معها ، وخروا ساجدين وهم يبكون وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض وأخذت الريح تهب ستة أيام وست ليال ، وأغرق الطوفان الأرض وشملتها العاصفة • وعند اقتراب اليوم السابع ، أخذت تهدأ العاصفة والزوبعة والطوفان ، بعد أن كانت تحارب جميعا محاربة الجيش لأعدائه • ثم سكن البحر وهبطت مياهه كما خمدت الزوبعة والفيضان تماما • ونظرت الى البحر ، فاذا هو ساكن واذا بالناس قد تحولوا الى كتل من الطين • وأبصرت المستنقعات أمامى وقد استقرت مكان الحقول • فلما فتحت نافذة السفينة ، سقط النور على وجنتى ، فخررت ساجدا وبكيت حتى انساب الدموع على خدى ، ونظرت الى العالم فاذا كل شىء قد تحول الى بحر • وبعد مرور اثنى عشر يوما برزت جزيرة وسط المياه ، فأبحرت بالسفينة فى اتجاه أرض « نيسير » ، والتصقت السفينة بجبل «نيسير» ولم تنزلق • ومر اليوم الأول والثانى والسفنة ملتصقة بالجبل • ومر

اليوم الثالث والرابع والسفينة لا تزال ملتصقة بالجبل ؛ ثم مر اليــوم الخامس والسادس وكان الجبل لا يزال ممسكا بالسفينة . وفى اليوم السابع أطلقت حمامة من السفينة . وأخذت الحمامة تطير هنا وهناك . ولما لم تجد مكانا تستقر عليه عادت الى السفينة . فأطلقت من بعدها طائر السنونو نطار هنا وهناك ولم يجد كذلك مكانا يستقر عليه وعاد الى السفينة . ثم أطلقت غرابا فى المرة الثالثة . وأبصر الغــراب أن الميــاه قد انحسرت عن الأرض ، فغاص فى الطين وأخذ ينبش بمنقــاره ويأكل ، ونعق ولم يعد . عند ذاك أطلقت الطيور جميعا لتطير فى الجهات الأربع ، وقدمت الضحية للآلة على قمة الجبل وسكبت عليها الخمــر .

وفى اليوم السابع أعددت أوعية الطهى وأشعلت تحتها الغــاب وخشب السدر والرند . واشتمت الآلهة الرائحة الطيبــة ، فاجتمعت حولها كالذباب واشتركت فى تقديم الضحية . واقتربت ملكة الآلهة ، ورفعت الجواهر العظيمة التى كان « آنو » قد صنعها لها وفقا لرغبتها ، وقالت :« أيتها الآلهة ، كما أننى لن أنسى حلى اللازورد التى ارتديها حول عنقى ، فاننى سوف أذكر هذه الأيام بحق ولن أنســاها أبدا . فدعوا الآلهة تحضر لتقدم الضحية ، ولكن « انليل » لن يشترك معها ، لأنه لم يشارك الآلهة الرأى فى أمر الطوفان وأرســله الى الأرض فتسبب فى دمار شعبى » . فلما اقترب انليــل من الآلهة وقال : « من ذا الذى نجا بحياته ؟ اننى لن أسمح لانسان أن يعيش بعد هذا الدمار » . عند ذاك فتح « نينيب » فمه وقال للمحــارب « انليــل » : ومن ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا خلاف الاله « ايا » ؟ ان « ايا » هو الذى له علم بكل الأمور » . ففتح « أيا» فمه وقال للمحارب «انليل » : انك أيها المحارب رئيس الآلهة ، ولذلك لم تستشر الآلهة فى موضوع الطوفان . وأرسلته إلى الأرض من تلقاء نفســك . وكان ينبغى أن يلقى الآثم جزاء اثمه والمذنب جزاء ذنبه . فلتعمل الآن ما يحول دون القضاء على الجنس لبشرى بأجمعه ، ولتكف عن احلال اللعنة بكل شىء . لقــد كان فى وسعك أن ترسل الى الأرض أسدا بدلا من الطوفان فيلتهم الناس .

وكان من الممكن أن ترسل اليهم نمرا أرقط فيفترسهم جميعا. وكان من الممكن أن ترسل الى الأرض مجاعة فلا تتركها الا خرابا ، أو ترسل اليها اله الوباء فيقضى على الجنس البشرى . على اننى بعد كل هذا لم أكتشف بنفسى ما تنوى فعله ، بل جعلت « أتراكهاسيس » «أترخاسيس» يرى رؤيا ، فاستمع فى رؤياه الى ما تنوى الآلهة فعله ». واستقر رأى « انليل » إثر هذا الحديث على قرار ، فصعد الى ظهر السفينة وأخذ بيدى ، وأحضرنى أنا وزوجتى وجعلها تركع الى جانبى ..

ثم اتجه الينا ووقف بيننا وباركنا (قائلا) : « ان أوتنابشتيم » كان يعد انسانا حتى هذه اللحظة ، أما الآن فقد أصبح « أوتنابشتيم » وزوجته شبيهين بالآلهة ، حتى بنا نحن . والآن دعوه يسكن هو وزوجته بعيدا عند منبع الأنهار » . وعند ذاك أخذت الآلهة بيدى وسارت بى بعيدا عند منبع الأنهار ، وتركتنى أعيش هنا فى هذا المكان » .

هذه هى قصة الطوفان التى تدخل فى نسيج ملحمة جلجامش . ولعله يتضح لكل دارس ، أن هذه القصة لم تكن لها فى الأصل صلة بالملحمة . وقد احتفظ لوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة. وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة جلجامش بين أنقاض مكتبة « آشوربانيبال » فى « نينوى » . وهذا اللوح يحتوى على جزء من الحديث الذى قيل انه دار بين الاله « أيا » ونوح البابلى قبل أن يحدث الطوفان . ونوح البابلى هنا يدعى « أترخاسيس » وهو اسم أطلق عليه فى الملحمة ، لأنه فى غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى « أتر خاسيس » ، بل «أوتنابشتيم » . ويقال : ان «أتر خاسيس» هو الاسم البابلى الأصلى .

وقد ورد نص « بيروسوس » عن أسطورة الطوفان تحت اسم « اكسيسوثروس » . وقد أمر الاله « ايا » فى الرواية الثانية التى احتفظ بها كذلك لوح مكسور تلك التى أشرنا اليها وشيكا ، أمر

« أتراكهاسيس » قائلا : أدخل السفينة وأغلق بابها دونك ، وخذ معك غذاءك وبضاعتك وممتلكاتك (وزوجتك) وأسرتك وعمالك وقطيعك ووحوش حقلك ، بقدر ما تأخذ من صنوف الحيوان آكلة العشب » . وعند ذاك رد البطل على الاله بأنه لم يسبق له أن ابتنى سفينة ، وتوسل اليه أن يرسم له على الأرض خطة السفينة لكى يستعين بها عند بنائها .

وبناء على ذلك فان الروايات البابلية لأسطورة الطوفان ترجع فقط الى عصر « آشور بانيبال » أى أنها ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد . ويمكننا أن نتصور أن هذه الروايات ترجع الى رواية أصلية أكثر قدما من الرواية العبرية ومنقولة عنها . وعلى كل فان الشواهد القاطعة للآثار القديمة الهائلة لأسطورة الطوفان البابلية تؤيدها الكتابات المدونة على لوح مهشم اكتشف فى مدينة « أبو حبة » التى تقع الآن مكان مدينة « سيبار » القديمة ؛ وذلك فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها الحكومة التركية . ويحتوى هذا اللوح على رواية مشوهة كل التشويه ، ومدون عليها تاريخ كتابتها على وجه التحديد . فهناك فى نهاية الخطوط كلمات أو حاشية تذكر أن اللوح قد كتب فى الثامن من شهر « شباطو » (وهو الشهر الحادى عشر من السنة البابلية) فى السنة الحادية عشرة من حكم الملك « عمى صادوقا » أى حوالى عام ١٩٦٦ ق . م . ولسوء الحظ أن هذا اللوح عبارة عن كسر كثيرة متفرقة لا يستطيع الباحث أن يستخلص منها سوى مادة ضئيلة . ولكن اسم « أثرخاسيس » يرد فى ثناياها ؛ بالاضافة الى اشارات الى المطر الغزير وكذلك الى السفينة فيما يبدو ، ودخول الأفراد الذين أنقذوا فيها .

بل هناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت فى « نيبور » فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها جامعة بنسيلفانيا . وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق . وقو رأى الأستاذ هـ . و . « هيلبرخت » . مرتكزا على أسلوب كتابة

هذه الرواية ، وعلى المكان الذى عثر عليها فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد سنة ٢١٠٠ ق ٠ م ٠ وقد ورد فى هذه الرواية أن الاله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى فى الحال ، وحذر من هذا الطوفان شخصا بعينه ، فطلب منه أن يبتنى سفينة كبيرة ذات سقف قوى لينجو فيها بحياته ؛ وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء •

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية، البابلية والأشورية • لكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية • وهذه الرواية مكونة من مقتطعات متفرقة عثر عليها علماء الآثار الأمريكيون فى « نيبور » ، وقد فكت رموزها أخيرا • ومعنى هذا أن هذه الرواية قد دونت بلغة غير سامية كان يتكلم بها الشعب الذى يبدو أنه كان يعيش فى بابل قبل الساميين ، وأسس فى وادى الفرات الأدنى ذاك النظام الحضارى المرموق الذى نسميه عادة بالحضارة البابلية • وقد كانت مدينة « نيبور » التى عثر فيها على هذه الرواية أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز دينى فى بابل • كما كان « انليل » اله المدينة ، رئيس مجمع الآلهة « البانثيون » البابلى • ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها الأسطورة المدونة على هذا اللوح أنها كتبت فيما يقرب من عصر الملك الشهير « حمورابى » ملك بابل ، أى أنها دونت فى حوالى سنة ٢١٠٠ ق ٠ م ٠ على أنه من المؤكد أن الحكاية نفسها ترجع الى عصر أقدم من ذلك • ذلك أنه فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كتب فيه هذا اللوح ، لم يكن هناك وجود للسومريين بوصفهم عنصرا مستقلا ؛ اذ كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى • كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة ؛ وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة فى ثنايا الآداب ، ويعيدن كتابتها • من ثم فان اكتشاف رواية قصة الطرفان السومرية يدعو الى افتراض أن الاسطورة نفسها يرجع تاريخها الى زمن سابق

على احتلال الساميين لوادى الفرات ، هؤلاء الساديون الذين أخذوا هذه الأسطورة فيما يبدو ، بعد هجرتهم الى وادى الفرات ، عن السومريين الذين سكنوا بابل قبلهم • ومن الطريف أن نلاحظ أن الرواية السومرية لقصة لطوفان تكون تكملة لحكاية عن خلق الانسان عثر عليها ، لسوء الحظ ، فى شكل مقتطعات متفرقة • ووفقا لهذه الحكاية خلقت الآلهة الانسان قبل الحيوان • ومن ثم فان الحكاية السومرية تتفق مع الحكاية العبرية فى سفر التكوين ، من حيث أن كلتيهما تعالج موضوع خلق الانسان وحادثة الطوفان بوصفهما حادثتين حدثتا فى فجر تاريخ الحياة ، وترتبط احداهما بالأخرى كل الارتباط وأكثر من هذا فان القصة السومرية تتفق مع المصدر اليهودى • وتعارض المصدر الكهنوتى فى الوقت نفسه ، من ناحية أن الاله خلق الانسان أولا قبل خلقه صنوف الحيوان •

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يعثروا الا على النصف السفلى من اللوح الذى نقشت عليه قصة الخلق السومرية ، فان هذا القدر يكفى مع ذلك لأن يمدنا بالخطوط الأساسية لقصة الطوفان • ففى هذا الجزء نقرأ أن « زيو جيدو » أو بالأحرى « زيود سودو » كان ذات يوم ملكا كاهنا للاله « انكى » ، وهو الاله السومرى الذى يوازى الاله « ايا » السامى • وقد كان هذا الملك الكاهن ينشغل كل يوم بخدمة الاله ، ويدأب على خدمته فى خشوع ، ويطيل النظر الى المكان المقدس • ولكى يكافئه الاله « انكى » على ورعه ، فقد أخبره بأنه قد تقرر فى مجمع الآلهة ، بناء على طلب الاله « انليل » ، أن ترسل الآلهة الى الأرض عاصفة ممطرة تقضى على أصل الجنس البشرى • وقبل أن يتلقى الكاهن هذا التحذير فى حينه ، طلب منه صديقه الاله أن يقف بجانب حائط وقال له : « قف عند الحائط الذى يقع على جانبى الأيسر وعند هذا الحائط سأسر اليك بكلماتى » • ومن الواضح أن هذه الكلمات تتصل بالعبارة الغريبة فى الرواية السامية ، وهى تلك العبارة التى بدأ بها الاله « ايا » تحذيره الى « أوتنابشتيم » وقال له : « أيها الكوخ

المصنوع من البوص ، أيها الكوح المصنوع من البوص ، ويا أيها الحائط ، استمع الى أيها الكوخ وأنصت الى أيها الحائط » .

وكلتا العبارتين تشير الى أن الاله الطيب الذى لم يشأ أن يفشى قرار الآلهة للانسان الفانى بطريق مباشر اصطنع حيلة افشاء السر الى حائط البوص الذى كان على « زيود سودو » أن يقف بادىء الأمر عند جانبه الآخر . وبذلك علم الانسان الطيب بالسر الخطير عن طريق استراق السمع . فى حين استطاع الاله أن يدعى فيما بعد أنه لم يفش القرار الذى اتخذته الآلهة فى مجتمعها . وتذكرنا هذه الحيلة بالحكاية المشهورة التى تحكى أن خادم الملك « ميداش » اكتشف أن لسيده أذنين كأذنى الحمار . ولما لم يستطع أن يكتم هذا السر فى نفسه ، فقد أسر به الى جحر فى الأرض ، ثم غطى الجحر بالتراب . وفى الحال نما حوض من نبات البوص فوق الجحر ثم هبت الرياح فأذاع حفيف البوص عيب الملك على الملأ . وقد فقد شطر اللوح الذى كان من المحتمل أنه يصف بناء السفينة ولجوء « زيوو سودو » اليها . ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الاله للانسان الى موضوع الطوفان ويصف المخطوط العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعا . ثم تستمر الرواية بعد ذلك فتقول : « وبعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد أن حمل الريح العاصف السفينة على المياه المضطربة ، ظهر اله الشمس وهو يسكب الضوء على السماء والأرض » . وعندما اخترقت أشعة الشمس وقدم ثورا وشاة ضحية له . ثم يلى ذلك فجوة فى المخطوط ، وبعدها نقرأ أن الملك « زيود سدو » خر ساجدا للالهين « آنو » و « انليل » . ويبدو أن غضب الاله انليل من الجنس البشرى قد هدأ بعد ذلك ، لأنه يقول موجها حديثه الى « زيودسودو » « لقد منحته حياة كحياة الآلهة ، وخلقت له روحا خالدا كروح الآلهة . وهذا يعنى أن بطل أسطورة الطوفان ، أى نوحا السومرى قد وهب الخلود ، ان لم يكن قد اكتسب هبة الألوهية . ثم خلعت عليه الآلهة بعد ذلك لقب « الشخص الذى حافظ على سلالة

الجنس البشرى » ، كما جعلته يسكن جبلا يبدو أنه جبل « ديلمون » ذلك ان اسم الجبل غير واضح على وجه التأكيد • أما نهاية الأسطورة فمفقودة •

وهكذا نرى أن قصة الطوفان السومرية تتفق فى ملامحها الأساسية مع قصة الطوفان التى تحتوى عليها ملحمة جلجامش ، تلك القصة التى تتميز عن أختها السومرية بطولها البالغ وكثرة حوادثها • ففى كلتا القصتين قرر اله كبير (« انليل » أو « بل ») أن يهلك الجنس البشرى عن طريق اغراق الأرض بالأمطار • وفى كلتيهما حذر اله آخر (هو « انكى » أو « ايا ») رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل الذى قبل النصح بأن لجأ الى السفينة التى أمره الاله ببنائها • وفى كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته فى اليوم السابع • وفى كلتيهما قدم الانسان ضحية للآلهة بعد أن انتهى الطوفان • ثم رفعته الآلهة بعد ذلك الى مصافها •

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين فيتمثل فى اسم البطل فيهما • فهو فى الرواية السومرية يدعى « زيود سودو » • وفى الرواية السامية يدعى « أوتنابشتيم » أو « أثر خاسيس » • والاسم السومرى « زيود سودو » يشبه اسم « اكسسوثروس » وهو الاسم الذى أطلقه « بيروسوس » على البطل الذى أنقذ فى حادثة الطوفان • فاذا كان الاسمان متشابهين حقا ، فان هذا يجعلنا نعجب لاخلاص المؤرخين البلبليين فى اقتناء أقدم الآثار المدونة •

ان اكتشاف هذا اللوح ذى الأهمية البالغة بما يحتوى عليه من قصتين مترابطتين هما قصة الطوفان وقصة الخلق ، يجعل الاحتمال كبيرا فى أن القصص الذى يحتوى عليه سفر التكوين عن فجر تاريخ الحياة ، لم ينشأ أصلا عند الساميين ، بل استمدة الساميون من الذين سبقوهم فى الحضارة ، هؤلاء الذين وجدتهم الجماعات السامية النازحة من الجزيرة العربية مستحوذين على أرض الفرات الأدنى الغنية والذين

تعلمت منهم ـ سلالة هؤلاء البدو البدائيين ـ تدريجيا طرز الحضارة وتقاليدها على النحو الذى اكتسب به برابرة الشمال مظاهر الحضارة بعدما استقروا فى الامبراطورية الرومانية •

٣ ـ قصة الطوفان الكبير العبرية •

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هى مدونة فى سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين فى أصلهما ومتناقضتين تناقضا جزئيا • وقد مزج المؤلف بين القصتين لكى يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل • ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينها بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارىء ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وان كان القارىء غير مدقق فى قراءته ••

واحدى روايتى الأسطورة اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هى مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتى Priestly Document أو القانون ، (ويشار اليه عادة بالحرف P أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر اليهودى Iohovistic Document (ويشار اليه فى العادة بالحرف J) نسبة للاسم المقدس «يهوه»•وكلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافا بينا فى أسلوبه وطبيعته كما أنهما ينتميان الى عصور مختلفة ،فبينما يعد المصدر اليهودى هو الأقدم ، كما يرجح ذلك النقاد ، فان المصدر الكهنوتى يؤخذ على أنه أحدث المصادر الأربعة الرئيسية التى جمع بينها لتكون أسفار العهد القديم الستة الأولى • ويعتقد الباحثون أن المصدر اليهودى قد كتب فى أرض الميعاد فى العصور الأولى من الحكم العبرى ، أى أنه كتب فى القرن الثامن أو التاسع على وجه لاحتمال •

أما المصدر الكهنوتى ، فيرجع تاريخه الى ما بعد عام ٥٨٦ق•م عندما استولى « يختصر » ملك بابل على أورشليم وأخذ اليهود أسرى معه الى بابل • فكلا المصدرين تاريخى فى شكله ، ولكن بينما نجد

مؤلف المصدر اليهودى يهتم اهتماما حقيقيا بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم ، كما يهتم بمغامراتهم ، فان كاتب المصدر الكهنوتى يهتم بهم فى حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة « العناية الالهية » التى يقصد بها تزويد بنى اسرائيل بمعرفة الهية ، وبنظم اجتماعية ودينية ، شاء بها الرب أن ينظم شعبه المختار حياته عن طريقها • فالتاريخ الذى كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتى أكثر منه دنيوى ومونى ، ذلك أنه يهتم بإسرائيل بوصفها أمة دينية لا بوصفها دولة • ومن ثم فانه بينما يسهب الى حد كبير فى وصف حياة شيوخ بنى اسرائيل وأنبيائهم الذين اختارهم الرب ليظهر اهم ، نجده يمر مر الكرام على أجيال كاملة من البشر العاديين الذين لا يذكر أسماءهم الا عابرا ، كما كانوا مجرد حلقات تربط عصراً دينيا بعصر دينى آخر ، أو مجرد خيط تنتظم فيــه على مسافات متبــاعدة ، جواهر الوحى الرائعـــة • وموقفه من الماضى تفسره كل التفسير أحداث العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان عصر بنى اسرائيل الذهبى قد ولى كما انتهى عصر اســتقلالها وانتهت مع ذلك آمالهــا فى البهــاء والرخاء الدنيــوى • أما أحلام الامبراطور المزدهرة ، تلك التى علقت بقلـــوب الناس بتأثير ذكرى حكمى داود وسليمان ، التى ربمــا عاشت مع النــاس فترة من الزمن حتى بعـــد اضمحلال حكم الملوك كأنهــا سحب الصباح ، فسرعان ما تلاشت مع سحب المساء فى حياة أمة ، بتأثير واقع الحــكم الأجنبى الكئيب • ولما كانت كل الطرق التى تؤدى الى الطموح الدنيوى الخالص قد ســدت دون الشعب الاسرائيلى ، فقــد وجدت مثاليــة المزاج الوطنى التى لا تخمد متنفسا لها فى اتجاه آخر ، كما اتخذت أحلامها شــكلا آخر • فإذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت دون آمال هذا الشعب ، فان أبواب السماء كانت لا تزال مفتوحة • ومن ثم فقد نصب الاسرائيلى الحالم سلما وراء السحب لكى يهبط عليه حشد من الملائكة يرعون روحه الهائم ويواسونه ، على نحو ما فعل يعقوب عند « بيت ايل » ؛ والأعداء من قدامه ومن ورائه • باختصار فإن قادة بنى اسرائيل كانوا يبحثون عن سلوى وتعويض لأمنهم فى مقابل المذلة التى كانت تعانيها فى حياتهــا

الدنيوية ، وذلك عن طريق رفعها الى درجة عالية من الروحانية • ولكى يحقق القادة هذا الغرض فانهم وضعوا ، أو بالأحرى ــ أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الالهية الاستئثارية بها ، وبذلك تصبح « صهيون »[1] المدينة المقدسة ــ مركزا لملكة الرب فى الأرض وموئل بهجتها •

وبهذا الطموح وتلك الأهداف أخذ نفوذ رجال الدين يتزايد فى الحياة اليومية كما أصبحت اهتمامات الحياة تتجه نحو بيوت العبادة . وأصبح تأثيرها السائد روحانيا ، فقد حل الكاهن الأكبر محل الملك ، بل ان هذا الكاهن كان يرث من سالفه الأردية الأرجوانية والتاج الذهبى • وأصبحت الثورة ، التى استبدلت بعدد من الحكام المدنيين فى أورشليم عدد من الأحبار ، شبيهة بثورة روما فى العصور الوسطى التى حولتها من نظام القياصرة الى نظام حكم البابوات •

هذه الحركة الفكرية ، وهذا التيار من الطموح الدينى ، اللذان اتجها بعنف وجهة كهنوتية ، انعكسا ، أو بالأحرى تبلورا ، فى المصدر الكهنوتى ، فقد انعكست الأبعاد الأخلاقية والفكرية لهذه الحركة فيما ماثل هذا من أبعاد أخلاقية وفكرية لدى الكاتب • فهو لم يهتم الا بالجانب الشكلى للدين • وهو لا يستشعر المتعة الحقيقية،الا عندما يتعرض لتفاصيل الطقوس والاحتفالات وتفصيل الأثاث والملابس الدينية • أما الجانب العميق من الدين ، فهو بالنسبة اليه كتاب مغلق ، اذ قلما ينظر الى الجوانب الأخلاقية والروحية لهذا الدين ،كما أنه لا يسبر على الاطلاق أغوار مشكلات الخلود وأصل الشر • تلك المشكلات التى أثارت النفوس المتسائلة عنها فى جميع العصور • فقد كان الكهنوتى ــ باستغراقه فى تفاصيل الطقوس التافهة ، وعدم اكتراثه بالشئون الدنيوية الخالصة ، وولعه بالتقويم والأنساب والتواريخ والأرقام ، أو اهتمامه على الجملة بالهيكل العظمى للتاريخ أكثر من

---

(١) بيت المقدس . (المترجمة)

اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه ـ كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين فى العصور الوسطى ، الذين كانوا ينظرون الى الحياة العريضة من خلال كوة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذى الألوان المتعددة • ولقد ضاق أفق تفكير المؤرخ الكهنوتى ، كما تلونت نظـرته للأحداث وفقا للوسيلة التى كان ينظر من خلالها اليها • فقد صور مباهج المعبد المتنقلة فى القفار ، تلك المباهج التى كانت تغيب عن كل العيـون سوى عينه هو ؛ صورها كما لو كانت تلوح لخيـاله الدافىء من خلال الأضواء الأرجوانية التى يعكسها شباك ذو زجاج وردى ، أو من خلال الألواح الزجاجية الرائعة لشربية تتماوج منها الأضـواء • بل انه لم يكن يرى العمليات الطبيعية البطيئة أو الكوارث المفاجئـة ، تلك التى شكلت مادة الكون أو غيرتها ، لم يكن يرى فيها أكثر من كونها امارات ومعجزات من الرب يعلن بها عن ظهور حقب جديدة من حياة الشرائع الدينية • وكذلك لم تكن عملية الخلق بالنسبة اليه سوى تمهيد كبير ليوم الراحة والعبادة عند اليهود وهو يوم لسبت ؛ كمـا أن قبو السـماء المتلالىء بالأضواء الساطعة لم يكن سوى طبق مستدير رائع مقسم الى درجات ، تتحرك عليه أصابع الرب الى الأبد لتشير الى مواسم الأعياد الصحيحة المثبتة فى التقويم الدينى • وأما الطوفان الذى قضى عـلى الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلم يكن سوى مناسبة خلقهـا الرب النادم ليقيم عهدا بينه وبين الأحياء البؤسـاء الذين نجـو من الطوفان • كما لم يكن قوس قزح الذى يستطيع باشعاعاته المتلونة بين السحب المعتمة سوى الخاتم الالهى المذيل لهذا العهـد ضمانا لأصالته وصفته الملزمة •

ولأن المؤرخ الكهنوتى كان محاميا بقدر ما كان كاهنا ، فقـد بذل جهدا مضنيا لاثبات أن علاقات المحبة بين الرب وشـعبه ترتكز عـلى أسس شرعية صارمة ، حيث انها قد وثقت بمجموعة من العهـود التى قبلها الطرفان بكل ما تتطلبـه من التزامات • وهو لا يكون فى أحسـن حالاته الا عندما يعرض لهذه العهود ؛ وهو كذلك لا يكل على الاطلاق

من ذكر مجموعات صكوك التمليك الاسرائيلية الطويلة • ولا يجد هذا الرجل الاثرى الجاف ، والطقوسى الجامد مجالا يسترخى فيه استرخاء معقول من صرامته المألوفة ، ولا يجد مجالا يسلك فيه مسلكا خاليا من التوتر والتحفظ ، الا عندما يسهب فى موضوعات العهود ووثائق التمليك الملائمة لمزاجه • ومن المسلم به أن تحفة قصصه التاريخى هى حكاية مفاوضة ابراهيم الأرمل مع أبناء الحيثيين لكى يحصل على قبو عائلى يدفن فيه زوجته • ولم تخفف الطبيعة المحزنة لهذا العمل من حيوية القاص الحرفية ، كما أن الصورة التى صور فيها هذه القصة تجمع بين لمسات لا تنقصه البراعة ، والدقة البالغة لكاتب حجج متمرن • ولايزال المنظر الكلى لتلك الحقبة البعيدة من الزمن يمر بحذافيره أمام أعيننا ، وكما يمكن أن تشاهد اليوم فى الشرق عندما يتطاحن شيخان عربيان من أصل طيب فى براعة حول عمل من الأعمال ، وهما يراعيان مراعاة دقيقة الشكليات الرسمية ، وآداب الدبلوماسية الشرقية •

ولكن مثل هذه الصور نادرة بحق فى معرض صور هذا الفنان ، فهو قلما يحاول وصف المناظر الطبيعية ، كما أن صور أشخاصه غير متقنة وتنقصها مشخصاتها الفردية والحياة والألوان • وفيما يتصل بتصويره لموسى الذى خصه بأكبر قدر من عناية ، فان صورة هذا القائد الكبير لا تفوق صورة التمثال الأصم الا فى قليل ، كما أن وظيفته تقتصر على توزيع اللباس وغطاء الرأس الكهنوتيين •

على أن الصور التى وصلتنا من زمن حكم الشيوخ عن طريق مؤلف المصدر اليهودى تختلف عن تلك التى وصلتنا عن مؤلف المصدر الكهنوتى كل الاختلاف ؛ فليس هناك ما يبزها فى الأدب ، أو يقف معها على قدم المساواة ، فى صفاء شكلها واشراق لمساتها ورقتها ودفء ألوانها • وان أقل لمسات من ريشة فنانها ، لتحدث أجمل تأثير • ذلك أن كل لمسة منها انما تصدر عن أستاذ فى فنه يعرف بالغريزة على وجه التحديد ما يدعه وما يبقيه ، فبينما يبدو لنا أنه يركز كل التركيز فى مقدم الصورة حول الشخوص الانسانية التى تبرز من الصورة وهى

تنبض بالصدق . اذا به فى الوقت نفسه يحتال على الأمر ليبرز الطبيعة من خلف هذه الشخوص بقليل من الرشاقة الفنية ولمسات تكاد لاتحس؛ وذلك لكى ينجز صورة منسجمة تعلق بذاكرتنا الى الأبد • فمنظر يعقوب وراحيل عند البئر ، على سبيل المثال ، وقد استلقى حول البئر قطيع الخراف فى حرارة الظهيرة القائظة ، هو منظر ينبض بالحياة من خلال ألفاظ الكاتب كما تنبض صورة رفائيل من خلال ألوانه •

والى جانب اختيار الكاتب بعناية لما يستحق التصوير من صور الحياة الانسانية ، يضفى على أوصافه للرب براءة جذابة وطابع البساطة القديمة • ذلك أنه يحملنا الى الزمن القديم الذى لم يكن يعتقد فيه الانسان بأن هناك هوة شاسعة تفصله عن الرب • ففى صفحاته تقرأ كيف أن الرب شكل الانسان الأول من الطين كما يشكل صبى صورة لطفل من قطعة الطين ، وكيف أنه مشى الى الجنة فى المساء الرطب ، وصاح بالأبوين اللذين كانا قد ملأهما الخزى من فعلتيهما ، واختفيا وراء الأشجار ، وكيف صنع لهما ملابس من الجلد لكى يخفيا بها عورتها بدلا من أوراق التين الهزيلة ، وكيف أنه أغلق باب السفينة بعد أن دخلها نوح ، وكيف أنه اشتم رائحة الضحية المشوية ، وكيف أنه هبط من السماء لينظر الىبرج بابل ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن يتمكن من رؤيته من على • وكيف أنه تحدث الى ابراهيم عند باب خيمته فى الحر القائظ وفى ظل شجرة السنديان الهامسة ، وباختصار فان عمل هذا الكاتب الممتع كله يفيض بنفحات شاعرية تمتزج بشىء من عبير الزمن القديم ونضرته ، مما أكسب عليه سحرا خالدا يفوق كل وصف •

وتتميز العناصر التفصيلية التى تتألف منها قصة الطوفان فى سفر التكوين ، والتى أسهم فى كتابتها كلا الكاتبين : اليهوى والكنهوتى — يتميز بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة • فاذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية فان أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب فى كلا المصدرين ، فهو فى المصدر اليهوى « يهوه » وهو فى المصدر الكهنوتى

« الوهيم » ؛ وكلا الاسمين نقلتها « الترجمة الانجليزية المعتمدة » على التوالى الى كلمتى « السيد » و « الرب » • والمترجمون الانجليز فى استبدالهم كلمة « سيد » بكلمة « يهوه » ، انما يفعلون فعل اليهود الذين يستبدلون — عندما يقرءون كتابهم المقدس بصوت عال — بكلمة « يهوه » كلمة « أدوناى » أو « السيد » ، أينما صادفهم اسم «يهوه» مكتوبا فى النص • ومن ثم يمكن للقارىء الانجليزى أن يدعى ، كقاعدة عامة ، أنه ما دامت كلمة « السيد » يقصد بها الرب فى « الرواية الانجليزية » ، فان الكلمة البديلة لها فى النص العبرى المطبوع هى « يهوه » • أما الكاتب الكهنوتى فانه يتجنب فى قصة الطوفان وفى خلال سفر التكوين استخدام اسم « يهوه » ويستبدل به اسم«الوهيم»، وهو الاسم المألوف للرب عند العبريين • والسبب الذى دفع الكاتب الكهنوتى الى هذا هو أن اسم « يهوه » وفقا لرأيه ، هو الاسم الذى أوحى به الرب لموسى لأول مرة • ومعنى هذا أن الرب لم يكن يسمى فى العصور الأولى السابقة على عهد موسى • أما الكاتب اليهودى فلا يتبنى من ناحية أخرى مثل هذا الرأى فيما يتصل بكون الرب قد أوحى الى موسى باسم « يهوه » ، ومن ثم فهو يسمى الرب بهذا الاسم فى رواياته ، منذ بدء الخليقة دون أن يساوره شك فى هذا الاسم • والى جانب هذا الاختلاف اللفظى الجوهرى بين المصدرين ، هناك اختلافات لفظية أخرى لا تبدو واضحة فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » • فهناك مجموعة من الألفاظ تستخدم فى المصدر اليهوى للدلالة على الذكر والأنثى[1] ، ومجموعة أخرى تخالفها تماما تستخدم فى المصدر الكهنوتى فى نفس الدلالة • كما أن الكلمات التى تنقلها « الترجمة الانجليزية

---

(١) فى المصدر اليهوى يكثر قوله « الشخص وزوجه » (مثلا : التكوين ٢/٧) وفى المصدر الكهنوتى يقول فى مكان ذلك « الذكر والانثى » (مثلا : التكوين ١٩/٦ ، ٩/٧ ، ١٦) •

المعتمدة » الى كلمة « يخرب » (١) مختلفة فى كلا المصدرين ، وبالمثـل الألفاظ التى تنقلها الترجمة الانجليزية الى «يموت » (٢) و « جف »..

على أن الاختلافات المادية بين الحكايات اليهوية والكهنوتيـة لا تزال تلفت النظر الى أكثر من ذلك . وحيث ان هذه الاختـلافات تصل فى بعض الحالات الى حد التناقض القاطع ، فان اثبـات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل الى حد اليقين.فالحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيـوانات الطـاهرة والحيـوانات النجسة ، وبينما أخذ نوح معه فى الفلك سبعا من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من صنف الحيوان النجس . أما الكاتب الكهنوتى فلم يميز ، من الجهة الأخرى بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهى على قدم المساواة مع بعضها البعض . وان كان قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف . والسبب فى هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتى لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فان نوحا لم يكن يعرفهـا . أما الكاتب الذى لم يتعب نفسه بالتفكير فى هذا الموضوع ، فقد ادعى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسـة كانت معروفة لدى الجنس البشرى منذ العصور الأولى ، كمـا لو كانت هذه التفرقة ترتكز عى أساس طبيعى واضح كل الوضوح بحيث لا يخطئها أحد .

ثم ان هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة

---

(١) فى المصدر اليهوى « محا » (التكوين ٦/٧ ، ٧/٤ ، ٢٣) وفى المصدر الكهنوتى « دمر » (التكوين ٦/١٣ ، ١٧ ، ٩/١١ ، ١٥) .

(٢) الفعل مات يترجمه العرب عن العبرية بهذا اللفظ وهو من المصدر ليهوى . اما ما يقوله فريزر أن معناه جف فهو من المصدر الكهنوتى ، ويترجمه عادة بالفعل « هلك » .

الفيضان ، فقد ظلت الأمطار تهطل فى قصة الكاتب اليهوى مدة أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم ظل نوح فى فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته • ووفقا لهذا الحساب فان الفيضان يكون قد دام واحدا وستين يوما • أما فى الحكاية الكهنوتية ، فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوما ، وبعدها أخذت المياه فى الانخفاض • أما مدة الطوفان فى العموم فقد استغرقت اثنى عشر شهرا وعشرة أيام • وحيث أن الشهور العبرية كانت شهورا قمرية فان الاثنى عشر شهرا تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما • واذا أضفنا الى هذا الرقم عشرة أيام أخرى فان المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أى ثلاثمائة وأربعة وستين يوما • وحيث أن الكاتب قد حسب مدة الفيضان بما يساوى سنة شمسية ، فانه يمكننا أن ندعى ونحن مطمئنون ، أن هذا الكاتب قد عاش فى الزمن الذى استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ فى التقويم القمرى عن طريق مراقبتهم للشمس •

ومرة أخرى يختلف الكاتبان فى مصدر الفيضان ، فبينما يعزوه الكاتب اليهوى الى الأمطار ، يعزوه الكاتب الكهنوتى الى تدفق المياه الباطنية الى جانب سقوط الأمطار الغزيرة •

وأخيرا فان الكاتب اليهوى يحكى عن بناء نوح للهيكل وتقديمه الضحية للرب شكرا له على انقاذه من الطوفان ، فى حين أن الكاتب الكهنوتى لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية • وسبب هذا بدون شك هو انه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون اللاوى الذى انشغل به الكاتب الكهنوتى • كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادى مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتى لحظة فى أن ينسبه الى الشيخ المبجل •

وبناء على ذلك فان الموازنة بين الحكايات اليهوية والكهنوتية تؤكد

بصورة واضحة النتيجة التى توصل اليها النقــاد وهى أنهمــا كانا فى الأصل مستقلين، وأن الحكايات اليهودية تعد أقدم بحق من الحــكايات الكهنوتية • على أنه من الواضح أن الكاتب اليهودى كان يجهل قانون المكان المقدس الواحد الذى يحــرم تقــديم الضحيــة فى أى مكان غير أورشليم • ولما كان هذا القانون قد أعلنه الملك « يوشــيا » لأول مرة ، ونفذه عام ٦٢١ ق•م• فانه يترتب على هذا أن المصدر اليهوى قد ألف قبل هذا التاريخ بزمن يحتمل أن يكون طويلا • وهذا السبب نفسه يؤكد أن المصدر الكهنوتى قد ألف بعد هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير فيما يبدو ، حيث أن الكاتب يعترف ضمنا بقانون المكان المقــدس الواحد : حينما رفض أن ينسب الى نوح عملا يخالفه • ويترتب على هذا أنه بينما يكشف الكاتب اليهوى عن لون بعينه من البساطة القديمة ، حيث أرجع بكل بساطة النظم الدينية فى عصره وطبيعــة هذا العصر الى عصــور الحياة الأولى ، فان الكاتب الكهنوتى يكشف عن انعكاسات عصرمتأخر تحددت فيه نظرية فى التطور الدينى طبقهــا الكاتب الكهنوتى علــى التاريخ تطبيقا دقيقا •

وربما كانت المقارنة الســطحية بين حــكايتى الطــوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنــا أن كلتا الحــكايتين لم تنشــأ فى أصــل مستقلتين ، بل من المؤكد أن احداهما اعتمدت على الأخرى ، أو أنهما استمدا معا من أصل واحد • وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا الى محض الصدفة • ففى كلتا الحكايتين قررت القــوى الالهيــة أن تقضى على الجنس البشرى بأن ترسل الى الأرض طوفانا عظيما • وفى كلتيهمــا أفشى الاله هذا السر الى رجل قبل اغراق الأرض بالطوفان • وقد أرشد الاله هذا الرجل الى بناء فلك كبير لكى يأوى اليه فينقذ نفسه وينقــذ معه صنوف الكائنات الحية جميعا • ومن المحتمل أنه ليس من قبيــل الصدفة أن يكن البطل الذى أنقذ من الطوفان فى الحــكاية البابلية ــ وفقا لرواية « بيروسوس » ــ هو ملك بابل العاشر ، وأن يكون نوح فى

الحكاية العبرية هو الرجل العاشر فى نسل آدم • وفى كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار ، بعد تحذير الاله اياه ، سفينة ضخمة مكونة من عدة طوابق ، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب اليهـا الميـاه ، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف • وفى كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة ،فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياما يختلف عددها قلة أو كثرة • وفى كلتيهمـا غرق الجنس البشرى جميعـه فيما عدا البطـل وأسرته • وفى كليتهما أرسل الرجل الذى أنقذ ، طائرين غرابا وحمامة ليرى عن طريقهما ما اذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض • وفى كليتهما عادت الحمامة الى السفينة لأنها لم تجد مكانا تسـتقر فيه ، أما الغراب فلم يعد فى كلتا الحكايتين ، وفى كلتيهما رست السفينة على جبل • وفى كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسـكن غضبها •

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحـكايتين البابليـة والعبرية فى مجموعهما • فاذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات . فاننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب الى الحكاية اليهوية منها الى الحكاية الكهنوتية • فكل من الرواية اليهوية والبابلية تعطى أهمية للعدد سبعة •

فقد حذر نوح ، فى الرواية اليهوية ، من حدوث الطوفان سـبعة أيام على التوالى • كما أخذ معه فى السـفينة سـبعا من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة • ثم ان المسافة الزمنية بين اطلاقه طائرا وآخر كانت سبعة أيام • وبالمثل دام الطوفان فى الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام • كما أن البطل فيها وضع مجموعات من أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية • وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوانات التى اختارها •

وفى كلتيهما صورت الحادثة المثيرة ، حادثة ارسـال الحمـامة ثم الغراب من السفينة • كما أن الضحية قدمت فى كلتا الحالتين ،وقد اشتمت

الآلهة فيهما رائحة الشواء يسكن غضبها • على أننا نجـد من ناحيـة أخرى أن الحكاية الكهنوتية فى سفر التكوين تقترب من الحكاية البابليه فى بعض التفصيلات المحددة ؛ أكثر من اقتراب الرواية اليهوية • ففى كل من الروايتين الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة الى البطل لبناء السفينة • وبناء على هذه التعليمات ، بنيت السـفينتان فى كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق الى عدة حجرات كمـا أنها طليت فى كل منها بالقار أو القطران ، ورست كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الاله عند خروجهما •

فاذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان الى هذا الحد ، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه ؟ ان الرواية البابليـة لا يمكن تكون مستمدة من الرواية العبرية ؛ حيث ان الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بمـا يقرب من أحد عشر أو اثنى عشر قرنا • وفضـلا على ذلك ؛ « فان الحـكاية العبرية فى جوهرها • كمـا لاحظ « تسيمرن » ؛ تقضى بأن يكون البلد المشار اليه قابلا لحدوث الفيضانات مثل بابل ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الحكاية « نشأت أصلا فى بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك الى فلسطين » • ولكن اذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟ • اننا لا نملك أدنى قدر من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن ثم فان الاجابة عن هذا السـؤال لا يكون الا عن طريق التخمين • وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية فى فترة أسرهم فى بابل ، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ الرواية العبرية الى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد • وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة فى الأثر الكهنـوتى المنقـح وحده • ذلك أن الاحتمال يؤيد ، كما رأينا ، أن المصدر الكهنـوتى قد ألف فى أثناء الأسر أو بعده •

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتاب هذا المصدر قد تعرفوا عـلى التراث البابلى ، اما عن طريق الروايات الشـفوية أو المدونة ، وذلك

فى أثناء أسرهم او ربما بعد عودتهم الى فلسطين • ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التى مهد لها الغزو البابلى لفلسطين ، ربما أدت على نحو ما الى انتشار الأدب البابلى فى فلسطين .كما أدى السبى الى انتشار الأدب اليهودى فى بابل • وبناء على وجهة النظر هذه فان بعض التفصيلات التى تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية • وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران الذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل • على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا فى الأسر بزمن طويل ، وقرب حكايتهم فى شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية فى سفر التكوين التى يمكن أن ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد والتى لا يمكن أن تتأخر بحال من الاحوال عن القرن الثامن •

فاذا افترضنا أن العبريين فى فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر ، فانه ما زال علينا أن نتساءل ، كيف ومتى عرف العبريون هذه الأسطورة ؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال : الاجابة الأولى هى أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل الى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفى عام • وأما الاجابة الثانية فهى أن العبريين فيما رأى البعض ، ربما أخذوا الحكاية بعد أن استقروا فى فلسطين ، عن الكنعانيين ، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلى فى حوالى الألف الثانى قبل الميلاد • على أننا لا نستطيع أن نقرر فى الوقت الراهن أى الرأيين هو الصواب ، هذا اذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة •

وتلاعب الخيال اليهودى فى العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف اليها تفاصيل جديدة تميل فى الغالب الى المغالاة ، وذلك فيما يبدو ، بقصد اشباع شغف العبريين فى عصر انحطاطهم ، أو مداعبة

مزاجهم فى هذا العصر ، ذلك المزاج الذى لم يكن يقتنع ببساطة بحكايات سفر التكوين النبيلة .

ومن بين هذه الزخارف الرخيصة أو الاضافات الغريبة التى أضيفت الى الأسطورة القديمة : تصوير الناس وهم يعيشون فى دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا يجنون من زراعة واحدة محصولا يكفى حاجاتهم طيلة أربعين عاما . كما كانوا بفنونهم السحرية ، يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم . ولم تكن الأجنة تمكث فى بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شهور . وبمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل أنهم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم .

ولقد كانت هذه الحياة السهلة المرفهة هى السبب فيما وصل اليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعا لهم الى ارتكاب الآثام ، وبخاصة الفسق والسلب ، الأمر الذى أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضى على العاصين بأن يغرقهم فى الطوفان . ومع ذلك فقد أمهلهم الرب عندما أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم فى الطوفان جزاء جورهم . وقد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاما ، بل ان الرب منحهم مهلة أسبوع آخر فى نهاية هذه المدة . وفى هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب ، وتغرب فى المساء فى المشرق . ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين المرجوع الى التوبة ، بل انهم على العكس آخذوا يسخرون من نوح الورع ويستهزءون عندما أبصروه يبنى الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل» الى آدم ؛ وكان يحتوى بين ثناياه على العلم الدينى والدنيوى جميعا . وقد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق وقد وضعه نوح فى صندوق ذهبى أحكم اغلاقه وأخذه معه فى الفلك ، فقام مقام الساعة فى التمييز بين الليل والنهار فى أثناء فترة الفيضان التى لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر . أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة

التي هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التى تدفقت من الارض • قد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفا • وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء ، عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب • وهذا هو السبب فى أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالبا بأولاده ، ولكنه لن يحصل عليهم الى الأبد •

وبعد أن أعد نوح الفلك ، بدأ يجمع اليه صنوف الحيوان • وجاءت الحيوانات جماعات فى أعداد كبيرة للغاية ، الى درجة أن نوحا لم يستطع أن يدخلها جميعا فى الفلك ، وكان عليه أن يجلس عند بابه ليختار بعضها ، فأدخل فى الفلك الحيوانات التى كانت تجلس عند الباب ، وأبعد تلك التى كانت واقفة•وحتى بعد أن نفذ نوح هذا المبدأ من الاختيار الطبيعى بصرامة ، كان عدد أنواع الزواحف التى دخلت الفلك لا يقل عن ثلاثمائة وخمس وستين صنفا ، كما بلغ عدد أنواع الطيور اثنين وثلاثين نوعا • ولم يحص نوح عدد أنواع الحيوانات الثديية ، أو أن الكاتب على الأقل لم يدون عددها . ولكن الكثير منها كان ينتشر بين ركاب الفلك كما سنرى وشيكا • وقبل أن يحدث الطوفان كان عدد الحيوانات النجسة يفوق عدد الحيوانات الطاهرة ، ولكن هذه النسبة انعكست بعد حدوث الطوفان ، اذ أن نوحا أدخل فى الفلك سبعة أزواج من كل نوع من أنواع الحيوانات الطاهرة ، فى حين أدخل زوجين أثنين فقط من الحيوانات النجسة • وكان هناك حيوان ضخم هو الريم لم يجد له مكانا فى الفلك لضخامته • ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه فى الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها • وبالمثل كان المارد « عوج » ملك « باشان » من الضخامة بحيث لم يجد مكانا فى الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ • أما عن الناس الذين كانوا مع نوح فى الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتهم •

وهناك أيضا زوج غريب وجد له مكانا فى الفلك وهو النفاق والخيبة • وقد جاء النفاق وحده أول الأمر ووقف عند باب الفلك ، ولكن

نوحا منعه من الدخول لأنه لم يكن يسمح بالدخول سوى للمتزوجين . فانصرف النفاق وتقابل مع الخيبة فأقنعها أن يكون زوجا لهـا ويرحل معها الى الفلك ، وبذلك قبلا معا بالسفينة . فلما اجتمع هؤلاء جميعـا داخل السفينة ، وبدأ الطوفان يغمر الأرض ، اجتمع العصاة من حول الفلك فى حشد بلغ عدده ما يقرب من سبعمائة ألف شخص ، وأخذوا يتضرعون ويتوسلون لكى يقبلوا فى الفلك . فلما رفض نوح فى صرامة أن يقبلهم ، اندفعوا نحو باب الفلك كما لو كانوا يريدون تحطيمه . ولكن الحيوانات المتوحشـة التى كانت مكلفة بحمـاية الفلك هاجمتهم وابتلعت بعضهم . أما الوحوش التى هربت فقد غرقت فى الطـوفان الذى أخذ يعلو تدريجيا . وأخذت السفينة تطفـو على الماء طيلة عام كامل وهى تترنح وتتخبط وسط الأمواج المتراكمة ، وكل ما فيها يتأرجح بداخلها ، كما يتقلب العدس داخل الوعاء . ثم أخذت الأسـود تزأر والثيران تخور والذئاب تعوى وسـائر صـنوف الحيـوانات تصرخ بأصواتها ، كل حسب طبيعة صوته . على أن مشكلة المشاكل التى كان على نوح أن يواجههـا فى الفلك هى مشـكلة توزيع المؤن . وقد حكى « سام » ولد نوح بعد ذلك بزمن إلى « اليعازر » خادم ابراهيم عن المشقة التى كان نوح يعانيها فى سـبيل اطعـام جيش الوحوش داخل الفلك ، فقـد كان المسـكين يصعد ويهبط داخل الفلك ، عدة مرات فى الليل والنهار ، اذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا ، وحيوان الليل ليلا . كما كان يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب فى سقف السفينة . وعلى الرغم من أن الأسد كان هادئا نسبيا ، اذ كان يعـانى طوال الوقت من آلام الحمى ، فانه كان فظا للغاية ، وعلى استعداد لأن يزأر لأقل اثارة . وذات مرة لم يقـدم له نوح الغذاء الكافى ، فضربه الحيوان النبيل بكفه ضربة عنيفة أصابته بالعرج سـائر أيام حيـاته ، فأصبح بعد ذلك غير قادر على أن يقوم بعمله بوصفه كاهنا . وفى اليوم العاشر من شـهر تموز أطلق نوح الغـراب ليسـتطلع الأمر ويقـدم له تقريرا عن الطوفان . ولكن الغراب وجد جسما يطفو على الماء فأسرع وراءه ليلتهمه . ونسى أن يعود الى نوح ليقدم له التقرير . فأطلق نوح

بعد ذلك بأسبوع الحمامه ثلاث مرات • وفى المرة الثالثــة عادت وعلى منقارها ورقة من شجرة الزيتون كانت قد انتزعتها من فوق جبل الزيتون فى أورشليم ، ذلك أن الطوفان لم يكن قد أغرق المدينة المقدسـة • وبعــد أن خرج نوح من الفلك بكى عند رؤية المساحات الشاســـــعة التى كان الطوفان قد أغرقها • ثم قدم « سام » للرب قربان الشكر لنجاتهم من الطوفان ، ذلك أن نوحا لم يتمكن من القيام بهــذا الواجب الدينى ، اذ كان لا يزال يعانى من أثر ضربة الأسد •

وقد ذكرت رواية أخرى متأخرة لحكاية الطوفان بعض التفصيلات المثيرة الخاصة بنظام الفلك الداخلى ونظام توزيع الركاب ، فقد سكنت القطعان والوحوش جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الاوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة فى السفينة له ولأسرته بعد أن عــزل الرجال عن النساء، فأقام نوح وأولاده فى الجانب الشرقى من هـــذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أولادهن فى الطرف الغربى منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وهؤلاء جثة آدم التى كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه • وهذه الرواية التى تخبرنا بعد ذلك بأبعاد الفلك على وجـــه التحديد بالذراع ، كما تذكر لنا اليوم والشهر الذى ركب فيه الركاب الفلك ــ هذه الرواية مستمدة من مخطوط عربى عثر عليه فى مكتبة دير سانت كاترين فى جبل سيناء • ويبدو أن مؤلف هذا المخطوط كان عربيا مسيحيا عاش فى فترة الفتح الاسلامى • هذا وان كان تاريخ المخطوط متأخرا •

٤ ــ الحكايات الاغيرقية القديمة عن الطوفان الكبير :

فى أثناء قراءتنا للأدب الاغريقى القديم ، تصــادفنا حكايات عن الطوفان الكبير الذى هلك فيه الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وحكاية الطوفان الاغريقية كما رواها « أبولودوروس » جامع الأساطير تجرى على النحو التالى : كان « دويكاليون » ابنا « لبروميثيوس » ،

وكان يحكم بوصفه ملكا ، على بلد تقع بالقرب من « فيثيا » ، كما كان متزوجا من «بيرها » ابنة « ابيميثيوس » و « باندورا » أول امــرأة خلقتها الآلهة • وعنوما شاء « زيوس » أن يهلك أهل العصر البرونزى ، صنع « دويكاليون » بناء على نصيحة « بروميثيوس » ، تابوتا أو ابنتى فلكا • وبعد أن جمع كل ما يلزمه ، دخل الفلك هو وزوجته • ثم أسقط « زيوس » مطرا غزيرا من السماء أغرق جزءا كبيرا من بلاد الاغريق وغرق مع هذا الجزء كل الناس فيماعدا قليل منهم لجأوا الى الجبال العالية القريبة • ثم انفصلت جبال « ثيسالى » وغمرت المياه البلاد التى كانت تقع وراء « استموس » و « بيلوبونيز » • أما « دويكاليون » فقد سارت سفينته على سطح الماء وهو بداخلها تسعة أيام وتسع ليال الى ان رست على جبل « بارناسيوس » • فلما انقطعت الأمطار ، نزل من السفينة وقدم الضحية للاله « زيوس » ، اله النجاه • ثم أرســل « زيوس » الرسول « هرمس » الى « دويكاليون » وسمح له أن أن يختار الجنس الذى يعمر الارض معه ، فاختار « دويكاليون » الذكــور • فأمـــره « زيوس » أن يلتقط أحجارا ويرمى بهـــا وراء ظهـــره • وفعــل « دويكاليون » هذا وتحولت الاحجار الى رجال • أما الاحجار التى رمتها زوجته «بيرها» فقد تحولت الى نساء • وهذا هو السبب فى أن الشعب الاغريقى اســمه « لاوى » (Laoi) ، وهو اسم مشـــتق من لاس (Laas) ومعناه حجر •

ولا ترجع هذه الحكاية الاغريقية من حيث شكلهـــا الى أقدم من منتصف القرن قبل الميــلاد ، أما من حيث المـــادة فهى أقـــدم من هذا بكثير • ذلك لانها قد رويت عن « هيلانســـــيوس » وهو مؤرخ اغريقى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد • وقد ذكر هذا المؤرخ أن سفينة « دويكاليون » لم ترس على جبل « بارناسيوس » ، بل رست عند جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهناك رواية أخرى للحكاية الاغريقية رويت عن الشاعر « بندار » الذى ترجع مؤلفاته الى القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل « هيلانسيوس » ، ذلك أن هذا الشاعر حكى

عن « دويكاليون » و « بيرها » ، عندما هبطا من جبال « بارناسيوس » وأعادا خلق الجنس البشرى من الحجر ٠

وقد رأى البعض أن المدينة الاولى التى أسسها « دويكاليون » بعد انتهاء الطوفان هى مدينة « أوبوس » التى كانت تقع فى سهل « لوكريان » الخصيب بين الجبال وخليج « أويتويك » ٠ على أنه روى أن « دريكاليون » كان يسكن فى « سينوس » ميناء « أوبوس » ، بعيدا عن السهل بعدة أميال ٠ وقد كان الأهالى يطلعون المسافرين على قبر زوجته فى مستهل التاريخ الميلادى ، كما يقال : إن رماد جسد الزوج يرقد فى اثينا ٠ ووفقا لرأى أرسطو الذى كتب مؤلفاته فى القرن الرابع ق٠م٠ فان الدمار الذى لحق بالبلاد بسبب الطوفان الذى حدث فى عصر « دويكاليون » ، شعر به سكان هيلاس القديمة بوضوح ، تلك المدينة التى كانت تقع على مقربة من «دودونا » ونهر « أشيلوس » ذلك أن هذا النهر قد غير مجراه فى أماكن عدة ٠ وفى هذه الأيام كان يسكن هذه المنطقة « السيليون » ؛ كما كان يسكنها الشعب الذى كان يسمى « الاغريق » (جرايكوى) ، ويطلق عليه الآن اسم « الهيلينيين »

وقد كان بعض الناس يعتقدون آن ضريح « زيوس » المقدس فى « دودونا » قد شيده « دويكاليون » و « بيرها » اللذان كانا يعيشان بين « المولوسيين » سكان هذا البلد ٠ قد ذكر أفلاطون كذلك فى القرن الرابع ق٠م٠ الطوفان الذى حدث فى زمن « دويكاليون » و « بيرها » دون أن يصفه ٠ وكذلك حكى عن الكهنة المصريين أنهم كانوا يسخرون من الاغريق الذين كانوا يعتقدون أنه لم يحدث سوى طوفان واحد فى حين أن الطوفان قد أغرق الأرض أكثر من مرة ٠ أما المؤرخ « الباريانى » الذى دون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى عام ٢٦٥ ق٠م٠ فقد ذكر أن طوفان « دويكاليون » قد حدث قبل عصره بألف ومائتين وخمسة وستين عاما ، أى أنه حدث وفقا لحسابه عام ١٥٣٩ ق٠م ٠

وهناك أماكن مختلفة فى بلاد اليونان تدعى شرف صلتها على نحو ما بدويكاليون والطوفان الكبير • ومن بين سكان هذه الاماكن — كما يمكن أن نتوقع ذلك — سكان أثينا الذين يتباهون بالعصور القديمة التى سكنوا فيها بلاد « أتيكا » • وليس عند الاثينيين مانع ان يزوروا عندما تكون المسألة متعلقة بدويكاليون وطوفانه • وهم عندما يشرحون صلتهم بهذا الحادث يتذرعون بذريعة ، مؤداها أن السحب حينما تجمعت فى كثافة حول قمة جبل « بارناسيوس » ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة فى « ليكوريا » حيث كان « دويكاليون » يحكم بوصفه ملكا ، لاذ « دويكاليون » بأثينا ، وشيد عند وصوله اليها هيكلا لاله المطر « زيوس » ، كما قدم ضحية الشكر على نجاته • وهذه الأسطورة فى شكلها الموجز على هذا النحو ليس فيها ذكر للسفينة ، ويبدو أنه قد ترك لنا أن نحدس أن البطل قد هرب من الطوفان سائرا على قدميه • ومهما يكن الامر ، فان « دويكاليون » ، كما قيل قد شيد هيكلا « لزيوس الأولبى » وأنه دفن فى اثينا • وقد ظل المرشدون الاثينيون المحليون ، حتى القرن الثانى الميلادى ، يشيرون بفخر وطنى الى ضريح نوح الاغريقى • بجانب هيكل « زيوس الأولبى » الأحدث والاكثر فخامة من ضريح « دويكاليون » الذى يتوج حطام أعمدته فى بهاء فريد المدينة الحديثة • ومازال هذا المعبد يلفت الانظار من بعد ويحمل شهادة صامتة ، وان تكن بالغة الدلالة على عظمة الاغريق القدماء

وليس هذا الضريح وحده هو الذى كان يشير اليه المرشدون الاغريق فى ذكرى الطوفان المهول • بل كانوا كذلك يرشدون المسافر المحب للاستطلاع داخل أرباض اثينا التى يحجبها هيكل « زيوس » المترامى الارجاء الى ربض أصغر من « البقعة الاولبية » ؛ حيث كانوا يشيرون الى شق فى الارض ، عرضه ذراع واحدة ، ويؤكدون أن مياه الطوفان كانت تجرى داخل هذا الشق • ومن ثم فهم يرمون فى هذا الشق كعكا مصنوعا من دقيق القمح والعسل • ويبدو أنه كان ينظر الى هذا الكعك بوصفه كعكا روحيا صنع للأرواح

الفقيرة التى هلكت فى الطوفان الكبير • ذلك أننـا نعلم ان طقوسـا تذكارية ، أو صلاة جنائزية كانت تقام فى أثينا فى كل عام تكريما لهؤلاء الشهداء • وكانت هذه الاحتفالات تسمى « بعيد الطفو على الماء » • ولا توحى هذه التسمية بأن ذوى القلوب الرحيمة لم يكونوا يرمون فى الشـق الأرضى الكعك فحسب ، بل كانوا يصبون فيه المياه كذلك ، وبذلك يسدون جوع أشباح العالم آخـر ، بمقدار ما يطفئون ظمأهم

وهناك مكان آخر كان الناس يحتفلون فيه بذكرى الطـوفان على نحو ما سلف ، هذا المكان هـو «هيرابوليس » الذى كان يقـع عـلى نهر الفرات•وهناك فى هذا المكان كانت الآلهة السامية تقدس حتى القرن الثانى قبل الميلاد بطريقة فرضتها الحضارة الاغريقية الاسـمية التى انتشرت فى الشرق بتأثير فتوحات الاسكندر الأكبر • وبمقتضى هـذه الطريقه ، كان الناس يخلعون على هذه الآلهه أردية تنكرية شـفافة ، فكانت أشبه بالتماثيل القديمة التى ترتدى أردية فضفاضـة • وقـد كانت الالهة « عشتروت » تحتل مكانا بارزا بين هذه الآلهة القديمـة وهى تلك الالهة التى كان يعبدها الاغريق متخفية تحت اسم « هيرا » وقد خلف لنا « لوسيان » وصفا قيما للغاية لمعبـد « عشـتروت » والطقوس التى كانت تقام فيه • فهو يخبرنا أن المعبد وفقـا للرأى السائد ؛ بناه « دويكاليون » الذى حدث فى عهده الطوفان الكبير • وعند ذكـر دويكاليون وجد « لوسـيان » فرصـة لكى يحكـى أسطورة الطوفان الاغريقية التى تجرى على النحو التالى : ان جيـل الرجال الحالى ، كما يقول « لوسيان » ليس هو جيل الجنس البشرى الأول ، بل سبقه جيل آخر فنى عن آخره • أما نحن البشر الذين نعيش اليوم على وجهالبسيطة، فننتمى الى الجيل الثانى الذى تكاثر بعـد عصر « دويكاليون » • وأما الناس الذين كانوا يعيشون قبل الطوفان ، فيقال انهم كانوا قد تجاوزوا الحد فى الاستهتار والحماقة ، فلم يكونوا يحفظون ايمانهم أو يكرمون الغرباء ، أو يلقون بالا لطالبى المعـونة قد كان جزاؤهم أن أصابتهم هذه الكارثة الكبرى ، فتدفقت المياه من

جوف الارض ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة ، وفاضت الأنهار وغمر البحر البلاد بحيث لم تعد العين تبصر سوى المياه فى كل مكان • أما الناس فقد غرقوا عن آخرهم ، فيما عدا « دويكاليون » الذى عاش بسبب حكمته وورعه ، وكان الحلقة بين جيله وجيل الناس من بعـــده •

وقد تم انقـــاذ « دويكاليون » على النحو التــــالى : لقد كان « دويكاليون » يملك فلكا كبيرا لجأ اليه هو وزوجته واولاده هربا مـــن الطوفان • وفى الوقت نفسه جاءته الخنازير والخيول والاسود والثعابين وسائر حيوانات الارض أزواجا ، فاستقبلها « دويكاليون » جميعا ، ولم تحدث له أى أذى • أجل ، لقد دبت بينها ، بعون الاله روح الصداقة العميقة ، وأبحرت جميعا فى سفينة واحدة حتى انتهى الطوفان • ثم يقول « لوسيان » بعد ذلك : أن هذه هى حكاية طوفان « دويكاليون » الاغريقية • ثم يستأنف حديثه قائلا ان سكان « هيرابوليس » يحكون حادثة غريبة • فهم يقولون: ان خندقا انفتح فى بلدهم وتسربت اليـــه مياه الطوفان عن آخرها • فشيد « دويكاليون » أثر ذلك الهياكل كمـــا شيد معبدا مقدسا للآلهة « هيرا » بجوار الخندق وهو عبارة عن خندق صغير يقع أسفل المعبد • ولست أدرى أكان هـــذا الخنــــدق كبيرا فى الازمنة السالفة ثم انكمش على مر الزمن ، فان ما رأيته كان خندقـــا صغيرا ما فى ذلك شك •

وفى ذكرى أسطورة الطوفان يقوم الناس بالاحتفالات الآتية ة يحضرون كمية من مياه البحر الى المعبد مرتين فى الســــنة • ولا يقوم الكهنة وحدهم باحضار المياه ، بل يشاركهم فى ذلك السوريون والعرب ، بل الناس الذين يسكنون فيما وراء نهر الفرات • وتصب كل هذه المياه فى الخندق • وعلى الرغم من صغر حجم الخندق ، فانه كان يتســـع لهذه الكمية الهائلة من المياه • ويعلق الناس على هذا بقـــولهم : انهم انما يتبعون نظام الطقوس الذى كان « دويكاليون » يؤديه فى المعبـــد فى ذكرى الطوفان وفى ذكرى رحمة الآلهة بالناس • وفضلا على ذلك فقد كان هناك عمودان أو بالأحرى مسلتان عند المدخل الشمالى لهذا المعبد

العظيم ، يبلغ طول كل منها ثلاثمائة وستين قدما . وقد كان من المألوف أن يصعد رجل احدى هاتين المسلتين مرتين فى كل عام ، ويظل سبعة أيام جالسا فى الهواء على قمتها . وتختلف الآراء فى سبب صعود هذا الرجل وفى هدف هذا العمل ، ولكن أغلب الناس يعتقد أنه عندما يصعد الى هذا الارتفاع الشاهق يكون قريبا من الآلهة فى السماء ، فتستمع بوضوح الى الصلوات التى يؤديها باسم أهل سوريا جميعا . على أن البعض الآخر يرى أنه انما كان يصعد الى قمة المسلة ليبين للناس كيف كان لناس يصعدون الى قمم الجبال وأعالى الاشجار لكى يهربوا من طوفان « دويكاليون » .

هذه الرواية الاغريقية المتأخرة لاسطورة الطوفان تشبه الى حد كبير الرواية البابلية . وقد أضاف « بلوتارك » عنصرا آخر من عناصر التشابك بين الراويتين عندما ذكر أن «دويكاليون » أطلق حمامة من السفينة حتى يستطيع أن يعرف من رجوعها أو عدم رجوعها الى السفينة ما اذا كانت العاصفة المطرة ما تزال مستمرة أم لا . وبهذا تكون الرواية الاغريقية فى شكلها هذا قد تلونت بدون شك ، أن لم تكن قد امتزجت ، بتأثير سامى ، اسرائيليا كان أو بابليا .

وهناك مدينة أخرى فى آسيا الصغرى ، كانت تزهو ، فيما يبدو ، بارتباطها بحادثة الطوفان الكبير . واسم هذه المدينة هو « أباميا سيبوتس » ، التى كانت تقع فى اقليم « فريجيا » . ولقب « سيبوتس » الذى تحمله هذه المدينة ، هو الكلمة الاغريقية التى تعنى التابوت أو الفلك . وتبدو على عملات هذه المدينة التى صكت فى عصر « سيفيروس » و « ماكرينوس » و « فيليب الأكبر » ،صورةالسفينة الطافية على الماء وبداخلها راكبان يبدو الجزء الأعلى من جسميهما . والى جانب السفينة هناك شكلان آخران ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة وأخيرا هناك صورة طائرين يجثمان فوق السفينة ، قيل : أن أحدهما صورة غراب والآخر حمامة تحمل فرع زيتون . وقد نقش اسم « نوح » كما لو أنه أريد بذلك ازالة كل شك فى سبيل التعريف على الأسطورة

ومما لاشك فيه أن الشكلين يشيران الى نوح وزوجته ، مرة وهما بداخل السفينة ، ومرة أخرى وهما خارجها • وهذا النموذج من العملات يثبت بدون شك أن سكان « أباميا » كانوا يعرفون فى القرن الثالث الميلادى حكاية طوفان نوح العبرية فى الصورة التى حكيت بها فى سفر التكوين • وربما عرف السكان هذه الحكاية من المواطنين اليهـود الذين كانوا فى القرن الأول قبل الميلاد كثيرين للغاية ، أو كانوا أغنياء كل الغنى الـى درجة أنهم تبرعوا لاورشليم فى مناسبة واحدة بما لايقل عن مائة رطل من الذهب • على أن الباحثـين لم يتفقـوا على ما اذا كانت حكايـة « أباميا » عن الطوفان يهودية الأصل أو أنها تعتمد على أسطورة محلية قديمة عن الطوفان •

وعلى الرغم من أن رواية الطوفان الاغريقيـة التى ترتبط باسم « دويكاليون » هى أكثر الروايات شهرة وذيوعا ، فانها ليست الرواية الوحيدة المدونة فى التراث الاغريقى • فالعلماء يميزون فى الواقـع بين كوارث ثلاث كبيرة اصابت العالم فى أحقاب مختلفة ، الكـارثه الاولى حدثت ، فيما يروى ، فى عهـد « أجيجيس » ، والثانيـة فى عهـد « دويكاليون » ، والثالثة فى عهد « داردانوس » • وقـد قيل : أن « أجيجيس » أو « أجيجوس » ؛ كما ينطـق الاسـم كذلك فى بعض الأحيان ، نشا وحكم فى طيبة فى « بيوتيا » • وتعد طيبة ، وفقا لرأى العلامة « فارو » ، أقدم بلاد الاغريق ، حيث انهـا كانت قد بنيت فى عصور ما قبل حوادث الطوفان • وصلة « أجيجـوس » « ببيوتيـا » بصفة عامة ، وبطيبة بصفة خاصة ، يؤكدها اطلاق اسمه على البلد وعلى المدينة وعلى احدى بوابات هذه المدينة •

ويخبرنا « فارو » أن « طيبـة البوتيانية » قد بنيت قبل الزمن الذى كان يكتب فيه كتاباته بما يقرب من ألفين ومائة عام • وقد كتب « فارو » كتاباته عام ٣٦ ق•م• أو ما يقرب من هذا التاريخ • وحيث ان الطوفان ، بناء على رأيه ، حدث فى عهد « أجيجوس » بعـد أن أسس طيبة ، فاننا نستول من ذلك على أن الطفان قد حدث وفقا لرأى

« فارو »عام ٢١٣٦ ق٠م٠ أو بعد هذا التاريخ مباشرة • أما وفقا لرأى مؤرخ الكنيسة « أويسيبيوس » فقد حدث الطوفان الكبير فى عهد « أجيجوس » بعد طوفان نوح بما يقرب من الفين ومائتى عام ، وقبل طوفان « دويكالين » بمائتين خمسين عاما • ومن الطبيعى حقا ان يكون شرفا للمسيحيين الأولين أن يدعوا أن قدم قصة الطوفان المدونة فى كتبهم المقدسة يكسبها من التقدير ما تفوق به تلك الروايات المدونه فى الكتابات الدنيوية •

وقد جعل « يوليوس أفريكانوس » ، المؤرخ المسيحى « أجيجوس » يعيش فى عصر موسى لا فى عصر نوح • وكذلك وضع « ايزيدور » اسقف « أشبيليه » العالم ، طوفان نوح على رأس قائمة حوادث الطوفان المختلفة ويليه حسب الترتيب الزمنى طوفان « أجيجوس » ثم طوفان « ديوكاليون » وقد كان « أجيجوس » ، من وجهة نظره ، معاصرا ليعقوب ، فى حين كان « دويكاليون » معاصرا لموسى • وقد كان أسقف « أشبيليه » فيما أعلم ، أول الكتاب الذين لجأوا الى البقايا الحيوانية المدفونة فى الجبال النائية بوصفها شاهدا على حقيقة حكاية نوح المروية ••

فاذا كان « أجيجوس » بطلا بيوتيانيا ، لا بطلا أتيكيا ، وهذا هو المرجح ، فان قصة الطوفان الذى حدث فى عصره ، تتاكد بالتغير الذى طرأ على بحيرة « كوبياك » التى كانت فى الازمنة السالفة تشغل مساحة كبيرة فى وسط « بيوتيا » • فحيث انه لم يكن للبحيرة منبع خارجى على سطح الارض ، كانت تعتمد فى مصدر مياهها كلية على الخنادق والممرات الجوفية التى كانت المياه قد حفرتها فى الصخور الجيرية على مر الزمن لتجرى فيها • وقد كان مستوى البحيرة يرتفع وينخفض بناء على انسداد هذه المجارى الجوفية أو خلوها من أى عائق • وربما لم يحدث لبحيرة من البحيرات أن تعرضت للتغيرات السنوية بشكل منتظم واضح كما حدث لبحيرة « كوبياك » • فبينما تملؤها عيدان البوص فى الشتاء وتكون مأوى لآلاف الطيور البرية ، تصبح فى الصيف فى كثير أوقليل سهلا

مستنقعا ترعى فيه القطعان ، وتزرع فيه المحاصيل وتنمو • ولكن مياهها كانت معرضة لأن ترتفع عن مستواها العادى ، بسبب اختلاف النسبة غير العادية ، قلة أو كثرة ، للامطار الشتوية ، أو بسبب اختلاف النسبة الجوفية أو خلوها من العوائق • كما أننا نقرأ فى الكتب القديمة عن مدن كانت تقع على مشارف هذه البحيرة ثم غرقت ؛ فان المسافر فى العصر الحديث يحكى عن مزارعين اضطروا الى أن يهاجـــروا قبل أن يعم الفيضان قراهم ، وعن مزارع العنب وحقول القمح التى اختفت تحت المياه • وربما كان من بين هذه الفيضانات فيضان أعنف وأكثر دمارا من سائر الفيضانات التى سبقته ، ارتبط « أجيجوس » به ، وظل مرتبطا به دائما بدا •

وهذه النظرية التى يمكن أن تفسر طوفان « أجيجوس » الكبــــير بفيضان بحيرة « كوبياك » غير العادى ، يدعمها الى حد ما ، ما حدث فى « أركاديا » • فقد راينا فى الاسطورة الاغريقية ، أن الطوفان الثالث الكبير ارتبط باسم « داردانوس » • و « داردانوس » هذا ، وفقـــا لاحدى الروايات حكم « أركاديا » أول ما حكم ، بوصفه ملكا ، ولكنه ترك هذه البـــلاد عنـــدما غمـــر الطوفان الاراضى المنخفضة وجعلها غير صالحة للزراعة لمدة طويلة • أما السكان فقد لجأوا الى الجبال وكافحوا من أجل الحياة بما استطاعوا أن يدبروه من الطعام • ولكنهم عندما أدركوا أن الأرض التى انحسر عنها الطوفان لم تكن كافية لامدادهم بالمحاصيل قرروا تركها • على أن بعضـــــهم بقوا فيهـــــا مع « ديمـــاس » ابن « داردانوس » واتخذوه ملكا عليهم ، فى حين هاجر البعض الآخر تحت قيادة « داردانوس » نفسه الى جزيرة « ساموثراسى » • ووفقا لرواية اغريقية قبلها « فادوا » الرومانى أن المكان الذى ولد فيه « داردانوس » هو «فينيوس» الذى كان يقع فى شمال «أركاديا» • وهذا المكان ذو شهرة ذائعة • فباستثناء منطقة « كوبياك » لم يعرف فى بلاد اليونان واد تعرض للفيضانات على نطاق واسع ولأزمنة طويلة ، مثل وادى « فينيوس » • وتتشابه الأحوال الطبيعية فى هذين المكانين تشابها جوهريا ، فكلاهما

أشبه بحوض وسط مناطق حجرية وليس لهما مصدر مائى فوق سطح الارض . وكلاهما تصب فيه الأمطار المنحدرة من الجبال المحيطة . وكلاهما يعتمد فى مياهه على المجارى الجوفية التى نحتتها المياه أو فحرتها الزلازل فى الصخور . فاذا ترسب الطمى فى هذه المنافذ ، أو اعترضتها أية عوائق أخرى ، فان المكان الذى يكون سهلا فى الأحوال العادية يتحول الى بحيرة فى هذه الظروف . ولكن على الرغم من هذا التشابه القوى بين المكانين ، هناك وجوه اختلاف جوهرية بينما . فعلى حين نجد حوض « كوبياك » أرضا منبسطة شاسعة ترتفع فوق مستوى صخور منخفضة أو منحدرات هينة ، نجد حوض « فينيوس » واديا ضيقا مرتفعا ، تحيط به من كل جانب جبال جهمة منحدرة ، تغلف منحدراتها المرتفعة غابات الصنوبر الدكناء ، وتغطى الثلوج قممها الشاهقة معظم شهور السنة . والنهر الذى يمد هذا الحوض بالمياه عن طريق مجرى جوفى هو نهر « لادون » وهو أكثر أنهار بلاد اليونان سحرا جمالا . فلقد عاش « ملتون » بخياله على شواطىء نهر « لادون » الرملية التى تنمو فيها أزهار السوسن » . بل ان الكاتب « باوزانياس» ادعى أن هذا النهر لا يدانيه نهر آخر ساء فى بلاد اليونان أو خارجها وليس هناك ما يثيرنى من بين الذكريات التى تركها فى نفسى بلاد الاغريق ، مثل تلك الايام التى قضيتها وانا أقتفى أثر النهرمن منبعه عند البحيرة الجميلة ثم منابعه التى تقع على الجانب البعيد من الجبل ، حتى الأخدود العميق الصخور فى شكل ملاءات من الزبد الأبيض المائل لونه الى الاخضرار ، حتى تلتحم بنهر « ألفيوس » المقدس . على أن الزلازل أخذت تسد من وقت لآخر مجرى نهر « لادون » الذى ينبع من وادى « فينيوس » ، وكانت النتيجة أن كف النهر عن الجريان . وعندما كنت أزور منابع هذا النهر عام ١٨٩٥ ، اخبرنى فلاح لحظة وصولى انه منذ سنتين كفت مياه النهر عن الجريان مدة ثلاث ساعات اثر هزة أرضية عنيفة ، وتعزى الخندق الذى يقع فى قاع البحيرة وشوهد السمك وهو يرقد على الارض الجافة . وبعد ثلاث ساعات أخذ النبع يتدفق بعض الشىء . وبعد ثلاثة أيام سمع انفجار صوت يدوى أعقبه تدفق المياه

بكميات هائلة • وقد رويت فى الزمن القديم والحديث معـــا حكايات شبيهة بهذه الحكاية التى تحكى عن توقف النهر لبعض الوقت • وحيثما كانت تدوم عوائق المجرى الجوفى ، كانت تحتل وادى « فينيس » بحيرة تختلف فى اتساعها وعمقها باختلاف حجم عوائق المجارى الجوفية • وقد اعترت هذا الوادى ، وفقا لرأى « بلينى » ، حتى يومنا هذا خمســـة أحوال من التغير الذى كان يحيله من ألبلل الى الجفاف ، ومن الجفاف الى البلل ؛ وجميع هذه الأحوال المتغيرة تسببت فى حدوثهـا الزلازل • وفى زمن « بلوتارك » ارتفع الفيضان ارتفاعا كبيرا حتى اغرق الوادى كله • وقد عزا الشعب الورع هذا الحادث الى غضب « أبوللو » من هرقـــل الذى كان قد سرق من الاله منذ ألف عام مرجله من « دلف » وحمله الى فينيوس • ومعنى هذا أن غضب أبوللو من هرقل قد ظهر متأخرا • على أن المياه انخفضت بعد هذا فى نفس القـــرن ، لان الرحــــالة الاغريقى « بوزانياس » أبصر قاع الوادى جافا ، ولم يكن يعلم بوجد البحيرة الا من خلال الروايات •

وليس من اليسير اهمال الروايات التى تتصل بالطوفان الكبـــير فى واد عاش ظروفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبال وبين ظهور بحيرة واسعة ظرفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبلل وبين ظهور بحيرة وأسعة ذات مياه زرقاء ، وأرض زراعية شاسعة ينبت فيها الذرة الاصفر • بل ان كل شىء فى هذا المكان يؤكد على العكس احتمال روايتها ، ومن ثم فربما كانت الحكاية التى رددت أن « داردانوس » أحد اهالى « فينيوس » ، قد اضطره الطوفان الـــذى غطى الاراضى المنخفضه وأغرق الحقول ،الى أن يهجر بلاده ، كما اضطر الاهالى الى أن يتركوا بلادهم ويلجأوا الى المنحدرات العليا فى الجبال ـــ ربما كانت هذه الحكاية ترتكز بحق على أساس ثابت من الحقائق • وكذلك تصدق الحكاية التى دونها « باوزانياس » عن الفيضان الذى علا وأغرق مدينة « فينيوس » القديمة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى من البحيرة •

وقد قيل : أن « داردانوس » المهاجر قد اتخذ طريقه من مسكنه فى الأماكن العالية فى « أركاديا » الى جزيرة « ساموثراس » •

ووفقا لاحدى الروايات أنه طفا على لوح من الخشب • ووفقا لرواية لراوية أخرى أن الفيضان لمباغتته فى أركاديا بل فى جزيرة «ساموثراس» وأنه هرب على جلد منتفخ طافيا على سطح الماء حتى رسا على جبل «ادا» حيث شيد مدينة « داردانيا » أو « طروادة » •• ومن المؤكد أن أهل « ساموثراس » الذين كانوا يرتبطون بآثارهم القديمة كل الارتباط قد ادعوا أن طوفانهم حدث قبل أى طوفان آخر على وجه الأرض • فقد روى عنهم أنهم قالوا : أن مياه البحر ارتفعت وغطت مساحة كبيرة من الارض المنبسطه فى جزيرتهم ، وأن الاحياء لجأوا الى الجبال الشاهقة التى لا تزال تكسب جزيرة « ساموثراس » أكثر الملامح شهرة فى شمال منطقة بحر « أيجه » ، ولاتزال تبدو واضحة للناظر اليها من طروادة فى الجو المشرق • ثم أخذ البحر يقتفى أثر الهاربين فى أثناء لجوئهم الى الجبال ، فأخذوا يتضرعون للآلهة لكى تنقذهم فلما أنقذوا نصبوا فى كل مكان من اجزيرة معالم تشهد على انقاذ الآلهة اياهم ، كما شيدوا المعابد التى ظلوا يقدمون فيها الضحايا حتى زمن متأخر • وقد ظل الصيادون بعد حدوث الطوفان بقرون عدة يجرون فى شباكهم بين الحين والآخر أحجار العمد الرئيسية التى تشهد على وجود المدن الغريقة فى أعماق البحر • أما الأسباب التى يرجع سكان « ساموثراس » الطوفان اليها ، فهى جديرة بالملاحظة • فقد حدثت الكارثة وفقا لروايتهم ، لا بسبب سقوط الأمطار الغزيرة ، بل بسبب ارتفاع غريب مفاجىء لمياه البحر . نجم عن تحطم الحواجز التى كانت حتى ذلك الحين تفصل البحر الاسود عن البحر الابيض • فى هذا الوقت حطمت كميات المياة الهائلة تلك الحواجز التى كانت مختزنة وراءها ، وشقت طريقا فى الأرض المواجهة لها مكونة بذلك المضيقين اللذين يعرفان اليوم باسم البوسفور والدردنيل • ومنذ ذلك الوقت أخذت مياه البحر الأسود تتدفق فى البحر الأبيض المتوسط • وبينما كان هذا السيل الجارف يقتحم العيون الجديدة التى فتحت فى

السد ، اغرقت المياه جزءا كبيرا من ساحل آسيا كما أغـــرقت الاراضى المنبسطة فى جزيرة « ساموثراس » •

وقد أكد علم طبقات الأرض فى العصر الحديث الى حد ما ، صدق هذه الرواية « الساموثراسية » • فقد ذكر « هكسلى » أنه حتى زمن ليس بالبعيد جدا ، كانت آسيا الصغرى مرتبطة بأوروبا عن طـــريق الموضع الذى يقع فى مكانه اليوم خليج البوسفور • وقد كان هذا الموضع حاجزا يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام ؛ يحتجز أمامه مياه البحــر الأسود • ومعنى هذا أن مساحة كبيرة من « أوروبا الشرقية » و « آسيا الوسطى الغربية » كانت تكون خزانا ضخما على طول مجمع المياه العربى الحالى لنهر « أوبى » الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى • وقــد كانت أكثر فتحات هذا الخزان انخفاضا • تعلو ، فيما يبدو ، ســطح البحر بحوالى مائتى قدم • وفى هذا الحوض كانت تصب أكبر أنهار أوروبا مثل نهر الدانوب والفولجا ، كما كانت تصب فيه كذلك أنهــار آسيا الكبيرة آنذاك مثل « أوكسوس » و « كســارتس » وكل ما كان يتصل بها من روافده • وفضلا عن ذلك فان هذا الحوض كان يستقبل فائض بحيرة « بالكاش » التى كانت آنذاك اوسع مما هى عليه الآن بكثير ، ومن المحتمل أنه كان يستقبل كذلك مياه البحر الداخلى فى منغوليا • وفى هذا الوقت كان مستوى بحر « أرال » يعلو مستواه الحالى بما لايقل عن ستين قدما • وقد كان فى مكان البحر الأسود وبحــر قــزوين وبحــر « أرال » ، تلك البحار المنفصلة بعضها عن بعض ، كان هناك بحر واحد هو بحر « بونتو — أرال المتوسط » • ولابد أن هذا البحر الواحد كان يمتد فى الوقت الحاضر أحضان أودية نهر الدانوب المنخفضة ونهر لفولجا الذى عثر فيه فى الوقت الحاضر على القواقع القوقازية ، وبالمثل فى نهر «كاما» ونهر آرال وسائر الأنهار الجارية فى حين كانت هذه الأنهار تصب فائض مياهها شمالا عن طريق حوض « أوبى » الحالى • ويبدو أن هذا الخزان الهائل أو هذا البحر الداخلى الشاسع الذى كان يحجزه ويدعمه خزان طبيعى عال يربط آسيا لصغرى بشـــبه جزيرة البلقان ؛ كان

يوجد منذ عصر البلايستوسين • كما أنه يعتقد أن تآكل ممر الدردنيل الذى وجدت المياه المحتجزة فى النهاية من خلاله طريقها الى البحر المتوسط قد حدث فى نهاية عصر « البلايستوسين » أو بعد ذلك ولكنه من المؤكد أن الانسان لم يسكن أوروبا فى عصر « البلايستوسين » بل يرى البعض أنه سكنها فى عصر « البليوسين » أو حتى فى عصر « الميوسين » • ومن ثم فانه يبدو محتملا أن سكان « اوروبا الشرقية كانوا يحتفظون حقا برواية مأثورة تتصل ببحر « بونتو أرال » الداخلى الشاسع ، وعن جفافه الجزئى الذى نجم عن تحطم المخزان الذى كان يفصله عن البحر المتوسط ، أو — بعبارة أخرى — تتصل بانشقاق بوغازى البوسفور الدردنيل • اذا كان هذا الفرض صحيحا ، فان الرواية « الساموثراسية » تكون قد احتوت على عناصر كثيرة من الحقائق التاريخية فيما يختص بالاسباب التى ذكرتها لحدوث الكارثة •

ويبدو أن علم الجيولوجيا من ناحية أخرى ، لم يدعم رواية الكارثة هذه فى حد ذاتها • ذلك أن الشواهد تنحو الى اثبات أن بوغاز الدردنيل لم ينشق فجأة كما ينفجر سد بسبب ضغط المياه أو بسبب هزة أرضية ، بل تكون هذا البوغاز ، على عكس ذلك ، عن طريق عملية التجات البطيئة التى لابد أنها استغرقت قرونا بل آلافا من السنين ؛ ذلك أن البوغاز تحيط به طبقات أرضية لم تتغير يبلغ سمكها أربعين قدما وترجع الى عصر البلايستوسين • وفى خلال هذه الطبقات أخذ البوغاز ينحت طريقه فى هدوء • وبناء على ذلك فان من العسير تماما أن يكون مستوى بحر « بونتو — أرال » قد هبط الى مستوى البحر البيض المتوسط فجأة وعلى نحو مفاجىء ، محدثا فيضانا هائلا عبر سواحل آسيا واوروبا • بل الاكثر احتمالا أن يكن هذا البحر قد تغير تدريجيا وفى بطء ، بحيث ان كمية المياه التى تدفقت منه خلال جيل واحد فقط لا يحسها المراقبون العاديين ، بل لا يحسها المراقبون المدققون غير المزودين بأجهزة دقيقة • ومن ثم فانه يبدو من الاسلم أن ندعى أن هذه الحكاية « الساموثراسية » قد رواها أحد الفلاسفة المبكرين على سبيل الظن • وقد استطاع هذا الفيلسوف ان يتكهن بحق بما كان عليه

بوغازا الدردنيل والبوسفور دون أن يكون قادرا على أن يتصور البطء البالغ لعملية النحت الطبيعية ، ذلك بدلا من أن ندعى أن هذه الحكاية احتفظت بذكرى حقيقية عن الطوفان الذى تدفق نتيجة انشقاق بوغاز الدردنيل • قد أكد هذا الرأى فى الواقع « ستراتو » صاحب الفلسفة الطبيعية المرموق الذى خلف « ثيوفراست » فى زعامة مدرسة المشائين عام ٢٨٧ ق • م • وقد دعم « ستراتو » هذا الرأى على أساس نظرى بحت ، عندما رفض أن ينظر الى هذه الحادثة بوصفها رواية شعبية ، واعتمد فى مناقشتها على ملاحظاته للملامح لطبيعية للبحر الأسود (١) • فقد أشار الى كميات الطمى الهائلة التى كانت تقذفها الأنهار الكبيرة فى « أويكسين » ، واستنتج أنه لولا مخرج بوغاز البوسفور لامتلأ البحر بالغرين مع مرور الوقت • وأبعد من هذا فقد افترض أن هذه الأنهار بعينها قد شقت لنفسها طريقا فى الأزمنة السالفة خلال بوغاز البوسفور ، فتسربت مياهها المتجمعة الى « بروبونتوس » ومنه الى البحر المتوسط عبر بوغاز الدردنيل • وقد تصور « ستراتو » بنفس الطريقة أن البحر المتوسط كان فى سالف الزمن بحرا داخليا ، وأن اتصاله بالمحيط الأطلنطى قد نجم عن تدفق المياه المختزنة شقها لمضيق جبل طارق • ويحق لنا أن ننتهى بناء على ذلك الى أن السبب الذى فسرت به الحكاية « الساموثراسية » حدوث الطوفان الكبير مستمد من تأمل ذكى أكثر من كونه مستمدا من رواية شعبية قديمة •

وهناك أسباب تدعونا لأن نعتقد أن حكاية الطوفان الأغريقية التى ارتبطت بشخصيتى « دويكاليون » و « بيرها » ، لم تكن كذلك صدى لحادثة حقيقية ، بمقدار ما كانت استدلالا ارتكن على ملاحظة حقائق طبيعية بعينها • فقد رأينا فى احدى الروايات الاغريقية أن

---

(١) كان البحر الأسود يعرف فى الزمن القديم باسم Pontus Exinus ، اى البحر الكريم .

جبال « فيسالى » قد انشقت بتأثير طوفان « دويكاليون » كما رأينا فى رواية أخرى أن سفينة « دويكاليون » قد جرفها الفيضان وهو بداخلها حتى رست على جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » . وهذه الاشارات تميل الى أن تبرز « ثيسالى » بوصفه المكان الاصلى فى الأسطورة . وهذه الاشارات تدعمها بشكل قاطع وجهة النظر التى تبناها القدماء فى تفسير تشكيل ملامح البلد الطبيعية . فهيرودوت يحكى رواية مؤداها أن « ثيسالى » كانت فى العصور القديمة بحيرة أو بحرا داخليا تحيط به جبال « أوسا » و « بيليون » و « أوليمبوس » و « بنووس » و « أوثريس » الشاهقة . ولم يكن بهذه الجبال فتحة تسمح لمياه الأنهار المختزنة أن تتسرب الى أى مكان . ثم حدث بعد ذلك ، وفقا لما رواه سكان « ثيسالى » أن شق اله البحر « بوزايدون » الذى يتسبب فى حدوث الزلازل ، مخرجا للبحيرة فى الجبال بأن شق خندق « تيمبى » الضيق الذى يروى عن طريقه نهر « بينيوس » سهل « ثيسالى » منذ ذلك الحين . وبهذا يصرح هيرودوت ، المؤرخ الطيب باعتقاده فى واقع الرواية المحلية . فهو يقول : « أن من يعتقد أن « بوزايدون » يهز الأرض ، وأن الاخوار التى تسببها الزلازل من صنع يديه ، فانه يقول عند رؤيته لخندق « بينيوس » أن « بوزايدون » قد صنعه بنفسه ، ذلك أنه لم يساورنى شك فى أن الانفصال الذى حدث فى الجبال انما هو نتيجة زلازل » .

وقد قبل علماء الآثار القديمة الذين جاءوا بعد هيرودوت ، وجهة نظر أبى التاريخ بصورة قاطعة ، وان أرجع أحدهم نشأة الأخدود ، ومصاريف البحيرة الى البطل « هرقل » الذى ألف الناس أن يعدوا من بين أعماله النافعة للجنس البشرى خلقه لمصادر المياه على نطاق واسع للغاية . أما الكتاب الاكثر حذرا أو الأبعد فلسفة فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فقد أرجعوا نشأة المضيق الى زلزال أرضى بسيط ، دون أن يعبروا عن أى رأى يشير الى احتمال احداث اله آو بطل لهذا الاضطراب الخطير .

على أنه لاينبغى لنا أن نعجب من أن الرأى الشـــعبى يميل فى تفسير هذه الظاهرة الطبيعية الى نظرية الوساطة الالهية أو البطولية . ذلك لأن الملامح الطبيعية لمر « تيمبى » فى الحقيقة ، كفيلة بأن تثير فى النفس رهبة دينية ممتزجة بالاحساس بوجود قوة أولية مهولة أبرزت بعملياتها الخارقة ، التناقض الكبير بين أعمالها وأعمال الانسان الضئيلة . فالمسافر الذى يهبط فى الصباح من جهة الغرب فى هذا الممر الضـــيق ، يرى فوق رأسه ثلوج جبل الاولمب تتلألأ فى بريق ذهبى تحت أشعة الشمس الساطعة . فاذا سار هابطا مع الممر ، تختفى عن عينيه قمم الجبال ، ولا يبصر حوله من كل ناحية سوى حائط جسيم من المنحدرات القوية التى تنطلق الى أعلى فى عظمة رائعة وتتقارب من بعضها البعض فى بعض الأحيان تقاربا شديدا حتى تكاد تلتقى تاركة فقط مكانا للطريق وللنهر فى اسفلها ؛ وشريطا من زرقه السماء فى أعلاها . وتعد الصخور على جانب جبل « الأولمب » التى يراها المسافر دائما أمام عينه طالمـا انحدر فى الطريق نحو الشاطىء الجنوبى أو الأيمن من النهـــر [1] ، تعد بحق أكثر المناظر روعة وتأثيرا فى بلاد الاغريق . وتظل أبعد تأثيرا فى الجو الممطر عندما تتساقط المياه على جوانبها لتصب فى تيار النهـــر الهادى المنتظم . وتصل روعة هذا المنظر الى قمتها عند حوالى منتصف الممر حيث تنتصب صخرة ضخمة فى الهواء بجسامتها ، وتتوج قمتهـــا المرتفعة فى الجو أطلال القلعة الرومانية . ففى بعض أجراء هذا المضيق تتراجع الصخور تراجعا كافيا بحيث تترك مسطحات من المراعى عنـــد سفحها ، حيث الأدغال الدائمة الخضرة ؛ مثل الغار والرند والزيتون البرى والمشمش البرى والفلفل الكذاب تزينها فروع الكـــــرم البرى والعليق ، وتدبجها أزهار الدفلى القرمزية ، وأزهار الياسمين والقصاص الذهبية ، بينما تعطر الجو الرائحة الذكية التى تنبعث من كتل النباتات

(١) يعنى الضفة الغربية لهذا النهر .

والازهار العطرية • وحتى فى اكثر الاماكن ضيقا ، تغطى شاطىء النهر أشجار الدلب المنتشرة التى تمتد جذورها وفروعها المتدلية فى النهر ، وتتراكم أوراقها بحيث تكون أشبه بستار يحجب الشمس • أما واجهات المنحدرات الصخرية المتشققة فتكسوها أشـــجار البلوط القصـــيرة والشجيرات • وحيثما وجد مكان خال بين الاشجار ، فان اخضرارها يبرز فى حيوية التبايق بينه وبين الصخور الجيرية البيضاء العادية بينما يبرز هنا وهناك على حائط الجبل مشهد مكشوف لغابات الســـنديان الضخم والصنوبر الداكن تكسو المنحدرات الحادة • ويزداد المسافر تأثرا بهذه الخضرة الوافرة التى تنتشر ظلالها ، عندما ينتقل الى الوهدة فى حر الصيف القائظ بعد مسيرة شاقة فى سهول « ثيســـالى » المتربة الخانقة ، دون أن يجد شجرة تحميه من أشعة شمس الجنوب الحامية ، أو يحس نسيما يرطب جبينه ، ودون أن يصادف تنـــوعا فى المناظر الطبيعية اللهم الا بعض التلال والوديان التى تخفف من رتابة الطبيعــة الكئيبة • ولا عجب بعد هذا فى أن ينشغل الانسان المتامل بأصل هـــذه الوهده الرائعة الجميلة ، ولاعجب فى أن يرجع الدين والعلم البدائيان سبب نشأتها الى طوفان أولى مهول ، أو انفجار مروع مفاجىء لقوة بركانية ، بدلا من أن يرجعاها الى السبب الحقيقى وهو تآكل الصخور الذىيحدث تدريجيا وفى أزمنة طويلة •

ومن ثم يمكننا أن ننتهى بشىء من الثقة ، الى أن الأخـــدود الموجود فى جبال « ثيسالى » الذى قيل ان طوفان « دويكاليون » قد أحدثه ، لم يكن سوى مضيق « تيمبى » •• حقا انه يمكننا أن نذهب الى أبعد من هذا فى غير اسراف ، ونتكهن بأن حكاية الطوفان نشـــأت بدافع الرغبة فى تفسير أصل هذا الأخدود العميق الضـــيق • ذلك أن الناس حينما تصوروا أنه كانت توجد بحيرة كبيرة تختزن فيهـــا المياه وتحيط بها سلسلة جبال « ثيسالى » ، كان من الطبيعى أن يحدو بهم التفكير الى ذلك الطوفان المهول الذى لابد أن يعقب انفجار الخـــزان عنـــدما تدفقت المياه فى شكل سيل جارف بعد أن أنشق لها الطريق

الجديد ؛ وأغرقت الأراضى المنخفضة وجرت فى اثرها الخراب والدمار • واذا كان هذا التكهن ينطـوى على شىء من الصـحة ، فان الحكاية « الشمالية » عن طوفان « دويكاليون » وبالمثل الحكاية « الساموثراسية » عن طوفان « داردانس » ، تقـومان على أسـاس فرض واحد : فكلتاهما لم تكن سوى مجرد استنتاج مسـتخلص من الحقـائق الجغرافيةالطبيعية ، ولم تحتو احداهما على أى ذكـر للحـوادث الواقعية • أى أنهما باختصار يندرجان تحت ما سماه « سير ادوارد تايلور » بأساطير الملاحظة ، أكثر من اندرجهما تحت صنف المأثورات التاريخية •

٥ ــ الحكايات الهندية القديمة عن الطوفان الكبير :

ليس هناك ذكر لاسطورة عن الطوفان فى أناشيد الفيدا ، وهى أقدم تراث أدبى هندى ألف فيما يبدو فى أزمنة مختلفة تقع بين سنة ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق•م• فى الوقت الذى كان فيه الآريون لا يزالـون مستقرين فى البنجاب ؛ قبل أن ينتشرون شرقا فى وادى نهر الكنج •• ولكن الأدب السانسكريتى المتأخر احتوى على حكاية شـهيرة عن الطوفان ، ترد فى صور مختلفة مع احتفاظها بالملامح العامة واختلافها فى بعض التفصيلات • وربما كان كافيا أن نشير الى أقدم رواية معروفة لهذه الحكاية ، وهى تلك التى نصادفها فى « ساتاباثا براهمانا » وهى رسالة مهمة باللغة النثرية عن الطقوس المقدسة • ويعتقد الباحثون ان هذا المؤلف قد كتب قبل ظهور البوذية بزمن غير طويل • ومعنى هذا أنه ليس متأخرا عن القرن السادس قبل الميلاد • ثم احتل الآريون بعـد ذلك الوادى الأعلى من نهر «الكانج» ، كمـا احتلوا وادى نهـر « الهندوس » ، ولكنهم كانوا فيما يبدو آنذاك قليلى التأثر بحضارة آسيا الغربية وحضارة بلاد الاغريق • ومن المؤكد أن تيار الأفـكار الاغريقية ، والفن الاغريقى جاءا متأخرين بعد ذلك بقرون مع غـزو الاسكندرية عام ق٣٢ ق•م• وتروى حكاية الطوفان الكبير كما هى مدونة فى « ساتاباثا براهمانا » كالآتى :

فى الصباح أحضروا الماء « لمانوا » كى يغتسل ، كما تعود الناس أن يحضروا الماء لغسل الأيدى • وبينما كان « مانو » يغتسل ، أمسكت يده بسمكة قالت له : « استمع الى فسوف أنقذك » • فسالها « مانو » من أى شىء سوف تنقذيننى ؟ فأجابته السمكة : « سوف يأتى طوفان يحمل معه كل هذه المخلوقات ، ومن هذا الطوفان سوف أنقذك » • فسألها « مانو » : « ولـكن كيف يمكننى أن أنقـذك أنت من الطـوفان » ؟ فأجابت : « مادمنا نحن على هذا النحو من ضآلة الجسم ؛ فان الهلاك يلحق بنا ، فالسمكة تبتلع أختها السمكة • ولهـذا فعليك أن تحفظنى داخل وعاء ، فاذا كبرت لم يعد الوعاء يتسع لجسمى ، فاحفر حفرة فى الأرض خبئنى بداخلها • فاذا كبرت بعد ذلك فخذنى واطرحنى فى البحر وهناك أكون بعيدة عن عـوامل الهـلاك • وكبرت السمـكة وأصبحت « غاشا » (أى سمكة كبيرة) ؛ لان هذه السمكة تكبر حتى يفوق حجمها أى نوع آخر من السمك • وعند ذاك قالت السـمكة « لمانو » : « أن الطوفان سيحدث فى سنة كذا وكذا ، وعنـد ذاك تحضر الى راكبـا سفينة تعدها لهذا الغرض • فاذا علا الطـوفان فعليك أن تدخل الى السفينة ، وعلى أن أنقذك منه » •• وبعد أن أنقذها « مانو » على نحو ماشرحت له ، أخذها وطرحها فى الماء ؛ ثم حدث الطوفان فى السنة التى حددتها له • وعند ذاك أعد « مانو » السفينة وفقا لنصيحة السـمكة • ولما علا الطوفان دخل فى السفينة • وجاءت اليه السمكة سابحة ؛ فربط حبل السفينة فى قرنها وأبحرت به السفينة على هذا النحو فى اتجـاه الجبال الشمالية • ثم قالت له السمكة « هأنذا قد أنقـذتك ؛ فاربط السفينة فى شجرة ولاتدع المياه تجرفها وأنت مستقر فيها على الجبل • وعندما تنحسر المياه ، يمكنك أن تهبط منها على مهل » • فهبط « مانو » من السفينة وهى راسية على الجبل ، ولهذا سمى منحدر الجبل الشمالى « مهبط مانو » • أما سائر المخلوقات فقد أغرقها الطوفان ولم ينج منه سوى « مانو » •

لما كان « مانو » يود أن تكون له ذرية ، فقد عكف على العبادة ،

والزم نفسه بالتقشف • كما كان يقوم فى أثناء ذلك بتقديم ضحية « الباكا » : فكان يمزج الماء بالزبد الصافى واللبن الرائب والشيراز وماء الجبن • وفى خلال عام تكونت امرأة من هذا المزيج • ولما تماسكت عجينتها هبت واقفة وقد تجمع الزبد النقى فى أثر قدميها • ثم قابلتها «مترا» و «فارونا» وسألاها : «من أنت ؟» فردت عليهما قائلة « اننى ابنة مانو • ففالا لها : « بل قولى انك ابنتنا » فأجابت : « لا ، بل اننى ابنته وهو الذى خلقنى » • فرغبا فى أن يكون لهما نصيب فيها ولكنها لم تعلن موافقتها أو رفضها لذلك وتركتهما ورحلت الى « مانو » فسألها : « من أنت ؟ » فأجابته : « اننى ابنتك » ؟ فسألها : « وكيف تكون ابنتى على هذا النحو من الجمال الرائع » ؟ فأجابت : « لقد شكلتنى من الماء الذى مزجت به الزبد النقى واللبن الرائب وماء الجبن والشيراز • اننى أنا البركة وعليك أن تنتفع بى فى تقديم الضحية • فان فعلت هذا فستصبح غنيا فى نسلك وحرثك ، فأية بركة تطلبها من الالهة عن طريقى ستمنح لك • فاستخدمها « مانو » بناء على ذلك كما تستخدم البركة وسط الضحية • ذلك أن ما يتوسط ما قبل الضحية وما بعدها يكون وسط الضحية • ثم أخذ يصطحبها معه فى عبادته ومراسم تصوفه متضرعا الى الآلهة أن تمنحه الذرية • وقد منحته الالهة منها الذرية وهى ذرية « مانو » وكان كلما طلب بركة من خلالها ، منحتها اياه الآلهة » •

٦ ـ حكايات هندية حديثه عن الطفان الكبير :

تحكى قبيلة « بهيل » وهى قبيلة متوحشة تسكن أحراش « الهند الوسطى » ، أنه كان فى سالف الزمن رجل ورع « ذوبى » ، اعتاد أن يغسل ملابسه فى النهر • فحذرته سمكة من قرب حدوث طوفان كبير ، وأخبرته بأنها جاءته لتحذره من هذا الطوفان وتحثه على أن يصنع تابوتا كبيرا يهرب فيه من الطوفان ، جزاء له على سلوكه الانسانى فى اطعام السمك على الدوام • فصنع الرجل الورع التابوت ، بناء على

ذلك ، ودخل فيه هو وأخته ومعهما ديك • وبعـــد أن انتهى الطوفان ، أرسل الاله « راما » رسله ليستطلع شئون الناس • وسمع الرســول صياح الديك ، وبذلك اكتشف الصندوق • فأمر باحضاره وسأل الرجل عمن هو وعن كيفية هروبه على هذا النحو • فقص عليــه الرجل الورع قصته • فأدار « راما » وجهه الى الشمال والى الشرق والى الغــرب وأقسم على أن المرأة التى معه هى أخت الرجل بحق • فأجاب بأنهــا بحق اخته • فأدار «راما » وجهــه مرة أخــرى الى الجنوب ، فاذا بالرجل يناقض نفسه ويقول ان المرأة زوجته • وعند ذاك سأله راما عمن دله على الهروب • ولما علم منه أنها السمكة ، أمر توا بأن يقطــع لسانها ايلاما لها ، وبذلك أصبح هذا النوع من السماك بدون لســان حتى اليوم • وبعد أن نفذ راما حكمه على السمكة لافشائهــا السر ، أمر الرجل بأن يعمر الأرض الخراب • وبنــاء على ذلك تزوج الرجل أخته وأنجب منها سبعة بنين وسبع بنات • ومنح « راما » الابن الاول حصانا هدية • ولكنه لما لم يستطيع ركوبه ، تركه فى الســهول وذهب ليقطع الخشب من الغابة وبذلك اصــبح حطابا كما صار نســله « البهيليون » يقطعون الخشب من الغابات حتى اليوم • ويشبه تحذير السمكة لصانع الجميل فى الحكاية البهيلية ، الحادثة المقابلة لها فى الرواية السنسكيرتية عن الطوفان شبها كبيرا ، بحيث يصعب النظر اليها مستقلة عنها • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان « البهيليون » قد أخذوا هذه الحكاية عن الغزاة الآريين ، أم أن الآريين عرفوها عن السكان الأصليين الذين اختلطوا بهم فى أثناء غزوهم للبلاد • وهناك ما يؤيد وجهة النظر الثانية ، وهى أن حكاية الطوفان لم ترد فى أقدم الآداب السنسكرتية بل وردت فى كتب دونت بعد أن استقر الآريون فى الهند فى بزمن طويل •

ويحكى « الكارميون » ، وهم قبيلة درافيدية صغيرة تسكن مقاطعة « رايبور » والولايات المتجاورة لها فى أقاليم الهند الوسطى ، يحكون الحــكاية التالية عن الطوفان الكبير : فهم يقولون أن الالــــه خلق رجلا وامرأة فى بداية الحياة ، وأنجبا بعد كبرهما ابنا وبنتا • ثم أرسل

الاله الى الارض طوفانا لكى يغرق ابن آوى لانه كان قد أغضبه • فلما علم الزوجان الهرمان بقدوم الطوفان ، وضعا ابنيهما فى جذع شجرة مجوف • ووضعا معهما مئونة تكفيهما حتى انتهاء الفيضان ، ثم اغلقا عليهما الجذع • وفى الحال فاض الماء ودام فيضانه اثنتى عشرة عاما • وغرق الرجل والمرأة وسائر مخلوقات الأرض جميعا ، فى حين ظل جذع الشجرة طافيا على صفحة المياه • وبعد أثنى عشر عاما خلق الالـــه طائرين وأطلقهما ليبصرا ما اذا كان ابن آوى عدو الاله قد غرق • فانطلق الطائران الى كل ركن من أركـــان العـــالم ، ولكنهمـــا لـــم يبصرا سوى كتلة من الخشب تطفو على سطح الماء • فاستقرا فوقها ، وسرعان ما سمعا أصوتا خافتة رقيقة تنبعث من داخلها ، فقـــد كان الطفلان يقول أحدهما للآخر ان المئونة لن تكفيهما سوى ثلاثة أيـــام أخرى • وعند ذلك طارا وأخبرا الاله بما سمعاه ، فجعل الطوفان ينحسر فى الحال ، وأخرج الطفلين وسمع منهما قصتهما • فرباهما الاله حتى تزوجا ، وسمى كل ولد لهما باسم السلالة التى تناسلت عنه • ومن هذه الاولاد جميعا تناسل الجنس البشرى الذى يعيش على وجه الأرض • ونلاحظ ان حادثة الطائرين فى هذه الحكاية تذكر بحادثة الغـــــراب والحمامه فى حكاية الكتاب المقدس التى ربما وصلت الى « الكاماريين » بتأثير المبشرين •

وتحكى « حوليات أسام » أن الطوفان فاض على العالم فى سالف الازمان ، وأغرق الناس جميعا عدا رجل وامرأة كانا قد هربا الى قمة تل « لينج » وتسلقا شجرة واختفيا بين فروعها • وكانت الشجرة تنمو بجوار بحيرة كبيرة مياهها زرقاء بلون عين الديك • وقضى الرجل والمرأة الليل جاثمين على الشجرة • وفى الصباح فوجئا لدهشتهما بأنهما قـــد تحولا الى نمر ونمرة • ولما أبصر الخالق واســـمه « باثيان » ما حل بالأرض من دمار ، أرسل رجلا وامراة من كهف يقـــع على تل ليعمرا الأرض الغرقى بالناس وفزع الزوجان عند خروجهما من الكهف لرؤيتهما النمر والنمرة المهولين ، فخاطبا الخالق قائلين ة « يا أبانا ، لقد أرسلتنا

الى الارض لنعمرها ولكننا نعتقد أننا لن نســـتطيع أن نحقق مآربك مادامت الارض غريقة تحت المياه ، وما دام المكان الوحيد الذى يمكننا أن نستقر عنده يعيش فيه وحشان مفترسان يتأهبان لافتراســـنا • فامنحنا القوة لكى يقضى عليهما » • ثم تمكن الزوجان بعد ذلك من قتل الوحشين ، وعاشا سعيدين ، وانجبا البنين والبنات الذين عمروا الأرض الغرقى بنسلهم فيما بعد •

٧ ــ حكايات الطوفان الكبير فى شرق آسيا :

يحكى « الكارينيون » سكان بورما أن الارض أصابها طوفان فى قديم الزمان ، وتمكن أخوان من الهروب منه على رمث فوق الماء • ثم أخذت المياه تعلو حتى وصلت الى السماء • وأبصر الاخ الاصغر شجرة مانجو تتدلى من قبو السماء ، فتسلقها وهو على وعى كامل بما يفعله ، وأكل من ثمارها • ولكن الطوفان انحسر فجأة تاركا الأخ الأصغر معلقا فى الشجرة • والى هنا تنتهى الحكاية فجأة ، وقد تركتنا نحدس كيف تخلص الأخ الأصـــغر من هذا المأزق الخطـــير • وبالمثـــل يروى « الشينجبوريون » أو « السينجفو » الذين يسكنن شمال بورما حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون : انه عندما أصاب الطوفان الأرض ، استطاع رجل يدعى « بوبر نان ــ تشونج » وأخته التى تدعى « تشانج ــ هكو » أن يهربا من الطوفان فى مركب كبير ، وأن يأخذا معهما تسع ديوك وتسع ابر • وبعد سقوط الامطار وهبوب العواصف ببضعة أيام ، أطلقا من المركب ديكا ، ورميا ابرة • ولكن الديك لم يؤذن ، كما لم يسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء • وعنـــد ذاك ترك الأخ وأخته المركب وأخذ يتجولان فى الارض حتى وصلا الى كهف يسكنـــه جنيان أو غولان (نات) أحدهما ذكر والآخر أنثى • فتوسلا اليهما أن يمكثا معهما ويستغلا وجودهما فى ازالة الأحراش ، وفلاحـــة الارض ، وقطع الأخشاب ، واحضار المياه • ففعل الأخ وأخته ذلك ، ثم لم تلبث الأخت أن ولدت طفلا • وقد تعودت الجنية أن ترعى الطفل فى أثناء غياب الوالدين • وعندما كان الطفل يبكى كانت تهدده بأنها ستفرم لحمه

عند مكان تتشعب منه تسعة طرق ، اذا لم يكف عن بكاءه • حتى كان يوم ضاقت الجنية فيه بالطفل ذرعا ، فانتزعته فى غضب ، وأسرعت به الى المكان الذى تلتقى عنده الطرق التسعة ، وقطعته اربا ، ونثرت دماءه ، ورمت أشلاءه فى الطرق التسعة وفى البلد التى تحيط بها • ولكنها حملت معها بعض قطع جسده وصنعت منها بهارا هنديا شهيا • ثم وضعت قطعة من الخشب فى سرير الطفل • فلما عادت الأم من عملها وسألت عن طفلها ، قالت لها الجنية : « انه نائم ، وتناولى أنت طعـامك من الأرز » فاكلت الأم الارز والبهار ثم عادت الى سرير ابنها • ولكنها لم تجد بالسرير سوى قطعة من الخشب • فلما سألت الأم عن ابنها اجابتها الساحرة فى غلظة وقالت لها : « لقد أكلته أنت » • فهربت الام المسكينة من البيت وأخذت تصرخ وتولول عند مفترق الطرق ، وهى تتوسل للروح الكبير أن يرجع لها ابنها أو ينتقم من قاتله • فظهر لهـا الروح وقال لها : « ليس فى وسعى أن استجمع أشـلاء ابنك المتناثرة وأعيده اليك كما كان • ولكنك ستصبحين أما لرجال العالم ، بعد أن كنت أما لابن واحد » • ثم برز أثر ذلك الشانيون من طريق ، والصينيون من طريق ثان ، والبورميون من طريق ثالث ، والبنغاليون من طـريق رابع ، وسائر أجناس الأرض من بقية الطرق التسعة • وادعت الام بنوتها لهؤلاء جميعا لأنهم نشأوا من أشلاء ابنها المتناثرة فى الطـرق التسعة •

ويحكى « الباهناريون » ، وهم قبيلة فى الهند الصينية ، كيف أن حدأة تشاجرت ذات يوم مع سرطان البحر ونهشت جمجمته فى عنف الى درجة أنها أحدثت فيها فتحة لا تزال ترى حتى اليوم • ولكى ينتقم سرطان البحر من هذا الحادث • جعل البحار والانهـار تفيض ، حتى وصل الماء الى السماء ، وهلكت الكائنات الحية جميعا عدا أخا وأختـه استطاعا أن يهربا من الفيضان داخل تابوت كبير بعد أن أخذوا معهما زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان ، ثم أحكما أغلاقه عليهما وعاما به على سطح الماء سبعة أيام وسبع ليال • ثم سمع الأخ ديكا يصيح خارج الصندوق • وكانت الأرواح قد أرسلت هذا الديك الى جدينا لكى

يعرفا أن الطوفان قد انحسر حتى يتمكنا من مغادرة التابوت . وعنـــد ذاك أطلق « الاخ الطيور ، ومن بعدها الحيوانات الأخرى ، ثم خرجت الأخت وسارت على الأرض . ولم يتمكن الاخ وأخته أن يعيشا على وجه الارض لان مئونتهما كانت قد نفذت عن آخرها . ولكن نملة ســـوداء أحضرت لهما حبتين من الأرز فزرعهما الاخ . وفى الصباح التالى كانت السهول تمتلىء بالارز . وبهذا أنقذ الاخ وأخته من الجوع .

وتحكى قبيلة « بنوا – جاكون » وهى قبيلة بدائية أصلية تسكن ولاية « جوهور » فى شبه جزيرة الملايو – تحكى أن الارض التى نقف عليها ليست جامدة ، بل هى مجرد غطاء من الجلد يغطى لجة الماء . وقد حدث فى قديم الزمن أن شق الاله « بيرمان » هذا الجلد فتسربت المياه وفاضت على الارض ودمرتها . على أن « بيرمان » عاد فخلق رجـــلا وامراة ووضعهما فى سفينة مصنوعة من خشب « البولاى » ثم أحكم اغلاقها بحيث لم يكن فيهـــا منفذ واحـــــد . وظل الزوجان فى داخل السفينة وهى تتخبط بهما على سطح الماء . ثم رست السفينة . فخرج منها الزوجان وسارا على الارض الصلبة ، وتصــــوروا أن العالم كله هو ما امتد أمام أعينهما الى الأفق . وقد كان الكون مظلمـــا فى بادىء الأمر ، اذ لم يكن هناك صباح أو مساء ؛ لان الشمس لم تكن قد خلقت بعد . فلما أشرقت الشمس أبصرا سبع شجيرات من اشجـــار الدفلى وسبعة أكوام من الحشائش التى تسمى « السامبو » . ثم قال أحدهما للآخر : « يا له من منفى كئيب ذلك الذى نعيش الآن فيـــــه بلا أبناء ولا احفاد » . ولكن المرأة حملت بعد حين فى بطنى ساقيها ؛ وأنجبت من بطن ساقها اليمنى ذكرا ومن بطن ساقها اليسرى انثى . ولما كبر هذان الوليدان تزوجا ؛ اذ لو كانا ولدا من بطن واحدة لما صح زواجهما . ومن هذين الزوجين تناسلت الأجناس البشرية جميعا على وجه الأرض .

وتلعب أسطورة الطوفان دورا كبـــيرا فى أغانى « اللوليـــين » الشعبية ؛ وهم جنس أصلى يحتل أكثر الجبال رسوخا وشموخا على وجه التقريب فى « يونان » ومناطق أخرى فى جنوب غرب الصـــين ، حيث

نجحوا فى توطيد استقلالهم ضد الزحف الصينى • وهم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، اذ انهم اخترعوا طريقة للكتابه هى أصلها كتابة تصويرية دونوا بها أساطيرهم وأغانيهم وأنسابهم وطقوسهم الدينية ، وتوارثوا هذا التراث المدون جيلا بعد جيل بعد نسخه عدة مرات • ويعتقد شعب « لولو » فى وجود شيوخ يعيشون فى السماء حتى اليوم ، وكانوا من قبل يعيشون فى العالم الارضى حيث عمروا تسعمائة وستين عاما ، بل ربما تسعمائة وتسعين عاما ، وبذلك فاقوا فى تعميرهم « متوشالح » (١) نفسه • وكل أسرة فى هذا الشعب تضم افرادا يجمعهم اسـم واحـد تدفع ضريبة الولاء لشيخ بعينه • ومن أشهر هذه الشخوص الأسطورية شخص يدعى « تسى ـ جو ـ وريه » الذى يتمتع بكثير من الصفات الالهية ؛ فهو الذى أصاب الجنس البشرى بالموت عندما فتح الصندوق الخطير الذى يحتوى حبوب الفناء ؛ وهو الذى تسبب أيضا فى حدوث الطوفان • وقد حدثت كارثة الطوفان على النحو التالى بعـد أن أصبح سكان الأرض آثمين ، ارسل « تسى ـ جو ـ دزيه » اليهم رسولا يطلب
سكان الارض آثمين : ارسل « تسى ـ جو ـ دزيه » اليهم رسولا يطلب
بعض اللحم والدم من انسان فان ، فلم يكترث أحد لمطلبه عدا رجلا واحدا أسمه « دو ـ مو » • فأغلق « تسى ـ جو ـ دزيه » فى غضبه بوابات المطر التى تتدفق اليها المياه • فتسربت المياه الى الارض وأخذت تعلو إلى السماء • أما « دو ـ مو » الذى عمل بنصيحة الاله ، فقد أنقذ هو وأبناؤه الاربعة بأن لجأوا الىتجويف فى كتلة من الخشب من شـجرة « البيريس » ، وأخذوا معهم ثعالب البحر والبـط البرى وسمك الشلق •وقد تناسل من هؤلاء الأبناء الاربعة فيما بعـد الشعوب المتحضرة التى تعرف الكتابه مثل « الصينيين » و « اللولوبين » أما السلالة الامية فتنتسب الى الاشكال الخشبية التى كان قد صنعها « دو ـ مو » بعد أن انتهى الطوفان لكى يعمر بهم الارض الخراب •

---

(١) ظهر هذا الاسم فى الخطوطات العبرية القديمـة بوصفه كاهنا عبريا ، وهو اكثر شخصية عمرت فى الكتاب المقدس ، اذ يتراوح عمـره بين ٥٢٧ ، ٩٢٩ عاما . وفقا للتاريخ العبرى انه توفى عام الطوفان .
(المترجمة)

ولا تزال الواح الاجداد التى يعبدها « اللولوبون » فى أيام معينة من السنة وفى كل مناسبات حياتهم المهمة ، ما تزال تصنع حتى اليوم من نفس نوع الشجرة التى لجأ جدهم الاكبر « دو ـــ مو » الى تجويفها هروبا من الطوفان • وتكاد تبدأ كل أساطير « اللولوبين » على وجه التقريب باشارة الى هذا الجد أو الى الطوفان الكبير • وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بأصل هذا الطوفان أن « اللولويين » عموما يتخذون من اليوم السابع فى الاسبوع يوم راحة لهم ، فيمتنعون عن فلاحة الارض كما لا يسمح للنساء فى بعض الجهات بحياكة الملابس أو غسلها • ويبدو أن هذه العادة ، بالاضافة الى تراثهم عن شيوخهم وعن الطوفان ، تكشف عن تأثير مسيحى • وربما كان « أ • هنرى » على حق فى أن يعزو هذا كله الى تعاليم المبشرين النسطوريين ، فقد كانت الكنائس النسطورية تنتشر فى « يونان » فى القرن الثالث عشر عندما كان « ماركوبولو » يقوم برحلته هناك ، كما قيل ان « ألوبين » النسطرى وصل الى الصين فى زمن مبكر حوالى ٦٣٥ ب•م•

ويروى عن « الكامشاداليين » رواية عن الطوفان الذى أغرق العالم كله فى بداية الحياة • وقد نجت البقية الباقية من الناس بأن طفوا على كتل خشبية من سيقان الاشجار ربط بعضها البعض الاخر ، بعد أن حملوا معهم متاعهم ومئونتهم وكانوا يدلون الاحجار فى الماء بعد أن يربطوها بأحزمة لتقوم مقام المرساة حتى لا يجرفهم الفيضان الى الماء • فلما انحسر الطوفان خلف وراءه الناس وكتلهم الخشبية على قمم الجبال وقد جفت •

وفى دائرة معارف صينية صادفتنا الفقرة التالية : « اقليم التتار الشرقى » (١) اذا اتجه المسافر من شاطىء البحر الشرقى الى « شى ـــ لو » فانه لا يصادف أنهارا أو بحيرات فى هذه المنطقة على الرغم من أن الجبال تخترقها والوديان • ومع ذلك فاننا نجد فى الرمال فى مناطق بعيدة كل البعد عن البحر ، الاصداف البحرية وهياكل السرطان البحرى • ويحكى « المنغولويون » الذين يسكنون هذا المكان أنه قد

---

(١) وهو المعروف كذلك باسم منغوليا الخارجية (المترجمة)

بلغهم عن سالف الازمنة أن طوفانا أغرق بلادهم فى عهد سحيق فلما انحسر الطوفان ترك الاماكن التى كانت تغطيها المياه مكسوة بالرمال » .

٨ ــ حكايت عن الطوفان الكبير فى الارخبيل الهنوى :

يحكى « الباتاكيون » سكان سومطرة أن الخالق الذى يسمونه « ديباتا » أرسل طوفانا الى الارض ليهلك كل ما عليهـا من كائنـات حية ، وذلك بعد أن هرمت الارض وصارت دنسة . وقد تمكن آخـر زوجين بشريين فيها أن يهربا الى قمة أكثر الجبال ارتفاعا ، وكانت المياه قد ارتفعت حتى وصلت الى ركبتيهما ، عندما عدل « رب الجميع » عن رأيه فى القضاء على الجنس البشرى عن آخره ، فأخذ حفنة من التراب وعجنها وربط العجينة فى خيط دلاه على صفحة المياه ، فخطا الزوجان على العجينة وبذلك أنقذا . وكان كلما تكاثر نسل هـذين الزوجين ، كبرت العجبنة الطينية فى حجمها حتى تكونت الارض التى نعيش عليها اليوم .

ويحكى سكان « انجانو » ، وهى جزيرة فى غرب سومطـــرة ، حكاية عن الطوفان الكبير . فهم يقولون ان موج البحر ارتفع ذات يوم حتى غمر الجزيرة وأغرق كل ما عليها من كائنات حية عدا امرأة واحدة . وقد نجت هذه المرأة اثر حادثة سعيدة وهى أن شعرها أمسك بشجرة شائكة ، بينما كان التيار يجرفها ، وبذلك تمكنت من تسلق الشجرة . فلما انحسر الماء هبطت من أعلى الشجرة . ولكنها رأت لحزنها البالغ أنها قد تركت وحدها فى هذا العالم . ولما بدأت تشعر بالجوع ، أخذت تتجول فى الجزيرة بحثا عن طعام . ولما لم تجد شيئا تأكلــه ، رجعت الى الشاطىء وقد ملأها الغم آملة أن تصطاد سمكة . ولقد أبصرت بالفعل سمكة حاولت أن تمسك بها ، ولكن السمكة تسربت واختبأت فى أحد الاجساد الطافية على الماء ، أو فى أحد الاجساد التى كانت ترتمى على الشاطىء . وحتى لا تضيع المرأة الفرصة منها التقطت حجـــرا وضربت به الجسد ضربة عنيفة . ولكن السمكة انسلت من مخبئها فى الجسد الملقى على الشاطىء وتسربت الى الجثة الطافية على المـاء .

فتبعتها المرأة ، ولم تكد تخطو بضعة خطوت حتى أبصرت لدهشتها رجلا حيا • ولما كانت المرأة تعلم أنها هى البشر الوحيد الذى أنقذ من الطوفان فقد بادرته بالسؤال عما كان يفعله هناك • فأجابها بأن شخصا ركل جسده المتوفى ؛ فكانت النتيجة أن عادت الحياة اليه • وعند ذاك قصت عليه المرأة قصتها ، وانتهيا الى أن يحاولا اعادة الحياة الى الموتى على هذا النحو بضرب أجسادهم بالحجارة • فلما فعلا هذا عادت الارواح الى الاجساد بتأثير الضرب ؛ وبذلك عمرت الجزيرة بالناس مرة أخرى •

« والابانيون » أو « دياكيو البحر » (١) الذين يسكنون « ساراواك » فى « بورنيو » مغرمون برواية حكاية تحكى كيف نجا الجنس البشرى من الطوفان الكبير ؛ وكيف اهتدى أجدادهم الى طريقة لاشعال النار • والحكاية تجرى على النحو التالى ة فى ذات مرة خرجت بعض النساء الدياكيات ليجمعن براعم الخيزران للأكل • فلما جمعنها سرن خلال الادغال حتى وصلن الى شكل حسبنه شجرة هاوية ؛ فجلسن فوقها ، وأخذن يقشرن براعم البامبو • ولشدة دهشتهن لاحظن أن الشجرة تقطر دما كلما قطعن البراعم بالسكين • وفى تلك اللحظة ظهر بعض الرجال الذين أبصروا فى الحال أن ما يجلس عليه النسوة ليس شجرة بل ثعبان أصلة هائل فى شبه غيبوبه • فقتلوا الأصلة فى الحال وقطعوها اربا وحملوا لحمها معهم الى بيتهم • وبينما كانوا منشغلين بشواء اللحم ، سمعوا أصواتا غريبة تنبعث من وعاء التحمير ، وأخذ المطر الغزير يهطل ؛ ولم يكف عن السقوط حتى غطت المياه التلال ماعدا أعلاها ، كما غرقت الأرض جميعا • وقد حدث كل هذا بسبب قتل هؤلاء الأشقياء للأصلة وشوائهم لحمها •

---

(١) هم مجموعة من الشعوب وكانوا يسكنون بين دولة رومانيا الحالية وبامير أى كانوا يسكنون وسط روسيا وبرارى قزوين .
(المترجمة)

وقد أهلك الطوفان جميع الكائنات الحية عدا امرأة واحـــدة وكلبا وفأرا وبعض الحشرات الصغيرة التى تمكنت من الهـــروب الى أعـــلى قمم الجبال • ثم لاحظت هذه المرأة وهى تبحث لنفســـها عن مـــأوى من الأمطـــار الهاطلة ، أن الكلب قد وجد مـــكانا دافئا تحت نبات متسلق كان يتأرجح فى الهـــواء يمنة ويسرة لكى يدفىء نفســـه عن طـــريق احتكاكه بســـاق الشجرة • فأدركت فى الحال كيف يمكن أن تتـــولد النـــار ، فأخذت قطعة من الخشب وحكتها بشـــدة فى النبات المتسلق فتولدت النـــار لأول مـــرة • وبهـــذا اهتدى النـــاس الى طريقـــة اشعال النار عن طريق الزناد بعـــد حـــدوث الطوفان • ولمـــا لـــم يكن للزوجـــة رجل ، فقد اتخـــذت من الزناد زوجـــا لهـــا ، وولدت منه ابنا كان يدعى « شيمبانج ــ امبانج » ولم يكن هذا الابن ، وفقـــا لما يعنيه اســـمه ، ســـوى نصف رجل ، حيث أنه لم يكن له ســـوى ذراع واحـــدة ، وســـاق واحدة ، وعين واحدة ، ووجنـــة واحـــدة ، ونصف جسم ونصف أنف • وقد اســـتاء رفاقه من الحيوانات لهـــذه العيوب الخلقية • ولكنه استطاع فى النهاية أن يتخلص من هذه العيوب بأن استغل فرصة أن روح الريح كان قد بعثر أرزا كان « سيمبانج ــ امبانج » قد نشره ليجف ، فســـاومه على تعويضـــه عن هذا الضرر ولو بشىء زهيد • ولكن بعد أن قهـــر « سيمبانج ــ امبانج » روح الريح فى عدة مبارزات ، وافق على أن يمنحه الأجـــزاء الناقصة من جســـمه حتى يصبح رجـــلا كاملا ، وذلك بدلا من تعويضه بالنقود أو بأشياء أخرى ثمينة لم يكن « شيمبانج ــ امتانج » يمـــلك منهـــا شيئا بحق • ووافق « شيمبانج ــ امبانج » فى سعادة بالغة على هذا الاقتراح ، ومنذ ذلك الوقت أصبح للانسان أعضـــاء كاملة مثل أعضاء « شيمتانج ــ امبانج » •

وهناك رواية « دياكية » أخرى لهذه الحكاية تحـــكى أن رجـــلا بعينه يدعى « ترو » صنع ، عندما بدأ الطوفان ، ســـفينة من هاون خشبى ضخم كان يستخدم حتى هذا الوقت فى سحق الأرز • ثم ركب

السفينة مع زوجته واصطحب كلبا وخنزيرا ودجاجة وقطة وبعض الكائنات الحية الأخرى ودفعها الى الماء • فأخذت السفينة تجرى فى جنون مع التيار حتى انتهى الطوفان • وعند ذاك ترك « ترو » السفينة ومعه زوجته وحيواناته • ثم واجهت « ترو » مشكلة تعمير الأرض بالناس بعد أن أهلك الطوفان الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلجأ الى وسيلة تعدد الزوجات لكي يحل لنفسه هذه المشكلة ، فصنع زوجات من الأحجار والأخشاب ومن سائر المواد التى كانت تقع فى يده • وسرعان ما ظفر بعائلة كبيرة تعلمت فلاحة الأرض ؛ وتناسلت عنها القبائل الدياكية المختلفة •

وكذلك يحكى « الترودجانيون » الذى يتحدثون اللغة البارية ويسكنون ــ « سيليبس الوسطى » ، أن الأرض ابتليت ذات مرة بطوفان مهول غطى الجبال العالية عدا قمة جبل « واومتياباتو » • وهم يشيرون الى القواقع البحرية التى توجد على قمم التلال التى تعلو سطح البحر بألفى قدم أو أكثر ، وذلك لكى يؤكدوا صحة روايتهم • ولم ينج من هذا الطوفان سوى امرأة حبلى وفأرة حبلى ، بأن جلسا فى مزود خنزير وعاما به على سطح الماء وهما يجدفان بمغرفة بدلا من المجداف ، حتى انحسر الطوفان وأصبحت الأرض صالحة للسكنى • وبينما كانت المرأة تبحث عن حبات من الأرز لتزرعها ، أبصرت حزمة من الأرز تتدلى من شجرة اجتثت من جذرها وجرفها التيار حتى استقرت عند المكان الذى كانت تقف عنده المرأة • فتسلقت الفأرة الشجرة وأحضرت لها حزمة الأرز ، وبذلك تمكنت من أن تزرع الأرز بمعونة الفأرة • وكانت الفأرة قد أخذت عليها عهدا ، قبل أن تسلمها حزمة الأرز ، أن يكون للفئران الحق فى أكل جزء من المحصول وهذا هو السبب فى أن الفئران تحضر كل عام الى الحقول لتأخذ نصيبها فحسب من الأرز الناضج دون أن تترك الحقول جرداء • ثم ولدت المرأة ابنا بعد فترة من الزمن • فلما كبر اتخذته زوجا

لهـا حتى تنجب أولادا آخرين • وقد أنجبت منـه ولدا وبنتا تناسـل عنهما الجنس البشرى كله فيما تعد •

ويحكى سـكان « روتى » ، وهى جزيرة صغيرة تقـع فى جنوب غرب « تيمو » أن البحـر فاض على الأرض فى قديم الزمان ؛ فأغرق الناس جميعا كما أغرق الحيـوان وأهلك النبـات والأعشـاب ولـم يترك بقعة على سـطح الأرض الا غطاها بالماء • وحتى الجبال الشامخة غطاها الطـوفان ، عدا قمـة جبـل « لاكيمولا » الـذى يقـع فى « بلبا » ، التى برزت وحـدها فوق الأمواج • والى هذه القمـة لاذ رجـل وزوجته وأولادهمـا هروبا من الطوفان • وقد ظل الطـوفان يرتفع بعد ذلك شيئا فشيئا لعـدة شـهور حتى كاد يصـل الى هذه القمة ، مما أفزع هذه الأسرة التى توقعت أن يصل المـاء اليهـا بعد حين • فأخذت تتوسـل الى البحـر حتى يعـود الى وضـعه الطبيعى ، فرد عليها البحـر قائلا : « اننى على اسـتعداد لان ألبى رغبتكم اذا قدمتم لى حيوانا أعجز عن عد شعره • فطرح الزوج اليـه خنزيرا أعقبه بعنزة وكلب ودجاجة ، ولكن دون جدوى ، اذ اسـتطاع البحر أن يعـد شـعر كل منها ؛ ومن ثم فقد اسـتمر فيضـانه • وفى النهـاية طرح الرجـل فيه قطة لم يسـتطع أن يعـد شـعرها ؛ ولهذا فقد انحسر على الأثر •• وبعد هـذا ظهر عقـاب البحـر ونثر بعض التراب الجاف على المـاء • فهبط الرجـل وزوجته وأولادهمـا عليه ، وأخذوا يبحثون عن مسـكن جديد • عند ذلك أمر الآله عقـاب البحر أن يحضر للرجـل كل أنواع الحبـوب مثل الذرة والقمح والأرز والسمسم وبذور البطيخ ، لكى يبذرها فى الأرض ، ويعيش هو وأسرته على محصـولها • وهذا هو السبب فى أن الناس فى « روتى » يضعون فى نهـاية الحصاد حزمة من سيقان الأرز فى مكان طلق فى القـرية ، على سبيل الضحية لجبـل « لاكيمولا » • كمـا أن كلا منهم يطهـو الأرز ويحضره مع ثمار النخيل الهندى وجوز الهنـد والتبـغ والموز والخبز المصنوع من الفاكهة ويقدم كل هذا قربانا للجبل • وهناك يجتمع

الناس ويقيمون الولائم ويرقصون كل أنواع الرقص تعبيرا عن ولائهم للجبل ، ثم يتوسلون اليه أن يمنحهم محصولا وافرا فى العام التالى كذلك ، حتى يجد الناس ما يشبعهم .

ويحكى البدائيون سكان جزر « أندامان » التى تقع فى خليج البنغال ، حكاية عن الطوفان يمكننا أن نشير اليها فى هذا المجال ، على الرغم من أن هذه لا تنتمى على وجه التحديد الى مجموعة الجزر الهندية . فقد حدث ، وفقا لرواية الأهالى ، أن أصبح الناس ، بعد مضى فترة من خلقهم عاصين وغير مبالين بأوامر الخالق التى حثهم على اتباعها عند خلقهم . فأرسل عليهم وهو فى ثورة من الغضب طوفانا كبيرا أغرق الأرض جميعا عدا قمة جبال « ساول » التى يسكن عندها الخالق نفسه . وهلكت فى الطوفان الكائنات الحية جميعا عدا رجلين وامرأتين كانوا لحسن حظهم راكبين زورقا وقت حدوث الطوفان . فلما انخفضت المياه ، رست الجماعة بقاربها على الشاطىء . لكنهم وجدوا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، اذ كانت كل الكائنات الحية قد غرقت فى الطوفان . على أن الخالق الرحيم واسمه « بولوجا » قدم لهم المساعدة بأن أعاد لهم خلق الطيور والحيوانات . ثم بقيت مشكلة اشعال النار ، اذ كان الطوفان قد أطفأ شعلة كل موقد ، وأصبح كل شىء رطبا غير قابل للاشتعال . وهنا ظهر لهم شبح أحد أصدقائهم الغرقى ، لينقذهم فى اللحظة المناسبة . فلما أبصر ما هم عليه من غم ، طار الى السماء فى صورة طائر القاوند حيث وجد الخالق جالسا وبجانبه النار . فأخذ يحرك النار المشتعلة لكى يحملها بمنقاره الى أصدقائه الذين يعيشون على الأرض بلا نار . ولكنه ، فى اضطرابه وسرعته ، أسقط شعلة النار على شخص الخالق المهيب نفسه ، الذى تهيج لحقارة الطائر ولما ألم به من ألم ، وطوح بشعلة النار فى سرعة نحو الطائر . ولكن الشعلة أخطأت الهدف وهوت محدثة صفيرا من السماء الى الأرض ، حيث كان الناس يجلسون يئنون ويرتجفون من البرد . وعلى هذا النحو استعاد الانسان النار بعد حدوث الطوفان . وبعد أن

استدفأ هؤلاء ، ولم يشغل بالهم شيء محدد ، استعادوا ما حـدث لهم من أحداث وبدأوا يتذمرون من قضاء الخـالق على الجنس البشرى • وبلغ بهم التذمر مبلغه حتى استقر رأى الأشخاص الأربعـة على أن يقتلوا الخالق • ولكن الخالق نفسه نصحهم بأن يعدلوا عن محاولتهم الجاحدة ، وقال لهم فى وضوح بالغ : انه أولى بهـم ألا يفكروا فى القيام بهذه المحاولة ، لأنه صلب صـلابة الخشـب ، ولن تؤثر فيـه سـهامهم • ولو أنهم جرؤوا بعد ذلك على أن يمسوه بأصابعهم ، فانه سيلوثهم بدماء كل ابن وبنت تولد لهم • وقد كان لهذا التهـديد أثره فيهم ، فرضخوا لمصيرهم • وتنازل الخالق الذى هدأت ثورة غضـبه بعد ذلك فشرح لهم فى أسـلوب هادىء أن الناس هم الذين جلبـوا الطوفان لأنفسهم بعصيانهم أوامره • واذا هم كرروا هذه الاسـاءة فى المستقبل ، فانه سيقابلها بعقاب ملائم لها • وقد كانت هذه هى المرة الأخيرة التى ظهر فيها الخالق للبشر وخاطبهم وجها لوجـه ، فمنـذ ذلك الوقت لم ير سكان جزر « أندمان » الخالق قط ، ولكنهم واظبوا على طاعته منذ ذلك اليوم فى ورع وخوف •

٩ ــ حكايات استرالية عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « كورناى » ، وهى قبيلة استرالية أصلية تسـكن فى « جيبلاند » فى ولاية « فيكتوريا » ، أنه منذ زمن سحيق حدث طوفان أغرق البلاد جميعا ، كمـا أغرق الشـعب الزنجي بأسره عدا رجـلا وامرأتين أو ثلاثا • وقد لاذ هؤلاء بجزيرة موحلة تقع بالقرب من ميناء « ألبرت » ، وكانت المياه تحيط بهم من كل مكان • وفى هذا الوقت كان طائر البجع ــ أو « بونجيل بورون » كما يسـميها « الكورنانيون » تسير فى قاربها بالقرب منهم ، عنـدما أبصرت ما كان عليـه هؤلاء من غم ، فأسرعت لتقـدم لهم العون • وقد كانت من بين النسـاء امرأة جميلة للغاية الى درجة أن أغرم بها الطائر ، فأخذ ينقـل هؤلاء واحدا تلو الآخر فى قاربه الى بلدهم الأصلى ، عـدا المرأة الجميلة التى كانت

كلما خطت الى القارب قال لها : « ابقى أنت ، فان دورك لم يأت بعد » ، وهكذا ظلت وحدها فى الجزيرة • ولما خشيت أن يعود اليها الطائر ، فتمكث معه بمفردها ، لم تنتظر رجوعه من رحلته الأخيرة وسبحت الى الشاطىء وبذلك هربت منه • ولكنها قبل أن تترك الجزيرة ، ألبست قطعة من الخشب دثارها المصنوع من جلد الحيوان « الأوبوسوم » ، ووضعتها بجوار النار ، بحيث أصبح هذا الشكل يشبهها تماما • وعندما وصل الطائر لينقلها الى الشاطىء صرخ بها قائلا : « والآن قد أتى دورك » • ولكن قطعة الخشب لم تعره جوابا • فتملكه الغضب واندفع الى الشكل الذى حسبه امرأة وركله بشدة • وطبيعى أنه لم يؤذ سوى رجله • وياللهما من ألم وغم انتابا الطائر عندما أدرك أن الخدعة قد تمت عليه • عند ذاك أخذ يلون نفسه بلون أبيض حتى يتنكر به ومضى ليحارب زوج تلك المرأة الفاجرة الوقحة التى خدعته • وبينما كان يستعد للمعركة ، ولم يكن قد لون سوى نصف ريشه ، ظهر له طائر بجع آخر • ولما لم يستطع هذا الطائر الجديد أن يتعرف على هذا المخلوق الغريب الذى كان نصفه أبيض ونصفه أسود ، فقد أخذ ينهشه بمنقاره حتى قتله ، وهذا هو السبب فى أن طائر البجع يتوزع لونه بين الأبيض والأسود ، فى حين أن لونه قبل الطوفان كان أسود فحسب •

أما السكان استراليا الأصليون الذين يسكنون حول بحيرة « تيريس » ، فى ولاية « فيكتوريا » فيروون حكاية الطوفان على النحو التالى : حدث ذات مرة أن شربت ضفدعة مهولة مياه العالم جميعها بحيث لم تترك لأحد جرعة من المياه يروى بها ظمأه • وقد شق هذا الأمر على الكائنات الحية بخاصة السمك الذى أخذ يتجول لاهثا فى الأرض الجافة وهو يتوق الى قطرة ماء • وعند ذاك اجتمعت الحيوانات وتدبرت أمرها معا ، واستقرت على أن الطريقة الوحيدة التى تدفع الضفدعة الى أن تمج الماء ، هى مداعبة خيالها فتضطر الى الضحك • ومن ثم فقد اجتمعت صنوف الحيوان أمام الضفدعة

وأخذت تتصرف بحماقة وتمزح بطريقة تجعل الشخص العادى يغـرق فى الضحك ، ولكن الضفدعة لم تصطنع حتى الابتسـامة ، بل جلسـت هادئة متجهمة تحملق بعينيها الجاحظتين وخديها المتـورمين ، صـارمة القـاضى • وعند ذاك وقف الثعبـان على دنبه ، ليحـاول المحـاولة الأخيرة ، وأخـذ يتلـوى ويرقص بطريقة تثير الضحك • وكان هـذا المنظر أكثر مما تحتمله الضفدعة فانفرجت أسـاريرها وضحكت حتى جرت الدموع على خديها ، وتدفقت الميـاه أثر ذلك من فمهـا • على أن الحيوانات نالت نصيبا من المياه أكثر مما كانت تنتظر ، حيث أن المياه التى مجتها الضفدعة كانت من الكثرة بحيث تحولت الى طوفان أغـرق كثيرا من الناس • وقد كان مصير الناس جميعا الى الهـلاك لو لم تكن البجعة قد رحلت فى قاربها والتقطت من كان لا يزال منهم على قيـد الحيـاة •

حكايات عن الطوفان الكبير فى نيوغينيا وميلانيزيا

يحكى أهالى مقاطعة « كابادى » فى « غينيا الجديدة البريطانية »، أن رجـلا بعينه يدعى « لوهـيرو » غضب هو وأخـوه الأصغر من الناس ، ووضعا عظمة انسـان فى مجرى مائى صغير • فتدفقت الميـاه فى سرعة ، وأغرقت الأرض ، فاندفـع الناس الى الجبـال وأخـذوا يصعدونها شيئا فشيئا حتى وصـلوا الى أعلى قمم الجبـال ارتفاعا • وهنـاك استقروا حتى انحسر الطوفان • وعند ذاك هبط بعضهم الـى السهول ، فى حين ظل البعض الآخر يسـكن منحدرات الجبال وابتنوا البيـوت وفلحوا الأرض • ويحكى « الفـالمانيون » سكان « مينـاء برلين » الذى يقـع على السـاحل الشـمالى فى « نيو غينيا » ، أن زوجة رجل طيب رأت ذات يوم سـمكة كبيرة تسـبح فى اتجـاه الشاطئ • فصاحت بزوجها الـذى لم يتمكن من رؤية السـمكة لأول وهلة • فسـخرت منه زوجته وأخفته وراء شـجرة موز حتى يتمكن من أن يرمق السمكة من وراء الأشجار • فلما أبصرها تملكه الخـوف

وارسل الى ابنه وابنته وأطلعهم على السمكة ومنعهم من اصطيادها وأكل لحمها • ولكن أناسا آخرين أخذوا سهما ورمحا وخيطا وأصابوا السمكة وجروها الى الشاطىء • وعلى الرغم من أن الرجل الطيب حذرهم من أكل لحم السمكة ، فانهم لم يكترثوا لتحذيره • فلما رأى الرجل ما هم عليه من عناد ، أسرع وجعل زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان يتسلق شجرة ثم تسلق هو وعائلته فى النهاية شجرة جوز الهند • أما الناس الأشرار ، فما كادوا يلتهمون لحم السمكة ، حتى تدفقت المياه من باطن الأرض فى قوة بالغة الى درجة أن أحدا لم يجد الوقت الذى ينقذ فيه نفسه ، ومن ثم فقد غرق الناس والحيوانات جميعا • وما كاد يصل ارتفاع المياه الى مستوى أعلى شجرة حتى انخفضت فى سرعة ، كما كان قد سبق لها أن ارتفعت فى سرعة • وعند ذاك هبط الرجل الطيب مع أسرته من أعلى قمم الأشجار وعمر الأرض وفلحها •

وقد قيل أن سكان نهر « ماسبرانو » الذى يقع فى « غينيا الجديدة » التابعة لهولندة ، يرون حكاية عن الطوفان الذى تسبب عن فيضان هذا النهر الذى ارتفعت مياهه حتى غطت جبل « فانيسا » ولم ينج منه سوى رجل وزوجته ومعهما خنزير وطائر الشبنم وحيوان الكانجرو وحمامة • وقد تناسل عن الزوجين الجنس البشرى ، كما تناسلت عن هذين الحيوانين والطائرين سائر أنواع الطيور والحيوانات • ولا يزال هناك على جبل « فانيسا » بقايا عظام الحيوانات الغرقى •

ويحتفظ « الفيجانيون » برواية عن الطوفان الذى يسمونه « فالافو — ليفو » • وبينما يحكى بعضهم أن الطوفان غمر جزءا من الأرض ، فان البعض الآخر يحكى انه غمر الأرض جميعا • وقد حدثت الكارثة على النحو التالى : كان للاله الكبير « ندينجاى » طائر مهول اسمه « توروكاو » • وقد اعتاد هذا الطائر أن يوقظه فى

ميعـــاد محدد كل صباح • وذات يوم صـــوب أحـــد حفيديه ، سواء عن طريق الصدفة أم عمدا ، سهامه الى الطائر فأرداه قتيلا ، ثم دفنه ليخفى معالم جريمته • وفى اليوم التالى لذلك ، نام الاله طويلا ولـــم يستيقظ فى ميعاده المحدد • وغضب الاله كل الغضب لاختفـــاء طائره المحبب اليه ، وأرسل رسوله « أوتو » ليبحث عنه فى كل مكان ، ولكن دون جدوى • وأبلغ الرسول الاله بأنه لم يعثر للطائر على أثر • ولكن عندما عاود الرســـول البحث مرة ثانية ، اكتشفت الجريمة عند عتبـــة باب حفيدى الاله • ولكى يجنب الحفيدان نفسيهما عاقبة غضب الاله الثائر ، هربا الى الجبـــال واحتميا عنـــد قبيلة من النجارين تطوعت أن تبنى حاجزا منيعا تعيش بداخله مع الحفيدين ، لكى يحـــول بينهم جميعا وبين الاله « ندينجاى » وأتبـــاعه ، فـــلا يجعلهم يتجاوزون الخليج • وقد كانت القبيلة عند وعدها حقا ، فشـــيدت الحاجز الذى وقف عنـــده الاله وأتباعه يحـــاولون اقتحامه دون جدوى • ولما يئس الاله من غزو القبيلة بوسائل الحرب العادية ، سرح جيوشـــه وفـــكر مليا فى اجراء عمل انتقامى حاســـم • فأمر السحب الدكناء بأن تتجمع وتفجر ما فيها من أمطار غزيرة وتسقطها بغزارة على الأرض الملعونة • وأغرقت الأمطـــار البلاد ومن بعدها التلال ثم الجبال • ومع ذلك فقد ظل المتمردون ينظرون الى أسفل من قلعتهم المنيعة غير مكترثين بارتفاع المياه • ولكن عندما حطمت الأمواج سورهم الخشبى واقتحمت الميـــاه قلعتهم ، صـــاحوا باله من الآلهة أن يقدم لهم العون • فأرشـــــدهم أحـــد الآلهة ، وفق احدى الروايات ، الى أن يصنعوا منصة عائمة من ثمار شجر الليمون الهندى ، أو أنه أرســـل لهم ، وفقا لرواية أخرى ، قاربين لنجاتهم ، أو انه علمهم كيف يبنون مركبـــا يهـــربون فيه من الطوفان • وقد كان هذا الاله الـــذى خف لنجدتهم هو « روكورو » ؛ وكان قد جاء فى صحبة كبير رجاله « روكولا » • وبعـــد هذا أبحـــر الحفيـــدان فى قاربين كبيرين ، وأخـــذا يلتقطان أجســـاد الغـــرقى • ويحتفظان بها فى مركبيهما حتى انحسر الطوفان • على أن هناك رواية تذكر أن الأحياء قد أنقذوا بأن وضعوا أنفسهم فى أوعية كبيرة طفـــوا

فيها على سطح الماء . ومهما تعددت روايات الأسطورة « الفيجيانية » ، فانها تتفق جميعا فى أن الطوفان أغرق الأرض وأخذ يرتفع حتى غطى أكثر الأماكن ارتفاعا ، وأن من أنقذ من الجنس البشرى هرب فى مركب من نوع ما ترك فى جزيرة « مبينجها » بعد أن انحسر الطوفان . وقد بلغ عدد الأفراد الذين انقذوا ثمانية أفراد . وقد فنيت قبيلتان عن آخرهما فى الطوفان . وقد كانت احدى هاتين القبيلتين تتكون من النساء فقط ، فى حين كان أفراد القبيلة الثانية لهم أذناب كأذناب الكلاب . وحيث ان الذين أنقذوا كانوا قد استقروا بعد الطوفان على جزيرة « مبينجها » ، فان سكان هذه الجزيرة يدعون أنهم أعلى مرتبة من سائرالفيجيانيين كما يدعون أن زعمائهم كانوا يقومون على الدوام بدور بارز فى تاريخ « الفيجيانيين » . وهؤلاء يسمون أنفسهم « رعايا السماء وحدها » . وقد قيل : ان « الفيجيانيين » كانوا فى سالف الزمن يحتفظون على الدوام بقوارب كبيرة استعدادا لحدوث أى طوفان آخر ، ولم يكفوا عن اتباع هذه العادة الا فى الزمن الحاضر ..

ويحكى « الميلانيزيون » سكان جزر الهيبريد الجديدة أن بطلهم الأسطورى الكبير « كات » قد اختفى من الوجود مع الطوفان الذى أغرق العالم . وهم يشيرون على وجه التحديد الى المكان الذى أبحر منه فى رحلته الأخيرة ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة تقع فى وسط جزيرة جاوة . وقد كانت هذه البحيرة فى عهد البطل « كات » سهلا فسيحا تكسوه الغابات . وكان « كات » قد قطع أطول شجرة فى الغابة وصنع من جذعها مركبا . واقترب منه أخوته وأخذوا يرقبونه وهو عاكف على بناء المركب والعرق يتصبب منه سواء كان جالسا أو واقفا فى ظلال الغابات الاستوائية الكثيفة . ثم سألوه فى سخرية « كيف يمكنك أن تجر هذ المركب الكبير الى البحر وسط الغابات الكثيفة ؟ » ولكن « كات » لم يكن يرد عليهم سوى بقوله : « انتظروا حتى تروا ما أفعله » . فلما أتم صنع المركب ، وضع فيه زوجته وأخوته ، وكل الكائنات الحية التى تعيش بالجزيرة حتى أصغر النمل حجما ، وصنع

للمركب غطاء أغلقه دونه ودون أسرته والكائنات التى جمعها • وبعــد ذلك أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، فامتلأ تجويف الجــزيرة بالمــاء ، وأخذت المياه تتدفق خلال سلسلة التلال فى المكان الذى لا تزال شلالات جاوة تتدفق فيه فى اتجاه البحر ، محدثة هديرا صاخبا وسط ستار من الرذاذ • وهناك انزلق مركب « كات » على المياه المتدفقة عبر حواجز التلال ومنها الى البحر حيث اختفى عن الابصار • ويقول الأهالى : أن البطل « كات » قد أخذ معه من كل شىء أجوده عندما اختفى عن الاعين ومازالوا ينتظرون عودته السعيدة حتى اليوم •

١١ ــ حكايات عن الطوفان فى « بولاونيزيا » و « ميكرونيزيا » :

وتنتشر اساطير الطوفان الكبير الذى اغرق حشدا هائلا من الناس بين أهالى مجموعات الجزر التى يجمعهـــا اســـما « بولونيزيا » و « مكرونيزيا » وتنتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • وقد قيل لنا : « أن الروايات المختلفة التى تنتشر بين مجموعات السكان المختلفــة تتفق فى عناصرها الأساسية ، وان اختلفت فى عدد من الانتفصــيلات • فتحكى مجموعة من هذه المجموعات أن الاله « تا أورا » (وهو خالق العالم وفقا لاساطيرهم) غضب فى العصور الأولى على الناس لعصيانهم أوامره ، فحول العالم الى بحر غرقت الأرض تحته عدا بعض النتؤات البارزة (أوروس) التى ظلت فوق سطح الماء مكونة مجموعات الجزر الأساسية • وأما ما يحتفظ به سكان ولايات « أيميو » من ذكـــرى هذه الحادثة ، فهو أن رجلا رسا بقاربه بعد أن انحسر الطوفان بالقرب من بلـــده « تياتاييوا » التى تقع فى جزيرتهم ، وشــيد معبــــدا أو (ماراى) تكريمــا لآلهــه •

وتروى أسطورة الطوفان فى تاهيتى ، على النحو التالى : لقــد حدث أن اغرق البحر « تاهيتى » عن آخرها ، بحيث لم يعش فيهـــا رجل أو خنزير أو كلب أو دجاجة • وقد اطاحت الرياح بحدائق الاشجار والاجحار وقلبت باطن الارض ظاهرها • ولم ينج من هـــذا الدمار

سوى رجل وامرأة ، فعندما بدأ الطوفان يزحف الى البلاد ، حملت المرأة أفراخها الصغيرة • وكلبها الصغير وقطتها الصغيرة ، فى حين حمل الزوج معه خنزيره الصغير (وهذه هى كل انواع الحيوانات التى كان يعرفها الأهالى قديما • وحيث أن كلمة « فاثاوا » أى الصغير تستعمل للمفرد والجمع ، فان عدد الحيوانات هنا قد يكون فردا وقد يكون جمعا •) وقـد اقترح الزوج على زوجتـه أن يأوى الى جبـل « أوروفينا » ، وهو جبل عال فى « تاهيتى » ، حيث ان هذا الجبل ، كما قال لهـا ، شاهق لا تصله مياه البحر • فعارضته الزوجـة فى ذلك ورأت أنه من الافضل أن يأويا الى جبل « أوبيتوهيتو » حيث يـكونان فى مأمن من الطوفان ، لان المياه يمكن أن تصل الى جبال « أوروفينا » • فامتثـل الرجل لرأى زوجته التى كانت على حق فى تصورها ، اذ أن المياه غمرت جبل « أورفينا » بحق ، فى حين وقف جبل « أوبيتو هيتو » شامخا فى عرض المياه ، واصبح ملاذهم • وهناك أخذا يرقبان الفيضان ثمانى ليال حتى بدأ الجزر وبرزت قمم الجبال فوق الأمواج • فلما تراجـع البحر الى مكانه الأصلى ، ترك الارض يبابا بلا محصول أو اناس ، بل أن السمك كان قد هرب الى الكهوف والجحور التى بالصخور • وقـد كانت من الامثلة التأهينية المشهورة : « أحفر جحرا للسمكة فى الماء » • فعندما سكنت الريح وأصبح كل شىء هادئا ، وأخذت الأشجار والأحجار تتساقط من عل حيث كانت الريح قد أطاحت بها هناك • ذلك أن الزوابع كانت قد مزقت الأشجار وحملتها الى أعلى فى شكل دوامة • ونظر الاثنان من حولهما ، وقالت المرأة للرجل : «لقد نجينا من البحر ولكن هاهى ذى الحجارة المتساقطة تحمل الينا الموت ، فالى أين نلجأ الآن ؟ وعند ذاك حفر الاثنان حفرة وفرشاها بالحشائش وغطياها بالأحجار ، ثم زحفا الى داخلها ، وقبعا فيها وهما يستمعان الى صوت الصخور الساقطة من السماء • وهى تهدر وتتصادم • ثم أخذ سقوط الاحجار يقل تدريجيا بعد ذلك،سوى بعض الصخور التى كانت تسقط بين الحين والآخر،أعقبها سقوط أحجار متناثرة حتى كفت كلية عن السقوط • وعند ذاك قالت المرأة للرجل: « لا لن أخرج حتى لا ترديني الاحجار قتيلا » • ثم انتظرا يوما وليلة •

وفى الصباح التالى لذلك قال الزوج لزوجته : « لقد سكنت الريح حقا وكفت الأحجار وجذوع الاشجار عن السقوط ، كما أنه لم يعد يسمع للأحجار صوت » فبرحا جحرهما وأبصرا أكوام الأشـــجار والاحجار المتساقطة وكأنها جبل صـــغير • أما الأرض فلم يبق منها سوى التراب والصخور ، كما لم يعد هناك أثر للاشـــجار ان كان البحـــر قد دمرها ثم هبطا الجبل ونظرا من • ونهيا فى دهشة عندما لم يريا أثرا للبيوت أو لاشجار جوز الهند والنخيل أو لثمـــار الخبز أو لنبـــات الخبيزة أو للحشائش ، اذ كان البحر قد أتلفها عن آخرها • وعاش الروح مـــع زوجته وانجبا ابنا وابنة • وانتابهما الحزن اذ لم يجدا طعاما • وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المرأة تنجب أطفالا • ولكن لم تلبث أشجار جوز الهند وثمار الخبيزة أن أينعت وكذلك سائر الأشجار الأخرى• ولم تمضى ثلاثة أيام حتى كانت الأرض قد غطيت بكافة أنواع الأطعمة ، ثم امتلأت على مر الايام بالناس الذين تناسلوا عن هذا الاب وتلك الام •

وقد حدث الطوفان فى رواية سكان جزيرة « راياتيا » وهى أخذى جزر « ليوارد » فى مجموعة الجزر التاهيتية ، بعد ان عمـــرت الارض بنسل « تا آتا » بقليل • فقد كان الاله « رواهاتا » يخلد الى الراحة بين شعب المرجان فى أعماق المحيط عنـــدما أقض مضجعة صـــياد كان يجدف فى قاربه فوق المكان الذى كان ينام فيه الاله ، ثم أدلى خطاطيفه وهو غافل أوجاهل بوجود الاله وسط الشعب المرجانية التى تقـــع فى قاع المياه الرائعة الشفافة • فاشتبكت الخطاطيف بشـــعر الاله ، بحيث لم يستطع الصياد أن يخلصها من خصلات شعر الاله المعطرة الا فى صعوبة بالغة ، وأخذ يسحبها فى رفق شيئا فشيئا • وغضب الاله لانه لم يجد راحته فى النوم وصعد الى السطح وهو يرغى ويزبد ، ورفع رأسه فوق سطح الماء وأخذ يعنف الصياد لقلة ورعه، وهدده بأنه سوف يدمر الأرض انتقاما من فعلته • وتملك الصـــياد الفـــزع وخر ســـاجدا أمام الاله واعترف له بجريرته ، وتوسل اليه أن يعفو عنه وان يغير الحكم الذى نطق به أو على الأقل ينقذه هو من هذا الدمار • وحركت توبة الرجل وكثرة

الحاحه مشاعر الاله « رواهاتو » وطلب منه أن يعود الى زوجتـــه وولده ويصطحبهما الى « تواماراما » ، وهى جزيرة صغيرة تقع بين الصخور فى الجانب الشرقى من «را آتيا » ووعده بأن يحميه هناك من الدمار الذى سوف يلحق بالجزر المحيطة به • وأسرع الرجل الى بيته واصطحب زوجته وولده ولجـــأوا الى الجزيرة • ويقول البعض أنه اصطحب معه كذلك صديقا له كان يسكن معه تحت سقف احد ، كما أخذ معه كلبا وخنزيرا وزوجا من الطيور ، بالاضافة الى الحيوانات الاليفة التى كان يعرفها أهل هذه الجزر آنذاك • ووصل الجميع الى المرسى وقد أوشك النهار على الانتهاء • وعندما غربت الشمس أخذت مياه المحيط تعلو حتى اضطر السكان المجاورين لشاطىء المحيط ان يتركوا مساكنهم ويلوذوا بالجبال • وظلت مياه المحيط ترتفع طوال الليل ، وفى الصباح لم يكن يبرز من البحرالشاسع سوى قمم الجبال العـــالية التى اختفت فيما بعد ، وقد هلك سكان الجزر جميعا • ثم أخذت المياه تتراجع بعد ذلك • وعند ذاك ترك الصياد ورفاقه المكان الذى كانوا قد لاذوا به ، ورحلوا الى بلادهم ، وعنهم تناسل سكان الجزر الحاليون •

ولا يبلغ ارتفاع الجزر المرجانية التى لجأ اليها أجــداد الجنس البشرى فى كثر اجزائها ارتفاعا أكثر من قدمين فوق ســطح البحر ، بحيث يصعب علينا أنتصور كيف أن الطوفان لم يغرقها ، فى حين أنه غمر الجبال الشاهقة التى ترتفع قممها آلاف الاقدام عن شاطىء هذه الجزر المجاورة • ولكن هذه المشكلة لم تكن تمثل حجر عثرة فى سبيل ثقة الشعب بتراثه ، فهم لا يميــلون الى مناقشـــة هذه الآراء المتشــككة وانما يشيرون ، بقصد تأكيد حكايتهم ، الى الشعب المرجانية والقواقع وغير ذلك من المواد التى يلفظها البحر ، تلك التى عثر عليها بين الفينـــة والفينة على سطح قمم جبالهم الشاهقة ، ويؤكدون فى اصرار أن هذه الفضلات ، لابد أن يكون البحر قد لفظها عندما أغرق الجزر •

ومن الملاحظ ، كما سنرى فيما بعد ، أن الاساطير التاهيتية عن الطوفان تعزو حدوثه الى فيضان البحر وحده ، ولاتعزوه الى سقوط

الأمطار التى لم يرد ذكرها على الاطلاق فى هذه الأســاطير . ويعلق « وليم اليس » الذى ندين له بتدوينه لهذه الاساطير ؛ يعلق عــلى ذلك بقوله « وكثيرا ما تحدثت مع الناس ، سواء كانوا من ســـكان الشمال أو من سكان الجنوب ، حول هذا الموضوع ، ولكننى لم أسمع منهم رواية قط عن انفتاح نافذة السماء ، أو سقوط المطر فى أى شكل من الاشكال . وانما يعزى الطوفان فى كل من أسطورة « رواهاتو » و « تواماراما » فى تاهيتى ، و « كاى كاهينارى » فى « هاواى » الى فيضان البحر . كما أنها جميعا تعزو هذا الفيضان الذى أغرق العــالم وأهلك الجنس البشرى ، الى غضب الاله على الناس » .

وعندما كان « اليس » يعظ فى سكان « هاوى » عام ١٨٢٢ م ، ويتحدث اليهم غن قصة طوفان نوح ، روى له الاهالى حكاية شبيهة بحكاية نوح قد توارثوها أبا عن جد ، « فقالوا له ان آباءهم حكوا لهم أن البحر غمر الارض جميعا ذات يوم ، سوى جــــزء من ذروة جبل « أموناكيا » ، حيث كان شخصان يأويان اليها هروبا من الطوفان الذى أغرق من عــداهم . ولكنهم قالوا انهم لم يســـمعوا من قبل قط عن سفينة أو عن نوح نفسه ، حيث انهم تعودوا ان يطلقوا على الحكاية عنوان « كاى كاهينارى » (أى بحر كاهينارى) » .

ويروى عن « الماوريين » سكان نيوزيلنده أســطورة طويلة عن الطوفان . فهم يقولون انه عندما تكاثر الناس على وجه الأرض وتعدد القبائل انتشرت الشرور فى كل مكان ، فقد تنازعت القبائل فيما بينها واشتعلت بينها الحروب ، وأهمل الناس عبادة الاله الكبير « تانى » الذى خلق أول رجل وامرأة ، وأنكروا تعاليمه جهرا . حقا انه كان هناك نبيــان يعظان الناس ويرشدانهم الى العقيدة الصادقة التى تتصل بانفصــال السماء عن الأرض ، ولكن الناس سخروا منهما واتهموهما بأنهما معلمان مزيفان ، اذ أن السماء والارض متصلتان على نحو ما يرون منذ بداية الخلق . وقد كان اسما هذين النبيين هما « بارا وهنوا » ، و « توبو ـ

نوى آ ـ أوتا » • وقد استمر النبيان فى وعظهما الى أن لعنتهما القبائل قائلة لهما : « انكما تستطيعان أن تلوكا ألفاظ تاريخكما كما تلوكان طعامكما ، وتأكلان رءوس ألفاظ هذا التاريخ » • واستاء النبيان لسماع هذه العبارة الحمقاء « أنكما تأكلان الرءوس » وأخذ يهويان بفأسيهما الحجريتين على الاشجار وجرا جذوع الاشجار الى منبع نهر « توهينجا » وربطا بعضهما ببعض عن طريق خيوط النباتات المتسلقة والحبال حتى صنعا منها قاعدة عريضة ، ابتنيا عليها بيتا واختزنا فيه الطعام الكثير ، وجذور نبات السرخس والبطاطا كما أخذا معهما فيه بعض الكلاب • وبعد ذلك أخذا يتلوان التعاويذ ويبتهلان الى الاله الكبير « تانى » حتى يسقط الأمطار بكميات هائلة بحيث تقتنع الناس بوجوده وقوته ، وترشدهم الى ضرورة العبادة ان شاءوا أن يعيشوا فى سلام • ثم دخلا بيتهما ذاك وأخذا معهما رجلين أحدهما يدعى « تيو » والاخر « ريتى » ، وامرأة تدعى « واى ـ بونا ـ هاو » بالاضافة الى نساء أخريات • وقام « تيو » بدور الكاهن وأخذ يصلى وينطق بالتعاويذ حتى يسقط المطر • واستجابة لدعواته ، سقط المطر بكميات غزيرة ، وأخذ يهطل مدة أربعة أو خمسة أيام • ثم تلا الكاهن تعاويذه مرة أخرى ، حتى يكف المطر عن السقوط ، فسكنت الامطار ، ولكن الفيضان استمر فى الزيادة حتى وصل فى اليوم التالى الى بيتهم العائم ، فرفعته المياه فوق سطحها ، وأخذ التيار يجرفه حتى وصل به الى نهر « توهينجا » • وحتى هذا الوقت كان الفيضان فى انتشاره كبحر كبير يتأرجح فوقه البيت العائم ذات اليمين وذات الشمال • وبعد أن مرت سبعة أشهر قمرية على هذه الحال قال لهم الكاهن : « اننا لن نهلك وسوف نرسو حتما على الأرض » وبعد أن انقضى الشهر القمرى الثامن قال لهم : « لقد انكمش البحر وأخذ الطوفان ينحسر » • فسأله النبيان : « وكيف عرفت ذلك ؟ » فأجاب : « أن مقياسى المدرج قد دلنى على هذا » • ذلك أن الكاهن كان قد وضع معبده على جانب من سطح القاعدة العائمة ، وهناك كان يقوم بطقوسه ويكرر تعاويذه ويراقب مقياسه المدرج • ثم قرأ علامات المقياس وقال لرفاقه :

« لقد هدأت الرياح العاتيه التى هبت فى الشهور الماضية ، كما سكنت الرياح التى هبت هذا الشهر ، ومن ثم فقد سكن البحر » • وفى خلال الشهر الثامن لم يترنح البيت كما كان يفعل من قبل ، وانما أخذ ينزلق الى جانب ترنحه فى بعض الاحيان • وعند ذلك عرف الكاهن أن البحر قد انخفض ، وأنهم كانوا يبحرون بالقرب من الارض • فقال لرفاقه : « اننا سنرسو على الارض الجافة فى خلال هذا الشهر القمرى، لان مقياسى المدرج اطلعنى على أن البحر ينخفض تدريجيا » فأخذت الرفقة تكرر تعاويذها طوال الوقت وتحيى الطقوس تكريما للاله « تانى » • وفى نهاية الامر رسا البيت العائم على أرض جافة فى « هاوايكى » • وقد كانوا يحسبون أنهم سيقابلون بعض الاحياء ، وأن الارض ستبدو لهم كما كانت قبل الطوفان ، ولكن كل شىء كان قد تغير فقد تشققت الارض وتصدعت فى بعض الاماكن ، وانقلبت ظهرا على عقب فى بعض الاماكن الاخرى • أما الكائنات الحية فلم يكن لها أثر على وجه الارض ، وكان هؤلاء الاحياء الذين نجوا هم الذين انقذوا من بين القبائل التى كانت تعيش على وجه الارض • فلما رسا البيت بهؤلاء ، كان أول ما فعلوه أن قاموا بتأدية الشعائر واعادة التعاويذ : وعبدوا الاله « تانى » والسماء (رانجى) والاله « راهو » ، وسائر الآلهة الاخرى • وقدموا لكل اله فى اثناء العبادة قدر ابهامين طولا من حشيش البحر • وقد كان كل اله يعبد على حدة فى مكان مختلف ، كما كان لكل اله معبد تتلى فيه التعاويذ ، عبارة عن جذر من الحشائش أو جذر شجيرة أو شجرة أو خصلة من خيوط الكتان ، فقد كانت معابد الآلهة على نحو هذا فى ذلك العصر • واذا سارت مجموعة من أفراد قبيلة من القبائل بجوار هذه المعابد فى العصر الحاضر ، فان الطعام الذى بداخل معدتهم يتضخم ويقتلهم ، ولا يسمح لاحد أن يذهب الى هذه الامكنة المقدسة سوى الكاهن • أما اذا زارها عامة الناس ثم ظهوا الطعام بعد ذلك فى قراهم ، فان الشخص الذى يتناول هذا الطعام يموت، ذلك أن اللعنة تحل بالطعام من جراء ارتكاب الناس الاثم فى تدنيسهم

قدسية هذه المعابد ، ويكون عقاب آكلى الطعام بسبب اثمهم هو الموت وبعد أن قام الناس الذين نجوا بكل الشعائر اللازمة لازالة الدنس الذى أثقلوا به ؛ أشعلوا النار عن طريق الاحتكاك باحدى الاماكن المقدسة ، ثم أشعل الكاهن قطعة من الحشائش ، ووضع كل حزمة مشتعلة عند كل معبد بجوار قطعة النبات المخصصة للاله • وبعد ذلك قدم الكهنة للآلهة أعشاب البحر شكرا لها على انقاذهم من الطوفان وعلى حفظ حياتهم فى البيت الذى طافوا فيه ••

وكما دونت حكاية الطوفان فى « بولونيزيا » ، فقد دونت كذلك فى « ميكرونيزيا » • فيحكى « البيلوريون الايسلنديون » ، أن رجلا صعد ذات يوم الى السماء ، حيث تنظـر الآلهة بعيـــونها البراقة ــ وهى النجوم ــ كل ليلة الى الارض ، وسرق أحد هذه النجوم وحمله معــه الى الارض • ومن هذه العين البراقة صنع « البيلوويون الايسلنديون » نقودهم منذ ذلك الحين • ولكن الآلهة غضبت لهذه السرقة ، ونزلت الى الارض لتسترد ممتلكاتها المسروقة وتعاقب السارق • ولكى تفعل هــذا تنكرت فى شكل عامة الناس ، وأخذت تنتقل من بيت الى بيت تسأل الناس طعاما ومأوى ولكن الناس كانوا افظاظا فى سلوكهم معها وطردوها دون أن يقدموا اليها عشـــاء أو كسرة خبز • ولكن أمراة عجـــوزا أحسنت استقبالها ، وقدمت لها أطيب ما عندها من طعام وشراب • وعند خروج الالهة من كوخ المرأة العجوز ؛ نصحتها أن تصنع لوحا من خشب المامبو بحيث يكون معدا عند اكتمال القمر التالى وتنام عليه فى الليلة بعينها التى يكتمل فيها القمر • فصنعت المرأة العجوز ما نصحت به • فلما كانت ليلة اكتمال القمر ، هبت عاصفة وهطلت الامطار ، وأخذت مياه البحر ترتفع تدريجيا حتى أغرقت الجزر ، وطوقت الجبال ؛ وهدمت مساكن الناس الذين لم يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم ؛ فهلكوا عن آخرهم • أما المرأة العجوز الطيبة فقد راحت فى سبات عميق على لوح الخشب وطفت على سطح الماء وجرفها التيار حتى تشابكت خصلات شعرهـــا بفروع شجرة كانت تقع على قمة جبل « أرميليميو » • وهناك استقرت

حتى انحسر الطوفان وانخفضت المياه تدريجيا حتى وصلت الى سفح الجبل • وعند ذاك هبطت الالهة من السماء لتبحث عن المرأة العجـوز الطيبة التى تعهدت بحمايتها ، ولكنها وجدتها ميتة • فاستدعت الالهـة امرأة من بين شعبهم النسائى الذى يسكن السماء ؛ فتوغلت هذه المرأة فى جسد العجوز المتوفاة وأحيتها • ثم أنجبت الالهة بعد ذلك خمسة أطفال عن طريق هذه المرأة العجوز التى بعثت الى الحياة ؛ وبعدها عادت الالهة الى السماء وكذلك المرأة الالهة التى تطوعت وأعادت الحياة الى المرأة العجوز بعد أن توفيت • وقد عمر الاولاد الخمسة الذين ولدوا من آباء الهيين وام انسانية جزر « بيلو » ، ومنهم تناسل سكان هذه الجـزر الحاليين •

١٢ ــ حكاية عن الطوفان الكبير فى امريكا الجنوبية :

كان هنود البرازيل ، وقت أن اكتشفوا فى المكان الذى تقع فيـه اليوم مدينة « ريو ــ دى ــ جانيرو » يروون أسطورة عن طوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى أخوين مع زوجتيهما • وقد اغرق هذا الطوفان وفقا لاحدى روايات هذه الأسطورة جميع بقاع العالم وأهلك الناس جميعا فيما عدا اجداد هؤلاء الهنود الذين تسلقوا شجرة عالية • ووفقا لرواية أخرى ، نجا هؤلاء من الطوفان فى قارب •

أما الحكاية التى رواها « أندريه تيفيـه » الفرنسى ، الذى زار البرازيل فى منتصف القرن السادس عشر ، نقلا عن الهنود الذين كانوا يسكنون بالقرب من « كيب فريو » فتجـرى على النحو التالى : كان لطبيب عظيم اسمه « سوماى » ولدان ، أحدهما اسمه « تاميتدونارى » والاخر اسمه « أريكونت » • أما « تاميندونارى » ، فكان يقوم بفلاحة الارض ، وكان أبا وزوجا صالحا ، وله زوجة وأولاد • وأما الابن الثانى فلم يكن يهتمبشىء من هذه الامور ، بل كان منصرفا الى الحرب • وقد كان الشىء الذى يجلب السرور الى نفسه ، هو اخضاع القوم المجاورين له لسطوته ، بل اخضاع أخيه الشقيق • وذات يوم ، أحضر هذا المحارب

الشرس لاخيه المسالم ذراعا مبتورة لاحد قتلاه فى معركة من المعارك ، وقال له فى الوقت نفسه فى كبرياء : « اغرب عن وجهى أيها الجبان : اننى سآخذ منك زوجك وأولادك ، حيث انك غير قادر عن الدفاع عنهم» . فنظر اليه أخوه الطيب آسفا لعنجهيته ورد عليه فى سخرية لاذعه وقال له : « اذا كنت على هذا النحو من الشجاعة ، فلم لم تحضر معك بقية رمم أعدائك » ؟ . وعند ذاك رمى «أريكونت » الذراع المبتورة على عتبة باب أخيه ، وهو ساخط على تعنيفه اياه . وفى هذه اللحظة انتقلت القرية التى يسكنها الأخوان الى السماء ، ولم يبق على الارض سوى الاخوين . فلما أبصر « تاميندونارى » ما حدث ، دق الارض برجله فى عنف بدافع الدهشة أو الغضب ، فتدفق نبع من المياه ، وأخذت المياه تعلو حتى غطت قمم التلال وكادت تصل الى سحب السماء . ثم استمرت فى تدفقها حتى غطت الارض جميعا . فلما رأى الاخوان أن الخطر قد أحدق بهما ، أسرعا وصعدا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا ، ثم أخذا يتسلقان الاشجار هروبا من الماء مع زوجتيهما . أما « تاميندونارى » فقد تسلق شجرة تسمى شجرة « بيندونا » وهى تلك التى رأى الرحالة الفرنسى منها نوعين ، أحدهما ثماره أكبر وأوراقه أعرض من النوع الاخر . ولم يأخذ « تاميندونارى » معه سوى زوجة من زوجاته فى أثناء هروبه من الطوفان . أما الاخ الثانى « أريكونت » ، فقد تسلق هو وزوجته شجرة أخرى تسمى شجرة « جينيبير » . وهناك على قمة هذه الشجرة قدم « أريكونت » بعض الثمار لزوجته وقال لها : « اكسرى هذه الثمار وارمى بها فى الماء » . فلما فعلت أدركوا من صوت رشاش الماء أن المياه لا تزال عالية ، وأنه لم يحن الوقت بعد لكى يهبطوا الى الوادى . ويعتقد الهنود أن الناس جميعا غرقوا فى هذا الطوفان فيما عدا الاخوين وزوجتيهما . ومنهما تناسل شعبان مختلفان هما شعب « توناسيرى » وكنيته « توبنامبو » وشعب « تونايتزهويانا » وكنيته « تومينى » . وكلا الشعبين فى حرب على الدوام مع بعضهما البعض . ويميل شعب « توبينامبو » الى أن يعلى من قدره فوق أقرانه وجيرانه فيقول : « اننا

من نسل « تاميندوناری » أما انتم فمن نسل « أريكونت » • وهم يعنون بذلك أن « تاميدوناری » كان أفضل من أخيه « أريكونت » •

وقد روى الاب اليسوعى « سيمون دى فاسكونسلوس » رواية أخرى لهذه الاسطورة تختلف بعض الشىء عن الرواية السالفة • ففى رواية الاب اليسوعى نجت أسرة واحدة من الطوفان • كما أنه ليس بها ذكر لاخ شرير • وتحكى هذه الرواية أنه كان فى سالف الزمن طبيب ماهر أو عراف يدعى « تاماندوار » ، أفشى اليه الاله بسر قدوم طوفان كبير يغرق الارض ، ثم يظل يعلو حتى يغطى الاشجار وقمم الجبال فيما عدا قمة واحدة توجد عليها شجرة نخيل تطرح ثمارا كثمار جوز الهند • وقد نصح الاله الطبيب بأن يلوذ بهذه الشجرة مع اسرته فى فى ساعة الشدة • ولم يتوان « تاماندوار » لحظة ولجأ الى المكان المذكور مع أسرته • وما كاد يستقر هناك حتى بدأت الامطار تهطل حتى أغرقت الارض ، ومن بعدها وصلت الى قمم الجبال • وعند ذاك تسلق الرجل وأسرته شجرة النخيل وظلوا هناك طوال مدة الطوفان يعيشون على ثمارها • فلما انحسر الطوفان هبطوا الى الارض وأنجبوا أولادا وأحفادا عمروا الارض التى كان الطوفان قد تركها خرابا •

وبالمثل تروى قبيلة « كاينجانج » أو « كورودو » التى تقطن فى اقليم « ريو جرانوى دى سول » ، الذى يقع فى أقصى جنوب البرازيل حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق الارض التى كان يسكنها اجدادهم من قبل • ولم يبرز فوق سطح الماء سوى قمة سلسلة الجبال الساحلية التى تسمى « سيرا دو مار » وقد سبح أفراد القبائل الهندية الثلاث وهى قبيلة « كاينجانج » وقبيلة « كايوروكرى » وقبيلة « كامى » ، فى اتجاه هذه الجبال ، وهم يحملون شعلات من النار بين أسنانهم • وسرعان ما شعر أفراد قبيلتى « كاينجانج » ، و « كامى » بالتعب ، فغاصوا تحت الأمواج وغرقوا وفارقتهم أرواحهم لتسكن الجبال • أما أفراد قبيلة « كايوروكرى » وبعض أفراو قبيلة « كوروتون » فقد شقوا طريقهم بين الامواج الى الجبال ، وهناك اتخذوا

لأنفسهم مأوى ، بعضهم فى الجبال وبعضهم بين فروع الأشجار • ثم مرت بعد ذلك عدة أيام دون أن تنخفض المياه ،كما لم يجد هذا الحشد فى أثنائها ما يأكله • وبينما كان الجميع يتمنى الموت ، سمعوا غناء طيور « ساراكورا » ، وهى نوع من الطيور المائية ، وقد جاءتهم بسلال مملوءة بالتراب • ثم رمت الطيور بهذه الاتربة ؛ فهبطت الى قاع الماء بطبيعة الحال • وعند ذاك صاح الناس على الطيور أن تسرع ؛ كما نادت الطيور بدورها البط ، وأخذ الجميع يعمل معا لتهيئة مكان يعيش فيه كل الناس غير أولئك الذين كانوا استقروا على الاشجار ، وقد تحول هؤلاء فيما بعد الى قردة • وعندما انحسر الطوفان هبطت قبيلة « كاينجانج » واستقرت عند سفح الجبل • أما أرواح الغرقى من قبيلتى « كايوروكرى » و « كامى » ، فقد تسربت من أحشاء الجبل الذى كانت سجينة فيه • فلما خرجت الى الخارج أشعلت النيران ، وصنع أحد افراد قبيلة « كايوروكرى » من رمادها أشكالا للنمور ، وحيوانات التابير وآكلى النمل والنحل وغير ذلك من صنواف الحيوان ، ثم بث فيها الحياة وأرشدها الى الطعام الذى تأكله • ثم جاء أحد أفراد قبيلة « كامى » وقلده وصنع أشكالا لسبع الجبل والحيات السامية والذنابير لكى تتصارع مع الحيوانات التى صنعها أحد أفراد القبيلة الاولى ، على نحو ما تتصارع معها اليوم •

وبالمثل يروى عن قبيلة « كارايا » وهى قبيلة هندية برازيلية تسكن وادى نهر « أرجواى » الذى يكون مع نهر « توكانتينز » ، أهم الانهار الشرقية التى تصب فى الفروع الجنوبية لنهر « الامازون » ، حكاية عن الطوفان الكبير • ويقال : ان هذه القبيلة تختلف عن جيرانها فى الاخلاق والعادات ،كما تختلف عنها فى خصائصها الفيزيائية ، بل ان لغتها ليست لها علاقة ــ فيما يبدو ــ باللغات الاخرى المعروفة التى يتحدث بها الهنود البرازيليون • وتجرى حكاية قبيلة كاديا عن الطوفان على النحو التالى • خرج « الكاراياويون » ذات يوم ليصطادوا الخنازير المتوحشة ، فاختبأت الخنازير فى مغاراتها وعند ذاك حاولوا أن يخرجوها من مخبأها ، فكانوا كلما أخرجوا خنزيرا

قتلوه فى الحال • وفى اثناء اخراجهم للخنازير ، اعترضهم غزال وحيوان التابير ، وغزال أبيض • فلما توغلوا داخل الكهف اعترضتهم قدم انسان وأفزعهم هذا المنظر ، وراحوا يبحثون عن ساحر قدير له علم بصنوف حيوانات الغابة • وجاء هذا الساحر واجتهد فى اخراج صاحب القدم من التراب • وكان اسم هذا الرجل « أناتيرا » وكان نحيـــلا وان كان ذا بطن ضخم•

أخذ « أناتيو » يغنى ويقول : « أنا أناتيوا ، أحضروا لى دخانا كى ادخن » ولكن القبيلة لم تفهم لغته واسرع أفرادها الى الغابـــــة وأحضروا له أنواع الزهور والثمار ولكنه رفضها جميعـــا وأشار الى رجل كان يدخن • فعرفوا مطلبه فى الحال وأحضروا له الدخان • فتناوله منهم وأخذ يدخن حتى سقط مغشيا عليه • فحملوه فى قاربهم ورجعوا به الى قريتهم • وهناك أفاق من غفوته وأخذ يرقص ويغنى • ولـــكن مسلكه ولغته الغريبة أخافت قبيلة « كارايا » ، فحملت امتعتها ورحلت من القرية ، مما أغضب « أناتيوا » ودفعـــه لان يحول نفســـه الى « بيرانها » ، وأن يلحق بهم على هذا النحو حاملا معه ثمار القـــــرع المجوفة بعد أن ملأها بالماء • ثم صاح بأفـــــراد القبيلة أن يتوقفوا ، ولكنهم لم يكترثوا لندائه • وعند ذاك هشم ثمرة من ثمار القرع التى كانت معه وفى الحال تدفق الماء وأخذ يعلو فى الوقت الذى كانت فيـــه القبيلة تواصل هروبها • فهشم « أناتيوا » ثمار القرع واحدة تلـــــو الاخرى • وكان كلما هشم ثمرة ، ازداد ارتفاع الماء حتى أغرق الارض جميعا ، ولم يعد بارزا منها فوق سطح الماء ســـــوى قمم الجبال التى تقع عند نهر « تابيرابى » • فلاذت القبيلة بقمتين من قمم هذه السلسلة الجبلية • وعند ذاك صاح « أناتيوا » على كل أنواع السمك أن يجرف هؤلاء الناس الى الماء • فحاول سمك « الباهو » و « البنتادو » ، و «الياكو » أن يفعل هذا دون أن ينجح فى اغراقهم • وفى النهاية حاولت ســمكة « بيكودو » (وهى ســمكة ذات منقــار طويل كالخــرطوم) أن تتسلق الجبل من الخلف ، وقذفت بأفراد القبيلة فوق قمة الجبال الى

الماء • ومازال هناك مستنقع كبير يشــير الى المكان الذى سقط أفــراد قبيلة « كارايا » فيه • ولم يبق فوق قمة الجبل سوى بعض الافراد الذين لم يهبطوا منه الا بعد أن انتهى الطوفان • وقد علق الكاتب الذى دون هذه الحكاية عليها بقوله « على الرغم من أن الفيضـــانات التى تحدث بانتظام ؛ مثل فيضانات نهر أراجواى ، لا ينشأ عنها فى العموم حكايات عن الطوفان ، كما أشار أندريه الى هذا بحق ، الا أن الظروف المحلية لوادى نهر أراجواى مناسبة لان ينشأ عنها مثل هذه الحكاية • فالمسافر الذى يجد نفسه فجأة ؛ بعد رحلة طويلة بين شواطىء النهــر المنخفضة الممتدة الى غير نهاية ، أمام تلك الجبال الصلبة ذات الشكل المخروطى التى تقع عند نهر « تابيرى » ، والتى تعلو أمامه فجــأة بين السهول ؛ يستطيع أن يفهم فى يسر الظـــروف التى دفعت قبيلـــة « كاراياس » ، التى عانت كثيرا من الفيضانات ، لان تحكى مثل هذه الحكاية • وربما كانت هذه الجبال بحق بمثابة ملجأ لسكان الاحيـــاء المجاورة » • ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : « وكما هو الحال فىمعظم أساطير الفيضان فى أمريكا الجنوبية ، فان هذا الفيضان الغريب الذى تحكى عنه هذه الاسطورة ، لم يحدث نتيجة سقوط الامطار ؛ بل حدث نتيجة تحطيم أوعية كانت ممتلئة بالمياه •

وبالمثل يحكى « الباماريون » و « الابيديريون » و « الكتاوشيون » الذين يسكنون عند نهر « بوروس » أنه قد حدث فى زمن من الازمنـــة أن سمع الناس صوت قعقعة ينبعث من فوق الارض ومن تحتها ، ثم استحال لون الشمس والقمر الى لون أحمر وازرق واصفر ، واختلطت الوحوش فى غير فزع بالناس • وبعد مضى شهر ، سمع لناس هديرا ؛ كما أبصروا الظلمة تصعد من الارض الى السماء تحت المياه ، وفقد بعض الناس كمامات بعضهم ، دون أن يعرف الناس سببا لهذا ، اذ كان كل شىء فى حالة اضطراب مفزعة • ثم ظلت المياه ترتفع حتى لم يعد بارزا من الارض سوى فروع الاشجار الشاهقة • وعند ذلك أخـــذ الناس يبحثون عن مأوى لهم ، وهلكوا من البرد والجوع وهم جاثمون بين فروع الاشجار ، ذلك أن الظلام كان يعم الكـــون طوال الوقت ، كما

كانت الامطار تسقط بصفة مستمرة • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل يدعى « أوآسو » مع زوجته • فلما هبط هذان من أعالى الاشجار بعد أن انتهى الطوفان ، لم يجدا أثرا لجسد انسان ، اللهم الا كومة من العظام البيضاء • وبعد ذلك انجب هذان عددا كبيرا من الابناء • ثم قال أحدهما للاخر : « هيا نبتنى بيوتنا فوق الماء ، فاذا علا الماء طفت بيوتنا على سطحه ونحن بداخلها واصبحت متماســـكة • ومع ذلك فان « الباماريون » مازالوا يبنون مساكنهم فوق الماء حتى اليوم •

ويرى « الموراطيون » وهم فرع من « الجيباريين » الذين يسكنون فى « أكوادور » ، حكاية خاصة بهم عن الطوفان ، يقولون فيها ان موراطيا هنديا خرج ليصطاد فى مجرى نهر « باستازا » الضحل • فابتلع تمساح صغير الطعم من سنارته ، فقتل الصياد التمساح أثر ذلك • فغضبت أم التمساح أو بالاحرى أم التماسيح ، وأخذت تضرب الماء بذيلها حتى فاضت المياه وأغرقت ضواحى النهر ، وغرق الناس جميعا عــــدا رجل واحد استطاع أن يتسلق نخلة ومكث هناك بضعة أيام كان الظلام يخيم فيما على الكون كله • وكان الرجل يقذف بين الحين والاخر بثمرة من ثمار النخلة فى الماء ، ولكنه كان يسمع لها على الدوام صوت ارتطام قوى • وفى اليوم الاخير رمى ثمرة على الارض فأحدثت صوتا مصمتا ، فادرك لحينه أن الماء قد انحسر • فهبط من الشجرة وابتنى بيتا وأخذ يفلح له حقلا • وقد كان الرجل بدون زوجته ، لكنه سرعان ما صنع لنفسه واحدة بأن قطع جزءا من جسمه وغرسه فى الارض ، فأخصبت التربة هذا الجزء ونمت منه امرأة تزوجها فيما بعد •

ويحكى « الاروكانيون » سكان شيلى حكاية عن الطوفان الذى لم ينج منه سوى بضعة أشخاص • وكان هؤلاء الاحياء المحظوظون قد لجأوا الى قمة جبل شاهق يسمى جبل «تجنج» ومعناه الجبل المرعد أو المتلالىء وقد كان لهذا الجبل ثلاثة نتوءات ، كما كان له خاصية الطفو على الماء • « ومن ثم كان من الممكن الاستدلال » ، كما يقول مؤرخ أســـبانى : « على أن هذا الطوفان قد حدث نتيجة بعض الانفجارات البركانية التى

صحبتها هزات أرضية شديدة • فهو طوفان يختلف فيما يبدو عن طوفان نوح • وأينما تحدث هذه الهزات الأرضية العنيفة ؛ فان الناس يهربون، طلبا للأمان ؛ الى هذه الجبال التى يحسبونها طافية ؛ ومن الطبيعى أنها تتصف حقا بخاصية الطفو على الماء ، ووفقا لتصورهم • وسبب هذا أن الناس يخافون بعد حدوث هزة أرضية ، أن البحر يفيض مرة أخرى ويغرق العالم • وفى مثل هذه الحالات يأخذ كل فرد معه مقدارا من الزاد ؛ وأطباقا خشبية يضعها فوق رأسه لكى تحميه من حرارة الشمس ذلك لان المياه عندما ترفع جبال « ثجنج » نتيجة ارتفاع المياه ، فمن الطبيعى أن الجبال تقترب عندئذ من الشمس • فاذا قيل لهم أن الأطباق المصنوعة من الطين أكثر ملاءمة لهذا الغرض من تلك المصنوعة من الخشب التى قد تحترق بتأثير حرارة الشمس ؛ فان جوابهم المألوف عن هذا بأن أجدادهم قد فعلوا هذا من قبل •

ويحكى « الأكاويون » سكان « جيانا البريطانية » حكاية عن الطوفان الكبير غنية بتفصيلاتها • فهم يقولون : أن الروح الكبير « ماكونيما » خلق فى بداية الحياة الطيور والوحوش ؛ ثم عين ابنه « سيجو » حاكما عليها • وفضلا على هذا فقد أنبت فى الأرض شجرة ضخمة رائعة تحمل على كل فرع من فروعها ثمارا مختلفة ؛ بينما كان ينبت حول جذعها الموز والطلح والكاسافا والذرة والقمح فى وفرة ، كما انتشر نبات اليام حول جذورها • وباختصار ؛ فقد ازدهرت فوق تلك الشجرة العجيبة أو حولها أو أسفلها كل النباتات التى تنمو على سطح الأرض • ولكى يعم خير الشجرة العالم أجمع ، قرر « سيجو » أن يقطع تلك الشجرة وأن يغرس بذورها وشظاياها فى كل مكان • وقد فعل هذا بمساعدة كل الوحوش والطيور باستثناء القرد ذى اللون البنى ، الذى رفض بسبب كسله وولعه بايذاء الناس ، أن يساهم فى هذا العمل الكبير • ولهذا فقد أرسل « سيجو » هذا القرد ليحضر الماء من النبع فى سلة مخرمة لكى يصرفه عن التفكير فى أى عمل شرير ، اذ أنه قدر أن هذا العمل يستغرق حيويته لبعض الوقت ، تلك الحيوية التى

يستنفذها خلاف هذا فى الاعمال الشريرة • وفى أثناء هذا انشـــغل « سيجو » بقطع الشجرة ، واكتشف أن بطن الشجرة كان مجوفا وممتلئا بالماء الذى يسبح فيه كل أنواع السمك • وعند ذلك رأى « ســـيجو » الطيب أن يمد أنهار وبحيرات العالم أجمع بكميات وافـــرة من هذه الأسماك ، حتى يتوالد فى كل مياه كل نوع من أنواع هذا السمك • ولكن هذا العمل الطيب لم يتم كما كان متوقعا ، لان المياه المخـــزونة فى بطن الشجرة بدأت تتدفق لانها كانت متصلة بخزان كبير فى جوف الأرض • ولكى يحول « سيجو » دون تدفق المياه ، سد الجزء الباقى من الشجرة بعد قطعها ، بسلة محكمة النسج ، فتوقفت المياه حقـا عن التدفق • ولكن لسوء الحظ جاء القرد خلسة الى مكان الشجرة ، بعد أن تعب من العمل الذى كلف به ، وأثارت هذه السلة المقلوبة فضوله ، وتصور انها يمكن ان تخفى طعاما طيبا ، فرفعها فى حذر واختلس النظر بداخلها ، واذا بالماء يتدفق فى قوة مكتسحا القرد أمامه وأغرق الارض جميعها • وعند ذلك جمع « سيجو » صنوف الحيوان التى لم يغرقها الطـوفان ، وقادها الى أعلى مكان فى البلد حيث تنبت بعض أشجار جوز الهنـــد الطويلة ، ثم ترك الطيور والحيوانات القادرة على التسلق تصـــعد أكثر هذه الاشجار ارتفاعا • أما تلك الحيوانات التى لم تكن تتمكن من تسلق الاشجار وليست من الانواع المائية أو البرمائية ، فقد حبسها فى كهف ذى مدخل ضيق غطاه بالشمع بعد أن سلم الحيوانات شوكة طويلة تثقب بها الشمع لكى تتأكد من انحسار الطوفان • وبعد أن اتخذ « سيجو » هذه الاحتياطات لضمان سلامة هذه الحيوانات الضعيفة ، تسلق مع الحيوانات الأخرى شجرة النخيل ، واحتجب بين فروعهـا ، وأخذ يقاسى معها آلام البرد والجوع بسبب الظلام الدامس وهبوب العاصفة التى أعقبت تدفق الفيضان • أما سائر الحيوانات فقد تحملت متاعبها فى رباطة جأش • أما القرد الأحمر ، فقد أخذ يصرخ من الألم صرخات مفزعة حتى انتفخت رقبته ولا تزال له حتى اليوم طبلة ناتئة العظام فى رقبته • وفى هذه الاثناء ، كان « سيجو » يقذف بين الحين والآخر بثمار شجرة النخيل فى الماء ليختبر من صوت ارتطامها به عمق

المياه•فكلما انخفضت المياه، كانت تزداد المسافة الزمنية بين سقوط الثمرة وارتطامها بالماء • وفى النهاية سمع صوتا مصمتا بدلا من صوت الارتطام وأخذ يستعد مع من معه من الحيوانات والطيور للهبوط من أعلى الشجرة• على أن الطائر النافخ كان فى عجلة من أمره فى أثناء هبــوطه ، بحيث اقتحم عش نمل • فهجم النمل الجائع عليه وأخذ ينهش رجليه وعراهما من اللحم • وهذا هو السبب فى أن الطــائر النافخ ما زالت له رجلان عاريتان من اللحم حتى اليوم • واتعظت الكائنات الأخرى بفعله هذا الطائر ، فهبطت فى حذر وخوف • وبعد ذلك أخذ ســيجو قطعتين من الخشب ، وحك احديهما بالأخرى لكى يولد النار • وما كادت تتطــاير الشرارة الأولى ، وكان « ســيجو » قد ولى وجهه عنها صــدفة ، حتى أخطأها الديك الرومى وابتلعها وطار • فأحرقت الشرارة رقبته • وهذا هو السبب فى أن الديك الرومى له غبب أحمر حتى يومنا هــذا • وكان التمساح يقف فى هذا الوقت الى جانب الديك الرومى دون أن يتسبب فى ايذاء أحد • ولكن لما كان سلوكه فى هذا الوقت لسبب ما غير عادى ، فقد اتهمته الحيوانات الأخرى بسرقة الشرارة وابتلاعها • ولكى يسترد « سيجو » الشرارة من بين فكيه فتح فمه ومزق لسانه • وهذا هو السبب فى أن التماسيح الأمريكية لم يعد لها ألسنة منذ ذلك اليوم •

ويعتقد « الأراوكيون » سكان « جيانا البريطانية » أن الحيــاة أصيبت بالدمار مرتين منذ خلقها ، مرة بسبب النار ومرة بسبب الفيضان وكلا الدمارين أحدثهما « أيومون كزنوى » ساكن السماوات العليا » ، بسبب فساد الجنس البشرى • على أنه أنذر الناس قبل حدوث الدمار الأول ، فأخذ القوم الذين استمعوا لتحذيره ، يســتعدون للهروب من النار الكبيرة ، بأن أخذوا يحفرون تحت جبل رملى • وابتنوا لانفسهم مسكنا تحت الارض ذا سقف خشبى ويقوم على أعمدة خشبية • ثم غطوا سقف المسكن بالتراب وطبقة سميكة من الرمل • وبعد ذلك لجأوا اليه بعد أن أبعدوا عنه كل المواد القابلة للاشتعال • وهناك مكثوا فى هدوء حتى خمدت ألسنة النيران التى اكتسحت أمامها كل شىء عــلى

سطح الأرض • أما الدمار الثانى الذى حل بالأرض ، فقــد تسبب عن الطوفان • وقد كان زعيم حكيم ورع يدعى « ماريريوانا » يعلم به قبل وقوعه ، من ثم فقد نجا مع أسرته فى مركب كبير • ولما كان يخشى أن يجرف التيار مركبه بعيدا عن الشاطىء وبعيدا عن مسكن آبائه ، فقــد صنع حبلا طويلا من الألياف وربط به مركبه فى جذع شـــجرة ، فلما انحسرت المياه ، لم يجد نفسه بعيدا عن مكان الأصلى •

ويحكى « الماكوسيون » الذى يسكنون « جيانا البريطانية » أن الروح الطيب « ماكونيما » الذى يعنى اسمه « الذى يعمل بالليل » ، خلق فى بداية الحياة السماء والأرض • وبعد أن ملأ الأرض بالاشجار والنباتات ، هبط من مسكنه فى السماء وتسلق شجرة وأخذ يكشط لحاء الشجرة بفأس حجرية كبيرة ، فتساقط اللحاء فى النهر عند جذر الشجرة وتحول فى الحال الى صنوف من الحيوان • وبعد أن فرغ من خلق الحيوان شرع فى خلق الرجل • وراح الرجل الذى خلقه فى سبات عميق ، فلما استيقظ وجد امرأة تقف الى جواره • على ان الروح الشرير سيطر على الارض بعد ذلك • لهذا فقد أرسل «ماكونيما» الروح الطيب طوفانا الى الارض لم ينج منه سوى رجل واحد هرب فى مركب • ثم بعث هذا الرجل فأرا فيما بعد ليعرف ما اذا كان الطوفان قد انحسر عن الارض ، فرجع الفأر اليه بحفنة من القمح • فلما تراجعت المياه الى منسوبهـــا الطبيعى ، عمر هذا الرجل الارض على نحو ما فعــل « دويكاليــو » و « بيرها » ، بأن كان يرمى الأحجار من وراء ظهره فتتحول الى شخوص • وتتضمن هذه الحكاية وجوها من الشبه يثير الشك بينها وبين حكاية الكتاب المقدس • وتتمثل وجوه الشبه هذه فى خلق المرأة على هذا النحو الغريب ، وفى ذكر الروح الشرير ، وحادثة ارسال الفأر لاستكشاف عمق الطوفان • وربما كان مرد هذا التشابه الى تأثير المبشرين المسحيين ، أو الى تأثير أوربى بصفة عامة • على أن الطريقة التى خلق بها الذين نجوا من الطوفان الجنس البشرى بعد أن انتهى الطوفان ، تشـــبه الحادثة المماثلة لها فى القصة الاغريقية عن « دويكاليون » و « بيرها » ، مما

يصعب النظر الى الحكايتين بوصفهما مستقلتين احداهما عن الاخرى ..

ويروى «هنود أورينوكو» كذلك أساطير عن الطوفان الكبير . وقد دون « هومبولت » ملاحظاته حول هذا الموضوع فقال : ولا يمكنني أن أترك هذه السلسلة الأولى من جبال « انكماردا » دون أن أذكر واقعة لم يكن يعرفها الاب « جيلى » وكثيرا ما كانت تحكى لى فى أثناء اقامتى مع الجماعات الارسالية فى « أورينكو » . فقد احتفظ سكان هذه البلاد الأصليين بعقيدة تتلخص فى أن أمواج البحر ارتطمت بصخور جبال « انكماردا » فى أثناء فترة الطوفان الكبير الذى هرب منه آباؤهم فى قوارب بحثا عن النجاة . ولا تعيش هذه العقيدة منفصلة بين شعب « التاماناكويين » وحدهم ، انما تكون جزءا من تراث تاريخى اكتشفت مقتطفات متفرقة منه بين « المايبويين » سكان الشلالات الكبيرة ، وبين الهنود الذين يسكنون عند شلالات « ريو اريفانو » التى تصب فى نهر « كاورا » ، وبين كل القبائل على وجه التقريب التى تسكن أعالى « أورينوكو » . فاذا سئل « التاماناكويون » عن الوسيلة التى هرب بها الجنس البشر من هذا الطوفان الكبير أو من « عصر الماء » كمايسميه المكسيكيون ، فانهم يجيبون بأنه لم ينج من هذا الطوفان سوى رجل واحد وامرأة واحدة لاذا بجبل شاهق يسمى جبل « تاماناكو » ويقع عند شواطىء نهر « أزيفيرو » . وبينما كان هذا الرجل وهذه المرأة يرميان بثمار شجرة نخيل « ماورينيا » من وراء ظهورهما ، أبصرا رجالا ونساء يخرجون من بذور الثمار ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان ، وكانا قد ملأهما الاسى للخراب الذى حل بالعالم . أما بذر الثمار التى رماها الرجل فقد تحولت الى ذكور وأما بذور الثمار التى رمتها المرأة فقد تحولت الى اناث .

ويحكى « الكناريون » وهم قبيلة تسكن فى اكوادور ، أن طوفانا كبيرا حدث فى عهد مملكة « كرينو » القديمة ، ونجا منه أخوان بأن هربا الى جبال شاهقة للغاية تسمى جبال « هواكا ـ اينان » . وكانت

كلما ارتفعت المياه ، ارتفعت معها الجبال ، وبذلك لم يصل الماء قط الى الأخوين . فلما انخفضت المياه وكانت مئونتهما قد نفذت ، هبطا من أعلى الجبل وأخذا يبحثان عن طعام لهما بـــين التلال والوديان . ثم ابتنيا بيتا صغيرا عاشـــا فيه وكانا يحتـــالان على الحياة بتناول طعام شحيح من الاعشاب وجذور النباتات ، ومن ثم فقد قاســـيا كثيرا من آلام الجوع والتعب . وذات يوم رجعا الى بيتهما بعد بحث مضنى عن الطعام فوجدا به طعاما ، كما وجدا به « الشيشة » ، دون أن يعلما شيئا عمن أعد لهم ذلك أو أحضره لهم . وتكرر حدوث هذا عشرة أيام متتالية أخذايفكران من بعدها فى وسيلة للتعرف على هذا الشخص الذى يقوم بهذا العمل الطيب فى تلك الأيام القاســية . فاختفى الاخ الاكبر فى مكان ما ، واذ به يبصر ببغاوين قادمين يرتديان زى الكناريين. فلما دخلا البيت أخذا يعدان الطعام الذى أحضراه معهما . ولما أبصر الاخ الاكبر ما هما عليه من جمال ، وأن لهما وجهى امرأتين ، خرجا من مخبئهما . فلما وقع بصر الطائرين عليهما ، غضبا وطارا دون أن يتركا لهما شيئا يأكلانه . فلما عاد الاخ الاصغر من بحثه عن الطعام ، ولم يجد الطعام معدا كما كان يحدث فى الأيام السابقة ، سأل أخاه الاكبر عن سبب هذا التغير فقص عليه ما حدث ، فجلسا معا مكتئبين . وفى اليوم التالى قرر الاخ الاصغر أن يختفى بالمثل ويرقب قدوم الطائرين . وبعد ثلاثة أيام عاد الطائران وأخذا يعدان الطعام . فتريث الاخوان حتى فرغ الببغاوين من اعداد الطعام ، وأغلقا الباب عليهما . فغضب الطائران أشد الغضب لوقوعهما فى الشرك ، وتمكن الطائر الكبـــير من الهروب ، بينما وقع الطائر الصغير فى الفخ . فتزوج الاخوان هذا الطائر وأنجبا منه ستا من البنين والبنات تناسلت عنهم قبيلة « كانارى » . ولهذا فان الهنود يعدون تل « هواكا ــ ايان » الذى سكنه الاخوان بعد أن تزوجا الطائر ، مكانا مقدسا ، كما أنهم يقدسون الببغاء الأمريكى ويقدرون ريشه تقديرا عاليا ويستخدمونه فى احتفالاتهم .

ويحكى هنود « هواروشيرى » وهو اقليم فى « بيرو » يقـــع فى

« الاندس » فى الشرق من « ليما » ، أن العـــالم فى سالف الزمان كاد أن يفنى عن آخره ، فقد حدث أن هنديا ترك بقرته ترعى فى مكـــان غنى بالمرعى ، لكن البقرة رفضت أن تأكل وأخذت تئن فى حزن على نحو ما تفعل الابقار • وعند ذاك قال لها صاحبها : « ايتها الحمقاء • لماذا تئنين وترفضين الطعام ؟ ألم أتركك ترعين فى مكان يطيب فيـــه المرعى ؟ » فأجابته البقرة قائلة : « وماذا تعرف أنت أيها الاحمق عن هذا الامر ؟ اننى لا أحزن بدون سبب يستدعى الحزن ، ففى خلال خمســـة أيام سيفيض البحر ويغرق الارض جميعا ويخـــرب كل ما عليهـــا • وتعجب الرجل من سماعه الحيوان يتكلم على هذا النحو ، وسألها ما اذا كانت هناك وسيلة تنقذهما من الطوفان • عند ذاك طلبت منه البقرة أن يأخذ معه مئونة تكفيه خمسة أيام وأن يتبعها الى قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » الذى يقع بين بيعة « سان داميان » بيعة « سان جيرونيمو » • فحمل الرجل مئونته على ظهره وتبع البقرة • وعندما وصل الى قمة الجبـــل المعنى ، وجد أنواعا متعددة من الطيور والحيوانات مجتمعـــة هناك • وما كاد يصل الى هذا المأوى حتى أخذت مياه البحر ترتفـــع وتفيض حتى أغرقت الوديان وغطت قمم التلال جميعا عدا قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » ، بل ان الامواج كانت تتلاطم بالقرب من هذه القمـــة ، الى درجة أن الحيوانات تزاحمت فى مساحة ضيقة ، ولم يجد بعضها مكانا لارجله • وانغمس طرف ذيل الثعلب فى الماء ، فأسود لونه • وهـــذا هو السبب فى أن أطراف ذيول الثعالب سوداء حتى اليوم • وفى اليوم الخامس من الفيضان أخذت المياه تتراجع ، وعاد البحر الى حالته الاولى بعد أن أغرق الناس جميعا عدا الهندى الذى تناسلت منه جميع الامم التى تعيش على وجه الارض •

وكذلك روى عن « الانكاسيين » الذين كانوا يسكنون فى « بيرو »

رواية عن الطوفان .فقد حكى هؤلاء أن المياه فاضت وغمرت أعلى الجبال المستقرة على وجه الارض ، فهلك الناس جميعا وكل كائن على وجــه الارض . ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل وامرأة طفـــوا داخل صندوق على سطح المياه . وبعد أن انحسر الطوفان ، جرفت الرياح الصندوق والرجل والمرأة بداخله ، وقذفت به عند « تاهواناكو » التى تبعد عن « كوزكو » بما يقرب من سبعين فرسخا .

وقد حكى المؤرخ الاسبانى « هيريرا » أســاطيرا من « بيرو » عن الطوفان الكبير ، فقال : « لقد ذكر الهنود القدماء أنهم حفظوا هذه الاساطير عن أجدادهم ، فقد حدث طوفان كبير قبل أن يظهر أى فرد من « الانكاويين » فى « بيرو » . وبعد سنوات وعندما كانت البلاد مزدحمة بالسكان ، حطم حواجزه وغمر الارض بالمياه وأهلك الناس جميعا . ويضيف « الجرانكيون » ســـكان وادى « اكســـوكسا » وأهالى « تشيكوينو » الذين يسكنون اقليم « كالاو » ، الى ذلك ، أن بعض الناس لجأوا الى جحر وكهوف فى أكثر الجبال ارتفاعا ، وهؤلاء هم الذين عمروا الارض بعد أن أهلكها الطوفان . ويؤكد قوم آخــرون من سكان الجبال ، ان الناس جميعا هلكوا فى هذا لطوفان عدا ستة أفراد طافوا على عوامات . ومن هؤلاء تناسل سكان هذا البلد . ويمكننا أن نصدق أنه قد حدث فى هذا البلد فيضان على نحو ما ، لان كل ســكان الاقاليم المتعددة يتفقون حول هذا الخبر » .

وتحكى قبيلة « تشريجوانو » الهندية التى كانت تتمتع ذات يوم بنفوذ قوى فى جنوب شرق « بليفيا » ، الحكاية التالية عن الطوفان الكبير. حدث أن كائنا مهولا شريرا بعينه كان يدعى « أجوارا تونبا » ، أعلن الحرب على الاله الحقيقى « تونبايتى » خالق « التشريجوانيين » . ولا يعرف سبب اعلان هذا الكائن الحرب على الاله ، وان كان يعتقد أن هذا يرجع الى مجرد ضغينة أو الى مجرد اختلاف فيما بينهما . ولكى يضايق هذا الكائن الاله الحقيقى « تونبايتى » ، فقد أشعل النار فى

كل المروج فى بداية الخريف أو فى منتصـــفه ، بحيث هلكت النباتات والاشجار وهلكت معها الحيوانات التى كان يعتمد عليها الهنـود فى معيشتهم ، كما أخذوا يتراجعون أمام ألسنة النيران الى شـــواطىء الأنهار • ولما كانت الارض لا تزال مغلفة بدخان النيران ، فقد بذلوا قصارى جهدهم فى اصطياد السمك من الانهار لكى يتغذوا به • وتحير « أجوارا ــ تونبا » عندما رأى أن بنى الانسان أوشكوا على الهروب من مخالبه ، وعمد الى حيلة أخرى يحقق بها دسيسته اللعينة ضد الجنس البشرى ، فجعل الامطار تهطل من السماء ، على أمل أن يغرق كل أفراد قبيلة « تشيريجوانو » وكاد « أجورا ــ تونبا » أن ينجح فى مهمته . لولا أن سعى التشيريجوانيون لحسن حظهم ، فى احباط محاولته • فقد أخذوا يبحثون ، بناء على اشارة تلقوها من الاله الحقيقى «تونبايتى» ، عن ورقة عريضة من نبات « الماتى » ووضعوا فوقها طفلين من أم واحدة أحدهما ذكر والاخر أنثى وجعلوا القارب الصغير يطفوا بنزلائه فوق صفحة الماء • واستمرت الامطار تهطل فى غزارة ، فعلا الفيضان حتى غمر الارض الى مسافات بعيدة ، وأغرق « الشيريجوانيين » عن آخرهم عدا ورقة نبات الماتى التى كان يطفو فوقها الطفلان • على أن المطـــر كف عن السقوط بعد ذلك ، وانخفض الفيضـــان • تاركا وراءه كتلا من الطين • وعند ذاك ترك الطفلان قاربهما الصغير ، لانهما لو كانا قد ظلا يطفوان فوقه ، لكانا قد هلكا من البرد والجـوع • ومن الطبيعى أن الطوفان لم يغرق السمك وسائر الحيوانات المائية ، بل انهـا ظلت تسبح فوق الماء ، وأصبحت ملائمة لان تكون طعاما شهيا للطفلين • ولكن كيف كان يتسنى للطفلين أن يطهيا السمك الذى اصطاداه ؟ هذه كانت مشكلتيهما ، لان كل النيران كانت قد خمدت بسبب الطوفان • على أن الضفدع البرى جاء لنجدتهما فى اللحظة الحاسمة • وقد كان هذا الحيوان الحكيم قد اتخذ حيطته قبل أن يغرق الطوفان الارض ، ولجأ الى جحر بعد أن أخذ فى فمه بعض قطع الفحم المتقـدة ، وظل ينفخ فيهـا طوال الوقت حتى تظل مشتعلة • فلما رأى أن سطح الارض قد جف مرة أخرى ، قفز من جحره والفحم المتقد فى فمه ، وجـاء مباشرة الى

الطفلين وقدم لهما هدية النار • ومن ثم تمكن الطفلان من شـــواء السمك واستدفأ جسماهما المرتعشان من البرد وكبر الطفـــــلان على مر الزمن وأنجبا أطفالا تناسلت منها قبيلة « تشيرينجوانو » بأسرها ••

ويحكى أهالى « تيراديل نيجو » التى تقع فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية حكاية غريبة وغامضة عن الطـــوفان الكبير •فهم يقولون : ان الشمس غطست فى الماء ففاضت المياه بشدة حتى أغرقت الارض جميعا عدا جبلا واحدا شاهقا للغاية • والى هذا الجبل لجـــــأ قلة من الناس استطاعت أن تنجو من الطوفان •

١٣ ــ حكايات عن طوفان كبير فى امريكا الوسطى والمكسيك :

وقد عرف الهنود الذين سكنوا بالقرب من « باناما » حكاية طوفان نوح على نحو ما ، وقالوا ان رجلا واحد هرب من هذا الطوفان فى مركب مع زوجته وأولاده • قد تناسل الجنس البشرى كله من هذه الاسرة وعمر الارض » كما اعتقد هنود « نيكاراجوا » أنه بعد أن تمت عملية خلق الكون ، ابتلى العالم بطوفان أصابه بالدمار ، فاضطرت الآلهة أن تخلق الانسان والحيوان مرة أخرى •

ويقول المؤرخ الايطالى « كلافيجيرو » : « ان المكسيكيين ، شأنهم شأن الامم المتحضرة الاخرى ، لهم تراثهم الروائى الواضح عن خلق العالم ، وعن الطوفان الذى أغرق العالم ، وعن اختلاط الالسنة وتفرق الناس ، وان يكن هذا التراث ينحو منحى خرافى • وقـــد صـــــور المكسيكيون كل هذه الحوادث بحق فى فنهم التصويرى • فقد رووا أن الطوفان أغرق الجنس البشرى كله ، لم ينج منه سوى رجل واحد كان يدعى « كوكس كوكس » ، (ويطلق عليه البعض اسم « تيوسيباكتيلى ») وامرأة واحدة تدعى « اكسوشيكوتزال » • وقد نجا هذان من الطوفان بعد أن لجآ الى مركب صغير ذى ثلاثة صوار • وبعد أن استقر هذان على قمة جبل يسمى جبل « كولهواكان » أنجبا أولادا ، ولكنهم كانوا جميعا مصابين بالصمم • وظلوا على هذا النحو حتى جـــاءهم طائر

من شجرة عالية ، وحمل اليهم لغات كانت مختلفـــة كل الاختلاف الى درجـــة أنه لم يكن بعضـــــهم يفهم البعض الآخر • وقـــد ادعى « التلاسكالانيون » أن الناس الذين نجوا من الطوفان مسخوا فى شكل قردة ولكنهم أخذوا يستعيدون بعد ذلك لغتهم ومداركهم تدريجيا •

وقد رويت كذلك عن أهالى « ميشوواكان » وهو اقليم فى المكسيك حكاية عن الطوفان ذكر فيها أن رجلا كان يدعى « تيزبى » لجـــأ الى سفينة كبيرة مع زوجته وأولاده عندما بدأ الطوفان يفيض علىالبلاد ، وأخذ معه عددا من الحيوانات وكمية من الحبوب تكفى لتزويد الحياة بالخير بعد انتهاء الطوفان • وبعد أن انحسر الماء ، أطلق الرجل نسرا فى الفضاء • فلما صادف النسر رمما أثارت شهيته ، لم يعد الى السفينة مرة أخرى • فأطلق الرجل طيورا أخرى ، ولكنها لم تعد كذلك • وفى النهاية أطلق طائرا رنانا ، فعاد وفى منقاره فرع أخضر • ومن الواضح تماما أن اطلاق الطيور خارج السفينة بعد انتهاء الطوفان ، يعد أثرا لحكاية نوح وارساله الغراب والحمامة ، تلك الحكاية التى ربما سمعها الاهـــالى عن المبشرين الاجانب •

وكذلك يروى الهنود « الهويشوليون » الذين يســـكنون المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من « سانت كاترينا » فى غرب المكسيك أسطورة عن الطوفان • فهم يقولون ان هنديا من قبيلتهم كان يقطع الاشجار ليعد حقلا للزراعة ، ولكنه كان يصاب بكدر فى اليوم التالى عندما يجـــد أن الاشجار التى قطعها بالامس قد نمت مرة أخرى على النحو الذى كانت عليه • فاستشاط الرجل غضبا ، كما أنه مل هذا العمـــل الذى لم يكن يؤدى الى نتيجة • ولكنه قرر فى اليوم الخامس أن يعاود المحاولة ، وأن يستكشف حقيقة هذا الامر • وفى الحال برزت له امرأة عجــــوز من وسط الغابة تحمل فى يدها عصا • ولم تكن هذه المرأة سوى « الام الكبرى ناكاوى » ، وهى الهة الارض التى تنبت كل نبات أخضر من باطن الارض المظلم • على أن هذا الرجل لم يكن يعرفها • وأخذت المـــرأة العجوز تشير بعصاها ذات اليمين وذات الشمال ، والى أعلى والى أسفل

وفى الحال نهضت الاشجار الهاوية وانتصبت كما كانت . وعند ذاك أدرك الرجل السبب فى نمو الاشجار مرة أخرى ، رغم كل محاولاته فى ازالتها وتطهير الارض منها . وعند ذاك قال الرجل لتلك المـــرأة فى غضب : « أأنت اذن الذى تضيعين جهودى هباء طوال الوقت ؟ » فأجابته المرأة قائلة « نعم أنا الذى أفعل هذا ، لاننى أود أن أتحــدث اليك » . ثم أخبرته أنه يقوم بعمل لا جدوى وراءه ، لان هناك فيضانا كبيرا سوف يغمر الارض فى خلال خمسة أيام على الاكثر . وسوف تصحب الطوفان رياح حادة حدة الفلفل الحار وتسبب لك السعال . فاصنع لك تابوتا من خشب شجرة التين فى قدر قامتك واجعل له غطاء محكما . ثم خذ معك خمس حبات من الذرة من كل لون ، ومثلها من البقول ، وخذ معك كذلك شعلة من النار ، وخمسة فروع من الغضا لتغذيتها ، وخذ أيضا كلبة سوداء » . وفعل الرجل ما نصحته به المرأة ، وفى خلال خمسة أيام كان قد أعدالصندوقووضعفيه الاشياء التى ذكرتهـــا له المرأة ، ثم دخل الصندوق بصحبة الكلبة السوداء . وعنـــد ذاك غطت المرأة الصـــندوق وسدت شقوقه بالغراء ، وطلبت منه أن يشير الى الشقوق التى يراها من الداخل حتى تسدها بالغراء كذلك قبل أن يطفو الصندوق فوق الماء . وبعد أن أحكمت المرأة طلاء الصندوق بحيث لم يعد ينفذ فيه الماء والهواء صعدت الى سطحه وجلست فوقه بعد أن وضعت ببغاء على كتفها . وظل الصندوق يطفو فوق سطح الماء على هذا النحو طيلة أعوام خمسة . ففى العام الاول طفا جهة الجنوب ، وفى العام الثانى طفا جهة الشمال ، وفى الثالث طفا جهة الغرب وفى الرابع طفا جهة الشرق . فلما كان العام الخامس استقر الصندوق فوق الماء بعد أن غمــر الطــوفان الارض جميعا . وفى العام التالى لذلك انحسر الطوفان ، ورسا الصندوق على جبل بجوار « سانتا كاترينا » حيث لايزال يمكن رؤيته حتى اليوم . وعند ذلك رفع الرجل غطاء الصندوق فوجد أن الارض مازال يغرقها الطوفان . على أن الببغاوات بدأت تعمل فى همة فى نقر الجبال بمناقيرها حتى حفرت فيها أودية تدفقت اليها المياه التى تشعبت الى خمسة بحور . فلما جفت الارض ، أخذت الاشجار والحشائش تنمو مرة أخرى ، أما المرأة فقد

تحولت الى ريح واختفت • ثم استأنف الرجل عمله الذى كان قد اعترضه الطوفان وأخذ يقتلع الاشجار لكى يعد حقلا للزراعة ، وهناك عاش مع الكلبة فى كهف واحد ، فكان يخرج كل صباح الى العمل ويعود الى كهفه فى المساء • أما الكلبة فلم تكن تغادر الكهف طول الوقت • وعندما كان يعود الرجل الى بيته كان يجد الكعك معدا له ، فدفعه الشغف لان يعرف صانع هذا الكعك • وبعد مضى خمسة أيام ، اختبأ وراء بعض الشجيرات بجوار الكهف وأخذ يراقب ما يحدث • فرأى أن الكلبة خلعت جلدها وعلقته ، وركعت وهى فى هيئة امراة وأخذت تطحن الحب لتصنع منه الكعك • فاقترب الرجل خلفها خلسة وانتزع الرداء ورماه فى النار • فصرخت المرأة وأخذت تعــول كالكلاب وهى تقول : الان « لقد حرقت ردائى » • ولكن الرجل أخذ بعض الدقيق الممزوج بالماء الذى كانت المرأة قد أعدته للكعك ، وغسل لها رأسها فيه • وتزوجها الرجل وأنجب منها أولادا كثيرين تزوجوا بعد ذلك • وبذلك عمرت الارض بالناس الذين سكنوا الكهوف •

ويحكى « الهنود الكوراويون » ، وهم قبيلة تدين بالمسيحية اسما وتتاخم حدودها حدود « الهويشوليون » فى الغرب ، حكاية شــبيهة بالحكاية السالفة ، اذ وردت فيها حادثة قاطع الاخشاب الذى حذرته امرأة من حدوث الطوفان ، والذى تزوج كلبة تحولت الى امرأة بعد أن انحسر الطوفان • ووجه الاختلاف بين الروايتين هو أن الرجل فى الرواية الثانية طلب منه أن يأخذ معه فى السفينة طائر النقار ، وطائر زمار الرمل وببغاء الى جانب الكلبة • وعندما بدأ الطوفان ، استقل الرجل سفينته عند منتصف الليل • فلما انحسر الطوفان ، مكث الرجل فى السفينة خمسة أيام أخرى ، وأرسل زمار الرمل ليرى ما اذا كان من الممكن السير عــلى الارض • فطار الطائر وعاد وهو يصرخ « أى ــ وى ــ وى » • ففهم الرجل من عبارة الطائر أن الارض لا تزال مبتلة فانتظر خمســة أيام أخرى ، ثم أرسل طائر النقار ليرى ما اذا كانت الاشــجار قد جفت وتماسكت • فطار الطائر ووقف على شجرة ، ودفع منقاره فى خشبها وأخذ

يهز رأسه يمنة ويسرة ، لكن الخشب كان مبتلا بالمـــاء بحيث انه لم يستطع أن ينتزع منقاره من الخشب • وأخيرا شد منقاره فى عنف الى درجة أنه فقد توازنه وسقط على الارض • ثم عاد الى السفينة وهو يصيح « تشو بى ــ تشو بى » • ففهم الرجل من عبارته أن الارض لا تزال مبتلة• فانتظر خمسة أيام أخرى أطلق من بعدها زمار الرمل المرقط • وكانت الارض قد جفت هذه المرة بحيث لم تغص أرجل الطائر فى الطين• فعاد وأخبر الرجلبأن كل شىء اصـــبح على ما يرام • فترك الرجل السفينة وخطا بحذر خارجها حتى أطمـــأن الى أن الارض أصبحت مستوية وجافة •

وتحكى رواية أخرى تروى عن « الهنود الكورايين » وتقـــع فى مقتطفات ، عن هرب الذين نجوا من الطوفان فى قارب •فلما انحسر الطوفان اطلق الاله النسر ليرى ما اذا كانت الارض قد جفت • ولكن النسر لم يعد الى القارب لانه انشغل بافتراس أجساد الغرقى • فغضب الاله من فعلة النسر ، وأحل به اللعنة ، فجعل لونه أسود بعد أن كان أبيض ، ولم يترك له سوى علامة سوداء فى طرف جناحيه حتى يتعرف الناس منها على اللون الذى كان عليه قبل حدوث الطوفان • ثم أرسل الاله بعـــد ذلك حمامة مطوقة لكى تستكشف أحوال الارض • فعادت الحمامة وأخبرته بأن الارض قد جفت وان كانت الانهار لا تزال تفيض • عند ذاك أمر الاله صنوف الحيوان أن تبتلع المياه • فجاءت الطيور والحيوانات جميعا لتشرب من المياه ، عدا الحمامة الباكية (بالومـــا الورونا) التى تخلفت عنها • ولهذا فان هذه الحمامة لاتزال تخرج كل يوم عند المساء لتشرب ، لانها تخجل من أن يبصرها أحد وهى تشرب فى وضح النهار ، أما طوال اليوم فهى تنوح وتبكى • ويبدو أن موضوع الطيور فى هذه الاساطير الكورايية ، وبصفة خاصة ذلك الذى يحكى عن دور النسر والغراب فى هذه الحادثة ، يكشف بوضوح عن تأثير التعاليم التبشيرية •

١٤ ــ حكايات عن الطوفان الكبير فى أمريكا الشمالية :

ويحكى « البباجو » الذين يسكنون فى جنوب غرب « أريزونا » أن

« الروح الكبير » خلق الارض وسائر الكائنات الحيـــة قبل ان يخلق الانسان • ثم هبط الى الارض وأخذ يحفر فى الارض فعثر على بعض الاوانى الفخارية ؛ فحملها معه الى السماء وجعل يقذفهـا من عل فى الجحــر الذى قــد حفـره • فجـاءه البطل « مونتيزوما » على الفور كما جاءت القبائل الهندية تباعا لمعــاونته • وأخـــيرا جـاء « الاباتشيون » يسرعون الخطى وهم فى هيئتهم على نحو ما خلقوا • فى هذه الايام الاولى لخلق الكون كان الناس يعيشون فى سعادة وسلام وقد كانت الشمس أقرب الى الارض مما هى عليه الان • ولذلك فقد كانت فصول السنة متساوية ، كما كان الناس فى غير حاجة الى الملابس وقد كان الناس والحيوانات يحب بعضهم بعضا ، اذ جمعت بينهم لغة واحدة فى رباط من الاخوة • ثم حدثت بعد ذلك كارثة مفــزعة وضعت حدا لهذه الايام السعيدة ؛ فقد حل بالارض طوفان أغرق كل كائن حى فيما عدا البطل « مونتيزوما » وصديقه الذئب اللذين تمكنا من الهرب • ذلك أن الذئب كان قد تنبأ بحدوث الطوفان قبل وقـــوعه ، وأخبــر « مونتيزوما » بذلك فصنع الاخير مركبا ووضعه معدا للطوارىء على قمة جبل « سانتاروزا » ؛ وكذلك صنع الذئب قاربا له ، بأن أخذ يقضم قصبة من الخيزران عند شاطىء النهر ودخل فيها بعد أن طلاها بالمطاط • فلما أخذت الميــاه ترتفع اســتقل كل منهما مركبه وبذلك أنقــذا • فلما انتهى الطوفان تقابلا على الارض الجافة • ولما كان الرجل شغوفا لان يعرف حجم الارض التى جفت ؛ فقد أرسل الذئب ليستعلم له عن هذا الامر • وبعد فترة عاد وأخبره بأنه لم يجد أثرا للماء جهة الشمال على الرغم من أنه أخذ يتجول حتى أعياه التعب ؛ فى حين أنه رأى البحر جهة الشرق والمغرب والجنوب • وفى هذه الاثناء كان الروح الكبير قد عمر الارض بمساعدة « مونتيزوما » بالانسان والحيوان •

وتحكى قبيلة « بيما » ، وهى قبيلة مجاورة « للباباجويين » وترتبط بهم بصلة قرابة ، أن شخصا بعينه يدعى « تشيووتماهكى » ومعناه « نبى الارض » : خلق الارض والانسان • وكان لهذا الخالق ولد يدعى « سيزويكها » كان يعيش فى وادى « جيلا » ؛ بعد أن اصبحت الارض تغص بالناس • وكان يسكن فى هذا الوادى نفسه وفى ذلك الوقت بعينه نبى عظيم نسى اسمه فيما بعد • وذات ليلة بينما كان هذا النبى نائما ؛ سمع صوتا خارج بابه أيقظه من نومه • فلما فتح الباب لم يجد أمامه سوى نسر كبير خاطبه قائلا : « هيا استيقظ وانظر حولك ، فلقد حل الطوفان بالارض » • ولكن النبى ضحك مستهزئا به ، ولف رداءه حوله ونام مرة اخرى • ومرة أخرى جاءه النسر وحذره ، ولكنه لم يعبأ به • وأعاد الطائر المتعب عليه تحذيره للمرة الثالثة ، وأخبره أن وادى « جيلا » سوف يغرقه الطوفان ، ولكن هذا التحذير كله لم يجد عند الرجل آذانا صاغية • وفى هذه الليلة نفسها بدأ الطوفان يغرق الارض • وفى اليوم التالى لم يكن هناك وجود لاى كائن حى عدا رجلا واحدا ، ان كان يعد رجلا بحق ، لانه كان «سيزويكها» ابن الخالق الذى أنقذ نفسه بأن طفا على كرة من المطاط أو الراتنج • فلما انخفض الطوفان رسا بقاربه بالقرب من منبع نهر الملح حيث أقام فى كهف على الجبل • ولايزال هذا الكهف موجودا حتى اليوم ، وكذلك العدد التى كان « سيزويكها » يستخدمها فى حياته • وعلى الرغم من أن النسر الكبير حذر «سيزويكها» قبل وقوع الطوفان حتى ينجو بحياته ؛ الا أنه غضب من النسر كل الغضب لسبب أو لاخر • ومن ثم فقد تسلق الجبل بحبل بعد أن انتهى الطوفان ؛ حتى وصل الى مكان النسر وقتله فى وكره • ثم أبصر فى هذا الكور ومن حوله عددا هائلا من أجساد بشرية متراكمة عفنة ، كان النسر قد حملها الى وكره وانهال عليها يفترسها • فأعاد «سيزويكها» الحياة الى هذه الاجساد وعمر بها الارض •

أما « الهنود الأكاجشيميون » الذين يسكنون بالقرب من « سانت جوان كايسترانو » فى كاليفورنيا « فلم يكونوا يجهلون كلية حكاية

الطرفان الذى أصاب العالم • على أننى لم أستطع أن أتبين على الاطلاق كيف وصلتهم هذه الحكاية بعينها ومن أى مصدر سمعوها • والى هذه الحكاية تشير بعض أغانيهم • وهم يروون أن البحر فاض فى زمن بالغ فى القدم وأغرق السهول وملأ الوديان حتى غطى الجبال • ومن ثم فقد هلك الجنس البشرى كله وصنوف الحيوان ، ولم ينج من هؤلاء جميعا سوى عدد قليل من الناس والحيوان لجأوا الى جبل شاهق لم تصل اليه المياه ••

وكذلك يحكى « الهنود اللويزينيون » الذين يسكنون « كاليفورنيا الجنوبية » حكاية عن طوفان غطى الجبال العالية وأغرق معظم الناس ، ولم ينج منه سوى قليل من الناس كانوا قد لجأوا الى أكمة تقع بالقرب أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان « مورا » ؛ أما اهنود فيسمونة الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان بأكمله تحت سطح الماء فيما عدا هذه الأكمة التى أقام فيها الهنود حتى انحسر الطوفان • ويمكنك أن ترى حتى هذا اليوم على قمة التل الصغير أكواما من أصداف البحر والقش والرماد والأحجار بعضها بجانب بعض ، وهى تشير الى المكان الذى كان يطهو فيه الهنود طعامهم • أما الأصداف فهى أصداف السمك الصدفى الذى كانوا يأكلونه ، وأما الرماد والأحجار فقد تخلفت عن مواقدهم : ويضيف الكاتب الذى حكى هذه الرواية فيقول : « وتحتوى التلال القريبة من « ديل مار » ، وأماكن أخرى تقع بمحاذاة الساحل على أكوام كثيرة هائلة من أصداف البحر من النوع الذى مازال موجودا على الشاطىء • وما زال « اللويزونيون » يغنون أغنية الطوفان التى يرد فيها ذكر أكمة « كاتوتا » •

وقد حكت امرأة هندية من قبيلة « سميث ريفر » التى تسكن فى « كاليفورنيا » ، الرواية التالية عن الطوفان : لقد هطلت مياه غزيرة فى زمن من الأزمنة ، وظلت تهطل حتى غمرت الوديان • ولجأ الهنود الى النجاد المرتفعة • ولكن المياه ظلت ترتفع حتى أغرقت هؤلاء الهنود جميعا عدا

رجلا وامرأة تسلقا الى أعلى قمة وبذلك نجيا من الغرق • وقـد عاش هذان على السمك بعد طهيه تحت ابطيهما ، اذ لم يتمكنا من اشعال النار لأن كل شيء كان مبتلا للغاية • وبعد ذلك أخذت المياه فى الانخفاض بعد أن أغرقت كل من عليها عدا هذا الرجل وتلك المرأة اللذين تناسل عنهما كل الهنود الذين يعيشون اليوم على وجه الأرض • وقد تحولت أزواج الهنود الذين غرقوا فى الطـوفان الى غزلان ودببة وثعابين وحشرات وأيائل وغير ذلك من صنوف الحيوان التى عمرت بها الأرض كما عمرت بالانسان •

وقد كانت حكاية الطوفان تروى ، وفقا لقول « دى برانتز » مؤرخ « لويزايانا » الفرنسى المتقدم ، بـين قبيلة « ناتشيز » ، وهى قبيلة هندية كانت تسكن عند أعالى نهر المسيسبى • فيخبرنا هذا المؤرخ بأنه سأل حارس المعبد الذى يحتفظ فيه فى ورع دينى ، بالنار المقدسـة مشتعلة على الدوام ، عن موضوع الطوفان ، فأخبره بأن الكلمة القديمة علمت الهنود الحمر جميعا أن كل الناس على وجه التقريب غرقوا فى الطوفان ، سوى عدد قليل منهم لجأوا الى جبل شاهق للغاية • وفيما عدا هذا فهو لايعرف شيئا عن هذا الموضوع سوى أن الذين أنقـذوا عمروا الأرض من بعد » • ويضيف « دى برانتز » الى هذا قائـلا « وحيث اننى قد استمعت لهذا القول نفسه من شعوب أخرى ، فقد دفعنى هذا لأن أتأكد من أن كل الأهالى كانوا ينظرون الى هذه الحادثة النظرة نفسها وأنهم لم يحتفظوا بأيـة ذكرى لطوفان نوح • ولـم أتعجب لهذا الأمر كثيرا ، حيث ان الاغريق أنفسهم ، رغم علمهـم الواسع ، لم تكن معلوماتهم حول هذا الموضوع أفضـل من معلومات هذه الشعوب • بل اننا نحن لم نكن لنعرف أكثر منهم ، لو لم نقرأ عن هـذا الموضوع فى الكتابات المقدسة » • ثم يحكى المؤرخ الفرنسى الرواية اللويزيانية فى مكان آخر بطريقة أكثر اكتمالا فيقول : لقد ذكر الأهالى أن مطرا غزيرا هطل من السماء لمدة طويلة حتى غمر الأرض

عدا جبلا شاهقا لجـأ اليه بعض النــاس هروبا من الطوفان • ولمـا كانت النار قد خمدت جميعها من على وجه الأرض ، فان طائرا أحمر اللون يسمى « كويى ــ أوبى » (وهو الطائر الذى يسمى فى «لويزيانا» بالطائر المغرد) أحضر النار من السماء • وقد أدركت من حديث هؤلاء الناس ، أنهم كادوا ينسون كلية الرواية التاريخية عن الطوفان » •

ويروى الهنود « الماندانيون » رواية عن الطوفان الذى هلـك فيه الجنس البشرى كله عدا رجــلا واحدا هرب فى قارب عنـد جبـل يقع فى الغرب • ومن ثم فان هؤلاء يقومون كل عــام بتأدية طقوس معينة فى ذكرى انتهاء الطوفان التى يسمونها « مى ــ نى ــ رو ــ كا ــ ها ــ شا » أى انخفاض المياه أو استقرارها • وتؤدى هذه الطقوس عندما تمتد أوراق الصفصاف امتدادا كاملا على طول شواطىء النهر • وسبب هذا ، وفقا لروايتهم ، أن الغصن الذى أحضره الطائر كان غصنا من شجر الصفصاف • وأما الطائر الذى أحضر هذا الغصن ، فهــو اليمامة أو الحمامة النائحة • وكثيرا ما يقف هذا الحمام عند جوانب أكواخهم المغطاة بالتراب ؛ دون أن يتعرض لــه أحد من الهنود لايذائه أو قتله • بل انهم قد مرنوا كلابهم على عدم ازعاجه • وقد كان سكان قرية « مادان » يحرصون على الاحتفاظ بهيكل خشبى يمثل القارب الذى نجا فيه الرجل الوحيد من الطوفان • ويقول الرسام « كاتالين » ان فى وسط القرية ميدانا يبلغ قطره مائة وخمسين قدما ، يحتفظ بــه على الدوام خاليا نظيفا بوصفه مكانا شعبيا تقام فيه الأعياد والاحتفالات الى غير ذلك • وحول هذا الميدان تلتف أكواخهم ذات الشكل المخروطى ويلتصق بعضها بجانب بعض متجهة أبوابها جهة هذا المكان الشعبى وفى وسط هذا الميدان الذى مهد فأصــبح كالرصيف الصلب ، حاجــز (اشبه بالبرميــل المرتكز على حافته) من الالواح الخشبية ، تحيط به أطواق يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ثمانية أو تسعة أقدام ، ويحافــظ عليها الأهالى فى ورع دينى ، ويقومون على صيانتها من عام لآخر حتى تظل نظيفة خالية من الخدوش والعلامات • وهم يطلقون عليها اســم

« القارب الكبير » . ومما لاشك فيه أن هذه الأطواق تعد تجسيدا رمزيا لجزء من تاريخهم الشعبى عن حادثة الطوفان التى يبدو تماما من هذا الهيكل ومن الملامح الأخرى العديدة لهذا الاحتفال الكبير ، أن الأهالى قد عرفوها بشكل أو بآخر ويحاولون تخليدها عن طريق تذكير الناس بها بطريقة حية . ويعد هذا الموضع الخرافى ؛ نظرا لموقعه المتوسط فى القرية ، مكان تجمع الأهالى جميعا . ففيه يقومون بتقديم واجبات التقديس فى المناسبات والأعياد المختلفة والممارسات الدينية طوال السنة » .

وفى الاحتفال السنوى الذى حضره « كاتالين » فى ذكرى حادثة الطوفان ؛ شخص الرجل الوحيد الذى نجا من الطوفان واسمه « نو — موهك — موك — آناه » فى هيئة مهرج يرتدى جلد ذئب أبيض يتدلى على كتفية ، بينما يغطى رأسه بغطاء زاه لجلدى غرابين ، ويحمل فى يده اليمنى غليونا طويلا . ويدخل هذا المهرج القرية من جهة المروج ويقترب من مكان العلاج أو كما يعرف بالمكان السرى . وهو يملك وسائل فتح هذا المكان الذى يحكم اغلاقه طوال السنة ؛ ولا يفتح الا من أجل تأدية الطقوس الدينية . ثم يتجول هذا المهرج طوال اليوم فى القرية ، ويقف أمام كل كوخ ويصيح حتى يفتح له صاحب الكوخ ويسأله عمن هو ؛ وعن سبب مجيئه . وعند ذاك يجيبه برواية حكاية الكارثة المحزنة التى أغرق فيها الفيضان الأرض ويقول : « انه الشخص الوحيد الذى نجا من هذه الكارثة التى انتابت العالم وأنه رسا بسفينته الكبيرة على جبل شاهق يقع جهة الغرب . ومن ثم فهو فى حاجة لأن يقدم له صاحب كل كوخ آلة حادة هدية لتقدم ضحية للماء ، لأنهم ان لم يفعلوا هذا فسوف تصاب الأرض بطوفان آخر لن ينجو منه أحد كما نجا صاحب السفينة الكبيرة التى صنعت ذات يوم بمثل هذه الآلات الحادة». وبعد أن يزور هذا المهرج كل كوخ فى القرية طوال اليوم ، ويتسلم من صاحب كل كوخ سكينا أو فأسا أو أية آلة حادة أخرى ، يضع هذه الاشياء فى مكان العلاج حيث تترك هناك حتى عصر اليوم الأخير من الاحتفال . وفى نهاية الطقوس ترمى هذه الآلات فى أعماق النهر من

شاطىء يرتفع ثلاثين قدما فى حضرة أهل القرية جميعا • « وهذه الآلات تقدم بدون شك ضحية لروح الماء ؛ ومن ثم فهى لا تسترد مرة أخرى »• ومن بين طقوس الاحتفالات التى يقوم بها « الماندانيون » فى عيد الربيع، رقصة الثيران ، ويرقصها رجال متنكرون فى هيئة الجاموس ، والهدف من هذه الطقوس أن تمدهم الطبيعة بنتاج وافر من الجاموس فى العام التالى • وفضلا على هذا فان الشباب يعرض نفسه اختيارا لأنواع من العذاب المبرح حتى يرضى عنهم « الروح الكبير » • على أنه لا يتضح فى كتابات الكتاب الذين اعتمدنا عليهم ، الى أى حد تتصل هذه الطقوس الغريبة الغامضة بحادثة الطوفان •

وقد كان يسمى هذا الاحتفال عند الماندانيين باسم « أو ــ كى ــ با » • وكان « احتفالا دينيا يقام كل عام • ولم يكن هذا الاحتفال بالنسبة لهذا الشعب الجاهل الذى يؤمن بالخرافات مجرد متعة فى حياتهم ، بل كان جزءا من كيانهم بحق ، ذلك أن تراثهم المروى ، وهو بالنسبة لهم تاريخهم الوحيد ، قد أورثهم الاعتقاد فى أن شعائر هذا الاحتفال تزيد من ثروتهم فى الجاموس الذى يعتمدون عليه فى معيشتهم، وان اهمال هذا الاحتفال السنوى بما يتضمنة من تقديم الضحية للماء ، قد يتسبب فى حدوث الكارثة مرة أخرى ، تلك الكارثة التى حلت بهم ذات مرة ، كما أخبرهم تراثهم المروى ، وأهلكت الجنس البشرى بأسره ، عدا رجلا واحدا استطاع أن يرسو بمركبه على جبل شاهق يقع جهة الغرب • على أنه ليس من الغريب أن تسمع هذه الرواية من قبيلة « ماندان » ، اذ ليست هناك قبيلة من القبائل المختلفة التى زرتها فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو الوسطى والتى يبلغ عددها مائة وعشرين قبيلة ــ لم ترو لى حكايات واضحة أو غامضة عن مثل هذه الكارثة التى نجا منها شخص أو ثلاثة أشخاص أو ثمانية، بأن لجأوا الى الجبال العالية • وبعض هذه القبائل التى تسكن عند سفح الجبال الصخرية وفى سهول « فنزويلا » و « بامبا ديل ساكرامنتو » فى أمريكا الجنوبية ، يحج كل عام الى هذه القمم الوهمية التى لجأ اليها من

أنقذ من الطوفان فى سفينة أو ما أشبه ذلك وهناك يصلون الى « الروح الكبير » ويقدمون له التضحيات وفقا للتعاليم الملغزة لرجالهم العارفين بأسرار الدين ، حتى يؤكدوا حصانتهم ضد مثـــل هذه الكارثة •

وقد قيل : ان « الهنود الشيروكيين » يروون حكاية عن الطوفـــان، مؤداها أن الأرض ظلت غارقة تحت الطوفان حتى هلك الجنس البشرى بأسره عدا اسرة واحدة • وقد كان كلب قد أخبر سيدة بهذه الكارثة قبل حدوثها ، فقد حدث أن هذا الكلب الحصيف كان يذهب يوما بعـــد يوم الى شواطىء النهر ؛ حيث يقف ويحملق فى الماء وينبح نباحا مثيرا للشفقة• فلما نهره سيده وأمره أن يعود الى البيت فتح الكلب فاه وحذر سيده من الخطر المحدق به وقال له : « يجب عليك أن تبنى مركبا وتختزن فيه كل ما يمكن أن تدخره ؛ لان مياها غزيرة سوف تهطل حتى تغرق الأرض»• ثم ختم الكلب نبوءته بأن أخبر سيده بأن نجاته تتوقف على رمى سيده لـــه هو نفسه ـــ أى الكلب ـــ فى الماء • ثم رجاه أن ينظر الى خلف رقبته لكى يرى علامة صدق قوله • فنظر الرجل خلف رقبة الكلب فرأى حقا أنها مسلوخة جرداء وقد برز منها اللحم والعظم • وعند ذاك صدق الرجل كلبه ، وعمل بنصيحة هذا الحيوان المخلص وبذلك نجا هو واسرته التى تناسلت عنها شعوب الأرض التى تعيش عليها اليوم •

وتنتشر حكايات الطوفان الكبير انتشارا واسعا بين الهنود الذين ينتمون الى أصـــل « الجونكوين » الكبـــير • كما أن هـــذه الحكايات تتشابه مع بعضها البعض فى بعض التفاصيل • فقبيلة « ديلاوارى » وهى قبيلة تنتمى الى أصل « الجو نكوين » وكانت تسكن حول خليج « ديلاوارى » ، روت حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا ، ولم ينج منه سوى بعض أفراد قلائل امتطوا ظهر سلحفاة بلغت من الكبر عتيا الى درجة أن ظهرها العظمى أصبح رخـــوا مثل شاطىء الجدول • وبينما كانوا يطفون فى يأس على ظهر السلحفاة ، طـــار طائر مائى أمامهم ، فرجوه أن يغطس فى الماء ، ويحضر لهم الأرض الغرقى من أعماق المياة • فغطس الطائر ولكنه لم يهتد الى قاع الماء • فطار

بعد ذلك بعيدا ثم عاد وأحضر معه بعض التراب فى منقاره • فسارت السلحفاة فى أثره حتى وصلت الى قطعة من الأرض الجافة • فنزل الناس من على ظهرها وسكنوا هــذه الأرض وعمروها المياه •

وكذلك حكى « المونتانايون » وهم مجموعة من القبائل الهندية التى كانت تسكن فى كندا ، وهم ينتمون بالمثل الى أصل « الجو نكوين » الكبير ، حكت لمبشر يسوعى عاش بينهم فى زمن مبكر ، أن كائنا قويا ، أطلقوا عليه اسم « ميسو » ، أعاد الحياة الى العالم ، بعد أن كان الطوفان قد قضى عليها • فقد خرج « مسو » ذات يوم للصــيد ومعه ذئاب بدلا من كلاب الصيد • فغاصت الذئاب فى بحيرة واختفت • وأخذ « مسو »يبحث عنها فى كل مكان ، حتى أخبره طائر بأنه قــد رأى الذئاب الضالة فى عرض البحيرة • فغاص « مسو » فى الماء لينقذها • ولكن البحيرة فاضت حتى غمرت المياه الأرض وأغرقت العالم • فدهش « مسو » لما حدث وأرسل غرابا ليبحث عن كتلة من الطين ليعيد عن طريقها خلق الأرض ، ولكن الغراب لم يجد أثرا للطين • فأرسل بعد ذلك كلب البحر ليقوم بنفس المهمة ، فغاص فى الماء ولم يحضر معه شيئا • وفى النهاية أرسل « مسو » فأر المســك فأحضر معه كتــلة من الطين اســتخدمها فى اعادة خلق الأرض التى نعيش عليهــا اليــــوم • ثم صوب سهاما الى سيقان الاشجار ، فتحولت السهام الى التوالى الى أغصان • ثم انتقم بعد ذلك ممن أغرق ذئابه فى البحيرة ، وتزوج فأر المسك وأنجب أولادا تناسلوا فيما بعد وعمروا الأرض •

وفى هذه الحكاية لا نجد ذكرا لانسان • ويمكننا أن نفترض بناء على الدور الذى لعبته الحيوانات فيهــا ، أن الطوفان حدث فى عصور مبكرة لم تكن الحياة قد دبت فيها بعد على وجه الأرض • على أن هناك مبشرا كاثوليكيا آخر أخبرنا بعــد ذلك بقرنين من الزمان أن « المونتانيين » الذين يسكنون ولاية « خليج هدسون » يروون حكاية عن الطوفــان الكبير الذى أغرق العالم ، ولم ينج من هذا الطوفان سوى أربعـــة أشخاص ومعهم بعض الحيوانات والطيور ، وقد لجأوا جميعا الى جزيرة عائمة •

وهناك مبشر كاثوليكى آخر روى الأسطورة المونتانية فى شكل أكثر اكتمالا على النحو التالى : عندما غضب الاله من الشياطين ، أمر رجلا ببناء قارب كبير • وما أن فعل الرجل هذا واستقل بقاربه ، حتى أخذت المياه تفيض من كل جانب والقارب يطفو فوقها ، حتى لم تعد العين تبصر أى أثر للأرض • ولما تعب الرجل من رؤية مساحات المياه الهائلة من حوله ، ومن كلب البحر فى الماء ، غطس وأحضر معه كتلة من الطين • فأخذ الرجل قطعة الطين فى يده ونفخ فيها ؛ وفى الحـــال أخذت قطعة الطين تتضخم • فوضعها على سطح الماء وحال دون سقوطها فيه • وأخذت قطعة الأرض هذه تكبر تدريجيا حتى أصبحت جزيرة • ثم شاء الرجل أن يعرف ما اذا كانت الجزيرة من الكبر بحيث تتسع لاقامته عليها • فأرسل أيلا طاف حولها فى وقت قصير ، ثم عاد اليه فعلم الرجـــل أن الجزيرة ليست متسعة بما فيه الكفاية • ومن ثم أخذ ينفخ على سطحها حتى تكونت فيها الجبال والبحيرات والأنهار • وعند ذلك ترك مركبه وعاش عليها • ويحكى هذا المبشر نفسه أسطورة عن الطوفان تنتشر بين قبيلة « كرى » وهى قبيلة أخرى تنتمى الى أصل « الجونكوين » الذى يقطن فى كندا • ولكن هذه الحكاية « الكريبيه » تكشف عن تأثيرات مسيحية • اذ يروى فيها أن الرجل أطلق من سفينته غرابا فى بادىء الأمر ، ثم أطلق حمامة برية بعد ذلك • أما الغراب فقد تغير لونـــــه فأصبح أسود بعد أن كان أبيض بسبب عدم اتباعه أوامر الرجل • وأما الحمامة فقد عادت والطين عالق بمخالبها ، فعرف الرجل من ذلك أن الأرض جفت وبذلك رسا على الأرض •

ويبـــدو أن « هـ•ا• ماكينزى » • هو الذى دون أسطورة جماعـــة « الجو نكوين » عن الطوفان كاملة لأول مرة • وقد أمضى « ماكينزى » جزءا كبيرا من حياته المبكرة بين الهنود « السالتوويين أو التشيباويين »• وهم يكونون فرعا كبيرا قويا من أصل « الجونكوين » • وقـــد حكى « ماكينزى » هذه الرواية الى النقيب البحرى « و•هـ هوبر » • الذى

كان يقيم فى فورت نورمان » بالقرب من « بحيرة بير » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى •

كان بعض الهنود يعيش فى زمن من الأزمنة ، ومن بينهم طبيب كبير يدعى « ويس ــ كاى ــ تشاش » وكان يعيش معهم ذئب وابنان له فى مودة واخاء • وكان « ويس ــ كاى ــ تشاش » ينظر الى الذئب بوصفه أخا له ، كما كان ينظر الى أولاد هذا الذئب بوصفهم أبنــاء أخيه ، ذلك لأنه كان ينظر الى الحيوانات جميعا بوصفها أقرباء له • ثم حدث أن أخذ الجميع يعانون من الجوع فى فصل الشتاء • ومن ثم فقد عزم الذئب على أن ينفصل عن الجماعة مع ولديه حتى يبحث عن طعام • فشاء « ويش كاى تشاش » أن يرافقه ، ورحل الجميع معا • وفى أثناء السير صادفا آثار أقدام أيل ؛ فوقف الذئب العجوز والطبيب « ويس » (كما سنسميه اختصارا) عند هذا الاثر وأخذا يدخنان ، بينما سار الذئبان الصغيران يقتفيان أثر أقدام الأيل • ولم يعد الذئبان الصغيران بعــد مضى وقت ؛ فسار الذئب الأب مع « ويس » ليبحثا عنهما • وسرعان ما أبصرا أثر دماء على الثلج • فعلما من ذلك أن الأيل قد قتل • ثــم تقابلا بعد ذلك مع الذئبين الصغيرين ، ولكنهما لم يجدا أثرا للأيل ، لأن الذئبين الصغيرين كانا قد افترساه • ثم توسل الذئبان الى « ويس » لكى يشعل نارا • فلما فعل ذلك ظهر جسد الأيل وكان مقطعا الى أربعــة أقسام • وكان الذئبان قد قطعا الغنيمة الى هذه الأقسام الأربعة ، بعد أن احتفظ أحدهما لنفسه باللسان ، والآخر بشفة الأيل العليا ، وهمــا الجزءان الرئيسيان الشهيان فى هذا الحيوان • ولما اعترض « ويس » على هذه القسمة « قدم الذئبان هذين الجزءين له • وبعد أن أكل كــل نصيبه تطوع أحد الذئبين أن يصنع لهم حساء دسما من عظام الحيوان المهشمة • على أنهم سرعان ما أحسوا بالجوع بعد أن هضم هــذا الطعام • فاتفقوا على أن يفترقوا مرة أخرى • فرحل الذئب الكبير فى هذه المرة مع أحد أبنائه ، ورحل « ويس » مع الابن الآخر •

ثم تترك الحكاية الحديث عن الذئب الكبير ، وتحكى عن مصير

« ويس » وابن أخيه الذئب . فقد حدث أن قتـــل الذئب الصغير بعض الغزلان وابتلعها ثم تقيأها كما هى عند وصوله ، وأخبر عمه أنه لم يستطع أن يصطاد من الوحوش أكثر من ذلك . فجلس « ويس » طوال الليل يصنع الدواء أو يستخدم التعاويذ . وفى الصباح توسل الى ابن أخيه أن يخرج للصيد ، ولكنه حذره أن يحرص على أن يضع عصا عبر أى واد أو مكان أجوف قبل أن يعبر هو نفسه ، والا فسوف تلحق به بعض الشرور . فرحل الذئب . وفيما كان يجرى وراء غزال ، نسى أن يتبع تعليمات عمه . فلما حاول أن يقفز عبر مكان أجوف سقط فى نهر ومات على الفور وابتلعته حيوانات الماء . ولم يذكر القاص شيئا عن طبيعة هذا الحيوان ، ولكنه اكتفى بذكر أن الذئب الصغير قد قتل وابتلعته هـــذه الكائنات . وبعد أن انتظر « ويس » عودة الذئب الصغير فترة طويلة ، خرج ليبحث عنه ، فلما وصل الى المكان الذى قفز عنده الذئب ، أدرك توا أن الذئب قـــد أهمل نصيحته ، ولهذا فقد سقط فى الماء . ثم أبصر «ويس» طائر القاوند يجلس بأعلى شجرة ويحملق بشدة فى الماء . فلما سأله عن هذا الشيء الذى ينظر اليه بهذا الاهتمام ، أجاب الطائر بأنه ينظر الى جلد ابن أخى « ويس » الذى يستخدم الآن مساحة للأرجل عند بيت الحيوانات المائية التى ابتلعته . اذ لم تكتف هذه الحيوانات القاسية بقتل هذا الذئب وابتـــلاعه ، بل أضافت الاساءة الى جريمتها فاستخدمت جلد الذئب على هذا النحو الوضيع . فأسدى « ويس » الشكر للطائر على المعلومات التى قدمها له ، وذلك بأن طلب منه أن ينزل اليه ، وأخذ يمشـــط لـــه رأسه ويصنع له طوقا من الريش حول رقبته . ولكنه قبل أن يفرغ من عمله ، طار الطائر . وهذا هو السبب فى أن طائر القاوند لا يحيط رقبته سوى جزء من الشعر خلف الرأس . على أن طائر القاوند أسدى الى « ويس » نصيحة قبل رحيله ، وقال لـــه : ان هذه الحيوانات المائية كثيرا ما تخرج من الماء وتستلقى على الشاطىء، فان شاء أن ينتقم منهـــا ، فعليه أن يحول نفسه الى كتلة من الخشب ويستلقى بجانبها ، وأن يكون حريصا كل الحرص على أن يكون جسمه متصلبا للغاية ، حتى لا تشده الضفادع والثعابين التى لا بـــــد أن

ترسلها الحيوانات المائية لكى تزحزحه من مكانه • وبعد أن استمع « ويس » لهذه الارشادات عاد الى خيمته وأخذ يعاود تعاويذه • كما أنه أعد كل ما يلزمه لهذه المغامرة ، من بينها قارب كبير يسع كل الحيوانات التى تستطيع العوم •

وقبل أن تشرق الشمس ، كان « ويس » قد أعد عدته واستقل مركبه مع الحيوانات المذكورة آنفا • ثم أخذ يجدف فى هدوء حتى وصل الى مقربة من الحيوانات المائية • وعند ذاك أرسى مركبه عند نتوء فى البحر ، ونزل من المركب وحول نفسه الى كتلة من الخشب وأخذ ينتظر ، وهو على هذا النحو المصطنع ظهور الحيوانات المائية • وسرعان ما ظهر حيوان أسود أخذ يزحف حتى استلقى على الرمل • ثم أعقبه حيوان رمادى اللون فعل ما فعله الحيوان الأسود • وأخيرا أطل الحيوان الأبيض الذى كان قد قتل الذئب الصغير ، برأسهمن الماء • ولما أبصر كتلة الخشب تسرب الشك الى نفسه وصاح بأخويه وقال لهما : انه لم يبصر كتلة الخشب هذه من قبل • ولكنهما ردا عليه فى غير اكتراث بأن هذه الكتلة الخشبية لابد أنها كانت موجودة فى هذا المكان على الدوام • ولكن الحيوان الأبيض الحذر الذى كان الشك ما زال يساوره ، أرسل الضفادع والثعابين لكى تزحزح كتلة الخشب • ولكن « ويس » قاوم بشدة حتى يحتفظ بانتصابه ، ونجح فى ذلك • عند ذاك خمد شك الحيوان الأبيض ، واستلقى على الرمل ونام • أما « ريس » فقد انتظر بعض الوقت ، ثم عاد الى شكله الأصلى ، وأخذ رمحه وزحف فى بطء الى الحيوان الأبيض • وقد كان طائر القاوند قد نصح « ويس » أن يصوب رمحه نحو ظل الحيوان والا فشلت محاولته • ولكن « ويس » نسى هذه النصيحة ، وصوب سهمه نحو جسم الحيوان مباشرة ، فأخطأ الهدف واندفع الحيوان أثر ذلك الى الماء • وكانت لدى « ويس » فرصة أخرى لكى يضربه ، وفى هذه المرة صوب سهمه نحو ظله فأصاب الحيوان نفسه بجرح بالغ • ومع ذلك فقد حاول الهروب الى الماء وتبعه أخواه • وفى الحال بدأ الماء يفور ويرتفع فى الوقت الذى استقل فيه « ويس » مركبه وسار به فى أقصى سرعة • وأخذت المياه ترتفع حتى غطت الأرض والأشجار والتلال • أما

مركب «ويس » فقد أخذ يطفو على سطح الماء • ولما كان « ويس » قد جمع فى مركبه كل الحيوانات التى لا تستطيع العوم ، فقد أخذ يجمع هذه المرة الحيوانات التى كانت تسبح من حوله وهى تصارع هذا التيار المائى الجارف •

وقد فات « ويس » وهو منشغل فى تلاوة تعاويذه لمواجهة الاخطار المحدقة به ، أن يفكر فى طريقة عاجلة يسترجع بها الأرض بعد أن أغرقها الطوفان • ولم يكن لديه أى قدر من التراب ، ولا حتى ذرة منه تصلح أن تكون نواة لأرض جديدة تتكون من بقايا الارض الغرقى تحت المياه • فلما تذكر هذا الموضوع ، شرع فى الحصول على كمية من الطين فربط خيطا فى رجل طائر ، « آكل السمك » وطلب منه أن يحاول أن يسبر غور الماء وأن يثابر على ذلك ، ولو أدى هذا الى هلاكه • ثم قال :«لاتفكر فى أمر غرقك ، لأنك اذا غرقت ، ففى وسعى أن أعيد اليك الحياة فى يسر »• فشجع هذا القول الطائر واندفع فى الماء كما يندفع الحجر ، وجرى معه الخيط الذى كان «ويس» ممسكا بطرفه • فلما كف الخيط عن الجريان شد «ويس» الخيط من الماء ، واذا بالطير قد مات وهو مربوط فىنهايته فأعاد «ويس» الحياة اليه فى بطء • وعيد ذاه أخبره الطائر أنه لم يهتد الى قاع الماء • وبعد ذلك أرسل «ويس» كلب البحر ليقوم بهذه المهمة نفسها ، ولكنه لم يكن أسعد حظا من الطائر الأول • وفى المرة الثالثة أرسل حيوان السمور الذى أخبر «ويس» بعد أن مات وبعث للحياة مرة أخرى ؛ أنه قد غاص حتى وصل الى قمم الأشجار ، ولكنه لم يتمكن من الغوص أبعد من ذلك •وفى نهاية الأمر أرسل «ويس» فأرا ربطه فى حجر ، فغطس الفأر والحجر وارتخى الخيط عن آخره • وعند ذاك شد «ويس» الخيط وكان الفار ميتا فى طرفه ، ولكنه كان يحمل قطعة من الطين بين أظافره• وكان هذا هو كل ما كان يسعى اليه «ويس» ، فأعاد الحياة بعد ذلك الى الفأر ونشر قطعة الطين حتى تجف ثم أخذ ينفخ فيها حتى تمددت الى حد كبير، وهو يتصور أن حجم الأرض على هذا النحو كاف لأن يحيا عليها هو ومن معه من صنوف الحيوان • ثم أرسل الذئب ليستكشف له حجم الأرض • ولكن الذئب عاد على وجه السرعة وأخبره أن مساحة الأرض

صغيرة • فأخذ «ويس» ينفخ فيها فترة طويلة ، ثم أرسل غرابا ليعرف له قدر مساحتها • فلما لم يعد الغراب مرة أخرى ، تأكد «ويس» أن الأرض أصبحت من الاتساع بحيث تكفى الحياة عليها • وعند ذاك نزل اليها «ويس» ومن معه من صنوف الحيوان ••

وقد دونت لهذه الحكاية رواية أكثر اختصارا من الرواية السالفة ، وتختلف عنها بعض الاختلاف • وهذه الرواية الأخيرة كان يرويها « الأوجيبويون » الذين يسكنون فى جنوب شرق « أونتاريو » [1] • وتجرى هذه الرواية على النحو التالى : كان « نينيبوجو » يعيش مع أخيه فى الغابات ، وكان يخرج كل يوم للقنص ، بينما يبقى أخوه فى البيت• وذات يوم عاد « نينيبوجو » من القنص فى المساء ولم يجد أخاه فخرج للبحث عنه ، ولكنه لم يعثر له على أثر • ثم خرج فى صباح اليوم التالى ليواصل البحث عن أخيه • وبينما كان يسير بجوار شاطىء بحيرة لم يبصر سوى طائر القاوند وهو جالس على فرع شجرة يتدلى فى الماء • وكان الطائر يحملق باهتمام فى الماء أسفل الشجرة • فسأله « نينيبوجو » قائلا : علام تحملق فى الماء ؟ ولكن القاوند تظاهر بأنه لم يسمعه • فقال له « نينيبوجو » : « ان أنت أخبرتنى فسأجعل منظرك جميلا ، اذ أننى سأقوم بتلوين ريشك » • فوافق القاوند على ذلك ، وقال له بعد أن لون له ريشه : « اننى أنظر الى شقيق « نينيبوجو » الذى قتلته أرواح المياه وفرشت جلده عند عتبة الباب » • فسأله « نينيبوجو » بعد ذلك : « وفى أى مكان على الشاطىء تستلقى هذه الأرواح لتدفىء نفسها بأشعة الشمس ؟ » فأجاب القاوند : « انها تستلقى على الدوام هناك عند أحد الخلجان حيث الرمل جاف كل الجفاف » •

وعند ذاك ترك « نينيبوجو » طائر القاوند وقرر أن يذهب الى الشاطىء الرملى الذى أرشده اليه الطائر ، وهناك يتحين الفرصة كى يقتل

---

(١) مدينة فى ولاية كاليفورنيا وتبعد عن لوس انجلوس بحوالى خمسة وثلاثين ميلا . (المترجمة)

أرواح المياه • وأخذ بادىء الأمر يفكر في الشكل الذي يتنكر فيه حتى لا تتعرف عليه هذه الارواح ؛ وقال لنفسه : « سأحول نفسي الى كتلة خشب قديمة عفنة » • وبالفعل حول «نينيبوجو» ؛ نفسه الى هذا الشكل مستعينا بعامود طويل كان يحمله معه على الدوام • فلما خرجت الأسود من الماء لتستدفىء في الشمس ، أبصر أحدها كتلة الخشب وقال لأحد رفاقه : « لم يسبق لى أن أبصرت هذه الكتلة الخشبية في هذا المكان ؛ ولا يمكن أن تكون هى «نينيبوجو» • فرد عليه الأسد الثانى قائلا : «لا ؛ بل اننى رأيتها من قبل » • عند ذاك قدم أسد ثالث لينظر الى كتلة الخشب ويتأكد منها • فكسر قطعة منها ووجدها عفنة • فاطمأنت الأسود وخلدت الى الراحة • فلما رأى «نينيبوجو» أن الأسود راحت في سبات عميق ؛ هوى على رؤوسها بعصاه • وبينما كان يضربها كانت المياه ترتفع • فولى هاربا ولكن الأمواج اقتفت أثره • وبينما كان يجرى والأمواج تلاحقــه ؛ تقابل مع طائر النقار الذى أرشده الى جبل تنبت عند قمته شجرة صنوبر عالية • فتسلق «نينيبوجو» الشجرة ؛ وأخذ يصنع لنفسه لوحا من الخشب • وما كاد يفرغ من صنعة حتى كانت المياه قد وصلت الى رقبته • فوضع على لوح الخشب زوجا من كل صنف من صنوف الحيوان وطفا الجميع على سطح الماء •

وبعد أن سار «نينيبوجو» بقاربه بعض الوقت فوق سطح الماء ، قال لنفسه : « لا أعتقد أن الماء سوف ينحصر على الاطلاق ، ولذلك كان من الأفضل أن أقوم بخلق أرض جديدة » • فأرسل كلب البحر ليغوص في الماء حتى القاع ويحضر له قطعة من الطين • ولكن كلب البحر رجع خاوى الوفاض • فأرسل بعد ذلك حيوان السمور ليقوم بنفس المهمة ولكنه لم يأت له بشىء كذلك • وفى المرة الثالثة أرسل فأر المسك ليحضر له من قاع الماء قطعة من الطين • فلما رجع وجده قابضا يده باحكام • فلما فتحها وجد فيها ذرات من الرمل • كما وجد ذرات أخرى في فمه • فجمع الذرات بعضها الى بعض وجففها ونفخها في البحيرة ببوقه الذى كان يستخدمه في نداء الحيوان • فكبرت حبات الرمل في البحيرة وكونت جزيرة • وعند ذاك أرسل « نينيبوجو » غرابا ليكتشف مساحة الجزيرة

ولكن الغراب طار ولم يعد اليه • فأرسل بعد ذلك الصقر الذى يسرع فى طيرانه أكثر من أى طائر آخر • وبعد فترة عاد الصقر • فلما سأله « نينيبوجو » عما اذا كان قد رأى الغراب ، أجاب بأنه قد رآه يأكل جيفة عند شاطىء البحيرة • فأجاب « نينيبوجو » : « من الآن فصاعدا لن يجد الغراب ما يأكله سوى ما يسرقه » • ثم انتظر « نينيبوجو » بعض الوقت وأرسل « الكاريبو » ليكتشف له حجم الجزيرة • فجاءه وقال له : انها ليست متسعة بما فيه الكفاية • وعند ذلك نفخ « نينيبوجو » مزيدا من الرمل فى البحيرة واكتفى بعد ذلك بهذا القدر من مساحة الأرض •

وتحكى قبيلة ذوى الأقدام السود « بلاك فوت » وهى قبيلة « جونكونية » أخرى ، كانت تنتشر فى المنحدرات الشرقية لجبال روكى ، وفى البرارى التى تقع عند سفحها ، تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة عن الطوفان الأول الكبير • فهم يقولون : « ان الأرض كانت تغمرها المياه فى بداية الحياة ، وكان « الرجل الشيخ » يطفو مع الحيوانات على ظهر لوح من الخشب • وذات يوم طلب « الرجل الشيخ » من السنور « أن يغوص فى الماء ويحاول أن يحضر معه قدرا من الطين • فغاص « السنور » ومكث فيه وقتا طويلا دون أن يصل الى قاع الماء • ثم قام كلب البحر ومن بعده عجل البحر بهذه المحاولة نفسها ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول الى قاع الماء كذلك • وأخيرا غطس فأر المسك ومكث وقتا طويلا الى درجة أن الرجل الشيخ ظن أنه قد غرق • ولكنه عاد فى النهاية وقد أوشك على الموت • فلما انتشله من الماء ووضعه فوق الرمث ، وجد فى أحد فكيه قطعة من الطين • ومن هذه القطعة خلق « الرجل الشيخ » الأرض ، ثم خلق الناس بعد ذلك »•

ويبدو أن مثل هذه الحكايات تنتشر انتشارا كبيرا بين القبائل الهندية التى تسكن فى شمال غرب كندا • ولا تقتصر رواية هذه الحكايات على القبائل التى تنتمى الى الأصل « الجونكوينى » ، وانما تنتشر كذلك بين جيرانهم الشماليين وهم « التينيهيون » أو « الدينيون »

الذين ينتمون الى أسرة « أثا باسكان » الكبـيرة ، وهى أكثر الأسر اللغوية الهندية انتشارا فى أمريكا الشمالية ، فهى تنتشر من ساحل « أكيتيك » الى المكسيك ، كما تنتشر من الباسـفيك الى « خليج هدسون » ، ومن « ريو كلورادو » الى منبع نهر « ريو جراندى » .
فقبيلة « كرى » وهى قبيلة جونكوينيه ، تحكى أنه فى بداية الحياة ، كان يعيش ساحر عجوز اسمه « ويساكيتشاك » وكان يصنع المعجزات بتعاويذه . على أن كائنا مهولا من كائنـات البحر كان يبغض هـذا الساحر وعزم على أن يقتله . فبينما كان الساحر يسبح فى عرض البحر على ظهر لوح من الخشب ، ضرب هذا الكائن البحـر بذيله حتى ارتفعت الأمواج وفاضت المياه وأغرقت الأرض . فأسرع الساحر وصنع لوحا عريضا من الخشب جمع عليه أزواجا من كل صنف من صنوف الحيوان والطيور ، وبذلك أنقذ نفسه ومن معه من الكائنات الحية من الفناء .
واستمر الكائن المهول يضرب الماء بذيله حتى غمرت المياه الأرض ، بل أكثر الجبال ارتفاعا ، بحيث لم يعد يرى البصر شبرا واحـدا من الأرض الجافة . وعند ذلك أرسل « ويساكيتشاك » البطة الغطاسة لكى تغوص فى الماء ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى قاع الماء وغرقت . فأرسل « ويساكيتشاك » اثر ذلك فأر المسك الذى مكث طويلا تحت الماء ، ثم طلع بعد ذلك وقد لطخت رقبته بالطين . فأخذ « ويساكيتشاك » الطين وشكله على هيئة قرص صغير وضعه فوق الماء فطفا فوقهـا . وكان هذا القرص الطينى يشبه أعشاش فئران المسك التى تبنيها فوق الثلج . ثم نفخ « يساكيتشاك » فى هذا القرص حتى تمدد وأصبح تلا صغيرا . فواصل عملية النفخ ، وكان كلما نفخ فيه تمدد أكثر وأكثر ثم احترق الطين بتأثير الشمس وأصبح كتلة صلبة . وعند ذاك وضع « ويساكيتشاك » فوقه الحيوانات لتعيش عليه . وفى النهاية ترك لوحه الخشبى ، ووقف على هذا القرص وسكنه . وقد أصبح هذا القـرص فيما بعد الأرض التى نعيش عليها .

وشبيه بهذه الحكاية حكاية أخرى يرويها الهنود « الدوجريبيين » ،

و « السلافيون » ، وهم يكونون قبيلتين من القبـــائل « التينيهية » • ولا تختلف هذه الرواية عن سالفتها سوى فى أن اسم الرجل الذى أنقذ من الطوفان فى هذه الرواية الأخيرة هو « تشابيوى » • وتذكر هذه الحكاية أنه بينما كان هذا الرجل يطفو فوق الماء على لوحه الخشبى ومعه زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات التى أنقذها ، جعل كل الحيوانا تالبرمائية بما فى ذلك السنور وكلب البحر تغوص فى المـــاء لتحضر له قطعة من الطين ، ولكنها لم تتمكن جميعا من احكارها عدا فأر المسك الذى كان آخر من غاص وعاد وعلى مخلبه قطعة صغيرة من الطين • فنفخ « تشابيوى » فى هذه القطعة حتى تمددت وأصبحت الأرض التى نراها الآن • عند ذلك أنزل « تشـــابيوى » الحيوانات عليها ، وعاش هو معها كما كان يعيش قبل أن يحدث الطوفان • ثم انه دعم الأرض بدعامة قوية حتى جعلها صلبة متينة •

ويحكى الهنود « الهاريسكيثيون » ، وهم يكونون قبيلة « تينيهية » أخرى ، أن رجلا بعينه يدعى « كونيان » ومعناه الرجل الحكيم ، قرر ذات مرة أن يصنع لوحا خشبيا عريضا • فلما سألته أخته ، وهى فى الوقت نفسه زوجته ، عن السبب الذى من أجله يصنع هذا اللوح قال لها : « اذا انتاب الأرض طوفان ، كما أتنبأ بذلك ، فاننا سنطفو على هذا اللوح » • ثم كشف عن خطته لغـــيره من أهل الأرض ، ولكنهم استهزءوا به وقالوا له : « اذا حدث طوفان سنأوى الى الأشجار » • ومع هذا فان الشيخ الحكيم صنع اللوح الخشبى العـــريض بأن ربط الدعائم الخشبية بعضها إلى بعض بأحبال مصنوعة من ألياف الشجر • وفجأة زحف طوفان الى الأرض ، كما لم يحدث قط من قبـــل ، وكأن المياه كانت تتدفق من كل جانب • وأخذ الناس يتسلقون الأشجار ، ولكن المياه كانت فى أثرهم ، حتى أغرقتهم عن آخرهم • أما الشـــيخ الحكيم فقد طفا فوق لوحه الخشبى القوى المحكم الصنع • وبينمـــا كان يسير فى عرض الماء ، أخذ يفكر فى المستقبل ، فجمع من كل صنف من صنوف الحيوان آكل العشب ، ومن الطيور ، بل من الوحـــوش

المفترسة ، وصاح بها قائلا : « هيا اتخذى مكانك على اللوح الخشبى ، فلن يترك الطوفان شـــبرا من الأرض دون أن يغمـــره » • واختفت الأرض حقا تحت المياه ، وظلت هكذا زمنا طويلا دون أن يفكر أحد فى البحث عنها • وكان أول من غاص الى قاع الماء ليبحث عن الأرض هو فأر المسك •ولكنه لم يتمكن من الوصول الى قاع الماء • ولما طفا على السطح ، كان قد أوشك على الغرق ، وقال للشيخ الحكيم : اننى لم أجد أثرا للأرض • ثم عاد فغاص مرة أخرى • ولما رجع قال : لقد شممت رائحة الأرض ولكننى لم أهتد اليها » • ثم جاء دور السنور ، فغاص وغاب فترة ثم ظهر أخيرا وهو يسبح على ظهره فاقد الوعى والأنفاس ، واكنه كان يحمل فى منقاره قطعة من الطين سلمها للشيخ الحكيم الذى وضعها بدوره على سطح الماء ونفخ فيها وقال : « لن أكون الا حيثما كانت الأرض » • وفى الوقت نفسه ملأ يده بالطين ونفخ فيه ، ولشدة سعادته أخذ يتمدد • فوضع على قطعة الطين طائرا وأخذ ينفخ فيها فأخذت تتسع رقعة الأرض تدريجيا • ثم وضع عليها ثعلبا دار حول رقعة الأرض فى يوم واحد • ثم عاد الثعلب وطاف حولها وهى تزداد اتساعا حتى أكمل ست دورات ، وفى الدورة السابعة عادت الأرض الى شكلها الطبيعى قبل الطوفـــان • عند ذاك أنزل الشـــيخ الحكيم الحيوانات عليها ، كما فعل هذا هو وزوجته وابنه من بعد وقال لهما : « ان الأرض سوف تعمر بأولادنا » • وهذا ما حدث بحق • ثم بقيت هناك مشكلة أخرى كان على الشيخ الحكيم أن يجد حلا لها • وهـــذه المشكلة هى كيفية ابطال الطوفان الذى كان مازال مستمرا • فلما رأى طائر « الواقة » ما كان عليه الرجل الحكيم من حيرة ، جاء لانقاذه • فابتلع الماء كله ثم استلقى على الشاطىء على دعامة من الخشب وقد تضخمت حوصلته تضخما مفزعا • وقد كان هذا أكثر مما كان يتوقعه الشيخ الحكيم ، فبعد أن كان الماء كثيرا كل الكثرة ، أصبح قليلا كل القلة • فتحدث الشيخ الحكيم ، وهو فى هذه الحيرة ، مع طائر الشرشق وقال له : « ان طائر الواقة يستلقى فى الشمس وحوصيلته منتفخة بالماء كل الانتفاخ ، فاذهب اليه واثقبها » • عند ذلك ذهب طائر الشرشق

الى الواقة التى لم تكن تتوقع قدومه ؛ وقال لنفسه فى نغمة ، ملؤها الشفقة : « لا شك أن جدتى تعانى من ألم فى معدتها » • ثم تحسس بيده فى رقة الجزء المتورم فى جسم الواقة ، كما لو كان يريد أن يسكن الألم • ولكنه وخز هذا الجز الملتهب فى غير عمد بمخالبه وخزة شديدة ؛ وفى الحال سمع صوت قرقرة تدفق على اثرها الماء من معدة الطائر وهو يرغى ويزبد • ثم انساب الماء مكونا البحيرات والأنهار ، وبهذا أصبحت الأرض قابلة للسكنى مرة أخرى •

ويؤكد بعض الهنود التينيهيين أن الطوفـــان تسبب عن سقوط كميات هائلة من الثلوج فى شهر سبتمبر • ولم يتنبأ بهـــذه الكارثة سوى رجل واحد كهل وحذر رفاقه ، ولكنهم لم يأبهوا لقوله وقالوا : « سوف نهرع الى الجبال اذا انتابنا الطوفان » • ولكنهم غرقوا جميعا فيما بعد • أما الرجل الشيخ فقد ابتنى مركبا أبحر بـــه وأنقذ معه كل الحيوانات التى صادفها حية • ولما تعب من الحياة فى المركـــب على هـــذا النحو ، أرســـل السمور وكلب البحر وفأر المسك والبطة ، كى يغوصوا فى الماء ، ويبحثوا عن الأرض الغرقى •على أن البطـــة هى التى صعدت الى سطح الماء وفى مخالبها قطعة صغيرة من الطين • فبسط الشيخ هذه القطعة على سطح الماء ونفخ فيها • وبعد ستة أيام رســـت الحيوانات على سطحها • فلما كبرت الأرض وأصبحت فى حجم الجزيرة ؛ خطا هو بنفسه عليها • ويحكى بعض التينيهيين أن الرجـــل الشـــيخ أرســـل أول الأمـــر غرابا انهمك فى افتراس الأجساد الطافية على سطح الماء ، ولم يعد الى الرجل الشـــيخ مرة أخرى • فأرســـل من بعده اليمامة التى طارت حول الأرض مرتين ثم عادت • وفى المرة الثالثة عادت فى المساء وقد أنهكها التعب وفى فمها فرع من الشجر ذو براعـــم • وقـــد يبدو لنـــا تأثير التعاليـــم المسيحية فى هـــذه الروايـــة الأخيرة •

وقد كانت قبيلة « سارسى » ، وهى قبيلة هندية أخرى تنتمى الى أصل «تينه» الكبير ، تكون أمة قوية فى سالف الزمن ، ثم انقرضت ولم

يعد عددها اليوم يتجاوز بضعة مئات من الأفراد • وهـــى تنتشر فى مساحة غير صغيرة من أرض البرارى ، بالأضافة الى انتشـــارها فى « بلاكفيت » فى « ألبيرتا » التى تقع على وجه التقريب جنوب « سكك حديد الباسفيك الكندى » • وتتفق رواية هذه القبيلة عن الطوفان فى ملامحها الأساسية مع روايتى قبيلتى « أوجيبواى » و « كرى » وسائر القبائل الكندية الأخرى • وتحكى هذه القبائل أنه عندما أغرق الطوفان الأرض ، لم ينج منه سوى رجل وامرأة طفيا على لوح من الخشب بعــد أن وضعا عليه صندوقا من الحيوانات والطيور • ثـم أرسـل الرجل بعد ذلك السنور لكي يغوص الى قاع الماء • فغاص السنور وعـــاد ومعه قطعة من الطين عجنها الرجل فى يده لكى يصنع منهـا أرضـا جديدة • وقـد كانت هذه الأرض صغيرة فى بادىء الامر ، الى درجــة أنه كان فى وسع العصفور أن يطوف بها • ولكنهـا أخذت تكبر تدريجيا بعد ذلك • ويضيف راوى هذه الحكاية الى هذا قائلا : « كان أول من عاش على وجه هذه الأرض هو أبونا الشيخ ، ثم ظهر علينا بعــد ذلك رجال ونساء وحيوانات وطيور • ثم خلق أبونا الشـــيخ الأنهار الجبال والأشجار وكل الاشياء التى نراها أمامنا الآن » • وبعــد أن فرغ الراوى من روايته لفت الرجل الأبيض الذى دون هذه الحـكاية نظر قبيلة « سارسى » ، أن رواية قبيلة « أوجيبواى » شديدة الشـبه بروايتهم ، فيما عدا أن الحيوان الذى أحضر قطعــة الطين فى هذه الرواية الاخيرة ليس هو السنور وانما فأر المسك • وقد أثارت هذه الملاحظةصيحة الموافقةمنخمسة أو ستة أفراد منالقبيلة كانوا يجلسون القرفصاء داخل خيمتهم • فصاح هؤلاء فى صوت واحد : « نعم ، نعم ، لقد كذب الرجل ، فلقد كان الحيوان هو فأر المسك • لقد كان حقا هو فأر المسك » •

ويلعب غراب بعينه أو كما يسمى « بيل » دورا كبيرا فى ديانة قبيلة « التيلنجيت » أو « التيلنكيت » وأساطيرها ، وهى قبيلة هندية ذات شأن فى «ألاسكا » • ولا يعــد هذا الغراب جدا لأسرة الأغربـة فحسب ، وانما كان خالق الجنس البشرى ، ومنبت النبـات وواضـع

الشمس والقمر والنجوم فى أماكنها . وقد كان لهذا الغراب خال شقى قتــل اخوته العشر بأن أغرقهم أو أنه سطحهم على لوح خشبى وجــز رؤوسهم بسكين . وقد كان دافعه لارتكاب هذا العمل الشرير هو الغيرة . ذلك لأنه كان متزوجا بامرأة شابة كان يحبها كل الحب . وكان يعلم ، وفقا لقانون قبيلة « تيلنجيت » ، أن أولاد أخته يرثون زوجته بعــد موته . فلما شب « بيل » عن الطوق وأصبح رجلا ، حاول خاله أن يقتله كماقتل اخوته من قبل ، ولكنه لــم ينجح فى هذا ، لان بيل لم يكن طفلا عاديا . فقد حملت فيه أمه عن طريق ابتلاعها حصاة عثرت عليها عند جزر البحر . ثم ابتلعت حصاة أخرى أصبح « بيل » بعدها لا يؤثر فيه الطعن . فلما حاول خاله أن يقتله ، لم تؤثر فيه السكين . ولكن الخال لم ييأس ، وحاول أن يعرضه لأخطار أخرى . فنطق فى سورة غضبه : « ليكن هناك طوفان » . فتدفقت المياه بحق حتى غمرت الجبال . عند ذلك استخدام بيل جناحيه وريشه اللذين كان يستخدمهما كيفما شــاء ، فنشرهما حتى وصل الى عنان السماء ، وهناك ظل معلقا فى السماء من منقاره مدة عشرة أيام ، بينما ظلت المياه تعلو حتى غطت جناحيه . فلما انخفضت المياه طار كالسهم الى البحر ، حيث سقط فى هدوء على جرف تنبت فيه الأعشاب . وهناك أنقذه من الخطر كلب البحر ، وأوصله الى الشاطىء فى أمان . هذا ما تذكره رواية قبيلة « تيلنجيت » . أما ما حدث للناس فى أثناء الفيضان ، فلا تذكر عن هذا شيئا .

وهناك أسطورة أخرى لقبيلة « تيلينجيت » تروى بطريقة أخرى كيف أن الغربان تسببت فى حدوث الطوفان الكبير . فلقد وضع هــذا الغراب امرأة تحت الأرض لكى تراقب مد البحر وجزره . وذات يوم شاء الغراب أن يعرف كل شىء يجرى تحت البحر فطلب من المرأة أن ترفع المحيط حتى يمكنه أن يسير تحت المحيط دون أن تبتل قدماه ، ولكنه نصحها فى حذر أن ترفعه ببطء حتى يكون لدى الناس متسع من الوقت ، اذا ما حل بهم الطوفان ، أن يحملوا فى مراكبهم المؤن اللازمة لهم ، وأن يصعدوا الى ظهرها . وبعد ذلك أخذت مياه المحيط ترتفع تدريجيا ، حاملة

الناس فى مراكبهم على سطحها • وبينما كانوا يرتفعون تدريجيا فوق سطح الماء ، كانوا يبصرون الدببة وسائر الوحوش تتجول على قمم الجبال التى لم يكن الطوفان قد أغرقهم بعد • وأخذ يسبح الكثير من الدببة من حول المراكب حتى تقفز اليها لأنهـــا كانت ترغب فى الحياة على البر • ولكن الناس الذين كانوا من بعد النظر بحيث اصطحبوا معهم كلابهم ، سعدوا بتصرفهم هذا ؛ لأن الكلاب حالت دون صعود الدببة الى ظهر المراكب • وقد رسا بعض الناس على قمم الجبال وشيدوا من حولهم سورا ليحجز عنهم المياه ، وذلك بعد أن ربطوا مراكبهم داخل السور • على أن الناس لم يكونوا قد تمكنوا من أن يأخذوا معهم كمية وافرة من خشب الوقود لان مراكبهم لم تتسع لذلك • ولقد مر الناس بوقت عصيب خطير فوق قمم الجبال ، اذ كانوا يبصرون الأشجار وهى تقتلع من جذورها وتنجرف مع التيار ، كما كانوا يبصرون شيطان البحر وسائر المخلوقات الغريبة وهى تطفو على صفحة الماء • وعندما انحسرت المياه ، أقتفى الناس أثر الجزر وهو يتراجع عن جوانب الجبال • ولما لم يجدوا أثرا للأشجار ، وكان وقودهم قد نفذ فى الوقت نفسه ، فقد هلكوا من البرد • وعندما عاد الغراب من تحت الماء ، أبصر السمك جافا مطروحا على الجبال وفى الشقوق ، فقال له : « قف حيث أنت وتحول الى حجر» • فتحول السمك الجاف الى حجر • فلما أبصر الناس وهم هابطون من فوق قمم الجبال ، صاح بهم فى نفس اللهجة قائلا : « لتحولوا الى أحجار حيثما كنتم » ، فتحول الناس فى الحال الى أحجار كذلك • ثم عـــاد وخلقهم مرة أخرى من أوراق الشجر • ولما عرف الناس فيما بعد أنهم قد خلقوا من أوراق الشجر ، أدركوا أن الغراب لا بد أنه كان قد حول من نجا من الطوفان من الجنس البشرى الى أحجار • وهذا هو السبب فى أن كثيرا من الناس حتى يومنا هذا يموتون فى فصل الخريف مع تساقط الأوراق • ويقول الأهالى انهم يموتون كما تذبل الاوراق وتتساقط •

وهناك حكاية أخرى تحكى عن الطوفان الذى أنتاب العالم ، تروى عن قبيلة « تيلينجيت » أو « كولوش » كما تعود الروس أن يسموها •

وقد نجا الناس فى هذه الحكاية فى فلك عائم كبير رسا بعد أن انخفضت المياه ــ على صخرة ، ثم انشطر الى شطرين • وهذا هو السبب من وجهة نظرهم ، فى اختلاف لغات الناس ، ذلك أن قبيلة « تيلينجيت » التى ركبت الفلك ، تمثل نصف سكان العالم ، فى حين أن من بقى من الناس على سطح الأرض يمثلون النصف الآخر • وربما كانت هذه الأسطورة الأخيرة تعتمد على أصل مسيحى ، حيث انها تمثل نوعا من الخلط بين حكاية نوح وحكاية برج بابل •

ويحكى الهنود « الهايدا » الذين يسكنون جزر « كوين شارلوت » أنه « قد حدث فى سالف الزمان طوفان مهول غرق فيه الناس والحيوانات جميعا ، ولم ينج منه سوى غرا بواحد • على أن هذا الغراب لم يكن طائرا عاديا تماما ، وانما كان يمتلك الى حد كبير ــ شأنه شأن كل الحيوانات فى الحكايات الهندية القديمة ــ خصالا انسانية • فقد كان فى وسعه ، على سبيل المثال ، أن يرتدى رداءه الريشى وأن يخلعه ، كما يرتدى الانسان ملابسه ويخلعها • بل انه ولد وفقا لرواية من روايات هذه الحكاية ، من امرأة لم يكن لها زوج ، وأن هذه المرأة صنعت له الأقواس والسهام التى كان يقتل بها الطيور عندما كبر ، وكانت تخيط له جلود هذه الطيور رداء أو غطاء • وكانت تتألف هذه الطيور التى كان يقتلها الغراب بسهامه ، من الطائر الثلجى الصغير ذى العنق والرأس الأسودين ، ومن الطائر الثلجى الكبير ذى اللون الأسود والأحمر ، ومن طائر النقار المكسيكى وقد كان اسم هذا الغراب هو « نى ــ كيل ــ ستلاس » • وبعد أن انحسر الطوفان ، نظر « نى ــ كيل ــ ستلاس » من حوله ، ولكنه لم يجد زوجة أو رفيقا ، ومن ثم أصبح يشعر بالوحدة • فأخذ حيوانا من الحيوانات الرخوة (Cardium Nuttalli من شاطىء البحر وتزوجه وأخذ يفقس على الدوام وهو ما زال يفكر جديا فى أن يكون له رفيق • ثم سمع فى النهاية صراخا خافتا للغاية شبيها بصراخ الطفل الوليد • وأخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا ، وفى النهاية بزغت طفلة أخذت تكبر تدريجيا فيما بعد ، ثم تزوجها الغراب • ومن هذا التزاوج تناسل الهنود الذين عمروا الأرض من بعد » •

ويحكي هنود طومسون الذين يسكنون « كولومبيا البريطانية » ، أنه قد حدث طوفان ذات مرة ، وغمر بلادهم جميعا فيما عدا قمم بعض الجبال العالية • ويظن هؤلاء الهنود ، وان كانوا غير واثقين من ظنهم هذا ، أن هذا الطوفان تسبب عن ثلاثة أخوة يدعون « كواكلكال » • وقد كان هؤلاء يتجولون فى البلاد ليقدموا معجزاتهم ويحولوا الاشياء الى أشكال أخرى ، حتى تحولوا هم فى النهاية الى أحجار • ومهما كان من أمر هؤلاء الأخوة ، فان الطوفان أغرق الناس جميعا عدا ذئبا وثلاثة رجال • أما الذئب فقد أنقذ لأنه حول نفسه الى قطعة من الخشب طفت فوق الماء ، وأما الرجال الثلاثة فقد نجوا لأنهم استقلوا مركبا جرفه التيار حتى رسا بهم عند جبال « نزوكسكى » ، وهناك تحولوا ومركبهم فيما بعد الى أحجار • ويمكنك أن تراهم هناك على هذا النحو فى هيئة أحجار حتى اليوم • وأما الذئب فقد ظل مطروحا على الشاطىء بعد أن انحسر الطوفان ، وهو على هيئة قطعة الخشب التى استطاع أن يحول نفسه اليها بمهارة فى وقت الشدة • ثم عاد واسترد شكله الأصلى وأخذ ينظر فيما حوله فرأى أنه فى بلد نهر طومسون • وعند ذاك اتخذ من الأشجار زوجات له • ومن هذا الزواج تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم • ولم يكن هناك ، قبل أن يحدث الطوفان ، بحيرات أو أنهار بين الجبال ، ومن ثم لم يكن هناك سمك • أما بعد الطوفان فقد امتلأت الكهوف بالمياه وأخذت تتدفق منها المجارى المائية الى البحر • وهذا هو السبب فى أننا نجد الآن بحيرات فى الجبال ، وسمكا فى هذه البحيرات • ويبدو أن حكاية « طومسون ريفر » قد اخترعت لتفسر سبب وجود البحيرات فى الجبال • وقد عزا الفيلسوف البدائى وجودها الى الطوفان الكبير الذى خلف وراءه مياها فى تجاويف الجبال تماما كما يترك جزر البحر وراءه احواضا من المياه فى تجاويف الصخور التى تقع على شاطىء البحر •

ويبدو أن أساطير الطوفان الكبير كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن فى « ولاية واشنطون » • فقد حكت قبيلة « توانا »

التى كانت تسكن « بوجيت ساوند » أن الناس أصبحوا آثمين فى عصر من العصور • وعقابا لهم على اثمهم انتاب الأرض طوفان أغرق الارض جميعها عدا جبلا واحدا • فهرب الناس فى قواربهم الى أعلى جبل فى بلدهم ، أى الى قمة سلسلة جبال « أولمبيك » • فلما غمرت المياه هذه الجبال ،ربط الناس قواربهم بحبال متينة فى أعلى شجرة • ولكن المياه أخذت فى الارتفاع حتى غمرت الأشجار • فتحطمت بعض المراكب وجرفها التيار جهة الغرب حيث تعيش اليوم سلالات الذين أنقذوا ذات يوم من الطوفان • وهم قبيلة تتحدث لغة شبيهة بلغة قبيلة « توانا »• وهذا هو السبب ، كما يدعى الأهالى ؛ فى أن أفراد هذه القبيلة قلائل • وهم يطلقون على هذا الجبل اسما ، معناه « المربط » ؛ لأنهم ربطوا قواربهم عنده آنذاك • وبالمثل يحكى الأهالى عن حمامة أطلقت لتستكشف أحوال الغرقى •

وقد وجد المبشرون الاول فى أثناء اقامتهم بين القبائل الهندية « سبوكانا » و « نيزبيرسى » و « كايوزى » ، هؤلاء الذين ألفوا أن يستوطنوا ؛ مع قبيلة « ياكيما » شرق ولاية واشنطون — وجدوا أن هؤلاء الهنود يروون حكايات خاصة بهم عن الطوفان الكبير ، الذى نجا منه رجل وزوجته على لوح من الخشب • وكل قبيلة من هذه القبائل الثلاث ، بالاضافة الى قبائل « فلات هيد » ، تحكى عن جبل خاص بها هو جبل « أرارات » الذى لجأ اليه من أنقذ من الطوفان •

وبالمثل روى هنود ولاية واشنطون الذين ألفوا أن يسكنوا عند المجرى الأدنى لنهر كولومبيا ، وكانوا يتحدثون لهجة « التشينوك الكاثلامية » — رووا حكاية عن الطوفان الكبير • وهذه الحكاية تتشابه بصفة خاصة مع الأسطورة « الأجونجوينية » • فهم يقولون : ان طائر « الثرثار الأزرق » نصح فتاة بعينها أن تتزوج النمر الأرقط الذى كان يصطاد الأيائل ، وكان رئيس بلده فى الوقت نفسه • فرحلت

الفتاة الى مدينة النمر الأزرق ؛ وهناك تزوجت خطأ السنور بدلا من النمر الأزرق • وذات يوم عندما رجع زوجها السنور من الصيد ، ذهبت لتستقبله ، فطلب منها أن تنتشل السمك الذى اصطاده • ولكنها رأت أن ما معه ليس سمكا ؛ وانما فروع شجر الصفصاف فحسب • فولت عنه مشمئزة مما رأته ، وتزوجت فى النهـاية النمر الأرقط الذى كان ينبغى عليها أن تتزوجه بادىء الأمر • فلما وجد السنور أنه فقد زوجة شبابه ؛ جلس وبكى مدة خمس أيام حتى فاضت دموعه عـلى الأرض وأغرقتها جميعا ، بما عليها من بيـوت • أما الحيوانات فقـد استقلت قواربها هروبا من الغرق • ولما أوشك الطوفان على أن يصل الى السماء ، تدبرت الحيوانات أمرها فى احضار قطعة من الطين من أعماق المياه • فقالت لطائر الثرثار الأزرق : « الآن اغطس فى المياه أيها الثرثار الأزرق ، وأحضر قطعـة من الطين » • فغطس الثرثار الأزرق ولكنه لم يغص الى قاع الماء ، لأن ذيله ظل ملتصقا بسطح الماء • ثم حاولت الحيوانات من بعده أن تغوص الى قاع الماء ؛ فغاص النمس أولا ومن بعده كلب البحر ، ثم عادا دون أن يتمكنا من الوصول الى قاع المياه • ثم جاء دور فأر المسك فقال للحيوانات : « اربطوا القوارب بعضها بجانب بعض • فربطت الحيوانات المراكب بعضها ببعض ، ووضعت ألوحا من الخشب عبر القـوارب • عند ذاك خلع رداءه ، وغنى أغنيته خمس مرات ، ثم غطس فى الماء دون أن يطيل الوداع واختفى عن الأبصار • وهناك مكث مدة طويلة • وفى نهاية الأمر ظهر زهر السوسن على صفحة المياه • ولما حل الصيف ؛ هبطت المياه وهبطت معها القوارب حتى رست على أرض جافة • وعند ذاك قفزت الحيوانات من القوارب • وبينمـا كانت تفعل هـذا ، خبطت أذيالها بحافة المركز ، فانقطعت أذيالها • وهذا هـو السبب فى أن الدب الرمادى والدب الأسود لهما ذيل قصير حتى اليوم • أما النمس وكلب البحر وفأر المسك والنمر الأرقط ، فقد رجعوا الى القوارب واستردوا أطراف ذيلهم ولصقوها فى مكانها • وهذا هو السبب فى أن هذه الحيوانات لا تزال لديهـا ذيول ذات طول لائق حتى اليـوم ،

على الرغم من أنها كانت قد قطعت عند حدوث الطوفان . هذا ولم تذكر الحكاية سوى الشيء اليسير عما حدث للجنس البشرى وكيف هرب من الطوفان . ولكن الحكاية تنتمى ، كما هو واضح ، الى نمط الحكايات البدائية التى لا تميز تميزا واضحا بين الانسان والحيوان . فالمخلوقات الدنيئة تفكر وتتكلم وتتصرف تصرف الانسان وفقا للتصور البدائى ، بل انها تعيش على قدم المساواة معه . وهذه الطبيعة المشتركة تشير اليها الحكاية « الكاثلاميتية » بوضوح بزواج الفتاة بالسنور أولا ، ثم بالنمر الأرقط ثانيا . كما يتضح هذا كذلك فى الوصف العرضى للسنور على أنه رجل منتفخ الحويصلة . ومن ثم ، فربما تصور القاص أن وصفه لنجاة الحيوانات من الطوفان يعد اشارة كافية لنجاة الجنس البشرى كذلك .

ولا تقتصر أساطير الطوفان الكبير على القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، وانما يحكيها كذلك الاسكيمو وأقرباؤهم سكان جرينلاند . فقد ذكر القائد « جاكوبسين » نقلا عن سكان « أورويجناراك » فى « ألاسكا » ، أن الاسكيمو يروون حكاية عن طوفان مهول أغرق الأرض فى سرعة مذهلة اثر هزة أرضية مفاجئة ، بحيث لم يتمكن من النجاة منه سوى أفراد قلائل استطاعوا أن يهربوا فى قواربهم المصنوعة من الجلد ويلجأوا الى قمم أكثر الجبال ارتفاعا . وكذلك يحكى الاسكيمو الذين يسكنون « تورتون ساوند » فى « ألاسكا » أن الطوفان أغرق الأرض جميعا فى بداية الحياة الأولى سوى جبل شاهق كان يتوسط الأرض . وحتى هذا الجبل غمرته المياه عدا قمته التى لجأ اليها بعض الحيوانات . كما حاول قلة من الناس الهروب من هذا الطوفان ، بأن طافوا على الماء فى قواربهم وعاشوا على السمك الذى كانوا يصطادونه . فلما انخفضت المياه بعد ذلك ، برزت الجبال من وسط المياه ، ورسا الناس بقواربهم فوقها . ثم أخذوا يتتبعون الطوفان المتراجع تدريجيا حتى وصلوا الى الشاطىء . وكذلك استقرت على هذا الشاطىء الحيوانات التى كانت قد لاذت بالجبال وعمرت الأرض بنتاجها ..

ويحكى الاسكيمو « التشيجليتين » الذين يسكنون ساحل محيط « أركتيك » بين « بوينت بارو » فى الغــرب الى « كيب باثروست » فى الشرق ، أن طوفانا كبيرا تدفق على سطح الأرض ، ودفعته الرياح فغمر مساكن الناس • فربط الاسكيمو عددا من القوارب بعضها الى بعض ، فكانت أشبه بلوح خشبى كبير طافوا عليه فوق سطح المــاء وهم يتزاحمون طلبا للدفء فى خيمة نصبوها • ولكنهم كانوا يرتعشون من لفحات الهواء الباردة وهم يرقبون الأشجار والرياح تقتلعها من جذورها • وفى نهاية الأمر رمى ساحر يدعى « أن ــ أودجيــون » ومعناه « ابن البومة الصغيرة » ، بسهه فى البحر وهو يقــول « كفى أيتها الرياح ، لتهدئى الآن » • ثم رمى بعد ذلك قرطه ، وكان هذا كافيا لأن يجعل الطوفان ينحسر •

أما الاسكيمو الذين يسكنون وسط بلاد الاسكيمو ، فيحــكون أن مياه المحيط ارتفعت فجأة منذ زمن طويل واستمرت فى الارتفاع حتى أغرقت الأرض جميعا • بل انها أغرقت قمم الجبال ، وهى تجرف الثلوج فوقها • وعندما انحسر الطوفان ، ترك الثلوج وراءه ، التى لا تزال تغطى قمم الجبال حتى اليوم • وقد تخلف فوق قمم الجبال كثير من الأسماك الصدفية ومن الأسماك العادية وعجول البحر والحيتان وقد جثث هذه الحيوانات المائية فيما بعد ، ولا تزال قشورها وعظامها بادية للعيان حتى اليوم • وقد غرق كثير ن الاسكيمو ، ولكن الكثير منهم هرب من الطوفان فى قواربهم •

أما فيما يختص بسكان جرينلاد ، فيحكى لنا مؤرخهم « كرانتز » أن « الشعوب الوثنية كلها على وجه التقريب تعرف شيئا عن طوفان نوح ، وأن المبشرين الأول ســمعوا عن « الجــرينلاديين » روايات بسيطة طريفة تتصل بهذا الموضوع • وتتلخص هذه الروايات فى أن الطوفان أغرق الأرض ومن عليها فى ســالف الزمــان ، ولم ينج من الناس سوى رجل واحد ، كما تحول بعضهم الى أرواح نارية • وضرب

هذا الرجل بعصاه الأرض بقـــوة ، فبرزت من باطنها امرأة تزوجها الرجل ، وعمرا الأرض بنسلهما • ومما يؤكد من وجهة نظرهم ، أن الطوفان قد أغرق الأرض جميعا ، أنه قد عثر على عظام الحيتان فوق الجبال العالية » • وقد أيد هذه الأسطورة الرحالة « س • ف • هول» بما رواه عن « الانويتيين » أو « الاسكيمو » الذين عاش بينهم • فقد أخبرنا هذا الرحالة أن « هؤلاء الاسكيمو يروون حكاية عن الطوفان الذى يعزونه الى مد غير عادى للبحر • وبينما كنت أتحدث فى مناسبة من المناسبات مع امرأة تدعى « توكوليتو » حول قومها ، قالت لى : « ان « الانويتيين » كلهم يعتقـــدون أن الأرض جميعا قد غمـــرها الطوفان ذات يوم • فلما سألتها عن سبب اعتقادهم فى هذا الحادث ردت على قائلة : «ألم تر أحجارا صغيرة على الجبال تشبه الحيوانات الرخوية وغيرها من الحيوانات التى تسكن البحار ؟ » •

١٥ ــ حكايات افريقية عن الطوفان الكبير

انه لمن الغريب حقا أننا لا نكاد نعثر على حكايات الطوفان الذى أغرق العالم فى افريقيا ، بينما تنتشر هذه الحكيات انتشارا واسعا فى كثير من جهات العالم • حقا ان الشك يمكن أن يساورنا فيمـــا اذا كانت هناك رواية واحدة أصلية عن الطوفان الكبير دونت فى هذه القارة الشاسعة • بل انه ن الصعب أن نجد آثارا لمثل هذه الرواية ، فلم يكتشف أثر لهذه الحكاية فى الأدب المصرى القديم • وقد قيل لنا أن سكان « غينيا الشمالية » يروون « حكاية عن الطوفـــان الذى أغرق الأرض جميعا • ولكن هذه الحكاية ممتزجة بالخرافات والمعجزات ، بحيث يصعب علينا أن نقرنها بحكاية الكتاب المقدس » •

وحيث ان المبشر الذى روى هذه الحكاية لم يذكر تفاصيل عنها ، فاننا لا نستطيع أن نحكم بما اذا كانت هذه الحكاية قد نشأت أصلا عن سكان « غينيا الشمالية » أم أنها نقلت عن الأوربيين • على أن هناك مبشرا آخر صادف اشارات لحكاية الطوفان الكبير بين حكايات

أهالى نهر الكونغو الأعلى • فهم يقولون : ان الشمس والقمر تقابلا ذات يوم ، فلطخت الشمس جـزءا من وجه القمـر بالطين ، وبذلك حجبت بعض ضوئه • وهذا هو السبب فى أن جزءا من القمـر يكون مظلما فى كثير من الأحيان • وقد حدث الفيضان عندما تقابل الشمس والقمر • وحمل الناس القدامى الجذور التى يصنعون منهـا حساءهم (لوكو) على ظهورهم وتحولوا الى قردة • فالجنس البشرى الذى يعيش الآن على وجه الأرض يعد خلقا جديدا •

وهناك رواية أخرى تقول : ان الرجال قد تحولوا بعد حدوث الطوفان الى قرود كما تحولت النساء الى سحالى ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل • وقد نفهم من هذه الرواية أن هذا التحول قد حدث ، وفقا لتصور هؤلاء الأهالى ، فى زمن متأخر للغاية • وليس لدى أهالى الكنغو حكايات تحكى عن سبب دخول البندقية الى بلادهم • كما أنهم لا يمتلكون أخبـارا تحـكى عن الزمن الذى استخدموا فى صـيدهم وحروبهم الرماح والدروع والأقواس والسهام والسكاكين • ويقال ان قبيلة « بابيدى » وهى قبيـلة « باسوتوية (١) » تسـكن جنوب أفريقيا ، تروى أسطورة عن طوفان أغرق الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وقد قام المبشر المحنك الدكتـور « روبرت موفات » باستفسارات مثمرة حول أساطير الطوفان لدى أهالى أفريقيا الجنوبية وقد تبين أن أحد الأهالى الذى صرح بأنه قد سمع حكاية الطوفان من أجداده ، قد سمعها فى الحقيقة من مبشر يدعى « شـيميلين » • ويضيف الدكتور « موفات » الى هذا ، « أن مثل هذه الحكايات كان يسمعها الأهالى أصلا من المبشرين أو من بعض الرحـالة المتدينين • وهذه الحكايات اختلطت مع مرور الوقت اختلاطا كبيرا ، واكتسـبت أفكارا وثنية ، بحيث أصبحت تشبه الى حد كبيرا للحكاية الأهلية •

---

(١) نسبة الى باسوتو احدى ولايات جنوب افريقيا . (المترجمة)

ويعلق الدكتور « لفنجستون » حــول هذا الموضوع بعـــد أن دون أسطورة حول نشأة بحيرة « ديلولو » فى « أنجولا » التى أغرقت قرية بأكملها بما فيها من سكان وطيور وكلاب ، يعلق قائلا : « وربما كانت هذه الحكاية أثرا باهتا لحكاية الطوفان • والجدير بالذكر أنها الأثر الوحيد الذى سمعته فى هذا البلد » • وقد أخبرنى صديقى المجرب « جون روسكو » المبجل ، الذى قضى ما يقـــرب من عشرين عاما فى علاقات وديةمعسكان أفريقيا الوسطى وبصفة خاصة مع أهالى محمية أوغندا ، أخبرنى أنه لم يستمع الى حكاية عن الطوفان ترويها القبائل التى تعرف عليها •

على أن الكتاب الألمان اكتشفوا حكايات عن الطوفان الكبير بين سكان « أفريقيا الشرقية » ، ولكن هذه الحكايات ليست سوى روايات لحكاية الكتاب المقدس التى تسربت الى هؤلاء البدائيين بتأثير المسيحيين أو من المحتمل بتأثير المسلمين • وقد دون ضابط ألمانى احدى هـــذه الروايات عن قبيلة « ماساى » ، وهى تجرى على النحو التالى :

كان « تومباينوت » رجلا مستقيما ، ولهذا فقد أحبه الله • وقد تزوج هذا الرجل امرأة تدعى « نابياندى » ولدت له ثلاثة أبناء هم « أوشـــومو » و « بارتيمارو » و « بارمـــاو » • ولما توفى أخـــو « تومباينوت » تزو ج، وفقا لعادة قبيلة « ماساى » أرملة أخيه التى كانت تدعى « ناهابا ــ لوجوينجا » • ويشير اسمها الى رأسها الطويل الدقيق وهو علامة من علامات الحسن عند هذه القبيلة • وولدت هذه المرأة من زوجها الثانى ثلاثة أبناء كذلك • ولكنها تركت بيت زوجهـــا نتيجة خلاف نشأ بينها وبين زوجها ، بعد أن رفضت أن تعطيه جرعة من اللبن فى المســـاء • ثم ابتنت لنفسها بيتا أحاطته بسور من النباتات الشائكة كى تحميها من الوحوش • فى هذه الأيام كانت الأرض تضيق بالناس الذين لم يكونوا أخيـــارا وانما كانوا على العـــكس أشرارا لا يطيعون أوامر الله • ولكن مهما كانت درجة شرورهم ، فقد أحجموا

عن ارتكاب جرائم القتل . وفى ذات يوم مشئوم ، ضرب رجل يدعى « نامبيجا » رجلا آخر يدعى « سواجى » على رأسه . كان هذا أكثر مما يحتمله الاله ، ومن ثم فقد قرر أن يهلك الجنس البشرى بأسره عدا « تومباينوت » الذى أشفق عليه الاله وأمره أن يبنى فلكا من الخشب ، وأن يلجأ اليه هو وزوجتاه وأولاده الستة ، وأن يأخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف . فلما استقل الجميع الفلك واختزن فيه « تومباينوت » مئونة كبيرة ، أسقط الاله المطر بغزارة ولمدة طويلة حتى نجم عنه طوفان كبير أغرق الناس والحيوانات جميعا فيما عدا هؤلاء الذين أووا الى الفلك العائم . وأخذ « تومباينوت » ينتظر بشغف نهاية سقوط المطر ، لأن مئونته كانت قد أوشكت أن تفرغ . وفى النهاية كف المطر عن السقوط . وشاء « تومباينوت » فى شغف أن يعرف حال الفيضان ، فأطلق حمامة من الفلك عادت اليه منهكة آخر النهار . فأدرك « تومباينوت » من ذلك أن الطوفان لابد أنه مازال مرتفعا لأن الحمامة لم تجد مكانا تستريح عنده . فأطلق النسر بعد ذلك ببضعة أيام . ولكنه قبل أن يطلقه ، أخذ حيطته بأن ربط رمحا فى ذيله حتى اذا استقر النسر فى مكان ليأكل ، فان الرمح يجرجر وراءه . فاذا أعاقه معوق فى أثناء جره ، فانه يلتصق بهذا الشىء ، وينفصل عن ذيل النسر . وقد أثبت ما حدث صحة ما توقعه « تومباينوت » ، ذلك أن الطير عاد فى المساء بدون الرمح والريش الذى كان مرتبطا به . فحدس أن الطائر قد انقض على جيفة ، وان الطوفان لابد قد انحسر . فلما تراجعت المياه عن الأرض ، رسا الفلك على أرض البرارى ونزل منه ركابه . فلما خطا « تومباينوت » خارج الفلك ، أبصر ما لا يقل عن أربعة من أقواس قزح يتجه كل منها فى جهة من الجهات الأربع . فنظر اليها « تومباينوت » على أنها علامة على زوال غضب الاله .

وهناك رواية أخرى لحكاية الطوفان دونها مبشر ألمانى كان يسكن المنطقة نفسها . وقد حصل المبشر على هذه الرواية فى محطة تبشير

« مكولوى » التى تقع عند « سايسى » أو « نهر مومبا » على بعد عشرين ميلا من مصب النهر فى بحيرة « روكوا » • وقد اعترف الراوى للمبشر أنه قد سمع هذه الحكاية من جده ، وأكد له فى اصرار أنها رواية قديمة أصلية نشأت بينهم ولم ترد اليهم من الخارج • وقد أكد هذا القول رجل آخر من الأهالى اشتهر بحبه للصدق ولم يختلف هذا الراوى فى روايته عن رواية الراوى الأول سوى أن نوحا الافريقى أرسل حمامتين بدلا من حمامة واحدة • وهذه الرواية تجرى على النحو التالى :

فى زمن بالغ فى القدم فاضت الأنهار • فقال الاله للرجلين : ادخلا السفينة وخذا معكما كل نوع من أنواع الحبوب ، وكل صنف من صنوف الحيوان ، الذكر منه والأنثى • ففعل الرجلان ما أؤتمرا به • ثم فاضت المياه حتى أغرقت الجبال ، وطافت السفينة فوقها • أما الناس والحيوانات فكانوا قد هلكوا عن آخرهم • فلما تراجعت المياه ، قال أحد الرجلين لرفيقه : دعنا نرى ـ فربما لم تجف الأرض بعد » • فأطلقا حمامة رجعت للفلك بعد حين • فانتظرا بعض الوقت ثم أطلقا صقرا لم يعد ثانية الى الفلك ، لأن الأرض كانت قد جفت • عند ذاك خرج الرجلان من المركب ونزلا الى الأرض وأنزلا حيواناتهما وحبوبها •

ربما كان العرض السابق لحكايات الطوفان كافيا لأن يثبت أن هذا النمط من الحكايات سواء سميناه نمطا أسطوريا أم خرافيا ، كان منتشرا فى جميع أنحاء العالم • وربما كان من الأفضل قبل أن نتساءل عن علاقة الحكايات بعضها ببعض ، وعن السبب أو الأسباب التى دعت الى روايتها ، أن نشير مرة أخرى باختصار الى الأماكن التى عاشت فيها هذه الحكايات • فاذا بدأنا بآسيا ، فاننا نذكر أننا قد صادفنا

نماذج من هذه الحكايات فى بابل فلسطين وسوريا وفيريجيا (١) وفى الهند القديمة والحديثة ؛ وفى بورما، والهند الصينية • وفى شبه جزيرة الملايو وكامشكا ؛ أى أنها باختصار ، تنتشر فى جنوب آسيا • وتختفى بوضوح فى آسيا الشرقية والمتوسطة والشمالية • والجدير بالذكر أن شعبى آسيا الشرقية اللذين بلغا من الحضارة شأوا بعيدا ؛ ونعنى بهما الصينيين واليابانيين ، لم تحتفظا ضمن آدابهما القديمة الهائلة فى حدود ما يتسع اليه علمى ، بحكاية أهلية عن الطوفان الكبير من النوع الذى نحن الآن بصدده ، ذلك الذى يحكى عن طوفان أغرق العالم ، كما أغرق الجزء الأكبر من الجنس البشرى •

وفى أوربا تندر حكايات الطوفان الأهلية عنها فى آسيا ، ولكنها رويت عند الأغريق القدماء ، كما رويت فى « ويلز » و « ليتوانيا »؛ وعند غجر ترانسلفانيا ؛ و « الفوجوليين » سكان روسيا الشرقية • أما الحكاية الأيسلندية التى تحكى عن الطوفان الذى تسبب عن انسكاب دم العفريت ؛ فلا تدخل ضمن هذه الحكايات •

وفى افريقيا بما فى ذلك مصر تختفى الأساطير الأهلية عن الطوفان الكبير بشكل ملحوظ ؛ اذ لم تدون فى هذه القارة حقا حكاية أهلية واحدة من هذا النوع •

وفى جزر الأرخبيل الهندى وجدنا حكايات عن الطوفان الكبير فى جزر سومطرة ؛ وفى « بورنيو » و « سيليبس » ؛ كما وجدناها فى الجزر الأصغر منها وهى جزيرة « نياس » و « انجانو » و « سيرام » ؛ و « روتى » ؛ و « فلوريس » • كما روت هذه الحكايات القبائل الأهلية فى جزر الفيلبين وفرموزا ؛ وكذلك الأندمانيون الذين يعيشون منعزلين فى جزر خليج البنغال •

---

(١) احدى مدن آسيا الصغرى فى الزمن القديم وكان سكانها يرتبطون بالأرمينيين من الناحية الاثنولوجية . (المترجمة)

كما صادفتنا بعض حكايات الطوفان الكبير فى الجزر الكبيرة مثل جزر « غينيا الجديدة » وفى قارة استراليا ، كما وجدنا أساطير هذا النمط تعيش فى أطراف الجزر الأقل حجما مثل جزر « ميلانيزيا » التى تلتف فى شبه قوس حول جزر « غينيا الجديدة » و « استراليا » فى الشـــمال والشرق .

فاذا أوغلنا فى المحيط الهـادى شرقا فاننا نجـد أن حكايات الطوفان تنتشر انتشـارا كبيرا بين البولونيزيين الذين يعيشـون منتشرين فى أصغر جزر هذا المحيط من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلنده جنوبا . كما دونت أسطورة عن الطوفان عند « الميكرونيزيين » الذين يسكنون « جزر بيلو » .

وتنتشر روايات الطوفان انتشارا كبيرا فى جنوب أمريكا ووسطها وشمالها : من « تيراديل فويجو » جنوبا الى الاسكا شـمالا ، ومن الشرق الى الغرب فى كلتا القارتين . ولا تنتشر هـذه الحكايات بين الاسكيمو الذين يعيشون من غرب ألاسكا الى شرق جرينلاند .

فاذا كان هذا هو الانتشار الجغرافى لحكايات الطوفان بوجه عام ، فانه يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن علاقة هذه الحكايات بعضها ببعض فهل هناك علاقة أصلية فيما بينها ، أم أن هذه الحكايات متميزة ومستقلة بعضها عن بعض ؟ وبتعبير آخر ، هل ترجع تلك الحكايات جميعا الى أصل واحد ، أم انها نشأت مستقلة فى بقاع كثيرة من العالم ؟ لقد كان الباحثون يميلون سالفا متأثرين بحكاية الكتاب المقدس ، الى أن يقرنوا أساطير الطوفان الكبير ؛ أينما وجدت ، بحكاية طوفان نوح المعروفة . كما افترضوا أننا نجد بين هذه الأساطير روايات مشوهة ومشكوك فيها لهذه الكارثة المهولة التى تعد أكثر روايتها ثقة ؛ تلك التى يتضمنها سفر التكوين . على أن وجهة النظر هذه لم تعد تؤيدها الأدلة . وحتى اذا سلمنا بوجوه التشويه العديدة ، وشتى المتغيرات التى تتعرض لها الرواية الشفاهية بالضرورة فى أثناء انتقالها من جيل

الى جيل ومن مكان لآخر عبر الأزمنة اللامتناهية ؛ فما زلنا نواجه صعوبة لأن نتعرف فى هذا الحشد الهائل من حكايات الطوفان الكبير التى غالبا ما تتسم بالغرابة والطابع الطفولى ، على النماذج الانسانية لأصل دينى واحد . وقد تضاعفت هذه الصعوبة منذ أن أثبت البحث الحديث أن حكاية سفر التكوين ليست هى الحكاية الأصلية على الاطلاق ، وانما هى نسخة قديمة نسبيا لرواية بابلية أكثر قدما منها أو بالأحرى سومرية . على أنه ليس هناك مسيحى مدافع عن دينه ، يميل لأن ينظر الى الحكاية البابلية بلونها الوثنى ، بوصفها وحيا أوليا من الله للانسان . واذا كانت نظرية الوحى الالهى لا تنطبق على الأصل ، فهى بالأحرى لا تنطبق على صورة هذا الأصل .

فاذا تغاضينا عن نظرية الكشف أو الوحى الالهى التى تتعارض مع تلك الحقائق المعروفة ، فما زال أمامنا أن نتساءل عما اذا كانت الأسطورة السومرية أو البابلية التى تعد بكل تأكيد ، أقدم روايات الطوفان ، هى الأصل الذى استمدت منه سائر الروايات . ومثل هذا السؤال من الصعب أن توجد له اجابة ايجابية ؛ حيث انه يفتقر الى دليل ، وحيث ان النتيجة التى تنتهى اليها ترتكز على احتمالات عدة تختلف باختلاف وجهات النظر اليها . ومن الممكن بدون شك أن نحلل الحكايات جميعا الى عناصرها ، وأن نصنف هذه العناصر ، وأن نحصى عدد العناصر التى تعد قاسما مشتركا بين الروايات المختلفة ومن ثم يمكننا ، بناء على عدد هذه العناصر التى تحتوى عليها رواية من الروايات ، أن تنتهى اما الى احتمال تفرعها عن حكاية أخرى أو كونها هى نفسها رواية أصلية . وهذا فى الحقيقة ما قام به أحدالذين سبقونى فى هذا المجال من البحث ، ولكننى لا أرى هناك داعيا لأن أعيد ذكر النتائج التى توصل اليها . وفى وسع القراء الذين يميلون الى الاتجاه الرياضى أو الاحصائى اما أن يرجعوا الى أعمال هذا الكاتب نفسه (١) ؛ أو أن يستخلصوا هذه النتائج من المادة التى

---

(١) M. Winternitz : Die Flutsagen, p–. 312-333.
(نقلا عن النسخة الأصلية ــ المجلد الاول ص ٣٣٥) .

قدمت لهم فى الصفحات السابقة • أما الآن فسأكتفى بتقديم نتائجى العامة ، تاركا للقارىء مهمة التأكد من صحتها أو تصحيحها أو معارضتها معتمدا على الشواهد التى زودته بها • ومن ثم فاننا اذا صرفنا النظر عن الحكاية العبرية التى تعد بدون شك مستقاة من الرواية البابلية ، واذا صرفنا النظر عن النماذج الحديثة التى تكشف بوضوح عن تأثير واضح للمبشرين المتأخرين أو عن تأثير مسيحى بصفة عامة ؛ فاننى لا أعتقد فى أننا نملك أدلة قاطعة تعيننا على ارجاع أية رواية من روايات الطوفان الى الحكاية البابلية بوصفها أصلا لها جميعا • حقا ان بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث ؛ قد انتهوا الى أن كلا من الأسطورة الاغريقية أو الهندية القديمة مستمدة من الأسطورة البالية • وربما كان هؤلاء الباحثون على حق فى هذا ؛ ولكن التشابه بين الروايات الثلاث ، من وجهة نظرى ، ليس كاف لأن يبرر لنا أن ندعى التعرف على الأصل • حقا ان الاغريق كانوا فى العصور المتأخرة ؛ يعرفون كلا من حكاية الطوفان العبرية والبابلية ؛ ولكن حكايات الاغريق أنفسهم عن الطوفان أقدم بكثير من عصر انتصارات الاسكندر الأكبر التى كشفت للباحثين لأول مرة عن كنوز الشرق • ولا تكشف هذه الروايات الاغريقية فى أقدم أشكالها أى تأثر بأصول أسيوية • ففى أسطورة « ديوكاليون » ؛ على سبيل المثال ؛ التى تعد أقرب الروايات للحكاية البابلية ؛ لم ينج من الطوفان سوى « دويكاليون » وزوجته • وبعد أن انحسر الطوفان اكتشفا حاجتهما الى خلق الجنس البشرى بطريقة معجزة من الحجر • وليس هناك ذكر بعد ذلك الى اعادة خلق الحيوانات التى كانت قد هلكت فى الطوفان بطبيعة الحال • وفى هذا تختلف الرواية الاغريقية عن كل من الرواية البابلية والعبرية كل لاختلاف ، هاتين الروايتين اللتين اهتم فيهما الانسان بتكاثر الجنس البشرى والحيوانى معا عندما ينتهى الطوفان وذلك بأن احتفظ فى الفلك بعدد من الركاب من كل من الجنس البشرى والحيوانى •

وبالمثل فان مقارنة الرواية الهندية القديمة بالرواية البابلية ،

تبرز تناقضا خطيرا فيما بينهما • فالسمكة العجيبة التى تبرز بوضوح فى كل الروايات الهندية القديمــة ليس لها ما يناظرها فى الروايــة البابلية ، وان كان بعض الباحثين قد جادل فى حذق ، أن الاله الذى تجسد فى شكل سمكة حذرت مانو من قدوم الطوفــان فى الأسطورة الهندية ، ليس سوى صورة مطابقة للاله « ايا » الذى حذر أوتنابشتيم كذلك ن الطوفان فى الأسطورة البابلية • وحجــة هؤلاء الباحثين فى نظريتهم ، هى أن الاله « ايا » هو اله الماء ، وكان يصور أحيانا فى شكل انسانى ، وأحيانا أخرى فى شكل سمكة ، واذا كان من الممــكن اثبات هذا التشابه بين الأسطورتين ، فانه يمكننا آنذاك أن نربط بين الأسطورتين ربطا وثيقا • ومن جهة أخرى ، فان أقدم شكل للحكاية الهندية وهو الموجود فى « ستاباثا براهمانا » ، يحكى أن « مانو » هو الانسان الوحيد الذى نجا من الطوفان • وكان عليه أن يعيد خلق المرأة بطريقة معجزة بعد هذه الكارثة ، من الأشياء التى قدمها ضحية وهى اللبن الرائب وشرش اللبن والجبن ، وذلك لكى يتمكن بعد الزواج منها ، من العمل على استمرار النوع البشرى • ولم تصور الحكاية الهندية « مانو » وقد أخذ معه مجموعة من الحيوانات والنباتات الا فى الروايات المتأخرة من هذه الحكاية • بل ان هذه الروايات لم تذكر شيئا عن انقاذ « مانو » لزوجته وأولاده ، على الرغم من أنها تصوره عــلى ظهر السفينة بصحبة مجموعة من اخوانه الحكماء الذين أنقذهم من كارثة الطوفان • وهذا الحذف لا يكشف عن فجوة فى العاطفة العائلية فحسب ، وانما يكشف كذلك عن نقص فى حكمة الفيلسوف ، فضــلا على أنه يبرز التناقض البالغ بين البطل الهندى والبطل البابلى ببعد نظره العلمى ، ذلك البطل الذى كان أقل عزاء له فى تلك المحنة المحزنة ، أنه كان محاطا بأسرته وسط المياه المصطخبة ، ومن ثم كان يعلم أنه بمجرد أن ينخفض الطوفان ، سيكون قادرا ، بمساعدة أسرته ، أن يعين على استمرار الجنس البشرى عن طــريق العمليات العادية للطبيعة • أليس من الغــريب أن نكتشــف من خــلال هذا الاختــلاف البين بين

الحكايتين ، التناقض بين الحكمة الدنيوية للعقل السامى والزهد الحالم للعقلية الهنــدية ؟ •

وخلاصة القول ان الشواهد التى تثبت أن كلا من أسطورتى الطوفان الهندية والاغريقية مستمدتان من الحكاية البابلية ، ليست كافية • فاذا تذكرنا ان البابليين فيما نعلم لم ينجحوا على الاطلاق فى نقل حكايتهم عن الطوفان الى المصريين القــدماء الذين كانوا عــلى اتصال مباشر بهم طيلة قرون طويلة ، فليس هناك ما يدعو الى العجب أنهم قد فشلوا فى نقلها الى من كانوا أكثر بعدا منهم من المصريين ؛ وهم الهنود والاغريق الذين كانوا حتى زمن الاسكندر الأكبر متصلين بهم على نطاق ضيق • ثم انتقلت الحكاية البابلية بحق فى جميع أنحاء العالم فى عصور متأخرة • وكان لها صدى فى الحكايات التى كانت تحكى تحت أشجار النخيل فى جزائر المرجــان ، وفى أكواخ الهنــود ووسط ثلوج القطب الشــمالى وصقيعه • ويبدو أن هــذه الحــكايات انتقلت بدون وساطة مسيحية أو اسلامية فيمــا وراء حــدود بلادهــا الأصلية والمناطق السامية المجاورة •

واذا بحثنا عن أدلة فيما قدمناه من روايات أخرى متعددة عن الطوفان ، تثبت أن هذه الروايات قد استمدت من أصل معروف ، ثم انتشرت بعد ذلك ، فاننا لن نعجز فى الحصول على دليل واضح على هذا متمثلا فى الحكايات الالجونكوينية فى شمال أمريكا • فحــكايات الطوفان المختلفة التى دونت بين القبائل الكثيرة التى تنتمى لهــذا الأصل الذى كان ينتشر على نطاق واسع ، تتشابه فيما بينها تشابها كبيرا الى درجة أننا نعدها مجرد روايات متنــوعة لحكاية واحــدة بعينها • وما زال السؤال مطروحا عما اذا كانت حادثة الحيوانات المختلفة التى غطست فى الماء لتحضر قطعة من الطين ، قد نبعت أصــلا بين أهالى هذه المنطقة ، أم أنها ترتكز على ذكرى حادثة الطيور فى حكاية نوح التى وصلت الى الهنود عن طريق الرجل الأبيض •

وقد رأينا أكثر من ذلك ، أن هناك تشابها عاما يمكن اقتفاء أثره وفقا لرأى « هومبولت » بين روايات الطوفان التى انتشرت بين هنود « أورينوكو » ، كما أن هناك كذلك تشابها بين الأساطير البولونيزية وفقا لرأى « وليام اليس » • ومن المحتمل أن الحكايات انتشرت بين هؤلاء الهنود وكذلك بين البولونيين من مركزين محليين ؛ أى أنهـا ؛ بتعبير آخر ، تعد روايات مختلفة لأصل واحد •

على أننا اذا كنـا قد استمحنا لأنفسـنا أن نعـد الروايات السـالفة منتشرة من مراكـز محلية ، فانه من المحتمـل كذلك أنه لا تزال هناك أساطير عن الطوفان نشأت مستقلة •

أصل حكايات الطوفان الكبير :

مازال علينا أن نتسـاءل : ما الشكل الذى كانت عليـه الحكاية الأصلية التى تفرعت عنها روايات الطوفان ؟• وكيف ألف الناس أن يصدقوا أن الأرض جميعا أو بالأحرى الجزء المأهول منها بالسكان قد غمرته مياه فيضان عتى فى وقت أو آخر ؛ وأغرق معهـا الجنس البشرى كله على وجه التقريب ؟ والاجابة القديمة عن هذا السؤال ، هى أن الكارثة قد حدثت بالفعل ، وأن سـفر التكوين احتفظ لها بسـجل تاريخى كامل • كما احتفظ العدد الهائل من أسـاطير الطوفان التى انتشرت انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية بذكرى هـذه الكارثة المهولة • فصورتها فى كثير أو قليل تصويرا مهوشا مختلطا غير دقيق • ومما يؤيد وجهة النظـر هذه ، تلك الأصـداف والمخلفات الحيـوانية والنباتية المتحجرة التى افترض الناس أنه قد عثر عليهـا مبعثرة فى الأماكن المرتفعة والصحارى وعلى قمم الجبال ، بعد أن تراجعت مياه طوفان نوح عن تلك الأماكن •

وقد اتخذ « تير توليان » من قواقع البحر التى عثر عليها فوق قمم الجبال شاهدا على أن المياه قد أغرقت الأرض ذات مرة ؛ ولكنه

لم يربط هذا بحادثة الطوفان التى وردت فى سفر التكوين • وبينما كانت تتم عمليات الحفر عام ١٥١٧م لاعادة بناء مدينة فيرونا ، بدت للعيان مجموعة من المتحجرات الغريبة • وقد أدى هذا الكشــف الى تأملات عديدة أهمها ، بطبيعة الحال ، حادثة نوح وفلكه • ولكن هذه التأملات لم تترك دون أن تتعرض للمعارضة ، ذلك أن عالم الطبيعة الفيلسوف الايطالى « فراكاستورو » ، كان من الشجاعة بحيث أشــار الى الصعوبات التى يتعرض لها هذا الافتراض الشائع • فقد لاحظ « أن هذا الطوفان كان عابرا للغاية ، اذ كان يتكون أساسا من مياه الأنهار • واذا كانت المياه قد خلفت وراءها الأصداف على مسافات بعيدة ، فلابد أنها قد خلفتها على السطح ، ولم تدفنها فى أعماق بعيدة داخل الجبال • وقد كان من الممكن أن ينهى الجدل حول هذا الموضوع هذا العرض الواضح لهذا الشاهد ، لو لم تتدخل العواطف الانسانية فى هذا الموضوع » • وفى نهاية القرن السابع عشر ، غزا حشد من علماء اللاهوت المجال الجيولوجى فتجمعوا من ايطاليــا وفرنسا وألمانيــا وانجلترا وجعلوا الظلام يخيم على الرأى فى هذا الموضــوع ، حتى تركوه أكثر ابهــاما • ومن ثم فان كل من كان يرفض أن يقتنع بأن مخلفات البحر العضوية دليل على طوفان نوح الذى ورد فى الشريعة الموسوية ، كان معرضا لتهمة الكفر بالكتابات المقدسة • ونادرا ماعبر العلماء منذ عهد « فراكاسنورو » ، عن آراء تصل الى حد النظريات الســليمة •

وبذلك انقضى ما يقرب من مائة عام فى الجــدل الذى تلخص فى أن ما عثر عليه من مخلفات عضوية متحجرة لم يكن سوى عمل من أعمال الطبيعة • كما انقضت فترة أخرى تقرب من قرن ونصف قرن فى تأكيد نظرية أن المخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى عثر عليها مدفونة فى طبقات الأرض الصلبة ، هى تلك التى خلفها طوفــان نوح • ولم يتدخل بعد ذلك أى منطق نظرى فى أى فرع من فروع العلم بطريقة أكثر جدية من هذا ، وبمــلاحظة أكثر دقة ، وبتصنيف

تنظيمى للحقائق . ويحق لنا فى العصر الحديث أن نعزو تقدمنا السريع اساسا الى تحديدنا الدقيق لنظام تتابع الكتل المعدنية عن طريق محتواها العضوى المتفرع وتطابق أشكالها المنتظم . ولكن الباحثين القدماء فى الرواسب الطوفانية كانوا مدفوعين بوسائلهم الى الخلط بين مجموعات الطبقات الأرضية ، كما كانوا يعزون كل ظواهرها الى سبب واحد ، ويرجعونها الى فترة زمنية قصيرة واحدة ، ولا يرجعونها الى مجموعة أسباب حدثت خلال فترة طويلة من تعاقب العصور . لقد كانوا ينظرون الى الظاهرة فى حد ذاتها فحسب ، وكما يحلو لهم أن ينظرون اليها ، مشوهين الحقائق فى بعض الأحيان ، ومستخلصين النتائج الخاطئة من المعلومات الصحيحة فى أحيان أخرى .. وباختصار فان مجمل التقدم الجيولوجى منذ بداية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كان صراعا قويا دائما بين الأفكار الجديدة من ناحية ومعتقدات الأجيال اللاحقة التى يكرسها الايمان التأويلى الذى فرض فيه الاستناد على نصوص مقدسة .

ولم يكن الخطأ الذى ارتكبه « سير تشارلزليل » قد نسى حقا ، ففى أقل من قرن مضى ، عين « وليام بوكلاند » مدرسا للجيولوجيا فى جامعة أكسفورد ، وكان لا يزال يؤكد لمستمعيه فى حفل توليه « أن الحقيقة الكبرى للطوفان الذى انتاب العالم منذ زمن ليس بعيدا للغاية ، قد دعمت بأسس حاسمة لا نزال فيها ، بحيث أننا لو لم نكن قد قرأنا عن هذا الطوفان فى الكتاب المقدس أو فى أى مصدر آخر ، فان علم الجيولوجيا نفسه كان سيفترض حدوث مثل هذه الكارثة ليفسر ظاهرة الحدث الفيضانى » .

كما كتب فى عصرنا عالم جيولوجى آخر مرموق يقول (١) :

---

(١) (Sir) John William Dawson, The Story of the Earth and Men, 6th Ed. (London 1880), p. 290.

(نقلا عن الطبعة الأصلية جـ ٢ ص ٣٤٠ حاشية ٣) . (المترجمة)

« لقد كنت أعتقد لزمن طويل ان حكاية الطوفان التى تقع فى الاصحاح السابع والثامن من سفر التكوين لا يمكن أن تفهم الا اننا افترضنا أنها سجل لشاهد عيان دونه فيما بعد مؤلف سفر التكوين • فتحديد وقت ارتفاع المياه وسقوطها ، وسبر غور المياه من أعلى قمم التلال عندما بلغ الفيضان أقصاه ، وغير ذلك من التفاصيل ، فضلا عن الايقاع الكلى للحكاية ، كل هذا يبدو انه يتطلب هذا الفرض ، فضلا على أنه يزيح كل الصعوبات فى سبيل فهم الحكاية ، تلك الصعوبات التى كثيرا ما كان يحس بها القارىء • ولكن اذا كانت حكاية الطوفان فى سفر التكوين تعد سجلا لمشاهد عيان ، فكيف يمكننا أن نفسر المتناقضات الواضحة التى تحتوى عليها الحكاية فيما يختص بمدة الطوفان وعدد الحيوانات التى سمح لها نوح بدخول السفينة ؟ ان مثل هذه النظرية ، فضلا على أنها لم تحل المشكلات التى أثارتها الحكاية ، فانها على العكس جعلتها متعذرة كلية على الفهم ، اللهم الا اذا تبنينا بالمثل افتراضات غير عادلة ومسيئة لصدق المؤلف أو لوقاره •

ولن نسهب كذلك فى عرض تفسير آخر لحكايات الطوفان تمتع بشعبية كبيرة فى السنوات الأخيرة فى ألمانيا • فحكاية الطوفان ، وفقا لهذا التفسير ، ليست لها علاقة بمياه أو بفلك ، وانما هى أسطورة تتصل بالشمس أو القمر أو النجوم ، أو بها جميعا • على أن هؤلاء العلماء الذين توصلوا لهذا الكشف الغريب ، لم يتفقوا فيما بينهم بحال من الأحوال حول تفاصيل نظريتهم الفلكية ، فى الوقت الذى اتفقوا فيه على رفض التفسيرات الدنيوية الشائعة • فبعضهم رأى أن الفلك يمثل الشمس ، والبعض الآخر رأى أنه يمثل القمر ، وأن القار الذى طلى به الفلكتعبير تجسيدى لخسوف القمر ، كما تمثل طوابق الفلك الثلاث مراحل مدار القمر • وقد حاول آخر المدعين لهذه النظرية أن يوفق بين كل المتناقضات فى وحدة واحدة ، بأن جعل الناس يركبون القمر بينما تركوا الحيوانات تفعل ما يحلو لها بين النجوم • حقا انه لما يشرف هؤلاء كثيرا أن تناقش مثل هذه السخافات جديا بطريقة

علمية • وانما حرصت على أن أشير اليها لما أحدثته من بهجة خففت من ملل المناقشة الطويلة الجادة •

على أننا اذا أهملنا هــذه التصــورات الخالية ، وهذا هــو ما تستحقه بحق ، فما زال أمامنا أن نوجه السؤال عن أصل حكايات الطوفان • فهل هذه الحكايات تعبر عن حقيقة صــادقة أو عن كذب ملفق ؟ وهل هذا الطوفان الذى تصفه الحكايات باصرار ، قد حدث حقا أو لم يحدث ؟ اننا يمكننا أن نقــول بشىء من الثقة ان هــذه الحكايات فى حدود وصفها للطوفانات التى أغرقت العالم جميعا حتى المرتفعات الشاهقة ، كما أغرقت الناس والحيوانات جميعــا على وجه التقــريب ، حــكايات كاذبة • ذلك أنه اذا أمكننــا أن نثق فى أكثر الشواهد ثقة لعلم الجيولوجيا الحديث ، فان مثل هذه الكارثة لم تحدث قط طوال عصور سكنى الانسان على وجه الأرض • أما ما يفترضه بعض الفلاســفة من أن محيطــا كونيا غمــر الأرض جميعــا قبل أن يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهذه مسألة أخرى تماما • فقد تصــور « ليبنتز » ، على سبيل المثال ، أن الأرض « كانت فى الأصل كتــلة مضيئة مشتعلة ثم أخذت تتعرض لعمليات التبريد منذ ذلك الوقت • فلما بردت القشرة الخارجية بما فيه الكفاية ، بحيث سمحت للبخار بأن يتكثف على سطحها ، تســاقطت الأبخرة المكثفة مكونــة المحيط الكونى الذى غطى أعلى الجبال ارتفاعا وأحدق بالأرض جميعا » • ومثل هــذه النظــرية التى تقول بتــكون محيط أولــى من الأبخــرة المتكثفة بينما كانت المواد المنصهرة فى كوكبنا الأرضى تفقد حرارتها تدريجيا ، هذه النظرية تتبع بالضرورة فرض « نيبيولار » الشــهير الذى نادى به « كانت » لأول مرة مفسرا به أصل الأجرام الكونية ، ثم وسعه « لابلاس » فيما بعد • كما كان لامارك كذلك « متأثرا بعمق الاعتقاد الذى كان سائدا بين الطبيعيين القدامى وفحــواه أن المحيط الأولى أحدق بالكوكب الأرضى بعد أن سكنتها الكائنات الحية بزمن طويل » • على أنه اذا كانت مثل هذه التأملات قد راودت الانســان البدائى ، فانها تختلف بوضوح عن حكايات الطوفان الذى قضى على

الناس جميعا على وجه التقريب ؛ لأن مثل هذه الحكايات افترضت وجود الجنس البشرى على وجه الأرض قبل حدوث الطوفان ، ومن ثم فهى لا ترجع الى عصر سبق عصر البلايستوسين •

ولكن على الرغم من أن حكايات الطوفان الكبير ذات طابع خرافى صرف ، فمن الممكن ، بل انه من المحتمل حقا ، أن كثيرا منها يخفى بذرة من الحقيقة تحت غلافها الأسطورى• أى أن هذه الحكايات من الممكن أنها تحتوى على ذكرى حوادث الطوفان الذى غمر أحياء بعينها بحق • ثم صور الطوفان المحلى بشىء من المبالغة فى أثناء انتقال الروايات ، فأصبح كارثة حلت بالعالم • وسجل التاريخ غنى بأمثلة عن الفيضانات الكبيرة التى جلبت معها الدمار هنا وهناك • وقد كان الامر يكون غريبا حقا، اذا لم تكن ذكرى بعض هذه الحوادث قد عاشت طويلا بين سلالات الأجيال التى عاصرت هذه الحوادث • واذا شئنا أن نسوق أمثلة لمثل هذه الفيضانات المدمرة ، فاننا لن نبعد بعيدا ونشير الى البلد المجاور لهولندا ، الذى كثيرا ما تعرض للفيضانات فى القرن الثالث عشر ، فكثيرا ما هددت الفيضانات الأراضى المنخفضة التى تقع على طول «فلى» حتى غمرتها الأمواج فى نهاية الامر • وبالمثل طغى المحيط الألمانى على بحيرة « فليفو » ــ الداخلية • وقد بدأ بحر « زويدرزى » وجوده بأن غمر آلافا من القرى الفريزيانية ، وأغرقها بمن فيها من السكان ، ثم فصل بين الاهالى عن طريق أخدود حفره وسط بلادهم • وبذلك طمس هذا الطوفان الكبير معالم هذه البلاد الجغرافية والسياسية معا • وهكذا انعزل الهولنديون عن أقربائهم فى الشرق عن طريق هذا البحر الخطير الشبيه بذلك البحر الذى عزلهم عن اخوانهم الأنجلوسكسونيين فى انجلترا • ثم حدث أن هبت عاصفة من الشمال فى بداية القرن السادس عشر ، فدفعت مياه المحيط الى شاطىء زيلندة المنخفض فى سرعة هائلة بحيث لم تتمكن المياه أن تتدفق فى مضيق دوفر • وقد تحطمت حواجز « بيفلاندة الجنوبية » وغمرت مياه البحر البلاد ، وأغرقت مئات القرى ، وانفصل جزء من البلد عن الضواحى ودفن تحت

الأمواج ، وبذلك أصبحت « بيفلاندة الجنوبية » جزيرة ، ومنذئذ أصبح الشريط المائى الذى فصلها عن سائر القارة يعرف « بالارض الغرقى » •

ولم يتسبب الطوفان الذى أغرق بقاعا من هولندا فى هذه الظروف وغيرها عن سقوط الأمطار الغزيرة ، وانما تسبب عن ارتفاع مياه البحر • وعلى نحو هذا نرى أن الطوفان فى غير قليل من حكايات الطوفان لا يعزى الى سقوط الأمطار ، وانما يعزى الى ارتفاع مياه المحيط • فارتفاع مياه البحر هو سبب الفيضان الذى حكى عنه أهالى جزر « نياس » و «انجانو» و «روتى» و «فرموزا» و (تاهيتى ، و «هاواى»و «راكانجا» وجزر «بيلو»،وفيما روته القبائل الهندية التى تقطن الشاطىء الغربى من أمريكا من « تيراديل فويجو » فى الجنوب الى « ألاسكا » فى الشمال ، وما رواه « الاسكيمو » الذين يسكنون شواطىء المحيط المتجمد •• ومن الواضح كل الوضوح أن مثل هذه الحكايات تنتشر على نطاق واسع عند شواطىء جزر المحيط الهادى وفى داخل هذه الجزر ، ذلك لأن المحيط الهادى يتعرض من وقت لآخر للهياج الناجم من الزلازل العنيفة ، ذلك الهياج الذى كثيرا ما تسبب فى اغراق الشواطىء والجزر التى حكت عنها حكايات الطوفان الكبير الذى نجم عن ارتفاع مياه البحر • أفلا يحق لنا بعد هذا ، بل أفلا يتحتم علينا، أن نفسر نشأة بعض هذه الحكايات على الأقل بحدوث مثل هذه الفيضانات ؟ أليست كل الاحتمالات تؤيد العلاقة السببية لا العرضية بين هذه الحكايات والفيضانات التى حكت عنها ؟ •

ومن الطبيعى أن أول رد فعل عند الأهالى الذين يسكنون الشواطىء التى تتعرض للزلازل وما يتبع هذا من ارتفاع مياه البحر ، أن يلجأ هؤلاء الأهالى، عندما يشعرون بالهزات الأرضية، الى المرتفعات العالية طلبا للحماية من مياه الفيضان • ولقد رأينا أن الهنود الأراوكانيين ، سكان « شيلى » الذين يروون حكاية عن الطوفان الكبير ، والذين يخشون من تكرار هذا الدمار ، يأوون الى الجبال عندما يشعرون بهزات

أرضية عنيفة • كما تعود « الفيجيانيون » الذين رووا بالمثل حكاية عن الطوفان المهول ، أن يعدوا قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر شبيه بما حكوا عنه • فاذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الحقائق ، فربما قبلنا تفسير العالم الاثنولوجى الامريكى المشهور « هوراشيو هالى » ، الذى فسر به الرواية الفيجيانية عن الطوفان ، بوصفه تفسيرا معقولا ومحتملا • فقد كتب تعليقا على ما ورد من أن « الفيجيانيين » كانوا فيما مضى يعدون قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر فقال :

« ان هذا التقرير ــ الذى سمعناه من اناس آخرين بنفس التعبير ــ ربما دفعنا الى أن نتساءل عما اذا كان قد حدث فى تاريخ هذه الجزر حوادث حقيقية كانت دافعا على نشأة هذه الحكايات ، وعلى عادة الاحتفاظ بالقوارب معدة لحدوث أية كارثة • ففى السابع من نوفمبر عام ١٨٣٧ تغير مجرى المحيط من الشرق الى الغرب بتأثير الأمواج العاتية التى سببتها حدوث الزلازل فى شيلى ، وشعر بها سكان جزر « بونين » • كما ارتفعت المياه عند جزر « ساندوتش » عند شاطىء « هاواى » الشرقى ، وفقا لما ذكره « جارفيس » فى تاريخه (صفحة ٢١) وبلغ ارتفاعها عشرين قدما فوق سطح البحر ، فغمرت الأراضى المنخفضة كما غمرت عدة قرى ، وأهلكت كثيرا من الكائنات الحية • وقد تكرر حدوث مثل هذا الفيضان فى هذه الجزر فى ظروف أخرى • فاذا افترضنا ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال ، أنه فى غضون ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة ، ان أمواجا بلغ ارتفاعها أضعاف ما ذكره «جارفيس» قد تجاوزت المحيط الى جزر « فيتيان » (فيجيان) ، فمن المؤكد أن مثل هذه الأمواج قد أغرقت السهول الخصبة التى تقع على الجانب الشرقى من « فيتيليفو » التى تعد أكثر الجزر ازدحاما بالسكان • ولا يساورنا شك فى أن يغرق عدد كبير من السكان فى هذه الظروف ، وأن يهرب البعض فى قواربه ، ويلجأ الى جزيرة « مبينجا » الجبلية التى تقع بالقرب من هذه المنطقة •

ومثل هذا التفسير يمكن أن ينطبق بوضوح على سائر اساطير

الطوفان التى دونت فى جزر الباسفيك ، حيث ان هذه الجزر جميعا قد تعرضت على هذا النحو فيما يبدو ، الى غزو الأمواج العالية التى تتبع الهزات الأرضية • وقد يبدو أنه من الاسلم على الأقل ، فى حـــدود معلوماتنا الراهنة ، أن نقبل بصفة مؤقتة ، وجهة نظر العالم الاثنولوجى الأمريكى المرموق ، بدلا من أن نقبل نظرية عالم اثنولوجى ألمانى بارز نزع الى تفسير كل الحكايات البولوينزية بوصفهـــا أساطير تجسد حركة الأجرام السماوية هى الشمس والقمر والنجوم •

واذا كانت بعض حكايات الطوفان التى نشأت بدافع فيضان البحار تعتمد على هذا النحو ، على أساس تاريخى ، فليس هناك ما يمنع من أن حكايات الطوفان الذى تسبب عن سقوط الامطار الغزيرة ، ترتكزبالمثل على هذا الواقع الطبيعى • فها نحن هؤلاء الذين يسكنون البقاع المنبسطة من بريطانيا ، قد تعودنا حدوث فيضانات محلية تسببها الأمطار الغزيرة• فقد حدث ، على سبيل المثال ، منذ بضع سنين أن غمرت الميـــــاه التى تجمعت من سقوط مطر غزير مفاجىء كان أشبه بالوابل ،أجزاء كبيرة من « نورفولك » بما فى ذلك « نورويتش » • وبهذا السبب نفسه غرقت الأجزاء المنخفضة من « باريس » منذ بضعة ســـنوات مضت ، مخلفة الرعب والفزع لا بين ســـكان باريس وحدهم ، بل بين عشـــاق المدينة الجميلة فى جميع أنحاء العالم • ولعله من اليسير أن ندرك بعد هذا ، كيف يمكن أن تكبر ذكرى كارثة من هذه الكوارث بين شعب جاهل أمى لا يتجاوز تفكيره حدود رؤياه ، فتصبح فى خلال أجيال أسطورةتحكى عن طوفان عالمى لم يهرب منه سوى أفراد مفضلين بطريق أو بآخر • بل ان المسافر أو المقيم الأوربى الذى استمع من جماعة من البـــدائيين الى حكاية عن طوفان محلى صرف غرق فيه كثير من الناس ، يمكن أن يبالغ فيها الى حد كبير ، ويفسرها فىضوء حكاية طوفان نوح التى ألف هـــو نفسه أن يسمعها منذ صغره •

وعلى هذا النحو رأى بعض الباحثين أن يفسروا كلا من الحكاية

البابلية والعبرية عن الطوفان الكبير من خــلال ظاهرة الفيضــانات التى يتعرض لها وادى نهر الفرات ودجلة فى كل عام بسبب سقوط الأمطــار الغزيرة وذوبان الثلوج على جبال أرمينيا • فقد قيل ان أساس الحكاية البالية هى ظاهرة سقوط الأمطار وموسم العواصف فى كل عام ، تلك الأمطار والعواصف اللتان كانتا تدومان عدة شهور تغرق فى أثنائها أحياء كاملة فى وادى نهر الفرات • وقد كانت الأمطار والعواصف تسببان دمارا مروعا يستمر حتى ينتظم مجرى نهر دجلة والفرات مرة أخرى وتحل البركة محل اللعنة ، عندما يحل الخصب الذى اشتهرت به بلاد بابــل • وتذكرنا حكاية الطوفان العبرية بموسم بعينه حل فيه دمار ترك تأثيرا عميقا فى النفوس • وتؤكد مقارنة الحكاية العبرية بأختها البابلية التى عثر عليها دونة على ألواح الطين فى مكتبة آشور بانيبال ، وجهة نظر نشأة الحكاية محليا •

وبناء على هذا الفرض ، فان الطوفان الكبير قد تسبب عن سقوط أمطار غزيرة غير عادية وعن دوبان الثوج • ولم يكن هذا سوى صــورة غير مألوفة لظاهرة عادية • وقد ترك هذا الدمار الذى حل بالوادى أثرا لا يمحى فى ذاكرة الأحياء وذاكرة الأجيال من بعدهم • وقد يقال انه مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن كلا من الحكاية البابلية وأقدم صيغة للحكاية العبرية ، تؤكد أن السبب الوحيد الذى يعزى اليه حدث الطوفان هــو سقوط الأمطار الغزيرة •

ويمكن الاستشهاد كذلك ، تأييدا لهذه النظرية ، بما تتعرض اليه البلاد حتى اليوم من فيضانات خطيرة بسبب العوامل الطبيعية • فعندما وصل «لوفتوس» أول عالم آثار عمل فى حفريات مدينة «وركا» القديمة فى الخامس من مايو عام ١٨٤٩ م وجد أن السكان فى أقصى حالات الفزع وتوقع الخطر ، ففى أعقــاب ذوبان الثلج السريع على جبال الأكراد ، وتدفق المياه من نهر الفرات عبر قناة « السجلاوية» ارتفعت مياه دجلة فى ربيع هذا العام الى مستوى لم تصل اليه من قبل ، اذ بلغ ارتفاعها

العادى الذى كان يرتفع اليه النهر فى السنوات السالفة • بل انه ارتفع
عن أقصى منسوب وصل اليه عام ١٨٣١ م ، عندما حطم النهر الجسور ،
وأغرق مالا يقل عن ألف مسكن فى ليلة واحدة ، فى وقت كان الوباء ينشر
أكبر خراب مروع بين السكان • وقبل وصول البعثة الانجليزية ببضعة
أيام ، دعا الباشا التركى ، حاكم بغداد ، الشعب كله دعوة رجل واحد
ليقوم على حماية البلاد من الخطر الداهم بتشييد جسور حول الأسوار •
فغرس الناس فى الأرض جدائل من البوص لكى تمسك التربة مسكا
محكما ، وبذلك حيل بين الماء وبين تدفقه داخل البلاد ، وان كانت المياه
قد تسربت الى الأرض الطينية الرخوة وارتفعت فى المطامير الى عدة
أقدام • أما خارج المدينة فقد ارتفعت المياه الى قدمين فوق الشاطىء
ولم يحل دون تدفق المياه داخل البلد سوى البيوت التى كانت تقف على
الشاطىء ومعظمها كان واهيا ، بالغ القدم • لقد كان وقتا حرجا للغاية
ظل الناس فيه ساهرين ليلا ونهرا يرقبون الحواجز •ولو كان الخزان
أو احدى الحواجز قد فشلت فى حجز المياه ، لغرقت بغداد عن آخرها •
ولكن التحصينات صمدت لحسن الحظ حتى انحسرت المياه تدريجيا •
أما أطراف المدينة فقد غمرها الماء بحيث تعذر الوصول وراء الحواجز الا
عن طريق القوارب التى استخدمت وسائل انتقال فى الأماكن التى غمرتها
المياه • وهكذا ظلت المدينة لبعض الوقت كالجزيرة وسط بحر داخلى •
وقد استمر الحال على هذا النحو مدة شهر قبل أن يتمكن الناس من
السير وراء الحواجز • وعند مقدم الصيف تسببت الأبخرة المتصاعدة
من المياه المتراكمة فى انتشار الملاريا على نطاق واسع بحيث مات من
الناس الذين كان يبلغ عددهم سبعين ألفا ، مالا يقل عن اثنى عشر ألف
نسمة بسبب الحمى •

فاذا كانت الفيضانات التى تتسبب عن ذوبان الثلوج فوق جبال
ارمينيا من الممكن أن تهدد البلاد الواقعة فى وادى النهر حتى العصر
الحديث ، فليس بعيدا أن نفترض أنها كانت تفعل هذا أيضا فى العصور

القزيمة ، ومن ثم فان الحكاية البـــابلية التى حكت عن دمار مدينـــة « شورباك » بسبب الطوفان ترتكز على أصل واقعى • حقا انه يبدو أن المدينة قد دمرت بسبب النار لا الفيضان ، ولكن هـــذا يتفق تماما مع افتراضنا أن الفيضان كان قد دمر المدينة فى عصر أكثر قدما ، ثم أعيد بناؤها بعد هـــذا •

--

وفى العموم ، فانه يبدو أن هناك سببا معقولا يدعونا لأن نفكر أن بعض حكايات الطوفان ، ومن المحتمل الكثير منها ، ليست سوى أخبار مبالغ فيها عن الفيضانات التى حدثت بالفعل ، أما بسبب الامطار الغزيرة أو بسبب الأمواج الثائرة التى تعقب الهزات الارضية أو لأى سبب آخر• ومن ثم فان مثل هذه الحكايات تعد مزيجا من الحقيقة والأســـطورة • فهى حقيقية بقدر ما تحتفظ بذكرى الفيضانات التى حدثت حقا ، وهى أسطورية بقدر ما تصف الفيضانات العالمية التى لم تحدث قط • على أننا صـــادفنا فى أثنـــاء عرضنا لحكايات الطوفان ، حكايات ذات نزعة أسطورية صرفة ، لأنها تتحدث عن طوفان لم يحدث قط • ومثال ذلك الحكايات « الساموثراسيانية » و « الثيسالبانية » التى ربط الاغريق بينها وبين اسمى « داردانوس » و « دويكاليون » • ومن المحتمل أن الحكاية « الساموثراسيانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من المعالم الجغرافية الطبيعية للبحر الأسود وحدوده ، ونعنى البوسفور والدردنيل • وبالمثل فان الحكاية « الفيسالبانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من الحقائق الجغرافية الطبيعية لحوض تسيساليان الذى تحيط به سلسلة من الجبال ، ويحده أخدود « تيمبى » • ومثل هذه الحكايات ليست حقيقية وانما هى أسطورية صرفة ؛ فهى تصف كوارث لم تحدث على الاطلاق • ولهذا فهى تعد نماذج من هذا النوع من الحكايات الأسطورية التى أطلق عليها « سير ادوارد تايلور » ؛ الحكايات التليلية حيث انها تعتمد على ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وتخطىء فى تفسيرها •

وهناك مجموعة أخرى من حكايات الطوفان التى تندرج تحت صنف

الاساطير التليلية ،وهى تلك الحكايات التى تعتمد على ملاحظة المخلفات الحيوانية والنباتية التى عثر عليها فوق الجبال وفى الاماكن المنائية من البحر • ومثال هذا النوع كما رأينا ، ما روى عن سكان منغوليا وسكان « وسيلييس » الذين يتحدثون اللغة البارية ، والتاهيتيين والاسكيمو ، وسكان جرينلاند • فحيث أن هذه الحكايات تعتمد عى فرض خاطىء مؤداه أن مياه البحر لابد أنها ارتفعت حتى غمرت المرتفعات التى عثر فوقها على المخلفات الحيوانية والنباتية ، فهى تعـــد حكايات استلالال خاطئة ، أى أنها تندرج تحت صنف الأساطير التليلية • ولـــــو أنهم افترضوا هبوط هذه المرتفعات سالفا تحت سطح البحر ، لكان ذلك استلالالا حقيقيا ، أو حدسا علميا ••

ومن ثم فانه اذا كان هناك سبب معقول يجعلنا نعتقد أن كثيرا من حكايات الطوفان التى انتشرت فى انحاء العالم ترتكز على ذكرى كوارث حدثت بالفعل ، فانه ليس هناك أدلة مؤكدة تجعلنا نعتقد أن أيا من هذه الروايات أقدم من ثلاثة آلاف سنة على الاكثر • وحيثما وجدنا روايات تصف التغيرات الكبيرة التى طرأت على شكل الكرة الأرضية ، وهى تغيرات حدثت فى زمن ما فى العصور الجيولوجية القديمة ، فان تلك الروايات لا ترتكز على سجل شاهد عيان معاصر لتلك التغيرات ، وانما ترتكز على تأملات مفكرين عاشوا فى عصور متأخرة عن عصور هذه التغيرات بزمن طويل • فالانسان ، بالقياس الى الملامح الطبيعية الهائلة لكوكبنا الأرضى ليس سوى ابن الأمس ، كما أن ذاكرته ليست سوى حلم ليـــــلة ••

الفصل الخامس

برج بابـــل :

من بين المشكلات التى وقفت عقبة دون أية محاولة للبحث عن فجر تاريخ الجنس البشرى ، مسألة أصل اللغة وهى فى الوقت نفسه من أكثر المسائل اثارة وأكثرها صعوبة . على أن الكتاب الذين ضمنوا الفصول الاولى من سفر التكوين آراءهم الساذجة عن الأصول البشرية لم يذكروا شيئا عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد تصوروا أن الانسان قد حصل بهـــا على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان وهى القدرة على الكلام البين . بل انهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو ، أن الانسان قد منح تلك المقدرة التى لا تقدر بثمن ، منذ الأزل . نعم ، بل تصوروا أن هذه المقدرة كانت قاسما مشتركا بين الانسان والحيوان ، اذا كان لنا أن نستدل على ذلك من خلال حديث الانسان مع الحيوان فى جنة عدن . ومهما يكن الامر ، فان اختلاف اللغات التى تحدثت بها الاجناس الانسانية المختلفة ، قد جذبت بطبيعة الحـــال أنظار العبريين القدماء وفسروهـــا من خـــلال الحكاية التالية .

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة. ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من بابل ،وهناك حطوا رحالهم . وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن الصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين ، حيث انه كان يتعذر عليهم الحصول على الأحجار فى التربة الرخوة للمسطحات المستنقعية الشاسعة . على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، بل رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم . والسبب الذى دفعهم الى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامـــة

لهم من ناحية،وحتى لايتفرق الناس على سطح الأرض من ناحية أخرى •
ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول
المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج
وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سماء المساء البراقة•
أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس
الغروب • وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهذا المعلم
حتى يصل الى بيته• وقد كانت هذه الخطة سليمة ، لولا أنهم لم يكونوا
قد وضعوا فى حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم • فبينما كانوا يشيدون
البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة
والبرج الذى كان الناس يعملون به فى سرعة فائقة • فساءه هذا المنظر
وقال لهم : « ها هم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما
شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم » ويبدو أن الرب
كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء
يتسلقه الناس ويقضون مضجعه ؛ وهو الأمر الذى لم يفكر فيه
الناس • ولذلك فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى
مهدها • وقال لنفسه أو لجمعه السماوى « لنهبط الى الارض ونبلبل
لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » • وعند ذاك هبط الرب وبلبل
لغتهم وفرقهم على وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء
المدينة والبرج • وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة ،
لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعا •

وقد زخرفت رواية عبرية متاخرة هذه الحكاية البسيطة بتفاصيل
تصويرية غنية • من هذه التفاصيل نعلم أن فكرة تشييد برج
بابل لم يكن يقصد بها سوى التمرد على الاله، وان لم يتفق المتمردون
على هدف واحد • فبعضهم كان يرغب فى ارتقاء السماء واعلان الحرب
على شخص الاله ، واحلال أصنامهم محله • والبعض الآخر قصر هدفه
على فكرة أكثر تواضعا ، هى الحاق الضرر بالقبو السماوى ، وذلك
بضربه بالرماح والسهام • وقد ظل الناس يشيدون البرج عدة سنين

حتى شمخ عاليا ؛ وأصبح على البناء أن يقضى عاما كاملا فى سبيـــل الوصول الى أعلى البناء وهو يحمل وعاء الملاط فوق ظهره • فاذا هوى البناء ساقطا وكسرت رقبته ، لم يبال أحد بذلك ، انما ينفجر الجميع فى البكاء على الطوب الذى لم يستخدم فى استكمال بناء البرج ، اذ يتحتم عليهم أن ينتظروا عاما آخر حتى يتمكنوا من اضافة قوالب أخرى الى البناء • وقد كانوا يعملون فى حماسة بالغة الى درجة أن المرأة لم تكن تكف عن اعداد الطوب ساعة ولادة طفلها • فاذا ولدت الطفــل ربطته حول بطنها بملاءة واستأنفت عملها فى تشكيل قوالب الطوب وكأن شيئا لم يحدث • وهكذا استمر العمل ليل نهــار دون توان • وهناك من أعلى البرج صوبوا سهامهم نحو السماء ، فكانت سهامهم ترتد الى الذين يقفون أسفل البرج وهى ملوثة الدماء • وعند ذاك صاحـــوا قائلين • « لقد قتلنا كل من فى السماء » • وهنا نفذ صبر الرب وتوجه الى الملائكة السبعين الذين يحيطون بعرشه ، وأمرهم أن يهبطوا الى الأرض ويبلبلوا ألسنة الناس • وفعلت الملائكة ما أمروا به ؛ ونجم عن ذلك سوء تفاهم دائم ومؤلم بين الناس ؛ فاذا طلب رجل ، على سبيل المثال ، الملاط من رجل آخر ، قدم اليه هذا قالبا من الطوب بـــدلا من الملاط ، فيغضب الأول ويقذف بقالب الطوب فى وجهه فيقتله • وهكذا مات كثير من الخلق على هذا النحو • ومن لم يمت عاقبه الرب جزاء جريمة التمرد التى دبرت ضده • أما عن البرج الذى لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد ، فقد هوى جزء منه ، كما التهمت النار جزءا آخـــر ولم يظل واقفا منه سوى ثلثه • هذا ولم يفقد هذا المكان خاصيته العجيبة قـــط ، فكل من مر به نسى كل ما كان يعرفه •

ان مشهد هذه الاسطورة قـــد صور فى أرض بابل ؛ ذلك أن كلمة بابل هى الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه المدينة • أمـــا كون الكلمة هى الصيغة الشائعة المستخلصة من العقل « بلل » (بلبل بالآرامية) بمعنى بلبل ، فهذا خطأ • أما المعنى الحقيقى للكلمة ، كما يتضـــح من الصيغة التى دون بها الاسم فى المخطوطات فهو فيما يبدو « بوابة

الرب » (باب ــ ايل أو باب ــ ايلو) • وربما كان الشارحون على حــق فى ارجاع دافع الحكاية الأصلى الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقول البدو الساميين السذج • فهؤلاء الذين كانوا قــد أعتــادوا الوحــدة وسكون الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشــوارع والأسواق ، وبهرتهم الألوان المتغيرة فى الزحام المصطخب ، كمــا دهشوا لضجيج الأصوات التى تنطلق من السنة غريبة ، وذعروا لرؤية المبانى الشاهقة وبصفة خاصة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق وهى تعلو طابقا فوق الآخر حتى كانت تبدو قممها البراقة المبنية من الطوب المصقول وكأنها تمس صفحة السماء الزرقاء • وليس بعيدا بعــد هذا أن يتصور ساكنو الخيــام أن هــؤلاء الذين تسلقوا هذا البرج الهائل عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون فى النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ، أنهم كانوا قد اقتربوا من الآلهــه بحق •

ولا تزال الآثار الترابية لمعبدين هائلين من هذه المعابد ترى حتى اليوم فى بابل • ومن المحتمل أن أسطورة برج بابل تتصل باحدى هذه المعابد أو بالآخر • ولا يزال أحد هذين المعبدين يبرز بين حطــام بابل نفسها ويحمل اسم بابل • أما المعبد الآخر فيقع حطامه عند النهر قرب « بورسيبا » على بعد ثمانية أو تسعة أميال جهة الجنوب الغربى ويعرف باسم « بيرز نمرود » • وقد كان الاسم القديم لهذا المعبد الذى كان يقع فى مدينة بابل ، هو « أى ــ ساجيل » [1]،وكان مخصصا لعبادة الاله « مردوك » • أما الاسم القديم للمعبد الذل كان يقع قــرب « بورسيبا » فهو « اى ــ زيدا » وكان مخصصا لعبادة الاله « نبو »• ولم يتفق الباحثون حول أى من المعبدين كان فى الأصل هو برج بابل ، فالحكاية المحلية واليهودية تربط بين البرج الأسطورى وحطام«بئر نمرود» الذى يقع عند « بورسيبا » • ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه فى هذا المكان ، أن الملك البابلى القديم الذى بدأ فى بناء بــرج

(١) كلمة أى فى اسمى المعبدين سومارية ومعناها بيت •

المعبد عند « بورسيبا » ، تركه ناقصا بدون قمة • وربما كان منظر هذا الصرح الهائل فى شكله غير المكتمل هو الدافع وراء نشأة اسطورة برج بابل ••

وعلى كل ، فقد كان فى بابل الكثير من أبراج المعابد ، وربما كانت الأسطورة ترتبط بأحد هذه الأبراج • فحطام مثل هذه المعابد ، على سبيل المثال ، لا يزال قائما فى « أورو » أو « أور الكلدانيين » التى هاجر منها ابراهيم ، فيما يقال ، الى أرض كنعان • ويعرف هذا المكان الآن باسم « المقير » أو « المجير » وهو يقع على الشاطىء الأيمن لنهر الفرات على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق بابل • ولا تزال مجموعة من الروابى المنخفضة ذات الشكل البيضاوى تشير الى مكان المدينة القديمة • وأرض هذه المدينة التى تلتف حول الروابى مسطحة للغاية بحيث ان مياه فيضان نهر الفرات كثيرا ما تغمرها فى الفترة ما بين شهر مارس الى شهر يونيه أو يوليه • وعند ذاك تبرز هذه الروابى كالجزيرة وسط مستنقع كبير ، ولا يمكن الوصول اليها الا بواسطة القوارب • وتمتد أشجار النخيل على طول شاطىء النهر دون انقطاع حتى تختفى فى الخليج الفارسى • وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا المكان ، تشمخ أطلال برج المعبد الى ما يقرب من سبعين قدما • ويتكون هذا الصرح من طابقين فى شكل متواز قائم الزوايا يتجه جانباه الكبيران جهة الشمال الشرقى والجنوب الغربى ويبلغ طول كل منهما حوالى مائتى قدم • أما الجانبان الأصغران فيبلغ طول كل منهما مائة وثلاثين قدما • وتتجه احدى زوايا الصرح جهة الشمال تقريبا ، كما هو الحال فى جميع الابنية المماثلة له • ويرتكز الطابق الأسفل الذى يبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين قدما على دعائم قوية • أما الطابق العلوى الذى يبتعد عن طرف الطابق الأسفل بحوالى ثلاثين الى سبعين قدما ، فيبلغ ارتفاعه أربعين قدما وتتوجه أنقاض من الطوب يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام على وجه التقريب • أما مرتقى هذا الصرح فقد كان من جهة الشمال الشرقى • ويشير نفق محفور فى

الرابية الى أن الصرح كله كان مبنيا من الداخل من الطوب المجفف فى الشمس ، تحيط به طبقة سميكة بعضها من الطوب المحروق ذى لــون أحمر فاتح ؛ وتفصل بين بعضه وبعض عيدان الغاب . ويبلغ سمك هذا كله عشرة أقدام حيث انه مغلف بحائط مرصع بالطوب المحروق فى الأفران . وقد عثر على سطوانات محفور عليها كتابات فى الزوايا الأربع من هذا المبنى ، وكل اسطوانة كانت موضوعة فى كوة هى عبارة عــن قالب منزوع من الطوب . وقد أثبتت الحفريات التى تمت بعد ذلك أن الكتابات التذكارية على هذه الاسطوانات ، فيما يبدو ، كان البناءون أو الذين يقومون بترميم المعابد البابلية والقصور يضعونها فى أركان الصروح الأربعة .

وقد علمنا من احدى هذه الكتابات أن المدينة اسمها « أور » ، وأن المعبد قد خصص لعبادة الاله « سين » اله القمر البابلى (١) . كما علمنا أن الملك أور ــ أوك أو «أورينجور» ، كما ينبغى ان ينطق اسمه الذى شيد برج المعبد ، قد تركه غير كامل ، وان هذا الصرح قد أكمله ابنه الملك « دونجى » من بعده . ويختلف تاريخ حكم الملك « أور ــ أوك » أو « أورينجور » ؛ فهو يتحدد بعام ٢٧٠٠ ق.م. أو بعام ٢٣٠٠ ق.م. وفى كلتا الحالتين فان بناء المعبد قد سبق التاريخ الذى يحدد عادة لميلاد ابراهيم ، ربما بمئات من السنين . فاذا كان ابراهيم قد هاجر حقا من « أور » الى « كنعان » ، كما تذكر ذلك الرواية العبرية؛ فان هذا البناء بعينة الذى ما تزال آثاره المقدسة قائمة بهــذا المكان حتى اليوم ؛ والذى كان مسيطرا بارتفاعه الشامخ على طبيعة البلاد المسطحة التى يخترقها نهر الفرات متجها الى البحر ــ كان يألفه ابراهيم منذ نعومة أظفاره ، وربما كان آخر ما وقـــع عليه بصره فى بلــده ؛ عندما رحل ليبحث عن أرض الميعاد ؛ فودعه وهــو ينظر وراءه الى وطنه ، والصرح يختفى على البعد وراء غابات النخيل .

---

(١) هو الاله الذى تحمل اسمه شبه جزيرة سيناء فى الأراضى المصرية .

ولم يذكر كاتبو سفر التكوين شيئا عن طبيعة اللغة المألوفة التى كان يتحدث بها الجنس البشرى كله قبل أن تتبلبل السنته ، تلك اللغة التى يفترض أن أبوينا الأولين قد تحدثا بها مع بعضهما بعضا ، ومع الحية ، ومع الرب فى جنة عدن • وقد افترض جدلا فى العصور المتأخرة أن اللغة العبرية كانت هى الأولى للجنس البشرى • ويبدو أن آباء الكينسة لم يعارضوا هذا الرأى • وفى العصر الحديث عندما كان علـــم اللغة ما يزال فى مهده نشيطا وان كان ناقصا ، بذلت الجهود لارجاع كل أشكال اللغات الانسانية الى اللغة العبرية على اعتبار أنها أصل هذه اللغات • ولم يختلف الباحثون المسيحيون فى تبنى هـــذا الفرض الساذج ، عن علماء الأديان الاخرى ، الذين رأوا أن لغة كتبهم المقدسة لم تكن لغة آبائهم الأولين فحسب ، وانما كانت لغة الالهة أنفسهم • وقد كان أول من وخز هذا الرأى بطريقة مؤثرة هو «ليبنتز » ، الذى لاحظ « أنه كما أن هناك من الأسباب مايدعو لافتراض أن اللغة العبرية هى اللغة الاولى للجنس البشرى ، فان هناك من الأسباب كذلك مـــا يدفعنا الى تبنى وجهة نظر « جوروبيوس » الذى نشر مؤلفـــا فى « آنتويرب » عام ١٥٨٠ يثبت فيه أن اللغة الهولندية هى اللغة التى كان يتحدث بها آدم فى الجنة » وهناك كاتب آخـــر ادعى أن اللغة التى كان يتحدثبهاآدم فى الجنة هى اللغة الباسكية (١)•وتحدى آخرون الكتاب المقدس صراحة وادعو أن اللغات المختلفـــة كانت موجودة فى جنة عدن نفسها ، فآدم وحواء كانا يتحدثان اللغة الفارسية ، كما كانت الحية تتحدث اللغة العربية وأما جبرائيل الملك المفضل فقـــد تحدث مع أبوينا الأولين باللغة التركية • وهناك باحث شاذ آخـــر ، يرى جديا أن الرب قد تحدث الى آدم باللغة السويدية ، وان آدم أجاب خالقه باللغة الدانمركية وان الحية تحدثت مع حواء باللغة الفرنسية كل هذه النظريات منشؤها التعصب الوطنى والتنافر بين علمـــاء اللغات •

---

(١) الباسكيون هم شعب مجهول الأصل يقطن مناطق البرانس الغربية .

وتحكى قبائل افريقية عديدة حكايات تتشابه مع أسطورة برج بابل فى وجوه محدده • فبعض أهالى زمبيزى الذين يسكنون فيما يبدو بجوار سلالات فيكتوريا ، يحكون حكاية تتصل بحكاية بناء برج بابل لكنها تنتهى بأن البنائين الجرآء انفلقت رءوسهم عندما سقطت بهم السقالات » وهذه الحكاية التى رواها دكتور « لفنجستون » بايجاز ، دونها مبشر سويسرى فى شكل أكثر اكتمالا • فقبيلة « أ ـ لوبى » التى تسكن عند أعالى نهر الزمبيزى، تحكى أن آلههم ، نيان بى « الذى يعد اله الشمس عندهم ، تعود فى سالف الزمن أن يسكن فى الأرض ، ثم صعد الى السماء بعد ذلك متسلقا خيوط العنكبوت • وهناك تحدث الى الناس من عليائه وقال لهم آمرا : « اعبدونى » • فتحدث الناس الى بعضهم بعضا وقالوا : « دعونا نقتل الاله نيانبى » • فذعر الاله لتهديدهم ولاذ هاربا الى مسكنه السماوى الذى كان قد هبط منه من قبل • وعند ذاك قال الناس : « لتنصب الآن أعمدة نصل عن طريقها الى السماء » فنصبوا أعمدة ربطوها بأعمدة أخرى تعلوها ثم أخذوا يتسلقونها • فما أن وصلوا الى ارتفاع كبير حتى سقطت بهم الأعمدة ، وهووا صرعى الى الارض ، وكانت هذه هى نهايتهم • وتحكى قبيلة « بامبالا » التى تسكن فىالكنغو ، أن « الوانجونجيين » رغبوا ذات مرة أن يروا القمر على حقيقته • فدكوا عمودا فى الأرض تسلقه رجل يحمل عمودا آخر فى يده ثبته فى نهاية العمود الأول ، ثم صعد رجل آخر يحمل عمودا ثالثا ثبته فى العمود الثانى ، وهكذا حتى وصل البرج الى ارتفاع كبير للغاية بحق ، اذ أن كل فرد من أفراد الشعب تسلق ومعه عمود ربطه بالعمود الأخير • ثم هوى هذا الصرح فجأة ، فهوى الأهالى صرعى وراحوا ضحية حب استطلاعهم الطائش • ومنذ ذلك الوقت لم يحاول أحد أن يتعرف على القمر • ويحكى أهالى « مكولوى » الذين يسكنون فى شرق أفريقيا حكاية شبيهة بالحكاية السالفة • فقد قال الناس ذات يوم لبعضهم بعضا ، وذلك وفقا لرواية هؤلاء الاهالى :

« دعونا نبنى بناء عاليا حتى نصل الى القمر » • وعنـــد ذاك غرسوا شجرة ضخمة فى الأرض ، ووضعوا فوقها شجرة ثانية وثالثة وهكذا حتى هوت بهم الاشجار وقتل بعض الاهالى • فقال بعضهم الاخر: « لا تيأسوا من هذه المحاولة » • فرصوا الاشجار بعضها فوق بعض حتى هوت بهم وقتلوا هم كذلك • وعند ذاك كف الناس عن محاولة الصعود الى القمر • ويحكى الأشانطيون أن الاله القديم كان يعيش بين الناس ، ولكن امرأة عجوزا الحقت به الاهانة ، فصعد غاضبا الى مسكنه فى السماء • فحزن الناس لفراقه وقرروا أن يبحثوا عنــه • فأخــذوا يجمعون أرجل الخنازير ورصوا بعضها فوق بعض • فلمــا علا برجهم وكاد أن يصل الى السماء ، اكتشفوا فى فزع أن ما لديهم من أرجل الخنازير لا يكفى لاتمام البرج • فماذا يفعلون؟ عند ذاك هب رجل حكيم وهم فى هذا المأزق ، وقال لهم : « ان المســـألة فى غاية البساطة • خذوا الرجل السفلى وضعوها فوق العليا ، واستمروا فى هذا الفعل حتى نصل الى الاله » • فلما بدءوا ينفذون اقتراحـــه ، وانتزعوا الرجل السفلى ، هوى البرج كما يمكن أن نتوقع • على أن بعض الأهالى يعزون سقوط البرج الى النمل الأبيض الذى أخذ يقرض الارجل من أسفل • وعلى كان فان الاتصال بالسماء لم يتم ولم يتمكنـــوا قط من الصعود الى الاله •

ويحكى فى المكسيك عن بناء هرم « كولولا » ، أضخم عمل للسكان الأصليين فى أمريكا بأسرها ، حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس عن برج بابل • ويقع هذا العمل الضخم الذى مازال المسافر فى العصر الحديث يقف أمامه متأملا اياه فى اعجــاب ، بالقرب من المدينة الحديثة الأنيقة « بوبيلا » ، فى الطريق من « فيراكروز » الى العاصمة • هذا الهرم يشبه فى شكله الاهرام المصرية ، ولكنه يضارعها فى أبعاده • ويبلغ ارتفاع سطحة المنحدر حوالى مائتى قدم ، أما قاعدته فيبلغ طولهــا ضعف قاعدة هرم خوفو • ويتخذ هذا الهرم شكل الـ « تويكاليس » المكسيكى ، أى أنه هرم اقطع • وتتجه جوانبه الاربع نحو الجهــات

الأصلية ، كما أنه يتكون من أربعة مصاطب . على ان خطوطه الأصلية انمحت بمرور الزمن وبتأثير الجو ، بينما أصبحت الشجيرات الكثيفة والأشجار تغطى سطحه ، بحيث يبدو وكأنه تل طبيعى أكثر منه رابية صنعتها يـــد الانسان . وهذا الهرم مشيد من الطوب الأحمر الملصوق بالملاط الذى عشقت فيه قطع الأحجار الصغيرة وأجزاء من السكاكين والأسلحة المصنوعة من الزجاج البركانى الاسود . وبين قوالب الطين وضعت طبقات من الصلصال . وتطل قمة هذا الهرم المسطحة التى تبلغ مساحتها حوالى الفدان على منظر رائع ، هـــو منظر الوادى الخصب المترامى الأطراف الذى تحيط به الجبال البركانية الضخمة التى تغطى منحدراتها المنخفضة الغابات الكثيفة . أما قمتها الرخامية فهى عارية ومجدبة ، وتغطى أعلى أجزائها الثلوج على مدار السنة .

وقد دون المؤرخ الأسبانى «دوران» الأسطورة التى تتعلق بهذا الصرح الضخم فكتب عام ١٥٧٩ يقول : « فى بداية خلق الحياة ، كانت الأرض مظلمة عابسة قبل أن تخلق الشمس والقمر ؛ كما كانت خلوا من كل المخلوقات ومسطحة ليس بها جبال أو تلال أو أشجار وتحيط بهـــا المياه من كل جانب . فلما خلقت الشمس وبزغت من الشرق ، ظهر بعض الناس على سطح الأرض فى هيئة شياطين غلاظ وأصبحوا أصحاب الأرض . ثم دفعهم الفضول لأن يبصروا الشمس وهى تشرق وتغرب . فاتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا للبحث عنها . فقسموا أنفسهم الى مجموعتين ، المجموعة الأولى اتجهت الى الشرق والأخرى الى الغرب وظلوا سائرين حتى وقفوا عند شاطىء البحر . وعند ذلك قرروا أن يعودوا منحيث أتوا . فوصلوا الى المكان الذى يسمى « ازتاكشولين أنيمينيان» .ولما احتاروا فى طريقةتوصلهم الى الشمس التىاستمتعوا بدفئها وجمالها ، قرروا أن يشيدوا برجا عاليا تصل قمته الى السماء . وبينما كانوا يبحثون عن مواد للبناء عثروا على طين وقار ســـــميك استعانوا بهما على العمل فى تشييد البرج . فلما ارتفعوا به عاليا حتى كاد أن يصل الى عنان السماء ، غضب منهم الاله وقال لساكنى الجنة:

هل رأيتم كيف شيد سكان الأرض هذا البرج الشامخ وأصابهم الزهـو فشاءوا أن يتسلقوه اذ بهرتهم الشمس بضوئها وجمالهـا ؟ دعونا الآن نفرقهم فى الأرض ، اذ لايصح أن يختلط بنا البشر بأجسامهم الدنيوية » • وفى لمح البصر كان سكان السماء منتشرين فى جهـات الأرض الأربع ، وحطموا الصرح الذى شيده الناس بضربة كالصاعقة • عند ذاك فزع هؤلاء العمالقة وملأهم الرعب وتفرقوا فى كل جهـات الأرض •

ولايتمثل تأثير حكاية الكتاب المقدس على هذه الحكاية فى تفـرق مشيدى البرج فى انحاء العالم فحسب ، وانما يتمثل كذلك فى بنـاء البرج من الطين والقار • اذ بينما نجد أن برج بابل قد شيد ، كمـا قيل ،من هاتين المادتين ،نجد أن المكسيكيين لم يستخدموا قط مادة القار فى مثل هذا الغرض ، هذا فضلا عن أن القار لا وجود له فى أى مكان قريب من « كولولا » •« على أنه يبدو أن حكاية بلبلة الألسنة قد انتشرت فى المكسيك بعد غزو الأوربيين لها بزمن قصير ، اذ أنه من المحتمل أنها قد ذاعت بتأثير المبشرين • ولايبدو أن الحكاية العبريـة لها صـلة بأسطورة برج « كولولا » • ولكنه من المحتمل على الأقل أن هنـاك حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس مدونة فى قائمة « جيميلى » للمهاجرين المكسيكيين ، تلك القائمة التى نسخت فى « هومبولت » • وتحكى هذه الحكاية أن طائرا كان يقف على شجرة أرسل عددا من اللغات الى حشد من الناس كانوا يقفون أسفل منه » • وربما كان « تايلور » على حـق فى اتهام أسطورة « كولولا » بأنهـا « ليست أصيلة ، أو أنهـا على الأقل جزء من تلفيق متأخر » •

وربما انطبق مثل هذا الحكم على حكاية تروى عن قبيلة «كارن» فى « بورما » ، وهى قبيلة أبدت ميلا غريبا لاستعارة الحكاية المسيحية بعد أن كانت تخلع عليها طابعا محليا شفافا • وتجرى حكاية بـرج

بابل كما ترى عن «الجايكهووبين » ، وهم فرع من هذه القبيلة ، على النحـو التـــالى :

« يرجع « الجايكهوويون » سلسلة نســبهم الى آدم • وعندما بنى برج بابل كان قد تناسل منهم ثلاثون جيلا ، وفى هذا الوقت انفصلوا عن « الكاريين الحمر » • وفى عصر « بان ــ ان ــ مان » ، استقر رأى هؤلاء على أن يشيدوا هيكلا متعدد الأدوار يصل الى عنان السماء • أمـــا المكان الذى شيد فيه هذا الهيكل فهو ، فيما يرون ، كان يقع فى مكان ما فى بلاد « الكاريين الحور » • وقد كان الكاريون ، كمـــا يذكرون ، على صلة بهذا المكان حتى زمن حادث هذا البرج • ولمـــا أتموا بناء نصف هذا الهيكل ، هبط الاله من السماء وبلبل السنةالناس، بحيث لم يعــد بعضهم يفهم البعض الاخر • ومن ثم تفرق الناس ، واتجه « ثان ــ ماو رأى » جد قبيلة « جايكو » جهة الغرب ومعـــه ثمانية من الزعمـــاء ، واستقر فى وادى « سيتانج » •

وقد عادت حــكاية برج بابل وبلبلة الألسن الى الظهور بين قبيلة « ميكير » احدى قبائل « التبت البورمانية » المتعددة التى سكنت فى أسام •فهم يقولون أن نسل « رام » كان قويا فى الزمن القديم • ولما لم يقتنع هؤلاء بسيادتهم على الأرض ، فكروا فى غزو السماء • ومن ثم فقد بدءوا فى تشييد برج يوصلهم الى السماء • وأخذ البرج يعلو تدريجيــا حتى خشـــيت الآلهة والشياطين أن يسيطر هؤلاء المردة على السماء كما سيطروا من قبل على الأرض الأربعة • فبلبلت الآلهة ألسنتهم وشتتهم فى أركان الأرض الأربعة • ومن ثم فقد تعددت لغات الجنس البشرى • ومرة أخرى نجد الحكاية القديمة بعينها تنتشر فى شـــكل خفى بعض الشىء بين « الأيســلنديين » و « الأ ميراليين » فهم يقولون : ان تعداد أسرة أو قبيلة « لوهى » كان يبلغ مائة وثلاثين نسمة ، وكان زعيمهم يسمى « مويكيو » • ثم قال هذا الزعيم لقومه « دعونا نشــيد بيتا يطــاول السماء » • فبدأوا فى تشـــيد هــذا البيت • وما كادوا يقتربون من السماء حتى أتاهم رجل من « كالى »

يدعى « بواوى » منعهم من الاستمرار فى بناء البيت وقال « لمويكيو » : « من الذى أمرك أن تشيد بيتا عاليا على هـذا النحو ؟ » • فأجـاب مويكيو اننى زعيم اللوهيين • ولقد قلت لقومى : « دعونا نشيد بيتا يطاول السـماء » • ولو كنت طوع ارادتى ، لشـيدت بيوتنـا جميعا عالية تطاول السماء • أما الآن ، فقد نفذت رغبة قومى ، وأصبحت البيوت منخفضة » • وبعد أن انتهى من كلامه نثر الماء على قومه ، فتلبلت السنتهم ، ولم يعد الواحد منهم يفهم الآخر ، وتفرقوا فى بقاع الأرض ، وبذلك أصبح لكل بلد لغته • وقد لايساورنا أدنى شك فى أن هذه الحكاية ليست سوى صدى لتعاليم المبشرين المسيحيين •

على أن هناك غير قليل من الشعوب حاولت أن تفسر اختلاف اللغات عن طريق حكايات لا تمت لحكاية برج بابل بسبب أو بأية حكاية أخرى تشبهها فى تكوينها المعمارى • فقد حكى الاغريق أن النـاس عاشوا أحقابا طويلة فى سلام • ولم يكونوا آنذاك يعيشون فى مدن أو يحكم بينهم قانون سوى حكم الاله زيوس ، ولا يتحدثون سوى لغة واحدة • ولكن الاله «هرمس» ، جعل لغة الناس مختلفة فقسم الجنس البشرى الى شعوب • فلما دب النزاع بين الناس فى بادىء الأمر ، استاء « زيوس » لخلافاتهم ، فاعتزل العرش وتركه للبطل اليونانى « قورونيوس » ، أول ملك حكم من بين النـاس • وتحكى قبيلـة « واسانيا » التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية ، أن القبائل كلها لم تكن تتحدث فى الزمن القديم سوى لغة واحدة • ثم حدثت مجاعة قاسية أصابت الناس بالجنون ، فتفرقوا فى كل بقاع الأرض وهـم يثرثرون بألفاظ غريبة ، فنشأت اثر ذلك اللغات المتعددة • وتفسر قبيلة « كاشاناجاس » ، وهى قبيلة تسكن التلال فى أسام ، اختلاف اللغات على نحو آخر • فقد كان الناس جميعا ، وفقا لروايتهم ، جنسا واحدا قدر لهم بعد ذلك أن ينقسـموا الى أمم متعددة • وقد كان للملك الذى كان يحكم بين الناس ابنة تدعى « ستيولى » ، وكانت تتميز بسرعة معجزة فى السير • وكانت«ستيولى»تحب التجول فى الأحراش طوال النهار بعيدا

عن البيت ، الأمر الذى كان يسبب قلقا لأبويها ، اذ كانا يخشيان أن تفترسها الوحوش • وذات يوم فكر أبوها فى حيلة ليبقيها فى البيت ، فأرسل فى طلب سلة مملوءة ببذر الكتان ، ثم نثر الحب على الأرض ، وأمر ابنته أن تجمع البذور بذرة بذرة وتضعها فى السلة وتعدها فى الوقت نفسه • ثم تراجع عنها وهو يحسب أن هذا العمل سيشغلها اليوم كله ولكن الفتاة فرغت من العمل عند الغروب • وعدت الحبوب ووضعتها فى السلة ، ثم أسرعت على التو الى الأحراش فلما عاد والداها وتفقداها ، لم يعثرا لها على اثر • فأخذا يبحثان عنها أياما عديدة حتى اعترض طريقهما تنين مهول كان يأكل فى نهم فى ظل الأشجار • فاجتمع الناس حول التنين وطعنوه برماحهم وسيوفهم • وما أن فعلوا هذا حتى تغيرت أشكالهم ووجدوا أنفسهم يتحدثون لغات مختلفة • ثم انفصلت كل جماعة تتحدث لغة واحدة عن الجماعات الأخرى ، وأصبحت هذه الجماعات المختلفة اجدادا للأمم المختلفة التى تعيش الآن على وجه الأرض • على أن الحكاية لم تذكر شيئا بعد هذا عن الأميرة ومصيرها وعما اذا كانت قد عادت لوالديها الحزينين أم أن التنين قد ابتلعها •

ويفسر « الكوكيون » فى « مانيبور » وهم عنصر آخر يسكن تلال « أسام » ، اختلاف اللغات فى قبائلهم من خلال الرواية التالية : كان ثلاثة أحفاد لزعيم بعينه يلعبون معا ذات مرة داخل البيت ، عندما طلب منهم جدهم أن يصطادوا له فأرا • وبينما كانوا منصرفين الى اصطياد الفار أصيبوا بلعثمة فى ألسنتهم ، وأصبح كل منهم يتحدث لغة لا يفهمها الآخر ، ولذا فقد هرب منهم الفأر • أما أكبر هؤلاء الأخوة فقد تحدث اللغة « اللاميانجية » ، وأما الأوسط فقد تحدث اللغة « التادوية » • وأما الثالث فقد قيل أنه تحدث اللغة « الوفيبية » ولكن البعض يعتقد أنه قد تحدث بلسان « انكونترباى » التى تسكن فى جنوب استراليا أصل اللغات الى امرأة عجوز حادة المزاج ، توفيت منذ زمن بعيد • وقد كان اسم هذه المرأة « وروري » ، وكانت تسكن جهة الشرق ، وتسير فى العادة وهى تحمل عصا فى يدها تفرق به النار التى ينام الناس من حولها • فلما ماتت ابتهج الناس لتخلصهم منها ، الى درجة أنهم أرسلوا الرسل فى كل مكان لتعلن نبأ وفاتها •

ومن ثم فقد اجتمع الرجال والنساء لا لتأبينها ، ولكن ليبتهجوا بموتها ويقيمون وليمة كانيبالية • كان « الرامينجيراريون » هم أول من سقطوا على الجسد وأخذوا يلتهمون لحمه • وما كادوا يفعلون هذا ، حتى أخذا يتحدثون لغة واضحة • أما القبائل الأخرى التى كانت تسكن جهة الشرق ، فقد وصلت متأخرا ، ومن ثم فقد أخذت تلتهم الأمعاء ، ولهذا فقدأخذت تتحدث بلغة تختلف بعض الشيء عن لغة القبيلة الأولى وما لبثت أن وصلت القبائل التى تسكن جهة الشمال فى نهاية الأمر ، فأتت على سائر الأمعاء وما تبقى من الجسد ، فتحدثت بلغة تختلف عن لغة « الرامينجيراريين » • أكثر من اختلاف لغة القبائل الثانية منها •

ويحكى الهنـــود المانديون فى كاليفورنيا أن الناس جميعـــا كانوا يتحدثون لغـــة واحـــدة حتى زمن معـــين • وبينما كان الناس يشعلون النار ، وكان كل شىء معدا لليوم التالى ؛ أخـــذ كل منهم فى الليل يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان كان كل زوجين كانا يتحدثان بلغة واحدة • وفى تلك الليلة ظهر الاله الذى يسمونه « الأرض الأول » لرجـــل بعينه اسمه « كوكسى » ، وأخبره بما حدث ، وأرشده الى ما ينبغى عمله فى اليوم التالى عنـــدما يبدأ الناس يتحدثون لغـــات مختلفة• ومن ثم فقد جمع « كوكسى » الناس جميعا وتحدث اليهم ، اذ كان يعرف اللغات جميعا ، فعلمهم أسماء الحيوانات المختلفة ، وغيرها من أسماء الأشياء باللغات المتعددة كما علمهم كيف يطهون طعامهم ويقتنصون حيواناتهم ، وشرع له القوانين ، وحدد لهم أوقات الرقص والاحتفالات• ثم سمى كل قبيلة باسمها ووزعم فى جهات الأرض المختلفة بعد أن حدد مكانا لسكنى كل منها • قد سبق أن رأينا أن « التيلينجيين » فى «ألاسكا» يفسرون اختلاف الالسنة من خـــلال حكاية الطوفان التى ربما أخذوها عن المبشرين المسيحيين أو من التجار • وقد حكى « الكويتشيون » فى « جواتيمالا » عن زمن ما فى بداية الحياة ، كان الناس فيه يعيشون معا ويتحدثون لغة واحدة ، ولا يعرفون آنذاك عبادة الحجر أو الخشب، ولا يذكرون سوى كلمة الخالق « قلب السماء والأرض » •وبمرور الزمن

تكاثرت القبائل وتركوا موطنهم الأصلى ووصلوا الى مكان يســمى « تولان » • وهناك فى المكان ، وفقا لرواية « الكويتشيين » تغيرت لغة القبائل ، ونشأت اللغات المختلفة • وعند ذاك لم يعد الناس يفهم بعضهم وتفرقوا فى بقاع الأرض بحثا عن مساكن جديدة لهم •

هذه الحكايات الأخيرة التى تنحو الى تفسير اختلاف الالسنة لا تمت بحكايات برج بابه بسبب • ومن ثم فاننا يمكننا أن نعدها باستثناء الحكاية التيلنجية ، حكايات مستقلة حاول العقل الانسانى عن طريقها أن يتصارع مع المشكلات المعقدة ، مهما يكن مقدار النجاح الذى أحرزه فى ســـبيل حلهـا •

فهـــــــــرس

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة بقــلم المترجمة	٣
مقدمة الطبعة المختصرة	٢٣

رقم الايداع ١٦٥٢ لسنة ١٩٨٢

چيمس فريزر

الفولكلور في العهد القديم (التوراة)

الجـــزء الثانى

ترجمة: د. نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج٠م٠ع

الباب الثانى

عصـــر الأنبيـــاء

الفصل الأول

ميثــاق ابراهيم

يختتم سفر التكوين التاريخ العام للجنس البشرى فى العصور الأولى منذ بدء الخليقة بحكاية برج بابل ، وتفرق الناس فى شــــتى بقاع العالم من هذا المركز الذى كانوا يجتمعون فيه. ثم يضيق الكتاب نطاق حكاياتهم ويركزها حول الشعب العبرى وحده . وهنــا يتخذ التاريخ شكل سلسلة من التراجم يصور من خلالها مصير هذه الأمة لا فى هيئة خطوط باهتة عامة ، وانما فى مجموعات من الصــــور الملونة البراقة التى تســــجل مغامرات الرجال الأفراد ، أجــــداد هذا الجنس . والوحدة التى تربط بين حياة الشيوخ الأجداد ليست مجرد سلسلة من الأنســـــاب ، وانما تربط بين هؤلاء الأجداد المصــــالح المشتركة بقدر ما تربط بينهم رابطة الدم ، فقد كان هؤلاء الشيوخ جميعا بدوا رعاة يتنقلون بقطعانهم من مكان لآخر بحثــــا عن المرعى الخصب ،ولم يكونوا قد ركنوا بعد لحياة الزراعة الرتيبة ، وفى نفس الحقل الذى كان يعمل فيه آباؤهم وأجدادهم من قبل .. وباختصار فان كتاب سفر التكوين يصورون عصر الرعى بملامح واضحة وألوان حية لم يعتمها الزمن ، وما تزال هذه الملامح تأسر القارىء بسحرها الذى يفوق الوصف على الرغم من التغييرات التى عشناها فى حياتنا الحديثة . ويتصدر هذا المعرض التصويرى الذى صـــــورت مناظره بخلفية من الطبيعة الهادئة ، شخصية ابراهيم الجليلة . فبعد أن ترك ابراهيم بابل ، موطن ميلاده ، قيل انه رحل الى أرض كنعان . وهناك ظهر له الرب وأكد له المستقبل الباهر والمجد لبنى جنسه . ولكى يؤكد الرب هذا الوعد لابراهيم ، ارتضى ، كما قيل ، أن يعقد بينه وبين

ابراهيم عهدا مقدسا ، متبعا فى ذلك كل المظـاهر المألوفة التى كانت تتبع بين الناس فى مثل هذه الظروف • وتقدم لنا حكاية هذا العهـد لمحة ممتعة عن الوسيلة التى كان يتبعها المتعاهدون فى المجتمع البدائى بقصد انجاز عقد ملزم بين الطرفين المتعاقدين •

فنحن نقرأ فى سـفر التكوين أن الرب أمـر أبراهيم قائلا : « لتضح لى ببقرة عمرها ثلاث سنين ؛ ونعجة عمرها ثلاث سنين وكبش عمره ثلاث سنين ويمامة وحمامة صغيرة » • فأخذ ابراهيم البقرة والنعجة والكبش ، وشطر كلا منها الى شطرين ووضع كل شطر على الشطر الآخـر • أما اليمامة والحمامة فلم يشـطرهما وعندما تزاحمت الطيور الجارحة على لحم الذبائح طردهـا ابراهيم • وبينما كانت الشمس تغرب ، راح ابراهيم فى نوم عميق وقد تملكه الفزع من الظلام الحالك • فلما غربت الشمس تماما وأظلم الكـون ، أبصر ابراهيم أتونا يتصاعد منه الدخان ؛ وشعلة من النار تمر بين أجزاء الضحية ، وهنا أعلن الرب عهده لابراهيم •

ونلاحظ من خلال هذا الوصف أن الفزع الذى انتاب ابراهيم عند مغيب الشمس كان نذيرا بقدوم الرب الذى مر بين أجزاء الضحية فى هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار • وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقاليد الشرعية التى كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق على العهد • فنحن نعرف عن النبى « ارميا » أنه كانت من عادة الطرفين المتعاهدين أن يذبحوا بقرة يشطرونها الى شـطرين ويمرون بينهما • ومما يؤكد كل التأكيد أن هذا كان هو النظام المتبع فى هذه المناسبة ، العبارة العبرية التى تستخدم فى عقد عهد بين طرفين وهى « قطع العهد » • كما يؤكد هذا الاستدلال ما يشـبه هذا فى اللغة والطقوس الاغريقية ، ذلك أن الاغريق يستخدمون عبـارات شبيهة بعبارة العبرين ، كما يمارسون طقوسا شبيهة بطقوسهم • فهم يتحدثون عن « قطع اليمين » بمعنى القسم به ، وعن « قطـع

العهد » بمعنى عقد العهد ، وهذا التعبير ؛ وبالمثـل التعبير العبرى واللاتينى ، مستمد بدون شك من عادة ذبح الضحية وشطرها بوصفها وسيلة لخلع المهابة على القسم أو العهد •

فنحن نعلم ، على سبيل المثال . أنه عندما كان أغاممنون على وشك أن يقود الاغريق الى طروادة ، أحضر العراف « كلخاس » خنزيرا بريا الى ميدان السوق وذبحه وشطره الى شطرين ، شـطر جهة الشرق وشطر جهة الغرب ، ثم مر كل رجل شـاهرا سيفه بين شطرى الخنزير وهو يغمس طرف سيفه فى دمه • وبهذا أقسموا على عدائهم « لبريام » [1] • وقد كانت الطقوس الاغريقية تفرض على المتعاهدين فى بعض الاحيان ــ وان لم يكن هذا أكثر شيوعا ــ أن يقف قاسم اليمين على جسد الضحية ، بدلا من أن يمر بين شطريها • فقد كان المتهم فى المحاكمات التى كانت تجرى فى محكمة «أريوباجوس» فى « أثينا » ، يقسم اليمين وهو واقف على أجزاء من جسد خنزير برى ؛ وكبش وثور قام بذبحها أشخاص بعينهم فى أيـام محدودة • وعندما كثر خطاب « هيلين » الشقراء ، خشى والدها من انتقـام الأحبة الذين ترفضهم ابنته ؛ فجعلهم جميعـا يقسمون اليمين على حمايتها وحماية من تختاره من بينهم ليكون زوجا لهـا مهما يكـن كنهه • ولكى يخلع على القسم نوعا من الرهبة ضحى بفرس وقطعـه الى أجزاء ، وطلب من جميع الخطاب أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الفرس • وقد كانت هناك فى حجرة المداولات فى الأولمب صورة للاله « نموس » الذى كان يكنى باله القسم •وكانت من عادة الرياضيين وآبائهم وأخوتهم وكذلك المدربين ، أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الخنزير البرى المذبوح على ألا يقوم

---

(١) هو ملك طروادة وفقا للأسطـورة الاغريقية وزوج « هيبوكا » واشهر أولاده « هكتور » و « باريس » . وقـد قتل بريام هـذا فى حرب طروادة .

اللاعبون بالعاب غادرة • وقد كان هناك فى « مسينيا » مكان يسمى « قبر الخنزير البرى » : لأن هرقل ، فيما يقال ، كان قد أقسم عنده هو وأبناء « نيليوس » وهو واقف على قطع من جسد خنزير برى مذبوح •

ومثل هذه الشعائر التى تتبع عند القسم أو عند عقد معاهدة سلمية كانت تتبعها القبائل البربرية فى الزمن القديم • فقد اعتادت قبيلة « مولوسيان » أن يقطعوا جسد ثور الى أجزاء صغيرة عند عقد معاهدة ، ويقسمون اليمين على هذه الأجزاء على الا ينقضوها • على أننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا كانوا يصنعون بأجزاء الحيوان المذبوح فى احتفالاتهم • واذا رأى رجل من « السكيثيانيين » أن شخصا آخر قد أخطأ فى حقه ، وأحس أنه أعزل ازاءه ، يتوسل الى أصدقائه أن يعاونوه على النحو التالى : يذبح ثورا ويقطعه الى أجزاء ويغلى لحمه • ثم يبسط جلده المدبوغ على الأرض ويجلس فوقه وذراعاه مكتوفتان خلفه كما لو كان مكبلا • وقد كانت هذه هى أكبر أشكال التضرع العاجل عند « السكينيانيين » • فاذا جلس الرجل على هذا النحو ، والى جانبه اللحم المطهى ، فان كل فرد من من أصدقائه أو اقربائه أو أى شخص آخر يختاره لمساعدته ، يأخذ قطعة من اللحم ويضع قدمه اليمنى على الجلد ويعده فى الوقت نفسه بأن يمده بالعديد من رجال الحرب والافراس وبكل ما يمتلكه ما لم يكن رهينة عنده ، وذلك لكى يساعد المشتكى فى الانتقام من عدوه • وقد يعده البعض بأن يقدم له خمسة من الرجال أو عشرة أو أكثر من ذلك • أما أفقر رجال قومه فيعدونه بتقديم مساعدتهم الشخصية • وبهذه الطريقة تتألف قوة كبيرة يحسب حسابها فى شىء من الفزع لأن كل فرد فى هذه القوة قد أقسم اليمين على أن يقف فى صف صديقه • وينص قانون المحاكم « المتبتية » حتى اليوم على « ان يقسم اليمين الكبير ، وهو ما يحدث نادرا ، فان حالف اليمين يقسم به وهو يضع كتابا مقدسا على رأسه ويجلس على جلد ثور مدبوغ ، ويأكل قطعة من

قلب هذا الثور المضحى به ؛ وتكاليف هذه الشعيرة تتحملها الجماعة التى تقوم برفع الدعوى على المتهم .

وما تزال القبائل البدائية فى افريقيا والهند تتبـــــع مثل هذه الشعائر عند اعلان حالة السلم بين طرفين متنازعين . فعندما يعلن « الكافيروندبون » فى افريقيا الشرقية البريطانية حـــالة السلم بعد الحرب ، فان الجانب المغلوب يذبح كلبا ويقطعه الى جزئين . ثم يحمل ممثلون من الطرفين المتحاربين لحم الزند ولحم المؤخرة بصفة خاصة فى أيديهم ، ويقسمون فوق هذه الأجزاء على اشاعة السلم والصداقة فيما بينهم . ومثل هذه الشعيرة تقوم قبيلة « ناندى » بتأديتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن المنطقة نفسها ، وذلك عند عقد معـــــاهدة سلمية . فهى تأتى بكلب وتذبحه وتشطره شطرين ، ويحمل كل شطر ممثل عن الطرفين المتحاربين ؛ ثم يأتى رجل ثالث ويقول : « ليقتل من ينقض هذه المعاهدة . كما قتل هذا الكلب » . وعندما تشـــــن عشيرتان من قبيلة « باجيسو » ـــ وهى قبيلة من قبائل « البانتو » التى تقطن عند جبل « الجون » فى « افريقيا الشرقية البريطانية » ـــ الحرب بعضها على بعض ثم ترغبان فى اقرار السلام بعد ذلك ، فان ممثلين من كلتا العشيرتين يحملان كلبا يمسك أحد الطرفين برأسه ، بينما يمسك الطرف الثانى برجليه الخلفيتين ، ثم يأتى رجل ثالث ويشق الكلب بضربة واحدة الى شقين ؛ ويرمى جســـــد الكلب فى الأحراش حيث يترك هناك . وبعد هذا يمكن لأفراد العشـــــيرتين أن يختلط بعضهم بالبعض الآخر دونما خوف من متـــاعب أو أخطار .

واذا شـاء حيان فى قبيلة « وانشاجا » التى تســكن المنطقــــة نفسها ، أن يعقدا حلفا صارما ، أو معاهدة سلمية فان الشعائر التى تؤدى للتصديق على هذا الحلف أو تلك المعاهدة تجرى على النحو التالى : يجتمع المتحاربون من كلا الحيين ويجلسون متراحمين فى شكل دائرى فى مكان ما فى الخلاء . ثم يلف حبل حول الجالسين ويعقد

طرفاه السائبان ، بحيث يبدو الجالسون كأنهم مكبلين بالحبل • وقبل أن يعقد الحبل من طرفيه السائبين ، يحرك الحبل ثلاث أو سبع مرات حول الجالسين بعد أن يربط فيه جدى صغير يتحرك مع الحبل وفى النهاية يمر الحبل من طرفه المعقود فوق جسد الجدى الذى يحمله رجلان بينهما وهو ممدد تماما • بحيث يكون الحبل والجدى متوازيين • ويقوم بهذه العملية ولدان لم يختتنا • وبالتالى لم يتزوجا وليس لديهما أولاد • ومغزى هذا العمل واضح ؛ فالصبيان يرمزان الى عدم الاخصاب ؛ أو الى موت الشخص دون أن ينجب ، وهو الامر الذى تنظر اليه القبيلة على أنه أكبر لعنة يمكن أن تحل بانسان ، كما أنها تعزى فى العادة الى ارادة القوى العليا • وفى معظم هذه المعاهدات يدعون باحلال هذه اللعنات على من يحنث باليمين ، وفى الوقت نفسه يدعون بكثرة الانجاب لمن يبقى على يمينه• والهدف من قيام الصبية غير المختونين بهذه الشعائر ، ليس مجرد الاشارة بالرمز الى مصير الحانث باليمين ، وانما التأثير عليه كذلك عن طريق السحر الانجذابى ، ومن أجل هذا السبب نفسه ، يقوم الرجال العجائز أنفسهم بتلاوة عبارات اللعنة والبركة ؛ لان هؤلاء قد تجاوزوا سن الاخصاب • وهذه الدعوات هى : « اذا قمت بايذائك بعد هذا العهد ، أو دبرت مكيدة ضدك دون أن أحذرك ، فلأنشق الى نصفين كما انشق هذا الحبل وذاك الجدى » • ثم يرد الكورس قائلا: « آمين »• « ولأقتل كما يقتل ولد صغير ويموت دون أن يترك ذرية وراءه » • فيرد الكورس قائلا « آمين » . « وليفن قطيعى عن آخره » • ويرد الكورس قائلا « آمين » • « وليكن عدد أولادى كعدد النحل » فيرد الكورس بقوله : « آمين » • الى آخر هذه الدعوات • فاذا انتهى ممثلو الحيين المتعاهدين من حلف اليمين ، يقطع الحبل ويشق الجدى الى نصفين فى آن واحد بضربة واحدة ، وينثر الدم المنسكب على الطرفين المتعاهدين ، بينما يحل شيوخهم اللعنات والبركات على كل الطرفين دون تحيز عن طريق ترديدهم لعبارات شاملة • ثم يأكل الشيوخ الذين جاوزوا سن الانجاب لحم الجدى ويقطعون الحبل الى

جزئين ويتسلم كل طرف من المتعاهدين جزءا منه ، ويحافظ عليه فى حرص . فاذا انتشر وباء أرجعه الكهنة الذين يقومون بتفسير ارادة القوى العليا ، الى نقض سكان البلد الموبوء العهد بعمد أو غير عمد ، فلابد من التكفير عن ذنب الحبل أو كما يعبر عن ذلك الأهالى « بتبريد الحبل » . ذلك أن القوة السحرية التى خلعها العهد على الحبل تمراس نشاطها ، حسب اعتقادهم ، فى ذلك الانتقام ممن دنس قدسية هذا الحبل» . ذلك أن القوة السحرية التى خلعها العهد على الحبل تمارس وروثها ، بينما تتلى الكلمات الآتية : « هؤلاء النـــــاس قد ارتكبوا الخطأ دون علم ، ومن ثم فأنا أكفر اليوم عن ذنبهم أيها الحبـــــل ، فلتقبل التكفير . لتقبل التكفير . لتقبل التكفير » . ثم يكفر الطبيب عن هؤلاء الذين نقضوا العهد بأن ينثر عليهم دواء سحريا يتكون من سلحفاة وحيوان العزير ، وظبى ، بالاضافة الى قدر من النباتات . وكل هذا يبث فيه الطبيب السر بأن يضع فيه حزمة من الاعشـــــاب المتنوعة ويتلو عليه بعض الكلمات السحرية .

وتتفق شعائر عقد معاهدة السلام التى تتبعها بعض القبائل فى افريقيا الجنوبية مع هذه الشعائر فى شكلها العام ، وان اختلفت عنها بعض الشىء . فاذا شاء زعيم قبيلة « بارولونج » أن يقد معــــاهدة سلمية مع زعيم آخر لجأ اليه طلبا للحماية ، فهو يأخذ معــــــدة ثور ويبقرها ، ثم يزحف الزعيمان واحدا تلو الآخر من خلال فتحة المعدة، فيعلنا بذلك أن قبيلتيهما قد أصبحتا اثر ذلك كلا واحدا . وتتبـــــع قبيلة « بتشوانا » مثل هذا النظام « اذا ما عقد زعيمان من زعمائها (تشوارنجا موشوانج) حلفا أو اتفاقا بينهما » . فهما يذبحان حيوانا ؛ ويمسك الطرفان المتعاهدان ببعض أجزاء أمعائه بحيث تتقابل أيديهما وتكون مغطاة بمحتوى أمعاء الحيوان المضحى به . ويبـــدو ان هذا الاجراء هو أكثر صور الاتفاق مهابة يعرفه الجمهور فى هذا البـــلد . فلقد أقيمت هذه الشعائر أكثر من مرة فى « شبوشنج » بينما كنت

هناك ، وذلك عندما لجأ بعض الزعماء الى « شيكهوم » ووضعوا أنفسهم تحت حمايته » .

ومثل هذه الشعائر تتبعها بعض القبائل التى تسكن تلال «أسام» وذلك عندما يقومون بعقد معاهدة سلمية . فقبيلة « ناجا » تتبع عدة وسائل فى تأديةاليمين . وأكثر هذه الوسائل شيوعا وقدسية ، أن يمسك أحد الطرفين برأس كلب أو دجاجة ، بينما يمسك الطرف الآخر بالذيل أو الأرجل ؛ ثم يذبح الحيوان أو الطير بآلة تسمى « داو » ، وهذا رمز لمصير الحانث باليمين . ومن بين الشعائر التى تتبعها قبيلة « ناجا » وفقا لمصدر آخر ، الشعيرة الآتية : « اذا أقسم أفراد القبيلة على المحافظة على السلم أو أى وعد آخر ، فانهم يضعون قصبة البندقية أو الرمح بين أسنانهم . وهم يقصدون بذلك أنهم اذا لم يبقوا على اتفاقه فانهم يكونون على استعداد لأن يقتلوا بأحد هذين السلاحين . وهناك شكل آخر بسيط من أشكال القسم ، وان يكن ملزما على حد السواء ، وهو أن يمسك الطرفان بطرف رمح حجرى ، ثم يكسر هذا الرمح من الوسط بعد أن تترك قطعة منه فى يد الذين يمسكون به . على أن أكثر الايمان قداسة يكون ، فيما يقال ، عندما يأتى كل طرف من الطرفين المتعاهدين بدجاجة ، ويقبض أحد الطرفين على رأسها بينما يمسك الطرف الآخر بأرجلها ثم تمزق أربا ، مشيرين بذلك الى المصير الذى سيلقاه المخادع أو ناقض العهد » وتتبع قبائل أخرى فى « أسام » تنتمى الى مجموعة « ناجا » طرقا أخرى تختلف بعض الشىء عن الطرق السابقة فى سبيل فض النزاع . « اذ يمسك كل طرف من الطرفين المتقاصيين بطرف سلة مصنوعة من الخيزران بداخلها قطة حية ، ثم يهوى رجل ثالث على القطة عند صدور اشارة اليه ، فيشقها بسلاح حاد بحيث يلطخ الدم السلال . وعندما كنت أشهد هذه الشعائر فى مناسبة من المناسبات ، قيل لى : ان هذا الاجراء هو شكل من أشكال اقرار السلام أو عقد معاهدة ،

وأن ذبح القطة يربطهم فى رباط من العهد • ويعد القسم على الصداقة بين الزعماء عند عشائر « لوشاى كوكى » ، فى أسام أمرا خطيرا • اذ يربط حيوان المثان (وهو من فصيلة الثور الأمريكى) فى عمود ، ثم تأتى الجماعة التى تنوى القسم ، ويمسك كل فرد منها برمح فى يده اليمنى ويطعن المثان خلف رقبته بقوة بحيث يتدفق الدم ، ويكررون عبـــارة فحواها أنهم سيظلون أصدقاء طالما جريت الانهار فى الأرض • ثم يذبح الثور بعد ذلك وتدهن جباه المقســـمين وأرجلهم ببعض دمه ؛ كما يأكلون قطعا صغيرة نيئة من كبده لكى يكونوا أكثـــر ارتباطـــــا بالقسم » •

والآن علينا أن نتساءل : ما معنى ذبح الضحية عند عقـــد عهد أو عند خلف اليمين ؟ •• ولماذا يصبح العهد أو القسم مصـــدقا عليه من الطرفين عن طريق التضحية بحيوان وقطع جسده الى أجزاء يمشى الطرفان بينها أو يقفان عليها ؛ ثم يلطخان أنفســـهم بدم هذا الحيوان ؟ ان هناك نظريتين تجيبـــان عن هـــذه التســـاؤلات • النظرية الأولى تسمى نظرية « الجزاء » ، والأخرى تسمى نظرية « السر المقدس » أو نظرية « التطهير » • ولنبـــدأ بالنظرية الأولى • وذبح الضحية ؛ بناء على هذه النظرية ؛ ثم تقطيعها الى أجزاء ، يرمز الى الجزاء الذى سيحل بالشخص الذى يخون العهد أو يحنث باليمين ، فمصـــير هذا الشخص كمصير الحيوان ، هو القتل • ومن المؤكد أن هذا التفســـير يبدو أنه التفسير الصحيح للشعائر التى تتبعها بعض الشـــعوب • فقبيلة الواتشاجا تقول فى أثناء تأديتها لشـــعائرها : « لأنشـــق الى نصفين كما ينشـــق هذا الحبـــل وذلك الجدى » • كما تقول قبيـــلة « ناندى » عندما تذبح كلبا وتشطره الى شطرين فى هذه المناســـبة : « ليقتل من ينقض العهد كما يقتل هذا الكلب » •

ومثل هذه الشعائر كان يتبعها « الأومبيون » ؛ وهم شعب يسكن دلتا نهر « النيجر » ؛ ويعرفون باسم « الكالاباريون الجدد » وقـــد كان هؤلاء يقومون بتأدية هذه الشعائر مصحوبة بالدعوات الشريرة

لاكساب هدنة السلام شيئا من الرهبة • فكانت اذا سئمت بلدتان أو عشيرتان من العشائر القتال الدائر بينهما ، فانهمـــا كانتا ترســـلان رسولا الى بلدة « كى » القديمة التى تقع بالقرب من الساحل ، شرق نهر « سومبريرو » ، حيث يعيش كاهن فيتيشى أو « جوجو » يدعى « كى ــ نى أوبورسو » • وفى مثل هذه الظروف يدعى الكاهن الفتيشى ليحضر اليهم ليشرف على التصديق على المعاهدة السليمة بين المتحاربين • ومن ثم فان هذا الكاهن كان يحضر فى قـــاربه المغطى بفروع صغيرة من أشجار النخيل ، ويتفق مع المتخاصـــمين على يوم يعقـــدون فيه العهد فيما بينهم • فاذا حان اليوم المحدد ، فان المتخاصمين يجتمعون كما يحضر أهالى بلدة « كى » ومعهم الاشياء اللازمة لتقديم الضحية التى تتكون من شاة وقطعة من القماش الاسود أو الازرق ، وقدر من البـــارود ، وحشائش أو بذور الحشـــائش • ويقسم المتخاصمون فوق هذه الاشياء على السلام والمودة • ثم يقول الكاهن : « اليوم ، نحـــن أهالى « كى » نجلب السلام لبلدكم • ومن الآن فصاعدا لن يفكر أحد من المتخاصمين فى اساءة الطرف الاخر » • ثم يأتى بالشاة ويشطرها شطرين ويقول : « فاذا شنت احدى البلدتين الحرب مرة أخرى على البلدة الاخرى ، فلتنشق أجسام أفرادها كما انشق جسد هذه الشاة » ثم يرفع قطعة القمـــاش ذات اللون الداكن ويقـــول : « وليعم بلدة المسيئين ظلام حالك مثل حلكة هذه القطعة من القماش » • ثم يشعل النار فى البارود ويقول : « وكما يحترق هذا البارود فلتحترق بلدة المذنبين » • ثم يحمل فى النهاية الحشائش ويقول : « ولتغط الحشائش بلد من يشن الحرب مرة أخرى » • وقد كان هناك قانون « كالاباري » قديم يمنع أى بلد من أن تشعل الحرب على قرية « كى » ، لما تقدمه هذه القرية من خدمات فى سبيل اقرار السلام • واذا حدث أن أشعلت بلدة الحرب عليها فانها تقع تحت طائلة النفى ، أو تحت طائلة العقاب الجماعى من جميع أفراد القبيلة • ونلاحظ أن هـــذه الطقوس الكالابارية تكشف فى غير غموض عن القصد الجزائى من وراء شطر الشاة الى

شطرين • كما يؤيد هذا تلك اللعنات التى تصحب الشـــعائر الرمزية الاخـــــرى •

ومثل هذا التفسير ينطبق على الطقس المشابه لهذا الذى تؤديه قبيلة « ناجا » ، كما تؤيده الصيغ المختلفة لحلف اليمين الذى يعــد أنسب تفسير له هو الجزاء الذى يلحق الحانث باليمين • ويمكننا أن ندعم نظرية الجزاء بشواهد مستقاة من العصر الكلاسيكى القديم • « فعندما قام الرومانيون والألبانيون بعقد معاهدة فيما بينهمــا وهى أقدم معاهدة مدونة فيما يقول « ليفى » ، تضرع ممثل عن الشعب الرومانى الى الاله « جوبيتر » قائلا : « اذا نقض الشعب الرومانى المعـــاهدة عن عمد ، فلتلحق بهم الضربات عند ذاك أيهـــا الاله « جوبيتر » ، كما أضرب هذا الخنزير البرى اليوم » • وبعد أن قــال هذا ، هوى على الخنزير وذبحه بالسكين • ثم اننا نقرأ فى أعمــال « هومير » ، أنه عندما عقد الاغريق والطرواديون هدنة فيما بينهما ، ذبحت الاغنام وسكب أغاممنون عليها قربان الخمر وهى تلفظ أنفاسها الاخيرة ، بينمــا كان الاغريق والطرواديون يدعــون على من يحنث باليمين أن تهشم رأسه ويسيل مخه كما تسيل الخمر على الارض •

ويتضح هذا المغزى الجزائى من تقــديم الضحية فى مثل هــذه الاحوال كل الوضوح من خلال مخطوط أشورى دون فيه القسم المقدس الذى أعلن فيه « ماتو ــ ايلو » أميــر « بيت ــ أجــــوزى » ولاءه « لأشور ــ نيرارى » ملك آشور • وها هو ذا بعض مارون فى هذا المخطوط : « ان هذا الكبش لم يؤخذ من القطيع بقصد تقديمه ضــحية ولا من أجل الالهة المسالمة « عشتروت » ، كما أنه لم يجلب من أجل مرض أو لمجرد أن يذبح وانما احضر لكى يقسم « مانع ــ أيلول » على ولائه « لآشور ــ نيرارى » ملك « أشور » • فاذا حنث « مانع ــ ايلو » بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير هذا الكبش • فكما أن هذا الكبش قد أبعد عن قطيعه ولن يعود اليه مرة أخرى ليسيطر عليه ،

فان « ماتع ــ ايلو » سيؤتى به كذلك من بلده مع أبنائه وبناته وبنى قومه ، ولن يعود اليهم مرة أخرى لينتزعم قومه • فهذه الرأس ليست رأس كبش ، وانما هى رأس « ماتع ــ ايلو » ورأس أولاده ونبلاء قومه ، ورأس شعبه بأسره ، فاذا قطع « ماتع ــ ايلو » عهده كما تقطع رأس هذا الكبش ، فان رأس « ماتع ــ أيلو » ستقطع بالمثل • وهذه الرجل اليمنى ليست رجل الكبش اليمنى ، ، وانما هى يد « ماتع ــ ايلو » اليمنى ، ويد أولاده ونبلاء قومه وشعبه • فاذا قطع « ماتع ــ أيلو » العهد كما تقطع رجل ذلك الكبش ، فان يده اليمنى ستقطع ، وكذلك أيدى أولاده ونبلاء رجال بلده » • ثم يلى هذا فجوة كبيرة فى المخطوط • ونحن نحدس بأن مكان هذه الفجوة كان وصفا لاعضاء الكبش الأخرى ، واستمرارا فى التعليق على أنه كلما قطع عضو من أعضائه ، فانه لن يكون سوى رمز لقطع العضو المماثل له عند « ماتع ــ ايلو » وأولاده ونبلاء بلده وقومه ، اذا ما اثبتوا خيانتهم لسيدهم الموالين له وهو ملك « آشور » •

ومثل هذه التضحيات التى تصحبها وتفسرها دعوات بالشر شبيهة بالدعوات السابقة ، تصادفنا فى طقوس الشعوب البدائية التى ما تزال تعيش حتى اليوم • فطريقة عقد العهد أو حلف اليمين فى جزيرة « نياس » ، هى أن تجز رقبة خنزير صغير رضيع ، بينما يدعو الشخص على نفسه بمثل هذه القتلة اذا ما نقض العهد أو حنث باليمين • والطريقة التى تتبع فى جزيرة « تيمور » لتقديم بينة على الحلف باليمين هى : أن يمسك الشاهد بدجاجة فى يد ، وفى اليد الاخرى بالسيف ويدعو قائلا : « الهى فى السماوات والارض ، انظر الى ، ان كنت أشهد شهادة زور تؤذى قومى ، فلتلحق بى العذاب • اننى أؤدى اليمين فى هذا اليوم ، فاذا لم أكن صادقا فى شهادتى ، فلتقطع رأسى كما تقطع رأس هذه الدجاجة » • فاذا فرغ من دعائه هذا فانه يهوى على رأس الدجاجة ويقطعها على كتلة من الخشب • وعندما يجتمع زعماء « الباتاكيون » فى « سومطرة » ليعقدوا صلحا أو عهدا مقدسا

فيما بينهم ، فانهم يأتون بخنزنر أو بقرة ويقف الزعمــاء من حول الحيوان وفى يد كل منم رمح • ثم تقرع الطبول ، ويقطع أكبر الزعماء سنا وأكثرهم هيبة، رقبة الحيوان بسكين • ثم يبقر الحيوان وينزع من جوفه قلبه وهو مازال ينبض ، ويقطع الى قطع صغيرة بعدد الزعماء ثم يرشق كل زعيم نصيبه من القلب فى سيخ ، ويشويه أو يدفئه على النار وهو يقول : « اذا حدث حنثت بيمينى ، فلأقتل كما قتل هـــذا الحيوان المسجى أمامى وهو يدمى ، وليلتهم لحمى كما يلتهم قلبـــه الآن »• ثم يأكل قطعة اللحم أثر ذلك • وبعد أن يفرغ الرؤساء من تأدية هذه الطقوس يوزع لحم الحيوان الذى مازال مضرجا بالدم بين الناس ليحيــون به وليمــة •

واذا شاءت قبيلتـــــان من « الشينين » الذين يسكنون التلال التى تشرف على حدود « أسام » و « بورما » ، أن تحلفـــا اليمين أو تعقدا أواصر الصداقة فيما بينهما • فانهما تتقابلان ويحضران معا ثورا أليفا • ثم يصب شيوخ كل قرية عليه الخمـــر ، ويسرون الى أرواحهم المقدسة بكلمات لكى تشهد على هذا الاتفاق • ثم يمســك زعماء كل طرف برمح ، ويقفان على جانبى الثور ، ويصوبان الرماح الى قلبـــه • فاذا استخدمت البنـــادق بدلا من الرماح فان الطرفين يطلقان النار فى رأس الثور أو فى قلبه فى آن واحد • وبعد أن يسقط الثور طريحا تقطع رقبته ، ويجمع دمه المسكوب فى وعاء • ثم يقطع ذيله ويغمس فى الدم ، كما يغمس زعماء الطرفين وشيوخهم أيديهـــم فى دمه ويلطخ كل منهم وجه الآخر ، فى الوقت الذى يتمتم فيه حكماؤهم بالكلمات الاتيـــة : « ليمت من ينقض هذا العهد ميتة هذا الحيـــوان وليدفن جسده خارج القرية ، ولا تهدأ روحه أبدا • ولتمت أسرة كل من ينقض العهد . وليلحق بها كل حظ عثر » •

وعندما كان يرغب « الكاريون » سكان « بورما » فى عقد حلف سلمى مع أعدائهم فى الزمن القديم ، كان يجتمـــع ممثلو كل جانب

ويتصرفون على النحو التالى : تمزج برادة سيف ورمح وبارود وحجر فى فنجان به ماء ، ويضاف اليه دم كلب وخنزير ودجاجة تذبح جميعا لهذا الغرض • ويسمى هذا المزيج من الدم والماء والبرادة « بماء السلام »• ثم تشطر جمجمة الكلب الى شطرين ، ويأخذ ممثل الطرف الاول فك الحيوان السفلى ويعلقه بخيط حول الرقبة ، بينما يأخذ ممثل الطرف الثانى الجمجمة بما فيها الفك العلوى ويعلقها كذلك حول رقبته • ثم يعد الممثلان فى صرامة أن قومهما سيعيشون بعد ذلك فى سلام بعضهم مع بعض • ولكى يؤكدا هذا الوعد ، فانهما يتناولان جرعة من « ماء السلام » ويقولون « الان قد عقدنا عهد السلام • فاذا نقص شخص هذا العهد ولم يكن صادقا فيه فيتسبب فى أشعال نار الحرب مرة أخرى ، واثاره البغضاء ، فليشق الرمح صدره ، وليفتت البارود أمعاؤه ، وليشج السيف رأسه ، وليلتهمه الكلب والخنزير وليحطمه الحجر » • ونلاحظ هنا أن هؤلاء الناس يفترضون أن السيف والرمح والبارود والحجر ، وبالمثل الكلب والخنزير المذبوحين ، تعين جميعا على الانتقام ممن يحنث باليمين ، ذلك بعد أن شرب ممثلا الطرفين جرعة من مزيج « ماء السلام » •

وترجع قدرة الضحية على الجزاء فى كل هذه الامثلة بدون شك الى الدعوات التى تصحب ذبح الحيوان : فذبح الحيوان يرمز الى ذبح الحانث باليمين ، أو هو بالاحرى جزء من سحر تقليدى يقصد به الحاق الموت بالمذنب جزاء جريرته •

على أننا يمكننا أن نتساءل بعد ذلك عما اذا كانت فكرة الوظيفة الجزائية لتقديم الضحية تكفى لتفسير الملامح البارزة فى الطقس العبرى والاغريقى الذىيتمثل فى المرور بينأجزاء الحيوان المذبوح أو الوقوف فوقها • وهنا رأى « و • روبرتسون » أن نفسر هذا الطقس بما يمكن أن نسميه نظرية التطهير أو السر المقدس • فقد افترض أن « مرور الجانبين بين أجزاء الحيوان المذبوح يرمز الى انتمائهم الى

حياة الحيوان الروحية » ولكي يؤكد روبرتسون وجهة نظره ، أشار الى استخدام هذا الطقس نفسه فى حالات أخرى لا يصلح قانون العقاب أو انجزاء . فيما يبدو . تفسيرا لها ، فى الوقت الذى يفسر بعضها على الاقل بنظرية التطهير الشعائرى • فمن أشكال التطهير الشائعة فى « بويوتيا » : أن يذبح كلب ويشق شقين يمر الناس بينهما ومثل هذه الشعيرة كان يؤديها الجيش المقدونى • اذ كان يذبح كلب ويشطر شطرين • ثم يوضع راسه والجزء الامامى منه جهة الشمال ؛ بينما توضع أمعاؤه وجزؤه الخلفى جهة اليمين ، وبين هذين الجزئين تمر جماعات الجيش • ومن المألوف فى نهاية الاحتفال أن ينقسم الجيش الى قسمين يتشابكان معا فى حرب صورية • وقد قيل : أنه عندما أغار « بيليوس » على « أيلوكس » ونهبها ، قتل زوجة الملك وتسمى « أستى داميا » ، وقطعها أربا ، وجعل جيشه يمر بين أجزاء جثتها وهو فى طريقه الى المدينة • ومن المحتمل أن هذا الاجراء كان ينظر اليه بوصفه شكلا من أشكال التطهير الذى يضفى عليه الانسان الضحية درجة كبيرة من الرهبة • ويؤكد هذا التفسير ، تلك الطقوس التى يتبعها الالبانيون فى القوقاز فى معبد القمر • فهؤلاء قد تعودوا أن يضحوا بعبد مقدس بين الحين والاخر ، بأن يطعنوه برمح • ثم يحمل جسد هذا العبد الى مكان معين حيث تدوسه الاقدام كاجراء تطهيرى • أما اجراء التطهير بين « الباسوطويين » فى افريقيا الجنوبية فيجرى على النحو التالى : يذبح حيوان ويصنع فيه تجويف ويطلب من الشخص الذى يراد تطهيره أن يمر فيه • وقد سبق أن رأينا قبيلة « بارولونج » تؤدى نفس الشعيرة عندما تعقد عهدا ، فالمتعاهدون يمرون خلال تجويف يحدثونه فى معدة الحيوان المقتول • فهذه العادات التى تتبع فى افريقيا الجنوبية تؤكد معا أن المرور بين أجزاء الحيوان الضحية يعد بديلا للمرور خلال تجويف يحدث خلال جسد الحيوان نفسه •

والتفسير التطهيرى أو بالاحرى الوقائى لمثل هذه الطقوس ، يؤكده عادات عرب موآب الذين لا يزالون يقومون بمثل هذه الشعائر

فى أوقات الكوارث التى تلم بهم مثل القحط أو الوباء • وهم يقولون : ان المقصود من هذه الشعائر هو تخليص الناس من الشر الذى يتهددهم• فاذا كانت القبيلة تعانى من وباء الكوليرا على سبيل المثال ، فان الشيخ يقف وسط خيمته ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » • عندئذ تأخذ كل أسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة ، أو على عمودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء الاسرة جميعا بين شطرى الضحية ، اما الابناء الصغار الذين لا يقدرون على المشى ، فيحملهم أبواهم • وفى كثير من الاحيان يمر أفراد الاسرة أكثر من مرة بين جزئى الشاة الداميين اعتقادا منهم أن شطرى الضحية ، لهما القدرة على طرد الارواح الشريرة ، أو طرد الجن الذى يمكن أن يؤذى القبيلة • وهم يستعينون بمثل هذا العلاج فى مواسم القحط عندما تذبل الاعشاب وتموت الماشية بسبب قلة مياه الامطار • وتعد الضحية فدية للانسان والحيوان معا • ويقول هؤلاء العرب فى هذه المناسبة : « هذه فديتنا لنا ولمواشينا » • وعندما سئلوا عن الوسيلة التى تؤثر بها هذه الشعائر مثل هذا التأثير المجدى ، أجابوا بأن الضحية تقابل الكارثة وتقاتلها • فالوباء والقحط أو أيا كانت الكارثة ينظر اليها بوصفها ريحا تهب على السهول وتحصد أمامها كل ما تصادفه • حتى تقابل الضحية التى تعترض طريقا كالأسد الرابض• وعند ذاك ينشأ صراع مفزع بينهما ، يقهر على أثره الوباء أو القحط ويرجع أدراجه مخذولا ، بينما تظل الضحية المنتصرة مسيطرة على الحقل • وهنا نلاحظ أنه ليست هناك ثمة تفكير فى الجزاء ، اذ ليس من المعقول ، لا من قبل التفسير الرمزى أو السحرى ، أن موت الشاة يتسبب فى موت الناس الذين يمرون بين أجزائها ، بل أن الناس يعتقدوون على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر •

ومثل هذه العادة تماما تتبع فى ظروف متشابهة عند « التشينيين » الذين يسكنون البلد الذى يكثر فيه التلال ويقع على حدود « أسام

وبورما » . فاذا اعتقد شخص من بين هؤلاء القوم ، أن شخصا تتعقبه روح ثائر ، مثل روح مرض الكوليرا ، فانه من المـــألوف عندهم أن يذبح كلب ويشطر دون أن تنتزع أمعاؤه ، ويترك النصـــف الأمامى منه على جانب من الطريق والنصف الخلفى على الجـــانب الآخر منه . ويصلون بينهما بأمعاء الكلـب التى يمدونها عبر الطريق . وهم يفعلون هذا بقصد اسكان غضب الروح الثائر واثنائه عن عزمه فى اقتفـــــاء أثرهم » وهكذا يحرص « الشينيون » على تشخيص وباء الكوليرا بوصفه روحا خطيرا ، الى درجة أنه اذا قامت جماعة منهم بزيارة منطقة « رانجون » وقت انتشار الوباء ،فانهم يحملون سيوفهممشهرة أينما ساروا ليدرأوا عنهم الشيطان ، كما يقضون وقتهم مختبئين بين الأحراش حتى لا يعثر عليم الشيطان . وقـــد تعود « الكورياكيون » الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية، أن يصرفوا الأوبئة والطاعون عنهم على هذا النحو. فهم يذبحون كلبا ويربطون الأمعاء حول عمودين ويمرون تحتها . ومما لا شك فيه أنهم يعتقدون بالمثل أنهم بهذه السيلة يطردون روح المرض الذى يجد فىأمعاء الكلب حاجزا لا يقهر .ويسود الاعتقاد فى أن النساء بعـــد الولادة يكن نجسات ، ومن ثم يكن عرضـــة لأن تتملكهن الكائنات الشريرة المهولة . فاذا تركت المرأة عنـــد غجر ترانسلفانيا فراشها بعد الولادة ، فانه يتحتم عليهـــا أن تمر بين شـــطرى ديك مذبوح اذا كان المولود ذكرا ، أما اذا كان المولود أنثى فانها تمر بين شطرى دجاجة . ثم يأكل الرجال هذا الديك فيما بعد ، ، كما تأكل النساء الدجاجة .

ويتضح من هذه الأمثلة أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح يقصد به الوقاية لا العقاب . كما أن لحم الضحية ودمها تشكل عقبـــة فى طريق القوى الشريرة، وفقا لتصور هؤلاء الناس، ومن ثم فهم يحولون بينها وبين اقتفاء أثر الشخص الذى مر خلال الطريق الضيق ، وبالتالى فهو لا يتعرض لايذائها . وبناء على ذلك فان هذه الشعائر يمكن أن تسمى بشعائر التطهير بأوسع معانىالكلمة ، اذ أنه يقصد بها تطهير الشخص أو تخليصه من تأثير القوى الشريرة .

فاذا عدنا من حيث بدأنا ، فانه يحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت الوسيلة التى كان يتبعها العبريون القدماء عند عقد عهد بين طرفين ، عن طريق المرور بين أجزاء الضحية ، يقصد بها العقاب أو التطهير . وبتعبير آخر هل كانت تعد وسيلة رمزية لاحلال الموت بالحانث باليمين ، أم كانت وسيلة سحرية لوقاية المتعاهدين من تأثير القوى الشريرة ، ومن ثم فهى تحميهم من أخطار بعينها يمكن أن يتعرضوا لها ؟ ان الأمثلة الأخرى التى سبق أن ذكرتها عن مرور الأشخاص بين أجزاء الضحية المذبوحة ، تبدو وكأنها تدعم التفسير التطهيرى أو الوقائى للطقس العبرى ، اذ بينما لا يتطلب مثال من هذه الأمثلة التفسير الجزائى ، فان بعضها يستبعده صراحة . ومن ناحية أخرى نجد أن بعض هذه الأمثلة لا يفسر الا على أساس نظرية التطهير أو الوقاية التى تدعيها فى الحقيقة بعض الشعوب مثل العرب « والتشينيين » صراحة ، هؤلاء الذين يتبعون هذه العادة . حقا أن أية محاولة لتفسير هذه الشعيرة العبرية لا بد أن يراعى فيها تفسير الشعيرة المماثلة لها عند العرب المحدثين ، نظرا لتشابه شعائرهما فى الشكل . كما أن هذين الشعبين اللذين يقومان بتأدية هذه الشعيرة أو كانا يقومان بتأديتها ، ينتميان الى أسرة سامية واحدة ، ويتحدثان لغتين ساميتين متقاربتين ويقيمان فى البلد نفسه ، حيث أن أرض موآب التى مازال العرب يتبعون فيها هذه العادة القديمة ، كانت تكون جزءا من موطن بنى اسرائيل حيث رحل ابراهيم وعقد عهدا مع الرب على نحو ما ذكرناه (١) . ويبدو أن هذا الاستدلال حتمى ، وهو أن هذه الشعيرة التى اتبعها العبريون القدماء والتى مازال يتبعها الموآبيون ، ترجع الى أصل سامى وما يزال هدفها التطهيرى أو الوقائى واضح فى أذهان عرب موآب .

على أنه لا يزال هناك سؤال ينبغى أن نتساءل عنه وهو : فيم

---

(١) يعنى فريزر ما يفهم من اساطير العبريين التى روجوها بينهم وتناقلوها ثم دونوها فى العهد القديم ، ولا يبدو انه يريد بذلك التقرير التاريخى .

تتمثل القدرة على التطهير فى مثل هذه العملية ؟ ولمـــاذا يعتقد أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح من شأنه أن يحمى الانسان من الخطر ؟ أما رد « روبرتسون سميث » عن هـــذه التساؤلات فيتلخص فيما يمكن أن يسمى بتفسير السر المقدس لهذه العادة • فهو يفترض أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم ، أى أنه يعتقد فى الحقيقة أن مثل هذا العهد ليس الذى يخلق المتعاهدون عن طريقه ، بطريقة صـــورية ، رباطا من القرابة العصبية فيما بينهم ، وذلك بأن يمزحوا حقا قـــدرا من دمائهم بعضها ببعض • والاختلاف المـــادى الوحيد بين شكلى هذا العهد ، بناء على هذا الفرض ، هو أن دم الحيـــوان فى أحـــد الشكلين يعـــد بديلا لدم المتعاهدين أنفسهم فى الشكل الآخر • على أن هناك كثيرا من الجدل يمكن أن يثار حول هذه النظرية • وأولى نقاط هذا الجدل ، هو أن الشواهد فى أفريقيا الجنوبية تشـــير الى النتيجة التى مؤداها أن المرور بين أجزاء الضحية ليس سوى بديل للمرور خلال جسد الحيوان المذبوح • ويؤيد هذه النتيجة أن « الشينيين » عندما يذبحون الكلب الضحية لا يفصلون شطرى الكلب أحدهما عن الآخر كلية ، وانما يحتفظون بالنصف الأمامى والنصف الخلفى متصلين عن طريق حبل أمعاء الحيوان الذى يمر تحته الناس • ويبدو أن «الكورياكيون» كانوا يتبعون هذه العادة ، وان تكن بطريقة أقل وضـــوحا من طريقة « الشينيين » • فالابقـــاء على حبـــل الأمعاء بوصفه رابطا بين شطرى الضـــحية يبدو بوضـــوح أنه محاولة للربط نظريا بين وحدة الحيوان المقتول وبين الملاءمة العملية بشطره ، حتى يتسنى للناس أن يمروا خلال جسده • والا فما معنى أن يوضـــع الناس داخل جسد الحيوان ما لم يكن الغرض من ذلك اكساب الشخص بعض خصائص الحيوان التى يعتقد أنه يمتلكها ، والتى يمكن ـــ وفقـــا لتصور هذه الشعوب ـــ أن تنتقل الى الشخص الذى يطابق بين نفسه فيزيائيا وبين الحيوان عن طريق الدخول فيه حقيقة ؟ •

ومما يؤكد أن هذه الفكرة حقا هى أساس هـــذه الشـــعيرة ، تلك

العادة المشابهة المنتشرة بين الهنود « الباتاجونيانيين » • ففى بعض الحالات اذا ولد لهؤلاء طفل ، تذبح بقرة أو فرس وتنتزع منه معدته ثم تبقر ويوضع بداخلها الطفل وهى ما تزال دافئــة • ثم تقيم القبيلة وليمة على سائر أجزاء الحيوان •

على أن الأشــكال الأخرى لشعائر هــذا الميــلاد ، ما تزال أكثر همجية • فاذا ولد للأب طفــل ذكر ، فان قبيلتــه تأتى بفرس أو مهر حسبما يتفق وحالة الوالــد المــادية ، فان كان غنيا مرموقا بين قومه ، أحضرت له القبيلة فرسا ، وان لم يكن كذلك أحضرت له مهرا • ثم يربط وهق (١) حول كل رجل من أرجل الحيوان ، ورباط حول رقبته ، ورباط آخر حول جسمه • ثم ينتشر أفراد القبيلة حول أطراف هــذه الأحبال ويمسكون بها ، وبذلك لا يتمكن الحيوان من السقوط • ثم يتقدم والد الطفل ويشــق الفرس أو المهر من رقبته الى أســفل • ثم ينتزع قلب الحيوان وغير ذلك من الأجزاء ويوضع الطفل فى تجويفها • والغرض من هــذا الفعل هو وضع الطفل فى تجويف الحيوان وهو مازال ينتفض ، اعتقادا منهم أن الطفل سيصبح بكل تأكيد فى المستقبل فارسا ماهرا» •• وهنا تتمثل لنا بوضوح هذه العادة والسبب الذى يعزى لاتباعها • فاذا شئت أن يكون طفلك فارســا ماهرا ، كمــا يجادل هؤلاء الهنود ، فان أفضل وسيلة لذلك هى الربط بينه وبين الحصان عند ولادته ، وذلك بأن يوضع داخل تجويف فرس أو مهر وهو مازال على قيــد الحياة • فاذا وضع الطفل على هذا النحو بين لحم الحيوان ودمه ، فانه يصبح شبيها به جسديا ، ويصبح له مقعد صيد القنطور (٢) الذى يتكون جسمه من جسم انسان وجسم فرس معا • وباختصار فان وضــع الطفل داخــل تجويف الفرس أو المهر ليس سوى صورة من صور المشاركة الذى يقصد به اكساب الانسان صفات خاصــة •

---

(١) حبل فى طرفه انشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار •
(٢) كائن خرافى •

ويمكننا أن نفسر وفقا لهذا الأساس ــ كما أشار روبرتسون سميث الى ذلك ــ الشعيرة « السكيثيانية » عند عقد عهد ؛ عندما يدوس أفراد القبيلة بأقدامهم على جلد ثور مذبوح • فكل الذين يدوسون بأقدامهم اليمنى على جلد الثور يصبحون هم والحيوان شيئا واحدا ، بحيث تربط بينهم رابطة الدم التى تؤكد اخلاصهم لبعضهم بعضا • اذ من المحتمل أن الدوس بقدم واحدة على جلد الثور يعد شكلا مختصرا للف الشخص بالجلد لفا كليا ؛ تماما كما تعود المتعبد فى محراب الآلهة السورية فى « هيرابوليس » ، أن يجثو على جلد الشاة التى قدمها ضحية للآلهة ، ويسحب رأسها وأرجلها فوق رأسه وكتفيه ويصلى للآلهة وهو فى هيئة الشاة ، لكى تقبل الشاة التى قدمها ضحية لها •

وهذا التفسير الذى قدمه « روبرتسون سميث » لتلك العادة تؤكده كل التأكيد عادة أفريقية مماثلة لها • فمن عادة صبية قبيلة « واتشاجا » فى « أفريقيا الشرقية أن يهيئوا بعد عامين من ختانهم لما يمكن أن يسمى بالتعميد الحربى • ومن أجل هذا الغرض يجتمع الصبية مع آبائهم وشيوخ قرية زعيمهم ، ويقومون بذبح ثورين ونعجتين وتجمع دماؤها فى جلد ثور يحمله عدة رجال • ثم يعرى الصبية أنفسهم ويطوفون وهم واقفون فى صف طويل أربع مرات حول جلد الثور المتلىء بالدم • ثم يصطفون بعد ذلك ويمر عليهم شيخ ويحدث قطعا فى أسفل أكمامهم • ثم يخطو كل صبى الى الجلد الممتلىء بالدم ويخز ذراعه حتى تسقط قطرات من دمه فوق دم الحيوان، ثم يملأ يده بهذا الدم الممتزج بدمه ويشربه ؛ ويرتدى ملابسه بعد ذلك • ثم يجلس الصبية القرفصاء حول زعيمهم • وبعد حديث طويل معه يسمى كل والد ابنه باسم حربى• فان لم يكن للصبى والد ، فانه يتسلم لقبه من شيخ كهل يقوم بدور الأب • ثم يخطب فيهم الزعيم معلنا أنهم لم يعودوا بعد أطفالا ، وانما أصبحوا جنودا ، ثم يرشدهم الى تبعاتهم الجديدة ؛ كما يقدم لهم جميعا لافتة لدروعهم تبرزهم أنهم قد أصبحوا ينتمون الى جماعة واحدة بعينها • وهنا نلاحظ أن الصبية الذين أصبحوا محاربين فى جماعة

واحدة ، قد ارتبطوا جميعا برباط مزدوج من الدم هو عبارة عن دمهم ودم الحيوان المقتول ، اللذين مزجا فى جلد الثور ، ثم شرب كل منهم من هذا الدم المختلط نخب فروسيته المستقبلة • وليس هناك مثال يشير بوضوح أبعد من هذا الى صحة وجهة نظر « روبرتسون سميث » : من حيث أن الغرض من استخدام جلد الثور فى الطقس « السيكثيانى » هو كذلك ربط المحاربين برباط دموى واحد •

وربما مكنتنا مناقشتنا هذه لعهد ابراهيم ، من القاء الضوء حول نقطة مظلمة فى تاريخ الكنعانيين • فمنذ اكتشف الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » فى حفرياته فى « جيزر » فى فلسطين مكانا للدفن يستلفت النظر • وهذا المكان هو ببساطة حجرة اسطوانية يبلغ ارتفاعها عشرين قدما ، واتساعها خمسة عشر قدما • وقد نحتت هذه الحجرة فى الصخر وترك مدخلها فى قمتها على هيئة فتحة دائرية • ويبدو أن هذه الحجرة كانت فى الأصل مخزنا للمياه قبل أن تتحول الى مدفن • وقد عثر فى أرض تلك الحجرة على خمسة عشر هيكلا آدميا ، أو بالأحرى أربعة عشر هيكلا ونصف هيكل • ذلك أنه لم يعثر لهيكل من هذه الهياكل سوى على جزئه العلوى ، فى حين لم يعثر على جزئه السفلى • وهذا الهيكل لفتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، وقد قطع جسدها أو نشر من الوسط عند الفقرة الثامنة من عمودها الفقرى عند التجويف الصدرى • وحيث أن الأجزاء الأمامية من الضلوع قد هشمت عند هذا المستوى، فانه من الواضح أن هذا التهشيم قد تم فى مرحلة كانت العظام تستند فيها على الأجزاء الرخوة من الجسم • وأما سائر الهياكل فهى هياكل رجال ، اثنان منها لشابين يبلغان من العمر الثامنة عشرة أو ربما التاسعة عشرة والباقى لرجال كاملى النمو معتدلى القوام ، قويى البنية • ويدل وضع الهياكل على أن أصحابها لم يطرحوا فى الحجرة من خلال فتحتها العلوية ، وانما هبط بهم رجال الى داخل الحجرة • كما أنه يعتقد أن كميات الفحم الكبيرة التى عثر عليها بين العظام تدل على أن حفلا جنائزيا أو تضحية أو أى طقس مقدس آخر قد أدى داخل حجرة الدفن • كما نظر علماء الآثار

الى بعض الأسلحة البرنزية الدقيقة، مثل رءوس الرماح وفأس وسكين، تلك التى عثر عليها بجانب الجثث ، بوصفها شاهدا، أن هذا الدفن قد حدث قبل ظهور بنى اسرائيل ، أى أن أصحاب هذه الهياكل كانوا ينتمون الى عنصر سبق ظهور العبريين فى فلسطين • كما استدل العلماء من شكل عظام هذه الهياكل وتجاويف الجماجم الواسعة ، ومن أنوفهم المقوسة ، وبعض الخصائص التشريحية الأخرى ، أن الذكور يمثلون نماذج لعنصر لا يختلف عن عرب فلسطين اليوم •

فاذا كان التشابه الجسدى بين هؤلاء الرجال القدماء وسكان فلسطين المعاصرين كافيا لأن يبرر لنا أن نعدهما أفرادا ينتمون الى أصل واحد ، فربما حق لنا أن ننتهى الى أن كليهما ينتمى الى الأصل الكنعانى الذى كان يستوطن فلسطين قبل غزو العبريين لها ، والذى لم ينجح العبريون قط فى ابادته على الرغم من محاولتهم اخضاعه لسطوتهم • فوجهة نظر الخبراء أن الفلاحين المعاصرين أو المزارعين الفلسطينيين الذين يتحدثون اللغة العربية ، انما هم سلالة القبائل الوثنية التى سكنت فلسطين قبل الغزو الاسرائيلى وارتبطوا بأرضهم منذ ذلك الوقت • وعلى الرغم من أن موجات الغزو المتعاقبة على فلسطين قد غمرتهم ، الا أنها لم تنجح فى القضاء عليهم • فاذا كان الأمر كذلك ، فانه يحق لنا أن نفترض أن الهيكل النصفى للفتاة الذى عثر عليه فى « جيزر » ، يعد أثرا باقيا لعادة التضحية بانسان ، تلك العادة التى لعبت دورا بارزا فى الديانة الكنعانية • ونحن نستدل على ذلك بالعادة المشابهة لها التى أشار اليها الأنبياء العبريون ، وكتاب العصور الكلاسيكية القديمة • وقد دعم هذا الافتراض ما عثر عليه من هياكل أطفال عثر عليها فى «جيزر» محفوظة فى جرار تحت أرض المعبد ، فقد اعتقد الباحثون فى العادة ، أن هذه المخلفات تشهد على عادة التضحية بالابن الأول تكريما للاله المحلى • وقد عثر على مزيد من هؤلاء الأطفال المدفونين فى جرار حول معبد منحوت فى الصخر فى بلدة « تعنك » فى فلسطين ، وقد فسر تحنيط هؤلاء الأطفال على النحو الذى أشرنا اليه •

ولكن اذا كان هيكل الفتاة الذى عثر عليه فى مقبرة « جيزر » ، يمثل حقا بقايا عادة التضحية بانسان فما زال علينا أن نتساءل : لماذا شق جسد الفتاة أو نشر على هذا النحو ؟ ان عهد ابراهيم الذى نقيس عليه وبالمثل الطقوس المتشابهة التى تحدثنا عنها ، تشير الى أن شطر الفتاة الضحية الى شطرين ربما كان يقصد به الوقاية الجماعية ، أو التصديق على عهد • أو أننا نفترض - حتى تكون أكثر وضوحا من هذا - أن جسد البنت قد قطع الى نصفين وأن الناس مروا بين هذين النصفين ، اما بقصد تضليل قوى شريرة كانت تعيش بينهم أو تتهددهم أو بقصد تأكيد معاهدة سلمية تأكيدا يتسم بالرهبة • ولنبدأ الآن بالتفسير التطهيرى أو الوقائى •

لقد سبق أن رأينا أنه عندما استولى « بيليوس » على مدينة « أولكس » قيل : انه أسر زوجة ملك المدينة وقطعها الى نصفين وترك جيشه يمر بين هذين النصفين قبل أن يدخل المدينة • ولا يبدو أن هذه العادة المتوارثة من قبيل الاختراع الصرف ، فربما كانت بقايا عادة بربرية متخلفة كان يتبعها الظافرون عند دخول المدينة المندحرة ، ونحن نعلم أن الانسان فى العصور الأولى كان يخشى كل الخشية من سحر الغرباء ، وأنه كان يقوم باحتفالات عديدة لكى يحصن نفسه ضد هذا السحر ، سواء عندما يسمح لغرباء أن يدخلوا بلدته ، أو عندما يخطو هو نفسه الى أرض قبيلة أخرى • وربما كان خوف مشابه لهذا من سحر الأعداء يدفع المنتصر أن يصطنع احتياطات غريبة بقصد حماية نفسه وجيشه من مكايدأعدائه ، وذلك قبل أن يجرؤ على دخول المدينة التى استولى عليها منهم بسيفه • وربما تمثل هذا الاحتياط الغريب فى أسر أسير ، وشق جسده أو جسدها الى نصفين ، وجعل الجيش يمر بين النصفين وهو فى طريقه الى المدينة • ووفقا لتفسير السر المقدس لهذا الطقس ، فان التأثير الذى يحدثه المرور بين جزئى‌الضحية من شأنه أن يخلق عهدا دمويا بين الظافرين والمنهزمين معا ، ومن ثم فهو يؤمن المنتصرين ضد كل المحاولات العدائية من جانب المنهزم •

وهذا يفسر ما قام به « بيليوس » عند دخوله مدينة « أولكس » عندما أسر الملكة وشق جسدها الى شقين ، فقد كان هذا الاجراء وسيلة مقدسة لخلق وحدة بين الغزاة والمغزويين • فاذا كان هذا التفسير مقبولا ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن يكون هناك توافق بين وجهـات نظر الطقوس التطهيرية أو الوقائية وطقس عقد العهد ؛ فالغزاة يطهرون أو يحمون أنفسهم من تأثير أعدائهم الشرير بالدخول ضمنا معهم فى عهـد دمـوى •

ومن المحتمل أن عادة سامية مشابهة لهذه العادة يمكن أن تفسر هيكل الفتاة المشطور الذى عثر عليه فى « جيزر » • ونستطيع أن نحكم من خلال البقايا الآدمية التى عثر عليها فى هذا المكان ، أن المدينـة احتلتها أجناس مختلفة من عصور مختلفة ؛ ففى العصور الاولى احتلها قوم قصار الجسم أقوياء البنية ، نحفاء ، ذوو رءوس بيضـاوية ؛ لا ينتمون الى العائلة السامية ؛ بل انهم لا صلة لهم بأى جنس من أجناس البحر الابيض المتوسط • فاذا كان الكنعانيون قد غزوا هذه المدينة فيما بعد ، هؤلاء الذين استوطنوها فيما بعد ، فربما احتفلوا بدخولهم المدينة بأن أسروا الملكة أو أية امرأة أخرى وقتلوها وشقوا جسدها الى نصفين ومروا بينهما وهم فى طريقهم الى المدينة • ولكن كيف نفسر فى هذه الحـالة عدم وجود النصف السفلى من جسد الفتاة ؟ اننا لسنا فى حاجة لأن نفترض ، كما افترض المستكشفون ، أن الغزاة الكانيباليين قد أحرقوه أو التهموه • وانما ربما دفن هـذا الجزء فى مكان آخر ، ربما فى المكان المواجه لهذا المكان من البلد ، وذلك بقصد نشر مفعول سحر الضحية فى كل المسـاحة الواقعة بين المكانين ، حتى تصبح المدينة بأسرها آمنة بالنسبة للغزاة ويكونون فى الوقت نفسه فى مأمن من ضربات أعدائهم • وقد قيل ان ملكا قديما من ملوك بورما قد أكسب مدينته الحصانة ، بأن قطع جسد خائن الى أربعة أقسام ، ودفن كل جزء فى ركن من أركان المدينة • وعبثا حاول أخو الخائن أن يستولى بجيشه على المدينة • وقد ظل يحاول ضربها

دون جدوى ، حتى أخبرته أرملة القتيل أنه لن يتمكن من الاستيلاء على المدينة طالما كان جسد زوجها يحرس أسوارها • عند ذاك أخذ الأخ يحفر الأرض بحثا عن أشلاء أخيه حتى عثر عليها • بعد ذلك استسلمت المدينة دون مقاومة • وشبيه بهذا الطقس ما يتبعه « اللوشايين » فى « أشام » عندما تكون المرأة فى حالة الوضع • فلكى يخفف عنها أصدقاؤها آلام الوضع يأتون بدجاجة ويذبحونها ويشطرونها شطرين متساويين • أما الشطر الذى يحتوى على الرأس فيوضع عند الطرف الشمالى من المدينة مع سبعة عيدان من الخيزران توضع فى شكل حزم • وأما الجزء السفلى من الدجاجة فيوضع عند الطرف الجنوبى من القرية مع خمس حزم من الخيزران • وفضلا عن ذلك فان جرعة من الماء تقدم للمرأة لتشربها • ويطلق على هذه الشعائر اسم « أرتى ــ بومفيلنا » ، ومعناه : « فتح البطن بمساعدة دجاجة » ، لأنهم يعتقدون أن شطر الدجاجة الى شطرين يسهل عملية الولادة • على أنه لم يذكر شىء عن الوسيلة التى يحدث بها هذا الطقس هذا التأثير المفيد ، ولكننا نحدس أن الناس يعتقدون أن جزئى الدجاجة الموضوعين عند طرف القرية يحرسان المساحة الواقعة بين المكانين من غزو القوى الشريرة ، وبخاصة تلك القوى الشيطانية التى حاولت دون ولادة الطفل •

وربما تأكد هدف التطهير أو الحماية من التضحية بالفتاة التى عثر عليها فى « جيزر » ، باكتشاف آخر تم فى المكان نفسه • فقد كشفت الحفريات المتأخرة فى هذا المكان عن نصف هيكل غلام فى السابعة عشرة من عمره • وقد شق جسد هذا الغلام كما حدث مع الفتاة ، من وسطه بين الضلوع وتجويف الحوض • ولم يعثر كما هو الحال مع الفتاة ، على الجزء السفلى من جسد الغلام • والى جانب الهيكل النصفى للغلام عثر على هيكلين كاملين لرجلين ، الى جانب مجموعة من الأوانى الفخارية وضعت فوق الهياكل ومن حولها • وقد

عثر على هذا الكشف تحت أساس بناء ؛ ان لم يكن أسفله مباشرة . ومن ثم فقد أشار الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » الى أن هـذه الهياكل هى بقايا جثث آدمية ضحى بأصحابها وفقا للعادة المنتشرة ، ودفنوا تحت أساس البناء لاكسابه قوة ومناعة أو لحمايته من الاعداء . وتتضح هذه العادة كل الايضاح من خلال نماذج مستمدة من بلاد متعددة ، بحيث أننا نرى أنه ليس ن الضرورى أن نسهب فى ايضاحها ، وانما سأكتفى بتقديم مثال واحد سجله شاهد عيان . وقد حرصت على تقديم هذا المثال لأنه يشير بوضوح الى سلسلة التفكير التى أدت الى رسوخ هذه لعادة . فقد عاش بحار انجليزى هارب منذ سبعين أو ثمانين عاما مضت ؛ طيلة عامين وحـده بين « الفيجيانيين » الذين مازالوا متبربرين ملحدين . وقد خلف لنا هذا البحار حكاية تجاربه الساذجة وان كانت لا تخلو من قيمة . فبينما كان يقيـم مع هؤلاء المتبربرين ، تصادف ان كان يبنى بيت الملك أو الزعيم المحـلى . ثم أبصر « جاكسون » ذات يوم ، بينما كان يقف بالقرب من مكان البناء رجالا يساقون ويدفنون أحياء فى الجحور التى كان سيقام فيها أعمدة البيت . وقد حاول الأهالى أن يصرفوه عن رؤية هذا المنظر ، ولكنه أسرع الى أحد هذه الجحور ، حتى لا تتم عليه الخديعة ؛ فأبصر رجلا يقف فى الجحر ويداه تعانقان العمود ورأسـه مازال بارزا من بين التراب . فلما سأل الاهالى عن سبب دفنهم لرجال أحياء عند أسفل الأعمدة ، أجابوه بأن البناء لا يصمد طويلا مالم يمسك الرجال بدعائمه على الدوام . فلما سألهم : وكيف يتسنى لهؤلاء الرجال أن يمسكوا دعائم البيت بعد أن يموتوا ، أجابوه : بأنه اذا ضحى الرجال بأرواحهم فى محاولة الامساك بالأعمدة فان فضيلة التضحية تحض الآلهة على المحافظة على سلامة البناء بعد أن يموت الرجال .

وهذا المجرى من التفكير يصلح تماما لأن يفسر وضع هيـكل الذكرين اللذين عثر عليهما تحت أساس البناء فى « جيزر » ، ذلك أن أحد هذين الهيكلين قد عثر عليه وهو يمد يده الى آنية ، كما لو كان

يعين نفسه على تناول الطعام وبذلك يصبح قادراً على القيام بهـذا العمل الشاق وهو الامساك بالحائط . ولكنه ليس من اليسير على هذا النحو أن نفسر وجود نصف هيكل الغلام الذى عثر عليـه فى المكان نفسه ، ونصف هيكل الفتاة الذى عثر عليه فى المقبرة الاسطوانية . لانه اذا كان الشخص حقا مكلفا بحمل أساس البناء حتى لا يهوى ؛ فمن الطبيعى أن يختار لهذا العمل المضنى رجالا أشداد . ولكن كيف يقوم نصف جسد صبى ونصف جسد فتاة بهذا العمل . وكيف يمكن للحائط أن يقف راسخا وهو يرتكز على صبية وفتيات ليس لديهم أرجل ؟ ومن ثم فان النظرية التى تقـول ان هؤلاء الضحايا قـد قتلوا وشقت أجسادهم الى نصفين بقصد تقديمهم ضحية لأساس البناء ، لا يمكن أن تكون مقنعـة .

والى هذا الحد ينتهى نقاشنا حول نظرية الوقاية أو التطهير فى تفسير وجود هذه الهياكل الغامضة التى عثر عليها فى « جيزر » .

ولننتقل الآن الى مناقشة نظرية العهد لنرى ما اذا كانت أكثر ملاءمة لهذه الحقائق . ووفقا لهذه النظرية أن الغلام والفتاة قد قتلا وشطر جسداهما الى شطرين ، لا بقصد تطهير البنـاء من الأرواح الشريرة أو حمايته منها . وانما بقصد التصديق على عهد من العهود ، وذلك بأن يمر الطرفان المتعاهدان بين شطرى القتيل ، تماما كما كان العبريون يصدقون على العهد بأن يمروا بين شطرى العجل المذبوح . وربما أيدت الموازنة التالية وجهة النظر هذه . لقد سبق أن رأينـا قبيلة « الواتشاجا » التى تسكن أفريقيا الشرقية ، تخلع الرهبة على العهد أو هدنة السلام التى تعقد بين طرفين ، بأن يشطر جدى حى وحبل بضربة وحدة ويدعون فى الوقت نفسه على من يحنث باليمين بأن ينشق جسده الى نصفين كما انشق الجدى والحبل معا . ولكن قيل ان هذه القبيلة كانت تتبع وسيلة أخرى فى عقد الحلف ؛ وأن هـذه الوسيلة كانت تعتمد منذ العصور البالغة فى القـدم ؛ فهم يأخذون غلاما وفتاة ويطلب منهما أن يطوفا ثلاث رات أو سبع مرات حـول

المتعاهدين المجتمعين ، بينمـــا تتلى دعوات اللعنة أو البركة لتحل تباعا على من يحنث باليمين أو يبقى عليه • ثم يشطر الغلام والفتـــاة الى شطرين من الوسط ، وتدفن أجزاؤهما الاربعة عند حدود الحيين اللذين يسكنهما الطرفان المتعاهدان • ثم يســـير ممثلون من كلا الطرفين على قبر القتيلين ، ثم يتفرقون بعد ذلك عائدين الى بيوتهم • والفكرة فى هذه الشعائر ، فيما قيل لنا ، هى تلك اللعنة المتضمنة التى تحل بحانث اليمن ؛ فينشق جسده الى شقين كما حدث للغلام والفتاة ، وأن يموت دون أن يختلف وراءه ذرية كما حدث للغلام والفتاة كذلك • وقد قيـــل انه لكى نفهم المغزى العميق لهذه اللعنة ، فمن الضرورى أن نعـــرف ما تحتوى عليه ديانة « الوتشاجا » من عبادة أرواح الأجداد • فالرجل الذى يتوف دون أن ينجب أبنـــاء ، لن يترك وراءه من يقوم بتقـــديم الضحية له التى تعـــد الوســـيلة الوحيدة لاستقبال الأموات له استقبالا حسنا ، وتضـــمن له تأييدهم على الدوام •

والرجـــل الذى يموت دون أن يخلف وراءه ذريـــة قد كتب عليه أن يعيش الى الأبد حياة الوحدة فى العـــالم الآخر ، فلا يجـــد من يلبى رغبته فى تناول قطعة من لحـــم البقر يشـــبع بها رمقـــه ، أو جرعة من الجعة يروى بها ظمـــأه ، ذلك أن الجعة ولحـــم البقر ولحم الضـــأن هى الأشياء التى ترغب الأرواح الراحلة فى تسلمها من أيدى أقربائهـــم الأحياء •

فاذا كانت الموازنة بين طقـــوس « الواتشاجا » والطقوس السامية تتفق فيما بينهمـــا ، فانها تهيىء لنا أن نفهـــم السبب فى شطر الضحايا التى عثر عليها فى « جيزر » وأن نفهـــم لماذا كانت هذه الضحايا غلاما وفتاة وليسا رجلا وامرأة كاملى النمـــو • فلســـنا فى حاجة ســـوى أن أن نفترض أنهما قد قتـــلا وشطرا الى شطرين بقصـــد التصديق على عهد مقدس ، وأن الطرفين المتعاهدين قـــد مرا بين شطريهما ، وأن كلا منهمـــا قد أخذ نصف الغلام أو نصف الفتـــاة وعاد به الى بلده كضمان

لصدق الآخر فى عهده ، تماما كما حصل كل طرف من الطرفين المتعاهدين فى قبيلة الواتشـاجا على نصف الحبل كضمان لصدق الطرف الآخر فى عهده • واذا كنا قد أشرنا الى أنه قد عثر فى « جيزر » على نصفى الغلام والفتاة وأن كلا النصفين هو النصف العلوى من الجسدين • فليس بمستبعد كلية أن المزيد من الحفريات المستقبلة فى فلسطين قد يكشف عن مصير الجزئين السفليين من جسديهما اللذين حملهما معه الطرف الآخر من الطرفين المتعاهدين الى بلده ودفنهما هناك • وأكثر من هذا فربما استطعنا أن ندرك الآن لماذا وقع الاختيار على الغلام وفتاة لكى يقدما ضحية ، ولم يقع على رجل وامرأة • واذا كانت الموازنة بين الشعائر العبرية وشعائر « الواتشـاجا » تقوم على أساس سليم فان الهدف من وراء هذا الاختيار هو اللعنة الضمنية . فيموت من يحنث بالقسم دون أن يخلف وراءه ذرية ، كما مات الغلام والفتاة اللذان مر المتحالفون بين أجزاء جسديهما من قبل أن ينجب ذرية • واذا تذكرنا رغبة الساميين الملحة فى انجاب الأطفال . استطعنا أن ندرك هول تلك اللعنة بالنسبة للمتعاهدين ، وبالتالى مدى حرصهم على الارتباط بالعهد •

وأخيرا ، فان من الجدير بالنظر . أن الموازنة بين شعائر الواتشاجا عند عقد العهد بالشعائر العبرية التى تقام فى مثل هذه المناسبات سواء كانت الضحية التى تشطر الى شطرين هى جدى أو انسان ، فان هذه الموازنة من شأنها ان تدعم التفسير الجزائى فى الطقوس العبرية ، حيث أن المثالين اللذين أشرنا اليهما عند قبيلة « الواتشاجا » مهم منهما أن شطر الضحية الى شطرين يرمز الى مصير الحانث باليمين • ومع ذلك فمازال الباب مفتوحا لأن نفسر المرور بين أجزاء الضحية على نحو ما أشار اليه « روبرتسون سميث » ، أعنى أن هذا المرور يعد وسيلة للربط بين الأشخاص والضحية بقصد إكساب هؤلاء الاشخاص صفات خاصة يظن أن الضحية تمتلكها ، كما يظن أنها تنتقل الى هؤلاء الذين يدخلون فى رباط مع الحيوان . إما عن طريق المرور خلال

أجزاء جسده أو بأى وسيلة أخرى كأن يلطخ الاشخاص أنفسهم بدمه ، أو يرتدى جزءا من جلده • وفى حالة عقد العهد ، فان الغرض من ربط المتعاهدين بالضحية هو التأكد فيما يبدو ، وذلك عن طريق السحر المتبادل ، أنه اذا حنث أى طرف من الطرفين المتعاهدين بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير الضحية ، فالسحر المتبادل اذن هو الذى يخلق بين المتعاهدين والضحية قوة تربطهم وتكون أكبر ضمان على تحقيقه •

وبناء على ذلك ، فاذا صح تحليلنا لعهد ابراهيم ، فان الشعيرة التى قام بها تتكون من عنصرين متميزين ، وان كانامتلازمين ، أما العنصر الأول فهو شطر الضحية الى شطرين ، وأما العنصر الثانى فهو مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية • والعنصر الأول يفسر بنظرية الجزاء ، وأما العنصر الثانى فيفسر بنظرية السر المقدس وكلتا النظريتين تكمل احداهما الاخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيرا متكاملا لهذه الشعيرة •

الفصل الثانى

ارث يعقـــوب
أو نظام وراثة
الابن الأصــغر

١ ـــ آثار وراثة الابن الأصغر عند بنى اسرائيل :

ان الروايات التى تتعلق بشخصية « يعقوب » تعد أكثر اكتمالا من تلك التى تتعلق بشخصية أبيه « اسحق » وجده ابراهيــم • وهى فضلا عنذلك ، أكثر غنى فى مادتها الفولكلورية ، أى فيما تكشف عنــه من بقايا معتقدات وعادات قديمة • وقد كان من انطبيعى أن تتجمــع فى شدة ، الذكريات والخيالات حول شخصية الجد البطل الذى ينسب اليه بنو اسرائيل سواء من ناحية الاسم أو من ناحية الدم •

ومع ذلك فان شخصية الجد الكبير ، كما تصور فى سفر التكوين ، ليس فيها ما يمتع القارىء الحديث أو يجذبه اليها الا القليل ، كما أنها تتعارض بطريقة غير مستحبة مع الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم ، كما تتعــارض ع الورع التــأملى الذى اتســم به أبوه اسحق • فاذا كان ابراهيم يعد مثالا للشيخ الســامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة واللطف ، فان يعقوب كان مثالا للتاجر السامى اللين الحذق ، والوافر الحيلة ، الذى يحرص على المكسب ، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة ، بل بالحذق ، دون أن يتردد كثيرا فى اختيار الوســائل التى يبز بها منافسية ويتفوق بها عليهم • هذا الجمع غير المرغوب فيه بين

الجشع والمكر ، تكشف عن نفسها فى الحوادث المبكرة فى حيـاة يعقوب التى دونها سفر التكوين ، أعنى تلك الحيل التى سعى عن طريقهـا لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ، ويسلب منه حقه فى الارث ، كما يسلبه من بركة أبيه • فقد كان يعقوب وعيسو توامين ، ولكن حيث أن عيسـو كان أكبر الأخوين ، فقد كان من حقه وفقا للنظام الشائع ، أن تخلـع عليه بركة أبيه ، وأن يرثه • أما الوسائل التى سعى يعقوب عن طريقها أن يسلب أخاه الاكبر من حقوقه ، فكانت ببسـاطة مواقف حادة من المؤامرات ، فقد أستغل فى بداية الأمر جوع أخيه ، فاشترى منه حقه فى الوراثة مقابل أكلة من الثريـد ، ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيـه واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ، ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هـو عيسو وبذلك اغتصب بركة أبيه التى كان يعى بها أخوه • حقـا ان الموقف الثانى من الخديعة التى تمت على الأب الكهل ، لم تكن من صنع يعقوب ، وانما اوحت به اليه أمه « رفقـة » التى كانت تسـمى قبل زواجها « لبيبة » ، وذلك لكى تختبر مهارتها فى خـداع زوجها • ومع ذلك ، فان استعداد يعقوب السريع فى تقبل الخدعة ، يبرهن على أنه ما كان يعوقه فى خداعه لأبيه شعور بالود وإنما كان الميل إلى الحيلة السريعة يغلب كل إحساس طيب عنده •

وقد يثير مثل هذا التواطؤ فى مرحلة معينة من التطور الأخـلاقى بعض الاستهجان ، وقد لا يثير هذا الاحساس على الاطلاق ، اللهم بين الذين يعانون منه • فقد يميل الشخص غير المتحيز المعاصر لهذا الفعل ، الى أن يثنى على هذا التواطىء الذى يدل على المهارة والذكاء اللذين مكنا صاحبهما من الانتصار على شـخصية لا تتسم إلا بالصدق والغباء • ولكن بعد أن تغيرت المقاييس الأخلاقية ، فقد أصبح الرأى الجماهيرى يقف فى صف الصادق الغبى ، ويولى ظهـره لمثل هذا الانسان المـاهر الحاذق • ذلك أن التجـربة قد أثبتت أن أى تواطؤ مهما تكن درجة ذكاء صـاحبه وبعد نظره ، فانه لا يسىء الى الأفراد فحسب ، وانما يسىء

الى المجتمع بوصفه كلا ، وذلك لانه يخلخل رباط الثقـة المتبـادلة بين الناس ، تلك الثقة التى تربط وحدها بين جماعة الناس فى وحدة واحدة .
وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بوجه عام ، بدأ المؤرخون يقيمون أعمـال الرجال فى العصور الماضية بمقاييس أخلاقية لم يكن يتسنى لهـؤلاء الرجال المخادعين أنفسـهم أو لمعاصريهم ان يستخدموها فى الحـكم على أفعـالهم . فاذا وجد الناقد اللبيب ان الشخصيات البطولية التى عاشت فى الزمن الماضى تهبط دون هـذا المسـتوى الأخلاقى ، فانه ، بدلا من أن يعترف صراحة بالبون الشاسع الذى أوجده التطور الاخلاقى بينه وبين هذه الشخصيات ، فانه يحاول ان يتغافل هذا ، بالتماس المعاذير لهم ، وادعاء المبررات التى يرفضها هو نفسه بناء على مقاييسه الاخلاقية فالميل الى تبرأة الفرد من الاعمال الشائنة ، اذا كان دافعه القلب الطيب وليس الغرور الكاذب فى ادعاء المتناقضات ، يعد عملا جديرا بالاكبار ، وربما كان غير مؤذ لغيره ، وهو فى ذلك يختلف عن المحاولة الاخرى التى تهدف الى طمس اكثر الشخصيات شـهرة ، حيث أن مثل هذا العمـل البغيض وان يكون مألوفا ، لا يصيب الشخص البرىء بضربة فى ظهره فحسب ، وانما يسىء الى المجتمع كذلك ، ويهبط بمستواه الأخـلاقى ، حيث أنه يسلبه نماذج للفضيلة قلما نعثر عليها . وربما كان التأمل فى هذه النماذج أكثر ملاءمة للانسان الذى يتوق الى مثل الفضيلة ويعجب بها ، من الكثير من الأبحـاث التجـريدية التى تتحـدث عن الفلسـفة الأخلاقيـــة .

وفى السنوات المتأخرة أخـذ مواطن يدعى « يوسف يعقوب » على عاتقه مهمة الدفاع عن شخصية يعقوب ، فقد حاول أن يزيل تلـك الوصمة عن الجد النبيل ، بأن أشار الى أن يعقوب ، وفقـا للقـانون القديم ، كان أحق بالارث ، بوصفه الابن الأصـغر ، وأن الاحتيـال الذى لجأ اليه للحصول على مأربه ، وفقا للرواية العبرية ، ليس سوى تفسير خاطىء من قبل المؤرخ لعمـلية لم يفهمها هذا المؤرخ نفسـه .

ولست أود أن أخاطر بالقـول بما اذا كان هذا الاعتذار سليما أم غير سـليم ، ولكن من المؤكد أن مثل هـذا القـانون الوراثى القديم كان ينتشر ، كما افترض هذا المدافع عن يعقوب ، بين كثير من الشعوب . وليس هناك ما يدعـو لأن نفترض انه لم يكن منتشرا فى هـذا الزمن البعيد بين أجداد بنى أسرائيل . وقد عرفت هذه العادة أو القانون . باسم حق الابن الاصغر ، أو حق وراثة الابن الاصغر ، وذلك فى مقابل حق وراثة الابن الاكبر ، لأن الارث يؤول وفقا لهذا القانون ، الى الابن الاصغر بدلا من الابن الاكبر . وفى هذا الفصل أود أن أوضح هذه العادة من خلال الامثلة ، وأن أبحث أصلها .

ولنبدأ بالبحث عن آثار أخرى ممكنـة لحق الابن الاصغر أو حق وراثة الابن الاصغر فى العهد القديم نفسه . وربما كان أول ما يسترعى نظرنا أنه اذا كان يعقوب قد سلب أخاه الاكبر حقه ، فانه لم يفعـل الا ما فعله أبوه اسحق من قبل . ذلك أن اسحق كذلك كان ابنا أصغر ، وكان قد عزل أخاه اسماعيل من حقه فى وراثة أبيهما ابراهيم . وهـذا الذى اتبعه يعقوب فى معاملته لأخيه وأبيه ، اذا كان من المستطاع أن نسميه مبدأ ، يبدو أنه أتبعه بعد ذلك مع أبنائه وأحفاده . فقد قيل لنا : إن يعقوب كان يحب يوسف أكثر من أبنائه الكبار ، « لان يوسف كان ابن شيخوخته » . ولقد أبدى تفضيله ليوسف بطريقة أثارت الحقد فى قلوب اخوته الكبار ، الى درجة أنهم دبروا مؤامرة للقضاء عليه . حقا ان يوسف ، وفقا لرواية التوراة التى بين أيدينا ، لم يكن أصغر أبناء يعقوب ، حيث أن « بنيامين » قد ولد من بعده . ولكن ربما افترضنا أن يوسف كان حقيقة هو الابن الأصغر فى الرواية الاصلية . فالعاطفة القوية التى أبداها نحوه أبوه ، والرداء ذو الألوان المتعددة ، أو بالاحرى الرداء ذو الأكمام الطويلة التى كان يميزه بين أخوته ، ثم تلك المكانـة المرموقة التى تمتع بها بعد هذا كله ، كل هذا يؤيد أن يوسف كان أحب

أبناء يعقوب اليه • ولكننا نجد من ناحية أخرى أن اسم « بنيــامين » أصغر أبناء يعقوب معناه « ابن اليمين » • وهذا اللقب الذى يبرز بنيامين بوصفه صاحب الحق الشرعى فى الارث ، تؤيده الرواية المشهورة التى تحكى أن يعقوب عندما كان يبارك حفيديه ، ولدى يوسف فضـــل متعمدا (١) حفيده الأصغر على الأكبر ، بأن وضع يده اليمنى على رأس حفيده الاصغر « أفرايم » ، ويده اليسرى على رأس حفيده الاكبر « منسى » ، وذلك على الرغم من معارضة أبيهما يوسف الذى قدمها لأبيه فى وضع بحيث يكون الابن الاكبر مقابل اليد اليمنى ، والابن الاصغر مقابل اليد اليسرى • ولكن الشيخ اضطر الى ان يضع يده على صدره فى وضع متقاطع ، حتى تصل يده اليمنى الى رأس حفيده الاصغر ، ويــده اليسرى الى رأس حفيده الاكبر • ومن ثم فان الباحث الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن يعقوب ، يمكنه أن يقول بحق أن يعقوب كان يتمسك على الأقل فى أثناء حياته ، بمبدأ تفضيل الأبناء الصغار على الكبار ، وأنه كان يغفل هذا المبدأ عندما يجد أنه لا يخدم أغراضه الشخصية •

على أن هناك شواهد أخرى تؤيد هذا المبدأ ، وبتعبير آخر تشهد على أن عادة حق الابن الاصغر القديمة ، أو حقه فى الارث كانت متبعة فى بنى اسرائيل • فنحن نقرأ فى سفر التكوين أن « تامار » ابنة يهوذا أنجبت ولدين توأمين ، أحدهما كان يدعى « فارص » والآخر « زارح » وعلى الرغم من أن « فارص » كان هو الأسبق فى ولادته ، فان هنـــاك رواية غريبة تحكى عن ميلاد الطفلين وتميل الى أن تؤكد أن « فارص »

---

(١) « فلما رأى يوسف ان أباه وضع يده اليمنى على رأس افرايم ، ساء ذلك فى عينيه . فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس افرايم الى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه ليس هذا يا أبى ، لأن هذا هو البكر . ضع يمينك على رأسه . فأبى أبوه وقال علمت يا بنى علمت . هو أيضا يكون شعبا وهو أيضا يكون كبيرا ، ولكن اخاه الصغير يكون أكبر منه ، ونسله يكون جمهورا من الأمم » .
(سفر الخروج . الاصحاح الثامن والأربعون من آية ١٧ الى ١٩) .

كان حقا . شانه شأن يعقوب واخيه عيسو . اصغر الطفلين وليس أكبرهما كما يظن ذلك بعض الناس . على انه لا يبــدو من ظاهــر الرواية أن « فارص » كان هو الاصغر . ولكن هذا يتضح اذا تذكرنا ان «فارص» كان الجد المباشر للملك « داود » وأن « داود » نفســه كان أصغر أبناء أبيه ، وقد رشحه « صموئيل » عن عمد للملك مفضلا اياه على كل اخوته الكبار . ومن ثم فان هدف حكاية سفر التكوين من ذكر التفاصيل التى قد تبدو غير اساسية فى الحكاية ، ان لم تكن عارضة ، عن ميلاد التوائم، هو فيما يبدو اثبات أن الملك داود لم يكن أصغر أبناء أبيــه فحسب ، بل ينتسب كذلك الى أحفاد يهوذا ، أصغر التوأمين . وقد أورث داود بدوره الملك من بعده الى احد أصغر ابنائه وهو سليمان ، وأبعد عن عمد أحد أبنائه الكبار وهو « أدونيا » ، الذى كان قد طالب بالعرش . واذا اجتمعت معا كل هذه الحقائق ، فقد تثير افتراض أن عادة إرث الابن الاكبر . أو تفضيل الابن الاكبر على أخوته قد تلت ، عند الاسرائيليين ، عادة حق أرث الابن الأصغر . أو عادة تفضيــله على أخوته . بوصفه وريثا لأبيه . وقد يتأكد هذا الفرض اذا رأينا أن عادة مشابهة لهــذه العادة كانت تنتشر فى بقاع كثيرة من جهات العالم .

٢ ــ حق الابن الأصغر فى الميراث فى أوربا :

ومن بين هذه البلاد التى اتبعت هذه العادة وما تزال تتبعهــا ، بريطانيا . فما تزال هذه العادة القديمة . أو كانت حتى عهد قريب . هى قانون الأرض فى كثير من جهات انجلترا . وهذا القانون يعرف باسم Borough English وقد استمد هذا الاسم لتلك العادة من كلمة محلية استخدمت فى محاكمة من المحاكمات تمت فى زمن « إدوارد الثالث » . اذ يبدو من تقرير فى الكتاب السنوى فى الســنة الاولى من حكم الملك « ادوارد الثالث » أنه كان فى « نوتنجهام » اقطاعيتان اسم احدهما Borough English ، والأخرى Borough French وقد كانت المساكن

كلها تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الأولى الى أصغر الأبنـــاء ، كمـــا كانت تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الثانية الى أكبر الابناء • وقد قيل ان نوتنجهام ظلت حتى عام ١٧١٣ م منقســـمة الى الاقطاعيـــة الانجليزية والاقطاعية الفرنسية . وان كل اقطاعية كانت تسير وفقـــا لعاداتها • بل ان عادات مشـــابهة لهاتين العادتين ما تزال تنتشر فى الاقاليم المجاورة لهما •

أما عن الأماكن التى كانت ينتشر فيها نظام Borough French أو نظام حق الابن الأصغر فى الارث . فى انجلترا ، فكانت تنتشر على وجه التقريب على طول امتداد الشاطىء السكسونى « واسن » الى الأماكن المجاورة لـــ « سولنت » بما فى ذلك ممتلكات الكونت الجنوبية الشرقية بأسرها • ولكى نكون اكثر دقة . فان هذه العادة كانت اكثر ما تكون انتشارا فى « كنت » و « ساسكس » و « سرى » وفى مجموعة الأقاليم التى كانت تحيط بلندن القديمة • كما أنهـــا كانت أقل انتشارا فى « اسكس » ومملكة « ايست انجيليان » • وقد كانت تنتشر بصفة عامة فى « ساسكس » بالنسبة للأراضى التى تمتـــلك بالالتزام ، بحيث أنها كانت تسمى القانون العام للمقاطعة • أمـــا فى منطقة « ريب لويس » فكانت تنتشر على وجه التقريب انتشـــارا عاما بحق • وهناك أمثلة قليلة تدل على انتشـــار هذه العـــادة فى « همبشاير » ، ولكن كان هناك جزء كبير من « سومرست » يقـــع فى أقصى الغرب ، وهو عبارة عن مساحة متصلة من الارض ، يخضـــع لعادة قصر الارث على الابن الاصغر • وكانت هذه العادة تقل نسبيا فى « مقاطعة ميدلاند » ، فهى تنتشر فى وحدة ادارية من بين كل وحدتين اداريتين أو ثلاث ، فى حين أنها تنتشر فى أربع من المدن من بين المدن الخمس الدنماركية الكبيرة وهى : « ديربى » و « ســـتامفورد » و « لايكستر » ، و « نوتنجهام » • بالاضـــافة الى بعض المقاطعات المهمة الاخرى مثل « ستافورد » و « جلاوسستر » • ويبدو أن هذه

العادة لم تكن معروفة فى الشمال فى مجموعة المقاطعـــات التى كانت تقع بين « همبر » و « ميرسى » ..

على أن هذه العادة لم تكن مقصورة على الأماكن السكسونية فى انجلترا ، بل كانت تنتشر كذلك فى البلاد الكلتية مثل « كورنوول » و « ديفون » و « ويلز » . وتقضى قوانين « ويلز » القديمة بأنه « اذا تقاسم الأخوة الارث ، فان أصغرهم يملك المسكن وما يتبعـه من أرض ومنشآت وكل منشآت الأسرة ، وثمانية فدادين على وجه التقريب ، كما يملك البلطة والمرجل والمحراث ، اذ أن الأب لا يمكـن أن يمنح هذه الأشياء الثلاثة الا الى أصغر أبنائه . فإذا كانت هذه الأشياء مرهونة ، فانها لا تستبعد من الارث على الاطلاق » . أمـا قانون ويلز فلا ينص فى حق الابن الاصغر فى الارث الا على العقار والأرض ، وهو عندئذ يرث بيتـا مأهولا على الأقـل . فاذا وزعت سائر الممتلكات بين الاخوة ، فلا يتمتع الابن الأصغر بأى استثناء فى ذلك . ويبدو أنه ليست هناك أية شواهد تشير الى انتشار عـادة حق ارث الابن الاصغر فى أى مكان فى اسكتلنده ، ولكنه كان من المألوف فى جزر « شتلاند » ، أن يرث الابن الأصغر ، ذكرا كان أم أنثى ، عند تقسيم التركة ، مسكن الأبوين .

ويبدو أن عادة حق ارث الابن الأصغر كانت مرتبطة فى القانون الانجليزى القديم بسيطرة السادة على ملكية الارض . وقد كتب الى الأستاذ الراحل « ف.و. ويتلاند » حول هذا الموضوع فقال : « أما عن انتشار عادة حق ارث الابن الاصغر ، فقد اطلعت على كثير من شواهدها فى الوثاق التى ترجع الى القرن الثالث عشر . وســواء أكانت هذه الوثائق مطابقة للحقيقة أم لا ، فانه ينظر اليهـا على الدوام بوصفها شاهدا ، ان لم تكن دليلا قاطعا ، على سيطرة السادة على ملكية الأرض . ويبدو ، وفقا لهذا النظام ، أن مســاكن موالى السيد لم تكن تورث على الاطلاق ، ولكن هذا النظام كان يتطلب من

السيد أن يختار أحد أفراد أسرة المستأجر المتوفى ليحل محلـــــه ، ولم يكن من الامور غير الطبيعية أن يختار هذا السيد أصغر أبنـــــاء المستأجر المتوفى • أما سائر الأخوة فيضربون فى الحياة كما خلقوا فيها ، فى حين يبقى الابن الى جانب أبيه فى بيته ساعة احتضاره • ووفقـــــا لكثير من العادات التى تراعى تقسيم التركة بالتساوى بين الأخوة ، يختص الابن الأصغر بوراثة بيت الأسرة وما حوله ، والمدفأة • على أننى لا أدعى بذلك أننى قد توصلت الى اثبات مبدأ العبودية فى نظام حق الابن الأصغر فى الارث ، ولكن من المؤكد أن وراثة الابن الاصغر لأبيه فى الأرض كانت تخضع لنظام العبودية فى القرن الثالث عشر • وفى وسعى أن أقدم أثباتا كافيا على ذلك • وكان هذا المبدأ يرتبط بنظام الاتاوة Merchetum (١) ، اذ كثيرا ما يذكران معا كما هو الحال فى المثال التالى(٢) : « أنتم عبيد أرضى ، فرضت عليــكم الجـــزية ، ودفعتم لى الاتاوة فى زواج بناتكم ، وقد كان كل منكم أصغر أبناء أبيه فورثه فى التزامه » •

ومما هو جدير بالذكر ان نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى فى انجلترا لا يقتصر على الذكور • فهناك عشرات ، ان لم يكن مئات من الأحياء الصغيرة التى يمتد فيها هذا الحق من الذكور الى الاناث• وفى هذه الحالة تفضل أصغر البنات أو أصغر الأخوات أو الخالات على شريكاتها الأخريات •

وكذلك ينتشر نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى بعض جهات فرنسا • « ففى بعض نواحى ممتلكات الكونتات فى « كورنواى » فى

---

(١) كان هذا اسم الاتاوة التى يدفعها الملتزم للسيد الاقطاعى عند تزويجه ابنته .

(٢) من رسالة ف . و . ميتلاند F. W. Maitland بتاريخ ١٨٨٧/١١/١

« بريتانى » ، يتمتع أصغر الأبناء بحق يختص به وحده يســاوى الابن الأكبر تماما • فأصغر الأبناء ، ذكرا كان أم أنثى ، يرث الأرض التى تسمى quevaise ، دون اخوته واخواته » • ويعرف هذا الحق فى فرنسا بقانون mainetė • وعلى الرغم من ان هذه العــادة تنتشر فى المقاطعات الممتدة الكثيرة التى كانت تابعــة للأشراف فى « بريتانى » ، فاننا لا نستطيع أن نتعرف بذلك على أصل انتشارها فى فرنسا • ذلك أن المحامين الاقطاعيين عندما كانوا يشرعون العادات فى الأقاليم ، كان النبلاء يولون ظهورهم للعادة غير المألوفة لديهم • كما أننا نعلم أن المنطقة التى كانت تنتشر فيها هذه العــادة فى القرن السابع عشر كانت تتضــاءل يوما بعد يوم على وجه التقريب • أما الأحياء التى كانت تروج فيها تلك العادة ، فكانت تتضمن « دوقيــة روهان » ، ومقاطعة « بلا كريك » وممتلكات الأديرة فى « ريليك » و « بيجار » • أما فى « بريتانى » كما هو الحال فى كثير من جهــات انجلترا فقد كان نظام حق الابن الأصغر فى الارث يتبع نظام ادارة الأرض بالسخرة • واذا توفى الأب فى « بريتانى » كما هو الحــال فى انجلترا دون أن يترك أولادا ذكورا ، فان الارث يؤول الى أصغر البنات • وقد كانت تعيش هذه العادة تحت اسم Madelstad maineté فى « بيكاردى » و « أرتوا » ، « هينو » وفى « يونثيو » ، « فيقير » ، وفى الأحياء التى تقع حول « أراس» و «دواى» و «أميان» و «ليل» و «كاسل» ، وفى الأقاليم المجاورة من «سنت أومير» • ويتفاوت حق ارث الابن الأصغر فى كل هذه الأحياء ، بين أن يرث هذا الابن التركة جميعها ، أو أن يتميز عنهم فقط فى ارث أثاث البيت • وهذا النظام نفسه فى الارث ، ساد كذلك فى « جريمبرجن » فى « برابانت » •

وقد انتشرت مثل هذه العادات فى كثير من جهات « فرفزلاند » • وأشهر هذه العادات ، تلك التى كانت تعرف باسم «جوسشيلاكتيوم» أو تشريع « أراضى ثيل » ، وهى تلك الاراضى التى كانت مقسمة أو موزعة فى الشمال فى شرق « فرفزلاند » غير بعيد ما منبع نهر « امز »

وقد ظل المزارعون فى هذا الحى حتى القرن التاسع عشر يحتفظون بحصصهم وفق نظام من القوانين المعقدة التى وضعت لتحول دون تجزئة الأراضى ، تلك التجزئة التى لا تعود عليهم بفائدة • فحصة الأرض التى تورث لم تكن تقسم ، وانما يرثها الابن الاصغر كاملة بعد موت أبيه • فاذا مات هذا الاب دون أن يترك وراءه ذرية ، فان هذهالحصة من الارض تصبح ملكا للجماعة •

وهناك أمثلة أخرى لسدة حق ارث الابن الاصغر يمكن ان تستخلص من العادات المحلية التى ألغاها القانون المحلى فى « وستفاليا » وفى بلاد نهر الراين التى كانت تخضع « القانون السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان المزارعين كانوا يتمسكون بتلك « ميندن » ، والتى كان سكانها يدعون أنهم ينتمون الى العنصر السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان الزراعين كانوا يتمسكون بتلك العادة الى درجة « أنه حتى زمن قريب لم يكن يطالب الابن الأكبر بحقه القانونى الالزامى قط ، وانما كان الأبناء يرضون بحق أخيهم الأصغر فى الأرث ، وان لم يترك لهم أ ىنصيب يرثوه • ولم يكونوا يحلمون قط بالمطالبة بحقوقهم فى ظل قانون الإرث الذى لم يكن قابلا للنقض • وحتى اذا توفى الزارع دون أن ينص على هذه الوصية المألوفة ، فان الأبناء يرضون بعدم مشاركتهم لأخيهم الأصغر فى الارث » • وشبيه بهذه العادة تلك العادة التى ازدهرت فى « سيليزيا » وفى جهات بعينها من « فورتنبرج » ، حيث فشلت قوانين الوراثة الجديدة فى القضاء على الامتياز القديم المقدس للابن الأصغر الذى كانت تراعى حقوقه فى تسوية سرية أو بقوة الرأى المحلى • وهناك فى غابة « أودين فالد » ، وفى الحى الذى لا يزدحم بالسكان ويقع الى الشمال من بحيرة « كونستانس » : ممتلكات من الأراضى يطلق عليها اسم « هوف جوتر » غير قابلة للتقسيم ، وانما تؤول الى أصغر الأبناء الذكور • فان لم يكن هناك أبناء ذكور آلت الى البنت الكبرى• وهناك أماكن أخرى كثيرة تنتشر فيهاعادة حق الابن الأصغر فى الارث • فقد

قيل لنا انها توجد فى سوابيا ، وفى سويسرا ، والالزاس ، وغير ذلك من البلاد الألمانية أو تلك التى يخضع جزء منها للبلاد الألمانية • ففى هذه الأماكن ما تزال هذه العادة لها تأثيرها على المزراعيين على الرغم من أنها فقدت صفتها الشرعية •

وليس هناك دليل على أن هذه العادة كانت منتشرة فى الدانمارك والنرويج والسويد • ولكن الابن الاصغر كان يتمتع بهذا الحق فى جزيرة « بورنهولم » (التى كانت مملكة ذات يوم) وهى جزيرة ملحقة للتاج الدنماركى ، كما أن آثار لهذه العادة قد سجلت فى مقاطعة جمهورية « لوبيك القديمة » •

أما فى جنوب روسيا وغربها ، فان النظام يتجه الآن الى تحطيم وحدة العائلات القديمة عن طريق سكنى الأبناء فى بيوت مستقلة يمتلكونها • وقد قيل انه ينظر الى الابن الاصغر فى هذه الحالة بوصفه وريثا لمنزل الأسرة • واننى لمدين للسيدة « م•أ•تزابليكا » العالمة الاثنولوجية البولندية المرموقة ، لأنها أمدتنى بالمعلومات الآتية التى قالت فيها : « من المعروف ان حق الابن الأكبر أو الابن الاصغر فى الارث ، كان هو العرف الذى يسير وفقه المزارعون الروس منذ الزمن الذى ظهر فيه التشريع الروسى « روسكايا برافدا » ، وهو التشريع الروسى الأول الذى شرع فى عهد « باروسلاف « الأكبر • بل إن هذا النظام مازال هو السائد فى قانون المزارعين العرفى ، الأمر الذى يجعل من الممكن اقتفاء أثر أصل هذا القانون فى نظام الوراثة • ولا يعد حق الابن الأصغر امتيازا وانما هو أمر طبيعى • وذلك نظرا لما يحدث فى الواقع وهو انفصال الأبناء الكبار فى العادة عن منزل أبيهم وعن أسرهم . فى حين أن الابن الصغيرأو الاصغر لا ينفصل عن أبيه قط طالما كان الأب على قيد الحياة • على أنه اذا ورث الابن الصغير ، بالاضافة الى مسكن الاب ، ممتلكات أخرى الامر الذى يضر بأخوته الكبار ، فانه يرث كذلك أعباء بعينها • وتلك

الاعباء هى أن يرعى أبويه العاجزين ، كما يرعى فى الغالب اخـواته غير المتزوجات • فاذا لم يكن الابناء الكبار قد انفصـلوا عن منزل أبيهم عند وفاته ، فان منزل الاسرة يؤول كذلك الى الابن الاصغر ، على أن يكون من واجبه أن يساعد أخوته الكبار فى تأسـيس مسـاكن لأنفسهم » • كما أخبرتنى السيدة « تشابليكا » بأنه « ليس هناك أثر لعادة حق الابن الاصغر فى الارث فى غير طبقة المزارعين فى روسيا • ويقتصر الارث فى هذه الحالة على بيت الاسرة وعلى قطعة من الارض التى تملكها الأسرة ، لا تلك التى تملكها الجماعة » •

وبهذا نكون قد ألقينـا نظرة على انتشـار عادة حق ارث الابن الأصغر بين الشعوب الآرية فى أوربا • فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الشعوب الاوربية التى لا تنتمى الى الأصل الآراى ، فاننا نعرف « أن قانون الضواحى فى هنغاريا يقضى بأن يرث الابن الاصغر بيت الاسرة على أن يعوض الابن الاصغر أخوته عن هذا الامتياز • وعلى الرغم من أن رب الاسرة عند « التشوديين الشـماليين » يمكن أن ينيب عنه الابن الاكبر أو الاصغر فى ادارة شئونه ، وربما أناب عنه شخصا غريبا اذا شاء ،الا أنه يتحتم عليه أن يورث أصغر أبنائه المسكن الذى يسكن فيه •

٣ ــ مسألة أصل حق الابن الأصغر فى الميراث :

بعد أن قدمنا نماذج لانتشار عادة حق الابن الاصغر فى الارث أو تفضيل الابن الأصغر على اخواته فى الارث ، يحق لنا أن نتساءل : ماذا كان اصل هذه العادة التى تفاجئنا اليوم بغرابتها وباجحافها بحقوق الأبناء ؟ ان الآراء التى تعرضت لهذا الموضوع كثيرة ، ومن الافضل أن نبدأ برأى العالم ورجل القانون « سير وليم بلاكستون » الذى عبـر عنه فى شروحه الشهيرة للقانون الانجليزى • ففى أثنـاء حديثه عن عن نظام ملكية الاراضى فى الاقطاعات أو البلاد التى لها حـق التمثيل فى البرلمان ، وازن بينه وبين نظام ملكية الارض فى ظل النظام

الحربى ، أو خدمة الفروسية ، وعدة من مظاهر بقايا الحرية السكسونية التى أبقى عليها هؤلاء الافراد الذين لم يرهنوا أرضهم ولم يضطروا الى استبدالها ؛ « ذلك أنه كلما كانت ملكية الأراضى أكثر شرفا ،كما كانوا يدعون ذلك، كلما زادت أعباؤها» والحرية السكسونية من وجهة نظره « تشمل أيضا التنوع الكبير ف فى العادات التى تؤثر على نظام الملكية التى تعد أهمها وأبرزها النظام الانجليزى الذى يعرف باسم Borough English تمييزا لها عن العادات النورمندية ، تلك التى أشار اليها « جلانفيل » و « ليتلوتون » وغيرهما وشرحوها ، بأن الابن الاصغر ، لا الأكبر ؛ هو الذى يرث مسكن الأسرة بعد موت أبيه • أما السبب الذى قدمه « ليتلون » لاتباع هذه العادة ، فهوأن الابن الأصغر نظرا لصغر سنه ، لن يكون قادرا على اعالة نفسه كما يفعل اخوته الكبار • وهناك مصادر أخرى قدمت سببا آخر أكثر غرابة بحق ، هو أن سيد الاقطاعية كان فيما يبدو ، من حقه أن يتخذ محظية له فى ليلة زفافه من زوجته الأصلية التى تنتمى الى هذه الاقطاعية • ومن ثم فان مسكن الأسرة لا يؤول الى أكبر الأبناء بل الى أصغرهم الذى يكون انتماؤه الى الاقطاعية أكثر ترجيحا من انتماء الابن الأكبر لها • ولست أعرف أن هذه العادة كانت تنتشر فى أنجلترا ، وان كانت قد انتشرت بالفعل فى اسكتلندا (تحت اسم Marcheta أو Mercheta ، حتى قضى عليها « مالكولم الثالث » • وهناك سبب ثالث ربما كان أكثر منطقية من السببين الاولين استخلص من عادات التتار الذين كانت تنتشر بينهم ، وفقا لما ذكره الأب « دوهالدى » عادة حق ارث الابن الاصغر • وقد كان الشعب التترى يتكون أصلا من الرعاة وأصحاب القطعان ، وكان الابناء الكبار يهجرون أباهم ، بمجرد أن يصبحوا قادرين على أن يعيشوا حياة رعوية بمفردهم • وفى هذه الحالة يصحبون معهم عددا من القطعان ويبحثون عن مسكن جديد لهم • أما الابن الاصغر ، الذى يعيش فيما بعد مع أبيه ، فهو يصبح وارث بيت الاسرة بعد موت أبيه ، ويتحمل سائر الأعباء • وهكذا نرى أن العادة التى كانت متبعة بين كثير من

الشعوب الشمالية هى أن يهجر الابناء جميعا آباءهم فيما عدا الابن الاصغر الذى يصبح وريثه فيما بعد ، بحيث يمكننا أن نستخلص أن هذه العادة ، حيثما وجـدت ، يمكن أن تكون بقايـا النظـام الرعوى لأجدادنا البريطانيين والجرمانيين ، ذلك النظام الذى وصـفه كل من قيصر وتاكيتوس •

على أننى لم أعثر على عبارة « دوهالدى » التى أشار اليهـا « بلاكستون » ، ولكن هذه العبارة يؤكدها مؤرخ محـدث أخبرنا أن « أهم ما يميز القانون القديم الذى كان سائدا بين الاتراك والمغول ، وهو الذى يلقى ضوءا حيا على تاريخهم ، تلك العادة التى سأطلق عليها ، نظرا لاحتياجى الى اصطلاح آخر ، عادة « التبنى المعكوس »• فالعادة المتبعة عند الأتراك فى الارث ، تضع له نظاما على نحو غريب للغاية • فالوريث الدائم الذى يرتبط على نحو ما بتربة وطنـه هو أصغر الأبنـاء • وهو الذى يطلق عليه المغول اسـم « أوت ــ ديزيكين » ، كما يطلق عليه الأتراك اسم « تيكين » أى « حارس الدار » • فالى هذا الابن الأصغر يؤول نصيب الأرض الذى لا يتغير، ذلك الذى ذكره المؤرخون الصينيون والرحالة الغربيون • فالأبنـاء الكبار يوزعون فيما بينهم المنقولات وأهمها المال الذى هو القطعان والماشية » • وفضلا عن ذلك كانت عادة حـق ارث الابن الأصغر مألوفة لدى مجموعة من القبائل المغوليـة • وربما أدى البحث عن أحوال هذه القبائل الاجتماعية الى القاء الضوء على مشكلة الارث هذه • ولكننى أود أن أشير ، فى بداية هذا البحث الى أنه ليسـت هناك قبيلة من هذه القبائل تشتغل بالرعى ، على عكس ما كنا ننتظره وفقا لنظرية « بلاكستون » ، هذا اذا افترضنا أن نظريته صحيحة ، وانما تعتمد هذه القبائل كلية فى معيشـتها على ما تنتجه الأرض المستفلحة •

٤ ـ توريث الابن الأصغر فى آسيا الجنوبية :

ولنبدأ بقبيلة « لوشاى » التى تسكن فى جـــزء كبير من تلال أسام • وأناس هذه القبيلة قصار أشداء أقوياء العضلات ، ذوو وجوه عريضة جرداء من الشعر ، وعظام بارزة فى الصدغين ، وأنوف قصيرة مفلطحة وعيون صغيرة لوزية الشكل ، وبشرة تختلف بين اللون الأصفر والبنى • ومن ثم فان الرائى لا يخطىء أصلهم المغولى • وهذا الدليل الذى يشير اليه مظهرهم الجسمانى ، تؤكده اللغة التى يتحدثون بها ، تلك اللغة التى تنتمى الى فرع « التبت ــ البورمانى » ، وهو أحـــد فروع لغة « التبت ــ الصينية » • وهؤلاء القوم مزارعون وغذاؤهم الأساسى هو الأرز • ولكنهم وفقا لنظـــام الزراعة الذى يتبعونه ، اضطروا لأن يكونوا قوما مهاجرين ، اذ قلما يستقرون فى مكان واحد بضعة سنوات • ونظامهم الزراعى يعرفه الكتاب الانجليز فى العادة ، هؤلاء الذين يكتبون عن الهند ، باسم jhuming أو jooming فهم يقطعون أشجار الغابات أو أشجار الخيزران فى مســاحة مـــن الغابات أو الأحراش • فاذا جفت أشجار الغابات أو أشجار الخيزران قاموا بحرقها واستخدامها سمادا للأرض • ومن ثم فهم لا يعزقـــون الأرض بعد تسبيخها على هذا النحو الا سطحيا • فاذا تجمعت السحب منذرة بأن فصل الجفاف قد أوشك على الانتهاء ، وأن المطر أوشـــك على السقوط ، خرج كل فرد منهم يحمل فوق كتفه ســـلة ممتلئـــة بالحبوب ، كما يحمل سكينا عريضا (داو) فى يده • فاذا اســـتعد الجميع على هذا النحو ، أخذوا يبذرون الحب بأن يشـــقوا الأرض بسكاكينهم شقوقا سطحيا يبذرون فيها الحب • ومحصولهم الرئيسى هو الأرز ، ولكنهم يزرعون كذلك البقول والدخان والذرة والدخـــن والقطن • وهذه الطريقة فى الزراعة مضياعة للمحصول ، حيث أنهـــم قلما يحصلون على محصولين من قطعة واحدة من الأرض فى ســـنين متتالية • وعنـــد ذاك تترك الأرض بورا حتى تكتسى بالأحراش أو الشجيرات النامية مرة أخرى • فاذا كانت الأرض التى كانوا قد أزلوا

عنها الأشجار جزءا مـــن حراش الخيـــزان ، فأنـــه يتحتـــم مرور ثـــلاث أو أربـــع ســـنوات قبل أن تصـــبح الأرض ملائمة للزراعـــة • أما اذا كانوا قـــد أزالوا أشـــجار غابـــة فإنه ينبغى أن تمر فترة تتراوح بين سبع وعشر سنوات قبل أن تتكـــر عملية قطع الأشجار مرة أخرى • ويقال ان أرض الغابة تدر محصولا أوفر من أرض الأحراش ، ولكنها تتطلب جهدا أكبر فى ازالة الأشجار منها وتطهيرها من الأعشـــاب الضـــارة بالزرع • وبهذه الطريقة تستنفد بمرور الوقت ، الأراضى الصالحة للزراعة التى تحيط بقرية كبيرة ، ويصبح من الضرورى أن يبحث الســـكان عن مكان آخر يستوطنونه • واختيار مكان جديد أمر يثير قلقهم ، فهـــم يرسلون مندوبين عنهم من شيوخهم ليناموا فى المكان الذى يقع عليه الاختيار ، ويأخذون معهم ديكا يتكهنون عن طريقه فيما اذا كانوا يستقرون فى هذا المكان أم لا ، فاذا صاح الديك قبل الفجر بساعة ، فانهم يتفاءلون بذلك ويستقرون فى هذا المكان القرية الجديدة مدة أربـــع أو خمس سنوات • وقد كان من الممكن فى الزمن القديم أن تبعد القرية الجديدة عن القرية القديمة بمسافة تستغرق يومين أو ثلاثـــة أيام • وكان يتحتم على المواطنين أن يحملوا على ظهورهم أمتعتهـــم الدنيوية من مكان لآخر ، وكان من الطبيعى أن يحول التوقع المستمر للانتقـــال المضنى دون زيادة منقولاتهم ، وبالتالى كان يحول دون نمو ثروتهم وتجارتهم • كما كان من الطبيعى فى ظل هذا النظام للزراعة المتناوبة ، ذلك النظام الذى تألفه أغلب القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، ألا يطالب الزراعون بملكيتهم للأرض ، بـــل ان زعماءهم لم يكونوا يطالبون بحق فى ملكية الارض أو الغابات ، ولم يكن للزعيم سلطان سوى بين رجال قبيلته أينما ساروا وحيثما استقروا استقرارهـــم المؤقت • ويقوم العبيد بين القبائل الأكثر بدائية بالجانب الأكبر من استصلاح الأرض وزراعيتهـــا • وهؤلاء العبيد تأسرهم القبـــائل فى غاراتها حتى يقوموا بدلا منهم بهذا العمل المهين •

وقد كانت قرى « اللوشاى » تقع فى الغالب على قمم سلاسل التلال وتمتد على جوانبها المنحدرة • وهى فى الغـــالب قرى كبيرة تتألف من مئات البيوت • على أن حاجة الأهالى الى التجمع فى قرى كبيرة حصينة قد انقضت نظرا لمـا كفلته لهم الحكومة البريطانية من حماية ونظام للملكية ، ومن ثم أخذ يتضـــاءل حجم القرى الكبيرة تدريجيا ، كما أخذ السكان يتفرقون فى شكل قرى صغيرة ، بل بيوت منعزلة بين الأحراش ، بعيدة عن الأماكن الآهلة • ومن أبرز الملامح فى قرية « اللوشاى » هو « الزولبوك » أو الفناء الذى ينـــام فيه الرجال غير المتزوجين ، والغلمان ابتداء من سن النضوج • ذلك لأن هؤلاء لا يسمح لهم بالنوم فى بيوت آبائهم • كما يأوى المسافرون من القرى الاخرى كذلك الى هذه الافنية التى تتعدد فى القرية الواحدة الكبيرة • وهذا النظـام مألوف بين القرى التى تسكن التـــلال فى « أسام » •

وكل قرية من قرى « اللوشاى » تعد دولة مستقلة يحكمهـــا زعيمها • وعندما يكبر كل ابن من أبناء زعيم من الزعماء ويصل الى سن الزواج ، يزوده أبوه بزوجة ويقوم بتكاليف الزواج ، كما يمده بعدد معين من أفراد اسرته يرحل بهم لكى يؤسس معهم قرية تكون ملكا له • وهناك يحكم بوصفه زعيما مستقلا ، ويعتمد نجاحه أو فشله فى سياسة قريته على موهبته فى الحكم • وهو لا يدفع جزية لأبيه ، ولكن أباه يتوقع منه أن يساعده فى نزاعه مع جيرانه من الزعماء • فاذا عمر الآباء طويلا ، لم يكن من غير الطبيعى أن يتبرأ الابناء حتى من هذا القدر القليل من تبعيتهم لآبائهم • أما الابن الاصغر فقد كان يبقى فى قرية أبيه ويرثها من بعده كما يرث سائر ممتلكاته • وهكذا نجد أن عادة « اللوشاى » هذه تؤكد فى قوة ، تفسير « بلاكستون » النظرى لنظام حق الابن الأصغر فى الارث • ذلك أنه يبدو أن الابن الأصغر بين هؤلاء القوم يرث أباه لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه فى مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ويخرجون الى الحيـــاة بحثا عن مساكن جديدة لهم • فاذا شئنا أن نستعين بمزيد من الأمثلة لتأكيـــد

الرأى فاننا نجدها فيما اعترى هذه القبيلة من تغيير فى العصر الحديث فنحن نقرأ فى آخر تعداد فى أسام « أن تضاءل حجم القـرى عند « الوشاى » قد أدى الى تغيير على جانب كبير من الأهمية فى عادة حق الابن الأصغر فى وراثة قرية أبيه وممتلكاته • فقد كان المبرر لهذا النظام القديم فى الارث هو أن الأبناء الكبار كانوا يستقلون بقراهم عند زواجهم • ولكى يكون هذا الأمر ميسرا لهم ، فان عددا من كبار رجالهم (أوباس) وعددا من عامة الناس يؤمرون بأن يرافقوا الزعيم الشاب لكى يكونوا معه نواة لقرية جديدة • وليس غريبا عندما يستقر الأباء الكبار على هذا النحو ، أن يرث الابن الأصغر قرية أبيه وممتلكاته وأن تقع عليه مسئولية حماية والدته • ولكن بينما نجد أن عدد أسرات الزعماء لم يكن يميل الى الانخفاض ، فان متوسط حجم القرى كان يتضاءل الى النصف ، كما لم يكن هناك بيوت تكفى لايواء الأبناء جميعا• وبناء على ذلك فلم يكن أحد من الآباء يتمكن بحق ، من الاســتقلال فى قرية جديدة • ومن الواضــح فى مثل هذه الحالة أن تؤول التركة الى الابن الأكبر ، وقد قبــل الناس عن رضى هذا التغير فى نظام الارث » •

وبناء على ذلك فانه يبدو لنا أن عادة حق ارث الابن الاصغر عند هؤلاء الناس تتحول الى عادة حق ارث الابن الأكبر ، لأن الدوافــع الاجتماعية التى تطلبت تبنى النظام الاول ، أصبحت فى سبيلها الى الاختفــاء • حقا ان قانون الوراثة كان يطبق الى حد بعيد بين أسر الزعماء فقط ، ولكن هذا القانون نفسه كان يسود كذلك بالنسبة لوراثة الملكية الخاصة بين عامة الناس • فوفقا لاحدى الروايات « ان الارث يقسم بين الأبناء على أن يختص الابن الأصغر بأكبر الأنصبة ، فى حين يحصل سائر الأبناء على أنصبتهم بالتساوى » • ووفقا لرواية أخــرى متأخرة عن الرواية السابقة ، « أن القاعدة العامة أن يختص أصــغر الأبناء بالأرض ، ولكن الأكبر يطالب فى بعض الاحيان بنصــيبه فى الارث » • والسبب فى تطبيق هذه العادة بين أسر عامة الناس هــو

فيما يبدو السبب فى تطبيقها فى أسر الزعماء • فقد رأينا أنه عندما كان يستقل ابن الزعيم ويخرج الى الحياة ليبحث له عن قرية جديدة ، فانه كان يأخذ معه عددا من عامة الناس لكى يكونوا تابعين له فى مكانهم الجديد • ويحق لنا أن نفترض أن سكان المستعمرات يتألفون من كبار أبناء الأسر ، لأن صغار الأبناء يظلون مع آبائهم فى مسكن الاسرة ويرثون ممتلكات الأسرة •

وتنتشر عادة حق ارث الأصغر فى شكل محدود بين « الانجامين » وهم قبيلة مغولية تسكن فى « أسام » • « فاذا تزوج الأبناء فىحياة أبيهم فانهم يتسلمون أنصبتهم من الأرض التى يملكها أبوهم • فاذا توفى الأب تاركا عددا من الأبناء غير متزوجين ، فان هؤلاء يقتسمون الارث بينهم بالتساوى • وعندما يتزوج هؤلاء فانهم يتركون بيت أبيهم ويبنون مساكن خاصة بهم • ومن ثم فان الابن الاصغر يرث فى العادة دائما بيت الأسرة » • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن وراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة تعتمد ببساطة على ظروف بقائه فى بيت أبيه ، بعد أن يتزوج أخوته الكبار ويستقلون بمساكنهم • فاذا حدث أن الأبناء كانوا لا يزالون فى بيت الأسرة قبل شروعهم فى الزواج حين وفاة الأب ، فان الابن الاصغر لا يفضل عندئذ فى الارث عند أخوته الكبار •

ومما هو جدير بالذكر أن قبيلة « الأنجامين » التى تعد أكبر قبائل « ناجا » فى « أسام » ليست قبيلة مهاجرة ، كما أنها لاتفلح الأرض بالطريقة البدائية المضياعة التى تتبعها معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، أعنى عن طريق ازالة الأشجار والشجيرات من رقعة من الغابات أو الأحراش ، ثم زراعتها لبضع سنين ثم تركها لتعود الى طبيعتها البرية التى كانت عليه من قبل ، وانما تقوم هذه القبيلة على عكس هذا بزراعة محاصيلها فى مدرجات دائمة تنحتها بمهارة على على جوانب التلال • وتروى هذه المدرجات عن طريق قنوات صناعية تحفر على طول انحدرات التلال بميل تدريجى مريح • كما أن هذه القبيلة تقطن قراها الحصينة الكبيرة على الدوام ، ذلك لأن أفرادها يرتبطون بمساكنهم كل الارتباط ويرفضون تغييرها •

ويرجع « المايثيون » الذين يكونون العنصر المسيطر فى « مانيبور » فى « أسام » الى أصل مغولى ، وهم يتحدثون لغة « التبت البورمية »• وعلى الرغم من أن هؤلاء يرتبطون بالقبائل المتوحشة التى تسكن التلال المحيطة بهم برباط الدم واللغة ، الا أنهم قد وصلوا الى درجة كبيرة من الحضارة الاجتماعية ، بحيث أصبحوا أشبه بواحة فريدة يعيش الناس فيها حياة حضارية نسبيا ، وفى ظل مجتمع منظم وسط قفار من الأحوال المتبربرة ، فهم يقيمون فى قرى مستقرة ويعيشون أساسا على الأرز الذى يزرعونه فى حقولهم الدائمة • ومعنى هذا أنهم قد تجاوزوا مرحلة الهجرات الموسمية ، تلك التى يسببها ما وصلت اليه الأرض المجاورة لهم من انهاك • أما بالنسبة لقانون الوراثة المنتشر بين الماثيين ، فان مؤرخى « مينيبور » لم يمدونا بمعلومات كافية تؤكد نظام الوراثة فى الممتلكات الخاصة ، كما أن أحوال الدولة الاقتصادية فى العصر الحاضر تقع فى اطراد سريع تحت تأثير الأفكار السياسية والاجتماعية الحديثة• فالأرض ينظر اليها على أنها تخضع لارادة القوة الحاكمة فى الدولة • أما بالنسبة للممتلكات المنقولة فانها تؤول فيما يبدو ، وفقا للعرف الشائع ، الى الأبناء فى أثاء حياة أبيهم • كما أن هذا العرف ينظر الى الابن الأصغر بوصفه الوارث بصفة عامة ، اذا كان مازال يعيش فى منزل أبيه عند وفاة أبيه • فاذا كان قد انفصل عن بيت الأسرة حين وفاةالاب تقسم التركة عندئذ بالتساوى بين الأبناء • وينفصل الأبناء عن بيت الأسرة بسبب زواجهم بطبيعة الحال ، وهذه هى المناسبة التى يتعين على الآباء أن يزودوا أبناءهم وبناتهم بالعون فى حياتهم الجديدة» ويعتمد حق وراثة الابن الأصغر لأبيه عند « المايثيانيين » وبالمثل عند « الانجاميين » سكان أسام ، على ما اذا كان هذا الابن مازال يعيش فى بيت الأسرة بعد أن انفصل عنه اخوته جميعا بسبب زواجهم ، وبحثوا لهم عن مساكن مستقلة • أما اذا كان الابن الأصغر قد تزوج واستقل بمعيشته حين وفاة والده ، فانه عندئذ لا يميز عن اخوته فى الارث ، وانما يقتسم معهم التركة بالتساوى ، وتعيش عادة حق ارث الابن الأصغر فى شكل محدود فى « أسام » و « انجلترا » بعد أن كف

الشعب عن الهجرة ، واستقر فى قرى دائمة تحيط بها الحقول ، وتظل على هذا النحو جيلا بعد جيل •

و « الكاشينيون » أو كما يسمون أنفسهم « الشينجبويون » أو « السينجفويون » يرجعون الى أصل مغولى ويسكنون شمال أعالى بورما • وقد كانت مساكنهم القديمة تقع عند أعالى نهر « أراوادى » ، ولكنهم انتشروا شرقا فى الأقاليم الصينية فى يونان وغربا فى الاقاليم الهندية فى «أسام» • واسم « شينجبو » أو « سينجغوا » الذى يسمون به أنفسهم يعنى ببساطة « الرجال » • أما « البورميون » فيطلقون عليهم اسم « الكاشينيين » أو « انكاخينيين » • وهؤلاء سكان جبال متوحشون وهمجيون وينقسمون الى عدد من الجماعات الصغيرة أو الى عدد من القبائل ليست بذات شأن ، وكل قبيلة يحكمها زعيم وقد كان « الروميون » و « الشانيون » ، الاكثر مسالمة منهم يخشون غاراتهم قبل عهدهم بالاستعمار الانجليزى • ومع ذلك فهم يشتغلون بزراعة الأرض ، بل انهم خبراء فى فلاحتها • وغالبا ما تقع حقولهم فى أعماق الوديان ، بينما تقع قراهم فوق التلال • وليس هناك شك كبير فيما يقال ، فى أن « الكاشينيين » ينتمون الى الأصل التتارى • ويشير تراثهم الى موطنهم الأول الذى يقع فى مكان ما جنوب صحرا «جوبى»، كما كانت تحركاتهم تتجه دائما الى الجنوب • ولكن اختلاف لون بشرتهم وملامحهم اللذين نلمسهما حتى فى الأماكن التى لم تتأثر قط بالتأثير « الشانى » و « البورمى » ، يشير الى اختلاطهم بالأجناس الأصيلة التى حل محلها « الكاشانيون » •

وقانون الوراثة عند « الكاشينيين » ، كما ينص على ذلك فى كثير من الأحيان ، يربط بين عادتى حق ارث الابن الأكبر وحق ارث الابن الاصغر • ذلك أنه يروى « أن التركة تقسم بين أكبر الأبناء وأصغرهم • بينما يترك الأبناء المتوسطون لمصيرهم • ويرث الابن الأكبر لقب الأسرة واقطاعيتها ، فى حين يحمل الابن الأصغر الممتلكات الشخصية والمنقولات ويذهب ليبحث لنفسه عن مسكن جديد » • ووفقا لهذه

الرواية التى أكدها الكتاب العـديدون الذين تركزت أبحاثهم حـول « الكاشانيين » ، فان الابن الأكبر يبقى فى بيت أبيه مالكا لاقطاعيـة أبيه ، فى حين يأخذ الابن الاصغر الممتلكات الشخصية ويخرج من بيت أبيه ليشق طريقه فى الحياة • وهذا يختلف تماما عما يتبع ، فيما روى، بين أقربائهم من القبائل المنغولية التى تسكن هذه المنطقة • ويحق لنا أن نتشكك فى أن تلك الرواية التى يرجح أن القائد « ح•ب• نويفيللى » قد رواها ؛ أساسها الفهم الخاطىء • وعلى كل فقد قدم لنا « سـير جورج سكوت » الذى كانت لديه الوسائل الوافرة للتعـرف الوثيق على العادات الكشانية ، رواية عن قانون الارث عند هؤلاء الناس • فهو يقول : « لقد كان هناك ميل دائم بين الكاشانيين الى التفـرق ، كما هو الحال بين « التاينيين » ؛ كما أن الطابع التلالى لبلادهم جعل الأنصبة من الاراضى المقسمة ضئيلة للغاية • وقد كان هذا التفريق يرجع فى العصور القديمة أساسا وبدون شك الى ضرورة الهجرة التى تسببت عن زيادة عدد السكان والنظام المتلاف لزراعة التلال • فقد أصبحت العادة أن يرث الابن الاصغر أباه الزعيم عند موتـه ، بينما يخـرج الأبناء الكبار مصطحبين أكبر عدد من الأتباع ليقيموا لأنفسهم مساكن جديدة • فاذا قدر لهم النجاح فى موطنهم الجديد ، فانهم يصبحون على مر الزمن قبائل بارزة تسمى كل منها باسم ـ مؤسسها • فالقانون « الكنتى » للاقطاعيات الانجليزية يعد بدون شك بقايا عادة مشابهة تنتشر بين القبائل « الأنجلو » •

وفى مكان آخر يقدم لنا « جورج سكوت » رواية قيمة عن نظم الملكية المختلفة ، تلك النظم التى تتصل بالملكية الفردية والجماعية وتنتشر بصفة خاصة فى التلال والوديان • ويقوم الاختلاف فى هذه الملكيـة على أساس الاختلاف بين نظم زراعة المهاجرين ونظم الزراعة الدائمة التى تتبع فى التلال والوديان • يقول « جورج سكوت » : « فيمايختص بنظام زراعة التلال أو « تاونجيا » ، فان نظام الملكية الفردية لا يعرف فى هذه الاماكن وانما تعد الارض ملكا للجماعة كما يصرح بهذا زعيمها

(دووا) • كما أن نظام الزراعة لا يسمح باستغلال قطعة واحدة من الارض استغلالا دائمـــا • ولكن الأمر يختلف حيث تكون الأرض ممتلكة فى الوديان بحيث يزرع الارز فى الجو الرطب • ففى هذه الحالة يسمح للمالك الفرد أن يملك الأرض على أساس ألا يسلم الأرض لغريب• ويحصل الزعيم (دووا) على سلة أو سلتين مملوءتين بالأرز كل عام رمزا للاعتراف بملكيته الاسمية للأرض جميعا • والأرض تتبع أهل البيت جميعا ، كما أنها تستغل فى العادة لصالح الجميع • ومن ثم يفقد حق المشاركة فى الأرض من يترك بيت الأسرة • فذا حدث انفصال اضطرارى بين أهل البيت ، فان قسمة التركة لا تتبع نظاما محددا فيما عدا أن الابن الاصغر يحصل على نصيب « بنيامين » ، كما يرث بيت أجاده وملحقـــاته » •

ويبدو أن هذه الرواية تميز فى وضوح بين الاراضى المرتفعة حيث الزراعة تتبع نظام الهجرة ، والاراضى المنخفضة حيث الزراعة دائمة • فالارز يزرع فى التلال وفق النظام الجاف ، أما فى الوديـــان فيزرع بطريقة الرى الغزير • ولا يعد الارتباط بين نظام الزراعة الجاف وزراعة الهجرة من ناحية ، وبين نظام الزراعة الذى يحتاج الى الرى والزراعة الدائمة من ناحية أخرى من قبيل الصدفة • اذ بينما نجد النظام الجاف مناسب للإقامة المؤقتة فى الأرض ، فان نظام الرى يعد من ضرورات الاقامة الدائمة • ففى « جاوة » على سبيل المثال ، حيث كان الأرز يزرع فى منحدرات مرتفعة ويروى ريا صناعيا ، نجد أن الأرض كانت تغل محصولين فى كل عام وذلك وفقا لذاكرة الأحياء • فالشىء الواضح اذن ، أن الأراضى التى تزرع زراعة مؤقتة عند « الكاشانيين » هى ملك للجماعة ، فى حين أن الأراضى التى تزرع زراعة دائمة هى ملك للأفراد • وقد سبق أن رأينا أنه ليست هناك ملكية فردية بين « اللوسهانيين » الذين يتبعون نظام الزراعة المؤقتة •

والسبب فى هذا واضح ، فالاقامة الدائمة فى الأرض تتطلب أساسا نظام الملكية الفردية ، ولا تلائمها الملكية الجماعية أو القبلية • وحيث

أن الثابت فى تاريخ الانسانية ، أن حياة الصيادين وأصحاب قطعان الماشية ، وحياة الزراعين المتنقلين قد سبقت حياة الزراعة المستقلة التى ازدهرت فى ظل النظم الأكثر تقدما لفلاحة الأرض ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن الملكية الفردية للأرض كانت فيما بعد أكثر انتشارا من الملكيةالجماعية أو القبلية ، وأن هذه الملكية الفردية لا يقرها القانون الا اذا زرعت الأرض على الدوام • أى أن الملكية الجماعية ، باختصار أقدم من الملكية الفردية ، وأن تحول نظام ملكية الأرض من الملكية الجماعية الى الملكية الفردية ، قد ارتبط بتقدم طرق فلاحة الأرض الى حد كبير ، ذلك التقدم الذى يسهم بقوة فى تطور المجتمع بوجه عام ، شأنه شأن كل وسائل التقدم الاجتماعى •

ويمارس الكاشانيون فى الصين وكذلك اخوانهم فى « بورما » كلا من نظام الزراعة المؤقتة والزراعة الدائمة • واذا ألقينا نظرة على بلادهم من فوق قمة جبل شاهق ، فاننا نجد بلادهم تمتد من كل جانب فى حدود ما تصل اليه العين ، وكأنها بحر من التلال التى تكسو الغابات قممها ومنحدراتها على وجه العموم ، اللهم الا فى بعض الأجزاء التى تشير الى مواقع القرى ، أو حيث تخترقها الأنهار خلال واد ضيق متجه الى أسفل • وتقع القرى على الدوام بالقرب من مجرى مائى دائم يقع على الجبال وفى الغالب فى وهدة محمية • وقد تنتشر هذه القرى بحظائرها على المنحدر المعتدل فى انحداره ، وتغطى مساحة من الأرض تبلغ الميل • وتبنى البيوت التى تتجه فى العادة شرقا وفق نظام واحد ، فهى تبنى من عيدان البامبو ويتراوح طولها بين مائة وخمسين قدما ومائتى قدم ، كما يتراوح عرضها بين أربعين وخمسين قدما • ويحتفظ بالحجرة الأولى فى كل مسكن جماعى من هذه المساكن الكبيرة لاستقبال الغرباء ، أما سائر الحجرات فتكون مساكن لأسر متعددة ترتبط بين بعضها بعضا برباط الدم أو الزواج اللذين يكونان المجتمع الأسرى • أما الأفاريز البارزة التى ترتكز على أعمدة فتكون شرفات يعمل فيها الرجال والنساء أو يستريحون فيها بالنهار ، كما يبيت فيها الجاموس والبغال والخنزير والخيل والدجاج •

والى جوار المنازل توجد حظائر مسيجة تزرع فيها النيلة ذات الزهور البيضاء ، ونبات الخشخاش والمطلح • أما الأرز والذرة فيزرعان فى المنحدرات المتاخمة والروبى التى تسوى بعناية فى هيئة شرفات مكونة فى الغالب شكل مدرج • ويحجز المجرى المائى عند أعلى مكان يقع فيه المجرى ، ثم يوجه مجراه بحيث يروى هذه الشرفات ، وبعد ذلك يتجه الى أسفل حيث يصب فى حوضه الذى يقع فى الوادى • وفى بعض الأحيان تترك المياه تتدفق فى قنوات البامبو لتروى حقول الأرز والبيوت النائية • وفى كل عام تقطع أشجار الغابات التى تنمـو على جوانب التل وتحرق • ومن الممكن رؤية ممرات مهملة تقع بالقرب من كل قرية ، كانت قد أزيلت منها الأشجار وأصبحت تجرى فيها قنوات مائية صغيرة • وتستخدم الفئوس فى قطع الأشجار ، كما تسـتخدم المحاريث الخشبية فى زراعة الشرفـات • ويخشى هـؤلاء المزارعون الأجلاف المطر الغزير أشد من خشيتهم من الجفاف • ولكن طبيعـة الأرض الخصبة فى العموم تعوضهم بكميات وافرة من الأرز والذرة والقطن والدخان • وبجوار القرى توجد البساتين التى تزرع فيهـا أشجار الخوخ والرمان الجوافة ، كما تمتلأ الغابات بأشجار جوز الهند والبرقوق والكرز ، وأنواع متعـددة من شجر التـوت البرى • وفى المنحدرات الأكثر ارتفاعا تزدهر أشجار التلوط والبتولا ، كما تغطى أشجار « سينامومم كوادتوم » و « س • كاسيا » مساحات كبيرة ، ومنها يستخلص الزيت الذى يعرف بزيت القرفة • وتقطع مئات من هذه الأشجار لتهيئة الأرض للزراعة ، وتحرق جذوعها وفروعها حيث تهوى على الأرض •

ويتضـح الأصل المغولى لهـؤلاء « الكاشينيين الصينيين » من ملامحهم الطبيعية وان كانوا ينقسمون الى نمطين • والملامح العـامة للنمط السائد فيهما هى الوجه القصير المستدير والجبهة المنخفضة وعظام الخدود البارزة والأنف العريض والشفاه البارزة الغليظة والذقـن المستدير العريض والعينان الوزيتان المتباعدتان • ويخفف من قبـح

هذه الملامح تلك البشاشة التى تشيع فى وجوههم • أما لون الشعر والعينين فهو فى الغالب اللون البنى الداكن ، كما أن لون البشرة هو الأصفر المغبر • أما ملامح النمط الثانى فهى أكثر رقة ، وهى تذكر بملامح وجوه نساء « الكاشاريين » و « الليبشا » فى « سيخيم » • وأهم ما يميز هذا الوجه تلك العينان اللوزيتان والوجه الذى يميل الى الطول أو هو بالأحرى يميل الى الشكل البيضاوى المفرطح • ومن ملامحه كذلك الذقن المدببة والأنف الأقنى والخدود ذات العظام الناتئة • أما لون البشرة فأبيض ، وهو فى بعض الحالات يشبه لون بشرة الأوربيين • وربما كان أصحاب هذا النمط خليطا من الدم « الثانى » و « البورمى » • ويميل هؤلاء « الكاشينيون » الى القصر كما أن أطرافهم نحيلة وان تكن متناسقة ، أما أرجلهم فقصيرة غير متناسقة • وعلى الرغم من أن « الكاشينيين » ليست لديهم قوة عضلية الا أنهم رياضيون ونشيطون ، فهم يحملون الى أسفل الجبل أحمالا من خشب الوقود وكميات من الأخشاب الأخرى ، وهو ما لا يستطيع الرجل الأوربى أن يفعله الا بجهد جهيد • وتثب بناتهم الصغار فى الممرات كالغزلان ، بينما تتطاير خصلات شعورهن السائبة فى الهواء •

ويسود نظام الحكم الأبوى بين سكان الجبال هؤلاء حتى اليوم • فكل عشيرة يحكمها زعيم ورث الحكم عن أبيه الزعيم ويساعده نواب قد توارثوا هذه الوظيفة كذلك • والأمر الذى يبعث على العجب أنه بينما تراعى وراثة الابن الأكبر لمنصب نائب أبيه الزعيم فى صرامة ، « فان الابن الأصغر يرث زعامة العشيرة عن أبيه • فاذا كان اصغر الابناء قد توفى ورثه أصغر الابناء الاحياء • وهذا النظام يتبع فى وراثة الارض ، فالابن الاصغر هو الذى يرث الأرض فى كل الاحوال ، بينما يرحل الابناء الكبار ويستصلحون اراضى يمتلكونها » • ومن ثم فان حق الابن الاصغر فى الارض يرتكز على عادة خروج الابناء الكبار الى الحياة ليبحثوا عن رزق لهم ، بينما يبقى الابن الاصغر مع والديه فى بيت الأسرة القديم •

وقد تعرف دكتور « جون أندرسون » على عادة شبيهة بتلك العادة منتشرة بين « الشانيين » فى الصين وهم جيران الكاشينيين فى حى « يونان » • فالزعماء — كما يقول — يمارسون سلطة الأبوة فى مقاطعاتهم بمساعدة مجلس الزعماء ، فهم يقضون بين الناس فى جميع الأحوال المدنية والجنائية • والزعيم (تساوبوا) هو المالك الاسمى للأرض جميعها ، ولكن كل أسرة تضع يدها على قطعة محددة منها تزرعها وتقدم عشر المحصول ضريبة للزعيم • ولا يجرؤ أحد على أن يزعج هذه الأسرة فى أرضها ، كما أن هذه الأرض تؤول بعد الأب الى الابن الاصغر ، بينما يبحث الاخوة الآخرون لهم عن عمل آخر أو عن تجارة اذا كانت مزرعة الأب صغيرة للغاية • ومن ثم فان الشانيين يميلون الى الهجرة والاقامة فى أرض خصبة كما يحدث فى « بورما البريطانية » •

وأغلب « الشانيين الصينيين » ينصرفون الى الزراعة وربما وصلوا الى مستواهم فى الزراعة مستوى البلجيكيين ، فهم يزرعون كل شبر من أرضهم ، ومحصولهم الرئيسى هو الأرز الذى ينمو فى حقول صغيرة مستديرة تجاورها السدود ، كما تمر بها الممرات وبوابات المياه لريها • ففى فترة الجفاف تترك المياه لتتدفق من أقرب نبع وتنساب خلال القنوات التى لا يحصى لها عدد حتى يتسنى لهم أن يرووا كل حقل من الحقول فى راحة • وفى بداية شهر مايو يبدو الوادى من أحد طرفيه الى الطرف الآخر بقعة من المستنقع المائى الذى يمتلىء بسيقان الأرز الذى يتلألأ فى أشعة الشمس • أما حوض النهر فيكاد يبدو نصفه عاريا نتيجة خلوه من المياه التى تدفقت فى الحقول •

و « الشانيون » أو بالأحرى « الشاى » هم أكثر العناصر كثرة وانتشارا فى شبه جزيرة الهند الصينية ، فهم ينتشرون فيما بين « أسام » الى « كوانج — سى » فى الصين ، ومن « بانكوك » الى داخل « يونان » • و « سيام » هى الولاية المستقلة اليوم بين الولايات الشانية • ويرتبط « الشانيون » بالصينيين ارتباطا وثيقا فى الملامح

الشكلية وفى اللغة . حقا ان اللغة الصينية واللغة الشانيةتعدان اختين سواء فى التركيب اللغوى أو من ناحية الثروة اللغوية ، وهما فى ذلك تختلفان اختلافا كليا عن كل من لغة « بورما » و « التبت »اللتين تنتميان — رغم هذا الاختلاف — الى هذه الأسرة اللغوية العامة التى يطلق عليها علماء اللغة اسم اللغة « الصينية — التبتية » . وعلى الرغم من أن الطبيعة الجبلية تغلب على بلاد الشانيين ، الا أنهم لا يعترفون بأنهم سكان تلال . وذلك لآنهم يفضلون الارتباط بالوديان المسطحة الغرينية ، وبطون الوديان التى تتخلل الجبال . وفى كل مكان تجد الزارعون الكادحون ، كما تخترق السهول الاكثر اتساعا قنوات الرى بينما تحول السدود المجارى المائية الى قنوات تروى المنحدرات . وقد تستخدم العجلات المصنوعة من المامبو فى رفع المياه الى الحقول ، حيث ترتفع شواطىء الانهار ، وحيث توجد الاراضى المسطحة بوفرة بحيث تعوضهم جهودهم : البدنية والمادية . فاذا كانت الاقامة غير ميسرة فى السهل ، فقد يلجأ الشباب فى بعض الاحيان الى قطعة من الارض تكثر فيها الاحراش ، ولكن هذه الاراضى لا تصلح لزراعة الارز ، وانما تستغل فى زراعة بساتين الفاكهة وأشجار الموز ، ومن الممتع أن نلاحظ أن عادة حق الابن الاصغر فى الارث تنتشر بين شعب متقدم تقدما نسبيا مثل الشانيين .

ويقال : ان عادة حق الابن الاصغر فى الارث تنتشر كذلك بين «الشانيين» الذين يسكنون التلال الواقعة على مشارف بورما وأسام . ولم يتحدد بعد نسب هؤلاء الشانيين على وجه التحديد ، ولكنهم ينتمون فيما يبدو الى الأسرة المنغولية ويتحدثون لهجات متفرعة من لغة « بورما — التبيتية » . وما زال معظم « الشانيين » يعيشون حياة بالغة فى الهمجية ، كما أن العداء يشيع بينهم وبين جيرانهم . وهم ينقسمون الى عشائر صغيرة كثيرة يغير بعضها على بعض أو على القرى البورمية المجاورة ، كما أنهم يعتمدون آساسا على الزراعة . ومحاصيلهم

الرئيسية هى الارز والبقول والسمسم والدخان • على أن بلادهم ليست صالحة كلية للزراعة ، حيث أن التلال تغطيها الاحراش الكثيفة كما تتخللها الوديان الضيقة الصغيرة الشديدة الانحدار • على أن السكان قد طهروا بعض المناطق القريبة من القرى من الأحواش وأعدوها للزراعة • ومن أبرز قوانينهم فى الزواج والارث ، تلك العادة التى تعطى الرجل الحق الاول فى الزواج من ابنة عمه • والقاعدة هى « أن الابن الاصغر هو الذى يرث أسرته ، وهو ملزم بالبقاء فى منزل أبيه ورعاية والديه وأخواته » ولكنه يبدو أن عادة حق الابن الاصغر فى الارث قد تحولت بين « الهاكاشين » أو هى فى طريقها الى التحول ؛ الى عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، وان كان الابن الاصغر فى أسرتين أو عشيرتين على الاقل من بين عشائر هذه القبيلة ، هما « الكنلاوت » و « كلارسيوسونج » ، لا يزال على الدوام يرث مسكن الاسرة ، مالم يتنازل عن حقه ؛ أو يكون فى حالة نزاع مع أبيه أو يكون مجذوما أو مجنونا • وقد كان القانون الثابت فيما مضى بين جميع عشائر «الهاكا» أن يرث الابن الاصغر مسكن الاسرة • ولكن رجلا بعينه كان يسكن فى « سانجتى » ويدعى « لبين نون » اورث مسكنه الى ابنه الاكبر بدلا من أن يورثه الى ابنه الاصغر ، ومنذ ذلك الوقت اتبعت معظم العشائر هذا النظام • « أما فيما يختص بملكية الارض (لاى رام) ، التى تقع فى نطاق حوزة قبيلة « هاكا » فان ثلثى الارض يرثها الابن الاكبر والثلث المتبقى يرثه الابن الاصغر » •

وقانون الوراثة السائد بين قبيلة « كامى » أو « أهكامى » ، وهى قبيلة تسكن تلال أراكان على حدود « بورما » ، هو أنه «اذا توفى الأب تاركا ولدين أو أكثر ، فان التركة تقسم على النحو التالى : تقسم التركة بالتساوى اذا كان قد ترك ولدين • فاذا كانوا أكثر من اثنين فان كلا من الابن الاكبر والأصغر يأخذ نصيبين من التركة ، أما سائر الاخوة فيأخذ كل منهم نصيبا واحدا » • ويبدو أن هذا النظام فى الارث يوفق بين عادتى حق ارث الابن الاصغر وحق

ارث الابن الاكبر ، ذلك ان الابن الاكبر والابن الاصغر يفضلان على قدم المساواة على سائر الاخوة المتوسطين • وربما اشار هذا التوفيق بين النظامين الى مرحلة الانتقـال من عادة حق ارث الابن الاصغر الى عادة حق الابن الاكبر •

وقد قيل : ان عادة حق ارث الابن الاصـغر تنتشر كذلك بين « اللوليين » ؛ وهم جنس أصلى ذو شـأن ينتشر فى اقليم يونان الصينى ، وينتمى الى الأسرة المنغولية ويتحدث فرعا من فروع لغـة « بورما التبينية » ووفقا لما رواه رحالة انجليزى « ان نظام وراثـة الممتلكات والخلافة فى الزعامة غريب عند هذا الشـعب • فالابن الأصغر يرث أباه عادة ، ومن بعده الابن الاكبر » •

وبهذا نكون قد فرغنا من الحديث عن القبائل المغوليـة التى يسود فيها نظام حق ارث الابن الاصـغر • والآن نتعرض لقبيلتين يؤول الارث فيهما أساسا الى الابنة الصغرى •وهما قبيلتا «كهاسى»، و « جارو » فى « أسما » • ولايزال موضـوع أصل قبيلة «كهاسى» ؛ وعلاقاتها العنصرية محل نقاش • فمن المؤكد أن هذه القبيلة تتحدث لغة لا تنتمى الى الأسرة المغولية على عكس كل القبائل المحيطة بها • ويبدو أن لغتهم تنتمى الى لغـات « مون ــ كمير » التى يتحدث بها فى « الهند الصينية » ، تلك اللغات التى يعتقد الآن أنهـا تؤلف بدورها فرعا من أسرة لغوية كبيرة هى أسرة « أوستريك » التى يتحدث بها من مدغشقر فى الغرب الى جزيرة « ايستر » فى الشرق ، ومـن نيوزيلندة فى الجنوب الى البنجاب فى الشمال • على أن تحدث قبيلة بلغة غير مغولية لا يعنى عدم انتمائها للعنصر المغولى • ذلـك لأن اللغة اذا لم تثبت عن طريق الكتابة عند الشعب الذى يتحدث بها ، فانه من السهل أن يهملها هذا الشعب ويسـتبدل بها لغة أخـرى يستعيرها من عنصر مسيطر اختلط به هذا الشعب • وهناك أمثـلة صائبة تشير الى هذا الانتقال السريع من لغـة لاخرى ، دونت عن قبائل بورما الذين يتحدثون لغات ولهجات مختلفة • وتشير الملامح

الطبيعية لأفراد لقبيلة « كهاسى » وبالمثل طبائعهم الى أصلهم المغولى. فمظهرهم الخارجى لا يخطئه انسان بحق كما يقول «سير وليم هنتر» . فهم قصار قويو العضلات ذوو رءوس كبيرة ، وخدود ذات عظام عالية عريضة ، وأنوف مفلطحة ، وذقون ذات شعر قصير ، وشعور مسدلة سوداء ، وعيون ذات لون بنى أو أسود ، وجفون منحرفة وان لم يكن انحرافها على نحو جفون — الصينيين وبعض القبائل المغولية . أما بشرتهم فيختلف لونها من مكان لآخر ، من اللون البنى الفاتح الذى يميل الى الصفرة الى اللون البنى الداكن . وهم مرحون بطبعهم ، جذلون ، سمحو الطباع ويميون كل الميل إلى النكتة . وكل هذه الخصائص تؤكد بحق وجهة النظر التى تقول : ان قبيلة « خاسى » تنتمى الى المجموعة المغولية أكثر من انتمائها الى مجموعة الشعوب الجنوبية والاستوائية فى أساسها ، تلك المجموعة التى تنتمى قبيلة « خاسى » بلغتها اليها .

ومهما يكن الامر ، فان قبيلة « خاسى » لا تختلف فى وسائل حياتها ومستواها الحضارى بشكل عام عن القبائل المغولية التى تسكن جنوب شرق آسيا وتتبع فى نظام ارثها عادة حق ارث الابن الاصغر . فأفراد هذه القبيلة يعيشون فى قرى مستقرة قلما يغيرونها ، وهم يعتمدون أساسا على الزراعة حيث أنهم مزارعون نشيطون وان كانت الوسائل التى يتبعونها فى فلاحة الأرض بدائية على نحو ما . وهم يقومون بقطع أشجار الغابات وحرقها كما تفعل معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، وبذلك يحصلون على أراض جديدة يعدونها للزراعة . أما غذاؤهم الرئيسى فهو الأرز والسمك الجاف .

ويعتمد النظام الاجتماعى لقبيلة « خاسى » على صلة القربى بالأم ، أى على الرجوع بسلسلة نسبهم الى النساء فحسب . فكل عشيرة من عشائر هذه القبيلة تدعى صلة نسبها الى جدة ما لا الى جد ، كما أن كل رجل يرجع بسلسلة نسبه الى أمه فجدته وهكذا .ولا

يرجع به إلى أبيه فجده • وكما أنهم ينتسبون الى أمهاتهم ، فأن الارث كذلك يؤول الى نساء الاسرة لا الى ذكورهـا • والابنة الصغرى هى التى ترث أمها وليست الابنة الكبرى • فاذا توفيت الابنة الصغرى فى حياة أمها ، فان أختها الاكبر منهــا مباشرة هى التى ترث الأم • فاذا لم يكن للام بنات ، فان التركة تؤول الى أصغر أخواتهــا التى ترثها بدورها أصغر بناتها • حقا ان البنات الكبار لهن حق المشاركة فى الارث عند وفاة الأم ، ولكن الابنة الصغرى تحصل على النصيب الأكبر بما فى ذلك جواهر الأسرة ومسكنها ، بالاضافة الى أكبر نصيب من محتويات البيت • ومع ذلك فانه لا يحق لها أن تتصرف فى مسكن الاسرة دون موافقة اخواتها الكبار اللاتى يكلفن بدورهن باصــلاح هذا المسكن على نفقتهن • أما عن الأرض فانهــا تؤول الى الابنة الصغرى وحدها على أن تشاركها أخواتها فى محصــول الأرض • وغالبا ما تعيش الجدة وبناتها وحفيداتها تحت سقف واحــد أو فى منازل منفصلة تقع فى محيط واحد • والجدة هى التى تدير أمــور البيت طالما كانت على قيد الحياة • وفى مثل هذا المسكن الذى يسيطر فيه العنصر النسائى ، ليس هناك وجود للرجل ، فالرجل ليست لــه أدنى أهمية ابنــا كان أو أخــا • ذلك لأنه يترك البيت عندمايتزوج ويعيش مع أسرة زوجته • فاذا كان زوجا لاحدى نساء البيت ، فان هذا لا يرفع من قدره فى هذه الأسرة ، لأنه لا يعد عضوا مناعضائها كما أن ليس له أى حــق فى الارث ، وانما ينظر اليه بوصــفه مجرد والد • وكل الممتلكات التى يكونها بعرق جبينه تؤول الى زوجته بعد وفاته ، ثم تؤول من بعدها الى الابناء على أن تحصل الابنة الصغرى على أكبر نصيب كالعادة • هو يظل فردا غريبا طالما كــان يعيش فى مسكن زوجته • فإذا توفى فإنه لا يدفن فى مدافن الاسرة بجــوار قبر زوجته ، بل لا يمس رماد جثته رماد جثتها •

وعادة ارجاع النسب الى المرأة ، وانتقال الارث بين النســاء

بدلا من الرجال عادة مألوفة بين الاجناس غير المتمدينة • وربما يرجع السبب فى أصل نشأتها الى التأكد من صلة النسب بالأم بالمقارنة الى عدم التأكد من الانتساب الى الأب ،وذلك فى مجتمع يبيح فى حرية الاتصال بين الجنسين • على أن هذه مشكلة كبيرة صــــعبة تبعدنا مناقشتها عن موضوعنا الرئيسى • وكل ما يهمنـــا هو أن العـــادة المتبعة بين قبيلة « خاسى » فى الوقت الحاضر ، بصرف النظر عن مدى قدم هذه العادة بينهم ، ترتبط بنظام يلزم البنات بالبقاء ، وفقا له ، فى بيت الأسرة ، فى حين يخرج الأبناء لعيشوا مع أسر زوجاتهـــم • فالنساء اذن فى ظل هذا النظام ، هم الافراد الذين يبقون مدى الحياة فى بيت الأســـرة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يسيطرن على البيت ومحتوياته بدلا من أن يسيطر عليهمــــا الرجال الذين يتركـــون بيوت أسرهم ليعيشوا فى أسر زوجاتهم ، وبذلك يقضون فترة مــن حياتهم فى كل بيت • وهذا السبب نفسه يفسر وراثه النساء للأرض ، اذا كانت الأرض تقع بجوار مسكن الأسرة الذى يتركه الأبناء الذكور لينضموا الى أسر زوجاتهم فى قرى نائية • ولعله من الســـهل الآن أن نفهم فى ظل هذه الظروف السبب فى أن البنات لا الأبناء ، هن اللاتى يرثن ممتلكات الأسرة ، الحقيقة منها والشخصية •

على أننا اذا كنا قد قدمنا السبب فى تفضيل النساء على الذكور فى الارث ، فما زال علينا أن نبحث عن سبب تفضيل الابنة الصغرى عن اخواتها اللاتى يكبرنها فى الارث • وتفسر قبيلة « كهاسى » نفسها هذا التفضيل ، بأن الابنة الصغرى هى التى يلقى على عاتقها القيام بالواجبات الدينية • فهى التى تبقى على الدين على حد تعبيرهم ، أى أنها مكلفة بأن تؤدى شعائر الأسرة وأن تسترضى أجدادها • ومن ثم كان من العـــدل أن ترث الابنـــة الصغرى النصيب الأكبر فى تركـــة الأسرة لما تتجشمه من القيام بالتزامات الأسرة • ولهذا السبب نفسه تفقد الابنة الصغرى هذا الامتياز كما لو كانت قد توفيت ، وتمنحه أختها التى تكبرها مباشرة ، وذلك اذا هى غيرت دينهــــا أو ارتكبت

دنسا بانتهاكها حرمة شيء مقدس • على أن هذا السبب الذى يعزى لتفضيل الابنة الصغرى على أخواتها على هذا النحو غير مقنـــع ، اذ ما زال علينا أن نتساءل عن سبب كون الابنة الصغرى أكثر ملاءمة من اخواتها فى القيام بواجب تقديس الأجداد • ويبدو انه ليست هناك أى اجابة عن هذا التساؤل • كما أن السبب الذى تعزوه القبائل بعد خروج الاخوة الكبار منه ليستقلوا بمعيشتهم ، لا يصلح تفســـيرا لتفضيل الابنة الصغرى فى قبيلة « كخاسى » ، حيث أن البنات جميعا يمكثن ، كما رأينا ، فى بيت الاسرة ، وفيه يستقبلن أزواجهن • ومع ذلك فقد كان من الطبيعى أن نتوقع ان سبب تفضيل الابنة الصغرى ، يناظر السبب فى تفضيل الابن الاصغر • وبناء على ذلك فان النظرية التى تفسر حالة ، ولا تفسر الحالة المشابهة لهـــا ، لا تعد نظرية مقنعة •

أما القبيلة الثانية فى « أسام » التى تتبع عادتى الانتســـاب الى الأم وتفضيل الابنة الصغرى بالارث ، فهى قبيـــلة « جـــارو » التى تسكن التلال غير الشاهقة التى تغطيها الغابات الكثيفة وتسمى باسم القبيلة • وليس هناك شك فى انتماء هذه القبيـــلة للأصـــل المنغولى ، ذلك أن أفراد هذه القبيلة قصار البنية ، أقوياء الأطراف نشيطون وملامحهم شديدة الشبه بملامح الصينيين • وهم يتحدثون لغة « بورما ــ التبتية » التى تنتمى الى أسرة لغـــات « الصين ــ التبتية » • حقا انه يروى عنهم رواية مشهورة « عن هجرتهم من التبت ووصولهم الى السهول التى تقع فى ســـطح جبال الهملايا ، وعن تجوالهـــم شرقـــا الى وادى « براهما بوترا » ، وعـــن تعقبهم مرة أخرى لآثار خطواتهم حتى وصولهم الى السهول التى تقع بين هذا النهر والتلال التى يسكنونها اليوم • ويبدو أنهم استقروا فى هذا المكان بعض الوقت قبل أن يقوموا بتجوالهم الأخير الى البلد الجبلى الذى يعد اليوم موطن هذه القبيلة » • وقد أزيلت كل الغابات البكر التى كانت فيما سلف تغطى تلال « جارو » ، وذلك بقصـــد

تهيئة الأرض للزراعة • ولكن البامبو والأشجار الصغيرة حلت محل الغابات ، ذلك أن البلد كله على وجه التقريب قد غطته الأحراش الكثيفة فيما عدا مساحات من الارض أزيلت منها هذه الأحراش وأعدت للزراعة • والرجل « الجاروى » هو فى الاصل رجل مزارع . ففلاحة الأرض هى أول وآخر عمل يقوم به فى حياته ، وهو العمل الذى يبذل فيه قصارى جهده • وطريقته فى فلاحة الأرض ساذجة : فهو يختار قطعة من الأرض غالبا ما تقع على جانب التل ، ثم يزيل منها الأحراش فى الجو البارد الذى يدوم من شهر ديسمبر الى شهر فبراير • وتظل الأرض مغطاة بالأشجار او البامبو ، حيث ان معظم أحراش التلال ينمو فيها البامبو وحده ، حتى نهاية شهر مارس حيث تحرق وهى راقدة فى مكانها • ثم تبذر البذور فى شهرى ابريل ومايو بمجرد أن تسقط قطرات المطر الأولى • وهم فى ذلك لا يعزقون الأرض أو يحرثونها ، وانما تحفر فيها حفر بعصاه مدببة وتوضع بعض بذور الأرز فى كل حفرة • أما الذرة العويجة فترمى بذوره ببساطة بين رماد الأحراش المحترقة • فاذا أعدت الأرض على هذا النحو ، فانهم يستمرون فى زراعتها مدة عامين ثم تهجر وتترك بورا مدة سبعة أعوام على الأقل • وتبنى القرى عادة فى الوديان أو فى الأغوار التى تقع على جوانب التلال حيث تتدفق المياه فى وفرة • أما حول القرى فتمتد الاحراش من كل جانب الى مالا نهاية • وتشيد البيوت على أعمدة طويلة يبلغ ارتفاعها مائة قدم • وحيث ان البيوت تخلو من النوافذ ، فان الظلمة والكآبة تشيعان فيها من الداخل • وتشغل حجرة العائلة الجزء الاكبر من المبنى • وفى هذه الحجرة تنام النساء غير المتزوجات ، كما تجتزأ منها أجزاء لينام فيها البنات المتزوجات وأزواجهن • أما رب الأسرة وزوجته فلهما حجرة نوم خاصة بهما • أما الرجال العزب فلا ينامون فى بيت الأسرة ، بل ينامون فى مسكن منفصل يبيت فيه كل رجال القرية غير المتزوجين • ويأوى الزائرون الأغراب الى فناء هذا المسكن المنفصل ، كما يعقد فيه رجال القرية اجتماعاتهم • وهذه العنابر التى يبيت فيها الرجال العزاب مألوفة

لدى قبـــائل « النجـــا » فى « أســـام » ، ولكنها لا توجد عند « الخاسيين » الذين يسكنون النجاد •

وتنتشر عادة الانتساب الى الأم بين قبيلة « كارو » كما تنتشر بين قبيلة « كهاسى » • فالزوجة هى ربة الأسرة ؛ وكل ممتلكات الأسرة تورث من خلالها • وتنقسم القبيلة الى مجموعات من الأسر العديدة التى تمتد بسلسلة نسبها الى الأم ، وتسمى « ماشونج » • وأفراد كل مجموعة من هذه المجوعات يرفعون نسبهم الى جـدة ا ؛ لا الى أبيهم الذى تكاد تجهله أسرته • ويتبع هذا النظام فى الارث كذلك ؛ اذ أن الارث يقتصر على فرع النساء • ولا يحق للرجـل أن يمتلك ممتلكات الا عن طريق ما يكسبة بعرق جبينه ، أمـا ممتلكات الأسرة فليس له حق فيها بأية حال ن الاحوال • « فقـانون الارث يمكن أن يتلخص فى أن الممتلكات متى اصبحت فى حوزة سلســلة الامومة ، لا تخرج منها • واذا كان أولاد الام ينتسبون اليها ؛ فقد يبدو لاول وهــلة أن الابن يؤكـد هذا النظـام • لكن الذى يحـدث أن الابن يتحتم عليه أن يتزوج امرأة من عشــيرة أخرى ؛ فاذا أنجب أبناء ، فانهم ينتمون الى أمهم • ومن ثم فان الارث يؤول الى الابنة ثم الى ابنتها من بعدها وهكذا • فاذا لم يكن للأم أبنة : فان التركة تؤول الى امرأة اخرى من نفس العشــيرة يعينها بعض أفراد هذه العشيرة » • على أنه على الرغم من ان اقطاعية الاسرة وممتلكاتهـا تنتمى الى المرأة من الوجهة القانونية ؛ فان الزوج هو الذى يستفيد عمليا من هذه الممتلكات فى أثناء حياتها • فأرض قرية من القرى ــ على سبيل الايضاح ــ هى ، على وجه التحديد ، ملك لزوجة رئيس القرية ولكنه على ألسنة الناس وفى أذهانهم ، هو مالك هذه الأرض • وعلى الرغم من انه يستمد حقوقه كلية من زوجته ، فان اسمها لا يذكر فى الدعوات القضائية ، اللهم الا اذا كان من صـالح المدعى أن يذكر اسمها •فالمرأة عمليا ، ليست سوى الوسيلة التى تنتقل من خلالها الممتلكات من جيل لجيل وذلك لمصلحة الذكور فى المصاف الاول •

على أن كل ما سمعناه من الثقات الذين أعتمدنا عليهم فى أقوالنا هذه ، يختص بتفضيل الاناث على الذكور فى الارث بين قبيلة « جارو » ، ولكن شيئا لم يذكر عن تفضيل الابنة الصغرى على سائر أخواتها • اذ لم يذكر الرائد « بلايفير » الذى أمدنا بوصف قيم لهذه القبيلة ، شيئا حول هذا الموضوع • وربما استطعنا أن نعزو عدم ذكره لهذا الموضوع ، أن عادة حق ارث الابن الأصغر بين قبيلة « جارو » قد انقرضت فى عصرنا الحاضر ، أو هى فى سبيلها الى الانقراض • ولكنه يبدو أن هذه العادة كانت تتبعها هذه القبيلة على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب • ذلك أن باحثا انجليزيا زار هذه القبيلة فى عام ١٧٨٨ م وعكف على دراسة أحوالها ، ودون عنها هذه العادة • فبعد أن وصف هذا الباحث حفل زواج رآه رأى العين عند هذه القبيلة ، قال : « لقد درست ظروف احتفال الزواج عند قبيلة « جارو » من خلال مشاهدتى لحفل زواج « لونجرى » ، ابنة الزعيم « أوداسى » الصغرى التى تبلغ من العمر سبع سنوات ، من ابن رجل من عامة الشعب فى قبيلة « جارو » ، هو « بوجلون » الذى يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما • ويحق لى أن أدلى بملاحظتى فى هذا الموضوع ، وهو أنه على الرغم من عدم تكافؤ السن والمستوى الاجتماعى فى هذا الزواج ، فانه من حسن حظ «بوجاون » أن يتم له هذا الزواج ؛ حيث أنه سيرث الزعامة والارض معا • ذلك أن الابنة الصغرى عند قبيلة « جارو » هى على الدوام صاحبة الحق فى الارث وليس لأحد من اخوتها الذين ولدوا قبلها أن يرثوا شيئا عند موت والدها الزعيم • والأغرب من هذا ، أنه اذا توفى الزوج « بوجلون » ؛ فان « لونجرى » تتزوج أحد اخوته • فاذا لم يكن له أخوه تزوجت أباه • فاذا كان الأب كهلا رفضته وتزوجت ممن تختاره » •

وبهذا نكون قد أشرنا الى انتشار عادة حق الابن الاصغر بين عدد من القبائل التى تسكن « الصين الجنوبية المغربية » والمناطق

المجاورة لها فى «بورما» و «أسام» • وتنتمى هذه القبائل جميعا فيما عدا قبيلة «كهاسى» التى يساورنا الشك فى أصلها ، الى الاسرة المنغولية • ويعتقد الباحثون أن الموطن الاصلى لهذه القبائل كان الصين الشمالية الغربية فيما بين أعالى نهرى «يانج — تسى — كيانج» ، و «هو — أنج — هو» ، ومن هذا المكان انتشروا الى كل الجهات • وقد مروا مقتفين أثر وديان النهر فى أثناء هجرتهم بأنهار «شين دومين» ، و «اراوادى» و «سالوين» ، حتى وصلو الى «أسام» • وقد هاجرت هذه الشعوب المغولية فى ثلاث هجرات متعاقبة كانت آخرها هجرة «الكاشينيين» أو «السينجفونيين» •

وقد استمرت هذه الهجرة الأخيرة إلى أن أوقفها الاحتلال البريطانى لبورما الشمالية • وقد كانت وديان نهرى «براهما بوترا» و «اراوادى» الكبيرين هى بحق المنافذ التى تدفق منها الغزاة الشماليون الجسوسون من مواطنهم الشمالية الباردة الجرداء فى قلب آسيا ، ليقوموا بغزو بقاع فى الجنوب أكثر دفئا وأكثر غنى من موطنهم الأول • وقد استطاعوا ، عن طريق هذا المسلك الطبيعى ،أن يحولوا جانب الحاجز الطويل الذى لا يخترق فى يسر ، الذى يتمثل فى جبال الهملايا ، الى ممر مباشر لغزو الهند من جهة الشمال • على أنه يبدو أن جماعات هؤلاء الغزاة لم تتقدم على الاطلاق فى أثناء سيرهم جنوبا ، فيما وراء جبال «أسام» المتجهة التى تكثر فيها الغابات وتهطل عليها الامطار الغزيرة • فهناك توقف سيرهم ، وهناك استقروا وما زالوا مستقرين فى هذا المكان حتى اليوم ، كما لو كانوا ، طليعة من جيش كبير تتطلع الى قمم التلال الباردة وأطراف صعيدها المرتفع عبر الوديان الحارة والسهول اللافحة التى يكسوها بساط سندسى أخضر يمتد الى أسفل الى الاف الأقدام حتى يختفى مع الافق ، أو يتصل بسلسلة من جبال ترتطم بزرقة السماء فى الأفق البعيد • ومن المحتمل أن حرارة الهند كانت أشبه بدرع واق ضد هؤلاء الغزاة أكثر فعالية من أسلحة السكان الضعيفة ، هؤلاء

الذين لم يكونوا مولعين بالحرب . أما فى البقاع التى استوطنوها ، فقد كانوا يتنسمون فى حرية عبير أشجار البلط وجوز الهند ، والتنوب، تلك التى تنمو فى هذه الغابات . وكانوا يخشون أن يهبطوا الى أسفل حيث تنمو أشجار النخيل والسرخس والخيزران .

على أن عادة حق ارث الابن الاصغر أو الابنة الصغرى لم تكن تقتصر فى هذه البقاع على القبائل المغولية . فالمتبع عند قبيلة « مرو » ، وهى قبيلة صغيرة تسكن التلال الواقعة بين « أراكان » و « تشيتاجونج » ، انه اذا تزوج الأبناء والبنات فان الأب يعيش مع ابنه الاصغر أو ابنته الصغرى . وعند موته يرث هذا الابن أو تلك الابنة تركته من بعده» . ورجال المورويين طوال أقوياء ذوو بشرة دكناء ، ليست لهم ملامح مغولية . وهم يزرعون الأرز ويشربون اللبن ويأكلون لحم البقر أو لحم أى حيوان آخر . وهم شعب مسالم بطبعه، جبان وبسيط . ويميل لأن يفض منازعاته عن طريق التضرع الى الارواح أكثر من أن يفضها عن طريق الحرب . والشاب عندهم يخدم مدة ثلاث سنوات من أجل زوجته فى بيت أبيها . فاذا كان غنيا ، ففى وسعه أن يدفع لأهل الزوجة مبلغ مائتين أو ثلاثمائة روبية مقابل هذه الخدمة .

وكذلك تنتشر عادة حق الابن الاصغر فى الارث بين «الهوويين» أو «اللاركا كوليين» «لوركا كول» ، الذين يسكنون حى «سينجبهوم» فى البنغال الجنوبية الغربية . وينتمى «الهوويين» الى الجنس الأصلى ذى اللون الداكن الذى يسكن الهند . وهم يشبهون «الدرافيديين» فى ملامحهم الطبيعية . وان كانوا يتحدثون لغة تختلف كلية عن لغتهم ، وهى لغة يعتقد فى أنها فرع من أسرة «أوستريك» التى تعد لغة قبيلة «كهاسى» التى تسكن أسام فرعا منها كذلك . أما الجنس الذى ينتمى اليه «الكوليون» ، فقد ألف الناس أن يسموه «الكولاريين» . أما اليوم فهو يسمى فى العادة «موندا» نسبة الى القبيلة التى تسمى بهذا الاسم . و «الهوويون»

أو «اللاركوليون» شعب زراعى صرف ، وقد تطورت أساليبه الزراعية الى درجة أنه يستخدم المحاريث الخشبية ذات الرءوس الحديدية •
ويبدو أنهم كانوا يسكنون فى الأصل اقليم «شوتا ناجيور» ، وهو الصعيد الشاسع المنعزل الذى يقع فى الشمال من موطنهم الحالى، والذى ما زال أقرباؤهم الموندانيون يسكنونه • ويعترف «الهووين» بصلة قرابتهم الى «الموندانيين» كما يحتفظون برواية عن هجرتهم من « شوتا ناجبور» • ووفقا لما ترويه قبيلة «أراون» وهى قبيلة لا تزال تعيش فى حالة أكثر بدائية من «الهوويين» وتسكن اقليم «شوتا ناجبور» ، أن غزو «الهوويين» للنجد المرتفع هو الذى دفعهم الى البحث عن وطن جديد لهم فى الجنوب • على أنه ليس من اليسير أن نعتقد أن «الهوويين» قد تنحوا لجنس دونهم حضارة ، وغير مولع بالحرب مثل «الأورانيين» وأفسحوا لهم الطريق • ومهما تكن أسباب هجرة «الهوويين» ، فانهم يسكنون الآن بلادا أكثر وحشة ووعورة من التلال الرومانسية ووديان « شوتاناجبور » التى هجرها اجدادهم منذ زمن طويل • أما الاقليم الذى يسكنونه ويعرف باقليم «كولهان» أو «كوليهان» فتموج فيه فى كل مكان كتل متجهمة من الصخور البركانية المتكسرة • وفى كل مكان يصطدم البصر بسلسلة من الجبال تبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم • وأكثر الأماكن خصوبة وازدحاما بالسكان وأعلاها مستوى فى الزراعة . تلك الاراضى المنخفضة التى تحيط «نشايبازا» • أما فى الغرب فتمتد منطقة من التلال والأحراش الشاسعة التى تخترقها بعض الوديان اليانعة ، بينما تغطى المنطقة التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى كتلة من الجبال المتجهمة ذات الغابات الكثيفة ،تلك التى تعرف باسم «سارندا ذات التلال السبعمائة» • وهناك يسكن سكان القرى القليلة الغفيرة المنعزلة فى وهاد عميقة غير قادرين على مقاومة النمور التى تجرس الاحراش الكثيفة خلسة • «والهوويون» الذين يسكنون هذه الاماكن المرتفعة المنعزلة أكثر همجية وأشد قسوة من اخوانهم الذين يسكنون الاماكن المنخفضة ، كما أن وسائلهم فى الزراعة بدائية ، فهم يقطعون الأشجار

فى مساحات صغيرة فى الغابة أو الأحراش التى تحيط بقراهم الصغيرة ، ويعدونها للزراعة ، وعلى الرغم من ان التربة السوداء تدر لهم محصولا فى بادىء الأمر ، الا أنها سرعان ما تستهلك بسبب الأساليب البدائية التى يتبعها «الهوويون» فى زراعتهم ، ومن ثم فهم يضطرون بعد ثلاث أو أربع سنوات من زراعتهم لتلك الأرض أن يعدوا على النحو نفسه ، أرضا جديدة للزراعة وأن يبنوا لانفسهم مساكن جديدة فى مكان آخر من البرارى المترامية ، فاذا لم تسعفهم مواردهم الغذائية فى أوقات المجاعات ، فان هؤلاء المتوحشين سكان الاماكن المرتفعة ، يغيرون على جيرانهم ويحضرون معهم الى حصونهم المنيعة كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم من غنائم ، على أن الأمر أحسن حالا بالنسبة لأقربائهم الذين يسكنون الأحياء الخصبة المنطلقة التى تقع فى الشمال ، فهناك تقع القرى رشيقة فوق التلال وتطل على حقول الأرز المنبسطة فى هيئة شرفات ، وعلى الأراضى المرتفعة المتوجة ، ومما يزيد معالم البلد الجميلة ما بها من أشجار التمر الهندى العتيقة النبيلة التى تزين جوانب التلال مختلطة بأشجار المانجو والبامبو ، أما بيوتهم الفسيحة المتينة فتقف بسطوحها المسقفة بالعاب وشرفاتها الانيقة فى المكان المخصص لها مكونة مع الأبنية التابعة لها أشبة بميدان يقف وسطه برج الحمام ، وتضم القرية الخضراء التى يكسوها بساط من العشب الاخضر ، وتظللها أشجار التمر الهندى الضخمة ، ألواحا من الاحجار « يرقد تحتها أجداد القرية الغلاظ » ، وهناك تحت ظل الأشجار الذى يثير فى النفس الرهبة ، يروق لشيوخ القرية أن يجتمعوا بعد الفراغ من عناء العمل وبعد أن تهدأ حرارة النهار ، فيجلسون على الاحجار التى سوف يرقدون تحتها مع أجدادهم رقدتهم الاخيرة ، ويستمتعون بالأحاديث والتدخين ،

وكل قرية من قرى قبيلة «هو» يحكمها زعيم يسمى «موندا» ، وقد يحكم زعيم واحد مجموعة ن القرى يبلغ عددها من ست الى

اثنتى عشرة قرية ؛ ويسمى هذا الزعيم « مانكى » • ومن الغريب أن النظام الذى يتبع فى خلافة الزعماء يختلف عن ذلك الذى يتبع فى ارث الملكية الخاصة . اذ بينما تتحكم عادة حق ارث الأكبر فى خلافه الزعيم ، نجد أن حق الابن الاصـــغر فى الارث هو الذى يتحكم فى وراثة الممتلكات • وهذه المتفرقة بين النظـامين يؤكده دكتور « وليم دونبار » الذى أخبرنا « أن العادة التى يتبعها «الكوليون» فى الارث فريدة فى نوعها • وقد شرحت لى هذه العـــادة لأول مرة من خلال الاشارة الى ظروف «مانكى» ، كما يسمى بذلك ، الذى تجـــاوز قراه معسكرات «تشابياسا » • فعلى الرغم من أن هذا الزعيم يحكم عددا كبيرا من هذه القرى ، وكان يعد رجلا قويا بين أقرانه ، فقـــد فوجئت بانه يسكن بيتا صغيرا فقيرا • وأن أخاه الاصغر يقيم فى أكبر بناء فى هذه القرى ، وكان ملكا لأبيه «المانكى» المتوفى • فلمــا استفسرت عن سبب هذا ، علمت أن الابن الأصغر يرث بانتظام أكبر نصـــيب فى الملكية الخاصـــة • ومن ثم فانه على الرغم من أن « المانكى » يخلف أباه فى الزعامة ويكون هو الشيخ الحاكم ، فإنـــه كان ملزما بأن يسلم الى أخيه الاصغر الممتلكات والمتاع » • واذا كان الدكتور «دوبنار» لم يكن له علم من قبل بمثل هذا النظام فى الارث ، فان الرائد «تيكيل» قد ذكر هذه العادة نفسها التى يتبعها «المهوويون» أو «اللاركاكوليبون» فى ارث الملكية الخاصة ، وذلك قبل أن يذكرها ، «دونبار» بعدة سنوات ، فقال : «أن الابن الأصغر هو الذى يرث ممتلكات أبيه ، لأنه يكون عاجزا على أن يعول نفسه عند وفاة والديه على عكس اخوته الكبار الذين سبق لهم أن أعانهم أبوهم فى أثنــاء حياته فى سبيل الاستقلال بحياتهم » • أما عن سبب اختلاف النظام فى إرث الزعامة وإرث الملكية الخاصة . فلا يحتاج الى البحث العميق ، اذ بينما نجد أنه ليس هناك ضرر من أن تؤول التركة الى الابن الاصغر لينتفع بها مهما يــكن صغيرا ، فان الحكمة تتطلب أن يترك الحــكم لأكبر الأبناء ؛ أى الى الابن الأكبر •

وقد روى أن عادة حق ارث الابن الاصغر تتبع كذلك عند «البهيليين» وهم جنس أهلى بدائى يسكن الهند الوسطى • وهؤلاء قوم قصار ذوو بشرة سوداء وأجسام مكتنزة قوية ، ولهم مقدرة كبيرة على التحمل • قد قيل : ان اسمهم مشتق من اللفظ الدرافيدى الذى يعنى القوس ، وهو السلاح المميز لهذه القبيلة • وقد فقدت هذه القبيلة لغتها الأصلية . ولكن من المحتمل ان هذه اللغة كانت تنتمى ، اما الى الأسرة الموندانية (الكولارية) أو الى الأسرة الدرافيدية • وكان أفرد هذه القبيلة يتجولون فيما سبق فى الغابات التى تغطى جبالهم المحلية بوصفهم صيادين ، أما الآن فقد اضطروا أن يهجروا لعبة القنص وتجوالهم الحر فى الغابات التى كانوا يسببون لها تلفا بالغا • ويعيش الكثير منهم فى العصر الحاضر فى البلد المفتوح وأصبحوا خدما فى المزارع وعاملين فى الحقول ، كما أن بعضهم يعمل مؤجرا فى الأرض . والقليل منهم يمتلك قرى • وقد قيل : ان الذين يسكنون منهم فى حى «باروانى» فى الهند الوسطى على سبيل المثال ، لم يتأثروا بالحضارة حتى اليوم الا قليلا وما زالوا يعيشون حياة بدائية للغاية • وليست لهؤلاء قرى محددة ، اذ أن مجموعات الأكواخ التى يمكن أن تعد قرى تهجر لأدنى فزع ينتاب الاهالى ، فيكفى أن يسمعوا بمجىء رجل أبيض حتى يولوا هاربين تاركين أكواخهم ، كما أن هذه الأكواخ تقع متباعدة بعضها عن بعض فى نطاق ما يمكن أن يسمى قرية ؛ لأن كل رجل يخشى خديعة جيرانه له ، وما يمكن أن يدبروه من شر ضد زوجته • والبهيلى رجل غابة من الطراز الاول ، فهو ذو دراية بأقصر الطرق بين التلال ، كما أنه يستطيع أن يسير فى أكثر الممرات وعورة وأن يتسلق أكثر الصخور الشامخة انحدارا دون أن تزل قدمه أو يشعر بتعب • وكثيرا ما يطلق عليه فى الاعمال السنسكريتية القديمة اسم «فينابوترا» ، أى «طفل الغابة» ، او يسمى «بال اندرا» ، أى «سيد الطريق» • وهذه الصفات توحى بشخصية «البهيلى» بحق ، فهو لم يكن يسمح لغريب أن يجتاز الشعب الضيقة « بال » المؤدية لبلده الا باذن منه ؛ كما كان يحصل على الجباية

من المسافرين عن طريق التهديد • بل انه ما زال حتى اليوم يفرض على المواطنين الذين يقومون برحلة ، الاعتراف بما يراه حقا شرعيا له • وفضلا على ذلك فانه صياد جرىء وماهـــر ، فهو يعرف كيف يصيد النمور والأسود والدببة ، وكيف يقتفى أثرها حتى يقتلهـــا • وفى وسع جماعة من البهيليين أن تهاجم ، هى مدججة بالسيوف وحدها فهدا هنديا وتقطعه أربا •

ويتحدد نظام الارث عند « البهيليين » الذين يسكنون « مالوا الغربية » واقليم « فيندهيان ـ سابوتارا » الذى يقع على طول وادى « ناربالندا » فى الهند الوسطى ، وفقا لعادة القبيلة ، فالابن الاصغر يرث نصف التركة وهو مكلف بدفع نفقات الاحتفال الجنائزى الذى يقام فى اليوم الثانى عشر من وفاة أبيه ، كما عليه أن يعول اخواته • أما النصف الثانى من التركة فيؤول الى الأبناء الآخرين • فاذا كان الأبناء يعيشون معا ، الأمر الذى قلما يحدث ، فان الابناء يقسمون التركة بينهم بالتساوى • وهنا نجد مرة أخرى أن تفضـــيل الابن الأصغر فى الارث يعتمد ، فيما يبدو ، على بقـــائه وحده فى بيت الأسرة حين وفاة أبيه • فاذا حدث أن الابناء جميعا كانوا يقيمون فى بيت الأسرة ساعة حدوث الوفاة ، فان الابن الاصغر لا يتمتع بأى امتياز ، وانما يرث مع اخواته على قدم المساواة •

ويبدو كذلك أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر فى شكل محدود بين « البداجايين » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة ويعيش مع « الكوتايين » الذين يشتغلون بالزراعه كذلك ، و « التودايين » الذين يشتغلون بالرعى وحده فى تلال تيلجهيرى « فى الهند الجنوبية » • وفيما يلى ما ذكره دكتور « ريفرز » حول هـــذا الموضوع : « لقـــد ذكر « بريكسى » أن من عادة « التودايين » أن بيت الأسرة يؤول الى الابن الأصغر بعد وفاة أبيه ،ومن الواضح أن هذا القول لا ينطوى على شىء

من الصحة ، اذ أن هذه العادة لا يعرفها « التواديون » على الاطلاق ، ولكنها تنتشر بين « الباداجيين » • وقد قيل ان اتباع هذه العـــادة يرجع الى أن الابناء يتركون بيت الاسرة بعد زواجهم ، ويبتنون لهم بيوتا فى مكان آخر • وعندئذ يكون لزاما على الابن الاصغر أن يظل مقيما مع أبويه وأن يعولهما وهما على قيد الحياة • فاذا توفيا ظل مقيما فى بيت الاسرة لأنه صبح ملكا له » •

وقد قيل ان بقايا انتشار عادة حق الابن الأصغر بالارث فى شبه جزيرة الملايو قليلة ، ففى ولاية « ريمباو » احدى ولايات شبه جزيرة الملايو ، يؤول ارث الأسرة الى النساء • فاذا كان هناك أكثر من ابنة فى الأسرة ، فان الابنة الصغرى هى التى ترث مسكن الأم ، وعليهـا فى مقابل هذا ، أن ترعى أمها فى هرمها • و « الباتاكيون » فى سومطرة شعب زراعى ، ومن عاداته أنه اذا توفى رب الأسرة تاركا وراءه عددا من الأبناء أو الأخوة ، تقسم التركة فيما بينهم ، على أن يحصل أكبرهم وأصغرهم سنا على نصيب أكبر من أنصبة الآخرين • ووفقا لفقرات تشير الى اتفاقية فى تشريع مدون وان لم ينشر فيما يبدو ، أن العادة المتبعة فى اقليم « جورجيا » الذى يقع فيما وراء القوقاز ، أن الابن الأصغر يرث بالضرورة سكن أبيه الأمير أو النبيل عند وفاته ، بما فى ذلك الأبنية الملحقة به والحديقة • فاذا كان هناك كنيسة ملحقة بتلك الأبنية ، فان الابن الأصغر يحتفظ بها كذلك بعد أن يقدر ثمنها وبعد أن يدفع لاخوته الكبار جزءا من ثمنها المقدر • أما عندما يتوفى الأب الزارع فان بيته ومزرعته تؤولان الى الابن الأكبر فى حين يرث الابن الأصغر مخـازن الغـــلال •

٥ ـ عادة حق الابن الأصغر فى الارث فى آسيا الشمالية الشرقية :

لقد رأينا أن كل الشعوب التى تنتشر بينها عادة حق الابن الأصغر فى الارث ، باستثناء قبيلة « بهيل » ، شعوب زراعية • على أن هذه العادة تنتشر فى نطاق محدود بين القبائل التى لا تزال فى مرحلـــة

الصيد والرعى . فقد قيل انها تنتشر بين قبيلة « يوكاغير » ، وهى قبيلة مغولية تسكن سيبيريا الشمالية الشرقية ، ويعيش بعض أفراد هذه القبيلة على القنص وصيد الأسماك ، والبعض الآخر على رعى قطعان الأيائل . ويرجع عدم تمكن هذه القبيلة من ممارسة حياة الرعى الى قسوة الجو البالغة ، فهذه المنطقة تعد أبرد بقاع سيبيريا ، ان لم تكن أبرد بقاع العالم . « واليوكاغير » الذين يعتمدون فى حياتهم على القنص وصيد الأسماك ويسكنون بجوار شواطىء النهر فقراء للغاية كما أنهم يتبعون فى حياتهم أكثر الوسائل بدائية ، الى درجة أنه ليست لديهم أدنى فكرة عن ملكية أى أداة فى نطاق الأسرة ، اذا صرفنا النظر عن نتاج غذائهم . فما يغنمونه من الصيد والقنص يسلم الى نسوتهن فتوزعه أكبرهن سنا على أفراد الأسرة . ويعترف بالملكية الفردية الى حد ما فى حدود الملابس وأدوات الصيد مثل البنادق والسهام وغير ذلك من أدوات الصيد . فكل فرد من أفراد الأسرة له ملابسه الخاصة ، كما أن كل فرد يقوم فيها بالصيد أو القنص ، له أدواته الخاصة به . وتشمل الملكية الخاصة كذلك أدوات الزينة وأدوات الحياكة مثل الابر والمقص والخيط ، كما يدخل فى نطاقها أدوات التدخين مثل الغليون والقداحة وجراب الدخان وكذلك الزوارق . أما قوارب الصيد والشباك وبيت الأسرة وما يحتوى عليه من أدوات منزلية فتعد ملكا للأسرة بأسرها . أما فيما يختص بارث ممتلكات الأسرة ، فان المبدأ المتبع هو أن تؤول هذه الممتلكات الى الابن الأصغر ، فاذا انفصل الأبناء الكبار عن الأسرة أو ذهبوا ليعيشوا مع عائلات زوجاتهم بعد وفاة والديهم ، فان ممتلكات الأسرة تبقى فى حوزة الابن الأصغر ، كما أنه يمتلك بندقية أبيه . أما ملابس الأم وحليها فتؤول الى الابنة الصغرى . ولا يترك الابن الأصغر بيت الأسرة ليعيش فى بيت زوجته كماسبق أن ذكرنا ، وانما يخدم والدها بعض الوقت مقابل زواجه من ابنته ثم يصطحبها الى بيت والديه . وتعلل قبيلة «يوكاجهير» تفضيلها للابن الأصغر فى الارث بأن الابن الأصغر يحب والديه أكثر من اخوته ، كما أنه مرتبط بهما أكثر من اخوته .

واذا صرفنا النظر عن السبب العاطفى الذى تعـزوه قبيـلة « بوكاغير » فى تفضيل الابن الاصغر فى الارث ، فانه يحق لنا أن نظن أن سبب هذا التفضيل عندهم ، كما هو الحال عند القبائل الأخرى التى سبق ذكرها ، يرجع حقا الى عادة بقاء الابن الأصغر فى بيت والديه بعد أن يتزوج أخوته الكبار ويبرحوا بيت الأسرة ليعيشوا فى بيوت أسر زوجاتهم • وهذا الظن يصل الى حد اليقين اذا لاحظنا أن الأبناء فى هذا الفرع من قبيلة « يوكاغير » الذى يعتمد فى معيشته على تربية قطيع الأيائل ، « لا يبرحون بيت الأسرة بعد زواجهم وانما يبقون فيه ويتقاسمون ممتلكاته فى العادة • والأبناء يبقون معا فى بيت الأسرة بدوافع روابط القربى من ناحية ، وبسبب قلة الأيائل التى يربونها من ناحية أخرى ، الأمر الذى يجعل تقسيم ما ينتمى للأسرة غير عملى » • وليس هناك ما يمكن أن يلقى مزيدا من الضـوء على عادة حق الابن الأصغر فى الارض ، من أننا نلاحظ أن الابن الأصغر فى نطاق حدود ضيقة فى هذه القبيلة الصغيرة ــ ذلك أن تعداد قبيلة « يوكاغير » فيما نعلم ، لا يتجاوز بضع مئات ــ يرث التركة جميعها ، اذا كان من الفرع الذى يبقى فيه الابن الاصغر فى بيت الأسرة بعد وفاة والديه • ولكنه لا يفضل عن اخوته فى فرع القبيلة الذى يبقى فيه الأولاد جميعا فى بيت الأسرة ، وتقتسم معهم التركة على حد السواء • ومن ناحية أخرى فان الابنة التى تتزوج فى فرع قبيلة « بوكاغير » الذى يعيش على تربية الأيائل ، تترك بيت أبيها لتعيش مع حميها ، ولهذا فانها لا ترث أى نصيب من التركة عند وفاة أبيها • أما تركة الأم من ملابس وحلى وأوان ، فترثها البنات اللاتى لم يتزوجن عند وفاة أمهن • فالأحوال الاجتماعية فى فرع قبيلة « يوكاغير » الذى يعيش على تربية الأيائل تعارض الى حد ما بطريق مباشر ، تلك التى تنتشر بين « الحاسيين » ، فالأبناء فى قبيلة « يوكاغير » يعيشون فى بيت الأسرة طوال حياتهم ويرثون ممتلكات الأب ، فى حين تترك البنات بيت الأسرة عند زواجهن ولا ينلن من التركة شيئا • أما قبيلة « خاسى » فان البنات تمكثن فى بيت الأسرة طوال حياتهن ويرثن تركة الأسرة ، فى حين يترك الأبناء

بيت الأسرة عند زواجهم ولا يرثون شيئا • أى أن التركة فى كلتـــا الحالتين تؤول بطبيعة الحال الى الابناء الذين يبقون فى بيت الأسرة ، ذكورا كانوا أم اناثا •

وتعطى قيلة « تشوكتشى » التى تعيش على تربية الأيائل وتسكن فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا ، أهمية كبيرة « للوح النار » ،وهو عبارة عن شكل بدائى محفور فى الخشب فى هيئة انسان ويستخدم فى اشعال النار عن طريق الاحتكاك • وتخلع القبيلة عن هذه الألواح صفات انسانية وتعدها مقدسة ، فهم يحسبون أنها تحمى قطيع الأيائل من الشرور وتحرسه بحق • وتملك أسر كثيرة عددا من هذه الألواح بعضها جديدة نسبيا ، والبعض الآخر توارثته عن الأجيال السالفة • ويعد أكثر الألواح قدما فى أى الأحوال أرثا ثمينا ، وهو يؤول مع تركة البيت وكل ما يتبعه إلى الوريث الرئيسى الذى يكون فى العادة الإبن الأكبـــر أو الأصغر • ومن الواضح أن السؤال عما اذا كان الوريث هو الابن الأصغر أو الأكبر يتحدد بالنسبة لمن يظل منهما فى بيت الأسرة بعــد وفاة الأب • فقد قيل لنا أن « مسكن الأسرة يؤول الى الابن الأصغر ، كما يصبح هو الوريث الرئيسى ، اذا ما ترك الأخ الأكبر بيت الأسرة » •

وتنتشر عقيدة تبجيل ألواح النار بين «الكورياكيين» الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية • فهم يعدون هذه الألواح آلهة نار البيت ، وحارسة مسكن الأسرة كما ينسبون لها المقدرة السحرية على حمـــاية قطيع الأيائل ، وعلى مساعدة الرجال فى الصيد وقتلهم حيوانات البحر الثديية • « فلوح النار عند المجموعة التى تعيش على الصيد البحــرى فى قبيلة « كورياك » ؛ كما هو الحال عند المجمـــوعة التى تعيش على تربية الأيائل ، يرتبط برخاء الأسرة ، ومن ثم يحـــرم نقـــله من بيت الأسرة الى بيت غريب • ولكن اذا حدث أن اجتمعت أسرتان لتعيشا فى مسكن واحد فى فصل الشتاء لتقتصدا فى استهلاك وقود التدفئة ، فان كل أسرة تحتفظ معها بتعويذتها فى هذا المســكن • ويرث اللوح المقدس الابنا الأصغر أو البنت الصغرى على شرط أن يكون زوجها

مقيما فى بيت والدها ، وذلك فى حـالة ما اذا كان اخوتها الكبـار قد استقلوا بمساكنهم أو استقلوا بقطيعهم » • وهنا يبدو مرة أخـرى أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تتحـدد باقامته وحده فى بيت الأسرة بعد أن يكون اخوته الكبار قد برحوه • ولا تقتصر هذه العادة على جنس الآخر ، فقد يكون المتمتع بالارث ابنا أو بنتا بناء على من يظل فى بيت الأسرة وحده فى نهاية الأمر •

٦ ـ توريث الابن الأصغر فى أفريقيا :

يقل انتشار عادة حق الابن الأصغر فى الارث الى درجة كبيرة بين القبائل الرعوية فى افريقيا • فهى تتبع فى شكل محدود عند «البوجو» ، وهم قبيلة تعتمد أساسا فى معيشتها على رعى قطعان الماشية وان كانوا يقومون بفلاحة الأرض فى نطاق محدود • وهم يعيشون فى أطراف جبال الحبشة النائية جهة الشمال ، وتفتقر بلادهم الى الغابات والمياه الجارية، وان كانت تتمتع بجو معتدل صحى • وتتجول القطعان على مدار السنة على وجه التقريب بحثا عن المراعى الخضراء ويهاجر معهما ثلث السكان حيث يقيمون فى خيام مصنوعة من حصر النخيل • فاذا انتقلوا بخيامهم حملوها على ظهور الثيران • أما سائر الناس فيسكنون فى قرى دائمة فى كثير أو قليل ، حيث تبنى الأكواخ من القش • على أنهم يحرقون هذه الأكواخ الضعيفة عند الحاجة ويرحلون مع قطعانهم فى الليل بحثا عن مراع جديدة • ذلك أنهم يملكون مساحات شاسعة من الأراضى فى كل مكان • وتنتشر بين قبيلة « بوجو » عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، فالابن الأكبر هو عميد الأسرة ، كما أن زعامة القبيلة تنتقل من خلاله جيلا بعد جيل ، بل انه ينظر اليه بحق بوصفه شيئا مقدسا لا يجوز أن تنتهك حرمته ، وهو يعد ملكا وان كان لا يملك بهـاء الملوكيـة • فاذا توفى الأب قسمت التركة بحيث يحصل الابن الاكبر على أفضل نصيب بما فى ذلك البقر الأبيض ذو القيمة الغالية ، وأثاث البيت كله وسائر المتاع المنزلى • وبعد ذلك يرث الابن الأصغر البيت نفسـه

خاليا • واذا توفى ملك « النويريين » وهم شعب يسكن عند النيل الأبيض ويعيش على الرعى ، ورث الابن الأصغر الحكم من بعده • أما عند قبيلة « سوك » ، وهى قبيلة تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، فان الابن الأكبر يرث معظم ممتلكات أبيه ، فى حين يرث الابن الأصغر معظم متلكات أمه • ويبدو أن « السوكيين » كانوا فى الأصل شعبا زراعيا صرفا ، ثم انقسموا فى عصر متأخر الى قسمين : قسم اشتغل بالزراعة والآخر بالرعى وكلاهما يتبع العادة السالفة فى الارث ، كما تتبعها قبيلة « توركانا » ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى هذا الاقليم نفسه •

وتنتشر عادة حق الابن الأصغر فى الارث بين بعض « الايبو » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة فى جنوب نيجيريا • والشىء الغريب حقا عند هؤلاء ، أن حق الابن الأصغر فى الارث يقتصر على ما تمتلكه الأم ، وليس له حق فى ممتلكات الأب • ولكن العادة حتى فى هذه الصورة المحدودة ، تعد استثناء وليس قاعدة •

٧ ــ أصل عادة حق الابن الأصغر فى الارث :

اذا ألقينا نظرة على الشواهد السابقة التى تشير الى عادة حق الابن الأصغر كما صادفتنا بين قبائل آسيا وافريقيا ، فاننا ننتهى الى أن هذه العادة تنتشر بين الشعوب الزراعية كما تنتشر بين الشعوب الرعوية • حقا ان غالبية القبائل التى تتبع عادة حق الابن الاصغر فى الارث تعيش أساسا على الزراعة ، ولكن نظام الزراعة الذى يقوم على الهجرة وهو الذى يتبعه هؤلاء ، نظام مضياع ، فضلا على أنه يتطلب مساحات من الأرض تفوق الحصر لا تكفى هذه الشعوب وفقا للنظام الذى يتبعونه فى حياتهم • فما ان يكبر الأبناء ، حتى يتركوا بيت الأسرة ، ويمهدون مساحة من الأرض فى الأحراش أو الغابات ليزرعوها • ولا يبقى فى بيت الأسرة بعد ذلك سوى الابن الأصغر الذى يعول والديه بطبيعة الحال ، ويرعاهما فى شيخوختهما • ويبدو أن هذا

التفسير هو أبسط التفسيرات وأكثرها احتمالا ، على الأقل فيما يختص بحقوق الابن الاصغر • ويؤكد هذا التفسير تلك العادة التى يتبعها الزارعون الروس اليوم ، فهم يفضلون الابن الأصغر فى الارث • ويفسرون هذا التفضيل على نحو ما شرحناه • وترتبط هذه العادة عندهم بوراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة فى الغالب • فارثه لبيت الأسرة يعد حقا شرعيا له وان لم يرث سواه • وهو حق طبيعى وعادل اذا كان هو الذى يتخلف فى بيت الأسرة ويظل يسكنه حتى وفاة والديه •

وهذا الأساس نفسه يصلح أن يكون تفسيرا لعادة الانتساب الى الام ، وخلافة الابنة الصغرى لها فى زعامة الأسرة ، تلك العادة التى تتبعها بعض القبائل مثل قبيلتى « خاسى » و « جارو » • فالابنة الصغرى هى آخر من يتزوج من البنات بطبيعة الحال ، بل انها تمنع من الزواج بحق عند بعض القبائل ، ومن بينها قبيلة « جارو » ، قبل أن تتزوج سائر أخوتها • ومن الطبيعى بناء على ذلك ، أنها تمكث مع والديها مدة أطول من تلك التى تمكثها اخواتها ، وتصبح عزاء والديها وسلوتهما فى شيخوختهما ، كما تصبح وريثة لهما بعد وفاتها • وحتى ان بقيت البنات الأخريات فى بيت الأسرة بعد زواجهن ، كا يحدث بين قبيلة « خاسى » فيما يبدو ، فان رعاية أسرهن تستغرق كل وقتهن بالضرورة ، بحيث لا يكون لديهن متسع من الوقت لرعاية أبويهن • ومن ثم يبدو أن تفضيل الابنة الصغرى بالارث فى هذه الحالة كذلك ، ليس بالأمر غير الطبيعى •

وتتضح عادة حق الابن الاصغر فى الارث أكثر من ذلك ، كما لاحظ « بلاكستون » هذا منذ زمن طويل ، بين القبائل الرعوية • فمساحة المقاطعة الشاسعة التى يعيش فى نطاقها البدو والرعاة أو أصحاب القطعان ، تتيح للابناء عندما يكبرون أن يخرجوا الى الحياة ويتجولوا بقطعانهم وماشيتهم ، بينما يظل الابن الأصغر آخر الأمر مع أبويه فيعولهما ويرعاها فى هرمهما ثم يرث ممتلكات أبيه عندما يتوفى • وعلاقة

الأب بأبنائه فى القبائل البدوية تسمح حقا بتفضيل الأب لابنه الاصغر على سائر أخوته • وقد كتب « بورخارت » الذى كان قد ألف حيـاة البدو ، حول هذا الموضوع فقال : « ان الخلافات اليومية التى تنشأ بين الأبوين وأولادهما تمثل أسوأ ملامح الحياة البدوية • فعندما يصل الابن الى سن البلوغ يسأل أباه بزهو أن يمنحه أى عدد من رءوس الماشية حيث أنه فى وسعه أن يحصل بساعديه على ما يبتغيه ، وهو يعتقد بهذا أن أباه لزم بأن يحقق له مأربه • أمـا الأب ، من ناحية أخـرى فيستاء لسلوك أبنائه المتغطرسين نحوه ، ومن ثم تنشأ الخلافات بينه وبينهم • وتتسع هوة هذه الخلافات فى العادة بحيث تصعب معالجتها • وعند ذاك ينتزع الابن الشاب نفسه من سلطة أبيه ، اذا أستطاع ذلك محتفظا له ببعض الاعتبار طالما كان يعيش معه فى خيمة واحدة • ولكنه متى استطاع أن يكون سيد الخيمة ، (وهو الأمر الذى يظل يسعى اليه) فانه عند ذاك لا يستمع لنصيحة ناصح ، اللهم الا الى صوت ارادته • أما الابن الذى لم يصل الى سن البلوغ بعد ، فيبدى الاحترام لابيه ألا يحاول الأكل معه فى طبق واحد ، بله أن يأكل أمامه • وانها لتعد جريمة شنعاء عندما يقول أحد الأفراد : « انظر الى هذا الابن كيف يلتهم الاكل فى حضرة أبيه » • أما أصغر الأبناء الذى لم يكن قـد تجاوز سنه الرابعة أو الخامسة فيدعى لتناول الطعام مع والديه ، وأن يأكل معهما من طبق واحد » • وهنا نلاحظ كما سبق أن رأينا فى أمثلة أخرى كثيرة ، أن نقطة التحول فى علاقة الأب بابنه تبدأ من اللحظـة التى يهجر فيها الابن بيت والديه ليعيش فى مسكن مستقل • وطبيعى أن تلك الرغبة المتغطرسة فى الاستقلال ، تلك التى يبديها الابن البدوى لأبيه منذ اللحظة التى يبرح فيها الابن خيمة والديه ، تحول عنه عاطفة الأب وتدفعه لأن يحرم هذا الابن المتكبر العنيد الذى استقل عنه ، من التركة ، وأن يورث كل ما يملكه لابنه الأصغر الخنوع الذى احتـرم رغبته وبقى معه فى خيمته • حقا ان العرب يقسمون الآن التركة بين أبنائهم الذكور بالتساوى وفقا للتشريع الاسلامى ، ولكنهم ربما كانوا

قبل ظهور الاسلام ، يستجيبون لنزواتهم الطبيعية ، ويحرمون الابن الاكبر من التركة ارضاء للابن الاصغر •

وبناء على ذلك ، فان الظروف التى دعت الى نشأة عادة حق الابن الاصغر فى الارث سواء فى المرحلة الرعوية أو الزراعية التى يعيش فيها مجتمع من المجتمعات ، هى وجود مساحات شاسعة من الاراضى مع قلة عدد السكان • فلما لم يعد من السهل للأبناء أن ينفصلوا عن الأسرة ، وأن ينشروا فى أرضهم طولا وعرضا ، اما بسبب ازدياد السكان أو لأى سبب آخر ، فان حق الابن الأصغر الكلى فى الارث أصبح عرضة لأن ينازعه فيه اخوته الكبار ، كما أصبح عرضة لأن يعطـل ، بل أن تحل محله عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، كما يحدث اليوم بين قبيلة « لوشاى » فى «أسام» • وعلى الرغم من ذلك ،فربما استمرت العادة القديمة فى الانتشـــار بدافع تأثيرها المتوارث ، وان اختفت ظروف الحياة التى نشأت فى كنفها • فلا تزال عادة حق الابن الأصغر فى الإرث تعيش أو كـــانت تعيش جنبـــا الـــى جنب مـــع عـــادة حق الابن الأكبر فى الأرث فى جهـــات غيـــر قليلـــة مـــن انجلترا • فاذا عدنا الآن الى النقطة التى بدأنا منها بحثنا حول هذا الموضـــوع ، أمكننا أن ندرك السبب فى أن بعض آثـــار عـــادة حق الابن الأصـــغر فى الارث كان من المحتم أن تعيش بين العبريين القدماء بعد أن هجرها هذا الشعب بزمن طويل واستبدلوا بها عـــادة حق الابن الأكبر فى الارث ، وذلك بعـــد أن عاش حيـــاة الزراعة المستقرة فى فلسطين بعد أن كان شعبا راعيا متجولا فى الصحراء • وقد تعجب المؤرخ الذى يدون تاريخه فى عصر متأخر ، عندما كانت عادة حق الابن الأصغر فى الارث قد نسيت فيه تماما ، تعجب من أن يجد تراثا مرويا يحكى عن وراثة أصغر الابناء لتركة آبائهم دون الأخوة الكبار • وقد حاول أن يفسر هذه الاحوال التى كانت بعيدة عن مفهومه فى نظام الارث ، فقدم هذه الاحوال بوصفها شواذ ترجع الى مجموعة من الأسباب العريضة ، كان تصاحب ولادة الابن الأصغر حادثة معينة

أو تفضيل الأب التعسفى له ، أو أنها ترجع الى جشع الابن الاصغر ومكره • وبناء على وجهة النظر هذه ، فان يعقوب لم يرتكب أى اساءة فى حق أخيه الاكبر « عيسو » ، وإنما شاء أن يثبت لنفسه حقـــه فى الارث الذى كان القانون القديم يمنحه بصفة عامة لأصغر الأبناء ، لولا بدعة غزت مجتمعه فى عصره ونقلت هذا الحق فى أصغر الأبنــاء الى أكبـــرهم •

الفصل الثالث

يعقـــوب وجـــلد الجـــدى

أو الميـــــلاد الجـــديد

١ ـــ البركة المحـــولة :

فى الفصل السابق التمسنا سببا لافتراضنا أن يعقوب بوصفه الابن الأصغر لاسحق ، كانت له الأولوية فى ظل العادة القديمة ، فى المطالبة بحقه فى ارث أبيه اسحق ، وأن التحايل الذى قام به بقصـــد حرمان أخيه « عيسو » من حقه فى الارث ، لم يكن سوى محـــاولات من جانب المؤرخ بهدف تفسير عادة تفضيل الابن الأصغر على الابن الاكبر فى الارث ، تلك العادة التى كانت قد هجرت قبل عصره بزمن طويل ، وأصبح مغزاها غير واضح على وجه التقريب . وفى ضوء هذه النتيجة ، فاننى أرى أن نتدبر فى هذا الفصل ، الخدعة التى قام بها « يعقوب » متواطئا مع أمه « رفقة » ، بهدف خداع أبيه لكى يحول تركته من أخيه اليه ، حيث اننى أعتقد أن هذه الحكاية تتضمن بقايا طقوس قديمة كانت تتبع عندما حلت عادة حق الابن الاكبر فى الارث محل عادة حق الابن الاصغر ، وذلك بقصد تعيين الابن الاصغر خلفا لأبيه بدلا من أخيه الاكبر . فبعد أن دعمت عادة حق الابن الاكبر فى الأرث ، بوصفها قانونا للأرث ، كان التجاوز عن هذه العادة يعـــــد نقضا لعادة متوارثة لا يكون فاعلها فى حـــل منها الا باتبـــاع بعض الشكليات الغريبـــة التى كان الغرض منهـــا تغيير نظام الارث بين الأخوين ، أو حماية الأخ الأصغر من بعض الاخطار التى يمكن أن

يتعرض لها بسبب أقصائه أخاه الأكبر من حقه فى الأرث • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن يعقوب قد قام بهذه الشعائر الشكلية بقصد تدعيم موقفه من ارثه لأبيه • وذلك لأنه اذا كانت عادة حق الابن الاصغر لاتزال رائجة كل الرواج فى عصره ، فانه كان يعد الوريث الشرعى لأبيه ، ولم يكن فى حاجة لأن يقوم بتأدية شعائر معينة لاكتساب تلك الحقوق التى منحها لكونه أصغر اخوته • ولكن عندما حلت عادة حق الابن الأكبر فى الأرث محل عادة حق الابن الأصغر فى عصره متأخرا ، فربما رأى مؤرخ حياة يعقوب أن من واجبه تبرير حصول بطله على تلك المنزلة التقليدية ، بأن نسب اليه تأدية الشعائر التى كانت تتبع فى زمن المؤرخ بين الحين والآخر ، بهدف التصديق القانونى على تفضيل الابن الأصغر فى الارث • وربما كان قد غاب عن الكاتب الذى سجل حياة يعقوب فى زمن متأخر ، المغزى الشرعى لهذه الشعائر ، ذلك لأنها لم تكن مألوفة لديه ، فقدمها بوصفها مجرد خدعة ماكرة احتال بها يعقوب متواطئا مع أمه بقصد خداع أخيه حتى لا يحصل على البركة المقدرة له • ومن ثم فقد وصلتنا حكاية سفر التكوين فى هذه المرحلة الأخيرة من سوء الفهم والتشوية وفقا لهذا الغرض الذى افترضناه •

وأود أن ألفت نظر القارىء الى نقطتين فى حكاية سفر التكوين ، أولاهما اقصاء الابن الأصغر لأخيه الأكبر ، وثانيهما الوسيلة التى اتبعها فى سبيل تحقيق غرضه • فقد تظاهر يعقوب لوالده بأنه أخوه الأكبر ، وذلك بأن ارتدى ملابس أخيه وبأن غطى يديه ورقبته بجلد جدى لكى يصطنع ملمس جلد أخيه الذى يكسوه الشعر • وقد قام بهذا الفعل بدافع التحريض من أمه التى ساعدته فى القيام بهذا العمل الزائف ، بأن ألبسته ملابس أخيه من ناحية ، وغطت يديه ورقبته بجلد جدى من ناحية أخرى ، وبذلك نجح يعقوب فى تحويل بركة أبيه اليه ، تلك البركة التى كان مقصودا بها أخوه ، وبذلك أصبح خليفة لأبيه • ومن المحتمل أن هذه القصة تحتوى على بقايا شعائر قانونية كانت تتبع عندما يصبح الابن الأصغر خليفة شرعيا لأبيه بدلا من أخيه الأكبر •

٢ ـ تقديم الجلد ضحية فى الشعائر :

هناك بعض القبائل فى افريقيا تتشـــابه عاداتها مـــع عادات الساميين فى بعض جوانبها الغربية ، وربما ساعدت على اســـتجلائها وتفسيرها • ذلك أن هذه القبائل الافريقية قد تخلفت عن الشعوب السامية فى مجرى التطور الاجتماعى البطىء ، ومن ثم فقد احتفظت فى وضوح بطابع عادات بدائية محددة ، فى الوقت الذى انقرضت فيه هذه العادات فى كثير أو قليل وبليت بتأثير زحف المدنية • وهذه القبائل تسكن فيما يسمى بالقرن الافريقى الشرقى ، أى أنها تنتشر على وجه التقريب بين الحبشة وخليج عدن شمالا ، وجبل « كليمانجارو » وبحيرة فكتوريا نيانزا جنوبا • ولا تنتمى هذه القبائل الى مجموعة القبـــائل الزنجية الخاصة التى تتحدد اقامتها فى افريقيا الغربية ، كما أنهـــا لا تنتمى الى مجموعة قبائل البانتو التى تحل بشكل عام بقاع افريقيا الجنوبية جميعها ، من خط الاسواء الى رأس « الرجاء الصالح » • حقا ان بينهم قبائل ، مثل قبيلتى « أكامبا » و « وكيكويو » اللتين تتحدثان اللغات البانتوية ، وربما انتمت أصلا الى مجموعة قائل البانتو • ولكن حتى هذه القبائل ربما ساورنا الشك فى مدى انتمائها لمجموعة قبـــائل البانتو ، وفى مدى التغير الذى طرأ عليها نتيجة اختلاطها أو احتكاكها بعنصر غريب عنها • وفى العموم فان العنصر المسيطر فى هذا الجزء من افريقيا هو ما يطلق عليه العلماء الاثنولوجيون اســـم الأثيوبيين ، وأخلص عنصر فى هؤلاء فيما يبدو ، هم الجاليون • كما يبدو أن قبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى « أنكولى » فى محمية أوغندا والتى تنتسب اليها فيما يقال ، الأسر الملكية فى « أوغندا » و « أونييورو » و « كراجوى » ، يبدو أنها كانت تكون القاعوة الأمامية التى تقـــع فى الغرب • ومن بين القبائل الأخرى التى تنتمى الى هذه الأسرة وربما أشهرها ، قبيلتا ماساى ونااندى اللتان تربط بينهما صلة قرابة • ولحسن الحظ أننا نملك بحثين قيمين عن هاتين القبيلتين ، كتبهما لنـــا الباحث الاثنولوجى « أ • س • هوليس » • ففيمـــا يختص بعـــلاقة هاتين

القبيلتين بالجاليين كتب تقول : « لست أعتقد أن الدور الذى لعبه الجاليون فى تكوين قبيلة « ماساى » وقبيلة « ناندى لومبو » وغيرهما من القبائل مثل قبيلة « باهيما » التى تسكن أوغندا ، كان دورا فعالا ، أو أن هذا التكوين كان له أثر فى الزمن الماضى • وكثيرا ما يشار الى تأثير الأجداد الجاليين على هذه القبائل فى المظهر الفيزيائى وفى دينها وعاداتها ، كما يشار اليه بصورة أقل فى لغات كثير من القبائل » •
ولا يفصل موطن الجاليين فى افريقيا عن شبه جزيرة العرب ، مهد الجنس السامى ، سوى بحر ضيق ، ومعنى هذا أن العلاقة بين هذين الموطنين وهذين الشعبين لابد أنها كانت قوية منذ العصور القديمة • ومن ثم فانه ليس غريبا ، كما قد يبدو لأول وهلة ، أن نجد تشابها بين العادات السامية والعادات الاثيوبية • حقا ان الصيحة من فوق جبل زيون لم تكن لتصل الى جبل كليمنجرو نظرا لبعد المسافة فيما بينهم ، ولكنها ربما كانت تصل خلال محطات كانت تقع فيما بينهما على طول شواطىء افريقيا وشبه جزيرة العرب • على أننى لا أهدف من قولى هذا أن أقدم رأيا حول مسألة ما اذا كانت وجوه التشابه بين العادات الأثيوبية والسامية تفسر بأن هذه العادات مستمدة من أصل واحد ، أو أنها ترجع الى تأثير أحداث متشابهة تركت تأثيرها مستقلا على عقول الأجناس المختلفة ، وانما أهدف فحسب الى اثارة افتراض أصل واحد لهذه الاجناس ليس من السهل تجاهله •

وبعد هذه المقدمة المسهبة التى تحصننى ضد الشكوك التى يمكن أن تثار حول بحثى عن وجوه التشابه بين عادات جنسين عبر مسافة زمنية غير معقولة ، أدلى الآن ببعض الحقائق التى تشير الى مراسيم شرعية قديمة تتضمن قصة خداع يعقوب لأبيه •

فمن المألوف عند الجاليين أن يتبنى زوجان عاقران أطفالا • ويربط نظام التبنى الزوجين بالأبناء المتبنين برباط قوى ، الى درجة أنه اذا أنجب هذان الزوجان أولادا بعد ذلك ، فان الابن المتبنى يحتفظ لنفسه

بحقوق الابن الأصلى الأول كاملة • وتجرى الشعائر التالية عند انتقال الطفل من عند أبويه الشرعيين الى أبويه اللذين يرغبان فى تبنيه • فاذا كان هذا الطفل يبلغ من العمر حوالى ثلاث سنوات ، يؤخذ من حضن أمه ويحمل الى غابة حيث يتخلى أبوه الأصلى من خلال اجراءات صورية عن حقه كاملا فى بنوته لابنه ، وذلك بأن يعلن أن ابنه يعد منذ تلك اللحظة ميتا بالنسبة له • وعند ذاك يذبح ثور ، وتطلى جبهة الصبى بدمه كما يوضع جزء من شحمه حول رقبته ، وتغطى يداه بقطعة من جلده • وهنا تتضح وجوه التشابه بين هذه الشعائر وبين الاجراءات التى قام بها يعقوب لخداع أبيه : ففى كلتا الحالتين غطيت رقبة الشخص المعنى ويداه بجلد الحيوان الضحية أو شحمه • على أن مغزى هذه الشعائر لم يتضح بعد • وربما اكتشفنا مغزاها من خلال فحصنا لشعائر مشابهة لها تؤدى فى مناسبات مختلفة عند قبائل افريقيا الشرقية •

فمن المألوف بين هذه القبائل أن يقدم حيوان ضحية ، غالبا ما يكون نجعة أو شاة ، ويسلخ جلده ويقطع الى شرائح تلف حول معصمى الشخص الذى يراد له الاستفادة بسحرها بطريق أو بآخر أو تلف حول أصابعه • وقد يكون الهدف من ذلك درء المرض عنه أو اكسابه مناعة ضده أو تطهيره من دنس أو تخليصه من قوى غريبة تتملكه • فعندما يولد طفل بين « الأكامبابين » ، تذبح نعجة ويسلخ جلدها وتقطع منه ثلاث شرائح تلف حول معصمى الطفل ومعصمى الأب والأم ، كل على حدة • وفى مثل هذه المناسبة يذبح الاكيكويون شاة ، ويقص شريط من جلد رجليها الأماميتين يلف حول معصم الطفل حتى تبعد عنه الحظ العاثر أو الدنس (ناهو) الذى يعتقد فى أنه يلازم الأطفال المولودين • ومثل هذه العادة تتبع كذلك بين « الأكيكويون » فى احتفال غريب هو احتفال « الميلاد الجديد » (كو — تشى — آ — روو —أوكى — رى) أو « الميلاد من نعجة » (كو — تشى — آ — رى — ى — رو — هذه أومتور — ى) كما يسمونه الاهالى ، وهو الاحتفال الذى يحتم

أن يؤدى لكل طفل قبل ختانه • ويختلف عمر الأطفال الذى تقام فيه هذه الشعائر حسب الزمن الذى يمكن أن يقتنى فيه الأب النعجة أو الشاة اللازمة لتأدية الطقس ، ولكنه يبدو أن شعائر الميلاد الجديد تؤدى فى الغالب عندما يبلغ الطفل حوالى العاشرة من عمره ، وربما قبل ذلك • فاذا كان والد الطفل متوفيا أو والدته ، عين بدلا منهما رجل وأمرأة يكونان بمثابة الوكيلين عنهما ، وفى هذه الحالة ينظر الطفل الى هذه المرأة بوصفها أمه • ثم تذبح شاة أو نعجة بعد ظهر هذا اليوم ويحتفظ بمعدتها وأمعائها • ثم يقام الاحتفال بعد ذلك فى المساء فى كوخ من الأكواخ حيث لا يسمح لغير النساء بالحضور • ثم تمرر قطعة ذات شكل دائرى من جلد النعجة أو الشاة فوق احدى كتفى الصبى الذى سيولد من جديد ، وتحت ذراعه من الجانب الآخر لهذا الكتف ، كما تمرر أمعاء الحيوان فوق الكتف الأخرى وتحت الذراع الثانية للصبى • ثم تجلس الأم أو من تقوم مقامها ، على جلد الحيوان المبسوط على الارض والطفل بين ركبتيها ، وتمرر حولها أمعاء الحيوان ثم توضح تلك الأمعاء بعد ذلك أمام الصبى • ثم تأخذ الأم فى الأنين كما لو كانت تعانى آلام الوضع • وتأتى أمرأة ثانية فتقطع أمعاء الحيوان الذى يمثل الحبل السرى • وعند ذلك يصطنع الصبى بكاء الطفل الوليد • ولا يجوز للصبى قبل أن تؤدى له شعائر الميلاد الجديد أن يشارك فى دفن جثة أبيه أو أن يساعد فى حمله الى الخلاء ليموت هناك • وقد كانت شعائر الميلاد الجديد سالفا ترتبط بشعائر الختان ، ولكننا الآن نبحث الظاهرتين منفصلتين •

هذه هى عادة الميلاد الجديد الغريبة كما تمارسها أو كانت تمارسها قبيلة « أكيكويو » ، وكما وصفها بعض المواطنين الذين تخلصوا من سيطرة التقاليد وتعرضوا للتأثير المسيحى ، للسيد « روتلدج » وزوجته • ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا محجمين عن الحديث فى هذا الموضوع ، ولم يجد معهم الاغراء الرشوة فى السماح للباحثين الانجليز لمشاهدة هذه الشعائر • وعلى الرغم من ذلك فان

مغزاها العام واضح كل الوضوح . كما أنه يزداد وضوحا من خـــلال الاسم الذى يطلقه الأهالى على هذه الشعائر وهو « ميلاد الصبى من النعجة » .وجوهر هذه الشعائر فى الحقيقة هو تظاهر الأم بأنهـــ النعجة التى يخرج من بطنها الصبى . وهذا يفسر نشر معدة الحيوان وجلده حول الصبى ، كما يفسر تمرير أمعائه حول الأم والطفل معا . وتتضح عملية تظاهر المرأة بأنها حيوان يلد ، أكثر من ذلك من خـــلال حكاية مستقلة رواها « س . و . هوبلى » عن هذا الاحتفـــال ، وان يكن الحيوان الذى تقوم المرأة بتقليده فى هذه الحالة شاة وليس نعجة. واسم هذا الاحتفال كما ذكر « هوبلى » « كو ـــ تشياريو ـــ رينجى»، وترجمته الحرفية « الميلاد مرة أخرى » . ثم يخبرنا « هوبلى » بعد ذلك أن قبيلة « أكيكويو » تنقســـم الى فرعين همـــا « كيـــكويو » و « مساى » ، وأن اجراءات هذا الاحتفال تختلف على نحو ما من فرع لآخر . فاذا كان والدا الطفل ينتميان الى فرع « مساى » ؛ فان طقوس الاحتفال تجرى على النحو التالى : « يذبح الأب خروفا بعد ميلاد الطفل ذكرا كان أم أنثى ، بحوالى ثمانية أيام ، ويأخذ معـــه لحمه الى البيت الذى يسكنه أم الطفل ، فتأكل الأم لحم الحيوان هى وجيرانها طالما كانوا ينتمون الى فرع « مساى » . وفى نهاية الوليمة تزين الأم بجلد رجل الخروف الأمامية اليسرى وبجلد كتفيه وذلك عن طريق ربط شريط من هذا الجـــلد بين معصـــمها الأيسر وكتفهـــا اليسرى . وتظل الأم على هذا النحو مدة أربعة أيام ، وبعد ذلك ينتزع عنها هذا الشريط ويوضع فى سريرها حيث يظل فيه حتى يختفى . كما يحلق شعر الأم والطفل فى اليوم الذى تؤدى فيه هذه الشعائر . على أن هذا الاجراء ليس له صلة بتسمية الطفـــل ، اذ أنه يســـمى يوم ميلاده » . وهنا نرى أن الهدف من هذه الاجراءاتهو أن تقـــــرن الأم بالخروف ، ويتم هذا عن طريق أكلها لحمه وارتدائها جلده الذى يترك فى سرير الأم مدة ثمانية أيام قبل ميلاد الطفل . اذ من الملاحظ ان شعائر الميلاد الجديد على هذا النحو تتبع الميلاد الحقيقى بفترة لا تتجاوز بضـــعة أيام .

فاذا كان الأبوان ينتميان الى فرع « كيكويو » ، فان طقــوس الميلاد الجديد فى جنوب بلد « الكيكويويين » تجرى على النحو التالى : « يذبح خروف بعد ميلاد الطفل بيوم ، ثم يغلى بعض دهن الحيوان فى وعاء يقدم للأم والطفل ليشربا منه • على أنه لم يذكر على وجه التحديد أن هذا العمل له صلة مباشرة بطقس الميلاد الجديد ولكنه يذكره فى بداية وصف هذا الطقس • فاذا بلغ الطفل ما بين الثالثة والسادسة من عمره ، يذبح الأب خروفا ، ويزين الابن بجزء من جلده وجزء من جلد معدته وذلك بعد ذبحه بثلاثة أيام • ثم يربط هذا الجلد حول كتف الابن اليمنى ، أو حول كتف الخروف اليسرى واحدى أرجله • ويظل الابن مرتديا هذا الجلد مدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يضــاجع الأب والأم • على أن هناك ملاحظة على جانب من الأهمية ، وهى أن ينام الابن مع أمه فى سريرها ، قبل أن يزين بجلد الحيوان ، ويصرخ صراخ الطفل المولود • ولا يصح ختان الابن الا بعد القيام بهــذه الشعائر • وبعد أن يختن ببضعة أيام يعود الابن فينام فى سرير فى كوخ أمه ، أما الأب فلا يعود الى هذا الكوخ قبل أن يذبح خروفا ويقــدم للصبى جرعة من دمه • وبهذه المناسبة ينبغى على الأب أن يضاجع الأم » •

فاحتفال الميلاد الجديد فى هذا الشكل الشــعائرى الذى وصفه « روتليدج » وزوجته ، يؤجل بضعة سنوات بعد ولادة الطفل • وسواء أقيم هذا الاحتفال اثر ولادة الطفل مباشرة أو بعد ذلك بسنين ، فانه جوهره واحد ، وهو أن تتظاهر الأم بأنها شاة تضع وليدها ، على أنه ينبغى علينا أن نشير الى استبدال الخروف بالشــاة فى هذا العمــل التشريعى ، ذلك الاستبدال الذى ليس من السهل علينا أن نفسره فى هــذا المقــام •

وبعد أن انتهى « هوبلى » من وصف طقوس الميلاد فى شكلها كما تتبع عند فرعى قبيلة « اكيكويو » ، عاد فوصف لنا طقوس احتفال آخر

شبيه فى شكله باحتفال الميلاد الجديد • ويطلق على هذا الاحتفال الأخير اسم مشابه للاحتفال الأول وليس مطابقا له كل التطابق (فهو يسمى « كو شيآريو كونجى » بدلا من « كو ــ شيآريو رنجى » • وهذا الاحتفال الثانى هو احتفال التبنى • وقد قيل : انه يشبه الاحتفال « السواحيلى » الذى يسمى « ندوجو كو شانجايانا » • « فمن الطبيعى أن الشخص الذى ليس له اخوة أو والدان ، أن يجتهد فى أن يكون تحت حماية رجل ثرى وأسرته • فاذا وافق هذا الرجل الثرى على أن يتبناه ، فان كلا منهما يأخذ خروفا ويذبحه فى حضرة شيوخهما ثم يقطع هؤلاء الشيوخ جلد الرجل اليمنى من كل خروف وجلد صدريهما الى شرائح تلف حول يدى كل من المتبنى والمتبنى بحيث يزين كل منهما بشرائح جلد خروف الآخر • وعند ذاك ينظر الى الرجل الفقير بوصفه ابنا للرجل الغنى • فاذا شاء المتبنى أن يتزوج ، دفع الرجل الغنى عددا من الرءوس فى مقابل شراء زوجة له » • ومن الصعب فى هذا الاحتفال أن يكون هناك تظاهر بالميلاد الجديد ، حيث ان بطلى هذا الاحتفال من الذكور • ولكننا عندما نقارن هذه العادة بالعادات السالفة ، فانه يحق لنا أن نفترض أن كلا من المتبنى والمتبنى يتظاهر بأنه شاة •

وهناك شعائر أخرى تؤديها قبيلة « كيكويو » قبل الاحتفال بالختان • ففى صباح اليوم السابق على تأدية شعائر الختان ، يذبح جدى شنقا ام يسلخ جلده ويقطع الى شرائح • ثم تلف شريحة منها حول معصم الصبى الأيمن ويسحب من خلف يده بحيث يدخل بنصره فى شق فى هذا الجلد • ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « واشامبا » ، وهى قبيلة تقطن فى افريقيا الشرقية • فقبل القيام باحتفالات الختان • تقدم نعجة ضحية لروح أحد الأجداد ، ثم تقطع حلقات من جلد النعجة كى يلف بها الصبى الذى سيختتن ، كما يلف بها أبواه وأقرباؤه • ثم يتضرع الأب الى الروح وهو يذبح النعجة ويقول : « لقد اجتمعنا كى نخبرك بأن ابننا سيختتن اليوم • فلترع طفلنا وكن رحيما به ولا

تكن غاضبا علينا • وها نحن نقدم لك نعجة » • وهنا يبدو أن أفــراد الأسرة وهم يلتفون بالحلقات التى قطعت من جلد النعجة ، يقرنــون أنفسهم بهذا الحيوان الذى يقدم ضحية لروح أحد الاجداد • وعند قبيلة « واتشاجا » التى تسكن جبل كيليمانجالوا يجتمع الصبية بعد شهرين من ختانهم فى قــرية الزعيم حيث يجتمع كذلك العرافــون والاطباء ، وهناك تذبح النعاج ويقطع الأولاد الذين ختنوا حديثــا شرائح من جلدها ويدخلون أصابعهم الوسطى من أيديهم اليمنى فى شقوق طولية يحدثونها فى شرائح الجلد • وفى هذه الأثناء يصــــنع العرافون دواء مصنوعا من محتوى معدات النعاج بعد مزجها بالمــاء والمواد السحرية • ويرش الزعيم هذا المزيج على الصبية حتى يتم فيما يبدو اتحادهم السحرى أو المقدس بالنعاج • وفى اليوم التالى يتم والد كل صبى وليمة لأقربائه ، فيذبح نعجة ، ويأخذ كل ضيف قطعة من جلد النعجة يلفها حول الاصبع الاوسط من يده اليمنى • ويحق لنا فى هذا المجال أن نقارن بين هذا الاحتفال باحتفال آخر يقوم به « البورانيون الجاليون » عندما يصل الصبية عندهم سن البلوغ • وهذا الاحتفال يسمى « أدا » أو الجبهة وتفسره كلمة « جارا » معناها الختان • وفى هذه المناسبة يجتمع الغلمان الذين يحتفل بطهورهم ، مع آبائهــــم وأمهاتهم وشيوخ أقربائهم فى كوخ يبنى لهذا الغرض • ثم يذبح ثور على سبيل التضحية ويغمس كل فرد من الحاضرين اصبعه فى دم الثور بحيث يقطر منه الدم ، كما يدهن الرجال جباههم والنساء قصباتهن الهوائية ببعض هذا الدم • ثم تدهن النساء أنفسهن بدهن الضحية ، كما يرتدين شرائح رفيعة من جلدها حول رقابهن ويحتفظن بها على على هذا النحو حتى اليوم التالى • وفى النهاية تقام مأدبة من لحــم الثــور الضحية •

ويستخدم جلد الحيوان على هذا النحو فى احتفالات الزواج عند بعض القبائل الافريقية • ويجرى جزء من هذه الاحتفالات عند قبيلة « واوانجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقيـــة

البريطانية على النحو التالى : يذبح ذكر من الماعز ويقص شريط طويل من جلد معدته • ثم يشق والد العريس أو أى غريب آخر مسن له ، الجلد طوليا ويمرره فوق رأس العروس بحيث يتدلى على صـــدرها ويقول : « لقد وضعت الآن الجلد على رأســك ، فاذا هجرتنــا لكى تتزوجى رجلا آخر ، فليتبرأ منك هذا الجلد ولتصبحى عاقــــرا » • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « وا ــ جيرياما » وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، اذ يذبح الزوج عنزة فى اليوم التالى لزواجه ويقطع شريطا من جلد جبهتها ويصنع منه تعويذة يقدمها لزوجته كى ترتديها فى ذراعها اليسرى • أما لحم العنــزة فيــأكله الحاضرون • ونلاحظ فى هاتين الحالتين أن جلد العنزة لا تستخدمه سوى الزوجة • على أن الزوج فى قبيلة « ناندى » التى تســكن فى شرق افريقيا البريطانى يستخدمه كذلك • ففى يوم العرس تختــار عنزة قوية سليمة من بين القطيع وتمسح بالزيت ثم تشنق • وبعــد ذلك تنتزع أحشاؤها التى يتفاءل أو يتشاءم بالحالة التى تكون عليها • ثم يسلخ بعد ذلك جلد الحيوان ويصنع منه على وجــه السرعة رداء ترتديه العروس فى الوقت الذى تشوى فيه النســاء لحــم الحيوان ويأكلنه • وفضلا على هذا فانه يصنع من جلد الحيوان خاتم وسوار • أما الخاتم فيرتديه العريس فى الاصبع الاوسط من يده اليمنى ، وأما السوار فترتديه العروس فى معصم يدها اليسرى •

وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الخواتم التى تصنع من جلد النعجة الضحية ، يرتديها الأشخاص الذين يعقدون عهد الصداقة فيما بينهم • ويبدو أن هذه العادة مألوفة بين القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية • فأواصر الصداقة تعقد عند قبيلة « واشاجا » من خلال الاحتفال الذى يسمى « كيسكونج » • « ويتكون هذا الاحتفــال من أخذ قطعة من جلد رأس عنزة الضحية وشقها بحيث يرتديها الشخص كما لو كانت خاتما فى اصبعه الأوسط » • وبالمثــل فان تبادل الخواتم

التى تصنع من جلد الحيوان الضحية الذى يؤكل لحمه عادة ، من شأنه أن يدعم أواصر الصداقة بين أفراد قبيلة « أكابا » .

وتقيم قبيلة « أكيكويو » مثل هذا الاحتفال ، وإن يكن فى صورة أكثر اتقانا عندما يترك رجل حيه لينتمى رسميا لحى آخر . عند ذاك يحضر هذا الرجل شاة ، وكذلك من يقوم بتمثيل الحى الذى أوشك على أن ينتمى اليه الرجل المعنى ؛ وقد يحضر كل منهما ثورا ان كانا موسرين . ثم يذبح الحيوانات « ويقطع شريط من جلد معدة كل حيوان وكذلك من رجل كل منهما . ثم يوضع دم الحيوانين معا فى وعاء كما توضع أحشاؤهما فى وعاء آخر . ثم يأتى شيوخ من قبل الطرفين ويشقون الشرائط التى قطعت من جلد الحيوانين ويصنعون من كل جلد سوارين يرتديهما الطرفان ، بحيث يلبس كل طرف السورين المصنوعين من جلد الحيوان الطرف الآخر . ثم يحضر شيوخ الطرفين الوعاءين المملوءين بالدم وأحشاء الحيوانين ، ويسكبون بعض الدم فى راحتى أحد الاطراف الذى يسكبه بدوره فى راحتى الطرف الآخر . وعند ذاك يستدعى الواقفون ليشهدوا على امتزاج دم الحيوانين ويستمعوا الى التقرير الذى يعلن ان الطرفين أصبح يجمعهما دم واحد » . وهذا المثال واضح كل الوضوح ، حيث انه يطلعنا فى غير لبس على ان الغرض من هذا الطقس هو ربط الطرفين المتعاقدين فى دم واحد . ومن ثم فنحن ملتزمون لأن نفسر بناء على هذا الاساس عادة احاطة المعاصم بشرائح من جلد الحيوان الذى يستخدم دمه فى شعائر هذا الاحتفال .

وتقوم قبيلة « واونجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى شرق افريقيا البريطانى بتقديم عدد من الحيوانات ضحية وذلك قبل ان يسمح للاهالى بزرع الذرة ، أما سائر قبائل هذه المقاطعة فتقوم بخنق كبش أمام كوخ أم الملك ، ثم تنتزع أحشاؤه وتوضع فى الكوخ بجانب السرير بحيث يكون مواجها لرأس السرير . وفى اليوم التالى لذلك تؤخذ الأحشاء وتقطع ، ويلف الملك وأبناؤه وزوجاته أجزاء منها

حول أصابعهم • ويقوم شعب « النجامين » ، وهو شعب مخلط يسكن فى آفريقيا الشرقية البريطانية برى زراعاتهم عن طريق قنـوات تحفر فى موسم الجفاف • فاذا حان ميعاد رى الزرع عن طريق فتح القنوات حتى تتسرب منها المياه الى الحقول ، يقتلون شاة ذات لون محدد خنقا وينثرون شحمها المسلى وروثها ودماءها فى شقوق الارض وفى ميـاه الرى • واثر ذلك تفتح القنوات ويوكل لحم الشاة الضـحية • وينبغى على الرجل الذى قام بخنق الشاة ، والذى يتحتم ان يكون منتميـا لعشيرةمعينة ، أن يرتدى جلد الشاة حول رأسـه مدة يومين • فاذا ثبت فيما بعد أن المحصول ليس وافرا ، أعيدت الشـعائر مرة أخرى ، فيجتمع شيخان من شيوخ هذه العشيرة المتسلطة التى يمكن مقارنتها باللاويين الاسرائيليين ، مع شيخين من أية عشـيرة أخرى ، ويعودون معا الى الحقول حاملين معهم شـاة من نفس لون الشـاة الاولى ويذبحونها ويأكلون لحمها ثم يقطعون جلدها ويأخذ كل منهم قطعة منه يلفها حول رأسه مدة يومين • فاذا فرغوا من ذلك ساروا حول الحقل فى اتجاهين متعارضين وهم ينثرون شحم الحيوان وروثه ، كما ينثرون العسل فى الحقل حتى يلتقوا مرة أخرى •

ويقدم الفرد فى قبيلة « ماساى » ضحية للاله حتى يحفظه هـو وقطعانه سليما معافيا • وتقدم هذه الضحية بين الحين والآخر ، وهى تقدم فى بعض الأماكن كل عام • وعند ذاك تشعل النار فى القريـة ، عن طريق حرق الخشب الجاف والأوراق ولحاء الشجر ، كمـا ينثر فيها مسحوق يثير عمودا من الدخان المتصاعد الذى تنبعث منه الرائحة العطرة • وعند ذاك تشتم الآلهة فى السـماء هذه الرائحة الطيبـة وتستريح لذلك • ثم يحضر كبش بدين أسود ويغسل بالعسل المتخمر ويرش عليه مسحوق خشب معين ثم يقتل خنقا ويسلخ جلده ويقطـع لحمه ، ويأخذ كل فرد من الحاضرين قطعة من اللحـم يشـويها ويأكلها ، كمايتسـلم شريطا من جلد الحيوان يصنع منه عددا مـن

الخواتم يلبس أحدهما فى اصبعه ويقدم الباقى لافراد أسرته • وهذه الخواتم هى بمثابة تعاويذ تحفظ من يرتديها من كل أنـــواع المرض • أما النساء فيعلقنها فى أقراطهن الضخمة المصنوعة من أسلاك حديدية ذات شكل لولبى ، وهى تلك التى يزين بها صدورهن أو لنقل يشوهنها •

ومثل هذه العادة تتبع فى حالة المرض • فقد يحدث بين قبيلـــة « واوانجا » على سبيل المثال ، أن يستدعى الرجل المريض وهـــو فى حالة الهذيان ، شخصا من أقربائه المتوفين • فاذا فعل ذلك ، فان هذا معناه أن المرض قد جاوزه واستقر عند عتبة شبح الميت ، ومن ثـــم فان أقرباءه يقومون باجراء من أجل القضاء على هذا المرض • وهنـــا تقدم بعض النقود لرجل عجوز فقير لكى يقوم بالعمل الخطير وهـــو اخراج جثة هذا الميت من القبر ، ثم تحرق عظامها فوق عش مـــن أعشاش النمل الأحمر ، ويجمع بعد ذلك الرماد فى سلة يطرح بهـــا فى النهر • وقد تختلف وسيلة تهدئة الشبح عن ذلك بعض الشىء • فبدلا من اخراج عظم الميت ، يزج سيخ فى القبر • ولكى يزدادوا يقينا مـــن أنهم قد أصابوا الشبح ، فانهم يصبون الماء المغلى اثر ذلك فى القبر • وبعد أن يشعروا برضائهم فى القضاء على الشـــبح على هذا النحو يذبحون كبشا أسود ويمسحون صدورهم ببعض روثه الذى يأخذونه من أمعائه ، ويلفون شرائح من جلده حول معاصمهم اليمنى • ثم يأتى زعيم الاسرة التى ينتمى اليها المريض ، ويأخذ قطعة من جلد الحيوان ويلفها حول سبابة يده اليمنى ، كما يلف المريض نفسه شريطا آخـر من جلد الحيوان حول عنقه • وفى هذه الحالة لايمكن أن يكون الهدف من وراء التضحية بالكبش الاسود هو اسكان غضب الشبح ومصالحته حيث انه قد زج بالسيخ فى رأسه ، كما سكب الماء المغلى على عظامـــه وأولى من ذلك ان نفترض أن التضحية بالكبش ترجع الى مزيد من الشك فى انه حتى هذه الوسائل العنيفة ربما لايكون لها الأثر الفعـــال فى القضاء على الشبح • ومن ثم يحق لنا أن نفترض ، اذا شـــئنا أن نكون فى الجانب الآمن ، أن الرجل المريض وأصدقاءه ، بذبحهـــم

الكبش ، يحصنون أنفسهم ضد طعنات الشبح وذلك عن طريق ارتدائهم لجلده الذى يخدمهم فى هذا الغرض بوصفه تعويذة • فاذا اتهم شخص من بين هذه القبيلة بالسرقة ، فانه يذهب مع متهمه الى شجرة محددة هى شجرة (ارثرينا تومينتوزا) ، ويزج كل منهما برمحه فيها ، فيقع أثر ذلك المذنب منهما ، سواء أكان هو المتهم بالسرقة أم من اتهمه فريسة للمرض • على أنهم لم يقدموا سببا يعزى اليه مرض هذا الشخص ، وانما نرجح أن روح الشجرة التى استاءت بطبيعة الحال لطعنها بالسهام ، تنتقم لغضبها ، عن طريق التمييز الحصيف ، من المجرم وحده • ومن ثم فان الرجل الشرير يمرض ، ولاشىء يشفيه من مرضه الا اذا اقتلعت الشجرة من جذورها ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للقضاء على روح الشجرة • وبناء على ذلك فان أصدقاء المريض يأتون الى الشجرة ويقتلعونها ، وفى الوقت نفسه يقومون بذبح شاة ويأكلون لحمها توا ، كما يتناولون معه بعض الأدوية • ثم يلف كل فرد منهم شريطا من جلد الحيوان على معصم يده اليمنى • أما الرجل المريض نفسه الذى تقام هذه الشعائر من أجله • فيلف شريطا من جلد الحيوان حول رقبته ، كما يمسح صدره بروث الحيوان المذبوح • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الغرض من ذبح الشاة ليس هو استرضاء الروح بحال من الأحوال وانما هو بالأحرى حماية المريض وأصدقائه من نقمة روح الشجرة ، وذلك فى حالة ما اذا كانوا قد فشلوا فى القضاء عليه عن طريق تحطيم الشجرة •

كما تنتشر عادة ارتداء جزء من جلد الحيوان الضحية انتشارا مألوفا بين قبائل افريقيا الشرقية ، وذلك عندما تقام شعائر التكفير عن الذنب • فاذا ضرب رجل من قبيلة « وانتشاجا » زوجته وخرجت من بيته اثر ذلك ثم عادت اليه ، فان الزوج يقطع أذن نعجة ويصنع منها خاتمين ، ويقوم كل منهما بوضع خاتم فى اصبع الآخر • ولا يجوز للزوجة قبل ذلك أن تطهو له الطعام أو أن تأكل معه • وتنظر قبيلة وانتشاجا وبالمثل كثير من القبائل الافريقية ، الى الحداد نظرة فزع ،

منشؤه التطير منه • ذلك لأنهم يعتقدون أن قوى غريبة تتملكه وترفعه فوق مستوى الرجل العادى • ولا تقتصر هذه النظرة الغريبة الغامضة على شخص الحداد فحسب ، وانما تمتد الى آلاف حرفته ، وبصفة خاصة المطرقة التى تمتلك وفقا لتصورهم ، قدرة سحرية أو روحية • ومن ثم فانه يتحتم على الحداد أن يكون حريصا فى استعمال هذه الآلة فى حضرة الناس ، والا تعرضت حياتهم بتأثير سحرها العجيب للخطر البالغ • فإذا أشار بها إلى رجل على سبيل المثال ، فانهم يعتقدون أن هذا الرجل سوف يموت ، ما لم تؤدى شعائر مقدسة لابعاد الشر الذى قد يلحق به • وعند ذاك تذبح عنزة ويصنع خاتمان من جلدها ، أحدهما يلبسه الحداد فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، والآخر يلبسه الرجل المعرض للخطر فى الاصبع الأوسط من يده اليمنىكذلك ، ثم تتلى عبارة التطهير التقليدية • وتؤدى هذه الشعائر كذلك اذا أشار الحداد الى أحد بملقطة النار ، أو اذا رمى فى غير تعمد ، برادة حديده على أحد •

وتودى قبيلة « وانشاجا » التى تسكن فى مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية البريطانية ، شعائر للتكفير من هذا النوع • فاذا اقتحم شخص غريب كوخا من الأكواخ ، على سبيل المثال ، وسقطت عباءته الجلدية على الأرض ، أو كان قد اشترك فى مشاجرة ما أصيب على أثرها بجراح تساقطت منها قطرات من الدم على أرض الكوخ ، فان أحد سكان الكوخ يكون فى هذه الحالة معرضا للمرض ، ما لم تؤد شعائر معينة لدرء هذا المرض • وفى هذه الحالة يتحتم على هذا الشخص الغريب أن يحضر عنزة ويذبحها ويسلخ جلد صدرها وبطنها ويقطعه الى شرائط تقلب فى محتوى معدة الحيوان ، ثم يأخذ كل فرد من أفراد الكوخ شريطا منها ويلفه حول معصم يده اليمنى • فإذا حدث أن وقع أحد أفراد الكوخ فريسة للمرض قبل أن يتخذ هذا الأجراء ، فان الشريط يلف فى هذه الحالة حول رقبة المريض ، كما يمسح صدره ببعض روث الحيوان • ثم يأكل أفراد الكوخ نصف لحم العنزة والنصف

الآخر يأكله القادم الغريب • وتعتقد قبيلة « واونجا » وبالمثل كثير من القبائل الهمجية ، أن الام التى تلد توأما ، تكون معرضة لأخطار بالغة ، ومن ثم يتحتم القيام بشعائر متنوعة قبل أن تتمكن من مغادرة الكوخ والا لحق بها من الأذى مالا داعى لذكره • ومن بين هذه الشـــعائر ، أن تقـــوم الأسرة باصطياد حيوان التليا « الخلـــد » وقتله عن طريقوخزه بشوكة خشـــبية خلف رقبته ، ثم تشـــق بطنه وتنتزع محتويات معدته ويمسح بها صدر الأم وصدرا الطفلين التوأم • ثـــم يقطع جلد الحيوان الى شرائط تلف حول المعصم الايمن من كل صبى كما تلف حول عنق الأم • وبعد خمسة أيام من ارتداء هـــذه الشرائط تخرج الأم لتستحم فى النهر وترمى بهذه الشرائط فيه • ثم يدفن لحم الحيوان تحت شرفة الكوخ ، كما يطرح جزء منه أمام باب الكـــوخ وتوضع فوقه آنية مثقوبة من أسفلها فى وضع مقلوب •

وأخيرا ، ربما تسنى لنا أن نشير الى أن قبائل افريقيا الشرقية تستخدم على هذا النحو جلد الحيوان الذى يقدم ضحية فى احتفالات مقدسة بعينها ، تقام بين فترات متباعدة وفقا لمراتب الاعمـــار التى يقسم اليها الشعب بأسره • فقبيلة ناندى على سبيل المثال ، تنقســم الى سبع مراتب • وبناء عليها يقام هذا الاحتفال كل سبع ســـنوات ونصف • وعند كل احتفال يتحول حكم البلد من رجـــال ينتمون الى مرتبة انقضت ، الى رجال أصغر منهم سنا وينتمون الى مرتبة قادمـــة من العمر • ويحضر رئيس الاطباء هذا الاحتفال الذى يبدأ بذبح ثور أبيض يقوم المحاربون من الشباب بشرائه لهذا الغرض • وبعـــد أن يأكل شيوخ القبيلة لحم الثور ، يصنع كل شاب من شـــباب القبيلة خاتما من جلد الحيوان ويلبسه فى أحد اصابع اليد اليمنى • وبهـــذه الطريقة تنتقل فى صورة شكلية قوة الشيوخ الى الشاب • وعند ذاك يخلع المحاربون الشباب أرديتهم الجلدية ويتشحون بأردية الشـــيوخ المصنوعة من الفرو • وفى الاحتفال المماثل لذلك عند قبيلة أكيكويـــو الذى يجرى عندهم كل خمسة عشر عاما ، يلف كل فرد شريطا من جلد

جدى ، يقدم ضحية لهذا الغرض : حول معصمه ، وذلك قبل أن يعود الى بيته •

وقد نخلص بعد هذا العرض الشامل للعادات السالفة ، الى أن الغرض من ارتداء الشخص لجزء من جلد الحيوان الضحية ، هـــو حمايته من شر اصابه حقا أو قد يصيبه • أى أن جلد الحيوان يستخدم فى هذه الحالة بوصفه تعويذة • وربمـــا انطبق هذا التفســـير على الحالات التى تتبع فيها هذه العادة عند التصديق على عهد من العهود ، حيث ان الطرفين المتعاهدين يحميان أنفسهما من خطر قد يلحق بهمـــا اذا ما نقض أحدهما العهد • كأننا يمكننا أن نفترض أن الغرض مـــن طقس الميلادالجديد أو الميلاد من النعجة ، الذى تعودت قبيلة أكيكويو أن تؤديه قبل ختان الصبية ، هو حماية هؤلاء الصبية من بعض الشرور التى قد تلحق بهم اذا لم تود لهم الشعائر المناسبة • أما الطريقة التى يتأثر بها الشخص المعنى بهذه الشعائر ، فهى أن الشخص بارتدائـــه جلد الحيوان يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايذاء القوى الشريرة له ، سواء كان ذلك عن طريق خداعها أو مداهنتها ، فتوجه تأثيرها الى الحيوان ، بدلا من الرجل • أو أنه يظن أن لحم الحيوان ودمه وجلده له خاصية سحرية معينـــة تحفظ الشر بعيدا عن الانسان • وتتضح فكرة مطابقة الانســـان بالحيوان كل الوضوح فى شعيرة الميلاد الجديد عند قبيلة « كوكويو » فبناء على هذه الشعيرة تتظاهر الأم بأنها نعجة وأن ابنها المولودهـــو الجدى الصغير المولود • ويحق لنا أن نفترض من خلال هذه الشعائر أن ارتباط الانسان بقطعة من جلد الحيوان الذى قدم ضحية يعد بديلا للفه فى جلد الحيوان كله • والغرض من هذا الفعل هو مطابقة الانسان بالحيـــوان •

٣ ــ الميـــلاد الجـــديد :

ان حكاية يعقوب الغريبة التى تحكى عن الاحتيال والخديعة اللذين دبرهما الابن الماكر متواطئا مع أمه ضد الأب والزوج الخرف ، بقصد تحويل بركة الاب من عيسو الى يعقوب ، تحمل مظهرا آخر أكثر وقارا

من ذلك الذى خلعه عليها كاتب القصة ، وذلك اذا افترضنا أن هذا الدور المعيب الذى لعبته القصة ، قد ضمنه اياها القاص الذى فشـل فى الوصول الى الفهم السليم لطبيعة العمل الذى وصفه • فالعمل الذى قام به يعقوب ، ان كان فرضنا سليما ، ليس سوى عمل شرعى يحمل مغزى الميلاد الجديد فى شكل عنزة ، وذلك بهدف أن يعامل يعقوب شرعيا معاملة الابن الأكبر بدلا من كونه الابن الأصـغر • وقد سبق أن رأينا أن عادة الميلاد من عنزة أو شاة قد لعبت فيما يبدو ، دورا مهما فى الحياة الاجتماعية والدينية عند قبيلة « أكيكويو » التى تسكن افريقيا الشرقية ، والتى ترجع فيما يبدو ، الى أصل عربى ، ان لم تكن ترجع الى أصل سامى • وفى وسعنا أن ندعم نظريتنا هذه اذا استطعنا أن نبين أن عادة التظاهر بالميلاد الجديد عن طريق امرأة أو حيوان ، كانت تتبع بين شعوب أخرى فى أحوال يظن فيها أنه من الافضـل للرجل أن ينسلخ من شخصيته القديمة ويصطنع شخصية جديدة يبدأ بها مرحلة جديدة فى حياته • وباختصار فان عادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى مرحلة مبكرة من تاريخ التشريع فى التأثير على وضع من أوضاع الانسان واشارة الى ما يعترى حياته من تغير فى هـذا الوضع • والأمثلة التالية يمكن أن توضح هذا الغرض العام •

فعادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى المقـام الأول استخداما طبيعيا فى أحوال التبنى ، أى بقصد جعل الابن المتبنى ابنا حقيقيا للأم المتبنية له • فالمؤرخ الصقلى « ديودورس » يخبرنا أن هرقل عنـدما ارتفع الى مصاف الآلهة ، أغرى أبوه الاله « زيوس » زوجته « هيرا » أن تتخذ من هذا الابن غير الشرعى ابنا حقيقيا لها • وقد حققت الآلهة النبيلة مطلب زوجها ، بأن نامت فى سريرها وضمت هرقل اليهـا ثم وضعته داخل ردائها ودفعته حتى سقط على الأرض ، مصطنعة بذلك أنها تلد حقيقة • ثم يضيف المؤرخ الى ذلك بأن البرابرة فى عصره كانوا يتبعون هذا الأجراء فى حالة تبنيهم طفـلا • ويبدو أن هـذه العادة كانت تتبع فى العصور الوسطى فى أسبانيا وفى بعض جهـات أوربا • فكانت الام أو الاب يضع الطفل المتبنى داخل ردائه ، وأحيانا

يضعه فطيات ردائه المنساب ، ثم يجعله يسقط على الارض • ومن ثم فان الاطفال المتبين كانوا يسمون « أطفال الاردية » • « وقد ذكر فى عدة مخطوطات من « التقويم العام » أن اليوم الذى عمد فيـه « مودارا » وخلع عليه لقب فارس ، لبست زوجة أبيه قميصا فضفاضا فوق ردائها ، ووضعت الطفل فى أحد أكمامه ثم سحبته من فتحته وهى تعلن أنه أصبح أبنها ووريثها » • ويقال : ان هذا الأجراء هو الشكل المألوف الذى يتبع فى أسبانيا عند تبنى الابناء • بل انه ما زال يتبع فيما يقال بين السلافيين الجوبيين • ففى بعض جهات بلغاريا تضع الام الطفل المتبنى داخل ردائها من أسفله وتخرجه من فتحته العليا عند صدرها • وعند « أتراك البوسنة » يجرى الاحتفال بتبنى الطفل على هذا النحو : تدفع الام المستقبلة بالابن المتبنى داخل سروالها مصطنعة بذلك أنها تلد بحق • كما قيل : « ان الطريقة المألوفة لمتبنى الطفـل عند الأتراك بوجه عام هو أن يمر الشخص المتبنى من ازار الشخص الذى يرغب فى تبنيه • ولهذا فان الاصطلاح الذى يستخدمه الاتراك للتبنى هو : « أن يمر الشخص المتبنى داخل ازار متبنيه » •

« ويقوم بعض الكلمانتانيين سكان بورما (وهم البروانيـون والليلاكين الذين يسكنون فى بارام) باحتفال رمزى غريب عند تبنى أسرة لطفل من الأطفال • فاذا استقر رأى رجل وزوجته على أن يتبنيا طفلا ، فانهما يتجنبان ، قبل القيام باحتفال التبنى بضعة أسابيع ، تلك المحرمات التى تتجنب عادة قبل الشهور الاخيرة من حمل الزوجة • وكثير من هذه المحرمات يمكن أن يوصف بوجه عام بأنها الامتناع عن كل عمل يؤدى الى صعوبة فى وضع الطفل أو الى تأخير فى الوضع • ومثال ذلك ألا تزج يد فى جحر ضيق لاستخراج شىء منه ، وألا يثبت شىء فى وتد خشبى ، وألا يتردد الزوج أو الزوجة عند عتبة حجرة ، عند دخولهما أو خروجهما منها • فاذا حان اليوم الذى يجرى فيـه احتفال التبنى ، تجلس الام مستندة الى سناد وملفعة بقماش على نحو ما تفعل دائما عند الوضع ، ثم يدفع الطفل من خلف رجليها الى

الامام • فاذا كان الطفل رضيعا ، فانه يوضع على صدرها ليمتص ثدييها ، ثم يسمى بعد ذلك باسم • ومن العسير تماما أن يحصل الانسان على ما يثبت أن طفلا بعينه قد تبنى ، وأنه ليس ابنا حقيقيا لابوين بعينهما • ولا يرجع هذا الى الرغبة فى اخفاء الحقيقة بقدر ما يرجع الى كمال عملية التبنى ، فالزوجان ينظران الى الطفل المتبنى بوصفه ابنا حقيقيا لهما بحيث انه يصعب علينا أن نعثر على ألفاظ تعبر عن التمييز بين الطفل المتبنى والطفل الحقيقى • ويحدث هذا بصفة خاصة اذا ما رضع الطفل المتبنى من الام حقاً » •

وهنا نلاحظ أن الوالدين يشتركان معا فى اتباع اجراءات الميلاد الجديد ، فكل من الاب والام يتظاهران بمراعاة النظم التى يتبعها عادة كل أب وأم بين هؤلاء القوم بقصد العمل على تيسير ولادة الطفل الحقيقى • ويقوم الوالدان المتبنيان لطفل ما بدورهما فى هذه المسرحية العائلية بجدية بالغة ، الى درجة أنه لم يعد يميز بين الادعاء والحقيقة ، والى درجة أننا لا نجد ألفاظا تعبر عن الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقى • وليست هناك وسيلة أبعد من ذلك تجعل الابن المتبنى يعتقد أنه الابن الحقيقى لابويه المتبنيين له •

فاذا حدث عند قبيلة « باهيما » التى تسكن فى افريقيا الوسطى « أن ورث رجل أولاد أخيه المتوفى ، فانه يأخذهم ويضعهم واحدا تلو الآخر فى حجر زوجته التى تستقبلهم بدورها وتقبلهم بوصفهم أولادها الشرعيين • ثم يحضر الزوج سيرا من الجلد يستخدم فى ربط الابقار الجامحة عند حلبها ، يلفه حول وسط الام بعد الوضع • وبعد هذا الاحتفال يتربى هؤلاء الابناء فى كنف الاسرة ويصبحون من أفرادها » وتتضح ملامح شعائر الميلاد الجديد فى هذا المثال فى وضع الأطفال فى حجر الام ، وفى ربط وسطها بالسير الجلدى على نحو ما تفعل القابلة مع الام بعد ولادة الابن الحقيقى •

وتقام شعائر الميلاد الجديد لصالح الاشخاص الذين كان يظن خطأ أنهم توفوا ، ومن ثم أقيمت لهم الشعائر الجنائزية غيابيا بهدف اهجاع أرواحهم الهائمة التى يمكن أن تتملك الاحياء وتضايقهم مالم تؤد هذه الشعائر • فاذا حدث بعد ذلك ان عاد هؤلاء الاشخاص والتم شملهم بأسرهم ، فان هذا يخلق موقفا محيرا لهذه الاسرة ، حيث ان هؤلاء الاشخاص أصبحوا يعدون نظريا فى عداد الموتى ، بنـــاء على طقوس السحر التقليدية أو شعائر الادعاء • وعندما واجه الاغريق والهنود القدماء هذه المشكلة ، وجدوا حلا لها عن طريق تأدية شعائر الميلاد الجديد • وهنا كان يتحتم على العائد ان يتظاهر فى رهبة ، قبل أن يختلط فى حرية بأقرانه ، أنه قد عاد للحياة مرة أخرى وذلك عن طريق ولادته من امرأة • وقد كان الاغريق يعدون هــؤلاء أشخاصا نجسين قبل أن تؤدى لهم هذه الشعائر ، فكانوا يرفضون الاختلاط بهم ولا يسمحون لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، ويمنعونهم بصفة خاصة من دخول معابد الآهات الانتقام • ومن ثم يتحتم على هؤلاء الاشخاص ، لكىيستردوا حقوقهم المدنية ، أن يخرج الفرد منهم من رداء امرأة ، ثم تغسل القابلة له جسمه وتلفه فى القماط وتضعه على صدر هذه المرأة ليمتص ثديها • ويعتقد بعض الناس أن هذه العادة ارتبطت فى نشأتها بشخص بعينه كان يدعى « اريستيفوس » • وقد حدث أن تغيب هذا الشخص وأقيمت له الشعائر الجنائزية فى أثنـــاء غيابه • فلما عاد الى قومه رأى أن الناس جميعا يتجنبونه كما يتجنبون الشخص الطريد • عند ذاك لجأ الى نبوة دلفى يلتمس النصيحة . فأرشده الاله الى أن يقوم بتأدية شعائر الميلاد الجـــديد • على أن البعض الآخر يعتقد كل الاعتقاد أن هذه العادة أقدم فى نشـــأتها من عصر « أريستيفوس » ، وأنها وصلت اليهم من عصور بالغة فى القدم أما عند الهنود القدماء ، فقد كان يتحتم فى مثل هذه الظروف ، على الشخص الذى كان قد ظن أنه قد توفى ، أن يقضى الليلة التى يعود فيها الى قومه داخل برميل ممتلىء بمزيج من الماء والدهن • وقبل أن يخطو داخل البرميل ، يتلو والده أو أقرب قريب له بعد الأب ، عبارة

محددة يعتقد بعدها أنه قد ارتد الى الحالة التى كان فيها جنينا فى رحم أمه • ولهذا فانه يتقمص شخصية الجنين ، فيجلس فى البرميل ساكنا قابضا يديه رتقام فوقه الشعائر التى تؤدى بانتظـــام للأم الحامل • وفى صباح اليوم التالى يخرج من خلف البرميل ثم يقــوم بتأدية الشعائر التى سبق له أن أداها منذ بلوغه مرحلة الشـــباب حتى ذلك الوقت ، وبصفة خاصة الاحتفال فى قدسية بزواجـــه من امــرأة جديدة ، أو من امرأته القديمة • ويبدو أن هذه العادة لم تختف كلية فى الهند حتى يومنا هذا • أما عند « الكوماويين » ، فان الشخص الذى يعتقد فى أنه يلفظ أنفاسه الاخيرة ، يحمل خارج بيته لكى يؤدى له أقرب قريب له شعائر التطهير من الذنوب • فاذا شفى بعد ذلك ، فانه يتحتم عليه أن يقوم بكل الطقوس التى سبق أن قام بها منذ ولادته حتى اليوم ، كأن يرتدى الخيط المقدس ويتزوج النساء ، أو يعــود فيتزوج زوجاته مرة أخرى •

على أن شعائر الميلاد الجديد كانت تؤدى فى الهند قديما فى غرض آخر مختلف عن الغرض الاول وأكثر منه قدســية • فــرب الاسرة البراهمانى الذى كان يقوم بتقديم الضحية بانتظام كل خمسة عشر يوما ، كان يعتقد فى أنه أصبح الها لوقت محدد • ولكى يتم تحويلهمن انسان الى اله ، ومن الفناء الى الخلود ، كان من الضرورى له أن يولد من جديد • وفى هذه الحالة يرش بالماء ، وهو عمل رمزى يشـــير الى الذرية • ثم يصطنع بعد ذلك أنه أصبح جنينا ، وذلك بـــأن يحبس نفسه داخل كوخ خاص يمثل رحم المرأة • ثم يرتدى حزامــا تحت ردائه ، كما يرتدى فوق الرداء جلد بقرة وحشية سوداء • والحزام يرمز الى الحبل السرى ، كما يرمز الرداء وجلد البقرة الوحشية الى كل من الغشائيين الداخلى والخارجى اللذين يغلفان الرحم • وعند ذاك يجب عليه أن يحرص على ألا يخدش نفسه بمسمار أو عصاة والا مات بوصفه جنينا • ولكنه يجوز له أن يتحرك داخــل الكوخ ، حيث ان الجنين يتحرك داخل الرحم ، كما يجوز له أن يقبض على يديه حيث

الجنين يفعل ذلك أيضا • فاذا استحم وخلع عنه الجلد الأسود وارتدى رداءه الخارجى بعد ذلك ، فذلك لأن الطفل يولد بالغشـــــاء الداخلى لا الخارجى • وبهذا يكتسب البراهمانى من خلال هذه الشعائر جسدا جديدا متألقا ذا قوة خارقة ، الى جانب جسده الطبيعى الفانى ، كما يحاط بهالة من النار ، وتهذا يصبح الها من خلال عملية الميلاد الجديد ، ومن خلال تجديده لطبيعته الجسدية •

هكذا نرى أن شعائر الميلاد الجديد يمكن أن تخدم أغراضـــا مختلفة ، فهى تعيد الحياة الى الشخص الذى كان يظن أنه مات ، وهى ترفع الرجل الحى الى مرتبة الألوهية • وقد كانت هذه العادة تتبع فى الهند حديثا ، بل انها لا تزال تتبع حقا الى اليوم بين الحين والآخر ، بوصفها طقســا تطهيريا يكفر عن اهمال النـــاس لعـــادة من عادات الأجداد • ولهذا يتضح حبل التفكير الذى أدى الى ممارسة هــذه العادة « فالمذنب الذى تقام له شعائر الميلاد الجديد يصــبح رجـــلا جديدا ، ومن ثم فهو يكف عن أن يكون مسئولا عن ذنوبه التى ارتكبها قبل الميلاد ، فعملية التجدد تعد فى الوقت نفسه عملية تطهير ، اذ أن مثل هذا الشخص قد خلع عنه طبيعته القديمة واكتسب طبيعة أخرى جديدة • فالمجتمع القبلى فى قبيلة « كوركو » ، وهى احدى القبائل الاصلية فى المجموعة الكولاريانية أو « الموندانية » التى تسكن الاقاليم الوسطى فى الهند ، يعاقب من يرتكب جرما اجتماعيا مألوفا بالعقوبات العادية • ولكنه « فى بعض الاحـــوال الخطيرة مثل مخالطة الشخص المنبوذ الادنى منه ، فانه يتحتم على مثل هذا الشخص أن يقوم بشعائر الميلاد الجديد ، فيوضع داخل وعاء كبير مصنوع من الطين ويغلق دونه الوعاء • وعندما يخرج منه يقال انه قد ولد من جديد من رحم أمه • وعند ذلك يدفن فى الرمل ويخرج منه جسدا جديدا من التراب • ثم يوضع داخل كوخ مبنى من الاعشاب وتشعل النار فى هذا الكوخ فيجرى هاربا من النار ويغطس فى المـــاء ، وأخيرا يقص جزءا من خصلة من شعره التى تنمو على رأسه الحليق ، ويدفع غرامة ، قدرها روبيتان

ونصف روبية » . وهنا يتضح أن شعائر الميلاد الجديد يقصد بها تخليص الشخص من تحمل مسئولية أعماله السابقة ، وذلك عن طريق تحويله كلية الى شخص جديد . ولكن ما ذنب تحمله لاساءة ارتكبها شخص آخر قبل أن يولد هو ؟ .

ويكون احتفال الميلاد الجديد أكثر دقة وأكثر تكلفة اذا كان المذنب الذى يراد القيام بالاحتفال من أجله ذا حسب أو صاحب مجد . ففى القرن الثامن عشر « حدث أن أرسل « راجهو ــ ناث ــ رايا » أو « راجوبا » اثنين من البراهمة بوصفهما رسولين له الى انجلترا ، فسافر اليها عن طريق قناة السويس . ولكنهما عند عودتهما الى وطنهما عوملا معاملة المطرودين ، وذلك لأنهما سافرا عبر بلاد يسكنها « الميليشهانيون » أى القبائل النجسة ، وعاشا بينهم متبعين الشرائح الموضوعة فى كتبهم المقدسة . كما نسب اليهما كذلك أنهما عبرا بحر « أتاكا » . وعند ذاك عقدت الاجتماعات وتوافد البراهمة العلماء من كل حدب . ولم يستطع « راجهو ــ ناثا ــ رايا » بنفوذه وتأثيره أن ينقذ رسوليه من هذه التهمة . وعلى كل فقد انتهى الاجتماع الموقر الى أن يقوم الرسولان تشعائر تجديد جسديهما ووسامتهما الكهنوتية معا ، وذلك اعتبارا لسلوكهما الكريم السالف الذى رفع بهما الى مستوى عالى . ونظرا للمهمة السامية التى قاما بها فى البلاد النائية من أجل مصلحة بلديهما . ولهذا الغرض طلب منهما أن يصنعا تمثالا من الذهب لاحدى القوى الطبيعية الانثوية فى شكل امرأة أو بقرة . ثم يدخل كل منهما داخل هــذا التمثال ثم يسحب من فتحة منه . واذا كان تكاليف هذا التمثال بأبعاده المحــددة تعــد باهظة ، فيكفى أن يصنعا تمثالا للآلهة « يونى » المقدسة يمر من خلاله الشخص المعنى . ولكن « راجو ــ ناث ــ رايا » صنع لهما تمثالا من الذهب الخالص تمت بواسطته عملية الميلاد الجديد ، كما أجريت الشعائر الاخرى ، ومنح البراهمانيان الهدايا المتعددة لقبولهما مرة أخرى فى مجتمع المؤمنين الصادقين » .

« كما روى أن « تانجورى نأياكار » خـــدع « مادوراً » وعانى المتاعب بسبب ذلك • فنصحه مستشاروه البرهمانيون أنه من الافضل أن يولد ن جديد • وعند ذاك صنعت له بقـــرة ضخمة من البرونز ، ودخل « نأياكار » فى تجويفها وأغلقت عليه • ثم استقبلته زوجة معلمه البراهمانى التى كانت تقوم بخدمته ، بين ذراعيها وأجلسته على ركبتيها وضمته الى صدرها ، بينما أخذ « نأياكار » يصرخ صراخ الطفـــل الرضـــــيع » •

كما كانت تستخدم طقوس الميلاد الجديد فى الهند بهدف رفـــع رجل ينتمى الى بيئة وضيعة بحكم مولده الى مرتبة اجتماعية أعلى منها • فمهراجيو « ترافنكورى » على سبيل المثال ، ينتمون الى طبقة « السودرا » ، وهى أدنى الطبقات الهندية الأربع • ولكنه يبدو أنهم يرفعون أنفسهم على الدوام الى طبقة البراهمانيين وهى أرفـــع هذه الطبقات ، وذلك عن طريق اجراء طقوس الميلاد الجديد من بقرة كبيرة مصنوعة من الذهب أو من زهرة لوتس كبـــيرة مصـــنوعة من الذهب كذلك • ومن ثم كان يسمى هذا الاحتفـــال « هيرانيا » أى الرحـــم الذهبى ، أو « باتماجاربها دانام » أى « هدية رحم اللوتس »• وذلك وفقا للشكل الذى يولد منه المهراجا ، بقرة كان أم زهرة اللوتس • فعندما كان « جيمس فوربيس » فى « ترافانكورى » أبصر الحـــاكم وهو يخرج من تجويف بقرة مصنوعة من الذهب الخالص • ثم حطم التمثال الذهبى بعد ذلك ووزع على البراهمانيين • وعنـــدما أقـــام « الراجا مارتاندا فورماه » هذا الاحتفال عام ١٨٥٤ م ، كان التمثال الذى أجريت من خلاله الطقوس هو زهرة اللوتس • وقد قدر ثمنه بحوالى ستة آلاف من الدولارات • وقد وضـــع داخل هذا التمثال قدر من المزيج المقدس الذى يتكون من العناصر المخمسة التى تكون محتوى جسم البقـــرة وهى « اللبن والزبد وشرش اللبـــن والبول والروث » مما يشير الى أن المهراجا قد ولد من جديد من بقرة مقدسة،

ولبس من زهرة اللوتس المقدسة • وبعد أن دخل جلالته داخل التجويف التمثال ؛ مكث بداخله الوقت الذى حدد له ، بينما أخذ الكهنة الذين كلفوا بتأدية الشعائر يصلون مرارا الصلوات المناسبة لذلك •

ويمكننا أن نستدل من هذا الاحتفال الاخير على أن المهراجات قد تحولوا منذ عام ١٨٥٤ م الى الشكل الثانى لشعائر الميلاد الجديد ، وهو الشكل الذى ربما كان أكثر قدسية من الشكل الاول ، ونعنى بذلك الميلاد من البقرة • ففى عام ١٨٦٩م أعلن أن « احتفالا آخر ليس أقل غرابة من الاحتفال الاول يسمى « ارنجا جهربوم » سيقام فى العام القادم ، حيث يمر جلالته (أى المهراجا حاكم ترافانكورى) من خلال بقرة ذهبية تصبح فيما بعد ملكا للكهنة » • ومرة أخرى نقرأ أن المهراجا حاكم « ترافانكورى » ، وهى مقاطعة أهلية تقع فى أقصى جنوب الهند ؛ قد فرغ منذ حين من اجراء الاحتفال النفيس الثانى والاخير الذى يعرف باسم « المرور خلال البقرة الذهبية » ، ذلك لاحتفال الذى كان يتحتم على المهراجا أن يقوم به لكى يقف على قدم المساواة فى قليل أو كثير مع البرهمانى ، حيث ان المهراجا يرجع فى أصله الى طبقة « سودرا » • ويعرف الاحتفال الاول من هذين الاحتفالين باسم « ثولا بورشا » • وكلمة « ثولا » تاللغة السنسكريتية تعنى الميزان ؛ كما ان كلمة « بورشا » تعنى الرجل ، وكلمة «دانام» تعنى « منحة ذات طابع دينى » • ويتمثل هذا الاحتفال فى دخول المهراجا فى مكان ما ليقف على كفة الميزان ، فيوزن مقابل عملات ذهبية توزع فيما بعد على البراهمة • • أما الاحتفال الثانى فيعرف باسم « هيرانيا جاربهام » • وتعنى كلمة « هيرانيا » السنسكريتية الذهب ، كما تعنى كلمة « جاربهام » الرحم • وجوهر هذا الاحتفال هوالمرور من خلال بقرة ذهبية • وهذه البقرة عبارة عن وعاء مصنوع من الذهب . ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ومحيطه ثمانية أقدام • ويملأ هذا الوعاء حتى نصفه بمزيج يتكون من العناصر التى تتكون منها البقرة ؛ وعلى هذا المزيج يقوم البراهمة باجراء الطقوس المشروعة

ثم يصعد المهراجا الى قمة الوعاء عن طريق سلم مزين مصنوع لهذا الغرض ثم يغلق عليه الوعاء بينما يتلو البراهمانيون تعاويذهم وأناشيد الفيدا • ويستمر هذا الاجراء مدة عشر دقائق • يخرج بعدها المهراجا من الوعاء وينبطح أمام تمثال اله ملوك « ترافانكورى » •وعند ذلك يأتى الكاهن الكبير ويضع تاج « ترأغانكورى » على رأس المهراجا الذى أصبح مقدسا بعد أن مر خلال البقرة الذهبية • والاحتفال الاول الذى يوزن فيه المهراجا بالذهب يجعله ملائما لأن يقوم بالاحتفال الثانى الذى يعد أكثر تبجيلا وأكثر تكلفة من الاحتفال الاول ، وهو مروره داخل تجويف البقرة الذهبية • وتكاليف هذه الاحتفالات باهظة ففضلا على قيمة الذهب الذى تصنع منه البقرة ، فانه ينفق الكثير من المال على اطعام حشد البراهمة الهائل الذين يجتمعون فى «تريفاندروم» بهذه المناسبة • ويقوم مهراجيو « ترافانكورى » بهذا الاحتفال منذ زمن بعيد لا يذكر على وجه التحديد • ويعد أى اهمال من جانبهم لهذا الاحتفال اساءة لتراث البلد ، الأمر الذى يتطير به الهندوكيون كل التطير » •

على أنه لو اقتصر هذا الاحتفال على هؤلاء القادرين على دفع نفقات البقرة الهائلة المصنوعة ن الذهب ، لانحصرت فكرة التجديد ل طائفة محدودة هى طائفة الأغنياء ، ولحلت بهؤلاء وحدهم البركة عن طريق دخولهم فى تجويف البقرة • ولكن البقرة الحية حلت ، لحسن الحظ ، محل البقرة الذهبية فى شعائر الميلاد الجديد • وبذلك أصبح فى استطاعة الفقير والوضيع أن يقوما بهذه الشعائر ، وبذلك فتحت أبواب الجنة لحشد هائل من الناس ، ولولا ذلك لظلت مغلقة دونهم • حقا انه يمكننا أن نفترض بشىء من الثقة ، أن الميلاد الجديد عن طريق البقرة الحية ، كان هو الشكل الأول لهذا الاحتفال ، وأن استبدال البقرة الحية ببقرة مصنوعة من الذهب ، لم يكن سوى استرضاء لكبرياء الراجاه وغيره من كبار رجال القوم الذين ربما حسبوها وصمة فى جبينهم لأن يولدوا كسائر أفراد الشعب من البقرة الحية • ومهما

يكن الأمر ، فانه من المؤكد أن البقرة الحية لا تزال تستخدم فى بعض جهات الهند فى اقامة شعائر الميلاد الجديد • ففى الأقاليم الشمالية الغربية من أحياء الهملايا « يؤدى احتفال الميلاد من فم البقرة عندما يتنبأ الطالع لأحد الأهالى بحدوث جريمة من جانبه أو بحدوث كارثه مفجعة له • وعند ذاك يأتى هذا الشخص ويلبس ملابس ذات لون قرمزى • ويربط فى غربال يمرر بين أرجل البقرة الخلفية حتى أرجلها الأمامية ومنها الى فمها ؛ ثم يمرر فى الاتجاه المضاد مشيرا بذلك الى عملية الميلاد الجديد • ثم يرش الطفل المصطنع بالماء المقدس ، ويتشمم الأب رائحة ابنه كما تفعل البقرة مع عجلها » • وهنا نلاحظ أنه لما كان من الصعب بالضرورة تمرير الطفل داخل البقرة الحية ، لم يبق سوى تمريره جيئة وذهابا بين أرجل البقرة • وبهذا يصبح الابن مطابقا لابن البقرة ، كما يقوم الأب بدور البقرة نفسها عن طريق تشممه لرئحة ابنه • ومثل هذا يحدث فى الهند الجنوبية عندما يطرد رجل من مجتمعه لسبب قهرى ، فإنه يمكنه أن يعود اله بعد أن يمر عدة مرات تحت بطن البقرة • وعلى الرغم من أن الكاتب الذى دون هذه العادة لم يذكر أنها احتفال بالميلاد الجديد ، فانه يحق لنا أن نعدها كذلك فى ضوء الشواهد السابقة • ومن المحتمل أن اعادة وضع طفل عثر الحظ فى سلة أمام بقرة حلوب يقف بجانبها ابنها ، والسماح للبقرة بأن تلعق الطفل ، يعد اجراء مبسطا للاحتفال الأصلى • « وبذلك تبرح الطفل الصفات الشريرة التى يولد بها عن طريق الوراثة » •

فاذا كان طقس الميلاد من بقرة يمكن أن يتخذ أشكالا مبسطة يصعب علينا تفهم مغزاها ، ما لم يكن لنا علم بتفاصيل الاحتفال الكامل ؛ فانه لايبدو أنه من غير المحتمل أن تكون كذلك شعائر الميلاد من العنزة مثل تلك الشعائر التى تتبعها قبيلة « أكيكويو » عندما تربط يد الانسان الذى يولد من جديد بجلد هذا الحيوان صورة مصغرة لطقوس كاملة • ويتفق مع هذا الغرض أننا نجد قبيلة « أكيكويو »

تؤدى هذه الشعيرة الأخيرة فى مناسبات مختلفة ، وهى بعينها تؤدى هذا الطقس كاملا فى مناسبات مقدسة .

أليس من الطبيعى بعد ذلك أن نفترض أن الشعوب اختصرت فى زحمة الحياةاليومية التى لم تكن تسمح بالقيام بهذا الاحتفال الشاق وبتفاصيله الدقيقة ، اختصرت هذا العلاج المتحكم فيهم ؛ الى شــكل مبسط مريح يمكن اللجوء اليه دون أن تضـــطر الى تأجيل ضروريات الحياة الأقل شأنا من هذا الاحتفال ؟ .

خاتمـــة :

فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها،فإننا نذكر على سبيل الافتراض أن حــكاية الخــديعة التى ارتــكبها يعقوب مــع أبيـــه اســـحق . تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة الــذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه ، أو يرغبون فى اتباعه عند ما يفضــل الابن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى ما زال عــلى قيد الحياة : تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه ، أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم ؛ اما نتيجة حظه العاثر أو بسبب سوء سلوكه . وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبريين كما بسط عند « الاكيكيو » ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضــع قطع من جلدها على الشـــخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مــرة أخرى ، فاذا كان افتراضنا هذا صحيحــا ، فان كاتب قصة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وإن كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه .

الفصل الرّابع

يعقـــوب فى بيت ايـل

١ ـ حلم يعقوب : من الطبيعى أن تؤدى خديعة يعقوب لأخيه « عيســو » ، على نحو ما تصـــور فى حكاية الكتاب المقدس ، الى حدوث جفوة بين الأخوين • وقد تألم الأخ الأكبر نتيجة احساســه بخطأ لا يحتمل ، ودفعته طبيعته العاطفية لأن ينتقم من أخيه الأصغر الذى تمكن بحذقه أن يسلبه حقه فى الارث • اما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه ، كما شـــاركته أمه التى تواطأت معه فى جريمتــه ، مخاوفه • ومن ثم فقد استقر رأيها على أن تدع يعقوب يرحل الى مكان آمن ريثما يهدأ غضب أخيه ، الذى كان رغم غضبه ، متسامحا كريما • ورأت الام أن ترسل يعقوب الى خاله « لابان » فى « حران » • وقــد أثار فى نفسها هذا القرار ذكرى موطنها الذى يقع فيما وراء النهــر الكبير ، حينما زفت الى إسحق وهى فى أوج جمالها • وربمــا مســت هذه الذكرى شغاف قلبها المادى القاسى على نحو ما • ولكم تذكرت فى متعة بالغة ، تلك الامسية البهيجة التى ترجلت فيها عن جملها لتقابــل شخصا يمشى بخطى وئيدة بين الحقول ، ذلك الشخص الذى أصــبح زوجها فيما بعد • والآن لقد أصبح هذا الشــخص الذى كان مكتمــل الرجولة ، كفيفا خرفا طريح الفراش • ولم تكن هذه الأم قد أبصرت وجهها من قبل الا فى تلك الأمسية التى هيجت ذكراها ، عندما نظرت الى البئر ، فانعكست على صفحته صورة وجه مجعد وشعر أشــعث ، ولم تكن هذه الصورة سوى شبح جمالها السالف وخياله • حســنا كم

تمضى الأيام كأنها البرق الخاطف ! ولكن ربما كان فى عودة ابنها من وطنها مصطحبا زوجة شابة حسناء ترى فيها صورة شبابها الضائع ، سلوى لها عن نهب الأيام • هذه الأفكار ربما راودت الأم المعجبة بنفسها وهى تودع ابنها ، على الرغم من أنها لم تعبر له عن هذه المشاعر ، اذا كنا نعتمد على ما كتبه الكاتب اليهودى •

ورحل يعقوب متخذا طريقه من بلدة « بئر سبع » التى تقع عند مشارف الصحراء فى أقصى جنوب بلاد الكنعانيين متجها الى الشمال مارا بالضرورة بمرتفعات أرض الميعاد الجرداء • واستمر فى طريقه شمالا فى طريق وعر شاق حتى وصل الى مكان ما والشمس أوشكت على الغروب • فقرر أن يبيت فى هذا المكان ، اذ كان مجهدا وقد تقرحت قدماه من السير ، كما كان الظلام قد أوشك على مهاجمته • وقد كان هذا المكان منعزلا • فأخذ يصعده تدريجيا حتى بلغ قمته التى تعلو فوق سطح البحر — بمقدار ثلاث آلاف قدم • وكان الهواء حادا لافحا ، فنظر من حوله ، فرأى ، حسبما أتاحت له الظلال المتساقطة ، قفارا تتناثر فيها الأحجار والصخور الرمادية التى كانت تتراكم فى بعض الاحيان مكونة شكل أعمدة غريبة ، ونصبا تذكارية وأضرحة ، بينما كان يلوح على البعد تل قفر معتم تراءت جوانبه فى شكل شرفات حجرية بعضها فوق بعض • لقد كان منظرا موحشا لا يغرى المسافر بأن يجيل النظر فيه طويلا • وعند ذاك جلس يعقوب وقد أحاطت به الصخور الضخمة من كل جانب ، ثم وضع رأسه على احدى هذه الصخور كأنها وسادة ، وراح فى نوم عميق • فرأى فى منامه كأنه يبصر سلما يصل ما بين الأرض والسماء ، وكانت الملائكة تتحرك عليه صاعدة هابطة • ثم أبصر الرب يقف بجانبه ويعده بأن الارض التى تحيط به جميعا ستصبح له ولذريته من بعده • عند ذاك استيقظ من نومه مذعورا وهو يقول : « حقا ان الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم • وشعر بالخوف وقال : ما أرهب هذا المكان • ما هذا الا بيت الله وهذا باب

السماء » (١) . وظل يعقوب راقدا وهو يرتجف حتى أشرف الصباح على ذلك المكان المنعزل ، وقد كشف مرة أخرى عن المنظر المتجهم لتلك القفار الصخرية والصخور الرمادية التى كان بصره قد وقع عليها بالأمس . ثم هب يعقوب واقفا وأخذ الحجر الذى يسند عليه رأسه ونصبه فى هيئة عمود ، وصب عليه الزيت ، وأطلق على هذا المكان اسم « بيت أيل » أى بيت الرب . ونحن نفترض أنه على الرغم من هول الرؤيا التى رآها يعقوب ، فقد استأنف رحلته فى ذلك اليوم بروح عالية بسبب الوعد الذى وعده به الرب . بل ان المنظر الطبيعى نفسه تغير فى أثناء سيره وبدأ يأخذ مظهرا أكثر بهجة وانشراحا منسجما فى ذلك مع آماله الجديدة التى يمتلىء بها صدره . وترك يعقوب وراءه مرتفعات بنيامين الجرداء وهبط الى أرض « افرايم » المنخفضة الخصبة . واستغرق سيره أربع ساعات الى أن هبط الى الوهدة الجميلة حيث تبدو جوانب التلال متدرجة حتى القمة ، وحيث تنمو أشجار الزيتون وأشجار السرخس التى تكسو الصخور البيضاء . وحيث يزين أطرافها نبات الزعفران ونبات بخور مريم الابيض والبنى ؛ بينما كان طائر النقار وأبو زريق والبوم الصغير يضحك أو ينقر أو يصفر بين فروع الاشجار ، كل حسب طبيعة صوته . وعند ذاك شق يعقوب طريقه بقلب مفعم بالأمل الى البلد البعيد .

٢ ـ الأحلام التى تتمثل فيها الآلهة :

ان حكاية حلم يعقوب قد حكيت فيما يبدو ، وكما لاحظ النقاد ذلك . لكى تفسر قدسية « بيت إيل » ، ذلك المكان البالغ فى القدم الذى ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون ، قبل أن يغزوها العبريون ويستقروا فيها بزمن طويل . والاعتقاد فى أن الآلهة تتمثل للانسان فى رؤياه وتكشف له عن ارادتها ، اعتقاد كان ينتشر فى الزمن القديم . ووفقا لهذا الاعتقاد كان الناس يلوذون بالمعابد والأماكن

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح الثامن والعشرون آية ١٦ ، ١٧ .

المقدسة الأخرى ويناموون هناك حتى تظهر لهم القوى العلويـــة فى رؤياهم وتتحدث معهم ، اذ كان من الطبيعى ان يعتقدوا ان الآلهة أو أرواح الأشخاص المؤلهين أكثر ما تتمثل لهم فى تلك الأماكن المخصصة للعبادتها • فقد كان فى « أوروبوس » على سبيل المثال ، تلك المدينة التى كانت تقع فى « اتيكا » ؛ محراب للعراف الـذى كـــان يدعى « أمفياراوس » ، حيث تعود المستفسرون عن مسائل تخصـــهم ، أن يذبحوا الكباش ضحية له وللاشخاص المؤلهين الآخرين ، الذين كانت قد نقشت أسماؤهم فى المحراب • وبعد ذلك يفترش هؤلاء جلـــود الكباش ويناموون عليها . وهم يتوقعون أن يتمثل لهم هؤلاء الأشخاص فى رؤياهم • ويبدو أن أمكنة النبوءة هذه كان يزورها أساسا وبصـفة دائمة المرضى الذين كانوا يبحثون عن وسيلة لتخفيف آلامهم • فـــاذا توصلوا الى هذه الوسيلة من خلال رؤياهم التى يرونها فى تلك الأماكن المقدسة ، فانهم يعبرون عن شكرهم برمى قطع من النقود الذهبية أو الفضية فى النبع المقدس لهذا المكان • فقد أخبرنا « ليفى » أن معبد « أمفياراوس » القديم كان يقـــع فى مكان جميل بين الينابيـــع والجداول • وقد تأكد هذا عن طريق استكشـــاف هذا المكان فى العصر الحديث • فهذا المكان عبارة عن وهدة صغيرة جميلة ليست بالمتسعة أو العميقة ، تقع بين تلال منخفضة تكسوها أشجار الصـــنوبر فى بعض أجزائها • ويجرى فى هذه الوهدة جدول صـــغير يشـــق طريقه بين شواطىء تنمو على حافتها أشجار الدفل والدلب لمسافة ميل حيث يصل الجدول فى البحر • وعلى البعد تحول جبال « اوبونيا » الشـــاهقة الزرقاء دون امتداد المنظر فيمـــا وراءهـــا • ولقد كـــانت مجموعات الأشجار والشجيرات التى تتكاثر عند جوانب الوهدة وتغرد عليهـــا الطيور . وتلك المروج الخضراء الممتدة عند أسفلها ثم هذا الســـكون وتلك العزلة ، بالاضافة الى أشعة الشمس المتوهجة فى هـــذا المكـــان المغلق ، كان كل ذلك ملائما لأن يجعل المكان ملاذا للمرضى الذين كانوا يتوافدون عليه ليلتمسوا النصيحة من اله الشفاء • حقا ان هذا المكان مغلق للغاية ، الى درجة أن الحرارة التى تشع فيه من شمس بــــلاد

اليونان التى تخلو سماؤها فى مثل هذا الوقت من السحب ، بالاضافة الى خلو الوهدة من الهواء ، لم يكن يتحملها الزائر القادم من بلاد الشمال . أما بالنسبة للمواطن اليونانى ، فهو مكان مناسب له فيما يبدو . ومن المؤكد أن مكان النبوءة هذا لم يكن يفتح أبوابه للزائرين الا فى أشهر الصيف ، ذلك لأن الكاهن كان ملزما بأن يكون موجودا بهذا المكان مدة عشرة أيام على الاقل من كل شهر ، ابتداء من نهاية الشتاء حتى يبدأ موسم الحرث الذى يتفق مع ظهور نجوم الثريا . وفى هذه الفترة لم يكن يسمح للكاهن أن يتغيب أكثر من ثلاثة أيام دفعة واحدة . وكان على المريض الذى يجى لهذا المكان يلتمس النصيحة من الاله ، أن يقوم قبل كل شىء بدفع رسم قدره تسع أوبولات على الأقل (أى ما يساوى شلنا على وجه التقريب) من الفضة الخالصة لخزينة المعبد فى حضرة حافظ غرفة المقدسات ، الذى يقوم بتدوين اسم هذا الشخص واسم باده فى السجل العام . فاذا كان الكاهن موجودا ، فان من واجبه أن يصلى فوق الحيوان الذى قدم ضحية وأن يضع لحمه فوق المذبح . أما اذا كان الكاهن متغيبا ، ففى وسع الشخص الذى قام بتقديم الضحية أن يؤدى هذه الشعائر بنفسه . ويحصل الكاهن على جلد كل جيوان يقدم ضحية كما يحصل على كتف من كتفيه ، بوصفهما منحة له ؛ ولكنه لا يسمح بأن ينقل أى جزء من لحم الحيوان خارج هذا المكان . فاذا قام الشخص بهذه الاجراءات يسمح له بعد ذلك بالمبيت بهذا المكان حتى يستقبل النبوءة . وفى المهجع ينام الرجال والنساء منفصلين بحيث يفصل بينهما المذبح . وترقد النساء جهة الشرق فى حين يرقد الرجال جهة الغرب .

وقد كان هناك مهجع شبيه بالمهجع السابق كان مخصصا للمرضى الذين كانوا يأتون الى معبد « أسكولابيوس » الكبير الذى كان يقع بالقرب من « ابيداوروس » . وقد اكتشفت فى العصر الحديث آثار هذا المعبد التى تنتشر فى مساحة كبيرة ، وهى تكون معا إحدى الآثار الرائعة التى تشهد على حضارة الاغريق . وتقع آثار هذا المعبد فى

واد مفتوح جميل تحيط به المرتفعات الشاهقة التى تبرز جهة الشمال الغربى فى شكل قمم ناتئة من الصخور الجرداء ذات اللون الرمادى ، فى حين تبدو وجهة الشرق والجنوب فى شكل تخوم مستوية بعض الشىء وفى شكل منحدرات مخضرة . وتنتشر زراعة الذرة فى فصل الربيع فى أكثر أمكنة هذا الوادى انخفاضا التى تتخللها مجموعات من الاشجار والشجيرات . والاثر العام الذى يتركه هذا المكان فى النفس هو الاحساس بالسكون والرهبة ، ونوع من العزلة المحببة الى النفس ، وذلك لبعده عن المدن . وهناك وهدة متطرفة ذات جو رومانسى تغطيها الغابات الكثيفة ، تقود الطريق الى آثار « ابيداوروس » القديمة التى تقع فى موقع جميل فوق نتوءات صخرية تطل على البحر عبر سهل تغطيه حدائق الليمون وتحيط بها جبال عالية تكسوها الغابات . وقد تعود المرضى الذين سبق لهم أن ناموا فى معبد « أيسكولابيوس » فى « ابيداوروس » ، وشفوا من وهنهم عن طريق الكشف الذى ظهر لهم فى أحلامهم ، تعودوا أن يدونوا ذكرى هذا الشفاء على ألواح كانت توضع فى المكان المقدس بوصفها شاهدا ناطقا على قوة الاله القادر على الشفاء ، وتقديرا لهؤلاء الذين وضعوا ثقتهم فيه . وقد كان هذا المكان المقدس يزدحم فى العصر القديم بهذه الالواح التى اكتشف بعضها فى العصر الحديث . وقد أضفت هذه الكتابات سحرا عجيبا على هذا المكان الذى يشبه الى حد ما مستشفيات العصر الحديث .

ففى هذه الالواح نقرا ، على سبيل المثال ، كيف ان رجلا كانت قد شلت أصابعه جميعا عدا اصبعا واحدا ، جاء لهذا المكان ليتضرع للاله ليشفيه . فلما وقع بصره على الالواح الموضوعة داخل المعبد وقرأ أخبار الشفاء العجيبة المدونة عليها ، بدأ الشك يساوره . على أنه نام فى مهجع المعبد ، فرأى فى منامه كأنه يلعب النرد فى المعبد . وبينما كان يرمى الزهر ظهر له الاله ووضع يده على يد هذا الشخص وبسط له أصابعه اصبعا بعد الآخر ثم سأله ما اذا كان لا يزال يشك فى الكتابات المدونة على ألواح هذا المعبد . فأجاب الرجل بأنه حقا لم يعد

يشك فيها • عند ذاك قال له الاله : « ولكن لانك قد شككت فيها من قبل ، فانك ستدعى باسم الكافر من الآن فصاعدا • ثم برح الرجل فى صباح اليوم التالى المعبد وقد برىء من سقمه • ومرة أخرى زارت هذا المكان امرأة أثينية عوراء تدعى « أمبروزيا » لتلتمس النصيحة من الاله فى مرضها • وبينما كانت تسير فى أرجاء المعبد ، قرأت أخبار الشفاء المدونة على ألواح المعبد وسخرت من بعضها اذ وجدتها مستحيلة بعيدة عن العقل ، وقالت لنفسها : « كيف يمكن للاعرج أن يصبح سليم الساقين ، وللاعمى أن يسترد بصره لمجرد رؤيتهما لرؤيا؟» ثم نامت فى المهجع وهى على هذا النحو من الشك ورأت رؤيا فى منامها ، بدا فيها الاله يقف بجانبها ووعدها بأنها سوف تسترد بصر عينها المفقودة ، على شرط أن تقدم للمعبد خنزيرا من الفضة كذكرى لكفرها البالغ • وبعد أن وعدت الاله أن تفى بذلك ، فتح الاله عينها وصب فيها البلسم ، فرجعت فى اليوم التالى الى بيتها وقد ارتد اليها بصرها • ومرة أخرى جاء الى هذا المكان رجل من فيساليا يدعى « باندراوس » على أمل أن يتخلص من الحرف «A» القرمزى اللون الذى وشم على جبينه • فرأى فى منامه كأن الاله يقف بجانبه وهو يربط فى جبينه برباط وأمره أن يهدى المعبد هذا الوشاح عندما يعود الى بيته فى اليوم التالى • فلما استيقظ « باندراوس » فى اليوم التالى ورفع الرباط عن جبينه ، ورأى أن الحرف «A» المشين قد زال من جبينه وانطبع فى الرباط • وهب الرباط الى المعبد ورحل • ثم توقف فى أثناء سيره فى أثينا ، وأرسل خادمه « اخيدوروس » الى « ابيداوروس » بمبلغ من المال ليقدمه منحة الى المعبد • ولكن « اخيدوروس » الذى كان له مثل هذه العلامة على جبينه لم يقدم النقود لخزانة المعبد ، وانما احتفظ بها لنفسه • ثم نام فى المهجع وهو يأمل أن يتخلص من هذه العلامة كما تخلص منها سيده • فرأى فى منامه

كأن الاله يقف بجانبه ويسأله عما اذا كان قد أخذ من « بانداروس » نقودا ليسلمها الى المعبد • ولكن الخادم أنكر أنه قد تسلم أى شىء من سيده ، ووعد الاله أن يرسم صورة لنفسه ويهبهـا للاله ، اذا ما أزال عنه هذه العلامة • وعند ذلك طلب منه الاله أن يأخذ رباط سيده ويربط به جبينه ، ثم يخلعه فى اليوم التالى عندما يغـادر مهجعه ، ثم يغسل وجهه فى النبع وينظر فى صفحة المياه • ففعل الخادم ذلك • ولكنه عندما كان ينظر بشغف الى الرباط متوقعا أن تكون العلامة قد طبعت عليه ، اذ به يجد أن الرباط لم ترسم عليه أية علامة • فأسرع الى النبع ونظر الى وجهه على صفحة الماء فوجد أن علامة « بانداروس» قد طبعت على جبينه الى جانب علامته •

وقد كان هناك كذلك معبد مقدس مخصص للنبوءة يقع عند شاطىء « لاكونيا » الموحش الصخرى ، حيث تهبط سلسلة جبال « تايجيتوس» فى شكل صخور جرداء الى البحر • وفى المعبد كانت الإلهة تكشـف عن رغباتها الى الناس فى أحلامهم • وقد اختلفت الآراء فيمن تكون الالهة هذه • أما الرحالة الاغريقى « باوسانياس » الذى زار هـذا المكان ، فقد اعتقد ان هذه الالهة هى « لــو » الهة البحر • ولكنه أقر أنه لم يتمكن من رؤية تمثال لها فى هذا المعبد ، حيث أن المعبـد كان ممتلئا عن آخره بأكاليل الزهر التى كان يقدمها فيما يبدو المتعبدون تعبيرا عن شكرهم لظهور الالهة لهم فى رؤياهم • ومما يؤيد ان الالهة « اينو » هى صاحبة هذا الضريح ، قربه من البحر الذى كانت تصطخب أمواجه بالقرب منه • على أن البعض الآخر كان يرى أنها «باسيفاى» الهة القمر • وقد كان هؤلاء يؤكدون رأيهم هذا ، بأن النـاس كانوا ينظرون الى القمر الفضى فى السماء قبل أن يأووا الى مضجعهم ثم ينظرون الى صفحة الماء ليروا انعكاس أشعة القمر الفضية عليـه • ومهما تكن هذه الالهة ، فان كبار قضاة اسبرطة كانوا يترددون على هذا المكان التماسا للنصيحة الإلهية من خلال رؤياهم • وقد قيل ان أحدهم قد رأى رؤيا أنذرته بحدوث كارثة تحل باسبرطة ، وقد حدثت هذه الكارثة المشهورة فى تاريخ اسبرطة •

وقد كان فى ايطاليا قديما مثلما كان فى بلاد الاغريق ، أمكنة للنبوءة كان يلجأ اليها من يريد أن يلتمس النصيحة أو يبحث عن السلوى من الالهة أو القديسين عن طريق الاحلام . فقد كان العراف « كالشاش » ، يعبد فى معبد « دربيوم » فى « أبوليا » ، وكان كل من يذهب الى هذا المكان يلتمس النصيحة ، كان يذبح كبشا وينام على جلده . وكان هناك مكان مقدس آخر فى ايطاليا مخصص للنبوءة وهو معبد « فاونوس » ، وكان الناس يتبعون الطريقة السابقة فى التماس النصيحة عنده . فاذا ذبح الشخص كبشا ونام على جلده فانه يستقبل الرد عن سؤاله فى رؤياه . فإذا تصورنا ان هذا المكان المقدس الاخير كان يقع وسط غابة مقدسة كانت تقع بدورها بالقرب من شلالات «تيبور» ، حيث أن هناك من الاسباب ما يدعونا لهذا التصور ، فربما كان ظل الاشجار الرهيب وخرير المياه المتلاطمة يملآن نفس الحاج بالرهبة كما كانت تختلط بأحلامه . وربما كان المعبد الدائرى الذى مازال يشرف على هذه الشلالات هو هذا المكان بعينه الذى كان الاله يهمس فى آذان النائمين الورعين ، كما كان يعتقد الناس .

٣ ـ سلم السماء :

لقد كان المكان الصخرى المنعزل بين التلال الجرداء الذى نام عنده يعقوب ورأى فى منامه أن الملائكة تهبط وتصعد على سلم يصل بين السماء والارض ، يختلف كل الاختلاف عن أماكن النبوة التى كانت تقع وسط الطبيعة الجميلة فى كل من بلاد الاغريق وايطاليا . والاعتقاد فى وجود مثل هذا السلم الذى تستخدمه الكائنات الالهية أو أرواح الموتى يصادفنا فى بقاع كثيرة من انحاء العالم . فقد أخبرتنا «كنجلى» فى أثناء حديثها عن آلهة غرب أفريقيا فقالت : « اننا نجد فى كل مجموعة مجموعة الحكايات الشعبية الاهلية على وجه التقريب ، حكايات تروى عن زمن كانت فيه الالهة أو الارواح التى تسكن السماء على اتصال مباشر بالناس . وقد انقطعت هذه العلاقة بسبب أخطاء ارتكبها بعض الناس . فشعب « فرنادوبو » يحكى على سبيل المثال ، أنه فى زمن

من الازمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات على وجه الارض ، حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذى يستخدمه الناس فى الحصول على ثمار جوز الهند من أعالى الشجر . الا أنه كان طويلا للغاية ، وعن طريق هذا السلم كانت الالهة تصعد وتهبط لتشارك فى شئون الناس الدنيوية • ثم حدث أن تسلق ولد شقى هذا السلم حتى وصل الى ارتفاع شاهق عندما أبصرته أمه ، فصعدت فى أثره • فلما رأت الالهة ذلك تملكها الخوف من تصورها أن الاولاد والنساء سوف يعزون السماء . فأسقطت السلم • ومنذ ذلك الوقت ترك الجنس البشرى ليقاسى الحياة وحده » •

ويروى « الترود جانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » أنه فى الزمن القديم عندما كان الناس يعيشون جميعا معا فى مكان واحد . كانت السماء ترتبط بالارض عن طريق زحافة • وذات يوم ظهر شاب وسيم ينتسب الى أصل سماوى يدعى « الشمس » وفقا لقولهم . وكان يركب جاموسة بيضاء • ووقع بصر هذا الشاب على فتاة تعمل فى حقل فأحبها ، وتزوجها وعاش معها فترة من الزمن • وفى أثناء ذلك أخذ يعلم الناس فلاحة الارض كما أمدهم بقطعان من الجاموس ، ثم حدث ذات يوم أن الطفل الذى ولد « للشمس » من زوجته ، سلك فى البيت سلوكا سيئا ، الامر الذى سبب ازعاجا للاب من قبل الجنس البشرى كله ، فعاد الى السماء عن طريق الزحافة • فلما حاولت الزوجة أن تصعد على الزحافة لتلحق به ، حطم الزحافة فهوت بالمرأة على الارض وتحولت هى والزحافة الى حجر • ومن الممكن رؤية المرأة والزحافة فى شكل تل جيرى يقع غير بعيد من نهر « ويمبى » • وهذا التل عبارة عن حبل ملتف يسمى التل الزحافة • ومرة أخرى نقرأ فى الحكايات الترودجانية أن نباتا بعينه يسمى « المروطان المجدول » كان لناس يتسلقون عليه ليصلوا الى السماء • وهذا النبات عبارة عن نبات متسلق شائك ينمو حول شجرة التين . وفى كل عام يضيف لفيفة جديدة الى لفائفه • واذا شاء شخص

أن يستخدم هذا النبات فعليـــه أن يضرب نسيجه المتين بهراوته حتى يوقظه من نومه • وعند ذاك يستيقظ النبات من سباته ويهتز ويأخذ بذرة من بذور الفوفل ويسأل الانسان عن مطلبـــه • فاذا طلب منه الشخص متوسلا أن يحمله الى السماء ، أرشده النبات أن يتخذ له مقعدا إما على أشواكه أو طرفه الاعلى ، ومن يحمل معه سبعة أوعية مصنوعة من الخيزران ويملؤها بالماء لكى تحفظ توازنه بثقلها • ثم يأخذ النبات فى الصعود وهو يتمايل يمنة ويسرى ، بينما يصب عليه المسافر بعض الماء فينتعش النبات ويسير فى خط مستقيم نحو السماء • فاذا وصل قبو السماء اندفع من خلال فتحة فى قبة السماء وتشبث بشوكه فى أرض السماء ، وانتظر فى صبر ريثما يقضى المسافر أمره فى السماء ، ويرغب فى العودة الى الارض • وبهذه الوسيلة يصعد بطل الحكاية الى الاجواء العليا ليحقق مأربا ، أليا كان هذا المأرب ، فاما انه يسعى الى استرداد قرط مسروق ، وأما أن يثير الزوابع والعواصف فى قرية سماوية ، أو أن يعيد الحياة لرجل مستعينا بحداد السماء •

ويحكى الباتاكيون سكان سومطرة أنه كان فى سالف الزمان فى وسط الارض ، صخرة تصل قمتها الى عنان السماء • وعن طريق هذه الصخرة كان الناس المفضلون مثل الابطال والكهنة يصـــعدون الى السماء • وقد كانت تنمو فى السماء شجرة تين ضخمة تمتد جزورها حتى تلمس الصخرة • وذات يوم قطع رجل هذه الشجرة بدافع الغيظ ، أو أنه اجتث جذرها ، لان زوجته التى كانت قد هبطت من السماء ، عادت اليها وتركته وحيدا • ويعتقد « البتسيميساراكيون » ســـكان مدغشقر أن أرواح الموتى تصعد الى السماء عن طريق سلم من الفضة • وهذا السلم تستخمه الارواح السماوية فى تبليغ رسالات السماء الى الأرض •

على أن هناك سلالم حقيقية تختلف عن تلك السلالم المتخيلة ، ينصبها بعض الناس ليسهلوا عملية هبوط الالهة والارواح من السماء

الى الارض • فأهالى « تيمورلاوت » و « بابار » وجزر « ليتى » التى تقع فى الارخيل الهندى يعبدون الشمس كل عام مع بداية موسم الامطار ، بوصفها الاله الرئيسى الذكر الذى يخصب الارض التى تعد بدورها الهة • ومن أجل هذا العمل الطيب ، يهبط الاله الى شجرة تين مقدسة • ولكى يسهل الناس له عملية الهبوط الى الارض فانهم يضعون أسفل شجرة التين سلما يتكون من سبع درجات ، وقد حفر على حاجزيه شكلين لديكين • وربما كان الغرض منهما أن يعلنا بصياحهما من خلال بوقين ، وصول الاله • وعندما يقدم التوارد جانيون سكان سيليبس الوسطى التضحية للالهة عند بناء بيت جديد ، فانهم يضعون حزمتين من النباتات فى وضع منتصب ، تزينها سبعة أشرطة من قماش مصنوع من لحاء الشجر ، لتكون بمثابة سلالم يهبط عليها الالهة ليأخذوا أنصبهم من الارز والدخان والتبول والنخيل التى يخصصها الناس لهم •

كما تصور الناس فى الزمن القديم والحديث أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم ، بل انهم كانوا يضعون سلالم مصغرة فى القبور لكى يسهلوا للأرواح عملية الصعود الى مكان البركة • ويكثر الحديث عن سلم فى كتابات أهرامات الجيزة ، وهى أقدم الكتابات المدونة فى العالم ، كان الملوك المصريون المتوفون يرتقون عليه الى السماء • بل انه قد عثر على سلالم فى قبور الفراعنة ، وربما كان الغرض منها مساعدة الأرواح عند الخروج من القبور ، وربما كان الغرض منها مساعدتهم على الصعود الى السماء ، كما كان يفعل المارك المتوفون وفقا لاعتقاد الناس • وتحرص قبيلة « ماناجار »وهى قبيلة محاربة فى « نيباول » ، على وضع سلالم فى قبور موتاهم تمكنهم من الوصول الى مساكنهم فى السماء • « فهم يضعون كتلتين من الخشب يبلغ طول كل منها ثلاثة أقدام ، وكل كتلة توضع على جانب من جوانب القبر • أما الكتلة الأولى فهى مقسمة الى تسع درجات مكونة شكل سلم تصعد عليه أرواح الموتى الى السماء • أما كتلة الحجر الثانية

قد وضعت لكى يحفر كل من حضر الجنازة خطا عميقا دليـــــلا على حضوره الجنازة . وعندما يخرج خال المتوفى من القبر بعد دفـــــن الجثة . فانه يودع المتوفى الوداع الأخير ويطلب منه أن يصـــعد الى السماء عن طريق السلم الذى يقف معدا له » . على أنهم يحرصـــون على سد الطريق بالأحراش الشوكية فى حالة اذا لم يشأ أن يكمل رحلته الى السماء وفضل أن يعود الى مأواه المألوف .

٤ ـ الحجــر المقدس :

على الرغم من الجفاف والجذب اللذين يحيطان « ببيت ايل » ، فقد أصبح فى العصور المتأخرة أكثر الأماكن المقدسة شهرة فى عهـــــد المملكة الشمالية . فهناك أقام « يربعام » عبادة أحد العجلين الذهبيين اللذين صنعهما ليكونا آلهة لبنى اسرائيل ، وهناك شيد معبدا وأنشــا للكاهن منصبا . وفى عصر النبى « عاموس » أصبح المعبد تحت الرعاية الملكية الخاصة كما كان يعد كنيسة ملكية . ومنذ ذلك الحين ازدحـــم المكان بالمتعبدين ، وتعددت المعابد ، كمـــا روعيت الدقة فى اقامـــة الشعائر . وكان الناس يدفعون ضريبة العشر فى هذا المكان فى مقابل صيانة معابده . أما الأماكن المجاورة لهذا المكان فقد ازدحمت بمشاتى الأثرياء ومصـــايفهم الكثيرة الأنيقة . وقد كانت يعقوب وحلمه تحكى للمتعبدين فى هذا المكان على سبيل تأكيد قدسيته البالغة فى القـــدم ، عندما كان هذا المكان مهجورا بطبيعته ، ثم اكتسب على مر الزمـــن مظاهر البهاء والطهر . وطالمــــا كان الناس يدفعون ضريبـــة العشر للكاهن ، فانهم كانوا يعتقدون أنهم بذلك يوفون بالوعد الذى وعد به الرب يعقوب فى هذا المكان ، عندما استيقظ فزعا من نومه المضـــطرب ونذر بأن يقدم للرب العشر من كل شىء يمنحه آياه . كما ان الاعتقاد ساد فى أن الصخرة المنتصبة أو العمود هى بعينهما الى وضـــع عليها يعقوب رأسه المجهد بعد تجواله فى تلك الليلة الخالدة ، وهى بعينها التى نصبها فى صباح اليوم التالى ذكرى لرؤياه . ذلك أن مثل هذه الأحجار المقدسة أو الأعمدة الصخرية كانت تعد فى العادة معابد مقدســـة عند

الكنعانيين والعبريين فى الزمن القديم • وكثيرا منها قـد اكتشـفه الباحثون الأثريون فى أماكنه الأصلية ، هؤلاء الذين أزاحوا الستار عن هذه « الأماكن العالية » (المعابد) فى العصر الحديث • بل انه يبدو أن النبى « هوشع » كان يرى ضرورة وضع حجر منتصب أو عمود ليكون ملحقا . لا غنى عنه . لأى مكان مقدس يخصص لعبادة يهوه • ولـم يحكم الاسرائيليون على هذه الآثار الحجرية البسيطة بوصفها بقايـا عبادات وثنية . ودعوا الى هدمها ومنعوا تشييدها ، الا فى عصـور متاخرة . وذلك بدافع تطور جوهر ديانتهم • وقـد كانوا يعتقدون فى الأصل ان الرب كان يسكن حقا فى هذه الأحجار ، وكان احساسـهم بالرهبة من سكنى الرب لهذه الأحجار هو الذى يخلع عليها قدسيتها ، ومن ثم فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذى نصبه فى « بيت أيل » ينبغى ان يكون بيت الرب •

وفكرة أن الحجر يسكنه الرب أو أية قوة روحية أخرى لم تكن غريبة على الاسرائيليين القدماء ، بل كان يشاركهم فيها كثير من شعوب العالم • فقد كان العرب الجاهليون يعبدون الأحجار ، بل أن الحجر الأسود مازال يحتل مكانة أساسية بين شعائرهم المقدسة • وكما هـو معروف أن النبى أشعيا أو الكاتب المتأخر الذى كـان يسمى باسـمه قد اتهم الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل المياه ، تلك التى كانت تقع فى الأخاديد الصخرية الجافة ، ويصـبون عليها قربان الخمر ويقدمون لها الهبات — اتهمهم بالوثنية • وقد نقل عن الاغريق أنهم كانوا يعبدون الأحجار الطبيعية بدلا من الصـور ، فقد كان هناك فى سوق « فاريا » الذى كان يقع فى « أشايا » ثلاثون حجرا مربعا كل منها سـماه الناس باسم اله • ولما كـان سـكان « ثيسبيآى » فى « بويوتيا » يقدسون الهة الحب فوق كل الآلهـة ، فقد كانت المدينة تزدان بالتماثيل التى شكلها المثالان « ليسيبوس » و « براكسـيتيلز » من البرونز والمرمر لتمثل اله الحب • ولكـن ، الى جانب هذه الأعمال الفنية التى تشهد على روعة الفن الاغريقى ، كان الناس يقدمون الهبات لصنم غريب فى هيئة حجر خشن يمثل الالـه •

وكذلك كان « الأينانيون » سكان « ثيسالى » يعبدون حجرا ويقدمون له الضحايا ويغطونه بشحم الضحية •

واذا كانت الأحجار الطبيعية تقدس فى جميع أنحاء العالم ، فانها لم تكن تقدس بشكل منتظم فى اى مكان من أنحاء العالم ، مثلما كانت تقدس فى « ميلانيزيا » • ففى جزر « بانك » وجزر «الهبريد الجديدة» الشمالية ، كانت الأرواح التى يقدم لها الطعام ترتبط فى أغلب الأحيان بأحجار تقدم عندها الهبات • وبعض هذه الأحجار كانت تتصل بعبادة بعض الأرواح القديمة ، كما أن الشخص بعينه الذى يمتلك لحسن حظه هذه الأحجار قد ورث طريقة استرضاء هذه الأرواح أبا عن جد • « على أنه اذا عثر شخص على حجر استرعى نظره لغرابته ، أو اذا عثر على أى شىء غريب آخر ، كان يكون أخطبوطا فى جحره أو سمك القرش أو حية أو سمكة الأنقليس ، تلك الحيوانات الغريبة لديه ، فانه ينثر النقود على الحجر أو عند المكان الذى يجد فيه هذه الحيوانات ثم يعود الى بيته وينام • وعند ذاك يرى فى منامه كأن شخصا يأخذ بيده ويطلعه على منحة الخنازير أو النقود التى تقدم له وذلك لارتباطه بالشىء الذى عثر عليه • وهذا الشىء يسمى فى جزر « بانك » « تانو ـ أولولو » أى مكان التضحية • أما الشىء الذى ينتظر الشخص أن يحصل عليه من وراء ذلك ، فهو النقود والخنازير • فاذا علم جيران هذا الشخص أنه قد حصل على هذه الهبة ، ـأن ثروته قد تزايدت ، فانهم يأتون اليه ليستعلموا منه عن الشعيرة التى توسل بها الى الروح الذى تعرف عليه • ولكنه لايفشى هذه المعلومات الا الى ابنه أو ابن أخيه • فاذا مرض شخص ، فانه يقدم لشخص آخر يعرف بأنه يمتلك حجرا ذا قوة خارقة ، ويعتقد أن الروح الذى يسكن هذا الحجر قد أساء اليه المريض ـ مبلغا من المال وقطعة من جذر نبات الفلفل (جيا) الذى يستخدم فى صنع مسكر من المسكرات • ويقال عندئذ ان الرجل يقدم الضحية (أولولو) لصاحب الحجر • ثم يأخذ صاحب الحجر هذه الاشياء ويحملها الى المكان المقدس وينثرها هنا

ويتوسل للحجر وهو يقول : « دع هذا الشخص يشفى « • فاذا شفى هذا الرجل فانه يقدم ضريبة شفائه • فاذا رغب شخص فى اكتساب منفعة من الحجر ، أو أى شىء آخر له قوة سحرية ويعرف لدى الآخرين بمقدرته على زيادة ثروة المال أو صاحب الحجر أو الشىء المقدس يصطحب الشخص الى المكان المقدس ، حيث يوجد فيما يبدو عدد من الأحجار ، كل منها يحقق غرضا من الاغراض • وعند ذاك يقدم الشخص قدرا من النقود قد تبلغ المائة ويسلكها فى خيط يبلغ طوله بضع بوصات • ثم يقدم اليه صاحب الحجر الرئيسى حجرا من الأحجار ويقول له : « هذا نبات اليام » • فيدفع الرجل اثر ذلك نقودا • ثم يقدم له حجرا آخر ويقول : هذا خنزير برى » ، ويقول له عن حجر ثالث : « وهذا خنزير ذو أنياب » ، والرجل فى كل حالة يضع نقودا • والسبب فى هذا هو أن الروح « فوى » الذى يتصل بالحجر يحب النقود التى يسمح ببقائها فوقه أو الى جانبه • فاذا أدت الضحية غرضها ، فان الشخص المستفيد من ذلك يدفع لصاحب الأحجار والأرواح ثمن ذلك » •

من هذه الرواية المفيدة نعلم أن المكان المقدس فى هذا المكان قد ينشأ اثر رؤية شخص لحجر ذى شكل غريب يسترعى نظره • فاذا نام بحواره رأى رؤيا توحى له بأن هذا الحجر يسكن فيه روح قوى يعينه على قضاء حاجاته ، ومن ثم فانه وأبناءه من بعده يقومون بتقديم الهبات لهذا الحجر استرضاء له • واذا رأينا كيف أن مثل هذا المكان يظل يجذب المتعبدين اليه كلما ذاعت شهرته ، وبذلك تزداد موارده المالية من خلال الهبات التى يقدمها الشاكرون لصنيعه من ناحية ؛ وما يقدمه له الطامعون فى زيادة ثروتهم من ناحية أخرى • أفلا تعد المعابد الميلاليزية مطابقة فى هذه الحالة لما يروى عن « بيت ايل » ؟ اننا اذا استخدمنا طريقة أكثر قدما فى تفسير حكاية هذا المكان ؛ فربما رأينا فيها تزييفا كبيرا لروابط دينية أصلية •

وقد كان للاله « توريا » فى جزر « ساموان » ضريح فى شكل

حجر أملس يقع داخل غابة مقدسـة • وقد كان الكاهن يحرص على أن ينتزع الأعشاب من حول الحجر وأن يغطيه بفروع الشـجر لكـى يستدفىء بها الاله • وعندما كان المتعبدون يقومون بواجب الصلاة فى ظروف الحرب أو المجاعة أو الوباء ، فان فروع الشجر كانت تجـدد بعناية • ولم يكن أحد يجرؤ على أن يمس الحجر والا شع منه تأثيـر سام مميت يصيب من يقترب منه • وقد كان فى قرية ساموانية أخرى حجران مستطيلان أملسان موضوعان على قارعة الطريق ؛ وكان الناس يعتقدون أن هذين الحجرين هما والدا الاله « ساتو » ، الاله الـذى يتحكم فى المطر • فعندما كان الزعماء وعامـة الناس يتأهبون للخروج لممارسة رياضة صيد الحمام لمدة أسابيع ، فانهم كانوا يضـعون السمك المشوى على الحجرين ويتوسلون للاله أن يمنحهم جوا معتدلا خاليا من الأمطار • فاذا رفض أحدهم أن يقدم العطاء للاله ، فـان رفقاءه يغضبون منه • فاذا حدث بعد ذلك أن سقط المطر فى أثنـاء رحلتهم ، فانهـم ينسـبون اللـوم له ويعاقبونـه لأنـه أغضـب الالـه المتحـكم فى الجـو وبـذلك أفسـد عليهـم رحلتهـم الموسمية • واذا كان الناس فى طريقهم للبحث عـن نبـات اليـام البرى فى أوقات القحط ، فانهم يقدمون ثمرتين منه للحجرين شـكرا للاله على فضله ، معتقدين بذلك ان الاله يجعل هذا النبات ينمو ، وأنه يهديهم الى أفضل الطرق التى يعثروا فيها على الدرنات الصـالحة للأكل • كما اعتاد الناس عندما يمرون بهذين الحجرين وهم يحملون سـلالا ممتلئة بالطعام ؛ ان يرموا قدرا من هذا الطعـام للحجرين • فاذا أكلت الكلاب أو الفئران هذه الأطعمة فى أثناء الليل ، فانهـم يعتقدون ان الاله قد تجسد لوقت محدد فى هيئة هذه الحيوانات لكى يأكل الطعام المقدم له •

ويهتم أهالى جزيرة تيمور ، احدى جزر الأرخبيل الهـندى ، اهتماما كبيرا بأرواح الأرض التى تسكن الصخور والأحجـار التى تلفت النظر بشكلها الغريب • على أن مثل هذه الصخور والأحجار قد لا تكون مسكنا للأرواح • ولهذا فانه اذا عثر شخص على أحد الأحجار

أو الصخور فان الذى يقطع باحتواء هذا الحجر على الأرواح ، هو أن يرى الشخص رؤيا بجانبه . فاذا ظهر له الروح فى الرؤيا وطلب منه أن يقدم له انسانا ضحية أو حيوانا أو نبات التنبول ، فانه ينقل هذا الحجر ويضعه بالقرب من بيته . ومثل هذه الأحجار تقدسها أسرات بأكملها أو قرى ، وأحيانا أحياء بأكملها . والروح الذى يسكن الحجر يحرص على رخاء الناس ، ويقدم له فى مقابل هذا الأرز ونبات التنبول ، وأحيانا الدجاج والخنازير والجاموس . وفى كثير من الأحيان تغرس الى جانب الحجر عصى مدببة تعلق عليها جماجم بعض الأعداء القتلى .

وفى « بوسوجو » وهو حى فى افريقيا الوسطى يقع الى الشمال من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، يعتقد الأهالى أن « كل حجر كبير أو قطعة من الصخر يسكنها روح يمارس نشاطه فى القرية اما خيرا أو شرا . فكثير من الأمراض وبصفة خاصة الأوبئة ، تعزى الى الشر الذى تضمره أرواح الصخور . فاذا انتشر مرض أو وباء ، فان الروح يتملك شخصا من هذا المكان رجلا كان أو امرأة . وعند ذاك يتسلق هذا الشخص الصخرة وهو واقع تحت تأثيرها ويصيح بالناس ، فيجتمع الزعيم والأطباء بالناس ، ويقدمون نعجة أو دجاجة ضحية للروح ، ثم يتلو عليهم الشخص الطريقة التى يتمكنوا بها من ايقاف المرض . فاذا أفصح الروح عن رغبته للناس على هذا النحو ، فانه يترك الشخص ويسكن الصخرة مرة أخرى . وعند ذاك يعود الوسيط الى بيته ليمارس عمله العادى حيث يكف الروح عن استخدامه وسيطا مرة أخرى » . ومعنى هذا أن هناك فى « بوسوجو » كثيرا من الصخور والأحجار المقدسة التى تعد آلهة محلية . والى هذه الصخور والأحجار يذهب الناس فى أحوال وظروف مختلفة يلتمسون العون من الآلهة . ويقدم « الميكرينيون » سكان السودان الفرنسى جنوب النيجر ، الضحية للصخور والأحجار . ففى « سابو » يملك زعيم القرية حجرا كبيرا يضعه عند باب بيته . كما يقدم الشخص الذى لم يستطع أن يحصل على زوجة ، أو لم يمنح أولادا من زوجته أن يقدم

دجاجة ضحية الى الصـــخرة ، آملا أن يمده الحجر بالزوجـــــة أو الأولاد • ويقوم هذا الشخص بتسليم الطير الى الزعيم الذى يقوم بذبحه وأكل لحمه • فاذا تحققت رغبة الرجل ، فانه يقوم بذبح دجاجة عند الحجر شكرا له على فضله •

وقد كان مكان النبوءة الكبير عند الهنود المانديين حجرا مساميا كبيرا يبلغ محيطه عشرين قدما • وكان هؤلاء البدائيون السذج يثقون ثقة عمياء فى أعمال هذه الصخرة المعجزة ، ففى كل ربيع وكذلـــــك فى بعض شهور الصيف ، تقف وفود عند هذه الصخرة ويدخنون عندهـــا فى وقار بالغ وهم يتبادلون الغليون فيمـــا بينهم ثم يســــــلمونه الى الصخرة • وبعد أن يقوم الناس بهذه الشعائر فانهم يأوون الى غابة قريبة ويبيتون الليلة هناك ، تاركين الصخرة تتدبر الموقف وحدهـــا • وفى صباح اليوم التالى تظهر نتيجة هذا التدبر فى شـــكل علامـــــات محددة بيضاء ترتسم على الصخرة لا يصعب على بعض رجال الوفد أن يفكروا رموزها ، حيث انهم هم أنفسهم قد قاموا بنقشـــها عـــلى الصخر فى الظلام ، بينما كان رفقاؤهم يغطون فى نوم عميق • وقـــد روى عن الهنود الداكوتيين أن الرجل عندهم « يلتقط حجرا مستديرا أيا كان نوعه ويطليه ويسير به بعيدا عن مسكنه ببضعة خطوات ، ثم يقوم بتنظيف هذا المكان فى محيط يبلغ قدما أو قدمين • وفى وســـط هذا المكان يضع الحجر أو الآله كما يمكن أن يسميه ، ويقدم له بعض الدخان وبعض الريش ويتضرع للحجر كى يجنبه بعض الأخطار التى قد حلم بها أو تصـــورها •

وقد كان سكان اسكتلندا يعتقدون فى وجود جنية بعينها يطلقون عليها اسم « جرووواجاخ » • وهى فى نظر البعض ذكر ، وفى نظـــــر البعض الآخر أنثى • ووظيفة هذه الجنية هى رعاية قطعان الماشـــــية وابعادها عن الصخور • وهى تسكن الحقول التى ترعى فيها هــــذه القطعان ، كما تتردد على حظيرة كل سيد • وعلى هذا السيد أن يقدم

لها اللبن كل مساء فى تجويف صخرة معينة يحتفظ بها فى الحظيرة تسمى صخرة « جرووَاجاخ » • فاذا لم يفعل السيد هذا ، فإن أبقاره تمتنع عن ادرار اللبن . كما أن القشدة لا تعلو سطح اللبن فى الاناء • ويقول البعض ان اللبن لا يسكب للجنية فى تجويف الصخرة الا عندما يرحل النس وقطعانهم إلى المرعى الصيفى أو يعودون منه ، أو عند ما يمر شخص فى الحظيرة وهو حامل وعاء به لبن • ولاتزال توجد حتى اليوم فى « هولم » ، « ايست سايد » ، و « سكورى بريك » التى تقع بالقرب من «بورنترى » فى « يكى » تلك الأحجار التى كان يصـــب فيها قربان اللبن « لجرووَاجاخ » •على أنه من المحتمل أن هذه الأحجار كانت تعد أوعية تلعق منها الجنية اللبن ، أكثر مما كانت تعد مساكن لها • ويتصور الاسكتلنديون هذه الجنية فى العموم فى شكل رجل وســـــيم أو امرأة وسيمة يتدلى شعرها الذهبى على كتفيها • وقد اعتــاد المزارعون فى بعض الأحياء الجبلية فى النرويج حتى القرن الثامن عشر أن يحتفظوا بأحجار دائرية يغسلونها مساء كل خميس ويطلونها أمام النار بالزبـــد أو بأية مادة دهنية أخرى ، ثم توضع على القش النضر فى مكان الشرف• وفضلا عن ذلك فان هذه الأحجار تغمس فى الجعة فى فصول معينة من السنة ، حيث انها على هذا النحو بناء على تصور هؤلاء الناس ، تجلب الحظ والطمأنينة للناس •

وتذكرنا عادة طلاء الأحجار بالزبد عند النرويجيين بما صــــنعه يعقوب عندما صب الزيت على الحجر الذى نصبه إحياء لذكرى الرؤيا التى رآها فى « بيت ايل»•وتعد هذه الأسطورة أصدق دليل على تقديس الحجر . ومن المحتمل أنها تشير الى عادة قديمة هى عادة طلاء الحجر الذى يوضع فى المكان المقدس بالزيت • ومن المؤكد أن عــادة طــــلاء الأحجار المقدسة بالزيت تنتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء العالم • فقد كان هناك فى دلفى بالقرب من قبر « نيوبتوليموس » حجر صغير كان يصب عليه الزيت كل يوم ، كما كان ينشر عليه الصوف غير المغزول فى كل احتفال • ووفقا لما رواه « ثيوفراستوس » ، أنه كان من سمات

الرجل المتطير ، أنه اذا رأى أحجارا ناعمة عند مفترق الطريق ، فانه يصب عليها الزيت من قارورة يحملها معه ، ثم يسجد أمامها ويصلى لها قبل أن يستأنف سيره • كما يحكى « لوسيان » عن رجل يدعى « روتيليانوس » ؛ أنه كان كلما أبصر حجرا مطليا بالزيت ، أو له نتوء فى قمتهفانه كان يسجد أمام الاله الأصم ثم يقف أمامه مصليا لبعض الوقت • وفى مكان آخر تحدث هذا الكاتب الشاك نفسه فى سخرية عن تلك الأحجار المطلية بالزيت وتلك التى تكللها أكاليل الزهر التى كان يعتقد فى أنها أماكن للنبؤة • أما الكاتب المسيحى « أرنوبيوس » فيقول فى معرض حديثه عن عبادة الأوثان فى أيامه بطريقة عمياء : « اننى تعودت كلما أبصرت حجرا مطليا بالزيت أن أعبده كما لو كانت فيه قوة تسكنه ؛ ثم أطريه وأتحدث اليه وألتمس الخير من تلك الكتلة الصخرية الصماء » •

وتعبد قبيلة « واراتى » ؛ وهى قبيلة تسكن أحراش « كونكان الشمالية » فى ولاية « بومباى » ، سيد النمور « واجهيا » الذى يتصورونة فى شكل حجر غير منتظم مطلى بالرصاص الأحمر والزبد النقى • وهم يقدمون له الفراخ الصغيرة والنعاج ، كما يكسرون على رأسه ثمار جوز الهند ويصبون عليه الزيت • وفى مقابل هذه الهبات فانه يقيهم أخطار النمور ويمنحهم محصولا وافرا ، ويحفظهم من الأمراض • وفى العموم فان الجهلة والمتطيرون فى ولاية بومباى بصفة عامة وفى أحياء « كونكان » بصفة خاصة يعبدون الأحجار الفتيشية ، حتى تبعد عنهم الشر وتشفى مرضاهم • ففى كل قرية توجد هذه الأحجار وكل حجر يسميه سكان القرية باسم اله من الآلة أو روح من الأرواح ، تلك التى يقدسونها فى ورع لاعتقادهم أنها تتحكم فى الشياطين والأشباح • فاذا انتشر وباء فى قرية من القرى فان الناس يقدمون لها من الأطعمة لحم الدجاج والنعاج وثمار جوز الهند • وأحد هذه الأحجار المقدسة ؛ على سبيل المثال ؛ يوجد فى « بونا » ، وهو ملون بلون أحمر ومطلى بالزيت • وعند « التوداويين » الذين يسكنون تلال « نيلجهيرى » فى

جنوب الهند ، تهاجر قطعان البقر من مكان لآخر بين التلال فى فصول معينة من السنة • وقبل أن تحدث هذه الهجرة فإن الأهالى يصبون اللبن على الأحجار المقدسة التى توجد فى أماكن حلب اللبن ، كما أنهم يطلونها بالزبد • فهناك أربعة من هذه الأحجار على سبيل المثال فى « مودر » وهى ملساء ذات شكل مستدير ، ومن المحتمل أنها أصبحت على هذا النحو تتطلب اقامة الشعائر عليها بصفة مستمرة •

ويحتفظ رب كل أسرة فى جزر « كاى » التى تقع فى جنوب غرب « غينيا الجديدة » بحجر أسود عند رأس مضجعه • فاذا خرج فى حرب أو فى رحلة أو فى مهمة من المهمات فانه يدهن الحجر بالزيت حتى يكون النجاح حليفة • أما فيما يختص بقبيلة « بتسيليو » ، وهى قبيلة تسكن وسط مدغشقر ، فقد قيل « ان هناك أحجارا كبيرة فى جهات كثيرة من البلد تلفت نظر كل سائح عندما يقع بصره عليها ، وقد كساها الشحم . أو سكب فوقها الزيت أو الدهن على أقل تقدير • ومن ثم فقد تصور هؤلاء المسافرون الغرباء أن هذه الأحجار تمثل آلهة قبيلة « بتسيليو » • ولست أعتقد أنه يمكن القول بأن هذه الأحجار تقدس أو تعامل معاملة الآلهة • فمما لا شك فيه أنها ترتبط بمعتقدات تطيرية • وفى ضوء هذه المعتقدات تنقسم الأحجار الى نوعين : أحجار تسمى « فاتوبيتروكا » ، وهى تلك التى يزورها النساء اللاتى لم يرزقن بأطفال ، وهؤلاء يحملن معهن بعض الدهن أو الزيت ليطلين به الحجر وهن يناجينه ويعدنه بأنهن سيعدن مرة أخرى لطلائه بمزيد من الزيت اذا رزقن بأولاد •

كما يقوم التجار كذلك بزيارة هذه الأحجار ويعدونها بأنهم سيعودون لطلائها مرة أخرى ، أو ليدفنوا عند قاعدتها قطعة من الفضة اذا لم تتعثر تجارتهم فى بيعها ، واذا ما بيعت بسعر مربح • وهذه الأحجار تكون فى بعض الأحيان مجرد أحجار طبيعية ، ولكنها فى أحيان أخرى ، وان كان هذا نادرا ، تمثل ذكرى قديمة للأموات » •

وهناك فى مكان بعينه يقع فى ممر جبلى يصعب على قطعان الماشـــية اجتيازه ، يقف كل رجل من قبيلة « أكامبا » التى تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، أمام صخرة بعينها ويطلوها بالزبد أو الدهن •

ولعله من المعقول فى ضوء هذه الموازنات أن نفترض أنه كان يوجد فى بيت ايل حجر مقدس تعود المتعبدون منذ زمن بالغ فى القدم أن يصبوا فوقه الزيت ، لأنهم كانوا يعتقدون بحق أنه بيت الرب (بيت ايل) ، أى أنه كان مأوى لروح مقدس • ويعزى هذا الاعتقاد وتلك العادة الى الوحى الذى ظهر ليعقوب فى هذا المكان قبل أن يتكاثر نسله ويستوطن هذه الأرض بزمن طويل • على أننا لا نستطيع أن نحدد ما اذا كـــانت قصة يعقوب تعد رواية متوارثة لحادثة حقيقية ، أم أنها وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذى كان يرتبط بهذه العادة من قبل • فمن المحتمل أنه كان بأرض كنعان كثير من هذه الأحجار المقدسة أو بيوت الأرباب ، وكان ينظر اليها جميعا على أنها مساكن لأرواح قوية ، ومن ثم فقد كانت تطلى بالزيت • ومن المؤكد أن عبارة « بيت ايـــــل » • أو بيت الآله كانت اسما مألوفا لأحجار مقدسة من نوع معين كان يوجد فى فلسطين • وقد استعار الأغريق هذه العبارة وحوروها الى « بيتيل ــ وس » أو « بيتيل ــ لون » ، وهى تشير الى الأحجار المستديرة الســـوداء التى تسكنها أو يتقمصها روح من الأرواح يتحرك فى الهواء وينطق بنبوءات فى صوت كالصفير فى وسع الساحر أن يترجمه • ومثل هذه الأحجـــار كانت ترتبط بآلهة مختلفة سماها الأغريق « كرونوس » أو « زيوس » أو ــ « الشمس » الى غير ذلك من أسماء الآلهة • وعلى كل فاننـــــا نستخلص من وصف هذه الأحجار أنها لم تكن بالكبيرة بحيث كان يسهل حملها • وقد كان أحدها فيما قيل ، مستديرا استدارة كاملة وكـــــان قطره يبلغ شبرا وإن كان هذا الحجم يزداد أو يقل بمعجزة ، كما كان لونه يتغير من الأبيض الى الأرجوانى • فاذا نقشت عليه الحروف فانها تبرز فى هذا اللون الأرجوانى • ومن المحتمل من ناحية أخرى أن الحجر

المقدس الذى ينسب الى يعقوب فى « بيت ايل » كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة ، أو أحدى الأعمدة الخشنة التى كان العبريون يسمونها « ماسيبوث » ؛ وهى تلك الأحجار التى كانت ملحقة ، كما رأينـــا ، بمعابد الكنعانيين والإسرائيليين المبكرة • وقد اكتشف فى فلسطين فى العصر الحديث نماذج من هذه الأحجار فى حالة جيدة ، ونخص بالذكر منها ما عثر عليه فى معابد جيزر وتعنك • وفى بعض هذه الأحجار حفرت الحجور ــ إما فى قمتها أو فى جانبها • وربما كان الغرض من هذه الحجور هو صب الزيت أو الدم فيها • ويمكننا أن نفترض أن الحجر المقدس الذى قيل إن يعقوب قد نصبه فى بيت إيل وطلاه بالزيت ، كان شبيها بتلك الأحجار • ومن المحتمل كذلك أن نسل يعقوب كان يتقرب الى هذا الحجر على هذا النحو طيلة عصور طويلة من بعده •

الفصل الخامس

يعقــوب عند البئر

سار يعقوب فى طريقه منشرح الصدر لرؤيته الملائكة فى حلمــه ، ولما وعده به الرب من حمايته وحماية قومه ، حتى وصل الى أرض أبناء المشرق. هناك تقابل مع أقربائه ، وهناك وجد زوجاته ، وهناك أصبح يمتلك قطعان الماشية بعد أن كان فقيرا مشردا لا مأوى له . على أن الكاتب لم يحدد بدقة المكان الذى جرت فيه تلك الأحداث التى تعــد حاسمة فى تاريخ أبنائه من بعده . فقد تعمد المؤرخ ، أو بالأحــرى الفنان الأديب أن يترك الطبيعة الجغرافية لهذا المكان باهتة ، بينمـــا صور معايشة يعقوب لحبه الأول فى منفاه فى ألوان حية للغاية . وقــد سطع هذا المنظر بتأثير قلمه فى عمق ، تماما كما سطع بريشة رفائيل ، ذلك الرسام الذى أكسب الحادث خلودا ثانيا بما أودع من تصويره فى متاحف الفاتيكان . ولم يصور رفائيل فى صورته حياة الحضارة ، وانما صور حياة الرعى ، ذلك أن الحبيبين لم يتقابلا فى زحمــة الأســـواق وضوضائها ، بل تقابلا فى هدوء المراعى الخضراء ووداعتها ، تلك التى كانت تقع فى تخوم الصحراء ، وقد انتشر فوق رأسيهما قطاع كبير من السماء ، ومن حولهما تستلقى قطعان الأغنام ، وهما ينتظران فى صبر حتى يحين دورها فى الورود . أما كاتب القصة من ناحية أخرى ، فقد حدد الساعة التى تقابل فيها الحبيبان ، ذلك لأنه ذكر أن الشـــمس الحارقة لم تكن قد توسطت السماء بعد ، وهو يدعنا نتنسم نسيم صباح يوم من أيام الصيف قبل أن تشع الحرارة القائظة فى ظهيـــرة بـــلاد الجنوب . وهل يمكن أن يتقابل عاشقان شابان فى مكان وزمان أنسب

من هذا الزمان وذاك المكان ؟ • لقد تحولت طبيعة يعقوب الجشعة بسحر هذا الوقت وذاك المكان الى شيء أشبه بالرقة ، فنسى فى الحال حسابات المكسب المكبوح ورضخ لانفعالات الحب ، بل انفعال الفارس العاشق . فلقد هرول الى البئر عند رؤية الفتاة الجميلة قادمة مع قطيعها ، وأزاح الصخرة التى كانت تسد البئر وسقى لها خرافها ، ثم قبل وجه ابنة خاله الساحر وبكى • فهل بكى يعقوب لتذكره الحلم الذى رأى فيه الملائكة فى « بيت ايل » ورأى أن الحلم قد تحقق فى حلم حبه الشاب ؟ هذا ما لا نستطيع أن نقطع به • وإنما الشيء المؤكد أن المحتال الأنانى قد تحول فيما يبدو لوقت قصير الى محب عاشق • وقد كان هذا الوقت الشاعرى الرومانسى الوحيد فى حياة يعقوب المادية بل الخسيسة •

وقد احتار شارحو سفر التكوين بعض الشيء فى تفسير اجهاش يعقوب بالبكاء عندما قبل ابنة خاله الجميلة راحيل • ومن ثم فقد افترضوا أنه فعل ذلك تعبيرا عن سعادته بخاتمة رحلته السعيدة • وهم يوضحون هذه الطريقة فى التعبير عن المشاعر السعيدة بأحاسيس الشعوب الشرقية العميقة ، أو بعدم قدرتهم على ضبط مشاعرهم • ولكن يبدو أن الشراح قد فشلوا فى ملاحظة أن البكاء عند غير قليل من الشعوب . يعد طريقة تقليدية لتحية الغرباء أو الأصدقاء بخاصة هؤلاء الذين اجتمع شملهم بهم بعد غيبة طويلة ، وأن هذه التحية على هذا النحو هى فى الغالب تحية تقليدية لا تفوق فى العاطفة المصحوبة بها عادة السلام بالأيدى أو عن طريق رفع القبعة . ومن شأن الأمثلة التالية أن توضح رأينا هذا •

فهناك فى العهد القديم نفسه أمثلة أخرى لتحية الأقرباء أو الأصدقاء على هذا النحو • فعندما كشف يوسف عن نفسه لأخوته فى مصر ، قبلهم وأجهش فى البكاء بصوت مرتفع الى درجة أن سمعه المصريون الذين يسكنون فى الجانب الآخر من البيت • ولكن يبدو أن

بكاء يوسف فى هذه المناسبة كان تعبيرا طبيعيا عن مشاعره وليس مجرد عمل تقليدى . فمن المؤكد أنه اندفع فى البكاء متأثرا برؤية أخيه بنيامين لأول مرة بعد غيبة طويلة ، اذ لم يتمالك يوسف نفسه عند رؤيته أحب أخوته اليه الذى كان قد فقده زمنا طويلا ، فترك الحجرة التى كان الناس قد تجمعوا فيها ، واندفع مسرعا الى حجرته وأخذ يبكى وحده حتى استطاع أن يتمالك نفسه ويكف عن البكاء ، ثم غسل عينيه المحمرتين ، ومسح الدموع عن خديه ، وعاد الى أخوته بوجه صارم . ومرة آخرى بكى يوسف عندما تقابل مع أبيه الهرم فى « جاسان » ، فقد مال على رقبة أبيه وأخذ يبكى وقتا طيبا (١) . وفى هذه المرة كذلك كانت دموع يوسف تنبع من قلبه عندما وقع بصره على الرأس الأشيب وقد نكس أمامه ، وعندما تذكر حب أبيه له فى أيام صباه . وعندما تقابل الصديقان العزيزان داود ويوناتان فى ساعة حالكة لآخر مرة ، قبل أحدهما الآخر وبكيا معا فى صوت واحد حتى بالغ داود فى بكائه ، اذ كانا قدشعر بأنهما لن يرى أحدهما الاخر بعد ذلك . ونحن نعتقد هنا كذلك . أن البكاء لم يكن مصطنعا . ومرة أخرى نقرأ فى سفر طوبيا كيف أن طوبيا عندما وفد غريبا على بيت قريبه « رعوئيل » فى « اكباتان » وكشف عن شخصه لضيفه « قفز رعوئيل وقبله وبكى » . وربما كان البكاء فى هذا الموقف كذلك نتيجة المفاجأة السارة أكثر من كونه امتثالا لعادة اجتماعية .

ومهما تكن دوافع البكاء فى هذه الأمثلة عند العبريين فانه من المؤكد أن الإجهاش فى البكاء عند شعوب أخرى فى ظروف اجتماع الناس بعضهم ببعض أو افتراقهم عن بعضهم بعضا ، تلك الشعوب

---

(١) « فأرسل يهوذا امامه الى يوسف ليرى الطريق امامه الى جاسان . ثم جاءوا الى ارض جاسان . فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال اسرائيل أبيه الى جاسان . ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زمانا » . (سفر التكوين ، الاصحاح السادس والأربعون ٢٨ ، ٢٩) .

التى كانت تعيش فى مستوى حضارى أدنى من مستوى العبريين ، لم تكن فى كثير أو قليل سوى تقليد شكلى لسلوك فرضه المجتمع المهذب . ومن بين هذه الشعوب التى لا يمكن أن تدعى محافظتها عـــلى آداب السلوك ، وهى تعبر فى الوقت نفسه فى عنف عن عاطفتها بالبكاء ، سواء كان ذلك التعبير صادقا أم مصطنعا ، « الماوريون » سكان « نيوزيلنده » . فقد روى عنهم « أن مزاجهم العاطفى يتضح أكثر ما يكون عند رحيل الأصدقاء بعضم عن بعض أو عند اجتماع شملهم . فاذا خرج صديق فى رحلة قصيرة الى « بورت جاكسون » أو الى « فان ديمانز لاند » ، فانهم يقومون بعرض كبير للتعبير عن مشاعرهم الســطحية . ويبدأ هذا العرض بأن ينظر المودعون الى بعضهم البعض نظرة غامزة ، ثم ينشجون ويصيحون صيحة رقيقة ، ثم تأخذ الدموع تترقرق فى أعينهم . وتتجهم وجوههم ، ويدلفون الى جانب الشـــخص الراحل ويتعلقون برقبته . وعند ذلك يصرخون دفعة واحدة ويمسحون وجهـــه وذراعيه بحجر القداحة ، ويصرخون بطريقة لا تحتمل ويظلون يغمـــرون هذا الشخص بالدموع والقبلات ويلوثونه بالدم حتى يكاد يختنق ويتوق الى الهرب منهم . وعند عودة الأصدقاء أو عند القيام بزيارتهم لهم على بعد ، فإنهم يقومون بهذه الأفعال نفسها ولكن بغير نظام . ومـــن العسير ألا تنسكب الدموع من عينيك عند رؤية هذا المنظر المحـــزن وعند سماع العويل الصاخب والأصوات المتنافرة التى يطلقونها . وفى هذا كله مبالغة فى اظهار العواطف ، ذلك أنه فى وسع هؤلاء أن يظلوا واقفين أو جالسين على بعد من الشخص الذى يتحتم عليهم أن يبكوا على فراقه ، حتى يتهيأون لهذه اللحظة ويتدبرون أمرها ، التى يندفعون فيها نحوه فى شغف ظاهرى ويمسكون بفريستهم ، (فهذا هو أفضل تعبير عن ذلك) ويعملون على انهاك أنفسهم ونفاد صبره . والشىء الذى يستحق التنويه به فى هذه العملية ، هو أنه بالرغم من مقدرتهم على البكاء فى كل المناسبات ، فانهم يكفون عن البكاء كلية عندما يطلب منهم ذلك ، أو عندما يأخذ منهـــم التعب مبلغه . لقد ســـــبق لى أن

استمتعت ذات مرة برؤية هذا المنظر فى قرية « كايكوهى » التى تبعد عن « وايمانى » بحوالى عشرة أميال . فقد كان قد عاد الى هذه القرية ست من الأصدقاء والأقرباء من زيارة « للتاميس » بعد غيبة ستة شهور . وبينما كان الجميع منصرفين الى البكاء التقليدى ، جففت امرأتان دموعهما فجأة اثر اشارة أشارت بها احدهما للاخرى ، وانتهيتا من ابداء عواطفهما . وقالتا للجمع المحتشد فى سذاجة بالغة : « اننا لم نفرغ من العويل بعد . سنذهب لنضع ــ الطعام فى الفرن ونطهيه ونعد السلال لنضعه فيها ، ثم نعود لنستأنف بكاءنا . فإذا لم نتمكن من العودة بعد حين فسنعود فى المساء لنواصل بكاءنا » . ثم ختمتا عبارتهما المعولة بأن توجهتا للحاضرين وقالتا : « أليس الأمر كذلك ؟ أليس الأمر كذلك ؟ » . وفى أعقاب هذا الحديث معهما حول نفاقهم هذا بخاصة وأنهم يعلمون أنهم لا يكترثون كثيرا ، عدم اكتراثهم بثمن ثمرة البطاطس ، بما اذا كانوا سيرون هؤلاء الذين يبكون من أجلهم . وعند ذاك أجابتا قائلتين : « ها ! إن حب النيوزيلندى كله خارج قلبه ، انه فى عينيه وفى فمه » . وكثيرا ما وقع القائد البحار « ب . ديللون » فريسة لهذه المظاهرات العاطفية الصاخبة . وقد أخبرنا كيف أنه كان يجهد نفسه حتى يستطيع أن يتجاوب معهم بطريقة مناسبة لهم . فقال « إن من عادة النيوزيلانديين أنه اذا اجتمع شمل الأقرباء أو الأصدقاء بعد غيبة طويلة فإنهم يذرفون الدمع ويلصقون أنوفهم بعضها ببعض . وكثيرا ما قمت معهم بهذه الأحتفالات بدافع المجاملة . ولو أننى كنت أهمل أداء هذه الأفعال معهم ، لاتهمت فى صداقتى لهم ، ولنظروا الى نظرة أفضل من نظرتهم للبربرى بقليل ، وذلك لمخالفتى لقواعد آداب النيوزيلنديين . على أن قلبى الجامد لم يكن يستجيب فى كل المناسبات للبكاء ، اذ كان يختلف عن طبيعة قلوبهم . ولكن كان يكفى لاصطناع الحب الحقيقى أن أضع منديلى على عينى لبعض الوقت وأن أعول بطريقتهم . ولم يكن هؤلاء القوم يحاسبون الأوربى الغريب على عدم مشاركتهم هذا الاحتفال ، أما

بالنسبة لى ، فكان يتحتم على آداؤها ، اذ كنت بالنسبة لهم «ثونجاتا مورى » أى مواطن نيوزيلندى كما كان يروق لهم أن يسمونى » • على أننا نقرأ مرة أخرى أن « اظهار هذه العواطف كان يميز المقابلات النيوزيلندية ، بينما كانوا يقومون بوداع أحبتهم دون الاستعانة بهذه المجاملات الظاهرية • فاذا تقابل الرجال والنساء بعد غيبة طويلة فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ويعولون ويذرفون الدمع ، وفى الوقت نفسه يحكون لبعضهم بعضا عن أهم الأحداث التى حدثت لهم منذ غيابهم عن بعضهم البعض • ذلك لأنهم لا يعرفون الحزن الصامت • فاذا حدث لقاء بين أقرباء من الدرجة الأولى بعد غيبة طويلة ، فإنهم يستمرون فى لصق أنوفهم بعضها ببعض وفى العويل مدة نصف ساعة • أما اذا حدث لقاء عرضى بين طرفين فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ثم ينصرفون على التو • وتسمى هذه التحية عندهم « هونجى » ومعناها « الشم » • ومن شأن هذه التحية ، كما هو الحال فى عادة أكل الملح عند الشرقيين ، أن تمحو العداوة بين الأعداء • ولاتتلاقى الشفاه فى أثناء تأدية هذه التحية ، اذ أنهم كانوا يمتنعون عن تقبيل بعضهم البعض » •

واذا تقابل الأقرباء بين السكان الأصليين فى جزر أندمان « بعد غيبة عدة أسابيع أو شهور ، فإنهم يعبرون عن سعادتهم بهذا اللقاء بأن يجلسوا متقابلين وقد التفت أذرعهم حول أعناق أقربائهم ، ثم يبكون ويعولون بطريقة تجعل الشخص الغريب يتصور أن حادثا مؤسفا قد حدث لهم • والواقع أنه ليس هناك أدنى فرق بين فرحهم بلقاء حبيب وحزنهم على فقد عزيز • وفى العادة تبدأ النساء بالعويل ، ثم تصاحبهن الرجال على التو • ويظل ثلاثة أو أربعة منهم يبكون فى نغمة واحدة ، حتى يكفوا عن البكاء عندما يشعرون بالإرهاق » • وعند شعب « مونجيلى تاهيل » الذى يسكن حى « بيلاسبورى » فى الهند ، « لا تختلف عن ذلك تقاليد استقبال الأقرباء الذين كانون متغيبين فترة طويلة ، فجماعة النساء فى كل حالة يجلسن ويبكين بصوت عال • أما

اذا عاد الابن الى بيت والديه بعد غياب عدة شهور ، فإن أول ما يفعله أن يجلس عند قدمى والديه ويلمسها • ثم يأتى اخوته وهو يجلس على هذا النحو ، وكل يأتى بدوره ويضع يديه على كتفيه ويبكى بصوت عال ؛ ثم يحكى له فى نغمة معولة حدثا مما حدث فى أثناء غيابه » •
ويتطلب آداب السلوك عند « الشاوهانيين » الذين يسكنون الأقاليم الوسطى فى الهند ، أن « تبكى النساء اذا تقابلن مع أقرباء لهن جاءوا لزيارتهن من مكان بعيد • فاذا تقابلت امرأتان فى هذه الحالة ، فإنهما تبكيان معا بعد أن تضع كل منهما رأسها على كتف الأخرى ، ويديها الى جانبها ، وبين أثناء البكاء تغير كل منهما وضع رأسها مرتين أو ثلاثا ؛ وتصيح بنوع قرابتها لها إن كانت أما لها أو أخا الى غير ذلك • أما اذا توفى فرد فى العائلة ، فإن النساء يصرخن قائلات « آه يا أمى • أو آه يا أختى • أو آه يا أبى •• لماذا لم أمت أنا الأنسان السيىء الحظ بدلا منك ؟ » فاذا بكت امرأة بمصاحبة رجل فإنها تمسك بجانبيه وتضع رأسها على صدره • أما الرجل فيصيح بها بين الحين والآخر قائلا : « لاتبكى كفاك بكاء » • فاذا كانت امرأتان تبكيان معا ، فإنه من آداب السلوك أن تكف كبراهما عن البكاء أولا ، ثم تطلب بدورها من زميلتها أن تفعل ذلك • فاذا لم يكن يعرف أيهما أكبر سنا ، فإنهما تستمران فى البكاء فى بعض الأحيان مدة ساعة من الزمن حتى يثير بكاؤهما مشاعر المتفرجين الأصغر سنا • وهما تستمران على هذا النحـــو من البكاء حتى يقدم شخص أكبر منهما سنا ، ويطلب من أحديهما أن تكف عـــن البكـــــاء •

ويبدو أن عادة إذراف الدمع بوصفها علامة على الترحيب ، كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن جنوب أمريكا وشـــمالها على حد سواء • فقد كانت تفرض الآداب الاجتماعية على « التوبيين » الذين يسكنون فى البرازيل بالقرب من « ريو جانيرو » ، أنه عنـــد دخول زائر غريب كوخا يتوقع أن يحتفى به ، فإنه يجلس فى أرجوحة مضيفة ، ويمضى بعض الوقت ساكنا متأملا • ثم تأتى النساء ويجلسن

على الأرض حول الأرجوحة ، ثم يخفين وجوههن بأيديهن وينفجرن فى البكاء ، وهن يرحبن به ويطرينه فى الوقت نفسه • وينتظر من الضيف الغريب بدوره ، وسط هذه المظاهرات الصاخبة ، أن يبكى مشاركة لهن ، فاذا لم يستجب له الدمع الحقيقى ، فإن أقل ما يجب عمله من جانبه ، أن يتنهد من أعماق قلبه ، وأن ينظر قدر الأمكان نظرة ملؤها الاسى • فاذا قام الضيف بهذه الشكليات على الوجه الأكمل وفقا لما تفرضه قواعد آدلب « النوبيين » ، فإن مضيفه الذى ظل حتى هذا الوقت متفرجا غير مبال وغير مكترث بما راه ، يقترب من ضيفه ويبادله الحديث • ونتبع قبيلة « نينجوا » فيما بينها ، وهى قبيلة هندية تسكن فى « شاكو » : « شكلا من أشكال الآداب وذلك عندما يتقابلون مع شخص عزيز لديهم طالت غيبته عنهم • فاذا تقابل هندى مع عزيز لديه غاب عنه فترة من الزمن ، فانهما يذرفان قليلا من الدمع قبل أن ينطق أحدهما بكلمة • فاذا تصرفا على غير هذا النحو ، فإن هذا يعد اهانة للضيف أو يعد على الأقل دليلا على أنه غير مرحب به » •

وقد وصف المستكشف الأسبانى « كابيسادى فاكا » فى القرن السادس عشر عادة مشابهة للعادة السابقة كانت تتبعها قبيلتان هنديتان كانتا سكنان جزيرة نائية ، يبدو أنها كانت تقع محل شاطىء تكساس فقال : « هناك فى هذه الجزيرة يسكن شعبان يتحدثان لغات مختلفة ، أحدهما يسمى « الكابوكويون » والآخر « الهاتيون » • ومن عادة هذين الشعبين أنهما اذا تعرف شخصان أحدهما على الآخر ، أو اذا تقابلا مع بعضهما البعض بين الحين والآخر ؛ فانهما يبكيان ما يقرب من نصف ساعة قبل أن يتحدث أحدهما مع الآخر • ثم يهم الشخص المستقبل ويقدم كل ما يمتلك لزائره الذى يتقبل هذه الأشياء ؛ ثم يمكث فترة ويأخذها ويرحل • وقد يحدث أن يبتعد أحدهما عن الآخر بمجرد تقديم الهدية دون أن ينطق أحدهما ببنت شفة » • وقد وصف رجل فرنسى كان يدعو « نيكولا بيروه » ، وكان قد عاش بين الهنود عدة سنوات فى نهاية القرن السابع عشر أنه عندما تزور جماعة « اسيو »

قرية من قرى أصدقائهم « الأثاوا » يجهشون فى البكاء وفقا للعادة المتبعة ، أمام كل من يقابلهم من سكان القرية ، تعبيرا عن ابتهاجهم بلقياهم « وقد كان هذا الرجل الفرنسى نفسه هدفا ، أو بالاحرى فريسة لهذه المظاهرات المحزنة • فعندما أرسله حاكم « نيوفرانس » ليتعامل مع القبائل الهندية التى كانت تعيش فيما وراء نهر المسيسبى ، اتخذ لنفسه مسكنا عند شاطىء هذا النهر ، وهناك استقبل رسلا من « الأيويين » وهم جيران « الشيو » وحلفاؤهم ، وكانت قريتهم تقع على مسيرة عدة أيام جهة الغرب • وقد كان هؤلاء يرغبون فى أقامة علاقة طيبة مع المندوب الفرنسى • وقد وصف مؤرخ فرنسى مقابلة هؤلاء الهنود « لبيروه » المسكين ، فقال : أنهم ظلوا يبكون أمامه حتى جرت دموعهم على أجسامهم •• ثم أخذوا يمسحون رأسه ووجهه وملابسه باللعاب والأوساخ الخارجة من أنوفهم وأفواههم حتى تقزز الرجل الفرنسى من هذه القاذورات وكاد يشعر بالمرض • وقد كان هؤلاء الرسل طوال هذا الوقت يولولون ويصرخون • ولم يجد الرجل الفرنسى مفرا من أن يشهر فى وجوههم السكاكين والمخارز • فما أن وقعت أبصارهم عليها حتى كفوا عن هذه الضوضاء • ولما لم يكن مع هذا الوفد مترجم ، فإنهم لم يتمكنوا من الأفصاح عن رغبتهم ؛ ومن ثم فقد عادوا من حيث أتوا دون أن يحققوا غرضهم • وبعد بضعة أيام جاء الى الرجل أربعة من الهنود كان أحدهم يتكلم بلغة يعرفها الفرنسى • فقال له : إن قريتهم تبعد عن النهر بمقدار سبعة فراسخ ، وأنه جاء يدعوه لزيارتهم ؛ فقبل الفرنسى الدعوة • وعندما أبصرت النساء الرجال الفرنسيين قادمين ، جرين الى الغابات والجبال وهن يمددن أيديهن نحو الشمس • ولكن عشرين من الزعماء قدموا نحوهم وقدموا « لبيروه » غليون السلام ثم حملوه على جلد بقرة حتى أوصلوه الى كوخ الزعيم • وبعد أن وضعوه داخل الكوخ ، أخذوا يبكون هم وزعيمهم على النحو المألوف لديهم ، كما أخذوا يمسحون

رأسه بلعابهم • وإفرازات أنوفهم • وبعد ذلك جففوا أعينهم وأنوفهم وقدموا له غليون السلام مرة أخرى • ثم يضيف المـــــؤرخ الفرنسى قائلا : « اننى لم أر شعبا بين شعوب العالم يبكى بكاء هذا الشعب • فلا يتم مقابلاتهم إلا بالبكاء ؛ كما لا يتم فراقهم إلا بالبكاء » •

الفصل السادس

العهـــد ..
(عنـد الحجـر المنتصب)
عـلى النصـب

بعد أن قام يعقوب بخدمة خاله « لأبان » عدة سنوات ازدادت فى أثنائها ثروته فى الأغنام والماعز بفضل نشاط يعقوب ومهارته ؛ مـل الأخير هذه الخدمة الطويلة وقررأيه على أن يعود بزوجاته وأولاده وكل ما معه الى أرض آبائه . ويحق لنا أن نفترض أن ما دفع يعقوب لأتخاذ هذا القرار ليس مجرد احساسه بالحنين لوطنه . حقا لقد كان يعقوب قد مل هذه الحياة ؛ هذا فضلا على أن نبض شبابه الدافىء ، إن كان قد عرف هذا النبض أصلا ، كان قد كف عن تحريك مزاجـه الواقعى البارد فى جوهره . ومع ذلك فهو لم يتخذ هذه الخطـــوة مدفوعا بحنينه الى مرتع صباه وحبه لوطنه ، وإنما المحتمل أكثر مـن ذلك أنه كان قد أخذ يحسب فى هدوء مكسبه المادى من خدمته لخاله . حقا أنه كان سعيدا بأنه استطاع بفضل اجتهاده ومكره معا فى غضون هذه السنوات أن يحتفظ بثمرة قطعان الماشية فى حظيرته بدلا من أن يحتفظ بها فى حظيرة خاله ، ولكنه كان يرى أنه ما زال قادرا على أن يغنم أكثر من ذلك . ولقد كان قد اعتصر الرجل الكهل كمـــا تعتصر الليمونة ؛ وكان الوقت قد أصبح مناسبا تماما لأن يستخدم موهبته فى مجال آخر يدر عليه مزيدا من المكسب . ولكنه لما رأى بثاقب فكره أن خاله يمكن أن يعترض على رحيله بالجـزء الأكبـر من قطعـــان الماشية ، فقد قرر فى شىء من التريث محاولة تجنب المشاحنات العائلية ؛

بأن يهرب فى أثناء الليل فى ضوء القمر . ولكى يقوم يعقوب بتنفيذ هذه الخطة ، كان يتحتم عليه أن يطلع زوجاته على هذا السر ولكنه يبدو أنه شك فى طريقة استقبالهن لهذا النبأ ، ولهذا فقد فاتحهن فى هذا الموضوع فى شىء من الرفق . فبدأ حديثه معهن بنغمة متملقة وأخبرهن بتغير سلوك أبيهن معه . ثم حكى لهن بعد ذلك فى روع زائف كيف أن الرب ناصره فحول قطيع أبيهن من عنده اليه . ولكى يخلع على المؤامرة مزيدا من الحبكة ، أخبرهن فى نهاية الأمر ، والوميض يسطع فى عينيه ، فيما يبدو ، كيف أنه رأى رؤيا فى الليلة الماضية ظهر له فيها ملاك الرب وطلب منه أن يرحل الى وطنه . ولم يجد يعقوب ضرورة بعد ذلك لأن يحوم حول هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لأن زوجاته أبدين الأستعداد للموافقة على خطته ، وأعلن فى صراحة يمازجها الريب — بأنهن يضعن أنفسهن فى خدمته . بل إنهن رفعن أصواتهن بالشكوى اليه من أن أباهن المبذر قد ضيع الثروة التى كان قد قبضها ثمنا لزواجهن ، ولم يعد لديه ما يمكن أن يعطيه أو يورثه لهن . ومن ثم فقد أبدين الاستعداد للتنكر لأبيهن ومرافقة زوجهن الى البلاد الغربية النائية التى تقع فيما وراء النهر الكبير . ولكنهن قبل أن يجهزن أمتعتهن استعدادا للرحيل تذكرت « راحيل » الذكية ، لحسن الحظ ، أن أباها على الرغم من أنه لم يعد يملك أى شىء ، الا أنه مازال يحتفظ بالآلهة المنزلية التى ربما استاءت لهذا التدبير المدبر ضد صاحبها ، فتحاول أن تدرأ عنه ما يلحق به أذى وأن تعاقبهم جزاء إثمهم . ومن ثم فقد احتالت لسرقة هذه الآلهة وأخفتها بين أمتعتها دون أن تخبر زوجها بذلك ، اذ كانت تخشى أنه ربما وقع تحت وطأة وخز ضميره ، فيرد الآلهة المسروقة الى صاحبها .

وعلى هذا النحو كانت الأسرة على استعداد للرحيل ، وانتظرت اللحظة الحاسمة التى تتمكن فيها من الرحيل خلسة دون أن يقع عليها بصر أحد . وقد حانت هذه اللحظة عندما رحل « لابان » ليقضى بضعة أيام فى عيد جز الأغنام . عند ذاك همت القافلة بالرحيل ، أما النساء

والأطفال فقد ركبوا الإبل وقد سارت من قدامهم ومن خلفهم قطعان الماشية التى ملأت الجو بثغائها • وقد كان سير القافلة بطيئا بالضرورة ، اذ لم يكن يتسنى للأغنام والماعز أن تسير سيرا حثيثا ، ولكنها كانت قد استمرت فى سيرها طيلة يومين ، عندما علم « لابان » فى اليـــوم الثالث برحيلهم ، فخف مع أخويه ليلحق بهم • وبعد مسيرة شــاقة دامت سبعة أيام تقابلوا مع طابور طويل من الهاربين يسير سيرا متثاقلا بين غابات جبل جلعاد الجميلة • وربما كان الهاربون قد وصــلوا الى مكان فسيح فى الغابة ، حيث أخذت الأغنام ترعى فى المروج المخضراء ، وربما كانوا قد وصلوا الى وهدة عميقة حيث كانت الإبل ترعى فى أجمة قصب ، أو حيث كان قطيع المواشى يشق طريقه فى مياهها • وعلى كل فقد نشب الشجار بين الطرفين عند ذاك • وبدأ لابان حملته على يعقوب بتأنيبه بصوت جهورى على سرقة آلهته وسلب بناته كما لو كن أسرى حرب • ولم يكن يعقوب يعلم شيئا عن سرقة الآلهة ، فرد عن نفســه هذه التهمة فى حرارة بالغة ، وقال له أنه ليس بلص أو مدبر لسرقـــة أشياء تعد ملكا له شخصيا وعليه أن يقوم بتفتيش أمتعتهم ، فإن هو عثر على الآلهة فى أمتعة أحدهم فله الحق عندئذ أن يقتل الســارق • وعند ذاك قام « لابان » بتفتيش الخيام خيمة بعد الأخرى فى دقة ، ولكنه لم يجد أثرا للآلهة ، لأن راحيل الذكية كانت قد أخفت التماثيل فى محفة الجمل وجلست فوقها وهى تضحك فى أكمامها ، بينما كــان والدها ينقب بدقة فى خيمتها •

وقد كان فشل لابان فى العثور على الآلهـــة المسروقة دافعا لأن يسترد يعقوب ثقته فى نفسه تماما • اذ من المحتمل أنه كان قد شعر فى بداية الأمر بالخزى فى مواجهة خاله الذى خدعه وتركه فى موقف حرج للغاية • أما الآن فقد بدأ يشعر أنه كسب موقفا أخلاقيا ساميا ، ومن ثم فقد انقلب على خصمه الخجل ، فى حذق بالغ وانهال عليه يكشف له حقارته الأخلاقية • فرد عن نفسه التهمة الى دبرها له بسرقـــة الآلهة ، و صرح له بأن زوجاته وقطعانه حق له بعد أن قام بخدمتـــه

متفانيا طيلة سنين عديدة • ثم أسهب فى نغمة مثيرة للشفقة ، فى شرح الصعاب التى تحملها فى خدمة قطعان ماشيته ، وروح الشرف التى كان يباشر بها عمله • ثم ختم خطبته الملتهبة بتهديد خاله بانه لو لم يكن يتلقى الرب المعين له ، لجعل خاله خادما مخلصا له ، وجعله يعيش بلا سترة على ظهره أو مليم فى جيبه • ولم يكن للخال أية وسيلة للمعارضة أمام هذه الفصاحة البالغة ، بل أنه بدأ يشعر بأنه لم يبلغ باع زوج بناته فى الفصاحة والقدرة على الخداع • ولا بد للانسان ، لكى يقف منه موقف المناوىء ، أن يكون متزودا بأسلحته • ومن ثم فقد اكتفى « لابان » بأن رد عليه فى حزن بأن بناته وأطفالهن وقطعان ما شيته قد أصبحوا ملكا له ، أى أن كل ما غنمه يعقوب انما كان ملكا لخاله « لابان » • وقد كانت هذه الإجابة أكبر من محاولة الرد بالحجج اللبقة ، بل انها قد تجاوزت حدود إمكان الدفاع عن النفس الرهين بتلك الظروف • ولكن كلا من الطرفين لم يكن مستعدا للدخول فى معركة • ومن ثم فقد اتفقا على أن يرحلا فى سلام من قبل أن يصلا الى حد إشهار السيوف فى وجه بعضهما البعض ، فاستأنف يعقوب رحلته بغنيمته الكبيرة وعاد لابان خاوى الوفاض الى أهله • ولكنهما قبل أن يفترقا ، نصبا حجرا كبيرا على نحو ما ينصب العمود ، وجمعا فوقه ركاما من الأحجار الأقل حجما ، وأكلا الخبز معا وهما جالسان أو واقفان فوق هذا الركام • ومن شأن هذا الركام أن يشير الى الحدود التى لاينبغى أن يتعداها كل منهما بهدف ايذاء الطرف الآخر • وفضلا على ذلك فإن هذا الركام كان بمثابة شاهد عليهما عندما يرحل كل منهما فى طريقه • ولهذا فإن العبريين والسريانيين يطلقون عليه اسم « نصب الشهادة » • وفى نهاية الاتفاق قام الطرفان بذبح الضحية وتناول وجبة عادية ، ثم عاد كل الى خيمته وقد انتهيا الى الصلح ، وإن كان صلحا زائفا • وقد كان يعقوب بدون شك سعيدا بكفاءته السياسية • أما « لابان » فلم يكن راضيا بطبيعة الحال بما حدث • وإنما ظل ساكنا متظاهرا بالرضاء على كل حال • وفى الصباح

الباكر ، استيقظ « لابان » وقبل أحفاده وبناته وتمنى لهم التوفيق وعاد الى أدراجه • أما يعقوب فقد استأنف رحلته الى بلاده •

إن السياق العام للحكاية السابقة ينحو الى أن يبين أن النصب الذى أقامه لابان ويعقوب فى المكان الذى افترقا عنده ، لم يكن نصبا يشهد بصداقتها ومحبتهما وإنما كان شهادة على شكهما وعدم ثقتهما فى بعضهما البعض • ومن ثم فقد استخدما ركام الأحجار ليكون ضمانا ماديا على رعايتهما لمعاهدة السلام التى عقداها فيما بينهما • أى أن هذا النصب كان بمثابة إجراء أو وثيقة فى هيئة حجر وضع عليه الطرفان المتعاهدان أيديهما ، حتى اذا نقض أحدهما العهد ، عوقب الخائن • فالنصب الحجرى لم يكن ينظر اليه بوصفه مجرد كومة من الأحجار . بل بوصفه شخصا أو روحا قويا أو إلها ينظر بعين اليقظة الى الطرفين المتعاهدين ويذكرهما بعدهما • ويتضح هذا من خلال الكلمات التى وجهها « لابان » الى يعقوب عند إتمام شعائر العهد فيما بينهما ، فلقد قال له : « ليراقب الرب بينى وبينك حينما يتوارى بعضنا عن بعض ، أنك لا تذل بناتى ولا تأخذ نساء على بناتى • ليس انسان معنا ، أنظر ، الله شاهد بينى وبينك (١) » • ومن ثم فقد سمى هذا الركام باسم « برج المراقبة » (المصفاة بالعبرية) ، كما سمى « صخرة الشهادة » ، لأنه كان يقوم مقام الرقيب والشاهد معا •

وينتمى الحجر المنتصب وركام الأحجار اللذان حكت عنهما هذه الأسطورة المثيرة بدون شك ، إلى طبقة الآثار الحجرية الطبيعية التى لاتزال ترى بكثرة فى المنطقة التى تقع فيما وراء نهر الأردن بما فى ذلك جبل جلعاد حيث كان الفراق بين يعقوب ولابان كما تحكى القصة • وقد أشار « كانون تريسترام » الراحل ، الى هذا الموضوع وذلك فى أثناء

---

(١) سفر التكوين ٤٩ : ٥٠ •

حديثه عن بلاد موآب فقال : « إن جزءا من طريقنا كان يقع إلى جانب وادى « عتابيا » الذى يتجه جنوبا الى « المزرفاء » وهو واد صغير ينحدر انحدارا سريعا . وهناك فى هذا المكان صادفنا لأول مرة . عند منحدر صخرى مرتفع ، ضريحا يتكون من أربعة أحجار خشنه عارية؛ ثلاثة منها موضوعة على حافة المنحدر مكونة ثلاثة جوانب من شكل مربع ، أما الحجر الرابع فيقع فوقها كما لو كان غطاء لها . ويبلغ طول كل حجر حوالى ثمانية أقدام . وعندما اتجهنا شمالا ، وقعت أبصارنا مرارا على هذه الأضرحة ، بحيث أننا كنا نصادف ما يفوق العشرين منها فى تجوال واحد . ولكنها مشيدة على نحو واحد . وتقع هذه الأضرحة بدون استثناء على جوانب التلال الصخرية ، ولا يقع على قمتها على الاطلاق . فالأحجار الثلاثة الكبيرة الموضوعة على حافة المنحدر ، يقع كل منها جهة الزاوية اليمنى للحجر الآخر ، وهى جميعا تكون دعامة للحجر الصلب الذى يغطيها والذى كان يبلغ طوله من ستة الى عشرة أقدام . وهذه الأضرحة تعد أمكنة يستريح عندها العرب الرعاه الذين طالما أبصرناهم مستقلين فوقها يراقبون قطيعهم . ويبدو أن هذه الأضرحة لا توجد الا فى الأقاليم الذى يقع بين « زاره » (1) « كاليرهوى » و « حشبون » ، اذ أنها لاتوجد على الاطلاق فى الأقاليم المشابهة لهذا الأقليم الذى يقع جنوبا فى هذه المنطقة . على أننى سبق أن رأيت هذه الأضرحة فى أثناء زيارتى لفلسطين . وكان الكثير منها يقع فى الجهات الجرداء من جبل جلعاد فيها بين جبل « أوشع » و « الجرش » . ومن العسير علينا أن ندرك سبب تشييد هذه الأضرحة على جوانب التلال . والشىء الذى يلفت النظر فضلا على ذلك ، هو أننى لم أصادف ضريحا يتكون من أربعة

---

(1) « زاره » هو الاسم الحالى لكاليرهوى . انظر :

P. Abel, Géographie de la Palestine, Paris-Lecoffre Gabada, 1938, Etudes Bibliques, tome I, p. 87.

أحجار سفيلة . فاذا وقع بصرنا على ضريح متهدم ، فإن عدد أحجاره عندئذ يتكون من أربعة أحجار لا أكثر ولا أقل . ونظرا لضحالة التربة ، لم يكن من اليسير اقامة هذه الأضرحة تحت الأرض . وعلى الرغم من أننى لم أجد أثرا لهذه الأضرحة أو أية أضرحة من نوع آخر فى الأماكن المجاورة ، فأنه من المحتمل أن السكان الأولين كانوا قد شيدوها فى أماكن أخرى ، ثم نقلتها الأجناس التى جاءت من بعدهم حتى تستغل الأرض فى الزراعة ، فى حين أنهم لم يمسوا تلك الأضرحة التى كانت تقع على جوانب التلال الجرداء التى لم تكن تصلح للزراعة على الاطلاق . وهناك شىء آخر يجدر بنا أن نذكره ، هو أن الطبقات الثلاث من النصب الأولية التى عثر عليها فى موآب ، أعنى الحجر الدائرى والأضرحة وركام الأحجار ، توجد فى أعداد كبيرة فى ثلاثة أمكنة مختلفة فى هذا البلد ، ولكنها لا توجد مختلطة على الاطلاق . فركام الأحجار توجد جهة الشرق فى الطريق الذى يؤدى الى سلسلة الجبال العربية ، والأحجار المستديرة توجد فى جنوب « كاليرهوى » ، وأما الأضرحة فتقع فى شمال هذا الوادى . وربما أشارت هذه الظاهرة الى وجود ثلاث قبائل متجاورة كانت تعيش فى هذه الأمكنة فيما قبل التاريخ ، وكان لكل منها احتفالاتها وطقوسها الدينية الخاصة بها . أما العرب المحدثين . فمن الطبيعى أن يربطوا بين هذه الأضرحة وبين الجن » .

لقد سبق أن رأينا أنه عندما وضع « لابان » و « يعقوب » ركام الأحجار فوق الحجر المنتصب ، جلسا (١) فوق هذه الأحجار وأخذا

(١) تترجم الرواية المنقحة هذه العبارة التى ترد فى سفر التكوين الاصحاح الواحد والثلاثين صفحة ٤٦ على النحو التالى : « ثم تناولا طعامهما بجانب هذا الركام » . بينما تقول الرواية الأخرى المعتمدة « ثم تناولا طعامهما فوق هذا الركام » . على أن العبارة المقابلة لهذه العبارة التى ترد فى النص ترجح صحة الرواية المعتمدة على الرواية الأخرى. اذ من المؤكد أن المعنى الأولى للظرف « عند » يعنى « فوق » وليس هناك داع اذن لان

يتناولان الطعام . ومن المحتمل أن تناول الطعام فوق الأحجار يقصد به التصديق على العهد . وربما استطعنا أن نستوضح السبب فى الاعتقاد فى أن تناول الطعام على الأحجار يعد تصديقا على العهد من خلال عادة نرويجية وصفها المؤرخ الدانماركى القديم « ساكسوجراماتيكوس » فقال : « عندما كانت الشعوب فى الزمن القديم تنصب ملكا عليهم ؛ كانوا يقفون على أحجار صلابة الحجر » . فربما كانت الشعوب تعتقد أن صلابة الحجر تمر الى الشخص الذى يقف عليه وبذلك تؤكد قسمه . فنحن نقرأ عن شخص أسطورى بعينه يدعى « راجاه الجاوى » كان يحمل لقب « راجاه سيلا بيرواتا » وهو يساوى لقب « واتو جوننج » وقد خلع عليه هذا اللقب لأنه وقف ثابتا على الجبل كالحجر فاكتسب منه قوته وشجاعته بدون عون أو مساعدة » . وفى الهند عندما يحتفل براهمانى بزواجه ؛ يجعل الزوج زوجته تدور حول النار ثلاث مرات ، وفى كل مرة يجعلها تطأ بقدمها اليمنى على حجر الرص وهو يصيح بها : « لتطىء بقدمك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته . ولتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك وهذه الشعيرة القديمة التى وضعتها كتب الشعائر الآرية فى الهند الشمالية ؛ تبناها الناس فى الهند الجنوبية خارج نطاق الطبقة البراهمانية .فالزوجان فى هذه المنطقة « يدوران حول النار المقدسة ثم يرفع الزوج بيديه قدم زوجته اليمنى ويضعها على حجر الرحى ؛ ويكرر فعل هذا سبع مرات . وتعرف هذه الشعيرة باسم « سابتا بادى » (أى سبعة أقدام) ، وهى تعد أهم شعائر الزواج وأكثرها تأكيدا للرباط الزوجى . ذلك أن الزوجة تحض على أن تكون صلبة على الدوام صلابة الحجر الذى تضع عليه قدمها » . ويحدث مثل هذا فى الاحتفال

نتجاوز هذا المعنى فى هذا المجال » . (المؤلف) ويؤكد رأى المؤلف عبارة العهد القديم التى تقول « وقال يعقوب لاخوته التقطوا حجارة فاخذوا حجارة وعملوا رجمة واكلوا هناك على الرجمة » . (سفر التكوين الاصحاح الحادى والثلاثون آية ٤٦) .

(المترجمة)

بدخول الغلمان فى مجتمع الرجال عند البراهمانيين • اذا أنهم يجعلون الغلام يطأ بقدمه اليمنى على حجر بينما يرددون العبارة الآتيـــة : « لتطأ بقدمك هذا الحجر ، ولتكن صلبا مثل صلابته • لتحطم هؤلاء الذين يبحثون لك عن أذى ولتنتصر على أعدائك » • وعند الاحتفال بالزواج عند الكوكيين الذين يسكنون شمال « كاشار » • « يضع كل من الزوجين قدما على حجر كبير موضوع وسط القرية • ثم يأتـــى الزعيم (جاليم) ويرشهما بالماء وينطق بعبادة توجه النصائح العامة للزوجين وتحضهما على الإخلاص • ثم يتاركهما ويتمنى لهما الذرية الكثيرة » • ويعتقد سكان مدغشقر أنه من الممكن للشخص أن يتحصن ضد البركة الأرضية المتقلبة ، بأن يدفن حجرا تحت مكان رئيسى فى بيته أو تحت عتبة بابه •

ويمكننا أن نفسر بناء على هذا الأساس ، عادة القسم على حجر فى الوقت الذى يضع فيه الشخص فوقه قدما أو قدميه معا • والغرض من هذا فيما يبدو ، هو أن خواص الحجر التى تتمثل فى صـــلابته وتحمله ؛ تنتقل على نحو ما الى حالف اليمين ، وبذلك يتأكد الناس من عدم حنثه بيمينه • فقد كان هناك فى أثينا حجر وقف عليه الرؤســاء التسعة عندما أقسموا أن يحكموا بالعدل وفقا للقوانين • كما يقع على بعـــد ضريح القديس كولومبا فى « ايونا » حجر أســود • ولايرجع هذا الحجر بالسواد الى لونه ، اذ أن لونه رمادى فى الحقيقـــة • ولكنه وصف بهذا اللون نظرا لتأثيره على من يحنث بيمينه ؛ وذلك اذا ما اتهم شخص بالخيانة بعد أن يكون قد وقف عليه وأقســم اليمـين بالطريقة المألوفة ، فالأيمان التى تقسم عليه تكون قاطعة مهما تكـــن الخلافات بين المتعاهدين •

وقد سلم « ماك ــ دونالد « ملك الايسليين ، أتباعه ، حقوقهم فى أراضيهم التى تقع فى الجزر والقارة ، وذلك بأن رفع يديه وركـــع على الأحجار السوداء • ثم أقسم أمام كثير من الشهود وهو على هذا

النحو ، أنه لن يعود فيطالب بهذه الحقوق التى منحها لم • وقـــد كان هذا الإجراء بديلا عن امضائه على صك حقوقهم • ومعنى هذا انه اذا كان الشخص واثقا مما قد عزم عليه ، فإنه يقـــول بطريقـــة ايجابية : ان لدى الخيار فى أن أقسم على هذا الموضوع على الأحجار السوداء • وقد كان هناك فى جزيرة « فلادا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهيبريد ، حجر أزرق مستدير كان الناس يحلفون عليه أصـــدق الايمان • وقد كان من المألوف أن يوضع حجر داخل حائط ملتصـــق بأبريشة « ليرج » التى تقع فى «سوذر لاندر شاير » ، وكان يسمى حجر العهد • « وقد ذاعت شهرة هذا الحجر بوصفه وســـيلة ، بل مقدسة ، لعقد الصفقات وضمان الوفاء بالوعد وتوثيق العهود • فإذا أمسكت الأطراف المتفقة على أمر من الأمور بأيدى بعضها البعض فوق هذا الحجر ، فانهميكونون بذلك قد الزموا أنفسهم بعهد صارم لا تنتهك حرمتـــه »

وشبيه بهذه العادات تتبعها أجناس بدائيـــة تعيش فى افريقيـــا والهند • فاذا اختلف شخصان من « البوجيين » الذين يسكنون افريقيا الشرقية عند حدود الحبشة ، فانهما فى بعض الأحيان يفضان نزاعهما عند حجر بعينه يقف فوقه أحدهما ثم يدعو عليه الشخص الآخر بأن تحل به أقسى اللعنات إذا هو حنث بيمينه • وكلما نطق بلعنة رد عليه رفيقة الذى يقف على الحجر بقوله « آمين » • ويقسم « الأكامبيون » الذين يسكنون فى افريقيا الشرقية البريطانية أغلظ الايمان عند شىء يطلقون عليه أسم « كيثيتو » • وهم يعتقدون أن هذا الشىء تتملـــكه قوى سحرية تقتل الحانث باليمين • وأمام هذا الشىء توجد سبعة أحجار يقف عليها حالف اليمين بحيث يضع كعبيه على حجرين منها • وفى « نايمو » احدى قرى « البانجهوليين » فى أســـام ، توجد كومة من الأحجار الغريبة فى شكلها يقف عليها النـــاس ليقسموا أميانهـــم المقدسة • وفى « جوشيجونج » التى تقع فى تلال « جارو » فى أسام يوجد كذلك حجر يقسم عليه الناس أكثر أيمانهم قدسية • فاذا قـــدم

أحدهم ليقسم اليمين ، فانه يصافح الحجر أول الأمر ، ثم يصيح بالاله ، « ماهاديفا » ، ويداه مرفوعتان ومتشابكتان ، وعيناه مثبتتان على التلال ، لكى يشهد على صدق يمنيه . وبعد ذلك يلمس الحجر والفزع يشيع فى وجهه ، ويحنى رأسه له ويصيح مرة أخرى بالاله ماهاديفا . وعندما يفصح عن رغبته بعد ذلك يحملق فى التلال ويضع يده اليمنى على الحجر . ويقسم « الجارويون » كذلك وهم واقفون على الأحجار الشهابية ويقولون « ليقتلنى الاله » « جويرا » (اله الاضاءة) بأحد هذه الأحجار اذا كنت أقول كذبا » . ونلاحظ أن وظيفة الحجر فى هذه الحالة جزائية أكثر من كونها تأكيد العهد . فالحجر موضوع فى هذا المكان لا لكى يكسب القسم صلابة الحجر بل ليطلب انتقام الله الاضاءة من الحانث باليمين . وربما كان هذا هو الهدف نفسه من القسم « الساموآنى » . ويتلخص هذا القسم فى أنه حينما كان اللصوص يقسمون على براءتهم فى حضرة الزعماء ، فانهم « كانوا يضعون حفنة من الأعشاب على الحجر أو على أى شى اخر يعتقد فى أنه يمثل اله القرية ثم يقول كل منهم وهو واضع يده على الحجر : « اننى أضع يدى على الحجر فى حضرة زعمائنا المجتمعين ، فاذا كنت قد سرقت الشىء المعنى فلأمت فى الحال » .

فالحجر فى هذه الحالة الأخيرة ، وربما فى بعض الحالات الأخرى ، كان ينظر اليه على أنه ممتلك لروح الهى يمكنه من أن يسمع القسم وأن يحكم على صدقه وأن يعاقب الحانث باليمين . فالأيمان التى كان يقسم بها على الأحجار التى كان لينظر اليها على أنها آلهة على وجه التأكيد ، كانت كما هو واضح ذات طابع دينى ، حيث أنها كانت تتضمن نداء الى القوى الخارقة للعادة أن تحل غضبها بالآثم . على أن الحجر فى بعض الأمثلة الأخرى السابقة ، كان يظن فيما يبدو ، أنه يؤثر تأثيرا مباشرا من خلال خواصه الطبيعية التى يتميز بها وهى الثقل والصلابة وخاصية القصور الذاتى . وبناء على ذلك فان القسم فى هذه الحالات ، أو فى أية احتفالات أخرى ، به طابع سحرى صرف . فالرجل يكتسب

خواص لحجر القيمة ، تماما كما يكتسب شحنة كهربائية من بطارية • أى أن الشخص يصاب بالصاعقة فى الحالة الأولى ويكتسب شحنة من الكهرباء فى الحالة الثانية ، اذا أمكننا أن نستخدم هذا التعبير • على على أنه ليس من الضرورى أن يكون كلا من المغزى الدينى والسحرى للحجر متميزين على هذا النحو فى أذهان المقسمين ، ذلك أن الغموض والاختلاط يعدان من مميزات الفكر البدائى • وربما كان من واجبنا على الدوام أن نحلل هذا الخلط الغريب الى عناصره •

ويبدو أن هذين الضربين المختلفين من التفكير ، أعنى التفكير السحرى والتفكير الدينى قد تداخلا فى حكاية العهد الذى تم بين يعقوب ولابان عند ركام الأحجار كما تروى فى الكتاب المقدس • فمن الوضح أن الطرفين المتعاهدين من ناحية ، قد خلعا صفتى الحياة والادراك على الأحجار وعندما نادا عليها فى خشوع أن تشهد على اتفاقهم ، تماما كما سأل يوشع الحجر الكبير الذى كان يقع تحت شجرة البلوط لكى يكون شاهدا على العهد الذى تم بين الرب التى تحدث بها الى بنى اسرائيل • [1] فركام الأحجار أو الحجر الكبير الذى كان يوضع منتصبا وسطها ، كان أشبه بتمثال « يانوس » [2] الذى كان له رأسان ينظر بهما فى اتجاهين لكى ينظر بعيون يقظة الى كل من الطرفين المتعاهدين • ومن ناحية أخرى فربما كان أفضل تفسير لتناول الطعام

---

(١) من الأفضل أن نشير هنا الى نص التوراة وهو : « وكتب يوشع هذا الكلام فى سفر شريعة الله . وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التى عند مقدس الرب . ثم قال يشوع لجميع الشعب : ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » .
(سفر يوشع . الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٦ ، ٢٧) .
(المترجمة)

(٢) اله الأبواب والبدايات عند الرومان .
(المترجمة)

على ركام الأحجار . ان كان يمكن لهذا التفسير أن يكون سليما ، هو أنه محاولة لاقامة علاقة ودية بين الطرفين المتعاهدين بتناولهما طعاما واحدا فى الوقت الذى يدعم فيه عهدهما عندما يكتسب من الأحجار التى جلسا عليها ، صفتى القوة والصلابة .

واذا كان القارىء الذى ينحو تفكيره الى الشك ، ما زال يتشكك فيما اذا كانت الأرض التى يقف عليها الشخص يمكن أن تؤثر فى قيمة القسم الأخلاقية ، فاننى أذكره بعبارة « بروكوبيوس » التى يمكن أن تزيل شكه . فقد أخبرنا هذا المؤرخ المدقق عن طريقة استطاع بها ملك فارسى أن يستخلص الحقيقة من شاهد ثائر ضده وكان يميل . بل يسعى دائما ، لأن يحنث بايمانه . فعندما اعتلى « باكوريوس » عرش بلاد الفرس ساوره الشك فى أن « أرساكيس » ملك أرمينيا التابع له ، قد دبر ثورة ضده . فأرسل فى طلبه وواجهه بخيانته له . فرد ملك أرمينيا عن نفسه هذه التهمة بمهارة . وأقسم بكل الالهة بأن مثل هذا التدبير لم يطرأ على ذهنه قط . وعند ذلك دبر ملك الفرس خدعة أرشده اليها سحرته ، يتمكن بها من فضح الخائن ، فأمر بأن يفرش بلاطه الملكى بروث الحيوان ، بحيث يفرش نصفه بروث فارسى ، والنصف الآخر بروث أرمينى ، ثم سار مع مواليه على هذه الأرض وهو يؤنبه على نواياه المخادعة . وهنا بدأ التناقض الغريب فى دفاع الملك الأرمينى عن نفسه ، اذ أنه كان كلما وطئت قدماه على الجزء المفروش بالروث الفارسى ، أقسم بأغلظ الأيمان بأنه أخلص خادم للملك الفارسى . ولكنه ما أن ينتقل الى الجزء المفروش بالروث الأرمينى حتى تتغير نغمة حديثه ، واذ به ينهال على مولاه ويهدده بالانتقام من اهانته له ، ويعدد له ما يمكن أن يفعله ضده اذا ما استرد حريته . فاذا عاد وداس بقدمه جزء الأرض المفروش بالروث الفارسى عاد الى تذلله وتضرعه ، واستخدم كل أساليب التذلل فى طلب العفو من مولاه . وبهذا نجحت الخدعة وافتضح الخائن . ولكنه لما كان

يجرى فى عروق هذه الخائن الدم الملكى حيث أنه كن « أرساكيدى » فان ملك فارس لم يأمر بقتله ، وانما عاقبه كما يعاقب الأمراء المذنبين ، فحبس طيلة حياته فى سجن يسمى « قلعة النسيان » • وسبب هـذه التسمية هو أن السجين اذا اجتاز مدخله الكئيب وأغلق الباب دونه ، فلا ينبغى لأحد أن يذكر اسمه والا أعدم • وفى هذا السجن كان يدخل الخائنون ويظلون به حتى تفسد أجسامهم ، وفى هـذا السجن قضى ملك أرمينيا الحانث باليمين بقية أيام حياته •

ويبدو أن عادة تشييد ركام الأحجار بوصفها شاهدا على العهـد لم تنقرض فى سوريا حتى اليوم • فمن أشهر الأضرحة التى توجـد هناك ضريح هارون الذى يقع على جبل هور (١) • ويزور الحجاج هـذا القبر ويتضرعون للنبى هرون أن يشفى مرضاهم ، ثم يجمعون الأحجار ويشيدونها فى شكل قبوة لتكون شاهدا على الأيمان التى يقسمونها على لسـان مرضاهم •

---

(١) اسمه الحالى : جبل عكار —
P. Abel, op. cit., I, p. 302.

الفصل السابع

يعقوب عنــد مخاضة نهر اليبــوق

بعد أن افترق « يعقوب » عن « لابان » عند ركام الأحجار ، سار فى طريقه فى رفقة زوجاته وأبنائه وقطعان ما شيته ، متجها الى الجنوب، تاركا وراءه جبال جلعاد الشاهقة الباردة التى تكسوها الغابات ؛ وشق طريقه فى ربوع وادى يبوق العميق الذى يقع على بعد آلاف الأقــدام أسفل الجبل . والهبوط الى هذا الوادى من فوق قمم الجبال يستغرق عدة ساعات . فاذا وصل المسافر الى اسفل تلك الوهدة العميقة بعــد هذه الرحلة الشاقة ، فانه يشعر أنه قد مر فى أجواء طبيعية مختلفــة ، فمن الجبال العالية التى يهب فيها النســيم البــارد وتغطيهــا غابات الصنوبر يهبط الى قرية « برمة » ذات الجو الصحى المنعش خــلال مسافة ساعة من الزمن . حيث تنتشر أشجار الفاكهــة والشجــيرات والأزهار . وحيث يطفىء المسافر ظمأه من المياه الباردة التى تتدفق من نبع جميل عندما يخلد للراحة فى الظهيرة . فاذا استمر فى الهبوط فانه يسير منحدرا الى مسافة ألفى قدم حيث يشعر بأنه يتنسم الهواء الحار وسط مزروعات غنية شبه استوائية تنتشر فى أعماق وادى نهــر يبوق الكبير . وهذا الأخدود موحش ورائع كل الروعة ، وعلى جانبيه ترتفع الصخور فى شكل عمودى على وجه التقريب الى ارتفاع شاهق . فاذا نظرت الى أعلى من خلال الصخور الناتئة أو المنحدرات ، فــان بصرك يصطدم بزرقة السماء . أما عنــد أسفل هذا الأخــدود العتى ، فيتدفق نهر اليبوق بتياره القوى . وتختفى مياهه الزرقاء ، وإن يكن

لمسافة قصيرة . وسط غابة كثيفة من أشجار الدفلى الطويلة التى تخفى أزهارها القرمزية لونا ذهبيا على لوهدة فى الصيف البكر • ويجرى النهر الازرق . كما اصطلح على تسميته اليوم . فى سرعة وقوة . اذ قد يصل ارتفاع مياهه . حتى فى الأيام العادية الى سرج الفرس . بـل انه فى بعض الأحيان يتعذر الخوض فى مجراه حيث تفيض مياهه على الأعشاب والأحراش التى تنمو على شاطئيه المـرتفعين • وطـريق الصعود من مخاضة النهر عند الجهـة المقـابلة له . أى فى الجـانب الجنوبى . منحدر للغاية . ذلك أن الطريق يلتف فى أثنـاء صعـوده . بحيث يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه • وفى هذا الطريق الصاعد الطويل كان يعقوب يسير وحده متلكئا الى جانب المخاضة وقت الغسق . وهو يرقب البعير المتعب ويسمع صياح الرعاة وقد أخـذت أصواتهم تخفت فوقه شيئا فشيئا . حتى اختفى مرآهم كما اختفـت أصواتهم على البعد وفى الظلام •

وربما ساعدنا هذا المنظر على تصور المغامرة الغريبة التى خاضها يعقوب عند عبوره النهر • وكـان قد أرسل قـدامه زوجاتـه وأولاده وخادماته ليخوضوا النهر على ظهور الجمال • أما قطعان ما شيتـه ورعاتها فقد سبقت القافلة أو لحقت بها • وبذلك بقى يعقوب وحده فى مخاضة النهر • ولقد كان الوقت ليلا . وكانت ليلة من ليالى الصـيف يسطع فيها القمر فيما يبدو . اذ لم يكن من المعقول أن يحاول يعقوب عبور النهر بهذه القافلة الطويلة فى الظلام ، أو فى الشتاء ، عندما يكون مجرى النهر سريعا وعميقا • ومهما يكن الأمر فقد بدا ليعقوب رجلا أخذ يناضل مع يعقوب طوال الليل حتى بزغ الصباح وأخذ ضـوؤه يتسرب الى ذروة الغابات التى تنتشر فى أعلى جوانب الوادى فـوق الرجلين المتصارعين فى ظلا الوادى • ثم نظر هذا الشخص الغـريب الى أعلى وأبصر الضوء فقال ليعقوب :«أطلقنى لأنه قد طلع الفجر»(١)•

---

(١) سفر التكوين . الاصحاح الثانى والثلاثون آية ٢٦ .

وعلى هذا النحو كذلك انتزع جوبينر نفسه من بين الأذرع « الخمينا » المغرمة به قبل تروغ الغســق ، كما اختفى شبح والد « هملت » عند صياح الديكة . وكذلك حذر مفيستوفيليس فاوست وهــو فى ســجنه وضربات المشنقة ترن فى أذنه ، أن يسرع لأن النهار ، وهو اخر نهــار فى حياة « جريتشى » قد أوشك عى البزوع . ولكن يعقوب تعلق بالرجال الغريب وقال له : « لا أطلقك ان لم تباركنى » (١) وعند ذاك سأله الرجل الغريب عن اسمه ، وعندما ذكر يعقوب اسمه أجابه هذا الشخص قائلا : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهــدت مع الله والناس وقدرت » (٢) . ولكن عنــدما استفسر يعقوب عنه قائــلا : « أخبرنى باسمك » (٣) . رفض هذا الرجل أن يذكر اسمه ولكنه منح يعقوب البركة التى طلبها واختفى . وعند ذاك أطلق يعقوب على هــذا المكان اسم « فنيئيل » أى « وجه الرب » . فلقد فسر هذا الاســم بقوله : لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٤) . وسرعــان ما أشرقت الشمس بعد ذلك وسطعت على وجه يعقوب . ولكنه وجــد نفسه يعرج إثر ذلك ، اذا كان خصمه قد مس عظمة فخذه فى أثناء صراعه معه . « لذلك لايأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخــذ الى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا » (٥) .

والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل ان مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا فيها رائحة الوثنية . ومن ثم فان أى تفسير لها انما يعتمد على الفرض . ولكننا اذا ربطنا هذه القصة بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فه حوادثها

---

(١) سفر التكوين . نفس الاصحاح والآية .
(٢) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٢٨ .
(٣) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٢٩ .
(٤) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٣٠ .
(٥) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٣٢ .

من ناحية ، واذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها التى سنعرض لها وشيكا من ناحية أخرى • فاننا نفترض بادىء ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه • وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان الماشية ، وبقاءه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر • وربما حسب يعقوب أن اله النهر المنعزل يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار الدفل التى تنمو على مسافة آمنة بعيدة ، حتى اذا ما مر الركب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت الخرير الرتيب الهامس ، دفعه الفضول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ويعرف سبب هذا الهرج والمرج • وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره ، فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على البركة التى يسعى اليها • وقد أمسك « مينيلاوس » على هذا النحو باله البحر « بروتيوس » الذى كان يرقد منعزلا وقت الظهيرة بين الحواجز وفوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته وهو ممتنع عن ذلك • وعلى هذا النحو كذلك أمسك « بيليبوس » بالهة البحر « ثيتيس » واتخذها زوجة له • وفى كلتا الأسطورتين الاغريقتين حاول روح الماء ذو الجسد الطبع الأملس ، أن يتزلق من قبضة آسره مرة بعد الأخرى مغيرا شكله من أسد الى حية ، ومن حية الى سائل وهكذا ، حتى وجد فى النهاية أن محاولاته تضيع هباء وأنه لن ينجح فى الانفلات من يد خصمه العنيد ، فرضخ لمطلبه وأعطاه المنحة التى يسعى اليها • وكذلك حول اله النهر أشيليوش نفسه الى حية ثم الى شبح لكى ينفلت من البطل الجرىء هرقل الذى أمسك به لكى يستولى على « ديجانيرا » الجميلة ، ولكن محاولات آله النهر ضاعت هباء •

وكل هذه الأساطير المشابهة لأسطورة يعقوب تؤكد أن غريم يعقوب فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية قد حاول أن يغير شكله لكى يهرب من آسره اللحوح • وربما اتضح أثر هذا التحول فى الحكاية

التى تحكى عن ظهور الرب للنبى « اليا » عند جبل « حوريب » • فربما تحول الرب المتمنع فى الشــكل الأصلى لهذه الحكاية الجلية الى ريح وزلزال ونار على التوالى لكى يهرب من النبى ، ولكنــه هــزم أمــام اصراره ، وكشف له عن نفسه فى صوت خافت رقيق (١) • ذلك أنــه من الملاحظ أن أرواح المياه لا تنفرد من بين الكائنات الخارقة للعادة بمنحها البركة أو النبوءة لهؤلاء الذين ينتظرونها ويمسكون بها • فقد قيل ان الاله « الفريجيانى » « سيلينوس » كان يمتلك على الرغم من عاداته الطائشة ، مقدرة كبيرة على المعرفة التى لم يكشف عنها مضطرا الا الى « بروتيوس » • وقد استطاع « ميداس » ملك « فريجيــا » أن يمسك بهذا الاله فى لحظة ضعف ، عندما قــدم له الملك خمــرا ممزوجا بماء نبع بعينه ، فشربه متلطفا • فلما صحا من سكره وجــد « سيلينوس » نفسه أسيرا ، وكان عليه أن يؤنب الملك بحديث طويل عن الدنيا وغرور الانسان ، حتى أطلق الملك سراحه • وقد احتفظ لنا بعض كتاب العصر القديم المبجلين بنص دقيق فى قليل أو كثير لتلك الخطبة التى ألقاها الاله السكير المرح بجــانب نبع أو بجانــب من الزهور • كما قيل أن « نوما » قد أمسك بالالهين الساذجين « بيكوس » و « فانوس » عن طريق خدعة شبيهة بخدعة ميداس وارغماهما على أن يأتيا « بجوبيتر » من السماء عن طريق سحرهما وتعاويذهما •

وربما استطعنا أن ندعم وجهة نظرنا فى أن خصم يعقوم الذى ظهر له عند مخاضة نهر اليبوق ، هو إله النهر نفسه ، اذا لاحظنا أنه كان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التى تخشى

---

(١) « واذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبــال وكسرت الصخور أمام الرب . ولم يكن الرب فى الريح . وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة . وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار وبعد النار صوت منخفض خفيف » .
(سفر الملوك الأول ــ الاصحاح التاسع عشر من آية ١١ ــ ١٣) .

لخطورتها وتقلبها • وينصح « هيزيود » من يعبر النهر قائلا : « عليك قبل أن تعبر النهر ، أن تنظر الى المياه الجارية وأن تصلى وتغسل يديك . لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه ، فانه يتعرض لغضب الآلهة » • وعندما عزم « كليومينيس » ملك اسبرطة على عزو « أرجوليس » ، جاء بجيشه عند شواطىء « أراسينوس » وقدم ضحية للنهر • ولكن النبوءة نصحت بعدم عبور النهر • عند ذاك ، أشار الملك أنه على الرغم من اعترافه بوطنية اله الماء فى عدم خداعه قومه ، فانه يصر على عزو « أرجوليس » • ثم قاد جيشه الى الشاطىء وقدم ثورا ضحية للنهر ونقل جيشه فى سفن الى بلاد العدو • وعندما تجمع الفرس تحت زعامة « كسيركس » عند نهر « ستريمون » قدم الماجيانيون أفراسا بيضاء ضحية للنهر كما قاموا بشعائر أخرى قبل عبوره • وبالمثل قدم « لوسولوس » على رأس الجيش الرومانى ثورا ضحية لنهر الفرات قبل أن يعبره • وكان « البروفيانيون » يقفون على شاطىء النهر ويأخذون جرعة منه ويشربونها ثم يتضرعون لاله النهر لكى يدعهم يعبرونه أو لكى يمنحهم السمك ، وبعد ذلك يرمون فيه حبوب الذرة لاسترضائه • بل ان الهنود الكولاديلاريين ما زالوا حتى اليوم يقومون بشعيرة تجرع جرعة من مياه النهر قبل أن يعبروه سيرا على الأقدام أو ممتطين ظهور الأفراس » • وكان سكان ويلز القدماء « يدقون الأرض بأرجلهم ثلاث مرات قبل أن يعبروا المجرى المائى فى الظلام . وذلك لكى يحولوا عنهم غضب الأرواح والسحرة »•

وتعتقد قبائل البانتو التى تسكن فى افريقيا الجنوبية الشرقية أن « الأنهار تسكنها الشياطين أو الأرواح الشريرة ، ومن ثم كان من الواجب استرضاء هذه الأرواح قبل عبور مجرى مائى مجهول لديهم ، وذلك بالقاء حفنة من الذرة فيه أو أى شىء آخر ، وان لم تكن له أية قيمة فعلية » • وعندما يعبر الماسيون الذين يسكنون افريقيا الشرقية مجرى مائيا ، فانهم يرمون فيه بعض الحشائش بوصفها هبة له ، ذلك لأن الحشائش التى تعتمد عليها ماشيتهم فى غذائها ، تلعب دورا

أساسيا فى معتقدات الماسيين وطقوسهم . وقبل أن يخوض المسافر النهر عند « الباجانديين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى ، فانه يسأل روح النهر أن يجعل عبوره آمنا ، ثم يرمى له ببعض حبوب البن منحة له . فاذا جرف التيار شخصا الى عرض الماء ، فان أصدقاءه لا يحاولون انقاذه ، لأنهم يخشون أن يأخذهم روح النهر كذلك إذا ماحاولوا انقاذ صديقهم الغريق ، ذلك أنهم يعتقدون أن الروح الذى يحرس هذا الشخص قد تركه تحت رحمة روح النهر ، ومن ثم فهو ميت لا محالة . وقد كانت توجد فى أماكن معينة عند نهرى « ناكيزا » و « سيزيبوا » فى أغوندا كومة من الأعشاب والعصى على كل من شاطئيه ، وكان كل من يعبر أحد النهرين يطرح بعض الأعشاب أو العصى على تلك الأكوام قبل أن يعبر النهر . وكان هذا بمثابة منحة لروح النهر حتى تضمن له عبوره الآمن . وكان الناس بين الحين والاخر يضعون عند هذه الأكوام منحا أغلى ثمنا ، كأن يحضرون معهم بعض الجعة أو حيوانا أو دجاجة أو بعض الأقمشة المصنوعة من لحاء الشجر ، ويربطون هذه الأشياء فى كومة الأعشاب أو العصى ويتركونها هناك ثم يرحلون بعد أن يصلوا لروح الماء . بل ان الكاهن كان يقوم بواجب التقديس لهذين النهرين، وان لم تكن توجد هناك معابد لهذا الغرض . وقد اشتهرت عشيرة « بين » بصفة خاصة بعبادتها لنهر « ناكيزا » ، وكان شيخ هذه العشيرة هو الكاهن . فاذا فاض النهر ، لم يكن يحاول أى فرد من أفراد هذه العشيرة أن يخوض فى النهر ، وكان الكاهن يمنعهم فى صرامة من العبور ، ومن كان يفعل ذلك منهم كان يقتل .

ويعترض مجرى نهر النيل عند مكان ما فى أعاليه يسمى « شلالات كاروما » ، صف من الأحجار العالية . وهناك تنحدر المياه عبر منحدر طويل أشبه بالبوابة الى عمق عشرة أقدام . وتحكى الرواية الشعبية أن هذه الاحجار وضعها « كاروما » الذى كان وسيطا أو أليفا للروح الكبير فى هذا المكان . فسر الروح الكبير بهذا الحاجز الذى شيده

خادمه وكافأه بأن أطلق اسمه على هذه الشلالات • وقد تعود ســاحر أن يقف عند هذا المكان ليقود مثل هؤلاء الأتقياء الذين يودون عبــور النهر • وعندما كان « سبيك » ورفقاؤه يعبرون نهر النيل عند هــذا المكان ، ذبحت جماعة من « البانييورين » الذين كانوا يسافرون معه ، جديا عند كل شاطئ من شاطئيه بعد أن شقه طوليا وســط صــدره وأمعائه ، ثم بسطوا الجديين عــلى ظهريهما فوق الحشــائش وفرو الشجر على نحو ما يبسط النسر ، ثم خطت فوقهما الجماعة المسافرة حتى تضمن نجاح رحلتها • وقد قام ساحر الشلالات بتوجيههم الى المــكان المناسب لتقديم الضحية •

ويعد نهر « انورى » أحد الروافد العليا لنهر الكنغو ، الحد الفاصل بين الأرض المعشبه والغابة الكبيرة • « وعندما كنت على وشــك أن أعبر بقاربى المياه الزرقاء المتدفقة فى سرعة ، تلك التى يبلغ اتســاع مجراها مائة وخمسين ياردة ، أبصرت على الشاطئ المقابل لى شكلين مصغرين لبيتين بنيا عند حافة النهر تماما ويشبهان فى كافة تفصيلاتهما أكواخ الفلاحين • وقد أعرض الزعيم الشيخ عن أن يفسر لى مغــزى هذين البيتين ، ولكننى أخبرت بعد لأى أنهما قد شيدا ليكونا فيئـــا للزعيم السالف الذى أمر بأن يعوض أرواح النهر عن الجهد الذى تبذله فى حراسة طرق الذين يعبرون النهر • ومنــذ ذلك الوقت ، عنــدما توشك قافلة على العبور عند شاطئ النهر ، يحمل قليل من الطعام الى بيتى الأشباح اشارة لهم بأن القافلة تطلب حمايتهم لعبور النهر » • ويقوم « الأبويون » الذين يسكنون اقليم « أوكا » فى نيجيريا الجنوبيه بذبح شاة ودجاجة وتقديمها ضحية للنهر ، اذا كانوا يقومون بدفــن جثة ميت ، وكان عليهم أن يحملوها عبر النهر » •

ويعتقد الباداجيون وهم قبيلة تسكن تلال « نيلجهيرى » فى الهند الجنوبية فى وجود اله يسمى « جانجاما » « يتواجد عند كل مجــرى مائى بخاصة عند نهرى « كوندى » و « بيكار » • وقد كان من عادة

كل مالك لقطيع من الماشية أن يرمى فى هذين النهرين ، إن شاء أن يعبرهما فى أثناء فيضانهما ، بربع روبية ، اذ كان يحدث دائما أن يجرف تيارهما قطعان ما شيتهم ويغرقاها • ومن بين الآثام الكبيرة التى كانت تعدد للشخص المتوفى فى أثناء القيام بشعائر جنازته ، أنه قد عبر النهر دون أن يدفع دية الولاء للاله جانجاما » • وكذلك كان ينظر « التودايون » وهم قبيلة صغيرة ، وان تكن اكثر شهرة من سائر القبائل التى تسكن هذه التلال نفسها ، الى نهرى « تايياكه ـ بايكارا » و « باكهوار ـ أفالانشى » بوصفهما الهين أو مأوى الهين • وقد كان يتحتم على كل من يعبر هذين النهرين أن يخرج يديه من ردائه علامة على التبجيل • وفى الزمن الماضى لم يكن يسمح للناس بعبور هذين النهرين الا فى أيام محددة من الاسبوع • فاذا عبر هذين النهرين المقدسين رجلان يكونان ابنين لأخ وأخته ، فانه يتحتم عليهما أن يؤديا شعائر خاصة ، فاذا اقتربا من أحد النهرين فانهما يقطفان بعض الحشائش ويمضغانها ، ويقول أحدهما للآخر : « هل سأنتصر على النهر ؟ هل سأتمكن من عبور النهر ؟ » • ثم يذهبان الى الشاطىء ، ويغمس كل منهما يده فى الماء ثلاث مرات ويملؤها بالماء ويرميه بعيدا عنه • ثم يعبران النهر بعد ذلك وقد أخرج كل منهما يده خارج ردائه على النحو المألوف •

وقد أحرقت جثة زعيم مشهور من قبيلة « أنجونى » التى تسكن افريقيا الوسطى البريطانية ، بجوار نهر من الأنهار • بل انه من عادة هذه القبيلة حتى اليوم أن يحيوا النهر عند عبورهم له بتحية عميقة تخرج من أعماق حناجرهم ولا يحيون بها الا ملوكهم • واذا عبر أحدهم أى نهر من الأنهار فى قارب ، فانه يعترف أمامه بكل آثام خيانته التى كان متهما بها فى حق رفاقه • وهو يفعل هذا فيما يبدو ، بناء على تصوره أنه ان لم يفعل هذا فسوف يغرق فى النهر • ويعتقد « الترود ـ جانيون » الذين يسكنون «سيليبيس الوسطى »أن أرواح المياه التى تتقمص أشكال حيات تسكن البحيرات العميقة ومنحدرات الأنهار •

ومن ثم فان الناس يتخذون حذرهم من هذه الكائنات الخطيرة • فاذا كان الترورادجى على وشك أن يقوم برحلة عبر النهر ، فانه غالبا ما يصيح وهو واقف على الشاطىء ويقول : « لن أقوم بهذه الرحلة اليوم ، ساقوم بها غدا » • فاذا استمعت الأرواح الى هذا القول ، وكان من بينهما روح يتربص بالمسافر ، فان هذا الروح يصدق أن رحلة هـذا الرجل قد تأجلت حقا الى الغد ؛ ومن ثم فهو يؤجل كذلك طعنته لـه الى اليـوم التالى • وفى أثناء ذلك يهبط الترود جانى الماكر الى النهر فى هدوء ، وهو يسخر فى أكمامه من سذاجة روح الماء الذى استطاع أن يخـدعه •

وعلى الرغم من أن الأسـباب الحقيقية التى تدعو الى اتباع هذه العادات التى تختص بتقديس الأنهار ستظل مجهولة لنا ، الا أنه يبدو أن الدافع العام وراء اتباعها هو الخوف والفزع من الأنهار التى ينظر اليها إما على أنها كائنات مشخصة قوية أو انها مأوى لأرواح قوية • وتتضح بكل الوضوح فكرة أن النهر كائن مشخص فى هيئة نهر من خلال عادة تنتشر بين « الكاكهيين » الذى يسـكنون بورما الشمالية • فاذا حدث أن غرق أحدهم فى النهر فى أثناء عبوره ، فان الشخص الذى يقع على عاتقه الانتقام من النهر يتردد على شواطىء النهر الآثم مـرة كل عام ، ويملأ وعاء بمائه ويضربه بسيفه كما لو كان يضرب عـدوا آدميا • وقد حدث ذات مرة فيما يقال ، أن فاض نهر النيل حتى غطى الأرض بمقدار ثمانيـة عشر زراعا ، وأخذت الرياح القـوية تقذف بالأمواج على بعد ، وعند ذلك أمسك فرعون برمحه وأخذ يضرب بـه التيار الجارف ، ولكنه عوقب بسبب اندفاعه وقلة ورعه بفقد بصره • ومرة أخرى نقرأ أنه عندما سار « كيروس » لغزو بابل ، وكان يعبر نهر « جينديس » ، جرف التيار أحد أفراسه البيضاء المقدسة التى كانت تصاحب الجيش فى مسيرته وأغرقه • فهدد الملك النهر وهو فى ثـورة غضبه من ارتكاب النهر لهذا الجرم ضد مقدساته ، بأن يجعل مياهـه ضحلة حتى يمكن المرأة أن تخوض فيها دون أن تبتل ركبتاها • وبناء

على ذلك أمر جيشه بحفر قنوات تحولت اليها مياه النهر من مجـراه الرئيسى • وبهذا انشغل الجيش طوال الصيف فى تحقيـق الرغبـة الطفولية لهذا الطاغية المستطير ، بدلا من أن ينشغلوا بغزو بابل •

وليست أرواح الأنهار هى الكائنات الالهية الوحيدة التى حاربها الرجال الجريئون أو عاقبوها • فعندما أطاحت العاصـفة بأول جسر شـيده « اكسيركس » عند « هيليس بونت » ليمر عليه جيشه ، أصدر الملك حكمه على المضيق فى ثورة من غضبه بأن يضربه ثلاثمائة ضربة وأن يقيده بالسـلاسل • وبينما كان الناس ينفـذون هذا الحـكم ويضربون الميـاه بأسواطهم ، كانوا يصيحون : « أيتها المياه المرة ، ان سيدك قد أنزل بك هذا العقاب لأنك أخطأت فى حقه ، وهو الذى لم يسبق له أن أخطأ فى حقك • وسوف يعبرك الملك اكسيركس طـوعا أو كرها • وانك لتستحقين الا يقدم أحد لك الضحية لأنك مياه مخادعة ومذاقك مر » • وقد قيل : أن الكلتيين القدماء كانوا يخوضون وسـط الأمواج وهى تتخبط على الشاطىء ، ويضربونها بسيوفهم ورماحهم ، كما كانوا يريدون اصابة المحيط نفسه بجراح أو بث الرعب فى نفسه • ويحكى الترودجايون الذين يسكنون « سيليبس الوسطى » أن قبيلـة من قبائلهم كانت تشتهر بتصرفاتهم الحمقاء ، جاءت الى شاطىء البحر فى أثناء جزره ، وابتنوا فى الحال كوخا عند شاطىء المياه مباشرة • فلما جاء مد البحر ، وهدد الكوخ ، تصوروا أن البحر كائن مهول يريد أن يبتلعهم ، ومن ثم فقد حاولوا تهدئة غضبه بأن رموا له بكل مؤونـة أرزهم • ولـكن لـما استمر المـد فى الازدياد ، هـووا على المـاء بسيوفهم ، ورماحهم وسكاكينهم القاطعة ، بقصد اصابة الكائن الخطير بجراح أو إفزاعه حتى يضطر الى التراجع • كما حدث ذات مرة أنـه عندما كانت جماعة من « الأرافوويين » ، وهم قبيلة جبلية تسـكن الساحل الشمالى التابع لغينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهـولندى ، تلهو بين الأمواج ، جرفت منحسرة ثلاثة منهم وأغرقتهـم • ولكى ينتقم رفقاؤهم لغرقهم ، صوبوا بنادقهم وسهامهم ورماحهم عـدة

ساعات الى الأمواج المتلاطمة • وربما مكنتنا هذه الحكايات التى تشخص المياه بوصفها كائنا حيا يمكن أن يعتريه الفزع وأن تقهره القوة الجسدية ، من تفسير مغامرة يعقوب الغريبة عند مخاضة نهر اليبوق •

أما ما يحكى من أن يعقوب أصيب فى عصب معين فى فخذه اثناء صراعه مع خصمه الذى ظهر له فى أثناء الليل ، فمن الواضح أنها محاولة لتفسير امتناع العبريين عن أكل الجزء المقابل لهذا عند الحيوان • وكل من هذه الحكاية وتلك العادة ، لها ما يماثلهما لدى بعض القبائل الهندية التى تسكن أمريكا الشمالية ، هؤلاء الذين يقطعون على الدوام باطن ركبة الغزال الذى يذبحونه ويرمونها • ويقدم الهنود الشيروكيون سببين لاتباع هذه العادة : أولهما « أنه عندما يتمزق هذا العصب ، يتقاص داخل اللحم ، ومن ثم فكل من يأكل ، لسوء حظه ، من هذا الجزء فان أطرافه تتقلص على هذا النحو » • أما السبب الثانى فهو أنه اذا أكل الصياد هذا الجزء ولم يفصله ويرمه ، سرعان ما يحل به التعب فى رحلته ، وكلا السببين يشير الى عقيدة سحر المشاركة ، وان كان مفعول السحر يختلف فى كلا السببين ، فالسبب الأول يفترض أنه اذا أكل شخص من الجزء الذى تقلصت العضلة بداخله ، فان الجزء المقابل لذلك فى جسم الانسان يتقلص كذلك • أما السبب الثانى فيبدو أنه يفترض أنك اذا قطعت العصب الذى لا يستطيع الغزال السير بدونه ، فانك بالمثل تكون عاجزا عن السير على هذا النحو • وكلا السببين يرتبط كل الارتباط بفلسفة الانسان البدائى • وربما كان أحد التفسيرين كافيا لفهم مثل هذا التحريم عند العبريين • ويمدنا سفر التكوين ، وفقا لهذه النظرية ، بقانون دينى لعادة كانت ترتكز فى الأصل على عقيدة سحر المشاركة وحدها •

وحكاية صراع يعقوب مع الشيخ الذى ظهر له فى الليل ، بقصد انتزاع البركة من خصمه المتمنع قبل الغسق ، لها ما يناظرها فى خرافات

المكسيكيين القدماء • فقــد كان هــؤلاء يعتقــدون أن الاله الكبــير « تزكاتليبوكا » تعود أن يتجول فى أثناء الليل فى هيئة مارد يلتف فى ملاءة ذات لون ومادى ويمسك رأسه بيديه • وعندما أبصر الناس الجبناء هــذا الشبح المخيف • سقطوا على الأرض مغشيا عليهم ، وماتوا اثر ذلك • على أن رجلا شجاعا من بينهم أمسك بالشبح وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس • فتــوسل الشبح اليـــه أن يتركه ؛ وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك فسوف يحل عليه اللعنــة • وكان على الرجل ان شاء أن ينتصر على الشبح المخيف ، أن يظل ممسكا به بشدة الى أن توشك الشمس على البزوغ • فاذا نجح فى هذا غير الشبح من نغمته ، ووافق على أن يمنح الرجل أى هبة يطلبها مثــل الثروة والقوة التى لا تقهر ؛ بشرط أن يرفع الرجل يده عن الشــبح ويدعه يرحل قبل الغسق • وقد تسلم الانسان المنتصر من خصــمه المهول الذى انهزم فى مشادة عنيفة مع الانسان أربع شوكات من نوع معين علامة على نصره • وطبيعى أن مثل هذا الرجل الجرىء ينتزع قلب الشبح من صدره ويلفه فى قطعة من القماش ويحمله معه الى بيته•ولكنه عندما عاد الرجل بغنيمته الى بيته ، وخلع النقاب عنها لم يجد شيئا سوى بعض الريش الأبيض أو شوكة أو ربما حفنة من الرماد أو طنفسة مهلهلة •

الفصل الثامن

قـدح يوسف

عندما جاء اخوة يوسف الى مصر ليحصلوا على القمح فى أثناء فترة المجاعة ، وكانوا على وشك أن يعودوا الى فلسطين ، أمر يوسف أتباعه أن يخفوا قدحه الفضى الذى يشرب منه فى جوال أخيــه بنيامين • وما كاد الاخوة يخرجون من المدينة ، وأصبحوا على بعد خطوات منها ، حتى أرسل يوسف خادمه فى أثرهم متهما اياهم بسرقة القدح • ومن ثم أخذ يبحث فى أجولتهم حتى عثر على القدح المفقود فى جـــوال بنيامين • وعند ذاك أخذ الخادم يعنف الاخوة على نكرانهم لجميــل سيده الذى عاملهم فى كرم ، فاذا بهم يقابلون هذه المعاملة الطيبــة بسرقة قدحه الثمين • ثم قال لهم الخادم « لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير • أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه وهو يتفاءل بــه • أسأتم ما صنعتم (١) » وعندما رجع الاخوه الى يوسف أعاد عليهــم هذه العبارات التأنيبية وقال لهم : « ما هذا الفعل الذى فعلتم : ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاءل (٢) » • ويمكننا أن نخلص من هـــذه العبارة أن يوسف كان يتباهى بصفة خاصة بمقدرته على اكتشـاف اللص عن طريق قدح التكهن •

وليست عادة استخدام القدح وسيلة للتكهن بالعادة غير المـألوفة

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الرابع والأربعون آية ٤ ، ٥ .
(٢) نفســه .

فى الزمن القديم والحديث معا ، وإن اختلفت طريقة استخدامه لهذا الغرض • فنحن نقرأ أن الفيلسف « ازيدوروس » الذى كن من أتباع مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، تقابل مع امرأة متدينة كانت تمتلك مقدرة غريبة على التكهن • وقد تعودت هذه المرأة أن تصب ماء رائقا فى قدح زجاجى ، وتتنبأ من خلال ما يتراءى لها فى المياه بالحوادث التى ستحدث فى المستقبل وقد كان التكهن عن طريق النظر فى الماء يعد نوعا من أنواع التكهن ؛ وقد أطلق عليه الاغريق اسم « هيدرومانتيا » • وفى بعض الأحيان كان يوضع فى المـاء حجر كريم من نوع معين لكى يستحضر عن طريقها صور الآلهة • وقد قيل ان الملك « نوما » كان يتكهن عن طريق صور الآلهة التى كانت تبدو له فى المـاء ؛ وأنه كان يستخدم قدحا لهذا الغرض • ومن المحتمل أكثر من ذاك أنه كان يرى صور الآلهة على صفحة مياه النبع المقدس « ايجيريا » ؛ وذلك عن طريق الروح الذى كان مقترنا به • وعندما كان « الترالبيون » الذين كانوا يسكنون « كاريا » يرغبون فى التحقق من نتيجة الحرب « الميثريداتية » ، كانوا يستخدمون صبيا يعلن ، عندما يحملق فى الماء ، أنه يرى صورة الاله « مير كورى » ، ثم يتغنى من خلال الكشف الالهى بالحوادث المستقبلة ، بمائة وستين بيتا من الشعر • وقد قيل ان الفرس كانوا يشتهرون بمقدرتهم على التكهن من خلال النظر فى الماء ، وقد انتقلت هذه الطريقة فى التكهن الى الغرب عن طريقهم بحق •

على أننا ليس لدينا علم بالطريقة التى اتبعها يوسف فى الكشف عن السارق أو أية أمور أخرى عن طريق قدحه السحرى ، ولكننا نعتقد أنه كان يستمد استدلالاته عن طريق الصور التى كانت تتراءى له فى المـاء • ومن المؤكد أن هذه الطريقة فى التكهن لا تزال تتبع فى مصر ؛ وربما كانت منتشرة فى هذا البلد المحافظ على التقاليد منذ العصور القديمة • والاسم الحديث لهذه الطريقة فى التكهن هو « المرآة السحرية » • « وهى تستخدم على نطاق واسع على النحو التالى :

يطلب من غلام ساذج (لا يزيد عمره على اثنى عشر عاما) أن ينظر فى قدح مملوءا بالمـاء ومنقوش عليه بعض العبارات ، بينما تلصق فى غطاء رأسه من الداخل ورقة منقوش عليها كتابات كذلك وتتدلى فوق جبينه • ثم يعطر هذا الغلام بالبخور بينمـا يتمتم المشـعوذ ببعض العبارات • فاذا سئل الغلام بعد وقت عما يراه فى القدح ، فانه يقول انه يرى شخوصا تتحرك فى المـاء كما لو كانت تتحرك فى مرآة • عند ذاك يطلب منه المشـعوذ أن يصدر أوامر للروح بأن تنصب خيمـة على سبيل المثال ، أو أن تحضر القهوة والغليون ، فتلبى هذه المطالب فى الحال • ثم يطلب المشعوذ من المتفرجين الفضوليين أن يذكروا اسـم شخص يرغبون فى أن تظهر صورته على صفة المـاء فيذكروا له اسم شخص حى أو ميت • وعند ذاك يأمر الغلام الروح أن تحضر له هذا الشخص • وفى لحظات تظهر صورة هذا الشخص على صفحة المـاء ويأخذ الغلام فى وصفه • ولكن الأوصاف التى يسردها كما رأينا ذلك بأنفيسنا ، تبتعد دائما عن الحقيقة • فاذا ووجه لغلام بذلك اعتـذر بأن الصور التى ظهرت أمامه لم تتوسط القدح ، وظل نصفها دائما مختفيا • على أنه كان يرى فى أحيان أخرى صور الشخوص كمـا هى ، بل كان يراها متحركة • واذا حدثت سرقة ، سئلت المرآة السحرية فى بعض الأحيان عن السارق كما شاهدنا ذلك بأنفسـنا فى احـدى المناسبات • (ويطلق على هذه العملية اسم ضرب « المندل ») • وفى هذه المناسة اتهم الصبى شخصا ثبتت براءته كلية بعد ذلك ، ولـكن الصبى اتهمه عمدا بالسرقة ، كما اتضح لنا ، رغبة فى ايذائه • ولهذا السبب فقد كافحت الحكومة هذه الشعوذة التى كانت منتشرة على نطاق واسع فيما مضى • ومع ذلك فان الناس ما زالوا يمارسونهـا حتى اليـوم •

وقد تكون المرآة السحرية التى تستخدم فى التكهن فى مصر حبـرا يصب فى راحة يد المشعوذ بدلا من كونها قدحا ممتلئا بالماء ، ولكن الاجراءات التى تتبع فى كلتا الحالتين واحدة • فالمشعوذ يدعى أنه يرى

صور الشخوص التى يطلب المتفرج استحضارها ، أحياء كانوا أم أموات • كما تستخدم مرآة الجد السحرية فى الكشف عن السارق وعن أمور أخرى ، كما هو الحال مع القدح المملوء بالماء • والأشخاص الذين يستعان بهم فى هذا الغرض هم الصبية دون البلوغ ، والفتاة العذراء ، وعبدة سوداء ، والمرأة الحامل • ولكن يبدو أن الصبى دون البلوغ كان أكثرهم استخداما فى هذا الغرض • فيرسم فى راحة يد الصبى مربع سحرى بالحبر ، وفى وسط هذا المربع يصب الحبر الذى يكون المرآة السحرية •و بينما يحملق المتكهن فى هذه المرآة ، يحرق البخور وتحرق معه ورقة مكتوب عليها بعض التعاويذ • وعندما كان « كينج ليك » فى مصر أرسل فى طلب ساحر ليقدم له نموذجا من هذا السحر الذى يمارسه • وكان هذا السحار رجلا ذا هيبة وله لحية طويلة ، ويرتدى عمامة كبيرة تلفت النظر وملابس فضفاضة • ثم جاء هذا الساحر بصبى وجعله يحملق فى الحبر الذى وضعه فى راحة يده ليصف شكل الرجل الانجليزى الذى يذكر اسمه « كينج ليك » • وعند ذاك طلب « كينج ليك » استحضار صورة ناظر مدرسته فى « اتون » واسمه « كت » • وكان هذا الناظر شرسا مستبدا قصير الجسم ذا مزاج حاد ، وله حاجبان أشعثان يضرب لونهما الى الحمرة ، الى غير ذلك من الملامح التى تتفق مع هذه الصفات • وعند ذاك قال الصبى انه يرى فى مرآة الحبر صورة فتاة شقراء ذات شعر ذهبى وعينين زرقاوين ووجه شاحب وشفاة حمراء • فلما انفجر « كينج ليك» فى الضحك إثر هذا التصريح ، أعان الساحر الذى انتابته المربكة ، بأن هذا الصبى لا بد أن يكون قد ارتكب اثما ، ومن فقد ركله برجله وطرده •

وقد كانت هناك أشكال أخرى من التكهنات تتبع فى جهات أخرى من انحاء العالم • فقد كان الناس قد تعودوا فى الدول الاسكندنافية أن يذهبوا الى منجم مساء كل خميس لكى يروا فى الدلو الممتلىء بالماء صورة السارق الذى سرقهم • وليست عند التاهيتيين « سوى وسيلة

واحدة لاكتشاف سارق أى نوع من السرقة ، وذلك بأن يلجأوا الى شخص تتملكهروح التكهن ويؤكد لهم على الدوام أنه قادر على وجه السارق ينعكس على صفحة ماء موضوع فى قرعة مفرغة » • ويدعى بعض المتكهنين فى نيو غينيا الجنوبية الشرقة أنهم يكشفون عن وجــه الآثم فى صفحة المياه فى بركة يذاب فيها بعض زيت جوز الهند • واذا خرج رجل عند الاسكيمو فى رحلة بحرية ولم يرجع فى الوقت المحدد لرجوعه ، فانهم يلجأون الى ساحر يتعهد بأن يؤكد لهم ما اذا كان هذا الشخص ما زال على قيد الحياة أم أنه قد توفى • ومن ثم فانه يستدعى أقرب قريب لهذا الشخص المتغيب ؛ فيقوم برفع رأس الساحر بعصاه ويدعه ينظر فى برميل به ماء ، ثم يعلن الساحر أنه يرى على صفحة المــاء صورة البحار المتغيب وقــد انقلب به القارب ، أو يراه جالسا فيه ويجدف بمجدافه • وبذلك يهدىء من نفس اقاربه القلقين عليه بأن يؤكد لهم سلامته ؛ أو أنه يحمل لهم نبأ وفاته فيدعهم لأحزانهم •

على أن الوعاء الممتلىء بالمــاء لا يمثل الوسيلة المــادية الوحيدة للمرآة السحرية ؛ التى تستكشف الحقيقة عن طريقها • فالطريقة التى تتبع فى الهند لاكتشاف السارق هى أن تكتب كل اسم من أسماء الذين تقع عليهم التهمة على كرة منفصلة من العجين أو الشمع ، ثم تــرمى هذه الكرات فى وعاء به ماء • فالكرة التى تحمل اسم السارق تطفو ، وفقا لاعتقادهم ، فوق سطح المــاء ، فى حين تستقر سائر الكرات فى القاع • وقد تعود الشباب فى أوروبا أن يلجأوا الى أساليب عدة من التكهين فى « أمسية منتصف الصيف » ، لكى يتأكدوا من مصيرهم فى الحب • فالفتاة فى « دورستشاير » تكتب الحروف الأيجــدية عــلى قصاصات من الورق قبل أن تذهب للنوم فى تلك الأمسية ، وتضعها فى وعاء به ماء ؛ بحيث تكون الأحرف مقلوبة • وهى تتوقع فى الصباح أن تجد الحرف الأول من زوج مستقبلها قد انقلب الى اعلى ، فى حين تظل سائر الحروف فى وضعها المقلوب •

وفى بعض الأحيان تقرر المصائر عن طريق اسقاط مادة ما فى وعاء به ماء ويحكم الشخص على مصيره من خلال الوضع أو الشكل الذى تتخذه المـادة فى المـاء • فالطبيب فى قبيلة « باهيما » أو « بانيانكولى» وهى قبيلة رعوية تسكن افريقيا الوسطى فى محمية أوغندا ؛ يأتى فى بعض الأحيان بوعاء به ماء ويرمى فيه بأعشاب معينة تحدث زبدا عندما توضع فى المـاء • ثم يرمى كذلك أربع حبات من البن فى المـاء ويراقب الوضع الذى تسير فيه • ومن خلال هذا الوضع أو من خلال طريقة انقلابها فى المـاء فى أثناء طفوها ، تتحدد أرادة الآلهة ، وفى بعض الأحيان يتكهن الكاهن فى قبيلة « جارو » التى تسكن فى أسام ، عن طريق قدح ممتلىء بالمـاء وبضعة حبات من الأرز الجاف ، فهـو يمسك بالقدح فى يده اليسرى ويسقط فيه حبات الأرز حبة حبة ويذكر اسم روح من الأرواح عند اسقاط كل حبة • فاذا حدث عند ذكر اسم روح من هذه الأرواح أن اصطدمت حبتان وهما تطفوان على سطـح المـاء ، فان هذه الروح هى التى ينبغى عليه أن يتضرع اليها • وفى مرتفعات سكتلاندا يتكهن الناس عن طريق أوراق الشاى أو عن طريق رواسب الشاى التى تتبقى فى فنجان • بل ان النساء غير المتزوجات فى اسكتلندا يذهبن حتى اليوم زرافات الى أمثال هؤلاء المنجمـين ليخبروهن - مقـابل اعطائهم قـدرا من الشـاى ، بالأزواج الذين يناسبنهن • وطريقة التكهن فى هذه الحالة تـكون عن طريق مراقبـة نظام أوراق الشاى المتخلفة فى الفنجان ، وذلك بعد أن تغطى الثمالة المتخلفة جوانب الفنجان جهة اليد اليمنى وتصب من الفنجان • كما يستعان فى انجلترا ببقايا الشاى أو القهوة المتخلفة فى فنجان للتعرف على النبوءات • وبالمثل يتكهن الناس فى مقدونيا من خـلال القهـوة المتخلفة فى الفنجان • » وقد تشير فقاعة واحدة تظهر فى وسط فنجان القهوة الى أن صاحب الفنجان له صديق واحد وفى مخلص • فـاذا تجمعت عدة فقاعات عند حلقة الفنجان ، فان هذا يشـير الى أن الشخص متقلب فى مزاجه العاطفى ، مشتت فى عبادته الدينية • كما

يختلف فى تفسير رواسب القهوة حسب الشـــكل الذى تتخذه ، فاذا انتشرت حول جوانب الفنجان من الداخل فى شـــكل نهيرات وجداول ، فان هذا يعنى رخاء فى المـــال ، وهكذا .

وهناك وسيلة مستحبة للتنبؤ تتبع فى أوروبا ، وذلك عن طـــريق صب رصاص أو شمع منصهر فى وعاء به ماء ، ثم تراقب الأشـــكال التى يتخذها الرصاص أو الشمع وهما يأخذان فى التجمد . وتتبع هذه الطريقة فى التنبؤ بالمستقبل فى كل من ليتوانيا والسويد واســـكلندا وأيرلندا . كما أن الأيرلنديين يعتقدون أن الجنيات تتسبب فى احداث مرض يسمى « أسانى » . ولكى يتنبأ المنجمون بما اذا كان هـــــذا المرض سينتشر أم لا ، أو يتنبأون بطـــريقة للشفاء منـــه فى حـــالة انتشاره ، فانهم يستعينون فى ذلك بقطع من الفحم يضعونها فى وعاء به مـــاء رائق .

ويحق لنا أن نفترض بعد عرضنا لهذه الأمثلة أن يوسف كان يستعين بطريقة أو أخرى من هذه الطرق للتكهن عن طريق قدحه الفضى .

الباب الثالث

عصر القضـــاة والمـــلوك

الفصل الأول

موسى فى صندوق

القش

يمكننا أن نقول ان عصر الشيوخ والآباء عند بنى اسرائيل ينتهى بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير تميزت بألوانها الحيــة وتصويرها الرائع ، رحلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطىء الفرات الى شواطىء نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبة من الزمن لفترة يسدل فيها الستار على الفصل الأول من تاريخ بنى اسرائيل • وعندما ارتفع الستار مرة أخرى على المشهد نفسه ، كانت قد ولــت حقبة من الزمن تقدر بأربعمائة سنة نمت فى أثنائها أسرة الشــيوخ وأصبحت أمة • من هنا يبدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأسها يقف موسى بشخصيته القوية ، ذلك المشرع والقائد الكبير الذى قيل انه خلص شعبه من العبودية التى عاش فيها فى مصر ، وقادهم فى تجوالهم عبر الصحراء العربية ، وشرع لهم قوانينهم ، حتى توفى فى نهاية الأمــر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر له أن يطأها بقدمه •

وعلى الرغم من أننا لا نملك السبب الكافى الذى يجعلنا نشك فى صحة هذه الرواية فى خطوطها العريضة ، فان قصة موسى البطولية ، كما هى الحال فى كثير من قصص الأبطال الوطنيين قد زخرف نســيج واقعها الرزين بخيوط من الخيال المبهج فى العصور المتأخرة • ومــع ذلك فان التغيير الذى داخل هذا النسيج لم يكن كبيرا الى درجة أنه لم يحل دون تعرفنا على العناصر الأساسية لهذه الحكاية • فما زالت

الحكاية تمكننا من أن نتخيل ملامح الرجل وهو يرتدى ملابس الساحر البهية الفضفاضة ، عندما واجه فرعون وتسبب فى إنزال المحنة بأرض مصر . وما زال فى وسعنا أن نتخيل الملامح الانسانية من خلال الهالة النورانية لهذا البهاء غير العادى الذى أشرق على ملامح القديس والنبى وهو يهبط من الجبل حيث تحدث مع الرب وتسلم باليد شريعة قومه الجديدة . ومما هو جدير بالملاحظة حقا ، هو أنه على الرغم من أن موسى أكثر اقترابا من الحد الفاصل فى تاريخ بنى اسرائيل من سائر شيوخهم الذين سبقوه ، الا أن عناصر الخيال والمعجزات قد داخلت قصته فى عمق أكثر مما داخلت قصص أجداده . فعلى الرغم من أن أجداده قد اتصلوا من جيل لآخر بالرب ، كما قيل ، أما وجها لوجه أو فى رؤياهم ، الا أنه لم يكن أحد منهم صانعا للمعجزات والعجائب التى تكرر حدوثها فى تاريخ موسى . فبينما نراهم هم أمامنا يتحركون بين الناس بوصفهم بشرا ، ومنصرفين للأعمال العامة ، ومشاطرين للناس أفراحهم وأحزانهم ، اذ نرى موسى من ناحية أخرى ، منذ بدء حياته حتى نهايتها ، منعزلا عن الناس لتأدية رسالته ، ومن ثم فقد كان يعيش فى أفق بعيد عن حياة الناس العاديين الفانين ، دون أن تنسب اليه تلك الزلات التى تنسب اليهم ، وهى تلك الزلات التى أضفت ، بلمسة رقيقة من ريشة المصور ، لونا حيا على صور آبائه . ولعل هذا هو السبب فى أن انسانية ابراهيم واسحق ويعقوب البسيطة تمسنا عن قرب أكثر مما يمسنا شخص موسى الذى يتميز بالروعة ، وان يكن يتميز بالانعزالية .

وتحيط ميلاد موسى ، شأن كل أحداث حياته ، هالة من الخيال . فقد قيل ان سلالة يوسف واخوته وهم أبناء اسرائيل ، تكاثرت فى سرعة فى مصر بعد موت يوسف وأخوته ، الى درجة أن أخذ المصريون ينظرون اليهم بعين الفزع وعدم الثقة ، وحاولوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم فى الأعمال الشاقة التى ربما قضت عليهم ، ولكن لما فشلت هذه المعاملة فى تحقيق النتيجة المرغوبة ، أمر الملك المصرى بقتل

أطفالهم الذكور أثر ولادتهم . ولكن لما كانت القابلات اللاتى كلفن بتنفيذ هذا الأمر القاسى يتهربن من تنفيذ ذلك ، فقد أمر الملك شعبه جميعا بأن يطرح كل طفل ذكر يولد للعبريين فى النهر . وعندما ولد موسى فى هذه الظروف ، أخفته أمه أول الأمر طيلة ثلاثة شهور ، ولكنها لما لم تستطع اخفاءه أكثر من ذلك ، فقد صنعت له سفطا من القش ، أو بالاحرى من نبات البردى وطلته بالطين والقار ، ووضعت فيه طفلها . ثم حملت السفط والحزن يملؤها ، ووضعته بين الأعشاب على شاطىء النهر ، ورحلت ، بينما ظلت أخت موسى الكبرى واقفة على شاطىء النهر لتراقب ما يحدث له . وتصادف أن كانت ابنة فرعون ملك مصر ، تستحم فى النهر . فلما أبصرت السفط بين الأعشاب أرسلت احدى خدماتها لتحضره . ولما فتحت الأميرة السفط وأبصرت الطفل ، مدت يدها لتمسكه ، فبكى الطفل . فأشفقت عليه وقالت : « هذا من أولاد العبرانيين » (١) وبينما كانت تنظر للطفل ، جاءتها أخت الطفل ، التى كانت ترقب من بعيد ما يحدث وقالت للأميرة : « هل أذهب وأدعو لك مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد . فقالت لها ابنة فرعون ، اذهبى . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد . فقالت لها ابنة فرعون اذهبى بهذا الولد وارضعيه لى وأنا أعطيك أجرك . فأخذت المرأة الولد وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابنا . ودعت اسمه موسى وقالت لأنى انتشلته من الماء » (٢) .

وعلى الرغم من خلو قصة ميلاد موسى وترعرعه فى كنف أمه ثم فى كنف ابنة فرعون من العناصر الخارقة للعادة ، الا أنها تحتوى على ملامح يمكننا أن ننسبها ، بعد شىء من التدبر ، الى مجال الفولكلور أكثر من أن ننسبها الى التاريخ . اذ يبدو أن القاص ، لكى يزخرف معجزات حياة البطل ، رغب فى أن يحكى كيف تعرض الرجل العظيم

---

(١) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى آية ٦ .
(٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى من آية ٧ الى ١٠ .

أو المرأة العظيمة للخطر ساعة ميـلاد الطفل ، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق ، الا من خلال حادثة تبدو للعين العادية أنهـا حدثت صدفة ، وان تكن قد أثبتت حقا أن يد القدر قد تدخلت لتنقذ الطفل المعجز من أجل المصير الكبير الذى ينتظره • ومثل هذه الأحداث ينظر الهـا فى كثير من الحالات بوصفها زخرفة اخترعها القاص • ولمسات تصويرية أضافها لكى يسمو بتأثير القصة البسيطة التى رأى أنها لا تليق بجلالة هذا الموضوع •

وقد تعرض مؤسس روما نفســه ، وذلك وفقا للحكاية الرومانية ، فى طفولته للخطر • وربما كان مصيره الهلاك ، لولا تدخل العناية الالهية وارسالها ذئبة وطائر نقار الخشب • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى : لقد كانت تقع مـدينة « ألبا لونجا » تلك المـدينة البيضـاء الشاسعة ، عند منحدر جبال ألبان ، وكانت تحكمها أسرة من الملـوك تدعى أسرة « سيلفى » أو أسرة « الغابات » • وفى هذه الفترة من الزمن كان الرعاة ما يزالون يرعون قطعان ما شيتهم على تلال روما ، وكانت الذئاب ما تزال تعوى فى الممرات المعشبة التى كانت تقــع بينها • وحدث فى هذا العصر أن كان لأحد ملوك « ألبـا » ، وكان يدعى « بزوكا » ابنان ، أحدهما كان دعى « نوميتر » ، والآخر « أموليوس »• وكان « نوميتر » هو الأخ الأكبر ، ومن ثم فقد عينه أبوه خليفــة على العرش من بعده • ولكن الأخ الأصغر الذى كان طموحا وان كان عديم الضمير ، سعى فى ابعاد أخيه الاكبر عن العرش بالقوة لكى يحل محله• ولم يكتف الأخ الأصغر بذلك ، وانما دبر مؤامرة ليحصن بها قوتــه المغتصبة وذلك بأن يحرم أخاه المظلوم من أن يكون له وريث من بعده • ومن أجل هذا أمر بقتل ابن « نوميتر » الوحيـد ، كما أغــرى ، أو بالأخرى أرغم ابنته التى كانت تدعى « رياسيلفيا » ان تكرس حياتها لعبادة الالهة « فستا » (١) ، وأن تقسم على أن تظل عذراء طــوال

---

(١) الهة النار عند الرومان . (المترجمة) .

حياتها . ولكن « سيلفيا » أصبحت فيما بعد فى حل من هذا القســـم عندما اكتشفت أنها حامل . وقد ولدت فيما بعد توأما ذكرا، ادعت أن الاله مارس أبوهما . ولكن عمها القــاسى لم يسلم بهذا الادعاء وأمر بأن يرمى بالولدين فى النهر . وقد كان نهر « التيبر » فى ذلك الوقت قد فاض وأغرق شواطئه بحيث لم يتمــكن الخدام الذين كلفوا باغراق الطفلين ، من الوصول الى النهر ، واضطروا أن يتركوا الصـــــندوق الذى وضع فيه الطفلان فى المياه الضحلة عند سفح تل « بــلاتين » ، وهناك تركوا الطفلين لمصيريهما . فلما بكى الطفلان جذب صراخهمــا ذئبة . فجاءت نحوهما وأخذت ترضعهما بلبنها وتعلق الأوساخ عـــن جسميهما . وقد خلدت هذه الحكاية فى شكل تمثال من البرونز لذئبة توضع طفلين ، وظل هذا التمثال منتصبا فى مكان الحادثة طيلة عصور الأباطرة ، ثم حفظ فيما بعد فى متحف الكابيتولين فى روما حيث لا يزال موجودا به حتى اليوم . وقد روى البعض أن طائر نقار الخشب كان يساعد الذئبة فى اطعام الطفلين وفى حراستهما . حيث ان كلا مـــن الذئب وطائر نقار الخشب كانا مختصين بعبادة الاله مارس ، فقــد أثار هذا الحادث من جديد الجدل حول بنوة الطفلين الالهين لكل من « روفولوس » و « ريموس » .

ويبدو أن هذه الحكايات العجيبة كانت تحكى بصفة خاصـــة عن مؤسسى الممالك والدول ، هؤلاء الذين ضاع مع الزمن نسبهم وتاريخ نشأتهم . ومن ثم فقد ملأ القاص هذه الفجوة التى خلفتها ذاكـــرة الانسان بأحداث من خياله . وقد أمدنا تاريخ الشرق بمثال لمثـــل هذه القصص السحرية التى ألقت الضوء على بداية عهد الامبراطوريـــة القوية ، فقد كان « سرجون » الأكبر أول ملك سامى حـــكم بابل فى حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م . وقد استطـــاع هـــذا الملك أن يخلد اسمه عن طريق انتصاراته الرائعة وأعماله البناءة ، ولكنه على الرغم مـــن ذلك فانه لم يكن يعرف له أبا . وهذا هو كل ما نعرفه من النقوش التى قيل انها كانت قد نقشت على أحد تماثيله . وقـــد نسخت هذه الكتابات

فى القرن الثامن قبل الميلاد وأودعت فى المكتبة الملكية فى نينوى حيث اكتشفت فى العصر الحديث . وفى هذه الوثيقة يحكى الملك تاريخ حياته المبكرة على النحو التالى :

أنا « سرجون » ، الملك القوى ، ملك أكاد
كانت أمى سيدة متواضعة ، أما أبى فلا علم لى به
ولكن عمى كان يسكن الجبال
ومدينتى هى « أزوريبانو » التى تقع على شاطىء الفرات
وقد حملتنى أمى المتواضعة وولدتنى سرا
ثم وضعتنى فى سلة من الأسل وأحكمت اغلاقها بالقار
وطرحتنى فى النهر الذى لم تغرقنى مياهه
ثم حملنى التيار الى السقاء « أكى » فحملنى معه
« أكى » السقاء ... انتشلنى من المياه
« أكى » السقاء كفلنى كما يكفل ابنه
« أكى » السقاء عيننى بستانيا له
وبينما كنت أعمل بستانيا ، أحبتنى الالهة عشتروت
ولمدة أربع سنوات حكمت المملكة
وحكمت الشعوب ذات الرءوس السوداء وأخضعتها .

وتشبه حكاية ابعاد الطفل سرجون فى سلة من الأسل وضعت عند شاطىء النهر حكاية ابعاد موسى الطفل فى سفط من القش الذى وضع بين الأعشاب عند شاطىء النيل . وحيث أنه ليس هناك مجال للشك فى أن الحكاية البابلية أقدم بكثير من الحكاية العبرية ، فانه يترتب على هذا أن كاتب سفر الخروج ربما كان يعرف الحكاية البابلية ، وانه ألف الحكاية العبرية على نمطها . على أنه من المحتمل من ناحية أخرى أن تكون الحكايتان قد نشأتا مستقلتين من الجذور العامة للخيال الشعبى . ومن ثم ، فحيث اننا نفتقر الى دليل يمكن أن يحسم فى تأثر

أى الحكايتين بالأخرى ، فلا مجال اذن لأن ندلى بوجهة نظر فى هـذا الموضـوع •

على أن النظرية التى تقول باستقلال احـدى الحـكايتين عن الأخرى يؤيدها الى حد ما وجود أسطورة هندية مماثلة لهاتين الحكايتين تحتوى عليها الملحمة الهندية الكبيرة « ماهابهاراتا » • ومن الصـعب أن ندعى أن مؤلف هذه الملحمة كان على علم بالحكاية السـامية بحيث يكون قد حاكاها فى أسطورته • وتحكى الأسطورة الهنـدية أن اله الشمس كان قد وقع فى غرام ابنة الملك التى كانت تدعى « كـونتى » أو « بيريث » ، وولدت منه ابنا « جميلا كالأفلاك السماوية » • وقد ولد هذا الابن « متمنطقا بالسلاح ، ولابسا قرطا ذهبيا وضاء ، ولـه عينا أسد وكتفا بقرة » • ولمـا خشيت الابنة من أن يفتضح أمرها ، ومن غضب أمهـا وأبيها منها ، « وضعت » ابنها ، بناء على نصيحة خادمتها ، فى سلة لا تتسرب اليها المياه ، وغطته بملاءات لينة ناعمـة مصنوعة من خيوط الأماليد المجدولة ، ووضعت تحت رأسـه وسـادة جميـلة ، ثم أسلمت السـلة لنهر « آسفا » والدمـوع تترقرق فى عينيهـا » •

وبعد ذلك عادت الى القصر وقد كتمت أحزانهـا فى قلبهـا ، حتى لا يفضح وجهها الحزين سرها • وحمل التيار السلة وبداخلها الطفل حتى أوصلها الى نهر الكنج الذى حملها بدوره الى شاطىء مـدينة « تشامبا » التى تقع فى مقاطعة « سوتا » • وتصادف أن كان رجل من قبيلة « سوتا » يسير مع زوجته على شاطىء النهر ، عندما وقع بصره على السلة ، فجرها من المـاء • وعندما فتحها أبصر طفـلا « جميلا كشمس الصباح ، متمنطقا بدرع ذهبى ، ويزين وجه الجميل قرط براق » • ولمـا كان هذان الزوجان لم ينجبا أطفالا ، فقـد قال الرجل لزوجته عنـدما وقع بصره على الطفل الجميل : « لقد أرسلت لى الآلهة هذا الطفل بكل تأكيد لعلمها أننى لم أنجب أبناء » • ومن ثم

فقد تبنى الزوجان هذا الطفل الذى ترعرع فى كنفهما ، وأصبح راميا بارعا للسهام وأطلقا عليه اسم « كارنا » • أما أم الطفل فقد كانت تعلم أخبار الطفل أولا بأول عن طريق جواسيسها •

وشبيه بهذه القصص ما يحكى عن « تراكهان » ملك « جيلجيت » ، وهى بلدة تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر فى قلب جبال الهملايا الثلجية • ولما كانت « جليجيت » تتميز بجوها وموقعها المتوسط ، كما كانت تشتمل على مساحة شاسعة من الأراضى الخصبة ، فقد كانت مركزا لحكام تعاقبوا عليها عبر الأجيال ، فرضوا سيطرتهم فى قليل أو كثير من العنف على الأودية والممالك المجاورة • من أشهر هؤلاء الحكام بدون منازع كان الملك « طرخان » الذى كان يحكم فى حوالى مطلع القرن الثالث عشر ، وكان ، فيما روى ، أعظم هؤلاء الحكام وأكثرهم زهوا ، ومازال الناس يشغلون أنفسهم بروايات حكايات عن كنوزه وأفعاله • وتجرى حكاية ميلاده وابعاده على النحو التالى : كان والد طرخان واسمه « ترا ـ طرخان » ملكا على جيلجيت ، وكان متزوجا من امرأة تنتمى الى عائلة ثرية فى « داريل » • ولما كان الزوج يهوى لعبة البولو ، فقد تعود أن يذهب الى « داريل » كل أسبوع ليمارس لعبته المحبوبة اليه مع اخوة زوجته السبعة • وذات يوم كان الجميع يلعبون بحماس بالغ الى درجة أنهم اتفقوا فيما بينهم أن الغالب فيهم يحكم على الآخرين بالموت • وقد كانت المباراة طويلة وحامية ، ولكن الملك أحرز النصر فى نهاية الجولة ، ونفذ الحكم فى الاخوة السبعة بوصفه رياضيا صادقا • وعندما رجع الى بيته بروح عالية بدون شك ، وأخبر زوجته بنتيجة المباراة المؤلمة ، وان كانت محتمة ، كانت الملكة أبعد من أن تشاركه فرحه بنصره ، بل انها استاءت لجريمته ، أو بالأجرى بتنفيذه حكم الشنق فى اخوتها السبعة ، وعزمت على أن تنتقم لهم منه ، فوضعت له الزرنيخ فى طعامه ، فهلك فى الحال وحكمت بدلا منه • وكانت الملكة تعلم ، وهى تتخذ هذه الخطوة الجريئة، أنها حامل من الملك • ثم وضعت طفلا ذكرا بعد وفاة زوجها بشهر ،

وسمت ابنها « طرخان » • ولكن الأم كانت ما تزال حزينة كل الحزن على فقد اخوتها الى درجة أنها لم تطق النظر الى ابن قاتلهم • ومن ثم فقد وضعت الطفل فى صندوق خشبى ورمت به سرا فى النهر • فحمل التيار الصندوق بعيدا الى « هودار » وهى قرية تقع فى ضاحية « تشيلاز » • وتصادف أن كان أخوان فقيران يجمعان الحطب من من الشاطىء ، عندما أبصرا الصندوق يطفو على الماء ، ولما كانا يعتقدان أن الصندوق ربما احتوى على كنز ، فقد غاص أحدهما فى الماء وجر الصندوق الى الشاطىء • وحتى لا يثير الأخوان فضول الناس إذا ما سارا بالصندوق الذى يحمل الكنز المتوقع عاريا ، فقد أخفياه بين عيدان الحطب وسارا به الى بيتهما • وعندما فتحا الصندوق، فوجئتا لدهشتهما بأن بالصندوق طفلا حيا جميلا • فتسلمته منهما أمهما وشملته برعايتها • ويبدو أن الطفل كان قد جلب معه البركة لأهل البيت ، اذ سرعان ما أخذت تبدو على الأسرة التى كانت معدمة من قبل ، امارات الثراء • وتفاءلت الأسرة بالطفل الذى كان سببا فى هذا الخير • ولما شب الطفل عن الطوق وبلغ الثانية عشرة من عمره ، شعر برغبة شديدة فى زيارة « جيلجيت » التى طالما سمع عنها الكثير من الأخبار • فرحل اليها فى صحبة أخويه فى الرضاع • وفى أثناء الطريق، مكثوا بضعة أيام فى مكان يسمى « بالداس » ، كان يقع على قمة تل من التلال • فى هذا الوقت كانت أم الصبى الملكة ما تزال تحكم فى جليجيت ، وكانت قد وقعت فريسة للمرض • ولما لم يكن هناك من يخلفها فى الحكم ، فقد أخذ شعب جيلجيت يبحث عن ملك غريب ليحل محلها • وذات صباح ، وبينما كانت كل شئون الدولة معلقة بظهور الملك الجديد ، أخذت ديوك القرية تصيح • ولكنها لم تصح صياحها المألوف ، « كوك آه دودلى ـــ دو » بل صاحت :« بلداس ثام بايبى » • ومعنى العبارة « هنا ملك بينكم فى بالداس » • واثر ذلك أرسلت الرسل الى « بلداس » لتحضر كل شخص غريب تقع عليه أبصارهم • وتقابل الرسل مع الأخوة الثلاث الغرباء وأحضروهم

الى الملكة ، ولما كان « طرخان » ممشوق القد ذا هيبة ، فقد أخذت تتحدث معه دون اخوته ، ومن خلال حديثها معه عرفت قصة حياته . ولشدة سعادتها عرفت أن هذا الغلام الجميل هو ابنها الذى فقدته عندما رمت به فى النهر وهى فى غمرة حزنها على فقد اخوتها ، وحنقها على زوجها الراحل . وعند ذاك احتضنت لأم ابنها ونادت به ملكا على جيلجيت من بعدها .

وقد افترض بعض الباحثين أن الحكايات الشبيهة بحكاية ابعاد موسى الطفل وطرحه فى الماء بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصد اختبار بنوة الأطفال الشرعية لآبائهم . فقد كان الأطفال يطرحون فى الماء حيث يتركون لمصيرهم . فاما أن يطفوا ، أو يستقروا فى قاع الماء . والطفل الذى يطفو يعد طفلا شرعيا ، أما الطفل الذى يستقر فى الماء ، فان المجتمع يرفضه بوصفه ابنا غير شرعى . وربما اتضح فى ضوء هذا الفرض ، أن ميلاد الطفل فى كثير من الحكايات السابقة يصور على أنه حدث خارق للعادة ، ويرتبط بهذا ميل المتشككين الى اعتبار الطفل مرادفا للشىء الخارج عن المألوف . ومن ثم حكت الأسطورة الاغريقية أن كلا من الطفلين « برسيوس » و « تيليفوس » كانا ابنى الاله زيوس ، وبالمثل البطل هرقل . كذلك حملت الأم العذراء فى التوأم « رومولوس » ، فى الأسطورة الرومانية، عن طريق الاله « مارس » . كما عزت الأميرة فى الملحمة الهندية ، حملها فى ابنها لاحتضان اله الشمس لها . أما فى الحكاية البابلية من ناحية أخرى فقد كان الملك سرجون ، أقل حظا من أبطال الاغريق الهنود والرومان ، أو لنقل أكثر صدقا منهم ، عندما اعترف فى صراحة بأنه كان يجهل أباه . أما حكاية التوراة فلم تذكر شيئا عن شرعية بنبوة موسى . لكننا اذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجا من عمته . وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج ، واذا تذكرنا أن القانون العبرى المتأخر قد أبطل مثل هذا الزواج باعتباره زنا ، فربما ساورنا الشك ، ونرجو ألا نتهم بالتعسف فى هذا الشك ، أن أم موسى فى

المشكل الأصلى الحكاية كان يدفعها سبب خاص فى طرح ابنها فى النهر ، وأنها لم تفعل هذا رضوخا لأمر عام صدر من فرعون بطرح كل أطفال العبريين فى الماء • ومهما يكن الأمر فى الحكاية العبرية فانه يبدو أنه كانت من عادة الشعوب الأخرى ، أن تطرح الطفل فى الماء لتقرر ما اذا كان الطفل شرعيا أم غير شرعى ، ومن ثم كانت تقرر الابقاء عليه أو اعدامه • فقد قيل ان الكلتيين كان يحكمون نهر الراين فى أمر شرعية أبنائهم أو عدم شرعيتهم ، فقد كانوا يرمون أطفالهم فى النهر ، فاذا كان الأبناء أولاد زنا ، آغرقهم النهر المتجهم ذو المياه الصافية • أما اذا كانوا أبناء شرعيين ، حملهم النهر فى رفق على سطحه ، ودفعهم الى أحضان أمهاتهم اللاتى كن يقفن مرتجفات فى انتظار حكم النهر • وبالمثل حكى الناس فى افريقيا الوسطى للمكتشف « سيكى » عن حاكم مشهور كان يسكن بالقرب من « أوروورى » احدى ضواحى « أونييورو » التى تتبع ولاية « كيميزبرى » ، أنه كان يزين أطفاله بالخرز ويرميهم فى نهز نيانزا لكى يتأكد من شرعية بنوتهم له • فاذا غرق الأطفال فى الماء ، كان ذلك دليلا على أنهم ينتسبون لأب آخر ، أما اذا طفوا ، فانه يعيدهم الى حضانته •

الفصل الثانى

شمشون ودليله

يبدو شمسون البطل المارد ، ذا شخصية غريبة بين قضـــاة بنى اسرائيل الكبار • وقد ذكر الكتاب المقدس أن شمسون كان يشـــغل منصب القضاة فى بنى اسرائيل طيلة عشرين عاما ، ولكنه لم يـــذكر شيئا عن احكامه القضائية التى أصدرها وفقا لشخصيته القضائية • واذا كان لنا أن نصدر حكما على فحوى أحكام شمسون من خـــلال طبيعة أفعاله ، فانه يحق لنا أن نتشكك فيما إذا كان هذا الرجل يعـــد مفخرة فى تاريخ القضاء الاسرائيلى ، ذلك أن موهبته كانت أكثر ما تتمثل فى احداث الشغب والعراك وفى احراق مؤن الذرة التى يختزنها الناس ، وفى كثرة التردد على بيوت الدعارة • أى أن شمسون كـــان يبدو فى شخصية الطليق الفاجر الخليع أكثر مما كان يبدو فى شخصية القاضى الكفء الصارم • ومن ثم فنحن لن نعالج الآن قائمة جافة من الأحكام القانونية ، وانما سنعالج حكايات مغامراته المسلية غـــير اللائقة ، فى الحب والحرب ، أو بالأحرى فى القرصنة • ذلك أننا اذا قبلنا الحكايات التى دونت عن هذا الطائش الفاجر ، ونحن ملتزمون بها بدون شك ، فاننا نجد أنه لم يقم قط بحرب نظامية ، كما لم يقم بعصيان وطنى مسلح ضد الفلسطينيين الذين ظلموا قومه ، وانما كان يقوم بمجرد هجوم مفاجىء عليهم بوصفه البطل الفرد أو الفـــارس المتجول ، ثم يضربهم بفك حمار أو بأى سلاح آخر يقع فى يده • وحتى فى هذه الغارات التى تقوم على السلب ، (اذ أنه لم يكن يتورع عن أن يسلب ضحاياه من ملابسهم ، ومن المحتمل من ثروتهم) كانت فكرة تخليص قومه من العبودية ، كما يتضح ن كل الشواهد ، آخر ما يتراءى

له • وعندما كان يقوم بمذبحة للفلسطينين ، كما كان يفعل ذلك كثيراً في تهور بالغ ، وبارتياح قلبي ، فانه لم يكن يفعل هذا بدافع وطني أو دهاء سياسي ، وانما بدافع حقد شخصي صرف يهدف الى الانتقام من هؤلاء الذين أساءوا له ولزوجته وولدهما • فقصته من بدايتها حتى نهايتها هي قصة مغامر أناني مخادع تحركه ثورات عاطفية جامحة ، ولا يكترث بشيء سوى ارضاء نزواته الوقتية • ولم يخفف من حدة نذالة هذه الشخصية وابتذالها المألوف سوى تلك القوة الخارقة للعادة ، والبسالة الطائشة ، ونمط مقيت من الفكاهة • وقد رفع هذا كله القصة الى نوع من الملحمة الهزلية من النوع الذي كتبه « أريستو » (١) • واذا كانت هذه العناصر قد أضفت الجدة على قصة معارك هذه الشخصية ، فانها لم تقلل من احساسنا بالنفور من هذه الشخصية الغريبة المختالة المتغطرسة ، وبخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مع شخصيات القديسيين والأبطال الذين صوروا في معرض التاريخ الاسرائيلي • وربما تمثلت الحقيقة في أن المبالغة في تصوير شخصية شمسون ترجع الى لمسات مصور القصة أكثر مما ترجع الى الحقيقة التاريخية • اذ من المحتمل أن الحوادث العجيبة المسلية التي رويت عن تاريخ حياة هذه الشخصية السيئة السمعة ، قد انسابت في غير ضابط بوصفها حكايات شعبية ، مع تيار التراث الشفاهي ، وذلك قبل ان تبلور بزمن طويل في ذاكرة الشعب حول شخصية رجل حقيقي باسل من سكان النجاد والحدود ، ومن نوع الرجال العبريين الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب ، الذي اشتهر بوصفه بطل بني اسرائيل في كثير من الغزوات التي كان يقوم بها عبر الحدود الى سهول فلسطين الغنية ، بفضل مزاجه الحاد وقوته الخارقة وجسمه القوي • ذلك لأنه ليس هناك سبب مقنع يجعلنا نشك

---

(١) شاعر ايطالي كوميدي عاش في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . (المترجمة) .

فى وجود أساس صلب من الواقع يرتكز عليه هذا التكوين المهلهل الخيالى الذى تشف عنه أسطورة شمشون • ومما يؤكد كل التأييد وجود رواية محلية أصلية لحكاية شمشون ، ويعارض فى الوقت نفسه نظرية الأسطورة الفلكية التى يمكن أن يلجأ اليها أصحابها فى تفسير قصة البطل الأسمر ، أن مناظر قصة حياة هذا البطل قد صورت فى أخص خصائصها من ميلاده الى مماته فى بلاد وأمكنة بعينها ••

وأكثر ما يتضح تدخل القاص فى هذه الحكاية ، فى وصف الكارثة التى حلت بالبطل بسبب خداع امرأة منافقة له ، بعد أن استطاعت أن تستدرجه حتى اكتشفت سر قوته وأفشته الى اعدائه • وتجرى حكاية هذا الخداع على النحو التالى :

« وكان بعد ذلك أنه أحب امرأة فى وادى سورق اسمها دليلة • فصعد اليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها : تملقيه وانظرى بماذا قوته ومائة شاقل فضة • فقالت دليلة لشمشون أخبرنى بماذا قوتك وبماذا توثق لاذلالك ؟ • فقال لها شمشون اذا أوثقونى بسبعة أوتار طرية لم تجف ، أضعف وأصير كواحد من الناس • فأصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابث عندها فى الحجرة • فقالت له ، الفلسطينيون عليك يا شمشون • فقطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة اذا شم النار ولم تعلم قوته • فقالت دليلة لشمشون ، ها قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب ، فأخبرنى الآن بماذا توثق ؟ • فقال لها اذا أو ثقونى بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس • فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها وقالت له ، الفلسطينيون عليك يا شمشون ، والكمين لابث فى الحجرة • فقطعها عن ذراعه كخيط • فقالت دليلة لشمشون حتى الآن ختلتنى بالكذب • فأخبرنى بماذا توثق ؟ فقالت لها اذا ضفرت سبع خصل رأسى مع السدى ، فمكنتها بالوتد • وقالت له • الفلسطينيون علك

يا شمشون • فانتبه من نومه وقلع وتد النسيج والسدى • فقالت له ، كيف تقول أحبك وقلبك ليس معى ؟ هو ذا ثلاث مرات قد ختلتنى ولم تخبرنى بماذا قوتك العظيمة ؟ ! • ولما كانت تضايقه بكلامها كل يوم وألحت عليه ، ضاقت نفسه الى الموت • فكشف لها كل قلبه وقال لها : لم يعل موسى رأسى لأنى نذير الله من بطن أمى • فان حلقت تفارقنى قوتى وأضعف وأصير كأحد الناس • ولما رأت دليلة أنه قد أخبرها بكل ما فى قلبه أرسلت فدعت أقطاب الفلسطينيين ، وقالت اصعدوا هذه المرة فانه قد كشف لى كل قلبه • فصعد اليها أقطاب الفلسطينيين وأصعدوا الفضة بيدهم • وأنامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأسه وابتدأت باذلاله وفارقته قوته • وقالت الفلسطينيون عليك ياشمشون • فانتبه من نومه وقال أخرج كل مرة • وانتفض • ولم يعلم أن الرب قد فارقه • فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به الى غزة وأوثقوه بسلاسل نحاس وكان يطحن فى بيت السجن » [1] •

وهكذا نرى ان العبريين كانوا يعتقدون أن قوة شمشون المهولة كانت تكمن فى شعره . وأن مجرد حلق خصلات شعره الطويلة الشعثاء التى كانت تتدلى على كتفيه ، ولم تحلق منذ نعومة أظفاره — كان كافيا أن يسلبه قوته الخارقة للعادة ، ومن ثم يصبح عاجزا عن القيام بأعماله البطولية • وهذا الاعتقاد فى أن بعض الأحياء من الرجال والنساء ، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقد فى امتلاكهم لقوة خارقة للعادة مثل شمشون ، ينتشر فى جهات كثيرة من أنحاء العالم • فقد كان أهالى جزيرة « أمبوينا » ، وهى جزيرة تقع فى جزر الهند الشرقية ، يعتقدون أن قوتهم تكمن فى شعرهم وأنهم يفقدون تلك القوة اذا ما قصوا خصلات شعرهم • وبالمثل كان المتهم أمام المحكمة الهولندية فى هذه

---

(١) سفر القضاة ، الاصحاح السادس عشر من آية ٤ الى ٢١ .

الجزيرة يصر على عدم الاعتراف بجريمته ولو تعرض للعذاب ، حتى تقص خصلة من شعره وعند ذلك يعترف بجريمته فى الحال • وقد حدث أن اتهم رجل بجريمة قتل وتعرض لأقسى انواع العذاب حتى يعترف بجريمته دون أن يبدى أى ألم ازاء هذا التعذيب • ولكنه عندما أبصر رجلا يحمل مقصا فى يده ، سأل عن الغرض من حمل الرجل لهذا المقص • فقيل له أنهم يريدون أن يقصوا له شعره ، وعند ذلك توسل اليهم فى الحال الا يفعلوا ذلك ، لأنه سوف يعترف لهم بكل شىء • ومن ثم فقد تعودت السلطات الهولندية أن تقص شعر المتهم ، اذا فشل التعذيب فى حمله على الاعتراف • وما زال سكان « سيرام » وهى جزيرة أخرى من جزر الهند الشرقية ، يعتقدون أنه اذا حلق شبابهم شعورهم فان الضعف والوهن ينتابهم أثر ذلك •

وقد ألف الأوربيون أن يعتقدوا أن القوة الشريرة عند السحرة والعرافين تستكن فى شعورهم ، وأنه ليس هناك من شىء يؤثر فى هؤلاء الأوغاد طالما كانوا يحتفظون بشعورهم على رءوسهم • ومن ثم فقد جرت العادة فى فرنسا أن يحلق كل جزء من أجسام الذين يتهمون بالشعوذة ، وذلك قبل تسليمهم الى من يقوم بتعذيبهم • وقد رأى « ميلايوس » رأى العين التعذيب الذى تعرض له بعض الأفراد فى تولوز حتى يعترفوا بجرائمهم وظلوا على هذا النحو من الاصرار حتى عروا من ملابسهم وحلق كل جزء من أجسامهم • كما كانت هناك امرأة تعيش حياة ورعة فيما يبدو ، ولكنها اتهمت بممارستها السحر ، ومن ثم فقد تعرضت لشتى أنواع التعذيب الذى تحملته بشكل لا يصدقه عقل ، حتى دفعها ازالة شعرها عن جسدها كله الى الاعتراف بتهمتها • وقد كان المحقق المرموق « سبرنجر » يكتفى بحلق رأس المتهم بممارسة السحر أو الشعوذة ، فى حين أمر زميله المتطرف « كومانوس » بحلق شعر جسم إحدى وأربعين امرأة قبل أن يحكم عليهن بالموت حرقا • وكان قد فوض تفويضا كاملا لأن يكون مدققا فى هذا العمل على نحو ما فعله ، حيث أن الشيطان نفسه كان قد

خطب من أعلى منبر كنيسة « نورث بيرويك » ليطمئن اتباعه بأن أكد لهم أن الأذى لن يلحق بهم قط « طالما كانوا يحملون شعرهم على أجسامهم ، وأنه لن يسمح لأحد بأن يزيل هذا الشعر عنهم » • وقد كان يحدث ما يشبه هذا فى مقاطعة « باستار » فى الهند • « فعندما كانت تثبت التهمة ضد رجل من هذه المقاطعة بأنه يمارس السحر ، فان الجمهور كان ينهال عليه ضربا ، كما كان يحلق شعره ، حيث أن قوى الشر تكمن فى شعره وتخلع أسنانه الأمامية حتى لا يستطيع ترديد التعاويذ • أما النساء اللاتى يتهمن بممارسة الشعوذة ، فانهن يتعرضن لمثل هذا الامتحان القاسى • فاذا ثبتت تهمتهن ، فانهن ينلن العقاب الذى يناله الرجال المشعوذين • وفضلا عن حلق شعورهن ، فانها كانت تربط فى شجرة فى مكان عام » وعندما كانت المرأة تتهم بممارسة السحر عند « البهيليين » وهم شعب بدائى يسكن الهند الوسطى ، فإنها كانت تتعرض لصنوف من التهديد التى تحملها على الاعتراف باثمها ، كأن تعلق أمامها على شجرة رءوس أشخاص سبق أن حكم عليهم بالشنق ، وكأن يوضع الفلفل فى عينيها ، وتقص خصلة شعر من رأسها وتدفن فى الأرض « حتى تنفصم آخر عروة بينها وبين قواها الشريرة السالفة » • وقد كان « الأزتيكيون » فى المكسيك يعاقبون السحرة والمشعوذين على هذا النحو ، « فعندما كان هؤلاء يقومون بأفعالهم الشريرة ، ويحين الوقت الذى ينبغى أن يوضع فيه حد لحياتهم المقيتة ، يلقى القبض عليهم وتحلق خصلة من الشعر من قمة رءوسهم ، فتسلب منهم مقدرتهم على التنجيم والشعوذة ، وفى النهاية يحكم عليهم بالموت ، فتنتهى بذلك حياتهم الكريهة •

وليس غريبا ان يجد هذا الاعتقاد الذى ينتشر على نطاق واسع ، مكانا له فى الحكايات الخرافية • فكل ما يبدو فى الحكاية الخرافية من خيال منطلق ، انما هو مرآة تنعكس عليها المعتقدات الحقيقية التى كان يعتقدها الناس الذين نشأت بينهم هذه الحكايات • فسكان جزيرة نياس التى تقع بعيدا عن الشاطىء الغربى من سومطرة يحكون

أنه كان فى سالف الأزمان زعيم بعينه يدعى « لابو ــ ماروس » . وقد هاجر هذا المزعيم من « مكاسار » التى تقع فى « سيليبيس » بسبب الزلازل ، ورحل مع رفاقه الى « نياس » . وكان من بين الذين شاطروه مصيره فى الأرض الجديدة ؛ عمه وزوجة هذا العم . ووقع ابن الاخ النذل فى حب زوجة عمه ؛ ودبر مؤامرة لكى يمتلكها لنفسه . وعندئذ هرب عمه المعذب الى « مالاكا » حيث طلب من سلطان « جوهورى » أن يساعده فى الانتقام من ابن أخيه . فوافق السلطان وأعلن الحرب على « لاوبو ماروس » . فى هذه الأثناء حصن الزعيم المخادع مكان اقامته بسور شائك من فروع البامبو بحيث باءت محاولات السلطان وجيشه بالفشل فى سبيل الاستيلاء على هذا المكان عنوة . فلما انهزم السلطان على هذا النحو فى هذه المعركة المكشوفة لجأ الى الخديعة . فعاد الى بلدة « جوهورى » ، وحمل سفنه بالحصر الأسبانية ثم أبحر مرة اخرى الى « نياس » ، ورسا بعيدا عن قلعة عدوه ، وشحن بنادقه بالحصر بدلا من البارود والمفرقعات ، وصوبها الى قلعة عدوه . وفى الحال تطايرت الحصر فى الهواء كوابل من البرد ، وغطت سور القلعة الشائك ، كما غطت الشاطىء المجاور . ولما أحكم السلطان الفخ على هذا النحو ، انتظر ما يفعله عدوه . على أنه لم ينتظر طويلا ، عندما أبصر امرأة عجوزا تجوس على طول الشاطىء خلسة ، وتأخذ احدى هذه الحصر ، بينما كانت سائر الحصر تنتشر حولها فى اغراء . وسعدت المرأة بهذا الاكتشاف ومضت تحمل أنباء هذه الحصر الى الجيران . عند ذاك خف الجميع الى هذا المكان ، وفى لحظة لم يصبح السور الشائك عاريا من الحصر فحسب ، وانما هو محطما الى الأرض . ولم يبق أمام السلطان سوى أن يسير بجيشه الى القلعة ويستولى عليها . وعند ذاك هرب الجيش المدافع عنها . ووقع الزعيم النذل أسيرا فى يد اعدائه الظافرين الذين حكموا عليه بالاعدام . على أنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا هذا الحكم فيه لأنهم عندما رموه فى اليم ، لم يغرقه الماء . فلما طرحوه وسط كومة

من الحطب المحترق ، لم تحرقه النار • فانهالوا على جسمه بالسيوف ، ولكن السيوف لم تخترقه • وعند ذلك أدركوا أنه لا بد أن هناك قوى سحرية تتملكه • فلجأوا الى زوجته عساهم يلمسون عندها النصح فى كيفية قتله • ورضخت الزوجة لمطلبهم وأفشت سر زوجها الخطير كما فعلت دليلة مع شمشون ، وأخبرتهم بأن هناك شعرة صلبة كالسلك النحاسى بين شعر رأس زوجها ، وأن حياته ترتبط بهذه الشعرة • فلما انتزعت الشعرة من رأس الزعيم ، فارقته روحه فى الحال • ونلاحظ فى هذه الحكاية كما هو الحال فى غيرها من الحكايات ، أن الشعر لا يعد مكمنا لقوة الشخص فحسب ، بل يعد كذلك مكمنا لروحه • ومن ثم فان فقدان الشخص لشعره يعنى فقدانه لحياته •

وكثيرا ما تتردد فى تراث الاغريق الأسطورى حكايات شبيهة بحكاية شمشون ودليلة • فقد حكى أن « نيسوس » ملك « ميجارا » ، كانت له شعرة ذات لون ذهبى أو أرجوانى وسط رأسه • وقد كان هذا الملك معرضا للموت اذا ما انتزعت هذه الشعرة من رأسه • فلما هاجم الكريتيون « ميجارا » وانتصروا عليه ، وقعت ابنة « ميجارا » فى حب « مينوس » ملك الكريتيين • ولم تتورع الابنة عند ذاك من انتزاع هذه الشعرة من رأس أبيها الذى توفى فى الحال • ووفقا لرواية أخرى انه لم تكن تستقر فى هذه الشعرة روح « ميجارا » ، بل قوته • فلما انتزعت هذه الشعرة من رأسه وهن العظم منه ، وبذلك تمكن « نيسوس » من قتله • وهذه الرواية الأخيرة أقرب لقصة شمشون ودليلة من الرواية الأولى منها • وقد قيل ان « بوزايدون » قد أكسب « بيتيريلاوس » الخلود بأن منحه شعرة ذهبية فوق رأسه • ولكن عندما استولى « أمفيتيو » على « تافوس » موطن « بيترلاوس »، ووقعت ابنة الأخير فى حب « أمفيتريو » ، انتزعت الشعرة التى كانت تستقر فيها روح أبيها ، وبذلك قضى أبوها نحبه • وتحكى حكاية شعبية أغريقية عن رجل كانت تكمن قوته فى ثلاث شعرات ذهبية فى رأسه • فلما انتزعت أمه هذه الشعرات من رأسه ، انتابه الوهن

والجبن ، ثم قتل بيد أعدائه من بعد . وهناك حكاية أغريقية أخــرى تحتوى على أثر من حكاية « نيسوس » و « سيسلا » ، وتحكى أن ملكا كان يعد أقوى رجال عصره ، وكانت له ثلاث شعرات فى صدره تكمن فيها قوته . فلما خرج لمحاربة ملك آخر ، كانت زوجته المخادعة قد انتزعت هذه الشعرات من صدره ، وبذلك أصــبح أضعف الرجال فى هذه الحــرب .

وتشبه حكاية خداع دليلة الغادرة لعشيقها شمشــون ، عندما كشفت لأعدائه عن سر قوته ، ما يحكى فى التراث الكلتى والسلافى من حكايات شبيهة بذلك . ووجه الاختلاف بين الحكايات الكلتية والسلافية من ناحية ، والحكاية العبرية من ناحية أخرى ، هو أن قوة البطل أو روحه لا تكمن فى الحكايات الأولى ، فى شعره ، بل تــكمن فى شىء خارجى مثل بيضة أو طائر . فهناك حكاية روسية تحكى ان ساحــرا بعينه يسمى « كاشتشاى » أو « كوششاى الذى لا يموت » ، خطف أميرة وحبسها فى قلعته الذهبية . وبينما كانت الأميرة تسير ذات يوم فى حديقة القلعة وحيدة حزينة ، تقابل معها أمير من الأمراء وعرض عليها أن تهرب معه . وسعدت الأميرة بهذه الفكرة ، وذهبــت الى الساحر وقالت له بألفاظ ناعمة رقيقة : « أتوسل اليك يا أحب رجــل عندى أن تخبرنى : ألن تموت أبدا » ؟ فأجابها قائلا : « أجل ، بــل اننى سأموت » . فقالت له : « حسنا ، ولكن أين مكمن موتك ؟ هل هو فى هذا المسكن الذى تعيش فيه ؟ « فقال لها » : نعم انه بكل تأكيد فى هذا المسكن ؛ انه يكمن فى المكنسة التى تقع تحت عتبــة الباب » . عند ذاك أتت الأمير بالمكنسة وألقت بها فى النــار . وعلى الرغم من أن النار التهمت المكنسة فإن « كوششاى الذى لا يموت » ظل حيا لأنه لم يذكر لها شيئا عن شعره . فلما رأت الأميرة المــاكرة الذكية أنها لم تنجح فى محاولتها الأولى ، جاءته مرة أخرى مقطبة وجهها وقالت له : « انك لا تحبنى حبا صادقا ، لأنك لم تخبــرنى بالمكان الحقيقى الذى يكمن فيه موتك . ومع ذلك فاننى لست غاضبة منك لأننى أحبك من صميم قلبى » . وبهذه الكلمات المتملقة استدرجت

الساحر الى أن يخبرها بحق بالمكان الذى يكمن فيه موته • فضحك الساحر وقال لها : « لماذا تلحين وراء هذا الموضوع ؟ ومع ذلك فسوف أخبرك بذلك بدافع حبى لك • فهناك فى حقل بعينه تنمو ثلاث شجرات من البلوط ، وهناك تحت جذور أكبر هذه الشجرات تعيش دودة • فاذا تمكن أحد من العثور على هذه الدودة وقام بسحقها فاننى سأموت على الفور » • وبهذه الكلمات رحلت الأميرة على التو الى حبيبها وأخبرته بقول الساحر ، فهم فى البحث عن الشجرات حتى وجدها واستخرج الدودة وسحقها • ثم أسرع الى قلعة الساحر حيث وجده ما يزال على قيد الحياة • فلجأت الأميرة مرة ثالثة الى حيلة تملقت بها الساحر ولاطفته حتى غلبته بخداعها وفتح لها مكنون صدره وأخبرها بالحقيقة وقال لها « ان موتى يكمن فى المحيط الشاسع بعيدا عن هذه الأمكنة جميعا ، وليس من اليسير الحصول عليه • ففى هذا المحيط توجد جزيرة ، وهناك فى هذه الجزيرة تنمو شجرة بلوط يستقر تحتها صندوق حديدى بداخله سلة بداخلها أرنب برى • وبداخل الأرنب بطة وبداخل البطة بيضة • ومن يستطيع أن يعثر على البيضة ويهشمها ، فانه يقتلنى فى الوقت نفسه • وحصل الأمير بطبيعة الحال على هذه البيضة التى كان من شأنها أن تقرر مصيره ، وواجه الساحر وهو يحمل البيضة فى يده • وقد كان فى وسع الساحر أن يقتله ، لولا أن الأمير أسر وهشم البيضة بين يديه • وفى تلك اللحظة صرخ الساحر من الألم وتوجه الى الأميرة الخادعة التى كانت واقفة وهى تبتسم فى شماتة وقال لها : « ألم يكن حبى لك هو الذى دفعنى لأن أخبرك بالمكان الذى يستكن فيه موتى ، واذ بك تكافئينى على هذا النحو ؟ » • ثم حاول أن يمد يده ليأخذ السيف الذى كان معلقا أمامه على المشجب • ولكنه قبل أن يفعل هذا سحق الأمير البيضة ، فتوفى الساحر فى الحال •

وفى رواية أخرى لهذه الحكاية نفسها ، أن الأميرة طلت المكنسة بالذهب عندما أخبرها كذبا أن موته يكمن فيها • فلما كان وقت العشاء

أبصر الساحر بريق المكنسة من تحت عتبة الباب فسألها فى حـدة : « ما هذا الذى فعلته ؟ » فقالت له « أترى كيف أننى أقدرك ؟ » فقال لها : « أيتها المرأة الساذجة . لقد كنت أمزح معك عندما أخبرتك أن موتى يكمن فى المكنسة • فموتى يكمن فى الحقيقة فى سور القلعـة المصنوع من فروع البلوط » • فلما خرج الساحر فى اليـوم التالى ، جاء الأمير وطلى السور كله بالذهب • فلما عاد الساحر فى المساء وكان وقت العشاء ، نظر من النـافذة فبهـره بريق الذهب الذى طلى به السور • فقال لها : « بحق الشيطان ، ما هذا الذى فعلته ؟ » فقالت له : « لعلك تتأكد كيف أننى أقدرك • واذا كنت أنت عزيزا على كما ترى ، فان موتك يعز على كذلك • ولهذا فقد طليت السور الذى يستقر فيه موتك بالذهب » • وخدع الساحر بقول الأميرة وأبدى الرغبـة الصادقة فى أن يكشف لها سر البيضة الخطيرة • وعندما حصل الأمير على البيضة بمساعدة بعض الحيوانات الصديقة له ، وضع البيضـة فى صدره وعاد الى قلعة الساحر • وكان الساحر يجلس آنذاك فى شباك قلعته مشتت العقل • وعندما وصل الأمير واطلع الساحر على البيضة ، صار الضياء فى عينه ظلاما وتحول الى شخص خنوع لين • ثم أخذ الأمير المنتصر يلعب بها ويقذفها من احدى يديه الى الأخرى ، وكوشتشاى الذى لا يموت يتخبط من ركن الى ركن فى الحجرة • وفى النهاية هشم الأمير البيضة ، فسقط الساحر ميتا •

وتحكى حكاية سيبيرية أن ساحرا بعينه يدعى « الصلب الأصيل » خطف زوجة أمير وحبسها فى كهفه • وأخذ الأمـير يسـعى حتى عرف مكانها وأخبرها بأن تسعى جاهدة فى اغراء « الصلب الأصـيل » لكى يكشف لها عن مكمن قوته • فلما عاد « الصلب الأصيل » الى مسكنه ، قالت له زوجة الأمير : « هلا أخبرتنى بالمكان الذى تكمن فيه قـوتك المهولة ؟ » فقال لها الساحر : « يا زوجتى العزيزة ، ان قوتى تكمن فى سيفى » • فاتجهت المرأة الى السيف وأخذت تصلى له • فلما رأى الصلب الأصيل ما فعلته ، سخر منها وقال لها : « أيتها المرأة الحمقاء

ان قوتى ليست فى سـيفى ، وانما فى رمحى وسهمى » • فتوجهت المرأة الى الرمح والسهم وأخذت تصلى لهما • عند ذاك قال لها « الصلب الأصيل » : « اننى اعتقد يا زوجتى العزيزة ان هناك وراءك معلما ماهرا يحثك على أن تبحثى عن المكان الذى تكمن فيه روحى • بل اننى أود أن أقول ان زوجك ما زال على قيد الحياة . وهو الذى يحثك على هذا »• ولكن الزوجة أكدت له أن ليس هناك من يدفعها الى هذا • ولمـا رأت أنه قد ضللها للمرة الثانية انتظرت بضعة أيام ثم عـاودت لسؤال عن سر قوته • فقال لها : « حيث أنك تفكرين كثيرا فى هذا الموضوع . فسوف أخبرك بحق عن مكانها : هنـاك فى مـكان بعيد يوجد جبل شاهق وعند هذا الجبل يسكن ثعلب يستقر داخل قلبه طائر • وفى هذا الطائر تسكن قوتى • على أنه ليس من اليسير القبض على هذا الثعلب . لأنه يستطيع أن يحول نفسه الى كائنات مختلفة » • وعندما خرج الساحر فى اليوم التالى من كهفه جاء الأمير وعلم من زوجته المـكان الحقيقى الذى تكمن فيه قوة الساحر فخف الى الجبل وهناك جاهد بمعونة أصدقائه من الطيور والكائنات المهولة مثل النسر والباز والتنين أن يمسك بالثعلب ، أو بالأحرى أنثى الثعلب التى كانت تغـير نفسها الى أشكال مختلفة • ثم شق قلب الثعلب وانتزع منه الطائر وأحرقه فى النار • وفى تلك اللحظة سقط « الصلب الأصيل » ميتـا عـلى الأرض •

وتحكى حكاية سيبيرية أخـرى أن تنينا كان يسـكن فى طاحونة مائية وابتلع ابنى ملك من الملوك واحدا تلو الآخر • فلما خرج الابن الثالث ليبحث عن أخويه . ووصل الى الطاحونة المـائية ، لم يجد هناك سوى امرأة عجوز حكت له عن هذا الكائن المهول الذى يدير الطاحونة . كما أخبرته أنه قد ابتلع أخويه ، ثم نصحته فى نهـاية الأمر أن يرحل عن هذا المكان على الفور قبل أن يلقى مصير أخويه • ولكن هذا الأخ الذى كان شجاعا وماكرا فى الوقت نفسه ، قال لهـا : « هات الى أذنك واستمعى جيدا لمـا سوف أقوله لك • اسألى التنين

أين يذهب ، وأين تكمن قوته • فان أخبرك بذلك قبلى أمامه هــذا المكان بشدة ، كما لوكنت تحبينه كل الحب حتى تتوصلى الى معرفة هذا السر ثم أخبرينى بعد ذلك بما حدث » • وعندما عاد التنين الى مسكنه سألته المرأة العجوز قائلة : « بحق الاله أخبرنى أين كنت ، وأن تذهب بعيدا عن هذا المكان ، فانك لم تخبرنى قط بالمــكان الذى ترحل اليه » • فأجابها التنين قائلا : « نعم ياسيدتى العجوز ، اننى أرحل بعيدا » • عند ذلك أخذت تتملقه المرأة العجوز وتقول له « ولكن ما الذى يدعوك لأن ترحل بعيدا ؟ ألا تخبرنى بالمكان الذى تستقر فيه قوتك • اننى لو علمته لانهلت عليه تقبيلا : فابتسم التنين وقال لها : « ان قوتى تستكن هناك فى مكان النار هذا » • فأخذت المرأة العجوز تقبل مكان النار وتلاطفه • فلما أبصرها التنين وهى تفعل ذلك انفجر ضاحكا وقال لها : « أيتها المرأة البلهاء ان قوتى ليست فى هذا المكان ، وانما تكمن فى شجرة النباتات العطرية التى تنمو أمام مسكنى » • فانهالت المرأة على الشجرة تقبلها وتلاطفها • فضحك التنين منها مرة أخرى وقال لها : « دعى عنك هذه الافعال أيتها المرأة العجوز ، فقوتى ليست فى هذه الشجرة » • فقالت له المرأة : « وأين تكمن قــوتك اذن ؟ » فرد عليها قائلا : ان قوتى تكمن فى مكن بعيــد لا يمكنــك الوصول اليه • فهناك فى مملكة أخرى غير تلك المملكة ، توجد بحيرة تقع أسفل مدينة الملك • وفى هذه البحيرة يعيش تنين فى جوفه ثور • وفى جوف هذا الثور تعيش حمامة ، وبداخل هذه الحمامة تســتكن قوتى » • وبهذا كشف التنين عن سره • فلما خرج فى صباح اليــوم التالى ليقوم بمهام عمله اليومى وهو التهام الناس ، جاء الامــير الى المرأة العجوز التى أطلعته على سر التنين • وبطبيعة الحال خف الأمير فى الحال للوصول الى البحيرة التى تقع فى البلاد النائية • وبعد صراع مرير استطاع أن يقتل التنين المــائى • ثم شق صدره وانتزع منه الحمامة التى كانت تكمن بداخلها قوة التنين المهول الذى يــدير الطاحونة المــائية • وبعد أن سأل الحمامة عن أخويه وكيفية ارجاع

الحياة اليهما ، لوى رقبة الحمامة فمات التنين الشرير فى تلك اللحظة بطبيعة الحال • والى هنا نتوقف الحكاية ولا تذكر شيئا عن موضوع الأخوين والأميرة •

وكثيرا ما يرد هذا الموضوع فى الحكايات الكاتية ، فقد روى عازف كمان كفيف كان يعيش فى جزيرة « اسلاى » ، أن عفريتا خطف زوجة ملك من الملوك كما خطف حصانيه واحتفظ بالجميع فى وكره • ولكن الحصانين هاجما العفريت وداساه بأقدامهما بحيث أصبح عاجزا حتى عن الزحف • ثم قال للملكة وهو على هذه الحال : لو أننى لم أحتفظ بروحى بعيدة عنى لقتلنى هذان الحصانان من زمن » • عند ذاك سألته الزوجة قائلة : « وأين تكمن اذن روحك ياعزيزى ؟ اننى أقسم لك بالكتب المقدسة أن أرعاها » فقال لها العفريت : « انها تكمن فى حجر « بوناش » • فلما خرج العفريت فى الصباح وضعت الملكة الحجر فى شكل منظم للغاية استلفت نظر العفريت عندما عاد فى غسق المساء ، ومن ثم فقد قال لها « لماذا وضعت الحجر على هذا النحو المنظم ؟ » فأجابته قائلة : « لان روحك تستكن فيه » • فقال لها : « لقد أدركت الآن أنك ستقدمين واجب الاحترام لروحى ، اذا ما علمت مكانها الحقيقى • فروحى لا تكمن فى هذا الحجر ، وانما تكمن فى عتبة باب مسكنى » • فلما كان الصباح نظمت الزوجة العتبة وزينتها • فلما عاد العفريت سألها قائلا : « ما الذى دفعك لأن تفعلى هذا ؟ » فأجابته : « أليست روحك كامنة فيها ؟ » فقال لها « اننى أرى الآن أنك ستولين روحى كل عنايتك اذا ما علمت أين تكمن على وجه الحقيقة » • فقالت له : « وهذا ما سوف أفعله » • فقال : « ان روحى لا تكمن فى عتبة مسكنى كما أخبرتك • وانما هنالك لوح حجرى يقع تحت عتبة المسكن ، وتحت هذا اللوح يرقد كبش مخصى ترقد بطة داخل معدته ، كما أن هناك بيضة داخل معدة هذه البطة • وبداخل هذه البيضة تقع روحى » • فلما خرج العفريت فى الصباح ، رفعت الزوجة وزوجها الحجر وأخرجا الكبش المخصى ثم شقا بطنه وأخرجا

البطة وانتزعا من تجويفها البيضة • وأخذت الزوجة البيضة بين يديها وهشمتها • وفي هذا الوقت كان العفريت عائدا الى وكره في غسق الليل • فلما تهشمت البيضة خر ميتا •

ومرة أخرى تقرأ في حكاية من حكايات « أرجيليشاير » ، أن ملك « سورشا » وكان ماردا مهولا ، اختطف زوجة راع من « كرووإشان » وأخفاها في الكهف الذي كان يسكنه • وبعد جهيد تمكن الراعي بمساعدة بعض الحيوانات الخيرة أن يصل الى هذا الكهف الذي أخفي فيه الملك المارد زوجته • ولما كان المارد ، لحسن الحظ ، متغيبا ، فقد أخفت الزوجة زوجها في مكان علوي من الكهف وغطته ببعض الملابس • فلما وصل الملك المارد أخذ يتشمم حوله وقال لها : « انني أشتم رائحة شخص غريب في هذا الكهف » • فأنكرت الزوجة ذلك وأوحت اليه بأنه انما يشتم رائحة طائر صغير قامت بشوائه • على أنها قالت له متوسلة : « ولكنني أود أن تخبرني ، أين تكمن روحك ، حتى يمكنني أن أرعاها » • فقال لها : « إنها تكمن في حجر رمادي يقع بعيدا هناك » • فلما خرجت الزوجة في صباح اليوم التالي أتت بالحجر وألبسته رداء ووضعته في المكان العلوي من الكهف • فلما عاد المارد سألها قائلا : « ما هذا الشيء الذي يرتدي ذاك اللباس ؟ » • فقالت له : « انه روحك ياعزيزي • ولا بد من أن أرعاها » • فقال لها : « لقد أدركت الآن مدى حبك لي ، ولكن روحي ليست في هذا الحجر » • فسألته قائلة : « وأين هي اذن ؟ » فقال لها : « انها تكمن داخل شاة ذات لون رمادي وتعيش عند جانب التل » • فخرجت الزوجة في صباح اليوم التالي وأحضرت الشاة وألبستها رداء ووضعتها في الجانب العلوي من الكهف • فلما عاد في المساء سألها قائلا : « وما هذا الشيء الذي ألبسته الرداء على هذا النحو ؟ » فقالت له : « انه روحك ياعزيزي » • فقال لها : « ولكنها ما تزال بعيدة عن ذلك » فقالت له : «إنك تكلفني اذن جهدا كبيرا في رعاية روحك • ولقد كذبت علي مرتين متتاليتين » فقال لها : « انني أعتقد الآن أنه يمكنني أن أخبرك

بمكانها الحقيقى ، ان روحى تكمن تحت قدم حصان كبير فى حظيرة الخيول ، فهناك فى مكان بعيد توجد بحيرة صغيرة ، وعلى سطح هذه البحيرة توجد سبع قطع من جلود الحيوان • وفوق هذه الجلود سبع حبت من الخلنج • وأسفل هذا كله توجد سبعة ألواح من خشب البلوط • وهناك فى البحيرة سمكة كبيرة بداخلها بطة تستقر فى جوفها بيضة • وأخيرا هناك شوكة سوداء داخل هذه البيضة • فاذا استطاع شخص أن يلوك هذه الشوكة بأسنانه فاننى أتوفى فى الحال • على أننى أشعر أينما كنت اذا ما مس أحد قطع الجلود السبعة ، وحبات الخلنج السبع ، وألواح البلوط السبعة • واننى أحتفظ بفأس بأعلى باب الكهف ، وبدون الاستعانة بهذه الفأس فى قطع هذه الاشياء بضربة واحدة فانه لا يمكن الوصول الى قاع هذه البحيرة » • فلما خرج الملك المارد فى صباح اليوم التالى للقنص فوق التل • جاهد الراعى بمعونة الحيوانات الخيرة التى سبق أن ساعدته من قبل ، فى الحصول على الشوكة المصيرية ولاكها بأسنانه قبل أن يتمكن المارد من الوصول اليه • وما كاد يفعل هذا حتى سقط المارد جثة هامدة •

ويحكى أهالى « جيلجيت » التى فى مرتفعات الهند الشمالية الغربية حكاية شبيهة بهذه الحكاية • فهم يروون أنه كان يحكم « جيلجيت » فى سالف الأزمان ملكا غولا يدعى « شرل بادات » • وكان هذا الملك الغول يكلف أتباعه باختطاف الاطفال وتقديم لحومهم طعاما لغذائه ، ومن ثم كان يسمى « بآكل اللحوم البشرية » • وكان لهذا الملك الغول ابنة تدعى « سكبنه » أو « ميوكهاى » تعودت أن تقضى شهور الصيف فى مكان جميل يقع على قمة الجبال ، فى الوقت الذى كانت تصطلى فيه « جيلجيت » بحرارة الوادى الذى كانت تقع فيه بين الجبال • وذات يوم كان أمير وسيم يدعى « شامشير » يقتنص فى الجبال بالقرب من مصيف الاميرة • ولما تعب الامير من القنص استراح هو ورفاقه وقت الظهير القائظة فى ظل شجرة تقع بالقرب من نبع • فى تلك اللحظة ساق القدر ، أو ساقت الصدفة خادمة

الأميرة الى هذا المكان ، لكى ترد من النبع • فلما رأت هؤلاء الغرباء نائمين فى هذا المـكان ، عادت الى سيدتها وأخبرتها بالامر • فغضبت الاميرة من تطفل هؤلاء على مكان اقامتها ، واستدعتهم اليها • ولكنها عندما وقع بصرها على الامير الجميل ، هدأ غضبها وأخذت تتحدث معه طويلا حتى المساء • وكان كلما طلب الامير أن يهبط الجبل ، منعتـه الاميرة وطلبت منه أن يحكى لها عن مغامراته وأفعاله الباسلة • وفى النهاية لم تستطع أن تخفى مشاعرها ، وطلبت منه أن يتزوجها • فوافق الامـير فى شىء من التردد لأنه كان يخشى عدم موافقة أبيها الشرير أن تتزوج من غريب مثله • ومن ثم فقد قررا أن يحتفظا بسرية زواجهما، وتزوجا فى تلك الليلة بعينها •

وما كاد الامير يفوز بالأميرة حتى أسرف فى طموحه ، وأخذ يسعى لأن يكون ملكا على هذه المملكة • ومن ثم فقد أوعز الى الاميرة أن تقبل أباها ، وأن تحمل لواء الثورة ضده • ووافقت الاميرة بدافع حبها لزوجها ، أن تدبر معه مؤامرة قتل والدها • ولكنها أدركت أن هناك عقبة تحول دون اتمام مهمتها ، هى أن الملك الغول « شرى بادات » كان من سلالة الجان ، ومن ثم فلم يكن يخشى أن يطعن بسيف أو برمـح لان هذه الاسلحة لم تكن تؤثر فى جسمه ، كما أنه لم يكن أحد يعرف طبيعة روحـه • ولهذا فقد كان أول واجب على الامير الطموح ، لكى يحقق مأربه ، أن يعرف طبيعة روح هذا الملك الغول على وجه التحديد • ومن ذا الذى يستطيع أن يستمد منه هذا السر أكثر من ابنته • وذات يوم أخبر الامير زوجته ، اما بدافع اشباع رغبتها فى التخلص من أبيها ؛ أو رغبة منه فى اختبار اخلاصها له ، بأنها لن ترى أباها قط اذا ما اصفرت أوراق شجرة بعينها وذبلت • ولمـا كان الوقت خريفا ، اذ كان الصيف قد أوشك على الانتهاء ، فقد أخذت أوراق تلك الشجرة فى الاصفرار والذبول • وظنت الاميرة أن ساعة وفاة أبيها قد حانت • وعند ذاك هبطت الجبل وهى تعول ، ربما بدافع وخز ضميرها ازاء الجريمة التى ترتكبها ضد أبيها ، ورحلت الى « جيلجيت » • ولشـدة

دهشتها أبصرت أباها الملك الغول يتمتع بكامل صحته ويتناول غذاءه كعادته من لحم الاطفال • فتراجعت الى الوراء ، واعتذرت عن اقتحام جلسة أبيها وأخبرته بأن قديسا أنبأها بأنه مع ذبول أوراق شجرة بعينها تذبل حياة أبيها ويموت • ثم قالت له : « وفى هذا اليوم أبصرت أوراق تلك الشجرة وهى تذبل فخشيت عليك ؛ وجئت أرتمى عند قدميك • ولكن شكرا لله أن هذه النبوءة لم تتحقق وأن هذا القديس قد أثبت أنه نبى مزيف » • وتحرك قلب الغول بعاطفة البنوة وقال لها : « ليس فى وسع أحد فى الوجود يا بنتى العزيزة أن يقتلنى ، لأنه ما من أحد يعرف طبيعة روحى • فكيف يتسنى لأحد أن يقتلنى دون أن يعرف طبيعتها ؟ ان القدرة على ايذائى فوق مقدرة أى انسان » • وعند ذاك أجابت الاميرة بأن سعادتها تتوقف على حياته وعلى أمنه ، وحيث انها تعلم أنها أعز ما لديه فى الوجود ، فليس عليه أن يخشى أن يطلعها على سر روحه ، لأنها اذا عرفت هذا السر ، ففى وسعها أن تأخذ حيطتها ضد أى فأل شرير ، وأن تحميه ضد الاخطار التى تتهدده ؛ وبذلك تؤكد حبها لأبيها عندما توقف حياتها على أمن والدها • ولكن الأب الغول الحذر لم يكن يثق فيها ؛ وحاول أن يصرفها عن معرفة الحقيقة ، كما فعل « شمشون » ، وكما يفعل المردة فى الحكايات الخرافية ؛ باعطائها اجابات مراوغة أو خاطئة • ولكنه كشف لها فى نهاية الامر عن سره الخطير عندما غلبه لجاجها أو عندما طمأنه تملقها • فقال لها ان روحه مصنوعة من الزبد • فاذا رأت نارا مشتعلة فى قلعته أو حولها ؛ فلتعلم حينذاك أن هذا يكون آخر يوم فى حياته ، اذ كيف يمكن لزبد روحه أن يقاوم لهيب النار المشتعلة • ولم يكن يعلم الأب الغول أنه بقوله هذا كان يدع سره فى يد امرأة ضعيفة وابنة عاقة كانت تدبر مؤامرة للقضاء عليه •

وبعد أن قضت الابنة الغادرة مع أبيها السليم النية بضعة أيام ، عادت الى مصيفها فوق التلال حيث كان ينتظرها زوجها شامشير بفارغ الصبر • وسعد كل السعادة عندما أطلعته على سر روح أبيها • ولما كان

الزوج قد عزم على أن يبذل كل ما فى وسعه لأن يقضى على هذا الملك الغول ، فقد وجد الآن الطريق ممهدا لأن يحقق رغبته • وقد استعان فى تنفيذ خطته بأتباع الملك الذين كانوا يتوقعون شغفا لأن يتخلصوا من هذا الغول ، وبذلك ينقذون من تبقى من أطفالهم من شراهته • وقد كان أتباع الملك عند حسن ظن الامير ، فما ان علموا بأن هناك من يود تخليصهم من هذا الغول ، حتى انضموا اليه طوعا واستعد الجميـــع للقضاء على هذا الوحش فى عرينه • وقد كانت الخطة التى عمـــدوا اليها بسيطة للغاية إذ كان عليهم أن يشعلوا النار حـــول القلعـــة ، فتنصهر بتأثير حرارتها روح الملك وتتحلل • على أن الامير أرســـل زوجته الى أبيها فى « جيلجيت » قبل أن يقوم بتنفيذ خطته ببضعة أيام بعد أن أصدر اليها أوامر صارمة بأن تحتفظ بسرها ؛ حتى تبث فى نفس أبيها الغول احساسا بالطمأنينة • وبذلك أصبح الجو معـــدا لتنفيذ الخطة • فعندما أرخى الليل سدوله ، خرج الناس من بيوتهم يحملون المشاعل وحزما من الخشـــب • وعندما اقتربوا من القلعة ، بدأت تشعر روح الملك المصنوعة من الزبد بالقلق وتملكه احســـاس بالضجر • وعند ذاك أرسل ابنته فى ساعة متأخرة من الليل لتعرف سر هذا الاحســـاس الغريب الذى تملكه • فخرجت الابنة الخائنة الخادعة الى الخارج وتلكأت بعض الوقت حتى تترك الفرصة للمتمردين لكى يصبحوا على مقرب من القلعة ، ثم عادت الى أبيهـــا وحاولت أن تؤكد له أنه انما يشعر بخوف كاذب ، اذ لم يحدث قط شىء يبعث فى نفسه هذا الاحساس بالقلق • ولكن احساس الملك الداخلى بالخطر الداهم كان أقوى من أن تزيله محاولات ابنته المخادعة • فخرج من حجرته ليرى أن ظلام الليل قد محته مشاعل النار التى تحيط بالقلعة • ولم يـــكن هناك وقت للتردد أو التلكأ ، وسرعان ما اتخذ قـــراره ، فقفز فى الهـــواء متجها نحو « شوتورخان » ، وهى منطقة ثلجية تقع بين الجبال العالية التى تحيط « بجيلجيت » ، وهناك أخفى نفسه تحـــت الثلوج • ولمـــا لم تذب روحه هناك بين الثلوج ، فقد ظل يعيش هناك حتى هذا اليوم •ومع ذلك فما زال سكان جيلجيت يعتقـــدون أنـــه

سيعود يوما ليحكمهم ويلتهم أطفالهم بغيظ مضاعف • ومن ثم فانهم يحتفظون بنار كبير مشتعلة طوال ساعات ليلة لليالى شهر نوفمبر — وهو اليوم الذى يعد ذكرى لهروب هذا الغول من جيلجيت حتى يطردوا شبح هذا الملك اذا ما حاول الرجوع اليهم • وفى تلك الليلة لا يجرؤ أحد على النوم ، ولذلك فهم يصرفون الوقت فى الرقص والغناء حول النار المضطرمة •

وهنا يتضح التطابق العام بين هذه الحكاية الهندية وحكاية شمشون ودليلة من ناحية • والحكايات السلافية والكلتية من ناحية أخرى • وربما كان هذا التشابه أكثر اقترابا لو أن قاص الحكاية الهندية كان قد ذكر الاجابات المزيفة المضللة التى يمكن أن يكون الغول قد قدمها لابنته فيما يختص بسر روحه • ذلك أنه بمقارنة هذه الحكاية بالحكايات السلافية والعبرية والكلتية التى تشبهها ، فانه يحق لنا أن نفترض أن الغول الماكر قد خدع ابنته عن طريق التظاهر بأن روحه تستقر فى أشياء لاعلاقة لها بها • وربما كانت احدى اجاباته المضللة لابنته هى أن روحه تستقر فى أوراق شجرة بعينها ، حتى اذا اصفرت أوراق تلك الشجرة ، فان هذا يكون علامة على موته • ولكننا نرى أن هذه النبوءة الخاطئة قد قيلت على لسان شخص ثالث بدلا من أن أن يقولها الغول نفسه •

وبينما تبدو وجوه التشابه بين هذه الحكايات السلافية والكلتية والهندية من ناحية ، وحكاية شمشون من ناحية أخرى فى فكرتها العامة ، فانها تختلف عنها فى جانب واحد مهم على الأقل • فتعاطف القارىء فى حكاية شمشون يتركز حول الساحر المخدوع الذى يصور بصورة محبوبة بوصفه شخصية وطنية وبطل قومه ، فنحن نعجب بأعماله ، ونشفق عليه فيما تحمله من أذى حتى مات • كما أننا فى الوقت نفسه نشمئز من خداع تلك المرأة الفاجرة الماكره التى جرت عليه بحبها الزائف مصائب لم يكن ينتظرها من جانبها • أما فى

الحكايات الهندية والكلتية والسلافية ، فان التركيز الدرامى حول هذا الموقف عكس هذا تماما ، ذلك أن المشعوذ يصور فى صورة غير مستحبة بوصفه ساحرا يمارس قوته الخارقة فى تحقيق أغراض شريرة ، ومن ثم فنحن نمقت جرائمه ، ونبتهج لهزيمته . كما أننا نصفق للمرأة الماكره التى أفشت سره لأعدائه ، أو نحن نغفر لها على الأقل هذا الخداع ، لأنها لم تكن تبغى سوى الانتقام من شر لحق بها هى وبقومها من قبل هذا الساحر . وبناء على ذلك فان دور كل من الشرير والضحية ينعكس فى الأداءين المختلفين لموضوع واحد . ففى حكاية شمشون ودليلة يصور شمشون بوصفه الضحية البريئة ، كما تصور المرأة بوصفها الشخصية الشريرة الماكرة . أما فى الحكايات السلافية والكلتية والهندية ، فان الساحر يمثل شخصية الشرير الماكر ، فى حين أن المرأة تقوم بدور الضحية البريئة ، أو أنها على الأقل تقوم بصفة عامة بدور الزوجة المخلصة لزوجها ولقومها . وقد لا يساورنا شك كبير فى أنه لو كانت لدينا الرواية الفلسطينية لحكاية شمشون ودليلة ، لوجدنا الوضع يختلف بالنسبة للشرير والضحية عنه فى الحكاية العبرية ، فربما وجدنا شمشون مصورا بوصفه الشرير المخادع الذى سلب وقتل الفلسطينيين العزل ، ولربما بدت لنا دليلة بوصفها الضحية البريئة لشراسة شمشون ، ولكنها سعت بسرعة بديهتها وشجاعتها النادرة أن تنتقم فى الحال مما لحق بها من شر ، وأن تخلص قومها من هذا الوحش الذى طالما عذبهم فى قسوة . ففى حالة النزاع بين الشعوب يختلف موقف البطل والشرير وفقا لاختلاف نظرة كل شعب له ، فقد يبدو الرجل نفسه أروع بطل اذا نظر اليه من الجانب الآخر . كما أننا نراه من وجهة نظر شعب من الشعوب محاطا بأكاليل الزهور ، بينما نراه من وجهة شعب آخر مرجوما بالأحجار . اى أننا يمكننا أن نقول على وجه التقريب ، ان كل شخص استطاع أن يثبت وجوده فى خضم الحوادث التاريخية المضطربة ، انما هو أشبه بالمهرج الذى يرتدى رداء تتعدد ألوانه . وهذه الألوان تختلف حيثما نظر اليها من الأمام أو من الخلف أو من اليمين أو من اليسار .

فكل من أعدائه وأصدقائه ينظرون اليه من جانبين متقابلين ، ومـــن الطبيعى أن كلا منهما لا يرى الا اللون الذى يراه من ناحيته • ومن ثم كان من واجب المؤرخ المنصف أن ينظر الى هؤلاء المهرجين من كل جانب وأن يصورهم بأرديتهم ذات الألوان المتعددة ، ولا يصورهم فى أردية بيضاء فحسب كما يبدون لأصـــدقائهم أو فى أردية ســـوداء فحسب كما يبدون لأعدائهم •

الفصل الثالث

حــزمة الحيــاة

عندما يترك المسافر الأراضى الخصبة التى تتوسط أرض الميعاد ، ويتجــه شرقا الى البحر الميت ، فانه يخترق فى بداية الأمر سلســلة من التلال الممتدة والوديان التى تغطيها الحشائش والنباتات الطفيلية . فاذا استمر فى ســيره فى هذا الاتجاه فان المنظر الطبيعى يتغــير أمامه ، اذ تختفى أمامه الأعشاب الخضراء والنباتات الشوكية ، ويجد نفسه يمر تدريجيا فى منطقة جرداء جافة ، هى عبارة عن مساحات هائلة من الرمال ذات اللون الأصفر أو البنى ، ومن الأحجار الجيرية المتفتتة ، والحصى المبعثر . ولا يخفف من حدة جفاف هذه المنطقــة سوى مجموعة الشجيرات الشائكة والنباتات المتسلقة ذات العصارة . وبعد ذلك لا تكاد تقع العين الى مسافة عدة أميال على شجرة أو مسكن لانسان ، أو على أى مظهر من مظاهر الحياة . انما هى مجــرد سلاسل من التلال المتشابهة التى تنتظم فى تتابع لا نهائى رتيب ، فهى جميعا ذات لون أبيض ، منحدرة وضيقة ، كما يتخلل جوانبها عدد لا نهاية له من الأجراف الجرداء . وتلوح للمسافر قممها وهى تعلو الى السماء فى حدة وصلابة ، وذلك فى أثناء صعوده من المسطحات العريضــة التى يكسوها الطين الأبيض الناعم وتخترقها أحجار الصــوان التى تعزل كل سلسلة من التلال عن السلسلة الأخرى التى تقع خلفها . وتبدو المنحدرات الأكثر قربا لهذه التــلال المنعزلة ، كما لو كانــت الأمطار الغزيرة المفاجئة قد مزقتها وشققتها . أما المرتفعات التى تقع على بعد فتوحى بأنها أكوام من الرماد ذات شكل شيطانى . وفى بعض الأمكنة يسمع لوقع أقدام الخيل صوت عميق ، وفى بعض الأماكن

الأخرى تنزلق الأحجار والرمال من تحت حوافر الخيل • أما فى الاخاديد العديدة فان الصخور تتوهج بتأثير حرارة الشمس الحارقة التى تتسلط عليها من سماء تخلو كلية من السحب • فاذا استمر المسافر فى طريقه شرقا ؛ فان الطبيعة المنعزلة التى تحيط به هنا وهناك تتألق بين اللحظة والأخرى بمرأى البحر الميت بمياهه التى تضرب الى الزرقة الدكناء تجرى فى تجويف بين التلال عاكسة بذلك نوعا من التناقص الممتع بين زرقتها المتلألئة وألوان الصحراء الرتيبة الجافة • حتى اذا صعد المسافر آخر سلسلة من هذه التلال ؛ ووقف على حافة الصخور الكبيرة ؛ فانه يفاجأ أمامه بمنظر رائع ، فهناك أسفل منه بحوالى ألفى قدم يقع البحر الميت واضحا كل الوضوح ممتدا من طرفه الأدنى الى طرفه الأبعد ، كما تبدو له شواطئه التى تتكون من صخور صلبة صخرة تلو الأخرى ونتوءات يقع بعضها وراء بعض تفصلها الأخاديد العميقة التى تتخللها أراض تتوغل فى المياه الزرقاء الهادئة ، بينما تشمخ جبال موآب وراء البحيرة حتى تختفى فى الأفق البعيد ملتحمة بالسماء ذات اللون اللازوردى • فاذا اخترق المسافر البحر الميت عبر ينابيع « عين جدى » فانه يجد نفسه فوق قمم صخور مدرجة ذات شكل عمودى على وجه التقريب ، قد نحت فيها درب ملتف ذو صخور خشنة يؤدى الى سهل فى شكل حدوة ينحدر الى حافة المياه • وفى هذا الدرب يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه فى حرص وهو يهبط هذا الدرب المنحدر كل الانحدار • فاذا كان وراءه مسافرون آخرون ، فانهم يخطون فى حذر ، لأن أية انزلاقة لأقدامهم قد تزحزح حجرا يتدحرج فى سرعة الى أسفل ويصيب المسافر الذى يسير فى أمان عبر الدرب • وعند سفح هذه الكتل الصخرية يتفجر نبع « عين جدى » (النبع الطفل) من فوق الصخر بمياهه الدافئة الغزيرة فى شكل شلال يتدفق وسط واحة نضرة تنمو فيها نباتات نصف استوائية•وكل هذا يفاجىء المسافر كل المفاجئة عندما يجد نفسه قد ترك البرية القفر التى تخلو منها المياه بعد أن قضى ساعات فى عبور أرضها الوعرة • وهذه البرية هى التى أطلق عليها

العبريون اسم « يشمون » أى الخراب أو برية يهوذا • وهى تمتد من مياه البحر الميت المرة والصافية فى الوقت نفسه ، حتى جبل الزيتون على بعد ساعتين من بوابات معبرون (الخليل) وبيت لحم وأورشليم •

والى هذه البرية الموحشة هرب داود من عدوه العتيد « شاءول » الذى ظل يقتفى أثره ، طالبا الحماية • وبينما كان يختبىء هناك مع عصبة من الرجال المهزومين الذين جمعهم من حوله ، زارته «أبيجايل» المرأة الجميلة الحكيمة زوجة المزارع الغنى « نابال » الذى كان يمتلك قطعانا من الغنم ، والذى كان قد تعهد له الشاب الطريد داود فى صدق بالغ ألا يسرق غنمه • على أن المزارع الساذج الفظ لم يدرك قيمة هذه الخدمة التى قدمها له هؤلاء المطاردون ، ورفض بازدراء ما طلبه منه زعيمهم فى أدب جم أن يزوده بسلفة من المؤن • وحركت هذه الاهانة احساس داود البالغ بكرامته ، ومن ثم فقد اتخذ طريقه عبر التلال الى هذا المزارع على رأس أربعمائة رجل من أشداء الرجال ، كل منهم يحمل سيفه العريض فى جنبه • وكان داود على وشك أن يتخذ طريقه مباشرة الى مزرعة هذا المزارع عندما قابلته زوجته التى استطاعت بكلماتها الرقيقة أن تلطف من حدة كبرياء الزعيم الغاضب ، بل انها أتت اليه بما هو أفضل من الكلمات ألا وهو قافلة من الحمير المحملة باللحوم والشراب من أجل جماعته التى كاد الجوع أن يقتلها• فى الحال تبدد غضب داود بتأثير جمال المرأة وكلماتها الناعمة وبمرأى الحمير المحملة بالزاد • واستقبل داود الزوجة التى جاءت لتعتذر عن تصرفات زوجها بلطف جم ووعدها بألا يتعرض له بخطر • ولكنه لم ينس أن يلمح لها بنظرة معبرة بأن الشمس لم تكن لتشرق على مزرعة زوجها فى صباح اليوم التالى ، لو لم تهم بمقابلته • وبعد ذلك تركها داود بعد أن خلع عليها بركته ، ثم ولى ظهره هو وجماعته ، وقافلة الحمير من ورائه ؛ وعاد الجميع من حيث جاءوا بعد أن قطعوا على أنفسهم العهد بألا يتعرضوا لهذا المزارع بأى

أذى . أما الزوجة فربما ابتسمت وتنهدت وهى تنظر خلفها تـرقب هؤلاء الرجال الأشداء الذين أحرقت الشمس وجوههم ، وهم يواصلون الخطو فى رشاقة حتى اختفوا وراء أقرب سلسلة من التـلال . ثم عادت الى بيتها وقد انزاح عن قلبها عبء ثقيل ، لتجد زوجها المزارع السـاذج مع رجاله يعبون الشراب بعد أن فرغ من جز الخراف بوقت طويل ، دون أن يشغل باله بما قد حدث فوق التلال . فتركت الزوجة الحكيمة زوجها عـلى ما هـو عليه ، دون أن تطلعه على شىء مما حدث . ولكن عندما أفاق الزوج فى اليوم التالى أخبرته بما فعلته ، وفى الحال شـعر الزوج بأن قلبه كـاد يـكف عن الخفقـان ، اذ كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها الزوج . ولم تكد تمضى عشرة أيام حتى كان قد لفظ أنفاسه . وبعد مرور بعض الوقت على وفاته خـرجت الأرملة فوق التلال لتلحق بزعيم العصابة المطاردة .

وهناك عبارة تستلفت نظـرنا بين عبارات الاطـراء التى ذكرتها « ابيجايل » الساحرة لداود المرهف الحس ، عند مقابلتها الأولى له . فلقد قالت له : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الرب الهك وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » (١) ..

ومما لا شك فيه أن هذه العبارة استعارية ، ولكن الاستعارة فيها غريبة وغامضة بالنسبة لأى كاتب انجليزى . ومغزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط فى حزمة ضمانا لسلامتها . أما فى حالة أرواح الأعداء فان الحزمة تحل وتتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح . ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هذه الفكرة حتى وان كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط فى ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح . واذا كان هذا التصور يبدو من وجهـة نظرنا نحن الذين نرى أن الروح تظل ملازمة للجسد طالما كانت الحياة

---

(١) سفر صموئيل الأول ، الاصحاح الخامس والعشرون آية ٢٩ .

تدب فيه ، منافيا للطبيعة ، فهو قد يبدو طبيعيا بالنسبة للشعوب الأخرى التى يختلف تصورها للحياة عن تصورنا كل الاختلاف . فهنـاك فى الحقيقة عقيدة تنتشر بين الشـعوب البدائية انتشارا واسعا ، تتخلص فى أن الروح يمكن أن تغادر الجسد ، بل انها كثيرا ما تغادره ، دون أن ينجم عن هذا الوفاة المعاجلة . فالأشباح والشياطين وأشرار الناس الذين يحملون ضغينة لشخص ما — كل هؤلاء يقومون بسرقة الروح من الجسد بقصد القضاء على صاحبها . واذا نجحوا فى ذلك وتمكنوا من اعاقة الروح فترة طويلة ، فان صاحبها يمرض ويموت . وهذا هو السبب فى أن الناس الذين يوحدون بين أرواحهم وظلالهم أو صورهم التى تنعكس على مسـطح عاكس ، يخافون كل الخـوف مـن آلة التصوير ، لأنهم يعتقدون أن المصور الذى صور أشكالهم ، قد انتزع أرواحهم أو ظلالهم معها . وها هو ذا مثال من بين عشرات الأمثـلة التى تؤيد هذا القول . نصب مستكشف آلة تصويره فى قـرية من القرى التى تقع فى أدنى مجرى نهر « يوكون » فى « ألاسكا » ، وذلك لكى يأخذ صورة للاسكيمو وهم يتحركون بين بيوتهم . وبينما كـان يركز آلة تصويره على هذا المنظر جاءه زعيم القرية وأصر على أن ينظر معه أسفل قطعة القماش . فلما سمح له المستكشف بذلك ، ونظر هنيهة عـلى الأشـكال المتحركة على زجاج العدسة ، رفع رأسـه على الفور وأسرع الى قومه وقال لهم : « احذروا ، فلقد أخذ كل ظلالكم فى صندوقه » وعند ذاك دب الذعر بين الناس ، واختفوا فى لحظة فى فوضى واضطراب فى بيوتهم . فآلة التصوير ، أو مجموعة الصور ، تعد وفقا لهذه العقيدة حزمة من الأرواح أو صندوقا ترص الأرواح فيه ، كما يرص السردين فى العلب استعدادا لتصديره .

وقد تنتزع الأرواح من الأجسـام لتحقيق غرض خير . فالرجل البدائى يعتقد فيما يبدو أن الانسان لا يبتلى بالموت ، طالمـا كانت روحه غير معرضة للأذى ، سواء كانت داخل جسمه أم خارجه . وبناء على ذلك فان الرجل البدائى يتصور أنه اذا نجح فى انتزاع روحـه

من جسده والاحتفاظ بها فى مكان ما بعيدا عن أى سوء ، فانه سيظل خالدا ، طالمـا بقيت روحه فى هذا المأمن بعيدة عن الأذى وعن الازعاج. ولذلك فان الرجل البدائى القلق على حياته ينتزع روحـه أو روح صديقه فى بعض الأحيان فى أوقات الخطر فى حرص بالغ ، ويودعها فى مكان آمن ، حتى يزول الخطر ثم يستعيدها بعد ذلك . ومثال ذلك أن كثيرا من الشعوب تعد الانتقال من بيت لآخر فترة عصيبة تحيط فيها الاخطار بأرواحهم . وفى مثـل تلك الظروف العصيبة ، يجمع الكاهن فى « ميناهاسا » وهو اقليم فى « سيليبس » ، أرواح الأسرة فى حقيبة يحتفظ بها عنده حتى يزول الخطر ، ثم يعيد كل روح على حدة الى صاحبها . وعندما يحين الوقت الذى تضع فيه المرأة طفلها فى سيليبس الجنوبية ، فان الرسول الذى يذهب ليستدعى الطبيب أو الداية يأخذ معه سكينا حادة أو أى آلة أخرى مصنوعة من الحديد . وهذه الآلة التى يحملها معه تمثل روح المرأة التى يعتقد أنها تكون أكثر أمانا اذا كانت خارج جسدها فى هذا الوقت العصـيب . ومن ثم فانه يتحتم على الطبيب أن يحرص على هذه الآلة ، لأنها متى فقدت ، فان روح المرأة تفقد معها . ولهذا فهو يحتفظ بهذه الآلة فى بيته حتى تنتهـى المرأة من وضع طفلها ، وعند ذاك يحمل اليها الوديعة الثمينة ويتسلم أجره منها . وفى جزر « كاى » تشـق ثمرة جوز هنـد مجوفة إلى شقين ، ثم يلحم الشقان بعناية وتعلق الثمرة فى بعض الأحيان كمـا رأينا ذلك . وهذه الثمرة تحتضن روح الطفل المولود حتى لا تقع فريسة للأرواح الشريرة ان لم يحتفظ بها على هذا النحو . وتظل الروح فى حالة غير مستقرة بين هذين الشقين حتى يلتحما تماما . ويتخذ الاسكيمو فى ألاسـكا إجراء احتياطيا شبيها بهذا الاجراء للمحافظة على روح الطفل المولود . فالطبيب يحول الروح الى شكل تعويذة سحرية يضعها فى حقيبته ؛ وبذلك تكون الروح فى مأمن من أى أذى أينما وضعت هذه الحقيبة . وعندما تخرج المرأة فى نيوغينيا الجنوبية الشرقية حاملة طفلها فى حقيبة « يتحتم عليها أن تربط فى ازارها فرع نبات متسلق

من أى نوع . ومن الأفضل أن تربطه فى الحقيقة التى يستلقى فيهـا الطفل ، بحيث يجرجر وراءها على الأرض • فاذا حدث أن تجول روح الطفل خارج جسده فإنه ينبغى أن يعد للروح شىء يتمكن من التسلق عليه حتى يدخل الجسد مرة أخرى وهل هناك وسيلة مناسبة تعين الروح على التسلق أكثر من هـذا النبـات المتسـلق الذى يصـادفه أمامه فى الطـريق ؟ •

وربما كانت أكثر الأمثلة قربا من « حزمة الحيـاة » ، حـزم « شوورونجا » وهى عبارة عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة « أورونتا » وبعض القبائل الأخرى التى تسكن استراليا الوسطى بعناية كبيرة وسرية تامـة فى كهـوف وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية ، وبالمثل كل عصا ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كـان أم ميتا • ذلك أنه بمجرد أن تدخل روح الطفل بطن أمه لكى يولد فيما بعد ، يوضع حجر من هذه الأحجار أو هذه العصى فى المـكان الذى شعرت فيه المرأة لأول مرة بحركة فى بطنها • ثم يأخذ الزوج بمعونة الزوجة فى البحث عن حجر هذا الصبى أو عصا • فاذا عثرا على الحجر أو انتزعا العصا من أقرب شجرة صلبة ، فان الأب يسلمها الى زعيم حيه الذى يودعها بدوره مع سـائر الأحجـار والعصى فى المخزن المقدس الذى يقع بين الصخور • وكثيرا ما تربط هذه الأحجار فى شكل حزم • وهى تعد أكثر الممتلكات قدسية عند القبيلة ، وتحجب الأمكنة التى توضع فيها بمهارة عن الأنظار ، فتوصد مداخل الكهوف بالأحجار التى ترص بطريقة طبيعية للغاية حتى لا تثير حولها الشكوك• ولا يعد المكان الذى تخبأ فيه الأحجار والعصى وحده مقدسا ، وانمـا يشاركه هذه القدسية كل ما يحيط به • فلا ينبغى أن تمس النباتات والأشجار التى تنمو من حوله بأى حال من الأحوال ، كما لا ينبغى التحرش بالحيوانات التى تتجول من حوله • واذا تمكن شخص هارب من أعدائه او من الآخذ بثأره منه ، أن يلجأ الى هذا المكان المقدس ، فنه يظل فى أمان طالما بقى فى نطاق حدوده • ويعد فقـدان هـذه

« الشورونجا » ، وهو الاسم الذى يطلق على هذه العصى والأحجار التى ترتبط بأرواح أحياء ووفيات جماعه من الجماعات ، أكثر الشرور خطرا يمكن أن تحل بهذه الجماعة • فاذا سرقتها منهم جماعة من البيض المتهورين ـ فان الأهالى ، كما يعرف ذلك عنهم ؛ لا يبرحون خيامهم طول أربعة عشر يوما بيكون ف أثنائها وينتحبون على خسارتهم ويطلون أجسامهم بالجص ـ وهو شعار الحزن على الأموات عندهم •

وتعد هذه المعتقدات والممارسات التى تنتشر فى استراليا الوسطى فيما يختص « بالشورنجا » وكما سبق أن لاحظ ذلك « مسرز » و « سبنسر » و « جيلين » بحق : « تحويرا للفكرة التى عبرت عنه شعوب كثيرة ، والتى ، وفقا لها ـ ينظر الرجل البدائى الى روحه بوصفها شيئا ماديا يمكن أن يضعه ، وفقا لتصوره ، ف مكان آمن بعيدا عن جسمه اذا تطلبت الضرورة ذلك • فاذا تعرض جسمه للخطر بشكل أو بآخر ، فان روحه التى تقع بعيدا عن جسمه • تظل بعيدة عن الأذى » • على أن الأرونتيين فى العصر الحاضر لا يعتقدون فى أن هذه الأحجار والعصى المقدسة هى المكان الحقيقى الذى تستكن فيه أرواحهم ، بمعنى أن تحطيم احدى هذه العصى أو الاحجار يؤدى بالضرورة الى هلاك الرجل أو المرأة أو الطفل الذى ترتبط روحه بهذا الحجر أو بتلك العصا • ولكننا نصادف فى تراثهم أخبارا واضحة عن أن أجدادهم كانوا يودعون أرواحهم ف هذه الأشياء المقدسة • فقد قيل على سبيل المثال ؛ ان بعض الرجال الذين ينتسبون الى الطوطم « القط البرى » ، كانوا يحتفظون بأرواحهم ف الـ « شورنجا» التى تعودا أن يعلقوها على عامود مقدس ف الخيمة ، عندما يخرجون للقنص • فاذا عادوا من رحلتهم ، فانهم يأخذونها من العامود ويضعونها حيث كانت • والغرض من تعليق الـ « شورينجا » على العامود عندما تخرج الجماعة للقنص ، هو الاحتفاظ بأرواحهم ف أمان حتى يعودوا •

وبناء على ذلك فان هناك من الأسباب ما يدعونا بحق لأن نعتقد

أن حزم العصى والأحجار المقدسة التى ما يــزال « الأرونتيــون » وغيرهم من القبائل التى تسـكن استراليا الوسطى يحتفظون بهـا فى عناية كبيرة فى أماكن مقدسة ، كان يعتقد فيما سبق أنها مســكن لروح كل فرد من أفراد الجماعة . وطالما كانت هذه الحزم مربوطة ربطا محكما وموضوعة فى مكانها المقدس ، ظلت أرواح الناس كذلك فى أمان وفقا لهذا الاعتقاد . فاذا ماحل رباط هذه الحزم وتبعثـر ما فيها ؛ فانه ينجم عن ذلك أسوأ العواقب . وربما كان من قبيـل التسرع أن نؤكد أن الســاميين البدائيين كان يحتفظون بأرواحهم فى العصى والأحجار التى كانوا يودعونها فى الكهوف وشقوق الصخور فى قفار بلادهم ؛ ولكنه ليس من قبيل التسرع أن نؤكد أن مثل هذا الاعتقاد يمكن أن يفسر على نحو بســيط وطبيعى كلمــات أبيجايل التى وجهتها للزعيم الطريد ، وهى : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ، ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الــرب الهك ؛ وأما نفس أعدائك ، فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » .

ومهما يكن الأمر فانه يبدو أن العبريين حتى زمن متأخر نسبيا ، كانوا يمارســون نوعا من السحر الذى يهدف الى القبض على أرواح الأحياء واحتجازها بقصد الحاق الضرر البالغ بهم . وقد أشار النبى « حزقيال » الى هؤلاء السحرة الذين كانوا يمارسون هذا الســحر الأسود فى العبارة الآتية :

« وأنت يابن آدم فاجعــل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن وتنبأ عليهن ، وقل هــكذا قال الســيد الرب . ويل للواتى يخطن وسائد لكل أوصال الأيدى ، ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس . افتصطدن نفوس شعبى وتستحيين أنفسكن . وتتجسننى عند شعبى لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز لاماتة نفوس لا ينبغى ان تموت واستحياء نفوس لا ينبغى أن تحيــا ــ بكذبكن على شعبى السامعين للكذب . لذلك هكذا قال السيد الرب . ها أنا ضد وسائدكم التى تصطدن بها النفوس كالفراخ ، وأمزقها عن

أذرعكم وأطلق النفوس التى تصطدنها كالفراخ ، وأمزق مخداتكن وأنقذ شعبى من أيديكن ، فلا يكونون بعد فى أيديكن للصيد ، فلتعلمن أنى أنا الرب (١) .

ويبدو أن هذه الممارسات الشائنة التى كان يتبعها هؤلاء النساء اللاتى أشار اليهن النبى ، كانت عبارة عن محاولات للقبض على الأرواح الشاردة فى شباك وقطع من الأقمشة وبذلك يتمكن من قتل بعض الناس عن طريق امتهان أرواحهم امتهانا لا هوادة فيه ، كما يتمكن من انقاذ بعضهم الآخر ، وهم المرضى فيما يبدو ، وذلك عن طريق أسر أرواحهم الشاردة واعادتها الى أجسامهم . ومازال المشعوذون والسحرة فى كثير من بقاع العالم يقومون بمثل هذه الأفعال المشينة لتحقيق الغرض نفسه . فقد تعود زعماء « الفيجانيين » على سبيل المثال ، أن يأسروا أرواح المجرمين فى أوشحة ، وعند ذاك يتعرض هؤلاء المساكين الذين سلبوا أهم جزء من أجسامهم الى الهزال ويموتون . وبالمثل كان المشعوذون فى « جزيرة الخطر » التى تقع فى الباسفيك ، يأسرون أرواح المرضى فى شراك ينصبونها بالقرب من بيوت المرضى ، ويظلون يراقبون الأرواح وهى تأتى خافقة حتى تأسر بين خيوط الشباك . ويعقب هذا وفاة المريض المحتمة ان آجلا أو عاجلا . وتصنع الشباك من خيوط متينة بها عقد ذات أحجام مختلفة لتأسر الأرواح ذات الأحجام المختلفة كذلك ، كبيرة كانت أم صغيرة ، سمينة كانت أم نحيلة . أما عند زنوج افريقيا الغربية ، « فينصب السحرة شراكهم على الدوام لأسر روح المريض التى تهيم خارج جسده فى أثناء نومه . فاذا استطاعوا أسرها فانهم يربطونها ويضعونها فوق النار الموقدة فى زوارقهم ، وعند ذاك تحضر المريض الوفاة فى الوقت الذى ترتعد فيه الروح فوق النار . ولا يقوم السحرة بهذا العمل بدافع العداء الشخصى أو الانتقام ،

---

(١) سفر حزقيال الاصحاح الثالث عشر من آية ١٧ الى ٢١ .

بـــل هو مجرد عمل عادى يقومون به على الدوام • ولهـــذا فـــان الساحر لا يأبه بشخصية الروح التى تقع فى شراكه لأنه سيتســـلم أجره عند اعادة هذه الروح الى صاحبها ، بصرف النظر عمن يـــكون الشخص الذى تنتسب اليه الروح • وبالمثل كان الأطباء الســحرة الذين لم يكن تسيء هذه الأفعال التى سمعتهم ، يحتفظون بملاجيء تلجأ اليها الأرواح الشاردة وهى الأرواح التى كانت تتجول ثم وجدت عند رجوعها الى الأجساد ، أن مكانها قد شغلته الـــ « سيسا » ، وهى روح تنتمى الى الطبقة الدنيا • وهؤلاء الأطباء يحتفظون بالأرواح ويرسلونها لتقدم المساعدة للمرضى العاجزين عن شفاء مرضهم • وقد حدث ذات مرة بين « الباوليين » الذين يسكنون ساحل العاج ، أن أخرجت روح زعيم من الزعماء بتأثير سحر أحد أعدائه الذى نجح فى أن يأسرها فى صندوق • عند ذاك أمسك رجلان برداء من أرديـــة الزعيم ، بينما أخذت ساحرة تتلو بعض التعاويذ • ثم أعلنت الساحرة بعد وقت أن الروح قد أسرت فى الرداء • وبناء على ذلك لف الرداء فى سرعة حول الزعيم حتى يسترد روحه • ويقوم السحرة فى الملايو بأسر أرواح النســـاء اللاتى وقعوا فى حبهن ، فى طيات عماماتهم ، ثم يصنعونها فى أحزمتهم يتجولون بهـــا نهارا • أما فى أثناء النـــوم فانهم يضعونها تحت وسائدهم • وقد تعود الكاهن بين « المترود جانبين» الذين يسكنون « سيلمبيس الوسطى » ، أن يدلى حول صدره وعلى ظهره خيطا رصت عليه القواقع البحرية التى يأسر بداخلهـــا أرواح الأعداء ، وذلك عندما يخرج مرافقا لحملة حربية • وقد كانت هـــذه القواقع تسوى فى شكل شعب ، وتعقف ، فاذا دخلت الروح القوقعه حالت الشعب والعقوف ، وفقا لتصورهم ، دون هروبها • أما الطريقة التى كانت يغرى بها الكاهن الروح حتى تدخل فى الأسر ، فكانت تجرى على النحو التالى : عندما يدخل المحاربون أرض الأعداء ، يرحـــــل الكاهن الى القرية التى يرمون مهاجمتها • وهناك عند مدخل هـــذه القرية ، يضع الخيط الذى ترص فيه القواقع فى شكل دائرى ، ثـــم يدفن داخل الدائرة بيضة وأمعاء دجاجة تفاءل بها الجيش قبل خروجه

الى الحرب • ثم يهز الكاهن الخيط سبع مرات فى هــذا المــكان . ويستدعى أرواح الأعداء فى هدوء ويذكر اسما من أسماء أفراد القرية ويقــول : « ياروح فلان وفلان ، تعالى ودوسى على دجاجتى . لقــد نسبت اليك تهمة ارتكاب الخطأ ، فلتجىء » • ثم ينتظر هنيهة بعــد ذلك ، فاذا سمع رنينا للقواقع . فان هذا يكون علامة على أن روح عدو من الأعداء قد دخلت القوقعة حقا . وأن القوقعة قد أسرتها بداخلها • وفى اليوم التالى يذهب الرجل الذى وقعت روحه فى الشرك . رغــم أنفه الى المــكان الذى ينتظر فيه الأعداء الذين أسروا روحه . وبذلك يقع فى يسر فريسة فى أيديهم •

ومثل هذه الممارسات يمكن أن تعين على تفسير أعمال الساحرات العبريات اللاتى تحامل عليهن حزقائيل • اذ يبــدو أن هؤلاء النسوة اللاتى كن طريدات المجتمع ، كن يأسرن الأرواح فى أوشحتهن عن طريق طرحها على رءوس ضحاياهم ، كما كن يحتجزن أسراهم من الأرواح فى شباك كن يربطنها حول أذرعهن •

وبناء على ذلك فانه يبدو أن العبريين كانوا يحتفظون منذ عصورهم التاريخية الأولى بفكرة أن الروح تعد شيئا منفصلا عن الجسد ، وأنه من الممــكن عزلها عن جسم الانسان فى أثناء حياته ، اما عن طــريق أعمال السحر الشريرة ، أو بناء على رغبة الشخص نفسه الذى يسعى الى الاحتفاظ بها فى مكان آمن لمــدة تطول أو تقصر • واذا كان أحد أنبياء بنى اسرائيل الكبار قد صــور لنا الساحرة العبرية وهى تقوم بعملها الشيطانى لاجتذاب أرواح الآخرين ، فربما قدم لنا نبى آخر كبير من أنبيائهم لمحة عن سيدة تنتمى الى الطبقة العليا فى أورشليم وهى تحمل روحها معها فى سلة صغيرة • فبعد أن وصف هــذا النبى فى أسلوب من الطعن والسخرية تطهر بنات زيون (١) المتعاليات وتمسكهن

---

(١) وقال الرب من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن . يصلح السيد بنات صهيون ويعرى الرب عورتهن . ينزل السيد فى ذلك اليوم

بأهداب المدين ، هؤلاء اللاتى كن يسرن بعيون فاترة وخطوات وئيدة ، أخذ النبى أشعياء يستعرض الجواهر والحلى والأردية والشيلان ، وغير ذلك من الملابس والحلى المبهرجة التى كانت هؤلاء النســـاء المترفات الأنيقات يرتدينها • ومن بين قائمة الزينة الرخصــية التى ذكرها ، أشار الى « مأوى الروح » • وهذا التعبير الذى ترجم ترجمة أدبية لا يتغير فى العهد القديم • وقد شرح المترجمــون والشراح المحدثون هذا المأوى بأنه « صناديق العطور » ، (وزجاجات العطور) أو ما أشبه ذلك • ولكن ربما كان مأوى الروح هذا أشبه بتعاويذ كان يظن أن روح حاملها تسكن فيها • وقد أدرك المفسرون لعبارة النبى هذه ، أن كثيرا من الحلى الرخيصة التى ذكرها النبى كانت بمثابــة تعاويذ سحرية فيما يبدو ، كما ما يزال يعد كثير من أنواع الحــلى الذى يرتديه الأشخاص فى الشرق حتى يومنا هذا • على أن الكلمة التى تأتى بعد « مأوى الروح » فى النص العبرى ، نقلت فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » الى كلمة « تعاويذ » : أما الكلمة العبرية الأصلية فمستمدة من فعل معناه « أن يهمس » أو « أن يسحر » •

على أن تفســير « مأوى الروح » عــلى هذا النحو ، لا يعنى بالضرورة استبعاد تعريفها بأنها زجاجات العطور ، فقد كان مجــرد شم العطور من وجهة نظر شعب من الشعوب كالشعب العبرى الذى كان يرى أن أساس الحياة هو التنفس ، يمثل مظهرا روحيا ، ومن ثم فان استنشاق عبير الروائح العطرية يمكن أن يعمل على نماء الحياة بالأنفاس • وبناء على ذلك فانه من الطبيعى أن ينظــر الى الشىء نفسه الذى يتضمن هذه الروائح ، سواء كان زجاجة من العطــر أو بخورا ، أو زهرة ، بوصفه مركزا لاشعاع القوى الروحية ، أى أنه مكانا مناسبا تتزود منه الروح بالأنفاس متى رغب الشخص أن يفعل

زينــة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصــائب والســلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والاحراز •
(اشعياء ، الاصحاح الثالث من ١٦ الى ٢٠) •

هذا لبعض الوقت • وربما كانت أقوال الشعراء خير ما يستعلن بــه لتوضيح أفكار الشعب ومغزى هذه الأفكار • فالشاعر يقول :

لقد أرسلت لك فى وقت متأخر إكليلا من الزهر
لا بقصد تبجيلى لك بقدر ما اننى
أبثه أملى فى ألا يذوى
فلتتنشـقى عبـيره
وترديه الى مـرة أخرى
فطالمـا كانت أزهاره مزدهرة وذات أريج عطر
فاننى لا أقسم بها ، بل بك
ويقــول شــاعر آخر • •
أيتها الورود الذابلة الجميلة
انك لم تصبحى بعد مكانا لحبى

فإذا كان يظن أن الجمال يضفى من حياته وروحه عــلى روح الزهرة حتى تظل نضرة ، فليس غريبا أن المرأة نفسها تستعين كذلك بزجاجة العطر حتى تظل روحها نضرة • ومهما يكن الأمر فان هــذه الخيالات القديمة ان كانت قد عاشت بحق ، من الطبيعى أن تفسر السبب فى اطــلاق اســم مأوى الروح على زجاجة العطر • وعــلى كل فان المــادة الفولكلورية التى نشأت حول العطور لم تدرس بعد • وربما استفــاد الدارس ، فى بحثــه لهذا الموضوع كما هو الحال فى بحث أى موضوع فولكلورى آخر ، من أقوال الشعراء الذين يدركون بالفطرة ما ينبغى علينا أن نعلمه عن طريق الحقائق المعملية • حقــا انه بدون لمسات الخيال الشاعرى ، يصعب علينا أن نتعمق مشــاعر الناس • ومن ثم فان البحث العقلانى ذا العاطفة الفاترة سيظــل يطرق دون جدوى مدخل عالم الخرافة المصنوعة من أكاليل الورود السحرية • واذا كان « جراند جرند » من هؤلاء العقلانيين ، فــان البواب الذى يقف حارسا لمدخل عالم الخرافة ، لن يفتح له هــذا المــدخل •

الفصل الرابع

ســاحرة عين دور

من الشخصيات المأساوية فى تاريخ بنى اسرائيل ، شخصــية الملك « شاءول » أول ملك حكم الأمة اليهودية فقد طالب الشــعب اليهودى بأن يحكمهم ملك مدنى بعد أن أعلنوا تمردهم على حــكم الكهنة الذين كانوا يتظاهرون لهم أنهــم يحــكمونهم باســم الرب وبارشاده المباشر • وقد كان آخر هؤلاء الأساقفة النبى « صموئيل » الذى رضخ فى اذعان لمطالب الشعب وعين « شاءول » ملكا على بنى اسرائيل • وربما أشبهت هذه الثورة تلك الثورة التى يمكن أن تحدث فى دولة البابا ، لو أن الناس بدافع أحساسهم بالضغط الكنسى وسوء الحكم ، أعلنوا تمردهم ضد البابوات ، وأرغموا الأسقف الحاكم على أن يسلم الصولجان الأرضى ، وهو ما زال ممسكا بمفاتيح السماء ، لحاكم مدنى • وقد سعى صموئيل فى براعة ، وهو الذى عرف بعنفه فى سياسة الأمور بقدر ما كان من أكثر الشخوص الكهنوتية صرامة ، لا أن يمسح « شاءول » فحسب ، بل عينه ملكا جديدا على شعبه ، تركزت من حول آمال بنى اسرائيل •

وقد كانت تلك الشخصية التى وقع عليها اختيار صموئيل جديرة بأن تكســب اعجاب الناس وولاء الجماهير • ومما ميزه لأن يكون من الطبيعى حاكما على شعبه ، جسمه الفــارع التى ينبض بالهيبــة ، وشهامته وجسارته وقيادته المــاهرة ، وشجاعته الباسلة فى ميــدان الحرب • ومع ذلك فان هذا الجندى الشعبى الجسور ، كان يخفى وراء مظهره الرائع ، نقاط ضعف خطيرة فى شخصيته ، فقد كان ينزع

الى الشـك والغيرة ، كما كان صفراوى المزاج ، ضعيف الارادة ، مترددا فى اتخاذ قراراته • وكان فوق هذا كله مصابا باكتئاب ألـح على فكره ، الذى لم يكن منظما على الاطلاق ، وكان يصل به فى بعض الأحيان الى مشارف الجنون • ولم يكن يخفف من حدة هذا الاكتئاب الذى يغشى نفسه عدة ساعات مظلمة سوى الألحان الموسيقية الهادئة • ومن أكثر الصور التى صورها له المؤرخ العبرى نابضة بالحياة ، صورة ذلك الملك الوسيم وهو يجلس غارقا فى كآبته ؛ بينما يقـف داوود الصبى المنشد ذو الخدين الورديين ، يعزف على أوتار قيثارته الحانا عذبة ؛ حتى يختفى التقطيب من جبين الملك ويتصالح مع أفـكاره المصطخبـة •

وربما اكتشف « صموئيل » بعينه النفاذة هذه الجوانب الضعيفة فى شخصية « شاءول » ، وكانت هذه الجوانب موضع اعتباره ، عندما رضخ لرغبة الشعب فى أن يعين بدلا منه من يخلفه فى ادارة شئون البلاد العليـا • وربما اعتمد على هذا عندما عين « شاءول » بوصفه الحاكم البراق والقناع المزخرف الذى يخفى بكل تأكيد وراء الملامح العسـكرية للجندى الشجاع الدمث سيماء صـارمة لنبى لا تلـين عريكته • وربما تصور « صموئيل » انه سيعامل الملك كما لو كان دمية تلبس التاج فوق رأسها وتمسك الصولجان فى يدها وترقص عـلى المسرح القومى على أنغام طيف مؤتمرة بأمر من يقف وراء الأنظار • فاذا كان « صموئيل » قد قدر كل هذه الأمور عندما ساعد شـاءول على اعتلائه العرش ، فان الأحداث قد أكدت صدق تقديره فيما بعد • فطالمـا كان صموئيل على قيد الحياة فان « شاءول » لم يكن سوى آلة فى أيدى صموئيل التى كانت تفوق بكثير قوة يديه • فلقد كـان النبى « صموئيل » بحق احدى القوى النزاعة الى السلطة بطبيعتها واحدى القوى المتعصبة التى صبت فى قالب من الحديد ، تلك القوى التى تسىء الى عزمها الذى لا ينثنى من أجل إرادة السماء • فتسير قدما من غير انحراف الى هدفها ، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتراضات

وقد أوصدت قلبها دون الاحساس بالشفقة وبالعاطفة الانسانية الرقيقة • وعندما كان « شاءول » مكتفيا بتنفيذ أوامر ناصحه المتغطرس ، ومعترفا له بما في ضميره كما يعترف أمام الأب الروحي ، كان « صموئيل » يسمح له بأن يتبختر أمام الشعب ، وهو يحمل التاج الوهمي فوق رأسه • فلما حاول « شاءول » أن يحيد قيد انملة عن أوامر رئيسه الروحي ذي القلب المتحجر ، حطم صموئيل الملك الدمية وألقى به جانبا كما يلقى الانسان بآلة كفت عن القيام بوظيفتها • ثم عين النبي سرا خليفة لشاءول ، هو دواد المنشد ، وولى ظهره للملك الذي وخزه ضميره وأعلن توبته • ورفض أن يراه مرة أخرى ، بل انه أعلن عليه الحداد طوال حياته كما لو كان قد توفى بحق •

ثم ساءت الأمور مع « شاءول » بعد ذلك • فبعد أن حرم الساعد القوية التي طالما ركن اليها طويلا ، تملكه العند والشرود أكثر من ذي قبل فزاد اكتئابه وتضاعفت شوكه ، ولم يعد يستطيع التحكم في مزاجه الذي كان يتميز بالتقلب ، فاستسلم لثورات الغضب وحاول الاعتداء على داود بل على ابنه يوناثان • وعلى الرغم من أن نوبات الغضب العاطفي كان يعقبها نوبات الحزن العاطفي ، فان أحدا لم يكن يخطيء ما انتاب طبيعته من تلف ، تلك الطبيعة التي كانت تتميز بالنبل ذات يوم •

وفي الوقت الذي كانت تتجمع فيه سحب الغروب في حياته الآفلة ، حدث أن الفلسطينيين الذين سبق له ان شن عليهم حربا طويلة شعواء ، هاجموا بلاده بقوة كما لم يحدث من قبل • وعند ذاك وجه اليهم شاءول القوة الاسرائيلية لتعترض طريقهم ، وعسكر الجيشان تجاه بعضها البعض عند سفوح التلال وبينهما سهل — « يزرعئيل » العريض (١) وكانت عشية الغد الذي يتقرر فيه مصير بني اسرائيل •

---

(١) يسمى حاليا مرج بن عامر •

ولكن الملك كان يتطلع الى المعركة الحاسمة بشك كبير ، وشعر كما لو كان ثقلا من حديد يرقد فوق روحه الواهنة • وظن الملك أن الرب قد تخلى عنه ، لأن كل المحاولات التى بذلها مستعينا بكل صور الالهام لتكشف عن المستقبل ، قد باءت بالفشل ، فقد كان الأنبياء صامتين والنبوءة خرساء ، بل انه لم ير فى نومه الثقيل أية رؤيا تسطع ببريق من الأمل • حتى الموسيقى التى طالما استعان بها فى أبعاد الأحزان عن نفسه ، لم تعد طوع ارادته ، فلقد أبعدت ثورات غضبه الموسيقيين عنه ، هؤلاء الذين طالما لعبوا على أوتار آلاتهم وعزفوا بكل ما يمكن أن تخرجه هذه الأوتار من الحان عذبة لتهىء لنفسه المتعبة ولو لحظة خالية من العذاب • ولم يستطع شاءول فى يأسه أن يقاوم التفكير فى صموئيل ، ذلك الناصح المخلص الذى طالما التمس لديه العون فى الأيام السعيدة ، ولكن صموئيل كان يرقد آنذاك فى قبره فى « الرامة » • وهنا لاحت للملك فكرة : أليس من الممكن أن يستحضر روح صموئيل من قبره وينتزع كلمات الأمل والسلوى من شبحه ؟ • لقد كان هذا ممكنا ، وان كان عسيرا ، لأنه كان قد نفى بنفسه هؤلاء الذين يمارسون السحر الأسود • وعند ذاك استفسر عن هؤلاء من خدامه ، وعلم منهم أن هناك ساحرة ما تزال تعيش فى قرية « عين دور » التى تقع بين التلال على الجانب البعيد من الوادى، على بعد عدة أميال نحو الشمال • فقرر الملك أن يلتمس عندها النصيحة وأن يجعلها ، ان كان هذا ممكنا ، تضع حدا لشكوكه ومخاوفه • ولكنه أدرك أنه يقوم بمغامرة خطرة ، لأن الجيش الفلسطينى بأسره كان قد اتخذ موقعه بينه وبين قرية الساحرة ، واذا رحل اليها فى وضح النهار فان هذا يعنى نهاية حياته • ومن ثم لم يكن هناك بد من أن ينتظر حتى يرخى الليل سدوله •

وبعد أن جهز الملك كل شىء لمعركة اليوم التالى ، ذهب الى خيمته لا لينام ، اذ أن الثورة التى كانت تغلى فى دمه قد أبت عليه الراحة ، ولكن لينتظر فى تململ بالغ الساعة التى يستطيع أن يغادر فيها خيمته

تحت جنح الليل • فلما غـربت الشمس وأخـذ الظـلام ينتشر فى الأرجاء ترك الملك أبهته الملكية التى كان قد بدا فيها وشـيكا أمـام جيشه . ولف جسمه الفارع فى رداء عادى ورفع أهـداب خيمتـه واختلس الخطا فى جنح الليل يتبعه اثنان من رجاله ، بينما كان جنوده من حوله يغطون فى النوم فى ضوء النجوم ، وقد سطعت وجوههـم ببريق النار التى كادت تخبو فى كتل الأخشاب المترامية هنا وهناك • أما فى الجانب الآخر من التل ، فقد أبصرت عينه على هذا المدى نار الحراسة المشتعلة فى جيش أعدائه ، كما أخذ يسـتمع فى سـكون الليل أصوات الصخب والموسيقى التى نقلتها اليه الرياح عبر الوادى وكأنها تحمل اليه النصر الذى يتوقعه عدوه فى الغد القريب •

وسار المغامرون الثلاثة عبر الوادى حتى وصـلوا الى سـفح التـلال ، مبتعدين عن النقط الأمامية لمعسكر العدو ، وهناك أخذوا فى صعود هذه التـلال • وهناك قادهم درب يقع عند كتف الجبل الى قرية عين دور الفقيرة حيث تلتصق أكواخها بالصخور التى تقع على المنحدرات الحجرية الجرداء • وهناك على البعد ، جهة الشمال ، كان يشمخ جبل « تابور » أسود صلبا ، كما كانت تبدو قمة جبل « هيرمان» الثلجية فى ضوء النجوم شاحبة ذات شكل شيطانى • على أن المسافرين لم يكن لديهم الوقت بله الرغبة فى تأمل المنظر الليلى • فما أن اقترب رفقـاء الليل الى مسكن الساحرة . حتى قـاد المرشـد الملك الى كوخها • وقد كان النور يسطع من نافذة الكوخ ، عندما طرق المرشد بابه فى هدوء • وكأن السـاحرة كانت فى انتظارهم ، اذ أن صـوت امرأة نادى بهم أن يدخلوا • فخطوا الى داخل الكوخ وأغلقوا الباب دونهم . ووقفوا منتظرين قدوم الساحرة • وحيث أن الكاتب الدينى لم يذكر شيئا فى وصف تلك الساحرة ، فانه يحق لنا أن نصفها من خلال تصورنا لها ، فربما كانت الساحرة شابة شـقراء ذات عينين متألقتين وشعر فاحم • وربما كانت عجوزا شمطاء عمشاء ذات شعر مجعد ، قد خلا فمها من الأسنان ، واقترب أنفها الأقنى من ذقنها ،

وانحنى ظهرها من الوهن والهرم • فليس ف وسعنا على كل حال .
أن نقطع بشكلها ، ولكن الملك بدون شك قد أمعن النظر كثيرا ف شكلها
ثم اخبرها دون التواء بسبب زيارته لها ، وقال لها اعرف لى بالجان ،
واصعدى لى من أقول لك « (سفر صموئيل الاول • الاصحاح
الثامن عشر والعشرون آية ٨)• ولكن الساحرة اعترضت على مطلبه
وذكرت زائرها الذى لم تكن قد تحققت بعد من شخصه . بحملة
الملك ضد السحرة والعرافين ، ومن ثم فان الاستجابة الى مطلبه
تكلفها حياتها • ولم توافق الساحرة على استخدام قواها السحرية
لصالح الملك ، الا عندما أكد لها هذا الغريب ذو القامة الفارعة ، ف
لهجة بين الأمر والتوسل ، بشرفه ، أن الأذى لن يلحق بها قط من جراء
تحقيقها لمآربه • وعند ذلك سألته الساحرة : « من أصعد لك ، فقال
اصعدى لى صموئيل » ، (السفر نفسه ونفس الاصحاح آية ١١) •
وفوجئت الساحرة بسماعها هذا الاسم ، وحملقت ف وجه الزائر
وأدركت أنه هو الملك بعينه فصرخت ف فزع ف وجهه عندما تصورت
أنها وقعت ف الفخ وقالت له : « لماذا خدعتنى وأنت شاءول »
(آية ١٢) • ولكن الملك طمأنها ، وأكد لها أنه سيمنحها صفحا ملكيا ،
ورجاها أن تبدأ بتعويذاتها ، ومن ثم فقد بدأت ف عملها ، وأخذت
تحملق ف عمق فيما بدا لزائرها انه مجرد فراغ • ولكن الملك أدرك
من خلال نظرتها الزائغة الحائرة أنها ترى شيئا خفيا عنه • وعند ذاك
سألها الملك عما بدا لها ، فقالت : « رأيت آلهة يصعدون من الأرض •
فقال لها ما هى صورته • فقالت رجل شيخ صاعد وهى مغطى بجبة •
فعلم شاءول أنه صموئيل • فخر على وجهه على الأرض وسجد •
فقال صموئيل لشاءول لماذا اقلقتنى باصعادك إياى • فقال شاءول
قد ضاق بى الأمر جدا • الفلسطينيون يحاربونى والرب فارقنى •
ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى
ماذا أصنع • (سفر صموئيل الاصحاح الثامن والعشرون من ١٣ الى
١٥) ولكن الملك البائس وجد الشبح قاسيا صعب المراس كما فعل
صاحبه ف أثناء حياته ، عندما أدار ظهره غاضبا للملك الذى بلغ من

جرأته أن عارض وصيته . فقد سأل الرجل الكهل الذى لم تعرف الرحمة طريقا الى قلبه ، فى نغمة قاسية ، سأل الملك المتذلل كيف أنه جرؤ بحق الرب ، على أن يطلب النصح من نبى الرب . ثم أنبه مرة أخرى على عصيانه أو امره وذكره بنبوءته التى سبق له أن أخبره بها ، وهى أن المملكة ستؤخذ منه وتمنح لداود ، وطلب منه ان يعمل على تحقيق تلك النبوءة . ثم ختم تعنيفه له بأن صرح له أن الغد يحمل هزيمة بنى اسرائيل وانتصار الفلسطينيين ، وأنه قبل أن تغرب شمس أخرى سيكون شاءول وأولاده معه فى العالم الآخر . وبهذه الكلمات اختفى الشبح فى باطن الأرض ، أما شاءول فقد وقع مغشيا عليه .

ولعلنا ندرك من هذه الحكاية المفصلة أن عادة تحضير الأرواح أو استدعائها بقصد التماس النصح عندها عن طريق النبوءة ، كانت مألوفة لدى الاسرائيليين القدماء ، وأن التشريعات الصارمة التى كانت تهدف الى تحريمها ، لم تستطيع أن تقضى عليها كلية . بل ان سلوك « شاءول » الذى لم يتردد فى حزنه البالغ ، فى التماس العون من محضرى الأرواح أنفسهم ، هؤلاء الذين أذلهم فى فترة ازدهار دولته ، يكشف لنا عن مدى رسوخ هذه العادة فى العقيدة الشعبية أو فى خرافات هذا الشعب . ومن ثم فان تصرف « شاءول » على هذا النحو يعد مثالا للميل الى الارتداد الى الوثنية الذى تنبه اليه أنبياء بنى أسرائيل ولم يرتضوه لقومهم . وقد كان هذا الارتداد يظهر بقوة فى محن الدولة العصيبة غير العادية أو فى أوقات الخطر ، عندما كان يبدو للناس عدم جدوى التشريعات الدينية الصحيحة فى اقناع الناس بالأمور المغيبة . فالقانون الاسرائيلى فى صورته الحالية التى يرجح أنها أحدث من عهد شاءول بكثير وان تضمنت عرفا قديما جدا ، ينص على الحكم بالموت رجما بالحجارة ، على كل من يمارس مهنة السحر أو يقوم بتسخير الأرواح ، أى على كل من يمارس مهنة تحضير الأرواح بقصد التماس النصح لديها عن طريق النبؤة . وعلى

الرغم من هذا التحريم . فان من بين العادات التى أحياها الملك « منسى » الذى حكم بعد عصر « شاءول » بزمن طويل عادة استحضار الأرواح (١) ، فلقد أخرج هذ الملك لمتطير هؤلاء الذين كانوا يمارسون السحر الأسود ، من جحورهم وزواياهم التى كانوا قد اختفوا فيها هروبا من القانون . وسمح لهم بأن يمارسوا عملهم جهرا فى وضح النهار . ولكن الملك الورع « يوشيا » تصدى فى زحمة اصلاحه الدينى لمحضرى الأرواح . سحرة كانوا أم عرافين . ونسبهم الى طبقة المجرمين . تلك الطبقة التى أصبحوا ينتمون اليها منذ أن مارسوا سحرهم (٢) . ويتضح من حكاية مقابلة « شاءول » لشبح « صموئيل » أن الشبح لم يظهر الا للساحرة . ولكن على الرغم من أن الملك لم ير الشبح . فانه كان فى وسعه أن يسمع صوته ، وأن يجيبه بدون وساطة . ويمكننا أن ننتهى من ذلك فى شىء من الثقة على أن هذه الطريقة كانت احدى الطرق التى كان يتبعها السحرة والعرافون الاسرائيليون للتحدث الى موتاهم ، فقد كانوا يتظاهرون باستدعاء الروح ورؤية شبح الميت ، فى حين لا يبصر هؤلاء السذج الذين يطلبون استحضارهم شيئا . بل يسمعون صوتا يحسبونه لغفلتهم صوت الروح ، وهو فى الحقيقة اما أن يكون صوت الساحر نفسه أو صوت مساعده . ومهما يكن مصدر هذا الصوت ، فان فى مثل هذه الأحوال لم يكن يصدر من الساحر نفسه ، وإنما كان يأتى من مصدر خارج عنه يظنه المستفسر الغر المصدر الذى يقف فيه الشبح غير المرئى . ومثل هذه التأثيرات الواضحة يمكن ان يصطنعها هؤلاء الذين

---

(١) « وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاءل واستخدم جانا وتوابع واكثر عمل الشر فى عينى الرب لاغاظته » . سفر الملوك الاصحاح الحادى والعشرون آية ٦) .

(٢) « لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ، ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى ، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب . وبسبب هذه الأرجاس الرب الهك طاردهم من امامك » .
(سفر التثنية ، الاصحاح الثامن عشر من آية ١٠ ـ ١٢) .

يتكلمون من أجوافهم • وهؤلاء تكون لديهم اذن ميزة العمل بدون مساعد ، وبذلك يقللون من فرصة افتضاح أمرهم •

ولقد أخبرت الساحرة شاءول ان روح صموئيل صعدت من الأرض ، وربما كانت قد تمكنت عن طريق استخدام موهبتها الصوتية أن تصطنع صوتا أشبه بصوت منبعث من داخل الأرض ، عميق وذى صرير حسبه الملك صوت « صموئيل » المتوفى ، اذ كان يظن أن الأشباح تتحدث من باطن الأرض بمثل هذا الصوت العميق • وعلى كل فان محضر الأرواح لم يكن على الدوام يبذل جهدا فى محاكاة صوت الشبح من داخل نفسه ، وان كان يفعل هذا فى كثير من الأحيان على سبيل ايهام المستمعين السذج أنه صوت الروح الذى يتعامل معه أو صوت شبح الشخص المقدس لديهم • وهنا يقال ان الروح الذى يتعامل معه محضر الأرواح أو شبح الشخص الذى يستدعى ، قد تقمص محضر الأرواح ، حيث أن الصوت الغريب يخرج من جوفه • وسواء كان الصوت يصدر من جوف الأرض أو من جوف محضر الأرواح ، فان الشبح نفسه فيما يبدو ، كان يقف متواضعا فى خلفية المشهد • فنحن لا نعتقد أن السحرة العبريين بفنونهم السحرية المتخلفة، كانوا قادرين ، شأنهم شأن رفقائهم من السحرة فى العصور المتأخرة ، على مفاجأة المعتقدين وبث الروع فى نفوسهم عن طريق عرض أشكال للمردة أمامهم مرسومة بمادة قابلة للاشتعال على حيطان حجره مظلمة ، ثم تشعل النار فى هذه المادة فى اللحظة المناسبة ، فينفجر فى الظلمة فجأة ضوء متوهج يؤكد بالدليل العلمى سحر هذه العقيدة •

ويبدو أن عادة تحضير الأرواح كانت مألوفة عند العبريين وغيرهم من الشعوب السامية • والدليل الواضح على هذا يتمثل فى النشيد الثانى عشر من ملحمة جلجامش • ويصور البطل جلجامش فى هذا النشيد حزينا على فقد صديقة « ايابانى » ، ثم أخذ يتوسل الى

الآلهة وهو على هذا النحو من الاسى ، لكى تحضر له روح صديقه الراحل من العالم الآخر . ولكن الآلهة اعترفت له ، آلها تلو الآخر ، بعجزها عن تحقيق مأربه . فتوسل فى نهاية الأمر الى الاله « نيرجال » ، اله الأموات ، وقال له : « أتوسل اليك أن تفتح حجرة القبر (وأن تشق الأرض) ، حتى تصعد روح « ايبانى » من باطنها كالريح . وأصغى الاله فى عطف لتضرعه ، وفتح حجرة القبر ، وشق الأرض ، وجعل روح « ايبانى » تصعد من باطن الأرض كالريح . وتحدث جلجامش الى الشبح الذى استدعى من باطن الأرض ، وعلم منه الحالة المحزنة التى يعيش فيها الأموات فى العالم الآخر ، حيث يغوص الدود الذى يلتهم أجساد الموتى فى التراب ، كما يغوص فيه غير ذلك من الأشياء . على أن الشبح لطف من حدة كآبة هذه الصورة ، بأن قدم لجلجامش معلومات عن السلوى التى تكلفها طقوس الدفن لأرواح المحاربين الذين يسقطون فى المعركة بالقياس الى الحالة المؤسفة التى يعيشها هؤلاء الذين تتمرغ أجسادهم فى التراب دون أن تؤدى لهم طقوس الدفن فى ميدان القتال .

وقد كان الإغريق القدماء يقومون باستدعاء أرواح الموتى ، اما بقصد استقاء معلومات منها أو بقصد تهدئة غضبها . ويرد أول مثال لتحضير الأرواح فى الأدب الاغريقى فى الفقرة الشهيرة من ملحمة الأوديسا ، حيث أبحر أولسيوس الى الأرض المظلمة التى تقع عند نهاية أطراف المحيط ، وهناك استدعى أشباح العالم السفلى . وكان على أولسيوس ، لكى يتمكن من الحديث معها ، أن يحفر خندقا ، وأن يقدم شاة ضحيه ويترك دمها يسيل فى الخندق . وعند ذاك تجمعت الأشباح الواهنة العطشى من حول الخندق . وبعد أن شربت الدماء ، أسرت الى البطل بكلمات مطمئنة ، بينما كان يجلس بجانب الخندق وهو شاهر سيفه لكى يحافظ على النظام فيما بينها ، حتى لا يتجرع أحد منها السائل الثمين فى غير دوره .

ويبدو أن عادة استدعاء الأرواح من العالم الآخر عند الاغريق القدماء ، لم يكن يقوم به محضرو الأرواح فى أى مكان دون تمييز ، وانما كانت هناك بعض الأمكنة الخاصة حيث كان يعتقد أن محضر الأرواح يتصل اتصالا مباشرا بالعالم السفلى عن طريق ممرات أو فتحات تمرق منها الأرواح صاعدة أو هابطة حسب الأوامر التى يصدرها لها محضر الأرواح . وهذه الأمكنة كانت تعرف بأمكنة نبؤة الموتى . وهناك عند هذه الأمكنة يتم ، فيما يبدو ، التعامل الشرعى مع أشباح الراحلين .

وقد كان أحد أمكنة نبؤة الموتى يقع عند « أرنوم » فى «ثيسبورتيس» حيث استدعى « أورفيوس » الموسيقار الأسطورى دون جدوى ، فيما يقال ، روح محبوبته « أويريديس » التى فقدها . وفى عصر متأخر رحل « برياندر » حاكم « كورينثا » المتجبر الى هذا المكان نفسه ، ليسأل شبح زوجته « ميليسا » عن وديعة كان قد أودعها شخص غريب عنده ، ثم وضعها « برياندر » فى مكان ما نسيه فيما بعد . ولكن شبح الزوجة رفض أن يجيب عن سؤاله ؛ لأن زوجته أخبرته بأنها عارية وتقاسى البرد ، حيث أن الملابس التى كان قد دفنها زوجها معها لم تنفعها لأنها لم تحرق عند دفنها . ولما استمع « برياندر » الى هذا القول ، دعا كل نساء « كورنثا » للاجتماع فى محراب « هيرا » فجاءت النساء الى هذا المحراب فى أبهى ملابسهن كما لو كن قد جئن ليشهدن حفلا كبير . وما كدن يتجمعن فى هذا المكان ، حتى طلب هذا المتجبر من حراسه أن يحطيوا بهذا الجمع المرح ، وأن يأمروا كل امرأة وكل فتاة أن تخلع ملابسها . ثم جمع هذه الملابس ووضعها فى حفرة وأحرقها وفاء للزوجة المتوفاه ، وبهذه الطريقة تصور « برياندر » أن الملابس وصلت الى زوجته . فلما استدعى شبح زوجته مرة أخرى ، وأعاد عليه السؤال عن الوديعة المفقودة ، كانت الزوجة قد استدفأت وشعرت بالراحة وأصبحت مستعدة للاجابة عن سؤاله . ويبدو أن الأماكن التى تجاوز هذا المكان ، كانت على

صلة كذلك بأرواح الموتى وإن لم تكن مأهولة بهـا ، ذلك أن أسـماء أنهار العالم الآخر كانت تطلق على المياه المجاورة لها • فقـد كان يجرى بجوارها نهر « أخيرون » ، كما كان يجرى بعيـد من هـذا النهر ، نهر « كوكينوس » الذى سمى بذلك « نسبة الى العويل الذى سمع عاليا عند مجرى هذا النهر الحزين » • وربمـا كان المـكان المحدد الذى كان يتم الاتصال عنده بالعالم الآخر ، هو قرية من القرى التى يطلق عليها اليوم اسم « جليكى » ، حيث تشير بقايا أعمـدة الجرانيت وبعض قطع من رخام الأفارين الأبيض الى مـكان معبد قديم • وينبع نهر « أكيرون » الذى يسمى اليوم نهر « سوليوتيكو » أو « فناريونيكو » من جبال « سولى » الموحشة الجرداء ، التى كانت تتمتع ذات يوم بجانب من الشهرة ، ثم ينحدر النهر بطيئا بليدا عكرا خلال سهل ممتد تكثر به المستنقعات حتى يصب فى البحر • وقبل أن يجتاز النهر السهل منحدرا من الجبال التى تقف خلف السهل كمـا لو كانت حائطا رماديا ضخما يحترق أخدودا عميقا مظلما يعد من أكثر الأخاديد عمقا وحلكة فى بلاد اليونان • وعلى الجانب الآخـر تعـلو النتوءات فى شكل عمودى عند حافة المياه الى ارتفاع مئات من الأقدام ، وتغطى جوانبها وأخاديدها أشجار البلوط القصيرة والشجيرات • ثم ترتفع الجبال بعد ذلك حيث تتراجـع جـوانب الأخـدود عن الخط العمودى ، الى ما يربو عن ثلاثة آلاف قدم • وهناك تنمو أشجـار الصنوبر عند جوانبها الناتئة ، فتضيف بذلك جلالا قاتما الى هـذا المنظر • ويقود المسافر طريقا خطرا على طول افريز يقع أعلى جانب الجبل حيث يحملق المسافر الى أعماق هذه الوهدة المهولة ليرى النهر وهو يندفع مرغيا مزبدا • وفى أغلب الأحيان يقتحم النهر فى شـكل شلال هوة مظلمة تقع بعيدا كل البعد عن المسافر الى درجة أن خرير المياه يختفى فى الهواء قبل أن يصـل الى مسمعه • فالمنظر فى عمومه يجمع بين عناصر الروعة والوحدة والعزلة بدرجة تجعله ملائما لأن يثير فى النفس إحساسا بالضيق الممتزج بالخوف والكآبة • ولهذا فقـد كان كذلك ملائما لأن يتصور الناس أنه مرتبط بالقوى الخارقة • وليس

غريبا بعد ذلك أن القدماء كانوا يتخيلون أن هذه الجبال العابسة والمستنقعات الموحشة والآنهار الكئيبة ، كانت مسكنا لأرواح الموتى .

وقد كان هناك مكان لنبؤة الموتى يقع عند « هرقليا » فى « بيثينيا ». وقد لجأ الى هذا المكان الملك الاسبرطى « باروزانياس » الذى هزم الفرس فى معركة « بلاتيا » . وهناك حاول أن يستدعى شبح فتاة بيثنطية تدعى « كليونيك » كان قد قتلها عرضا ، وأن يسترضى شبحها . فظهر له الشبح وأخبره فى لغة غريبة أنه سوف يتخلص من كل متاعبه عندما يتحتم عليه أن يعود الى السبرطة . وقد تحققت النبؤة بموت الملك العاجل .

على أننا لا نملك أية معلومات عن الطريقة التى تظهر بها الأشباح ، وفقا لاعتقاد الناس ، وتجيب عن أسئلة المتسائلين . ومن ثم فاننا لا نستطيع ان نقرر ما اذا كانت هذه الأشباح تظهر للمستفسر نفسه ؛ أو أنها كانت تظهر للساحر المكلف باستدعائها وحده . كما أننا لا نعرف ماإذا كان الشخص الذى اختصته الأشباح بالظهور له ، يراها فى اليقظة أم فى المنام . وعلى كل فان الاتصال بأرواح الراحلين فى بعض أماكن النبؤة الاغريقية كان يتم ، فيما نعلم ، عن طريق الرؤيا . ومن بين هذه الأماكن ، مكان نبؤة العراف « موبسوس » فى سيليسيا . ويخبرنا « بلوتارك » أن حاكم سيليسيا الذى كان ينزع الى الشك الدينى ، وكان صديقا للفلاسفة الأبيقوريين الذين كانوا يسخرون من القوى الخارقة ، قرر فى احدى المناسبات ، أن يختبر نبوؤة هذا المكان . فكتب سؤالا على لوحدون أن يطلع أحدا عليه ، ثم ألصق عليه غطاء وسلمه الى عبد معتق كان يثق فيه ، وطلب منه أن يدع شبح العراف يجيب عن السؤال الخفى المكتوب على اللوح . وبناء على ذلك رحل العبد الى معبد « حوبوس » ونام هناك وفقا لما هو مألوف . وفى الصباح أبلغ الحاكم أنه قد رأى فى رؤياه كأن رجلا وسيما يقف بجانبه . وفتح فاه واختفى بمجرد أن نطق بكلمة واحدة هى

« أسود » • وتحير أصدقاء الحاكم الذين كانوا قد اجتمعوا ليستمعوا الى رسول العالم الآخر ويتهكموا به من هذه الاجابة المقتضبة • أما الملك فما ان سمع هذه الاجابة حتى خر ساجدا على نحو ما يسجد الانسان متعبدا • وقد تبين سبب سلوك الملك على هذا النحو ، عندما أزيل الغطاء عن اللوح وقرأ محتواه بصوت عال ، وكان الملك قد طرح فيه السؤال التالى : « هل أضحى بثور أبيض أم أسود » • وقد هزت مطابقة هذه الاجابة عن سؤال الحاكم ، الفلاسفة الأبيقوريين الساخرين أنفسهم • أما الحاكم فقد قدم ثورا أسود ضحية وظل يقوم بواجب التقديس للعراف الميت حتى نهاية حياته •

وقد حكى بلوتارك التقى برضاء واضح تلك الحادثة التى نجحت فى دحض مزاعم المتظاهرين بالكفر بقوة الأشباح • ثم عاد فحكى حادثة أخرى شبيهة بالحادثة الأولى : قيل انها حدثت فى ايطاليا • فقد فقد رجل غنى كان يدعى « اليسيوس » ، وكان من سكان تيرينا الافريقية التى تقع فى « بروتيوم » ، فقد ابنه ووريثه « ايوثينيوس » بوفاة غامضة مفاجئة • ولما كان قد خشى أن تكون هناك لعبة دنيئة وراء فقد وريثه ، فقد لجأ الأب القلق الى مكان نبؤة الموتى • وهناك قدم حيوانا ضحية ، ثم نام كما كانت العادة المتبعة فى هذا المكان المقدس ، ورأى رؤيا تمثل له فيها والده الذى أخذ يتوسل اليه فى أن يعينه على اكتشاف حادثة موت ابنه • فرد عليه شبح الأب قائلا : « اننى قد ظهرت اليك من أجل هذا الغرض نفسه ، وأنا آمل أن تستمد أجابتك من هذا الرجل الشاب » • قال ذلك وهو يشير الى شاب يسير فى أعقابه ، وكان يشبه ابن الرجل الغنى الذى فقده وأعلن الحداد عليه • عند ذاك سأل « اليسيوس » هذا الشاب ، وقد فوجىء بالتشابه التام بينه وبين ابنه وقال له : « ومن تكون أنت أيها الشاب ؟ » فأجاب الشبح : « اننى ابنك بحق • خذ هذا » • وسلم الى « أليسيوس » لوحا كتبت عليه بعض العبارات

التى تذكر أن ابنـــه قد مات ميتة طبيعية لأن الموت كان أفضـــل له من الحياة » •

وقد تعودت قبيلة « ناساموني » فى الزمن القديم ، وهى قبيلة كانت تسكن شمال ليبيا ، أن ينام أفرادها فوق قبور أجدادهم ، سعيا وراء أحلام النبوءة ، فقد كانوا يعتقدون ، فيما يبدو ، أن أرواح أجدادهم المتوفين تصعد من قبورها لتقدم لهم النصيحة والسلوى • وما زال بعض « الطوارق » ســكان الصــحراء يفعلــون ذلك حتى اليوم • فاذا خرج الرجال فى رحلة بعيدة ، فان زوجاتهم ترتدين أبهى المــلابس وتخرجن الى قبور الأجداد وتنمن فوقها • وهناك تستدعين روح جد من الأجداد ليطلعهن على أخبار أزواجهن • وعند ذاك تظهر لهن روح تدعى « ادبينى » فى هيئة رجل • فاذا استطاعت امرأة منهن أن تكسب ود هذا الروح ، فانه يخبرها بكل ما يحدث فى الرحلة • أما اذا فشلت فى كسب وده ، فانه يبعد عنها • وبالمثل « توجد مجموعة من القبور ذات شكل بيضاوى ضخم بالقرب من » أوجيدت » فى شمال الصحراء • فاذا شاءت سيدة من« آزعار »أن تعرف أخبارا عن زوجها الغائب ، أو عن ابنها أو عشيقها ، فانها تذهب الى هذه القبورو تنام بينهـــا ، وهى تعتقد أنها سترى على وجه التأكيد رؤيا فى منامهـــا تمدها بالأخبار التى تسعى الى معرفتها » • وبالمثل يذهب « الترود ـــ جانيون » الذين يسكنون «سيليبيس الوسطى » ، فى بعض الأحيان الى القبور وينامون فوقها ، بقصد التماس النصيحة من الشـــبح فى رؤياهـــم •

وتحتوى مأساة « أخيل » التى تقع تحت عنوان « الفرس » ، على أكبر وصـــف مسهب لعملية استحضار الأرواح فى الأدب الاغريقى• ويصور منظر المسرحية عند قبر الملك « دارا » حيــث نجــد الملكة « أتوسا » زوجة « اكسيركيس » تنتظر فى شغف أخبار زوجها وأخبار الجيش القوى الذى قاده زوجها ضد الفرس • ولكن الرسول يصـــل

حاملا أخبار هزيمة الفرس الساحقة عند « سلاميس » • وعند ذاك تقرر الزوجة فى حزنها ولهفتها ، أن تستحضر روح « دارا » من قبره لتلتمس عنده النصيحة فى هذا الأمر الجلل • ومن أجل ذلك قدمت للميت قربانا من اللبن والعسل والماء والخمر وزيت الزيتون فى الوقت الذى كانت الجماعة تردد فيه أناشيد السحر التى يناشدون بها آلهة العالم الآخر لكى تحضر لهم روح الملك المتوفى فى وضح النهار • وعند ذاك تصعد الروح من الأرض • ولما علم الروح بالكارثة التى حلت بالجيش الفارسى ، قدم النصيحة والتحذير لشعبه المنحدر • وتشير هذه الرواية بوضوح الى أن الشبح يمكن أن يظهر فى وضح النهار ، وليس فقط فى الأحلام • على أننا لا نستطيع أن نقرر ما اذا كان الشاعر يصف شكلا من أشكال تحضير الروح الذى كان يتبع عند الاغريق أو عند الفرس ، أم يصور ذلك ببساطة من محض خياله • ومن المحتمل أن هذا الوصف يرتكز على طقوس اعتاد محضرو الأرواح الأغريق أن يمارسوها إما عند أمكنة نبوءة الموتى المعروفة ، أو قبور أشخاص بعينهم حيث يسعون لالتماس النصيحة من أشباحهم • وقد روى « فيلوستراتوس » الذى دون ترجمة حياة الفيلسوف الفيثاغورى « أبولينوس النيانى »، أن هذا الفيلسوف قد استحضر زوج « أخيل » من قبره فى « تسيسالى » • وقد ظهر له البطل على رابية فى هيئة شاب وسيم طويل القامة ، وتحدث معه بأسلوب ودى للغاية واشتكى له من أن أهل « تسيسيليا » قد كفوا منذ زمن طويل عن أن يتقدموا له التضحيات عند قبره ، وقد اعترف عالم نحوى بعينه يدعى « أبيون » وكان يعيش فى عهد « بلينى » الشاب ، أنه استحضر روح هوميروس وسأله عن والديه وموطنه (أى عن والدى هوميروس وموطنه) (١) • وقد رفض هذا النحوى فيما بعد أن يفشى هذا السر ؛ من ثم فان الاجيال التى

---

(١) اضافة للتوضيح . (المترجمة) .

أتت من بعد لم تستفد من هذه المحاولة الجريئة فى حل مشكلة هوميروس عند رأس النافورة .

وقد قدم لنا الشاعر « لوكان » بأسلوبه المطنب الرخيص وصفا رتيبا لمقابلة تمت ، كما يقول ، بين « سيكستوس بومبيوس » ابن بومباى الكبير وساحر من « تسيسالى » ، وذلك قبل وقوع معركة « فارساليا » . وقد حاول « سيكستوس » الذى لا يستحق أن يكون ابنا « لبومباى » العظيم كما تعود « لوكان » أن يقول ذلك عنه ، حاول بدافع الشغف لمعرفة مستقبل المعركة ، لا أن يتحدث عند أمكنة نبوءة الآلهة الشرعية ، وانما تحدث مع السحرة ومحضرى الأرواح . وأعاد له ساحر خبيث كان يسكن بين القبور ، بناء على طلب الابن ، الحياة الى جسد لم يكن قد دفن بعد . وقد أخبر الروح الذى حل بالجسد بالفتنة التى رآها بين ظلال منظر الكارثة التى توشك أن تحل بالدولة الرومانية . وبعد أن أبلغ الرجل الذى بعث مرة أخرى هذه الرسالة ، طلب من الساحر أن يصنع معه صنيعا طيبا فى مقابل ذلك ، وهو أن يدعه يموت مرة أخرى ، وذلك لصالحه وصالح الجميع . فوافق الساحر على ذلك وجمع فى هدوء كومة من الحطب سار عليها الجسد بدون مساعدة أحد ، ثم أحرق معها فى هدوء . ومن المؤكد أن السحرة التسيسباليتيين كانوا يحاطون بسمعة سيئة فى العصور القديمة . ومن المحتمل أن عملية تحضير الأرواح كانت أحد صنوف السحر الأسود الذى كانوا يمارسونه . على أننا لا نعول كثيرا على وصف « لوكان » المزخرف كل الزخرفة للطقوس التى كانت تتبع فى استحضار الارواح . وربما كانت رواية « هوراس » عن الساحرين اللذين شاهداهما وهما يصبان دم الحمل الاسود فى حفرة بقصد استدعاء الأرواح لكى تجيب عن تساؤلاته ، أكثر احتمالا من رواية « لوكان » . وقد تحدث « تيبولوس » عن ساحرة كانتتستحضر الأرواح من قبورها عن طريق تعاويذها . كما أنه حكى أنه كان فى عهد « تيبيريوس » شاب ذو حسب وان كان ضعيف العقل ، يدعى

« ليبو » ، كان يشتغل بالسحر الأسود ، وكان يستعين بشخص يدعى « جونيوس » لكي يستدعى له أرواح الأموات عن طريق السحر .

وقد قيل ان كثيرا من أباطرة الرومان الأشرار كانوا يحضرون الأرواح بقصد اخماد ثورة الفزع التى كانت تنتاب ضمائرهم القلقة من جراء تذكرهم لجرائمهم ، مثل جريمة الانتقام من الأرواح . فقد روى أن « نيرون الجبار لم تعرف الطمأنينة الى نفسه سبيلا بعد أن قتل أمه « أجريبينا » . وكثيرا ما اعترف أن طيفها كان يتملكه وأن هذا الطيف كان يفرغ عليه جام غضبه بضربه بالسياط وحرقه باللهيب. ولكنه عبثا حاول أن يستدعى شبحها عن طريق الطقوس ، وعبثا حاول أن يهدىء من غضبها . وبالمثل كان « كراكالا » الجبار السفاح المسلوب العقل ، يتصور أن شبحى أبيه « سيفيروس » وأخيه المقتول « جبيتا » يلاحقانه بالسيوف . وقد كان يستعين بالسحرة لتهدئة ثورة غضبهما . ومن بين الأشباح التى استحضرها السحرة له ، روح والد الامبراطور ، وروح الامبراطور « كوموديوس » . ولكن لم يتعطف شبح من الأشباح التى استعان بها هذا الملك السفاح ، وتحدث معه سوى شبح قريبه « كومودس » . وحتى هذا الشبح لم يسر اليه بعبارة تعزية أو أمل . وكل ما استطاع أن يستخلصه منه هو أنه ألمح له فى حزن بقدوم محاكمة مفزعة . ولم يزد هذا القول روح « كاراكالا » المذنبة سوى مزيد من الفزع .

ولم تكن عادة تحضير الأرواح قاصرة على الشعوب المتحضرة ، بل كانت تمارسها كذلك القبائل البدائية . فقد انتشرت بين بعض القبائل الافريقية ، عادة استشارة أرواح الملوك والزعماء المتوفين بوصفها مكمنا للنبوءات ، وذلك عن طريق الكهنة والكاهنات الذين كانوا يتظاهرون بأن روح الحاكم المريض تتملكهم ، وأنهم يتحدثون بلسانه . فقد كان بينى ، على سبيل المثال ، لكل شبح ملك يتوفى عند قبيلة « باجندا » التى تسكن وسط افريقيا معبد يحتفظ فيه بقدسية

بالغة بعظمة فــكه السفلى • والغريب فى هذا الأمر أن الجزء الذى يتعلق به الشبح أشد التعلق من جسد صاحبه عندما يتوفى هــو ، وفقا لاعتقاد هذه القبيلة . عظمة فكه • ومن المــألوف عندهم أن يبنى هذا المعبد فى شكل مخروطى كبير ، وأن يكون مقسما الى حجرتين ، حجرة داخلية وأخرى خارجية • وفى الحجرة الداخلية ، أو فى قدس الأقداس ، كان يحتفظ بعظمة الفك فى أمان داخل تجويف فى باطــن الأرض • ويهب المتنبىء أو أى وسيط آخر تكون وظيفته استلهام شبح الملك من حين لآخر ، نفسه الى هذا المــكان المقدس ، بأن يشرب جرعة من الجعة وجرعة من اللبن فى جمجمة الملك • فاذا شــاء أن يستدعى الروح ، فانه يأتى بعظمة الفك من الحجرة الداخلية ملفوفة فى رداء مزخرف ويضعها على عرش فى الحجرة الخارجية ، حيث يجتمع الناس ليستمعوا الى النبوءة • وفى مثل هذه المناسبات يخطو المتنبىء الى العرش ويخاطب الروح ويخبرها بالمهمة المكلف بها ، ثم يشعل عليونا أو غليونين ، بعد أن يملأهما بالتبغ الذى يزرع فى البيوت ، وعندما يتصاعد الدخان مهيئا الجو للنبوءة ، ينتاب المتنبىء الهــذيان ويتحدث مقلدا صوت الملك ، كما ينطبق بعبارات خاصة به ، لأن روح الملك ، فيما يعتقد الناس ، تــكون قد تقمصته • وعلى كل فانه يصعب استيضاح الكلمات التى يتلوها فى سرعة ، ولهذا فان قسيسا يحضر لكى يفسرها للحاضرين • فاذا فرغ الملك الحى من سؤال الملوك المتوفين عن أمور تختص بشئون مملكته فانه يزور معابدهم ، معبدا تلو الآخر، حيث يحتفظ فى ورع دينى بتعاويذهم •

وفى بعض الأحيان تسكن أرواح الزعماء الموتى عند قبائل البانتو ، أجسام الرجال والنساء الأحياء ، وينطقــون بالنبــوءة من خــلال أفواههم • فاذا تملكت الروح رجلا من الرجال فانه يأخذ فى الزئير كما يزأر الأسد • وتجتمع النساء معا وتقرعن الطبول وهن يصحن بــأن الزعيم قد جاء ليزور القرية • ثم يتنبأ الرجل الذى تتملكه الروح بمستقبل حروبهم ويحذر الناس من تفقد الأســود لهم قريبا • ولا

يسمح لهذا الوسيط فى أثناء هبوط الوحى عليه ، أن ياكل أى نوع من الطعام قد طهى على النار ، وانما يكتفى بأكل العجين غير المخمور • على أن القدرة على التنبؤ يختص بها النساء فى العادة دون الرجال • وهؤلاء النبيات يصرحن بأن روح زعيم من الزعماء تتملكهن • وعندما يشعرن بقرب هبوط الالهام الروحانى عليهن ، فانهن يطلين وجوههن بلون أبيض ليجذبن الروح اليهن ، ويمسحن أنفسهن بالدقيق الذى له سحر دينى ، وفقا لاعتقادهن ومقدرة على التطهير • ثم تقرع بعضهن الطبول بينما يرقص البعض الآخر ، وهن يغنين جميعا أغنية سحرية ذات فواصل غريبة • وعندما يصلن فى النهاية الى ذروة السحر الدينى ، تسقط النساء اللاتى تتملكهن الأرواح على الأرض ، وينفجرن فى ترتيل أغنية غامضة فى صوت منخفض ، يفسرها الأطباء للمتفرجين الذين يقفون واجمين من الفزع ، على أنها صوت الروح •

ومن عادة زنوج توجولاند الجنوبية المتكلمين بالايوى أن يستدعوا روح الميت بعد أن يفرغوا من اقامة الشعائر الجنائزية لوفاته • وعند ذلك يحمل أقرباء الشخص المتوفى الى الكاهن طعاما مطهيا ويخبرونه بأنهم فى احضار الماء لروح أخيهم الراحل • فيتسلم الكاهن منهم الطعام والخمر وقواقع صفراء ثم يصطحبهم الى حجرته ويغلق بابها وراءه • وهناك يستحضر الروح التى تأخذ فى البكاء عند وصولها ثم تتحدث الى الكاهن • وفى بعض الاحيان تدلى الروح ببعض الملاحظات عن الفرق بين الحياة فوق الأرض وحتها • وفى بعض الاحيان يتحدث فى موضوعات خاصة كأن يتحدث عن الطريقة التى توفى بها • على أنه فى كثير من الأحيان يذكر اسم الساحر الشرير الذى قتله بسحره • وعندما يسمع أصدقاء الميت الذين يقفون فى الخارج عويل الشبح وشكواه داخل الحجرة ينفجرون فى البكاء ويصيحون قائلين : « ما أشد شفقتنا عليك » • وفى النهاية يرجوهم الروح أن يهدأوا ثم يرحل عنهم • وتلتمس قبيلة كيسى ، وهى قبيلة زنجية تسكن عند

حدود « لبيبريا » : النصح من أرواح الزعماء المتوفين الذين تشيد لهم تماثيل صغيرة عند قبورهم وتعد مقرا للنبوءة • ولهذا الغرض توضع التماثيل على لوح خشبى يحمله رجلان على رأسيهما • فاذا وقف الرجلان وهما يحملان اللوح ساكنين تماما ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب عن سؤال المتسائل بالنفى • أما اذا تأرجحوا يمنة ويسرة ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب بالايجاب • وفى جزيرة « أمبريم » ، وهى احدى جزر الهبريد الجديدة تستخدم التماثيل الخشبية التى تمثل الاجداد بوصفها وسيلة اتصال بين الناس وبين أرواح المتوفين • فاذا اعترض رجل أمرا من الأمور فانه يصفر مع هبوط الليل بالقرب من تمثال الجد • فاذا سمع عقب صفيره صوتا ، فانه يعتقد أن روح قريبه المتوفى قد تقمصت التمثال ، وعند ذاك يسر له متاعبه ويطلب منه العون ••

وقد كان « الماوريون » سكان نيوزيلندة يشعرون بالخشية اذاء أرواح اقربائهم المتوفين ، وبخاصة الزعماء والمحاربين منهم ، كما كانوا يقومون بتقديسها • فقد كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح ترقب على الدوام رجالهم الأحياء : فتحميهم فى الحرب وترصد لهم أى خرق لقانون المحرمات المقدس • وتسكن هذه الأرواح فى العادة تحت سطح الأرض • ولكنها قد تصعد الى السطح اذا راق لها ذلك ، فتتقمص أجسام الرجال ، بل وبعض الأشياء الجمادية فى بعض الاحيان • وقد كانت بعض القبائل تحتفظ فى بيوتها بتماثيل خشبية يخصص كل منها لروح من أرواح الأجداد يتقمص التمثال لكى يتحدث مع الأحياء فى مناسبات خاصة • ويتم الاتصال بين روح الجد (أتو) والاحياء عن طريق الرؤيا • وقد يتحدث معهم مباشرة فى أثناء سيرهم • ولا يشبه صوت هذا الروح أصوات الناس العاديين ، وانما هو نوع من الصوت الغامض الذى يعد مزيجا من الصفير والهمس • وقد خص الأهالى الكاتب الانجليزى الذى ندين له بهذه المعلومات بميزة التحدث مع روحى زعيمين كانا قد توفيا منذ عدة سنوات • وقد تم اتصال هذا

الكاتب بهذين الروحين بواسطة امرأة عجوز شبيهة بساحرة عين دور .
يعتقد الأهالي أن أرواح أجدادهم تظهر عند طلبها .

ويدعي الكهنة والكاهنات في جزيرة « توكاهيفا » ، وهي احـدى جزر « المـاركين » أنهم يمتلكون القدرة على استحضار أرواح الموتى الذين يسكنون أجسـام هـؤلاء الكهنة والمـكاهنات لبعض الوقت ، يتحدثون في أثنائها مع أقرباء الميت الاحياء . وتستدعى الارواح عادة في حالة مرض أحد أفراد الأسرة عندما يرغب أصدقاؤه في الاسترشاد بنصيحة الشبح . وقد شهد كاتب فرنسى كان يعيش في هذه الجزيرة في النصف الاول من القرن التاسع عشر احدى اللقاءات بين محضر الأرواح والروح ، ووصفها . وقد تم اللقاء ليلا في بيت رجل مريض بقصد التأكد من حالته المرضية . وكان الوسيط في هذه المناسـبة كاهنة أمرت باطفاء النار المشتعلة في الحجرة حتى يسودها الظلام . ثـم استحضر روح سيدة كانت قد توفيت منذ بضـع سنين تاركة وراءها مالا يقل عن اثنى عشر زوجا يبكون فراقها ، من بينهم هذا الرجـل المريض . وقد كان هذا الزوج أحب هؤلاء الازواج اليها . وقد أنبأه شبحها في غير مداراة أو إطناب بموته القريب . وفي بداية الأمر بـدا صوت الشبح كأنه قادم من على بعد ، ثم أخذ يقترب تدريجيا حتى استقر على سقف البيت .

وتقوم قبيلة « ماريندينيز » التى تستوطن الشاطئ الغربي من غينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهولندى ، في أثنـاء الاحتفـال ببلوغ الصبي سن النضج ودخوله في مجتمع الرجال ، باستحضـار أرواح الأجداد من العالم السفلي ، وذلك عن طريق ضرب الأرض بشـدة ليلا بثمرة جـوز الهنـد مدة سـاعة كاملـة . وبالمثـل يسـتدعى « التورادجانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » ، في أثناء احتفالاتهم ، أرواح الزعماء والأبطال المتوفين ،

وهى الأرواح التى تقوم على حراسة القرية ، وذلك عن طريق ضرب أرض المعبد بعصاة طويلة .

وإذا دب خلاف بين أفراد « الكايانيين » ، سكان « بورنيو » ، عنـــد تقسيم تركة ، فان المتنازعين يتصلون فى بعض الاحيان بساحر محترف أو بعراف ليستدعى لهم روح المتوفى ، ويسألونه عن رغبته فى تقسيم تركته . على أن تحضير روح المتوفى فى هذه الحالة لا يتم الا بعد جنى محصول الموسم الذى يعقب الموت . فاذا حان ميعـــاد جنى المحصول ، فإن الورثة يصنعون نموذجا لبيت لكى يأوى اليـــه الروح مؤقتا . ويوضع هذا النموذج فى ساحة البيت بجانب باب حجرة المتوفى بعد أن يملأوه بالطعام والشراب والدخان لانعاش الروح . والى جوار هذا البيت الصغير يقيم الساحر ويتمتم بتعاويذه طالبا من روح المتوفى أن تدخل بيتها ، ويعود فى الوقت نفسه أفراد أسرة المتوفى . وينظر الساحر من حين لآخر داخل البيت الصغير حتى يعلن فى النهاية أنه لم يعد داخل البيت الصـــغير أثر لـــأكل أو مشرب . وعنـــد ذلك يدرك الناس أن الشبح قد دخل البيت الصغير وأكل وشرب ما به من طعام وشراب . وفى أثناء ذلك يتظاهر الساحر بأنه يصغى الى همس الروح داخل البيت الصغير ، وهى تقفز وتنقرق على نحو ما تفعـــل الدجاجة . وفى النهاية يفصح الروح عن رغبته فيمـــا يختص بتوزيع التركة ، متحدثا بضمير المتكلم ومقلدا طـــريقة الميـــت فى الحـــديث وخصائصه الأخرى . فاذا صدرت التعليمات بخصوص تقسيم التركة على هذا النحو ، فان الورثة ينفذونها فى العادة وفقا لما أمر به الشيخ .

ويعتقد الباتاكيون سكان سومطرة الوسطى أن أرواح الموتى ، لكونها شيئا غير مادى ، لا يمكن أن تتصل بالأحيـــاء الا عن طـــريق تقمصها شخصا حيا . ولهذا فانهم يختارون وسيطا ملائما ، يستطيع ، بوصفه وسيلة يستعان بها فى تبليغ رسالة الشبح ، أن يقلد صـــوت

صاحب الشبح وطريقته فى الكلام ومشيته ، بل وطريقة ملبسه •
وقد تصل مشابهته للمتوفى الى درجة كبيرة بحيث يتأثر أقرباؤه الأحياء
بهذا الشبه ، فينفجرون فى البكاء • ثم يذكر الشبح ، عن طريق
الوسيط ، اسمه وأسماء أقربائه ، ويصف تجوله بين الأحياء ، كما
يفشى أسرار عائلته التى كان يحتفظ بها فى أثناء حياته ، الأمر الذى
يؤكد لأقربائه أنهم حقا يتحدثون مع شبح أخيهم الراحل • فاذا كان
احد الافراد طريقه فى غابة أو فى أى مكان آخر ، فان أصدقاءه
سيشفى أو سيموت • واذا انتشر وباء بين الناس ، فان الشبح
يتهيج ، وعند ذاك تقدم له التضحيات حتى يمكنه أن يحمى الناس
من العدوى بهذا المرض • فاذا كان هناك رجل عاقر ، فانه يستعلم
من الشبح عن طريق الوسيط ، عن كيفية انجابه أطفالا • كما أنه
يستشار عند حدوث سرقة فيما اذا كانت السرقة سترد • واذا ضل
أحد الافراد طريقه فى غابة أو فى مكان آخر ، فان اصدقاءه
الشغوفين عليه يسألون الشبح عن المكان الذى ضل فيه صاحبهم
طريقه • فاذا سئل الوسيط عن الطريقة التى يتملكه بها الشبح ، فانه
يجيب بأنه يرى الشبح يقدم نحوه ، ثم يشعر كأن شخصا ينتزعه ،
وأن رجليه قد صارتا خفيفتين بحيث يتهيأ له أنه يقفز • كما يبدو
له أن الناس قد تضاءلت أجسامهم وأصبغت بلون أحمر ، وأن البيوت
تدور حول نفسها • ولا يستطيع الوسيط أن يسيطر على الشبح على
الدوام ، اذ قد يتركه الشبح بين الحين والآخر فى فترة الوحى ويلهو من
حوله • فاذا انتهى الوسيط من عملية استحضار الروح ، فان المرضى
قد ينتابه فى كثير من الأحيان اثر ذلك ، وقد يموت •

وتمارس عملية استحضار الأرواح وسط ثلوج القطب الشمالى ،
كما تمارس فى الغابات والأحراش الاستوائية • فنحن نقرأ عن
شامانى من سكان اسكيمو لابرادور ، تعود أن يقدم خدمات لأصدقائه
عن طريق استحضار أرواح الموتى ، متى رغب أحد الأحياء أن يستعلم
من الشبح عن حالة راحل أو عن المكان الذى وصل اليه شخص يقوم

برحلة سحرية • ولكم يتم الاتصال بين هذا الوسيط والروح ، فـــان الوسيط يعصب عينى المستفسر عن أحد هذه الأمور ثم يدق الأرض بعصاه ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة يظهر له الروح ويجيب عن أسئلة الشامانى • وبعد أن يستقى منه الشامانى المعلومات التى يريدها ، فان الشبح يعود الى مكانه بعد أن يدق الشامانى الأرض بعصـــاه ثلاث مرات أخرى كذلك • وتسمى هذه الطريقة فى استحضار الروح « استحضار الروح عن طريق العصا » • ويتبع الاسكيمو ســكان « الاســكا » طريقة مماثلة لهذه الطريقة فى استحضار الروح • فهم يعتقدون أن الروح يصعد من العالم السفلى ويمـــر خـــلال جســـم الشامانى ويتحدث من خلاله بوضوح • ثم يرد الشامانى الشـــبح الى مكانه عند ما يدق الأرض بقدمه • على أن الناس الذين ينزعون الى الشـــك يرون أن الوسيط يتحدث من جوفه عندما يجيب عن أسئلة المتسائلين •

وتعد عملية تحضير الأرواح فى الصـــين شـــيئا طبيعيا ، حيث أن تقديس الموتى يعد عنصرا أساسيا فى ديانة الصينيين • ويبدو أن الذى يقوم بهذه العملية أساسا فى الوقت الحاضر هم النســـاء العجـــائز • وتنتشر هذه العادة فى « كانتون و « أموى » بصـــفة خاصة • وكثيرا ما رأى رئيس القساوسة « جراى » رأى العـــين فى أثناء اقامته فى « كانتون » كثيرا من عروض هذا الفن •

ويقال إن عادة استدعاء أرواح الموتى بقصد التماس النصـــح لديها ، منتشرة كل الانتشار فى « أموى » ، حيث تحترف النســـاء هذه العملية • ويبدو ان هؤلاء النسوة لا يتمتعن فى وســـط الرجال بسمعة طيبة من ناحية صدقهن • فاذا قلت لرجل فى أثناء مجـــرى حديث عام « انك تحضر أرواح الموتى » ، فان هـــذا معناه أنك تتهمه بالكذب والتلفيق • ومن ثم فان النســـاء اللاتـــى يحضرن الأرواح يفضلن أن يقمن بهذا العمل فى المحيط النسائى ، والا فانهن يتعرضن

لسخرية الرجال الشاكين • وفى هذه الحالة تقوم النسوة بتحضير الارواح فى مكان مغلق فى مسكنهم الخاص • أو فى البهو الرئيسى من معبد الأسرة • وعند ذاك يسمح لكل فرد من أفراد الأسرة بأن يشهد هذا العمل • وكثير من الأسر تلزم نفسها باتباع قاعدة عامة ، وهى سؤال روح قريبهم مرة على الأقل بعد وفاته بزمن ليس بالطويل ، عن طريق وساطة هؤلاء الساحرات ، للتأكد من أنه يعيش فى راحة فى العالم الآخر ، ولمعرفة ما اذا كان من الممكن للأسرة التى تبدى له كل الحب ، أن تفعل شيئا لراحته • وتقوم الاسرة باستحضار الروح فى يوم ذى طالع ميمون ، فيكنس البيت ويرش بالماء لأن الأرواح تنفر من القذارة ومن التراب • ثم يقدم للروح على سبيل الاغراء ، الطعام والحلوى ، كما يشعل البخور ، وكل هذا يوضع فوق معبد الأسرة ، أو على منضدة عادية اذا كانت هناك ضرورة لتحضير الروح فى حجرة منعزلة • فاذا جرت عملية تحضير الروح فى حجرة منعزلة ، فانه يتحتم على احدى النساء أن تذهب الى المعبد حيث توجد الألواح التى يعتقد فى أن أرواح أفراد الأسرة تستقر فوقها ، وتضىء شمعتين ، وتشعل ثلاث أعواد من البخور فى المعبد ، ثم تدعو الروح أن يترك الألواح وأن يتبعها • ثم تعود المرأة بعد ذلك الى حجرتها فى تؤدة تحمل أعواد البخور بين أصابعها ثم تضعها فى وعاء أو فى فنجان وتضع معها بعض الأرز النيىء • وبعد ذلك تبدأ الوسيطة فى عملها ، فتتلو التعاويذ بينما تداعب أوتار قيثارة أو تضرب على الطبول • وبمرور الوقت تصاب بالتشنج وتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال والعرق يتصبب من جسدها • وهذه الظواهر تؤخذ على أنها شاهد على وصول الشبح • ثم تمسك امرأتان بالوسيطة وتجلسانها على كرسى حيث تهوى عليه وهى فى حالة ذهول أن اغماء ، ويداها تستندان الى المنضدة • ثم يطرح غطاء أسود على رأسها • وفى هذا الوضع التشنجى تكون المرأة مستعدة للاجابة عن الأسئلة وهى ترتجف وتهتز على مقعدها ، وتضرب المنضدة

فى عصبية بيدها أو بعصاة • وعند ذاك يتحدث الروح عن أحواله فى العالم الآخر ؛ كما يخبر أهله بما يمكن أن يقوموا به لتحسين حالتــه أو لتخليصه كلية من متاعبه • كما انه يخبرهم بما اذا كانت التضحيات التى قدمت له قد وصلت سليمة الى هدفها أم أنها فقدت ، أو أصابها التلف فى طريقها اليه عن طريق البريد الروحانى • ثم يعدد لهم بعــد ذلك رغباته ؛ وما يرغب فى الحصول عليه • كما انه يخص أسرته بتوجيه النصح اليها فى شئونها العائلية • وهو فى هذا كله يتحدث بلغة غريبة • وقد تكون ملاحظاته ذات صلة بالأســئلة التى تطــرح عليه ، وقــد لا تتصل بها على الاطلاق • وقد يدور حوار هامس ، أو بالأحــرى حديث بين الوسيطة والروح • ثم ترتعد الوسيطة فجأة فى نهاية الأمر وتفيق ، وتقوم معلنة أن الشبح قد رحل عنها • وفى نهاية المشــهد تقوم بجمع الأرز وأعواد البخور فى الوعاء وتتسلم اجرها وترحل • وينظر المتفرجون بطبيعة الحال الى الأحوال التى تمر بها الوسيطة فى أثناء تأديتها عملها على أنها تمثل مراحل اتصالها بالعالم الآخر ، وان كنا نرى ان هذا الفعل ليس ســوى امارة على الشذوذ النفسى والتشنج العصبى • ولكن المتفرجين ينظرون الى هذه الحالات بوصفها حــالة يتملكها الروح فيها ، سواء كان ذلك الروح الذى يطلب اســتدعاؤه لاستشاره فى أمر من الأمور ، أو ذلك الذى تألفه الوسيطة وتتحدث معه عادة • أى أن الناس ينسبون لها القدرة على الرؤية الثانية التى تتمكن عن طريقها من رؤية الشبح • كما أن حالتها التشنجية تشــير الى الوقت المناسب الذى تغادرها فيه روحها لتزور العالم الآخــر حيث تتقابل مع روح الشخص المتوفى وتتحدث معه • كما أن شفتيها الهامستين تشيران الى ما يدور بينها وبين الروح من حديث • وربما حق لنا أن نتساءل : لماذا ترحل روحها الى العالم الآخر لتقابل روح الميت اذا كانت روحه مســتقرة على المنضدة ؟ ان مثل هذا السؤال لا يمكننا أن نجيب عنه اجابة شافية •

من هذه الرواية يتضح أن الســاحرة الصينية تستدعى فى بعض

الأحيان أرواح الموتى ، لا بطريق مباشر ، بل بواسطة روح آخر مألوف لديها يكون رهن أمرها • « فأركيداكون جراى » يخبرنا أنه « يوجد فى الصين ، كما هو الحال فى بلاد أخرى ، أشخاص بعينهم ، وغالبا ما يكونون من النساء العجائز ، يعترفون بأن أرواحا مألوفة لديهم تتملكهم على الدوام ، وأنهن يستطعن أن يستدعين أرواح الموتى لتتحدث مع الأحياء » • وفى هذه الحالة فان الساحرات الصينيات يشبهن الساحرات الاسرائيليات فى الزمن القديم ، اللاتى كن يعتمدن فيما يبدو ، على مساعدة الأرواح المألوفة لديهن فى استحضار الأرواح الاخرى • فعندما طلب « شاءول » من ساحرة « عين دور » أن تستحضر له شبح صموئيل قال لها : « أتوسل اليك أن تتكهنى لى بالروح التابع ، واصعدى لى من أقول لك » (١) ••

ولعل هذه الأمثلة تبين لنا كيف أن عادة تحضير الأرواح كانت تنتشر انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية المختلفة •

---

(١) سفر صمويل _ اصحاح ٢٨ آية ٨ •

الفصل الخامس

جريمة الاحصاء

ومن حكايتين مشهورتين بين حكايات سفرى صموئيل وأخبار الأيام . نعلم أن « يهوه » أبدى كراهيته فى مناسبة من المناسبات ، نحو القيام بتعداد الشعب اليهودى . ويبدو أنه كان يعد هذا العمل جريمة أبشع من جريمة غلى اللبن أو المشى على عتبة البيت . فنحن نقرأ أن « يهوه » أو ربما الشيطان ، قد أوحى الى الملك داود بفكرة مشئومة ، وهى أن يقوم بتعداد قومه . ومهما يكن مصدر هذا الوحى على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل ، أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل ، فقد تناقص عدد الاسرائيليين اثر ذلك التعداد مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون ، ونظر الناس الى هذه الكارثة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم . بل ان خيالهم المتهيج صور لهم ، وقد أحاط بهم شبح الطاعون من كل صوب ، شبح «ملاك الخراب » ، وهو واقف بين السحب مشهرا سيفه فوق « أورشليم » ، تماما كما حدث زمن الوباء الكبير الذى حل بمدينة « لندن » ، وذلك اذا اعتمدنا على رواية « ديفو » عند ما ازدحمت الطرقات بالناس وقد توهموا انهم أبصروا شبحا مفزعا يتماوج فى الهواء . ولم يلق الشبح الذى توهمه الاسرائيليون بسيفه جانبا ، كما لم يكف الناس المكلومون عن التجول فى شوارع أورشليم ، الا عند ما اعترف الملك داود الآثم بجريرته ، وعند ما قدم التضحية لتهدئة غضب الرب .

وليس اعتراض « يهوه » أو بالأحرى اليهود على تعداد الناس ،

سوى مثال لعقيدة عامة كان يؤمن بها كثير من الشعوب الجاهلة عندما كانوا يأبون كل الاباء أن يعد أفرادهم ، أو رءوس قطعان ماشيتهم أو ممتلكاتهم بصفة عامة • ويبدو أن هذه الخرافة المغربية ، اذ أنها تعد كذلك بحق ، مألوفة لدى زنوج افريقيا • فعند قبيلة « الباكونجو » التى تسكن أعالى نهر الكنغو ، « يكون الحظ العاثر حليف المـرأة ان هى عدت أولادها عدا متتاليا ، لأن الأرواح الشريرة ترهف السـمع الى عددهم فتصيب عندئذ بعضهم بالمـوت • وبالمثـل فان النـاس لا يرغبون فى الحصاء عددهم ، لأنهم يعتقدون أن هذا من شأنه أن يجتذب انظار الأرواح الشريرة اليهم ، فيموت بعضهم أثر ذلك • فقد حدث فى عام ١٩٠٨ ان أراد حكام ولاية الكنغو أن يقوموا باحصاء المواطنين بقصد جباية الضرائب • فأرسلوا ضابطا مع بعض الجنود ليقوموا بتعداد السكان • فثار الأهالى وأوشكوا على أن يشنوا الحرب ضده ، لولا أنه كان برفقة عدد كبير من الجنود • وليس من غير المتحمل أن تكون هناك معارك قد نشبت بين البيض والسود فى بقاع أخـرى من افريقيا ، لا بسبب رفضـهم لدفع الضريبة ، بل بسبب معارضتهم لعدهم ، وذلك خـوفا من أن تستمـع الأرواح الى عـددهم فتقضى عليهم » • ومثل هذا يحدث بين قبيلة « بولوكا » أو « بانجالى » التى تسـكن أعالى الكنغو ، « فالمواطن يتطير كل التطير اذا عد أولاده ، بل انه يعادى هـذه الفكرة كلية ، لأنه يعتقد أنه اذا كان قام بعـد أولاده أو اذا ذكر عددهم على الوجه الصحيح ، فان الأرواح الشريرة سـوف تسمعه ، فتخطف بعض أولاده إثر ذلك • ومن ثم فانـك اذا سألته هذا السـؤال البسيط وهو : « كم عدد أولادك ؟ » ، فانك بذلك تحرك مخاوفه وتهيج تطيره • ومن ثم فانه يجيبك على التو : « لست ادرى كم عددهم » • فان أنت ألححت عليه فى السؤال ، فانه يخبرك بأن عددهم ستون أو مائة أو أى عدد آخر يخطر بباله • بل انـه يفعل هذا مع غير أولاده الذين يتعاطف معهم تعاطفه مع أولاده ، فلا يذكر لك عددهم على وجه التحديد وانما يذكر عددا كبيرا يدعو الى

التســاؤل . وهو لا يفعل هذا بقصد خداع المتسائل ، بل يقصد خداع الأرواح الشريرة التى تعيش فى كل زمان ومكان » .

وبالمثل فان قبيلة « ماساى » التى تسكن افريقيا الشرقية لا تقوم بعد أفرادها أو حيواناتها خوفا من أن يتخطف المــوت رجالهــم أو حيواناتهم وفقا لتصورهم . ومن ثم فانهم يعدون الحشد الكبير من الناس أو الحيوانات بالعشرات أو بالمئات أو الألوف . فاذا كــان المعدود جماعة صغيرة من الناس أو الحيوانات ، فانهم يعدونهم عدا كليا فى حذر بالغ ، دون أن يذكروا الرقم على وجه التحديد . أمــا الذين توفوا من الناس ، أو ما توفى من حيوان ، فانه يعد عدا منتظما ، لانهم لايخافون على هؤلاء من نقض عــددهم . « وتأبى قبيلة » « واساناى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى كل الإباء أن يعــد أفرادها خوفا من أن يموت أحد الذين عدوا بعد ذلك بزمن قصير » . ولمــا كانت قبيلة « أكامبا » ، وهى قبيلة أخرى فى نفس المنطقة تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها ، فانها تحرص على اتباع بعض العــادات الخرافية المحددة ، والا لحق الشر بقطعان المــاشية . ومن بين هذه العادات الحرص على عدم عد رءوس القطعان . فاذا عاد القطيــع الى القرية ، فان مالكه يلقى مجرد نظرة عليه ليتبين ما اذا كان رأس منه قد فقد . ولا يقتصر تحريم العد على المــواشى فى هذه القبيلة ، بل يتعداها الى كل الكائنات الحية ، وبصفة خاصة البنات . وقــد تحدث أحد الثقات عن هذه العادة عند هذه القبيلة فقــال : « ان هذه القبيلة لديها بعض التطيرات ، فيما يبدو ، فيما يختص بعد قطعــان ماشيتها . فالرجل الذى يملك قطيعا كبيرا من المــاشية لا يعرف عدد رءوس هذا القطيع ، ولكنه يرقبه هو أو زوجته فى أثناء رحيله ليرى ما اذا كان رأس تميزه علامة خاصة ، قد فقد . واذا كان رب الأسرة يعرف بطبيعة الحال عدد أولاده ، فانه لا يرغب فى أن يخبر أى فرد خارج أسرته بعددهم الحقيقى . وهناك رواية تحكى أن رجلا كــان يدعى « موندا وانجولا » ، كان يعيش فى تلال « ايبيتى » . وكان لهذا

الرجل عدد كبير من البنين والبنات الذين كان يزهو بهم ويقول انه يستطيع بمساعدتهم أن يقاوم أى هجوم من قبل « ماساى » . وذات ليلة فاجأته قبيلة « ماساى » وقتلته هو وأولاده . وقد نظر الناس الى هذا الحادث بوصفه جزاء طبيعيا لزهو هذا الرجل بعدد أولاده » .
وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يعرف الشخص الغريب عدد أفراد أسرة من أسر قبيلة « أكيكويو » ، وهى قبيلة تسكن شرق أفريقيا البريطانى ، ولو معرفة تقريبية . وسرعان ما يدرك المتحدث الغريب من الأمهات أن الحديث حول عدد الأولاد على وجه الدقة يعد مجلبة للشر . ومثل هذا العزوف عن عد الأفراد يتفق مع مقت الإسرائيلين فى الزمن القديم لعد الأفراد . أما اذا شاء المسئول أن يجيب سائله اجابة مهذبة عن عدد أولاده ، فانه يقول له : « تعالى معى وأبصرهم بنفسك » . وتعتقد قبيلة « جالا » فى شرق افريقيا ، أن عد القطيع يعد فألا سيئا ، وأنه يحول دون تكاثره . وبالمثل تعتقد قبائل الهوتنتوت أن عد أفراد المجتمع أو جماعة من الجامعات علامة على حدوث شر كبير ، فهم يتوقعون اثر ذلك أن يتوف أحد أفرادهم . وقد قيل إن مبشرا قام بعد عماله من الأهالى ، وهو جاهل بهذه العقيدة ، فدفع حياته ثمنا لهذا الخطأ .

ويبدو أن عادة التطير بين الناس ، تنتشر بصفة عامة فى شمال افريقيا . فقد قيل ان اعتراض الجزائريين على الحكام الفرنسيين بسبب سعيهم وراء القيام باحصاء السكان ، كان يرتكز الى حد كبير على تحكم هذه العقيدة فى نفوسهم . والا يقتصر هذا الاعتقاد على عد الاشخاص ، بل يتعداه الى عد مكاييل المحاصيل ، وهو عمل له طابع مقدس من وجهة نظر بعض الشعوب . فالشخص الذى يعد مكاييل الحبوب فى « وهران » لا بد أن يكون فى حالة من الطهارة الشعائرية . وهو بدلا من أن يعد المكاييل عدا تصاعديا منتظما ، أى يقول : واحد واثنين وثلاثة وهكذا ، فانه يقول : « باسم الله ، واحد ، بركتان ، اثنان ، يا كرم النبى ، ثلاثة ، سنربح بأمر الله ، أربعة ، فى عين الشيطان ، خمسة ، فى عين ابنه ستة ، الله يمنحنا البركة ، سبعة ،

وهكذا حتى يصل الى عدد اثنى عشر فيقول : الكمال لله • ويحـــدث مثل هذا فى فلسطين عندما تعـــد مكاييل الحبوب • فيقـــول كثير من المسلمين عند الكيل الأول : الله واحد • وعند الكيل الثانى : ليس له ثان • ثم يذكرون مباشرة العدد ثلاثة وأربعة • « وهناك أعداد كثيرة يتشاءم عرب فلسطين من ذكرها ، ومن بينها العدد خمسة • ولذلك فهم بدلا من أن يذكروا هذا الرقم ، فانهم يقولون : « يدك » ، اشارة الى عدد أصابع اليد الخمسة • ورقم سبعة يعد كذلك رقما شـــؤما وهو أمر يثير التعجب ، ولذلك فهم يمرون عليه دون ذكره ، أو انهم يذكرون كلمة « بركة » بدلا منه • وعند ذكر العدد تسعة يقول المسلم : « صلوا على النبى » • كما أنه لا يذكر العدد احدى عشر • فالشخص الذى يعد ويصل الى الرقم « عشرة » ، يذكر رقم اثنى عشر بعد ذلك مباشرة • وربما كان الغرض من عدم ذكر الأعداد المفردة هو خداع الأرواح الشريرة التى ربما تقبع فى انتظار سرقة المحصول أو اتلافه ، والتى قد تكون من الغباء بحيث يغيب عنها فهم هذه الطريقة الغريبة فى العـــد •

ويراعى سكان جزر « شورتلاند » التى تقع فى غرب الباسفيك ، اتبـــاع بعض الشعائر والتقاليد عند بناء بيت الزعيم ، فعند تسقيف البيت يوضع عن كل زاوية فى السقف قدر محدد من أوراق شـــجر جوز الهند المصفرة • ولكنه لا يسمح للناس بعد هـــذه الأوراق لأن عدها يجلب سوء الحظ للبيت • فاذا كان عدد الأوراق أقل من المطلوب، لأنهم لم يعثروا على مزيد منها ، فانهم يؤجلون بناء البيت الذى قد يكون قد أوشك على الانتهاء • وهكذا قد يؤدى الخطـــأ فى تقـــدير الحساب الى خسارة كبيرة • ويمكننا أن نحكم بناء على ذلك على نظرة الناس الخطيرة فى عد الأوراق ، فأفضل لهم أن يضحوا بثمرة عملهم من أن يعدوها • وبالمثل فان هنود « شيروكى » فى شمال أمريـــكا « لا يعدون البطيخ أو الشمام ، كما انه لا ينبغى أن تفحص هـــذه الثمار عن قرب وهى ما تزال فى طور النمو ، والا حال ذلك دون نموها •

وقد حدث أن قام الضابط الحاكم فى « فورت سيمبسون » فى كولومبيا البريطانية ، بعمل احصاء لهنود المناطق المجاورة . فتوفى عدد كبير منهم إثر ذلك مباشرة بتأثير وباء الحصبة . ومن الطبيعى أن يغزو الهنود هذه الكارثة الى ما قام به الضابط من عد الزنوج ؛ تماما كما عزا الملك داود انتشار الطاعون الى جريمة عده لقومه » . ولا يحفظ هنود أوهاما عدد سنوات أعمارهم ظنا منهم أن الروح الشرير يمكن أن يصل الى مسمعه عدد هذه السنوات » .

ومثل هذه الخرافات ما تزال تعيش فى أوروبا وفى بلدنا حتى هذا اليوم . فقد كان « اللابيون » يعرضون ؛ ومن المحتمل انهم ما زالوا يفعلون هذا حتى اليوم ، عن عد أفرادهم ؛ وعن الجهر بعددهم المحدد ، اذ انهم يتوقعون أن هذا العمل نذير بحدوث كارثة قد تحدث اثر القيام بعملية العد مباشرة . وفى الأماكن الجبلية فى اسكتلندة ، « تتشاءم الأسرة بعد رءوس قطعان ما شيتها أو قطعان ماشية أخرى . وبصفة خاصة فى يوم الجمعة . فصاحب البقر يعرف كل واحدة بلونها وحجمها أو بأية علامة أخرى ، ولكنه من المحتمل أنه يجهل العدد الكامل للقطيع . كما أن الصياد لا يذكر عدد السمك الذى اصطاده فى رمية شبكة واحدة أو طوال اليوم ، لأن هذا يؤدى الى تغيير حظه فى صيد السمك » . وعلى الرغم من أن كل هذه الأخبار التى قدمناها قد اعتمدنا فيها على كاتب عاش فى القرن الثامن عشر ؛ الا أن مثل هذه التطيرات كانت تنتشر فى اسكتلندا حتى القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل أنها لم تنقرض حتى يومنا هذا . وقد قيل لنا « انه يعتقد فى اسكتلندا أن الحظ العاثر يلحق بمن يذكر عدد قطعان الماشية أو الأفراس أو السمك أو أية منقولات أخرى يملكها الفرد ، حية كانت أم جمادا . كما قيل ان الاعتقاد ساد فى بعض الوقت فى أن انتشار وباء الجديرى يجىء فى أعقاب القيام بتعداد السكان » . ويحرص مجتمع الصيادين الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى فى استكلندة على عدم عدسفنهم وهى فى عرض البحر بحال من الأحوال . كما أنهم

لا يقومون بعد جماعة من النساء أو الرجال أو الأطفال . ولا شىء يسىء الى جماعة الصيادات وهن يسرعن فى الشارع لبيعن السمك أكثر من أن يشار اليهن بالبنان ويذكر عددهن بصوت مرتفع . ولهذا فان زوجات الصيادين فى قرية « أوشميثى » ، وهى قرية تقع على شاطىء « فورفار شاير » ، ينزعجن لصياح الأولاد الأشقياء الذين يشيرون اليهن ويرددون هذه العبارات :

واحد ، اثنين ، ثلاثه

واحد ، اثنين ، ثلاثه

هل ترى عددا كبيرا من زوجات الصيادين

نعم اننى أرى عددا كبيرا منهن .

ولم يكن الصيادون يتشاءمون بعد أفرادهم فحسب ، بل كانوا يتشاءمون كذلك بعد سمكهم ومراكب صيدهم .

« ولا ينبغى للمزارع فى « لينكولن شاير » ، أن يعد شياهه على وجه التحديد فى موسم الاخصاب . وربما جاز لنا أن نعتقد أن هذا التحريم يرتبط بفكرة أن عد الأغنام على نحو دقيق يقدم للقوى الشريرة معلومات دقيقة تستخدمها فى ايذاء الماشية فى الوقت المناسب . ولقد رأيت راعيا تبدو عليه الحيرة لأن سيده كان يجهل الضرر الذى يلحق به من جراء اصراره على عد رءوس قطعان ماشيته . فعلى الرغم من أن هذا السيد كان متساهلا فى معاملة الراعى ، الا أنه كان يصر كل صباح على أن يعرف على وجه الدقة عدد الشياه التى ولدت . والسبب الذى دفع الراعى الى هذه الحيرة هو بعينه الذى يدفع الناس لأن يجيبوا حينما يسألون عن أعمارهن بقولهم : « اننى أبلغ من العمر ما يبلغ لسانى ، وأكبر بعض الشىء من أسنانى » وقد لاحظ « جايدوز » فى Melusine (ج ٩ ، ص ٣٥) أنه يتحتم على العجائز ألا يذكروا أعمارهم . فان اضطروا الى ذلك فانهم

يجيبون بأنهم يبلغون من العمر قدر خنصرهم • ويجيب الأهالى فى « جودار فيل هاينولت » عند ما يسألون عن أعمارهـم بقـولهم . « اننى فى عمر العجل ، فكل عام يساوى اثنى عشر شهرا » • ولا يقتصر التطير بعد الشياه على « لا نكولين شاير » ، بل ينتشر كذلك فى انجلترا • فقد كتب لى صديق يسكن فى قرية فى « وارفيك شاير » منذ بضـع سنين يقول : « انه من العسير أن تموت الخرافات ، فبالأمس سألت امرأة عن عدد الشياه التى يملكها زوجها ، فأجابت بأنها لا تعـرف عددها • ولمـا رأت الدهشة تشيع فى وجهى أضافت قائلة : « أنـت تعرف يا سيدى أن ذكر عددها يجلب الشر » ثم قالت : « وعلى كل فنحن لم نفقد أى رأس منها حتى اليوم » • وقد كان زوج هـذه السيدة موظفا فى البريد ويملك دكانا بالقرية ، أى كان من الناحيـة الفكرية أعلى مستوى من المزارع » •

ويحذر الناس فى الدانمارك من عد البيض الذى ترقد عليه الدجاجة حتى لا تطأ الدجاجة الأم البيض وتقتل أفراخها • فاذا فقس البيض ، لا ينبغى أن تعد الفراريج والا أصبحت فريسـة سـهلة للصقر أو الحدأة • وبالمثل لا ينبغى أن تعد الثمار أو زهورها والا ذبلت الزهور وسقطت الثمار قبل أوان نضجها • ويعتقد الناس فى شـمال جوتلاند أنك اذا عـددت الفئران التى اصطادتهم قطة ، أو تلك التى اكتشفتها صدفة ، فان عدد الفئران يتزايد • وبالمثل اذا عددت البراغيث أو القمل أو أية حشرة أخرى • وقد قيل إن الأرمن والاغريق كانوا يعتقدون أنهم اذا عدوا الدمامل فى أجسامهم فانها تتكاثر • وبالمثل فان هنـاك اعتقادا جرمانيا سائدا يدعو الى عدم عد النقود خوفا من نقصها • كما يعتقد سـكان « بلاتينيت العليا » وهو حى فى « بافاريا » ، أنه لا ينبغى أن تعد الأرغفة وهى فى الفـرن والا لن تنضـج جيـدا • وبالمثـل يقول سـكان «فرانكونيا العليا » وهو حى آخر فى « بافاريا » أنه لا يجوز أن تعد الزلابية فى أثناء طهيها لأنك اذا فعلت هذا ، فان النساء الصغيرات ساكنات الغابة اللاتى تشتهين هذا الطعـام ، لن

تحصلن عن شيء منه . واذا حرمن من هذه الغذاء هلكن ، ومن ثم فان شجر الغابة يذبل ويموت . ولكي يتجنب الناس حدوث ذلك ، فانهم يحذرون من عد الزلابيا وهي في طاسة التحمير . وتتبع مثل هذه العادة في اسكتلندا وان اختلف سبب اتباعها بعض الشيء ، « اذ لا يجوز عد الكعك الذي يخبز في البيت في أثناء خبزه ، لأن الجنيات يأكلن الكعك الذي حصر عدده ، وهو ما زال في الفرن ، ومن ثم فهو لا يمكث داخل الفرن حتى يكتمل نضجه » .

ويمكننا أن نرجع بناء على ذلك أن اعتراض اليهود في عهد الملك داود على حصر عددهم ، لم يكن يرتكز سوى على أساس من التطهير الذي تأكد عند ما انتشر بينهم وباء الطاعون بعد اجراء عملية العد مباشرة . وما زال عرب سوريا حتى اليوم يكرهون فكرة أن يُعدوا أو أن يَعدوا ، فقد قيل لنا ان هؤلاء العرب يأبون أن تعد خيامهم وفرسانهم وقطعان ما شيتهم لأن الشر يلحق بهم ان هم فعلوا ذلك .

على أن المشرع اليهودي تساهل في عادة تحريم تعداد السكان الى حد كبير في العصور المتأخرة . فقد أباح أن يعد قومه على شرط أن يدفع كل فرد للحاكم نصف « شاقل » (١) جزية لحياته ، حتى لا ينتشر الوباء بين الناس . ويبدو أن غضب الرب بسبب ارتكاب جريمة تعداد السكان ، قد هدأ عند ما تسلم من الناس هذه الجزية المتواضعة .

---

(١) اى نصف مثقال من الفضة .

الفصل السادس

حراسة عتبة المعبد

كان هناك فى معبد أورشليم ثلاثة من الموظفين ، الذين يبدو أنهم كانوا من الكهنة ، وكانوا يلقبون « بحراس الباب » (١) . فماذا كانت وظيفة هؤلاء على وجه التحديد ؟ قد يقال انهم كانوا مجرد حراس للمعبد . ولكن اللقب الذى خلع عليهم يشير الى أن وظيفتهم كانت أكبر من ذلك بكثير . ذلك أن هناك كثيرا من الخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب فى كل من العصور القديمة والحديثة . فقد قال النبى « صفنيا » على لسان يهوه : « وفى ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة الذين يملأون بيت سيدهم ظلما وغشاء » . (سفر صفنيا الاصحاح الاول أية ٩) ويبدو من هذا التصريح أن من يتخطى العتبة واثبا يرتكب إثما يستحق عليه غضب الرب شأنه شأن اثم الخداع والغش . وقد كان الاله الفلسطينى « داجون » الذى كان موطنه « أشدود » ، ينظر لمن يطأ عتبة الباب نظرته للآثم ، فنحن نقرأ أن كهنة هذه الاله وعباده كانوا يحرصون على ألا يطئوا عتبة المعبد بأقدامهم اذا دخلوه . وما تزال هذه العادة تتبع حتى اليوم فى هذه المناطق . فقد تحدث الكابتن « كوندر » عن عادة سورية فقال : « انه يعد من سوء الطالع أن يطأ الشخص بقدمه

---

(١) انظر سفر ارمياء الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤ .
« ودخلت بهم الى بيت الرب الى مخدع بنى حنان بن يجدليا ، رجل الله الذى بجانب مخدع الرؤساء الذى فوق مخدع معسيا بن شلوم حارس الباب » . وكذلك نفس السفر الإصحاح الثانى والخمسين آية ٢٤ .
« واخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الأول وصفنيا الكاهن وحارسى الباب الثلاثة » . .

عتبه الباب . ومن ثم فانه يوجد فى كل المساجد حاجز خشبى عند بابه ، حتى يضطر من يدخله أن يخطو فوقه عند دخول المسجد . ومثل هذه العادة تتبع فى الأضرحة الريفية » . وهذه الأضرحة تعد معابد صغيرة للأولياء ، وهى توجد فى كل قرية على وجه التقريب فى سوريا ، وهى تعد المركز الحقيقى لعبادة الفلاحين . « ويبدى الأهالى تقديسا كبيرا لهذه الأضرحة ؛ حيث يعتقد الناس أن الأولياء يسكنونها على الدوام فى صورة غير مرئية . ومن ثم فان المزارع يخلع حذاءه عند دخول الضريح ، ويراعى ألا تطأ قدماه العتبة » .

ويشير بقاء هذه العادة فى سوريا حتى اليوم الى أن حراس عتبة المعبد فى أورشليم ؛ ربما كانوا خفرا يقفون عند مدخل البناء المقدس لكى يمنعوا من يريد دخوله من أن يطأ العتبة بقدمه . ومما يؤيد هذا الفرض أننا نلاحظ وجود مثل هؤلاء الحراس فى أماكن أخرى حيث يقومون بنفس المهمة . فعندما زار « ماركوبولو » قصر بكين فى عهد الملك الشهير « كوبلاى خان » ؛ وجد عند باب كل قاعة (وفى كل مكان كان يحل فيه الامبراطور) ، رجلين ماردين ، يقف كل منهما على جانب من جانبى الباب ؛ وفى يد كل منهما رمح . وقد كانت مهمة هذين الحارسين مراقبة كل من يدخل القاعة حتى لا يطأ العتبة بقدميه . فاذا فعل أحد الزائرين ذلك ، خلعا عنه ملابسه ، ومنعاه من استردادها الا اذا قام بدفع دية . وقد يصفعانه عدة صفعات ولا يردان له الملابس . فاذا كان الزائرون من الغرباء الذين يجهلون تلك العادة ، فان بعض الأمراء يستقبلونهم ويشرحون لهم تلك العادة . فالصينيون كانوا يعتقدون فى الحقيقة أن كل من يطأ عتبة الباب بقدمه ؛ يلحق به الأذى . وعلى الرغم من اصرار الحراس على تنفيذ هذا النظام عند دخول الزائرين القصر ؛ فانهم كانوا يتهاونون فى اتباعه عند خروجهم منه ، لأن بعض الزائرين يكونون قد أصيبوا بالسكر وأصبحوا غير قادرين على التحكم فى خطوات أقدامهم . « على أن حراس العتبة فى بكين ، وفقا لرواية « فريا — أدوريك » الذى سافر الى الشرق

فى مطلع القرن الثالث عشر ، لم يكونوا يلفتون نظر من يدخل القاعة الى هذا التحريم ، بل سرعان ما يصوبون الرماح الى كل من أخطأه الحظ ووطىء بقدمه احدى عتبات القصر • وعندما كان الراهب « دى روبروكى » الذى كان يعمل سفيرا للويس الرابع عشر فى بكين ، فى بلاط « مانجوخان » ، حدث أن وطىء أحد رفاقه عتبة الباب بقدمه فى أثناء خروجه من القاعة ، وعند ذلك أمسك الحراس بهذا الرجل المتهاون وأحضروه الى « البولجاى » ، وهو قاضى القضاة ، أو سكرتير البلاط الذى كان يصدر الحكم على هؤلاء بالحياة أو الموت » • ولما علم هذا القاضى أن هذا الرجل المذنب قد ارتكب هذا الاثم نتيجة جهل منه بتلك العادة ، عفا عنه ولكنه لم يسمح له بعد ذلك بدخول أى بيت من بيوت « مانجوخان » • أما الراهب فقد كان سعيد الحظ لأن ينجو بنفسه • ولم يكن تقريح العظام هو أسوأ عقاب يناله مرتكبو هذا الجرم فى هذه البلاد ، فقد روى « بلانو كاربينى » الذى سافر الى بلاد التتار فى منتصف القرن الثالث عشر ، أى قبل وفادة « روبروكى » ببضعة سنوات ، أن أى شخص كان يطأ عتبة كوخ الأمير التتارى أو عتبة خيمته بقدمه ، كان يجر من خلال حجر أعد لهذا الغرض أسفل الكوخ أو الخيمة ، ثم يقتل دون رحمة أو هوادة • ويعبر المثل المنغولى بايجاز عن السبب الذى ترتكز عليه هذه الأحكام الصارمة على النحو التالى : « لا تطأ العتبة بقدميك لأن هذا يعد جرما » •

على أن هذه العادة لم تكن تقتصر فى العصور الوسطى على التتار أو المغول ، فقد كان الخلفاء العباسيون « يرغمون كل من يدخل قصورهم أن يخروا ساجدين عند عتبة بوابة القصر التى طعموها بقطعة حجر من حجر الكعبة الاسود وذلك لخلع مزيد من الرهبة على هذه العتبة ، حيث أن الناس قد تعودوا أن يخروا ساجدين لهذا الحجر • وقد كانت العتبة مرتفعة بعض الشىء عن الأرض وكل من يطأها بقدمه ينظر اليه على أنه قد ارتكب جرما » • وعندما زار

الرحالة الايطالى « بييترو فالى » قصر ملوك الفرس فى أصفهان فى مطلع القرن السابع عشر ، لاحظ أن « أكبر مظاهر التقديس كانت تقام عند بوابة مدخل القصر . وقد كان هذا التقديس كبيرا الى درجة أنه كان محرما على كل شخص أن يطأ بقدمه الدرج الخشبى المرتفع بعض الشىء عن الارض . بل ان الناس كانوا يقبلون هذا الدرج فى كل مناسبة ، كما لو كان شيئا مقدسا ثمينا » . فاذا نجح أحد المجرمين فى أن يخطو فوق العتبة ويدخل القصر ، فانه يكون بذلك قد أصبح فى حماية الحرم المقدس ، ولا يستطيع أحد عند ذاك أن يصيبه بسوء . فعندما كان « بييتر ديلا فالى » فى أصفهان كان يعيش فى القصر رجل ذو مكانة . وكان الملك متحاملا على هذا الرجل وعزم على أن يقتله . ولكن المذنب أسرع ودخل القصر ، وبذلك أصبح فى مأمن من الاعتداء عليه . ولو أنه كان قد خطا خارج البوابة ، لكان قد نفذ فيه حكم الاعدام فى الحال » . ولم يكن أحد يمنع من دخول القصر . واذا استطاع شخص أن يخطو فوق العتبة التى يتحتم عليه تقبيلها ، كما سبق أن أشرت الى ذلك ، فان من حقه عند ذاك أن يطلب الحماية . وباختصار فان هذه العتبة كانت تقدس كل التقديس ، الى درجة أن اسمها وهو « أستانى » ، كان يطلق على البلاط والقصر الملكى نفسه » .

وقد كانت تنتشر عادة تقديس المسكن على هذا النحو ، وتجنب لمسها ، بين الشعوب البدائية ، كما كانت تنتشر بين الشعوب المتحضرة . ففى « فيجى » ، كان يحرم على كل فرد الجلوس على عتبة المعبد ، فيما عدا الزعيم الذى يتمتع بمكانة مرموقة . على أن الجميع كانوا يحرصون على ألا يطئوا بأقدامهم عتبة مكان قد خصص لعبادة الآلهة ، فالأشخاص ذوى المكانة يعبرون فوقها ، أما عامة الناس فيزحفون فوقها ، على أيديهم وأرجلهم . ويحدث هذا كذلك عندما يخطو الناس فوق عتبة بيت الزعيم والفرق طفيف فى الحقيقة بين من يتمتع بمكانة

مرموقة وذلك الذى يتمتع بالمكانة الدينية من الدرجة الثانية ، فالأول يعد نفسه قريبا للاله ، كما ان الناس كثيرا ما يتحدثون عنه بوصفه الها ، وهو فى بعض الأحيان يجهر بحقــه فى الألوهية • وفى غرب أفريقيا « غالبا ما يسد مدخل قرية من القرى بحاجز خفيف مؤقت ، ولا يسمح للمرور من هذا الحاجز ســوى عن طريق بوابة ضــيقة ذات عقــد ومصنوعة من الشجيرات التى تتوجها الزهور والأوراق•ويعتقد السكان أن هذا الحاجز ، رغم ضعفه ، يحول دون دخول الأرواح الشريرة داخل القرية ؛ حيث أنهم يعلقون على العقد تعاويذهم الفيتيشية • فاذا كانت القرية على أبواب حرب حقيقية ، سد هذا المدخل بجذوع الشجر ، حيث تدور خلفه معركة حقيقية لا بين الانسان والأرواح الشريرة ، وانما بين الانسان والانسان • وفى بعض الأحيان تغرس شجرة فى وضــع أفقى عبر العتبة الضيقة لحماية هذه البوابة ويتحتم على الزائر الغريب ألا يطىء بقدمه هذه الشجرة ، وانما يعبر فوقها • فاذا كان أهالى القرية يتوقعون شرا مستطيرا ، فانهم يسكبون على البوابة فى بعض الأحيان دم نعجة أو شاة تقدم ضحية لهذا الغرض » • ولا يسمح لفرد من بين قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، أن يجلس عند باب بيت أو عند عتبته ؛ كما لا يجوز للرجل أن يمس عتبة داره أو يمس أى شىء آخر فى بيته ؛ فيما عدا سريره ، طالمــا كانت زوجته تقوم بإرضاع طفلها • وبالمثل لا يسمح لأحد فى مراكش أن يجلس عند عتبة البيت أو عند مدخل الخيمة • فاذا خــالف شخص هــذا التحريم ، فان الناس يعتقدون أنه سيقع فريسة للمرض ، أو أنــه سيتسبب فى حدوث شر لأهل البيت • ولا يجوز لأى شخص فى قبيلة « كورا » وهى قبيلة « درافيدية » فى « ميرزابو » أن يمس عتبــة البيت سواء عند دخوله للبيت أو خروجه منه • ويقول « الكورميون » الذين يكونون طبقة المزارعين الرئيسية فى أقاليم الهند الوسطى « أنــه لا يجوز لأى شخص على الاطلاق أن يجلس عند عتبة بيته ، لأن هذا مكان مخصص للالهة « لا كشيمى » ؛ الهة الثروات • فالجلوس على

العتبة اذن يعد امتهانا لها » . وبالمثل تنظر قبيلة « كالمـوك » الى الجلوس فوق عتبة البيت بوصفه جرما .

ونلاحظ من خلال معظم هذه الأمثلة أن تحريم الجلوس على عتبة البيت أو لمسها يعد تحريما عاما كليا . فليس لأحد ، كما سبق أن رأينا ، أى يجلس فوق العتبة ، أو أن يمسها فى أى وقت أو فى أى ظرف من الظروف . ونستثنى من ذلك حالة واحدة رأينا فيها أن التحـريم مؤقت ومشروط ؛ وهى انه لا يجوز للرجل فى قبيلة « ناندى » أن يمس عتبة داره ، اذا كانت زوجته تقوم بارضاع طفل لها . ولكننا رأينا أن هذا التحريم لا يقتصر على عتبة الدار ، بل يتعداها الى كل شىء فى البيت فيما عدا سريره الخاص به . على أن هناك أحوالا أخرى يقتصر التحريم فيها صراحة على أحوال خاصة بعينهـا ، وإن كنا لا نتصور أن التحريم كان محددا للغاية على هذا النحو ، وأن الناس فى غير هذه الظروف المشـار اليها كانوا أحرارا فى إيطاء العتبة بدون قيد أو شرط . ومثال ذلك أنه من المـألوف عندما يعود رجل الى بلده تانجير بعد تأديته لفريضة الحج فى مكة ، أن يحمله أصـدقاؤه فوق العتبـة ويضعونه على سريره . ومع ذلك فانه من الخطأ ان ندعى ، أن الرجال والنساء فى مراكش ، كانوا فيما عدا ذلك أحرارا فى أن يطأوا بأقدامهم الأعتاب أو أن يجلسوا فوقها ، فلقد رأينا فى مراكش أنه لم يكن يسمح لأحدى بأى حال من الأحوال أن يجلس فوق عتبة داره أو فوق عتبة خيمته . ومن عادة سـكان مراكش كذلك ؛ أن تحمل العروس عنـد دخولها بيت زوجها ، وذلك حرصا من أقربائها على ألا تمس قدماها عتبة بيتها . على أن عادة حمل العروس فوق عتبة بيت المزوج الـذى تدخله لأول مرة تنتشر فى جهات كثيرة من العالم ، كما أن الباحثـين قاموا بدراستها فى كل من الزمن القديم والحديث ، وفسروها تفسيرات مختلفة . وربما كان من الأفضـل أن نقدم أمثلة لهذه العادة قبل أن نعرض لوجوه النظر المختلفة فى تفسيرها . .

ففى فلسطين فى الوقت الحاضر « تحمل العروس فوق عتبة الباب

بحيث لا تمس قدماها عتبة بيت زوجها ، والا كان الحظ العثر حليفها •
ويراعى الصينيون اتباع هذه العادة فى شكل أكثر دقة • فعند
« الهاكايين » على سبيل المثال ، تقوم أمرأة عجوز ، يختارها الزوج ،
بمساعدة العروس عندما تصل الى بيت زوجها وتحملها فوق العتبة
وهى جالسة على كرسى ، بعد أن توضع فوق العتبة حديدة المحراث
القاطعة بعد حرقها فى النار وغمسها فى الخل ، ثم يتلقفها أقرباؤها
الذين يقفون على الجانب الآخر من العتبة • وربما اختلفت هذه العادة
بعض الاختلاف من مكان لآخر فى الصين • فوفقا لرواية أخرى :
تنسب فيما يبدو لبلدة « كانتون » والأماكن المجاورة ، أن العروس
عندما تنزل من محفتها عند باب زوجها ، « تحملها خادمة فوق ظهرها ،
وتخطو بها فوق نار تشتعل بالفحم النباتى اشتعالا بطيئا ، وترص
على جوانبها الأحذية التى كان المدعوون يرتدونها فى موكب العروس
لتقدم هدية لزوج المستقبل • ثم تحمل خادمة أخرى وهى تخطو فوق
النار كذلك ، صينية وضع فوقها عدد من الأعواد التى يتناول بها
الصينيون طعامهم ، وكذلك بعض الأرز وبذور الفوفل » • ومن عادة
« الموردفينيين » فى روسيا ، أو ربما كانت من عادتهم ، أن تأتى
العروس الى بيت زوجها محمولة على أذرع بعض المدعويين • وفى
جاوة وجزر سوندا الأخرى ، يحمل العريس بنفسه عروسه بين
أذرعه ليوصلها الى داخل بيته • وفى « سيراليون » ، تحمل امرأة
عجوز العروس فوق ظهرها وتغطيها برداء جميل وذلك عندما يقترب
المرافقون للعروس من بلدة الزوج ، لأنه لا يسمح لأى رجل أن يراها
بعد ذلك الوقت الا بعد أن تفض بكارتها • ثم تبسط الحصر على
الأرض حتى لا يمس الذين يحملون العروس الأرض بأقدامهم • وعلى
هذا النحو تحمل العروس الى بيت زوجها » • وعند قبيلة « أتونجا »
وهى قبيلة تسكن إفريقيا الوسطى البريطانية غرب بحيرة نيانزا ،
ترافق مجموعة من الفتيات الصغار العروس الى بيت زوجها حيث
يكون هو فى انتظارها • ثم تقف العروس عند عتبة باب الزوج ولا

يسمح لهـا بعبور العتبة الا بعد أن يقدم لها العريس معزقة • وعند ذاك تضع قدما على عتبة الباب ، ثم يقدم لها الزوج قطعة من القماش طولها ياردتان • وعندئذ تخطو الزوجة بقدميها داخل البيت وتقف بالقرب من البـاب حيث تتسلم هدية هى عبارة عن عقد من الخـرز أو ما أشبه ذلك •

ولعلنا ندرك من هذه الروايات الأخيرة أن تحريم العروس من ايطاء عتبة البيت الجديد يفهم ضمنا ولا يعبر عنه صراحة • ولكن العروس بين الشعوب الآرية من الهند حتى اسكتلندا ، تحرص كل الحـرص على ألا تمس عتبة بيت زوجها ، ومن ثم فانها تعبرها أو تحمل فوقها • فقد كانت القاعدة عند الهنود القدماء على سبيل المثـال ، أن تعبـر العروس عتبة زوجها بادئة برجلها اليمنى بحيث لا تقف على العتبة • ويقال ان هذه العادة نفسها تتبع عند السـلافيين الجنوبيين وعنـد سكان موستار فى « هير تسيجوفينا » وفى « بوجادى كاتارو » • وفى « ألبانيا » عندما تصـل الجماعة المرافقة للعروس الى بيت الزوج ، يراعى أفراد هذه الجماعة أن يعبروا فوق عتبات الحجرات ، وبخاصة الحجرة التى توضع فيها أكاليل الزهر بادئين بالرجل اليمنى • وفى سلافونيا يحمل العروس الى بيت زوجها أفضل رجل • ولا يجـوز للعروس فى بلاد اليونان فى العصر الحاضر أن تمس العتبة بل تحمل فوقها • وبالمثل كانت تمنع العروس فى العصور القديمة فى روما من أن تطأ الأرض بقدميها • ومن ثم فانها كانت تحمل فوقها • وفى بعض جهات « سيليزيا » تحمل العروس عند عبور عتبة بيتها الجديد • وكذلك كانت من عادة سـكان ضـواحى « ألتمارك » أو ربما ما تزال مـن عاداتهم ، أن تصل العروس الى بيت زوجها فى عربة • وعند وصولها يأخذ الزوج بيدها ، ويحملها الى داخل بيته بحيث لا تلمس أرجلها الأرض ، ثم يضعها بجـانب الموقد • كما جرت العـادة فى سويسرا الفرنسية أن تقابل امرأة عجوز العروس عند باب بيت زوجها ، وتنثر فوقها ثلاث حفنات من القمح • وعند ذاك يحملها الزوج بين أذرعه

فوق عتبة الباب حتى لا تدوسها بقدميها . وقد قيل ان عادة حمـل العروس فوق عتبة الباب كانت تتبع فيما مضى فى « اللورين » وفى بعض بقاع فرنسا . وفى « ويلز » « كان يعتقد أن الحظ العثر يجرى فى اثر العروس ان هى وضعت قدميها على العتبة أو بالقرب منها ، ومن ثم فان المعروس كانت تحمل بعناية بعد الانتهاء من احتفالات الزواج فوق العتبة ثم تدخل الى بيت الزوج » . وقد كان المـألوف فى بعض جهات استكلندا حتى مطلع القرن التاسع عشر ، عندما تصل العروس برفقة المدعويين الى بيت الزوج أنها « كانت تحمل فوق العتبة أو فوق الدرجة الاولى من السلم ، حتى لا يصيبها السحر أو الشؤم .

ولعلنا نتساءل بعد ذلك ، ما المغزى الذى يقع وراء حمل العروس فوق عتبة باب الزوج ؟ لقد أشار بلوتارك الى أن هذه العادة التى كانت تتبع فى روما ، وربما كانت أثرا متخلفا لعادة اختطـاف « نســاء سابينا » ، اللاتى كان الرومانيون يتخذون منهن زوجات . وبالمثـل الى بين زوجها مع مراعاة ألا تطأ قدماها عتبة الباب . وهذه العـادة قديمة ، وهى عادة اختطاف الزوجات من القبيلة المعادية ، وحملهـن عنوة الى بيوت الأعداء . ولكن لعله مما يعارض وجهة النظر هذه أن عادة حمل العروس فوق العتبة من الصـعب فصلها عن عادة تخطى العروس للعتبة دون أن تمسسها قدماها . ففى هذه العادة الأخيرة ليس هناك ما يشير الى عنف أو اكراه ، وانما تسير العروس مختـارة الى بين زوجها مع مراعاة ألا تطأ قدماها عتبة الباب . وهذه العـادة فيما نعلم ، قديمة قدم العـادة الأولى ، إن لم تكن سابقة عليها ، حيث أنها هى العادة التى دونت فى كتب التشريع الهندية القديمة التى لا تذكر شيئا عن عادة حمل العروس فوق العتبة . وبناء على ذلك ، فاننا يمكننا أن ننتهى الى أن عادة حمل العروس عنـد زفافهـا الى بيت الزوج ، هى بكل بساطة اجراء احتياطى لتجنيب العـروس من أن تمس العتبة بقدميها . وبناء على ذلك فهى ليست ســوى مثال واقعى

لذلك الحذر البالغ فى عدم ايطاء العتبة بالأقدام ، وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب كما رأينا • واذا كنا ما زلنا فى حاجة الى مزيد من الاستدلال الذى يؤيد معارضتنا لتفسير هذه العـادة من خلال عادة اختطاف النساء القديمة ، فاننا نشير الى عادات الزواج فى «سالسيت» وهى جزيرة تقع بالقرب من بومباى • فوفقا لعادات الزواج فى هذه الجزيرة ، يحمل خال الزوج نفســه أولا فوق العتبة الى بيته ، ثــم يحمل العروس من بعده • وحيث أنه من العسير أن يفسر حمل الزوج الى بيته بوصفه أثرا متخلفا لعادة أسر الأزواج ، فانه يتحتم علينا كذلك ألا نفسر كذلك حمل العروس فوق العتبة من خلال هذا الغرض •

على انه ما زال علينا أن نتساءل : وما السبب إذن فى هذه المعارضة الشديدة للمس الأعتاب ؟ ولماذا تتخذ كل هذه الاحتياطات الدقيقــة لتجنب الاتصال بجزء من البيت ؟ من المحتمل فيما يبدو أن هذه العادة ترتكز على اعتقاد دينى أو خرافى ، فى أن هناك خطرا يستكن فى الأعتاب يمكن أن يؤثر على هؤلاء الذين يطئونها بأقدامهم أو يجلسون فوقها وقد رأى العالم « فارو » وهو أحد الجهابذة الفولكلوريين ، أن عادة حمل العروس فوق العتبة كانت تهدف فى الأصل تجنيبها من ارتــكاب نوع من الدنس اذا ما وطأت قدماها شيئا مقدسا كان مكرسا للآلهــة « فستا » • ويعد رأى « فارو » العالم الأثرى الرومانى فى ارجاعه هذه الشعيرة الى نوع من الشــك الدينى ، أقرب الى الحقيقــة من العالم الأثرى « بلوتارك » الذى رأى أن يربط هذه العادة بعادة أخرى أو بالأحرى بموضــوع اختطاف الزوجات عنوة • فمن المـؤكد أن الرومانيين كانوا ينظرون الى الأعتاب بوصفها شيئا مقدسا الى حــد بعيد : لا لاتصالها بالآلهة فستا فحسب ، ولكن لكونها ترتبط فى العموم بإله ما : يمكن أن يعد حارسا للبوابة الالهية » أى حارسا للأعتاب • وهذا الاله هو « ليمينتينوس » الذى انتقده الآباء المسيحيون فى عنف • فقد عرضته مكانته المتواضعة فى الحياة لمزاعم تتسم بالغباء والمهانة •

وتعتقد بعض الشعوب التى تعيش فى بقاع أخرى أن الاعتـاب تسكنا الارواح • وربما كان هذا الاعتقاد فى حد ذاته كافيا لتفسـير الاحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها ، حيث انه من الطبيعى أن يزعج هذا السلوك الكائنات المهولة التى تتخـذ مسكنها فى هذا المـكان • ففى مراكش يعتقد الناس أن العتبة يسكنها الجن • ويبدو أن هذا الاعتقاد هو السبب الذى يدفع المراكشيون لأن يحملوا العروس فوق عتبة بيتها الجديد • وفى أرمينيا يعتقد الناس كذلك أن الأعتاب تعد مسكنا للأرواح • وحيث أنهم يظنون أن المتزوجين حديثا يكونون بصفة خاصة معرضين لتأثير الأرواح الشريرة ، فانهم يجعلون رجلا يقف فى انتظارهم لحمايتهم وهو شاهر سيفه • ويقوم برسم علامة الصليب على الحائط عند كل باب من الأبواب • وقد قيل ان سكان روسيا فى زمن الحادهم ، كانوا يعتقدون ان أرواح البيت تتخـذ مكانا لها تحت الأعتاب • ويرتبط بهذا الاعتقاد أن من يبنى بيتا جديدا فى ليثوانيا ، يضع أسفل العتبة صليبا أو أى شىء آخر يتوارثه الناس جيلا عن جيل • ومن المـألوف كذلك فى ليثوانيا ان الأب يحمل ابنه هنيهة فوق العتبة بعد تعميده ورجوعه من الكنيسة • « وربما يهدف الأب من ذلك أن يدع هذا الفرد الجديد فى رعاية آلهة البيت » •• كما يتحتم على الشخص ، عندما يخطو فوق العتبة أن يصنع علامة الصليب ، ولا يجوز له فى بعض الأماكن أن يجلس فيها • وكذلك يغسل جسم الاطفال الذين أصابتهم العيون الشريرة بالمرض ، عند أعتاب الأكواخ حتى يطرد المرض خارج الباب بمعونة آلهة الرومان (بينات) التى تسكن عند هذه الاعتاب • « وهناك اعتقاد جرمانى يمنع الشخص من أن يطأ العتبة بقدمه اذا دخل بيتا جديدا ، لأن هذا يسىء الى الارواح الفقيرة » • كما يعتقد الايسلنديون أن من يجلس على عتبة الفنـاء تهاجمه الاشباح •

ومن المحتمل ان الناس يعتقدون فى بعض الأحيان ان الأرواح التى تستقر عند الأعتاب هى أرواح الموتى • وهذا الاعتقاد ينتشر حيثما

تجرى عادة دفن الموتى أو دفن بعضهم تحت عتبة البيت فعند قبيلة « واتافيتا » التى تسكن فى شرق افريقيا على سبيل المثال ، « يدفن الرجل المتوفى ، وفقا للعادة المتبعة ، عند باب كوخ أكبرزوجاته سنا•ومن واجب هذه الزوجة ان تحرض على الا تزعج الضبع المتجولة بقايا جثة زوجها • على ان أسرة « موينجارى » وعشيرة « نديجهيرى » ، يفضلان ان يكون قبر الزوج داخل كوخ الزوجة ، أما النساء فيدفن بالقرب من مداخل بيوتهن • وأما الأبناء الذين لا يحتفل بدفنهم ذكورا كانوا أم اناثا فيطرحون فى حفرة أو فى خندق يبعد قليلا عن الأكواخ ولا ترعى قبور هؤلاء الابناء بعد ذلك ، وان نهش حيوان مفترس هذه القبور والتهم ما بها من أجساد » • وبالمثل نجد أن المزارعين فى روسيا يدفنون الأطفال الجهيضين تحت عتبة الباب ، حيث أنهم يظنون ان أرواح الأطفال ترغب فى سكنى هذا المكان • ويحدث ما يشبه هذا فى « بلاسبور » وهو حى يقع فى أقاليم الهند الوسطى » • فالطفل الجهيض أو ذلك الذى توفى قبل مرور اليوم السادس على ولادته ، وهو يوم التطهير « شهانى » ، لا يحمل خارج البيت ليدفن بل يوضع فى وعاء طينى (جارا) ويدفن عند مدخل البيت أو فى فنائه • ويقول البعض انهم يفعلون ذلك لكى تلد الأم طفلا آخر • ويحدث هذا فى حى «هيسار» فى « البنجاب » • « فالبشناويين يدفنون الأطفال الموتى عند عتبة البيت معتقدين بذلك ان فى هذا ارتداد الروح الى الأم • وتنتشر هذه العادة فى حى « كانجارا » حيث يدفن جسد الطفل أمام الباب الخلفى » • وفيما يختص بالهنود الشماليين بصفة عامة ، فاننا نقرأ ان « الطفل عندما يموت ، يدفن عادة تحت عتبة البيت ، اذ ان الناس يعتقدون ان روح الطفل ستولد فى الأسرة مرة أخرى عندما يسير الوالدان على قبره كل يوم » • وهذا الاعتقاد فى تناسخ الأرواح يفسر تلك العادة التى تنتشر وسط افريقيا وهى عادة دفن المشيمة أسفل الباب أو فى الحقيقة تحت عتبة الأكواخ • فكثير من الناس يعتقدون ان المشيمة كائن انسانى ، وهى الأخت المتوأم للطفل الذى يولد قبل

نزولها بفترة قصيرة . والأم تأمل فيما يبدو ، ان روح الطفل الميت أو روح توأمه تمر الى رحمها لكى يولد مرة أخرى ، وذلك اذا ما دفن الطفل الميت أو دفنت المشيمة تحت العتبة .

ومن الغريب حقا أن مثل هذا الدواء يستخدم حتى الزمن الحديث فى علاج بعض الشرور التى تنتاب الأبقار على الرغم من ان الأشخاص الذين يمارسونه أو ينصحون به ، ليست لديهم فيما يبدو فكرة واضحة عن الطريقة التى يتم بها العلاج من خلال اتباع هذه العادة ، ففى حى « كليفلاند » فى « يوركشاير » ، يرى الناس أنه من قبيل الحقيقة ان البقرة اذا ولدت عجلا جهيضا فى مكان الحلب فانه من المحتمل كل الاحتمال ان تحذو حذوها سائر الأبقار التى تكون معها فى هذا المكان ، الأمر الذى يسبب للمالك خسارة كثيرة . على ان الناس لا يقدمون سببا لهذه الظاهرة ، أو لما يعارضها فى حالة عدم حدوثها . والعلاج الوقائى لهذه الحالة ، أو بتعبير آخر العلاج الفولكلورى لها ، هو ازاحة عتبة المكان الذى حدثت فيه هذه الحادثة، والقيام بحفر حفرة عميقة تتسع لدفن العجل الجهيض ، بحيث يوضع على ظهره وتكون أرجله مرفوعة الى أعلى . ثم تغطى الحفرة بالتراب وتقام عليها العتبة كما كانت أول الامر . وقد سأل الدكتور « أتكنسون» رجلا ذكيا فى يوركشاير حول سبب استمرار هذه العادة الغريبة فقال فى لهجته المحلية : « ان هذه العادة ما تزال تتبع حتى اليوم ، وقد كان أبى يمارسها فيما مضى . واذا كان أبى قد فعل ذلك منذ سنين خلت ، فلا بد ان يكون العجل الجهيض الذى دفنه قد بلى تماما ، ولهذا فاننى أقوم بدفنه مرة أخرى » . فمن الواضح أن هذا الرجل يعنى بذلك ان النفع الذى يعود على الناس من وراء دفن العجل الجهيض ، لا يدوم الى الأبد ، ومن ثم يجب ان يعزز هذا الأثر بعملية دفن جديدة . وبالمثل كتب لى مدير مزرعة كبيرة تقع بالقرب من كمبردج ، منذ بضعة سنوات يقول : « أخبرنى راعى بقر أخيرا ان العلاج الوحيد للأبقار عندما ينتشر وباء الاجهاض بينها ، ان يدفن أحد العجول

الجهيضة تحت البوابة التى تمر خلالها العجول كل يوم » • وقد سبق أن دون هذا العلاج منذ مائة عام رجل انجليزى كان مهتمـا بالآثار القديمة فقال : « ان العجل الســقط أو الجهيض يدفن فى الطــريق الذى كثيرا ما يسير فيه القطيع ، وهذا يقضى الى حد كبير على هذا المرض الذى قد يصيب الابقار • وهذه العادة تنتشر على نطاق واسع فى « سافولك » • وربما كان مغزى هذا الاعتقاد القديم ان روح العجل المدفون تتقمص البقرة التى تمر فوقه ، ومن ثم فهو يولد مرة أخرى • ولكنه ليس من المحتمل أن يكون تفسير عملية السحر على هذا النحــو قد استمر فى انجلترا حتى العصر الحديث •

وبناء عــلى ذلك ، فان الجو السحرى الذى أحاط بالأعتاب فى الخيال الشعبى ، ربما كان مرده جزئيا الى عادة دفن الأطفال الصغار الميتين أو الحيوانات الميتة تحت الاعتاب • ولكن هذه العادة لا يمكن ان تفسر وحدها هذا التقديس الخــرافى للأعتــاب ، حيث ان هــذا التقديس قد ارتبط كذلك بعتبات الخيام كما ارتبط بعتبات البيوت • ولست أعلم فى حدود مشاهداتى وقراءاتى ، ان هناك شاهدا أو احتمال وجود شاهد يشــير الى عادة دفن الميت أســفل مدخل الخيمــة • فالمراكشيون لا يعتقدون فى ان أرواح الموتى هى التى تســكن تحت الأعتاب ، مهما تكن طبيعة الكائنات الروحية التى يعتقد الناس فى أنها تسكنها ؛ توضحها كل الوضوح عادة ذبح الحيوانات عند الأعتاب على سبيل الضحية ، وارغام الناس الذين يدخلون البيت على ان يخطــو فوق دم الحيوان المنسكب • وتذبح الضحية عند العتبــة غالبا ، فى اللحظة التى توشك فيها العروس أن تدخل بيت زوجها للمرة الأولى • فعند قبيلة « براهويس » فى « بلوخستان » ، تجلس العروس التى تنتمى الى الطبقة الشعبية المتيسرة ، فى محفة على جمل ، بينما يسير الزوج بجانبها ممتطيا حصانا ، وذلك حتى لا يسير كل منهما ســيرا مجهدا على الاقدام • فاذا وصلا الى بيت العرس ، تذبح شــاة عند العتبة وتعبر الزوجة فوق الدم المنســكب بحيث يترك الدم علامة على

أحد نعلى حذائها • ثم يؤخذ بعض الدم ويوضع فى فنجان وتغمس فيه حزمة من الأعشاب ثم تدهن أم العـــريس جبهة العروس بالدم وهى تخطو فوق العتبة » • ويحدث مثل هذا فى احتفالات الزواج فى « ميهارده » فى سوريا ، اذ تذبح شاة خارج باب البيت وتعبر العروس فوق الدم فى أثناء انسكابه من الحيوان • ويبدو أن هذه العادة تنتشر بين اليونانيين والبروتستانتيين • « وفى مصر ، يذبح الأقباط شـــاة عند دخول العروس بيت العرس ، ويحتم عليها أن تعبر فوق الدم المنسكب على العتبة عند مدخل البيت » • وتقديم الضحية للميت عند عتبة البيت عادة عنـــد قبيلة « بامبـــار » التى تســكن منطقة أعالى النيجر ، كما يســكب الدم على الحائطين اللذين يقعان عـــلى جانبى المدخل • وعلى عتبة الباب كذلك يقوم الصبى الذى يكلف بحمل حبوب الذرة من البيت الى الحقل عند الاحتفال ببذر الذرة بتحية أشـــباح الأجداد • ويبدو أن هذه العادات تعكس فكرة البامباريين فى أن أرواح الموتى تسكن بصفة خاصة عتبة البيت القديم •

وكل هذه العادات المختلفة يتجلى مغزاها ، اذا كان الاعتقاد يتمثل فى أن العتبة تعد مسكنا للأرواح التى يجب أن يسترضيها كل مـــن يدخل البيت أو يخرج منه فى مواسم بعينها • وهـــذا الاعتقاد نفسه يفسر كيف أن الناس فى كثير من البلاد ، وفى ظروف بعينها كانـــوا يحرصون على ألا يمسوا الاعتاب ، وكيف أن الناس فى بعض البلاد كانوا يعينون حراسا يقفون عند الأعتاب لكى يراقبوا تنفيذ هذا التحريم فى صرامة • وربما كان الحراس الذين كانوا يقفون عند مدخل معبد أورشليم أشبه بهؤلاء الحراس ، على الرغم من أن « الكتاب المقدس » لم يشر فى شىء الى العمل الذى كانوا مكلفين بالقيام به •

الفصل السابع

أشجار البلوط والتربنتين المقدسة

احتلت شجرة البلوط وشـجرة التربنتين المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء ، وكلا النوعين ما زال ينمو فى فلسطين . وتختلف الشجرتان عن بعضهما البعض من حيث النوع اختلافا كبيرا ، ولكنهما فى الوقت نفسه تتشابهان تشابها كبيرا من حيث الشـكل . ولهذا فانه يبدو أن العبريين القدماء كانوا يخلطون بينهما ، أو أنهم على الأقل ، كانوا يضعونهما تحت صنف واحد ، ويسمونهما بأسماء مختلفة . ومن ثم فانه ليس من اليسـير دائما معرفة ما اذا كانت الاشارة فى عبارات بعينها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين .

ولا تزال تنبت فى فلسطين حتى اليوم ثلاثة أنواع من البلوط . وأكثر هذه الأنواع وفرة ، ذلك النوع الشـوكى الدائم الاخضرار (Quercus Pseudo-coccifera . ويشـبه هـذا النوع فى شـكله العام وفى لون أوراقه ، أشجار البلوط التى تنمو فى الجزر فى بلادنا تشابها تاما ، فيما عدا أن أوراق شجر البلوط الفلسطينى من النوع الشائك . كما أنها تختلف فى شكلها عن أوراق أشجارنا كل الاختلاف ؛ فهى أكثر شبها بأوراق البهشمية (١) . ويسمى الأهالى هذا النـوع اسم سنديان ، أما اسم البلوط فتطلق على الصنف نفسه بكافة أنواعه. وهذا النوع الشائك الدائم الاخضرار من البلوط « هو الى حد كبير أكثر الأنواع وفرة فى الشـام ، وهو يغطى التلال الجبلية بخاصة فى

(١) نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف ، وزهر صغير ضـارب الى البياض .

فلسطين فى شكل غابات كثيفة من الأشجار التى يبلغ ارتفاع كل منها من ثمانية أقدام الى اثنى عشر قدما والتى تأخذ فى التفرع من أسفل وتكسوها فى وفرة أوراق صغيرة صلبة دائمة الاخضرار ، كما ينتشر جوز البلوط فيه بوفرة . ويكون هذا النوع تسعة أعشار نباتات جبل « الكرمل » ، كما أنه ينمو بمثل هذه الوفرة على وجه التقريب على الكشوح الغربية فى الجبل الشرقى بلبنان . كما ينتشر فى كثير من منحـدراتها ووديانها . بـل ان جـذوره تعيش فى باطن الأرض فى الأماكن التى اختفت فيها الأشجار ، ويقوم الناس بانتزاعها من باطن الأرض ، واستخدامها فى الوقود ، كما يفعل سكان الوديان التى تقع جنوب بيت لحم . ونادرا ما تنمو غابات البلوط فى سوريا فى حجمها الكامل ، نظرا لأن السوريين يقومون باجتثاث الغابات فى غير قيد » ..

والنوع الثانى من غابات البلوط التى تنمو فى فلسطين هو الذى يسمى ببلوط فالونيا Guercus aegilops . وهذا النوع يغير أوراقه فى مواسم معينة ويشبه الى حد كبير أشجار بلوطنا الانجليزى من حيث نموه وشكله العام . ومن حيث خلو غاباته من الأحـراش والأدغال . وانما تعلو أشجاره فوق ساق قوية كثيرة العقد الى مسافة تبلغ من عشرين الى ثلاثين قدما ، كما يبلغ قطرها من ثلاثة الى سبعة أقدام . وأوراق هذه الأشـجار كثيفة . كما أنها تبدو فى منظـرها الطبيعى أشبه بالحديقة لأنها تنمو فى الغالب فى فضاء الغابة المفتوح . ويندر وجود هذا النـوع من الأشجار فى الجنوب فى حين يكثر فى الشمال . وبينما تنمو هذه الأشجار متفرقة فوق جبل « الكرمل » ، فهى تكثر فوق جبل تابور ، وتتكاثف فى شكل غابة فى شمال هذا الجبل . وفى مـدينة « باشان » يتوافر نـوع البلوط ذو الأوراق الشـائكة الدائمة الاخضرار . وهى تلك التى يتحدث عنها الأنبيـاء العبريون بدون شك بوصفها نموذجا للكبرياء والقوة . ذلك لأن شجرة البلوط فى هذا المكان ذات حجم سحرى ، بخاصة تلك التى تنمو فى الوديان المنخفضة . ويأكل الأهالى ثمارها الكبيرة ، بينما يستخدم الصباغون

جوزتهـا فى أصـباغهم ، ويسمونها فالونيا وهى تصـدر على نطاق واسـع .

وأما النوع الثالث من أشجار البلوط التى تنمـو فى فلسـطين فهو الذى يسمى باللغة اللاتينية (Quercus infectoria) ؟ ؛ وهـذا النوع يغير أوراقه ذات اللون الأبيض من أسفلها ، فى مواسم معينة . وليس هذا النوع مألوفا مثل النوعين السابقين ، ولكنه ينمو على جبل الكرمل كما ينمو بوفرة بالقرب من « قادش » وهى مدينة « قادش نفتانى » القديمة . وتبدو هذه الأشجار رائعة نظرا لوفرة نسيجهـا النباتى ، ولونها الأحمر الداكن ولمعان سطحها اللزج . ولم ير « كانون تريسترام » أشجار ضخمة من هذا النوع فى أى مكان ، كما أنه لم ير منه شيئا فى جنوب السامرة .

وما زال الفلاحون ينظرون الى أشـجار البلوط التى تنمو بوفرة فى جهات كثيرة فى فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية . فقد ذكر « طومسون » فى معـرض حديثه عن أيكة البلوط الجميلـة التى تقع بالقرب من بحيرة الحولة « فيالا » فى شـمال فلسـطين ، فقال : « ان هذه الأشجار التى نجلس تحتها الآن ، يعتقد الناس فى أنها مأوى للجن والأرواح . فكل قرية من قرى هذه الأودية على وجه التقريب أو تلك التى تقع على الجبال ، تنبت فيها شجرة بلوط ضخمة أو أكثر من شجرة يقدسها الناس بناء على هذه الفكرة الخـرافية . ويعتقد الأهالى أن كثيرا من الأشجار فى هـذه المنطقة يسكنها أشباح بعينها يطلق عليها اسم « بنات يعقوب » ، وهى تسمية غريبة ومبهمة لم أتمكن من أن أجد لها تفسيرا مقنعا . ويبدو أن هذه التسمية تشير الى بقايا عبادة الأوثان القديمة التى قضى عليها القانون الاسـلامى شكلا ، ولكنه لم يتمكن من محوها كلية من نفوس الناس . فقد استسلم المسلمون بحق لمثل هذه الخرافات ، شأنهم شأن أى طبقة أخـرى فى المجتمع . وترتبط بـدون شك بهذا التصور عند المسلمين ، عادة دفن أوليائهم والأدعياء من الأنبياء عند هذه الأشجار حيث يشيدون لهـم

أضرحة أو مزارات • فجميـــع الطوائف غير المسيحية تعتقـــد فى أن أرواح الأولياء تـــرغب فى العـــودة الى الارض لتزور بصفة خاصة أماكن قبورها » •

وفى قرية « بلودان » الرومانسية التى يلجأ اليها سكان دمشـــق هروبا من حر الصيف ، توجد « آثار معبد بعل القـــديم • وما زال الفلاحون ينظرون الى أيكة البلوط العتيقة التى تنمو على الســـفح أسفل هذا المعبد نظرة تقديس خرافى » • « ففى وادى » « بردى » بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال بعض الطقوس الوثنية تنتشر بين المســـلمين ، قمت بزيارة أيكتين من أشجار البلوط من النوع الدائم الاخضرار • وهاتان الأيكتان يتخذهما الفلاحون أمكنة يتوسلون عندها لأوليائهم • فاذا ما تحققت لهم رغبـــة كانوا قد سبقوا أن نـــذروا نذرا عند تحقيقها ، فانهم يذهبون الى احدى الأيكتين فى يوم معين من أيام الســـنة ، ويكسرون جرة هناك ، أو أنهم يضعون آنية جديدة فى كهف صغير يقع أسفل صـــخرة فى احدى الأيكات • وقد نظرت فى هذا الكهف ورأيته ممتلئا حتى مدخله بالأوانى المختلفة التى قدمها الناس لهذا المـــكان المقدس • وأما فى الأيكة الأخرى ، فأنت تـــرى هناك أكواما هائلة من كسر الجرار » • وهناك أيكة أخرى مقدســـة من أشجار البلوط تقع عند « باينو » فى شمال سوريا ، حيث توجـــد بين أشجارها آثار كنيسة يونانية • وقد علمنا أن الناس يقدســـون شجرة بلوط ضخمة عتيقة تنمو فى قرية تركية فى شمال سوريا ، فعند هذه الشجرة يحرق الناس البخور ويقدمون النذور ، تماما كما يفعلون عند بعض الأضرحة • وليس هناك فى المناطق المجاورة لهذه الشجرة قبر لأحد الأولياء ، ولكن الناس يقدسون الشجرة نفسها »•

وفى كثير من الأحيان تنمو أشجار البلوط المقدسة منفردة أو فى شكل أيكة بالقرب من جامع ذى مئذنة بيضـــاء أو بجوار أضرحـــة أولياء الله المسلمين التى يمكن للمسافر أن يراها من أحد أطراف سوريا الى الطرف الآخر منها • وكثير من هذه المآذن البيضاء والأيـــكات

المخضرة يتوج قمم التلال . ومع ذلك فليس هناك من أحد يعـــرف متى أصبحت هذه الأشجار أضرحة مقدســـة ، ومن الذى خلع عليها هذه القدسية ، وما سبب قدسيتها . وكثير من هذه الأشـــجار قد كرس لتقديس البطارقة والأنبياء ؛ والقليل منها خصص لتقـــديس المسيح ورسله . كما أن بعضها يحمل أسماء أبطال شعبيين ، وبعضها الآخر يرتبط بأشخاص أو بأمـــكنة وحوادث ذات أهمية محلية . ومن المحتمل أن تقديس الكثير من هذه الأمكنة ذات المكانة الســـامية يرجع الى عصور سحيقة . وعلى الرغم من تعاقب الممالك والديانات عـــلى هذه الأمكنة ، فقد ظلت كما هى حتى اليوم ، ومما يؤكد هذا أن بعض هذه الأمكنة يتردد المسلمون ســـكان الصحراء ، وطائفة المتاولة (١) والدرزية ، وكذلك المسيحيون واليهود . ومن ثم فاننا لا نجد فقط فى هذه « الأماكن ذات المنزلة السامية » ، وتحت كل شجرة خضراء تنمو على الجبال العالية وفوق التلال ، آثارا ترجع الى زمن بالغ فى القدم وتشير الى معتقدات الانسان القديم ، وانما نجد أيضا مبانى حديثة ذات قباب تبرز وسط تلك الأيكات . واذا لم يكن كل هذا كفيلا بأن يجعلنا نشعر بقدسية هذه الأمكنة ، فانه يدفعنا لأن نتساءل عنها فى الحاح . فأحد هذه الأماكن المقدسة يقع فوق قمة جبل من جبال لبنان شرق قرية « جيزين » ؛ محاطا بأشجار البلوط المقدسة ، وقمة هذا الجبل ذات شـــكل بيضاوى ؛ وتحيط بها الأشـــجار المخضرة عـــلى الدوام » .

وقد كتب كاتب آخـــر كثيرا ما تجول فى الأرض المقدسة حـــول تأثير هذه الأماكن ، فقال : « ان المسافر فى فلسطين كثيرا ما يقع بصره على مجموعات الأشجار التى تحيط بقبة بيضاء ، هى عبارة عن مبنى منخفض من الأحجار يبرز من بين الأوراق ذات اللون الأخضر الداكن . فاذا تساءل المسافر عن هذا البنـــاء ، قيل له انه لولى من الأوليـــاء أو قديس من القديسين ، وهو يعنى أن بداخل هذا البناء قبر ولى أو

---

(١) هم الشيعة الجعفرية .

قديس ذائع الصيت • وتقع هذه الأبنية عادة ، وان كان هذا لا يحدث على الدوام ؛ فوق قمم التلال • ويمكن رؤيتها من حول هذه التلال من كل مكان على بعد عدة أميال • وبعضها يعـد معلما للبلد فـيراه المسافر من على بعد مسافة كبيرة • فاذا سألت عن هؤلاء الأولياء فانك تجد ان الكثير من معالم حياتهم قد ضـاع فى مجـاهل التاريـخ • والحقيقة أن التفسير الحقيقى لقدسية هذه الأمكنة ، هى أنها كانـت فى العصور القديمة أماكن شيدت عندها معابد الكنعانيين • ولم يـكن الاسرائيليون قد خربوا كل تلك الأماكن المقدسة عندما استولوا على الأرض المقدسة كما نعلم من نصوص كثيرة فى العهد القديم ، ولكنها أصبحت فيما بعد السبب فيما نسب اليهم من آثام • وفى العادة تنمو حول قبة الولى أكمة تنتشر فيها بصفة خاصة أشجار البلوط ؛ ويبدو ان هذه الأشجار بعينها هى التى كانت تنمو فى هـذه الأمـكنة أيام العبريين القدماء وبصفة خاصة على التلال • والى جانب أشـجار البلوط التى تكون عادة من النوع الدائم الاخضرار ، لا من النـوع الذى يغير أوراقه على نحو ما يحدث فى غاباتنا الانجليزية ؛ تنمـو أشجار التربنتين وأشجار الطرفاء والسدر أو البنك Zizyphus – spina Chrisri وأحيانا يسميها الأوربيون Dom • وغير ذلك من الأشجار التى تنمو جنبا الى جنب مع الأشجار • وفى بعض الأحيان ينمو فى هذا المكان شجرة واحدة يقبع فى ظلها قبر الولى • ويتـكون الضريح نفسـه من بناء حجرى بسـيط ليسـت له نوافذ فى أغلب الأحيان ، وبداخله محراب • ويراعى ترميم هذا الضريح على الدوام . كما أنه يطلى بين الحين والآخر من الداخل والخارج بالطلاء الأبيض • وفى بعض الأحيان يوجد القبر داخل البناء تحت القباب ، وهو عبارة عن مبنى قبيح من الحجر مشيد فوق القبر ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أقدام • وفى كثير من الأحيان يكون ارتفاعه غير عادى ، مثـل قبر « يوشع » • الذى يقع بالقرب من السلط شرق الأردن ، اذ يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين قدما » •

وكذلك كتب الكابتن « كوندر » فى معـرض حـديثه عن الديانة الفعلية لا الاسمية للمزارعين السوريين فى أيامنا هذه فقال : « ان الدين المعترف به فى هذا البلد هو الاسـلام . ومبادىء هذا الدين بسيطة ؛ فهى تتلخص فى الايمان بآله واحد ورسول واحد . ومـع ذلك فقد يعيش الانسان شهورا فى جهات نائية فى فلسطين دون أن يبصر أو أن يسمع مؤذنا يؤذن للصـلاة . ولا يعنى هذا ان الناس لا يعيشون حياتهم بدون دين يشـكل سلوكهم اليومى ، ففى كل قرية على وجه التقريب يشاهد بناء صـغير تعلوه قبة بيضـاء ، وهـذا البناء يعد المـكان المقدس فى القرية الذى تطلق عليه أسماء مختلفة ، فهو يسـمى قبـة ، ومزارا ، ومقاما . والكلمة الأخيرة عبرية وقد استخدمت فى الكتاب المقدس اشارة الى أماكن الكنعانيين المقدسـة التى أمر بنو اسرائيل بتخريبها . وتقع هذه الأضرحة فوق قمم الجبال العالية . وفوق التلال وتحت كل شـجرة خضراء . فالمـكان الذى يختار لاقامة المقام هو بعينه الذى يقع عليه الاختيار فى عهد موسى لاقامة المعابد ، وهو يراعى فيه أن يكون بارزا ؛ ففوق قمة الجبل أو عند حافته تسطع قبة صغيرة فى ضوء الشمس وقد انتشرت فوقهـا فروع شجرة من أشجار البلوط أو من أشجار التربنتين . وبجانب أشجار النخيل المنعزلة أو وسط أشجار اللوتس العتيقة التى تنبت عند نبع ؛ تشرف شجرة على بناء منخفض يقف منعزلا أو محاطا بالقبور المنخفضة فى الجبانة الصغيرة . وينظر الى الأشجار التى تنبت بجوار المقام نظرة تقديس على الدوام ، بل انه يحتفظ بالفروع التى تسقط منها داخل هذا البناء المقدس .

وتختلف شـكل الأضرحة حسـب درجة أهميتها ، فهى فى بعض الأحيان تكون مجرد أرض جرداء يحيط بها سور من الأحجار ، كما هو الحال فى ضريح النبى « جبرين » . وفى بعض الأحيان يـكون الضريح بناء معماريا فخما تزينه النقوش وأحجار الزينة كما هو الحال فى مسجد أبى هريرة (أحد صحابة النبى) الذى يقـع بالقرب مـن

« يبنة » • ولكن المقام يكون فى العادة بناء ذا طابـع حـديث ويبلغ محيطه حوالى عشرة أقدام وتعلوه قبة دائرية مطلية بالطلاء الأبيض الناصح ، وبداخله محراب يقع عند الحائط الجنوبى • وتزين الحوائط التى تحيط بالباب كما تزين العتبة الحجرية بالصور الزيتية ، وقـد تطلى بطلاء برتقالى يشبه لون الحناء • كما يوضع الى جانب العتبـة ابريق ممتلىء بالمـاء ليشرب منه زوار الضريح • وفى العادة يوجـد داخل المقام قبر صـغير تتجه رأس سـاكنه الى جهـة الغرب ، ويتجه جسده الذى يوضـع مستقليا على جانبه الأيسر ، كما هو المألوف ، جهة مكة • وفى بعض الأحيان تغطى أرض الضريح بالحصر ، كمـا يحتفظ داخل المقام فى الغالب بمحراث أو بأى شىء آخر ذى قيمة ، حيث يظل فى مأمن من أيدى أكثر اللصوص جرأة حيث لا يجرؤ لص على أن يسىء الى الولى الذى يجد النـاس فى ضريحه مكانا أمينـا يحتفظون فيه ببعض ممتلكاتهم •

ويجسد هذا المقام العقيدة الحقيقية للمـزارعين ، فهو مقـدس قدسية المكان الذى أقام عنده الولى ذات مـرة وفقا لتصور الناس (ومن ثم فقد سمى مقاما نسبة الى اقامة الولى فى هذا المـكان) • أو أنه مقدس لارتباطه بحادثة تتصل بتاريخ الولى • وهذا الضريح ينظر اليه على أنه المركز الذى يشـع منه تأثير هذا الولى • فاذا كان الولى ذا مكانة روحية عالية فان تأثيره قد يمتد الى مسافة عشرين ميلا من حوله • واذا كان الولى سمح النفس ، فانه يمنح السـعادة والصحة لزائريه وغير ذلك من البـركات • أما اذا كان غاضـبا من الناس ، فانه يحل عليهم لعناته ، كأن يصيب بعض أفرادهم بالجنون أو ينزل بهم الموت • فاذا أحس الناس بتصرف غريب فى سلوك أحدهم فانهم يقولون : « لقد أصابه الشيخ بالأذى » • كما يقال أنه أفضل للمجرم أن يقر بجريمة القتل التى ارتكبها وبذلك ينقذ نفسه ، من أن يقسم كذبا عند ضريح شيخ له مكانته بأنه لم يرتكب هذا الجرم ، لأنه ان فعل هذا فان وسطاء الولى الروحانيين يقتلونه حتما •

« وليست طريقة تقديس المقام معقدة • فعند هذا الضريح يسكن حارس على الدوام • وقد يكون هذا الحارس شيخا من بين الأهالى ، وقد يكون أكبر الرجال سنا فى القرية ، وفى بعض الأحيان يكون درويشا يسكن بالقرب من الضريح • كما يسكن عند المكان المقدس شخص يقوم بملء الماء وبنظافة المكان • ويتركز التقديس حول الضريح نفسه ، حيث يسكن الولى فى صورة غير مرئية كما يتوهم الناس • فاذا دخل المواطن الضريح ، خلع حذاءه عند العتبة ، ويأخذ حذره على ألا تمس قدماه عتبة الضريح ، كما عليه أن يحذر القيام بأية حركة من شأنها أن تسىء الى القوى الالهية التى تسكن هذا المكان • فاذا انتشر وباء فى القرية تقدم النذور الى المقام • وكثيرا ما رأيت زوجات فقيرات أو أمهات قد مرض أزواجهن أو أطفالهن يزرن الضريح ، وقد أحضرن معهن مصباحا زيتيا يضعنه أمام الضريح ويوقدنه • ويوفى نذر الولى عن طريق تقديم ضحية يطلق عليها اسم « كود » أو العوض ، فتذبح شاة قريبا من المقام ويؤكل لحمها فى وليمة تبركا بالشيخ » •

ولا تستخدم الفروع التى تسقط من الأشجار المقدسة سواء كانت أشجار البلوط أو التربنتين أو أشجار الطرفاء أو أى شجر آخر ينمو بالقرب من هذه الأمكنة المقدسة فى الوقود ، لأن المسلمين يعتقدون أنهم اذا استخدموا خشب الشجرة المقدسة فى الأعمال اليومية حلت عليهم لعنة الولى واستقرت عندهم •

ولهذا كان من المناظر الغريبة أن نرى فى هذه الأمكنة حيث يندر خشب الوقود ، أكواما من فروع الأشجار الجافة مطروحة على الأرض • ولا يجرؤ المسلمون على حرق هذه الفروع الا فى احتفال يقام للأولياء • أما الفلاحون المسيحيون ، فهم أقل دقة فى مراعاة ذلك لأنهم فى بعض الأحيان يستخدمون هذه الفروع المتساقطة فى وقود أفرانهم سرا •

وبناء على ذلك ، فان عبادة هذه الأماكن ذات المكانة السامية ، وبالمثل الأشجار الخضراء ، تلك العبادة التى حرمها الملوك العبريون وأنبياؤهم منذ آلاف السنين ، لا تزال تعيش بوضوح فى هذه الأماكن نفسها حتى اليوم • أى ان هؤلاء المزارعين لم يتغيروا الا قليلا ، رغم تعاقب الامبراطوريات على مر السنين ، ورغم قيام الثورات الروحية والاخلاقية التى غيرت من وجه عالمنا المتمدين •

ولنشر على سبيل المثال الى بعض هذه الأماكن المقدسة المحلية • فهناك فوق سلسلة من التلال تقع بالقرب من بحيرة فيالا فى شمال فلسطين ، توجد هضبة صغيرة تغطيها أيكة من أشجار البلوط النبيلة ، متخذة بحق شكل غيضة جليلة تثير فى النفس السحر الدينى العميق • وفى وسط تلك الأيكة يقف ضريح الولى أو الشيخ « عثمان حازورى »• ولا يختلف هذا الضريح عن أضرحة المسلمين العادية فى شىء ، ويحيط به حائط حجرى كالح • والى أسفل هذا الضريح مباشرة ، توجد نافورة صغيرة عند طرف أيكة تسمى باسم الولى • وهناك فوق جبل « أوشعا » ، وهو أعلى جبل من جبال جلعاد قبر شهير للنبى هوشع تظلله شجرة بلوط نبيلة دائمة الاخضرار • وهذا القبر يقدسه المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء • فقد تعود الناس أن يحجوا الى هذا القبر ليقدموا الضحية ويقيموا الولائم ويؤدوا الصلاة • ويعد المنظر الذى يشرف عليه هذا الضريح من أجمل مناظر فلسطين • وربما فاق فى جماله ، وإن لم يكن فى مداه ، أشهر المناظر التى يشرف عليها جبل « نبو » حيث وقف موسى متأملا ، قبل موته مباشرة ، أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه والتى كانت تسطع أضواؤها الأرجوانية وظلالها عبر وادى الأردن العميق •

ثم هناك ضريح « هابيل » الذى يقف فوق صخرة بجوار نهر « أبانا » فى لبنان وتحيط به أشجار البلوط الجليلة • وهذا الضريح بناء ذو قبة كسائر الأضرحة العادية واليه يحج المسلمون • وفى تل القاضى الذى كان يسمى فى الزمن القديم « وان » ، حيث تنبع

الروافد الســفلى لنهر الأردن ، تكثر الأضرحة التى ترتبط بأشجار البلوط المقدسة • وتل القاضى هذا عبارة عن رابية طبيعية من الحجر الصخرى يبلغ ارتفاعها ثمانين قدما وعرضها نصف ميل • وتقع هذه الرابية فوق سهل فسيح وتكسوها مجموعة من أشجار الزيتون والبلوط التى تنحدر الى « بانياس » حيث توجد منابع نهر الأردن العليا • فموقع هذه الرابية فى الحقيقة رائع كل الروعة • وعلى الجانب الغربى من الرابية توجد أكمة كثيفة لا يسهل اختراقها ، وتنمو فيها أشجار البلوط والدفلى الذى تتغذى من منابع النهر السفلى • وهذه المنابع عبارة عن نافورة رائعة أشبه بحوض من المياه المزبدة ، ويقال انهـا أكبر نافورة لا فى سوريا وحدها بل فى العالم بأسره • وعلى الجانب الشرقى من الرابية يطل نبع آخر من منابع نهر الأردن • وتقف الى جانب هذا النبع ، وبجوار بعضــها البعض شــجرتا بلوط وتربنتين نبيلتان ، وقد ظللتا قبــور الأولياء المســلمين ، وتدلت من فروعهما الخرق ونفايات النذور •

وفى كثير من الأحيــان نجد أشجار البلوط مزينة بخرق الفلاحين ، وان لم تكن هذه الأشجار بجوار قبور الأولياء أو اضرحتهم • ففى « سلوان » التى تقع مكان شيلوح القديمة ، تنبت شجرة بلوط كريمة تسمى « بلوطة ابراهيم » • وهى احدى الشجيرات التى تســكنها الأرواح ، وتتمتع بشهرة ذائعة فى هذا المكان • وعلى هذه الشجرة يعلق الفلاحون المتطيرون الخرق على فروعها لاسترضاء الأرواح التى « تسكنها » ، وفقا لاعتقاد الأهالى • « فاذا سرنا الى الوراء بعض الشىء فاننا نمر بمجموعة من أشــجار البلوط الضخمة تتدلى من فروع شجرة منها خرق ذات أشكال وألوان متعددة • ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك : ما الهدف من تعليق هذه الزينة على فروع الأشجار ؟ ربما اعتقد الناس أن احدى هذه الشجرات تعد مأوى للأرواح الشريرة . ومن ثم كانت وظيفة هذه الخرق هى حماية الناس من شرور هــذه الأرواح • ومثل هذه الأشجار التى يعتقــد الناس فى أنهــا مأوى

للأرواح الشريرة تنتشر فى كل مكان فى فلسطين ، ويخشى السكان المتطيرون أن يناموا تحتها » . وربما تمكن المسافر من رؤية احدى هذه الشجرات المسكونة من ناحية بيروت القديمة ، وهى عبارة عن شجرة بلوط جليلة دائمة الخضرة وتنو على حافة الجبال الناتئة ، ويعلق الناس على فروع هذه الشجرة قطعا من ملابسهم على سبيل التقرب من هذه الشجرة ، حيث أنهم يعتقدون أن قوة ما تسكن الشجرة ولها القدرة على شفاء المرضى . وأحد جذور هذه الشجرة يرتفع فوق الأرض فى شكل قبو . وقد تعود الناس الذين يقاسون من مرض الروماتيزم أو الليمباجو ان يزحفوا من خلال هذا القبو حتى يشفوا من آلامهم . كما أن النساء الحوامل يزحفن كذلك من خلاله حتى تكون ولادتهن ميسرة . وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر يرقص الرجال والنساء طوال الليل ، كل جنس على حدة بجانب الشجرة . ويبالغ الناس فى تقديس هذه الشجرة الى درجة أنه اذا تجرأ شاك وانتزع أحد فروعها ، فانه يصاب بشلل فى ذراعه .

وتوجد أضرحة الأولياء بين الأيكات فى بقاع مختلفة من وادى الأردن الأعلى ، وجميعها مخصص لتقديس « بنات يعقوب » . ويمكن رؤية احدى هذه الأضرحة من مدينة « صفد » وهو عبارة عن مسجد صغير وبداخله قبر . والناس يعتقدون أن فتيات عذراوات حسناوات يسكنه ، ومن ثم فقد تعودوا أن يشعلوا البخور عند مدخل هذا الضريح . وقد حاول ضابط شجاع . أصبح فيما بعد ضابطا مرموقا ، ثم اشترك فيما بعد فى الاشراف على شئون فلسطين . حاول ان يبحث عن بنات يعقوب فى هذا القبر ، ولكنه لم يعثر لهن على أثر . وربما يشير هذا الربط بين بنات يعقوب وأشجار البلوط الى اعتقاد الناس فى أن لشجر البلوط حوريات أو آلهة تسكنه .

والكلمة التى تشير الى شجرة البلوط عند العبريين تشبه تلك الكلمة التى تسمى بها شجرة التربنتين كل التشابه . والاختلاف الوحيد بين اللفظتين يتمثل فى حروف العلة التى اضافها المخطوط

الماسورى الى النص فى العصور الوسطى • ولم يتفق الباحثون حول تحديد نوع الشجرة التى تشير اليها كل من هاتين الكلمتين ، ذلك لأن الشك يساورنا ، عندما تعترضنا احدى هاتين الكلمتين فى نص من نصوص العهد القديم ، فيما اذا كان المقصود بها شجرة البلوط أو شجرة التربنتين • وما تزال شجرة التربنتين مألوفة فى فلسطين ، وهى تنبت اما مفردة أو فى شكل مجموعة من الشجرات التى تختلط بأشجار البلوط ، ويطلق عليها الأهالى اسم شجرة البطم • وهذه الأشجار تنتشر فى جنوب وشرق فلسطين حيث أنها تنمو بصفة عامة فى بيئة أكثر دفئا وجفافا من البيئة التى تنمو فيها شجر البلوط • وتبدو شجرة التربنتين من على بعد شبيهة فى شكلها فى شكلها العام بشجرة البلوط • ومن النادر أن تنمو هذه الأشجار فى شكل كثيف أو فى شكل أكمات ، ولا توجد منها غابات على الاطلاق ، وانما تقف هذه الشجرة بمفردها فى شكل سحرى فى بعض الوهاد العارية أو على جانب التل حيث لا ترتفع فوقها فى الغابة أية شجرة أخرى • وعندما تذبل أوراقها فى بداية الشتاء ، تكون حينئذ شبيهة بشجرة البلوط الانجليزية التى تعرف بقصرها وجذعها ذى العقد الكثيرة ، كما أنها تشبهها فى أغصانها المنتشرة غير المتناسقة وفروعها القصيرة • وأوراق هذه الشجرة ذات شكل ريشى ، وأما وريقاتها فأكبر من أوراق شجر المستكاء • ويميل لونها الى الخضرة المشربة بالحمرة الداكنة ، ولكنه لا يصل الى دكنة أوراق شجر الخرنوب • ويندر ظهور هذه الأشجار كلما اتجهنا شمالا ، ومع ذلك فهى تعد الشجرة الوحيدة التى تخفف من رتابة خطوات الأغنام وهى تسير فى طريق منحدر لا نهائى يقودها الى موآب القديمة وأمون ، والى المنطقة التى تحيط بهيشبون • على اننا نصادف فى الوهاد القليلة التى تقع جنوب نهر البيبوق • كثيرا من هذه الأشجار التى تفوق فى حجمها تلك التى لا تزال تنمو غرب نهر الأردن » •

على أنه اذا حق لنا أن نحكم من خلال ما كتبه الرحالة فى أثناء

اشاراتهم المتعددة نسبيا الى هاتين الشجرتين ، فاننا نتبين أن شجر التربنتين أقل انتشارا فى فلسطين من شجر البلوط • كما أن الناس فيما يبدو ، لا ينظرون اليه على الدوام نظرتهم الخرافية الى شجر البلوط • ومع ذلك ، فان تقديس شجرة التربنتين ليس نادرا • فقد ذكر « كانون تريسترام » أن كثيرا من أشجار التربنتين ما تزال حتى يومنا هذا موضع تقديس السكان المجاورين لها • كما أن الناس يرون أن أفضل مكان لدفن الشيخ البدوى ، هو أسفل شجرة تنمو بمفردها • ويورد أحد الرحالة الشرقيين ذكر شجرة « أم الخلقان » (١) التى تنمو عند مشارف الصحراء • وهم يعنون بها شجرة التربنتين التى تغطيها الخرق التى يقدمها الناس نذرا لها بدافع التطير أو بدافع ارتباطهم النفسى • وفى مكان آخر يتحدث هذا الكاتب نفسه عن شجرة التربنتين التى تنمو عند منبع نهر الأردن ، وقد تدلت من فروعها الخرق • وفى موآب تنمو أشجار البلوط بصفة عامة . والبلوط الدائم الخضرة ، وكذلك شجر التربنتين والخرنوب والزيتون أيا كان نوعه . اما مرتبطة بمكان مقدس أو تنمو بمفردها • ففى الحالة الأولى يبدو أنها لم تنم أصلا مستقلة عن المكان المقدس الذى تظلله ، كما أنها ليست لها وظيفة مستقلة عن تلك الوظيفة التى تربطها بالولى الذى يعد مصدر نموها وسبب نضرتها . والقائم على حمايتها • وأما الشجرة التى تنمو مفردة ، فلا تتمتع بمزايا المكان المقدس المشيد على بعد منها • وهذا النوع ينمو فرادى بجوار نبع أو فوق تل أو قمة جبل • ولقد مررت بشجرة من أشجار التربنتين ذات أوراق خضراء كثيفة تنمو بالقرب من « الطيبة » التى تقع فى الجنوب الغربى من « الكرك » غير بعيد من « الخنزيرة » . وقد غطت فروعها الخرق • وهذه الشجرة تعد موضع تقديس كبير من قبل عرب هذا الحى • وقد سألت عن قبر الولى الذى يرتبط بهذا المكان المقدس ، فأجابنى عربى كان قد فرغ من صلاته فقال : «ليس هنا مكان لقبر » • فلما سألته بعد ذلك « ولكن لماذا تأتى الى هذا المكان وتصلى عنده ؟ » أجاب على الفور :

---

(١) لعلها التى كان العرب يسمونها قديما « ذات الانواط » •

« لأن هنا فى هذا المكان يعيش رجل مقدس » . فقلت له : « وأين هو ؟ » فقال : « ان كل الظـلال التى تحيط بالشجرة تعد مأوى لـه كما أنه يسكن الشجرة وفروعها وأوراقها » . ومرة أخرى تجـد بين أطلال القلعة الرومانية « الرميلة » فى موآب ، شـجرة خضراء من أشجار التربنتين . ولا يجرؤ أى عربى أن ينتزع فرعا من فروعها حتى لا تصيبه روح الولى التى تسـكن الشجرة بأذى . فلما سألت عما اذا كان روح الولى يعيش فى الشجرة ، أجاب بعض العرب بأن روحه هى التى تكسب الشجرة قوتها ، كما أجاب البعض الآخر بأن روحه تعيش أسفلها . وهكذا نجد أن فكرتهم حول هذا الموضوع باهتة . ومن ثم فهم جميعا يتفقون حول اجابة واحدة وهى « الله أعلم » . وقد أخبرنا الأب « جوسن » الذى ندين له بهذه المعلومات ، أخبرنا عن شجرة التربنتين التى تنمو فى موآب فقـال : « ان روح الولى التى يقدسها الناس فى هيئة تلك الشجرة تتخذ مكان سكناها من حـول الشجرة ، فهى لا تستطيع أن تبرح هذا المكان ، وانما تعيش أسيرة فيه كما لو كانت تعيش فى سجن . فموقف هذا الولى يختلف عـن سائر الأولياء الذين لا يرتبطون بمكان واحد وانما يتنقلون فى الأماكن التى يستدعى فيها عبادهم أرواحهم . فاذا نام البدوى بدافع الخشوع تحت شـجرة من هذه الأشـجار المقدسة ملتمسا الشفاء من روح الولى ، فان روح الولى كثيرا ما تظهر له فى رؤياه وتكلفه بعمل مـا أو تحثه على تقديم الضحية ، وهو يلبى هذه الأوامر على الدوام .

وربما أدركنا من خلال هـذه الأمثلة أن روح الولى المستكنة فى الشجرة ، ليسـت سوى روح الشجرة التى كان يعبدها الوثنيون فى العصـور القديمة . وقد عاشـت هذه العقيدة فى صورة واضـحة عبر العصور الاسلامية والمسيحية . ويؤكد هذا رواية الأب « جوسن » عن تقـديس العرب الخرافى لهذه الأشجار ، فقال : « ان المجموعة الرائعة من هذه الاشجار تلك التى تسمى مايسة وهى التى تقـع فى جنوب كيراك وتتمتع بنفس الشهرة والتقديس اللذين تتمتـع بهمـا

الأشجار الأخرى • وبالمثل تتمتع شجرة الدغل بشــهرة وقوة سحرية كبيرة ، وان كانت لا تظلل قبر أى ولى من الأولياء • ولم يذكر لى أى شخص على نحو مؤكد أن هناك وليا مدفونا عند تلك الشجرة وانمــ تملؤهم الشجرة نفسها بالورع على حد قولهم • والويل للعربى الذى يجرؤ على أن يقطع فرعا من فروعها بله ورقة من أوراقها ، فسرعان ما تعاقبه روح الشجرة فى الحال وربما تسببت فى موته • وقد حدث أن ترك رجل بدوى كيسا ممتلئا بالشعير فى حماية الشجرة • فعثرت نعجتان من بين قطيع جار له كانتا قد ضــلتا طريقهما على الشــعير وأكلتاه • عند ذاك أرسلت روح الشجرة ذئبا فى اثرهما فأكل النعجتين فى مساء اليوم نفسه • فالشجرة نفسها هى التى تعاقب . وهى التى تمنح الخير • فالذى يلمس أوراقها يكتب له الشفاء من مرضــه • ومن ثم فان البدوى لا ينسى عندما يمر بشجرة من أشجار ما يسة أو اشجار الدغل ، أن يمرر غصنا أخضر من أغصانها على وجهه وأذرعه . حتى يجنب نفسه المرض أو لكى يكتسب قوة جديدة • فعملية اللمس كافية لأن توصل اليهم بركة الشجرة ، ومن المرضى من ينامون فى ظلها حتى يشفوا من أمراضهم ، كما أنهم يعلقون الخرق على فروعها بقصــد التماس بركتها • ولهذا فانك ترى هذه الخرق فى أعداد كبيرة واشكال متنوعة • وفى اليوم الذى يعلق المريض خرقة على الشــجرة يبرأ من مرضه ، لأن المرض يلتصق بالشجرة على حد تعبير الأهالى • على أن بعض هؤلاء الأهالى الذين يفكرون تفكيرا عقــلانيا على نحــو ما . يذكرون أن الخرق التى يعلقونها على الشجرة لا يقصد بها سوى تخليد ذكرى زيارتهم لتلك الشجرة • وفى بعض الأحيان يربط العربى بالشجرة التى يمر بها قطعة من القماش • أو قد يترك هراوته إمــا رمزا لتقديسه للشجرة أو لأنه يهدف الى ضمان بركة الشجرة له فى المستقبل • وليس من غير المــألوف فى الواقع أن تقابل بعض العرب وهم يربطون قطعة من القماش الأخضر أو الأحمر (ومن النادر أن يكون لونها أبيض ، أما اللون الأسود فلا يستخدم على الاطلاق) بأحد فروع الشــجرة المقدسة ، لكى يضمن لطفل محبب لديــه الصــحة

الوافرة • وفضلا عن ذلك فاننى عثرت عند شجر « مايسة » عدد خصلات من الشعر مربوطة فى فرع من فروع شجرة منها • وقد فسر لى مرافقى هذه الظاهرة على النحو التالى فقال : « لقد زارت سيدة مريضة هذه الشجرة ، فقصت شعرها وربطته بالشجرة علامة على تقديسها لها » •

وتعد شجرة التربنتين الشجرة الرئيسية فى بيئة موآب الدافئة الجافة ، بينما تزدهر أشجار البلوط فى أحياء جلعود والجليل التى تقع فى الشمال حيث يكون الجو أكثر برودة وأكثر أمطارا • ومن الطبيعى بناء على ذلك أن تكون شجرة التربنتين هى الشجرة المقدسة أساسا فى الجنوب ، وأن تكون شجرة البلوط هى الشجرة المقدسة أساسا فى الشمال • ولكنه يبدو ، اذا حكمنا من خلال روايات الرحالة ، أن الفلسطينيين بشكل عام يألفون أشجار البلوط • ومن ثم كانت هى الشجرة التى يقدسها الفلاحون أكثر من غيرها من الأشجار • وبناء على ذلك فانه يحق لنا أن ننتهى ، اذا وضعنا فى اعتبارنا مدى تشبث الناس بأشكال المعتقدات الخرافية ، وتعلقهم بها عبر العصور ، ان سكان هذا البلد الوثنيين كانوا يقدسون شجرة البلوط فى العصور القديمة أكثر من تقديسهم لأية شجرة أخرى • وبناء على ذلك فاننا اذا ساورنا الشك فيما اذا كانت الكلمة العبرية فى العهد القديم تشير الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين ، فانه ينبغى علينا أن نرجح أنها تشير الى شجرة البلوط • ويؤكد هذا أن المترجمين الاغريق القدماء ، وكذلك القديس « جيروم » كانوا ينقلون الكلمة التى يشك فى اشارتها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين، الى الكلمة المقابلة لها فى لغتهم والتى تعنى شجرة البلوط لا شجرة التربنتين • وقد فعل منقحو الترجمة الانجليزية المعتمدة هذا كذلك ، باستثناء فقرتين ترجم فيها المنقحون كلمة « آلون » العبرية الى كلمة Oak الانجليزية أى البلوط ؛ كما ترجموا كلمة « آله » العبرية الى كلمة Terebinth الانجليزية أى التربنتين • أما خلاف

هذا فقد كانوا يترجمون كلمة « آله » العبرية الى كلمة Oak على الدوام . ثم ذكروا فى الهامش أن كلمة Terebinth هى كلمة أخرى تقابل « آله » العبرية (١) .

ومما يؤكد أن الوثنيين العبريين القدماء كانوا يقدسون شجرة البلوط . تلك الاشارات التى أشار اليها الأنبياء فيما يختص بهذه العقيدة الخرافية . فالنبى هوشع يقول : « يذبحون على رؤوس الجبال ويبخرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم لأن ظلها حسن . لذلك نزنى بناتكم وتفسق كنائنكم . لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كنائنكم لأنهن يفسقن لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى » (٢) .

فالنبى هنا يشير الى عادة البغاء التى كا يسبغ عليها الصفة الدينية لمارستها فى ظل الأشجار المقدسة . ويقول النبى « حزقيال » مشيرا الى تلك الأكمات المقدسة التى يقدسها قومه الكفرة : « فتعلمون أنى أنا الرب اذا كانت قتلاهم وسط أصنامهم حول مذابحهم على كل أكمة عالية وفى رؤوس كل الجبال وتحت كل شجرة خضراء وتحت كل بلوطة غبياء الموضع الذى قربوا فيه رائحة سرور لكل أصنامهم (٣) . ومرة أخرى يتحدث النبى أشعياء عن الآثمين الذين هجروا الرب فيقول : « لأنهم يخجلون من أشجار البطم التى اشتهيتموها وتخزون من الجنات التى اخترتموها ، لأنكم تصيرون

---

(١) الشجرة التى يرد ذكرها بصفة عامة فى الترجمة العربية للعهد القديم هى شجرة البلوط .
(انظر على سبيل المثال . سفر الخروج الاصحاح الثانى عشر آيه ٦ . والاصحاح الثالث عشر آية ١٨ . والاصحاح الرابع عشر آية ١٣ . وسفر التثنية ، الاصحا الحادى عشر آية ٣٠) .
وقد يرد اسم الشجرة الثانية تحت اسم البطمة (انظر سفر القضاه الاصحاح السادس آية ١١ . وسفر أشعياء الاصحاح السادس آية ١٣) (المترجمة).
(٢) سفر هوشع الاصحاح الرابع آية ١٣ وما بعدها .
(٣) سفر حزقيال الاصحاح السادس من آية ١٣ .

كبطمة قد ذبل ورقها وكجنة ليس لها ماء » . ثم يقول مؤلف النبؤة الأخيرة الذى يذكر على أنه النبى أشعياء وذلك فى معرض حديثه عن انتشار الوثنية فى عصره : « أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون الى الأصنام تحت كل شجرة خضراء . القاتلون الأودية تحت شقوق المعاقل » (١) . والضحية التى يشار اليها هنا هى بدون شك التضحية بالأولاد الى الاله « ملك » . ويشير النبى أرمياء الى هذه المعتقدات موجها حديثه فى نغمة انفعالية الى بنى اسرائيل الآثمين فيقول : « أيضا فى أذيالك وجد دم نفوس المساكين الأزكياء . لا بالنقب وجدته . بل على كل هذه » (٢) . وهنا يبدو أن دماء الأطفال الذين كانوا يقدمون ضحية . كانت تلطخ بها شجرة البلوط المقدسة . أو أنها كانت تقدم اليها على نحو آخر ما . وينبغى أن نذكر فى هذا المجال أن الضحايا كانوا يذبحون قبل أن تحرق أجسادهم فى النار حتى يمكن استخدام دمائهم قربانا للأشجار أو طلاء لها . فقبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق افريقيا . تسكب دماء حيواناتهم عند سفح أشجارهم المقدسة حتى لاتذبل أشجارهم . وفى بعض الأحيان يطلون جذعها وفروعها بالدم والزبد واللبن . وتقدس قبيلة « الماساى » فى شرق أفريقيا نوعا من نبات التين الطفيلى الذى يلتف تدريجيا حول جذع الشجرة الرئيسية فى شكل جذور وفروع لولوبية بيضاء براقة . وهذه الأشجار يتقرب اليها الماسيون عن طريق ذبح نعجة . وسكب دمائها عند جذورها . وعندما يقدم النونومايون سكان السودان الفرنسى الضحية للأرض حتى تمنحهم المحصول الطيب . فانهم يسكبون دماء الدجاج المذبوح على شجر التمر هندى وغيره من الأشجار المقدسة . وتقدم قبيلة « البامبار » التى تسكن أعالى النيجر . الشياة والنعاج والدجاج ضحية لأشجار البامبو أو أية أشجار مقدسة أخرى . كما يسكبون الدماء فوق جذوع تلك الأشجار فى الوقت الذى يصلون فيه للأرواح التى تسكن الشجرة . وعلى هذا

---

(١) سفر اشعياء ، الاصحاح السابع والخمسين آية ٤ ، ٥).
(٢) سفر أرمياء (الاصحاح الثانى آية ٢٤) .

النحو كان « البرويسيون » يسـكبون دماء ضحيتهم فوق شـجره البلوط التى تنمو عند « روموت » • ويقول « لوكان » ان كل شجرة فى أيكة « درويديكال » المقدسـة فى مرسـيليا كانت تغسـل بدماء الشخص الذى يقتل ضحية لها •

ولكن اذا كان أنبياء بنى اسرائيل فى العصور المتأخرة قد أشاروا الى عبادة أشجار البلوط أو التربنتين بوصفها طقسا من طقوس الوثنية، فهناك شـواهد عديدة أخـرى تشـير الى أن أشـجار البلوط أو التربنتين المقدسة كانت تلعب دورا رئيسيا فى العقيدة الشـعبية فى العصور السابقة على ذلك عند بنى اسرائيل ، بل انها تشـير الى أن يهوه نفسه كان مرتبطا بتقديس هذه الأشجار كل الارتباط • وعلى كل ، فانه يجدر بنا أن نشير الى ان الرب أو ملائكته كثيرا ما ظهروا لأحد البطارقة القدامى أو للأبطال عند شجرة البلوط أو عند شـجرة من أشجار التربنتين • فقد كان أول ظهور يهوة لابراهيم عند شجرة بلوط أو عند شجرة من أشـجار التربنتين ، كانت تنمو فى « شكيم » وتعد مكانا للنبؤة • وهناك ابتنى ابراهيم معبدا (١) • ومرة أخـرى نقرأ ان ابراهيم كان يسكن الى جانب شجرة بلوط أو شجرة تربنتين كانت تنمو فى ممـرا فى حبرون (٢) • وهناك ابتنى كذلك معبدا للرب • وهناك فى هذا المـكان بجانب شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « ممرا » « ظهر له الرب فى شكل ثلاثة رجال بينما كان يجلس فى خيمتـه وقت الظهيرة (٣) • وهناك فى ظل الأشجار أكل الرب من

---

(١) واجتاز أبرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة ، وكان الكنعانيون حينئذ فى الارض » . (سفر التكوين الاصحاح الثـانى عشر آية ٦) .

(٢) « فنقل ابرام خيامه واتى واقام عند بلوكات ممرا التى فى حبرون ، بنى هناك مذبحا للرب » .
(سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر آية ١٨) .

(٣) « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه » .
(سفر التكوين الاصحاح الثامن عشر آية ١ ، ٢) .

اللحم وشرب من اللبن واللبن الرائب الذى قدمه الشيخ الجليل له • وكذلك ظهر ملاك الرب « لجدعون » وجلس تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « عفره » ، وأحضر له « جدعون » الذى كان منشغلا بدرب القمح ، لحم جدى وحساءه ، كما أحضر له فطيرا غير مختمر ليأكل تحت شجرة بلوط • ولكن الملاك ؛ بدلا من أن يأكل الطعام ؛ طلب من جدعون أن يضـــع اللحم والفطير على صخرة وأن يسكب الحساء • ثم أشعل نارا من الصخر بلمسة من عصاه ، فأتت على اللحم والفطير • ثم اختفى الضيف السماوى بعد ذلك • أو ربما اختفى ساكن الشجرة • وابتنى جدعون اثر ذلك معبدا عند هذا المكان كما فعل ابراهيم من قبل (١) •

وقد كانت هناك شجرة بلوط أو تربنتين تعد مكانا للنبؤة بالقرب من شكيم ، وكانت هنـــاك شجرة أخرى بالقرب من ممـــرات • على أننا لانعرف ما اذا كانت هذه الشجرة هى بعينها التى ظهر عنـــدها الرب لابراهيم • ويبدو أن اسم الشجرة وهو « شجرة العرافين » ، يشير الى أن مجموعة السحرة أو الكهنة ؛ كما نميل الى أن نسميهم على هذا النحو ، التى كانت قد استخدمت لها مكانا عند الشجرة المقدسة ، لكى يفسروا لطالبى النبؤات حفيف الأشجار فى الهواء وهديل حمام الغاب بين فروع الأشجار ، وغير ذلك من سائر أشكال النبوءة التـــى تكشف عنها روح شجرة البلوط لعبادها • وما تزال وهـــدة شيخيم الجميلة التى تحتضن أشجار الزيتون وحدائق البـــرتقال وأشـــجار النخيل ؛ وترويها الجداول ذات المياه الوفيرة ، لا تزال تعد أغنى بقاع فلسطين • كما أنه يبدو أنهـــا كانت فى الزمن القـــديم مـــكانا لعبادة الأشجار • ومهما يكن من أمر فاننا نصادف مرارا فى معرض تاريخها ، ذكر أشجار البلوط أو التربنتين التى يبدو من سياق الكلام أنها كانت مقدسة ، فقد أخذ يعقوب الأصنام أو « ربات البيت الغريبة » ؛ كما أخذ الأقراط التى تستخدم فيما يبدو — بوصفها تعاويذ ، ودفن كل

---

(١) سفر القضاه ؛ الاصحاح السادس من ١١ — ٢٤) •

ذلك تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى شكيم (١) .
ويذكر « آو يستاسيوس » أن هذه الشجرة كان شجرة تربنتين وأن سكان المناطق المجاورة لها كانوا يقدسونها حتى عصره . وكان قد شيد معبدا بجانب هذه الشجرة وكان الناس يقدمون فيه التضحيات .
وقد نصب النبى يوشع تحت شجرة البلوط التى كانت تنبت عند المكان المقدس للرب فى شكيم . حجرا . ليكون شاهدا على قومه عندما قال لهم : « ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به . فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » (٢) .
كما نصب أهالى « شكيم » « أبيمالك » ملكا عند شجرة بلوط فى شكيم . اذ كانوا يعتقدون أن شجرة البلوط ترتبط بالملك برابطة ما .
حيث أننا نقرأ فى مكان آخر عن شجرة كانت تسمى « بلوطة الملك » .
وكانت تنمو عند حدود موطن سبط بنى آشر . وقد دفنت عظام الملك شاءول وعظام أولاده وفقا لرواية من الروايات تحت شجرة بلوط أو تربنتين عند جبل جلبوع . وعندما توفيت « دبيورا » وصيفة « رفقة » . دفنت تحت شجرة بلوط فى « بيت ايل » ؛ من ثم سميت هذه الشجرة « شجرة البلوط الباكية » . ومن المحتمل أن شجرة البلوط الباكية كانت هى بعينها الشجرة التى قابل عندها شاءول .
بناء على تعليمات صموئيل النبى . وقبل أن يتوج بمدة قصيرة . ثلاثة رجال كانوا ذاهبين لتقديم الضحية للرب عند « بيت ايل » . فحيوه وقدموا له رغيفين من أرغفتهم . وهذه التحية التى حيا بها الرجال الثلاثة ملك المستقبل عند شجرة البلوط . تذكرنا بظهور الرب لابراهيم فى هيئة ثلاثة رجال عند بلوطة « ممرا » . وربما أشارت تحية الرجال عند شجرة البلوط فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية الى مغزى أبعد من ذلك الذى تكشف عنه الرواية المتأخرة لها . فاذا ربطنا حادثة مقابلة

---

(١) فأعطوا كل الالهة الغريبة التى فى ايديهم والاقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطمة التى عند شكيم » .
(سفر التكوين الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤) .
(٢) سفر يشوع الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٧ .

الرجال الثلاثة لشاءول قبل تتوجه ملكا ، بحادثة تتويج « أبيمالك » عند شجرة البلوط ، فاننا نستدل من ذلك على أن الملك شاءول كان ينتظر من شجرة البلوط التى ربما ظهرت له فى شكل ثلاثى أن تظهر له لتباركه فى حفل تتويجه . وبناء على ذلك ، وفى ضوء هذا التفسير فان دفن عظام شاءول تحت شجرة البلوط يتطلب ، فيما يبدو ، تفسيرا جديدا . فالملك الذى سبق أن باركته روح الشجرة فى بداية حكمه ، كان جديرا بأن ينام نومته الأخيرة تحت شجرة البلوط .

على أن أكثر الشجرات شهرة فى فلسطين القديمة وأكثرها ألفة بين الناس كانت فيما يبدو هى شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو عند « ممرا » ، لأن الرب ظهر عندها لابراهيم جد بنى اسرائيل الأكبر فى هيئة ثلاثة رجال ، فهل كانت هذه الشجرة شجرة بلوط أم شجرة تربنتين ؟ هنا تختلف الشواهد القديمة ، ولكنها ترجح فى معظمها انها كانت شجرة تربنتين . فقد أخبرنا « يوسفوس » أن كثيرا من الآثار التى كانت فى عهد ابراهيم والتى كانت مبنية بعناية من الرخام الجميل ، كانت تقع فى « حبرون » ، وعلى بعد مائتى ياردة من البلد كانت تنمو شجرة تربنتين ضخمة للغاية قيل انها قد نبتت فى هذا المكان منذ بدء الخليقة . ويمكننا ان نفترض ان هذه الشجرة على الرغم من عدم تصريح « جوزيفوس » بذلك ، هى بعينها التى قيل ان ابراهيم قابل عندها الملائكة وتحدث معهم . وقد أكد « أريبوس » أن هذه الشجرة كانت موجودة حتى عصره ، أى حتى مطلع القرن الرابع الميلادى ، وان المكان الذى تنمو فيه كان يقدسه سكان الأماكن المجاورة . وقد صور الضيوف الثلاثة الغامضين الذين أخذوا حصتهم مما قدم لهم ابراهيمتحت الشجرة تصويرا مقدسا.وأوسط هؤلاءالثلاثة. يفوق الآخرين وقارا فى هذا التصوير وقد تحدث عنه الشيخ الجليل قائلا : « انه الهنا بعينه . وهو منقذنا الذى عزف عن تقديسه حتى من عرفه » . وقد كان السكان المجاورين لهذا المكان يقدسون الملائكة الثلاث . ويذكرنا هؤلاء لشدة دهشتنا بالآلهة الثلاثة الذين

كانت تقدس صورهم عند شجرة البلوط المقدسة التى كانت تنمو فى بلدة « روموف » ، المركز الدينى للبروسيين الوثنيين • وربما كان الناس يعتقدون ان الاله الشجرة الذى كان موجودا فى كل من « حبرون » و « روموف » ، قد تمثل لهم لسبب ما فى شكل ثلاثة من الرجال • وقد كتب حاج من « بوردو » وهو مؤلف أقدم « دليل المسافرين فى أورشليم » ، عام ٣٣٣ بعد الميلاد يقول ان شجرة التربنتين كانت تنمو على بعد ميلين من حبرون ، « وأن قسطنطين أمر ببناء كنيسة جميلة هناك • على أننا نستدل من طريقة كتابته على أن كلمة « التربنتين » لم تكن سوى اسم لمكان ، أما الشجرة نفسها فلم يكن لها وجود فى ذلك الوقت ، ذلك أن « جيروم » الذى كتب مؤلفاته فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، قد ذكر أن هذه الشجرة لم يكن لها وجود فى هذا المكان • فشجرة البلوط التى تنسب لابراهيم أو الى بلدة « ممرا » ، وفقا لقوله ، كانت تنمو حتى عصر قسطنطين ، وأن مكان هذه الشجرة كان يقدسه الناس المجاورين لها بناء على ما توهمه الناس من أن ابراهيم قد تقابل فى هذا المكان مع ملائكة الرب » •

وعندما قرر قسطنطين ان يبنى كنيسة عند الشجرة المقدسة ، أفصح عن غرضه فى خطاب أرسله الى « أوزيبيوس » أسقف قيسارية ، الذى احتفظ لحسن الحظ فى زمنه بنسخة من خطاب الامبراطور • وأشير الآن الى الفقرة الخاصة بالشجرة المقدسة • فقد قال قسطنطين : « ان المكان الذى يسمى « عند بلوطة ممرا » الذى اتخذ ابراهيم عنده مسكنا له كما نعلم ، قد دنسه بعض الناس المتطيرين بطرق شتى • فقد قيل ان أكثر الأصنام دلالة على الكفر قد وضعت بهذا المكان ، وأن معبدا شيد بالقرب منه حيث كان الناس يقدمون على الدوام التضحيات الدنسة • واذا كان هذا يبدو غريبا فى عصرنا ، وغير جدير بهذا المكان المقدس ، فاننى استسمحكم بأن أخبركم أننى قد كتبت الى صديقى الكونت « أكاكيوس » الموقر ،

آمره بأن يحرق دون ما تلكؤ كل الأصنام التى توجد عند هذا المكان ، وأن يهدم المعبد وأن يعاقب كل من يجرؤ بعد ذلك على اقتراف اثـــم يسىء الى قدسية هذا المكان • وقد أمرنا بأن يزين المكان بمبان كنسية فحسب حتى يصبح مكان اجتماع لائق بالقديسيين » •

ومن هذا الخطاب يتضح ان الامبراطور يتحدث عن شجرة البلوط المقدسة لا عن شجرة التربنتين • وبالمثل فقد عرفها المؤرخان الكنيسان « سقراطيس » و « سوزومينوس » ، بأنها شجرة بلوط • على اننا لا نعتد كثيرا بشهادة هؤلاء حيث أن الثلاثة قد اقتفوا أثر مخطوط « سبتراجنت » الذى أشار الى الشجرة على أنها شجرة بلوط وليست شجرة تربنتين • ومن المحتمل أنه من قبيل الاختـــلاف مع المـــرجع « سبتراجنت » أن أشار « ايوزيبيوس » الى « بلوطة ابراهيم » فى الفقرة نفسها التى ذكر فيها أن شجرة التربنتين تعيش فى عصره • وقد ترك لنا المؤرخ الكنسى « زوسوميوس » وصفا لافتا له قيمته عن الاحتفال الذى كان يعتد كل صيف عند الشجرة المقدسة منـــذ زمن قسطنطين وربما قبل ذلك • فقد قال :

« ومن الواجب على الآن ان أذكر الأمر الذى أصدره الأمبراطور قسطنطين الخـــاص بما سمى « بلوطة ممرا » ، فهذا المكان الذى يطلق عليه الآن اسم « التربنتين » يقع شمال جبرون بما يقرب من ســـتة أميال ، ويبعد عن أورشليم بما يقرب من ثلاثين ميلا • وانها لقصة حقيقية تلك التى روت عن ظهور « ابن الرب » لابراهيم بصحبة الملائكة الذين أرســـلوا لعقاب شعب سودوم ، وإنبائه ابراهيم بميلاد ابنه • وما زال الناس المجاورون لهذا المـــكان يقيمون فيه احتفالا فى كـــل صـــيف كما يقيمه السكان الذين يعيشون فى مناطق نائية فى فلسطين وكذلك الفينيقيون والعرب • كما يجتمع كثير من الناس فى هذا المكان للتجارة فيبيعون ويشترون ، حيث أنهم يختزنون بضائعهم لحين قدوم هذا الاحتفـــال • أما اليهود فهم يحيون هذا الاحتفال لأنهم يخلدون

فى زهو ذكرى جدهم الأكبر ابراهيم • وأما الاغريق فهم يحيون هذا الاحتفال بدعوى زيارتهم للملائكة • وأما المسيحيون فهم يفعلون ذلك كذلك لأنه قد ظهر للرجل التقى فى هذا المكان وهذا الزمان « الواحد » الذى ولد فيما بعد من العذراء ليخلص البشرية • فكل طائفة تقدس اذن هذا المكان وفقا لعقيدتها ، فالبعض يصلى لرب العباد جميعا ، والبعض يبتهل الى الملائكة ويسكب الخمر أو يشعل البخور أو يقدم ثورا أو نعجة أو شاة أو ديكا ضحية ، ذلك أن كل رجل يظل يغذى حيوانا طوال العام وينذر أن يقدمه باسمه واسم أسرته ضحية لهذا المكان فى وقت الاحتفال • ويمتنع الرجال عن مخالطة النساء إما بدافع الاحترام لهذا المكان أو خوفا من أن يلحق بهم شر نتيجة غضب الرب • هذا على الرغم من أن النساء يتجملن ويتزين خصيصا لهذا الاحتفال ويظهرن سافرات فى هذا الجمع من الناس • ومع ذلك ، لايسلك رجل منهم مسلكا شهوانيا على الرغم من أن الجنسين يعسكران معا وينامان معا فى مكان واحد • والناس يضربون خيامهم فى هذا المكان حيث أن الأرض ممهدة وخالية من الزرع وتخلو من كل مبنى فيما عدا ابراهيم القديم الذى يقع عند شجرة البلوط والبئر الذى شيده • وفى أثناء هذا الاحتفال لا يستمد أحد المياه من هذا البئر وانما يشعل بعضهم الشموع أو يسكب الخمر أو يلقى فيه الكعك والنقود والروائح والبخور ، وذلك وفقا للعادة الاغريقية • ومن ثم فربما كان الامتناع عن الشرب من مياه البئر فى ذلك الوقت يرجع الى أن مياهها تكون غير ملائمة للشرب بعد أن يرمى فيها بهذه الأشياء • وقد أخبرت والدة زوجة قسطنطين التى كانت قد زارت هذا المكان وفاء لنذر ، أخبرته بشعائر هذه الاحتفالات التى كانت تقام وفقا للطقوس الاغريقية ••

ومن هنا يتضح أن عادة تقديس الشجرة المقدسة والبئر المقدس فى حبرون ظلت مسيطرة على عقول الناس حتى اعترف بالدين المسيحى دينا رسميا للدولة الرومانية • ويبدو أن هذا السوق الذى

كان يقام مع الاحتفال الصيفى كان يجتذب التجار من كثير من بقاع العالم السامى ، كما أنه قد لعب دورا حزينا فى تاريخ اليهود ، لأن عددا كبيرا من أسرهم ، رجالا ونساء وأطفالا قد بيعوا عبيدا فى هذا السـوق بعد أن أخضعهم الرومانيون اثر تمردهم الأخير عام ١١٩ بعد الميلاد • وبهذا انتهت الأمة اليهودية فى المكان بعينه الذى قيـل عنه فى تراثهم أنه قد أسسه ابراهيم عند شجرة بلوط أو تربنتين كانت تنمو عند ممرا » • ولا تزال هذه الشجرة واقفة ، هى أو بديلتها فى حقل يكثر فيه العشـب ويقع على بعد ميل ونصف ميل غرب حبرون • وهذه الشجرة عتيقة وجميلة ودائمة الاخضرار ، وهى تعد من أكرم الأشجار التى تنمو فى جنوب فلسطين • ويبلغ محيط جذعها ثـلاثة وعشرين قدما ، كما يبلغ امتداد فروعها حوالى تسعين قدما • وبهذا تكون شجرة البلوط قد فازت فى منافستها على شجرة التربنتين فى هذا المـكان المقدس عند ممرا ؛ اذ ليس هناك شجرة تربنتين واحدة ضخمة تنمو فى « جبرون » •

الفصل الثامن

الأماكن العالية عند بنى إسرائيل

يطلعنا العهد القديم فى كثير من نصوصه ، على أن أماكن العبادة التى كانت مألوفة عند الاسرائيليين القدماء ، كانت تقع فوق المرتفعات الطبيعية حيث تظللها فى كثير من الأحيان أو فى العموم أوراق الأشجار الكريمة • ويبدو أن معظم هذه الأماكن المقدسة لم تكن مغلقة ، بل كانت مفتوحة للسماء • على أنه كانت هناك فى بعض الأحيان أغطية بهيجة متعددة الألوان على هيئة سقف ، تظلل الشعارات المقدسة التى كانت تقف منتصبة فى شكل عامود خشبى أو نصب حجرى ؛ وتقيها من شمس الصيف وأمطار الشتاء • وقد ظل الاسرائيليون يترددون على هذه الأماكن أحقابا طويلة بعد أن استقروا فى فلسطين ، ليقدموا الضحية • وهناك فى ظل أشجار البلوط والتربنتين ، كان يؤمهم الأنبياء والملوك الأتقياء ، لا بقلوب تخلو من الاحساس بالاستياء ازاء هذه العبادة فحسب ، بل بقلوب يحثها الدافع الداخلى على الالتجاء الى هذه الاماكن المقدسة لارضائها وطمعا فى بركتها • على أن تعدد أماكن العبادة كان كفيلا بأن ينمى عند جهلة الناس عقيدة الايمان بالآلهة المتعددة التى كانت تقدس فى هذه الأماكن • ومن ثم فقد مالت عقيدة الايمان بالرب الواحد التى كانت تعتز بها العقول الاسرائيلية المستنيرة الى التحلل فى شكل الاعتراف الضمنى بتعدد الالهة أو البعول • فكل بعل كان يسيطر من فوق قمة العامود الخشبى المرتفع ؛ وكل منها كان مسئولا عن توزيع ما تمنحه الشمس والأمطار للناس من خصب ونماء فى دائرة المزارع التى تحيط به • كما كانت هذه المزارع بدورها تتطلع الى هذا البعل ؛ تطلع القرى الايطالية الى

نصرائها من القديسين ، لكى يباركها ويمنحها الغنى فى قطعانها ومواشيها وحقولها وحدائق عنبها وزيتونها • وقد أثار هذا التحول اللاشعورى . وعلى هذا النحــو البسيط ، الايمان النظرى بالرب الواحد الى الايمان العملى بالآلهة المتعددة ، أثار تساؤلات الأنبياء وقلقهم ازاء هــــذا الانحلال الدينى الذى أدى بدوره على وجه السرعة الى انحطاط خلقى عارم أدت اليه تلك الشعائر الدنسة التى كانت تؤدى فى أمكنة بريئة • وعلى الرغم من تلك القدسية التى خلعتها الطبيعة نفسها على مسارح هذه الأحداث البريئة ، لمــا أشاعته بين ربوعها من صفاء وأمن ؛ فان هذه الأمكنة كانت تعد ، فيمــا يتعلق بالأفــكار الدينية والتــأملات المستغرقة ، الشـــهادة الصامتة على تلك الشعائر ، بله الشهادة الخجلى الكارهة لهذه الأفعال • وقد ساعد على تدعيم هذه الاعتبارات الدينية والأخلاقية ، اعتبارات أخرى يمكن أن نسميها ســياسية ، وهى تلك الاعتبارات التى كانت تبدو للعقل العبرى القديم الذى كان ينظر الى كل الامور من خلال ضباب الألوهية الذهبى ، مغلفة بمظهر الاحكام التى كان يتهدد بها المدبر للأحداث ، الآثمين وفاعلى الشر ، ويــرى تنفيذها فيهم • وقد كانت قوى الامبراطوريتين الأشــورية والبابلية المتصـــاعدة قد تهــددت فى بادىء الأمر حريات الممــالك الصــغيرة التى نشأت فى فلسطين ، ثم قضت عليها بعد ذلك • وقد كانت العقول المستنيرة فى بنى اسرائيل قد رأت بثاقب بصيرتها منذ زمن طويل ، تلك الكوارث المقبلة عليهم وتنبؤوا بها ، فغلفت تدبرها وتنبؤها بغلاف من التكهنات النبوئية الشاعرية • ولمــا أدرك أصحاب هذه العقــول الأخطار التى تهدد أمتهم ، حسبوا انهم قد وضعوا أيديهم على منبــع الخطر متمثلا فى عبادة شعبهم لتلك الأماكن العالية التى تعدوا فيها ، عن طريق انزلاقهم فى طريق تقديس الآلهة المتعددة ، على حق الجلالة الربانية ، ولطخوا بغواياتهم اللاأخلاقية طهارة عبادة الرب الواحد • ولمــا تصوروا على هذا النحو أن أساس الشر دينى ، فقد كان العلاج الذى اقترحوه دينيا كذلك • وقد تبلور هذا العلاج فى القضاء على عبادة الاماكن العــالية وعلى من ســـهروا على رعايتها من الفجـــرة ،

وتركيز كل الاحتفالات الدينية فى أورشليم ، حيث تضمن لهم الطقوس الأكثر وقارا وانتظاما ، الخالية من كل دنس والتى نتمثل فى شفاعاتهم اليومية وترتيل مزاميرهم وتقديم الضحايا التى تفوح رائحتها الشهية، تضمن لهم حب الرب اياهم وحمايته لأرضهم جميعا • وبعد أن اختمرت هذه الفكرة فى نفوس كبار أنبياء بنى اسرائيل اتخذت شكلا عمليا فى الاصلاح المشـــهور الذى نسب للملك يوشيا • على أن هذا الاجـــراء الذى احكم تدبيره ، وعلقت على تنفيذه الآمال ، أثبت عدم قدرته على الصمود أمام انحلال دولة يهوذا ، كما انه لم يحل دون سقوطها • اذ لم يمض جيل واحد على اليوم الذى أزيلت فيه هذه الأضرحة العالية وشيد المعبد على « جبل صهيون » الذى أصبح المعبد الوطنى الشرعى الوحيد ، حتى فتحت أورشليم أبوابها للعدو ، وسيقت زهرات شبابها أسرى الى بابل •

وقد اعتمدنا فى بعض معلوماتنا عن الأماكن المقدسة المحلية التى ترتكز حولها الى حد كبير مصير الأمة اليهودية ، على تشهير الأنبياء بتلك الأماكن • ويشير الربط الدائم بين هذه الأماكن • ويشير الربط الدائم بين هذه الأماكن المقدسة والأشجار الخضراء فى معرض قدح الأنبيـــاء لهـــا الـــى أن الأشـــجار وبخاصـــة المخضرة عـــلى الدوام ، كانت تعد ملمحا مميزا لهذه المعالم المقدســة • فالنبى أرمياء يتحدث عن آثام قومه ويقول : « كذكربنيهم مذابحهم وسواريهم عند أشجار خضر على آكام مرتفعة » (١) • ثم يقول مرة أخرى : « وقال الرب لى فى أيام يوشيا الملك ، هل رأيت ما فعلت العاصية اسرائيل • انطلقت الى كل جبل عال والى كل شجرة خضراء ، وزنت هناك (٢) • كما كتب النبى حزقيال متحدثا باسم الرب قائلا : « فلما أتيت بهـــم الى الارض التى رفعت لهم يدى لأعطيهم اياها فرأوا كل تل عال وكل شجرة غبياء فذبحوا هناك ذبائحهم وقربوا هناك قرابينهم المغيظة ، وقدموا هنـــاك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم » (٣) • وفى

---

(١) سفر ارمياء الاصحاح السابع عشر آية ٢ •
(٢) سفر أرمياء الاصحاح الثالث آية ٦ •
(٣) سفر حزقيال الاصحاح العشرون آية ٢٨ •

ســفر التثنية الذى يعتقد أنه « كتاب التشريع » الأساسى ، وهــو الكتاب الذى بنى عليه « يوشيا » اصلاحه تنطق الكلمــات التــالية باللعنة على الأماكن العالية ومرافقها الوثنية : « تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعــلى التلال وتحت كل شجرة خضراء ، وتهدمون مذابحهم وتكسرون انصابهم وتحرقون سواريهم بالنار ، وتقطعون تماثيل الهتهم وتمحون اسمهم من هذا المكان » (١) • ونحن نعرف أن الملك شــاءول جلس فى زمن مبكر ؛ قبل أن تصبح قمم التلال المخضرة ذات سمعة سيئة ؛ فى ظل شجرة تمر هندى وأمسك برمحه للملكية ، وقد أحاط به ناصــحوه وأتبــاعه •

لقد سبق أن رأينا أن هذه الأماكن العالية فى فلسطين ، تلك التى تتوجها الأشجار المقدسة وبصفة خاصــة أشــجار البلوط الدائمــة الاخضرار ، لا تزال حتى اليوم المكان المقدس الذى يتضرع اليــه المزارعون المسلمون على الرغم مما تكشف عنه رواياتهم التى تحــكى عن رقود أوليائهم المسلمين تحت ظلها الرهيب ، من طابع وثنى قديم • وانه لمن قبيل التفكير الصائب أن نشارك الكتاب المحدثين افتراضهم ، هؤلاء الذين كثيرا ما تجولوا فى الأرض المقدسة ؛ أن الكثير من قمم التلال الظليلة على الأقل ، هى الأماكن بعينها التى كان الاسرائيليون القدماء يقدمون عندها التضحيات ، ويشعلون البخور • وقد ظلت هذه الأماكن المقدسة الموغلة فى القدم ، التى تشرف على مناظر رائعة ، ظلت عبر الأزمنة ، رغم جهود المصلحين وفؤوس محطمى الصــور ، المركز الرئيسى للديانة الشعبية • وربما حق لنا أن نبعد أكثر من ذلك ونفترض أن هذه الهضاب المخضرة التى تبرز فى روعة وسط المساحات الشاسعة من الأراضى الجرداء ، ومزارع الزيتون ذات اللون الأزرق الرمادى ، هى البقية من الغابات القديمة التى كانت ذات يوم تكسو أطراف البلد على بعد أميال بعيدة ، حتى أزالها الرجل العملى مــن

---

(١) سفر التثنية الاصحاح الثانى عشر من آية ٢ الى ٣ •

الأماكن المنخفضة ليفسح مكانا لزراعتـــه . ف الوقت الذى أخـــذت فيه معتقدات الناس تعانى من ضآلة ما تخلف من الأماكن المقدسة . وقد ظلت هذه الأماكن المتخلفة فوق المرتفعات تشير الى آلهة الاجمات التى تراجعت أمام فأس رجل الغابة . واذا كانت الأجمات المقدسة على الأقل قد نشأت فيما يبدو على نحو هذا فى الأماكن الأخرى . فان مشابهة هذه الأكمات بأكمات فلسطين تدعم افتراض ان الســـبب المماثل قد نجم عنه تأثيرا مماثلا فى فلسطين .

فشعب « أكيكويو » الذى يسكن شرق افريقيا البريطانى ، كان فى الأصل شعبا زراعيا ، ولم يكن يملك ســـوى قليل من قطعان الماشية ، وان كان يملك قطعان المـــاعز فى كل قرية وربما الشياه كذلك . وقـــد اضطر هؤلاء أن يزيلوا الغابات ليفسحوا مكانا لزراعاتهم . وقد ساعد حرق هذه الغابات على خصوبة التربة . ومن المحتمل أن غابات كينيا . كانت متصلة بغابات « أبزدار » فى وقت من الأوقات ، وأن هـــذه المساحة كلها كانت تغطيها الغابات . والدليل الوحيد الذى يشير الى هذه الغابات التى كانت تنمو ذات يوم ، هى تلك المجموعات المتنوعة من الأشجار التى تغطى قمم التلال التى تنتشر بدورها فى كل مكان فى هذا البلد . وهذه التلال ينظر اليها اليوم نظرة تقديس ، كما أنـــه لا يسمح بقطع الأشجار التى تنمو فيها . وبهذا أنقذت تلك الأكمات من المصـــير الذى تعرضت له سائر الغابات . ويعد تل « كاهومبو » « أحد التلال التى تغطيها الأكمال المقدسة التى توجد بوفرة فى بـــلد « كيكويو » . وحيث أنه لا يسمح لأحد بقطع الأشجار أو اجتثاث الأحراش التى تنمو تحتها ، خوفا من انتشار المـــرض كما يعتقـــد الناس . فقد كسيت هذه التلال فى العموم بالأشجار العالية التى تنمو وسط الأحراش الكثيفة . وقد أصبحت هذه الأحراش فى « كاهومبو » مأوى لعدد من الضباع التى لا تقدم لها الأرض الجرداء أو حتـــى المزروعة منها ، غذاء يماثل غذاء تلك الأحراش . وعلى قمة التل يوجد سطح تحيط به أجمة . وهذا المكان يعد المكان المقدس الذى يطلق عليه

الأهالى « أثورى ألياكورو » • فاذا حدثت مجاعة أو شحت مياه الأمطار ، فان الناس يقررون فيما بينهم أن يقدموا ضحية لهذا المكان • وعند ذاك يبقى جميع الناس فى أكواخهم . ولا يسمح لأحد أن يغادر مكانه عدا أربعة عشر رجلا كهلا (وازورى) • وهؤلاء الذين يعدون الكهنة المختارون ، يصعدون الى التل ومعهم شاة • وهم لا يأخذون معهم نعجة قط لأن الاله « ناجى » لايقبل النعاج فى مثل هذه المناسبة • ثم تشعل النار عند قمة التل وتقتل الشاه عن طريق الامساك بفمها وأنفها حتى تموت خنقا • ثم ينتزع جلدها الذى يقدم لأحد أطفال هؤلاء الرجال العجائز ليرتديه • أما الشاه فتطهى ويغمس فى شحمها فرع شجر ، وترش الأشجار المحيطة بهم بهذا الشحم • وبعد ذلك يأكل هؤلاء الرجال العجائز بعض لحم الشاة والا فان الضحية لا تقبل • أما سائر اللحم فيحرق فى النار ويترك الاله ناجى ليأكله • وبمجرد أن يفرغ الرجال من تأدية هذه الشعائر تأخذ السماء فى الارعاد وهم يهبطون التل . كما يهطل البرد بشدة الى درجة أن يضطر الرجال العجائز الى أن يغطو رؤوسهم بملابسهم ويهرعون الى بيوتهم • وبعد ذلك تهطل المياه فوق التلال وتتدفق حول جوانبها » • وعلى نحو هذا قيل ان النبى « اليا » قدم الضحية فوق قمة جبل الكرمل المخضرة ، حتى تهطل الأمطار ويضع حدا للقحط الذى ابتلى به بنو اسرائيل سنين عديدة • وما كاد النبى يفرغ من تأدية شعائره حتى تجمعت سحابة من مياه البحر ، وأظلمت السماء وهرع الملك الوثنى فى مركبته الى أسفل الجبل حتى يهرب من المطر الغزير الذى أخذ يهطل من السماء الغاضبة كالينبوع المتدفق . فى الوقت الذى أخذ يبصر فيه ما انتاب الأنبياء المزيفون من حيرة •

والمعروف عن الموند الذين يسكنون « تشوتا ناجبو » فى البنغال « انهم لا يصنعون تماثيل لآلهتهم . ولا يقدسون أشكالا رمزية • ومع ذلك فهم يعتقدون أن الآلهة — رغم كونها غير مرئية — يمكن أن تسترضى ويتضرع اليها عن طريق تقديم الضحية لها • وعند ذاك

ترضخ لمطلبهم وتتخذ لها مــأوى لبعض الوقت فى الأمكان الخاصــه لعبادتها التى تتمثل فى آماكنهم العالية وأجماتهم • وهــذه الأماكن المقدسة عبارة عن كتل من الصخور التى لا يزيد عددها ولا ينقص • وأما الأجمات فهى عبارة عن بقايا غابات أصلية ، اعتنى بأشجارها عبر الأجيال • ثم تركت بعض الأشجار بعد أن آزيلت الغابات من حولها حتى لا تهجر الآلهة هذه الأمكنة عندما تنزعج لسقوط الأشجار الى تحتمى بها • بل ان الآلهة ما تزال حتى اليوم تعبر عن غضبها اثر قطع شجرة من الأجمعة المقدسة (التى يسمونها جاهيرا أو سارنا) بــأن تمنع سقوط الأمطار الموسمية • ولكل قريه من قرى قبيلة « موندا » • أجملة تقع بالقرب من القرية • والأهالى يعرفون آن هذه الأجمات بقايا غابات قديمة احتفظوا بها لتكون مأوى لآلهتهم • ويعتقد الأهالى أن الــ « ديساولى » ، وهو الاله الحارس للقرية ، يأوى مع زوجتــه « جهار ــ ارا أو مابورو » الى الأجمة عند ما يريدان أن يسمعا الى توسلات الناس • ولكل قرية « ديساولى » الذى لا يتعدى نفــوذه حدود القرية التى تقع أجمته فى نطاقها • فاذا رغب رجل من قريــة ما أن يفلح أرضا فى قرية أخرى ، فانه يتحتم عليه أن يقدم عطاياه لكلا « الديساوليين » • وتعد آلهة الأجمات مسئولة عن المحصول ومن ثم فانها تقدس بصفة خاصة فى أعياد الزراعة المهمة • كما أن الناس يبتهلون لها فى حالات المرض » • ويخبرنا كاتب آخر عن موضوع أثر الآلهة فى حياة الناس فيقول : « انه على الرغــم من ازالة الجــزء الأكبر من الغابات الأصــلية بالفؤوس أو حرقا بنار جارا حيث نشأت مكانها قرى الموندائيين ؛ فان كثيرا من هذه القرى لا تزال تحتفظ بجزء أو بأجزاء من الغابة الأصلية التى تستخدم بوصــفها أجمات مقدسة (سارنا) • وفى بعض قرى الموندانيين لا تمثل الغابة الأصلية سوى مجموعة صغيرة من الأشجار العتيقة التى تستخدم بوصــفها « سارنا » للقــرية • ولا يعــرف الموندايون معــابد ســوى هذه « السارنات » ؛ ففيها تسكن الآلهة ؛ وعندها تقام الشعائر بين الحين والآخر ، كما تسترضى عن طريق تقديم التضحيات لها » •

ونحن نفترض أن هذه الآلهة المحلية المسئولة عن الثروة الزراعيه تلك التى تسكن هذه الأجمات التى تعد بدورها بقايا غابات أصلية . تقترب كل القرب من أبعال الكنعانيين الذين كانوا يسكنون مثلها الأشجار التى تنمو فوق قمم التلال المجاورة للقرى • وهناك كانت هذه الآلهة تتسلم أول محصول تنتجه الأرض على سبيل الامتنان لمنحها الفلاحين المحصوم الوافر والأمطار الغزيرة •

ومرة أخرى نجد عند حدود أفغانستان والهند ، « أن التلال المتاخمة لها غالبا ما تكون عارية من الحقول وخالية من السكان ، ومع ذلك فان المتجول بين أنحائها يصادف بين الحين والآخر بعض الزيارات فوق قمم بعض الجبال أو الصخور التى يتعذر الوصول اليها • ومن ثم فهى تذكرنا بالأماكن العالية عند بنى اسرائيل • وهناك تنمو بعض أشجار التمر هندى التى توقفت عن النمو ، أو أشجار النبق أو الزيزفون Zieg jyplus jiyulc وتتدلى من فروع هذه الأشجار عدد لا حصر له من الخرق ، وقطع القماش الملونة ، لأن كل من ينذر نذرا ويتضرع للضريح يتحتم عليه أن يعلق قطعة من القماش فى فرع الشجرة ؛ بوصفها رمزا مرئيا على وفائه بالنذر » • وتقع احدى هذه الأضرحة الشهيرة فوق سلسلة جبال سليمان • وعلى الرغم من المشقة التى يعانيها الناس فى سبيل الوصول الى هذه الجبال . فان مئات من الحجاج يحجون اليها كل عام ، كما يحمل المرضى على أسرتهم الى هناك على أمل أن تشفيهم بركة الولى • وهذه الأسرة اما أن توضع على ظهور الجمال أو يحملها أصدقاء المريض الذين يسيرون بها أكثر من مائة ميل حتى يصلوا الى احدى هذه الزيارات • ولهذه الأضرحة خاصية أخرى وهى شيوع ممتلكاتهم فى رحابها لمدة طويلة ؛ وهم على ثقة من أنهم سيجدونها كما هى دون أن تمسسها يد بعد مدة طويلة قد تصل الى بضعة أشهر • ومن بين خصائص هذه الأضرحة كذلك أن قطع أى فرع من فروع الأشجار المحيطة بها يعد اثما • ومن ثم كانت الأضرحة هى المكان المخضر الوحيد الذى يقع بين

التلال ، ذلك لأنه يبتعد عن التخريب المسرف الذى تقوم به القبائــل فى غيره من الأماكن التى تنمو فيها الغابات والأحراش •

ومن الواضح أن هذه الزيارات أو الأضرحة الجبلية التى تنتشر فى أفغانستان : تشبه أضرحة الأولياء التى تنتشر اليوم فى الأماكن العالية فى فلسطين • فكلاهما يقع فى العادة فوق قمم الجبال ويحاط بالأشجار التى لا يسمح بقطعها أو اتلافها ، وكلاهمــا يستمد قدسيته فيمــا يعتقد الناس ، من قبور القديسين • كما أنه من المــألوف أن تودع فى رحابهما الودائع الخاصة حيث تظل فى أمان تام دون أن تمتد اليها يد• كما أن الحجاج يتركون عند كل منها ما يشهد على زيارته لها متمثلا فى تلك الخرق التى تعلق على فروع الأشجار •

وعند قبيلة شيرميس فى روسيا « تعد الأكمات المنعزلة فى الوقت الحاضر أمكنة لتقديم الضحية واقامة شعائر الصلوات • وتعرف هذه الأكمات باسم « كجوس — أوتو » • أما فى الأيام السالفة فقد كانت القبيلة تقدم الضحية لآلهتها وسط الغابات • ويقع اختيار الناس على هذه الأمكنة فى العموم عن طريق ظهور امارات تشير الى ادارة القــوة الالهية ، كأن يتفجر نبع فى مكان ما فى الغابة على نحو مفاجىء وعند ذاك يصبح هذا المكان هو المــكان المقدس الذى تؤدى فيه الصلاة • ويفضل « الشيرميون » الذى يسكنون فى « أوفا » الأماكن العاليــة التى تجاور الغدران • وقد ظلت هذه الأماكن العالية تحتفظ بقدسيتها حتى بعد أن عملت فأس رجل الغابة فى أشجار الاماكن المجاورة » •

فاذا تسنى لنا أن نقرن الأماكن المقدسة التى كانت فى فلســطين فى العصور القديمة ، تلك الأماكن التى أســاءت كثــيرا الى الأنبياء المتأخرين ، بغيرها من الأكمات التى أشرنا اليها عند شعوب أخرى ، فاننا نرجح أن الأكمات الفلسطينية كانت بقايا غابات قديمة • وقد أصبحت هذه الأكمات فيما بعد أشبه بالجزر الصغيرة الخضراء التى تركت منعزلة فوق الجبال ، حتى تــكون ملاذا للمؤلهين السذج الذين

جرمهم الرجل المزارع من غاباتهم الشاسعة • وعلى الرغم من ذلك ، فان هذا الرجل المزارع ما زال يعتقد بأنه ملزم بدفع دية مقابل المحصول الذى تنتجه الأرض لهؤلاء الأبعال بوصفهم المالكين الحقيقيين لهذه الأرض • ومن المحتمل أن العاموذ المقدس (أشيرا) الذى كان يرتبط بتلك الأماكن المقدسة المحلية . لم يكن سوى ساق احدى الأشجار المقدسة التى انتزعت فروعها يد الانسان أو انها انتزعت بفعل العوامل الطبيعية • وما زال فى وسعنا اليوم أن نكتشف مثل هذه الرموز الدينية التى تطورت مع الزمن عند قبيلة « كايان » التى تسكن فى بورنيو • فهؤلاء البدائيون يعتقدون فى وجود أرواح معينة خطيرة يطلقون عليها اسم « نوه » • ومن المألوف لدى أفراد هذه القبيلة ، عندما يطهرون مساحة من الأرض من الأحراش تمهيدا لزراعة الأرز ، « ان يتركوا بعض الأشجار القليلة فوق مكان مرتفع حتى لا يسيئون الى روح هذا المكان اذا ما سلبوه كل الأشجار التى تعد المكان الذى يأوى اليه • وفى بعض الأحيان تنتزع فروع مثل هذه الأشجار ولا يترك فى أعلاها سوى بعض الفروع • وفى بعض الأحيان يربط عامود طويل بالشجرة حتى يصل الى قمتها فتنتشر فوقه أوراق هذه الشجرة • وفى بعض الأحيان يعلق فى هذا العامود صليب خشبى بحيث يتدلى منه ويتأرجح فى الهواء » •

الفصل التاسع

الأرملة الصــامته

من عادة بعض الشعوب ، ان لم يكن من عادة شـــعوب العـــالم جميعا ، أنه عندما تتعرض أسرة لوفاة فرد منها ، تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعدد حرية الفرد التى يتمتع بهـــا فى حياته العادية • وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا ، كانـــت القيود التى تفرض عليهم أكثر تعنتا • وعلى الرغم من أن أســـباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة فى الغالب لمن يضطر أن يخضـــع لها ، الا أن الشـواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شـــبح الميت والرغبة فى الهروب من ترقباته غير المستحبة ، بصرف نظره عنهم ، اما عن طريق طرده أو اغرائه ، أو ارغامه على أن يذعن لمصيره ويكف عن مضـــايقة أهله وأصدقائه • وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة • وهذه القيود قد يعبر عنها العهد القديم صراحة أو قد يشير اليها عرضا • وربما استطعنا أن نضيف الى قائمة القيود التى تفرض سلوكا معينا على المكلومين لوفاة ميت ، تلك القيود التى يمكن جمعها من الكتابات المقدسة ، قيدا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين ، اذ لم يشيروا اليه فى كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ ، وأكدته العادات المتشـــابهة التى تتبعها الشعوب الأخرى •

فربما كانت كلمة الأرملة العبرية تتصـــل فى أصلها بصفة تعنـــى

« الخرس » (١) • واذا كان تحليل اللفظ على هذا النحو سليما ، فانه يبدو حينئذ أن المعنى العبرى لكلمة الأرملة هو ، « المرأة الصامتة » • وهنا يتسنى لنا أن نتساءل : لماذا يتحتم أن ترتبط كلمة الأرملة بالصمت ؟ اننى أفترض ، وان كنت لا أدعى الثقة البالغة فى هذا الفرض ، أن هذه التسمية يمكن ان يفسرها انتشار العادة التى تفرض الصمت على الأرملة لبعض الوقت ، وربما كان لوقت طويل ، بعد وفاة زوجها •

فالأرامل عند قبيلة « كوتو » ، وهى احدى القبائل التى تسكن الكونغو ، تعلن الحداد على أزواجهن مدة ثلاثة أشهر قمرية • وفى هذه الفترة يحلقن شعورهن ويجردن أنفسهن من كل ملابسهن ، على وجه التقريب ، ويطلين أجسادهن بالجص ، ويقضين الشهور الثلاثة الأولى فى بيوتهن صامتات • ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « سيهاناكان » التى تسكن مدغشقر ، وان كانت المدة التى تكف فيها الأرملة عن الكلام تطول عن ذلك ، فقد تدوم أكثر من ثمانية أشهر ، وقد تمتد الى عام كامل • وفى خلال هذه المدة تتجرد الأرملة من زينتها ، وتغطى جسمها بحصيرة خشنة ، ولا يقدم لها سوى معلقة مكسورة وطبق مكسور لتتناول بهما طعامها • ولا يسمح لها أن تغسل وجهها أو يديها ، بل تقتصر على غسل اطراف أصابعها • وعلى هذا النحو تظل طوال النهار فى البيت دون أن يسمح لها بالحديث مع من يدخله • وتعد الأرملة عند قبيلة « ناندى » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى نجسة طالما كانت فى فترة الحداد ، كما أن حديثها لايتجاوز الهمس وان كانت لا تمنع عن الكلام كلية • وقد ذكر كاتب فى معرض وصفه لقبيلة « نيشينام » ، وهى احدى القبائل الهندية التى كانت تسكن كاليفورنيا والتى تعرف الكاتب حق المعرفة على طرق معيشتها

(١) من المحتمل أن كلمة الارملة تتصل بكلمة « اليم » illem وتعنى الخرساء . يبدو أن مؤلفى معجم اكسفورد العبرى يفضلون هذا الأصل لكلمة الارملة ، حيث انهم يرجعون الكلمتين الى اصل واحد . (انظر المعجم العبرى والانجليزى للعهد القديم للمؤلفين : ف . براون ، س . ا . برجز . (اكسفورد ١٩٠٦ ص ٤٨) .

فى الثلث الأخير من القرن التاســع عشر : ذكر أن الأرملة التى تسكن حول « أوبورن » تكف عن الكلام مهما تكن المناسبة أو الذريعة اللتان تتطلبان منها الكلام ، وذلك طوال فترة الحداد التى تدوم شهورا بعد وفاة زوجها ، وقد تدوم سنة أو اكثر • وهذه الحقيقة لم اســتمع اليها رواية ، بل إنها حقيقة ابصرتها بعينى • فاذا كانت الأرملة من بين الهنود الذين يسكنون عند نهر المسيسبى ، فان حديثها لايتجــاوز الهمس لـــدة شهور بعد وفاة زوجهـــا • فاذا اتجهنـــا جنــوبا الى « كوزومنوس » فاننا نجد أن هذه العادة تختفى تماما • أما عند الهنود « الكواكيوتليين » الذين يســكنون كولومبيا البريطانية ، فان الأرملة تجلس بلا حراك مدة أربعة أيام بعد موت زوجها وهى ترفع ركبتيها الى ذقنها • وبعد ذلك يتحتم عليها ألا تبرح المسكان نفسه مدة ستة عشر يوما ، وان كان يسمح لها فى أثناء تلك الفترة أن تمد رجليها دون أن تحرك يديها • وطوال هذه الفترة كلها لا يسمح لأحد أن يتحــدث معها ، لأنهم يعتقدون أنه اذا تجرأ أحد وقطع عليها صمتها ، فانــه يعاقب بموت أحد أقربائه • وهذه القيود بعينها يتحتم على الرجــل الأرمل أن يراعيها بدقة عند وفاة زوجته • وبالمثل يتحتم على الأرملة عند هنود بلاكولا الذين يسكنون المنطقة نفسها أن تصوم أربعة أيام بعد وفاة زوجها • وفى هذه الفترة لا يجوز لها أن تنطق ببنت شفة والا ظهر لها شبح زوجها ، وفقا لاعتقادهم : وكتم أنفاســها حتى تموت • ولهذا السبب نفسه يلتزم الأرمل الصمت ويمتنع عن تنــاول الطعام بعد وفاة زوجته • والملاحظ هنا أن السبب الذى يعزى لامتناع كل من الأرملة والأرمل عن الكلام هو الخوف من جذب انتباه شبح الميت الخطير ، بل المؤذى بحق •

على أن عادة التزام الأرامل للصمت لايراعى اتباعها فى دقة بالغة فى أى مكان كما يراعى بين بعض القبائل البدائية التى تستوطن وسط استراليا وشمالها • فالأرملة عند قبيلتى « وادومان » ، و « موديورا » ، وهما قبيلتان تسكنان فى المناطق الشمالية عند نهر فيكتوريا ، لا تلتزم

وحدها الصمت طوال ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد موت زوجها . ولكن يشاركها ذلك أخوة المتوفى . وفى أثناء هذه الفترة توضع جثة الزوج على فروع شجرة بعد رص الفروع جنبا الى جنب . وتظل الجثة على هذا النحو حتى يتحلل اللحم تماما ويبقى العظم . وبعد ذلك تلف العظام فى لحاء الشجرة . وتحمل الى خيمة خاصة حيث يجلس حولها أفراد القبيلة ينتحبون . وبعد انتهاء احتفالات الحداد تحمل العظام مرة أخرى الى الشجر وتترك هناك الى الأبد . وفى أثناء هذه الفترة التى تبدأ بالوفاة وتنتهى بوضع العظام عند الشجرة . لايجوز لأحد أن يأكل نباتا طوطميا أو حيوانا طوطميا ينتسب اليه المتوفى . ولكن عندما توضع عظام الميت فى مقرها الأخير بين فروع الشجر يخرج رجل كهل أو رجلان الى الأحراش ويبحث عن بعض النباتات أو الحيوانات الطوطمية التى ينتسب اليها المتوفى . فاذا كان الطوطم ثعلبا سريع العدو على سبيل المثال . فان الرجل العجوز يمسك ببعض هذه الثعالب ويعود بها الى الخيمة . وهناك توقد النار وتوضع فوقها الثعالب لتطهى . وفى أثناء ذلك تذهب النساء اللاتى يلتزمن الصمت . أعنى الزوجة الأرملة وزوجات اخوة المتوفى . الى النار ويضعن رءوسهن وسط الدخان المتصاعد ويصحن « ياكاى . ياكاى ». ثم يضرب رجل عجوز رءوسهن بخفة . ويرفع يده اليهن لكى يعضعضن اصبعا منها . فاذا أديت الشعائر على هذا النحو أصبحت النساء فى حل من تبعة الصمت ويسمح لهن بالكلام فى حرية اثر ذلك . أما الثعالب المشوية فيأكل منها أولا بعض اقرباء المتوفى من الذكور ثم يسمح لسائر الناس أن يأخذوا نصيبهم هذا من اللحم المشوى .

ومرة أخرى نجد عند قبيلة أرونتا التى تسكن وسط استراليا . ان النساء الأرامل يلطخن شعورهن ووجوهن وصدورهن بالجص . ويمكثن صامتات لمدة محددة حتى ينتهى الاحتفال باقامة الشعائر . ثم يسمح لهن بعد ذلك بالكلام . وتجرى هذه الشعائر عند هذه القبيلة على النحو التالى : اذا شاءت الأرملة أن تبعد عنها دواعى الصمت . فانها تجمع بعض الحبوب الصالحة للأكل أو بعض الدرنات فى وعاء

خشبى كبير ثم تلطخ نفسها بالجص عند خيمة النساء حيث تقيم هناك منذ وفاة زوجها • ثم تحمل الوغاء الخشبى وتسير فى صحبة بعض النسوة حتى تصل الى وسـط الخيمة العامة التى تقع بين الحيين اللذين يسكنهما شطرا القبيلة وهناك تجلس النساء وتولولن بصوت مرتفع • وعند ذاك يأتى أقرباء المتوفى من الرجال ، سواء هؤلاء الذين ينتسبون اليه بطريق مباشر مثل الأبناء والأخوة الذين يصغرونه ، أم هؤلاء الذين ينتسبون اليه بأى نوع من القرابة ، ليشاركوا فى هذا الاحتفال • فيتسلم هؤلاء وعاء الحبوب أو الدرنات من يدى الأرملة ، ويضع أكبر عدد منهم أيديهم فوقه ويصرخون • « واه • واه • واه • » • وعند ذلك تكف النساء جميعا عن العويل كما يسكت الرجال الذين يشاركوهن هذا العويل فيما عدا أرملة المتوفى • وبعد وقت قصير يحمل الرجال الوعاء المملوء بالحبوب أو الدرنات أمام وجه المرأة ، ويمررونه أمام خديها دون أن يمس وجهها ، من الجانب الأيمن الى الجانب الأيسر ، بينما يصرخ الجميع : « واه • واه • واه • » • وعند ذلك تكف الأرملة عن العويل الذى شاركها فيه الرجال فى صوت ذليل • وبعد بضع دقائق يحمل وعاء الحبوب أو الدرنات الى مؤخرة الرجال الذين يجلسون فى اثناء ذلك القرفصاء على الأرض ، وكل يحمل درعه بين يديه ويضرب به الأرض أمام النساء الواقفات • ثم يتفرق الرجال اثر ذلك الى خيامهم ويأكلون الطعام الذى جمعته أرملة المتوفى فى الوعاء • وعند ذلك تكون الأرملة فى حل من الصمت وان استمرت تلطخ جسمها بالجص •

وقد فسر « سبنسر » و « جيلين » مغزى هذه الشعائر الغريبة التى تحل لأرملة المتوفى الكلام بعد فترة الصمت المحددة فقالا : « ان مغزى هذه الشعائر التى يرمز اليها بجمع الأرملة للدرنات أو حبوب الحشائش ، وهو أن الأرملة قد أوشكت على ان تستأنف حياة المرأة العادية ، تلك الحياة التى ظلت معلقة طوال فترة بقائها فى الخيمة ، اى فى اثناء ما يمكن أن نسميه بفترة الحزن العميق • وهذا الرمز

يقترب فى الحقيقة كل الاقتراب من رمز الورقة ذات الأطراف السوداء التى تعبر بها الشعوب المتحضرة عن حزنها ، فيما عدا أن الرمز الثانى قد عبر بطريقة ظاهرية واضحة عما تعبر به هذه الشعوب بطريقة متنكرة خفية . وأما تقديم الأرملة لوعاء الحبوب لأولاد المتوفى وأخوته فهو أشارة الى انها قد قضت فترة الحداد الأولى كما ينبغى أن تقضى . كما أنها تهدف من ذلك كذلك الى كسب رضائهم . وبخاصة اخوة المتوفى الأصغر منه سنا ، هؤلاء الذين يظلون مستائين لبعض الوقت من المرأة التى تعيش بعد وفاة زوجها . وفقا لاعتقاد هؤلاء الناس . والحق أن اخ المتوفى الأصغر له الحق أن يصيب زوجة أخيه بالسهام . اذا قابلها وهى تقوم بعد وفاة زوجها بفترة قصيرة ببعض الأعمال النسائية العادية ، مثل البحث عن جذور اليام . والسبب الوحيد الذى يقدمه الأهالى لتفسير هذا الشعور العدائى ، هو أنه يحزنهم كل الحزن أن يقع بصرهم على أرملة الفقيد بعد موت زوجها بزمن قصير ، لأنها حينئذ تذكرهم بفقيدتهم . على أن هذا السبب لا يمكن أن يكون السبب الوحيد لهذا الشعور العدائى ، حيث أننا نجد أنه لايجوز لاخوة المتوفى الكبار الآخرين أن يفعلوا فعل الأخ الأصغر . ومن المحتمل كل الاحتمال أن القبيلة ، وهى ان تصبح الأرملة عند نهاية فترة الحداد ، زوجة لأحد اخوة المتوفى الذين يصغرونه . وهؤلاء هم الذين ينبغى عليها أن تتجنب رؤيتهم أثر موت زوجها فى حذر بالغ .

ومرة آخرى نجد بين قبيلتى « أونماتجيرا » و « كايتش » اللتين تسكنان وسط استراليا ، أن الأرملة يحرق شعرها بأكمله . بأن تمرر عصاه مشتعلة بالقرب منه . كما أنها تغطى جسمها برماد من النار التى توقد فى الخيمة . وهى تعيد تغطية جسمها بالرماد عدة مرات طوال فترة الحداد . فان لم تفعل هذا . يعتقد أن روح الميت الذى يقتفى أثرها على الدوام يقتلها وينهش لحمها . وفضلا عن ذلك فانه يحق لأصغر أخوة الزوج أن يجلدها بقسوة ، بل يقتلها . اذا حدث

ان قابلها فى أثناء فترة حدادها العميق وهى مجـردة من دلائل الحزن.
ومن واجب الأرملة كذلك أن تلتزم الصـمت الذى يدوم فى العـادة
عدة شهور بعد موت زوجها حتى يخلصها منه أصغر اخوته . واذا حان
هـذا الوقت فانها تحمل لهذا الأخ الأصغر كمية وافرة من الطعام ،
فيأخذ قدرا منه فى يده ويلمس به فمها ، مشيرا بذلك الى أنهـا قـد
تحررت من الصمت ، ويجوز لها أن تقوم بأعمالها النسائية اليومية .

وما تزال تبعة الصمت التى تفرض على النساء الأرامل بعد موت
زواجهن فى قبيلة « وارا مونجا » التى تقطن وسـط استراليا أكثر
غرابة وأكثر مدعاة للتساؤل . وتتمثل تلك الغرابة فى أن تبعة الصمت
لا تقتصر على الأرملة وحدها التى تلتزم الصمت طوال فترة الحداد
التى قد تستغرق عاما ، وانما يشاركها فى ذلك والدة الزوج واخواته
وبناته ، وأمها أو أمهاتهن . وأن كن اكثر من زوجة . وأكثر من هـذا
فانه يشارك هؤلاء الصمت عدد كبير من النساء اللاتى يعدهن الأهالى
من قريبات المتوفى خلافا لما نفعل . ومن ثم فانـه ليس من غـير
المـألوف أن نجد العدد الأكبر من النسـاء يمتنعـن عن الكـلام فى
خيامهن . وحتى بعد انتهاء فترة الحداد . فان بعض النساء تفضلن
السكوت واستخدام لغة الاشارة التى أتقنها نتيجة المران . وليس
من النادر أن يسود الصمت التام بين مجموعة من النساء فى الخيام .
ويدور فى الوقت نفسه حوار صامت تستخدم فيه الأصابع أو بالأحرى
الأيدى والأذرع وكثير من الاشارات التى تتم عن طريق وضـع
الأيدى أو الأكواع فى أوضاع مختلفة . وقد كان هناك فى مقاطعـة
« كريك » منذ بضعة سنين امرأة عجوز ظلت ممتنعة عن الكـلام وعن
فتح فمها الا عندما تأكل أو تشرب ، وظلت على هذا النحو طيلة عشرين
عاما ، حتى دفنت فى لحدها . فاذا رغبت الأرملة الوارامونجية فى أن
تسترد حريتها فى الكلام بعد فترة صمت تطول أو تقصر ، فانها تلجأ
الى ابنائها الحقيقيين ومن هم بمثابة ابنائها من أفراد القبيلة ، وتقدم
لهم منحة من الطعام كما هو المـألوف فى هذه الحالات . وتؤدى هذه

الشعيرة على نحو بسيط للغاية ، فالأرملة تحضر الطعام الذى يتألف عادة من كعكة كبيرة مصنوعة من بذور الحشائش ، ثم تعض اصبع كل رجل يخلصها من قيد الصمت ، وبعد ذلك تتكلم ماشاء لها الكلام .
ويبقى بعد ذلك أن نضيف أن الأرملة فى قبيلة « وارامونجا » تحــلق شعرها وتجرح رأسها من الوسط فى هيئة شق طولى ، وتمرر عصــاه مشتعلة فى هذا الجرح . ومن الطبيعى أن يكون هذا الجرح فى بعض الأحيان خطيرا للغاية .

ولا يسمح للمرأة عند قبيلة « ديرى » التى تسكن وسط استراليا بالكــلام ، حتى يجف الجص الذى تطلو به جســدها ، عــلامة على الحزن ، ويتساقط من تلقاء نفســه . وفى أثناء هذه الفترة التى قد تــدوم أشهرا ، لا يجوز لها أن تتحــدث مع غيرها الا عن طــريق الاشارة .

وهنا يحق لنا أن نتســاءل : لماذا تلتزم الأرملة الصمت مدة تطول أو تقصر بعد وفاة زوجها ؟ ان السبب فى اتباع هذه العادة فيما يبدو ، هو الخوف من جذب نظر شبح زوجها الخطير . وهذا السبب يعزوه هنود « بلاكولا » فى وضوح لاتباع هذه العادة كما تفسر به قبيلتــا « أونماتجيرا » و « كايتش » عادة طــلاء الأرملة جســدها بالرماد . فالهدف الأساسى من وراء اتباع هذه العادة هو فيما يبدو ، اما الرغبة فى تضليل الشبح أو مضايقته وطرده . فالأرملة تروغ منه عنــدما تظل صامتة كما أنها تضايقه وتجعله ينفر منها عندما تتجرد من زينتها وتحلق شعرها أو تحرقه ، وعندما تغطى جسمها بالجص أو الرماد .
وهذا التفسير تؤكده بعض العادات الاسترالية الخاصة .

فنحن نلاحظ بادىء الأمر أن الأرملة تلتزم الصمت عند قبيلتى « وادومان » ، و « مودبورا » . طالمــا ظل لحم زوجها الراحل يكسو عظامه . ولكن بمجرد أن يتحلل لحم الجسد ويتعرى العظم ، تتحرر أرملة الفقيد من الصمت . وهنا تتضح الفكرة العامة فى أن شبح الميت يسكن بقايا جسده المعفن ، طالمــا كانت هناك بقايا من اللحم فــوق

عظامه . فاذا بلى اللحم كلية . فانه يرحل الى عالم الأرواح الذى يقع قريبا أو بعيدا من العالم الأرضى . وحيثما ينتشر هذا الاعتقاد ، فانه من الطبيعى تماما ان تلتزم المرأة الصمت طالما كان جسد زوجها فى مرحلة التحلل ، اذ من المحتمل فى هذه الفترة ، وفقا لاعتقادهم ، أن تسكن الروح الأماكن المجاورة وأن يكون معرضا فى أية لحظة لأن يجتذبه صوت زوجته المألوف لديه .

ثم اننا نلاحظ من ناحية أخرى أن علاقة الأرملة بأحد اخوة الزوج الراحل الأصغرين ، عند قبائل « زرونتا » و « أونماتجيرا » ، تؤيد الغرض فى أن الدافع وراء القيود التى تفرض عليها هو الخوف من شبح الميت . اذ يبدو أن أحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه ، يقوم بدور الرقيب على أرملة أخيه فى أثناء فترة حدادها . فهو يرى ما اذا كانت تراعى التقاليد التى تتبع فى مثل هذه الظروف ، ومن حقه ان يعاقبها بقسوة ، وله أن يقتلها ان هى تحللت من هذه التقاليد . كما أننا نلاحظ أن أحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه هو الذى يحرر أرملة اخيه نهائيا من الصمت . عند قبيلتى « أوتماجيرا » و « كايتش » ، أى أنه هو الذى يعيدها الى مجرى الحياة العادية . وهذه العلاقة الخاصة التى تربط الأرملة بأصغر اخوة اخيها الراحل ، تتضح كل الوضوح عندما نعلم أن الأرملة تصبح زوجة هذا الأخ بعد انتهاء فترة الحداد . كما يحدث ذلك عندما تكون العادة المتبعة أن تتزوج الأرملة احد اخوة زوجها الراحل الذين يصغرونه . وهذه العادة تتبع بحق عند القبائل الثلاث وهى « اورونتا » و « اونماتجيرا » ، و « كايتش » التى تلتزم فيها الأرملة الصمت بعد وفاة زوجها ، وتقف من اخوته الأصغرين موقفا خاصا . فالعادة المتبعة عند قبيلة « أرونتا » أن الأرملة تصبح عند نهاية فترة الحداد زوجة لأحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه . أما فيما يختص بقبيلتى « أونماتجيرا » « كايتش » ، فقد قيل « ان من أهم خصائص عادات الزواج عندهما أن تتزوج الأرملة بأحد الاخوة الأصغرين لا بأكبرهم » . وهذا يحدث كذلك عند قبيلة « ديرى » التى تفرض الصمت على الأرملة فى أثناء

فترة الحداد ، وبعد ذلك تتزوج بأحد الاخوة الأصغرين لزوجها الراحل الذى يناديه أبناؤه بلقب الأب • أما عند القبائل البدائية الأخرى التى تعتقد أن شبح الزوج الراحل يسكن زوجته ويضايقها بترقباته غير المرغوب فيها ، فانه من الطبيعى أن تعتقد هذه القبائل أن زواج الأرملة مرة أخرى يعرض الزوج الجديد للخطر من جراء غيرة الزوج الراحل منه ؛ عندما يجد أن زوجته تعيش فى كنفه • وقد سبق أن أشرت فى مكان آخر الى هذا الأخطار المتخيلة التى تحدث عند زواج الأرملة مرة أخرى • وربما ساعدنا هذا على أن نفهم كيف أن الأخ عند القبائل الاسترالية التى أشرنا اليها يراقب بعين ساهر مسلك أرملة أخيه الأكبر الراحل • فالدافع فيما يبدو ليس هو الاحترام النزيه لشرف أخيه الراحل ، بقدر ما هو اعتبار شخصى يخص سلامته . وذلك اذا خاطر وتزوج بأرملة أخيه قبل أن تتخلص كلية من شبح زوجها الراحل عن طريق اتباعها لكل التقاليد التى تفرض عليها لهذا الغرض ومن بينها التزام الصمت ••

ومن ثم فان تشابه العادات المنتشرة انتشارا واسعا بين الشعوب المختلفة يدعم فرضنا ، وهو أن الأرملة عند العبريين القدماء كانت فى مرحلة مبكرة من تاريخهم تلتزم الصمت لفترة بعد وفاة زوجها بقصد الانفلات من شبح الزوج • وربما كان كذلك على أحد اخوة الزوج الراحل الأصغرين بعد ذلك ، ان يراقب اتباع زوجة أخيه لهذه الشعائر بدقة ، لأنه ربما كان مرشحا للزواج منها بعد انتهاء فترة حدادها ؛ وفقا لعادة زواج الأرملة من أحد اخوة الزوج المتوفى الأصغرين • على انه ينبغى علينا ان نلاحظ بعيدا عن هذه الدراسة المقارنة لتلك العادة ، أن الشاهد المباشر على عادة الصمت التى كانت تفرض على الأرامل عند العبريين القدماء ، ليس أكثر من كونه تحليلا لغويا لأصل كلمة الأرملة العبرية ؛ وهو تحليل قد تكتنفه الشكوك • وحيث أن الاستدلالات التى تبدأ من تحليل أصول الكلمات وتنتهى الى افتراض عادة من العادات ، غير مؤكدة كل التأكيد ، فاننى لا أستطيع أن أدعى لفرضى هذا أى قدر بعيد من الاحتمال •

الفصل العاشر

إيليا [1] والغربان

لم يرد هـذا الفصـل فى النسخة المختصرة التى قمنا بترجمتها . وقد ترجمته عن الطبعه الأصلية واضفت الى هذا الباب ، نظرا لان موضوع الغراب يعد من الموضوعات الشائعة فى التراث الشعبى . وقد سبق ذكره فى أكثر من موضع فى فصل الطوفان الكبير .

ان أول رسالة أوحى بها الرب الى النبى ايليا ، وفقا لأقـوال المؤرخين العبريين ، هى تلك التى أمره فيها أن يذهب الى « آخاب » ملك بنى اسرائيل ويخبره أن أرضـه لن تـرى النـدى أو المطـر لعدة سنوات . وحيث أن النبى قد قام بتبليغ رسالة الرب ، فـان الرب لم يتركه يهلك فى هذا الجدب ، فلقد أوحى اليه الرب قائلا : « انطلق من هنا واتجه نحو المشرق وأختبىء عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر . وقد أمرت الغـربان أن تعولك هناك . فانطلق وعمل حسب كلام الرب وذهب وأقام عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن . وكانت الغربان تأتى اليه بخبز ولحم صباحا ، وبخبز ولحم مسـاء . وكان يشرب من النهر ، وكان بعد مدة مـن الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض » (٢) .

وعادة ما يرتبط نهر كريث فى الروايات الشعبية بوادى الصـلت الذى ينحدر شرقا من أرض الميعاد المرتفعة ، وينفتح على سهل الأردن

---

(١) هو الذى يسميه العرب النبى الياس .
(٢) سفر الملوك الأولى ١٧ : من ١ ـ ٧ .

غير بعيد من أريحا • وسواء أكان هذا الربط بين النهر والوادى من قبل المؤرخين صحيحا أم غــير صحيح . فليس هناك شك فى أن هذا المنظر الطبيعى ملائم للأسطورة كل الملاءمة • فهذه الوهدة تعد أكثر الوهاد قفرا وأكثرها سحرا فى فلسطين • وهى عبــارة عن أخدود كبير بين الجبال وتحيط به نتوءات الجبال العابسة • وهذا الأخدود ضيق للغاية الى درجة أن عرضه لا يكاد يبلغ عشرين ذراعا فى أسفله • وفيه يشق النهر مجراهوسط أجمة من الخيزران والأسل والدفل • وبذلك يقابل هذا الشريط الأخضر جوانب الصخور الجرداء التى تحيط به من كل جانب • وربما ذكرت المســافر هذه الوهــدة بعمقهــا وضيقها . بالأخدود الشهير الذى ينشق بين الصخور الحمراء فى أرض البتراء (سلع) • وهناك فى بعض أماكن هذا الطريق الذى يقود الى أورشليم حتى وادى نهر الاردن . يتجلى للرائى منظر رائع لتلك الوهدة . فبعد أن يسير المسافر بضع ساعات فى هذا المكان المنعزل الذى يتميز به ذلك الانحدار بين التلال الجيرية ذات الأخاديد الجارفة . يشعر بالانتعاش لمرأى هذا الشريط الأخضر . ولصوت خرير المياه الذى يصعد اليه من أعماق هذه الوهــدة العميقة . حتى فى ليــالى الخــريف التى تعقب الصيف القائظ الجاف • فاذا نظر الى أسفل هذا الجرف الذى يصيب الانسان بدوران ، فربما وقع بصره على الغربان والنسور والصقور الضخمة ذات الشكل الأسطورى وهى تطير مندفعة الى أسفل •

وربما لجأ ايليا الى هذا المكان الأعزل الموحش الذى قلما تسقط فيه الأمطار على مدار السنة . الى أن تنقضى ســنوات القحط التى أوحى بها الرب اليه ، وأخبر بها الناس بدوره • وربما لم يخــالط ايليا أحدا فى هذا المــكان سوى الوحوش والطيور البرية •

على أن هذه الوهدة وسكانها لم يتغيرا من ذلك الحين حتى عصرنا هذا ، اللهم الا القليل • فما زالت الوعول تسكن صخورها . وما زال طائر القاوند يرفرف بأجنحته فوق مياهها العميقة ، وما زال الحمــام البرى يعشعش فى شقوق الصخور ، وما زالت الطيور السوداء تنتشر

فوقه أجنحتها ذات البريق الذهبى عندما تتلألأ فى أشعة الشمس •
واذا كان النبى ايليا هو أول من لاذ بتلك الوهدة البرية العميقة هروبا
من الحياة ، فهو لم يكن آخر ناسك لجـأ اليها . فهناك وهنـاك يبصر
الرائى فى أماكن قد يصعب على المسـافر الوصول اليها ، نقوشا على
الصخور ، حيث كان النساك المتعبدون يتخذون مسكنهم . ثم اصبحت
بعد ذلك حتى اليوم مسكنا للغربان والصقور والنسور •

وينفتح الأخدود الكبير فجأة على سهل الأردن عن طريق بوابـة
طبيعية هى عبارة عن ذورة ذات شكل مخروطى من الحجر الجـيرى
تقع على كلا الجانبين • وهنا يقود الطريق المسافر من أورشليم فجأة
الى أحد المناظر الرائعة فى فلسطين • إذ يأخذ الطريق فى هذا المكان فى
الانحدار المفاجىء الى أسفل مهبطه عند السهل • وعند ذاك يقع بصر
المسافر على غابة مخضرة تتغذى أشجارها بالمياه الجارية التى تتدفق فى
الوهدة ، وبمياه الينابيع الوافرة التى تتدفق من الصخرة الجيرية التى
تقع فى الشمال على بعد • وتشغل هذه الغابة الدائمة الاخضرار التى
تعـد مأوى لعدد لا حصر له من البلابل والطيور ذات الريش الجميل
الذى يتألق فى الشمس بألوانه الخضراء والارجوانية والزرقاء ، مثل
طائر القاوند الهندى ذى الريش الارق وطائر التمرة الجميل ، تشغل
جانبا من أريحا مدينة النخل • ويمتد خلف المدينة سهل منعزل ممتد
يقطعه على البعد صف من الأشجار التى تشـير الى مجرى نهر الأردن
وفيما بعد ذلك تشمخ منحدرات مواءب التى تكسوها الغابات بسلسلة
جبالها التى تعلو فى حدة وسط السماء الصافية • أما فى الشمال فيمكن
رؤية جبل كورانتا الذى يشتهر بغوايته فى الروايات الشعبية • وهـو
عبارة عن تل ذى شكل مخروطى يعلو شرفات الصخور ويتوجه حطام
كنيسـة • وتمتد فى الجوانب مياه بحر الميت الهادئة التى تحيط بهـا
الجبال المنعزلة من كل جانب • فاذا كان النبى ايليا قد ترك صومعته
فى الوهـدة ، واتجه الى أورشليم ، فلابد أنه قد أبصر أمامه هـذا
المنظر بعد أن يكون قد اجتاز الممر الملتف العميق ، واستراح هنيهـة

ليلقى نظرة على الطبيعة من خلفه • ثم استأنف سيره بعـــد ذلك متجها الى أعلى حيث تقع المدينة •

وربما أوحى لكاتب حكاية اطعام الغربان لايليا ، وجود هذه الطيور بكثرة فى وادى الصلت ، لأن الغربان ، كما رأينا ، ماتزال تبنى أعشاشـها فى هذا الأخدود ، ويمكن رؤيتها من أعلى وهى تحلق فى أجوائه • حقـــا ان الغربان تلفت نظر المسافر فى أنحاء هذه المنطقة المنعــزلة التى تمتد من أورشليم حتى البحر الميت • وقد قال « كانون تريسترام» فى هذا الصـــدد : « ان مجموعات الغربان أكثر مجموعات الطيـــور غرابة فى هذا المكان ، وأكثر ما يميزه ، وأن يكن الصـــنف الصـــغير منها يفوق فى عدده الصنف الكبير • فهى قريبة فى كل مكان للعـــين والأذن ، كما أن رائحتها التى تفوح من حولها ، تذكر المسافر بتأثير وجودها فى هذا المـــكان • أما الصخب الذى تحدثه بنعيبها عندما تجلس حول المعبـــد ـــ فيصم الآذان • فنعيب غراب القيلولة وثرثرة الغربان العادية تتحد معا فيغمر النعيب الأجش للغربان المسنة • على أن ألحان مئات من أنواع الغربان الصغيرة تعلو هذا الضجيج كله • ولقد تعودنا أن نرى هذا الجيش كل صباح عند الشفق ، عندما يمر فى صـــفوف طويلة فوق خيامنا متجها الى الشمال • وتقود غربان القيلولة الطريق على هيئة كتيبة واحدة متماسكة ، وخلفها على بعد منها ، تطير الغربان العادية فى شكل متفرق • وقبل أن تهجع هذه الغربان فى مرقدها ، تعقد اجتماعا صاخبا للغاية فوق أشجار جبل الزيتون وجبل قدرون • ولا يسكن هذا الصخب الا بعد غروب الشمس • وعند ذاك تختلط الغربان جميعا فى غير تميز وتأوى الى مهجعها فى المكان المقدس • « بل ان ان هذه الأنواع الثلاثة من الغربان تعيش فى الطرف الجنوبى من البحر الميت حيث تشرف قلعة ماسادا القديمة على برية من التلال الملحية القفرة الموحشة • ولقد كان بصرنا يقع على الدوام فى أثناء تجوالنا أسفل جبل سدوم الملحى ، على مجموعات من الغربان الكبيرة وهى تقبع على الصخور الملحية • ولايعرف فى الحقيقة سبب لتجمعها فى هذا

المكان ، اللهم الا اذا كانت ترغب في العزلة . وقد حدث ذات مرة ان أبصرنا وقت الغروب عند الجانب الشرقي من البحر الميت بجوار مكان كان لزمن قريب ساحة للقتال ، سربا من الطيور آكلة الجيفة التي اشتمت رائحة المعركة من بعيد فتدفقت الى هذه المكان من جهة الجنوب . فحيثما وجدت أجساد الموتى ، تدفقت النسور وكذلك الغربان والصقور والحدأ وغربان شمال البلاد العربية في شكل باقات » .

على أن الغربان قد قدمت للنبي ايليا في البرية خدمة غير مألوفة ، ذلك لأن الناس كثيرا ما كانوا ينظرون اليها بوصفها مصدرا للتكهن . بل انهم كانوا يعتقدون أنها تمتلك قدرة على التنبؤ . فالاغريق كانوا يقدسون هذه الطائر ، ويربطون بينه وبين أبوالو اله النبوءة . كما كان العرافون الاغريق يستمدون النبوءة من نعيبه . وفضلا عن ذلك فان من كان يرغب في اكتساب قوة الوهية ، كان يأكل قلب الغراب ، معتقدا بذلك أن قلبه يحتوى على مقدرة على النبوءة . كما كان الرومانيون يعتقدون أن الغراب يستدعى سقوط الأمطار وهو يمشى متبخترا ذهابا وأيابا على الرمال . وما زال الناس في بعض جهات أوربا يعدون نعيب الغراب نذيرا بالموت . ويتصور الهنود الليلوويون الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن من يحرس الغراب روحه يكون ممتلكا لمنحة القدرة على التنبؤ ، فيستطيع بصفة خاصة أن يتنبأ بالموت وأحوال الجو . فالغراب يعد بحق في الأساطير التي تدور على الألسن بين القبائل الهندية التي تسكن غرب آمريكا ، أحد شخوصها الرئيسية .

ويرجع السبب في خلع هذه الفتنة السحرية وهذه القدسية على الغراب الى سلوك هذا الطائر الأفحم الذى يتسم بالحكمة والرزانة . فالغراب وفقا لكاتب مرموق « هو أكثر الطيور تطورا فيما يبدو . فلابد أنه كان يتبع الصياد والقناص فيما قبل التاريخ بحدة بصره وذكائه وشجاعته ، لكي يفترس نفاياتهما دون أن يتحرش بهما . تماما

كما نجده فى عصرنا الحاضر يتعقب تحركات هؤلاء الناس لهذا الغرض نفسه • كما أنه كان يلازم رعاة العصــور الأولى الذين لم يكــونوا ينظرون اليه بغير اكتراث ، حيث أنه كان يشتهر بما يشتهر به الآن من رغبة فى اقتناص الحيوان الضعيف وقتله • ومع ذلك فان الغراب لا يعتمد فى حياته على الانسان ، حيث أنه يعيش حياته مستقلا عنه • وفضــلا عن ذلك فان كثيرا من الشــعوب منذ العصور القديمة كانت تحس ازاء هذا الطائر احساسا يشوبه التقديس أو الخــرافة • وقد كــان هذا الاحساس قويا الى درجة أنه كــان يطغى على الاحساس بعــدم الثقة ، ولا نقول الكره ، ازاء هــذا الطائر • بل ان هــذا الاحساس ظل ينتشر حتى أصــبح يعيش فى بعض الأماكن حتــى يومنا هذا •

ويحكى « بلينى » حكاية توضح بطريقة لافتة كيف كان الرومانيون ينظرون الى الغــراب نظرة تقــديس ، عنــدما كانت روما فى أوج عظمتها • فقد حدث فى عهد الملك تيبيريوس أن غرابين ابتنيا عشهما على سطح معبد « كاستور وبواوكس » • وبعد مدة طار أحد هذين الغرابين ، ومشى مختالا فى حانوت حذاء واتخذ فيه مسكنا له • ولم يجرؤ الحذاء على مضايقة الغراب حيث أنه كان ينظر اليه نظرة ملؤها الورع الدينى ، اما لشخصــه فى حد ذاته ، أو لصلته بالمكان المقدس الذى كان يسكنه • وقد تعود هذا الغراب أن يطير من الحانوت كل صباح ويقف على المنبر الذى يقع فى الساحة العامة ، ويحيى المــارة السائرين الى أعمالهم بطريقة دمثة ، ثم يقوم بتحية الامبراطــور وولديه « دروزوس » « وجرمانيكوس » بصــوت مميز ذاكرا أسماءهم جميعا ، ثم يعود الى الحانوت بعد قيامه بواجب الكياســة على هذا النحو • وقد تعود الغراب أن يفعل هذا الأمر طيلة سنين عدة حتى تمكن حذاء آخر كان يجاور الحــذاء الأول من قتل الغراب • وقــد تصور الناس أن الحذاء قام بقتل الغراب اما حقدا على جاره الحذاء الذى كثر رزقه بسبب هذا الغراب ، أو لأن الغراب نفسه أتلف له

أحذيته ، فقتله فى ثورة غضبه • ومهما كان الدافع ، فقد كان هــذا اليوم يوم شؤم فى حياة هذا الحذاء • ذلك أن الناس ذعروا لمــوت صديقهم القديم وهبوا فى ثورة غضبهم ، وطردوا الحذاء الجاحــد من حانوته . ولم يقر قرارهم حتى سفكوا دم هذا الكافر • أما الغراب المتوفى ، فقد احتفل بجنازته احتفالا شعبيا حضره آلاف المواطنين • وقد حمل نعش الفقيــد على أكتاف اثنين من الأثيوبيين اللذين يشبهان الغراب فى سوادهما ، كما تصدر الجنازة عازف على العود وصــار يعزف بألحانه الرهيبة ، بينما حملت أكاليل الزهر من كل صنف معبرة عن مدى تقدير الشــعب وحزنه على هذا الفقيد • وبهذه الطريقــة المؤثرة سارت الجنازة الى القبر الذى شيد له على بعد ميلين من طريق « أبايان » • ويعلق المؤرخ على هذه الجنازة فيقول ، انها كانت جنازة لم يحتفل بها لأمير من قبل ، وان انتقام الناس من قاتل الغراب كــان أبشع من انتقام « سكبيون الافريقى » •

ومن الخصائص التى خلعت على الغراب مزيدا من التقــديس من وجهة نظر الشعوب ، مقدرته على تقليد صوت الانسان • ولم يؤكد هذه المقدرة « بلينى » وحده وانما حكى عنها كذلك الكتاب المحدثون • « فجولد سميث » يؤكد : « أن الغراب يستطيع أن يفعل ما يعجــز طير من الطيور الأخرى عن فعله معا • ففى وســع الانسان أن يدربه على الصيد كما يدرب الباز ، وفى وسعه أن يدربه على أن يقتفى أثر الصيد وأن يحضره الى القناص كما يفعل كلب الصيد . وفى وســع الانسان أن يدربه على الكلام كما يــدرب الببغاء • ولكن ربما كان أغرب ما فى ذلك كله أن يدرب الغراب على الغناء فيغنى كمــا يغنى الانسان ، ولقد رأيت غرابا يغنى « بلاك جوك » بوضوح وصدق وروح مرحة » • وكذلك كتب « ياريل » فى كتابه « تاريخ الطيور الانجليزية » فقال : « ان الطيور الانجليزية التى تمتلك مقدرة على تقليد صوت الانســان هى الغراب والعقعق وأبو زريق والزرزور • وقد روى عن مقدرة الغراب على تقليد صوت الانسان كثيرا من الحكايات • وربما

كانت الحكايتان التاليتان تعتمد فى روايتهما على الثقات الذين لا يشك فى صدقهم ، أقل انتشارا من غيرها من سائر الحكايات • فقد دربت الغربان على النطق بجمل قصيرة بوضوح كما يصنع مع الببغاوات • ومن بين هذه الأغربة غراب يمتلكه السيد « هنسلو » ، أحد أتباع القديس البان • فهذا الغراب يتحدث بوضوح الى درجة أننا عندما سمعناه لأول مرة خيل الينا أن هذا الكلام يصدر عن انسان • وهناك غراب آخر يسكن فى « كاثام » • وقد أبدى هذا الغراب مهارة فائقة فى هذا الأمر • ولما كان هذا الغراب يسكن بالقرب من بيت الحراس ، فكثيرا ما نادى على الحراس الذين حسبوه شخصا يستدعيهم للقيام بواجب الخفر » ••

ومن المحتمل كذلك أن عادة الغراب فى أكل أجسام الموتى قد ساعد على نظرة الناس اليه فى خوف ورهبة • فمن المألوف أن البدائيين كانوا يعتقدون أنه فى وسعهم أن يكتسبوا صفات الميت عن طريق أكل جزء من جسده • وربما تصوروا على هذا النحو أن الطيور المفترسة التى تعيش على أكل الرمم ، تمتلك لهذا السبب صفة الحكمة وغير ذلك من الصفات التى كان يتصف بها الشخص المتوفى • وعلى هذا النحو برجع تقديس كثير من القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية للضبع ، الى هذه العادة الى حد كبير ، وذلك نتيجة التهام الضباع لأجساد موتاهم • فقبيلة « ناندى » التى يأكل أفرادها جزءا من جسد الميت ، وفقا لعاداتهم ، بقصد اكتساب خصائصه ، يقدسون الضباع لهذا السبب ، ويعتقدون أنها تتحدث على نحو ما يتحدث الانسان ، وأنها على اتصال بأرواح الموتى • فاذا توفى عدد كبير من الأطفال فى أسرة واحدة فان الأبوين يضعان المولود الجديد لبضع دقائق فى الطريق الذى تمر فيه الضباع ، آملين بذلك أن تتشفع الضباع للطفل لدى أرواح الموتى ، فتتركه يعيش • فاذا عاش هذا الطفل فانه يسمى باسم الضبع • وكذلك تنظر قبيلتا « باجيو » و « وانيا مويزو » ، وهما قبيلتان تسكنان فى افريقيا الشرقية ، الى الضباع التى ترمى اليها بأجساد الموتى لكى تلتهمها ، نظرة تقديس •

وكثيرا ما تعتقد هاتان القبيلتان أن عويل ضبع من الضباع فى المساء انما يشير الى صوت آخر شخص توفى فى الحى . ويقول « الوانيا ــ مويزيون » أنهم لا يستطيعون أن يقتلوا الضـــبع لأنهم لا يعرفون ما اذا كان هذا الكائن ينتسب الى أحد أقربائهم ، كأن يـكون هذا الشخص الغريب خاله أو جـــده ، أو لا ينتسب لهم . وربما كان مرد هذا الاعتقاد الى أن أرواح الموتى الذين تلتهم الضباع أجسادهم، تحيا بداخلهم مرة أخرى . وبناء على هذا ، فربما كانت عادة تعريض جسد الميت لهذه الحيوانات ، بالاضافة الى الاعتقاد فى انتقال روح الانسان اليها ، كافيا لأن يهىء للناس أن يتصوروا وجود علاقة بين الناس والوحوش والطيور المفترسة مثل الضـــباع والنسور والصقور والغربان . وما زال السؤال جديرا بالبحث حول مدى انتشار عادات الحيوانات الضارية بحيث أنها يمكن أن تحيط الغراب بصفة خاصة ، بهالة من الاحترام بين عامة الشعوب .

الباب الرابع

القـــــانون

الفصل الأول

مكانة القانون فى التاريخ اليهودى

ربما كان من الأفضـــل ، قبل أن نمضى فى فحص بعض القوانين اليهودية الخاصة ، أن نلقى نظرة سريعة على مكانة القانون بوصفه كلا فى تاريخ بنى اسرائيل ، وذلك فى حدود ما أكده الدارسون المحدثون من خلال أبحاثهم النقدية .

وربما كانت أهم نتيجة توصل اليها النقد التاريخى واللغوى للعهد القديم ، بل وأكثرها صحة ، هى البرهنة على أن ســن التشريع فى أسفار موسى الخمسة فى الصورة التى هى عليه الآن ، لا يمكن أن يــكون موسى قد أعلنهــا فى الصــحراء وفى مــوآب قبل أن يدخل الاسرائيليون فلسطين ؛ وأنها لم تتخذ صيغتها النهائية الا بعد استيلاء « بختنصر » على أورشليم عام ٥٨٦ ق.م ، عندما حمــل اليهود معه الى المنفى . أى أن الجانب القانونى فى الأسفار الخمسة ، باختصار ، لا يرجع تأليفه فى الصورة التى هو عليها الآن ، الى عصر مبكر فى تاريخ بنى اسرائيل ، وانما يرجع الى عصر متأخر . فهذا التشريــع بصرف النظر عن أنه لم يعلن قبل أن تستولى الأمة اليهــودية عــلى أرض الميعاد ، كتب ونشر القليل منه فيما يبدو ، قرب نهاية استقلال هذه الأمة ، كما ألف الجزء الذى اصطلح النقاد على تسميته بالتشريع الكهنوتى لأول مرة فى الصورة التى هى عليه الآن ، إما فى فترة السبى البابلى أو بعده .

على أننا نرى أنه من الضرورى أن نميز بين عصر القــوانين فى حد ذاتها ، والتواريخ التى خرجت فيها الى العالم فى شكل شريعة

مكتوبة • وقليل من التفكير كفيل بأن يقنعنا أن القوانين بصفة عامة لا تخرج إلى الوجود كاملة فى اللحظة التى تصاغ فيها ، كما خرجت أثينا من رأس زيوس • فالتشريع والتقنين شيئان مختلفان كل الاختلاف • أما التشريع فهو قانون ذو نفوذ لنظم سلوكية محددة لا تنتشر ولا تصبح ملزمة بوصفها قانونا قبل أن تعتمد السلطة العليا قرارها الملزم • بل ان القوانين الجديدة نادرا ما تكون ابتداعا جديدا كاملا ، بل لا يمكن أن تكون كذلك • وانما هى ترتكز دائما على وجه التقريب على أساس عادة قائمة ، بل وتقتضى وجودها ضمنا • كما أنها ترتكز على رأى شعبى يتلاءم فى كثير أو قليل مع القوانين الجديدة ، بحيث تكون العقول مهيأة فى هدوء لمدة طويلة لتقبلها • فلا يمكن لأكثر الحكام الدكتاتوريين استبدادا فى العالم أن يفرضوا على الشعب قانونا جديدا مطلقا يكون مخالفا بوجه عام لميولهم وتيار مزاجهم الطبيعى ، وثائرا على آرائهم وعاداتهم الموروثة ، ومستهزئا بأكثر ما يتعلقون به من مشاعر وآمال • بل انه كان دائما فى أكثر عصور التشريع ثوريه عنصرا محافظا يعمل على تقبل المجتمع لهذا التشريع وطاعته له • فالقانون الذى يستجيب الى حد ما مع ماضى الشعب ، هو وحده الذى يمتلك قوة من نوع ما للتكيف مع مستقبل هذا الشعب • أما أن يعاد بناء المجتمع من أساسه ، فهو مشروع وهمى • ويظل هذا المشروع غير ضار ، طالما كان محصورا فى نطاق أحلام الفلاسفة الطوباويين • ولكنه يكون خطيرا ، بل من المحتمل أن يكون هداما اذا خرج الى حيز التنفيذ سواء عن طريق الحكام الدكتاتوريين ، أو عن طريق الزعماء الذين يدلون على جهلهم منذ المحاولة الأولى بعناصر المشكلة الأساسية التى دفعوا بأنفسهم لحلها • فالمجتمع نمو وليس تكوينا ، وعلى الرغم من أنه من الممكن أن نحور هذا النمو وأن نشكله فى أشكال مختلفة ، تماما كما يستخرج البستانى بفنه أزهارا ذات شكل أكثر جمالا وأبهج لونا من الأزهار البسيطة التى تنمو فى الحقول وفى المروج وبين الأسوار الخضراء ، وعلى شاطىء النهر ؛ فانه فى وسعنا أن نشكل المجتمع من جديد فى حدود

ضيقة تماما ، كما يشـــكل البستانى زهرة الزنبق أو الوردة • ففى كل قانون كما هو الحال فى كل بنات ، عنصر قديم ، واذا استطعنا أن تقتفى أثر هذا العنصر حتى نصـــل الى منبعه الأصـــلى فان هـــذا سيقودنا الى الوراء ، الى أقدم مراحل الحياة الانسانية ، سواء كان هذا يختص بحالة بعينها أو بأصل الحياة فى العموم •

فاذا انتقلنا بعد ذلك من التشريع الى التقنين ، فإنه يتضح عند ذاك احتمال قدم القوانين المقننة كل الوضوح ، الى درجة أنه يبدو من نافلة القول أن نؤكد ذلك • واذا كانت أشهر المدونات القانونية فى العالم هى مدونة جستنيان التى عرفت باسم « ديجســـت » أو « بانديكتى » ، فهذه المدونة هى مجموعة اقتباسات من أعمال رجال القانون الرومانيين القدماء بنص أصحابها الذين ذكرت أسماؤهم بعد كل اقتباس على حده • ومعنى هذا أن المدونة الرومانية ليست مجموعة من القوانين الجديدة ، بل هى ببساطة تجميع جديد لقوانين قديمة كانت تعيش فى الامبراطورية لعدة قرون • أما أشهر القوانين الحديثة فهو القانون الفرنسى الذى أصدره نابليون • وعلى الرغم من أن هـــذا القانون قد حل محل المجموعة الهائلة من نظم التشريعات المنفصـــلة المحلية التى لوحظ أن المســـافر الفرنسى يغيرها كثيرا أكثر مما يغير أفراسه ، وعلى الرغم من أن هذا القانون كون ، بدون شـــك ، وحدة متكاملة من التشريع ، الا أنه على العكس يعد « وليد القانون الرومانى العرفى بالاضافة الى سنن الملوك وقوانين الثورة » • وحسبنا هـــذا المثال الذى يشير الى مجموعات القوانين الحديثة ، اذ أنه يعد من قبيل الاسهاب أن تقدم مزيدا من هذه الأمثلة •

ويبدو أن التشريع عند الأمم السامية كان يسير على هذا النحو • وأقدم قانون فى العالم وصلنا عن العصور القديمة هو قانون حمورابى، ملك بابل الذى حكم حوالى سنة ٢١٠٠ ق • م • على أنه ليس هناك ما يجعلنا نفترض أن التشريعات التى يتضمنها هذا القانون تعد خلقا جديدا كل الجدة للمشرع الملكى ، بل ان الاحتمال والشـــاهد كذلك

يؤيدان على العكس وجهة نظر أن الملك البابلى لم ينشىء بنية قوانينه الا على أساس من التقاليد والعادات البالغة فى القدم التى ورثها قومه عن الساميين القدماء الذين كانوا يعيشون فى بابل من قبل ، وهم السوماريون ، أو هو على الأقل اعتمد فى تأليفها على جزء من هذه العادات والتقاليد • وقد كان هذا الشعب السامى متعصبا لتلك العادات والتقاليد وكان يعدها مقدسة كما قدسها الملوك وأجازها القضاة • وبالمثل فان النقاد الذين يرجعون مجموعة التشريعات التى تسمى بشريعة موسى ، الى العصور السابقة مباشرة على فقدان الأمة اليهودية استقلالها ، أو التالية لذلك بزمن ليس بالطويل ، يدركون تماما أن هذه الشريعة حتى فى صيغتها النهائية لم تسجل التقاليد والعادات الشعائرية فحسب ، بل انها أكدتها ، وهى تلك العادات والتقاليد التى يعد كثير منها ، بل أكثرها أهمية ، أقدم بدون شك من العصر الذى اتخذت فيه أسفار موسى الخميس شكلها النهائى ، أى فى القرن الخامس قبل الميلاد • ومما يؤكد ببساطة هذه النتيجة التى تقرر القدم البالغ لعادات بنى اسرائيل الشعائرية الرئيسية مقارنة هذه العادات بعادات غيرهم من الشعوب • فمن شأن هذه المقارنة أن تكشف أن ما تتضمنه العادات العبرية من آثار بدائية ، بل همجية ، ليس بالقليل • ولا يمكن أن تكون هذه الآثار قد انطبعت فى الشريعة الموسويه عندما ظهرت فى صيغتها القانونية لأول مرة ، بل لا بد أنها ارتبطت بها منذ عصور قديمة ، ربما ترجع الى فجر تاريخ الجنس البشرى • وسوف نشير الى بعض هذه الآثار فى خاتمة بحثنا • ومن الممكن للباحث بطبيعة الحال أن يضاعف هذه الآثار التى سوف نعددها ، فعادة الختان وعادة اقامة بعض الشعائر التى تختص بالاعتقاد فى نجاسة المرأة وكذلك عادة استخدام كبش الفداء ، كل هذه العادات لها ما ينظرها فى عادات القبائل البدائية التى ما تزال تعيش فى كثير من بقاع العالم •

وما ذكرته يعد كافيا لازالة الخطأ فيما يدعيه نقاد الكتاب المقدس ببساطة من وجود أصل متأخر لكل القوانين التى تتضمنها الشريعة

العبرية ، وذلك عندما أرجعوا الصيغة النهائية للقانون العبرى المقنن الى عصر متأخر • وربما كان الأفضل كذلك قبل أن نتعمق بحثنا حول الشريعة العبرية ، أن نصحح خطأ آخر من الممكن أن يبرز بين تلك الآراء النقدية • ذلك أنه لا يعنى بحال من الأحوال فقدان الدليل فى قليل أو كثير أن ما يسمى بالشريعة الموسوميه فى أسفار موسى الخمسة قد نشأت عن موسى ، ان واضع هذه الشريعة لم يكن سوى شخص أسطورى مصدره الخلق الشعبى والخيال الكهنوتى ، وأن هذه الشخصية قد اخترعت لتفسر أصل قوام الأمة اليهودية الدينى والدنيوى معا • فمثل هذا الاستدلال يخالف الحقيقة ، ومن شأنه أن يحدث نوعا من التحريف لا بالنسبة للدليل المدقق الذى ينصف حقيقة موسى التاريخية فحسب ، وانما بالنسبة لقوانين الاحتمال بوجه عام ، اذ نادرا ما تحدث الحركات الوطنية والدينية الكبيرة الا بدافع قوة عظماء الرجال ، أو أنها لا تحدث على الاطلاق الا بتأثيرهم • فالربط بين وجود بنى اسرائيل واليهودية وموسى ، يساوى تماما الربط بين أصل البوذية وبوذا ، كما أنه يساوى تماما الربط بين المسيحية والمسيح ، وبين الاسلام ومحمد • حقا ان هناك نزوعا فى بعض الاتجاهات فى عصرنا الحاضر لادعاء أن التاريخ قد صنعته دوافع جمعية عمياء لم تكن فى حاجة الى توجيه العقول غير العادية والهامها ؛ ولكن هذا الفرض الذى يترتب على الاعتقاد الخاطىء الضار فى المساواة الطبيعية بين الناس ؛ أو يدعم به ، يناقض ما تعلمناه من التاريخ بقدر ما يناقض التجارب الانسانية • فالجماعة الشعبية تحتاج الى قائد ، وبدون هذا القائد تنزع هذه الجماعة الى التخريب ، فى الوقت الذى لا تملك فيه سوى مقدرة ضئيلة على البناء ، وقد لا تمتلكها على الاطلاق • وبدون أفكار الرجال العظام وكلماتهم وأفعالهم وتأثيرهم فيمن حولهم ، ما كانت أمة عظيمة قد بنيت ، وما كان لأمة عظيمة أن تبنى • وقد كان موسى نموذجا للرجل العظيم ، وهو يعد بحق مؤسس أمة بنى اسرائيل • ولو أننا جردنا تاريخ حياته من الملامح المعجزة التى تتجمع دائما حول ذكرى الأبطال الشعبيين ، كما تتجمع الطحالب

والحشائش تجمعا طبيعيا حول الأحجار ، فاننا نجد أن ما روى عنه فى التاريخ العبرى المبكر صحيح فى أصله فيما يبدو • فقد تمكن موسى من استجماع قوى الاسرائيليين ضد المصريين الذين اضطهدوهم ، وقادهم الى القفار حيث حياة الحرية ، وبذلك صنع منهم أمة ، وطبع نظمهم الدينية والدنيوية بطابع من عبقريته البارزة ثم مات ، بعد أن قادهم الى مواآب وهو على مرأى من أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه •

ويميز النقاد فى مجموعة القوانين المعتقدة التى تكون الجزء الأكبر من أسفار موسى الخمسة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل • وهذه المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخها وطابعها • وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتاب العهد ، وقانون سفر التثنية وقانون السفر الكهنوتى • واذا ألقى القارىء نظرة سريعة على هذه المصادر فربما ساعده ذلك على تفهم مكانة كل مصدر منها فى تاريخ التشريع العبرى ، وذلك فى نطاق ما أكده النقاد من خلال فحصهم لها • وقد كثرت الآراء التى أثيرت حول النتائج ــ التى توصل اليها النقاد كما أنها تعد بالغة فى التعقيد بحيث يصعب علينا أن نسردها فى هذا المجال • ومن ثم فان القارىء الذى يرغب فى التعرف على هذه الآراء ، عليه أن يرجع الى الأعمال الكثيرة التى تتعلق بهذا الموضوع ، ويسهل عليه الحصول حيث يجد تلك الآراء مدونة تدوينا كاملا •

ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمسة بما يسمى كتاب العهد ، وهو الذى يتضمن سفر الخروج ، من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرون آية ٣٣ • وقد سمى هذا القانون بالتشريع الأول • وهو يتصل كل الاتصال بسفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون فى آية ١١ الى ٢٧ ، وهو ما يسمى فى بعض الأحيان بكتاب العهد الصغير • وقد أدمج كتاب العهد فى المصدر الألوهى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى شمال فلسطين فى مطلع

القرن الثامن الميلادى على الأكثر • أما كتاب العهد الصغير فيحتوى على المصـــدر اليهوى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى أرض الميعاد فى عصر مبكر عن كتـــابة المصدر الألوهى ، أى أنه كتب فى القـــرن التاسع قبل الميلاد • ولكن القوانين فى حد ذاتها كانت تعيش فيمـــا يبدو بوصفها قانونا أو مجموعة منفصلة قبل أن تتجمع فى هذه المصادر بزمن طويل • بل إنه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبـــل تقننها كانت تنتشر بوصفها نظما عادية • وربما كان يرجع الكثير منها الى عهد بالغ فى القدم • ويصور كتاب العهد فى العموم الحياة فى عهد الملوك والقضاة الأول • أما المجتمع الذى يصور فى هذا التشريع ، فهو مجتمع ذو بنية بسيطة ، فالحياة فيه تعتمد أساسا على الزراعة ، كمـــا أن مصدر الثروة فيه هى المنتجات الحيوانية والزراعية • أما أسس القانون المدنى والجنائى ، فهى تلك التى مازال عرب الصحراء يتبعونها حتى اليوم ، وهى تشتمل على قانون الأخذ بالثأر وقانون التعويض المـــالى • فالقانون يعاقب القاتل بالأخذ بالثأر منه • أما المتهم البرىء فيبحث عن ملجأ له فى معبد الرب • وتعد السرقة والاساءة للوالدين وممارسة السحر من بين الجرائم التى يعاقب عليها القانون • فاذا ارتكب الشخص اساءة من نوع آخر ، فإما أن يعين نفسه فيها أو يرفع شـــكواه الى المكان المقدس • فاذا أحس الشخص بظلم يقـــع عليه ، فانه يأخذ لنفسه بالثأر وفقا لهذا القانون • وهو نفس قانون « العين بالعين » الذى مازال سائدا بين العرب ، كما أنه كان القانون السائد بين الكنعانيين • فاذا شاء الشخص أن يثأر لنفسه وفقا لهذا القانون ، فانه يعتمد فى ذلك على نفسه •

أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقاد فى أســـفار موسى الخمسة فهى تلك التى يشتمل عليها سفر التثنية • ويحتـــوى هذا السفر على الجزء الأكبر من سفر تثنية الاشتراع فى الصـــورة التى عليها الآن ، فيما عدا المقدمة التاريخية والفصـــول الختامية • ويتفق النقاد المحدثون فى العموم ، فيما يبدو ، على أن سفر التثنية

هو « كتاب القانون » الذى عثر عليه فى معبد أورشـليم عام ٦٢١ ق • م • ، وهو الكتاب الذى اتخذه الملك يوشيا أساسا لاصـلاحه الدينى • وأهم الملامح الأساسية لهذا الاصلاح الدينى هو أولا ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها أو « الأماكن العالية » التى كانت تنتشر فى ربوع البلاد ، وثانيا تركيز عبادة « يهوه » الشـعائرية فى معبـد أورشليم وحده • وقد أكدت أسفار موسى الخمسة هذين الأساسين تأكيدا قويا • ويبدو أن الملك المصلح قد استمد من تعاليم هذا السفر مبادئه التى وضعها موضع التنفيذ ، كما استلهم منه الهدف الدينى المفعم بالحماس الذى شد أزره وبعث فى نفسه الحيوية فى سـبيل تحقيق هذا العمل المضنى • ومن السـهل ارجاع تأثر الملك المصلح بتعاليم هذا السفر فى عمق الى تلك الوعود المباركة التى وعد بهـا كاتب السفر من يطيع القانون على سبيل الجزاء وتلك اللعنات التى توعد بها كل من يخالفه •

ومن ثم فان الاصلاح الذى أعلنه « يوشيا » ، كان ذا أثر بالـغ الغاية ، لا من ناحية المبادىء التى فرضها فحسب ولكن من ناحية كيفية نشر هذه المبادىء كذلك • فقد كانت هذه هى المرة الأولى فيما نعـلم فى تاريخ بنى اسرائيل التى نشر فيها بنفوذ الحكومة ، قانون مكتوب بوصفه قانون الحياة الأسمى للأمة كلها • أما قبل ذلك فقد كان القانون عرفا وليس دستورا كما كان منتشرا فى معظمه بين الناس بوصفه مجرد عادات يستجيب اليها كل فرد بدافع قوتها وحسب اختلاف وجهات النظر الشعبية ، وبدافع قوة العادة التى يمكن الاهتداء فى تفسيرها من خلال التقاليد الموروثة إن لم يكن هـذا التفسـير قـد ضاع فى ظلام العصور القديمة • حقا ان بعض هذه العادات قد دون فى شكل مجموعة من القوانين الموجزة التى يحتوى كتاب العهـد على جزء منها على الأقل فيما نعلم • ولكنه لا يبدو أن هـذه القـوانين كانت تقدس تقديسا رسميا ، بل كانت مجرد كتب صغيرة توجد فى نطاق الملكية الخاصة • أما المصادر الحقيقية للقوانين فكانت تتمثل فيما يبدو ، فى هؤلاء الكهنة الذين كانوا يعيشون فى الأماكن المحلية المقدسة،

هؤلاء الذين نقلوا من جيل الى جيل تلك النظم الطقوسية والدينيه التى تكاد ترتبط بها القوانين الأخلاقية كل الارتباط فى المجتمع البدائى • فعندما كان الشك يساور الناس فى عادة من العادات ، أو عندما كانوا يتنازعون حول شىء قانونى ، كانوا يلتمسون مشورة الكهنة الذيـــن كانوا يصورن أحكامهم فى كفاءة دون كفاءة القضاة العاديين ، وان كانوا ينطقون بها على لسان الرب الذى كانوا يستخيرونه ويفسرون ارادته بالقرعة أو عن طريق وسائل أخرى من وسائل النبوءة • وهذه القرارات الشفاهية التى كان يصدرها الكهنة كانت تمثل القانون • وقد كانت هى « التوراة » فى مغزاها الحقيقى ســواء من النــاحية التوجيهية أو التعليمية ، وذلك قبل أن تســتخدم كلمة « التوراة » بمعناها الضيق لتدل فى بادىء الأمر على القانون بصفة عامة ، ثــم على القانون المدون فى أسفار موسى الخمسة بصفة خاصة • على أن التوراة لم تكن فى مغزاها الأصلى ، توجيهيا كان أو تعليميا ، قاصرة على تعاليم الكهنة ، بل كانت تتضمن فضـــلا عن ذلك تلك التعاليم والتحذيرات التى نطق بها الأنبياء بدافع اعتقادهم هم وسامعيهم فى قدسيتها • ومن ثم فقد كانت هناك توراة تنسب للأنبياء ، وأخرى تنسب للكهنة وكلاهما اشتركا منذ بادىء الأمر ولعصور طويلة بعد ذلك ، فى كونهما تعاليم شفاهية غير مدونة •

ولا يعد ظهور مجموعة قوانين سفر التثنية فى صيغتها المــكتوبه حلقة فى تاريخ الشعب العبرى فحسب ، ولكنه يعد حلقة فى تاريـــخ الانسانية جمعاء • ذلك أن هذه القوانين المكتوبة تعد الخطوة الأولى فى سبيل تدعيم الكتابة المقدسة ، وبالتالى كانت الخطــوة الأولى فى احلال الكلمة المكتوبة ، بوصفها النظام الأعلى الثابت للسوك الانسانى . محل الكلمة المنطوقة • وقد كان من جراء اتمام هذه العملية عن طريق أكمال الشريعة فى القرون التالية ، أن وضع الفكر الانسانى فى أغلال لم يستطع العالم الغربى أن يتخلص منها كلية منذ ذلك الحين • فقد كانت الكلمة المنطوقة من قبل حرة وبالتالى كان التفكير حرا ، حيث ان

الكلام لم يكن سوى أفكار فى شـكل أصوات وحروف منطوقة • وكذلك كان الأنبياء يتمتعون بحرية كاملة فى الفكر والكلام لأن أفكارهم وكلماتهم كانت تستلهم من وحى الاله ، فيما كان يعتقده الناس • بل ان الكهنة كانوا أبعد ما يكونون التصاقا بالتراث • وعلى الرغم من أن الرب لم يكن يتحدث بألسنتهم ، الا أنهم هيئوا لأنفسهم ، بدون شك ، مجالا واسعا فى تشغيل الجهاز النبوئى مستخدمين فى ذلك طريقة القرعة ، أو أية وسيلة أخرى يمكن أن يتعطف بها الرب ويوضح رغبته للمستعلمين المتلهفين • فلما خضعت النبوءات للكتابة أصبحت ثابتة ومعادة على نمط واحد ، أى أنها تحولت من مرحلة الانسياب الى الجمود ، ثم الى مرحلة التبلور بكل ما يتميز به هذا التبلور من ثبات ودوام • ذلك أن الحرف الميت حل محل الكلمة النامية الحية ، كما أن الكتابة جردت النبى بل والكاهن من خصائصهما حيث أن وظائف الكهنة لم تكن قربانية بل نبوئية • ومن ثم فقد أصبح بنو اسرائيل هم « شعب الكتاب » • أما الحكم والمعارف فلم تعد تستمد من الملاحظة المستقلة ، ولا عن طريق التأمل الحر فى الانسان والطبيعة ، وانما أصبحت تستمد من الشروح المضافة الى الوثيقة المدونة • ولما أفسح المؤلف المجال للشارح ، كرست الموهبة الوطنية التى كانت سببا فى نشأة الكتاب المقدس ، جهودها ، فى كتابة التلمود •

واذا كان فى وسعنا أن نؤكد بثقة كبيرة ، التاريخ الذى نشرت فيه شريعة سفر التثنية ، فانه ليس فى وسعنا أن نحدد تاريخ تأليفها • وقد اكتشفت هذه الشريعة وذاعت فى السنة الثامنة عشرة من حكم يوشيا (٦٢١ ق • م) ، ولا بد أنها كانت قد كتبت اما فى الفترة السابقة على حكمه ، أو أنها ألفت فى حكم خليفته « منسى » ، ذلك لأن الشواهد التى تتضمنها هذه الشريعة تؤكد أن تأليفها لا يمكن ان يكون أكثر قدما من هذا التاريخ ، وأنه من المؤكد أنها قد ألفت فى القرن السابع ق • م • وفى العموم فان أكثر الفروض احتمالا تشير الى أن سفر التثنية قد كتب فى عهد الملك « منسى » ، وأنه قد احتفظ

بها فى أمان بعيدا عن الأعين بأمر من هذا الملك الشرير ، حتى قــدر لها أن تخرج الى الوجود فى أثناء عملية ترميم المعبد المقدس الذى قام به « يوشيا » الورع . حقا ان الشــك قد ساور بعض الباحثين فى بعض الأحيان فى أن هذا السفر قد لفقه كهنة المعبدالذين‌سعوا فى احتيال بالغ فى خداع الملك الطيب فى أنه عمل بالغ فى القدم . ولكن هذا الشك ربما بدا اجحافه وعنفه لأى فرد ينظر بعين الحق الى الاستعداد البالغ الذى هيأه التشريع الجديد لاستقبال الحــكام من خــدمة الدين فى أورشليم الذين سحبت الدولة اعترافها بهم ، وحرمتهم الكنيسة مــن أوقافهم وأصبحوا لذلك مشردين بلا مأوى ، ولم يكن أمامهم سوى أن يرحلوا الى العاصمة لكى يعيشوا فى مستوى أقرانهم الحضريين ، ويتمتعوا بكل ما لمنصب الكهنة من تقدير مادى ومعنوى . ولن نكون مبالغين فى حكمنا على رجــال الدين الذين كانوا فى أورشــليم ، اذا افترضا أنهم تمسكوا بالنظام القديم ، وأنهم لم يبدوا استعدادهم لفتح اذرعهم وجعبتهم لاخوانهم المحتاجين الوافدين عليهن من البلاد الا تحت ضغط القانون الصارم .

ومهما يكن جهلنا بمؤلف سفر التثنية ، فليس هناك مجال للشــك فى أنه كان مصلحا نزيها ، مدفوعا بدافع الحب الصادق لبلده ، ورغبة مخلصة فى الاصلاح الدينى والأخلاقى الخالص ، ذلك الاصلاح الذى كانت تتهدده الاعتقادات الخرافية والاسراف الشهوانى اللذين اتخذ الناس من الأماكن المقدسة المحلية مجالا لممارستها . وسواء كان هذا المؤلف كاهنا أم نبيا ، فانه من الصعب علينا أن نقرر ذلك ، لأن سفر التثنية يخلطبوضوح بين المسائل الكهنوتية أو الشرعية بوجه عام ، بروح النبوة . وربما بدا من قبيل التأكيد أنه كتبه بدافع التأثير الملهم بكبار أنبياء القرن الثامن وهم عاموس وهوشع وأشعياء . ولمــا كان المؤلف اصطنع وجهة نظرهم فى اســتعلاء القانون الأخلاقى فــوق القانون الشعائرى ، فقد قدم نظاما للتشريع أقامه على مبادىء دينية وأخلاقية وعلى التقوى والانسانية وعلى الحب المتبــادل بين الرب

وشعبه وبين الناس بعضهم بعضا • وقد كان من الطبيعى ، لكى يقنع سامعيه وقراءه بهذه المبادىء ، أن يستغرق فى الانفعال الجاد بل الدفاع الشجوى الذى هو أقرب الى حيوية الخطيب وحماسه منه الى هدوء رجل القانون وصرامته • فالتأثير الذى يتركه على القارىء الحديث ، هو تأثير الواعظ الذى ينساب فى مجرى الخطابة المتقدة أمام جمهور ساه يحتشد فى ممرات مدوية فى كنيسة واسعة الأرجاء • بل اننا نكاد نرى عينيه المضطرمتين وملامحه المتلهفة التى تلاحق نبرات صوته الجمهورى ، وهو يتردد تحت السقف المقبى ويدوى فى آذان المستمعين بانفعالات مختلفة تتراوح بين التأكيد المطمئن والأمل ، والحزن المؤثر والتوبة ، والفزع المسيطر واليأس • حتى اذا وصل الى النغمة العالية من التحذير المفزع والوعيد بغضب الرب البالغ ، وأتى الى الحديث عن الاثم والمعصية ، خفت صوته حتى يتلاشى نهائيا فى السكون • وليس فى العهد القديم منافس يقف مع هذه الخطيب على قدم المساواة ، كما لاحظ هذا بحق أحد النقاد المرموقين فى حسن ختام خطبته الذى عبر عنه بقوة انفعالية ثابتة •

وعلى الرغم من أن الاصلاح الذى كان يهدف اليه مؤلف سفر التثنية كان ينبع بدون شك من دوافع مخلصة وحماس بالغ فى تنفيذه ، فانه يحق لدارس فلسفة الأديان ، اذا ارتكز على وجهة نظر نظرية ، أن يعبر عن شكه فيما اذا كان تركيز العبادة فى مكان مقدس واحد كان يشير الى الرجعية لا التقدمية فى الدين • فاذا ارتكز فى شكه على وجهة نظر عملية ، فانه يحق له كذلك أن يعبر عن شكه فيما اذا كان هذا الاصلاح قد لازمه نوع من الاحساس بعدم الارتياح الذى اهتزت معه كفة مزاياه • ففكرة أن الرب لا يعبد عبادة حقيقية الا فى أورشليم ، تبدو من الناحية النظرية فكرة ساذجة ، بل هراء بالنسبة للعقول الحديثة التى ارتبطت بفكرة ان الله يعيش فى كل زمان ومكان ، ومن ثم يتسنى لعباده أن يعبدوه فى أى مكان وزمان • حقا ان الفكرة المجردة فى أن الرب موجود فى كل مكان من الأفضل أن يعبر عنها فى

عبادة الأماكن المقدسة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، أكثر من أن يعبر من خلال تقديسه فى مكان مقدس واحد يشيد فى العاصمة . وأما من الناحية العملية فان الدين القديم قبل فترة الاصلاح ، كان يتمتع بميزات واضحة تفوق ميزات الدين الجديد . فالرب فى ظل النظام القديم ، كان يسكن عند عتبة دار كل رجل ، اذا أمكننا أن نقول ذلك . ومن ثم فان العابد كان يلجأ اليه فى كل حالة يعانى فيها من شك أو متاعب أو أحزان أو آلام . اما فى ظل النظام الجديد فلم يكن يتيسر له هذا الأمر . فلكى يصل الفلاح الى معبد أورشليم ، كان يتحتم عليه فى كثير من الأحوال أن يتحمل مشقة السفر الطويل ، وهو نادرا ما كان يفعل هذا لانشغاله الدائم بعمله فى مزرعته الصغيرة . وليس عجيبا بعد ذلك أن يتنهد فى بعض الأحيان بعد أن فرض عليه النظام الجديد ، شوقا الى الناموس القديم . وليس غريبا أنه كان يعد تحطيم أماكنه المقدسة تدنيسا لها ، تماما كما قد يبدو للشعوب القديمة عندما كانت تحطم الأشجار العتيقة مثل أشجار الدردار والسدر « التى كانت تنام فى ظلها المقدس » . فاذا كان يمكن لنا أن نتصور مدى افتقاد شعبنا البسيط الساذج فى حزن لمرأى البرج الرمادى الذى ألفوا رؤيته ، أو مرأى ذلك الصرح الذى يبرز بين الأشجار أو يطل من فوق التل ، اذا ما اختفى أمامهم ، فاننا يمكننا كذلك أن نتصور كيف كان المزارعون العبريون يصغون دون جدوى ، لصوت أجراس يوم السبت ، وهى تدق عبر الحقول وتدعوهم لاقامة الصلاة فى بيت العبادة الذى كثيرا ما اجتمعوا فيه هم وأجدادهم لعبادة رب الجميع . انه يحق لنا أن نتصور أن المزارع العبرى لم يكن يختلف أساسا عن احساس مزارعينا ، عندما هب عليه الاصلاح الدينى كالاعصار ، مبتدئا من أطراف البلد . وربما كان قد أبصر بقلب مثقل محطمى التماثيل الدينية وهم يهوون بفؤوسهم عليها هدما وتخريبا . فهناك عند قمة التل وفى ظل شجرة البلوط ذات الأوراق — الكثيفة المنتشرة ، كان يقدم هو وآباؤه من قبل ، العام تلو العام ، بشائر المحصول الناضج ،

وبشائر عناقيد العنب الأرجوانية • وكم رأى بعينه الدخان الأزرق المتصاعد من الضحية فى الهواء الساكن فوق الأشجار • وكم تصور أن الرب يسكن غير بعيد عنه ، ربما فى صدع سحابة بعيدة هناك تنفذ فيها أشعة الشمس فى بهاء يغلفه الضباب ؛ وربما كان موجودا هنا أو هناك على مقربة منه يستنشق رائحة الشواء الطيب ؛ فيباركه هو وثروته لأنه قدم له الضحية • أما بعد الاصلاح فقد أصبح يرى قمم التلال عارية ومنعزلة ، كما لم يعد يرى الأشجار القديمة التى طالما نشرت ظلالها فوق هذه التلال • وبالمثل لم يعد هناك أثر للعامود الرمادى القديم الذى طالما صب عليه قربان الزيت وأصبح مجرد قطع متناثرة من الأحجار • وهنا بدا له أن الرب قد هجره الى العاصمة ؛ ومن ثم فانه يتحتم عليه ان يرحل وراءه أينما وجده • وربما كانت الرحلة اليه طويلة ومضنية ، بحيث لم يكن يتسنى لرجل الأقاليم أن يتحملها الا فى ظروف نادرة • فقد كان يدلف فوق التل وفى الوادى الصغير حاملا معه قربانه حتى يصل الى أورشليم ، حيث يشق طريقه خلال شوارعها المزدحمة ويدفع بنفسه وسط ضجيجها المختلط • وهناك ينتظم مع كبشه فى صف طويل من المتعبدين الذين التهبت أقدامهم من السير وكسا تراب الرحلة ملابسهم ؛ بينما يأخذ الكاهن الجزار الذى شمر عن اكمامه فى ذبح الكباش الواقفة أمامه ، كل فى دوره • حتى اذا أتى دور ذبح كبشه ، فينساب دمه المتدفق الى بحر الدماء الذى يغطى فناء المكان المقدس • ومهما قيل له بأن هذا المكان المقدس أفضل من مكانه القديم ، ومهما تصور أن الرب نفسه يسكن فى هذه الأبنية الجليلة والأفنية الفسيحة لكى يشاهد هذه الدماء المتدفقة ؛ ولكى يستمع الى غناء كورس المعبد ، فان أفكاره كانت تعود به الى الوراء مصحوبة بما يشبه الحسرة على سكون قمم الجبال وظلال الأشجار العتيقة ، والمنظر الذى كان يشرف على الطبيعة الآمنة • ومع ذلك لابد أن يكون هؤلاء الكهنة أكثر منه حكمة ؛ ولابد أن يكون ما حدث قد تم بارادة الرب • هذه الأفكار الساذجة هى التى ربما كانت تساور رجل الضواحى البسيط عند حجته الأولى لأورشليم بعد

اتمام الاصلاح الدينى • وربما لم يكن بعض سكان الضواحى قد رأى بهاء المدينة الكبيرة وفسادها السياسى الا لأول مرة ، لأننا نفتــرض أن مزارعى أرض الميعاد كانوا ملازمين لريفهم فى هذه الأيـــام ملازمة المزارعين الانجليز للاحياء البعيدة عن العاصمة • بل ربما عاش الكثير منهم ومات ، دون أن يبعد مرة واحدة عدة أميال ، عن قريته الأصلية •

ولكن فترة الاصلاح التى عاشتها مملكة يهوذا لم تدم طويلا ، اذ لم يكد يمر جيل واحد بعد وضع يوشيا للاصلاح الدينى والأخلاقى ، حتى كانت الجيوش البابلية قد زحفت الى أورشليم واستولت على المدينة وحملت معها الملك وزهرات شبابه الى الأسر • وبهــذا كانت الأسباب التى دعت الى الاصلاح هى بعينها التى قضت عليه فى مهده ، ذلك لأننا لا نشك فى أن الخوف المتزايد من الغزو الأجنبى ، كان هو أحد الحوافز التى أيقظت الضمير اليهودى وشــدت سواعد خــير رجالهم لكى ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، والا استولى البابليون على المملكة الجنوبية ، فتلاقى نفس المصير الذى لاقته المملكة الشمالية، عندما استولى عليها الأشوريون قبل ذلك بقرن من الزمان • ولكــن السحب كانت قد أخذت فى الارتفاع تدريجيا من الشرق وغطت كل سماء أرض الميعاد • وكان الملك الورع ووزراؤه يعمــلون ، وشــبح العاصفة يتهددهم ، ورعودها يطن فى آذانهم ، بقصد اتمام الاصلاح الدينى الذى كانوا يأملون به أن يبعدوا به شبح الكارثة التى تلوح أمامهم • ذلك أنهم كانوا قد عزوا هذا الخطر الوطنى الى آثام قومهم التى تمثلت فى الاعتقاد الأعمى فى القوى الخارقة ، ذلك الاعتقاد الذى كان سر قوة الســلوك الاسرائيلى ، بل سر ضعفهم أمام العالم ، ومن ثم فقد تصور هؤلاء المصلحون أنه من الممكن وقف غزو الجيــوش الفاتحة عن طريق القضاء على العبادة الوثنية وعن طــريق انشــاء نظام أفضل لشعائر العبادة • ويبدو أنهم لم يطرأ ببالهم قط ، عندما تهدد الخطر استقلالهم السياسى ، أن يعمدوا الى استخدام الأسلحة المــادية التى يمكن أن يلجأ اليها بالفطرة فى مثل هذه الظروف الخطيرة،

من هم أقل منهم تدينا ، فبنــاء الحصون وتقوية أسوار أورشــليم ، وتمرين الرجال وتسليحهم ، والبحث عن عون أصدقائهم من الأجانب ، كل هذه الأمور التى تمليها الفطرة السليمة على العقل الوثنى ، لم تكن تبدو لليهودى ، سوى خيانة ليهوه الذى يستطيع وحده أن ينقذ شعبه من أعدائه • حقا لقد كان العبريون القدماء لا ينظرون الى مجريات الأمور الطبيعية فى حوادث التاريخ ، الا كما ينظر الى سقوط الأمطار وهبوب الرياح وتغيرات الفصول • وحسبه أن يتلمس فى هذه الحوادث بصمات الرب كما يتلمسها فى أحوال الطبيعة • وهذا القبول الهادىء لتفسير كل الأمور كليا من خلال وساطة القوى الخارقة ، كان عقبــة كئودا فى سبيل الوصول الى الاتفاق الهادىء فى حجرة المداولات فيما يتعلق بالأمور السياسية ، تماما كما يمكن أن يكون عقبة فى طــريق الفحص العلمى الهادىء للأحوال الطبيعية •

على أن ثقة اليهودى لم تهتز على الاطلاق فى التفسير الدينى للتاريخ ، عندما فشل يوشيا فى اصلاحه الدينى الذى كان يهدف من ورائه تجنب الكارثة الوطنية • بل ان ثقتهم فى أهمية الطقوس الدينية وفى الشعائر ، بوصفها الأساس الأول للرخاء الوطنى بصرف النظر عما اعترى هذه الثقة من ضعف نتيجة انهيار الاصلاح والمملكة معا ، قد أكدتها الكارثة فيما يتراءى لنا تماما • فبدلا من أن يثور الشــك فى نفوسهم ازاء هذه الحكمة المتقنة للمعايير الدينية التى كانوا قد تبنوها ، فقد انتهوا الى أن ما حــدث كان نتيجة عدم تنفيذهم تلك المعايير كما ينبغى • ومن ثم فانهم ما كادوا يستقرون فى أسرهم فى بابل ، حتى طالبوا أنفسهم بنظام أكثر دقة فى تأدية الشعائر الدينية التى كانوا يأملون عن طريقها أن يكتسبوا محبــة الرب ، فيخرجهم من منفاهم ويعيدهم الى أرضهم • وقد وضــع حزقيــال التخطيط الأول للنظام الجديد فى منفاه عند نهر خيبر • ولابد أن حزقيال الذى كان كاهنــا بقدر ما كان نبيا ، كان على علم بشعائر الأماكن المقدسة الأولى • ومما لاشك فيه كذلك أن النظام الذى اقترحه ليكون برنامجا مثاليا للاصلاح

الدينى فى المستقبل ، كان يرتكز على خبرته السابقة ٠ ولهذا فقد كان هذا النظام يشتمل على ما هو جديد بقدر ما كان يشتمل على كثير من الشعائر القديمة ؛ فقد طالب بمزيد من الشعائر المقدسة البسيطة ، ومزيد من التضحية الخاشعة ، ومزيد من الفصل بين خدمة الدين وجمهور المؤمنين ، ومزيد من العزل التام بين المعبد وما يحيط به وبين اتصال الوثنيين به ٠ وقد كان التعارض بين حزقيال الذى عاش بعد فترة السبى البابلى وبين الأنبياء الكبار الذين عاشوا قبل هذا السبى ٠ شاذا ، بينما نجد السالفين قد ركزوا اهتمامهم حول تعليم الفضيلة الأخلاقية ، وراعوا الأفكار الطقوسية والشعائرية بوصفها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع الانسان أن يكسب بها رضا الرب ، نجد أن حزقيال قد عكس العلاقة بين هذين الأمرين ، فلم يكن لديه الكثير ليقوله عن المثل الأخلاقية ، بينما كان عنده الشىء الكثير ليقوله عن الشعائر ٠ وقد طور المفكرون وكتاب المدرسة الكهنوتية البرنامج الذى نشره حزقيال فى السنوات الأولى من السبى واستمر تطوره حتى بعد النكسة بأكثر من قرن من الزمان ، عندما جعل منه عزرا فى أورشليم عام ٤٤٤ ق٠م٠ النظام المتفتح للقانون اللاوى ٠ والوثيقة التى تحتوى على ثمرة هذا العمل والفكر هى القانون الكهنوتى الذى يكون اطار أسفار موسى الخمسة ٠ ومع ظهور هذا القانون تبدأ الفترة اليهودية ؛ كما تم عن طريقه تحول بنى اسرائيل من أمة الى مؤسسة دينية ٠ وهذا القانون الكهنوتى الذى دون على الحجر المائل فى واجهة معبد أورشليم ؛ يكون الجزء الثالث والأخير من مجموعات القوانين التى ميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة ٠ ومن أهم الآراء التى أعلنها النقاد المحدثون فيما يتعلق بالعهد القديم ، هو تأخر ظهور هذا القانون ٠

الفصل الثانى

لا تطبخ الجــدى فى لبن أمــه

من الطبيعى أن يفاجأ القــارىء عندما يجد بين وصــايا الرب المقدسة التى جهر بها للاسرائيليين القدماء ، الوصية الثالثة « لا تطبخ جديا بلبن أمه » • ولن تقل دهشة القارىء عندما يدرس بعناية فقرة من الفقرات الثلاث التى دونت فيها هــذه الوصية ، بل ان دهشته تبلغ عند ذاك ذروتها • ذلك أنه يبدو أن نص هذه الفقرة يشير ، كما سبق أن ذكر ذلك بعض النقاد المرموقين ، وهم جوته ومن سبقه ، أن هــذه الوصية كانت فى الحقيقة احدى الوصايا العشر الرئيســية • وهــذه الفقرة تقع فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • فهناك فى هذا الاصحاح حكاية تشير الى أن الرب قد أوحى الى موسى مرة أخرى بالوصــايا العشر • بعــد أن حطم موسى الألواح الحجرية الأولى التى كانت قد كتبت عليها الوصايا لأول مرة ، وذلك عندما ثار على قومه بسبب عبادتهم للأوثان • ومن ثم فان الوصايا التى تقــدم فى هــذا الاصحاح هى نسخة ثانية من الوصايا العشر الأولى • ومما يؤيد هذا القــول وييعــده عن كل شك تلك الآيات التى ترد قبــل وبعــد تقديم الوصايا • ويبــدأ هذا الاصحاح على النحو التالى : « ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين • فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما » • (ســفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون الآية الأولى) • ثم يتبع هذا حكاية مقابلة الرب لموسى فوق جبل سيناء واملائه موسى الوصايا العشر مرة أخرى • حتى اذا أتينا الى قرب نهاية الاصحاح فاننا نقرأ : « وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات ، لأننى بحسب هذه الكلمات

قطعت عهدا معك ومع اسرائيل • وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء • فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشرة » • (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ٢٧ ــ ٢٩) • وقد لا يتطرق الينا شك بعد ذلك فى أن كاتب هذا الاصحاح يقصد بالكلمات العشر ، وصايا موسى العشر ••

وهنا تبرز لنا مشكلة وهى أن الوصايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج ، وهى تلك الوصايا التى نقرؤها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية • وفضلا عن ذلك فأن الوصايا المدونة فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج التى هى موضوع بحثنا ، لم تدون على نحو ما دونت به الوصايا الأولى من ايجاز ودقة . بحيث أنه يمكن التمييز بين الروايتين تمييزا تاما • على أن مشكلة التمييز بين الروايتين لا تتضاءل بل هى بالأحرى تتزايد عندما نجد أن « كتاب العهد » الذى يعرفه النقاد المحدثون بوصفه أقدم مجموعة من القوانين التى تشتمل عليها أسفار موسى الخمسة ، يشتمل على رواية مزدوجة لهذه الوصايا • وبينما يضيف كتاب العهد صعوبة أخرى فى سبيل ازالة الابهام عن هذه الوصايا ، فان اشتماله على الرواية المزدوجة يقدم فى الوقت نفسه دليلا جديدا على أصالة الرواية القديمة للوصايا العشر التى تتضمن الوصية المعنية وهى : « لا تطبخ جديا بلبن أمه » •• ولا يختلف النقاد حول الرواية القديمة للوصايا العشر من حيث الكم ، ولكنهم يختلفون فحسب فى توضيح وصية أو وصيتين من تلك الوصايا كما يختلفون فى ترتيب الوصايا الأخرى • وفيما يلى عدد الوصايا التى قدمها ك • بودى فى كتابه (تاريخ الأدب العبرى) ، التى يعتمد فى سردها على نص الوصايا العشر كما وردت فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • ولكنه بالنسبة لوصية واحدة فضل رواية الوصايا العشر التى وردت فى كتاب العهد •

١ ــ لا تعبد من دونى الها آخر •

٢ ـــ لا تصنع لنفسك آلة مسبوكة •

٣ ـــ لى كل فاتح رحم •

٤ ـــ ستة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه •

٥ ـــ اجعل عيد الخبز غير المختمر فى الشهر الذى ينضج فيه الـــذرة •

٦ ـــ وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيـــد الجمع فى آخر السنة •

٧ ـــ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى •

٨ ـــ ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح •

٩ ـــ أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك •

١٠ ـــ لا تطبخ جديا بلبن أمـــه •

وتتفق الوصايا التى عرضها « فيلهاوزن » من حيث العـــدد مع هذه الوصايا فيما عدا أنه حذف وصية : « ســـتة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه » ، كما أنه عرض وصية « وتصنع لنفســـك عيد جمع الحنطة فى آخر السنة » بوصفها وصية منفصلة عن الجزء الأول المرتبط بهـــا •

ويتفق الأستاذ ر •هـ كينيت بوجه عام مع « بودى » و «فيلهاوزن» فى عدد هذه الوصايا ، ولكنه يختلف عن « بودى » فى اعتبار وصية عيد حصاد الحنطة بوصفها وصية مستقلة ، كما يختلف عن « فيلهاوزن » فى صيغة وصية يوم الراحة الاسبوعى • كما يختلف معهما فى اعتماده على رواية الفصل الرابع والثلاثين من سفر الخروج • وها هى ذى نص الوصايا العشر عند « كينيت » ، وما نضعه بين الأقواس يعد زائدا عن رواية سفر الخروج •

١ ـــ (أنا يهوه الهك) • لا يكن لك آلهة أخرى أمامى •

٢ ـــ تحفظ عيد الفطير • سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك •

٣ ــ لى كل فاتح رحم وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بكرا من ثور وشاة .

٤ ــ يوم السبت لى . ستة أيام تعمل وأما اليوم السابع فتستريح فيه .

٥ ــ وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة . (أية ٢٢) .

٦ ــ وعيد الجمع (تحتفل به) فى آخر السنة .

٧ ــ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى . ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح .

٨ ــ (ولا يبيت شحم عيدى الى الغد) « سفر الخروج اصحاح ٢٣ آية ٢٥ » « سفر الخروج ــ الاصحاح ٣٤ الجزء الثانى من آية ٢٥ . ويقتصر ذلك على عيد الفصح » ..

٩ ــ أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك (آية ٢٦) .

١٠ ــ لا تطبخ جديا بلبن أمه (آية ٢٦) .

وأيا كانت الرواية التى نفضلها بين روايات الوصايا العشر ، فان اختلافها جميعا عن الرواية المعروفة لدينا ، يثير دهشتنا . ففى الروايات التى أشرنا اليها تختفى القيم الأخلاقية كلية . اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر ، أى أنها وصايا دينية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فهى تتعرض فى دقة وبطريقة تثير الشك الى صغائر الأمور . أما عن العلاقة بين الانسان والرب وبين الانسان والانسان ، فليس هناك شىء يذكر بهذا الصدد . وعلاقة الرب بالانسان وفقا لهذه الوصايا أشبه بعلاقة السيد الاقطاعى بأتباعه ، فهو يفرض عليهم أن يؤدوا له حقه ، بله أتفه مظاهر هذا الحق . ولكنه لا يهتم بعد ذلك بعلاقة هؤلاء الأتباع بعضهم ببعض ، طالما أن هذه العلاقة ليست لها صلة بالجزية التى يدفعونها له . وكم تختلف هذه الوصايا مع الوصايا الست التى تقع فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى : « أكرم أباك وأمك . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك

شهادة زور • لا تشته بيت قريبك • لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك » •

فاذا تساءلنا ، أى هاتين الروايتين المختلفتين للوصايا العشر أكثر قدما ، فان الاجابة عن ذلك لن تكون مثيرة للشكوك • وكم يقر بالنا اذا افترضنا ، معارضين فى ذلك الروايات المتشابهة ، أن الوصايا الأخلاقية التى كانت فى الأصل تكون جزءا من القانون القديم ، قد حذفت منه لتفسح المجال لوصايا تختص بمجرد اشارات الى شعائر بعينها • أليس من المحتمل على سبيل المثال أن وصية « لا تسرق » قد حذفت من الرواية الأصلية وحلت محلها وصية : « ولا يبيت شحم عيدى الى الغد » ؟ وان وصية « لا تقتل » قد استبدلت بوصية « لا تطبخ جديا بلبن أمه » ؟ • ولكن مجرى التاريخ البشرى جميعه لا يدعم هذا الفرض ، فكل الاحتمالات تؤيد ان الرواية الأخلاقية للوصايا العشر ، اذا تسنى لنا أن نسميها كذلك ، حيث أن الاتجاه الأخلاقى يكون أهم عناصرها ، كانت متأخرة عن الرواية الشعائرية • ذلك أن الاتجاه العام لتيار المدنية ، كان ولا يزال ، بل ونأمل أن يظل هكذا فى المستقبل ، ينحو نحو تأكيد سمو القيم الأخلاقية فوق الشعائر • وقد كان هذا التأكيد الدافع الأول لتعاليم الأنبياء العبريين أولا ، وتعاليم المسيح ثانيا • ومن ثم فاننا لن نكون مخطئين اذا افترضنا أن التغير الذى اعترى الوصايا العشر من الاتجاه الشعائرى الى الاتجاه الأخلاقى ، قد تم بتأثير أحد الأنبياء •

على أنه اذا جاز لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون لهذا اللفرض فيما اعتقد ، ان الرواية الشعائرية للوصايا العشر هى أقدم الروايتين . فمازال علينا أن نتساءل : لماذا كانت وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه من الأهمية بمكان ، بحيث أنها احتلت مكانا فى قانون العبريين البدائى ، بينما استبعدت عن هذا القانون تلك الوصايا التى تبدو لنا أكثر أهمية بحق ، مثل تحريم القتل والسرقة والزنا ؟ « فهذه الوصية شكلت صعوبة فى طريق نقاد العهد القديم ، كما أنهم تعرضوا لتفسيرها

من وجوه نظر متعددة • فقد قيل أنه قلما يوجد فى التشريع الشعائرى بأسره قانون أصر عليه الاله أو أساء الناس استعماله كل الاساءة مثل قانون تحريم طبخ الجدى بلبن أمه • فمثل هذه الوصية التى حرص الرب أو المشرع بوجه عام على أن يطبعها فى أذهان الناس ، لهى جديرة منا بدراسة متأنية • واذا كان الشارحون قد فشلوا حتى اليـــوم فى تأكيد مغزاها الحقيقى ، فربما كان هذا يرجع الى وجهـــة النظر التى استخدموها فى تفســيرها ، أو كان يرجـــع الى نقص المعلومات التى اعتمدوا عليها ، أكثر مما يرجع الى صعوبة حقيقية فى المشكلة نفسها • فالافتراض الذى لقى رواجا فى كل من العصور القديمة والحديثة والذى مؤداه أن هـــذه الوصية هى احـــدى الوصايا التى تدل على الانسانية المهذبة ، يتعارض مع فحوى الوصايا بوصفها كـــلا ، وهى تلك التى تتضمن هذه الوصية • فالمشرع الذى لم يلتفت قط الى مشاعر الناس ، كما يبدو هذا من سائر الوصـــايا العشر البدائية ، لا يبدو أنه قد التفت لمشاعر الأمومة عند النعاج ، ومن ثم فانه أولى لنا أن نتبنى وجهة نظر أخرى ، وهى أن هذا التحريم كان موجها ضـــد بعض الشـــعائر السحرية أو الوثنية التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها • وقد ساند هذا الرأى بعض الدارســـين المرموقين ابتداء من « مايمونديس الى « و • روبرتسون سميث » ، بوصفه أكثر الآراء احتمالا ، وأن كان هـــذا الرأى لا يرتكز على أى شاهد ايجـــابى ، حيث انه لا يمكن الاعتماد فى كثير أو قليل على عبارة ينقصـــها الدليل تروى عن كاتب مجهول عاش فى القرون الوسطى ، ويعد أحد أفراد الطائفة القرائية (١)• وقد ذكر هذا الكاتب « انه كان من عادة الوثنين القدماء ، عندما كانوا يجمعون المحصول ، أن يطهوا الجدى فى لبن أمه ، ثم يرشون اللبن على الأشجار والحدائق وبساتين الفاكهة ، بوصفه طقسا سحريا ، معتقدين بذلك أن هذه الأشجار تمنحهم مزيدا من الثمار فى العـــام التالى » • وربما كان هـــذا التفسير سليما طالما كان يشير الى تصور خرافى يعـــد

(١) مذهب يهودى نشأ فى بغداد فى القرن الثامن الهجرى قوامه رفض التمسك بسنة التلمود . (المترجمة) .

أساس هذا التحريم • ومن ثم يجــدر بنا أن نتساءل عما اذا كان من الممكن اكتشاف ما يشبه هذا التحريم مدعما بالأسباب ، بين القبــائل الرعوية البدائية التى تعيش فى العصر الحاضر ، ذلك لأنه يبدو من ظاهر هذا التحريم أنه ينتشر بين الشعوب التى تعتمد فى حياتها على تربية قطعان المــاشية أكثر من تلك التى تعتمد على الزراعة •

ويبدو أن القبائل الرعوية التى تسكن فى أفريقيا تنفر فى العصر الحاضر من غلى ألبان ماشيتهم • وهذا النفور متمكن من نفوس الناس وينتشر فى الوقت نفسه على نطاق واسع • وهو يرتكز على الاعتقاد فى أن البقرة التى يغلى لبنها تكف عن ادرار اللبن بعد ذلك • بل وربما مات الحيوان نتيجة الحاق الأرواح الشريرة الأذى به ، اذا لم يتجنب هذا التحريم • كما أننـــا نرى أنه على الرغم من أن لبن الأبقار والزبد الذى يصنع من هذا اللبن يعدان الغذاء الرئيسى للمسلمين الذين يسكنون « سيراليون » وما جاورها من الأماكن ، فانهم يمتنعون عن غلى اللبن خوفا من أن يجف لبن البقرة التى أخــذ منها هــذا اللبن • بل انهم لا يبيعون اللبن لمن تعود أن يغليه • وتتبع قبيلة « بالوم » مثل هــذا التحريم فيما يختص بالبرتقال ، فهم لا يبيعــون البرتقال لمن يرمى قشره فى النار « لئلا يتسبب هذا فى اســقاط الثمار التى لم تنضــج بعد » • وهنا يبدو أن تحريم غلى اللبن عند الشعوب السالفة الذكر يرتكز على أساس السحر التعاطفى ، فهم يفترضون أن اللبن ، حتى بعد أن يحلب من البقرة يظل مرتبطا بالحيوان بعلاقة حية ، بحيث أن البقرة صاحبة اللبن تضار ، بدافع التعاطف بمثل الاساءة التى أسىء بها لبنها • ومعنى هذا أن غلى لبن البقرة فى الوعاء يساوى تماما غليه فى ضرعها ، وهذا من شأنه يجعل لبن البقرة يجف فى مكانه الطبيعى • وهذا التفسير تؤكده معتقدات المسلمين والمراكشيين ، وان كان هــذا التحريم يقتصر على وقت محدد ، هو الوقت الذى يعقب ولادة العجل مباشرة • فهم يعتقدون أن « اللبن اذا غلى فوق النار فى تلك الفترة ، فان البقرة تصاب بمرض فى ضرعها ؛ أو أنها تكف عن ادرار اللبن أو أن

نسبة الدسم تقل فى لبنها • فاذا حدث أن سال اللبن الذى حلب من البقرة لأول مرة فى النار ، فانه من المحتمل أن يموت العجل أو تموت البقرة • وعند قبيلة « آيت ورياغل » يجب ألا يغلى لبن البقرة الذى حلب منها بعد ثلاثة أيام من ولادتها العجل ، ويظل غليه محرما حتى ينقضى أربعون يوما على الولادة • فاذا غلى اللبن فى هذه الفترة فانه من المحتمل أن تموت البقرة ، أو أن لبنها لا يعطى سوى كمية قليلة من الزبد » • وهنا نلاحظ أن تحريم غلى اللبن ليس تحريما كليا ، وانما يقتصر على فترة معينة بعد ولادة العجل ، يعتقد أن البقرة تكون فى أثنائها على علاقة تعاطفية مع عجلها ومع لبنها أكثر من أى وقت آخر • فالتحديد هنا اذن له مغزاه وهو يؤكد تفسير منع غلى اللبن بصفة عامة ، أكثر مما يضعفه • ويتأكد التفسير أكثر من ذلك من خلال الاعتقاد الخرافى فيما تصاب به الأبقار اذا ما سقط لبنها فى النار • واذا حدث هذا فى الأوقات العادية فانه يعتقد أن البقرة أو لبنها يصاب بضرر • أما اذا حدث هذا بعد ولادة العجل بزمن قصير ، عندما يكون اللبن متجبنا كثيفا ، فانه من المتوقع ، وفقا للعقيدة ، أن يموت العجل أو تموت البقرة • ومن الواضح أن الفكرة فى ذلك أنه اذا سال لبن الحلبة الأولى بعد الولادة على النار فى مثل هذا الوقت الحرج فانه يماثل تماما سقوط البقرة نفسها أو عجلها فى النار وموت أحدهما حرقا • وهكذا تتمثل علاقة المشاركة بين البقرة وعجلها من ناحية ، وبينها وبين لبنها من ناحية أخرى • ويتضح مجرى هذا التفكير من خلال خرافة مشابهة لهذا تنتشر بين قبيلة « نورادجا » التى تسكن « سيليبيس الوسطى » فهذه القبيلة تستخدم نبيذ البلح على نطاق واسع ، كما تستخدم رواسب الخمر خميرة فى طهى الخبز • ولكن بعض بطون القبائل ترفض استخدام هذه الرواسب من أجل السبب الذى يرفض الأوربيون استخدامها وهو الخوف من أن النخلة التى يستخلص النبيذ من ثمارها ، لا تقدم مزيدا من عصارات النبيذ ، ومن الممكن أن تجف اذا ما تعرضت رواسب الخمر للنار فى أثناء عملية طهيه • ويشبه تحريم تعريض رواسب الخمر للنار حتى لا تجف النخلة التى يستخلص من ثمارها

الخمر ، يشـــبه تماما تحريم تعريض القبائل الأفريقية اللبن لحرارة النار ، حتى لا يجف ضرع البقرة التى يحلب منها اللبن أو حتى لاتتعرض فى الحقيقة للموت • كما يشبه هذا أيضا معارضة قبيلة « بولوم » لرمى قشر البرتقال فى النار لئـــلا تحترق شجرة البرتقال التى جمـــع منها هذا البرتقال مشاركة للقشر المحترق فتسقط ثمارها أثر ذلك •

وعادة تحريم غلى اللبن خوفا من اصابة الابقار بأذى ، قاســـم مشترك بين القبائل الرعوية التى تسكن فى وسط افريقيا وشرقهـــا • فعندما قام « سبيك » و « جرانت » برحلتهما الشهيرة من زنجبار الى منابع نهر النيل ، مرا باقليم « أوكونى » الذى يقع جنوب بحـــيرة فيكتوريا نيانزا • وكان ملك البلد يعيش فى قرية « نونذا » ويملك ثلاثمائة بقرة حلوب • ومع ذلك فقد كانت مشكلة شراء اللبن تواجهنا كل يوم • وقد كنا نضطر الى غلى لبننا حتى نحتفظ به سليما خوفا من اليوم التالى • وقد كان الاهالى يعارضوننا فى غلى اللبن وفقـــا لعاداتهم ؛ ويقولون : « ان البقر سيكف عن ادرار اللبن ان فعلتم هذا » • وبالمثل يخبرنا « سبيك » أنه قد تسلم قدرا من اللبن من بعض نساء « داهوما » (باهيما) اللاتى قام بعلاجهن من رمد فى عيونهن • وهو يضيف الى ذلك قائلا : « على اننى لم أكن أتمكن من غلى اللبن الا سرا والا كفت الابقار عن ادرار اللبن بدعوى أن غلى اللبن يعـــد رقية أو سحرا تمرض بتأثيره الابقار ويجف لبنها » • وغلى اللبن عند قبيلة ماساى التى تسكن فى شرق افريقيا التى تعيش أو كانت تعيش على الرعى وعلى منتجات قطعان ماشيتها أو أبقارها « يعد اســـاءة شائنة يمكن أن تكون سببا كافيا لاعمال القتل فى قافلة من القوافل • ذلك أنهم يعتقدون أن غلى اللبن يتسبب فى أن تكف الأبقـــار عـــن ادراره » وبالمثل كانت تعتقد قبيلة « باجندا » التى تســـكن وســـط افريقيا أن غلى اللبن يجعل البقرة تكف عن ادراره • ولم يكن يسمح لأى فرد أن يغلى اللبن الا فى حالة واحدة هى : « عندما تحلب البقرة لأول مرة بعد أن تضع وليدها • يسلم اللبن للصبى المكلف بالرعى الذى

يحمله بدوره الى أى مكان فى المرعى حيث يطلع رفاقه من الرعاة على البقرة وعجلها • ثم يأخذ الصبى فى غلى اللبن ببطء حتى يجمد • وعندئذ يأخذ هو ورفاقه فى أكله » • وهذه القاعدة واستثناؤها تنتشر بين قبيلة « باهيما » أو « بانيبانكولى » ، وهى قبيلة رعوية تسكن وسط افريقيا • « فاللبن لاينبغى أن يغلى حيث أن الغلى يضر بصحة الابقار ، وربما تسبب فى موت بعضها ولكنه يغلى لاستخدامه فى بعض الشعائر ، وذلك عندما يسقط الحبل السرى عند الوليد • ثم يصبح لبن البقرة الذى كان مقدسا حتى ذلك الوقت عاديا • فاللبن الذى يحلب من البقرة التى وضعت وليدها حديثا يعد محرما لعدة أيام حتى يسقط الحبل السرى عن العجل الوليد • وفى هذه الاثناء يرحل فرد من أفراد الاسرة ليشرب اللبن • ولكن عليه أن يراعى ألا يلمس لبنا يحلب من بقرة أخرى » • وكذلك « يعد اللبن الذى يحلب من البقرة فى الاسبوع الاول بعد ولادتها محرما » عند قبيلة « ثونجا » وهى قبيلة من قبائل البانتو وتسكن فى جنوب شرق افريقيا • فلا ينبغى أن يمزج بأى لبن يحلب من أبقار أخرى حيث ان الحبل السرى لم يكن قد سقط عن العجل الوليد بعد • ومع ذلك فمن الممكن أن يغلى اللبن وأن يشربه الأطفال ، حيث ان الأطفال يخرجون عن مجال التحريم • وبعد ذلك لا يغلى اللبن على الاطلاق ، لا لأن هناك شيئا محرما يخشونه ولكن لأنه ليس مألوفا • ولم يقدم الاهالى تفسيرا واضحا لمحرمات اللبن • ومن المحتمل أن قبيلة « ثونجا » قد نسيت الاسباب الرئيسية لهذه القيود المألوفة فى استعمال اللبن ، حيث ان بلادهم تقع فى الاقليم التابع للبرتغال ، وبالقرب من خليج « ديلاجوا » ، وكانت منذ قرون على صلة بالأوربيين • ومن الطبيعى بناء على ذلك أنها تعيش فى أحوال أقل بدائية من سائر قبائل وسط أفريقيا التى كانت تعيش حتى منتصف القرن التاسع عشر منعزلة كلية عن التأثير الاوربى • ولكننا عندما نقارن عادات هذه القبائل الرعوية التى احتفظت بأفكارها البدائية وعاداتها مع تغيير بسيط فيها نتيجة انعزالها ، بعادات قبيلة ثونجا ، فاننا ننتهى فى شىء من التأكيد أن

الدافع الرئيسى وراء تحريم غلى اللبن عند قبيلة « ثونجا » كذلك ، هو الخـوف من ايذاء الابقار التى تسـتمد منها اللبن عن طريق المشاركة السحرية •

فاذا رجعنا الى قبيلة « باهيما » التى تسكن فى وسط افريقيا ، فاننا نجدهم يصرحون بقولهم : « ان الاوربى اذا مزج اللبن بالشاى ، فانه يتسبب فى قتل البقرة التى تدر اللبن » • وتنتشر بين هذه القبيلة أفـكار غريبة تتصل بدرايتهم بالأبقار وبطريقة التصرف فى ألبانها • فمن المـألوف أن نسمع عن رجل يملك قطعيا من المـاشية أخبارا أسطورية مثل « رفض بقرة ما لادرار اللبن نتيجة غلى لبنها » • وهذه العبارة الاخيرة من المحتمل أنها تشـير الى سوء فهم طفيف عن فكرة المواطنين حول هذا الموضوع • ولكننا نستطيع عن طريق المقارنة أن نحكم بأن هذه القبيلة تعتقد فى أن البقرة لن تكف عن ادرار اللبن ، لا لأنها لن ترضخ لذلك ، وانما لعدم قدرتها على ذلك ، حيث أن ضرعها يجف بتأثير الحرارة التى غلى فوقها لبنها • وكذلك نجد عند قبيـلة « بانيورو » وهى قبيلة رعوية أخرى تسكن وسط افريقيا أن القاعدة هى : « ألا يغلى اللبن ولا يدفأ على النار خوفا من الاذى الذى يصيب القطيع على هذا النحو » • ومثل هذا يحدث بين قبيلة « صومالى » التى تسكن فى شرق افريقيا ، « اذ يحرم غلى لبن الجمال خوفا مـن اصابتها بالسحر • وتنتشر عادة تحريم غلى اللبن من أجل هذا السبب فيمـا يبدو ، بين الجاليين الجنوبيين الذين يسـكنون المنطقة نفسها ، كما تنتشر بين قبيلة « نادى » التى تسـكن شرق افريقيا ، وقبائل « الواجوجو » و « الواميجى » و « الواهومبا » التى كانـت تعيش حتى زمن متأخر فى شرق افريقيا الالمـانى • ومن بين القبائل التى تسكن السودان المصرى البريطانى ، يرفض الهاونداوانيون غلى اللبن وتشاركهم قبيلتا أرتيجا وأشرف هذا الفعل » وقد قيل ان مثل هـذا الاعتقاد فى العلاقة التعاطفية بين « البقرة ولبنها الذى تدره يعيش بين بعض الشعوب المتأخرة فى أوربا حتى العصر الحاضر • فعندما

يغلى « الاستونيون » اللبن الذى تدره البقرة لأول مرة بعد الولادة يوضع خاتم من الفضة أو يوضع صحن أسفل وعاء الحلب قبل أن يجلب فيه اللبن • وهم يفعلون هذا « حتى يظل ضرع البقرة سليما ولا يفسد لبنها » • ويعتقد هؤلاء كذلك « أن اللبن اذا سال على النار فى أثناء غليه فان ضرع البقرة يصاب بمرض » • وبالمثل يعتقد مزارعو بلغاريا أن « اللبن إذا سال على النار فى أثناء غليه ، قلت كمية اللبن التى تدرها البقرة ، وربما كفت البقرة عن ادراره كلية » • وعلى الرغم من أنه ليس هناك اعتراض على غلى اللبن فى هذه الأحوال الأخيرة ، الا أن هذه الشعوب تتشاءم من تدفق اللبن فوق النار واحتراقه ، لأن اللبن المحترق ، وفقا لاعتقادهم ، يصيب البقرة صاحبة هذا اللبن بأذى ، اما عن طريق ايذاء ضرعها أو يحول بينها وبين ادرار اللبن • ولقد سبق أن رأينا أن الموريين فى مراكش يصطنعون بدقة مثل هذه الأفكار • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن هذا التصور الخرافى قد انتقل من مراكش الى بلغاريا ثم الى استونيا أو انتقل على العكس من استونيا الى بلغاريا ثم الى مراكش ، اذ أنه من الممكن أن تنشأ مثل هذه التصورات مستقلة فى هذه البلاد الثلاث فى شكل هذه القوانين الأولية نتيجة ترابط الافكار التى عرفتها العقول الانسانية جمعاء ، وهى تلك الافكار التى ترتكز على أساس الاعتقاد فى سحر المشاركة • وربما فسر مجرى هذا التفكير عقيدة الاسكيمو فى تحريم غلى الماء داخل البيت فى أثناء القيام بصيد سمك السلامون « لأن ذلك يضر بعملية الصيد » • ونحن نعتقد ، وان كنا لا نستند الى دليل فى هذا الاعتقاد ، أن غلى الماء فى البيت فى مثل هذا الوقت ، يؤذى السمك أو يفزعه وهو فى النهر ، وذلك عن طريق المشاركة ، وبذلك يضار صيدهم له •

وربما كان الدافع وراء الوصية العبرية القديمة وهى « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » ، هو الخوف المماثل لخوف تلك الشعوب من التأثير على موردهم الرئيسى فى الرزق • وقد نفهم من هذه الوصية أن

هناك اعتراضا ، وفقا لهذه النظرية ، حول طبخ الجدى فى أى لبن كان ، لأن أى نعجة يغلى لبنها تصاب بأذى سواء كانت هى أم جدى بعينه أم غريبة عنه • وربما كان السبب فى الحرص على ذكر لبن الام بصفة خاصة هو أن لبن الام بطبيعة الحال كان أكثر استخداما لهذا الغرض ، أو لأن ايذاء النعجة فى مثل هذه الحالة يكون مؤكدا أكثــر منه فى أية حالة أخرى • فالنعجة فى هذه الحالة تكون على صلة تعاطفية مزدوجة مع جديها ولبنها اللذين أخرجتهما من أحشائها ، ومن ثم تكون معرضة للخطر المضاعف الذى تتعرض له النعجة الغريبة عن هــذا الجدى ، فاما أن يجف لبنها أو تموت بتأثير الحرارة والغلى •

على أننا يمكننا أن نتســاءل : « اذا كان التحريم يختص ببساطة بغلى اللبن فلماذا يذكر الجدى بصــفة خاصة فى هذه الوصية ؟ » ربما أمدتنا عادة قبيــلة « باجندا » ، ولا نقول نظريتهم ، بالجواب عــن هذا السؤال • فمن المعروف أن اللحم المطهى فى اللبن عند هذه القبيلة يعــد من الأطعمة المفضلة عندهم ، وأن الأولاد الأشقياء والأشخاص الآخرين الذين لا يلزمون أنفسهم بالمبادىء الخلقية ، ولا يفكرون الا فى متعهم الشخصية أكثر من التفكير فى ثروتهم الحيوانية ، يكافئــون أنفسهم على اثمهم ، كلما استطاعوا خلسة أن يفعلوا ذلك غافلين المتاعب التى تصيب الأبقــار والنعــاج المســكينة نتيجــة تجنبهم لهـــذا المحظور • وبناء على ذلك فربما كانت الوصية العبرية « لا تطبــخ الجدى بلبن أمه » موجهة الى مثل هؤلاء الأوغاد الذين كان يلعنهــم الرأى الجماعى لأنهم يوجهون ضربة خطيرة لمصدر غذائهم الرئيسى • ولعل هذا يفسر لنا كيف أن غلى اللبن من وجهة نظر الشعوب البدائية الرعوية يعد جريمة أبشع من جريمة السرقة أو القتل ، لأنه بينما تصيب السرقة أو القتل بعض الأفراد بأذى ، فان غلى اللبن شأنه شأن تسميم الآبار ، يهدد القبيلة كلها ويحرمها من مورد غذائها الرئيسى • ربمــا كان هذا هو الســبب فى أننا لا نجد أثرا فى الرواية الأولى للوصايا العشر العبرية ذكرا للوصيتين التاليتين : « لا تسرق » و « لا تقتل » ، ونجد محلهما وصية « لا تطبخ الجدى فى لبن أمه » ••

ويبدو أن فكرة علاقة المشاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه : تفسر نظما أخرى معينة تنتشر بين القبائل الرعوية . ولم يفسر بعضها التفسير الكافى حتى اليوم • فاللبن هو الغذاء الرئيسى عند قبيلتى « دامارس » و « هيرورو » اللتين تستوطنان جنوب غرب افريقيا • ولكن عند هاتين القبيلتين لا يغسل وعاء اللبن الذى يشربونه منه على الاطلاق ، لأنهم يعتقدون تماما أن البقرة تكف عن ادرار اللبن اذا ما غسل هذا الوعاء • ويبدو أن تفسير هذه العادة هو أن ازالة المادة المتخلفة من اللبن فى الوعاء معناه ازالة البقية الباقية من اللبن من ضرع البقرة • فالقاعدة المتبعة عند قبيلة « ماساى » هى « انه لا ينبغى حلب اللبن الا فى أوعية تصنع لهذا الغرض • ولا تغسل هذه الأوعية بالماء ، بل يكتفى بتنظيفها برماد الخشب للتأكد من نظافتها » ••

وكما ان قبيلة « هيريرو » الرعوية تمتنع عن غسل وعاء اللبن بالماء مراعاة لسلامة أبقارها : كذلك تتجنب قبيلة « باهيما » الرعوية غسل أجسامهم بالماء لهذا السبب نفسه • « فالرجال والنساء على السواء لا يستحمون ، لأن الاستحمام يؤذى قطعان ماشيتهم وفقا لاعتقادهم ، ومن ثم فهم ينظفون أجسامهم بطريقة جافة وذلك عن طريق دهن أجسامهم بالزبد وتدليكها بالتراب الأحمر بدلا من استخدام الماء . ثم يدهنون أجسامهم مرة أخرى بالزبد » • فاستعمال الماء فى الاستحمام « يعرض القطيع بل الأسرة للأذى فيما يقال » ••

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تعتقد أن قطعان ماشيتها تتأثر بفعل المشاركة ، لا عن طريق المادة التى تستخدم فى تنظيف أوعية اللبن فحسب . بل عن طريق المادة التى يصنع منها الوعاء كذلك • فقبيلة « باهيما » تحرم استخدام أى وعاء مصنوع من الحديد فى الحلب، وتستخدم بدلا من ذلك أوعية مصنوعة من الخشب أو قشر القرع العسلى أو الطين • أما الأوعية الأخرى فقد يؤدى استخدامها فى حلب اللبن الى الاضرار بالماشية وقد يتسبب فى مرضها • « ولهذا فان أوعية

اللبن التى تستخدمها قبيلة « بانييورو » تصنع كلها على وجه التقريب من الخشب أو من القرع العسلى ؛ على الرغم من أنه من الممكن العثور على أوعية طينية فى الحظيرة التى يحفظ فيها اللبن » • وبالمثل « كانت كل أوعية اللبن عن وجه التقريب تصنع من الخزف ، والقليل منها كان يصنع من الخشب عند قبيلة « باجندا » ، كما أن الأهالى يرفضـــون استعمال الأوعية المصنوعة من الصفيح أو الحديد لأن استخدامها يؤذى الماشية » • أما عند قبيلة « نانى » ، « فان الوعاء الوحيد الذى يسمح باستخدامه فى الحلب هو الوعاء المصنوع من قشر القرع • فاذا استعمل وعاء آخر فان هذا يعرض القطيع للضرر وفقا لاعتقادهم » • وكثيرا ما تتصور قبيلة « أكيكويو » « أن استخدام وعاء آخر غـير الوعاء المصنوع من قشر القـرع الذى يخالف تلك الأوعية المصـقولة التى يستعملها الأوربيون فى حلب اللبن ، من شأنه أن يؤدى الى جفاف لبن الحيـوان » ••

وقد تبالغ بعض القبائل الرعوية فى التعبير عن اعتقادها فى أن الأبقار على علاقة تعاطفية طبيعية مباشرة مع لبنها حتى بعد أن ينفصل عنها ؛ الى درجة أنها تتجنب مزج اللبن باللحم أو الخضر ، لأن مثل هذا المزج يسىء الى البقرة التى حلب منها اللبن • فقبيلة « ماساى » تحرص كل الحرص على أن تبعد اللبن عن اللحم ؛ لأنه وفقا للتصور العام الذى يسود بينهم ، أن مزج اللبن باللحم يصيب أضرع البقر صاحبة اللبن بالمرض ؛ فتكف بناء على ذلك عن ادرار اللبن • ومن ثم فهم نادرا ما يرضخون لاغراء بيع ألبانهم ، ولا يفعلون ذلك الا فى حذر بالغ ، لئلا يتسبب المشترى فى اصابة أبقارهم بالمرض ، اذا ما مزج لبنهم باللحم • ومن أجل هذا السبب نفسه فانهم يتجنبون الاحتفاظ باللبن فى وعاء سبق أن طهى فيه لحم ؛ كما لا يوضع اللحم فى وعاء يستخدم فى حلب اللبن • ومن أجل هذا فاننا نجدهم يمتلكون مجموعتين مختلفتين من الأوعية تعزل عن بعضها بعضا لهذا السبب • وتتفق قبيلة « باهيما » مع قبيلة « ماساى » فى معتقداتها وممارساتها • فقد شاء ضابط ألمانى كان

يحسكر فى بلادهم ، أن يستبدل بأحد أوعية طهيه وعاء من أوعيتهم التى تستخدم فى حلب اللبن . ولكنهم رفضوا ذلك بدعوى أن اللبن اذا صب فى الوعاء الذى سبق أن طهى فيه اللحم ، ربما تسبب فى موت البقرة صاحبة اللبن .

ولا تحـرص هـــذه القبـائل على ألا تخلط اللبـن فى وعـاء سـبق أن طهـى فيـه اللحـم فحسـب ، بـل تحـرص عـلى ألا تخلطـه كـذلك فى أمعـاء الانسـان ، لأن الخطـر فى هـــذه الحالة يتهدد البقرة كذلك . وكذلك تحرص القبائل الرعوية التى تعيش على ألبان قطعان ماشيتها وعلى لحمها على ألا تأكل اللحم وتشرب اللبن فى آن واحد . وانما هم يفصلون بين شرب اللبن وأكل اللحم أو العكس بفترة زمنية . بل انهم فى بعض الأحيان يأخذون دواء مسهلا لينظف معدتهم من أحد الطعامين حتى يتمكن الانسان من تناول الطعام الآخر . ومثال هذا « أن غذاء قبيلة الماساى يتكون من اللحم واللبن فحسب . وبينما يخصص لبن الأبقار للرجال المحاربين ، تشرب النساء لبن الماعز . ويعد من قبيل الاساءة البالغة أن يشرب الشخص اللبن (الذى لايسمح بغليه) ويأكل اللحم فى آن واحد . ومن ثم فان الماسايين يعيشون عشرة أيام على اللبن وحده ثم يأكلون اللحم وحده عشرة أيام أخرى . وهم يراعون عدم اختلاط الطعامين فى المعدة الى درجة أنهم يتناولون بين الفترتين دواء مسهلا » . وهذه العادة نفسها تفرض على المحاربين ، فهم لا يأكلون سوى اللبن والعسل مدة تتراوح بين اثنى عشر يوما ، ثم لا يأكلون سوى اللحم والعسل مدة أخرى مماثلة . وفى أثناء الفترتين يأخذون مسهلا قويا يتكون من مزيج من الدم واللبن يجعلهم يتقيأون الطعام كما يسبب لهم الاسهال وذلك لكى يتأكدوا من عدم وجود فضلات من الطعام الأول فى أمعائهم . وهكذا نرى مدى حرصهم فى ابعاد اللبن عن الدم واللحم . وقد قيل لنا بصراحة انهم لا يفعلون ذلك مراعاة لصحتهم بل مراعاة لقطعان ماشيتهم ، لأنهم يعتقدون أن لبن الأبقار يقل اذا لم يفعلوا هذا . فاذا شعر فرد من قبيلة « ماساى » على غير العادة برغبة فى أكل اللحم وشرب اللبن فى يوم واحد ، فانه يزج بعود من الحشائش فى حلقه مراعاة

منه فى تجنب الشر ، وبذلك يتقيأ الطعام الأول ويتمكن من أكل الطعام الثانى • وعلى نحو هذا لا تشرب قبيلة واشامبا اللبن وتأكل اللحم فى وجبة واحدة ، اذ أنهم يعتقدون أن هذا يسبب الموت المباشر للبقرة التى أخذ منها اللبن • ومن ثم فانهم لا يرغبون فى بيع اللبن الى الأوربيون خوفا من أن يتسبب المشترى الجاهل أو الطائش فى قتل الحيوان اذا ما اختلط اللبن باللحم فى معدته • وقبيلة باهيما قبيلة رعوية تعيش أساسا على ألبان قطعان ماشيتها • ولكن زعماءها وأثرياءها يخلطون اللحم بوجبة اللبن وإن كانوا « لا يأكلون لحم البقرة وحده أو أى لحم آخر الا فى المساء ؛ ثم يشربون الجعة بعد ذلك • وهم لا يأكلون أى نوع من الخضر مع لحم البقر كما يتجنبون شرب اللبن بعد أكل اللحم لبضع ساعات • وأحيانا يشربون اللبن فى الصباح بعد تناولهم وجبة اللحم فى المساء • ذلك أنهم يعتقدون اعتقادا راسخا أن الأبقار تتعرض للموت اذا ما اختلط اللبن باللحم والخضر فى المعدة » • وبالمثل تمتنع قبيلة « بانيورو » عن شرب اللبن مدة اثنتى عشرة ساعة بعد وجبة اللحم والجعة • وهم يقولون أن هذه الفترة ضرورية ، « لأن تناول الطعام المختلط يتسبب فى اصابة الماشية بالمرض » • « ولا يؤكل اللحم ويشرب اللبن معا » عند قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق أفريقيا البريطانى• فاذا شربوا اللبن فانهم لا يأكلون اللحم طوال أربع وعشرين ساعة • كما انهم يأكلون أولا اللحم المطهى فى الحساء ثم يأكلون بعد ذلك اللحم المشوى ، وبعد ذلك يمتنعون عن شرب اللبن مدة اثنتى عشر ســاعة وبعدها يشربون الماء المذاب فيه الملح • فاذا لم يكن الملح يستخرج من مستنقع مائى متوافر فانهم يشربون الدم بدلا منه • ويشذ الأطفال الصغار عن هذا النظام وبالمثل الأولاد والبنات الذين أجريت لهم عملية الطهارة منذ وقت قريب ، وكذلك النساء اللاتى وضعن أطفالا قبل ذلك بزمن قصير ، كما يشذ عنه الذين يعانون من مرض شديد • فكل هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم « بيتوريك » يسمح لهم بأكل اللحم وشرب اللبن فى آن واحد • أما اذا شذ أحد غير هؤلاء عن هذا النظام ، فانه يجلد فى غير هوادة ولا رحمة » • وبالمثل يحرم شرب اللبن وأكل اللحم فى

آن واحد عند قبيلة «سوك» الرعوية التى تقطن شرق أفريقيا البريطانى. وعلى الرغم من أن الكتاب الذين سجلوا عادات قبيلتى « ناندى » و « سوك » الخاصة بهذا الموضوع لم يشيروا الى سبب هذا التحريم ، الا أن مقارنة عادات هذه القبيلة بعادات القبائل السالفة الذكر ، تتيح لنا أن ندعى فى شىء من الثقة ، أن الدافع وراء تحريم أكل اللحم وشرب اللبن فى آن واحد بين قبيلتى « ناندى » و « سوك » ، هو الخوف من أن اختلاط الطعامين فى معدة الأكل يمكن أن يعرض الأبقار للأذى ، ان لم يكن للخطر .

وما تزال تنتشر مثل هذه العادة التى تدعو الى الفصل بين اللحم واللبن فى المعدة عند الاسرائيليين فى أيامنا هذه ، وان لم تراع مثل هذه الصرامة فى اتباعها . فاليهودى الذى يأكل اللحم أو يشرب حساءه ، لا ينبغى عليه أن يأكل الجبن أو أى شىء آخر من مستخرجات الألبان مدة ساعة بعد أكل اللحم . وهناك أوعية خاصة لكل منهما ، وكل مجموعة من الأوعية تعلم بعلامة خاصة ، ومن ثم فان الوعاء الذى يستخدم فى اللبن لا يستخدم فى طهى اللحم . بل انهم يعزلون السكاكين التى تستخدم فى قطع اللحم عن تلك التى تستخدم فى قطع الجبن أو السمك . وفضلا عن ذلك ، فان اللبن لا يطهى مع اللحم على موقد واحد ولا يوضعان على المائدة فى آن واحد . بل ان غطاء المنضدة يغير عند وضع الطعام الآخر عليها . فاذا كانت الأسرة فقيرة ولا تمتلك سوى غطاء واحد للمنضدة ، فانه ينبغى عليها على الأقل ، أن تغسل هذا الغطاء قبل أن تضع عليه اللبن بعد أن سبق لها أن وضعت عليه اللحم . وهذه الأحكام التى حاكت حولها المهارة الحاخامية تشكيلية من التفريعات الدقيقة ، قد استمدت صراحة من وصية تحريم طبخ الجدى فى لبن أمه . وقد لا يساورنا شك فى ضوء هذه الشواهد التى جمعت فى هذا الفصل فى أن هذه القواعد والوصية المتصلة بها تنتمى مجتمعة حقا الى جزء من الارث المألوف الذى انتقل الى اليهود منذ الزمن الذى كان يعيش فيه أجدادهم حياة الرعى ، ويعتمدون أساسا فى غذائهم على

ألبان مواشيهم ، ومن ثم كانوا يراعون سلامة هذا الغذاء من أن يلحق به أذى ، كما تفعل قبائل أفريقيا الرعوية فى عصرنا هــذا .

على أن اختلاط اللبن باللحم لا يمثل الخطر الوحيد الذى تسـعى قبائل افريقيا الرعوية أن تتجنبه خوفا على قطعان ماشـيتها باتباعها القواعد المذكورة فى نظام الأكل . وانما هم يخشون كذلك من اختلاط اللبن بالخضر ، ومن ثم فهم يتجنبون شرب اللبن وأكل الخضر فى آن واحد ، لأنهم يعتقدون أن المزج بين الطعامين فى المعدة يمكن أن يؤذى القطيع بشكل أو بآخر . فقبيلة « باهيما » الرعوية التى تسـكن فى « أنكولى » « تحرم أكل أنواع مختلفة من الخضر ، مثـل البقـول والفاصوليا والبطاطا ، على أى فرد من أفرادها ، ما لم يقض فترة صوم تبلغ بضع ساعات بعد أكل الخضر ، وقبل تناول اللبن . فاذا دفع الجوع شخصا لأن يأكل الخضر ، فانه يتحتم عليه أن يصوم بعض الوقت بعد أكلها . ويفضل أن يأكل فى هذه الحالة نبات « النب » . ومع ذلك يتحتم عليه أن يصوم مدة تتراوح بين عشر ساعات واثنتى عشرة ساعة قبل أن يشرب اللبن مرة أخرى . فشرب اللبن فى أثناء وجود الخضر فى المعدة يؤذى صحة الأبقار وفقا لاعتقادهم » . ومثل هذا يتبع عنـد قبيلة « بايرو » التى تسكن فى « انكولى » ، « والتى تعتمد فى غذائها على البطاطا والفول السودانى . فهم لا يسمحون بشرب اللبن حيث أنه يؤذى الماشية » وعندما كان « سبيك » يقوم بجولته بين قبيلة « باهيما » أو « واهوما » ، كما يسميها ، لاحظ المشقة التى يعانيها الناس من جراء هذا التشكك . فعلى الرغم من وفرة قطعان الماشية عندهم ، فان الناس لم يقدروا على بيع ألبانهم لنا لأننا كنا نأكل الدجاج ونوعا من البقول يسمى «ماهاراجو» . « فمنذ دخلنا « كاراجو » ، لم نستطيع أن نحصل على قطرة من اللبن لا بطريق ودى ولا بأى ثمن . ولقد رغبت فى أن أتعرف على الدافع وراء اصرار قبيلة واهوما على هذا الفعل ، فعلمت أن هناك خوفا خرافيا يتملكهم من جراء بيع اللبن . فكل من أكل لحم الخنزير أو السمك أو الدجاج أو البقول التى تسمى « ماهاراجو » ، ثم

تذوق بعد ذلك منتجات أبقارهم . فانه يعرضها للخطر » . وقد أجاب ملك البلد على تساؤلات « سبيك » فقال : « ان الفقراء وحدهم هم الذين يعتقدون ذلك . ولما رأى أننا فى حاجة الى اللبن خصص لنا بقرة من أبقاره لكى تمدنا باللبن . وفى قبيلة « بانييورو » . « تحرص الطبقة المتوسطة التى تقتنى الأبقار وتعمل كذلك بالزراعة . كل الحرص فى نظام أكلهم على عدم أكل الخضر وشرب اللبن فى آن واحد . فالذين يشربون اللبن فى الصباح لا يأكلون أى طعام آخر حتى المساء . والذين يشربون اللبن فى المساء ، لا يأكلون أى نوع من الخضر حتى اليوم التالى . وهم يتجنبون أكل البطاطس والبقول بصفة خاصة . وكل من يأكلهما يمتنع عن شرب اللبن مدة يومين . وهم يفعلون هذا لكى يبعدوا اللبن عن اللحم أو الخضر فى المعدة . فالطعام المختلط ، وفقا لاعتقادهم، يصيب قطعان الماشية بالمرض » . ومن ثم فان هـذه القبيلة « لا تقدم اللبن للزائر القريب أثناء زيارته للحظيرة ، لأنه ربما كان قد أكل من قبل بعض أنواع الأطعمة المحرم مزجها باللبن ، فتصاب الماشية بالضرر ، اذا لم يكن هـذا الشخص قد تخلص من بقايا الخضر فى معدته . ولكنهم يعبرون عن كرمهم للزائر بأن يقدموا له طعاما آخر مثل الجعة ولحم البقر ، حتى تكون معدته معدة لشرب اللبن فى صباح اليوم التالى . فاذا لم يكن فى الحظيرة لبن يكفيهم ، فان بعضهم يأكل الخضر فى المساء ويصوم عن شرب اللبن حتى صباح اليوم التالى . فاذا لم تكن هناك خضر ، فانهم يأكلون البطاطا . ومن الضرورى بعد هذا أن يمتنعوا عن شرب اللبن مدة يومين بعد أكل البطاطا حتى تصبح المعدة خالية منها تماما قبل أن يسمح لهم بشرب اللبن » . ويحرم أكل الخضر كلية فى هذه القبيلة على الرعاة لأن تناولهم لها كما يقولون ، يعرض صحة القطيع للخطر أكثر من الأفراد العاديين ، نظرا لاختلاطهم الدائم بالقطيع ، وذلك اذا اختلط طعام باللبن فى معدتهم . ومن ثم كان من الحكمة أن يملى هـذا النظام تحريم أكل الخضر كلية على الرعاة .

وعند قبيلة « باجندا » « لا يسمح لأى شخص أن يأكل البقول

أو يمص قصب السكر أو يشرب الجعة ، أو أن يدخن الدخان الهندى ، ثم يشرب اللبن فى الوقت نفسه . فالشخص الذى يشرب اللبن يصوم عن الطعام عدة ساعات قبل أن يسمح له بأكل الطعام المحرم . ولا يسمح له بشرب اللبن فى نفس المدة بعــد تناوله لهــذه الأطعمة » . والرجل فى قبيلة « سوك » الذى يمضغ الدخن البرى ، يمتنع عن شرب اللبن مدة سبعة أيام . ومما لا شك فيه أن هذا التحريم عند هاتين القبيلتين، وأن لم يقرر هذا صراحة ، سببه التأثير الضار الذى تتعرض له الماشية نتيجة اختلاط الأطعمة فى المعدة . وبالمثل فان قبيلة « ماساوى » التى تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها وتخشى عليها من الضرر ، وتعتقد كل الاعتقاد فى أن الحيوان يصــاب بأذى اذا ما غلى لبنه أو شرب مع اللحم ، تحرم على المحاربين كلية أن يأكلوا الخضر . وأولى للمحارب فى هذه القبيلة أن يموت جوعا من أن يأكل الخضر . بل إن تقديم الخضر له يعد اهانة بالغة له . فاذا نسى المحارب وتذوقه ، فانه يمتهن كل الامتهان ولا تقبل أية امرأة أن تتخذه زوجا لها .

ولا تشجع الشعوب الرعوية التى تعتقد فى أن أكل الخضر يهدد ثروتهم الأولى من حيث انه يقلل مئونتهم من اللبن أو يمنعها عنهــم ، على ممارسة الزراعة . وبناء على ذلك فليس غريبا أن نعــلم « أن الزراعة فى « بونورو » يتجنبها من يشتغل بالرعى . واذا قامت زوجة رجل ينتمى الى بطن من بطون قبيلة تشتغل بالرعى بفلاحة الأرض ، فانها تعرض نفسها للايذاء ، لأنها تعرض القطيع للخطر » . ومــن ثم فان النساء فى البطون الرعوية فى هذا البلد ، « لا تعمل شيئا خلاف القيام بحلب اللبن وغسل أوعية اللبن ، ذلك لأن العمل اليدوى يعــد عملا وضيعا من وجهة نظرهم . كما أن فلاحة الأرض بصفة خاصــة تؤذى قطيعهم » . وحتى عند قبيلة « باجندا » الذين يفلحون أرضهم بجد نظرا لعنايتهم بتربية القطيع ، لا يسمح للمرأة أن تفلح حديقتها فى الأربعة الأيام الأولى بعد ولادة بقرة من أبقار زوجها . وعلى الرغم من أن سبب المنع لم يذكر ، فانه يمكننا فى ضوء الشواهد الســالفة

أن نستخلص أن الدوافع وراء الامتناع عن فلاحة الأرض هو الخوف من أن المـرأة تعرض العجل وأمه للمرض ، بل للموت ، اذا فلحت الأرض فى هذه الأيام .

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تمتنع عن أكل لحـم بعض الحيوانات المتوحشة بناء على سبب ضمنى أو صريح ، هو أنهم اذا أكلوا لحم هذه الحيوانات ، فان مواشيهم تصاب بأذى . ومثال ذلك : « هناك خرافة تنتشر انتشارا قويا بين قبيلة « سوك » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، تتلخص فى أن أكل لحم فى خنزير برى معين يسمى ، « كيينوريني » يترتب عليه أن يجف لبن قطيع الرجل الذى أكل من لحم الخنزير . على أن هذه الخرافة لا تعيش الا بوصفها رواية شعبية فى السهول التى لا تعيش فيها الخنازير » . وتعتقد هذه القبيلة نفسها أنه« اذا أكل رجل غنى سمكا ، فان لبن قطيعه يجف » . وعند قبيلة « ناندى » : « لايجوز أكل لحم حيوانات بعينها ، اذا كان من الممكن الحصول على طعام آخر . وهذه الحيـوانات هى ظبـى المستنقعات وحمار الوحش والفيل ، والكركدن (الخرتيت) والمهـا السنغالى ، والريم الافريقى العادى والأزرق . فاذا أكل أحد أفراد هذه القبيلة لحم أحد هذه الحيوانات ، لا يسمح له أن يشرب اللبن مدة أربعة أشهر على الأقل ، وبعد أن يتناول دواء مسهلا مستخلصا من شجرة « سيجيتيت » ، بعد مزجه بالدم . « ويستثنى من هذه القبيلة عشيرة « كيباسيسو » ، فأفراد هذه العشيرة يطلقون لانفسهم العنان فى شرب اللبن فى اليوم التالى من أكل لحوم هذه الحيوانات الطاردة . ومن بين هذه الحيوانات التى تسمح قبيلة « ناندى » بأكل لحمه فى حدود معينة ، هو الظبى الذى يعد حيوانا نجسا . وهم يطلقون عليه اســم « شيماكيموا » ، ومعناه « الحيوان الذى لا يجوز أن يتحدث عنه » . ومن بين أنواع الطيور البرية التى ينظر اليها نظرتهم الى الظبى ، طائر الدراح . حقا انهم يأكلون لحم هذا الطائر ولكنهم لا يأكلونه بعد شرب اللبن الا بعد مضى عدة شهور . ولم تذكر أسباب

لهذه القيود ، ولكنه يحق لنا ، فى ضوء الشواهد السالفة أن ندعى بشىء من الثقة ، أن الامتناع عن تناول اللبن شهورا عدة بعد أكل هــــذه الحيوانات أو الطيور البرية ، هو الخوف على الأبقار ، اذا ما اختلط لبنها بلحوم هذه الحيوانات والطيور فى معدة الأكل • وربما كــان هذا الخوف نفسه هو الذى يقف وراء انتشار تلك العادة بين قبيــلة « واتاتورو » التى تسكن فى شرق افريقيا • فاذا تناول رجل من هذه القبيلة لحم بقر وحشى معين (يسمى بوفو بلغة السواحلى) فلا يجوز له أن يشرب اللبن فى اليوم نفسه •

وربما كان من الواجب علينا أن نتعمق البحث أكثر من هذا ونتساءل عما اذا كان سبب امتناع بعض القبــائل الرعــوية عن أكل لحــوم الحيوانات الطاردة بصفة عامة أساســه الخوف الخــراف من ايذاء القطيع عندما يختلط اللبن بلحم الحيوانات المتوحشة فى المعدة فى أثناء عملية الهضم • فقبيلة « ماساى » ، على سبيل المثــال ، وهى قبيلة تشتغل أصلا بالرعى فحسب ، وتعيش كلية على لحوم الماشية ودمها وألبانها ، تزدرى ، كما قيل ، أى نوع من لحم الحيوانات الطــاردة كما تزدرى لحم السمك والدجاج • وقد قيل كذلك ان قبيلة ماساى لم تكن تأكل أى نوع من لحوم الحيوانات المتوحشة فى الزمن القديم ، عندما كان جميع أفرادها يمتلكون قطعانا من المــاشية • ولكن بعضهم بدأ يأكل لحم الغزال ، بعد أن فقد ماشيته » • ولمــا كانوا يمتنعون عن أكل لحوم الحيوانات الطاردة ، واقتصروا فى صيدهم على الوحوش أكلة اللحم كتلك التى كانت تفترس ماشيتهم ، فان قطعان الحيوانات المفترسة آكلة العشب أخذت تنتشر انتشارا يستلفت النظر فى ربوع بلاد المــاسايين ، ومن ثم أصبح من المــألوف رؤية البقرة الوحشية وحمار الوحش والغزال وهم يرعون فى أمان بين الماشية بالقرب من حظائر الماسيين ، دون أن تبدى الماشية أى فزع • وعلى الرغم من أن قبيلة المــاساى فى العموم لم تكن تصيد الحيوانات المفترسة أو تأكل لحومها ، فانها كانت تستثنى من هذه القاعدة حيوانين مميزين • وقد

تيل ان « العلند » هو أحد الحيوانات الطاردة القليلة التى يصطادها الماسيون ، فهو يطارد حتى يتعب ثم يطعن بالسهام . ومن الغريب أن قبيلة الماساى تأكل لحمه أيضا لانها تعده نوعا من أنواع البقر .
وأما الحيوان الوحشى الآخر الذى تطارده قبيلة ماساى ويؤكل لحمه فهو الجاموس البرى الذى يبالغون فى تقدير لحمه وجلده معا .
ولكننا علمنا « ان الجاموس لا يعد من الحيوانات الطاردة عند قبيلة ماساى . ومن المحتمل انهم ينظرون الى الجاموس البرى نظرتهم الى العلند ، على أنه نوع من الأبقار . واذا كان الأمر كذلك فان سبب صيدهم الجاموس البرى والعلند والتهام لحومها يكون واحدا ، وهو الاعتقاد فى أن هذه الحيوانات لا تختلف فى جوهرها عن الماشية ومن ثم يعد قتلها وأكل لحمها عملا مشروعا . فالنتيجة العملية ليس حولها أى شك فيما يبدو ، وان كان هذا التصنيف وفقا لعلم الحيوان يدعو الى التساؤل . وقد اصطنعت قبيلة « باهيما » ، وهى قبيلة رعوية أخرى تعيش أساسا على ألبان ماشيتها ، نفس النظام الذى يعتمد على تصنيف مشابه لملكة الحيوان ، فنحن نعلم « أن هذه القبيلة لا تأكل سوى أنواع قليلة من الحيوانات المفترسة ، وهذه الأنواع تتحدد تماما بتلك التى تدخل فى تصنيف الأبقار مثل الجاموس ونوع أو اثنين من أنواع البقر الوحشى ، والظبى والهرتبيس ، فى حين أن لحوم الماعز والشياه والدجاج وكل أنواع السمك يعد ، من ناحية أخرى ، « ضارة ويحرم أكلها على أى فرد من أفراد القبيلة تحريما كليا » .
وربما كان السبب فى هذا هو أن هذه الأنواع من المواشى لا يمكن أن تعد من أنواع الأبقار ، وفقا لأى تفسير متحرر لأجناس البقر .
ولما كانت قبيلة باهيما الرعوية لا تسمح الا بأكل القليل من الحيوانات المتوحشة ، فانها لاتهتم بعملية القنص ، على الرغم من أنها تصطاد الوحوش التى تبحث عن الفريسة متى وجدوها منهكة فى المطاردة .
« أما قنص سائر أنواع الحيوانات المطاردة فهو متروك كلية للعشائر التى تشتغل بالزراعة ، وتحتفظ ببعض كلاب الصيد وتعيش فى غذائها على لحوم هذه الحيوانات » . وبالمثل فان لحوم أكثر الحيوانات

توحشا محرمة على بطون قبيلة « بانييورو » الراعية ، ومن ثم فانه قلما يشترك أفراد هذه البطون فى القنص ، اللهم الا اذا اقتضى الأمر صيد الأسود والنمور التى تبحث عن فريستها بين ماشيتهم « فالقنص اذن يقتصر على الأفراد الذين يشتغلون بالزراعة وهم يقومون بقنص الحيوان حتى يأكلوا لحمه » •

وربما كان السبب فى ازدراء أكل لحوم الحيوانات الطاردة عند القبائل الرعوية التى أشرنا اليها فى الحالات السابقة مصدره الاعتقاد فى أن الأبقار تضار على التو متى امتزج لحم الحيوانات الطاردة بألبانها فى بطون الرجال • ولكى يبعد الخطر عن الماشية فانه أما أن يمتنع الرجال عن أكل لحوم هذه الحيوانات كلية ، أو لا بد لهم ، على أسوأ حال ،أن يقضى الفرد منهم فترة بين أكل هذه اللحوم وشرب اللبن ، بحيث تكون المعدة قد تهيأت لاستقبال طعام جديد بعد أن تكون قد خلت من الطعام الآخر • والاستثناء الشاذ الذى يستلفت النظر من القاعدة العامة ، وهو سماح هذه القبائل لأفرادها بأكل لحوم الحيوانات التى تشبه الأبقار ، يشير الى تشابه مع العادة العبرية القديمة التى تميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة • فهل يمكن أن يكون هذا التمييز بين الحيوانات المتوحشة على أساس النجاسة والطهارة ، قد نشأ فى مرحلة متخلفة للقبائل الرعوية التى ميزت فى عالم الحيوان بين الحيوانات الشبيهة بالماشية المنزلية ، وتلك التى تختلف عنها ، ثم وضعت قانونا ذا أهمية بالغة يرتكز على أساس هذا التصنيف ، وهو أن النوع الأول يباح أكل لحمه والآخر يحرم أكل لحمه ؟ ان القانون الحقيقى الذىيميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة كما يتمثل فى الأسفار الخمسة الأولى معقد كل التعقيد فيما يبدو ، بحيث لا يسمح لنا باللجوء الى هذه الاستنتاج البسيط • ومع ذلك فان الأساس الأول لهذا القانون يعد بقية غريبة لمعتقدات بعض القبائل الافريقية التى تناولناها بالبحث • « هذه هى الحيوانات التى تأكلها : الثور والخروف والنعجة وذكر الأيل والغزال والسرو والنعاج البرية

وبقر الوحش والشمواة وكل حيوان ذى أظلاف مشقوقة ومجتر تأكل لحمه » • فهنا نجد أن اختبار مدى ملاءمة الحيوان لأن يكون طعاما للانسان تعتمد على صلته بالحيوانات المجترة الأليفة • وبناء على هذا الاختبار فان الغزلان والبقر الوحشى تدخل ضمن الحيوانات الصالحة للأكل ، سليم للغاية ، تماما كما رأينا عند قبليتى « ماساى » و « بوهيما » اللتين تسمحان ، بناء على هذا الأساس ، بادخال أنواع متعددة من البقر الوحشى ضمن غذائهما ، وان كان العبريون أكثر حرية فى تصنيف الحيوانات التى يسمح بأكل لحمها من الماسيين • واذا كان هذا التصنيف العبرى قد نشأ أصلا ، فيما يبدو فى ظروف رعوية صرف ، فانه من المحتمل أنهم قد وسعوا نطاقه ليواجه احتياجات الشعب الزراعى وذوقه •

والى هذا الحد أكون قد حاولت أن أقتفى أثر التشابه المحدد بين العادات الافريقية التى تتصل بغلى اللبن ونظام مزجه باللحم ، وفيما يختص بالتمييز بين الحيوانات من ناحية طهارتها ونجاستها وصلاحيتها وعدم صلاحيتها للأكل • واذا كانت هذه الموازنات ترتكز على أساس سليم ، فانها تنحو الى اثبات أن العادات العبرية التى تختص بكل هذه الأمور قد نشأت فى المرحلة الرعوية من مراحل مجتمعهم • ومن ثم ، فانها تؤكد ما ورد فى تراث الاسرائيليين القومى من أن أسلافهم كانوا رعاة بدوا يتجولون بقطعان ماشيتهم وأغنامهم من مرعى الى مرعى طيلة عصور طويلة قبل أن يستقر أحفادهم ، بعد عبور نهر الأردن وهبوطهم من مرتفعات موآب المعشبة ، فى أرض فلسطين الغنية ، ويعيشوا حياة الزراعة المستقرة •

الفصل الثالث

إيذاء الجسم حزنا على الميت

كانت العادة عند الاسرائيليين القدماء أن يظهروا حزنهم على وفاة أصدقائهم عن طريق قطع أجسامهم وقص جزء من شعورهم بحيث تبدو صلعات فوق رءوسهم . وقد ذكر النبى أرمياء متنبئا بالدمار الذى كان من المتوقع أن يحل بأرض الميعاد ، كيف أن الناس سوف يموتون دون أن يجدوا من يقومون بدفنهم أو يؤدون لهم شعائر الحزن المألوفة فقال : « فيموت الكبار والصغار فى هذه الأرض ، لا يدفنون ولا يندبونهم ولا يخمشون أنفسهم ولا يجعلون قرعة من أجلهم » . (ارمياء الاصحاح السادس عشر آية ٦) . ومرة أخرى نقرأ فى سفر ارمياء كيف « أن رجالا أتوا من شكيم ومن شيلو (سلوان) ومن ومن السامرة ،ثمانين رجلا محلوقى اللحى ومشققى الثياب وبيدهم تقدمة ولبان ليدخلوهما الى بيت الرب » (ارماء : الاصحاح الحادى والأربعون آية ٤ ـ ٦) . وذلك بعد أن حمل بختنصر اليهود معه الى الأسر . وقد اصطنع هؤلاء الحجاج الأتقياء كل مظاهر الحزن العميق أسفا على الكارثة الكبرى التى حلت بأرض الميعاد وبأورشليم . وقد ذكر الأنبياء السالفون من بين عادات الحزن المألوفة التى كان يسمح بها الدين ، بل يأمر بها ، عادة قص الشعور الى درجة احداث صلعة فى الرأس ،وان لم يذكروا عادة تجريح الأجسام . فالنبى « عاموس»، وهو أقدم نبى وصلتنا كتاباته ، يعلن على لسان الرب زوال دولة بنى اسرائيل ويقول : « وأحول أعيادكم نوحا وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحا ، وعلى كل رأس قرعة وأجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مرا » . (سفر عاموس ، الاصحاح الثامن آية ١٠) . ومرة أخرى تقرأ فى سفر أشعياء : « ودعا السيد رب الجنود فى ذلك

اليوم الى البكاء والنوح والقرعة والتنطق بالمسح » • وقد تنبأ النبى « مخـا » بالكوارث التى تحل بالمستقبل بالمملكة الجنوبية . وطلب من الناس أن يستعدوا لاستقبال صحتهم فيحلقون رءوسهم كما يفعل المحزونون فقال : « كونى قرعاء وجزى من أجل بنى تنعمك ، وسعى قرعتك كالنسر لأنهم قد انتفوا عنك » • وليس المقصود بالنسر هنـا هو النسر العادى ، كما هو الثابت فى الرواية الانجليزية وانما يقصد به طائر القرنين [1] ؛ الذى لا يكسو الشعر رقبته ورأسه ، ويكسو ما دون ذلك ، وهذا المظهر لا يشاركه فيه النسر العادى • وقد ظل النبى « حزقيال » يكتب فى منفاه حتى بعد أن تحققت هذه النبوءات بغزو البابليين لأرض الميعاد ، وقال : « ويتنطقون بالمسح ويغشـاهم رعب وعلى جميع الوجوه خزى وعلى جميع رءوسهم قرع » (سـفر خزقيال) الاصحاح السابع ، آية ١٨) ••

ويبدو أن عادة تجريح الجسم وحلق جـزء من الشعر علامة على الحزن ، كانت مألوفة لدى اليهـود وجـيرانهم وهم الفلسـطينيون والمؤآبيون • فالنبى أرمياء يقول : « أتى الصلع على غزة • أهلكت أشقلون (عسقلان) مع بقية وطائهم • حتى متى تخمشين نفسك » • (سفر ارمياء • الاصحاح السابع والاربعين آية ٥) • ثم يقول النبى نفسه وهو يتحدث عن دمار خموش وعلى الاحقاء مسوح • على كل سطح موآب وفى شوارعها كلها نوح لانى قد حطمت موآب كاناء لا مسرة به يقول الرب » (سفر أرمياء الاصحاح الثامن والأربعين آية ٣٧ وما بعدها) • وكتب النبى أشعياء عن الموضوع نفسه فقال : « تولول موآب على نبو وعلى ميديا فى كل رأس منها قرعة كل لحية مجزوزة • فى أزقتها يأتزرون بمسح • على سطوحها وفى ساحاتها يولول كل واحد منها سيالا بالبكاء » (سفر أشعياء ، الاصحاح الخامس عشر ، آية ٢ وما بعدها) ••

---

(١) هو النسر الخرافى (المترجمة) .

وعلى الرغم من أن الاسرائيليين ظلوا يمارسون عادات الحــزن هذه زمنا طويلا دون ابداء الاستياء منا ، فإن هذه العادات أصــبح ينظر اليها فيما بعد بوصفها عادات بربرية وثنية • ولهذا فقد حرمت فى الشرائع القانونية التى ألفت قرب نهاية الحكم الملكى اليهودى ، أى فى أثناء الأسر البابلى أو بعده • فنحن نقرأ فى أسفار موسى الخمسة التى ذاعت فى أورشليم عام ٦٢١ ق • م أى قبل الغزو ، الآيات التالية. « أنتم أولاد للرب الهكم • لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعــة بين أعينكم لأجل ميت ، لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختــارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فــوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (ســفر التثنيــة ، الاصــحاح الرابــع عشر الآية الأولى وما بعدها) • فهناك نجد أن تحريم هذه العادة يرتكز على مكانة دينية شاذة احتلها الاسرائيليون بوصفهم شعب يهوه • وقد نصحت هــذه الأمة أن تكف عن التمسك بهذه العادات الغريبة وهى تلك العــادات التى كانت قد انغمست فيها حتى ذلك الوقت دون أن ينسب اليهــا إثم فى ذلك . والتى كانت تنتشر بين الشعوب الوثنية المجاورة لهم حتى ذلك الوقت • ونستطيع أن نحكم ، ما وسعنا ذلك ، على أن هذا التغير قد نشأ نتيجة تطور فى الحس الوجدانى الذى حارب مثل هذه المظاهر الغريبة فى الحزن بوصفها أفعالا ينفر منها الذوق السليم والانسانية معا • ولكن المصلح غلف فكرته كما هــو المــألوف ، فى رداء دينى ، لا بدافع اعتبار سياسى متعمد ، ولكن لمجرد أنه لم يدرك ، اتفاقا مع أفكار عصره ، أية وسيلة أخرى يوافق الناس بناء عليها موافقة كلية على أى سلوك انسانى ، أكثر من الخوف من الرب •

وقد تكرر هذا التحريم نفسه فى التشريع اللاوى الذى ألف فى أثناء فترة السبى أو بعدها • فقد ورد فى هذا التشريع : « لا تقصروا رءوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك ، ولا تجرحوا أجسادكم لميت ، وكتابة وســم لا تجعلوا فيكم • أنا الرب » (سفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر آية ٢٧) •

ولكن يبدو أن المشرع قد تبين أنه ليس من اليسير أن يستأصل بجرة قلم عادات قد تأصلت فى العقول الشعبية ، وطالما نظر اليها الشعب بوصفها عادات لا اثم وراءها ، لأنه ألح فيما بعد ، كما لو كان قد شعر باليأس من أن الناس جميعا سوف يهجرون تلك العادات المتبعة فى ابداء الحزن ، على أن الكهنة على الأقل سوف يتجنبون تلك العادة كلية . فقال : « وقال الرب لموسى كلم الكهنة بنى هرون وقل لهم : لا يتنجس أحد منكم لميت فى قومه الا لأقربائه الأقرب اليه أمه وأبيه وابنته وأخيه وأخته العذراء القريبة اليه التى لم تصر لرجل . لأجلها يتنجس . كزوج لا يتنجس بأهله لتدنيسه . لا يجعلوا قرعة فى رءوسهم ولا يحلقوا عوارض لحاهم ولا يجرحوا فى أجسادهم » . وقد أكدت الحوادث فيما بعد صحة الشكوك التى كانت تساور المشرع بالنسبة لكفاءة العلاج الذى شرعه للقضاء على هذه العادات الآثمة . فقد أخبرنا النبى أرمياء بعد ذلك بعدة قرون أن بعض اليهود كانوا وما زالوا يجرحون أذرعهم ويحدثون صلعات فى رءوسهم تعبيرا عن حزنهم على الميت .

وقد كانت تنتشر عادة حلق الرءوس وتجريح الجسم أو تشويهه . بوصفهما إمارتين عن الحزن ، انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية ، واتجه الآن الى توضيح هاتين العادتين والاستفسار عن مغزيهما . وانني اذ أفعل هذا ، أركز اهتمامى بصفة خاصة حول عادة تجريح الجسم أو ايذائه أو خدشه بوصفهما أكثر العادتين غموضا وأجدرهما بالملاحظة .

وقد كان العرب الجاهليون ، شأنهم شأن اليهود ، يصطنعون من بين الشعوب السامية هاتين العادتين . فالنساء العربيات كن يمزقن الجزء العلوى من أرديتهن ويخدشن وجوههن وصدورهن بأظافرهن ، ويضربن أنفسهن بالأحذية ويقصصن شعورهن . فعندما توفى القائد العظيم خالد بن الوليد لم تكن هناك سيدة واحدة من قبيلته بنى المغيرة

الا وقد قصت خصلات شعرها ووضعتها عند قبره • وما تزال تنتشر مثل هذه العادات بين عرب موآب حتى اليوم • فعند وفاة فرد من أفراد الأسرة تخدش النساء وجوههن الى درجة أن يراق دمها ويمزقن أرديتهن عند الوسط • واذا كان الشخص المتوفى هو الزوج أو الأب أو أى شخص آخر تدنو قرابته منهن ، فانهن يقصصن ضفائرهن وينتشرنها على قبره أو يلففنها على رأس الضريح ، أو انهن يثبتن وتدين فى الأرض ، أحدهما عند رأس الضريح والآخر عند مؤخرته ، ويربطن ما بين الوتدين بحبل يعلقن عليه خصلات شعورهن •

وبالمثل كانت النساء عند الاغريق القدماء يقصصن شعورهن ويخدشن وجناتهن اذا ما توفى أحد أقربائهن الأدنون أو أحد أقربائهن الأعزاء لديهن • وفى بعض الأحيان يخدشن رقابهن بأظافرهن حتى تدمى • وبالمثل كان الرجال يحلقون شعورهم علامة على الحزن واحتراما للميت • فهوميروس يخبرنا كيف ان المحاربين الاغريق غطوا جسد « باتروكلوس » فى طروادة بضفائر من شعورهم وكيف وضع « أخيل » فى يد صديقه المتوفى خصلة من الشعر كان أبوه « بيليوس » قد نذرها لنهر « سبيركوس » ليقدمها ابنه له اذا ما عاد سليما من الحرب • كما قيل ان « أورستوس » وضع خصلة من شعره على قبر أبيه القتيل « أغا ممنون » • ولكن تشريع « سولون » الانسانى الذى شرعه فى أثينا حرم تلك العادة البربرية ، عادة خدش الجسم وايذائه بوصفهما مظهرين من مظاهر الحزن ، كما فعل التشريع الانسانى فى أسفارموسى الخمسة الذى صدر فى أورشليم • وعلى الرغم من أنه يبدو أن عادة قص الشعر تكريما للميت لم يمنعها القانون صراحة ، الا أنها ربما انقرضت فى أثينا بتأثير التقدم الحضارى • فما يبدو لنا على الأقل ، هو أن كلتا العادتين المتبعتين للتعبير عن الحزن لفقد الأقرباء والأصدقاء ، قد وصلت الينا فى كتابات الشعراء الذين صوروا حياة العصر البطولى وأخلاقه ، ذلك العصر الذى سبقهم بزمن طويل •

وكذلك كانت النساء الأشوريات والأرمينيات ينزعن الى خدش خدودهن تعبيرا عن الحزن ، كما نعلم ذلك من « كزينوفان » الذى ربما شاهد مظاهر الحزن عند هزيمة « العشرة آلاف » التى شارك فيها بوصفه جنديا ، وخلدها بوصفه كاتبا . ولم تكن هذه العادة مجهولة عند الرومانيين القدماء لأن أحد قوانين « الألواح العشرة » الذى يرتكز على تشريع « سولون » ، حرم على النساء خدش خدودهن بأظافرهن عند الحداد . وقد اعتقد العلامة الرومانى القديم « فارو » أن جوهر تلك العادة كان يتمثل فى تقديم قدر من الدم عند قبر الميت ، وهو الدم السائل من خدود النساء بوصفه بديلا ناقصا لدماء الأسرى وهؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم حتى الموت . وتؤكد عادات الشعوب الهمجية التى تعيش فى العصر الحديث ، كما سنرى وشيكا ، الى حد ما ، هذا التفسير لتلك العادة . فقد صور لنا « فرجيل » « أنا » وهى تشوه وجهها بأظافرها وتضرب صدرها بقبضتيها عندما وصل اليها نبأ وفاة أختها « ديدو » وهى واقفة بجوار النار المعدة لحرق جثث الموتى . على أننا نشك فيما اذا كان الشاعر يشير فى وصفه هذا الى عادة قرطاجانية ، أو الى عادة رومانية قديمة كانت تتبع فى ابداء الحزن على الفقيد .

وقد كان « السكيثيانيون » يحلقون شعرهم بأكمله ، ويجرحون أذرعهم ويخدشون جباههم وأنوفهم ويبترون آذانهم ، ويغرزون سهاما فى أيديهم اليسرى ، عندما يتوفى ملك من ملوكهم . وقد كان من عادة « الهون » ، عندما يعلنون الحداد على موت فقيد ، أن يجرحوا وجوهم جرحا بالغا ، ويحلقون شعورهم .

وعلى هذا النحو أبدوا حزنهم على أتيلا ، « لا عن طريق عويل النساء وبكائهن فحسب ، ولكن عن طريق تقديم قدر من دماء الرجال كذلك » . ومنذ عصر بالغ فى القدم تركز الشعوب السلافية تعبيرها عن الحزن على الفقيد فى الصراخ والعويل ، بينما يجرح المحزونون

وجوههم ، وهى عادة لا تزال تنتشر بين بعض سكان دالاماتيا ومونت ديجرو » • واذا حدثت وفاة فى بيت من بيوت « المينجريلايين » فى القوقاز • فان المحزونين يخدشون وجوههم ويشدون شعورهم كما انهم يحلقون وجوههم بما فى ذلك حواجبهم وفقا لرواية من الروايات • ووفقا لرواية أخرى ان النساء هى اللاتى يقمن بابداء شعائر الحـــزن هذه ، فالأرملة تجتمع فى حجرة زوجها المتوفى مع قريباته ويسـلمن أنفسهن لأعمال العنف أو بالأحرى يسلمن أنفسهن للتعبير عن الحزن ، فيشددن شعورهن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، ويعترضن على حادث الوفاة المؤسف • أما الشعر الذى ينتزعه من رءوسهن فى هذه المناسبة ، فيضعنه فيما بعد فى لحد الميت • ويجتمع الاقرباء فى مثل هذه المناسبة عند قبيلة « أوسيتى » فى القوقاز فيعرى الرجال رءوسهم وأفخاذهم ويضربون أنفسهم بالسـياط حتى يسيل منهـا الدم • أما النســاء فيخدشن وجوههن ويعضضن أذرعهن ويشددن شعورهن ، ويضربون صدورهن ، وهن يصرخن صراخا معولا •

ويبدو أن عادة تجريح الجسم ، بعيدا عن عادة بتـر مفاصـل الأصابع ، تقل نسبيا بين القبائل الافريقية • ومن عادة الأحباش ، عندما يحزنون على وفاة قريب أن يقصوا الشعور وينثروا الرماد على رءوسهم ويخدشوا خدودهم حتى يسيل منها الدم • واذا حدثت وفاة عند قبيلة وانيـكا التى تسـكن فى شرق افريقيـا ، فان الأصـدقاء والأقرباء يجتمعون ويعـولون بصـوت عال ، ويحلقون رءوسـهم ويخدشون وجوههم • وعند قبيلة كيسى التى تعيش عند حدود ليبيريا تغطى النساء أجسامهن عند الحزن على الميت ، كما يغطين رءوسهن بصـفة خاصة بطبقة من الطـين ، ويخدشن وجوههن وصـدورهن بأظافرهن • وقد تعودت الأرمل عند بعض قبائل كافير التى تسكن فى جنوب افريقيا ، أن تبقى فى مكان منعزل مدة شهر بعد وفاة زوجها ، ثم تخلع ملابسها وتغسل جسمها ، وتجرح صدرها وذراعيها ورجليها بحجر حاد ، بعد انقضاء هذه الفترة ، وقبل أن تعود لبيتها •

واذا كانت عادة تجريح الجسم عند الحزن تمارس فى ندرة فى افريقيا ، فانها كانت مألوفة بين القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية . فقد ألف أفراد قبيلة « تينيه » أو « دينى » التى كانت تسكن فى شمال غرب أمريكا أن يجرحوا أجسامهم عند وفاة قريب ، ويقصوا شعورهم ويمزقوا ملابسهم ويتمرغوا فى التراب . واذا حدثت وفاة عند قبيلة « كينسيتينوه » أو « كرى » التى كانت تنتشر فى مساحة واسعة فى غرب كندا ، فانهم يعبرون على هذا النحو عند أحزانهم . واذا كان الفقيد عزيزا عند اقرباءه الأدنين يقصون شعورهم ويخزون الرماح والسكاكين فى أفخاذهم وأذرعهم ويطلون وجوههم بالفحم . وعندما يحرق جسد الميت فى النار المضطرمة عند قبيلة « كيجانى » وهى فرع من هنود « تيلينكت » أو « تيلينجيت » فى الاسكا ، فان أقرباء المتوفى يجتمعون ويؤذون أنفسم بدون هوادة ، مزدرين أنفسهم كل الازدراء ، فيخدشون أجسامهم ويجرحون أذرعهم ويضربون وجوههم بالأحجار الى غير ذلك من الأفعال العنيفة . وهناك فرع آخر من هنود تيلينجيت يكتفى أفراده فى مثل هذه المناسبة الحزينة بحرق شعورهم أو تشييطها بأن يزجوا برءوسهم فى لهيب النار المضطرمة المعدة لحرق الجثث بينما يكتفى البعض الآخر الذين يتسمون بشىء من التعقل فى تصرفاتهم ، أو ربما لأن حزنهم على الفقيد لم يكن يصل الى درجة حزن الآخرين عليه ، بقص شعورهم وطلاء وجوههم برماد الجثة المحترقة .

وقد كان من عادة رجال ونساء هنود ولاية وشنطون الشجعان الذين يتميزون برءوسهم المفلطحة ، أن يعلنوا الحداد على المحارب المتوفى . بأن يقطعوا قطعة من لحمهم ويلقونها فى النار مع جذوع الأشجار . واذا ألمت كارثة بهنود هذه المنطقة كأن يتوفى زعيم مرموق أو تقتل جماعة من محاربيهم بيد قبيلة معادية ، فان الجميع يشتركون فى اظهار هذه العواطف المحمومة ، فينتزعون شعورهم ويجرحون أجسامهم بحجر القداحة وكثيرا ما يصيبون أنفسهم بأذى بالغ .

« وقد كانت من عادة أقرباء الميت فى قبيلة شينوك ، وغيرها من القبائل الهندية التى تسكن فى أوريجون أو عند نهر كولومبيا ، أن يدمــروا ممتلكاتهم ، ويقصوا شعورهم ، ويشوهوا أجسامهم ويجرحوها » • وقد يتراءى للرائى ؛ عندما ينظر الى هذه القبائل الهمجية ، والدماء تسيل من أجسادهم ، أنهم لن يبرءوا من مثل هذه الأعمال المتوحشة التى يصنعونها بأنفسهم ، ولكن مثل هذه الجروح ، وان تكن سيئة ، ليست خطيرة • ولكى يجرح الرجل الهمجى نفسه ، فانه يمسك بجزء من جلده بين الابهام والسبابة حتى يبرز هذا الجزء ، ثم يأتى بسكين ويزجه فى وسط ، فيترك هذا القطع ، بعد أن يعود الجلد الى وضــعه الطبيعى ، جرحا بالغا قبيح المنظر أشبه بالحجر • ومن هذا الجــرح يتدفق الدم بغزارة • وبهذا يشوه أقرباء المتوفى أنفسهم بمثل هــذه الجروح ، وربما بما هو أسوأ منها •

« واذا حدثت وفاة بين هنود شبه جزيره كاليفورنيا ، فان من يود أن يبدى لأقرباء الميت حبه له ، فانه ينتظر قدوم أقرباء الميت ، فاذا مروا به فانه يخرج من مخبأه زاحفا على وجه التقريب ، ويتغنى بصوت شاك حزين قائلا : « هو ، هو ، هو ، » ثم يضرب رأسه بأحجــار حادة مدببة ، حتى يسيل الدم على كتفيه • وعلى الرغم من أن هذه العادة البربرية كثيرا ما كانت تحرم ، الا أن الناس لا يبدون استعدادا للكف عنهــا » • وبمجــرد أن تصــعد روح الميت » عنــد الهنــود « الجالينوميريين » ، وهم فرع من الهنود البومبيين الذين يســكنون وادى نهر روسيا فى كاليفورنيا ، « فانهم يلقون بالجثة فى وقار بــين النار المضطرمة المعدة لحرقها • وليس من اليسير وصف تلك المناظــر البشعة التى يقومون بها من صراخ وعويل مفزع ، الى اصابة الجسم بجراح بالغة فى أثناء احتراق الجثة • ويقول « جوزيف فيتش » انــه قد رأى هنديا أصابه الهياج الى درجة أنه دفع بنفسه بين النار المتوهجة، وانتزع قطعة من جســد الميت المحترق والتهمها » • ويقص أقارب المتوفى الأدنون فى بعض قبائل هنود كاليفورنيا شعورهم ، ويرمونها

فى النـــار المضطرمة ، فى الوقت الذى يأخـــذون فى ضرب أجســـامهم بالأحجار حتى تدمى .

ولكى يبدى هنود « سنيك » الذين يسكنون جبال روكى حزنهم على الفقيد القريب أو على الفقيد الصديق ، فانهم يحدثون جراحا فى الأجزاء التى يتراكم فيها اللحم فى أجسادهم . وكلما ازداد حبهـــم للفقيد ، عمقوا الجرح فى أجسادهم . وقد أكد هؤلاء لمبشر فرنسى أن الألم الذى يملأ نفوسهم لفقد الميت يتسرب الى الخـــارج من هـــذه الجروح . وقد أخبرنا هذا المبشر نفسه أنه تقابل مع مجموعة من نساء « كرو » المكلومات ، وقد غطت الدماء المتجلطة أجسامهن فى صـــورة بشعة الى درجة أن منظرهن كان يبعث على الشفقة بقدر ما كان يثير الفزع . وقد كان هؤلاء النسوة المساكين ملتزمات بتجـــديد شـــعائر الحزن فى كل مرة يمررن فيها بجانب قبور أقربائهن . وقد كان مـــن المحرم عليهن أن يغسلن أجسامهن طالمـــا كانت هناك بقعة متجلطة من الدم فوقها . ومن عادة قبيلة « كومانشى » ، وهى قبيلة هندية تشتهر باقتنائها الخيول فى تكساس ، أن أفراس الرجل الميت تقتل فى العادة وتدفن معه حتى يتمكن المتوفى من أن يركبها فى « بلاد الصيد السعيدة ». كما يحرق أفضل متاعه لكى يكون معدا للاستعمال عند وصوله الى العالم الأفضل . وعند ذاك تجتمع زوجاته الارامل حول أفراسه ، وقد حملت كل منهن سكينا فى يد وحجـــر الشحذ فى اليد الأخرى ثم يعـــولن بصوت عال بعبارات حزينة بينما يجرحن أذرعهن وأرجلهن وأجسامهن، حتى ينتابهن التعب نتيجة تدفق الدم . كما يقص أفراد هذه القبيلة شعر أعناق الأفراس وذيولها تعبيرا عن الحزن فى هذه المناسبات ، كما يقصون شعورهم أنفسهم ويجرحون أجسامهم بطرق شتى . وعنـــد هنود « أراباهو » تجرح النساء الحزينات الجزء الأعلى والأســـفل من أذرعهن وكذلك أسفل ركباتهن جرحا سطحيا . ويحل المحزونون فى هذه القبيلة جدائلهم ، وفى بعض الأحيان يقصونها . وكلما ازداد حبهم للفقيد الراحل ازداد قطعهم لشعرهم . ثم تـــدفن خصـــل الشـــعر

المقصوص مع جسد الميت . وفضلا عن هذا فانه يقص شعر ذيل الحصان الذى قتل ليرافق الميت فى حياته الآخره ، وكذلك شعر عنقه ، وينثر الشعر على ضريح الميت . وعند وفاة الأب أو الأم أو الابن عند السوكيين والفوكسيين . وهما يكونان قبيلة هندية أخرى ، فان أقارب المتوفى : « يجرحون أذرعهم وأرجلهم وأجزاء أخرى من أجسادهم . وهم لا يفعلون ذلك بقصد تعذيب الذات ، ولا بقصد اثارة الألم فى نفوسهم الأمر الذى يصرفهم عن تذكر خسارتهم ، وانما يفعلون ذلك بدافع الاعتقاد فى أن حزنهم الداخلى لابد أن يجد منفذا يتسرب منه . وليست هناك وسيلة أخرى للتخلص من هذا الحزن خلاف هذه الوسيلة » . وبالمثل يجرح أفراد قبيلة « داكوناس » أو سيوكس أذرعهم وأفخاذهم وأرجلهم وصدورهم وغير ذلك ، على هذا النحو عند موت صديق . ويعتقد الكاتب (١) الذى دون هذه العادة أنه من المحتمل ان هذه القبيلة تفعل هذا بقصد التخفيف عن آلامهم النفسية ، لأن هؤلاء الهنود أنفسهم كثيرا ما تعودوا أن يجرحوا أنفسهم وأن يمتصوا دماءهم . وذلك لشفاء أنفسهم من ألم جسدى . وفى اثناء هذه العملية يغنون او هم بالأحرى يرتلون التعاويذ التى يعتقدون انها بدون شك تعينهم على الشفاء . وقد تعودت الأرملة فى قبيلة « كانساس » أو « كونساس » التى تسمى الولاية باسمها ، وهى فرع ينتمى الى أصل « سيووان » ، أن تخدش نفسها وان تطلو جسدها بالطين ، كما أنها تهمل لبسها وتظل على هذه الحالة الجنونية مدة عام . ثم يأخذها أكبر اخوة الزوج المتوفى لتكون زوجة له دون أن يقوم بأى نوع من الاحتفالات .

وهذه العادة التى تختص بحداد النساء الأرامل تنتشر على

---

(١) هو الكاتب William H. Keating
وذلك فى كتابه Narrative of an expedition to the source of St. Peter's River.
(نقلا عن النسخة الأصلية لهذا الكتاب ، جـ٣ ص ٢٨١).
(المترجمة)

نحو مشابه بين فروع أوماها فى نيبراسكا ، وهى فرع آخر ينتمى الى أصل « سيووان » • « فعند وفاة الزوج تبدى الزوجات من الهنـود الحمر حزنهن المخلص على وفاة الزوج ، بأن يوزعن على الجيران كل شىء يمتلكنه ، ولا يحتفظن الا ببعض الملابس القليلة التى تكفى لتغطية أجسامهن لدرجة الاحتشام • ثم يخرجن من القرية ويجرحن أجسامهن ويأخذن فى العويل لفقد الميت دون انقطاع • فاذا كان للفقيد أخ ، فانه يتخذ أرملة أخيه بعد قضاء فترة مناسبة على وفاة زوجها ، زوجة له ، دون أن يقوم بأى استعداد رسمى لذلك » • أما عنـد قبيـلة « أوماها » فلا يقتصر هذا الحداد الصـارم على النسـاء الأرامل ، « فأقارب الميت يطلون أنفسهم بالجص ، ويجرحون أنفسهم بالحجر القداح ويقطعون أجزاء من جلدهم ولحمهم ، ويخزون أجسـامهم بالسهام • فاذا مشوا فانهم يمشون حفاة الأقدام على بعد من قومهم لاظهار حزنهم على الشخص المتوفى » • « فاذا توفى رجل له مكانة بين قومه ، فانهم يعلنون الحداد على النحو التالى : « يتقابل الشباب الذين فى مقتبل العمر عند مكان يقع بالقرب من مسكن المتوفى ويخلعون عنهم ملابسهم فيما عدا المئزر • ثم يجـرح كل منهـم أعلى ذراعه جرحين ، ويزجون فى اللحم فرعا ذا عسلوج فى طرفه • ثم يتحركون فى صف واحد والدم يقطر من العسلوج المعلق فى أذرعهم ، حتى يصلوا الى مسكن الفقيد • وهناك يقفون فى مواجهة مسكنه فى صف بحيـث تتلاصق أكتافهم ويغنون فى انسجام الأغنية الجنائزية على ايقـاع فروع الصفصاف المتحركة ، وهى الأغنية الجنائـزية الوحيـدة التى تعرفها هذه القبيلة • وعند نهاية الأغنية يتقدم قريب من أقرباء الميت نحو المغنين ويـرفع يده عـلامة على الشـكر ، وينتـزع فـروع الصفصاف من أذرعهم ويرميها على الأرض » • وخلاف هذا ، فقـد ألف أفراد هذه القبيلة ، ابداء لحزنهم على وفاة قريب أو صديق ، أن يقصوا خصلات شعورهم ويرموها على جسد الميت • وكذلك تقص

نساء هنود فرجينيا ضفائرهن فى بعض الأحيان ويرمينها عـــلى قبر الميت •

واذا حدثت وفاة بين هنود « وتاجونيا » ، يقوم المحزونون بتقديم واجب العزاء للزوجة الأرملة أو لأى قريب من أقرباء الرجل المتوفى ، وهم يصرخون ويعولون ويغنون بطريقة أشد ما تكون كآبة ، ويعتصرون دموعهم ، ويخزون أذرعهم وأفخاذهم بأشواك حادة حتى تدمى • وفى مقابل ابداء هذه العواطف الحزينة يمنحون بعض الخرزات أو بعض الحلى الرخيص • وبمجرد أن يعلم الشـــخص من قبائل « فويجيان » بموت صديق أو قريب له ، فانه ينفجر فى ابداء العواطف الحزينة ، فيبكى ويئن•كما أنه يجرح وجهه بقوقعة ذات طرف حاد، ويقص شعره حتى يبدوا قصيرا • أما عند قبيلة أونا الفويجيانية ، فان عادة جرح الوجه ابداء للحزن على الفقيد تقتصر على النساء الأرامل أو قريبات المتوفى •

وقد كان من عادة الاتراك القدماء أن يقطعوا وجوههم بالسكين حزنا على فقيدهم حتى يسيل الدم والدموع معا على وجناتهم • ومن عادة قبيلة « أورانج ساكاى » ، وهى قبيلة وثنية بدائية تعيش عـــلى الزراعة والصيد فى غابات شرق سومطرة التى يصعب على المســـافر توغلها ، أن يقطع أفرادها وجوههم بالسكين حزنا على الميت قبل دفنه ، حتى يدعوا الدم يسيل على وجهه • واذا حدثت وفاة بين القبائل التى تتحدث لغة « رورو » التى تسكن عند منبع نهر سنت جوزيف فى نيوغينيا البريطانية ، فان النساء الغريبات من المتوفى يضربن رءوسهن ووجوههن وصدورهن وبطونهن وأذرعهن وأرجلهن بقواقع حادة حتى يتساقط الدم منهن ويقعن منهكات على الأرض • وعند قبيلتى « كويارى ، وتورايبى» اللتين تسكنان فى نيوغينيا ، يجرح المحزونون أجسامهم بالقواقع أو الحجر القداح حتى يتدفق الدم منهم بغزارة • وتعد فترة الحزن فى جزيرة « فايتى » أو « افاتى » وهى احدى جزر الهيبريد مناسبة للعويل الشديد • كما أن المحزونين يخدشون وجوههم حتى يتدفق منها الدم •

ويحدث مثل هذا فى جزيرة « ماليكولا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهبريد الجديدة • فالمحزونون كانوا وما زالوا يقطعون أجسادهم حزنا على الفقيـــد •

ويقدم الجاليلاريزيون سكان هالماهيرا ، وهى جزيرة تقع فى غرب نيوغينيا شعورهم لروح قريبهم المتوفى فى اليوم الثالث لوفاته ، وهو اليوم التالى ليوم الدفن • وتقوم امرأة لم ترزأ منذ زمن قريب فى موت أبيها أو أمها أو ابنها بتأدية واجبات المحزونين ، فتنتزع شـــعر أطراف حواجبهم وخصلات شعورهم ، وتعلق هذا الشعر على معابدهم• وبعد أن يقص شعر المحزونين على هذا النحو ، فانهم يذهبون الى البحر ليستحموا ويغسلوا شعورهم بجوز الهند المبشور حتى يتطهروا من لوث الميت ، لأنهم يعتقدون أن لمس جسد الميت أو الاقتراب منه يجعل الشخص نجسا ، ومن يتعرض لمثل هذا الدنس أو يأكل طعاما كان فى البيت مع وجود جثة الميت ، فانه ، وفقا لتصورهم ، يفقد القدرة على رؤية الأرواح • واذا لم يقدم الأحياء شعورهم للميت ، ولم يقوموا بتطهير أنفسهم بعد ذلك فانه لا يتخلص وفقا لاعتقادهم كذلك ، من تعقب روح الأخ الميت أو روح الأخت الميتة لهم • فاذا توفى شخص بعيدا عن بيته ، على سبيل المثال ، ولم يكن نبأ موته قد وصل الى أسرته ، ولم يكن أفراد الأسرة ، بناء على ذلك ، قد قصوا شعورهم أو استحموا فى اليوم الثالث لوفاته ، فان شبح الميت (الذى يطلقون عليه اســـم صوصو) يسكنهم ويمنعهم من القيام بأعمالهم • فاذا عصروا جـــوز الهنـــد بعد ذلك ، فانهم لا يستجلبون منه الزيت ، واذا سحقـــوا لب النخل ، لا يحصلون على وجبة تسد رمقهم ، واذا قاموا بالصيد فانهم لا يوفقون فى اصطياد أى حيوان • ويظل الشبح يضايقهم ويعطـــل أعمالهم حتى يصلهم نبأ الموت • وعنـــد ذاك يقصـــون شـــعورهم ويستحمون • ويعتقد المبشر الكفء الذى روى لنا هـــذه المعلومات أن تقديم الشعر للميت يخدع الشبح الساذج فيجعله يتصور أن أصدقاءه قد تبعوه فى العالم الآخر • ولكننا نشـــك فيما اذا كانت درجة سذاجة

الأشباح قد تمتد بحيث انهم يأخذون خطأ خصـلات الشعر عـلى أنها هى نفسها الأشخاص الذين قصت هذه الخصلات من شعورهم •

ويبـدو أن هـذه العادات كانت تنتشر بين كل فروع الجنس البولونيزى الذى ينتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • فمن المألوف عند حدوث وفاة فى أوتاهيتى أن يحمل رفات الميت الى بيت أو كوخ بنى لهذا الغرض ويطلق عليه اسم « توبابو » • وهناك يترك حتى يتعفن ويتحلل اللحم تماما وتتخلف العظام • « وتبدأ شعائر الحداد بمجرد أن توضع الجثة فى الـ « توبابو » ، فتجتمع النساء عند باب أقرب قريبة للميت التى تكون بصدد ضرب هامتها مرات عديدة بسن سمك القرش حتى يتدفق منها الدم ويستقبل بحرص على قطع من القماش الكتان التى تطرح بعد ذلك فى نعش الفقيد ، ثم تفعل سائر النسوة بعد ذلك فعل هذه المرأة • ويتكرر حدوث هذا مدة يومين أو ثلاثة طالما كن متحمسات لهذا الفعل، وما زلن يبدين الأسف على فراق الميت • كما تستقبل الدموع التى تسكب فى هذه المناسبة على قطع من القماش وتقدم منحة للميت • ويقطع بعض الأفراد الأصغر سنا شعورهم ويرمونها أسفل النعش مع عطايا أخرى • وترتكز هذه العادة على فكرة أن روح الميت الذى يعتقـد أنه يعيش منفصلا عن الميت ، يحلق فى المكان الذى يستلقى فيه الجسـد ويرقب أفعال الاحياء • وهو يمتن كل الامتنان بما يبدونه من مشاعر الحب والحزن » ووفقا لرواية كاتب آخر أن « التاهيتيين فى حالة الحزن، لا يعولون بصراخ عال ونغمة مؤثرة فحسـب ، وانما يحلقون شعورهم ويمزقون ملابسهم ويقطعون أجسامهم بأسنان سمك القرش أو بالسكين بطريقة مفزعة • والآلة التى تستخدم عادة فى هذا الايذاء ، هى قصبة صغيرة يبلغ طولها حوالى أربع بوصات ومثبت فى جانبيها ست أسنان من أسنان سمك القرش • وتحتفظ كل امرأة بهـذه القصـبة بعـد زواجها لكى تستخدمها فى مناسبات الموت بلا رحمة • على أن البعض لا يكتفون بايذاء أنفسهم بهذه القصبة ، وانما يعدون آلة قصيرة أشبه بمطرقة الحداد ويبلغ طولها خمس أو ست بوصات • وهى مستديرة

عند طرف مقبضها ، ومثبت فى طرفها الخشبى الآخر صفان أو ثلاثة من أسنان سمك القرش • وبهذه الآلة يقطعون أجسامهم دون هوادة عند موت قريب أو صديق ، كما يضربون رءوسهم وخدودهم وصدورهم حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح ، وفى الوقت نفسه يصرخون صراخا يصيب الانسان بالصمم ويبعث فى النفس الألم • كما أن ملامحهم المشوهة وشعرهم الأشعث المزق ، ودموعهم ودماءهم المختلطة التى تغطى أجسامهم ، ونظراتهم الهائجة ؛ وسلوكهم الجامح ، كل هذا يخلع عليهم مظهرا لا انسانيا مفزعا • وتقوم النساء أساسا بهذه الأعمال العنيفة ، ولكنهن لا يقمن بها وحدهن ، وانما يشاركهن الرجال فى هذه المناسبات ، هذه الأفعال الشائنة • فهم لا يقطعون أجسامهم فحسب وانما يأتون مسلحين بالهروات وغير ذلك من الأسلحة المميتة التى يستخدمونها فى ايذاء أنفسهم • وترتدى النساء فى بعض الأحيان فى هذه المناسبات الكئيبة مئزرا يمسكن طرفه باحدى أيديهن لكى يستقبلن فيه الدم ، بينما يجرحن أنفسهن باليد الأخرى • ثم يجفف هذا المئزر بعد ذلك فى الشمس ويقدم لأسرة المتوفى رمزا للود ، وهى تحتفظ به بدورها بوصفه دليلا على التقدير الذى كان يتمتع فيه الفقيد • وعند موت ملك أو زعيم كبير يجتمع مواطنوه ويمزقون شعورهم ويجرحون أجسامهم حتى تتغطى بالدم المتدفق ، وكثيرا ما يتشاجرون بالهراوات والأحجار حتى يقتل منهم واحد أو أكثر • وربما ساعدتنا هذه المشاجرات التى كانت تحدث عند موت زعيم كبير فى تفهم نشأة عادة مقاتلة الأسير حتى الموت التى نشأت فى روما • فالقدماء أنفسهم أخبرونا أن هذه المشاجرات جرت لأول مرة فى الجنائز ، وكانت بديلا لقتل الأسرى عند قبر الزعيم المتوفى • وقد أقام « بونيوس بروتس » أول عرض من هذا النوع فى روما عام ٢٦٤ ق•م• تكريما لوالده المتوفى ••

ولم يكن يقتصر استخدام نساء تاهيتى لأسنان سمك القرش بوصفه مبضعا لاسالة الدم من رءوسهم على مناسبات الموت ؛ بل كانت المرأة تستخدم هذا السلاح كذلك اذا حدث حادث لزوجها أو

لقريب من أقربائه أو صديق من أصدقائه أو لطفل من أطفالها • بل انها تستخدمه اذا وقع طفلها على الأرض ولحق به الأذى وعند ذاك تخلط دمها بدموعه • أما اذا توفى الطفل فان البيت يعج عند ذاك بالأقارب الذى يجرحون أجسامهم ويعولون بصوت مرتفع • « وفى هذه المناسبة يقطع الولدان شعرهما من جانب واحد بحيث يبدو قصيرا من جانب وطويلا من الجانب الآخر ؛ هذا بالاضافة الى سائر شـعائر الحزن الأخرى • وأحيانا يقص الوالدان شعرهما فى مساحة مربع فى مقدمة الرأس ، وقد يترك البعض الآخر هذا الجزء ويقصون ما دون ذلك • وفى بعض الأحيان تترك خصلة من الشعر فوق كل أذن ، وأحيانا تترك خصلة فوق أذن واحدة ، كما أنه فى بعض الأحيان يقص نصف الشعر على نحو قصير للغاية ويترك النصف الآخر لينمو • وقد تمتد شعائر الحزن هذه مدة عامين أو ثلاثة أعوام » • وربما فسر هـذا عـادة الاسرائيليين فى احداث صلعات فى رءوسهم علامة على الحزن •

واذا توفى ملك أو زعيم كبير فى هواى أو جزر السندوتش ، فان الناس يعبرون عن أحزانهم بأشكال شتى من الاعتداء على أنفسهم ، فهم لا يمزقون ملابسهم كلية فحسب ، وانما يضربون أعينهم وأسنانهم بالسوط والحجر ، وينتزعون شعورهم ، ويحرقون جسدهم ويقطعونه • وأكثر عمليات التشويه التى تمارس فى هذه المناسبات انتشارا ، هى عملية اقتلاع الأسنان عن طريق ضربها • وكل من الجنسين يتبع هذه العادة ، وان كان الرجال يقومون بها على نطاق واسع • وعند وفاة ملك أو زعيـم بارز ، فانه يتوقع من الزعماء الآخرين والذين تربطهم به رابطة الدم أو الصداقة ، أن يعبروا عن علاقتهم به بكسر سـن من أسنانهم الأمامية عن طريق ضربها بالحجر • فاذا فعلـوا هـذا ، فان اتباعهم يشعرون بالتزامهم باقتفاء أثرهم • وفى بعض الأحيان يكسر الرجل سنه بنفسه • ولكن الغالب أن يقوم بتأدية هذا له شخص آخر ، فيأتى هذا بعصاة ويغرسها بجانب السن ويدقها بالمطرقة حتى يقتلع

السن أو تكسر . فاذا تردد الرجال فى فعل هذا ، فان النساء يقمن بهذا العمل لهم فى أثناء نومهم . ومن النادر أن يقتلع أكثر من سن فى مناسبة واحدة . ولكن لما كانت عملية الايذاء هذه تتكرر عند وفاة زعيم أو كبير فمن النادر رؤية رجال بالغين وقد اكتملت أسنانهم . بل ان كثيرا منهم فقد أسنانه الأمامية فى كلا الفكين ، الأمر الذى ينجم عنه عيب فى النطق ، بالاضافة الى الاضرار الأخرى . على أن هناك من يجرؤ على أن يشذ عن هذه القاعدة ويحتفظ بأسنانه كاملة .

وبالمثل فان أفراد قبيلة تونجان يقتلعون أسنانهم فى فترات الحزن كما يحرقون أجسامهم ويحدثون فيها قرحا ، كما يغرزون أسنان سمك القرش فى رءوسهم حتى يتدفق منها الدم ، ويزجون السهام فى أفخاذهم وفى الطرف الأسفل من ابطهم وفى خدودهم حتى تدخل فى أفواههم . ولقد أبصر بحار انجليزى توفى فى مطلع القرن التاسع عشر فى أثناء اقامته بين قبيلة تونجون ما قام به الناس من أعمال غريبة حزنا على ملكهم « فينو » ، وقد صور ذلك فى وضوح بالغ . فقد أخبرنا أن الزعماء والنبلاء الذين اجتمعوا فى هذه المناسبة أبدوا حزنهم على فقد ملكهم بأن أخذوا يقطعون أجسامهم ويضربونها بالسياط والأحجار ، ويقطعونها بالسكاكين والقواطع الحادة . وقد يجرى أحدهم أو اثنان منهم أو ثلاثة دفعة واحدة ، ثم يقفون وسط دائرة المتفرجين ليبرهنوا على حزنهم البالغ وتقديسهم لذكرى سيدهم وصديقهم الراحل . فيصرخ أحدهم قائلا : « فينو ! اننى أعرف تماما ما يدور بخلدك . لقد سئمت أن تتركنا وترحل الى بولوتو (أرض الأموات) . وبهذا تركت شعبك فى شك من أمره . فاذا كنت تشك فى اخلاصى أو اخلاص غيرى لك فما الدليل على عدم الاخلاص ؟ وهل هناك سلوك واحد من قبلنا يدل على عدم احترامنا لك » ؟ وبعد أن يقول هذا يضرب رأسه بقسوة ويجرحها جرحا عميقا بالسوط أو الحجر أو السكين وهو يصرخ بين الحين والآخر : « أليس هذا دليلا على اخلاصنا لك ؟ ألا يؤكد هذا ولاءنا واحتفاظنا بذكرى محاربنا الراحل ؟ » ثم يأتى شخص آخر

ويســير مستعرضا نفســه جيئــة وذهابا فى خطــوات هائجة جامحة ثم يدير ســوطه فى سرعة ويضرب نفســه به مرتين أو ثــلاث مرات بقسوة على أم رأسه أو خلف رأسه ، ثم يقــف فجأة ويحملق فى الدم المتدفق ويصرخ قائلا : « واحسرتاه ياسوطى • مــن ذا الذى كــان يتصور أنك تفعل هذا الفعل الحسن بى ، وتمكننى من أن أبدى احترامى للــكى فينو • أبدا ، أبدا ، لن تســتطيع بعد ذلك أن تهــوى عــلى رءوس أعدائه • واحسرتاه على المحارب الشجاع العظيم الذى سقط ميتا • أيها الملك ، لتكف عن أن تشك فى ولائى لك ؛ ولتتأكد من اخلاصى لك » • وهناك من يرتكب أعمالا أعنف من هذا بأن يضرب رأسه ضربات شديدة متتالية حتى يصاب بالدوار ويفقد صــوابه لبعض الوقت • كما يقوم البعض الآخر فى أثناء فترة الحــزن على « فنو » بحــلق رءوسهم ، واحراق وجناتهم بقطع من القماش المضفر المحترق ، ودعك جراحهم بثمار قابضة مسيلة للدم • ثم يضعون هذا الدم فى شــكل حلقات حول الجرح الذى يبلغ قطره بوصتين فيكون منظرهم بذلك منفرا للغاية • وهم يكررون عملية الدعك هذه يوميا ، بحيث يســيل منها الدم من جديد • أما الصيادون فيضربون رءوسهم ويكدمونهــا بمجاديفهم دليلا على حبهم لسيدهم الراحل • وفضلا عن هذا فان كلا منهم يرشق ثلاثة سهام فى كل خد فى اتجاه مائل ، بحيث تدخل أطرافها داخل الفم وتتعلق رءوسها فوق الكتف ، بينما يسندها سهم آخــر يثبت فى ظهر الصياد ويمسك برءوس المجموعتين بحيث يكون شــكلا مثلثا • وبهذا العتاد الغريب يسير الصيادون حول قبر المتوفى وهــم يضربون وجوههم ورءوسهم بالمجاديف ، أو يلدغون جلد صدورهم ويرشــقون بداخلها الســهام ، وكل هذا من أجــل ابداء عواطفهم للزعيم الراحل •

وكذلك كانت من عادة المحزونين فى جزر « ساموان » ، أن يظهروا حزنهم عن طريق العويل المحمــوم والصراخ وعن طــريق تمــزيق الملابس وتقطيع الشعر واحراق الجسم بشعلات من النار ، واصابته

بكدمات بضربه بالاحجار ، وجرحه بالاحجار الحادة والقواقع ، وأسنان سمك القرش حتى يغطى الدم أجسام المحزونين . وهذه التعبير لا يعنى ، وفقا لرأى الدكتور « جورج براون » ، تقديم الدم للآلهة ، بل يعنى أولا وقبل كل شيء ، ابداء العواطف نحو الفقيد والحزن على فراقه . ومثل هذا يحدث فى « مانجيا » احدى جزر هيرفاى . فما يكاد الشخص المريض يلفظ أنفاسه ، حتى يصبغ أقرباؤه الأدنون وجوههم بالسواد ، ويقصون شعورهم ويضربون أجسامهم بأسنان سمك القرش حتى يتدفق الدم منها . وقد كان من المألوف فى « رارتونجا» أن تكسر بعض الأسنان الأمامية ابداء للحزن على الميت . وعلى هذا النحو يعلن المحزونون أسفهم على الفقيد فى جزر ماركويزا . « فعندما يموت زعيم كبير ، تطلق أرملته ونساء القبيلة صرخات مدوية ، بينما يضربن جباههن وخدودهن وصدورهن بشظايا البامبو . وقد اختفت تلك العادة على الاقل فى « توكاهيفا » . أما فى مجموعة الجزر الجنوبية الشرقية ، فلا تزال النساء يتبعن تلك العادة ، فهن يدمين وجوههن بعد جرحها بجراح بالغة ، ويظهرن علامات الأسى فى جنازة القريب » .

وقد كانت عادة الحزن بين الموءوريين فى نيوزيلندة شبيهة بهذا . « فزوجات الميت وأقرباؤه ، وبخاصة النساء يبدون حزنهم عن طريق قطع وجوههم وجباههم بالقواقع وقطع الزجاج البركانى الاسود ، حتى يتدفق الدم بغزارة ، ثم يتركونه يجف على وجوههم . وكلما تغطت الوجوه بجلطات الدم بدا حزنهم أكبر على الفقيد . كما كان الشعر يقص دائما علامة على الحزن . وكان الرجال يقصون شعورهم من جانب واحد من الجبهة الى الرقبة » . ووفقا لرواية أخرى ان قطع الجسم من أجل الفقيد بين الماوءوريين لم تكن تقتصر بحال من الاحوال على الوجوه والجباه . « فكل أقرباء الميت وأصدقاؤه وعبيده وخدمه وأتباعه ، اذا كان يملك بعضا منهم ، يقطعون أجسامهم فى ايجاع ، بحيث يكون مرآهم مفزعا للرجل الاوربى . فهم يمسكون

بقطعة من حجر القداح (وتقدس هذه القطعة لسفكها الدم وبسبب الغرض استخدمت من أجله) بين الابهام والوسطى ويدخلونها فى جلدهم على مســافة تبلغ قدر طول الظفر • ثم يجرحون جبهتهم • ويمتد الجرح فى شكل هلالى الى أسفل الوجه على كل من الجانبين ، كما تخدش الأرجل والأذرع والصدر بطريقة مؤلمة • وفى بعض الاحيان يجرح النســاء صــدورهن جرحا بالغا على نحو أشمل وأعمق ممــا يفعله الرجال •

وربما ليس هناك شعب تتبع فيه عادة تجريح الاجســام تكريما للميت ، اتباعا منظما وبقسوة بالغة كما يفعل سكان استراليا الأصليون السذج الذين ما زالوا يقفون عند أسفل المراتب الاجتماعية • فالارمل فى القبائل التى تسكن غرب فيكتوريا يعلن الحداد على زوجته مــدة ثلاثة أشهر قمرية • وفى اليوم الثانى من كل شهر من هذه الشهور يصرخ ويعدد مآثر زوجته ويخدش جبهته الى أن يسيل الدم عــلى خديه • كما أنه يغطى رأسه وجبهته بالجص ، فاذا كان يحبها حبا بالغا ويود أن يعبر عن بالغ حزنه لفقدها ، فانه يحرق نفسه حول خصره فى شكل ثلاثة خطوط بلحاء شجر متوهج • أما الارملة فهى تعلن الحداد على زوجها مدة سنة قمرية ، فتقص شعرها باتقان ، وتحرق فخذيها بالرماد المتوهج الذى تضغطه عليهما بقطعة من اللحاء حتى تصرخ من الألم • وفى الليلة الثانية من كل شهر تبكيه بعويل وتعدد مناقبه وتجرح جبهتها حتى يتدفق الدم على وجنتيها • وفى الوقت نفسه تغطى رأسها وجهها بالجص • وينبغى عليها أن تفعل هذا مدة ثلاثة أشهر قمرية • ويخدش الاطفال جبــاههم حزنا على فقد والديهم • والوالدان عند سكان وسط فيكتوريا هما اللذان يجرحان جسميهما جروحا بالغة عند فقد ابن لهما • فالأب يضرب رأسه ويجرحها بالفأس ، والأم تحــرق صدرها وبطنها بعصاة مشتعلة • وهما يفعلان هذا يوميا ولمدة ساعات حتى تنتهى فترة الحداد • ولا تحرق النساء الأرامل فى هذا القبــائل صدورهن وأذرعهن وأرجلهن وأفخاذهن بالعصى المحترقة فحسب ، بل

يدعكن الرماد فى جروحهن ويخدشن وجوههن حتى يختلط الدم بالرماد • وعند قبيلة كورناى التى تسكن فى جنوب شرق فيكتوريا ، يقطع المحزونون أنفسهم بالاحجار الحادة والفؤوس حتى يتدفق الدم من رءوسهم وأجسامهم • واذا توفى رجل فى قبيلة ماكجاراوانيت التى تقطن غرب فيكتوريا ؛ فان أقرباءه يصرخون عليه ويقطعون أنفسهم بالفؤوس وغير ذلك من الآلات الحادة لمدة أسبوع •

وعند قبائل جنوب موراى وأدنى نهر دارلنج يلهب المحزونون ظهورهم وأذرعهم ؛ وفى بعض الاحيان وجوههم بشعلات من اللهيب المحترق ، حتى يترتب عن ذلك كدمات مؤلمة • ثم ينبطحون فى عنف على القبر ، ويمزقون شعورهم عن طريق تدليك رءوسهم وأجسامهم بحفنات من التراب تدليكا مسرفا ، كما يدلكون قرحاتهم التى يضرب لونها الى الخضرة حتى يختلط الدم بالأوساخ فى شكل مقزز للغاية • وقد تعود المحزونون فى قبيلة كاميلارو ؛ وهى قبيلة كبيرة تسكن شرق « نيوسوث ويلز » ، وبخاصة النساء منهم أن يغطوا رءوسهم بكتل من الجص ، ثم يشقوا رءوسهم بالفؤوس حتى يتدفق الدم فوق الجص ويسيل على أكتافهم حيث يترك حتى يجف • وقد تحدث كاتب عن طريقة الدفن عند سكان نهر « موراى » فقال : « يجتمع كثير من النساء حول نعش الفقيد ، وهن قريبات المتوفى ؛ ويصرخن ويعولن عويلا مؤلما ، ويجرحن أفخاذهن وظهورهن وصدورهن بالقواقع وحجر القداح ؛ حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح » •

وتدوم فترة الحزن عند قبيلتى « كابى » و « وكا » اللتين تسكنان جنوب شرق كوين لاند بالقرب من نهر « مارى » حوالى ستة أسابيع • « ففى كل ليلة ينبعث صوت صراخ من الجميع ويدوم بضع ساعات يصحبه قطع الاجسام بأحجار القداح أو بأية آلة قطع أخرى • ويكتفى الرجال بثلم مؤخر رءوسهم • أما النساء فيجرحن أنفسهن من قمة رءوسهن الى أخمص أقدامهن ، ويتركن الدماء تجف على

جلودهن » . أما فى حى « بوليا » فى وسط كوين لاند ، فان النســاء يجرحن أفخاذهن بجروح داخلية وسطحية بأحجار حادة أو بقطــع من الزجاج ، بحيث يحدثن جروحا فى شكل متــواز . وفى الاحيــاء المجاورة « لكوين لاند » يجرح الرجال أفخاذهم فى المــكان نفســه جرحا واحدا عميقا فى شكل صليب . ويجرح أفراد قبيلة « كاكادو » التى تسكن فى المنطقة الشمالية من استراليا رءوسهم فى وقت الحزن حتى يتدفق الدم على وجوههم وعلى أجسامهم . ويفعل هذا الرجال والنساء على السواء . ثم يجمع بعض الدم بعد ذلك فى قطعة من لحاء الشجر توضع بدورها ، فيما يبدو ، عند شجرة تقع فى المــكان الذى توفى فيه الشخص .

واذا حدثت وفاة فى قبيلة « كاريرا » التى تقطن غرب استراليا ، فان أقارب المتوفى الرجال منهــم والنســاء يولولون ويقطعــون فروة رءوسهم حتى يسيل منها الدم . كما يقص شعر المتوفى ويحتفظ به ، ويصنع منه خيوط يرتديها الأقارب . ومن المألوف عند قبيلة« نارينيرى» وهى قبيلة تســكن جنوب استراليا أن يحرق جزء من جسد الميت فوق نار هادئة ثم ينزع عنه الجلد ويلون بمادة حمراء . وبعد ذلك يعلق الجسد عاريا على منصــة . « وعند ذاك يصرخ أقــارب الميت وأصدقاؤه ويعولون ويحلقون رءوسهم فى أحكام ، ويدهنون أنفسهم بالزيت والفحم المسحوق . أما النســاء فيغطين أجســامهن بالروث المقزز ويضربن أنفسهن ويقطعن أجسامهن ويظهرن عاطفــة الحــزن فى عنف . ويحرص كل الاقارب على الحضور وعلى ألا يتغيب لحظة ابــداء علامات الحــزن حتى لا يتهمــوا فى اشتراكهم فى جريمــة قتل المتوفى » .

ويفرض على الرجل فى قبيلة « أرونتا » التى تسكن وسط استراليا أن يجرح نفسه عند الكتف حزنا على فقد حميه . فان لم يفعل هذا ، فربما قدمت زوجته لرجل آخر ، حتى يهدأ غضب شبح الاب الــذى هيجه عدم ولاء زوج ابنته له .

ويحرق رجال « أرونتا » أكتافهم . ويظل هذا الجرح الملتهب علامة على ولائهم لأحمائهم المتوفين • أما قريبات المتوفى فى قبيلة«أرونتا»، فيجرحن أنفسهن كذلك ويقطعن أجسامهن ابداء للحـــزن • وعلى الرغم من أنهن يفعلن هذا فى جنون ، ألا أنهن مع اضطرابهن البالغ ، يحرصن على أن يدمين جزءا حيا من أجسامهن ، وانما يعملن القطع فى فـــروة رءوسهن وأكتافهن وأرجلهن • وتحلق النساء الأرامل شعورهن فى قبيلة « وارامونجا » فى وسط استراليا ، ويقطعن فروة رءوسهن مـــن الوسط ، ويمررن فى الجرح عصيا محترقة • وكثيرا ما ينجم عن هذا عواقب جسيمة • وتكتفى قريبات المتوفى الأخريات فى قبيلة«وارا مونجا» بقطع فروة رءوسهن وذلك عن طريق ضربها تباعا بعصى اليام حتـــى يسيل الدم على وجوههن ، بينما يجرح الرجال أفخاذهم بالســكين جروحا تختلف فى درجة عمقها•وهم يعملون على توسيع هذه الجروح قدر الامكان بأن يربطوا خيطا متينا حول الرجل على جانبى الجرح • ويظل أثر الجرح على هذا النحو باقيا الى الابد • وقد أبصر رجل يحمل آثار جراح بلغ عددها مالا يقل عن ثلاثة وعشرين جرحا ، صنعها فى جسمه فى فترات الحزن المختلفة • وفضلا عن هذا ؛ فان رجال « وارامونجا » يقطعون شعورهم فى فترات الحزن بحيث تصير شعورهم قصيرة للغاية ثم يحرقون هذا الشعر المقصوص ويطلون فروة رءوسهم بالجص . بينما يحلق الآخرون شواربهم • وهم فى كل عمل من هذه الأعمـــال يتبعون قواعد محددة ؛ فهم لا يجرحون الأفخاذ ، بل لايقصون الشعر أو يحلقون شواربهم اعتباطا ؛ أو لمجرد الشعور بالحزن ، وانما ينبغى على الاشخاص الذين يؤدون هذه الافعال أن تكون قرابتهم للميت محددة ، وليست قرابة من أى نـــوع • وتخضـــع صلة القـــربى فى تصنيفاتها ومجموعاتها لمـــا تعارف عليه ســـكان استراليا الاصـــليون وحدهم • « فاذا توفى رجل » فى هذه القبيلة ؛ « وكان ينتمى اليـــك بصلة قرابة خاصة ، فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك الايذاء المناسب لهذه القرابة ؛ كأن تجرح فخذيك أو تقص شعرك ، وسواء كنت صديقا

شخصيا للميت أم لا أو كان المتوفى صديقك الحميم أم من ألد أعدائك فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك ايذاء ما » •

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدم المتدفق من قطع جسد المحزونين الاستراليين يصب على جسد الميت مباشرة أو على الاقل يتساقط على قبره • فقد تعود الرجال فى بعض القبائل التى تسكن عند نهر دارلنج ، أن يقفوا عند القبر المفتوح ، وأن يقوم كل منهم بجرح رأس الآخر بقطعة خشب معقوفة ، ثم يحنون رءوسهم فوق الضريح ، بحيث يتساقط الدم على الجسد المسجى • فاذا كان الميت ذا شأن ، فان هذه العملية تتكرر بعد أن يلقى بعض التراب على الجسد المسجى • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « ميليا » ـ « أوبا » التى كانت تحتل البلد القريب من بحيرة توروتا التى تقع بدورها فى الشمال الغربى من « نيو ساوث ويلز » • فاذا كان المتوفى محاربا فان المحزونين يجرحون رءوس بعضهم بعضا ، ويجعلون الدماء تسيل على الجسد المسجى فى القبر • « ولقد كنت أشهد حفلا جنائزيا عند قبيلة باهكونجى التى تسكن فى « بوركى » التى تقع على نهر دارلنج • عندما قفز الرجل الارمل (وتصادف أنه كان زعيما من الزعماء) الى القبر ، وأمسك شعره بأصابعه ، واذا برجل أسود آخر جاء يقفز وراءه ، وضربه ضربة قوية بقطعة من خشب معقوفة على مفرق رأسه ، حتى سال الدم من الزعيم الذى قام بدوره يعمل نفس الفعل مع رفاقه • وهذا الاجراء يجرى وفق تصورى ، على سرير الوداع ، قبل أن يدفن الميت » • وقد تعودت قريبات الميت فى قبيلة أرونتا التى تسكن وسط استراليا ، أن ترمى بأنفسهن على قبر الميت ، ويقمن بجرح أجسادهن ورءوسهن لبعضهن البعض ، بضربها بهراوة الحرب أو بعصى الحفر حتى يسيل الدم فوق القبر مارا بالجص الذى يطلون به أجسامهن • كما وصف كاتب كيف أن الاهالى الذين يسكنون عند نهر فاس فى غرب استراليا يضعون جسد الميت بجانب القبر الذى يحفرونه ثم « يجرحون أفخادهم ويقولون عندما يسيل منها الدم ·

لقد جئنا اليك بالدم • ثم يدكون الارض بقدم من أقدامهم . ويرشون الدم من حولهم ويدعكون الجروح بحزمة من فروع الاشجار، ويرمونها وهى مدمية على الرجل الميت » ••

ومما هو جدير بالذكر كذلك ، أن السكان الأصليين فى استراليا يقدمون فى بعض الاحيان شعرهم المقطوع ، ودمهم المسكوب لموتاهم • فيخبرنا سير جورج جراى « أن أهالى بقاع كثيرة فى استراليا يقطعون أجزاء من لحاهم عند الجنازة ويمررونها فوق اللهب ويرمونها فوق جسد الميت • وفى بعض الأحيان يقطعون لحية الميت ويحرقونها ويدلكون أجسامهم برماد الشعر المحترق » • واذا قارنا عادات الاستراليين المحدثين بعادات العبريين القدماء فى الحزن ، فاننا نجد سير جورج جراى يضيف قائلا : « ان النساء جميعا يجرحن أنفسهن ويخدشن وجوههن حزنا على الميت ، وهن كذلك يعبرون عن هذا الحزن بأن يصنعن صلعة فى رءوسهن فيما بين أعينهن وهو المكان الذى تعودن أن يمزقن جلده بأظفارهن » ••

ويبدو أن عادات الحزن عند سكان تاسمانيا الاصليين البدائيين ، تتفق مع العادات السالفة الذكر ، « فالنساء لا يبكين فقط بعد أن يغطين رءوسهن المحلوقة بالجص ، ووجوههن بمزيج من الفحم وشحم حيوان الأمو أو شحم أى حيوان آخر سمين ، ولكنهن يجرحن أجسامهن بقواقع حادة وبالاحجار ، بل انهن يحرقن أفخاذهن بعصى محترقة • كما تطرح الازهار فوق القبر ويغطى الجسد العزيز بالاشجار • أما الشعر الذى يقصصنه فى أوقات الحزن ، فيطرح على ربوة » ••

ولقد استطعنا حتى الآن أن نقتفى أثر عادات قطع الجسم وقص الشعر ، وهما من علامات الحزن على الميت ، بين قطاع كبير من الشعوب ، ابتداء من أكثر الشعوب حضارة فى العصر القديم حتى أكثرهم همجية فى العصر الحاضر ، وبقى لنا بعد ذلك أن نتساءل : ما مغزى هذه الشعائر ؟ ان النيكوباريزيين يقصون شعر رءوسهم

وحواجبهم فى أوقات الحزن للسبب الذى يعزونه ، وهو الظهور بمظهر متنكر لشبح الميت الذى يرغبون فى الروغان منه ، لأنه ، وفقا لتصورهم، لا يمكنه التعرف عليهم بعد أن يقصوا شعورهم • فهل من الممكن أن تكون الشـــعوب جميعا قد اصطنعت كلتا العادتين بقصد خداع الشبح أو طرده اذا ما أصبح أقرباء الميت الاحياء غير معروفين للشبح أو منفرين له ؟ ان كلتا العادتين تعتمد بناء على هذا الفرض ، على الخوف من الشبح • فالمحزونون يأملون عن طـريق جرح أجســامهم وقص شعورهم ألا يتعرف عليهم الشبح أو ينفــر من رءوســهم المحلوقة وأجسامهم الدامية فيبتعد عنهم ، أى أنهم يهدفون الى التخلص من مضايقاته فى كلتا الحالتين •

ولكن كيف يمكن أن يتفق هذا السبب مع الحقائق التى قدمناها ؟ من المؤكد أن الخوف من شبح الميت فى استراليا يرجع الى أمر مــا غير الذى ذكر بهذا الصدد • فلقد رأينا أن الرجل فى قبيلة أرونتا اذا لم يجرح نفسه باتقان حزنا على وفاة حميه ، فان شبح حميه وفقا لاعتقادهم يغضب وينتزع ابنته من أحضان هذا الزوج الذى عصاه ، لأنه لم ينفذ الوسيلة الوحيدة لتهدئة غضبه وهى تجريح جسده على نحو متقن • كما أننا رأينا أن الأرمــلة فى قبيلتى « أونما تجــيرا » و « كايتش » اللتين تسكنان وسط استراليا تغطى جسدها بالرمــاد وتجدد علامة الحزن هذه فى أثناء فترة الحداد • فاذا لم تفعل هــذا « فان شبح الميت « أنتيرينجا » الذى يقتفى أثرها على الدوام ، يقتلها وينهش لحمها » • فالخوف من الشبح واضح فى هذه الحالات ولكنه لا يبدو منها أى هدف لخداع الشبح أو اثارة اشمئزازه عن طريق ظهور الشخص الحزين له فى مظهر تنكرى أو جعل شكله منفرا له • بل ان شعائر الاستراليين فى الحزن تهدف فيما يبدو على العكس ، الى ابراز المحزونين للشبح على هذا النحو لعله يكون مقتنعا بما يبدونه مــن امارات الحزن على الفقيد • فقبيلة أرونتا وغيرها من قبائل وســـط استراليا ، يخشون من الحاق الاساءة بالشبح ومن ثم يكونون معرضين

لايذائه ، اذا هم لم يبدوا امارات كافية على الحزن على فقيدهم • وقد قيل لنا بصدد ما يقومون به من طلاء جسم المحزون بالجص انـــــه « ليست هناك أدنى فكرة لاخفاء شخصية المحزون عن شبح الميت ، بل ان الفكرة على العكس هى أن يجعلوا المحزون ، رجلا كان أو امرأة، مميزا للشبح حتى تتهيأ له الفرصة لأن يرى أن قريب الميت قد حزن كل الحزن على فقد قريبه » • أى ان عادات قبائل وسط استراليـــا تهدف باختصار فيما يبدو الى اشباع رغبة الشبح أو التودد اليه ، أكثر مما تهدف الى الروغان منه أو اثـــارة اشمئزازه • وهذا الهـــدف الحقيقى الذى تسعى اليه عادات الاستراليين فى العموم يؤيده مـــا يتبعونه من السماح لدم الشخص الحزين أن يسقط فوق جسد الميت أو فى قبره ، ووضع شعره المقصوص على الجسد المسجى • فهـــذه الأفعال لا يمكن أن تفسر الا من خلال كونها جزية تدفع لروح الميت أو عطية تمنح له بقصد اشباع رغباته أو تحويل غضـــبه عنهم • وبالمثل رأينا أن المحزونين فى قبيلة « أورانج ساكاى » التى تسكن سومطرة ، يتركون دمهم يسقط من جروحهم التى صنعوها بأنفسهم ، على قطعة من القماش التى تترك بجانب جسد الميت فى نعشه • وبالمثل فان عادة وضع الشعر المقصوص على جسد الميت أو فى قبره كانت تنتشر قديما وحديثا ، عند العرب والاغريق والمينجراليين وهنود أمريكا الشماليـــة والتاهيتيين والتاسمانيين ، بقدر ما كانت تنتشر بين سكان استراليـــا الأصليين • ومن ثم فانه يحق لنا أن ننتهى الى أن الهدف وراء اشباع رغبة الشبح أو الاستفادة منه كانت على الاقل دافعا من الدوافع التى دفعت الشعوب الى اصطناع تلك العادة التى نحن بصددها وهى عادة ايذاء أجسام الأحياء • ولكن قولنا هذا لا يعنى أننا نؤكد أن استرضاء الشبح كان هو الهدف الوحيد الذى من أجله كان الناس يقومـــون بمثل هذه الأعمال الفظيعة ، فربما كانت الشـــعوب المختـــلفة تؤذى أجسامها أو تشوهها بتأثير دوافع عديدة ، وان من بين هذه الدوافـــع المختلفة الرغبة فى ابعاد شبح الميت الخطير وخداعه •

على أنه ما زال علينا أن نتساءل : كيف تصورت هذه الشعوب أن تقديم الدم والشعر لشبح الميت يمكن أن يجلب السرور له أو يعود عليه بالفائدة ؟ فهل تعتقد هذه الشعوب أن الشبح يجد في هذين الشيئين مجرد تعبير عن حزن أصدقائه الصادق لموت قرينه ؟ • ان هذا التفسير هو الذى يعزوه التاهيتيون لهذه العادة بكل تأكيد • ذلك لأنهم يقدمون لشبح الميت دموعهم بالاضافة الى دمائهم وشعورهم • كما انهم يعتقدون أن شبح الميت « يرقب أفعال الأحياء وهو يمتن لابداء مثل هذه المشاعر العاطفية الحزينة » • على أننا اذا كنا قد سمحنا لأنفسنا بأن نتهم الانسان البدائى بالاثرة ، فربما نكون بذلك قد أسأنا الى الشبح البدائى ، اذا افترضنا أنه كان يطلب ضريبة الدم والدموع والشعر ، لا لسبب الا امتاع نفسه برؤية أقربائه من الأحياء فى عذابهم وحرمانهم • ويبدو أنه كان يعتقد فى الأصل أن الشبح يجنى فائدة ملموسة ونفعا ماديا من اظهار العاطفة والحب على هذا النحو • وقد أشار روبرنسون سميث أن الهدف من تقديم دماء المحزونين لشبح الراحل هو خلق عهد دموى بين الحى والميت ، ومن ثم يتأكد الأحياء من وجود علاقة ودية بينهم وبين الميت ، أو انهم يمهدون لها بهذه الوسيلة • وقد أشار روبرنسون سميث ، بقصد تدعيم هذا الرأى ، الى عادة بعض الاستراليين الذى يسكنون عند دارلنج • فهؤلاء كانوا يقطعون قطعة من جسد الميت ويجففونها فى الشمس ثم يقطعون هذه القطعة الى أجزاء صغيرة يوزعونها على أقرباء الميت وأصدقائه • فيقوم بعضهم بابتلاع نصيبه ليكتسب الشجاعة والقوة ، فى حين يرميها البعض الآخر فى النهر حتى يجلب النهر لهم الفيضان والسمك ان كانوا فى حاجة اليهما • فهنا يبدو بدون شك أن تقديم الدم للميت وأخذ جزء من لحمه ، يخلق علاقة من نوع ما بين الأحياء والأموات سواء سمينا هذه العلاقة عهدا أو أى شىء آخر • وقد كانت هذه العادة تتبع بين قبيلة « كاريرا » ، فقد كان أفراد هذه القبيلة يقصون شعر الميت ويصنعون منه خيوطا يرتديها أقارب الميت ، بالاضافة الى عادة اصابة أجسامهم بجروح • فهنا يبدو مرة أخرى أن هناك فائدة متبادلة

بين الأحياء والأموات ، فالأحياء يقدمون دمائهم لقريبهم الراحل ، كما يأخذون منه بعض شعره فى مقابل هـذا •

ومع ذلك فان هـذه الأفعال التى تشير الى علاقات طيبة متبادلة بين الأحيـاء والأموات قليلة للغاية ، بحيث لا نعدها كافية لأن تنتهى الى هـذه النتيجة وهى تعـذيب الأقارب الذين رزئوا فى عزيز لديهم ، عن طريق اصابة أجسامهم بجروح وغير ذلك من أنواع الايذاء الذى يقصـد به دائما أو فى العموم عقـد عهد يضـمن المساعدة والحماية المتبادلة بينهم وبين شبح الشخص المتوفى • ان غالبية الممارسات التى أشرنا اليها فى هـذا الفصل يمكن أن تفسر تفسيرا منطقيا بوصـفها منحا يقدمها الأحياء للميت • ولكننا لا نجـد بعض هذه العادات بل ولا أية عادة منهـا ، اذا استثنينا العادات الاسترالية ، يشـير الى ما يقـدمه الشبح لأقربائه الأحيـاء من ود فى مقابل ما يقدمونه له • وبناء على ذلك فان الفرض الذى يمكن أن يفسر قطع الأحياء لأجسامهم من أجل الميت بوصفه محاولة لاقامة عهد دموى بينه وبين الأحيـاء . ينبغى أن يستبعد فيما يبدو على أساس أن الشـواهد لا تؤيد هـذا الفرض كل التأييد •

على أن هناك تفسيرا أكثر وضوحا وأكثر بسـاطة لعادة اصـابة الأحياء أنفسهم بجروح تشير اليه عادات بعض القبائل الهمجية التى تمارس هذه العادة • فلقد رأينا أن عادة اصـابة الأحياء لرءوسـهم وترك الدم يتساقط منها على جسد الميت ، كانت تنتشر بين القبائـل الاسترالية التى تسـكن عند نهر دارلنج • أما العادة المتبعة اليـوم بين هذه القبائل ، أو بالأحرى كانت متبعة بينهم من زمن ، فهى عادة الاحتفـال بسن البلوغ • « ففى اليومين الأولين من هذا الاحتفـال لا يشرب الولد سوى الدم الذى ينزف من شرايين أصدقائه الذيـن يتطوعون عن رضا بمده بالغذاء • فهؤلاء الأصـدقاء يربطون أذرعهم من أعلى ، ثم يقطعون شرايين أسفل الرباط ويجمعون الدم فى وعاء

خشبى أو فى قطعة من اللحـــاء فى شـــكل طبق • ثم يركع الولد على ركبتيه فى سريره المصنوع من فروع شجيرات الفوكسيا ، يضم يديه خلفه ويلعق الدم بلسانه من الوعاء الموضوع أمامه كما يفعل الكلب • وبعد هذا يسمح له أن يأكل لحم البط الى جانب شربه الدم » • ومرة أخرى نجد « أن المريض بمرض شديد أو الشخص الضعيف » بين هذه القبائل نفسها « يتغذى بالدم الذى يقدمه له أصدقاؤه من الرجال بالطريقة التى سبق أن شرحناها • ويرتشف الصبى هذا الدم بطريقة ساذجة ، فهو يرفع هذا الدم المتجمد الى فمه بين أصابعه والابهـــام • ولقد رأيتهم يطهون الدم فى وعاء خشـــبى يوضـــع وســـط الرمـــاد المتوهج » • ومرة أخرى يخبرنا هذا الكاتب نفسه وهو يتحدث عـــن هذه القبائل نفسها فيقول : « وفى بعض الأحيان يحدث أن ينتقل الأفراد بخيامهم ويقومون برحلة طويلة عبر الأراضى الجرداء ومعهم الرجـــل المريض الذى يحمله رجال أشداء يتطوعون بدمهـــم للمريض حتـــى يصابوا بالضعف والاعياء ، ذلك لأنهم يعتقدون أن الدم هو أفضـــل غذاء للمريض » • واذا كانت هذه القبائل الهمجية تقدم الدم غـــذاء للمرضى والضعفاء من أصدقائهم الأحياء فما المـــانع اذن أنهم كانـــوا يفعلون هذا مع أقربائهم من الأموات ؟ لقد كان ســـكان اســـتراليا الأصليون شأنهم شـــأن كل القبائل الهمجيـــة • يعتقـــدون أن روح الانسان تعيش بعد فناء الجســـد • وقد يكون من الطبيعى بنـــاء على ذلك أن الروح فى حالة تحررها من الجســـد ينبغى أن يمـــدها أقرباؤها بالغذاء الأساسى الذى طالمـــا كانوا يقدمونه له فى حيـــاته ليتقوى به • ولقد قدم أوليسيوس ، بناء على هذا الأساس نفســـه ، عندما وصل الى أرض الأموات فى بلد « سيميريان » النائية شـــاة ضحية وجعل دمها يتدفق فى خندق تجمعت حوله الأشباح الضعيفة فى شغف ، وأخذت تشرب الدماء ، وبذلك استعادت قوتها وأصبحت قادرة على أن تتحدث مع البطل •

ولكن اذا كان الدم الذى يقدمه المحزونون كان يراد به انعـــاش

الشبح ؛ فما سبب تقديمهم الشعر له ؟ وقد نتصور أن الشبح يشرب الدم ولكن من الصعب أن نتصور أنه كان فى حالة من الجوع الشديد بحيث يلتهم الشعر • ولكن ما زال علينا أن نتذكر أن الشعر . وفقا لمعتقدات بعض الناس . هو الشيء الأساسى الذى تسكن فيه قوة الشخص • وربما تصور هؤلاء أن قصى الشعر بناء على ذلك وتقديمه للميت . يمده بمنبع من القوة لا يقل فى وفرته وأثره الفعال عن الدم الذى يقدم له • واذا كان هذا الفرض صحيحا فان التطابق بين عادة اصابة الجسم بجروح وعادة قطع الشعر تبدو واضحة • على الرغم من أن هذا هو التفسير الحقيقى لكلتا العادتين ، فان الشواهد التى بين أيدينا ليست كافية لكى تجعلنا نتحمس له فى ثقة •

ومهما يكن الأمر فان بحثنا السابق يميل لأن يؤكد وجهة النظر من حيث أن انتشار عادات قطع أجسام الأحياء ، وقص شعرهم بعد فقد عزيز لديهم . نشأت فى الأصل بقصد أرضاء روح الراحل وخدمتها على نحو ما • وبناء على ذلك ، فحيثما انتشرت هذه العادات . فانها تؤخذ كشاهد على أن الناس الذين اتبعوها كانوا يعتقدون فى بقاء الروح بعد موت صاحبها ، وكانوا يرغبون فى اقامة علاقة ودية معه • وبتعبير آخر ؛ فان انتشار هذه العادات تعنى استرضاء الميت أو تقديسه • وحيث أنه يبدو أن العبريين قد مارسوا عادة اصابة الأجسام بجراح وعادة قص الشعر احتراما لأقربائهم المتوفين ، فاننا نضمهم بشيء من الثقة الى زمرة القبائل المتعددة والشعوب التى كانت تنزع الى تقديس الأجداد فى زمن أو آخر • وقد كانت هذه العقيدة تتمتع من بين كل أشكال الديانات البدائية بانتشار واسع ، وبتأثير كبير على الشعوب • ومن المحتمل أن العلاقة الوثيقة بين عادات الحزن وتقديس الأموات كانت معروفة لدى الاسرائيليين حتى قرب عصر الملوك • وربما أمدت المصلحين الدينيين فى هذا العصر بالدافع الأساسى وراء تحريم عادات الحزن الغريبة هذه ، تلك التى عدوها بحق أثرا من آثار الوثنية •

الفصل الرابع

الثور الذى يؤذى بقرنه

لقد نص فى كتاب العهد ، وهو أقدم مجموعة من القوانين التى تحتوى عليها الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ، على أنه « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه . أما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد اشهد على صاحبه ولم يضبطه ، فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل » (١) . أما فى مجموعة القوانين الكهنوتية التى تعد أقدم بكثير من مجموعة القوانين الأولى ، فان القانون الذى ينظم عقوبة الحيوانات التى تنزع الى القتل ، ينص عليه فى وضوح أكثر من ذلك بوصفه جزءا من القانون العام للأخذ بثأر الدم الذى أوحى به الرب الى نوح بعد الطوفان . وهذا القانون هو : « غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه ، وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان ومن يد كل حيوان أطلبه . سأسفك دم الانسان بالانسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الانسان » (٢) .

وقد كانت القبائل الهمجية تنفذ قانون الأخذ بثأر الدم على هذا النحو من الصرامة . حقا ان بعض هذه القبائل كانت تبالغ فى قانون

---

(١) سفر الخروج ٢١ : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) سفر التكوين ٩ : ٥ ، ٦ .

الأخذ بالثأر أكثر من هذا ، عندما كانت تطالب بتحطيم الأشياء المادية التي تسبب عرضا فى قتل الكائنات الحية • ومثال هذا ؛ ان قبيلة « كوكى » التى كانت تستوطن « تشيتا جونج » فى شمال شرق الهند ، كانت تميل الى الأخذ بالثأر من القاتل ، شأنهم شأن الشعوب الهمجية الأخرى • فجزاء القتل هو القتل • « فاذا قتل نمر أحد أفراد القبيلة بالقرب من قرية ، فان القبيلة بأسرها تهم وتقتفى أثر الحيوان • فاذا نجحوا فى قتله فان أسرة المقتول تعد وليمة من لحم النمر المقتول انتقاما منه لقتله أحد أفرادها • فاذا فشلت القبيلة فى قتل النمو فى أثناء اقتفائها لاثره فى المرة الأولى ، فانه يتحتم عليها أن تظل مقتفية أثره • وتظل أسرة القتيل موضع احتقار القبيلة ، كما تظل بعيدة عن اجتماعاتها حتى تنجح فى قتل النمر أو بديله ؛ واقامة وليمة على لحمه • ويحدث هذا قتل نمر أحد أفراد جماعة من الصيادين أو أحد أفراد جماعة من المحاربين الذين يقومون برحلة انتقامية من عدو لهم ، فانه لا يستطيع فرد من أفراد احدى هاتين الجماعتين العودة الى القرية قبل أن يقتل النمر ، والا لحق الخزى بهذه الجماعة • وهناك مثال آخر لهذه العادة يدعو الى مزيد من العجب هو : أنه اذا حدث أن هوت شجرة على رجل وقتلته عرضا ، فان أقرباءه جميعا يجتمعون ويعملون القطع فيها • ومهما يكن حجم الشجرة فانهم يواصلون قطعها حتى تصبح شظايا متناثرة يذرونها فى الرياح ، لأنها كما يقولون كانت سببا فى قتل اخيهم » ••

وعلى هذا النحو ينتقم شعب « الأينو » ؛ وهو شعب بدائى يسكن فى اليابان ، من أية شجرة سقطت على رجل فقتلته • فاذا حدث مثل هذا الحادث ، « فان الناس يستشيطون غضبا ويتقدمون لاعلان الحرب على الشجرة ، فهم يجتمعون ويؤدون شعائر محدودة يطلقون عليها اسم « نيوكويش رو رومبى » • فاذا استفسرت عن هذا الاسم قيل لك : « تسلق رجل شجرة وسقط منها ومات ؛ أو اذا كان رجل يقطع شجرة فسقطت عليه وقتلته ، فان هذا النوع

من المـــوت يسمى « نيوكويش » • والذى يتسبب فى حـــدوث هذا الموت حشـــد من الشياطين التى تسكن أجزاء مختلفة من جذع الشجرة وفروعها وأوراقها • ومن ثم يتحتم على الناس ان يجتمعوا وأن يعملوا القطـــع فى الشـــجرة ؛ حتى تصير شظايا صغيرة تذرى فى الهـــواء • واذا لم تحطم الشجرة على هذا النحو فانها تظل خطيرة ؛ لأنها تظل مأوى للشياطين • فاذا كانت الشجرة ضخمة للغاية بحيث يصعب قطعها قطعا صغيرة ، فانها تترك مكانها ويعلم حولها بحيث لا يقترب أحـــد منها » • ويحرق أقرباء القتيل عند الســـكان الأصليين الذى يسكنون فيكتوريا الجنوبية سلاح العدو الذى قتل به قريبهم ؛ سواء كان رمحا أم أى سلاح آخر • وبالمثل فقد تعود أهالى جنوب استراليـــا أن يحرقوا طرف الرمح الذى قتل رجلا • وقد فسر الأهالى هذه العادة بقولهم ان روح القتيل تلتصـــق بطرف الرمح ، وهو لن يبرحه ليسكن المـــكان المناسب له ؛ الا اذا حرق طرف الرمح • واذا ارتكبت جريمه قتل بين قبيلة اكيـــكويو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، فـــان كبار رجال القبيلة يمسكون بالرمح او الســـيف الذى كان سببا فى القتل ويظلون يضربونه حتى يثلم ، ثم يرمونه فى أقرب نهر عميق • وهـــم يقولون انهم اذا أهملوا مثل هذا ، فان هذا الرمـــح سيظل يقترف جـــرائم قتل أخرى • ويحدثنا كاتب عاشر بنفســـه بعض القبائـــل التى تسكن شرق افريقيا البريطانى حول هذا الموضوع ؛ فيقـــول : « ان الأهالى ينظرون الى الســـلاح الذى قتل شخصـــا نظرة خـــوف وفزع ، لأنه اذا كان قد تسبب فى جريمة قتل مرة ؛ فانه يصبح بعد ذلك نزاعا الى القتل على الدوام • ومن ثم فان قبيلتى « أكيكويو » و « أثيراكا » ؛ تأخذان فى ضرب الرمح حتى يثلم ؛ وبعد ذلك يدفنـــه رجال القبيلة • وتتبع قبيلة « أكامبا » طريقة مختلفة فى التعامل مـــع مثل هذا الرمح ؛ وهى طريقة تنم عن شخصيتهم المـــاهرة • فالاعتقاد السائد بينهم ؛ هو أن السهم الذى تسبب فى قتل شخص لا يمكن أن يفقد روحه الميتة لأنها تسكن مع الشخص صاحب هذا السهم • وكذلك

يمتلك القوس لمثـل هذه الخاصية • فبمجرد أن يقتل رجل ماكامبانى(١) أى رجل آخر ، فانه يحث شخصا آخر ان يحتال على سرقة هـــذا السهم منه • وهذا السهم يكون فى بداية الأمر فى حوزة أقارب المقتول. فهم ينتزعونه من الجرح ويخبئونه ليلا بالقرب من قرية المجرم • وعندئذ يهم النـــاس بالبحث عنه • فاذا وجدوه ، فاما ان يعودوا بـــه الى القرية الأخرى أو يضعونه فى الطريق فى أى مكان ، على أمل أن يلتقطه أى شخص مار وبذلك تتحـــول اللعنة اليه • وحيث أن الناس يحذرون من العثـــور على مثل هذا الرمح ، فان السهم يظل فى الغالب فىحوزة القاتل •

وتوجد فى قانون الملايو المطبق فى مالاكا فقرة تنص على طريقـــة التعامل مع الجاموس والمـــاشية الشرسة على النحو التالى : « اذا كان الحيوان يعيش داخل غابة فى مكان غير مطروق ، ثم حدث أنه قتـــل شخصا ، فان هذا الحيوان يعاقب بالقتل • ويمتد الاخذ بالثـــأر عند قبيلة تواردجا التى تتحدث اللغة البارية وتسكن سيليبس الوســـطى ، الى الحيوانات • فالجاموسة التى تقتـــل رجـــلا ، يحـــكم عليهـــا بالاعدام • وهذا طبيعى تماما » ، لأن التورادجا لا يرون الحيـــوان مختلفا عن الانسان الا فى مظهره الخارجى • فاذا كـــان الحيـــوان لا يستطيع الكلام ، فلأن خرطومه أو حلقه يختلف عن فم الانسان • واذا كان الحيوان يجرى على اربع ، فلأن يديه (أى كراعيه الأماميين) يختلفان عن يدى الانسان • واذا قتـــل التمساح شخصا ، فان أسرة القتيل تقتل مقابل قتيلها تمساحا ، أى أنها أما أن تقتل التمســـاح القاتل ، أو أحد أفراد أسرته • فاذا كان عدد التماســـيح القتـــلى أكبر من عدد الرجال ، فان التماســـيح يكون لهم عنـــدئذ الحـــق فى الانتقام ، والناس على يقين من أنهم سيفعلون ذلك ، فيأخذون بثأرهم من أى شخص ما • واذا لم يتسلم الكلب نصـــيبه من الغنيمة فى الصيد

---

(١) ماكامبانى مفرد أكامبا •

(المؤلف) •

الذى يشترك فيه ؛ فانه يأبى أن يشترك فى الصيد من الغنيمة فى المرة التالية وذلك لشعوره بالظلم الذى وقع عليه • وينظر التورادجا الى حقـــوق الحيوان نظرة أكثر وعيا مما نفعل نحن الآن • وهو ينظر بصفة خاصـــة الى التندر به نظرة خطيرة ، فاذا رأى على سبيل المثال شخصا يلبس قردا لباس انسان ، فانه يحمل عليه حملة شعواء ويتنبأ إثـــر ذلك بهبوب عواصـــف عاتية ، وبحدوث فيضانات تترتب على ســـقوط الأمطار الغزيرة • ومن ثم فانه لا يستطيع أحد أن يسخر من قط أو كلب دون أن يفلت من العقاب • ويحكم « البوجويون » ، وهـــم قبيلة تســـكن ضواحى شمال الحبشة ، على البقرة أو الثور أو أى رأس من قطعان ماشيتهم بالاعدام ، اذا ما قتل شخصا •

وقد رأى مستر « توردای » عند مدخل قرية « باياكا » التـــى تقع فى وادى الكنغو ، مشنقة نصبت بطريقة بسيطة ، وقد علق عليها كلب ميت • وقد علم من أهالى القرية أن هذا الكلب الذى كان قـــد اشتهر بوصفه لصا ، اعتاد أن يقتنص الطيور • ومن ثم فقد علـــق جسده ليكون شاهدا للناس على خيانته • واذا قتل حيوان شخصـــا عند عرب البتراء (ســـلع) ، فانه يتحتم على صاحب الحيوان أن يطرده ، وهو يصرخ وراءه قائلا : أيها الوغد ، أيها الوغد » • وليس فى وسعه بعد ذلك أن يسترد ملكيته لهذا الحيوان ، الا اذا دفـــع دية الدم الذى تسبب الحيوان فى ســـفكه • واذا تسببت شـــاة أو نعجة من بين قطيع شخص ما فى اسقاط حجـــر كبير عند منحدر فى قتل شخص دون أن يعرف على وجه التحديد هـــذه الشـــاة أو تلك النعجة التى تسببت فى اسقاط الحجر ، طارد صاحب القطيع القطيع بأسره ، فى الوقت الذى يصرخ به قائلا : « اعربوا عنا أيها الأوغاد » ••

وقد عرفت قانون الأخذ بالثأر أمم اخرى فى العصـــور القديمـــة خلاف اليهود • فقد نص فى « الزند أفستا » وهو الكتاب الذى يتضمن قانون الفرس القديم (المجوس) على ان الكلب المسعور أو ذلك الذى

يعض دون أن ينبح ، فيؤذى شاة أو يجرح رجلا . هذا الكلب أو ذاك يحاسب على عمله هذا بوصفه عملا متعمدا • فاذا أذى الكلب شاة أو جرح رجلا ، بترت أذنه اليسرى • فاذا أذى شاة أخرى أو جرح رجلا آخر ، بترت أذنه اليمنى • فاذا أذى شاة ثالثة أو جرح رجلا ثالثا ، قطعت قدمه اليمنى • فاذا أذى شاة رابعة أو جرح رجلا رابعا ، قطعت قدمه اليسرى • فاذا أذى للمرة الخامسة شاة أو جرح رجلا ، قطع ذيله ثم يربط فى عامود من جانبى طوق يحيط برقبته • فاذا لم يفعلوا هذا بالكلب ثم تسبب الكلب المسعور أو ذلك الذى يعض دون أن ينبح ، فى ايذاء شاة أو جرح رجل ، حوسب حساب من يرتكب جريمة متعمدة • ويلاحظ على العموم أن مشرع القانون الفارسى القديم قد عامل الكلب المجرم بصبر بالغ ؛ فقد منحه خمس فرص للتخلص من طبعه قبل أن يعاقبه أقصى عقوبة سنها القانون لمجرم يتعذر اصلاحه •

وقد كان فى أثينا ، قلب الحضارة القديمة فى أوج ازدهارها ، محكمة خاصة بمحاكمة الحيوانات والأشياء المادية التى تتسبب فى قتل الكائن الحى • وقد كانت هذه المحكمة تقع فى نادى المدينة (بريتانيوم) ولم يكن مركز القضاة دون مركز ملك أتيكا المتوج ، ومركز الملوك الأربعة المتوجين لقبائل أتيكا المنفصلة • ولما كان نادى المدينة فيما يبدو ، أقدم مكان سياسى بحق فى أثينا ، اذا استثنينا قلعة الأكروبول التى كانت تشمخ بصخورها الناتئة وجدار سطحها العابس خلف المحكمة مباشرة ، وحيث أن ملوك القبائل المتوجين كانوا يمثلون ملوك القبائل القدامى الذين حكموا زمنا طويلا قبل أن يطوح سكان اتيكا بالحكم الملكى ، ويتبنوا الشكل الجمهورى للحكم ، فانه يحق لنا أن ندعى أن المحكمة التى كانت تعقد فى هذا البناء الرهيب ويشرف عليها هؤلاء القضاة المهيبون كانت قديمة للغاية • ومما يؤكد هذا الرأى طبيعة الحالات التى كان يحكم فيها ، حيث أننا نجد ما يماثلها فى نظام الحكم البدائى للقبائل الهمجية البدائية ، تلك القبائل

التى سكنت الهند وافريقيا وسيلييس • ولم يكن المتهمون الذين يقفون خلف الحواجز رجالا أو نساء ، بل كانوا حيوانات وآلات أو قطعا من الأحجار والأخشاب والحديد التى سقطت على أم رأس شخص فقتلته دون أن تعرف اليد المباشرة التى قتلته • على أننا لا نعرف شـيئا عما كان يفعل مع هذه الحيوانات المتهمة ، ولكننا قد أخبرنا أن ملوك القبائل كانوا يبعدون الشىء الذى سقط على رأس الانسان وقتله ، فيما وراء الحدود • وفى كل عام يحاكم الفـأس أو السـكين الذى استخـدم فى ذبـح الثـيران فى أعيـاد زيوس التى كانت تقام فى الأكروبول ، أمام هيئة القضاة المتربعين على كرسى القضاة ، كما كانت توجه تهمة القتل لهذه الآلة فى كل عام حتى يثبت جرمها وتعدم وتطرح فى البحر • وقد سخر الشـاعر اليونانى الساخر اريستوفان من عقد الأثينيين لهذه المحاكم ، فوصـف فى احدى مسرحياته محلفا عجوزا مجنونا يحاكم كلبا بـكل ما للمحاكمة من تقاليد رسمية ، لأنه سرق قطعة من الجبن وأكلها • وربما كانت فكرة المنظر المشهور الذى اقتبسه « راسين » فى مسرحيته الكوميدية الوحيدة « المتقاضين » قد تمثلت للشاعر الأثينى وهو يقضى ساعة بليدة من الزمن بين المتفرجين فى ساحة القضـاء ، وهم يرقبون فى متعة مكبوتة محاكمة الكلب والثور والحمار ، ويقفون سجناء وراء الحاجز ، بتهمـة العض الاجـرامى العنيف ، أو بتهمة اصابة الأشخاص بجروح بقرونها أو بتهمة الركل ، الى غير ذلك من التهم •

والأمر الذى يدعو حقا الى العجب ، هو أن أفلاطون ، فيلسـوف المثالية الكبير ، قد خلع عباءة نفوذه على هـذه الطقـوس الغريبـة للمحاكمات البربرية ، عندما اقترح تجسيد هذه الطقوس فى قـوانين مدينته المثالية التى رسمها قرب نهاية حياته • ومع ذلك فينبغى أن نقر أنه عندما كان بصدد صياغة « القوانين » فقدت يد الفنان المسـن المرتعشة كثيرا من حنكتها ، بحيث بدت ألوان لوحته التى صور عليهـا صورته الأخيرة باهتة للغاية بقدر كبر تلك اللوحة ، وذلك اذا قيسـت

بألوان « الجمهورية » الزاهية • ولقد رأت فيها بعض الكتب تدريجيا آثار ذبول رونق الخيال ، وأفول العبقرية فى غضون السنين • ومن ثم فقد بدت شمس أفلاطون فى هذا العمل الأخير من خلال الضباب الذى تجمع من حولها فى وقت الغروب • أما الفقرة التى اقترح فيها الفيلسوف النظام القانونى الذى يتلاءم مع مدينته المثالية ، فتجرى على النحو التالى : « اذا قتل حيوان يحمل الأثقال أو أى حيوان آخر رجلا، باستثناء ما يحدث فى الالعاب الشعبية حيث تمارس رياضة المنافسة بين الحيوان والانسان ، فان أقرباء الشخص المقتول يعدمون الحيوان بسبب جريمته • وفى هذه الحالة يشرف القضاء على الممتلكات الشعبية وفقا لما يحدده أقرباء الميت • فاذا تثبتت التهمة على الحيوان ، فانه يعدم وتطرح جثته خارج حدود المدينة • فاذا تسبب شىء مادى باستثناء الصواعق وغير ذلك من الكوارث التى يبتلى بها الآله البشر ، فى قتل انسان نتيجة سقوطه عليه أو لأن الشخص سقط عليها ومات أثر ذلك ، فان أقرب قريب للشخص المتوفى يقتص لنفسه ولأهله من هذا الشىء • وينصب أقرب جيرانه قاضيا ليحكم فى هذا الموضوع • فاذا ثبتت التهمة على هذا الشىء ، فانه يطرح وراء الحدود كما يفعل مع الحيوان القاتل » •

ولم يكن الحكم على الشىء المادى باعدامه لتسببه فى قتل الانسان غريبا فى بلاد الاغريق • فقد كان قانون جزيرة « ناسوس » يقضى بأن يحاكم الشىء المادى الذى هوى على شخص ما وتسبب فى قتله • فاذا ثبتت التهمة ضد هذا الشىء طرح فى البحر • وقد كان يقف وسط مدينة « ناسوس » تمثال برونزى لملاكم شهير كان يدعى « ثياجينيس » ، وكان قد حصل فى أثناء حياته على جوائز عديدة فى حلبة الملاكمة ومن ثم فقد تعلق به الناس بوصفه ألمع معالم بلدهم • ثم حدث أن كان يجىء الى هذا التمثال كل ليلة شخص حقير يكن الحقد لهذا الملاكم ، ويضربه ضربا يسمع له دوى • وظل التمثال يتحمل هذه المعاملة فى سكون وقور ، ولكنه فى النهاية لم يعد يتحمل تلك الاهانة

فهـوى على المسىء الجبـان وقتله . وعند ذاك رفع أقرباء القتيـل دعواهم أمام القضاء . واتهموا التمثال بارتكاب جريمة القتل . وبالفعل أدين التمثال وحوكم ، وطرح فى البحـر . وقد نفذ مثل هذا الحـكم ضد بعض تماثيل الأولمب ؛ أو أن الناس على الأقل ارتابوا فى أمرها بسـبب ارتكابها جرائم قتل على هذا النحو . فذات يوم كان ولد صغير يلعب تحت تمثال لثور من البرونز كان يقف فى المنطقة المقدسة . وبينما كان الطفل يرفع رأسـه فجأة ارتطمت رأسه ببطن الحيـوان المعدنى فشجت وتوفى اثر ذلك . فقرر عراف الأولمب أن يبعد الثور عن المـكان المقدس بعد أن اتهم بارتكاب جريمة القتل المتعمد . على أن نبوءة دلف ترفقت بالتمثال ، وعدت هذا الفعل عملا غير متعمد ؛ ومن ثم نفذت ضـده حكم القتل غير المتعمد . وأقر عراف الأولمب هـذا الحكم وأدى للتمثال البرونزى طقوس التطهير المقدسة التى كـانت تقام عادة فى حالات القتـل غير المتعمد ، وذلك وفقا لمـا أشارت به نبوءة دلف . وقد قيل أنه عندما توفى « سكبيون الافريقى » تأثـر تمثال لأبولو فى روما لموته ، الى درجة أنه أخذ يبكى مدة ثلاثة أيام . ولمـا رأى الرومانيون أن التمثال قد بالغ فى حزنه على المتوفى ، حطموا التمثال المـرهف الحس الى قطع صـغيرة وطرحوها فى البحـر . بل إن الحيوانات لم تكن تفلت من عقوبة القانون الصارمة ؛ فهناك تشريع قديم أو عادة قديمة تنسبها الرواية الشعبية الى المشرع الملكى والمصلح « نوما » ، تنص على أنه اذا اقتلع رجل حجرا عنـد حدود بلده لا يقدم وحده ضحية لآله الحدود، بل يقدم معه ثوره الذى اعانه على تدنيس المقدسات . أى أن كلا من الرجل وحيواناته يصبحـان خارج حمـاية القانون ؛ ومن ثم يحق لأى شخص أن يقتلهما دون أن يعاقب على ذلك .

ولم تكن هذه التصورات والطقوس التى ترتكز عليها ، تقتصر على القبائـل الهمجية والشـعوب التى كانت تعيش فى عصـور الوثنية القديمة ؛ فقد كانت الحيوانات الدنيا ، حتى زمن قريب نسبيا ؛ تعـد

بـــدون استثناء فى أوربا مســئولة أمام القـــانون • ومن ثم كانــت الحيوانات المنزلية تحاكم فى المحاكم الجنائية العادية ، وكان يحــكم عليها بالاعدام عقابا لها على ارتكابها جرائم القتل • أما الحيـــوانات المتوحشة فكانت تخضع لسلطان الكنيسة القضـــائى • وكان يـــحكم عليها بالنفى أو الموت عن طريق التعزيم عليها أو اعلان حرمانها • ولم يكن هذا العقاب يحدث مصادفة بحال من الأحوال ؛ اذا صـــدق ان القديس باتريك كان يعزم على الزواحف فى أيرلندة حتى تلقى بنفسها فى البحر ، أو أنه كان يحولها الى أحجار ، وأن القديس « برنارد » أعلن الحرمان على الذباب الذى كان يطير حوله ويزعجه بطنينه وأرداه قتيلا على أرض الكنيســـة • وقد اعتمد حق الامتياز الذى منحـــه القانون اليهودى فى كتاب العهد للحيوانات لمثولها أمام المحكمة على أساس ثابت كالصخر • وقد كان يعين لهم فى كل حالة محامون للدفاع عنهم . كما كانتتسير الاجراءات المختلفة للحكم وهى المحاكمة والنطق بالحــكم ثم التنفيذ بمراعاة تامة لأشكال العدالة وجلالة القانون • وقد كشف الباحثون فى الآثار الفرنسية القديمة عن سجل يحتـــوى على اثنتى عشرة محاكمة قدمت للمحاكم الفرنسية فيما بين القرن الثانى عشر والثامن عشر • وقد كان آخر ضحية هذه المحاكمات التى خضعت لمـــا يمكن أن نسميه الشريعة اليهودية ، بقرة طبق عليها أقسى بنـــد فى هذا القانون عام ١٧٤٠ م • ومن ناحية أخرى ؛ فان الحق الشرعى لأصحاب النفوذ الكنسى فى ممارسة السلطان القضائى على الحيوانات المتوحشة والحشرات الدنيا مثل الفئران والجراد واليسروع ، ومـــا أشبـــه ذلك ، لم يكن يرتكز بوجه عام ؛ أو هو يبدو هكذا لأول وهلة . على نصوص مدونة واضحة وخالية من اللبس • ومن ثم كان ينبغى أن يستخلص هذا الحق من الكتب المقدسة عن طريق سلسلة مـــن القياسات التى كانت تكون الحوادث التالية حلقاتها الصلبة • فحيث أن الرب قد لعن الحية التى خدعت حواء وحيث أن داود قد لعن جبـــل جلبـــوع بسبب موت « شاءول ويوناثان » عنده . وحيث أن المسيح المخلص قد لعن شجرة التين ، لأنها لم تحمل الثمار فى العام المنصرم ،

فإنه يتبع هذا فيما يبـــدو ، أن يكون للكنيســة الكاثوليكـية بالمثل الحق الكامل والنفوذ فى أن تطهر المخلوقات الحية والجامـــدة بـــدون استثناء من الرذائل ، وأن تحل عليها اللعنة ، وتحـــكم عليها بالهلاك الأبدى • حقا ان بعض العالمين بقوانين الكنيسة ازدروا مثل هـــذا الادراك التافه للعلم والفلسفة الانسانية ، وأثاروا اعتراضات تافهـــة عن طريق سلسلة من الجدل الذى يبدو للعقل البسيط أنه متعذر دحضه، فقد زعموا أنه لكى يتمكن أصحاب النفوذ من معاقبة المسىء ، فان هذا يقتضى وجود عقد أو ميثاق أو شرط بين القوى العلوية التى تعد مصدر القوانين . والخاضعين لهذا القانون • وحيث أن الحيوانات الدنيئـــه لا يمكن أن تخضع لعقد أو ميثاق أو شرط لأنها مسلوبة الارادة ، فلا يمكن أن تحاكم هذه الحيوانات قانونيا عن أعمال ارتكبتها وهى جاهلة بالقانون • كما تمثل جدلهم فى أن الكنيسة لا يمكن فى أى شـــكل من أشكال العدل ، أن تحل اللعنة بهذه الكائنات التى رفضت أن تعمدها • ثم ركزوا دفاعهم على سابقة لواحد من رؤساء الملائكة هو ميكائيل ، الذى رغم صراعه ضد الشيطان بسبب استحواذه على جسد موسى ، لم يتهم الحية القديمة بأية تهمة ، وانما ترك أمر احلال اللعنة بها الى الرب • على أن مثل هذه المماحكة والمراوغة اللتين تفوح منهمـــا فى قوة رائحة النزعة العقلانية لم تكن تجدى أمام ســيطرة الكتابـــات المقدسة القوية الصلبة ، وأمام العادات المتوارثة التى اعتمدت عليها الكنيسة فى تشريعها • وفى العموم كانت الطريقة التى تتبعها الكنيسة فى هذه المحاكمات تسير على النحو التالى :

اذا عانى ســكان حى من غارات حيوانات أو حشرات مـــؤذية أو من كثرتها المتزايدة ، فانهم يرفعون شكواهم ضد هذه الحيوانات أو الحشرات المعنية للقضاء الكنسى المختص بذلك • ثم تعين المحكمة بدورها خبيرا يقوم بالتحقيق فى هذا الأمر وتقديم تقرير عن الخسائر التى تسببها هذه الحيوانات أو الحشرات • وبعد ذلك يعـــين محـــام للدفاع عن هذه الكائنات يدلى بالسبب الذى من أجله ينبغى الا يستدعى

هذه الكائنات أمام المحكمة • وعند ذاك ينادى على هـــذه الكائنـــات المتهمة فى ساحة القضاء ثلاث مرات • فاذا لم تجب فانها تحاكم بتهمة الاهمال • ثم تلفت المحكمة نظر هذه الكائنات ، منذرة اياها بتـــرك الحى فى خلال فترة محددة ، والا وقعت تحت طائلة عقوبة المناشدة التى لم تنفذ • فاذا لم تفعل هذا قبل أن تنقضى الفترة المحددة أو فى نهايتها حكمت المحكمة بتلاوة الرقى والعزائم عليها • على أنه يبدو أن المحاكم كانت تحذر كل الحذر من أن تدفع الأمر الى نهايته ، بحيث تصل به الى حدود النطق باحلال اللعنة على هذه الكائنات ، ومـــن ثم فانها كانت تلوذ بكل حيلة وذريعة تتجنب هذه النتيجة المؤلمة . أو هى تحاول على الأقل ارجاءها • وربما كان الدافع وراء هذا التأجيل الذى قد يصـــل بالأمر الى حد ثورة الكنيسة على هذه الكائنات هـــو مراعاة مشاعر هذه الحشرات التى كان من المقدر لها أن تعصف بها الكنيسة • وان كان بعض المتشككين يرون أن السبب الحقيقى وراء هذا الارجاء هو الخوف من أن الحيوانات قد لا تكترث بهذا الحكم ، بل أنها قد تتكاثر فى ظله ، كما حدث فى بعض الحالات ، بدلا من أن تختفى بعد احلال اللعنة بها على هذا النحو • ولم يكن الدفاع على استعداد لأن ينكر أن تكاثر الحشرات الطفيلية غير الطبيعى قد حدث حقا فى ظل ظروف حرمانها من رحمة الكنيسة ، ولكنه كان يعزو هذا . بكل أشكال الجدل العقلانى الى مكيدة الشيطان الذى ، كما يعزو مـــن قصة أيوب ، قد سمح له أن يتجول فى الأرض لكى يضايق أيوب ، ويجلب له كل أسباب الحزن ••

وليس من المعقول أن نتوقع ان احـــلال اللعنة بالحيوانات كـــان الغرض منه منفعة قسس الابرشيات الذين تأخروا فى دفع ضريبـــة العشر للأبرشية ، حيث أن القانون قد نص أساسا على أن أفضـــل الطرق لطرد الجراد هو دفع ضريبة العشر ، مرتكزا فى ذلك على سند متين من كلام النبى « ملاخى » الذى صور الرب معنفا كل التعنيف لليهود الذين تأخروا فى دفع ضريبة العشر له • وصورا بكل أساليب

الاغراء البركات التى سوف يمطرها الرب على هؤلاء اذا ما دفعوا الضريبة للأبرشية ، ومتعهدا لهم بأنهم ان فعلوا هذا ، فانه سيقضى على الجراد الذى يتلف المحصول • ويشير هذا النداء الملح لدفع الجزية ، ولحث المتعبدين على التقوى ، الى الفقر البالغ الذى كانت تعانى أماكن العبادة منه فى زمن النبى • وربما أوحى تعنيفه المثير بخطب الوعظ التى كانت تلقى فى مثل هذه الظروف على المنابر فى العصور الوسطى •

والى هنا نكتفى بهذا القدر من الاشارة الى الاسس العامة ، التى كانت ترتكز عليها محاكمات الحيوانات واعدامها فى الأزمنة السالفة فى أوروبا • وربما كان فى تقديم بعض الشواهد لهذه المحاكمات المدنية والكنسية ، ، عون لنا على ادراك حكمة أجدادنا ادراكا سليما ، إن لم يكن هذا دافعا لنا على تقدير جلالة قانونهم •

فقد دامت الدعوى بين سكان مقاطعة القديس جوليان وحشرة مغمدة الجناح تعرف الآن عند علماء الطبيعة باسم Phuchites Au·atus فترة تزيد عن اثنين وأربعين عاما • وفى النهاية اقترح السكان ، بعد أن ضاقوا ذرعا بهذه الدعوى التى دامت طويلا ، أن يتصالحوا معها ، بأن يسلموا اليها الى الأبد جزءا مخصبا من الأرض تستغله لمصلحتها • واعترض محامى هذه الحشرات على هذا الاقتراح الذى يمكن أن يحدد الى حد كبير حرية عملائه • ولكن المحكمة تغلبت على هذا الاعتراض وعينت مستشارا من قبلها ليقدم تقريرا عن هذه الأرض • ولما اثبت أن الأرض تملؤها الغابات وتتوفر فيها المياه ، ومناسبة تماما لهذه الحشرة ، أمرت الكنيسة بتدوين وثيقة نقل الملكية الرسمية وفقا للاجراءات المتفق عليها والعمل على تنفيذها • وبذلك سعد الناس بهذا الاجراء الذى أراحهم من كل من الحشرات ومن الدعوى على السواء • ولكن سعادتهم كانت سابقة لأوانها ، اذ قد اثبت التحقيق حقيقة مؤسفة ، وهى أن الأرض التى نقلت ملكيتها للحشرات كانت

تحتوى على منجم أو محتجز من تراب المغرة الذى كان يستخدم فى الأصباغ • وعلى الرغم من أن هذا المحتجز قد استغل زمنا طويلا حتى استهلك ، فإنــه كان هناك شخص يمتلك حقــا قديما فى المرور بهذه الأرض . وهو حق لا يمكن أن يمارسه دون أن يعرض المالكين الجدد لتعب بالغ ، ناهيك عن المخاطر التى قد تتعرض لها الحشرات نتيجة الوطء فوقها • وقد كانت هذه العقبة خطيرة بحيث أبطلت صحة العقد ، ومن ثم فقــد أخذت الدعوى مجــراها من جديد • أما كيــف ومتى انتهت هذه الدعوى ، فهو أمر لا يمكن معرفته ، نظرا لتشوه السجل المــدون فيه هذه الحادثة • والشىء المؤكد هو أن المحاكمة بدأت عام ١٤٤٥ م ، وظلت هى أو محاكمة أخرى شبيهة بها تتداول حتى عــام ١٤٨٧ م • وربمــا استخلصنا من ذلك أن شــعب مقاطعة القــديس جوليان . لم يتصالح فيما يبدو مع هذه الحشرات . وأنها ظلت مسيطرة على الحقل ••

وهناك دعوى أخرى رفعت ضــد فئــران أسقفية « أوتــون » فى مطلع القرن السادس عشر ، وكانت لها شهرة كبيرة نظرا للدور الذى لعبه « بارثوثوموى دى تشاسينو » أو « تشاسينى » . كمــا كــان يطلق عليه الناس ،وكان محاميا مشهورا ومستشارا قانونيا وكان يكنى « بكوكايين فرنسا » • وترجع شهرته فى هذا الموضوع الى مدافعته اللبقة عن الفئران • فقد حدث أن الفئران كانت قد أحدثت تلفا كبيرا فى المحصول . كما أتت على جزء كبير منه فى « بور جندى » • فرفع الســكان شكواهم الى القضاء . واستدعت الفئران لكى تمثل أمــام القضاء وترد عن نفسها هذه التهمة • وكان طلب الدفاع واضــحا تماما من حيث الشــكل الى حد كبير . وطالب بناء عليه بضمان سلامة المدعى عليهم بها من حيث أنها حيوانات قذرة ذات لون رمادى وتسكن الجحور • وقد كان يقوم بخدمة الفئران فى العادة شرطى بالمحــكمة قام بتلاوة هذا الادعاء فى الأماكن التى تكثر فيها الفئران • على أن الفئران لم تمثل أمام القضاء فى اليوم المحدد لبحث الدعوى . وعنــد

ذاك اعترض الدفاع باسم عملائه على أن الدعوى كانت ذات طابـــع فردى ومحلى للغاية • وحيث أن فئران الابريشية جميعا يهمها هــذا الموضوع ، فينبغى أن تستدعى من كل مكان فى الأبرشية • واستجابت المحكمة لهذا الطلب ، وصدر الأمر لراعى كل دائرة فى الأبرشـية أن أن يستدعى كل فأر فى اليوم المحدد • وحان اليوم المتفق عليه ، ولكن فأرا من الفئران لم يمثل أمام القضاء • وعند ذاك ألح الدفاع فى تأجيل المحاكمة لاتخاذ ترتيبات كبيرة معينة للفئران ، حيث أن كل عملائـــه من الفئران قد استعدوا لهذا الغرض ، كبيرهم وصغيرهم • مريضهم وسليمهم • فوافقت المحكمة على هذا أيضا ، وحددت يوما آخر للنظر فى الدعوى • ومع هذا فان الفئران لم تظهر فى ساحة القضاء • وعند ذاك أخذ الدفاع يطعن فى قانونية الدعوى فى ظل ظروف معينة • فقد جادل جدلا معقولا من حيث الشـــكل الى حد كبير وطالب بناء عليه ضمنا سلامة المدعى عليهم فى مجيئهم وأيابهم • فقد قال ان عملاءه ، رغم حرصهم على الحضور امتثالا لطلب الادعاء فانهم لم يجرؤا على ترك جحورهم خوفا من شرار القطط التى يحتفظ بها المدعون • ثـــم استأنف دفاعه قائلا : « واذا تعهد المدعون بضمان مالى ، على الا تتحرش قططهم بعملائه ، فان الفئران سوف تطيع الأوامر فى الحال»• وعند ذاك أدركت المحكمة صحة هذا الطلب • ولكن المدعين رفضوا أن يقعوا تحت طائلة هذه العقوبة لسلوك قططهم المحمود ، وبهذا تأجل مثول الفئران فى ساحة القضاء الى أجل غير مسمى •

ومرة أخرى رفعت مقاطعة « ستيلفيو » فى التيرول دعوى جنائية ضد فئران الحقول التى أتلفت المحصول « لمـــا تقوم به من حفر جحور فى الأرض ، ثم ما تلبث أن تتركها وتحفر غيرها بحيث لا تهيأ الفرصه للحشائش أو أى نبات آخر أن ينمو » • وعند ذاك كلف محام « يدعى « هانز جرينبيتر » للدفاع عنهم وشرح مطالبهــم ومتاعبهــم وبذلك يتسنى للفئران أن تفسر سلوكها ، ولا يكون لديها أى شـــكوى مـــن الاجراءات التى تتخذ ضدها » • ثم قام المدعى « شفارز مييننج »

بتوجيه الدعوى ضد الفئران • وقد أثبتت الشهادة التى استمدها من فم الشهود ، الضرر البالغ الذى ألحقته الفئران بالأرض • أما الدفاع الذى كان ملتزما بواجبه فى الدفاع عنهم . فقد بذل كل جهـده لكى ينصف عملاءه . فأخذ يعدد أفضالهم على المجتمع وبصفة خاصة على الزراعة عن طريق قضائهم على الحشرات والديدان الضارة بالزرع . وتقليبهم الأرض واخصابها • ثم ختم دفاعه بالتعبير عن أمله فى أن يمنح عملاءه فرصة مغادرة مكانهم الحالى ، فى حالة ما اذا أصـدرت المحكمة حكما ضدهم . وأن يسكنوا مكانا آخر يحدد لهم • كما طالب فضلا عن ذلك بأن يمنحوا جواز المرور الذى يؤمنهم من أذى القطط ومضايقاتها ومن الكلاب . وسائر الأعداء الآخرين ، بوصفه اجـراء عادلا من سلامة التفكير ، ومنـح الفئران ، باحساس انسائى بالغ ، جواز المرور ، كما منحهم مهـلة أربعـين يوما حتى تتمـكن الفئران التى لديهـا أولاد صغار أو تلك التى ما تزال صـغيرة من الانتقال الى المكان الجديد •

ومرة أخرى اتخـذ أصحاب النفوذ فى « بيرنى » عـام ١٤٧٩ م اجراءات قانونية ضد الحشرات الطفيلية التى كان الناس يعرفونهـا باسم « انجيز » ، التى يبدو انها كانت حشرة مغمدة من نوع حشرة « بريخوس » • وقد قيل لنا وهو أمر يمكن أن نصدقه فى يسر . أن سفينة نوح لم تكن تحتوى على هذا النوع • وقد رفعت الدعـوى أمام أسقف لوزان واستمرت وقتا طويلا • ثم استدعى المتهمون بتخريب الحقول والبرارى والحدائق . كما هو المـألوف . لكى يمثلوا فى اليوم السادس من توجيه الدعوى وفى الساعة الواحدة على وجه التحديد . لكى يردوا عن أنفسهم هذا السلوك • ولكن الحشرات لم تأبه بهـذه الدعوة . ومثل دفاعهم الذى كان يدعى « جين بيروديه » وكان مواطنا من «ايربيورج . بدلا منهم أمام القضاء • ويبدو أن هذا الدفـاع لم يبد مقدرة كبيرة أو حماسة كافية للدفاع عن عملائه • وعلى كل فقـد حكم على الحشرات باللعنة . وورد الحكم الكنسى على النحو التالى :

« نحن راهب مونتفيراند ، اسقف لوزان .. الخ .. بعد أن استمعنا الى دعوى فخامة وجلالة لوردان بيرنى ضد الـ « انجير » ، ودفاع الدفاع غير المجدى ، وبعد أن حصنا أنفسنا بالصليب المقدس ووضعنا نصب اعيننا الخوف من الرب الذى نستمد منه كل الأحكام العادلة ، وبعد أن استشرنا فى هذا الأمر مجلس علماء القانون ، نقر ونعترف فى كتابنا أن الدعوى ضد الحشرات الطفيلية والـ « انجير » التى تؤذى الحشائش والكروم والمروج والحبوب والفواكه الأخرى، دعوى صحيحة . ومن ثم يوجه اليها فى شخص محاميها جان بيروديه ، الحكم بالتحريم عليها . كما تحل بها اللعنة امتثالا لعرف الكنيسة ، ونأمرها بالطاعة وندعوها باسم الاب والابن والروح القدس أن تترك الحقول والارض والحظائر والحبوب والفواكه والمحصولات، وترحل . وبحق هذا الحكم أعلن وأؤكد انكم منفيون مطرودون وستحل بكم اللعنة بأمر الرب القوى وسيتناقص عددكم أينما حللتم ، حتى لا يبقى منكم الا من كان فيه منفعة للانسان » . وقد كان الناس ينتظرون هذا الحكم بشغف بالغ . فلما نطق به استقبلوه بتهليل كبير . ولكن سعادتهم لم تدم ، لأن الحشرات المتمردة ، لشدة تعجب الناس أبطلت حكم الكنيسة لأنها استمرت ، فيما قيل ، فى ايذاء سكان « برنى » وأصابتهم بالداء جزاء معاصيهم حتى لاذ السكان بالعلاج العادى الضار بدخلهم ، وان كان فعالا ، وهو دفع ضريبة العشر للكنيسة .

وفى القرن الثالث عشر رفع سكان « كوبرى « عاصمة جريزون » فى سويسرا دعوى ضد الخنافس الخضراء التى كانت تسمى الذباب الأسبانى ، فى مقاطعة « ماينسى » . وقد تعطف القاضى الذى استدعى الخنافس للمثول أمامه ، وعين لها حارسا ومحاميا ، نظرا لضآلتها وصغرها البالغ . وتقدم الدفاع ورد عنها التهمة ، وطالب أن تمنح قطعة من الأرض تعيش فيها بعيدا عن الناس . ويضيف المؤرخ الذى

دون هذه الحكاية الى هذا فقال « وما تزال تتبع هذه العادة حتى اليوم • ففى كل عام تخصص قطعة من الأرض لهذه الخنافس لتجتمع فيها دون أن يتعرض انسان لمضايقتها » • ومرة أخرى أتى بجماعة من الحشرات الطفيلية الى المحكمة لتستمع الى الدعوى المرفوعة ضدها فى محكمة لوزان عام ١٤٥١ م • على أن الحشرات الطفيلية أعلنت تمردها ورفضت أن تترك البلد ، فحكم عليها فى خشوع بتطهيرها • على ان وسيلة التطهير التى اتبعت فى هذه المرة ، كانت تختلف بعض الشىء عن الطريقة المألوفة ، ومن ثم فقد انتقدها بعض الكنسيين ، وان كان قد دافع عنها الآخرون • أما دكاترة هيدلبرج بصفة خاصة ومعهم طائفة من العلماء ، فلم يعبروا عن استحسانهم لها كلية وبالاجماع فحسب ، وانما التزموا الصمت حول هجوم المتطفلين الخارجين عن مجال هذا العلم • وعلى الرغم من أنهم أقروا أن هذه الوسيلة انحرفت عن الطريقة المألوفة والمخصصة لهذا الغرض ، الا أنهم سعدوا بكفايتها التى أكدتها النتائج المترتبة على ذلك • اذ بمجرد أن نفذ هذا التطهير حتى أخذ الموت يتفشى بين هذه الحشرات حتى انقرضت عن آخرها ••

وقد كان من بين الأوبئة التى كان ينشرها الحيوان بين الناس . وطالما رفع الناس دعواهم ضدها أمام القضاء ، وباء كان يسببه حيوان اليسروع • ويبدو أنه كان ينتشر بين الآونة والأخرى • ففى عام ١٥١٦ م ، رفع سكان « فيلينوز » دعوى ضد هذه الحشرة الفتاكة وحكم فى هذه الدعوى رئيس كنيسة « تروبس » ، وقد أمر فى حكمه بأن تترك هذه الحشرات حدائق الكروم وأرض « فيللونوز » خلال ستة أيام ، وهددها باحلال اللعنة المقدسة عليها وتشويه سمعتها اذا هى لم تمتثل للأمر • وفى القرن السابع عشر ، عانى سكان « ستراميينو » فى « بيدمونت » كثيرا من حشرة اليسروع أو « جاتى » كما كانوا يطلقون عليها ، التى خربت حدائق كرومهم • ولما دام الوباء عدة سنين ولم تجد وسائل العلاج من صلوات ومواكب

احتفال واستعمال المياه المقدسة فى وضع حد لهذا الوباء ، فقد استدعى المدعى العام هذه الحشرة للمثول أمام الحاكم أو رئيس البلدية لكى ترد على دعوى تخريبها للحى • وقد صدر الحكم فى هذه الدعوى عام ١٦٣٣ ، ولا تزال الوثيقة الأصلية لها موجودة فى أرشيف سترامبينو المجلى • وفيما يلى ترجمة هذه الوثيقة :

« عقدت المحكمة فى الرابع عشر من شهر فبراير عام ١٦٣٣ م أمام السنيور الأشهر جيرولا موسان مارتينو دى سينورى ، وسينيور ماتيو رينو ، ج • م باربيريس ، ج ميرلو ، ومستشار سترامبينو ، لصالح كل فرد فى المجتمع ، وحيث أن حشرة صغيرة بعينها تظهر فى شكل ديدان صغيرة تسمى « جاتى » تأخذ منذ ولادتها فى قرض فروع أشجار الكروم فى حدائق الأسياد وعامة الناس كذلك ، وحيث انها قد فعلت هذا طيلة سنوات عدة فى شهر مارس وفى اثناء الربيع من كل عام ، وحيث أن كل قوة انما يكون مصدرها الرب الذى تطيعه كل الكائنات حتى تلك التى لا تعقل ، فاننا نلجأ فى ورعنا الالهى الى معالجة العدل الأرضى ، اذا كان كل عون انسانى آخر قد عجز فى وضع حد لهذا الأمر • ونحن نلجأ لهذا الى حكم جلالتكم فى هذا الأمر العاجل ، ونرفع شكوانا من هذه الحيوانات المخربة ، لعلكم تأمرونها بالكف عن هذا الدمار ، وبترك حدائق الكروم وبالمثول أمام كرسى القضاء لكى تقدم سببا لعدم كفها عن تخريب حدائق الكروم وقرض أوراقها ، وتهددونها بابعادها عن هذا المكان ومصادرة ممتلكاتها • ونحن نطالب بأن يعلن هذا الحكم وأن تعلق نسخة منه فى ساحة القضاء • •

« وحيث انه قد ثبتت صحة الدعوى فقد أمر سينيور بوديستا الحيوانات السيئة بالمثول أمام كرسى القضاء لتقدم سببا عن عدم كفها عن التخريب الموجه ضدها • ونحن جيرولا مودى سان مارتينو ، حاكم سترامبينور ندعو الحيوانات التى تسمى « جاتى » أمام الحاضرين ، ونعلنها قضائيا بالمثول أمامنا فى اليوم الخامس من هذا

الاعلان ، والا فاننا سنوقع عليها عقوبة النفى والمصادرة فى الحال . ونطلب أن يذاع هذا الحكم على الجمهور عن طريق نشره وأن تلصق نسخة منه على كرسى القضاء لكى تصبح نافذة فى الرابع عشر من شهر فبراير عام ١٦٣٣ » .

(امضاء) سان مارتينو (الحاكم)

وقد كانت تنتشر فى الاقليم المجاور لسافوى منذ القرن السادس عشر ، عادة غريبة قديمة . كان الكهنة يطردون بمقتضاها حشرة اليسروع وغيرها من الحشرات التى تسبب الضرر ، من رحمة الكنيسة. فقد ذهب راعى الأبرشية ليلقى نظرة على الحقول الخربة كما عين اثنان من المحامين ، أحدهما يدافع عن الحشرات والآخر يدافع ضدها . أما الدفاع الأول فقد بدأ دفاعه الأول بقوله بأن الرب قد خلق الحيوانات والحشرات قبل أن يخلق الانسان ، ومن ثم كان لهم الحق الأول فى محصول هذه الحقول . فرد عليه الادعاء وقال أن مثل هذا التلف لا يمكن أن يتحمله الفلاحون ، حتى وان كانت هذه الحشرات لها الحق الأول فى محصول الحقول . وبعد مداولة طويلة أعلن القسيس طرد الحشرات من رحمة الكنيسة ، وأمر بأن تنزح الى بقعة من الأرض خصصت لها » ..

وقد عاشت عادة محاكمة الحشرات الطفيلية عن طريق القضاء حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ونقلتها الكنيسة الى أمريكا . ففى عام ١٧١٣ م ، رفع رهبان « مينور » فى مقاطعة « بيدادى نومارانهاو » فى البرازيل ، دعوى ضد النمل لأنه كان يحفر بشدة أسفل اساس الأديرة ويقوض قبوها ، مما تسبب فى أضعاف حيطان الدير المعنى ، وهدد بناءه كله . ولم يكتف النمل بتقويض البناء المقدس بل انه قام بسطو على المخازن ، وحمل الدقيق المخصص للرهبان ، الأمر الذى لم يعد يحتمله الرهبان . وبعد أن ثبت أنه لم يجد مع النمل أية وسيلة للعلاج ، فقد اقترح أحد الرهبان أن يعودوا فيتمسكوا بروح التواضع والبساطة التى كانت تميز

رائدهم الساروف (١) الذى كان يسمى كل الكائنات أخوته أو أخواته : فأخته الشمس وأخوه الذئب وأخوه السنونو الى غير ذلك . ومن ثم ينبغى عليهم آن يرفعوا دعوى ضد أخوانهم من النمل أمام محـــكمة العنـــاية الالهيـــة ويعينـــوا الادعاء والدفاع . وينبغى على الأسقف أن يســـتمع باســـم العدالة العليا الى الدعـــوى ، وأن يصدر حكمه فيهــــا » ..

وبناء على هذا الاقتراح ، وبعد أن أعدت كل الترتيبات للمحاكمة ، أعلن مجلس الادعاء التهمة الموجهة ضد الحشرات . وافتتح الجلسة بناء على موافقة المـــدعى عليهم . وبين السبب الذى من أجله ينبغى أن يجد الناس الحمـــاية فى ظل القانون ، وبين كيـــف أن الرهبـــان الدينيين يعيشون على تبرعات الجمهور ، وكيف أنهم يجمعون العطايا من المؤمنين بجهد شاق وتعب مضن ، فى حين أن النمل يعارض بأخلاقه وسلوكه تعـــاليم الرسل ، ومن ثم فقـــد كان القديس فرنسيس ، مؤسس الجمعية الدينية ينظر اليه بعين الفزع لأنه يعيش على السلب والاحتيال ؛ بل انه يقوض فى عنف دعائم البيت المقدس على مســـمع من عملائه الرهبان . وبناء عليه فقد حـــكم المجلس غيابيا على المدعى بأقصى عقوبات القانون ، اما بالقضـــاء عليهم عن طـــريق تعريضـــهم لوباء الطاعـــون ، أو باغراقهم فى الطوفان ، أو عـــلى الأقل أبعادهم عـــن الحى ..

ولكن مجتمع النمل عارض هذا الحـــكم مستندا فى ذلك الى انه قد منح من الرب نعمة الحياة ، وهو ملزم ، بناء على قانون الطبيعة ، أن يحافظ عليها بغريزته الطبيعية . وهو بمراعاته ذلك انما يخدم العناية الآلهية ، اذا ما قدم للناس مثالا للحكمة والعطف والتقوى وغير ذلك من الفضائل ، وتأييدا لهذا ، أشار الدفاع الى فقـــرات من الكتابات

---

(١) ملاك من الطبقة الأولى يحرس عرش الرب وفقـــا للعقيدة اليهودية . (المترجمة)

المقدسة التى وردت عن النبى أرمياء والراهب ايسالون بل ومن كتابات بلينى ، تلك الكتابات التى تثبت أن النمل يعمل بكد أكثر من الرهبان . حيث ان الأحمال التى يرفعونها أكبر من أجسامهم بكثير ، وحيث أن شجاعتهم تفوق قوتهم ؛ كما تثبت أن الناس فى نظر الرب ليسوا سوى ديدان ، وأن النمل كان يمتلك الأرض قبل أن يستقر عليها الناس . وبناء على هذا كله ؛ فانه ينبغى أن يطرد الرهبان لا النمل من الأرض التى ليس للرهبان حق فيها سوى أنهم يريدون أن يضعوا يدهم عليها عنوة . وفى النهاية أشار الدفاع الى أن أصحاب الدعوى ينبغى عليهم أن يدافعوا عن بيوتهم وطعامهم بالوسائل الانسانية ؛ وهو الأمر الذى لا يعارضه المدعى عليهم ؛ حيث أنهم سوف يستمرون فى حياتهم مستجيبين لقانون الطبيعة ، ومتمتعين بحريتهم فى الأرض ، حيث أن الأرض ليست ملكا للمدعين وانما هى ملك للرب ؛ « فالأرض ملك للسيد الآله وهذا هو سبب كمالها » ..

وقد أعقبت هذا الرد ردود أخرى اما معارضة واما مؤيدة له . ونتيجة لذلك أعلن مجلس الادعاء أنه قد غير رأيه بناء على هذه المناقشة ؛ فى جريمة المدعى عليهم . وبعد أن أدار القاضى الشواهد العديدة فى رأسه ، أصدر حكما بأن يحدد الرهبان مكانا مناسبا بجوارهم لا يصلح لسكنى النمل ، ويتحتم على النمل عندئذ أن ينزح فى الحال الى المأوى الجديد ؛ والا تعرض لعقوبة الطرد من رحمة الكنيسة . وبذلك يتصالح الطرفان ؛ كما قال ، لأنه ينبغى للنمل أن يتذكر : أن الرهبان قد عاشوا فى الأرض ليزرعوا فيها تعاليم المسيح . أما النمل فيمكنه أن يكسب عيشه فى يسر فى أى مكان آخر دون أن يكلفه ذلك أدنى مشقة . وبعد أن نطق القاضى بهذا الحكم فى صرامة كلف أحد الرهبان بأن يحمل رسالته الى النمل . فرحل الرسول وقرأها عليه بصوت عال عند أبواب جحوره . وقبل النمل هذا الحكم ، وشوهد بعد ذلك وهو يرحل فى صفوف منتظمة الى المكان الذى حدد له ..

ومرة أخرى أحدثت الفئران التخريب فى قرية بورانتون عام

١٧٣٣ م • فاحتشدت فى البيوت والمخازن ، وأغارت على الحقــول والحدائق•فرفع الفلاحون شكواهم ضدها،وحوكمت الفئران أمام القاضى لويس جوبلان فى اليوم الســابع عشر من شهر سبتمبر عام ١٧٣٣ م• وقد مثل الادعاء مدير الأعمال المــالية ؛ كما مثل المدعى عليهم رجل يدعى « نيقولا جوبلان » • وقد توسل هذا الى القضاء نيابة عــن عملائه أن الفئران قد خلقها الرب كما خلق الناس ، ومن ثم كان لهــا كذلك الحق فى الحياة • فرد مجمع الادعاء عليه وقال انه لا يرغب فى وضع عقبات فى سبيل حياة هذه الحيوانات ، بل انه مستعد على العكس أن يحدد لها مكانا تسكن فيه وتأوى اليه • فطلب الدفاع بناء عــلى هذا أن تمنح الفئران مهلة ثلاثة أيام لتتدبر أمرها • وبعد أن استمع القاضى لكلا الطرفين ، أصدر حكمه وقال ؛ انه بعد النظر فى التخريب الذى أحدثته هذه الحيوانات المعنية ؛ حكم عليها بأن تترك البيــوت والمزارع ومخازن الحبوب وحدائق الكروم فى بورانتون ، وهى حرة بعد ذلك فى أن تسكن الصحارى والأراضى غير المزروعة ، والطــرق العامة ؛ أو أى مكان آخر ؛ بشرط ألا تعرض الحقول والمخازن والمزارع للأذى والا اضطر القاضى الى أن يلتمس العون من الرب عن طريق الكنيسة فيحكم عليها بالحرمان من رحمتها • ثم دون هذا الحــكم • ووقعه القاضى لويس جوبلين بخط يده ••

ولعله يتضح الان السبب فى اسناد اصــدار الحكم الى النفــوذ الكنسى أكثر من اسناده الى النفوذ المدنى • فقد كان من المستحيل طبيعيا للجلاد العادى مهما يكن حماسه ونشاطه أن يشنق كل الفئران والنمل والذباب والبعوض اليسروع وسائر حشرات الحى كله • ولكن ما يعجز الانســان عن فعله يمكن للرب أن يحققه فى سهولة ويسر • ومن ثم كان من المنطقى والمعقول أن يفوض لرسل الرب البحث فى هذه المشــكلات بمقدرة تفوق مقدرة القاضى المدنى بكثير ومقدرة وكيلــه الجلاد • ولهذا فان المشكلة من ناحية أخرى كانت أكثر يسرا عندما كانت الحيوانات المتهمة من الحيوانات الاليفة التى تدخل حقا ضــمن

اختصاص القوى المدنية • وفى مثل هذه الحالات كانت العدالة تسير فى مجراها العادى • كما لم تكن هناك أدنى صعوبة على الاطلاق فى أسر المتهمين واحضارهم بعد محاكمة عادلة ، الى المشنقة أو الى ساحة المدينة • وهذا هو السبب فى أن الحشرات الطفيلية كانت تتمتع فى هذه الايام بمميزات السلطة الكنيسة ، بينما كان على الحيوانات الاليفة أن تخضع لصرامة القوة المدنية ••

ومثال هذا أن أنثى الخنزير وأولادها الستة الذين كانوا ملكا لرجل يدعى « جان بابى » الذى كان يعرف من قبل باسم فالوه ، اتهمت فى سافينى عام ١٤٥٧ م بتهمة قتلها الابن جان مارتان البالغ من العمر خمس سنوات وابن جان ماريان حاكم سافينى • وبعد فحص دقيق لشواهد الدعوى ، حكم القاضى بأن « تحال أنثى خنزير جان بايى المدعو فالوت ، الى عدالة مدام دى سافينى لكى تنفذ فيها أقصى العقوبات القانونية ، وتعلق من رجليها الخلفيتين فى شجرة منحنية ، بسبب ما ارتكبته من جريمة القتل ، وما جنته فى حق شخص « جان مارتان » • وقد نفذ الحكم فى أنثى الخنزير بالفعل ، لأننا نقرأ فى سجل هذه الحادثة الذى ما زلنا محتفظين به ما يلى : « نحن نيقولا كارويون » القاضى المذكور آنفا ، يعلم الجميع أنه بعد المحاكمة السالفة الذكر ، قد سلمنا حقا أنثى الخنزير المعنية للسيد « اتيين بوانسو » ، وكيل القضاء الأعلى الذى يسكن « شالون سورسون بوانسو » لكى ينفذ فيها الحكم وفقا لما حكمنا به • وبعد أن سلمنا أنثى الخنزير هذه ، أحضر السيد « اتيين » عربة ليحمل الحيوان فيها الى ساحة قضاء مدام دى سافينى • ثم علق « استينى » أنثى الخنزير من رجليها الخلفيتين فى شجرة محنية ، منفذا بذلك حكمنا فى شكله وفحواه « • أما بالنسبة للخنازير الستة الصغار ، فعلى الرغم من أن دم القتيل قد لوثها ، الا أنه « حيث لم تثبت تهمة القتل ضد هذه الخنازير ، فان محاكمتها تؤجل ، على أن يقدم مالكها كفالة لذلك • فاذا ثبت بعد ذلك من الشهادة أنها قد ساعدت أمها القاتلة فى التهام الصغير

جان مارتان ، أعيدت محاكمتها ، وحيث أنه لم يثبت هذا عند محاكمتها مرة أخرى ، وحيث أن صاحبها رفض أن يكون مسئولا عن سلوكها فيما بعد ، فقد حكم القاضى « بأن تؤول ملكية هذه الخنازير الصغيرة بوصفها ملكية مهجورة الى « مدام دى سافينى » . ونحن نمنحها اياها قضائيا وفقا لما به عادة بلادنا وتقاليدها وحكمها » ..

ومرة أخرى مزقت أنثى خنزير وجه صبى وذراعه عام ١٣٨٦ م فى فاليز فى نورماندى . ووفقا لمبدأ « العين بالعين » ، فقد اقتص منها بالمثل ، ثم شنقت فيما بعد . وقد سيقت أنثى الخنزير الى مكان الاعدام وهى ترتدى صدرية وجوارب وسروالين وعلى وجهها قناع لوجه انسان حتى تكون شبيهة بالانسان المجرم تماما . كما أن المحكمة دفعت نقودا وملابس وجوارب للجلاد حتى لا يلوث نفسه بدم المجرم . وفى بعض الأحيان كان يتكلف اعدام الحيوانات أكثر من هذا بكثير . وهاهو ذا ايصال يبين تكاليف اعدام انثى خنزير التهمت طفلا فى ميولان بالقرب من باريس عام ١٤٠٣ م ..

١ ــ تكاليف اقامتها فى السجن	٦ صول [1]
٢ ــ تكاليف الجلاد الذى حضر من باريس الى ميولان لينفذ الحكم وفقا للأمر الذى تلاه صاحب المحكمة ووكيل الملك .	٥٤ صول
٣ ــ تكاليف العربة التى حملت أنثى الخنزير الى مكان الاعدام .	٦ صول
٤ ــ تكاليف الاحبال لربطها	٢ صول ، ٨ دينيير
٥ ــ تكاليف الجوارب	٢ دينيير

وقد أحرقت أنثى الخنزير فى « فونتناى ــ أو روز » عام

(١) عملة فرنسية قديمة (المترجمة) .

١٢٦٦ م لاتهامها بالتهام طفل • وقد أصدر هذا الحكم قضاة ديرسانت جينيفيف ••

على أنه اذا كان يبدو أن أنثى الخنزير كانت تتعرض كثيرا لأقصى عقوبات القانون ، فانها لم تكن الحيوان الوحيد الذى تعرض لهذه العقوبة • ففى عام ١٣٨٩ صدر حكم على فرس بالشنق فى ديجون اثر ما بلغ وكيل قضاء مونتبار من أنه قتل رجلا • ومرة أخرى نفذ رؤساء دير كيسترسيان فى « بوبرى » بالقرب من «بوف»حكم الاعدام فى ثور وشنقوه بالمشنقة لانه « قتل فى ثورة غضبه صبيا كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما أو خمسة عشر عاما فى مقاطعة « كاورووى » التابعة لهذا الدير « • وفى مناسبة أخرى سمح فلاح فى موزى عام ١٤١٣ لثور هائج أن يهرب ، فضرب الثور بقرنيه رجلا ضربا موجعا أفضى به الى الموت بعد بضع ساعات من الحادث • ولما سمع تشارلز كونت ذى فالو بهذا الحادث ، أمر بالقبض على الثور وتقديمه للمحاكمة • فقبض على الثور ، وجمع وكلاء الكونت كل المعلومات المطلوبة ، كما جمعوا الشهود وأثبتوا التهمة ضد الثور فأعدم أثر ذلك وشنق فى مشنقة « موزى ــ لى ــ تيمبل » • ثم ثار اعتراض ضد هذا الحكم وقدمت شكوى لمجلس الأمة ، ولكنه رفض المعارضة وقرر أن الثور قد لقى جزاءه بالفعل وان كان الكونت « فالو » قد تجاوز مجال حقوقه لأنه تدخل فى أمر لا يعنيه •• وفى عام ١٦٩٧ م حرق فرس آخر بناء على قرار مجلس أمة « أيكس » ••

وفى بالى حكم على ديك عام ١٤٧٤ م ، بتهمة أنه باض بيضة • وقد اثبت مجمع الادعاء أن بيضة الديك ليست لها قيمة لأنها تختلط باستعدادات سحرية معينة • فأولى للساحر أن يمتلك بيضة ديك من أن يكون مالكا لحجر فيلسوف • وفى أرض الكفر استخدم الشيطان السحرة لفقس مثل هذا البيض الذى كانت تخرج منه حيوانات تسىء للمسيحيين كل الاساءة • وقد كانت هذه الحقائق أوضح وأشهر من أن ينكرها أحد ، كما لم يحاول الدفاع أن يعارضها • ولكن الدفاع بعد

أن قبل الدعوى المرفوعة ضد الديك كل القبول بسبب وضعه بيضة . تساءل : « ولكن ما الشر الذى يمكن أن ينسب اليه بسبب وضعه بيضة ؟ وما الأذى الذى ألحقه بالانسان أو الحيوان من جراء ذلك ؟ وفضلا عن ذلك فقد أخذ يجادل فى أن وضع البيضة فعل غير ارادى ومن ثم فان القانون لا يعاقب عليه . أما عن تهمة السحر ، اذا كان يمكن أن تنسب الى عميله . فقد أنكرها تماما ، وتحدى المحكمة فى أن يدلى الادعاء بحالة واحدة تحالف فيها الشيطان مع هذا المخلوق . وعند ذاك رد الادعاء عليه وأشار الى أنه على الرغم من أن الشيطان لم يتحالف مع هذه المخلوقات البهيمية ، الا أنه يسكنها فى بعض الأحيان . ودعم رأيه هذا بتلاوة حادثة خنزير جارادينى الشهيرة . مشيرا فى حجة قوية الى أن الشيطان رغم تملكه لهذه الحيوانات ، فهى تعد وكلاء له مسلوبة الارادة تماما ، كما يحدث لو أن السجين وضع بيضة فى سجنه . ومع ذلك فقد عوقبت هذه الحيوانات بأن طوردت عبر منحدر حتى هوت فى بحيرة وبذلك قضت نحبها . وقد كان للاشارة الى هذه الحادثة وقع فى نفوس هيئة المحلفين فيما يبدو . ولهذا فقد حوكم الديك وقضى عليه بالموت لا بوصفه ديكا عاديا ، وانما بوصفه ساحرا أو شيطانا متقمصا شكل طائر . ونفذ فيه هو وبيضته حكم الاحراق بكل ما يصطحب هذا التنفيذ من رهبة مألوفة . وقد قيل ان الدفاع عن هذه الحالة يملأ مجلدات ..

واذا كان الشيطان قد عرض الحيوانات للايذاء فى العالم القديم . فلم يكن من المتوقع أن يدخر ايذاءه فى العالم الجديد . ولهذا فنحن لا ندهش عندما نقرأ أنه قد حدث فى «نيوانجلند» أن كلبا أشبع ايجاعا لأنه حكى عنه أن أحد رجال القضاء كان يركبه دون أن يكون مرئيا . وقد اختفى هذا الرجل فى حين حكم على الكلب ظلما بالشنق . كما اتهم كلب آخر بايذاء الآخرين ، اذ كانت تصيبهم النوبة بمجرد أن يرفع بصره اليهم . ولهذا فقد حكم على الكلب بالاعدام » ..

وقد قيل ان الحيوانات فى سافوا كانت تقف موقف الشهود أو فى

قفص الاتهام ، وكانت شهادتها تعد صحيحة من الوجهة القانونية .
فاذا اقتحم شخص بيت رجل بين الغروب والشروق ، وقتل المـالك
اللص . فانه يعد قاتلا من الناحية القانونية . لكنه من الممكن لرجـل
شرير يقيم وحده فى بيته أن يحتال على شخص آخر بأن يجعله يقضى
الليل معه ويقتله ، ويدعى بعد ذلك أن ضيفه كان لصـا قتله فى حالة
الدفاع عن النفس . ولكى يكون القانون حذرا فى مثل هذه الحوادث
غير المتوقعة ، ولكى يؤكد ادانة المجرم من ناحية أخرى فقـد صرح
القانون فى حصافة أن من يقتل فى مثل هذه الظروف ، فان هذا لا يبرىء
صاحب البيت الذى يقيم وحده ، ما لم يشهد معه كلب أو قطة أو ديك
أو أى نزيل آخر فى بيته يكون قد شـهد جريمته ويعلن براءة سيده
عن طريق الادلاء بمعلوماته الخاصة . وعلى صاحب البيت أن يعلن
براءته أمام الحيوان . فاذا لم يعارضه الطـائر أو الحيوان ، فانـه
يكون حينئذ بريئا . فالقانون يرى أنه من منح الله على عباده أنه يبدى
اعتراضه على التهمة ويفتح فم القط أو الكلب أو الديك عند الضرورة ،
كما حدث مرة وفتح فم حمـار برلام ، وبذلك لا يهىء للقاتل فرصـة
الهروب من وجه العدالة .

يبدو أن كل الأشياء المـادية كانت تعاقب على أفعالها السيئة فى
أوروبا الحديثة كما كان يفعل الاغريق القـدماء . فبعـد أن أبطـل
مرسوم « نانتس » عام ١٦٨٥ م ، صـدر الحـكم ضـد الكنيسـة
البروتستانية فى « لا روشيلى » أن تمحى من الوجود فيما عدا جرسها
بسبب قيمته فيما يبدو . على أن الجرس حـكم عليه تكفيرا عما كان
يبديه من هرطقة فى دقه للمصلين ، بأن يضرب أولا بالسوط ثم يدفن
وينتشل من التراب مرة أخرى رمزا لميـلاده الجـديد ويسـلم الى
أيد كاثوليكية . وبعد ذلك أمر بأن تتلى عليه الصلوات الدينية ، ويعلن
أنه قد تخلى عن عقيدته القديمة وأنه لن يعود بعد ذلك الى الاثم .
وبعـد أن قام الجرس بكل مظاهر الاسترضاء المقدسة الساذجة أعلن
الصـلح معه وعمد وسلم أو بالأحـرى بيـع الى أبريشة القـديس

« برســكوميو » • ولكن عندما أرسل الحاكم ايصال بيع الجرس الى أولى الأمر فى الأبرشــية ، رفضوا سداد الثمن مدعين أن الجرس ، نظرا لأنه قد اعتنق حديثا مذهب الكاثوليكية ، يرغب فى أن يتمتــع بمميزات القانون الذى كان قد أصدره الملك اخــيرا ، والذى يســمح للمعتنقين الجدد لمذهب مخالف لمذهبهم القديم أن يتأخروا فى سداد الدين مدة ثلاث سنوات ••

وقد ظل القانون الانجليزى محتفظا الى ما يقــرب من منتصــف القرن التاسع عشر بأثر من طريقة التفكير القديمة نفسها متمثلة فى عقيدة أو عادة « منحد الرب » • فقد كان من المألوف فى القانون العادى أن تقدم منحة للرب لا من أجل الحيوان الذى قتل رجلا فحسب ، وانما من أجل كل شىء مادى تسبب فى وفاء انسان ؛ كأن تكون عجلات عربة مرت فوق انسان وقتلته ، أو شجرة هوت عليه • وبناء عــلى ذلك فان هذا الشىء يصادره الملك ويبيعه لمصلحة الفقراء • ومن ثم فانه كان من المــألوف أن تقيّم هيئة المحلفين الموقرة الشىء الذى تسبب فى الوفاة حتى تسلم قيمته نقدا الى الملك أو غيره لينفقها فى أغراض البر ، ثم أصبح ينظر الى هذه العطايا عمليا بوصفها مجرد رهيــنة عند الملك • وفى ضوء هذا لم يكن هذا الأمر مستحبا كما أن المحلفــين فيما بعد تعودوا متضامنين مع القضاة أن يقللوا من قيمة الشىء ، بأن ينسبوا جريمة القتل الى شىء تافه أو الى جزء من شىء • ولم يقض التشريع على هذه البربرية البدائية نهائيا الا فى عام ١٨٤٦ م • وقد كانت هذه العادة طوال مدة ممارستها فى ساحة القضــاء ، حجر عثرة فى سبيل رجال القانون المتفلســفين الذين حاولوا أن يرسو دعائــم قواعد القانون الانجليزى على الأسس الأولية للمنطق الطبيعى وعلى العدالة دون ما حاجة الى الفــوضى فى قرارات الجهل اللانهائيــة ، والهمجية والخزعبلات التى ارتكزت عليها الجذور المــدونة للقانــون الحديث والمدنية الحديثة ارتكازا غــير مستقر • ولهذا فقــد افترض « بلاكستون » أن القصد الأساسى من مصادرة الأشياء التى تســبب

الموت هو شراء قدر من روح الشخص الذى تعرض للموت صدفة . ومن ثم فقد رأى أن هذه العطايا كانت تقدم أصلا الى الكنيسة لا الى الملك . أما الفيلسوف « رايد » فقد رأى أن هذا القانون لم يكن يهدف الى معاقبة الحيوان أو الشىء الذى تسبب فى قتل الانسان ، وانما كان الهدف منه ، « أن يوحى الى الناس بنظرة مقدسة ، الى قيمة حياة الانسان » ..

وقد بالغ سير « ادوارد تايلور » فى احتمال أن عادة تقديم الشىء المتسبب فى القتل عطية للرب ، وكذلك سائر العادات الأخرى التى تقوم على معاقبة الحيوانات والأشياء بسبب الايذاء الذى تلحقه بالانسان ، ترجع الى الدافع البدائى الذى كان يتمثل فى عض الحجر الذى يتعثر فيه الانسان أو السهم الذى يجرحه . وهو نفس الدافع الذى يدفع الطفل بل الرجل الكبير فى بعض الأحيان فى ركل الشىء الذى يؤذيه وضربه . وقد وضح « آدم سيث » بكل ما عرف عنه من وضوح فى الفكر وبعد فى النظر وسلامة فى الحس هذا الأساس ، اذا تسنى لنا أن نسميه كذلك ، الذى يرتكز على دافع بدائى فقال : إن أسباب السعادة والألم مهما تكن هذه الأسباب أو كيفما كانت درجة تأثيرها ، هى فيما يبدو ، الأشياء التى تثير فى لحظة من اللحظات عند كل صنوف الحيوان ، عاطفتى الحب والكره . فهاتان العاطفتان تهيجهما الأشياء اللاروحية والأشياء الروحية على السواء . فنحن نغضب ولو لحظة ، اذا تسبب حجر فى ايذائنا . والطفل يضرب هذا الحجر تماما كما ينبح الكلب فى وجه هذا الشىء . وكذلك يميل الرجل السريع الغضب لأن يحل به اللعنة . حقا ان أقل رد فعل لهذا يصحح من هذا الانفعال ، ويجعلنا ندرك فى الحال أن هذا الشىء الذى يخلو من الاحساس ، لايصبح أن يكون موضوعا لانتقامنا . أما اذا كانت الاساءة كبيرة من قبل هذا الشىء ، فانه يصبح كريها لنا بعد ذلك . ونحن نسعد باحراقه أو تحطيمه . وينبغى علينا أن نعامل بنفس الأسلوب ، الشىء الذى تسبب فى موت صديق لنا صدفة كما ينبغى أن

نشعر بالذنب ازاء تقصيرنا على نحو ما ، اذا أهملنا الانتقام من هذا الشيء » •

وقد رأى الباحثون فى تطور الجناس البشرى ، أنه من المحتمل أن الميل الطبيعى فى مراحل طفولة الجنس البشرى لتشخيص الأشياء الخارجية حية كانت أم جمادا ، أو بتعبير آخر ، ان الميل الطبيعى لأن يخلع الانسان على هذه الأشياء الصفات الانسانية ، لم يكن يصحح أو كان يصحح بطريقة غير سليمة ، عن طريق التأمل فى التفرقة التى أبرزها الفكر الاكثر تقدما ، بين الشيء الحى والشيء الجامد من ناحية ، وبين الانسان والحيوان من ناحية أخرى • ولقد كان من السهل ، فى حالة ظلام العقل البشرى ، أن ترتبط الدوافع التى تحرك الرجل المفكر، بالدوافع التى تحرك الحيوان ، بل بتلك التى تدفع الحجر أو الشجرة لأن تسقط • بل اننا نرى ان هذا الربط كان بالنسبة للرجل البدائى أمرا محتما • ومن خلال هذا التفكير المختلط ، أباح البدائيون لأنفسهم الانتقام من الحيوانات والأشياء التى تسىء اليهم أو تصيبهم بأذى • وقد ظل هذا الضباب الفكرى الذى كان مناسبا لتلك المعتقدات ، يعمى أعين المشرعين البدائيين الذين قدسوا هذا النظام الجزائى البربرى فى ظل أشكال القانون والعدالة المقدسين فى مختلف العصور ومختلف البلاد ••



الفصل الخامس

الأجراس الذهبيــة

١

ينص القانون الكهنوتى على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصــف التالى : « وتصنع جبة الرداء كلها من أسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك ، كفتحة الدرع يكون لها لا تشــق • وتصنع عــلى أذيالها رمانات من أســمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالها حواليها ، وجلاجل من ذهب حواليها • جلجل ذهب ورمانة جلجل ذهب ورمانة على أذيال الجبة حواليهــا • فتكون على هرون للخدمة ليسمع صــوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب عند خروجه لئلا يموت » (١) •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى هذا الثوب البنفسجــى الذى تتدلى أهدابه المطرزة بثمار الرمان والأجراس التى ينبغى أن يسمع صليلها عندما يدخل الكاهن المــكان المقدس أو يخرج منه ؛ والامات ؟ ان أكثر الاجابات احتمالا فى صحتها عن هذا السؤال هو الاعتقاد فى ان صليل الأجراس المقدسة يطرد الأرواح الشريرة الحاسدة التى تقبع عند باب المــكان المقدس على استعداد لأن تنقض على الكاهن المزين

---

(١) سفر الخروج ، ٢٨ : ٣١ الى ٣٥ .
وكلمة اسمانجونى التى تترجمها الترجمة الانجليزية المعتمدة الى كلمة « أزرق » ، تعنى الأزرق الارجوانى . وهى تتميــز عن الكلمة الاخــرى « ارجوان » التى تعنى اللون الأرجوانى الضارب الى الحمرة ، ومن ثم ترجمنا الكلمة الأولى الى اللون « البنفسجى » .
(المؤلف)

بأغلى زينة وأن تحمله معها ، عندما يخطو فوق عتبة المكان المقدس ليقوم بواجبه الدينى • وأقل ما يمكن أن يقال بصدد هذا الرأى الذى لقى رواجا بين الدارسين المحدثين ، هو أن هناك أمثلة شبيهة به وتدعمه فى قوة • فقد كان الرأى الشائع منذ العصور القديمة وما قبلها ، هو أن الشياطين والأشباح تهرب عند سماع صوت ينبعث من معدن سواء أكان هذا الصوت صوت صليل من الأجراس الصغيرة أو قعقعة متواصلة طنانة تنبعث من الأجراس الكبيرة . أو كان صليل الصنج الحاد ، أم دوى الطبول ، أم صلصلة وقعقعة أطباق من البرونز أو الحديد ، عندما يرتطم بعضها ببعض أو عندما تضرب بمدق أو بعصى• ومن ثم فقد كانت العادة المتبعة عند القيام بتطهير شخص من الأرواح الشريرة أن يدق كاهن القداس جرسا يحمله فى يده ؛ أو أن يعلق مجموعة من الأجراس فى ردائه بحيث تصلصل عند كل حركة يقوم بها • والأمثلة التالية توضح قدم هذه المعتقدات والممارسات وانتشارها على نطاق واسع ••

يخبرنا « لوسيان » ان الأشباح تهرب عند سماع صوت يصدر عن معدن من البرونز أو الحديد • وهو يقابل بين الشعور بالنفور الذى يحدثه رنين هذه المعادن على الأشباح ، وسحر رنين النقود المعدنية على النساء اللاتى ينتمين الى طبقة بعينها • ففى روما عندما كان شبح الميت يقوم بزيارته السنوية الى مسكنه القديم فى شهر مايو ، وكان يستمتع بتناول طعام رخيص من حب الفول ، تعود أن يقوده ساكن البيت الى الباب ويتوسل اليه قائلا : « لترحل الآن يا شبح والدى » • ثم يؤكد أمره أو طلبه برنين يصدر من معدن برونزى • ولم تنقرض مثل هذه الأفكار التى مؤداها أن الأشباح تكره سماع الرنين الصادر من المعدن بانتهاء عصر الوثنية ، بل عاشت فى أقوى صورها فى ظل المسيحية فى العصور الوسطى بعد ذلك بزمن طويل • فالعالم المسيحى المفسر « جون تزتزيس » يخبرنا أن رنين البرونز يؤثر على الأشباح تأثير نباح الكلب عليها • وهذا الرأى لم يلق معارضة سوى من قبل قليل من الرجال المفكرين ••

أما فى عصـــور المسيحية ، فقــد كان أكثر الأصـــوات مقتا الى آذان الشياطين والعفاريت هو الصـــوت الجميل الوقور الذى يصـــدر من أجراس الكنائس • ولقـــد أعلن مجلس مدينة كولونيا المحلى رأيا رفعه الى الأجداد ، وهو أن الشياطين تفزع عند سماع صوت الأجراس التى تدعو المسيحيين الى الصـــلاة ، فترحل • وكذلك تفعـــل أرواح العواصف وقوى الرياح • على أنه يبدو أن أعضـــاء المجلس نفســـه كانوا يميلون لأن يعزوا هـــذا العمل الطيب الى ورع المؤمنين وشفاعتهم أكثر مما يعزونه الى صليل الأجراس • ومرة أخرى يشـــير كتـــاب الطقوس الدينية الذى عرف باسم « كتاب الأسقفية الرومانى » ، الى مزايا جرس الكنيسة أينما سمع صـــوته ، ألا وهى قدرته على طرد القوى الشريرة وأرواح الموتى المتمردة الهائمة ، وكل أرواح الزوابع • كما ذكر « دوراندوس » العالم الشهير بالقوانين الكنيسية الذى كان يعيش فى القرن الثالث عشر فى بحثـــه الشهير عن الطقوس الدينيه الذى انتشر على نطاق واسع • أن « الأجراس تدق فى تتابع حتى تفزع الشياطين وتهرب • فعندما تســـمع هـــذه الأشباح طبـــول محارب الكنيسة — أى الجرس — يدب الرعب فيها ، تماما كما يدب الرعب فى نفس أى متغطرس عندما يسمع فى أرضه صـــوت طبول ملك قـــوى يغزو بلاده •• وهـــذا هو السبب كذلك فى أن الكنيسة تدق أجراسها عندما تهب عاصفة حتى تخاف الشياطين عندما تسمع صـــوت طبـــول الملك الأبدى أى الأجراس فتهرب وتكف عن اثارة العاصفة » • وقد كتب حول هذا الموضوع عالم الآثار الانجليزى القائد «فرنسيس جروسى» ، صـــديق الشاعر « برونز » يقـــول : « ان نواقيس النعى كانت تدق لغرضين : أولا ابلاغ المسيحيين الأتقياء برحيل روح الميت ، وثانيا طرد الأرواح الشريرة التى تقف عند سرير الميت وحول بيته مستعدة لأن تقبض على فريستها ، أو على الأقل تناوشها وهى فى طريقها لعـــالم الأرواح • فعندما تدق الأجراس تظل الأرواح الشريرة بعيدة عن شبح الميت (لأن « دوراندوس » يخبرنا أن الأرواح الشريرة تفزع كل الفزع من صوت الاجراس) • فى حين تنطلق روح الميت كالارنب المطـــارد

وتفوز بالهروب ، أو تفوز بما يسميه الرياضـيون بحقها القانونى •
وربما كان ذلك فرصـة مناسبة للأرواح لأن تدفع ثمنا غاليا فى مقابل قرع أجراس الكنيسة لها . وبخاصة بعد أن أعفيت من القيام بعمـل اضافى•ذلك أنه عندما تصلصل الأجراس . يتحتم على الأرواح الشريرة أن ترحل ، فى حين يأخـذ روح الميت الفقير فى التحرك عندما يخفت صليلها • وفضـلا عن ذلك فان عددا كبيرا من المصـلين يصـلون من أجل الميت كلما سمعوا أصوات الأجراس تدق عن بعـد • وقد صـور « و • دى ويردى » مقت الأرواح الشريرة لسـماع الأجراس فى « الأسطورة الذهبية » فقال : « لقد قيل ان الحـيرة تنتاب الأرواح الشريرة التى تسبح فى الهواء عندما تسمع الأجراس • وهـذا هـو السبب فى أن الأجراس تدق عندما يرعد الجو . وعندما تهب عاصـفة أو زوبعة حتى تبتعد الأرواح الشريرة وتهرب ، وعنـد ذاك تخمـد العاصـفة » ••

وكذلك صـور « لونج فيلو » فى الرواية الشعرية « للاسـطورة الذهبية » . هـذه الخرافة تصويرا مؤثرا جميلا • ففى مقدمة قصيدته صـور برج كاتدرائية ستراسبورج فى الليل وقـد ثارت من حـوله الزوابع ، فى الوقت الذى أخـذ الشيطان وقوى الرياح تحلقان فى الهواء حول البرج وتحاولان أن تمزقا الصـليب وتسكتا صليل الأجراس المزعج : فقـال :

لو سيفر ، أهبط ، أهبط
حلق الى أسفل
امسك الأجراس المصطخبة
وحطمها حتى يسمع رنين اصدامها بالرصيف
اقتلعها من برجها الطائر
أيتها الأصـوات •
ان كل صـخبك
لا قيمة له

فلقد مسحت كل الأجراس بالزيت
وعمدت بالميـــاه المقدسة
وهى تتحـدى كل ما لنـــا من قوة

وفضلا عن هـذا ، فان الزوبعة العاصفة وجهنم المعولة قـد استمعا الى صوت الأجراس الوقور • وفى هذا يقول الشاعر :

Defunctoo ploro
Pestem fugo
Festa decora

كما يقول مرة أخرى :

Funera plango
Fulgura frango
Sabbata pango (1)

وفى النهاية رضخت الشياطين الحائرة لأن تنزع فى الظـلام ، تاركة وراءها الكاتدارئية التى لم تكن قد أصابها أذى ، وقـد سـطع بداخلها الملاك ميخائيل شاهرا سيفه يتلألأ بلونه الذهبى والقرمزى على ألواح زجاج النوافذ ، بينما تقتفى الموسيقى المنبعثة من الأرغن وأصوات غناء الكورس أثر الشياطين • وهى تردد :

Nocte surgentes
Vigilimus omnes (2)

ويمكننا أن ننتهى من ذلك الى أن طرد الأرواح الشريرة يعـد السبب الأول والأساسى من بين السببين اللذين يعزوهما « جروسى » لقرع أجراس النعى • والسبب الثانى الثانوى هو دعوة المؤمنين المصلين للصـلاة من أجل الروح التى أوشـكت على أن تصـعد الى بارئها •

---

(١) ومعنى هذا : اننى ابكى هؤلاء الذين ارتاحوا من الحياة واطرد الوباء وأحس الأعياد الدينية اننى أنوح على الاموات وأخفت الاضواء وأرعى يوم السبت يوم الراحة .
(٢) أى .. الأرواح تصعد فى الليل ونحن نرقبها جميعا .

وعلى أى الحالات فانه يبدو أن الناقوس كان يقرع على الدوام فيما مضى . حينما كان يبدو لأقرباء المريض أن مريضهم قد أخذ يعانى سكرات الموت . ويتضح هذا من خلال فقرات متعددة استطاع أن يكشفها المختصون بالدراسات القديمة بين كتابات الكتاب القدماء . وقد أخبرنا « استيبس » فى كتابه « تشريح المساوىء » عن النهاية المؤلمة التى حدثت فى « لينكولن شاير » لشخص وثنى كان يكثر من القسم بالايمان فقال : « وعندما بدأ للناس أن نهايته قد قربت ، دقوا النواقيس . فلما سمع هذا الرجل النواقيس تناديه ، اندفع من سريره فى قوة وهو يقول : « بحق الرب انه لن يأخذنى بعد » . وعند ذاك تدفق الدم من أطراف أصابع قدميه وأطراف أصابع يديه ومن معصمه ، ومن أنفه وفمه ، ومن مفاصل جسمه ، وأجزاء أخرى منه . ولم يكف الدم عن التدفق حتى خرج كل الدم من جسمه . وبهذا أنهى هذا الآثم حياته الزمنية » . وعندما كانت السيدة « كاترين جراى » تحتضر وهى أسيرة فى القلعة ، وأدرك حاكم القلعة أن السجينة على وشك أن تتخلص من أسره بدون ترخيص ملكى ، قال للسيد « بوكيام » : « أليس من الأفضل أن نرسل الى الكنيسة لتدق نواقيسها ؟ » . أما السيدة فقد أخذت تصلى عندما شعرت أن نهايتها قد اقتربت ، وتقول : يا الهى ، اننى أودع روحى بين يديك . سيدى المسيح هيا استقبل روحى » . فصليل النواقيس كان بالنسبة لها ، كما كان بالنسبة لغيرها أنه « قضى الأمر » . Nunc dimittis ومرة أخرى تحدث كاتب فى النصف الأول من القرن العشرين عن مسيحى يحتضر وقد كبت عواطفه : « لو مد عمره بعض الوقت ، لكان فى وسعه أن يستمع الى أجراس النعى فى هدوء » .

ومما يرجح أن الغرض الحقيقى من أن دق أجراس النعى هو طرد الكائنات الشريرة التى تحلق فى الهواء متخفية عن الأنظار وليس مخاطبة الناس من بعد ودعوتهم للصلاة على الميت ، ذلك الشكل البدائى الذى احتفظ فيه بتلك العادة فى كل مكان حتى عصرنا الحاضر .

فعندما يمرض شخص ويصـــل الى مرحلة الاحتضار فى بعض جهات جبال « ايفـــل » أى فى الحى الذى يقع فى منطقة الراين البروسية ، فان أصدقاءه ، وفقا للعادة المتبعة ، يدقون جرسا صغيرا يمسكونه فى أيديهم ، ويسمى جرس البركة . « وذلك لكى يبعدوا الأرواح الشريرة عن المحتضر » . وقد قيل ان العادة التى كانت متبعة فى « نيوسول » فى شمال هنغاريا ، أن يدق جرس صغير يحمل فى اليـــد عندما تقترب نهاية شخص ، « حتى تظل روحه المفارقة له تحلق بضـــع دقائق فى العالم الأرضى بجانب جسدها المسجى » . فاذا لفظ أنفاسه ظل الجرس يدق بعيدا عن الجســـد بعض الشىء ، ثم يدق خارج باب حجرته ثم حـــول بيته . « وبذلك يرافق صـــليل الجرس الروح وهى فى طريق رحلتها » . ثم ترسل بعد ذلك اشارة الى القندلفت لكى يأخـــذ فى دق نواقيس كنيسة القرية . ويقال ان مثل هـــذه العادة كانت تنتشر فى جبال « غابة بوهيميا » التى تفصـــل بوهيميا عن بافاريا . والدافع الذى يتـــدم تفسيرا لتلك العادة وهو الرغبة فى اعاقة رحيـــل الروح لبضـــع لحظات عن طريق دق الأجراس ذات الصوت الرقيق ، لا يمكن أن يكون الدافع البدائى بعينــــه ، لمـــا يحتوى عليه من احساس رقيق للغاية . وانما الدافع الأساسى وراء ذلك بدون شـــك ، كما هى الحال فى العادة المشابهة المنتشرة فى جبال « ايفـــل » ، هو ابعاد الشياطين التى يمكن أن تخطف الروح المسكينة فى تلك اللحظة الحرجة . ولا يأخذ ناقوس برج الكنيسة الكبير فى الدق ، الا بعد أن يؤدى الجرس الصغير وظيفته الخيرة ، وبذلك يرافق صـــوت الجرس الكبير الرنان كذلك ، الروح الراحل فى رحلته الطويلة فى أرض الأرواح كما لو كان ملاكا حارســـا ..

وفى فقرة شهيرة من كتاب دانتى « المطهر » قرن دانتى بين فكرة صليل جرس النعى وصليل ناقوس المساء الذى يسمعه المسافر فى البحر من بعـــد ، من حيث أن الناقوس الأخـــير يعلن كذلك نهـــاية يوم أو نهاية رحلة الشـــمس وهى تتلاشى فى الســـماء القرمزية . وليســـت

أبيـــات « بايرون » التى يقلد فيها أبيات دانتى : أقــل شهرة من الأبيات الأخيرة • فبايرون يقول :

يا للساعة الرقيقة التى توقظ الرغبة وتذيب القلوب
هؤلاء الذين يبحرون فى البحر فى اليوم الأول
عندما يفترقون عن أصدقائهم الأعزاء
ويا لها من ساعة تملأ قلب الحاج بالحب فى رحلته
عندما يعلن ناقوس المساء بدء الرحلة
وكأنه يبكى فناء يوم راحل •

وليس تعبير الشاعر « جراى » عن هــذه الفكرة أقــل جمالا • وهو يصـــور صليل ناقوس الغروب فى المساء وصـــدى صـــوته بين أشجار الطقوس والدردار الجليلة فى ساحة كنيسة انجليزية ، عنــدما يقــول :

لقد نعى ناقوس المساء ذلك اليوم الراحل

حقا ان أصـــوات قرع نواقيس الكنيسة فى مثل هـــذه الأوقات ، وفى هـــذه الأمكنة يثير احساسا يمتلىء بالرهبة والتأثير فى النفس • فهو يرن فى الآذان كصـــدى عالم اختفى من الوجود ، على حد تعبير « فراودى » وقـــد عبر الشاعر الأمريكى « بريت هارتى » أجمل تعبير عن هـــذا الاحساس ، عندما سمع ، أو بالأحرى تصـــور أنه سمع : ناقوس صـــلاة التبشير يدق فى المساء بجانب ارسالية أسبانية تقـــع فى دولوريس فى كاليفورنيا ، وقد هجرت منذ زمن • فهو يقول :

يا أجراس الماضى ، التى لا تزال
وموسيقاها المنسية منذ زمن ، تملأ الفضاء الشاسع
وتلون شفق الحاضر بلون رومانسى
اننى أسمع نداءك ، وأرى الشمس وهى تختفى
على الصخرة ، وعلى الموجة وعلى الرمال

عندما تحيط أصوات الارسالية التى تقع عند الشاطىء
بالأرض الكافرة وتختلط بهـا
فى دائرة سحرك
لا نعثر على أية آفة أو عفن فطرى
ولا يمر القلق العنيف أو الشهوة أو الطموح الدنىء
بهـذه الأسوار الشاهقة
اننا نشق طريقنا عبر أمواجك الطويلة الممتدة
ونتراجع نتلمس الماضى الأسبانى
وأبقى مع حلم الغروب
أيتها الأجراس الرهيبة ، يا من تستغيث أجسامها المقدسة
بايمان القـدماء
ويا أيتها الأجراس المجلجلة التى تهدهد موسيق الشفق
ان الروحانية تنطوى .

وقد عبر « رينان » الذى خفف من غلواء أفكاره الدينية المتشككة الادراك الهادىء للاديب الفنان ، عن مثل هـذا الاحساس بقـوة الأجراس التى تمس القلب ، وتناغم العقـل بالأفكار الخاشعة ، فقال معترضا على الاتجاه العقلانى المجدب الذى اشتهر به عالم الأديان الألمانى « فوبرباخ » : « ألا ينبغى على « فوبرباخ » أن ينغمس ، من أجل الرب ، فى منابع أكثر غنى من مجرد الاحساس المتعالى المنتفخ بجرمانيته . آه لو أنه جلس عنـد آثار فلسطين أو جبل كوليان لسمع أصـوات الأجراس الأبدية وهى تظل تصلصل حتى يخفت رنينها على التـلال المهجورة التى كان الرومانيون يسكونونها يوما ما . أو لو أنه جلس على شاطىء الليـدو المنعزل ، واستمع الى صليل أجراس كنيسة القديس مارك وهى تخفت عبر البحيرة الضحلة ، ولو أنه رأى «أسيس» وعجائبها السحرية وكنيستها المزدوجة ، ورأى أسطورة المسيح الثانى الذى ظهر فى العصـور الوسـطى مصـورة بريشـة « سيمابو » و «جيوتو» . ولو أنه أشبع مرآه بالمنظر الساحر لعذارى «بيروجينو» .

ولو انه رأى فى سانت دومنيكو فى سينا القديسة كاترين فى وجدها الالهى . لو أنه فعل هذا لما سخر السيد « فوبرباخ » مما يقرب من نصف الشعر الانسانى ، ولما صرخ كما لو كان يطرد عنه شبح يهوذا الاسخريوطى » ..

على أن هذه الأمثلة التى تشير الى التأثير العاطفى لأجراس الكنائس على الناس ، لا ينبغى أن تبتعد عن البحث الفولكلورى لهذا الموضوع . فنحن لا نستطيع أن نفهم أفكار الناس ما لم نتعمق أعماق مشاعرهم وعواطفهم التى تستمد منها هذه الأفكار . وأقل ما يمكن أن نفعله هو أن نفصلهما فى مجال الدين . ذلك أنه ليست هناك حواجز صارمة بين الأفكار العقلية ومشاعر الجسد من ناحية ، واحساسات القلب من ناحية أخرى ، وهى تميل جميعا لأن تذوب ويختلط بعضها بالبعض الآخر فى موجات عاطفية . وليست الموسيقى وحدها هى التى تستطيع أن تحتفظ بموجات هذه العواطف . وانما بوسع أشياء أخرى وان كانت قليلة ، أن تحتفظ بتدفقها فى قوة . ولم يحاول أحد حتى اليوم أن يقوم بدراسة الفولكلور من جانبه العاطفى ، وانما ركز الباحثون أبحاثهم حول الجانبين المنطقى والعقلانى ، أو بتعبير آخر يفضله بعض الباحثين حول عناصره اللامنطقية واللاعقلانية . ولكننا يمكننا أن نتوقع بدون شك استكشافات قيمة من خلال الدراسات المستقبلة حول أثر العواطف فى تشكيل مصير الانسان وعاداته ..

ولقد كان الناس منذ العصور الوسطى حتى العصور الحديثة ، يحبون الاستماع الى صليل نواقيس الكنائس ، اذ كانوا يتصورون أن السحرة والمشعوذين يحتشدون فى صور غير مرئية فى الجو ليحتالوا بحيلهم الرخيصة على اصابة الانسان والحيوان على السواء بالشرور ، وقد كانت هناك أيام معينة فى أثناء السنة يعقد فيها هؤلاء الأشرار اجتماعاتهم غير المقدسة أو السبوت ، كما كان يطلق عليها . وبناء على ذلك فقد كانت الأجراس تقرع طوال الليل فى بعض الأحيان فى مثل هذه الأيام حيث ان السحرة المشعوذين يكونون

منشغلين فيها تحت ستار الليل بانجاز أعمالهم الجهنمية • ففى فرنسا على سبيل المثال ، كان الناس يعتقدون أن السحرة يهيمون فى الهواء فى ليلة القديسة « أجاثا » بصـــفة خاصة ، وهى الليلة التى توافق الخامس من شـهر نوفمبر • ومن ثم أصـــبح من المعتاد أن تدق أجراس الكنائس والأبرشيات طوال الليل حتى تطردهم • وقـــد قيل أن هذه العادة نفسها تنتشر فى بعض بقاع أسبانيا • ومن بين الأيام التى يجتمع فيها السحرة كذلك ليلة عشية منتصف الصــيف ، ولهـــذا فان أجراس « روتنبورج » فى « سوابيا » تظل تدق من الساعة التاسعة مساء فى هـــذه الليلة حتى الفجر ، بينما يغلق الناس المؤمنون نوافذ بيوتهم اغلاقا محـــكما ؛ بل انهم يسدون الشقوق حتى لا تتسرب الى بيوتهم هـــذه الشخوص المفزعة • وقـــد تعود السحرة كذلك أن يجتمعوا فى « الليلة الثانية عشرة » ، وليلة « القديس والبورجى » ، وعشية أول مايو • ومن ثم أصبحت العادة فى هـــذه الأيام أن يقوم الناس بطرد هؤلاء الأشرار الذين يمارسون شرورهم فى صورة غير مرئية ، عن طريق قرع أجراس وضرب سياط يمسكونها فى أيديهم ••

ولكن على الرغم من أن السحرة والمشعوذين يفضلون مواســم معينة من السنة للاحتفال بعربدتهم الدنســـة ، فانه لا تمر ليلة لا يقابلون فيهـــا عابرى الســـبل ، وذلك فى أثناء تجوالهم بحثا عن أشـــخاص يؤذونهم بشرورهم ، كما لا تمر ليلة لا يحاولون فيها اقتحام بيـــوت المؤمنين وهم نائمون فى قلق • ومن ثم كان ينبغى أن يفعل شىء لحماية المواطنين السالمين من ازعاج هؤلاء الأشرار لهم فى أثناء الليل • ولهذا فان الحراس المكلفين بحماية الشوارع من حـــدوث الجرائم العادية ، يلقى على عاتقهم تبعة اضافية ، وهى طرد القوى المفزعة التى تنتشر فى الظلام فى الجو ، وتتجول كالأسود الضارية التى تبحث عن فريستها • ولكى ينجز حراس الليـــل مهمتهم ، فانهم كانوا يستخدمون نوعين مختلفين من الأسلحة الروحية التى تتفق فى درجة فعاليتها • أما السلاح الأول فهو الناقوس ، وأما السلاح الثانى فهو الترنم بالأدعية المباركة•

واذا كان صوت الناقوس يقلق النيام فى الحى ، فان لحن تعويذة البركة كان يريحهم . اذ كانوا يتأكدون ، كلما غطوا فى النوم أن هذا هو السبيل الوحــد لأمنهم على حــد تعبير ملتون ، عندما قال :

فتعويذة رجل الجرس التى تصــل الى آذان النائمين
تبارك الأبواب من شرور الليــل

وكثيرا ما كانت أنشودة البركة التى تحطم ســكون الليل تصاغ فى شعر ليس له مثيل فى رداءته . بحيث أصــبح شعر رجل الجرس مضرب الأمثال • وفحوى هــذا الشعر يمكن استخلاصه من سطور قالها « هينيريك » على لسان أحــد جمهور الحراس الذى عانى الشاعر من أدعينهم الليلية بكل تأكيــد ، كما عانى منهم « ملتون » كذلك • وهــذه الأبيــات هى :

رجــل الجرس
يخلصك من ضجيج المحنــة
ومن القتــلة
ومن كل سوء يمكن أن يزعجك
حتى تنام نوما هادئا
وهو يبعث فى نفوسكم الاطمئنان
ويبعد عنكم الأشباح عندما تنامون
بعد الساعة الواحــدة أو ربما بعد الساعة الثانية
سادتى • طاب يومكم جميعا

ويخبرنا أديسون كيف أنه استمع الى رجل الجرس وهو يبــدأ عظاته عند منتصف الليل باستهلال مألوف ظل يعيده على مسمع سامعيه فى كل ليلة من ليالى الشتاء طيلة عشرين عاما • وهذا الاستهلال هو :

أيها الرجل الفانى ، يا من ولد فى المعصــية

وعلى الرغم من أن هـــذه الخطبة المزدرية بالانسان يمكن أن يكون لها صـــدى ورع فى نفس أديسون ، الا أنه يبدو أنها كانت تثير مشاعر الغضـــب وازدراء النفس فى صـــدور الناس العاديين الذين كانوا يستيقظون من سباتهم فى الهزيع الأول من الليل ليذكرهم رجل الجرس فى ساعة غير مستحبة بعقيدة أصل الشرور ..

لقد رأينا ان أجراس الكنائس ، كانت تقرع فى العادة ، وذلك من وجهة نظر كتاب العصور الوسطى ، ساعة حدوث العواصف المرعـــدة بقصـــد طرد الأرواح الشريرة المثيرة للعواصـــف . وقـــد ألف كاتب ألمـــانى عجوز عاش فى القرن السادس عشر وكان يعـــرف باســـم « ناوجورجوس » ، قصـــيدة ساخرة حـــول تأثير مثل هذه الخزعبلات على الكنيســـة فقال :

اذا أرعـــد الرعـــد ، وثارت العواصف العاصفة
اعتقد الناس لشدة تعجبنا ، أن الأرواح الخسيسة تسببها ،
هؤلاء الذين لا دين لهم ، ولا ثقـــة فى أى شىء
ولهـــذا يقرع الكهنة النواقيس من أعلى أبراج الكنيسة
فتصلصل بصـــوت أعلى من صوتها العادى
حتى يكف الرعـــد فى السماء المظلمة
لأنهم يعتقدون أن القوة التى تسكن هـــذه الأجراس المسيحية
تقـــدر على اسكات العاصـــفة والرعـــد

ولقد رأيت بنفسى ذات مرة فى « نوم بورج » ، وهى مدينة تقع على شاطىء تورنج

جرسا يفتخر باللقب الذى أطلق عليه ويقول :
« اسمى مارى »
اننى اسكت الرعد العاصـــف بصوتى وكذلك الزوابع وكل شرير يمـــزح » ،

ولا عجب ، اذا كانت الأجراس تقوم بهذا العمل ، أن يلجأ اليها
المتدينون عندما يسقط البرد أو تثور زوبعة أو عاصفة
أو يرعد الرعد أو يبرق البرق العنيف فى كل مكان » ..

وقد قيل ان أجراس الكنيسة كانت تقرع فى كل أنحاء ألمانيا فى العصور الوسطى فى أثناء حدوث عاصفة مرعدة ، وان القندلفت كان يتلقى ضريبة خاصة من الأبرشيات لقرعه الأجراس فى هذه الظروف العاجلة . وقد ظلت هذه الضريبة تدفع حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر . ومثال هذا أن القندلفت فى « يوبار » التى تقع فى « التمارك » ، كان يضطر الى قرع نواقيس الكنيسة عندما تهب عاصفة مرعدة . وفى مقابل هذا كان يتسلم من كل فلاح خمس حزم من الذرة ، لما كان يتكلفه من أعباء فى انقاذ المحصول من التلف . ويخبرنا كاتب ألمانى عن هذه العادة التى كانت تنتشر فى « سوابيا » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، « أن الأجراس كانت تدق فى معظم الأبرشيات الكاثوليكية بخاصة تلك التى تقع فى شمال « سوابيا » عندما تهب عاصفة مرعدة ، وبذلك يكف البرد عن السقوط ولا تحدث خسائر من البروق . وكثير من الكنائس تمتلك أجراسا خاصة لهذا الغرض . فدير « باين جارتن » الذى يقع بالقرب من « ألت دورف » يملك جرسا يطلق عليه اسم « ناقوس الدم المقدس » . ويدق هذا الجرس فى أثناء هبوب عاصفة مرعدة . وفى « فور ملنجن » تدق الأجراس على جبل « ريميجيوس » ، فاذا قرع الناس هذا الناقوس بمجرد احساسهم بحدوث عاصفة رعدية ، فان البرق لا يتهددهم فى أى مكان فى الحى . على أن القرى المجاورة ومن بينها « يسنجن » على سبيل المثال ، لا تسعد بقرع النواقيس ، لأنها تعتقد أن المطر يختفى مع اختفاء العاصفة الرعدية . أما فيما يختص بمدينة « كونستانسا » بصفة خاصة ، فنحن نقرأ أن نواقيس كل الكنائس والأبرشيات لا فى المدينة وحدها وانما فى الأماكن المجاورة كذلك ، كانت تقرع عندما تهب عاصفة رعدية . ونظرا لقداسة هذه

النواقيس ، فان الناس يعتقدون أن أصواتها تحميهم كليـــة من أذى البرق • حقــا ان غير قليل من الناس يساعدون القندلفت فى حماســه فى شـــد حبال الناقوس فى قوة حتى يتأرجح تأرجحا بالغــا • وعلى الرغم من أن هؤلاء المتطوعين ، فيما يروى ، قد صعقتهم البروق فماتوا فى أثنـــاء قرع الأجراس ، الا أن غيرهم لم يجبن عن أن يفعل فعلهم • بل ان الأطفال فى هـــذه المناسبات يحملون فى أيديهم أجراسا صغيرة مصنوعة من الرصاص أو من أى معـــدن آخر ، ومزينة بأشـــكال على هيئـــة أصابع القديسين ثم يأخذون فى دقهــا بعـــد أن تكون كنيسة « ماريا لوريتو » التى تقـــع فى « شتايرميرك » أو فى « اينسيديلن » قـــد باركتهــا • وقـــد كان التابعون فى ظـــل بعض النظم الاقطاعية ملزمين بدق أجراس الكنيسة فى مناسبات عـــدة وبصـــفة خاصـــة فى أثنـــاء العواصـــف الرعـــدية ••

لقد كانت النواقيس تقـــدس فى خشـــوع ، كما كان الاعتقاد الشائع انها قـــد عمدت بواسطة الكهنة • ومن المؤكد أنها كانت تسمى بأسماء وتغسل وتبارك وتدهن بالزيت المقدس لكى تستطيع أن « تبعد الأشباح الشريرة وتطردها » وكثيرا ما تشير الكتابات المحفورة عـــلى الأجراس الى المقـــدرة التى تستكن بالناقوس وتمكنه من طرد الزوابع والبرق والرعـــد • وقـــد يجرؤ البعض على نســـبة هـــذه القـــوى للنواقيس نفسها ، فى حين يتضرع البعض الآخر الأكثر تواضـــعا الى الله لكى يخلصـــهم من هـــذه الكوارث ، فهناك ناقوس فى « هازلين » قـــد حفرت عليه الكلمات التالية بالحروف اللاتينية وهى « ســـيدى المســـيح خلصـــنا من البرق والرعد والعواصف » • ويخبرنا «بينانت» الرحالة والباحث فى الآثار القديمة الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، فى معرض حـــديثه عن بئر القديس « فينفريـــد » فى « فلينتشـاير » فيقول : « لقد مســـح ناقوس من نواقيس الكنيسة تكريما للكنيسة • اننى لا أعرف أسماء الذين عينهم الكنيسة آباء أو أمهات بالتعميـــد . هؤلاء الذين كانوا فى العـــادة من الأثرياء ولكن الذى أعرفه أن هؤلاء

كانوا يمسكون بحبل الناقوس عند الاحتفال بالتعميد ؛ كما يسمون الناقوس باسم • وعند ذاك يأتى الكاهن وينثر الماء المقدس على الناقوس ويعمده باسم الأب والابن والروح القدس ، كما يكسوه برداء جميل • وبعد هذا يقدم هؤلاء الآباء والأمهات وليمة كبيرة ، كما يقدمون المنح القيمة التى يتسلمها الكاهن باسم الناقوس • فاذا بورك الناقوس على هذا النحو ، فانه يكون بذلك قد اكتسب المقدرة الخارقة على تهدئة العواصف عندما يقرع ، وعلى تعطيل الرعود وطرد الأرواح الشريرة • وكثيرا ما كانت تنقش الكتابات على مثل هذه النواقيس المقدسة • ومن بين هذه الكتابات العبارة التالية :

Sancta Wenefreda, Des hoc commendare momente
Ut pietate sua nos servet ab hoste cruento

كما كتب أسفل ذلك

Protege prece pia quos convoco, Virgo Maria

على أن العالم اليسوعى الأب « مارتين ديلريو » الذى نشر كتابا قيما عن السحر فى مطلع القرن السابع عشر ، أنكر فى سخط موضوع تعميد النواقيس ؛ على الرغم من أنه اعترف أنها كانت تسمى بأسماء القديسين وأن أصحاب السلطان الكنسى كانوا يباركونها ويدهنونها بالزيت المقدس • أما أن نواقيس الكنيسة تدق لتقييد الأرواح الشريرة كل التقييد ، ولتفادى العواصف التى تثيرها القوى المعادية للانسان ، أو للعمل على اخمادها ؛ فهو ؛ من وجهة نظر العالم اليسوعى ؛ اعتقاد مصدره التجارب اليومية التى تبدو واضحة للعيان بحيث يتعذر انكارها • ولكن هذه الأعمال الخارقة من ناحية أخرى ترجع الى القداسة أو البركة التى تخلع على هذه الأجراس ، ولا ترجع الى شكلها أو الى طبيعة مادتها • فهو يرفض بازدراء ؛ رفضه للخرافات الوثنية ؛ فكرة أن الصليل الذى تحدثه آلة نحاسية كفيل بأن يبعد الشياطين • كما أنه يسخر من تصور أن ناقوس الكنيسة يفقد كل خواصه العجيبة اذا سمته محظية القسيس

باسم (ذلك أنه يرفض كلية استخدام كلمة التعميد) • وقد هبط « بيكون » بتفكيره الى حد الاشارة الى الاعتقاد فى أن « صليل النواقيس القوى فى البلاد المأهولة بالسكان قد أبعد عنها الرعود ، وبدد هواءها الفاسد » • ولكنه فى الوقت نفسه يقدم تفسيرا طبيعيا لهذه الحقيقة المتصورة فيقول : « على أن هذا يمكن أن ينجم عن تخلخل فى الهواء ولا ينجم عن صليل النواقيس » ••

وبينما تمتلك كل النواقيس بدون استثناء وبدرجة واحدة لتلك الخاصية العجيبة فى العمل على تبديد الشياطين والمشعوذين ، كما تجنب الناس ، الى جانب ذلك ، أضرار الرعود والبروق ، فان بعض النواقيس كانت تتميز عن غيرها فى درجة فعاليتها فى استخدام قواها الخيرة • ومن هذه النواقيس ناقوس القديس « آديلم » فى دير «ماليسربورى»، والناقوس الضخم « سان جرمان » بدير « سان جرمان » فى باريس • فهذان الناقوسان كانا يقرعان بانتظام لطرد أشباح الرعد والبرق • وقد كان لكاتدرائية القديس « باول » القديمة ، حق امتياز « قرع النواقيس فى أثناء حدوث الزوابع المرعدة والبرق » • على أن الأعمال الخارقة لنواقيس أوربا تتضاءل بالنسبة لأعمال نواقيس « كالوتو » التى تقع فى أمريكا الجنوبية ، لا من حيث أن نواقيس « كالوتو » كانت تتميز عن نواقيس أوربا بامتلاكها القوى خاصة بها ، ولكن من حيث كثرة حدوث العواصف المرعدة فى اقليم « أنديس » ، الأمر الذى هيأ الفرصة لنواقيس « كالوتو » فى ابراز مقدرتها التى تفوق مقدرة الأجراس العادية • وفى هذا المجال استشهد بشهادة عالم وبحار أسبانى مرموق سافر الى أمريكا الجنوبية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر • فقد أخبرنا هذا العالم أن « بوبايان » أكثر تعرضا للعواصف المرعدة والبروق والزلازل • ولكن حيث أن « كالوتو » كانت تعد أكثر الجهات تعرضا للعواصف المرعدة والبروق ، فقد كان هذا سببا فى شهرة نواقيس

« كالوتو » التى يقرعها عدد غير قليل من الناس لعلمهم علم اليقين أنها تمتلك خاصية ضد البروق • وهناك فى الحقيقة حكايات كثيرة تحكى حول هذا الموضوع ، الى درجة أن الانسان قد يتحير فى تصديقها • وأشير الآن الى أكثر الحكايات انتشارا حول هذا الموضوع دون أن أتعرض لصدقها أو كذبها ، وانما أترك لكل شخص الحرية فى الحكم عليها • لقد كانت مقاطعة « كالوتو » التى تحتوى على عدد كبير من الهنود الذين ينتمون الى شعب يسمى « بايزيس » شاسعة الأرجاء فى الأزمنة السالفة • ثم حدث أن هؤلاء الهنود انقضوا على المدينة فجأة وتوغلوا فى طرقها ، وأحرقوا بيوتها وقتلوا سكانها • وكان من بين القتلى قسيس الأبرشية الذى كانوا يبغضونه بصفة خاصة ، لأنه كان يتلو المواعظ من الانجيل الذى لم تكن تعاليمه وشرائعه تتفق مع أسلوب حياتهم الهمجية • ومن ثم فقد كانت هذه المواعظ تكشف عن مساوىء وثنيتهم وأفكارها الحمقاء ، كما كانت تضع أمام أعينهم شرورهم الشائنة ، بل ان ناقوس الكنيسة لم يتخلص من هذا الشعور العدائى ، حيث أن رنينه كان يذكرهم بواجبهم فى الحضور والاستماع الى التعاليم الدينية • ومن ثم فانهم بعد أن قاموا بمحاولات عديدة فاشلة فى تحطيم الناقوس فكروا فى أن أفضل وسيلة فى التخلص منه هى دفنه تحت الأرض • وبذلك ينسون تعاليم الانجيل التى شاءت أن تسلبهم حريتهم •• وعندما سمع الأسبانيون فى الأحياء المجاورة « لكالوتو » بهجوم الهنود عليها سلحوا أنفسهم وانتقموا من هؤلاء المتمردين شر انتقام ، ثم أعادوا بناء المدينة ، وأخرجوا الناقوس من المكان المدفون فيه ، ووضعوه فى برج الكنيسة الجديدة • ومنذ ذلك الحين لاحظ السكان ، لشدة فرحتهم ودهشتهم . أنه عندما يقرع الناقوس تخمد العواصف بمجرد أن تثور • واذا لم يتحسن الجو كل التحسن ، فان العاصفة تختفى على الأقل لتظهر فى مكان آخر • ولما انتشرت أخبار هذه المعجزة فى كل مكان أخذ الناس يتوسلون الى رجال الكنيسة لكى يحصلوا على قطع من الناقوس يصنعون منها ألسنة لأجراسهم الصغيرة • حتى تكتسب

من الناقوس المعنى خاصـيته المميزة له ، ومن ثم يمكنهم الاسـتفادة من الأجراس الجـديدة كل الافادة فى بلـد يكثر هبـوب العواصف عليه فى صـورة مفزعة . وهذا هو السبب فى شهرة « كالوتو » ..

ولم يقتصر استكشاف امكانية اخماد الرعود والصـواعق عن طريق تلك العملية البسيطة وهى قرع النواقيس على الشعوب المسيحية فى أوربا وسـلالتهم الذين اسـتوطنوا العالم الجـديد ، وانما كان يشاركهم هـذا الاستكشاف بعض القبائل الوثنية البدائية فى أفريقيا . فقـد قيـل ان« التيسيين » يستخدمون الأجراس فى طرد شيطان العاصفة . فاذا تسببت الصاعقة أو النار التى تتفجر عنها فى ايذاء شخص ، فان هـذا الشخص يظل يحمل أجراسا فى رسـغه عـدة أسابيع بعـد هـذا الحادث .. وحيثما وجد هذا الشخص أن المطر الغزير يهدد قومه ، لأن المطر يسقط على الدوام فى أوغنـدا مصحوبا بالبرق والرعـد ، فانه يتجول فى القرية مدة ساعة مرتديا الأجراس المصلصلة فى رسغيه وحاملا فى يده عصـا من نبات البردى ، ويصاحبه فى العادة أكبر عـدد من أفراد أسرته لكى يقوموا بخـدمته ، وان كان هؤلاء لا يقومون بالأعمال الأساسية . فاذا تسببت الصـاعقة فى مقتل شخص ، فانه لا يدفن داخل البيت وفقا للمـادة المتبعة وانمـا يحمل الى مسافة بعيـدة ويوارى فى التراب بجانب نبع يقـع عند حافة الغابة ، ويوضـع على قبره كل الأوانى والأدوات التى كان يمتلكها فى حياته . كما تغرس المعازق على سبيل الضـحية لاله الصـواعق ، عند باب الكوخ الذى هوت عنـده الصـاعقة الذى أصـبح حطاما بفعلها ، وتترك هناك لبضـعة أيام . ومن الطريف هنا أن هذه الرواية تشير الى فاعلية الأجراس والميـاه الجارية معا وهى العقيـدة التى انتشرت فى بعض خرافات الأوربيين القـدماء ..

وحيث أنه لا يبدو أن قبيلة « باتيسو » قد تبنت هـذه المعتقدات عن طريق المبشرين الأوربيين ، فاننا ننسب اليهم ميزة ابتداع عـادة طرد شياطين العواصـف عن طريق قرع النواقيس ، أو اخمادها عن

طريق وضــع الأوانى والفؤوس فى الامكنة الخربة وعلى قبر من صعقته الصواعق • وكذلك يستخدم الصينيون الطبول ، التى تتفق فى أغراضها العملية مع النواقيس ، فى تجنب شرور الرعــد ، وان كانت المناسبات التى يضرب فيها الصينيون الطبول تختلف عن مناسبات قرع النواقيس التى أشرنا اليها • فاذا مرض شخص بمرض الجــدرى ، وظهــرت البثور فى وجهــه مــدة سبعة أيام ، وكذلك اذا أرعــد الرعــد ، اختير أحــد أفراد أسرة المريض لكى يأخــذ فى ضرب الطبول التى تــكون معــدة لمثــل هــذه الطــوارىء • ويعاون هــذا الشخص شخص آخر من الأسرة فى ابلاغه بأن الرعــد قد خمــد ، لأن صوت الطبول القوى لا يمكن ضاربه من التمييز بين صــوت الرعد وصــوت الطبول • وقــد قيل أن السبب فى ضرب الطبول هو منع بثور مرض الجــدرى من الانفجار • ولكن هــذا التفسير يقدمه الصينيون لاختفاء بثور المرض نتيجة ضرب الطبول ليس مقنعا فيما يرى الباحثون • ولكننا بمقارنة هــذا التصــور بالتصور الأوربى الســالف الذكر ، نفترض أن الصينيين يتصــورون أن انفجار بثور المرض يسببه أصلا شيطان الرعــد الذى يمكن طرده عن طريق ضرب الطبول ••

واذا كانت القبائل الهمجية قــد استطاعت أن تحقق غرض طرد الأرواح الشريرة عن طريق احــداث الضجيج ، فهناك شواهد تدل على أنهم لم يرفضوا الوسائل الأوربية التى تحقق الغرض نفسه • وقــد سجل اثنــان من المبشرين كانا يعيشان بين ســكان « بورت موريسباى » فى نيوغينا البريطانية ، نموذجا من هــذه الوسائل التى استعارها هؤلاء الأهالى عن الأوربيين ، قالا : « فى ذات ليلة عندما هبت عاصــفة رعــدية ، سمعنا صوتا مزعجا فى القرية • وقد كان الأهالى يضربون الطبول ويصرخون فى حماسة لكى يطردوا أشباح العاصفة • ثم أخــذت أصوات ضرب طبولهم فى الخفوت ، عندما بدأت العاصفة تهــدأ • وعند ذاك شعر سكان القرية بالاطمئنان • وعلى هذا النحو كانوا يقومون ليلة السبت بطرد الأشباح التى تسبب المرض ويترتب

على ذلك وفاة عـــدد كبير من الأهالى • وعندما قرع ناقوس الكنيسة عندهم لأول مرة ، شـــكر الأهالى مستر لوويس لأنه أبعد عنهم عصابات الأشباح من داخل قراهم ، كما كانوا يفعلون هم أنفسهم عن طريق ضرب طبولهم • وقـــد سعدوا كذلك بنباح كلب لطيف كان يعيش فى بيت الارسالية (ذلك لأن الكلب الاسترالى الشرس لا ينبح) ، لأنهم تبينوا فى ثقة تامة أن الأشباح قـــد اضطرت إثر ذلك الى أن ترحـــل عنهم • ولكن الأشباح ألفت ، لسوء الحظ ، صـــوت قرع الناقوس ونباح الكلب • ومن ثم كان يتحتم على الصـــبية أن يتجولوا فى الليل وهم مسلحون بالأقواس والسهام لكى يصيبوا هذه الأشباح البغيضة • وكثيرا ما كانوا يفزعون الى الغابات والأحراش ليختبئوا فيهـــا » • ومعنى هـــذا أن أهالى « بورت موريسباى » البدائيين ، قد شاركوا العالم المسيحى ، « جون نزيتريس » رأيه فى أنه ليست هناك وســـيلة لطرد الأشباح الشريرة ، أفضـــل من قرع النواقيس البرونزية ونباح الكلب ••

ويقوم بعض هنود « بويبلو » فى أريزونا بطـــرد الســـحرة عن طريق قرع النواقيس ، وان كان من المحتمل أنهم استعاروا هـــذه العـــادة من المبشرين الأسبان ، لأنهم لم يكونوا يستعملون من المعادن حتى ذلك الوقت سوى الذهب والفضـــة ، أى أن استخدام النواقيس لم يكن معروفا لدى ســـكان أمريكا الأصليين قبـــل أن يفـــد اليهـــا الأوربيون • وقد وصف أحـــد الضباط الأمريكيين طريقة طرد الأشباح التى رآها رأى العين فى قرية من قرى « موكويس » التى تقع شأنها شأن سائر قرى هؤلاء الهنود الكثيرة ، على قمـــة ربوة تشرف عـــلى واد خصـــيب ، فقال :

« ان أهالى « موكويس » يعتقدون فى ســـذاجة ، فى الســـحر والسحرة ، فالهواء الذى يحيط بهم ، وفقـــا لتصورهم ، يعج بالأرواح الشريرة • ويطرد ســـكان « أورابى بى » هـــذه الأرواح الشريرة عن طريق ترتيل أناشيدهم الدينية وعن طريق قرع النواقيس • وقـــد

واتانى الحظ لأن أشاهد فى مطلع عام ١٨٧٤ م ، بمرافقة الجنرال « كروك » ، هذه الوسائل السحرية الغريبة التى قام بتأديتها أهالى تلك البلدة المنعزلة التى لا يكاد يعرفها الزائرون • وقد بدا لى وكأن سكان القرية جميعا قد تجمعوا • وبعد أن غنوا بصوت عال وبنغمة متحدية ترتيلة أو ابتهالا ذا ايقاع موسيقى يؤكد صليل الأجراس القوى ؛ تقدموا مسرعين فى صف واحد من أعلى قمة الجبل الى حدائق البرقوق التى تقع أسفله ؛ ووقفوا بعض الوقت عند أركان هذه الحدائق وهم يغنون فى نغمة واحدة عالية ويأخذون من الأشياء الموضوعة داخل الناقوس ما يساوى نقودهم • ثم صدرت اشارة من قائد المجموعة ، اندفعوا على أثرها الى الحدائق • وفى أقل من ساعة كانت ثمار الأشجار قد اقتطفت عن آخرها كما انتزعت فروع الأشجار التى حملها الأطفال والنساء الى قريتهم التى تقع فوق قمة الجبل » • والهدف من الرقص حول حدائق الفاكهة ، وكذلك ترتيل الأناشيد بصوت مرتفع ، ودق النواقيس بحماسة بالغة ؛ هو بدون شك طرد السحرة الذين كان الأهالى يعتقدون أنهم يسكنون بين فروع أشجار البرقوق ويتنعمون بالفاكهة اللذيذة ••

على أن استخدام الأجراس والطبول بقصد طرد الأرواح الشريرة كان مألوفا عند كثير من الشعوب الأخرى التى لم تكن فى حاجة لأن تستعير من المسيحيين الأوربيين وسائل هذا الطرد • « فالطبلة النحاسية تعد الآلة الرئيسية فى الصين التى تحدث ضجيجا قادرا على طرد الأشباح • وهذه الآلة النحاسية تعد فى الحقيقة ملمحا مميزا للصينيين ، وهى تقرع فى ربوع الامبراطورية كل يوم ، وبخاصة فى الصيف عندما تنشط عملية طرد الأشباح بسبب زيادة الوفيات • ويصاحب الضرب على الطبول النحاسية الضرب على الصنج النحاسية والطبول المصنوعة من الخشب أو الجلود ، لأن كل هذا يزيد فى تأثير الطبول النحاسية • وكثيرا ما تستمر جماعات صغيرة من الرجال والنساء فى ضرب هذه الآلات مدة ساعات

متتالية ولا يعترض الجيران على ذلك أو يرفعون شـكواهم بأنهم يفسـدون عليهم نومهم بالليـل • ربما كان السبب فى هـذا هو ارتياح آذانهم لهـذه الموسيقى البدائية • أو تقديرهم لهـذا العمل الجليـل الذى يقوم به بعض أفراد هـذا الشعب الطيب مشكورين لاهتمامهم البالغ بخير العامة وسلامتها » • وتقام احتفالات طرد الأشباح فى جنوب الصـين فى فصـل الصيف القائظ ، عندما ينتشر وباء الكوليرا الذى يعزى انتشاره الى تحليق الشياطين غير المرئية فى الجو • ووظيفة هذه الاحتفالات هى طرد هذه الكائنات الشريرة من البيوت والمساكن • وكل هـذا العمل تقوم به جمعية من الجمعيات • وتجمع تكاليفه عن طريق الاكتتاب • ويتصدر قائمة الدفع عادة الموظفون الكبار المحليون ، وهؤلاء الذين يدفعون لهـذا الغرض مبالغ سخية • أما العمل الحقيقى فى طرد الأشباح فتقوم به مواكب من الرجال والصـبية الذين يتجولون فى الطرقات ويقرعون طبولهم بصـوت عال ، ويضربون بفؤوسـهم وسيوفهم الأعـداء غير المرئيين ، ويزعجونهم بقرع طبولهم وصـليل أجراسهم وفرقعة مفرقعاتهم واطلاق وابل من رصاص بنادقهم ••

وفى « أنـام » ، يعزف الشخص المكلف بطرد اشباح المرض من مسكن معين على عوده ، فى الوقت الذى يصلصل فيه بسلسلة نحاسية بربطها فى أصبع قدمه الكبير ، بينما يساعده مساعدوه فى قرع الطبول والآلات الوترية الأخرى •على أن الناس يتصورون أن صليل الأجراس يصدر من رقبة حيوان يمتطيه الاله ويأتى به مسرعا ليساعد المؤدى العازف • وتلعب النواقيس دورا كبيرا فى طقوس بورما الدينية • ويحتوى كل معبد من معابدهم على عدد كبير منها • ويبدو أن الناس يميلون الى الاستماع الى صوتها العذب ولحنها الجمهورى • وهـم يقولون فى العصر الحاضر ، ان خواصها لا تمثل فى طرد الأشـباح الشريرة بقدر ما تتمثل فى لفت أنظار الأشباح الحارسة بأنهم يتغنون بمدح بوذا ، ومن ثم فان المتعبدين يعلنون فى النهاية تقديسهم لبوذا وولاءهم لواجبه الدينى ، عن طريق قرع النواقيس ثلاث مرات •

على أننا نعتقد أن هذا التفسير يعد أحد الأفكار المتأخرة التى يبـرر بها العابد المتقدم فى أفكاره ، بقاء شعيرة بدائية قديمة كانت قـد نشأت أساسا لغرض أقل صقلا وجمالا من الغرض الحالى • وربما كان قرع نواقيس الكنائس فى أوربا أصبح محببا الى نفوس كثير من الأتقياء لجمال صوته وما يثيره فى النفس من دواع رقيقة ، كان يمارس فى الأصل لطرد الأشباح من بيوت المصلين ، وذلك قبل أن ينظر اليه بوصفه وسيلة لاستدعاء العابدين لكى يقوموا بتأدية صلاتهم فى أماكن العبادة المقدسة ••

وعلى كل فان استخدام شعوب آسيا الساذجة للأجراس بقصد طرد الارواح الشريره فى تلك الصورة البسيطة ما يزال يتبع عندهم حتى يومنا هذا • ففى أثناء الاحتفال الجنائزى الليلى الذى تقوم به قبيلة « ميشيمى » ، وهى قبيلة من قبائل التبت التى تسكن بالقرب من حدود أسام الشمالية ، يحمل الكاهن بطريقة غريبة أسنان ثمار البرقوق الملونة بألوان مختلفة ، كما يحمل الأجراس والقواقع . ويظل يرقص على هذا النحو بعنف بقصد طرد الأرواح الشريرة ، بينما تصلصل تلك الأشياء وتقعقع من حوله • وعند قبيلة « كيرانتى » وهى قبيلة تسكن وسط الهملايا وتقوم بدفن موتاها فوق قمم التلال ، « يتحتم على الكاهن أن يحضر الجنازة • وفى أثناء سيره مع جسد الميت فى طريقه الى القبر ، يقرع وعاء نحاسيا بعصا من وقت لآخر ، ويناشد روح الميت ، آملا أن يرحل فى سلام ليرافق الأرواح التى سبقته » • وربما كان القصد من قرع الوعاء النحاسى عند الاحتفال الجنائزى هو الاسراع برحيل روح الميت الى مقرها الأخير ، أو طرد الشياطين التى يمكن أن تعترض سبيله • وربما كان هذا السبب أو غيره يلائم تفسير عادة نساء اسبرطة فى التجول فى شوارع المدينة وهن يقرعن الأوانى عندما كان يموت ملك من ملوكهن • وعندما تنفصل زوجة من قبيلة « كافيروندو » ، وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن وسط افريقيا ، عن زوجها وترحل الى أهلها ، فانها ترى أن من واجبها عندما

يتوفى زوجها أن تعلن الحداد عليه فى قريته • ولهذا الغرض فانها « تربط الجرس الذى يستخدم فى نداء قطعان الماشية على خصرها بحيث يتدلى من الخلف ، وتجمع صديقاتها ويسرن جميعا مهرولات الى قرية زوجها المتوفى بينما يصلصل الجرس المعلق فى خصرها بطريقة مثيرة طوال الطريق » • وربما كان القصد من صليل الجرس فى هذه المناسبة كذلك هو ضمان رحيل روح الميت فى أمان ، أو ربما كان الغرض من ذلك هو لفت نظر الميت الى ما تقوم به زوجته الأرملة حزنا عليه • ومن المألوف عند قبيلة « دياك » التى تقطن الأقاليم الجنوبية الشرقية فى بورنيو الهولندية ، أن تقرع النواقيس القرصية ليلا ونهارا طالما كان جسد الميت مسجى فى البيت • وتبدأ الألحان الحزينة بمجرد أن يلفظ الميت آخر أنفاسه • وعند ذلك تقرع أربعة نواقيس قرصية دقات مختلفة ومتتابعة ، بحيث يفصل بين دق ناقوس وآخر دقيقتان • وهكذا تظل تقرع النواقيس ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم • وقد قيل إنه ليست هناك دقات أكثر سحرا وتأثيرا على المستمعين ، بما فى ذلك أجراس النعى تسمع من الكنائس الكاثوليكية فى أوربا ، من هذه النغمات الحزينة التى تصدر من نواقيس الموتى هذه ، وهى ترن فى رتابة حتى يتلاشى صليلها عبر أنهار بورنيو العريضة ••

وعلى الرغم من أننا لا نعرف سببا لقرع قبيلة دياك للنواقيس فى هذا الجزء من بورنيو بصفة مستمرة بعد موت شخص ، الا أننا يمكننا أن نفترض أن الغرض من ذلك هو ابعاد الأرواح الشريرة ، لا استدعاء الأصدقاء المحزونين الذين يسكنون على بعد • اذ لو كان الغرض من ذلك هو مجردنشر نبأ الوفاة بين الأحياء المجاورة ، فما سبب قرع النواقيس على الدوام ليلا ونهارا ، طالما كان الميت ما زال يرقد فى بيته ؟ • كما أننا نعرف من ناحية أخرى أن طرد الشياطين فى بورنيو يتم عن طريق قرع الآلات المعدنية • وقد تحدث رحالة انجليزى قام برحلة فى شمال بورنيو عن ظروف إقامته فى مناسبة

من المناسبات فى بيت كبير من بيوت بلدة « دوزون » التى يسكنها حوالى مائة من الرجال مع أسراتهم فقال : « وعندما أرخى الليل سدوله ، انطلقت ألحان ذات ايقاع وأنغام غريبة ، من طنبور معدنى . فلما سألت عما اذا كان هذا نوعا من الطرب ، أجابوا بالنفى وشرحوا لى أن هناك رجلا مريضا ، وأنه يتحتم عليهم أن يعزفوا هذه الألحان حتى يبعدوا عنه الأرواح الشريرة » وهؤلاء الأهالى أنفسهم يقومون بطرد كل الأرواح الشريرة من القرية فى شىء من القدسية مرة فى السنة . وفى أثناء عملية الطرد تقرع النواقيس وتدق الأجراس لكى يولى الشياطين هاربين فى سرعة . وبينما يأخذ الرجال فى قرع النواقيس ودق الطبول تسير النساء فى مواكب من بيت لآخر ، وهن يرقصن ويغنين على ايقاع الصنج النحاسية التى يحملنها فى أيديهن ، وعلى صليل الأجراس النحاسية الصغيرة التى يربطنها فى شكل مجموعات فى معاصمهن . فاذا فرغت النساء فى طرد الشياطين من البيوت ، فانهن يقتفين أثرها حتى يسقنها الى شاطىء النهر حيث يكون فى انتظارهن مركب معد لحملهن الى ما وراء حدود القرية . ويزين هذا المركب بتماثيل لرجال ونساء وحيوانات وطيور مصنوعة من أوراق نخل الساغو . كما توضع فيه الأطعمة والملابس وأوعية الطهى . وبعد أن ينتقل هؤلاء المسافرات الروحانيات الى ظهر المركب ، تفك مرساته ، ويترك ليبحر فى مجرى النهر حتى يصل الى بعد سحيق فى النهر ويختفى بين الغابات عن الأنظار وبذلك تكون الشياطين قد ابتعدت بعيدا مع المسافرات ، ولا تعود مرة أخرى ، كما يأملون ذلك فى ضعف بالغ .

وعندما زار سير « هوج لو » قرية تقع على تل « سينجودباك » فى أغسطس عام ١٨٤٥ م ، استقبل باحتفال رائع بوصفه أول أوربى زار هذا المكان . وقد اشترك هذا الرجل الانجليزى بروح طيبة فى صلاة الشمس والقمر والصلاة « لراجا سارواك » ، حتى يكون محصول الأرز وافرا وانتاج الخنازير غنيا ، وحتى تنجب النساء

الذكور • وقد شاء هذا الزائر الانجليزى أن يزيد من مفعول هــذه الصلوات ، بأن أخذ يرمى بكمية صغيرة من الأرز الأصــفر الى أعلى بين فترات منقطعة بقصد لفت نظر ثلاثة من الآلهة فيما يبدو لمطالب عبادهم • وبعد أن اشترك سير « هوج لو » فى هذه العبادة المتواضعة على مرأى الناس أمام البيت ، رجع الى الشرفة حيث كان زعيم القرية جالسا • « فربط جرس الصتور حول معصمى وطلب منى أن أربط له بالمثل جرسا آخر حول معصم يده اليمنى • وبعــد هذا قــرعت النواقيس والطبول التى كانت تعلق بجوانب الشرفة • ثم ربط الزعيم جرسا صغيرا آخر حول معصمى ، كما أخذ الرجال العجائز يفعلون فعله وكل منهم يوجه الى كلمات لم أفهم فحــواها ، أو بالأخــرى يتمتمون — لأنفسهم بها • وكان كل شخص يدخل علينا يحضر معــه أوعية عديدة مصنوعة من البامبو ممتلئة بالأرز ، ويضيف عند وصوله جرسا الى الأجراس حتى أصبحت عندى اجراس عديدة للغاية • ثم طلبت منهم على سبيل المجاملة أن أربط سائر الأجراس فى معصــمى الأيسر ، اذا كان هذا لا يضر بالاحتفال ، وهذا ما فعلوه معى بحق » • وعلى الرغممن أن سير « هوج لو » لم يفسر لى هذا الأمر ، ومن المحتمل أنه لم يكن يعرف سبب خلع الأجراس على الزائر على هــذا النحو ، الا أنه يمكنناأن نفترض أن الغرض من هذا هو حفظ الأرواح الشريرة فى مأواها البعيدة ••

ويحمل الكاهن الباتارى فى « ميرازابور » ، وكذلك كثير من الطبقات المتنسكة فى الهند ، الأجراس والخشاخيش المصــنوعة من الحديد ، ويهزونها فى أثناء سيرهم بقصد أفزاع الشياطين • ولهذا الغرض نفسه، فيما يبدو ، ترتدى طبقة معينة من الكهنة الشياطين التى تعيش بــين قبيلة « جوند وتعرف باسم « أوهيالسى » الأجراس على الدوام • ومن المحتمل أن مثل هذا الدافع يكمن وراء عادة تعليق الأجراس ، حيثما انتشرت هــذه العادة ، فى أجــزاء مختلفة من جسم الانسان بخاصة فى رسغ القدم وفى المعصم والرقبة ، سواء اقتصر هذا التعليق

على مناسبات معينة أو دام لفترات طويلة • وقد نفترض أنه كان يظن فى الأصل ان صليل الأجراس يحمى حاملها من شرور الغيلان • ولهذا السبب ، فانه من المــألوف أن يرتدى الأطفال فى الأقاليم الجنوبية من بلاد الصين أجراسا صغيرة • أما فى الأقاليم الشمالية ، فانهم يرتدونها فى قلة • كما تحمل نساء نابوليتان حليا من الفضة تتدلى منها أجراس صغيرة على ملابسهن بوصفها تعويذة تحرســهن من الأعــين الشريرة• ويقوم اليزيديون الذين يعتقدون اعتقادا قويا فى قــوة الشــياطين ، باحتفال فى نهاية أعياد الحج • وهم يعتقدون أن هذا الاحتفال يبعد الذئب الأسحم عن الجماعة المتدينة • وفى هذا الاحتفال يأتى رجــل عجوز ويخلع عنه ملابسه ويلبس جلد نعجة كما يلبس حــول رقبته قرطا من الأجراس الصغيرة ، وعلى هذا النحو يزحف حول الحجاج المجتمعين ويحدث صوتا يقصد به تقليد ثغاء المــاعز • ويعتقد الأهالى أن هذا الاحتفال يطهر الجماعة ، وان كان يحق لنا أن نفترض أن هذا التطهير يحدث عن طريق احاطة المؤمنين بسياج روحانى لا يســتطيع العدو أن يخترقه مهما تكن قوته • ومن المحتمل ان الكاهن من قبيــلة « باداجا » يكون مدفوعا بهذا الدافع عندما يربط أجراسا فى أرجــله قبل أن يحــاول المشى بقــدمين عاريين فوق جمرة متوهجة فى حفرة ، وذلك فى أثناء الاحتفال الذى يقام لمباركة المحصول ••

وكثيرا ما يستخدم سكان افريقيا الأصليون الأجراس بهدف طرد الأرواح الشريرة • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أنهم كانوا يصطنعون هذه العادة على الدوام أو فى العموم ، نقلا عن الأوربيين ، حيث أن شعوب افريقيا السوداء كانت تعتقد منذ القدم فى وجود الأرواح ، كما كانت تعرف المعادن • ومثال هذا أن سكان « ساحل سليث » الذين يتحدثون اللغة « اليووبية » يعتقدون أن هناك أرواحا شريرة بعينها تسمى « أبيكوسى » تســكن الغابات والأماكن الخربة • فاذا قتلها الجوع ، فانها تبحث عن ملاذ لها من الجــوع فى جسم الانسان • ولهذا فانها تنتظر فترة حدوث حمل للمرأة ، وتتسلل مع الجنين فى رحم

المرأة • فاذا ولد مثل هؤلاء الأطفال ، أصابهــم الهزال لأن الأرواح الجائعة تستهلك أفضل غذائهم المخصص لهم • ولكى تخلص الأم الطفل من هذا الكائن المتطفل المزعج ، فانها تقدم له طعاما بوصــفه ضحية • وهى تنتهز فرصة انشغاله بالطعام ، فتعلق فى رسغى الطفل اجراسا صغيرة وأساور من الحديد ؛ كما تعلق فى رقبته كذلك اقراطا من الحديد • ويعتقد الأهالى أن قعقعة الحديد ورنين الأجــراس يبعد الأرواح الشريرة عن الطفل ، ومن ثم فقد أصبح من المــألوف رؤية الأطفال وأرجلهم مثقلة بالحلى المصنوع من الحديد • ومن المــألوف كذلك عند قبيلتى باجندا وبانييورو اللتين تســكنان فى وســط افريقيا أن يحمل الأطفال الذين يتعلمون المشى ، اجراسا صغيرة تربط فى أرساغهم • والسبب الذى يقدم لتفسير هذه العادة ، هو أن الأجراس تساعد الطفل على المشى أو أنها تقوى رجليه • ولكن ربما كان الدافع الأساسى هو أبعاد الطفل الصغير فى تلك الفترة الحرجة عن انظــار الأرواح الشريرة • ومن المحتمل ، بناء على هذا الدافع نفسه ، أن يحمل ولدا كل توأم فى قبيلة باجندا أجراساً فى ارساغهم فى أثنــاء الاحتفالات الطويلة التى تؤدى باتقان ، وفقا لمــا تفرضه معتقدات هذه الشعوب الخرافية على الوالدين فى مثل هذه الظروف • وفى هذه الاحتفالات يتحتم على كل من الأب والأم أن يضربا طبلة خاصة على الدوام ليلا ونهارا ••

وعندما تضع الام ابنهــا فى قبيلة « بوجو » التى تســكن شمال الحبشة ، فان قريباتها يشعلن النار عند باب بيتها ، ويسرن ببطء حول النار ، فى الوقت الذى تقرع فيه الأجراس فى قوة كما تهز فروع أشجار النخيل ، وذلك بهدف افزاع الأرواح الشريرة وابعادها • كما روى أن أفراد قبيلة « جوند » فى الهند « يقرعون على طبق من النحاس عنــد ميلاد الطفل حتى يتغلغل الصوت الى آذان الطفل ، فلا يسمع ما دونه من الأصوات » • ويبدو أن هذا السبب الذى قدم تفسيرا لهذه العادة ليس هو السبب الأصلى ، أما السبب الرئيسى فيما يبدو ، فهو حماية

الأم وطفلها من شر الأرواح الشريرة ، وذلك عند سماع هذه الأرواح الأرواح لأصوات قرع النحاس ، وهو نفس السبب الذى قدم لاتباع قبيلة « بوجو » لهذه العادة • وقد قيل كذلك أن الكوريتيين فى الاسطورة الاغريقية كانوا يرقصون حول الطفل زيوس ، وهم يضربون الدروع برماحهم حتى يعلو ضجيجها فوق صـــوت الطفل ، فلا يجتذب صـــوت الطفل أباه الشرير « كرونوس » الذى كان من عادته أن يلتهم أولاده بمجرد ولادتهم • ويمكننا أن ننتهى من هذا الى أن هذه الأســطورة الاغريقية تتضمن بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصـــد حماية الأطفال من الأسباب الكثيرة التى تؤدى الى وفاتهم ، وهى تلك الأسباب التى يعزوها الانسان البدائى الى وســاطة الأرواح الشريرة الخطــيرة - ويمكننا أن نفترض ، على سبيل تقديم مزيد من الايضـــاح ، أنه عندما كان يولد الطفل فى الزمن القديم ، فان الأب وأصدقاءه كانوا ينزعون الى تسليح أنفسهم بالســيف أو الرمح والدرع ثم يرقصون رقصـــة الحرب حول الطفل ، وهم يضربون الدروع بسهامهم أو سيوفهم حتى لا يستبين صراخ الطفل من ناحية فلا يجذب انتباه الأرواح التى تتجول بحثا عن الفريسة ، وحتى تفزع الشياطين وتبتعد عن مكان هذا الضجيج من ناحية أخرى • كما أنهم كانوا يلوحون بأسلحتهم ويصوبونها فى قوة فى الهواء ، حتى يلحقوا الهزيمة الساحقة بهــؤلاء الأعداء غــير المرئيين • وهذا الفرض تؤيده على أقل تقدير الموازنة التالية :

وصـــف كاهن أســبانى فى مطــلع القرن الثامن عشر العـــادات التى يتبعها « التاجالوجيون » سكان جزر الفيلبين عند ميلاد الطفـــل فقال : « ــ ان الباتياناك » التى يسميها البعض الغيلان (التى ربما كانت من وحى تأليفهم أو أحلامهم أو تخيلاتهم) هى قرينة الشخص أو هى الشــيطان الذى ألف أن يضايقهم • وهم يعزون الى هــذه الكائنات ما يحدث للطفل من شرور فى أثناء ميلاده • والاساءة الى هذه الكائنات أو تهيئة الجو لهـــا للانطلاق ، يجعلها تختبىء فى شجرة أو فى أى مكان بالقرب من البيت الذى تضع فيه المرأة وليدها • ولكى

يبطلوا عمل « الباتياناك » الشرير ، فانهم يخلعون ملابسهم، ويسلحون أنفسهم بالدروع والرماح وسائر الأسلحة الأخرى ، ويجلســون على هذا النحو فوق سطح البيت أو عند أسفله ، ويأخــذون فى توجيــه طعناتهم وضرباتهم فى الهواء ، كما يقومون بتأدية حركات وتلميحات أخرى لهذا الغرض نفسه » • وهناك رواية أخرى لهذه العادة تذكر أن الزوج وأصدقاءه يتسلحون بالسيوف والدروع والســهام ، وبهذا يكونون معدين لتوجيه ضرباتهم فى الهواء من فوق سطح البيت أو عند أسفله (ذلك لأن بيوتهم تشيد على أعمــدة) ، وذلك بقصــد افزاع الأرواح الخطيرة أو طردها ، حتى لا تؤذى الأم وطفلها • ويبدو أن هؤلاء الرجال المسلحين الذين يطــردون الأرواح الشريرة عن الطفــل المولود ، يشبهون ، فى قيامهم بتوجيه ضرباتهم بأسلحتهم فى الهواء ، الكوريتين البدائيين عند الاغريق القدماء ••

وهذه المعتقــدات التى تتعلق بالأخطار التى يتعرض لها الأطفال من قبل الأرواح الشريرة ، قد أدت الى اتخاذ قبيلة كاشين فى بورما مثل هذه الاحتياطات لحماية الأم وطفلها • فعند هذه القبيلة ، « تقــول القابلة لحظة ميلاد الطفل : إن الطفل يسمى كذا وكذا » • واذا لم تقل هذا ، فان روحا شريرا يسمى « نات » ، يبدأ هو أولا بتسمية الطفل ، الأمــر الــذى يتســبب فى هــزاله ، بــل فى مــوته • فاذا لــم تتعرض الأم وطفلها للخطر ، قدم الطعام والشراب المــألوف ، وسعد الأب بذلك • أما اذا تعسرت ولادة الأم ، فان هذا يكون دليلا عــلى أن « النــات » تمارس نشاطها ، وعند ذاك يستدعى العراف الذى يطلق عليه الأهالى اسم«تومزا»فيذهب الى بيت آخر فى القرية ويلتمس النصيحة من أشجار الخيــرزان (تشيباوت) ، لتخبره عمــا اذا كان « نات » البيت هو الذى يقوم بهذا العمل الشرير ، أم أن « نات » الأحراش قام بطرد « النات » الحارسة ليمارس عمله فى حــرية • وتسمى « نات » الأحراش « سون » ، وهى عبارة عن أرواح الأطفال الذين توفوا إثر ولادتهم ، وهم يبحثون بطبيعة الحال عن رفقاء لهم ؛

ولهذا فهم يدخلون البيت الذى تضع فيه الأطفال الذين توفوا إثـر ولادتهم ، وهم يمسكون بالأم والطفل • فاذا أخبرت أشجار الخيزران العراف أن « نات » البيت هو الروح الثائر قام باسترضائه وتقـديم الضحية له بالطريقة المـألوفة • أما اذا أخبرت بأن « السون » هـو الذى يسيطر على هذا الموقف ، فان العراف يتخذ عند ذاك اجراءات عاجلة ، فتطلق النيران من البنادق من حول البيت وفى الممرات التى تؤدى الى القرية ، وتصوب السهام أسفل البيت • كما يلوح بالسيوف أو السكاكين الكبيرة (دهاس) والشعلات النارية فوق جسم المرأة • وفى النهاية تصنع كومة من الخرق البالية ويوضع بداخلها الفلفل الحار وغير ذلك من المـواد التى تنبعث منها رائحة نفاذة وتوضع أسـفل البيت وتشعل فيها النيران • وبهذه الطريقة تطرد أكثر الأرواح عنادا واصرارا • وقد أخبرنا مبشر كاثوليكى عن هذه العادة نفسها التى تنتشر بين قبيلة « كاشين » فذكر أنه فى حالة الولادة العسرة ، فـان هؤلاء البدائيين يتهمون « السدن » (وهم أرواح النساء اللاتى توفين فى أثناء الولادة) بسعيها فى قتل الأم ، ومن ثم فهم يقومون كما هـو المـألوف بطردها • ولهذا الغرض يتجول أفراد الأسرة فى كل ركن من أركان البيت ، ويلوحون بسكاكينهم وسهامهم ، ويحدثون كل صنوف الصخب • وكلما كانت الأصوات أكثر جلبة ، كانت أبعد فى تأثيرها • بل انهم يقفون الى جانب المـريض وهم مجردون من ملابسهم لكى يفزعوا الأرواح الشريرة • كمـا أنهم يحرقون داخل البيت وخارجه أوراقا ذات رائحـة نفاذة ويقرعون سيوفهم ، ويستمرون فى احداث الصخب فى الطرق الرئيسية وفى الغابة حتى يصلوا الى أقرب جرف حيث يرغمون « السون » على السقوط فيه ، وفقا لتصورهم ••

وعندما تعانى المرأة فى قبيلة « القلموق » من آلام المخاض ، فان زوجها ينشر شباكا حول الخيمة ويجرى هنا وهنـاك ، وهو يضرب فى الهـواء بهراوته حتى يبقى عـلى الأرواح الشريرة فى مـأواها • و « عندما يولد طفل » ، عند قبيلة « نوجيا » التتارية ، « يذهب كل

فرد من أفراد القبيلة الى بيت المولود وهو يحمل أوعية يضرب عليها متصورا بذلك أنه يرغم الشيطان على الفرار ، فلا تكون له بذلك أدنى سلطة على روح الطفل » • وفى « بونى » ، وهى امارة فى جنوب سليبس ، « يصرخ الرجال عندما تعانى المرأة من آلام الوضع ، أو يطلقون النار من بنادقهم لكى يطردوا بذلك الأرواح الشريرة التى تحول دون ميلاد الطفل » • أما عند ولادة أمير من الأمراء ، وبعد أن تنفصل المشيمة عن جسم الأم ، « فان الناس يقومون بقرع كل الأدوات التى تستخدم فى طرد الشياطين ، « حتى تفزع الأرواح الصريرة وتهرب • ومن أجل هذا الغرض نفسه تقرع الطبول فى جزر « أرو » فى جنوب غرب نيو غينيا عندما تطول عملية الولادة بدرجة تثير الازعاج • ويعتقد سكان المناطق المجاورة لمجرى مائى بعينه يصب فى خليج بورتون عند بحيرة تنجانيقا ، أن روح هذا النهر يسىء الى الأم الحامل ساعة ولادتها طفلها • فاذا خيل لأم أنها تعانى من مكايد هذا الروح ، تحتم عليها أن تقدم الضحية له ، وأن تؤدى شعائر معينة • وعند ذلك يجتمع كل سكان القرية ويأخذون فى قرع الطبول بجوار الكوخ الذى ترقد فيه المرأة ويصرخون ويرقصون « لطرد الروح الشريرة » • وعندما يولد طفل عند قبيلة « سينجهاليز » فى سيلان « ترفع القابلة صوتها بصراخ يعلو صراخ الطفل حتى لا تتعرف أرواح الغابة على وجود الطفل وتسبب له الأذى » • وعلى هذا النحو كان الرومانيون القدماء يعتقدون أن المرأة بعد الولادة بصفة خاصة تكون عرضة لايذاء آله الغابة « سيلفانوس » ، الذى يتخذ طريقه الى البيت ليلا لكى يضايقها ويخطفها عنوة • ومن ثم فقد كان من المألوف أن يسير ثلاثة من الرجال فى أثناء الليل حول بيت المرأة ، وهم مسلحون بالفؤوس والمدقات والمكانس بصفة خاصة • ثم يقفون عند كل باب من أبواب البيت ، ويأخذ اثنان منهم فى ضرب عتبته بالفأس والمدق ، كما يقوم ثالثهم بكنسها • وهم يعتقدون بذلك أنهم يحمون الأم من هجمات آله الغابة ••

ويحق لنا أن نفترض على هذا النحو ، أنه كانت من عادة الاغريق القدماء ، أن يقوم الرجال المسلحون بحماية النساء وقت الوضع من الأرواح الشريرة ، وذلك بأن يرقصوا من حولهم وهم يقرعون دروعهم بسهامهم وسيوفهم • وربما ظلت الأسطورة تحكى عن هذه العاده حتى بعد اختفائها بزمن طويل ، عندما وصفت الكورتيين ، وهم يؤدون تلك الشعيرة حول مهد الطفل الصغير زيوس ••

على أنه ينبغى علينا أن نعود مرة أخرى بعد هذا الاستطرداد ، الى عادة استخدام الأجراس بوصفها وسيلة لتجنب ايذاء الشياطين والأرواح • فمن عادة السوناريين الذين يشتهرون بصياغة الذهب والفضة فى المقاطعات الوسطى فى بلاد الهند ، أن يرتدى الأطفال وصغار البنات خلاخيل مجوفة بداخلها أجراس تصلصل • وبعد أن تتزوج امرأة وتلد عددا من الأطفال ، فانها تترك الخلخال المجوف وترتدى خلخالا مصمتا • وقد قيل لنا فيما بعد ان السبب فى ارتداء البنات هذه الخلاخيل المجلجلة هو التعرف على مكان تجوالهن ، وبذلك يمكن الحيلولة بينهن وبين ايذاء الشياطين فى الأماكن المظلمة • ولكن السبب الحقيقى فيما يبدو هو أن هذه الخلاخيل كانت تستخدم فى بث الذعر بين الأرواح »• كما أنه من عادة قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق أفريقيا البريطانى، أن تتسلم البنت من عشاقها والمعجبين بها قبل اجراء عملية الطهارة لها ،أجراسا كبيرة على سبيل السلفة ، وهى ترتدى عادة هذه الأجراس حول رسغها ، ثم تقوم بردها بعد انتهاء هذه المناسبة المقدسة • وفى العادة تتسلم الفتاة التى تنتمى الى عامة الشعب ، عشرة أجراس أو عشرين جرسا وترتديها جميعا عند اجراء عملية الطهارة لها • وبمجرد أن تنتهى عملية الطهارة ، تقف الابنة وتقرع الأجراس حول رأسها ، ثم تخرج وتقابل عشيقها وترد اليه الأجراس المعارة • فاذا كنا الآن نعرف السبب فى حمل المحاربين من قبيلة ناندى للأجراس فى أرجلهم ، فإنه يبدو لنا الآن أننا قد تعرفنا على سبب ارتداء الفتيات للأجراس عند الطهارة • واذا كنا لا نشك فى المعلومات المؤكدة فى هذا

الصدد ، فاننا يمكننا أن ننتهى الى أن الأجراس كانت تعد تعويذة تحمى كلا الجنسين من أخطار القوى الخارقة التى يتعرض لها كل منهما تعرضا مؤقتا أو دائما ، وفقا للخصائص التى تتميز بها هذه القوى ..

ويخشى الأهالى فى الكنغو أن تسكن الشياطين أجسامهم عن طريق أفواههم عندما يتناولون شرابا . ومن ثم فهم يستعملون فى هذه الظروف كل الوسائل التى تبعد عنهم هذه الكائنات الخطيرة . واحدى هذه الوسائل هى أن يقرعوا جرسا عند كل جرعة شراب يشربونه . وقد لوحظ أن الزعيم عندهم يشرب عشرة أوعية من الجعة فى جلسة واحدة ، وكلما رفع الوعاء الى شفتيه قام بقرع الجرس ، فى الوقت الذى يلوح فيه صبى برمح الزعيم ، زيادة فى الحيطة ، أمام صاحب المقام الرفيع ، لكى يمنع الشياطين من أن تتسرب الى معدته مع شربه الجعة . ويحمل الناس فى هذه المنطقة كذلك الأجراس التى يخلع عليها الرجل الفتيشى خاصية سحرية ، فتكون بمثابة تعويذة تمنع عنهم الحمى ووباء الجراد ، بل من الممكن أن تجعل حاملها غير مرئى . ومن المألوف عند شعب « باكيريوى » ، الذى يسكن « أوكيريوى » ، وهى أكبر جزر بحيرة فيكتوريا نيانزا ، أن يعلقوا جرسا على باب كل بيت . ويتحتم على من يدخل البيت أن يقرع الجرس بأن يضربه برأسه ، لا لكى يعلن قدومه لأصحاب البيت ، كما نفعل نحن الأوربيين ، بل لكى يطرد الأرواح الشريرة وسحر المشعوذين عن البيت . وفى غرب افريقيا يساعد صليل الأجراس على زيادة الصخب الذى يصاحب طرد الأشباح عن الرجال الذين يتملكونهم فى مواسم معينة ..

ومن أهم ما يميز الكهنة والأنبياء والأطباء فى افريقيا : حملهم للأجراس أو ارتداؤهم اياها فى أثناء احتفالاتهم المقدسة التى تهدف الى طرد الشياطين أو الشفاء من الأمراض أو استقبال وحى الهى . فالسحرة فى قبيلة أكامبا التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، على سبيل المثال ، يحملون أجراس القطيع بعد تعليقها فى سير من الجلد ،

ويقومون بقرعها فى أثناء تنبؤهم بالغيب . ذلك أنهم يتصـــورون أن صليل الجرس يلفت انتباه الأرواح اليهم • وقد أخبر أحد أطبائهم السيد « هوبلى » ، أنه رأى فى رؤياه أن الاله يأمره باحضار جـــرس بعينه • فقام هذا الطبيب اثر ذلك برحلة خاصة الى قبيلة « كيكويو » ليشترى هذا الجرس • وعند عودته أقام وليمة من الجعة ، وذبـــح ثورا مخصيا لكى يسترضى الأرواح • وتتميز طبقة الكهنة (لوباس) عند قبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق أفريقيا عن طبقة العراقـــين (كاليجوس) • ولكن كلا من الكهنة والعرافين يحملون أجراسا فى أثناء الاحتفال بطقوسهم الغريبة • ويتســـلح العرافون فضـــلا عن ذلك . بسوط ، وهم لا يترددون فى ضرب المريض به برفق بقصد طرد الشيطان الذى يعتقدون أنه يتملك المريض • ومرة أخرى نجد أن الطبيب الساحر عند « الغانيين » الذين يسكنون فى « جابون » يحمل عددا من الأجراس الصغيرة التى يربطها فى رسغيه ومعصميه عندما يقوم بالكشف عن عراف من العرافين • وهو يعلن صراحة أن أصوات الأجـــراس ترشـــده الى الى الكشف عن هذا المذنب من بين زحام المتفرجين المضطربين القلقين • وتعتقد قبيلة « هو » التى تسكن فى « توجولاند » فى غرب افريقيا . فى وجود نوع من الأرواح الكادحة أو الأرواح الماهرة التى تعمـــل بطريقة معجزة على زيادة عدد الأصداف الصفراء فى حجرة كنوز رجل من الرجال كما تعمل على زياد محاصيله • واسم هذه الأرواح الخيرة « سولوى » ومن الغريب حقا أن قبيلة « هو » تطلق هذا الاسم بعينه على أصـــوات الأجراس الصغيرة التى يعلقها كهنتهم بأهداب أرديتهم، كما كان يفعـــل كهنة اليهود فى العصر القديم ؛ كما يقال ان اله بحيرة البرت أتصل « بالبانييوريين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى عـــن طريق وساطة نبية كانت تعلق المحار الأصفر والأجراس الحديديـــة الصغيرة بأهداب ردائها الجلدى • وقد كانت المحارات والأجـــراس تتماوج وهى تسير كأمواج البحيرة • كمـــا تمثل اله الرخاء . عند هذه القبيلة نفسها ، واسمه « واmالا » ، وهو المسئول عن زيادة نسل الرجال وقطعـــان الماشية والمحصول ، لنبى من الأنبياء ، فأخذ النبى ينطق

بالنبؤات باسم الآله • وعندما تملك هذا الشخص الوحى ، ارتـــدى الأجراس فى رسغيه ، كما ارتدى جلد عجلين أبيضين حول خصره بعد أن علق فيـــه مجموعة من الأجراس الصغيرة ••

وربما كانت هذه الأمثلة كافية لتبين لنا كيف أن عادة اســـتخدام الأجراس فى الطقوس السحرية والدينية كانت تنتشر على نطاق واسع ؛ وكيف كان النـــاس يعتقدون فى كثير من بقاع الأرض بأثر صلصـــلة الأجراس فى طرد الشياطين • ويبدو من الأمثلة القليلة التى قدمتهـا آنفا ، أن بعض الشعوب كانت تعتقد فى بعض الأحيـــان أن صليل الأجراس ، لم يكن يهدف الى طرد الأرواح الشريرة بمقدار ما كان يهـــدف الى اجتذاب الأرواح الطيبة أو الحارسة • ولكن استخدام الآلات بقصد اجتذاب هذه الأرواح الطيبة أقل وضوحا فى الطقوس البدائية من استخدامها بقصد طرد الأرواح الشريرة • وربما كـــان استخدام الأجراس بقصد اجتذاب الأرواح الطيبة ، لا بقصد طـــرد الأرواح الشريرة ؛ يرتبط بمرحلة متقدمة من الوعى الدينى ؛ عندما تغلبت الثقة فى الخير على الخوف من الشر ، وعندما لم تعد القلوب التقية تنزع الى الهروب من الشيطان ، بقدر ما كانت ترغب فى الاقتراب من الله • وربما ســـاعد ما أشرنا اليه فى هـــذا الفصـــل من عادات ومعتقدات ؛ على استجلاء العادة اليهودية التى بدأنا الفصل بالحديث عنها ، بل وتفسيرها ؛ سواء اعتقد العبريون فى أن الكاهن الذى يخطو فـــوق عتبة المـــكان المقدس بردائه البنفسجى ، كان يقـــوم بطرد الشـــياطين أو يعمل على جذب انتباه الرب برنـــين الأجراس الذهبية وصليلها ••

تـــم بحمـــد الله




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محتويات الكتاب

الباب الثانى : عصر الأنبيـاء

صـفحة

الباب الثالث : عصر القضاة والملوك

الباب الرابع : القانون



رقم الإيداع ٢٩٩٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب